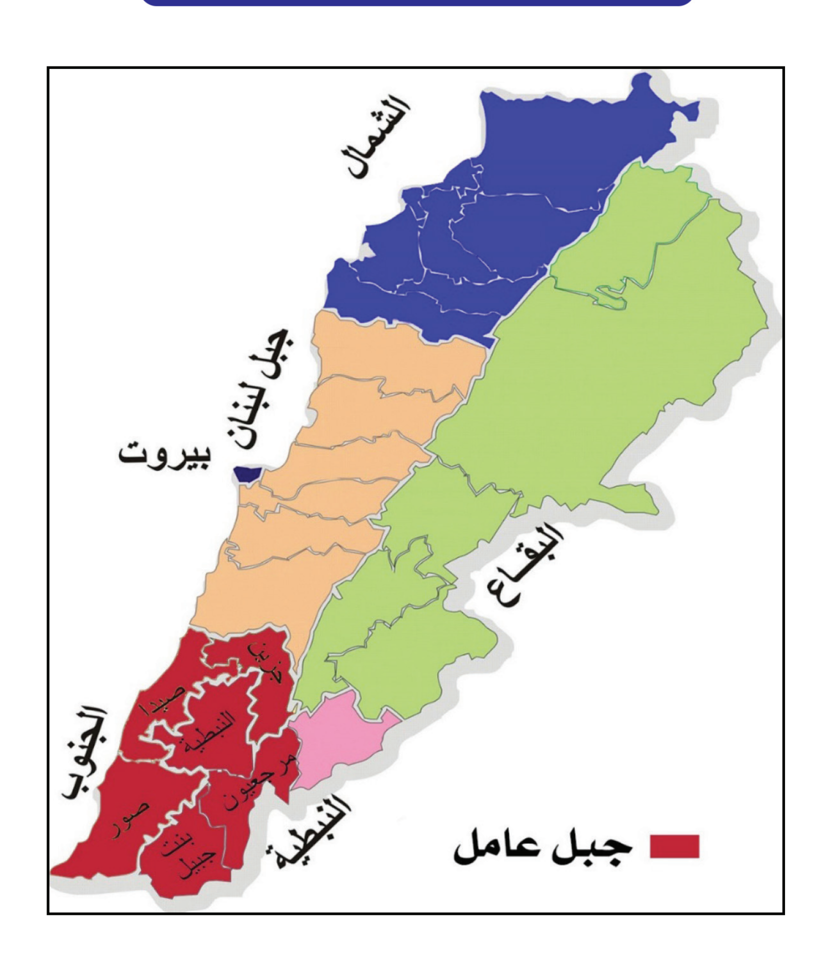




المؤتمر الجنوبي الثاني
جبل عامل: تاريخ وواقع

(أبحاث المؤتمر ووقائعه)



تقديم الكتاب

الثقافة عامل أساسي في نهضة المجتمع،وتقدمه. والشعوب الناجحة اليوم، في التقدم،العلمي، والتكنولوجي، هي شعوب مثقفة . لذلك فإن ثقافة المجتمع هى مجموعة القيم العامة والمشتركة بين أفراده ، وهى المميزة للهوية المجتمعية، والحضارة هى نتاج هذه الثقافة المادي ، إذ أن العلاقة بين الثقافة والحضارة هى علاقة خاصة، فلا تكون الحضارة إلا عن فكر وثقافة وقيم صانعيها، لذلك لا تجدي أية محاولة لإستيراد أو إدخال حضارة إلى ثقافة أخرى، حيث تغيب بيئة إستزراعها وإثمارها. لذلك كل مجتمع ينشد التقدم الحضاري لابد له أن ينشده من منطلق ثقافته الخاصة. والمجتمع اللبناني كباقى المجتمعات البشرية لا يمكن له أن يتقدم حضاريا إلا بالعودة إلى ثقافته، والناظر إلى التاريخ الإنسانى يجد أن كل أهل تقدم حضاري لابد أن تتوفر لديهم الأنفة الثقافية، أو الإعتزاز بثقافتهم، ورفض النظرة الدونية لها ، والثقة فى أنها قادرة على العطاء. وتغيب هذه الصفة عن المجتمعات المتأخرة حضارياً إذ أنهم لا يجدون فى أنفسهم إعتزازاً وثقة بثقافتهم بل يجدون دوماً ثقة فى ثقافات غيرهم ورغبة فى إستيراد نتاجها الحضاري.

وهكذا فإن لدى كل ثقافة إنسانية من المقومات المؤهلة لتقدم أهلها حضارياً، ولا يكون ذلك إلا لأهلها فقط.

بإعتبار ان ثقافتهم هي محدد مدى نهضة مجتمعهم ، وتقدمه من عدمه. و يظهر أثر ذلك في النفس والبيئة المحيطة من تفاعلات وتصرفات وأفكار وقناعات وعادات وغير ذلك.

الثقافة هي التي تبني المجتمع وتشكل صورته أمام المجتمعات الأخرى، إذا كانت هذه الثقافة ثقافة حضارية بناءة وساعدت على نهضته ، أما إذا كانت هادمة لا تهدف للتطوير حتى ولو بشكل بسيط فهي لن تفيده ولن تحركه سوى خطوات نحو التخلف .

وبما ان الثقافة تشمل مجموعة المعارف والآداب والعلوم والفنون و تُعنى في مختلف شؤون الحياة من الإلمام بجميع قضايا التاريخ المهمة ، والوصول إلى الدرجة العليا، والرقي في الأفكار النظرية ، من سياسة وقانون وغيرها من مجموعة الخبرات ، والتجارب العلمية ، والاجتماعية التي تُسيّر الفرد نحو غنى وازدهار فكريّ ، يقود عقله بين الثقافات المختلفة والتنسيق فيما بينها. وذلك من خلال صقله لمواهبه بالمعرفة، والعلوم، وممارسة التراثيات الأدبية والفنية والفكرية. كما تشمل مجموعة العادات والتقاليد والقيم التي يكتسبها الإنسان من المجتمع كونه عضواً فيه، وايضاً المظاهر الاجتماعية المُكتَسَبة من قِبَل الأفراد

الذيـن يبذلـون كل طاقتهـم للحفـاظ عـلى بقـاء هـذا النمـوذج واسـتمراريته وتطويـره. وفي هـذا المجـال يمكـن ان نميـز سـمات الثقافـة بأنهـا :

- إنسانية – مكتسبة – اجتماعية – تطورية ، تكاملية – استمرارية ، انتقالية ...

وهذه السمات تعطيها أهمية تتمثل في ما يلي :

- إنجاز وحدة متكاملة ومتجانسة بين أفراد المجتمع.
- إيجاد التقاطعات والميول والإهتمامات المشتركة بين أفراد المجتمع.
- تشكيل الطابع القومي والتراث الذي يُميّز أبناء المجتمع عن غيرهم من المجتمعات.
- تمكين الكيان الاجتماعي ودعم تماسكه.

وبإعتبـار ان الثقافـة ضروريـة لمواجهـة قهـر الحيـاة، وتحديـات العـصر ومشـاكله المختلفـة، وللمؤسسـات التعليميـة والاقتصاديـة والقانونيـة والسياسـية ...

مـن هنـا كان الاهتـمام لازمـاً بهـا ، ضروريـاً للحفـاظ عـلى مجتمـع قـوي متماسـك ، يرتكـز عـلى رصيـد معـرفي ، يطـال كافـة الميادين الادبيـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة والتربويـة والصحيـة والقانونيـة ... وهـذا الجهـد قامـت بـه هيئـة تكريـم العطـاء المميـز بالتعـاون مـع التجمـع الوطني للثقافـة والبيئـة والـتراث ومـن خـلال مؤتمـر شـاركت فيـه مجموعـة مـن الباحثـين الاكاديميـين، المشـهود لهـم بالبحـث العلمـي الموثَـق ، وسـاهموا في جمـع تـراث مجتمـع شـهد لـه التاريـخ بالاهمية والعلميـة المتطـورة ، انـه : جبـل عامـل .

وبإعتبـار أن ثقافـة الانسـان في جبـل عامـل نابعـة وصـادرة مـن الواقـع الحيـاتي المعـاش، وليـس مـن واقـع الشـعوب الاخـرى ، كان هـذا المؤتمـر المتخصـص والـذي عالـج الخصائـص الجغرافيـة والتاريخيـة والاجتماعيـة والتعليميـة والصحيـة و بمختلـف حيثياتهـا مـن خـلال العـرض والمناقشـة لطـرق واسـاليب المناحـي الثقافيـة .

وهـذا الكتـاب الـذي يجمـع بـين صفحاتـه ، بعضـاً مـن تـراث جبـل عامـل ، الـذي يتطلـب عديـداً مـن المؤتمـرات ويحتـاج الى مجلـدات لاحتوائـه وتوثيقـه ، يعتـبر نقطـة البدايـة في مـشروع علمـي وبحثـي كبـير، ورغـم ذلـك فإنـه يشـكل ثـروة اكاديميـة علميـة ادبيـة تاريخيـة جغرافيـة اقتصاديـة ... تسـتفيد منهـا الاجيـال القادمـة .

خلاصة القول

مؤتمر علمي = ثروة علمية

منسقية المؤتمر

النشيد الوطني اللبناني ، ونشيد هيئة تكريم العطاء المميّز



الفرقة الموسيقية لكشافة الجراح فوج كفررمان عزفت النشيد الوطني اللبناني

ونشيد هيئة تكريم العطاء المميز

الإفتتاح

تقديم الإفتتاح : الاستاذ علي توبة
رئيس رابطة المتقاعدين المدنيين في النبطية



في العـام المنـصرم وعـلى أثـر إرفضـاض المؤتمـر الجنـوبي الاول : «البيئـة و المجتمـع»، الـذي شـكل انعقـاده سـانحة علميـة وثقافيـة وتكريميـة بامتيـاز ، حيـث ضـم في حينـه النخـب المتعـددة مـن أهـل الاختصـاص ، لمعالجـة موضـوع وطنـي وأزمـة بيئيـة كارثيـة ، ومـا زلنـا نـرزح تحـت وطأتهـا حتـى السـاعة ...

لم نكـد نلتقـط الانفـاس جـراء الانتهـاء مـن طباعـة وتوزيـع الكتـاب الـذي تضمـن الوثائـق والتوصيـات: وهـا هـي اللجـان و الامانـات والفـرق تعـود مـن جديـد ، لتنتظـم في ورش عمـل ناشـطة اسـتعداداً لتنفيـذ القـرار الجـريء القـاضي بالاعـلان عـن موعـد الدعـوة لانعقـاد المؤتمـر الجنـوبي الثـاني بعنـوان : جبـل عامـل : تاريـخ وواقـع .

وهكـذا كانـت العـودة المظفـرة الى «قـصر الملـوك» او قـل الى قـصر «المؤتمـرات» بتوجيـه ورعايـة مـن خبيريـن متمرسـين، لا يـكلان ولا يمـلان ، فيصـلان النهـار بالليـل ، حيـث كان الثامـن و العـشرون مـن أيلـول موعـداً لـولادة جديـدة لمؤتمـر عتيـد، حيـث كلَ شيء قـد اعـد بإتقـان ، وكأننـا في عـرس ثقـافي مميـز ، حيـث المداخـل والقاعـة الكـبرى قـد ازدانـت باللافتـات المعـبرة ، وتجلـت بأبهـى حللهـا ترتيبـاً وتنسـيقاً، وشـكلت مشـهداً جميـلاً ينبـىء بالنجـاح الباهـر... وهكـذا بعـد ان توزعـت المهـام والادوار ، دقـت سـاعة الافتتـاح رغـم تأخـر قـسري ، حيـث كان لي شرف القيـام بمهمـة التعريـف والتقديـم لفقـرات تلـك الجلسـة التـي تضمنـت الابتـداء بالنشـيد الوطنـي اللبنـاني الـذي عزفتـه الفرقـة الموسـيقية لكشـافة الجـراح – فـوج كفررمـان ، تـلاه تسـجيل لنشـيد هيئـة تكريـم العطـاء المميـز . كـما تضمنـت الجلسـة كلمتـين مركزيتـين لرئيـسي الهيئتـين الداعيتـين ، وتحيتـين مـن شـاعرين صديقـين . وهـا أنـذا اثبـت فيـما يـلي وقائـع

كلماتي في التعريف و التقديم:

أصحاب المعالي والسعادة والسيادة ... المرجعيات الروحية والسياسية والامنية والاغترابية والاقتصادية والثقافية والادارية والقضائية والصحية والتربوية والاعلامية و الكشفية ...

معشر الادباء والشعراء والكتاب و الاساتذة والعمداء الجامعيين والباحثين والفنانين ...

رؤساء واعضاء المجالس البلدية والاختيارية - رؤساء واعضاء الاتحادات والهيئات والنقابات والروابط والاندية والجمعيات...

رئيس واعضاء التجمع الوطني للثقافة والبيئة والتراث – رئيس واعضاء هيئة تكريم العطاء المميز .

ايها الكرام جميعاً ، طابت ايامكم و السلام عليكم .

ها هي الوفود قد تقاطرت من شتى جهات الوطن ، لتحط بها الرحال في رحاب هذا الصرح السياحي الرابض في جوار النبطية ، حاضرة جبل عامل ، ومدينة العلماء والشهداء .

ها قد حان الاوان كي نتابع معاً جلسات هذا المؤتمر الجنوبي الثاني بعنوانه المعلن : جبل عامل : «تاريخ وواقع»، حيث سيماط اللثام عن المزيد من كنوز المعارف الدفينة في هذا المنجم التاريخي العاملي ، وما سوف تجود به قرائح الباحثين من إضافات جديدة ومضيئة الى ذلك المخزون الثقافي والحضاري ...

أيها الشرفاء

في صبيحة هذه الجلسة الافتتاحية يطيب لنا ان نستمع الى حديث الرجل الانسان، الذي لم يتردد قط ، واينما حل وارتحل ، في البوح عن إنحيازه وتقديره لهذه المنطقة الجنوبية المجاهدة والمعطاءة ...

لقد عرفناه ناشطاً ثقافياً يجوب أرجاء الوطن مكرِّماً و مكرَماً، وهو اليوم شريك في هذا المؤتمر الجنوبي، الذي يوثق ثقافة جبل عامل، الذي جاء انبثاقه إثر جلسات طال أمدها ولقاءات تنسيقية متعددة بين رئيس وأعضاء كل من التجمع الوطني للثقافة والبيئة والتراث، ورئيس واعضاء هيئة تكريم العطاء المميز ...

إنه الرئيس الاستاذ المهندس انطوان ابو جودة.

كلمة رئيس التجمع الوطني للثقافة و البيئة والتراث
المهندس إنطوان أبو جودة



الحضور الكرام ، اصحاب المقامات...

انني أقف بينكم وفي قلبي ووجداني احساس يسامرني بقداسة هذه الارض التي شربت من دماء الشهداء الذين يدافعون عن التراب والارض و الكرامة، هذه الارض التي يحرسها شعب لا يعرف الهزيمة ولا الاستسلام ، شعب تنوعت طوائفه فاتحدت قلوبهم و افكارهم وكرامتهم التي يشحدون بها الهمم والتصميم على البقاء ...

انا هنا بينكم بمن امثل ، وأقصد التجمع الوطني للثقافة والبيئة والتراث، بعد المبادرة الكريمة من هيئة تكريم العطاء المميز ، للسعي ومن خلال التشبيك معنا لتوثيق حالة شاملة ، لمنطقة عزيزة على كل اللبنانين ، شهد لها التاريخ بالنضال الثقافي والادبي والفكري والمعرفي والعلمي والسياسي و في النضال المقاوم لكل الاحتلالات عبر التاريخ . هذه المبادرة تسعى الى جمع تراث جبل عامل على امل التعاون المستقبلي لجمع تراث كافة المناطق اللبنانية، وهي تتماثل بالمجد المعرفي في الادب والشعر والعلوم والاجتماع والسياسة وإلخ...

الإخوة الكرام

البنية الاجتماعية في لبنان هي بنية فريدة في العالم بما لها من ميزات مثالية في الاخاء والمحبة ،و التعاون وبما تنطوي عليه من قيم وعادات فريدة تمثل نموذجاً في التعايش . وهنا تحضرني النقوش التي كتبت على صخور نهر الكلب والتي تدل على سبعة عشرة

دولـة غازيـة ارغمهـا المقاومـون اللبنانيـون عـلى المغـادرة والهـروب . وكذلـك حصـل في جبـل عامـل مـع العـدو الاسرائيـلي الـذي فـر جنـوده مهرولـين يبكـون المـاً امـام ضربـات المقاومـين اللبنانيـين الـذي يتمثـل كل منهـم بـما حـدث مـع الفـلاح الـروسي ونابليـون . حيـث أنـه:

بعـد ان أكمـل (نابليـون) سـيطرته عـلى أوروبـا قـرر غـزو روسـيا .. وكان نابليـون عندمـا يمـر في طريقـه في المـدن الأوروبيـة وقراهـا متوجهـاً نحـو روسـيا كان النـاس يخرجـون مـن بيوتهـم لمشـاهدة موكـب نابليـون المهيـب ..

وعنـد دخولـه أطـراف الأراضي الروسـية شـاهد فلاحـاً روسـياً منحنيـاً وبيـده منجلـه يحـرث أرضـه بنشـاط لايعـرف الملـل والكلـل .. ولم يعـر موكـب نابليـون إنتباهـاً ..

فقـال نابليـون لحراسـه وقادتـه : ألاتـرون هـذا الفـلاح الـروسي الحقـير لم ينظـر إلى موكبـي وبنـات أوروبـا يخرجـن مـن غـرف نومهـن شـوقاً وشـجناً لمـروري أمـام منازلهـن ؟

فأوقف نابليون الموكب وأمر بإحضار الفلاح .. فأتوا به مكبّلاً

فقال نابليون : لماذا لم توقف الحراثه وتنظر إلى موكبي ..؟

أجاب الفلاح : انا مالي ومال موكبك فأرضي أولى بإهتمامي ..

فقال نابليون : ألا تعرف من أنا ؟

فقال الفلاح لايهمني أن أعرف من أنت ؟

فقال نابليون : عليك أن تعرف: أنا نابليون الذي سأحتل بلدك ..

أجابه الفلاح أنت غازي حقير وأحقر من أن تحتل بلدي ..

فقال نابليون .. يجب أن تحمل إسمي معك دائماً لكي تذكرني في كل وقت ..

وقـال لجنـوده : أكتبـوا إسـمي عـلى سـاعده فأحمـوا سـيخاً مـن الحديـد و كتبـوا إسـم نابليـون عـلى يـده ليكـون وشـماً لا يسـتطيع نزعـه ..

فـما كان مـن الفـلاح الـروسي إلا ان قـام برفـع منجلـه وضرب يـده فبترهـا ورمـى بهـا نابليـون وسـط ذهـول جنـوده وضباطـه ، قائـلا :

خذ إسمك معك فعار عليَ أن أحمل إسم غازي حقير مثلك ..

فنظر (نابليون) إلى من حوله .. وقال كلمته المشهورة :(من هنا تبدأ الهزيمة) فكانت بالفعل هزيمته النكراء من روسيا ..وهكذا كل مقاوم لبناني وعاملي هو ذاك الفلاح الروسي .

واينما كان المواطن اللبناني ومتى ماكان يحب أرضه وبلده .. فهو بذلك يزرع النصر سنابل خضراء .. ولايقبل الهزائم ..

ايها السادة

في لبنان البنية الاجتماعية يجب ان تدرس لانها تمثل النخوة والغيرة والتعاون وحب الآخر، تمثل المشاركة بين اللبنانيين في الافراح والاتراح وفي كل المناسبات. وجبل عامل هو نموذج عن هذه البنية التي تصونت بالتضحيات ، وازهرت بالانتصارات ... فأنبتت العلماء من حسن كامل الصباح ورمال رمال وغيرهما كثر ، وتزينت بالشعراء والادباء والباحثين والمفكرين عبر تاريخ مليء برجالات المعرفة في كل ميادين العلوم الانسانية والاجتماعية ، وبقيت صلبة ، عاصية على المحتلين بعزم مقاوميه امتداداً من ناصيف النصار وادهم خنجر وصادق حمزة وصولاً الى المقاومين البواسل في عصرنا الحاضر .

هذا التوثيق اتمنى ان يكون شاملاً عن التاريخ والحالة الراهنة التي تتميز بالإباء وعزة النفس والكرامة ، واتمنى على كل المحاضرين الذين هم على مستوى عال من الخبرة والمعرفة والاختصاص ان يعطوا هذه المنطقة حقها من التراث الذي تميزت به .

واخيراً ليبق الجميع منضوين تحت علم لبنان يتمتعون بالنخوة اللبنانية ، ولتبق المحبة رسالتنا المحمولة الى الاجيال .

عشتم وعاش لبنان

إنـه الربـان الرابـع الـذي يتـولى إدارة دفتيهـا ... وإنهـا هيئـة تكريـم العطـاء المميـز التـي مـا زالـت تحتفـظ بالسـجل الذهبـي لإنجازاتهـا النوعيـة في ميادـن التكريـم ...

ولأن المسـؤولية متابعـة و اسـتمرار ، لقـد حظيـت هيئتنـا بضابـط ايقـاع لم يـتردد في إتخـاذ القـرار المدعـوم بالإجمـاع ، لم ينتظـر ، بـل سـارع الى الانخـراط في الإعـداد المحكـم و السـعي الجـاد... لقـد أبـدع وابتكـر ، معتمـداً عـلى الشـورى ، لـه قصـب السـبق في تحقيـق نقلـة نوعيـة ، غايتهـا تحديـث اسـاليب التكريـم والارتقـاء بأهدافـه ...

لـه بـاع في إعـداد وإنجـاح المؤتمـر الجنـوبي الاول وغـيره مـن مؤتمـرات سـابقة (6مؤتمـرات)، وهـا هـو يعيـد الكـرَة عـبر فـرق العمـل ولجانـه المتفرعـة ... إنـه رئيـس هيئـة تكريـم العطـاء المميـز الاسـتاذ الجامعـي الدكتـور كاظـم نـور الديـن مرحبـاً ومتحدثـاً (الاسـتاذ عـلي توبـة).

كلمة رئيس هيئة تكريم العطاء المميز د. كاظم نورالدين



بسم الله الرحمن الرحيم

هوعام يمـر ، يتلـــوه عـام	وحضور الجنوب فينا مقـــام
نجتليه بكل ما فيـه يغـنـي	فهـو للـمجد واحـة وسـلام
كل عام يجـيء نبصـــر فيـه	مهرجاناً يطـيب فيه الكـــلام
بحضور مـشـرَّف وجميــل	ومكان من سمته الاحـــترام
تتجلى الآداب فيه ويسمــو	كــل عـلـم يـعـزه أعـــلام
مرَّ عام وهـا نحـن جـئـنـا	والامـانـي تـحـثـنا والوئـام

احباؤنـا : مـن الشـمال والبقـاع وجبـل لبنـان وبـيروت ، ومـن الجنـوب كل الجنـوب لبـوا نـداء العلـم و المعرفـة رغـم معانـاة الانتقـال . فأهـلاً وسـهلاً بكـم تحتضنـون هـذا المؤتمـر العلمـي القيّـم .

تبـزغ القامـات الشـامخة، والوجـوه النـيّرة ، ورجـال الفكـر والادب والعلـم والتاريـخ والجغرافيـا والشـعر ، يفتخـر بكـم الوطـن بشـكل عـام ، والجنـوب (جبـل عامـل) بشـكل خـاص. تعيشـون مع جنوبنـا الحبيـب في كل الميادين ، كاشـفين مـن مدخراتنـا الادبيـة والفكريـة التـي أغنـت الوطـن والمجتمـع الانسـاني.

هـا هـي عقـارب هـذا المؤتمـر التاريخي تـدق لنعيـش يومـين مـن أغنـى الايـام ، مـع رجـال مـن المـع الرجـال وسـيدات عالمـات مترعـات بالمعـارف في جميـع المجـالات .

انها هي أهدافنا وغاياتنا أن نكشف من كنوز هذه البقعة الغالية من وطننا لبنان، ونطلع على نتاجات علمائنا وادبائنا واسهاماتهم الغنية في خدمة الوطن والحياة ، وفي أيدي الاجيال القادمة التي نضيء أمامها مصابيح الادب والفكر والحقيقة .

يأخذ جبل عامل في هذا المؤتمر لغته وثقافته الرائدة ، ونضاله المستميت في سبيل الحرية والحياة ، على أمل أن تكون محطات أخرى ، ولغير مكان في لبنان ، لتكتمل الفائدة ويعم العمل ، فنقدم عندئذ للبنان صورته النقية ووجهه الحضاري .

ايها السادة المشاركون و الضيوف الكرام ، إن عملنا هذا الذي دأبنا عليه ، ما هو الا عمل متواضع نقدمه لجبلنا الاشم تاريخاً وحضارة ، ولوطننا العزيز حاثين جميع المثقفين في كل مكان من الوطن على القيام برصد حضارة وتاريخ مناطقهم وتقديمها للاجيال القادمة ، لتكون على بينة مما هم عليه آباؤهم وأجدادهم الماضون ، ومدى عراقة وغنى هذا الوطن الذي نستحقه عندما نكون اليه ومعه وفيه مواطنين صالحين مناضلين ، له علينا الكثير ليستطيع أن يقدم لنا الكثير كذلك .

ايها السيدات والسادة

من يمتلك المعرفة يمتلك القرار ، وخاصة أنها تنوعت ، فطالت جميع الميادين و العلوم، ونبتت حتى في الارياف والنائية منها . ومن هنا كانت فكرة التخطيط لمؤتمر يوثّق كافة المعارف في مجتمع ما ، بهدف تأمين الفائدة للاكاديميين و للاجيال اللاحقة .

ماذا يعني المؤتمر ؟ ولمن يوجه ؟ وما هي اهدافه؟

المُؤْتَمَر هو تجمع ثقافي تحت عنوان أو موضوع محدد ، يُدعى إليه المتخصصون في مجال ما ، ويُقدّمون أبحاثاً وأوراقَ عمل ، تعالج قضية ما من قضايا المؤتمر.

عادة ما تُنظِمُ المؤتمرَ مؤسسة تعليمية كالجامعات أو مراكز البحوث والجمعيات والمؤسسات الاقتصادية ...، وعادة ما يَمتد لأيام يَتمُ خلالها عرض الأبحاث وأوراق العمل ومنا قشتها . ثم تختتم فعالية المؤتمر باصدار التوصيات الختامية، وهي النتائج التي يَتوصّل إليها المؤتمرون من خلال أبحاثهم وأوراق العمل التي قدموها ، وعادة ما تكون تلك التوصيات عبارة عن عناصر محددة تعد خلاصة لأبحاث المؤتمر وأوراق العمل التي قدمت فيه، وغالباً ما تكون التوصيات في صميم موضوعاته.

من هنا كانت فكرة هيئة تكريم العطاء المميز ، و التجمع الوطني للثقافة و التراث والبيئة في تنظيم مؤتمر مشترك تجمع من خلاله ثقافة وتراث جبل عامل . فالتجمع يسعى

الى القـاء الضـوء عـلى الثقافـة ، وهيئـة التكريـم تسـعى الى تكريـم مجتمـع عامـل ، فجـاء المؤتمـر ليكـون تكريـماً لجبـل عامـل بجمـع جـزء مـن ثقافتـه الرياديـة وتراثـه الممتـد في كافـة الميادين الفكريـة و العلميـة و الادبيـة والتعليميـة التربويـة و الصحيـة ...وسـيتم اصـدار كافـة الابحـاث التـي انجـزت بجهـد و نشـاط مجموعـة مـن الباحثـين الاكاديميـين المتخصصـين في كتـاب ، بحيث يمكننـا ان نصـل الى المعادلـة التاليـة :

مؤتمر علمي، ادبي ، فكري ، تربوي ، اقتصادي ... = ثروة معرفية

والكتاب الموثَق لهذا المؤتمر = مكتبة علمية ، فكرية ، ادبية ، تربوية ، اقتصادية ...

و أخيراً

أضع الآن نسيج المؤتمر

بين أيديكم سلاف وثمر

حقق الله الاماني كلها

بتفانيكم سيخضَر الزهر

قد نسجتم بالمآقي نوره

وكتبتم من قلوب وفكر

أن لبنان غني طالما

انتم الفرسان إن دقَ الخطر

تحيتان للمؤتمر الجنوبي الثاني ولجبل عامل

التحيـة الاولى لهـذا المؤتمـر وللمشـاركين في ادارتـه واعمالـه يرفعهـا الشـاعر العـربي الاصيـل ، الـذي عشـق قضايـا امتـه الوطنيـة و القوميـة ، فأفـرد لهـا القصائـد الطـوال ، والقـى معظمهـا في اكثـر مـن مناسـبة ومهرجـان ...

لـه خمسـة دواويـن ومؤلفـات متعـددة . كـرَم في اكثـر من عاصمـة عربيـة ، وفي بـلاد الاغتراب. إنـه الصديـق الـودود الدكتـور والقـاضي الشـاعر « مـارد الاقليـم» محمد توفيـق صادق.

الأستاذ علي توبه

قصيدة الشاعر الدكتور محمد توفيق صادق



هنا الجبل العاملي

منبتُ علم وعلماء

دوحة شعر وشعراء

واحة إيمان ومؤمنين

مدرسة وطنية

لبنانية عربية في الحب والإخاء

على شريعة أحمد والمسيح عليهما السلام

عرين أبطال وفدائيين ومقاومين

هو جنوب القلب اللبناني

لكنّ شمسه تشرق من أربع جهات

«سقط الكلام»

سقطَ الكــلامُ جــوادهُ تعِـبُ   وتسمَّرتْ في الـمنبر الخُطَـبُ
فالسـمْعُ ملَّ القولَ ضـاق بهِ   وصدى المعارك فيه يصْطخِبُ
والصـوتُ لم يرتجَّ في وتـرٍ   شُلَّ اللسانُ وخـانه العصَـبُ
ما عادت الكلمـاتُ مطـربةً   فمن الرصاص يلعلع الطـربُ

....

والحـرف لم ينسـلَّ في قلـمٍ   والنار يسكب جمرها الغضب
خجـل الـمـدادُ وما اتى ورقاً   ويراعه في السـاح يختـضبُ
خجل المداد وقـال معتـذراً   بدم الشهـادةِ يُكتـبُ الأدبُ

....

صلّى الرجال وكبّروا وسـروا   وفمُ الدجى ذئـبٌ ومغتصبُ
لَغَموا عُبابَ الصدر فانفجرت   حمماً شظايا اللحم تلتهِـبُ
وتفقّهوا بالـموت فانكشـفت   في علمه الأسـرار والحُجُـبُ
ما أفتك السـرطان في أُمـمٍ   ما دام في سـلطانها العَطَـبُ
والحق سيفه ذو الفـقـار رنا   ودنا ودِينَ الشـك والرِيـبُ
فهنا المقاوم سـيفه دمـه   وهناك سيف الخائن الهـرب

....

آخيت احفاد الحسين دمـاً   ودم الشـهادة عندهم لَقَـبُ
وأتيت فرساناً وأهـلَ حمـىً   شمَّ الجبـاهِ خيولهـمْ نُجُـبُ
ورأيتُ أمـي أيَّـةَ امـرأةٍ   بانـت ولي أيُّ الرجـال أبُ
ووقفت أهـزج في مرابعهـم   وأفاخـر الدنيا بـها وُهـبـوا
العامليـون التقى ورعـاً   نرقى بـه وإليـه ننتسـبُ
الصائغـون كنوزَ معرفـةٍ   ما الماس؟ ما المرجان؟ ماالذهب؟
الـملهمـون نبيّـهم غـزلاً   موسى شـعيب وزين والنخبُ

....

هُو ذا الجنوب: إباءً عُلىً وهدىً   في وجنتيه الشمس تعتصب
قرعوا رؤوس الجهل قرع قنا   وتحطّم الصخرُ الذي ضَربوا
وأتوا تراهم وعد موسمنا   برْقاً تلاه الرعد والسُحُب
فحنوا على أحلامنا مطراً   وعيونهم دانت لها الشُهب
فتصدع الطاغوت خشيتهم   ورأيته يهوى وينقلب

....

قل للألى علماؤنا صدقوا   في منهج الإيمان ما اغتربوا
أدّوا الامانة وانتشوا قبساً   وإن أعتصمْت بحبلهم وثبوا
هيهات منّا ذلةٌ وخنىً   وسيوفنا في حدها العجبُ

....

يا أمتي طال السهاد بنا   فلم العيون يميتها الهُدُبُ
هجر الزمان مكاننا ومضى   وجفا التراب النهلُ العذِبُ
فطرقتُ باب الدهرِ أسأله   ما العمرُ؟ ما التاريخُ؟ ما الحقبُ؟
ودخلت في شغفٍ أبراج مملكتي   سُلطانُها الأقلامُ والكتبُ
هنا سيرٌ هنا عبرٌ   وهنا لكل نتيجةٍ سببُ
وقرأتُ فصل المجد هدهدني   زمنٌ عليه تربع العربُ
بزغت على الدنيا كواكبهم   يوم اهتدوا وتطلبوا فأبوا
وتعاظمت في شأنهم قيمُ   واستشرف التاريخ والنسبُ
فاستعرب الشرق الغني بنا   والغربُ مكراً جاء يقتربُ

......

سلكوا طريق الحق واعتنقوا   ما سنّ أحمد واقتدى الصحبُ
وتجللوا في حضن فاطمةً   وندى طهارة مريمٍ شربوا
وبدا المسيحُ سلام أمتنا   والمصطفى في العدلِ ينسكبُ
فالأرز يشمخُ في الربى علماً   والنخل في الصحراء ينتصبُ
فالأمة العظمى يعمدها   صُعْد العلى والأزمن الصُعُبُ
والأمة العظمى يمجدها   الفتح والرّايات والغلبُ
هلاّ الزمان الآن نحمله   قلماً برته الأسيف القُضُبُ

ومسك الختام ، التحية الثانية الصادقة الى المؤتمر الجنوبي الثاني والمشاركين في ادارته وأعماله، ومجتمع جبل عامل فهي من الشاعر الزجلي الارتجالي الذي نبغ في هذا المضمار مذ كان في عامه الرابع عشر . لقد ألَّف فرقة «نسور الزجل» مع الشاعر الخال المرحوم زين شعيب .

جال في معظم انحاء العالم ، حاملاً رسالة الزجل اللبناني ... له دواوين ثلاثة ، وكتب شتى ، وهوحالياً رئيس «لجوقة الليالي» . إنه الشاعر الاستاذ عادل خداج.

قصيدة الشاعر عادل خدّاج



بقول الحقيقة ما اعتدت جامـل — وعا كل كلمـة عيونكـم دلــو

التاريخ يا كــــذّاب يا هامـل — أشـمخ جبال بجبال اللي تعلــو

ع جنوبنا الــمقــدام متحامـلْ — وساعدت يللي أرضــنا احتلــو

ناسي البيـارق نصــرنا حامـل — المقاومة بالمجـد رايتــها تعلـو

ناسي عطا الفـــلّاح والعامـلْ — التربة بعرقهــم بالشــــرف بلـو

وصادق الحمزة وأدهم الحامِـل — سيف الكرامي ال عل عـدا سلـو

وعبد الحسين الـمرجع الكامـلْ — رمز الوعي والطهــــر عـا حلَـو

ونسيت نور الموهبة بكامــــل — الصباح والمـصبــاح اللي بجلَــو

****

الكلمــة لها عالعمـــر قيمتـها — لما بنــــوزنهـا بوزنتـــــــهـا

ومش كل كلمة بتلفت الأنظار — الا حسب مضمون غايتــــــهـا

بهالعصر للكلمة خلق تجـــار — تيشلحوها تياب عفتــــــــهـا

كلمــــة بتتسعر على الـدولار — وكلمـــــة بتتباهى بعـمــالتـهـا

وكلمة صنيعة حبر استعـمــار — وكلمة شغل صهيـــون فتنتـهـا

وكلمة شريفة ما بترضى العار — بمقاومة وقفت بساحتها

مع شعبنا ومع جيشنا المغوار — بكلمة شرف تتصون أمتها

وحتى الكرامي ترافق الشعّار — كلما منجي نحكي بجبل عامل

بتحسْ كلمتنا بكرامتها

****

والعالم الرّمال كان أمل — أزهار علمو بموطني يغلَو

بنعرف جبل عامل مجد شامل — كل القضايا ال حولنا تجلَو

ولو ما فدا الثورة بجبل عامل — كل الجبال تزلزلو بها الكون

وما في جبل موجود بمحلو

****

الشعر المقاوم يا حلم حلمي — وكلمة تغني للفدا وتنحم

وأفكار تحكي بنهجها العلمي — وأجمل قوافي تغوص يم اليَم

ياجنوب جينا بجونا السلمي — وعرس النصر حولو الشعب ملتم

وبالحبر مهما نكتب الكلمي — بتوقف برهبي بتخشع الكلمات

قدام كاتب نصرنا بالدم

****

وعيتا وعي فيك صهيل الخيلْ — ومارون يا قمي على القمي

ولخيام جبتي للأعادي الويل — ووادي الحجير اشلائهم لمي

وبالنبطية المجد ميل وميل — قانا الجنوب ضياع منحم

وانت يا أشرف بنت مجدك سيل — اسمك شمس من دون ما سمي

ما حبة تراب إلْ ببنت جبيلْ — أشرف من الدرة ال على تيجان

حكّام جابو العار للأمة

****

ولبنـــان يا جنّـــي طبيعيـــة ذبحـــوك بالكـــذب السياسيي

معروف أوقف مع علي وسمعان وشـــوف الحقيقـة متل ما هيي

ما في عـــدو إلنا بأرض لبنـــان الا الغـــزاة الاســـرائيليـي

وما في مرض بهـدَم الأوطـــان الا التعصـــب والانانـيـــي

وإنْ كان بدكن هالوطن ينصـان مفروض فيـــنا نوقـــف سويي

وقفة كرامة بساحة الـميـــدان بمقاومتنا وجيشنا و الشـــعب

إسلام ودروز ومسيحية

****

من النباطية هون بنادي بصوت الصدق عا دوحة بلادي

يا مقاومي انت فعل سياد عاشو بكتاب الـمجـــد زواد

مالسيد موسى الصدر صرحك شاد وبعدو النبيه القـــائد الهـادي

وبالسيد عباس إغتنو الأمجاد وبالشيخ راغب للفـدا بـــادي

ويا صانع النصرين مجدك زاد ويا حاج عماد بأصدق شـــهادي

وصلو معي وزيدو صلا الإنشاد القائد بطل عملاق مش عـــادي

مارد حسيني بكلمتو ابعادْ مبارك من الهادي ومن الفـــادي

صاحب عقيدي بالذكا وقّادْ بتهتـــز امريكا واســـرائيل

كل ما حكي السيد أبو هادي

خــير الختــام لجلســة الافتتــاح تقديــم درعــين تكريميــين للشــاعرين المذكوريــن مــن قبــل الاســتاذ ابــو جــودة والدكتــور نورالديــن



الاستاذ انطوان ابو جودة ، الشاعر د. محمد توفيق صادق ، الشاعر عادل خدَاج ، د. كاظم نور الدين

المحور الأول :
الثقافة و المجتمع



تعريف المحور: أ. غدير حوماني



تتلازم الثقافة والمجتمع في آن معا، فهما يتكاملان في سبيل تحقيق الوحدة الثقافيّة للفرد، والتي تسمح له بالتجانس مع أبناء مجتمعه، ضمن الكل الديناميكي المعقد، والموسوم بالمعارف والعلوم والفنون والعادات والتقاليد والقوانين والسلوك. وبما أن الثقافة لا تنشأ من العدم، فهي بتنوعها تعتبر مصدر كل تقدم ورقي وتحضر باعتبارها ترسم خطوط الانتاج الفكري والثقافي الذي يساهم بدوره في تطور النظم التي تحددها المجتمعات لتطورها ومواكبتها للإزدهار العالمي.

في هذا المجال، من أولى من رجل العلم والمعرفة الذي أوكل اليه توجيه وترشيد ومتابعة الأجيال الطالبة للعلم في الدراسات العليا، أن يدير جلسة المحور الأول لمؤتمرنا، ويلقي الضوء على موضوعه الاساسي: «الثقافة والمجتمع»،وذلك مع نخبة من الأكاديميين.

عنيت به الأستاذ الدكتور محمد محسن عميد المعهد العالي للدكتوراة في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. والذي اسمح لنفسي أن أقول فيه:

كتب المجد اليه ذات يوم   انت شمس وانا منك الهلال

كلمة رئيس الجلسة



عميد المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الانسانية و الاجتماعية : أ . د . محمد محسن

هي همزة الوصل بين واقع الحياة و البحث العلمي ، و هي الحلقة الأوسع التي تحتوي على كل جوانب و عناصر و مجالات الحياة الانسانية و الثقافية ، للكشف عن خصائص وممارسات الثقافة في تجليات الحياة للافراد و الجماعات. تحليلا للسلوك الانساني من زوايا مختلفة بالتركيز على المعاني التي يولدها، و قراءة لشبكة العلاقات التي بنتها في الزمان و المكان، و حنايا الشوارع و المنازل، و في الاثار و الفنون و العادات و التقاليد و الظاهرة التواصلية ...

فنحن لا يمكننا معرفة الاشياء ، بدون النظر إلى موقعها في شبكة العلاقات المتشعبة . وهذا يتطلب رصدا علميا لخريطة الارتباطات و السياقات و الخطابات ذات المعنى. هي تلك الممارسات التي تعبر بشكل جلي عن حقيقة الهوية و ذلك البناء الاجتماعي الوطيد بمختلف مستوياته...

الثقافة ؛ مجموعة من العقائد و القيم و القواعد التي يقبلها و يمارسها الافراد، و المعاني والمعارف التي يفهمونها ، مربوطة بإحكام بواسطة نظم مشتركة .

و مهمة الدراسات تأتي :

لنفهم : كيف حدثت هذه الظاهرة الثقافية ؟ و بأي اسباب تاثرت ؟ و في أي شروط عاشت و ترعرعت ؟

لذلك قد ندرس الثقافة اجتماعياً بوصف موضوعي لمؤسساتها و وظائفها .

وقد ندرسها اقتصادياً بوصف آثار الاستثمار و الاحتياجات على بنيتها .

وقد ندرسها من جهة خطاباتها و ظواهرها الاتصالية أو من جهة العادات و التقاليد واللغة و الفنون و الإعلام ...

فعن الثقافة و مفاهيمها ، و عنها كبعد سوسيولوجي مؤثرة و متاثرة اجتماعياً، و عن التفاعل الثقافي و تجلياته في جبل عامل ، نفتتح هذا المؤتمر بالمحور الأول بعنوان: الثقافة و المجتمع .

مفاهيم الثقافة منهجيّة للفهم وقراءة للهويّة



د. عماد سيف الدين

المقدمة .

أولاً : الثقافة وذاكرة المصطلح

أ) مفهوم الثقافة .

ب) مفاهيم مرتبطة بالثقافة .

ثانياً : الثقافة ومنهجية دراستها

أ) دراسة الثقافة .

ب) من النقد الأدبي إلى الثقافة كنص .

ثالثاً : الثقافة والهيمنة

أ) الثقافة وأنماط الهيمنة .

ب) الحداثة كثقافة مهيمنة .

ج) بين المركزية الثقافية والتعددية الثقافية .

رابعاً : أيقونات الثقافة في جبل عامل

أ) منهجية الدراسة الثقافية لجبل عامل .

ب) أيقونات جبل عامل .

الخاتمة .

قائمة المصادر والمراجع .

المقدمة

في كل مجتمع نوعـان مـن الثقافـة : ثقافـة عليـا، او ثقافـة نخبـة، تتكـون بطـرق واعيـة تعـبر عـن بنـى عميقـة ، و ثقافـة جماهيريـة او شـعبية تتكـون بطـرق لا واعيـة يتشربهـا ابنـاء المجتمـع و يتنفسـونها كالهـواء ، حيـث يصعـب اختراقهـا مـن الثقافـات الأخـرى بسـبب الـوازع القـوي الـذي تسـببه الرقابـة الاجتماعيـة المشـددة .

لقـد طرحـت نظريـة الهويـة الاجتماعيـة مسـألتين اثنتـين عـلى مستوى دراسـة الثقافـة: مسـألة العلاقـات بـين الجماعـات و تحليـل الصراعـات التـي أُطلـق عليهـا اسـم نظريـة العلاقـات بـين الجماعـات Intergroup theory ، و مسـألة التغيـير الاجتماعـي Social change كنظريـة متكاملـة حـول حاجـة الأفـراد الى التمييـز الايجـابي لجماعتهـم الداخليـة بمقارنتهـا بالجماعـات الخارجيـة لتحقيـق الهويـة الاجتماعيـة الايجابيـة .

و لكـن مـع نظريـة تصنيـف الـذات Self-categorization theory تحولـت الدراسـات الثقافيـة مـن الاهتـمام بالعلاقـات بـين الجماعـات و التغييرالإجتماعـي، الى دراسـة العمليـات الأساسـية للجماعـة و الطبيعـة السـيكولوجية لعضويـة الافـراد فيهـا التـي تتمثـل بالأسـس الإجتماعيـة و المعرفيـة لهـذه العضويـة .

و التفكـير في ثقافتنـا يعنـي قـراءة لمكوناتهـا ، كخارطـة مفاهيميـة و فكريـة و دوائـر تأثـير حقيقيـة لفهـم المنظومـة المعقـدة التـي تنسـج الاتجاهـات. رمـوز معقـدة بحاجـة الى تفكيـك مـن أجـل فهـم أفضـل و محـاكاة للاسـتبصار و التنويـر، بـدلا مـن الوقـوف عنـد عتبـات الانتظـار. ومحاولـة للفهـم و القـراءة المتبـصرة للبحـث عـن اي اشراقـة تتسـم بهـا الثقافـة العامليـة ، للوقـوف عنـد الأيـادي التـي انتجتهـا و السـواعد التـي انجزتهـا...

فماهـي مفاهيـم الثقافـة ؟ و ماهـي وسـائل دراسـتها و أسـس نقدهـا؟ و مـا هـي سـياقاتها ومنهجيـات قراءتهـا و فهمهـا ؟ و مـا هـي أوجـه الاسـتفادة منهـا في أن تكـون نموذجـا يمكـن صناعتـه و تعميمـه لإنتـاج المعرفـة و صناعـة الحيـاة ؟

أولاً : الثقافة وذاكرة المصطلح

أ) مفهوم الثقافة .

ب) مفاهيم مرتبطة بالثقافة .

أ) مفهوم الثقافة

كلمـة ثقافـة عـلى تعـدد اشـتقاقاتها العربيـة تعنـي الحـذق والفطنـة والـذكاء وسرعـة التعلـم، أو تسـوية الـشيء وإقامـة اعوجاجـه...

ففي المعجم الوسيط (ثَقِفَ) : صار حذقاً فطناً ، وثقف العلم والصناعة : حذقَهما - وثقف الشيء : ظفر به[1] .

وفي لسان العرب (ثقف الشيء) : حذقه ، ورجل ثقف : حاذق فهم، ويقال ثُقف الشيء: سرعة التعلم[2] ....

ولقد شاع استعمال كلمة ثقافة Culture المشتقة من الأصل اللاتيني Cultura، من منتصف القرن التاسع عشر بمعنى قدرة الإنسان الشاملة على التعلّم ونقل المعرفة ومهارات الحياة، وسرعان ما تحوّل مفهوم الثقافة إلى موضوع رئيسي للبحث الأنثروبولوجي، حتى أصبح يشمل كل ظواهر حياة الإنسان خارج نطاق الوراثة البيولوجية. من هنا ظهر أول تعريف له عند ادوارد تايلور Edward Tylor في كتابه (الثقافة البدائية) Primitive culture[3] . وبالرغم من تعدد التعريفات لهذا المصطلح، فإن معناه تمت قراءته من خلال ما يستدل على وجود الثقافة ، من انتظام السلوك عند الأفراد في طرق حياتهم ومزايا اتصالهم ببعضهم البعض، ومن الآثار الخارجية التي يمكن قراءتها مباشرة من أفكارهم وتصرفاتهم. لذلك، اقترح علماء الأنثروبولجيا تحليلاً لأنماط السلوك غير الملموس، المتمثلة في المعايير والمعتقدات والقيم والاحتياجات التي تعكس دوافع الأفراد في الموقف الإجتماعي، والتي اصطلح على تسميتها بالمضمون الثقافي Inner Culture .

وإن تعددت التعريفات والشروحات حول هذا المفهوم، فإن تعددها وتمايزها، لا يخرج عن خط جامع لمفهومها الشامل الذي يعبر عن وحدة متكاملة من المعلومات والأفكار والمعتقدات وطرق التفكير والتعبير والترويج، وطرق كسب الرزق وتربية الأبناء، والصنائع اليدوية، وغيرها من الظواهر السائدة بين الأفراد عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي[4].

ولقدحدثت بعض التحولات المفهومية في العصر الحديث، جعلت من الثقافة نصاً يُقرأ من كتاب حياة الأفراد والجماعات.منسوجة فكريّة ومعرفيّة وإنتاجية تشكل منظومة متكاملة لرموز وأيقونات نحاول أن نفهمها . وبهذا المعنى تحوّل هذا المفهوم من كونه مجموعة سمات ودلائل معنوية، (معرفية واعتقادية وقيمية وفنية)، ودلائل مادية : (تتمثل بكل ما ينتجه عقل الجماعة من أشياء ملموسة كهندسة الأبنية والملابس والأطعمة..)، إلى أنماط من المعاني المتجسدة في رموز تم تناقلها تاريخياً، مشكّلة منظومة من المفاهيم التي يعبر عنها بشكل رمزي، يتواصل بواسطتها الناس ويستديمون ويطوّرون معرفتهم حول الحياة ومواقفهم منها.

(1) انيس ابراهيم ، المعجم الوسيط، جـ1، ص 98 .
(2) ابن منظور، لسان العرب، جـ9، ص 19.
(3) آدم كوبر ، الثقافة : التفسير الانثروبولوجي ، ص51.
(4) ابو النيل، علم النفس الاجتماعي،ج2،ص34 .

وهـذا مـا يجعـل مـن الثقافـة نصـاً يتـم قراءتـه عـلى مسـتوى تحليـل (المعنـى) المتشـكل مـن رمـوز. فهـذه الرمـوز تعمـل في تركيـب روح الجماعـة، مشـكّلة نعمـة الحيـاة الاجتماعيـة ونوعيتهـا وأسـلوبها ومـزاج أفرادهـا في الأخـلاق والبنـاء والجـمال والمعـارف والعلـوم، والصـورة الذهنيـة التـي تكونـت لديهـم عـن طريقـة عمـل الأشـياء في الواقـع، وطريقـة تفكيرهـم التـي تعـبّر عـن هـذه المنظومـة .

ولتفسـير هـذا المعنـى، يمكننـا أن نصـف الثقافـة بالتكامـل المنطقـي المعنـوي – Logico Meaningful Integration، الـذي يعـبّر عـن مفهـوم المنظومـة، التـي تشـبه التكامـل الموجود في مقطوعـة موسـيقية أو عقيـدة دينيـة أو نظريـة علميـة . وهـو يعـبّر عـن وحـدة الأسـلوب، والتماسـك عـلى مسـتوى المضمـون المنطقـي للمعنـى والقيمـة. وهـو يختلـف عـن مفهـوم النظـام الإجتماعـي الـذي لـه تفسـيره السـببي أو مـا يسـمى بالتكامـل السـببي – الوظيفـي – Cousal Functional Integration، فهـو تكامـل منطلـق مـن مفهـوم اتحـاد الأجـزاء في شـبكة سـببية واحـدة تبقـي النظـام مسـتمراً .

فضـلاً عـن ذلـك، فـإن الثقافـة الأساسـية لمجتمـع مـن المجتمعـات بالرغـم مـن تكاملهـا المنطقـي المعنـوي، لا تمنـع مـن احتـواء ثقافـة فرعيـة Subculture، تخـص طبقـة مـن طبقاتـه الاجتماعيـة، أو أقليّـة مـن أقليّاتـه، ومـا ثقافـة الأريـاف والمـدن وثقافـة السـاحل، وثقافـة بعـض الجماعـات الدينيـة أو العرقيـة التـي تعيـش في وطـن يشـملها، إلا وقائـع تؤكـد وجـود ثقافـات فرعيـة تنضـوي تحـت ثقافـة وطنيـة جامعـة، وتشـكل جـزءاً أساسـياً مـن هويتهـا.

ب) مفاهيم مرتبطة بالثقافة

عندمـا نقتحـم ذاكـرة المصطلـح وخبايـاه، تسـتوقفنا مجموعـة مـن المفاهيـم المرتبطـة بمفهـوم الثقافـة، وهـي مفاهيـم متشـعبة، متصلـة إتصـالاً عنكبوتيـاً بتطـور المفهـوم والدراسـات المرتبطـة بـه إلى درجـة لا يسـتطيع المـرء مـن خـلال القـراءة المفهوميـة إلا الرجـوع إليهـا كمعـان تسـاعد عـلى الفهـم المرتبـط بذاكـرة بعيـدة .

ومجـرد أن نضـع ثقافـة شـعب مـن الشـعوب أو جماعـة مـن الجماعـات أمـام ناظرينـا، بهـدف دراسـتها أو تحليلهـا أو نقدهـا أو حتـى فهمهـا، تتداعـى الينـا مجموعـة كبـيرة مـن المفاهيـم الضروريـة للفهـم والتحليـل والدراسـة. أفـلا يرتبـط المفهـوم بـدور الديـن والقيـم والتوجهـات والهويّـة؟ ألا يتعلـق الأمـر بالسـلطة والسـلوك السـائد والمثـل المدركـة في ذاكـرة الجماعـات؟ ألسـنا أمـام ثقافـة منتجـة، وثقافـة يعـاد انتاجهـا؟...

طبعـاً، عندمـا نتحـدث عـن ثقافـة جماعـة مـن الجماعـات، لا بـد وأن نسـتدعي كافـة المفاهيـم المتعلقـة بعاداتهـا وتقاليدهـا ومعتقدهـا، ومنتجهـا وسـلوك أفرادهـا وأسـاليب التفكـير السـائرة فيهـا...

من المفاهيم الأساسية التي تفرض نفسها في البحث الثقافي، تلك العلاقة المتقاطعة ما بين مفهوم المجتمع و مفهوم الثقافة. إذ يعرّف المجتمع بأنه جماعة من الناس تعيش معاً في منطقة معينة تجمع بين أفرادها (**ثقافة**) مشتركة ومختلفة عن غيرها، وشعور بتفرّد كيانهم وتميزهم[1]. وفي المقابل، سنجد أن السمة الثقافية Cultural trait تعني الوحدة البسيطة أو النمط الاجتماعي الذي لا يمكن تقسيمه أو رده إلى أنماط أقل منه، وهي السبيل إلى مقارنة وتمييز المجتمعات والثقافات عن بعضها البعض[2].

ومجرد محاولة إطّلاعنا على مفهوم السمة الثقافية سيشخص أمامنا مفهوم آخر هو المقارنة الثقافية Cultural Comparative الذي يهدف إلى الكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بين الثقافات المختلفة في ظواهرها السيكولوجية . وأيضاً في الدراسة المقارنة للوثائق والاحصائيات وتحليل البيانات المتعلقة بالحقائق الاجتماعية، والدراسات الميدانية التي تختص بتحليل البيانات المجموعة عن طريق الملاحظة والمقابلات وغيرها[3].

من جهة أخرى، سنجد أن الأبعاد المعنوية الناشطة على مستوى القيم والهوية والدين ستشكل بحد ذاتها مفاهيم بحاجة للفهم، حيث يشكل كل واحد منها أيقونة ثقافية Cultural Icon، تمثل جانباً من القيم والسنن والمثل المدركة تأصيلاً في الثقافة، و تشكل الأيقونة رمزاً أو صورة أسمى من السهولة تمييزها وإدراكها، وهي بدورها تشكل أيقونات وطنية أو مناطقية وتمثل قيماً أو نصباً لها دلالتها على قيمة وطنية ما...[4]

ولا يغيب عن ناظرنا ها هنا، ذلك الدور القوي الذي يمكن أن يلعبه (الدين) في الموضوع الثقافي، لجهة المحافظة على البنية النفسية والاجتماعية في الاستجابة لمتطلبات الفرد. وهذا المعنى سيكون حاضراً في الإجابة عن السؤال الاشكالي : كيف يمكن للدين أن يكون ثقافة إنتاج، كما حلله ماكس فيبر Max Weber، أو أن يكون استجابة لمتطلبات الفرد على المستوين المعرفي والعاطفي يؤثر في ثقافته وحياته الاجتماعية إيجاباً أو سلباً[5]، كما درسه مالينوفسكي Malinowski في كتابه المشهور (السحر والعلم والدين) .Magic. Science and Religion ؟

ولكن لا يكفي أن نخترق ذاكرة المصطلح في مجالات الدراسات الثقافية وحقولها فحسب، وإنما أيضاً في تطورها الاصطلاحي التاريخي الذي يجعلنا نفهم أكثر تلك الاصطلاحات المتراكمة ببعدها التطوري لمزيد من الكشف عن وظيفتها في الدراسات الثقافية وأهدافها، كمفهوم الكولونيالية Colonialisum، والاثنية Ethnicity، والأصالة الثقافية Cultural Authenticity، وعملية التنشئة الاجتماعية Socialization والثقافة المنتجة Enterprise

1 - قصي كنعان،السمات الثقافية للمجتمع الاسلامي، ص6 .
2 - سمير الخليل. دليل مصطلحات الدراسات الثقافية، ص194.
3 - أبو النيل، علم النفس الاجتماعي، ج2، ص143.
4 - سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية، ص51.
5 - كليفور غيرتز، تأويل الثقافات، ص318.

Culture والليفسية Leavisis... وغيرها من المصطلحات والمفاهيم المتصلة بالدراسة الثقافية، والتي سيكون بعضها موضوعاً تحليلياً في أقسام البحث الآتية.

ثانياً : الثقافة ومنهجيّة دراستها

أ) دراسة الثقافة

ب) من النقد الأدبي إلى الثقافة كنص

أ) دراسة الثقافة Cultural Studies

على المستوى النظري ، ساهمت أعمال كل من رولان بارت Roland Barthes وألتوسير Althusser- وجرامشي Gramsci في التحليل الثقافي. فنظرية الوصف المكثف في الكتابات الانثروبولوجية عند كليفورد جيرتز Clifford Geertz، وغيرها من نظريات النظم ومفهوم الخطاب والمقاربات الأثنوجرافية والهرمينيوطيقية الحديثة، أضافت أساساً متيناً للتحليل الثقافي بوصفه عمليات تفكيك للرموز والعلامات التي لها معان تحتاج إلى الفهم والتأويل .

فالثقافة يمكن دراستها كنسق من الأفعال والممارسات والعلاقات التي تتمثل في الثقافة اللامادية، ويمكن دراستها كسلع وصناعات وأزياء وهندسة، تتمثل بالثقافة المادية...

وتتجه دراسة الثقافة للاهتمام بالظواهر الثقافية بكل أنواعها مع فحص مصادرها التي تسببت بظهور السلوك الثقافي الجمعي. وهي عبارة عن شبكة من العلاقات التي لا تكتفي بما قدّمه كل من مالينوفكسي Malinowski وادوارد بريشتارد Edward Rich-ard وليتش، في دراسة الجوانب المادية للثقافة عند الجماعات القبلية فحسب، فالاهتمام بالجوانب المادية كان يؤدي حكماً إلى الاهتمام بالوظائف الاجتماعية للشعائر في تصنيف الأفكار والأنساق والتحديات[1]. وهذا ما نجده في أهم المدارس الفكريّة التي تصدرت عملية التحليل الثقافي، كمثل أركيولوجيا المعرفة The Archeology of knowledge ، التي عبّرت عن الخطوط العريضة لإعادة توجيه التحليل الثقافي الذي تبناه فوكو، ونظريّة التأويل النقدية على المستويين الفلسفي والثقافي التي تبناها هابرماس Habermas .

لقد انتهج الأنثروبولوجيون والأطباء العقليون والمحللون النفسيون طريقة دراسة الثقافة القوميّة ككل National Culture as a Whole.

فعلى المستوى الأنثروبولوجي توسع الباحثون في تطبيقات، تم تحويلها من دراسة الشعوب والمجتمعات البدائية، إلى دراسة حياة الإنسان المعاصر، وعلى مستوى الطب

(1) روبرت وشنو،التحليل الثقافي، ص27.

العقلي، بدأت البحوث تتجه إلى توسيع الاهتمام بدراسة الاضطرابات من الحالة الفردية إلى الجمعية المشتركة. وعلى مستوى التحليل النفسي، باتت التطبيقات تتركز حول الفروقات في التنشئة الاجتماعية. وتطورت الدراسات لتشمل القطاعات الإنتاجية والقطاعات التي تمثل جانباً من جوانب الحياة في الثقافة المجتمعية، أو دراسة مضمون نظام يمثل ناحية من نواحي الثقافة، كالأفلام والأساطير والنكات والفن التشكيلي، أو ما يسمى بالدراسة الثقافية وفق الطريقة الجزئية Segmental approach[1]، ما جعل مساحة الدراسة الثقافية تتسع باتساع المنظومة الشاملة التي تشكل نشأتها ومكوناتها المعقدة.

ولقد زاد في أهمية الدراسة الثقافية، ذلك الاهتمام المتعلق بالبضائع الثقافية، التي ازدادت خمسة أضعاف طوال السنوات العشرين الماضية، من ألعاب الكمبيوتر والقنوات الفضائية، وتصميم السلع على أسس جمالية، والأفلام والكتب والقصص، والأزياء والموضة، وشبكات الويب Web... مما ساهم في ظهور مصطلح الثقافة المنتجة Eterprise culture التي تعتمد على المشروع Enterpris، وعلى الريادة Entrepreneuralism، التي تجمع ما بين النشاطين الاجتماعي والاقتصادي على حد سواء، حيث اصبحت الثقافة الحديثة تتمايز بصفة الريادة تحت مسمى الثقافة الريادية التي تسعى إلى التميز، و تضاهي تلك التي تحدث عنها ريموند ويليامز Raymond Williams، في كتابه الثقافة والمجتمع Culture and society، والتي وصفها بتحديات **تتجير أو تسليع** المجتمع الحديث.

ب) من النقد الأدبي إلى دراسة الثقافة كنص

خرجت الدراسات الثقافية في بدايتها، من رحم الدراسات الأدبية التي قدّمها ليفس Leavis، والذي معه ظهرت الليفسسية leavisism، فالثقافة بالنسبة إليه معنيّة بتكوين الأفراد ليكونوا ناضجين ومتوافقين، ما جعل من هذه الدراسات بحوث متخصصة ومستقلة تعطي لمفهوم الثقافة دلالة جديدة. إذ لم تعد تختص بما يعرف بالثقافة الراقية المرتبطة بالأدب والنص المكتوب، وتحولت لتعني أن **كل شيء في الثقافة هو نص مكتوب** قابل للتحليل والدراسة كنمط من أنماط التعبير، وكرسائل مبطّنة **وممارسات دلالية** تكوّن ما يسمى بالخطاب Discourse- الذي تنشره **المؤسسات الثقافية**.

إن موضوع الدراسات الاقتصادية هو تجليات الحياة اليومية التي لا تتأثر بالأبعاد الاجتماعية فحسب وإنما أيضاً بالأبعاد الأخرى من الأبعاد الاقتصادية والسياسية والجنوسة، والعرق والدين والحاجات والرغبات، فضلاً عن المسار التاريخي المتوارث عبر الأزمان.

---

(1) ابو النيل،علم النفس الاجتماعي، جـ2، ص128.

وهـذا مـا يتطلـب مناهـج ومقاربـات متعـددة، مـن وصـف موضوعـي لمؤسسـاتها ووظائفهـا، ودراسـة آثـار الاسـتثمار في الانتـاج الثقـافي، ودراسـة العلاقـات بـين أشـكال الممارسـات الثقافيـة وغيرهـا مـن الممارسـات، فضـلاً عـن دراسـة الفنـون والمتاحـف والآثـار والـتراث بـكل مـا يتضمنـه مـن دلالات ثقافيـة. **إن هـذه المقاربـات ترصـد خريطـة موسـعة مـن الممارسـات** الثقافيـة الاقتصاديـة والأثريـة ومسـائل القوميـة والهويّـة، والمؤسسـات المنتجـة للثقافة، مـن ناحيـة سـياقاتها الزمنيـة والعلاقـات التـي تربطهـا لتجعـل منهـا منظومـة .

ولقـد تحولـت الدراسـة الثقافيـة إلى قـراءة في الأنسـاق الثقافيـة وجعلـت مـن النقـد الثقـافي أداة لنقـد (**الخطـاب**)، الـذي يعـبّر عـن نـص كلامـي يحمـل معلومـات ورسـائل يريـد المرسـل أن يوصلهـا إلى المتلقـي، الأمـر الـذي حـوّل دراسـة الثقافـة إلى عمـل **تفكيكـي للشـفرات الثقافيـة** يتخطى الأعـمال الأدبيـة الجماليـة، و يسـعى إلى تأسـيس وعـي نظـري يسـاعد في الكشـف عـن الادراكات اللاشـعورية والمضمـرة في الخطـاب، التـي تعـبّر عـن حقيقـة الثقافـة الواقعـة تحـت تأثـير مـا هـو غـير رسـمي مـن ممارسـات إدارة المؤسسـات الثقافيـة. تلـك التـي تسـتطيع أن تدّجـن وتـروّض كل مـا هـو عقـلي أو ذوقـي لمسـتهلكي الثقافـة .

فإهتـمام الدراسـات الثقافيـة مـن البحـث في أعـمال شكسـبير الأدبيـة عـبرت إلى البحـث في الدرامـا التلفزيونيـة ، حيـث أصبـح النـص وسـيلة أو أداة تكشـف عـن **أنظمـة الثقافـة**.

و النـص هنـا ليـس هدفـاً بحـد ذاتـه، وإنـما هـو نظـام ذاتي معـبّر عنـه في أفعـال إجتماعيـة ونتاجـات ثقافيـة تـم توزيعهـا مـن طـرف مؤسسـات مصنّعـة، و**اسـتهلاكها** مـن مجموعة مشـتركة مـن المسـتهلكين . هنـا تتحـول الأسـئلة البحثيـة إلى أسـئلة تتعلـق بالـدلالات والتأثـيرات الايديولوجيـة، ووسـائل الإمتـاع المرتبطـة بالاحتياجـات، وكـما قـال جرامـشي -Gramsci، فهـي دراسـة تعتمـد عـلى مفهـوم الهيمنـة -Hegemony، لا بوصفهـا قـوة مـن القـوى المسـيطرة فحسـب، بـل بوصفهـا أيضـاً قـوة تتحكـم باتجاهاتنـا التـي تجعلنـا نقبـل بهـا ونسـلم بوجودهـا ووجاهيتهـا[1].

وهـذا مـا وسـع الدراسـات الثقافيـة لتشـمل العـرق والجنـس والـدلالات، والإمتـاع والإنتـاج، كفعـل يمـس الأحـلام مـع التعويـض النفـسي، والاتصـال مـع المواجهـة، والتصـور مـع الهويّـة .

(1) عبد الله الخزامي،النقد الثقافي، ص18.

ثالثاً : الثقافة والهيمنة

أ) الثقافة والأنماط المهيمنة .

ب) الحداثة كثقافة مهيمنة .

ج) بين المركزية الثقافية والتعددية الثقافية.

أ- الثقافة والأنماط المهيمنة

لقد كان الامتداد الطبيعي لنقل النظر من النص إلى الخطاب الفضل في تأسيس وعي نظري يساعد في نقد الخطاب الثقافي وأنساقه . ذلك أن هذه المنهجية سمحت بالكشف عن المضمر الايديولوجي للثقافة والبعد اللاشعوري الذي تتحرك بموجبه كل ثقافة . فالنكات والاشاعات والدعايات والدراما والأفلام تحاكي اللاوعي في الأفراد وتساهم في تشكيلهم تناغماً مع المؤسسة الثقافية .

مع غرامشي Gramsci، بدأ الانتباه لكيفية اعتماد السلطة على رضى أو قبول الأفراد، وليس فقط على القوّة. والخطاب وما يرتبط به من سيادة تمثيلات معنية وتطبيعها، يجعلنا نفهم بوضوح كيف عمل التطبيع الاقتصادي المعولم بأدوات (الهيمنة) Hegemony[1]، إذ لا تتم السيطرة بسبب قوة المسيطر فحسب، بل أيضاً بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلم بوجودها.

من هذا المنطلق تتحول الدراسة الثقافية للسعي إلى كشف أساليب الثقافة في صياغة مستهلكيها وتسخيرهم كذوات لديها رغبات وقيم محددة.

فتفاعلك مع الاعلانات الدعائية عندما تخاطبك، مبني على أخذها بالاعتبار خصوصيتك واحتياجاتك كمستهلك له ذوقه المحدد، وهذا ما يسميه ألتوسير Althuss-er بالاستجواب Interpellate. من هنا فإن وصفك بالذوّاقة مثلاً، وزخّ هذه الصفة فيك مراراً وتكراراً، يجعلك مقتنعاً أمام نفسك بتلك السمة .

ومهمة الدراسات الثقافية هي فهم وكشف الأنماط المهيمنة على الأفراد، ومعرفة مدى قدرتنا على تعديل وجهة هذا الفعل المهيمن إلى وجهات أخرى. خاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمور لصيقة بالهويّة والبعد الأنطولوجي للأفراد وقضاياهم التي تعبر عن ثقافاتهم الوطنية.

فالعنف في أفلام هوليود، تحول بالنسبة لبعض الثقافات إلى متعة جماهيرية مقبولة، وهذا اقتحام قسري للشبكة المجتمعية العمومية وللثقافة العمومية التي أصبحت في وضعية المستهلك الذي لن يتنبه من خلال وعيه لهذه المخاطر، إذ اللاوعي لديه عمل على تعطيل

---

1 - فاركلوف، تحليل الخطاب، ص 414 .

كافة أجهزة الحكم نزولاً عند الرغبات الآنية التي يفصلها عن منظومة التأثير القيميّة .

وهو ما أطلق عليه حديثاً بثقافة الوسائل Media Culture[1] المسؤولة عن تفاعل يحدث نتيجة تدخل الوسائل في تشكيل أفعال الاستقبال عند الأفراد وتسليع الثقافة، بدمجهم بمستوى واحد وتعميم النموذج .

ولقد ساهمت مناهج التحليل المعرفي في دراسة وتحليل الثقافة، كمنهجية تأويل النص، ودراسة الخلفيات التاريخية للمواقف، والتحليل المؤسساتي للثقافة، حيث برز الأخير كمنطلق في تحليل الخطاب. فدور المؤسسة الثقافية هو توجيه الخطاب نحو نماذج وأنساق وتصورات يتأسس معها الذوق العام وتتخلّق بها الصياغة الفكرية أو الفنية، حتى تصبح قيماً معتمدة تحتذى في الحكم والذوق .

وأساليب القراءة التحليلية للثقافة، تخضع خضوعاً واضحاً لأعراف وممارسات المؤسسة الأكاديمية، التي تتولى عادة عمليات النمذجة والبرمجة، وهي بدورها تقوم على فعل عمليتي الاستبعاد الاجتماعي وتشكيل الأنماط.

ب) الحداثة كثقافة مهيمنة

مع بودريّار Baudrillard بدأت تتحول مركزية الحداثة إلى صورة اندثار معرفي، ومآل غير مبهج من الضياع . شك في العلوم ووعودها، تسخير الحداثة للاستهلاك، استبعاد للجوانب الإنسانية الروحية والغايات السامية، من خلال الإجابة على السؤال المنهجي : ماذا حققت ثقافة الحداثة للإنسان ؟ وماذا أهملت للحياة الإنسانية الكريمة ؟

حتى جاءت الإجابات في أعمال فكرية ونقدية رائدة، تصنف الحداثة في دائرة تحقير الفطرة والهويّة، وتضع كل ما أهمل حداثياً في أولى اهتماماتها ؛ الانطباعات البشرية والانعكاسات النفسية والتأمل والتجربة الذاتية والعادات الخاصة وتقدير ما هو وجداني ديني...

الخلية الاجتماعية لا بد لها أن تعتمد على ذاتها في صياغة وجودها. فمركزية الحداثة العابثة، قوبلت بلا مركزية بناء الهوية الذاتية . إذ ما تم انجازه حداثياً ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً وحقيقياً وجميلاً وأخلاقيا ! وما جنيناه من الحداثة امتلأ بالاحباطات والشح والبطالة والتفكك الاجتماعي . وأصبح لدينا الكثير من الأدلة التي تنبذ المركزية الثقافية، لتضع مكانها كل ما يعزز التعددية الثقافية Multiculturalism .

1- عبد الله الخزامي،النقد الثقافي، ص21 .

ج) بين المركزية الثقافية والتعددية الثقافية

تمثلت المركزية الثقافية بعدة ممارسات ثقافية تجلت بالعولمة والحداثة والهيمنة العالمية التي تعبر عن اندماج ثلاث منظومات على السواء، المنظومة الاقتصادية والمنظومة الإعلامية والمنظومة المعلوماتية التي تتجسد بشبكة معلومات مركزية .

وأصبحنا أمام اندماج عالمي يوحّد أكبر مصدر للمعلومات للنخب وللجمهور، ويوحّد شبكات الإتصال وأدواتها، ويدمج وسائل الإتصال دمجاً متيناً[1] .

إن هذا المشهد لا شك سيدفع بالثقافات الفرعية إلى حالة من ردة الفعل المتوقعة للتساؤل عن هويتها ومكانتها وتاريخها وتراثها ووتيرة نموها المستقلة نسبياً، بالرغم من ارتباطها القسري بالتاريخ العالمي. فالمركزية الثقافية المتمثلة بالذكورية والغربية والحداثة الآتية من الدول العظمى، أصبحت تواجه ثقافات متعددة تمثل ذوات تكوينية مناقضة، نسوية وجنسويّة، باتت بمثابة نظرة موضوعية وإنسانية للآخر الذي يعبر عن وجود الحضارات الأخرى والأجناس البشرية المتعددة .

ولم تظهر التعددية الثقافية Multiculturalism إلا كردة فعل على إخفاقات وتحيز المركزية الثقافية، معتمدة اتجاهين اثنين، الأول : يتمثل بنقد الخطاب الثقافي المعبّر عن المؤسسات المصنعة للثقافة، والكشف عن انحيازاته. والثاني : يتمثل باقتحام آفاق نقدية لم يتسن لأحد رؤيتها، كمجالات جديدة للنقد الثقافي .

تأتي التعددية الثقافية للتعبير عن أنساق ثقافية فرعية متعددة داخل الوحدات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية الواحدة . ويمكننا أن نتنبه أكثر للاضطرابات العرقية، وانبعاث الكره للأجانب، والعنصرية وتعدد الإثنيات واللغات، كموضوعات وبؤر اهتمام نقدية للدراسات الثقافية[2]. و هي تدعونا لمواجهة السمات المهيمنة المتجاهلة للآخر .

ومن الضروري في هذه الدراسات العمل على دمج العديد من الشبكات المفهومية والمنهجيات التي تعزز النضال من أجل الحقوق المدنية في الانتماء المزدوج مع الاحتفاظ بالهوية الثقافية، وما الخيارات التي اتجهت إليها كل من هولندا والسويد وبلجيكا والبرتغال واسبانيا إلا أمثلة ناجحة لتلك السياسات التي تعبّر عن التعددية الثقافية التي اخترقت النسيج الاجتماعي والتعليمي برمته.

(1) غليون ، ثقافة العولمة، ص16.
(2) سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية، ص70

رابعاً : أيقونات الثقافة في جبل عامل

أ) منهجية الدراسة الثقافية لجبل عامل

ب) الدراسة الثقافية لجبل عامل

أ) منهجية الدراسة الثقافية لجبل عامل

صدق جوته Goethe عندما أشار إلى أن التاريخ البشري بحاجة إلى من يعيد كتابته من وقت إلى آخر، كنص قابل للتجدد[1]، فالماضي يمكن توظيفه في الحاضر، إذا ما أعيدت قراءته من جديد... ألم تكن القراءات الواعية للكتابات القديمة مصدر إيحاءات جديدة للمفكرين الجدد؟.

إن الأعمال التأريخية التي تحمل صفة المركزية الشاملة، تحدونا إلى التساؤل عن الموقع الحقيقي للنتاجات الثقافية العالمية على مستوى المحيط المعرفي الكبير، في ظل تداعيات مهمة في منهجيات التأريخ الحديث والدراسات النقدية الثقافية . فالتعامل مع الرزم المركزية للثقافة على مستوى الهيمنة الثقافية، توجّهت منذ البداية إلى الهويات والثقافات المتعددة بوصفها أجزاء مندثرة تذوب في بحر الثقافات العليا . ومن الطبيعي وفق منهجية (التاريخانية الجديدة New Historicism، قراءة الثقافة من خلال اقتحام ما لم يكن قد انتبه له أحد من قبل، مع ضرورة المحافظة على عدم التحيز . أي بالقدرة على سحب الخيط الذي يجر وراءه بناءً كاملاً ومتماسكاً من الممارسات الثقافية . أو كما سمي في الدراسات النقدية بالنقد التشريحي Deconstruction، الذي يسمح باكتشاف الحجر الذي إذا ازيح من مكانه، تهاوى معه البناء بأكمله . فالخلفية التاريخية Background، توازيها مقدّمات وظواهر أمامية Foreground تمثل انعكاسات للسياقات التاريخية[2].

إن الصراع الوجودي لهذه الثقافة تؤكده الممارسات الثقافية التي تثبت الأصالة والعراقة والهوية، عبر المحلول التاريخي كخلفية. بهذا المعنى، استطاعت مدرسة الحوليات Les Annales الفرنسية، أن تتجاوز الحيز الحدثي في الدراسات التاريخية الحديثة، القائم على افتراض أحادية الزمن والأحداث البارزة، وأبدلته بمكانة علمية للنموذج النظري الجديد في كتابة التاريخ اللاحدثي، إذ نحاول فهم التاريخ من محددات أيضاً غير حدثية (مفهوميّة)، تزيد بعداً جديداً على العامل الزمني الذي نسجل فيه التاريخ الخاص، ببعد يعرض الأفكار والممارسات في علاقتها مع الانتاج الثقافي[3].

هذا على مستوى التأريخ. أما على مستوى الدراسة الثقافية التي تتناغم وهذه المنهجية، فهي تتقدّم بصفة نظرية في القراءة .

(1) 87 .P scipot denoihsaf – dlo rehto dna msicirotsiH wen ehT samoT B

2 الغزّامي، النقد الثقافي، ص44.

3 جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ص88.

تعتمد استراتيجية القراءة الثقافية على تحويل النص التاريخي إلى شبكة إجتماعية ومنظومة من (العلامات) Signs. حيث يصبح الخطاب الثقافي تعبيرا بحاجة إلى اعتماد قراءة تكشف عن الأساليب التي بها تتشكل المفاهيم والقناعات والخبرات الإجتماعية. نحن نتوجه إلى الطاقة الفاعلة التي أنتجتها المؤسسة الثقافية والطرق التي يفسر بها الناس خبرتهم.

في مساءلة الخطاب، ننتبه للفرق ما بين التعبير اللاشعوري وتعبير النظام المؤسسي الرسمي، الذي يتمثل بجماعة منتجي وموجهي الثقافة. ولا شك أن من يفعل ذلك، لا يمكن أن يقع تحت وطأة سلطة المؤسسة إطلاقاً . إذ لا بد من التحرر الكلي من تلك السلطة لتكوين فكرة موضوعية تجعل من الدراسة الثقافية دراسة تبتعد عن المؤثرات الوجدانية بدءاً من الايحاءات السلطوية، وليس انتهاءً بالتقييمات والاتجاهات التي تصنع كل شيء بخطاب السلطة.

ب) أيقونات جبل عامل

عملاً بالمنهجية التي حاولنا إختصارها في البند (أ) من هذا القسم، يمكننا أن نضع خارطة العلاقات المتعلقة بالرسائل والممارسات الدلالية والمؤسسات المنتجة للثقافة، حيث يتسنى لنا وصفاً موضوعياً لمؤسساتها ووظائفها، ووصف استثمارها في المستهلك الثقافي، ودراسة المبادئ التي تحكم العلاقات بين أشكال الممارسات الثقافية في جبل عامل. وبما ان البحث لا يتسع للخوض في أدق التفاصيل والتعقيدات العلائقية في صناعة الثقافة العاملية وإدارتها، فإن التحليل سيأتي كتمثيل كلي للنموذج Macro، يستطيع الباحثون أو الدارسون توسيعه أو تخصيصه على مستوى كل مكون من مكوّنات الثقافة في جبل عامل .

إن مجموعة من العناصر الأساسية في الثقافة العاملية، يمكن اعتبارها أيقونات دلالية على تلك الثقافة :

1 – الحوزات العلميّة (كمؤسسات منتجة للثقافة).

2 – كربلاء (كباعث وجداني للثقافة).

3 – الحرمان (كدافع إجتماعي) .

4 – الاحتلال (كدافع وطني للمقاومة).

5 – التعبئة (كممارسات ثقافية مؤثرة).

6 – الاخر (الشريك الوطني في صناعة الثقافة المهيمنة).

حيث تشكل هذه الأيقونات شبكة من العلاقات المتماسكة التي تحاكي المستهلك في سلوكه الثقافي ووجدانه الديني ومعرفته العلمية . والثلاثية التي تحكم منظومة تكوين الاتجاهات أو تغييرها : المعارف والعلوم التي يتلقاها الفرد حول موضوع ما – المشاعر والوجدانيات التي يتلقاها حول الموضوع نفسه – السلوك الذي يقوم به فعلياً باتجاه المعارف والمعلومات والمشاعر التي تكونت لديه .

لقد تحول الانتماء الديني في جبل عامل إلى استجابة ثقافية عامة تشكل أيقونة بحد ذاتها. مؤسسة مصنّعة للثقافة تبث نمطاً محدداً من النخب الدينية التي لها قدرة على التأثير، وعلى القيادة المجتمعية. والمؤسسة الدينية المتمثلة بالحوزات الدينية، لم تنتج فقط ثقافة دينية، وإنما كان لها أثرها الموازي والمقنع في الواقع الاجتماعي ككل، استجابة لمتطلباته على المستويين المعرفي والعاطفي الوجداني . ولا ننسى أن الرمزية التي تحملها حادثة كربلاء، هي التي سهّلت عمليّة نماء ظاهرة التغيير كسمة بما تحمله من رمزية لمقاومة الظلم والهيمنة والتمثيل في القتل، ورمزيّة المناصرة والمؤازرة للمظلوم وعدم التردد في فعل ذلك تاريخياً. ثقافة تراكمت وامتدت عبر التاريخ ووجدت لحظات ولادتها من جديد. إذ لم يكن الاحساس بالحرمان والمسؤولية المجتمعية في الخروج من هذا الواقع، إلا فعلاً مدفوعاً من تلك الخلفية الثقافية التي عززتها المؤسسة الدينية، ومارست عملية نشرها بواسطة النخب التي كان لها دورها في التغيير الاجتماعي، وهذا بخلاف من امتلك انتماءً دينياً منفصلاً عن واقع التغيير الاجتماعي بهذا المعنى، فلقد تحول الدين إلى مؤسسة فاعلة في انتاج الثقافة الجمعية في دائرة كبرى، يمكن تسميتها ثقافة جبل عامل السائدة .

ولكن في الوقت نفسه، لم يكن للثقافات الأخرى في دائرة جبل عامل دوراً مثبطاً أو محبطاً في البداية بسبب عدم الشعور بالهيمنة الثقافية إلا بعد تغذية هذه التعددية فيما بعد بأبعاد سياسية. فالمؤسسة المنتجة لهذه الثقافة كانت ممتدة إمتداداً حقيقياً لتلتقي مع ثقافات أخرى في الموضوع الوطني ، إذ مثّل الاحتلال الاسرائيلي فيه بعد أن عاث في الأرض فساداً وهدماً وظلماً، دافعاً حقيقياً لتوحيد الجهود الثقافية لمقاومة الهدم والظلم والاذلال. فالمؤسسة المنتجة للثقافة كان لها مفكرتها الجاذبة المرتكزة على البعد الوطني (مقاومة المحتل). في زخّ سمات مكرّرة تجعل الأفراد أمام أنفسهم ذلك الصنف (مجتمع المقاومة)، وثقافة مقاومة المحتل شكلت بحد ذاتها أملاً لتحقيق التطلعات المبنية أصلاً على أسس ثقافية محددة جعلت من فعل المقاومة ينجح باستدامة في إطار تكويني ثقافي له خصائص وسمات ثقافية محددة.و هو خيار استراتيجي استبدل عمليات الصراعات الإثنية بقواسم ثقافية مشتركة يمكن المحافظة عليها ان لم تصيبها اشكاليات الهيمنة و التهميش التي تعزز الانشقاقات و الصراعات و تضييع الأهداف.

ولقد احتفظت ثقافة جبل عامل المتنوعة بتنوعها، بالرغم من حتمية (الهيمنة الثقافية) التي عمت حدودها الجغرافية، مع الاحتفاظ بالسمات الثقافية الأخرى وتأكيد التعددية الثقافية التي تحمل الاعتراف المتبادل بين الثقافات بفعل أهداف وطنية جمعت الشتات الثقافي في مفكرة واحدة، تعطي مثالاً حقيقياً لثقافة العيش المشترك كمبدأ وطني، شهدت عليه أحداث التحرير التي مثّلت مدرسة في التسامح يحتذى بها كنموذج ثقافي يمكن تعميمه...

الخاتمــة

إن أي دراسة توثيقية لثقافة جبل عامل، لا بد وأن تأخذ بالاعتبار دراسة شبكة انتظام السلوك والعلاقات والخطاب في شكلها التالي :

1 – دراسة المعتقد والمعايير والقيم في جبل عامل و آثارها .

2 – دراسة مزايا الاتصال بين الناس والجماعات في جبل عامل .

3 – دراسة الدوافع في الموقف الاجتماعي في جبل عامل .

4 – دراسة السمات والدلائل المادية (الهندسة – الملابس – الأطعمة..) في جبل عامل .

5 – دراسة المنتج الفني والجمالي والعلمي، تحت مسمى الصورة الذهنية لجبل عامل .

6 – دراسة الرموز والأيقونات المعبرة عن حقيقة تطلعات الأفراد والجماعات والتي ساهمت في تركيب روح الجماعة في جبل عامل .

7 – تسليط الضوء على الأحداث الرئيسية التي أثرت على صناعة تاريخ جبل عامل .

8 – دراسة دور المؤسسات المنتجة لثقافة جبل عامل .

قائمة المصادر و المراجع

1 – ابن منظور(محمد بن مكرم)،لسان العرب، ط1، بيروت: دارصادر،(لا تاريخ).

2 – ابـو النيل(محمـود سيد)، علـم النفس الاجتماعي : دراسـات عربيـة و عالميـة ، ط4،بيروت:دار النهضـة العربية للطباعـة و النشر،1985

3 – أنيس(ابراهيم)و آخرون، المعجم الوسيط، ط1،بيروت،دار الفكر،(لا تاريخ).

4 – الخذامي(عبـد الله) ، النقـد الثقـافي: قـراءة في الانسـاق الثقافيـة العربيـة، ط3 ، الـدار البيضـاء ، المركـز الثقـافي العـربي ، 2005 .

5 – الخليـل (سـمير) ، دليـل مصطلحـات الدراسـات الثقافيـة و النقـد الثقـافي : اضـاءة توثيقيـة للمفاهيـم الثقافيـة المتداولـة ، بـيروت: دار الكتـب العلميـة ، 2014.

6 – غليون(برهـان)، أمـين (سـمير) ، ثقافـة العولـمة و عولـمة الثقافـة ، ط1 ، دمشـق : دار الفكـر، 1999 .

7 – غيرتز(كليفـورد) ، تأويـل الثقافـات ، ترجمـة محمـد بـدوي ، ط1 ،بـيروت : المنظمـة العربيـة للترجمـة ، 2009 .

8 – فاركـوف (نورمـان) ، تحليـل الخطـاب : التحليـل النـصي في البحـث الاجتماعـي ، ترجمـة طـلال وهبـة ، ط1 ، بـيروت : المنظمـة العربيـة للترجمـة ، 2009 .

9 – كوبـر (آدم) ، الثقافـة : التفسـير الانثروبولوجـي ، ترجمـة تراجـي فتحـي ، مجلـة المعرفـة ، عــدد 349 ، 2003 .

10 – كنعـان (قـصي) ، السـمات الثقافيـة للمجتمـع الاسـلامي : دراسـة في انثروبولوجيـا المعرفـة ، مجلـة كليـة العلـوم الاسـلامية ، العـدد 1/ 15 ، المجلـد الثامـن ، 2014 .

11 – لوغـوف (جـاك) ، التاريـخ الجديـد ، ترجمـة محمـد المنصـوري ، ط1، بـيروت : المنظمـة العربيـة للترجمـة ، 2007 .

12 – وشـنو(روبـرت) و آخـرون ، التحليـل الثقـافي ، ترجمـة فـاروق مصطفـى و آخـرون، القاهـرة : الهيئـة المصريـة العامـة للكتـب ، 2009 .

13 – Brook(Tomas) **The new Historicism and old–fashioned topics** new jersey: Princeton n.j 1991 .

الثقافة والمجتمع من منظور سوسيولوجي



د. نزار أبو جودة

كُلّـما تعمّـق العلـماء والباحثـون في تاريـخ الإنسـانية وجـدوا أنّ الاجتـماع الإنسـاني صفـة ملازمـة للإنسـان في جميـع العصـور. فالاجتـماع الانسـاني ظاهـرة قديمـة قـدم الإنسـانية نفسـها، لدرجـة تمكّننـا مـن القـول أنّ الحيـاة الإنسـانية هـي / أو/ الوجود الإنسـاني هـو، واقـع مجتمعات.

ولـكلّ مجتمـع مـن المجتمعـات روحـه العامـة , أو , بـكلام أدق , ثقافتـه الخاصـة , التـي تميّـزه عـن باقـي المجتمعـات. ولا يمكـن فصـل الثقافـة عـن تاريـخ وسـجلّ سـير أيّ مجتمـع كان , لأنهـا مـن صلـب حيـاة المجتمـع , ومـن أراد الغـوص في روحيّـة مجتمـع مـا , ومعرفـة حياتـه وفهمهـا , عليـه بدراسـة ثقافتـه.

والثقافـة , مـن منظـور سوسـيولوجي , تشـمل وسـائل وطـرق معيشـة مجتمـع مـا في بيئتـه , وتشـمل أسـلوب تفكـير أبنـاء هـذا المجتمـع , ومجمـوع قيمـه ومثلـه العليـا وعاداتـه وتقاليـده وفنونـه ومعارفـه ومكتسـباته الماديـة والفكريـة , كـما ومجمـوع الاختبـارات النفسـية-الاجتماعية التـي يمـرّ بهـا في بيئتـه الطبيعيّـة. مـن هنـا القـول أنّ الثقافـة , كلّ ثقافـة , هـي ماديـة وروحيـة في آن معـا , حيـث المـادة والـروح تتفاعـلان وتتكامـلان. ويقصـد بالروحـيّ كلّ مـا هـو غـير مـادي مـن نفسـي وفكـري وفنـي وأدبي وفلسـفي وعقائـدي.

بالملخـص , كـما قـال المؤسـس الاول لعلـم الاجتـماع , إبـن خلـدون , «الانسـان إجتماعـيّ بطبعـه» , والوجـود الإنسـاني يتـوزع عـلى مجتمعـات إنسـانية , والواقـع الاجتماعـيّ هـو واقـع مجتمعـات , وواقـع المجتمعـات هـو كيانـات أو شـخصيات متعـددة ومتنوعـة ومتباينـة في ثقافاتهـا ونفسـياتها (وهـذا مـا تنـصّ عليـه نظريـة النسـبية الاجتماعيـة) , ومتصادمـة في كثـير مـن الأحيـان في مصالحهـا وغاياتهـا.

إنّ تنـازع مـوارد الحيـاة , والـصراع حـول التفـوّق , بـين الـدول , همـا عبـارة عـن عـراك

وتصادم بين مصالح هذه الدول (نظرية التطور). والتنازع بين الدول , يولّد الأزمات، التي بدورها , يمكن أن تؤدي إلى الحرب. والحرب هي التعبير الماديّ عن سياسة الدفاع عن المصالح والحقوق بحسب الفريق المعني بها.

ولكنّ الحرب ليست مادية عسكرية , فقط لا غير , إنّما هناك حرب من نوع آخر , وهي تشنّ بهدوء وسلاسة , هي حرب خبيثة وناعمة , وهي أشبه بعملية غزو , ولكن غزو من نوع خطير جدا وفريد , هو غزو ثقافي صامت وفعّال , لكافة مجتمعات ودول العالم وخاصة «النامية» منها و«الضعيفة» و«التابعة».

وهذا الغزو الثقافيّ (والبعض أطلق عليه مصطلح «الامبريالية الثقافية») , يتمّ أكثر ما يتمّ عبر وسائل الإعلام والتواصل الحديثة , من فضائيات وإنترنت ووسائل تواصل إجتماعي وغيرها , ومن أهدافه الأساسية , تشويه بعض القيم المحلية وإلغاء أخرى , وفرض منظومة قيم وطرق تفكير وأساليب عيش وطريقة حياة lifestyle كنموذج عصريّ وعالميّ تصبو اليه أجيال أمم العالم النامي. وهذا النموذج الثقافيّ , من منظومة القيم حتى طريقة الحياة , ليس بالضرورة الأفضل أو الأنسب للمجتمعات المتلقية وهو لا يصبّ بالضرورة في مصلحتها ومصلحة الحياة الكريمة التي تصبو إليها.

ولقد أثار دارسو الثقافة في علم الاجتماع والانتروبولوجيا , في هذا السياق , إشكالية تستوجب المعالجة والمناقشة , ومن المفيد التصدي لها , لأنّ في ذلك ما يساعد على فهم أدق وتحليل أعمق لمفهوم الثقافة بأبعاده المختلفة , ولما فيه أيضا مصلحة عليا لنا كمجتمع.

والإشكالية تنبع من واقع , أننا كمجتمع , نعيش على وقع سلسلة متسارعة من التحوّلات والتغيّرات الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والإعلامية تترافق كلّها مع مشاريع سياسية-ثقافية استعمارية متجددة.

فقد كان لانفتاح الأسواق وحرية انتقال الأفراد والبضائع والاستثمارات والأفكار والقيم وطرق العيش , بسرعة هائلة , آثار ليست بالقليلة على الحياة الإنسانية , على مستوى المجتمعات والأفراد , أسست لما تمّ تسميته «العولمة».

وكما هو مقدّر ومعروف , الأقوى والأقدر والأكثر علما ومعرفة (المعرفة قوة) هو الذي يسيطر عادة على التحوّلات والتغيّرات السابق ذكرها ويدير الدفّة كما يشاء وبحسب مصالحه.

وهكذا كان , قامت القوى الكبرى , وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية , باستغلال هذه التحوّلات السريعة , ومنها «العولمة» وأدواتها , لتسويق مشاريعها التوسعية

مـن خـلال مـا يسـمى بًصناعـة الثقافـةً, والعمـل عـلى عولمـة ثقافـة واحـدة أحاديـة (ثقافـة الماكدونالـد وثقافـة الكـوكا كـولا وثقافـة هوليـوود بشـكل عـام), كـما وعملـت عـلى تغليـف مصالحهـا برسـالة نـشر الحضـارة الجديـدة والازدهـار في العـالم.

إنطلاقـا مـن هـذه المقاربـة, إنّ السـؤال الأسـاسيّ الـذي يطـرح نفسـه هنـا هـو التـالي: مـا هـي النتائـج المترتبـة عـن هـذه الحـرب الثقافيـة التـي تؤثّـر في شـعبنا, شـبابنا خاصـة, شـئنا أم أبينـا؟ مـاذا يحـلّ تحـت تأثـير هـذا الغـزو الثقـافي بـروح الإنتـماء والشـعور الوطنيـين عنـد الجيـل الجديـد, الـذي هـو أصـلا, محبـط ومهمّـش في معظـم الأحيـان في مجتمعـه نفسـه؟

نفهـم أنّ الـدول ليسـت بجمعيـات خيريّـة, وهـي تسـتغلّ مـا يسـمّى بالعولمـة ومـا تحملـه مـن تطـورات وأدوات في سـبيل مصالحهـا مـن خـلال حـروب ثقافيـة وغيرهـا, لكـن, مـاذا عـن مـن يصـاب بهـذه الحـروب وأدواتهـا الثقافيـة بشـكل مبـاشر؟ كيـف يتلقـى الـوارد اليـه؟ مـا هـو نـوع اسـتجابته؟ هـل هـو ردّة فعـل؟ هـل هـي محسـوبة, هـل هـي منطقيـة, ردّة الفعـل هـذه؟ أم هنـاك خطـة مدروسـة واسـتراتيجيا بعيـدة المـدى تأخـذ بالحسـبان مصلحـة المجتمـع والوطـن؟

نبـدأ بإعطـاء رأينـا وبشـكل موجـز حـول السـؤال الأول, وهـو رأي طبعـا قابـل للنقـاش والحـوار لا بـل هـو بحاجـة لهـما.

ممـا نلاحظـه في حياتنـا الاجتماعيـة, مـن خـلال التعاطـي والتفاعـل مـع الجيـل الشـاب, أنّ هنـاك نـوع مـن الحـيرة والضيـاع والتخبّـط, في مـا يخـص الثقافـة, بـين المـاضي والحـاضر, وبـين المسـتورد الأجنبـي والوطنـي المحـلي, وبـين المحافظـة والتجديـد, وبـين المتصـوّر والممارس عـلى أرض الواقـع, وبـين الشـكل والمضمـون, وبـين الشـكل والجوهـر, وبـين التقليـد والتحديـث, وبـين التحديـث والتغريـب (westernization and modernization)..

ونـدرك خطـورة هـذا الأمـر, أي التبلبـل والضيـاع, في مـا يتعلّـق بالثقافـة, حـين نتذكـر أنّ هـذه الاخـيرة, ترتكـز وبشـكل كبـير عـلى نظـام قيمـيّ أخلاقـي يضبـط العلاقـات بـين أبنـاء الوطـن الواحـد, وحـين تحاصرهـا الضبابيـة بفعـل التبلبـل والضيـاع, تفقـد دورهـا هـذا في ضبـط العلاقـات.

كذلـك الأمـر, بالنسـبة إلى الهويّـة والشـخصيّة الوطنيـة, فالثقافـة ترتكـز عـلى شـعور هـذا الجيـل الشـابّ بنفسـه وشـخصيته وهويتـه الحضاريـة وتراثـه وأمجـاده, ومتـى تبلبلـت أفـكار وعقـول الأجيـال الجديـدة في مـا يتعلّـق بمرتكـزات الثقافـة هـذه, ضاعـت الهويّـة.

النتيجـة النهائيـة لانعكاسـات هـذه البلبلـة والفـوضى الفكريـة-الثقافيـة, برأينـا المتواضـع, هـي أزمـة هويـة (كـي لا نقـول ضيـاع الهويـة), وفقـدان البوصلـة الاجتماعيـة, وسـيطرة

النزعة الفردية , والقيم المادية , وهاجس الربح المادي , على علاقات المواطنين , فتصبح المصالح والمنافع الشخصية هي التي تحدد شكل العلاقات الانسانية. ناهيك عن الشعور الدائم بفقدان الثقة بالنفس , وعدم القدرة على التغيير , كما والشعور بالفراغ , والهروب المستميت من هذا الشعور من خلال الذوبان في حياة أو نزعة فردية استهلاكية سطحية صاخبة تسهم في انتشار الفساد في كلّ الميادين وعلى كافة المستويات.

وفي النتائج النهائية , أيضا , نجد الإستسلام للأمر المفعول , والاستخفاف بقضايا المجتمع والوطن الصغرى والكبرى والمصيرية , وصولا إلى اللامبالاة , حتى التخلي عنها وعن الوطن كلّيا , والتوق للهجرة إلى المجتمعات الغربية.

أما بالنسبة إلى السؤال الثاني , نعتقد على أساس الملاحظة والمتابعة أيضا , أنّ المجتمع الواحد يتجه نحو الانقسام , أو ينقسم فعليا على نفسه , فيتحوّل الى عدة طوائف وجماعات , كلّ واحدة منها لديها رؤيتها الخاصة وتعتبر أنّ ثقافتها هي الأفضل.

وإذا أردنا تصنيف الفرقاء بحسب خطورتهم[1] على مصلحة المجتمع , نقول بفريقين أساسيين في المجتمع الواحد: فريق يعتبر نفسه واقعيا , ويدعو الى التعايش مع الدول القوية ومهادنتها والتشبه بها , ويحاول المستطاع لمماشاة سياساتها وتبني ثقافتها , أو بشكل أدق , تبني الثقافة التي تصدّرها لنا (تبنّيها لو بشكل غير واضح وكامل أحيانا , وغير علني أحيانا أخرى) , كل ذلك بحجة عدم جدوى مقاومتها وعدم القدرة على ذلك.

وفريق آخر , يدعو إلى رفض كل ما يأتي من الخارج , والعودة إلى الأصول السلفية والارتكاز إلى الماضي والأمجاد الغابرة , بحجة مقاومة الهجمة الثقافية والمشاريع السياسية والعسكرية المصاحبة لها.

بشكل عام , الفريقان يقومان بردّات فعل , غير مدروسة وغير محسوبة (الرفض الكلّي والانعزال الكلّي أو التبعية والانتهازية والانبطاح الكلّي) , على الأقل في ما يخصّ مصلحة المجتمع وليس مصلحة الأفراد أو بعض الجهات , في مقابل أعمال مدروسة ومحسوبة جيدا وبدقة من قبل الدول الكبرى.

ويمكن أن يضاف إلى الفريقين السابقين فريق ثالث متردد , غير ثابت على موقف , وهو الفريق الذي يتأرجح عادة بين الفريقين السابقين , فيوم مع الفريق الأول ويوم مع الفريق الثاني , وذلك يكون بحسب النزعات والمصالح وغيرها من المحفّزات مثل الخوف والتقاعس...

1- ونقصد بالخطورة هنا عملية تفكيك وتقسيم المجتمع والتأسيس لحروب أهلية متتالية

ومـع مـرور الوقـت , النتيجـة النهائيـة تكـون عـادة عـلى الشـكل التـالي: يتمكـن الفريـق الأول مـن تشـكيل ثقافـة ماديـة , تبعيّـة , إنتهازيـة , نفعيّـة , إسـتهلاكية , ضحلـة , مقلّـدة للـدول الكـبرى , ومسـوّقة لهـا ولمصالحهـا , ومستسـلمة للأمـر المفعـول.

أمـا الفريـق الثـاني , في المجتمـع نفسـه , ينتهـي إلى ثقافـة «روحيـة» , لا روح لهـا ولا منطـق , منغلقـة عـلى نفسـها , متشرنقـة , تعزلـه عـن التطـورات العالميـة في رومنسـية يوتوبيـة أصوليـة تكفيريـة مدمّـرة. وهـذا مـا نـراه في بعـض دول العـالم العـربي اليـوم (مثـل داعـش والنـصرة وغيرها).

ولا شـكّ في أنّ هـذه الثنائيـة المتصارعـة , والقائمـة عـلى النفعيّـة والرجعيّـة , في آن معـا , وعـلى التخـاذل والرفـض , كذلـك الأمـر , تخـدم , عـن قصـد أو عـن غـير قصـد , الهجمـة الثقافيـة المعولمـة , الهادفـة إلى تفتيـت المجتمعـات وإضعافهـا حتـى اندثارهـا وذوبانهـا.

طبعـا السـؤال المنطقـيّ الـذي يطـرح نفسـه هنـا هـو: مـا هـو الحـلّ؟ أو بالأحـرى مـا هـي الحلـول؟

برأينـا المتواضـع , أحـد الحلـول الأساسـية والأوّليـة يكمـن في إيجـاد , أو بالأحـرى , في إنشـاء تعريـف جديـد للثقافـة , ينبـع مـن صلـب واقعنـا الاجتماعـي , ومـن رؤيـة جديـدة لمسـتقبل هـذا الواقـع , ويحـدد هويتنـا ومصالحنـا , ويمهّـد الطريـق لبنـاء ثقافـة جديـدة.

لأنـه لا يمكـن الـكلام عـن ثقافـة جديـدة في مجتمـع مـا , قبـل الإجابـة عـن أسـئلة محـدّدة جوهريـة وشـاملة وهـي , بدايـة , مـن نحـن؟ هـل نحـن مجتمـع واحـد؟ هـل نحـن مجتمـع لـه هـدف في الحيـاة , ولـه مثـل عليـا , وإرادة واحـدة , ومصالـح واحـدة؟

لا يمكـن تحديـد أو تعيـين ثقافـة – ثقافـة شـعب مـا , وحمايتهـا , وصونهـا , مـن دون تحديـد هويـة هـذا الشـعب , ومـن يكـون , ومـا هـي مطالبـه العليـا , وأيـن هـي مصالحـه؟

الثقافـة , هـي روح المجتمـع وهويتـه , واليـوم في عـالم العولمـة , الثقافـة هـي أقـرب مـا يكـون إلى البحـث عـن الهويـة الضائعـة والـذات الضائعـة (والمصالـح المجتمعيـة الضائعـة أيضـا).

بعـد عمليـة إنشـاء مفهـوم الثقافـة , لعلّـه لا حـلّ , إلّا بالعمـل الـدؤوب مـن أجـل بنـاء ثقافة جديـدة , تجمـع ولا تفـرّق بـين أبنـاء الوطـن الواحـد , وثقافـة تعمـل مـن أجـل التناغـم الأفضـل بـين الحداثـة والأصالـة , وبـين الاسـتقلالية والانفتـاح الإيجـابي , فتحـافـظ عـلى الاسـتقلالية وفي الوقـت نفسـه تشـجّع عـلى التفاعـل البنّـاء مـع الآخـر (شرط ألا يكـون عـدوا). إنّ اسـتقلال الثقافـة هـو رفـض للتبعيـة والضيـاع والذوبـان , أمّـا التفاعـل , فهـو رفـض للانعـزال والاختنـاق والتقوقـع.

ومـن أجـل بنـاء الثقافـة هـذه , نعتقـد أنّ كلمـة الـسرّ هـي التربيـة. لوضـع قواعـد تربيـة إجتماعية-ثقافية-سياسـية جديـدة وجديـرة بتوليـد هكـذا ثقافـة.

ولعلّـه لا مفـرّ , في زمـن الـصراع هـذا , بـين المجتمعـات , حيـث البقـاء للأقـوى , مـن العمـل لثقافـة تولّـد المعنويـات القويـة الكامنـة في صميـم هـذا الشـعب فتعطيـه كلّ الثقـة بالنفـس , والعمـل مـن أجـل ثقافـة تحفّـز المواطنـين عـلى الانتـاج والابـداع , كلّ في مجالـه , وهـو الطريـق الوحيـد للتغلّـب عـلى التبعيـة. وأخـيرا , لا حـلّ إلّا بالعمـل مـن أجـل ثقافـة تعطـي شـعبنا القـوة. هـي ثقافـة القـوة.

هنـاك ثقافـة واحـدة في العـالم هـي ثقافـة القـوة. هكـذا يقـول نـزار قبـاني. حـين نكـون أقويـاء يحـترم العـالم ثقافتنـا. وحـين نكـون ضعفـاء نسـقط وتسـقط ثقافتنـا معنـا. عندمـا كانـت رومـا قويـة عسـكريا كانـت اللغـة اللاتينيـة سـيدة اللغـات.. وعندمـا سـقطت الامبراطوريـة الرومانيـة أصبحـت اللغـة اللاتينيـة طبـق سـباغيتي..

ثقافـة القـوة , سـيداتي سـادتي , والقـوة قوتـان , فكريـة - أدبيـة - فنّيـة - روحيّـة وماديـة - تكنولوجيـة - عسـكرية. هـي قـوة السـواعد وقـوة العقـول , والاثنتـان , في تفاعلهـما وتكاملهـما , سـتحددان مصيرنـا..

بنـاء عـلى كلّ مـا تقـدم نقـدّر جميعنـا عاليـا أهميـة هـذا المؤتمـر , فـكلّ الشـكر للقيّمـين عليـه والمنظّمـين وللحضـور الكريـم. وشـكراً.

ثـقافة جـبـل عامل : منابعها - خصائصها - مميزاتها



د. محمد امين كوراني

على هضاب جبل عامل تناثرت قرى ومزارع يخيّم عليها سكون دائم، ومن التلال قباب وصوامع تتسامى للعلاء، رابضة في القمم كمنارات إيمان، تضفي على تلك البقعة روحانية وجمالاً سماويًّا، فعلى قمم تلاله مقامات أنبياء ومقابر صالحين وأديرة لنسّاك عبروا التاريخ، وكثير من المقامات عائد إلى أديان مختلفة وعديدة تشير إلى أنّ هذه البقعة كانت موطن حضارات قديمة. وعلى الروابي وعند الشواطئ قلاع عديدة ترقى إلى فترات من التاريخ القريب والبعيد، ومناظر الجبل العاملي الخلابة المتناسقة بروابيها وشطآنها وأشكالها ومظاهرها حرّكت بسكّانه نفحة الأدب والشّعر. وفي هذه البقعة نبغ عدد كبير ممن هم من نسل عاملة السّبئي، فكان منهم الشعراء والعلماء والقوّاد والأمراء[1]، واستمرّ ذلك في الأعصر التالية حيث نبغ العدد الكبير ممن يفاخر به جبل عامل سائر الأقطار، ويفاخر بهم عصرهم سائر الأعصار... ولم ينقطع العلم منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا... ولا يكاد يوجد أهل بلاد أخرى من علماء الإماميّة وفقهائهم[2] وجميع أهالي جبل عامل الخواص والعوام، والشريف والوضيع يجهدون في تعليم وتعلّم المسائل الاعتقاديّة والأحكام الفرعيّة طبق مذهب الإمامية في التقوى والمروءة والقناعة بطريقة صاحبهم ومولاهم أمير المؤمنين(ع)[3] وقد ذكر الحرّ العامليّ في كتاب الأمل الآمل: «سمعت من بعض مشايخنا أنّه اجتمع في جنازة في إحدى قرى جبل عامل سبعون مجتهدًا في عصر الشهيد الثاني وما قاربه... وقال: إنّ عدد علماء جبل عامل يقارب خمس عدد علمائنا المتأخرين، وكذا مؤلّفاتهم بالنسبة إلى مؤلّفات غيرهم، مع أنّ بلادهم بالنسبة إلى بلاد غيرهم أقلّ من عشر العشر، أعني جزءًا من مئة[4]. وحسبك في فضل جبل عامل أن يقصده الطّلّاب والعلماء

1- الأمين، محسن- خطط جبل عامل- ط-1 بيروت- 1961 ص 56
2- المصدر السابق نفسه ص57
3- المصدر نفسه ص57
4- المصدر نفسه ص57

من العراق وإيران وأن يبلغ عدد طلاب مدرسة المحقّق الميسي أربعمائة طالب فيما يقال... وكانت عيناثا وجزين وميس ومشغرة وجبع وكرك نوح وغيرها غاصّة بالمدارس وطلّاب العلم وتخرّج منها الألوف من أعاظم علماء الشيعة.[1]

منابع الحركة الثقافية في جبل عامل: عرفت السواحل اللبنانية ومنها جبل عامل الإسلام مع الفتح، وفي أساس العقيدة الإسلامية ضرورة تعليم الكتاب والسنة والأحاديث، وأحكام الشريعة. فالعلم والدين يبدوان متساويين في الوجود، وبوصول أبي ذرّ (رض) إلى بلاد الشام انتشر التشيّع في المناطق المأهولة، وتلك كانت حالة الشخصيات الأخرى كسلمان الفارسي وأبي الدرداء وغيرهم من المنفيين إلى بلاد الشام. ويبدو أنّ أبا ذرّ أطال المقام في المنطقة الواقعة بين القدس وطرابلس، يعني (جبل عامل). ومن وقتها انتظمت الجماعة العامليّة بالولاء السري والتشيّع لعليّ (ع)[2] وبوصول عليّ (ع) إلى سدّة الخلافة فإنّ سلسلة من أنصاره المبلّغين كانت حلقاتها الأولى: عمّار بن ياسر، وزيد بن أرقم قد مهّدت لوجود منطقة شيعيّة في الشّام قرب جبل حرمون، وكانت تسمّى أسعار[3] تدين بالولاء لعلي (ع). تلك كانت خلاصة ما أثبته المؤرخون من وجود شيعة لعليّ (ع)في ذلك العهد الراشدي.إذن،كان للدّين أثره الفعّال في المجتمع العاملي؛إذ راح يطبعه بطابع العقيدة المتأتّية من التيار الفكري المتأثّر بطلاب العلم لاحقاً عبر الوافدين من العراق وإيران[4]. ولا ريب أنّ علماء هذه البلاد وفقهاءها كانوا على اتصال في القرون الأولى بالأئمّة الأبرار من أهل البيت(ع) وعنهم أخذوا أصول مذهبهم وفروعه وأنواع الفرائض والعبادات لاسيما في عصر الإمام السّادس جعفر بن محمد الصّادق (ع)حيث دَوّنت الأحكام الشّرعية في فقه أهل البيت(ع) فانتشرت الكتب وانتظمت حلقات التدريس على المذهب الجعفري[5]. ولّما كان العلويون يتعرّضون للضغط والاضطهاد في العصرين الأموي والعباسي كان الكثير منهم يلجأ إلى التقية، خصوصًا في جبل عامل الذي أحاط به المخالفون مذهبًا وسياسة، وذلك درءًا للأضرار وخوفًا من الموت المحتّم. لذلك لم يصلنا من حوادث تلك الأيام إلا النذر اليسير[6]. ولّما انقضت تلك الدول وزال معها عهد الجور والإرهاق، وظهرت دول البويهيين والحمدانيين ودولة العلويين استطاع الشيعة أن يجاهروا بمذهبهم في مختلف الأقطار، ومنها جبل عامل الذي اشتهر بأهل العلم والفضل كالشيخ طومان بن صالح العاملي والشيخ مشرف العاملي والشيخ مكّي بن محمد الجزيني وغيرهم وغيرهم[7].

الدين منبع النشاط الفكري: عرفت السواحل اللبنانية الإسلام مع الفتح، وفي أساس

1- المصدر نفسه ص -57 58
2- الزين، علي- مع التاريخ العاملي- ص -57 58
3- كرد، علي- محمد- خطط الشام- مكتبة النوري دمشق -1983 ص 252
4- الحر- عبد المجيد- معالم الأدب العاملي – دار الآفاق- بيروت- ط-1 1989 ص57
5- صفا، محمد جابر، تاريخ جبل عامل، دار النهار، بيروت، ط2، ص233
6- المصدر نفسه، ص 234
7- المصدر نفسه، ص 234

العقيدة الإسلاميّة ضرورة تعليم الكتاب وأحكام الشريعة، فالعلم والدين يبدوان أساسيّين في الوجود. ولم تبرز حركة تعليم ديني في القرنين الأولين عدا بروز اسم هشام ابن الغازي بن ربيعة الجرشي الصيداوي 156 هـ، الذي روى عن مكحول ونافع ابن المبارك[1] لكن بذور الوجه الشيعي للاسلام غرست منذ أواسط القرن الأول على يد أبي ذرّ الغفاري[2] ومع الأيام ازداد العامليون تعلّقًا بالولاء لعلي وآل بيته، وهذا ما يفسر الحديث الذي أورده الحر العاملي في مقدمة كتابه أمل الآمل عن الإمام الصادق (ع)، أنه عندما سئل من أولياؤكم وشيعتكم والممتثلين لأوامركم والآخذين بأقوالكم؟ قال (ع): بلدة بالشام. قيل: يا ابن رسول الله أعمال الشام متّسعة. قال: بلدة بأعمال الشقيف، أرنون، وبيوت وربوع تعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال. قيل يا ابن رسول الله: هؤلاء شيعتكم؟ قال (ع): هؤلاء شيعتنا حقًّا وهم أنصارنا واخواننا والمواسون لغربتنا والحافظون لسرنا، واللينة قلوبهم لنا، والقاسية قلوبهم على أعدائنا، وهم كسكان السفينة في حال غيبتنا، تمحل البلاد دون بلادهم، ولا يصابون بالصواعق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يعرفون حقوق الله ويساوون بين اخوانهم، أولئك المرحومون المغفور لحيّهم وميّتهم، وذكرهم وأنثاهم، ولأسودهم وأبيضهم، وحرّهم وعبدهم، وإنّ فيهم رجالاً ينتظرون، والله يحبّ المنتظرين.[3] وتبرز صيدا وصور والصرفند كقواعد علميّة بعد القرن الثاني، ويجتمع فيها الكثير من المحدثين والحفاظ ،كابن جُمَيْع الحافظ المحدّث الصّيداوي وأبي عبدالله محمد بن علي الصوري[4] ومحمد الأنصاري الصّرفندي في القرن الثالث ، وممن اشتغل بالحديث إبن مزاحم الصّوري وإبراهيم الصّرفندي الذي حدّث في صور[5] ولم يبق العامليون بمعزل عن الحركات الشيعية العلمية الأخرى في العراق وغيرها لأنّ مذهب التّشيع يلزمهم بالأخذ عمّن هو أقوى وأكثرعلماً وأوفر فقهاً وهذا مادفع العامليين للتواصل مع حواضر العلم والفقه لتيسير الأمور الدينيّة،حتى أنّ الفئات الدّينية المقيمة في العراق بذلت الكثير من عنايتها العلمية في جبل عامل . فهاهو الشريف المرتضى يصنّف لأهل صيدا مسائل فقهية سمّيت بالمسائل الصيداوية[6]، أما الكراجكي فقد أقام في طرابلس وصيدا وصور ، وقد ألّف لأهل صيدا كتاب(انتفاع المؤمنين) وكتاب (الأصول في مذهب آل الرسول) ، وقد ألّفه لإخوانه في صور وقد أقام بينهم[7]. وكان من نتائج الإنتشار الثقافي الواسع في زمن المأمون العباسي وما قبله وما بعده بروز مدينة شيعيّة هامة في بلاد الشام ،إنها حمص التي خرج منها علماء الإمامية وشعراؤهم وأهل العلم. وبحسب (بورون) فإنّ الطائفة

1 - الزين، عارف، تاريخ صيدا، ص35
2- خطط الشام، م.س،ج6 ،ص252
3- الحرّ العاملي، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد 1965، ص 15-16
4 - خطط الشام ، م.س، ج4، ص31
5- تاريخ إبن عساكر،دار الفكر، بيروت ،1995ج2، ص198
6- أمالي المرتضى،دار إحياء الكتب العربية،دمشق4591، القسم الأول، المقدّمة ص115
7- إبن العماد ، شذرات الذهب، دار إبن كثير، دمشق 1986،ج3، ص283

الشيعية غدت هي الأقوى على سفوح لبنان وفي حوران وفي الجبال العليا من سوريا[1]. وفي هذه الفترة بدأ رُسُل الأئمة (ع) وتلاميذهم بالإنتشار في أرجاء الشام ... وقد ظهرت من خلال كتب الرجال وسِيَرهم أسماء كثيرة عملت على نشر الثقافة الشيعية في تلك الحقب[2]. ويبدو أنّ بصمات الأئمة(ع) كانت واضحة من خلال أولئك المبعوثين الذين تتلمذوا على أيديهم . ويطالعنا في معاجم الرجال الكثير من الأسماء وأصحاب المزارات والمراقد التي مازالت باقية إلى أيامنا والمنتشرة في أماكن عديدة من لبنان ،وخصوصاً في جبل عامل . وقد عثرت على أكثر من ثلاثماية إسم من تلامذة الأئمة (ع) ومبعوثيهم جُلُّهم أقام في مدينة صور وجوارها ، ومنهم: إبراهيم بن رفاعة الأنصاري وهو من أصحاب الإمامين : الباقر والصادق(ع) وقبره في رأس العين ، جنوبي صور،(مخيم الرشيديّة حاليا)[3]. ومن أصحاب الإمام الصّادق (ع) في صور ،أبو هيثم المرزوي الخرساني ومحمد إبن إبراهيم الصوري[4]، ومحمد إبن مصعب الصوري وحُباش الصوري وإبراهيم بن منصور البلخي المدفون في قرية المنصوري ، والتي اكتسبت إسمها منه ،وما زال مقامه موجودا إلى أيامنا ، وكان قد قرأ على يد الإمام جعفر الصّادق(ع)[5]، وأبو شميلة في النبطية ، وكان من الرواة عن الإمام جعفر الصّادق (ع) وهناك محدّث آخر يحمل نفس الإسم وقد حدّث عن الإمام الهادي (ع)[6]، وأبو أيوب العاملي الجزيني وكان منقطعاً إلى الإمام الرضا (ع)[7]. ولعل وقوع جبل عامل في حكم الخلافة الفاطمية في القرنين الرابع والخامس الهجري، متّن صِلاتهم الفقهية بالفقه الإمامي في الأزهر[8]. وقد خرج من صور في هذه الحقبة مجموعة كبيرة من رجال التفسير والحديث والفقه، وهكذا يبدو لنا أنّ هذه المنطقة كانت تساير الحركات العلميّة القائمة في دمشق وبغداد ومصر وتتأثر بها وتأخذ عنها، وكانت في أحيان كثيرة مراكز علمية يجتمع فيها الفقهاء والمحدّثون والحفاظ والأدباء، وكانت حواضر جبل عامل الثلاث آنذاك : صيدا وصور والصّرفند مما يُرحل إليها في طلب العلم ، وكان جبل عامل قريبا من الشام والرّملة وغزّة ودمشق والقدس وكانت هذه كلها مراكز للعلم آنذاك[9]. وللإثبات،فإنّ جبل عامل كان يمر بدور التّطلّع إلى المعرفة متّصلا بحواضر العلم من جهة، ويقصده العلماء من جهة ثانية ، وكانت الثقافة فيه دينيّة محضة حتى تمركزت الحركة الفكرية في هذا الجبل العاملي منتشرة في جميع أصقاعه في القرن السابع الهجري معتمدة على العلمية وعلى المدارس القائمة في البيئة العاملية[10].

1 - بورون، تاريخ الدروزفي لبنان وحوران، باريس 1930، ص295
2 - خطط الشام، م.س، م51، ص213
3 - إبن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي ،بيروت 1971،ج1، ص79
4 - المصدر السابق، ج5، ص233
5 - إبن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب، ج4، ص262
6 - رجال النجاشي، ص338
7 - أمل الآمل، ج1، ص111
8 - العرفان، سليمان ظاهر، م31، ص122
9 - م.ن
10 - مكي، محمد كاظم. الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، ط2، 1982، دار الأندلس بيروت، ص24

صِلَـة جبـل عامـل بالحـواضر العلميـة : (الرحلـة إلى العـراق) :كان العـراق المقصـد الأول فهـو الـذي يعتمـد الفقـه الإمامـي وأصولـه، وابتـدأت بحـاضرة الكوفـة أولاً،وانتقلـت منهـا إلى بغداد، وقـد بلـغ الفقـه الجعفـري أوج رقيّـه في عهـد الشريـف الـرضي والشريـف المرتضى،وقـد كان لأبناء جبـل عامـل صلـة بهـذا الأخـير، كـما كانـوا عـلى صلـة يالشـيخ المفيـد وتلميـذه الكراجكـي الـذي نـزل مدينـة صيـدا. ويُعتـبر إسـماعيل إبـن الحسـين العـوْدي الجزينـي العاملي(495هــ- 1190م) رائـد الرّحلـة العلميّـة إلى العـراق وأخـذ عـن حلقـات العلـماء في الحِلّـة ثـم رجـع إلى بلـده جزيـن[1]، تـم ذهـب الشـيخ طومـان المنـاري في أواسـط القـرن السّـابع الهجـري إلى الحِلّـة وأجـازه علماؤهـا[2]. وممـن قصـد الحلّـة أيضـا صالـح بـن مـشرف جـد الشـهيد الثـاني وهومـن تلامـذة العلامـة الحـلّي ، وكذلـك جمـال الديـن يوسـف بـن حاتـم الشـامي العامـلي، وإبـن الحسـام العاملي،وقـد أجـازه الشـيخ فخرالديـن إبـن المطهـر العلامة(771هــ- 1370م)[3]. ومـن الذيـن ارتحلـوا إلى الحـواضر العلميّـة الشّـهيد الأول محمـد بـن مكـي الجزينـي .وبعـد سـقوط بغـداد بيـد المغـول تراجعـت الحركـة العلميـة وتوقفـت.. وهـذا مادعـا علـماء جبـل عامـل إلى التفكـير بإقامـة المـدارس عـلى الأرض العامليـة لتسـدّ مسـدَّ الحـواضر العلميـة في العـراق ، عـلى أنّ العامليـين عـادوا للهجـرة العلميـة إلى النّجـف بعـد هـدوء الأحـوال السياسـية ليتخـرّج أبناؤهـا عـلى أيـدي أسـاطين الفقـه الجعفـري وأصولـه[4].

(الرحلـة إلى إيـران): كان القـرن العـاشر الهجـري في عـصر الدّولـة الصّفويّـة في إيـران مجـالاً واسـعاً ليرفـد علـوم الشّـيعة... وفي هـذا القـرن توافـد العامليـون عـلى بـلاد فـارس ونالـوا الحضـوة لـدى ملوكهـا وأصبـح عـدد جـمٌّ منهـم شـيوخ الإسـلام فيهـا ، ومنهـم حسـين عبـد الصّمـد والمحقـق الكركـي والبهـاء العامـلي وحبيـب الله الموسـوي العامـلي وحسـين بـن محمـد عـلي الجبعـي ومحمـد المشـغري ومحمـد بـن الحسـن الحـر العامـلي وكذلـك عـلي بـن محمـد أحـد أحفـاد الشـهيد الثـاني وصاحـب الـدر المنثـور والمحقـق الميسي وغيرهـم الكثير[5].وعـلى أثـر فتنـة الجـزار وانتفاضـة جبـل عامـل وفتكـه بأهاليـه هربـت عائـلات عامليـة محتميـة ببـلاد فـارس، ومنهـم مـن طـاب لـه المقـام هنـاك ومازالـت ذراريهـم مقيمـة، ومـا زالـت بصـمات العلـماء العامليـين قائمـة في إيـران حتـى أيامنـا هـذه . وتعتـبر المؤلفـات التـي تركهـا هـؤلاء العلـماء في الفقـه والأصـول والرياضيـات والفلـك والهندسـة جـزءاً مـن الـتراث اللبنـاني الـذي لايسـتهان بـه عـلى الأرض الإيرانيـة، ولم تنقطـع هـذه الرّحـلات ، وإنّـما تضاءلـت بعـد أن أصبحـت المـدارس في جبـل عامـل متعدّدة...وقـد أفـاد العامليـون مـن فـارس كـما أفادوهـا ودرَّسـوا الفقـه والأصـول ويـسَّرت لهـم رحـب المقـام وأمّنـت لهـم حريّـة الفكـر[6].(الرحلـة إلى الهنـد): قصـد أعـلام كبـار

1- الأمين ،السيد محسن،أعيان الشيعة ،ج11، ص282
2- م.ن
3- العرفان، م31، ص123
4- الحركة الفكرية، م.س، ص26
5- م. ن، ص27-26
6- م. ن، ص27

من علماء جبل عامل الهند وحيدر أباد حيث نالوا المكانة الرفيعة في العلم والحكم ، فهاهو جمال الدين بن علي الحسيني الجبعي يسكن حيدر أباد وكان مرجعا لفضلائها وأكابرها[1]، وكذلك محمد بن علي خاتون الذي أقام في حيدر أباد وتولى فيها منصب الصّدر الأعظم (رئيس الوزراء) وما زال رسمه في المتحف البريطاني[2]. وإن مدبّر الثورة ضد الجزار بعد 1781م قد فرّ بعد فشل ثورته إلى إيران ومنها إلى الهند حيث أصبح وزيرا لأحد ملوكها[3] وقد أقام الشاعر محمد بن علي المشغري (1680) في حيدر أباد واتصل بكبار السياسيين فيها.

(الرحلة إلى مصر): ساح العلماء العامليون في البلاد ليأخذوا عن أجلاء المفكرين . فالشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني روى عن أربعين شيخا من علماء المذاهب الأخرى في مكة وبغداد ومصر ودمشق .وقد استجاز من علماء مصر وغيرهم.وأما الشهيد الثاني فقد زارمصر سنة942ه وأخذ من علمائها ومفكريها وزينب فواز أقامت وكتبت في مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي .

وهكذا فقد طوّف العامليون في البلاد المعمورة بالعلم ينشرون الثقافة ويأخذون المعرفة. وبكل ماأوتوا من مقدرة على الإبداع ، وفي تطوافهم تزودوا بالمعارف واكتسبوا العلوم المتنوّعة... ثم أنشأوا المدارس للقضاء على الأمّيّة وليفقهوا أبناءهم بمذهبهم... وفي هذه المدارس ترعرع الأدب والشعر الذي ساير الحركة العلمية وكان متمّما للفقه والأصول والمنطق ، وكلّ علاّمة فقيه كان أديبا وشاعرا.

نتائج الرحلات العلمية: إن تردّد أبناء جبل عامل على المراكز العلمية على دمشق وما حولها وفيها أفذاذ عصرهم ونوابغه ، كل ذلك أدّى إلى أن يقصد عدد كبير من أهل المدن الساحلية بلاد الشام لأخذ الفقه والحديث واللغة على أيدي أئمّتها.(42) وإن تردّد تلامذة الأئمة (ع) والمحدثين والفقهاء على حواجز جبل عامل، قد ساهموا في النّشاط الفكري ، ولعل مدينة صور قد نزل فيها العشرات بل المئات من هذه النّخب . ومن أشهر المحدّثين والرواة الذين ذاع صيتهم في منطقة صور آنذاك غيث بن علي الصوري الأرمنازي وأقام الحلقات العلمية(43) . ومازالت عائلة هذا المحدّث متواجدة حتى أيامنا هذه في قرية شيحين الواقعة جنوبي صور. وهنا كانت الإنطلاقة لقيام المدينة بدور هام في نشأة الحياة العلمية الشاملة ...وهذا سرّ من أسرار السّلوك والآداب الخلقية في المجتمع العاملي الشيعي بالتحديد ، أضف إلى ذلك النحويون واللغويون ، ويضيق المجال لذكر أسمائهم .كما خرج من صور أيضا جماعة اشتغلوا بالطّب والجراحة والنّبات ، وكذلك فإنّ النشاط الأدبي كان

1- العرفان، ج28، ص230
2- م.ن،ص 226
3- م.ن

على رقي في الحواضر العلمية خلال الدور الفاطمي ، رغم أن العاملين بالوعظ والحديث وعلوم الدين كان يفوق عددهم أضعاف الأعلام المشتغلين بالأدب ، وهناك أسماء تحمل إسم العاملي ، لم يعيشوا في الجبل العاملي ولا يمكننا أن نعتبرهم من أعلام الحياة العلمية والبلاد العاملية ، كعدي بن الرّقاع العاملي الذي كان شاعر الأمويين في دمشق وكان معاصراً لجرير.(44) وممن اشتهر من هؤلاء الأدباء والشّعراء في هذا الدور: أبي عبدالله عبد المحسن الصوري. وتقيّة إبنة غيث الأرمنازي. ومن شعراء هذا العهد: إسماعيل بن الحسين العودي العاملي.(45) ونلاحظ هنا أنّ الحياة العلمية في هذا الدوربدأت تتجه صُعداًلتحل في قرى الجبال والتلال المحيطة، مخليةً السواحل، ولعل مرد ذلك إلى الحروب الصليبية التي استهدفت مدن الساحل، وفي نهاية القرن السادس الهجري برزت جزين لتسهم في النشاط العلمي وكذلك المنارة من أقصى الجنوب الشرقي على يد الشيخ طومان المناري، ونرى شاعراً آخرمن جزين وهو إبراهيم بن الحسام العاملي(46).

إن وجود عدد كبير من العلماء بعد القرن السادس الهجري في جبل عامل وتخومه لم يأت صدفة ،إنما هو نتاج حركة هجرة عصفت بالمنطقة وجلّها من مهاجري حلب وطرابلس وصيدا، أولئك وممن ذكرنا أسماءهم كانوا الممهدين الأوائل لنهضة جزين العلمية والفقهية والثقافية..وجزين هذه ظلت طاهرة من الإحتلال الصليبي الذي ران على جبل عامل قرابة قرنين من الزّمن ، ففيها ترعرع ونشأ محمد بن مكي الجزيني لتشهد سنة 720هـ حركة علمية ناشئة . فوالده كان من فضلاء مشايخ زمانه وجدّه عالم ثقة . ولما عاد بن مكي من رحلته العلمية في حِلَّة العراق عاد متوّجاً بلقب «أفقه جميع الفقهاء» و«شيخ الشيعة والمجتهد في مذهبهم»(47)

ويذكر كرد علي : أنّ انحطاط العلم أيّام التّرك لم تكن ميمونة على المعارف في بلاد الشّام قبل القرون التي سبقت. (48)تمايز عن هذه الحالة بعض المناطق ، ومنها بلاد عاملة ، التي زخرت بالمدارس ، التي خرّجت العديد من العلماء ، وذلك بعد انحسار العلم والنّشاط الفكري عن الكثير من العواصم الإسلاميّة ، نتيجة الأحداث الدّامية والغزوات المتتالية .وكانت هناك واحات ماتزال مخضوضرة بالمعرفة والثّقافة ، يخصب فيها الفكر ، ويعطي إنتاجاً رائعاً ...وكان لإيران وجبل عامل النّصيب الأكبر فيهما ..وظهر في هذا الدّور عدد وفير من العلماء النابغين من الشّيعة الإماميّة في جميع المعارف والفنون، وأفادوا أجيالهم بما أعطوه من مدد علمي وفكري(49). هذا النشاط العلمي أدهش بعض المطلعين على تراث العامليين، الذي استغرب استمرار التحصيل العلمي العالي في مناطق ريفية فقيرة، محرومة من دعم السلطة الحاكمة، وبعيدة عن المدن الكبرى. ويفتش عن الأسباب، فيرد ذلك إلى قوة الإيمان التي تميز بها شيعة الإمام علي (ع). بالإضافة إلى

وجود المدن المقدسة في العراق التي أعطت دعمًا خارجيًا للعلم والمتعلمين. (50)

الخصائص الثقافية في جبل عامل: بلغت الحركة الثقافية نشاطها في القرون الهجرية الأولى ، فازدهر الجبل بالعلماء ، ويكفي أن يكون الحر العاملي وهو من أبناء القرن الحادي عشر الهجري قد ترجم لما يزيد على مائتين من مفكريهم الذين عاشوا في هذا العهد، في كتابه أمل الآمل،ولعله فاته الكثير ممن تقدّم على عصره(51)من رجال العلم وأرباب المعارف ، وقد تحوّلت أنظار العلماء في أقطار الإماميين إلى جبل عامل في هذه الفترة ،وباتوا يعتبرون جبل عامل منبت هذه الفئة الخيّرة من رجال الدين ، وعلماء العقيدة،وهاهو أمير خراسان علي بن المؤيّد يرجوا الشهيد الأول محمد بن مكي ، ويلح عليه باستعطاف راغبا أن يوافيه إلى خراسان لنشر العقيدة(52).

في الدور الأول: إن النّتاج الأدبي والفكري الدائم الحياة قد استمر بعد الفتح الإسلامي بقرنين من الزمن حتى أيامناهذه، ومن خصائص العاملي البذل والعطاء في دنيا الشعر والأدب والنثر وفي حقول الفقه والتشريع والفلسفة والمنطق والعلوم. ويكمن وراء هذا البقاء باعثان اثنان ، أولهما الفطرة الأدبية ذات المنحى الشعري ، طبع عليها العاملي، وتبدو لنا من خلال استعراضنا لنتاج العامليين الأدبي الذي هو من دنيا الشعر في غالبه، وما زال العامليون حتى أيامنا هذه يمتلكون مزاجا شعريا رقيقاًبرز في ماضي نتاجهم ، وفي الحاضر على ألسنة شعرائهم المثقفين والزجليين.

في الدور الثاني: لقد اغتنى العلماء العامليون يوما بعد يوم بالتجارب والخبرات والأحداث،مما جعل من هذه التجارب جزءً يتصل بتطور وتقدم كل عالم من أولئك العلماء.(53)وبالرغم من أن معظم رجالات جبل عامل المبرّزين بعلومهم وثقافتهم لم يكونوا يعتبرون النزاع السياسي المصطرع من حولهم خلال الحكم المملوكي أكثر من أخبار تصل إليهم، إلا أنهم حين دخلوا بشعرهم ونثرهم في ضمير الأمة وفكرها الأدبي، جاروْا تجارب وخبرات الأقطار المحيطة بهم، وأصبحوا قطعة من تاريخها الأدبي الخاص ملتصقين بأغراضها وفنونها أشد الإلتصاق باعتبارهم جزءً منها.(54) تلك كانت قرون حافلة بحركة علمية ناشطة عملت في البداية على تركيز الثقافة في الأرض العاملية،ثم انطلق بعض روادها إلى أجواء أرحب ينشرون المعرفة في بلاد عديدة مجاورة.(55)

من خلال هذا التطور الفكري في هذا الدور لا نعثر في تلك الوثبة العاملية الجديدة ، على عامل سياسي يشد أزرها في أرض الوطن، هذا إذا لم نجد العكس . فجبل عامل خلال هذه العصور، كان جزءً من بلاد الشام،تابعا في وضعه السياسي للسلطات الحاكمة في هذه البقاع ، أو المسيطرة عليها من قبل المماليك ، ،ينالها ماينال المناطق من خير وشر. (56)

ويبدو أن الحكومات القائمة ذاك العصر كانت قد ضيّقت الخناق على علماء الجبل العاملي في إبلاغهم الدعوة إلى الحرية الفكرية، وذهب ضحية هذا الضغط شهيدان من كبار مفكريهم فأصبحا يعرفان بالشهيد الأول والشهيد الثاني، وكانت الخصوصيات المذهبية سبب مقتل هذين الشهيدين.(57) إن ازدحام الجبل العاملي بالمدارس وتعدد الرحلات إلى الحواضر العلمية يسمح لنا بتسمية هذا العهد : دور المدارس والإتصال بالعراق وفارس.(58)

ومن الدوافع الكامنة وراء دوام البذل الفكري، هو إرادة العاملي العملاقة وعصاميته المفردة التي رغبت في دعم مذهبه الفرد المستهان الضعيف لنأيه عمّن يشاكله في المعتقد ، في بيئات كانت ترى في معتقده خروجا على الإسلام ، بل وزندقة تستحق الفناء أكثر الأحيان؛ فلا بد والحالة هذه أن ينشطوا لإثارة حركة علمية، تعتمد إلى تركيز الدين في نفوس أبنائهم ودعم التشريع بمؤلفاتهم الدينية ، والهجرة في سبيل التوسع بالتثقف الديني، وعلى هامش علوم الدين قامت علوم واستتبعتها حركة نشيطة تنمو دون توقف .(59)

الدور الثالث للنهضة الثقافية في جبل عامل(دور حكومات الإقطاع): إن العامل الجديد الذي ميز هذا الدور عما سبقه هو إسهام رجال الحكم أنفسهم، بنشر المعارف واحتضان المدارس،وإغاثة القائمين عليها، والتردد إليها، ولعل أبرزها في هذه الفترة ، هو قيام حكومات إقطاعية في ربوع جبل عامل، يتولاها زعماء من أبناء هذا الجبل، وباستطاعتنا أن نعتبر القرن العاشر الهجري (السابع عشر الميلادي) منطلق عهد جديد يطل على جبل عامل، وقد استطال هذا العهد حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، حيث استطاع ساستنا كما ذكر الشيخ علي الزين (أن يدافعوا عن كيانهم في كثير من المواقف السلبية بما تهيّأ لهم من تيقظ روح النجدة والحميّة في أمّتهم المضطهدة، وأن ينقذوا بلادهم وأعراضهم من خطر القتل، وما إلى ذلك من أنواع التعسّف والتدمير).(60) ومن أهم الركائز التي قام عليها النشاط الفكري والحركة الأدبية خلال هذا الدور لاتعدو ثلاثة، إثنان اعتُبرا عماد الحركة في العهد الماضي وهما: (المدارس القائمة في الجبل،والرحلة العلمية إلى موطن المعرفة، وآخر جديد طارئ على هذا العهد وهو إسهام السياسيين).(61)

مساهمة المدارس والرحلات العلمية: إن عدد المدارس التي قامت في هذا الدور يفوق عددها على المدارس التي انتشرت في العهود السابقة، فلقد انتشرت في جبل عامل مدارس كثيرة كانت تسهل للطلبة الإلمام بالدروس التحضيرية لجامعة النجف، فتخفف كثيرا من مشاق الهجرة إلى العراق وإيران، وقامت في جويا وشقرا والكوثرية وجبع وحنوية وبنت جبيل والنميرية خلال القرن الثالث عشر الهجري، بينما أكمل طلابها علومهم وتعمّقوا في دراساتهم عندما هاجروا إلى العراق وإيران.(62) كان جبل عامل شاذا عن حالة الركود العلمي في بلاد الشام، حيث زخرت بلاد عاملة بالمدارس،التي خرّجت

العديـد مـن العلـماء. وبعـد الإنحسـار العلمـي والنشـاط الفكـري عـن الكثـير مـن العواصـم الإسـلامية، نتيجـة الأحـداث الداميـة والغـزوات المتتاليـة التـي تعرضـت لهـا بـلاد المسـلمين، وبينـما كان الركـود الفكـري جاثـما عـلى صـدر الأمـة في ذلـك العـصر، كانـت هنـاك واحـات لاتـزال مخضـوضرة بالمعرفـة والثقافـة، يخصـب فيهـا الفكـر ويعطـي إنتاجـا رائعـاً... وكان لجبـل عامـل النصيـب الأوفـر منهـا، وقـد انطلقـت منـه طاقـات الإنسـان في يقظـة علميـة رائعـة في مختلـف ميادیـن الثقافـة، ممـا جعلتهـا غنيـة إلى حـد بعيـد برجـالات كبـار كانـوا قـواد القافلـة العلميـة المنطلقـة، وظهـر في هـذا الدورعـدد وفـير مـن العلـماء النابغـين مـن الشـيعة الإماميـة في جميـع المعـارف والفنـون، ازدهـر بهـم العلـم وأعشـب بهـم الفكـر، وأفـادوا أجيالهـم بماأعطـوه مـن مـدد علمـي وفكـري.(63) هـذا النشـاط العلمـي أدهـش بعـض المطلعـين عـلى تـراث العامليـين، الـذي اسـتغرب اسـتمرار التحصيـل العلمـي العـالي في مناطـق ريفيّـة فقيرة،محرومـة مـن دعـم السـلطة الحاكمـة، وبعيـدة عـن المـدن الكـبرى. ويفتـش عـن الأسـباب، فـيرد ذلـك إلى قـوة الإيـمان التـي تميـز بهـا شـيعة الإمـام عـلي (ع)، بالإضافـة إلى وجـود المـدن المقدسـة في العـراق التـي أعطـت دعـما خارجيـا للعلـم والمتعلمـين .(64) هـذا الوضـع الـذي تميّـز بـه العامليـون كانـت لـه أسـباب متعـدّدة. وإذا تتبّعنـا النشـاط العلمـي والثقـافي في جبـل عامـل نلاحـظ أن هـذا النشـاط قـد بـدأ منـذ وقـت مبكـر، لكـن ذروتـه ابتـدأت في جزيـن بمدرسـة الشـهيد الأول ، الشـيخ محمـد بـن مكـي الجزينـي العامـلي المتوفى786هــ/ 1384م .واسـتمر متمثـلاً بعـدد جـمّ مـن العلـماء المحققـين والمؤلفـين حتـى مطلـع القـرن العشريـن.(65) وأهـم الأسـباب التـي سـاعدت عـلى قيـام النهضـة هـو وجـود المـدارس في بـلاد العامليـين، واسـتقدام الصفويـين للعديـد مـن علـماء عاملـة، وكذلـك، الإضطهـاد السـياسي الـذي لاقـاه العامليـون ووجـود مكتبـات متعـدّدة، والعلـماء الأفـذاذ وخصوصـا في تلـك الفـترة كأمثـال الشـهيد الثـاني وولـده صاحـب المعـالم والمحقـق الكركـي، والشـيخ البهائـي والحـر العامـلي .

مساهمة الحكام ورجال السياسة: ماتميـز بـه هـذا الـدور هـو العامـل الجديـد في أسـاس هـذه الحركـة الفكريـة ،سـابقة رجـال الحكـم الذيـن اهتمـوا بنـشر المعـارف ، واحتضـان المـدارس، وإعانـة القائمـين عليهـا والـتردد إليهـا، حتـى أن حمـد البيـك كان طالبـا في مدرسـة الكوثريـة(66) وإنّ الحيـاة العلميـة والأدبيـة قـد ازدهـرت أثنـاء حكمـه، وطيلـة حياتـه، فأصبـح بلاطـه في قلعـة تبنـين قبلـة الشـعراء الوافديـن عليـه، ليـس مـن أنحـاء لبنـان فقـط بـل مـن بـلاد عربيـة عديـدة ومجـاورة كالعـراق وفلسـطين والشـام.(67) هـذا عـدا عـن الإسـهام الفعـلي والمبـاشر مـن بعـض الحـكام كعـلي بـك الأسـعد ،الـذي كان شـاعرا وأديبـا وقـد سـكن قلعـة تبنـين بعـد عمـه الشـيخ حمـد البيـك وجعلهـا مركـز حكمـه ولـه قصائـد في الفخـر واالمجـد . وولـده شـبيب باشـا الـذي كان أديبـا وشـاعرا. وهكـذا يبـدو العامـل السـياسي ذا أثـر مهـم في الحركـة، يفـوق أثـر المـدارس والرحلـة العلميـة، لأنـه أسـهم مباشـرة بـما أجزلـه مـن عطـاء وقـدّم مـن الهبـات للعلـماء والأدباء،

ولقد أتى نتاج هذا العهد متأثراً بالسياسة، منطبعا أدبه بأجوائها.(68)

خصائص الحركة الفكرية في هذا الدور: تميزت الحركة الفكرية في هذا الدور بثلاث خصائص كانت على التوالي :

1 - التأثر بالطابع الديني: لأن القائمين عليها هم جماعات علماء الدين ، حيث وضعوا لها بثقافتهم ومعارفهم الحدود الفكرية ، ثم المدارس المنتشرة في ربوع جبل عامل، وكانت في البداية منازل للتدريس الديني، والتثقيف الفقهي ، الذي كان يعتبر الركيزة الأولى في ثقافة الطلاب ، وما عداه من علوم يصيب الدرجة الثانية في الإهتمام . وتبرز هذه الميّزة في المؤلفات الفقهية والمدح الديني.(69)

2 - التأثر بالوضع السياسي: تأثرت الحركة الفكرية بالوضع السياسي، والحالة الإجتماعية،من استعداد دائم للحروب، وكثرة الوقائع، وأثر الزعماء السياسيين، بالتفاف الأدباء والعلماء حولهم، وهذا ماحدا إلى قيام مصنفات دوّنت الوقائع والأحداث ونشوء أدب سياسي.(70)

3 - إتساع الحركة وشموليتها: ..وتبدو هذه الحركة متّسعة، وشاملة وقد نزلت إلى صفوف العامة، ولم تعش فقط في رحاب العلماء والطبقة العليا من الشعب، فقد أخذت بها ربات الخدور، وشارك الجمهورَ في أدبه العامي، وأزجاله الشعبية، وبرزت حركة أدبية في صفوف النساء، ومما يجسّد واقع هذه الحركة ويصوّر واقعها الثقافي مانظمه الشاعر العاملي الشيخ إبراهيم يحيى وهو من الشعراء الكبار في هذا الدور، وقد جاء ماقاله وليداً لمعايشة ومشاهدة الواقع:

..أو عالم حبْرٍ إذا باحثته	حشد المحيط عليك بالغمرات
أو شاعر ذرْب اللسان تخاله	قحّاً ترعرع في الزمان العاتي
طبا بكلّ غريبة وحشيّة	نشأت من الآرام في الفلوات
ويصوغ كلّ بديعة حضرية	مصقولة الألفاظ كالمرآة
إن قال بَذَّ القائلين وقصّروا	عن درك سباق إلى الغايات(71)

إن الإزدهار الذي أصابته الحركة الفكرية والعلمية، والميّزات التي تجلّت بها، تبدو واضحة من خلال النتاج، الذي خلفه هذا العصر، والذي جلّى فيه العامليون خلال هذه الفترة، بالفقه والتفسير واللغة، وازدحم عصرهم بالمؤلفات التاريخية، أماالنشاط الأدبي فقد رأى نور فنون جديدة، أدخلتها السياسة وأسهم بها الشعب، وشاركت فيه المرأة، فكان لنا شعر سياسي ، وأزجال شعبية وإنتاج أدبي بأقلام النساء.[72]

وكان العلماء العامليون في هذا العهد قد اشتغلوا كسابقه من العهود بالفقه والأصول واللغة، ولم يأخذوا عن غيرهم من مؤلّفي الإماميّة فقط، بل لم يكونوا عالة عليهم، إذ قدّموا كما فعل سابقوهم نتاجا فقهيا وأدبيا، مازال حتى أيامنا هذه متدارسا في الجامعات الإسلامية، ومصنّفات أعلام تومي إلى بالغ جهودهم، وكان أشهرها : مفتاح الكرامة، وهو موسوعة فقهية في المذهب الجعفري للعلامة محمد جواد الحسيني العاملي من بلدة شقراء. والوجيز في تفسير القرآن العزيز لعلي بن الحسين بن محي الدين الحارثي العاملي وكتاب محل القلائد في شرح الشواهد، وهو مؤلف جليل في علوم اللغة، من نحو وصرف.[73] أما في التاريخ والسِّير والمجاميع فإن الوقائع المشرّفة، والمعارك التي زينت جبين العامليين بالنصر، مالت برجال العلم ناحية التاريخ، فدوّنوا الأحداث اعتزازا بالماضي وفخرا...

وقد تعدّدت المؤلفات التاريخية، حتى أن بعضهم تعرّض لتدوين الأحداث سنة بعد سنة، كما فعل حيدر رضا الرّكيني، لكننا نسبح في غموض مسيطر، إذا ماأردنا استجلاء تاريخ العهود الماضية، ولعل الضغوط السياسية والنكبات التي تعرّض لها الجبل العاملي أضاعت الكثير من هذه الكتب التاريخية أو نُهبت أو أُحرقت، لكنه بقي مابقي بالحد الأدنى من التاريخ المشرق والمشرّف ككتاب أمل الآمل للحر العاملي، الذي كان تاريخ رجال كبار ونخبة من العلماء الأفذاذ الذين أخرجهم جبل عامل. ومن أبرز المؤلفات التاريخية المضافة إلى أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل، كتاب جبل عامل في قرنين وهو كتاب صغير، سُردت فيه الأحداث والوقائع، وما جرى في جبل عامل،من عوارض اقتصادية ووفيات الأعلام، وبناء القلاع وغارات الأعداء والمعارك وأسماء قادتها، والولاة وتاريخ ولايتهم وكتاب جبل عامل في قرن لحيدر رضا الركيني ولغته تشوبها العامية. وكتاب الجوهر المجرد ويشمل الكتاب شرح قصيدة لعلي بك الأسعد، وتحوي القصيدة ماية وخمسة وعشرين بيتا تشمل وقائع العامليين ومعاركهم بقيادة الوائليين أجداد علي بك الأسعد ويشير إلى الانتصارات والمفاخر، وقد شرحها الشيخ علي السبيتي. وكتاب سوق المعادن وقد تعرض لكثير من الوقائع والأحداث وقد ألّفه الشيخ محمد علي عزالدين.[74] وقد اشتغل بعض العلماء بشؤون الطب وبرز فيه مشخّصون بارعون للأمراض وكان منهم حسن السبيتي العاملي من شقرا.[75]

النشاط الأدبي: تيسر للحياة الأدبية في هذا العهد أسباب دافعة، ووسائل مقوّمة، لم يعهدها الجبل العاملي من قبل، فجعلتها تزخر بنشاط متسع الأرجاء، متعدد النواحي، ومرد ذلك إلى الأوضاع الإجتماعية والسياسية ، التي أحرز عزّها العامليون، وقد وفر هذا الحال الحافل بالمعارك القائمة عند حدودهم، أو على أراضيهم، مواضيع جديدة للشاعر العاملي، فبرز أدب المعارك ومدح الأبطال ؛وكان جُلّ هؤلاء من رجال الدين،فسلكوا مادرج عليه

سابقوهم من مدح آل البيت والنبي(ع) فاندفع أدبهم ضمن حدود معتقداتهم وأوضاعهم، وتحدّدت بذلك المواضيع التي ألهمت شاعريّتهم ومنها:

المدح الديني: إنّ مايميز أدب هذا الدور في جبل عامل عنه في سائر البلاد العربية، تأثره بالعقيدة الدينية، وبتاريخ الجهاد الشيعي في سبيل هذه العقيدة، فكان إنتاجهم تعبيرا عن عواطف الحب لآل البيت (ع) مشحونا بمشاعر الحزن تأثرا على غصبهم حقوقهم، وقتل أبنائهم، وقد كان هذا النوع من الرثاء والمدح عاملا في إثارة المشاعر الدينية لدى المؤمنين، وأكثر من برع في هذا المجال الشيخ إبراهيم صادق الذي فاق ببراعته شعراء العراق وسائر أدباء الإمامية في عصره حتى أن إحدى مدائحه في الإمام علي (ع)تبلغ أكثر منماية وخمسين بيتا نُقشت على قبر الإمام مطلعها:

هذا ثرىً حطّ الأثير لقدره	ولِعزّه هامُ الثُّريا يخضعُ

أدب المعارك ومدح السياسيين: إنّ أكثر ماميز هذا الدور عن سابقه هو أنه تأثّر بالسياسة، فجرت عادة مدح الحكام ورثائهم ومنهم من كان أديبا أو شاعرا، يعني يتذوق الأدب والشعر ويتبارى مع صُنَّاعه كمحمد البيك وعلي بك الأسعد، وكان من أبرزهم الشيخ علي زيدان ... وكثيرا ماكان يتعرض هؤلاء الشعراء لوصف المعارك التي كان يقودها هؤلاء الزعماء، إشادة ببطولاتهم. وقد اشتهر من هؤلاء الشعراء الشيخ ابراهيم يحيى والشيخ إبراهيم الحاريصي، والشيخ حبيب الكاظمي، ويمكن اعتبار قصائدهم وثائق تاريخية تشير إلى المعارك وقادتها ومواقعها والإنتصارات فيها.[76]

أدب المطارحات والمناظرة: برز في هذا العهد نوع جديد من الأدب أوحى به الإزدهار العلمي والحياة الأدبية حتى بات الشعر وسيلة المخاطبة وقلم الرسائل، وفيه يعبّر الشعراء عن أغراضهم وحاجاتهم، ويساجلون غيرهم من الشعراء في الشام وفلسطين، ويحمل هذا الشعر خلافاتهم العقائدية وبعض الأراء في الفلسفة والتصوف، وقد سلك شعراء المناظرة والمطارحات العامليون ثلاث طرق هي:

1 ـ المطارحات السياسية ، دفاعا عن الحياض والكرامة ودفعا لاتهامات المغرضين والخصوم، وكان من أبدعهم الشيخ إبراهيم الحاريصي ردّا على شاعر فلسطين الشيخ عبد الحليم النابلسي وظاهر العمر. وتراه يشيد بشيخ الرجال وفارسهم الأول في جبل عامل، الشيخ ناصيف النصار، حامي حدوده والمدافع عن حياضه:

ياللرجال لمحنة لايرتجى	غير ابن نصار يحل عقالها
والصقر لولا الخوف من عُقابنا	ماأ زمعت عن أرضكم ترحالها
لِمَ لاترى أيامنا في خصمكم	والحرب فيها لم تضع أوزارها
فاقدم إذا شئت العراك أو اتَّئد	عن ورطة مدّت عليك غبارها[77]

2 ـ المطارحات العلمية والمساجلات، حول مواضيع دينية وفلسفية تبدي عن ثقافة ذلك العصر، والمواضع التي شغلت أبحاث أقطابه ومناظراتهم ، ومن أبرز هؤلاء إبراهيم الحر الصُّوري في ردّه على عبد الغني النابلسي صاحب القصيدة التي تحمل شطحات في الصوفية ووحدة الوجود مطلعها:

وجودي جلَّ عن جسمي   وعن روحي وعن عقلي
وعن ذاتٍ وعن وصفٍ   وعن بعض وعن كلّي

وقد ردّ عليه الشيخ ابراهيم الحر الصوري بقصيدة طويلة يبدو فيها عالما فقيها متمسكا بحبال العقيدة الإسلامية ومنها :

رويدا ياأخا الفضل   مزجت الشّهد بالخل
تعالى الله ذو الفضل   عن الأشباه والمثل

وقد قامت مناقشات في مسائل كلامية بين علماء جبل عامل وعلماء عكا وفلسطين، كما اهتم بالمناظرات العلماء العامليون أنفسهم كالشيخ حسن مهدي مغنيّة الذي اشتهر بمباراة العلماء والأدباء والشعراء في الفقه والأدب في حلقات للمناظرة.

3 ـ الإخوانيات، التي تقوم على مراسلات بين شعراء عاملة أنفسهم، أو بينهم وبين شعراء العراق من رفاقهم في المدارس أو أساتذتهم، ويحمل هذا النوع من الأدب عواطف صادقة وحسّا ملتهبا، وتذكّر الأحباب والماضي الجميل، وقد برع في هذا النوع من الأدب كل من الشيخ علي زيدان والشيخ إبراهيم صادق.[78]

الشعر العامي والأزجال الشّعبية: من المظاهر الجديدة للنشاط الأدبي بروز الشعر العامي والأزجال الشعبية في هذا الدور الذي ظهر فيه الأدب فشاع بين جميع الطبقات فبلغ الأوساط الشعبية التي أخذت بنشوة النصر الذي حقّقه العامليون في حروبهم الإستقلالية فعبّرت عنه بشعر عامي. وأكثر هذا النوع من الشعر يصف الحروب ويسرد وقائعها وأحداثها ويشيد بالبطولة مع الإعتزاز بالعنصرية والمذهب، ويكبرإقدام القادة من زعماء البلاد بأسلوب قصصي، وقد تضمّنت شيئا من تاريخ العامليين بلغة لاتختلف كثيرا عن لغتنا الدارجة اليوم، إنما كانت تحمل الكثير من أثر الفصحى مع كلمات عاميّة تبدو مجهولة المعنى.[79]

أشكال القصيد العامي: إن الأشكال التي صبّ فيها شعراء اللغة الدّارجة أفكارهم وشعرهم،فهو ثلاثة أنواع:

1 – قصيد طويل تتعدّد أبياته وله قافية واحدة، وهو لايختلف عن القصيدة العربية الفصيحة، وليس من فرق بينه وبين الشعر الفصيح إلا كونها صيغت بلغة عامية،

وهـذا مابـرز في قصائـد شـنَّاعة العامـلي أحـد شـعراء اللغـة الدّارجـة وهـذا نمـوذج مـن شـعره:

حلف ناصيف بالجيرة وزمـزم ... بْـرب البيت والمختار طـاهـا
مزالي جاذب السِّـرعين بيدِي ... بلادي ماأحـد غيري يطَاهـا
لـقا الجـزار والـدّالي معاهـم ... كـْراد وغُـزْ مانـفعهـم لغـاهـا

2 - **النـوع الآخـر**، يتمثّـل في قصيـدة طويلـة لشـنّاعة بقافيـة واحـدة وكل بيتـين تاليـين لايتفقـان فقـط بوحـدة القافيـة بـل ينتهيـان بكلمـة واحـدة في الشـكل والمعنـى. وهـي كالتـالي:

قـادهـا مـن حمـص لا ديـرة حَـمـا ... لا قــرايا الشـام صْـواتُه وِصَـل
من أرض بـيروت للشوف العريض ... مـن بـلاد جبـيـل كم فارس وَصَلْ

وهـذا النـوع مـن القصائـد أيضـا يخضـع لأوزان الشـعر بجميـع أبياتـه، والمختلـف فيـه عـن الشـعر الفصيـح هـو أنـه يلـزم تسـكين آخـر كلمـة اندفاعـا مـع عاميـة المعنـى.

3 - **النـوع الأخـير**، وجـه مـن الأزجـال العاميـة ويتكـون مـن نـوع مـن القصائـد الطويلـة التـي تبتعـد في الأوزان المعهـودة للشـعر في تعـداد قوافيهـا وترتيبهـا، وهـي أجـزاء ومقطوعـات في كل جـزء بيتـان اثنـان فقـط، ولـكل مقطوعـة قافيـة تـتردد في شـطري البيـت الأول وفي صـدر البيـت الثـاني فقـط، أمـا عجـز البيـت الثـاني فلـه قافيـة مختلفـة، كـما في البيتـين التاليـين:

يابني مِـتـْوالْ ياسـباع الرّجال ... يوم كفـرمان بَـنَيـْتو الهِـْـوال
يابني متوال ياسـباع الرجال ... يشبهوا البارود لو لِحْقوا الـزِّناد

وهذه القافية الثانية نجدها تتردّد في عجز البيت الثاني من الأجزاء التالية:

يوم كـفـرمان شـتّـتـوا العـدا ... وكِلْـها شِـرْبتْ بكاسـات الرّدى
المير يوسـف لاطريقوا ماهتـدى ... شـبعت وحوش البرمن لحم القدا[80]

ثـم تختلـف القـوافي بـين جـزء وآخـر ماعـدا القافيـة النهائيـة التـي تشـير إلى وحـدة الشـكل في القصيـدة .وهـذا مثـل قصـير مـن الزجـل العامي(المغنّـى) جـاء في قصيـدة تشـير إلى الوقائـع الحربيـة :

اسْـآل بيَّكْ قبل مِنَّكْ والجـدود ... كِيفْ كِنَّـا في الحرب مثْل الأسـودْ
بُنصَـحكْ من بعد هذي لاتـعودْ ... وقول لاولادك ولا ولاد الـولادْ
اسْـآل بيَّكْ قبل مِنَّكْ والعْتـاق ... كنت أنا خـيَّـال أخف من البُـراقْ
لّمـا انتحى ناصيف وبْسـيفوزعقْ ... صار شَخْب الدّم يضرب لَلِعْـداد[81]

وفي بداية القرن الماضي برز فارس ميدان الزجل محمود حدّاثا في القسم الجنوبي من جبل عامل وهو من بلدة حاريص وهورجل عامي كانت صنعته تبييض الأواني النحاسية بالقصدير، وفي بعض أسفاره في فلسطين لتعاطي مهنته صادف وجوده في ناحية ، دعى قاضيها إلى احتفال خاص وكان فيه من المسيحيين والمسلمين وكانت العادة أن يتحلّق الموجودون ويبدأ شاعر زجلي بإلقاء دورٍ من الزجل بما يشبه الموشّح وصادف وجود «قوال مسيحي» إسمه داود ، وعرف أن محمود حداثا من كبار القوالين فتحرّش به وتحدّاه وراح يذمّه ويسبّه في زجله فاغتاظ القاضي وأجبر محمود على الرّد فاستفزّه داود قائلاً :

شو جابك يامتوالي	جايي توقف قبالي
إمشي وروح من أقبالي	أحسن مادبَّكْ بالنار

فرد عليه محمود مبتدئا:

يوم ملاقاة الّدشمان	بِنْدَه مولاي حيدر
بالشرع الأثبت مايكون	بُعْطيكم بالصّدق اخْبار
حيدر ركّاب الميمون	داحي بوابة خيبر

والقصيدة طويلة جدّا لكن المنازلة انتهت بهزيمة داود . ومن غزليات محمود حدّاثا المشهورة :

رِكْبِتْ عَحْصان مْتَخَّتْ	قُنطار ونُص لْجامُو
لَمَنْ عاظهروا نَخَّتْ	شاف الجَنِّة قِدامو
ياريت عظامو تَخَّت	لَمَّنْ شدُّولو حزامو
ضربوا عالطّبل تْفَخَّتْ	لَمَّنْ نِزْ لتْ بالميدان[82]

وقد اشتهر في نفس الفترة ، في القسم الجنوبي من جبل عامل، رجل من بلدة ياطر بشعره الزّجلي الساخر، وكان يعيش في نفس الفترة التي كان فيها محمود حداثا، وكانت تربطهما المصاهرة، إسمه حسن موسى علي كوراني، وهاهو يصوّر بأسلوب ساخر دخول تركيا الحرب العالمية الأولى، عندما راحت تجمع الشّبان في بلادنا لتزجّهم في ميادين القتال:

تركيّا بدْها تْحارب	لمُّوا الحاضر والغايب
صار الطفل والشايب	يُلْطُمْ وجْهو ويِتْشّحّرْ
حمَّلونا بالبُّور	وقَطَّعونا سَبْع بحور
والببور كاين مكسور	وما قالوها للعسكر

ثـم يختـم بعـد ذكـر الأهـوال والمصائـب التـي تعرضـوا لهـا ورفاقـه الجنـد في هـذه الرحلـة الشـاقة قائــلاً:

يارِبّي إبـعـث زلــزال لتركيّا تـدّمـر.

دور المـرأة في الحركـة الثقافيـة العامليـة : تـسرّب النشـاط الأدبي مبكـرا إلى صفـوف النسـاء في جبـل عامـل فأخـذت ربـات البيـوت، بالمشـاركة في تـذوّق الأدب وإنتاجـه، وازدهـرت في زمـن بعيـد في زمـن الفاطميـين والأيوبيـين، وأشـهر مـن بـرز في تلـك الحقبـة الشّـيخة تقيّـة بنـت أبي الغيـث الصُّـوري، وقـد نشـأت في بيـت ثقـافي شـعري وعلمـي، وقالـت الشّـعر منذصباهـا (505هـ- 581هـ). وقـد نظمـت قصائـد في الهجـاء والمديـح والغـزل والمعـارك والملاحـم والفخـر[83] ومن شـعرها:

وللمتنبي أحـرف في مـديحـه ... على نفسـه بالحقّ والحقّ أوضح

أروني فتاة في زمـاني تفوقنـي ... وتعلو على علمي وتهجو وتـمدح

ولهـا في الحنـين إلى بلدهـا صـور، بعـد أن احتلهـا الصليبيـون، وخرجـت مـع أهلهـا نحـو دمشـق. وهاهـي تقول:

هاجت وساوس شـوقي نحو أوطاني ... وبان عني اصطباري بُعد سُـلواني

وبتُّ أرعى السُّـهى والليل معتـكرٌ ... والدمع منسجم في سُحب أجفـاني

نأيتُ عنكم وفي الأحشـاء جمرٌ ولظى ... وسقْم جسمي لما أهواه عُنـواني[84]

وقـد ذكـر أنّ إبنـة الشـهيدالأول كانـت مـن النسـاء اللـواتي تفقّهـت في زمـن أبيهـا، وكانـت النسـاء يرجعـن إليهـا في مسـائلهنّ الفقهيـة والشرعيـة، ومـن اللافـت أيضـا أنّ بنـات العلـماء كـنَّ عـلى جانـب مـن الثقافـة والعلـم والمعرفـة، ولكـن لم يظهـر أو يـبرز منهـن مـن ذكرهـنّ التاريـخ والمؤرخـون، وفي الزمـن المتأخـر وفي القرنـين الماضيـين بـرز عـدد مـن النسـاء اللـواتي عشـن في قصـور الأمـراء والمشـايخ. وقـد ذكـر محمـد جابـر آل صفـا في كتابـه تاريـخ جبـل عامـل، أنـه في إحـدى قـرى جبـل عامـل (ديـر الزاهـراني)، وفي مطلـع القـرن المـاضي، حـضرت امـرأة عامليـة أُمِّيَّـة إسـمها (الحاجـة رحمـة الطفيـلي)، مجلسـا ضـمّ أديبـين مـن أدبـاء جبـل عامـل اختلفـا في تفسـير بيـت مـن الشـعر لأحـد الشـعراء، يقـول فيـه:

هوى نـاقـتي خلفي وقـدامي الهـوى ... وإني وإيـاهـا لمخـتـلـفـان

ولمـا لم يتفقـان عـلى وجـه، قامـت المـرأة المذكـورة، وكانـت تصغـي لهـما وحلـت المشـكل، وقالـت : أنـا امـرأة قرويـة لاعهـد لي بالعلـم ولا بالمـدارس، وقـد فهمـت أن الشـاعر البـدوي ركـب ناقتـه وقصـد حبيبتـه، وتـرك فصيـل الناقـة في مـأواه، وكان الراكـب يسـتحثّ الناقـة

إلى الأمام ليصل إلى غرضه بالقريب العاجل، وهي تحاول النكوص إلى خلف لإرضاع فصيلها، فاتفقا غاية ومأربا واختلفا قصدا وسيرا.

ومن الشاعرات المعروفات في جبل عامل في تلك الفترة فاطمة بنت أسعد خليل النصّار. كانت زوجة علي بك الأسعد، وقد عاشت في بلدة الطيبة ، وقد ذكرتها الأديبة والشاعرة زينب فواز في وصف طويل لفضائلها وعلمها ومعرفتها بدقائق الأحكام الشرعية وهي أم الشاعرة زينب علي بك الأسعد. وممن أخذ بهذا النشاط زينب فواز تلميذة فاطمة الأسعد والتي ذاع صيتها في البلاد الشامية واستقرت في مصر وعاشت فيها فحرّرت في جرائدها وكتبت في مجلاتها وقد برز نشاطها في ختام القرن التاسع عشر، بمؤلفات عديدة مازالت تشيد بمكانتها في الفكر والأدب. وأبرز ماقالته شعرا ، حنينها لمرتع صباها جبل عامل وبلدتها تبنين وقلعتها حيث قالت تناجي القلعة :

ياأ يها الصّرح إنّ الدّمع منهمل	فهل تعيد لنا يادهر من رحلوا؟
فقد كنت مسقط رأسي في ربى وطنٍ	إنّ الدّموع على الأوطان تنهمل[85]

أما إبنتها زينب بنت علي بك الأسعد : كانت تجيد نظم الشعر، وقد ورد شعرها في مجلة العرفان وكانت تراسل ولدها وهو في المكتب السلطاني في بيروت وتصدّر رسائلها ببعض أبيات من الشعر، منها:

بُنَيّ رعاك الله قلبي في لظى	غلت لم تسكن حرّها أدمع سجم وأصبو
لريح هبّ من نحو أرضكم	وأرصُدُ نجا فوق أ رضكم يسمو[86]

ولها من الحكم التي وردت في العرفان : « الحياة السعيدة لاتكون إلا بالأخلاق الحميدة» ولها أيضا: «إن حاربت نوائب الدهر فبسلاح الصبر». وكذلك: «المعروف يستعبد الأحرار».

وقد برز خلال هذا العهد في بلدة بنت جبيل إمرأة أديبة ، شاعرة تدعى منى، كان لها في الشعر خبرة حسنة وفي معرفة النجوم ومبادئ علم الهيأة حالة مقبولة، وكانت تجالس الأدباء وتساجل الشعراء من وراء حجابها وروايتها للشعر وحفظها الجيّده تدل على سلامة ذوقها وحسن اختيارها .

دور النهضة الحديثة في الثقافة العاملية: لم يتوقف الفكر والأدب عن الحركة في جبل عامل، إنما بقي كما سبق له مسترسلا في اغتراف ثقافته من ينابيع المعرفة مما فيه ومن حوله، من جامعة النجف وغيرها من مراكز العلم والمعرفة، ولم تبرز مجالات التجديد العلمي إلا في عام 1882م عندما افتتحت أول مدرسة على الطريقة الحديثة، لتبدأ نهضة جديدة في جبل عامل، الذي يمتلك الأرضية اللازمة ليسير في نهضة جديدة بأمثلة من نبوغ صارخ، فجدّد الفكر والنتاج.

وهاهو حسن كامل الصبّاح مفخرة لبنان- بل العالم العربي- باختراعاته، ابتدأ طالبا في الجامعة الأميركية في بيروت ثم في أميركاأخيرا فقدّم للعلم وافرا من الإختراعات في الكهرباء والطاقة والبخار.[88]

النّهضة في جبل عامل دخلت متأخرة، فهي تقارب القرن من الزمن، وقد سبق لبنان جبل عامل في النهضة الفكرية الجديدة، ولكن سرعان ماأسهم في نتاج لبناني صرف الإبداع، ليتابع عادته في العطاء متجدّدا مع كل لبنان. وإنّ الإطار التاريخي الذي أحاط بهذه النهضة الفكرية، هو الغلاف الطبيعي لهذه الحركة، فبعد وفاة علي بك الأسعد انقضى العهد الإستقلالي لجبل عامل عام 1864م،عاد الأتراك إلى حكم البلاد مباشرة فمرت البلاد بحالة من الفقر وزاد في غلوائه الضرائب الباهضة، والتجنيد الإجباري أخلى البلاد من رجالها، وهكذا بقيت الحال بعد الإحتلال الفرنسي، خصوصا أن جبل عامل دفع ثمنا باهظاً وقاسى ضغطا كبيرا وإرهابا نتيجة قيامه بثورة كبيرة عام 1920م فرد الإفرنسيون بقسوة، وسلبت أموال العامليين وفُرضت عليهم الغرامات والضرائب القاسية وأُهين العلماء والوجهاء.[89] وفي هذا العام(1920) ضُمّ جبل عامل إلى لبنان الكبير واقتُطعت أجزاء من جنوبيه وشرقيه وضُمّت إلى فلسطين، فيما رفض العامليون وكوكبة من علمائهم هذا الضم وهذا التقسيم وطالبوا بالإنضمام إلى سوريا.وقد تصدّر عدد من العلماء المطالبة بالحقوق والإنصاف، لكن غطرسة الجنرال غورو أبت الإستجابة، بل حقّرت بعضهم وقسى عليهم وفرض الشروط القاسية، وأدخل جبل عامل في عالم النسيان والإهمال حتى حصل الإستقلال عام 1943وبدأ جبل عامل يستعيد عافيته الثقافية والعلمية والإقتصادية.

عوامل النهضة في هذا الدور: من أهم عوامل النهضة في هذا الدور أن بعضها يعود إلى العهود السابقة، كالمدارس الدينية القائمة في ربوعه. والرحلة العلمية إلى النجف وإيران، وكانت من أهم العوامل التي عملت على استمرار الحركة وظلت نشيطة حتى مطلع هذا الدور، يضاف إليها عوامل جديدة، غيرت نشاط الفكر وروحه فتلبّس مُتَّئداً ثوبه الجديد. إنها المدارس الحديثة، والصحافة، والمطابع، والجمعيات الأدبية، والمؤسسات الإجتماعية، والمكتبات العامة.[90]

المدارس : كانت مدارس جبل عامل المنتشرة والمتصلة منذ زمن، مازالت تمارس نشاطاتها، وكانت بمعظمها دينية الطابع، حملت مهمة استمرا ر الحركة حتى مطلع القرن الماضي وبقيت جادة في عملها وأضيف إلى نشاطها نشاط المدارس الحديثة وكانت أهم هذه المدارس في النبطية وصيدا ومرجعيون وصور، إضافة إلى مدارس عديدة انتشرت بعد الإستقلال على نطاق واسع في القرى والمدن . منها المدارس الخاصة والرسمية[91]

الصحافة : تعتبر الصحافة من أهم العوامل الفكرية في النهضة الفكرية العربية عامة. ولم تدخل الصحافة جبل عامل إلا بعد بدايات القرن العشرين الميلادي، حيث أصبحت مسرحا لأقلام العلماء والأدباء ورجال الفكر، والناطقة باسم البيئة العاملية، وكان أبرز من حرر في هذه الصحافة الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر آل صفا ، وقد كتبوا في صحف مصرية كالهلال والمنار والمقتطف [92] ثم في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، وابتدأ النشاط الصحفي في الأرض العاملية عام 1909 بتأسيس مجلة العرفان وتلتها جملة من الجرائد والمجلات . والعرفان تأسس بترخيص من الدولة العثمانية على يد الشيخ علي الزين وأدارها ولده أحمد عارف .... وقد حملت واجبها الإجتماعي تجاه جبل عامل وأدت الأمانة موفورة فعبّرت عن آرائه ورفعت صوته وتكلمت باسمه وأسهمت في تشجيع النهضة القائمة في أرضه وبين أبنائه.[93] إضافة إلى مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات التي بدأت تنتشر وتصدر حتى زمن الإحتلال الفرنسي .

الجمعيات الأدبية والمؤسسات الإجتماعيّة : اندفع العامليون للإنفتاح على الجديد النامي في العالم العربي فكانت الجمعيات صاحبة دعوة أدبية، تثور على الأساليب القديمة، وتعمل لاعتماد الجديد ،وكانت غايتها في البداية غاية إجتماعية كفتح المدارس والكليات وقد اعتُبرت العامل الأول في دفع النهضة الفكرية إلى الأمام. وكان أهمها : جمعية العلماء العامليين، التي ضمّت نفرا من علماء الدين العامليين يزيدون على ثلاثين عالما عام 1930 وكان يديرها رئيس العلماء الشيخ حسين مغنيّة ويساعده السيد محسن الأمين.[94] والجمعية الخيرية العاملية والجمعية الخيرية الإسلامية في النبطية والجمعية الخيرية الإسلامية العاملية وجمعية النهضة العاملية في النبطية والعديد من الجمعيات الأخرى التي كانت تعنى بالشؤون الثقافية والتربوية والفكرية والإجتماعية.[95]

المكتبات العامة في جبل عامل : كانت المكتبات الخاصة في جبل عامل كثيرة في العهود السابقة ولم يكن فيه مكتبات عامة، وقد أطلّت المكتبات العامة في جبل عامل في وقت متأخر، وكانت تقوم على جهود جمعيات أو أفراد يتوثبون للقيام بدور فعال ومنتج في عهد النهضة التي تحيط بهم،وأهم هذه المكتبات :مكتبة التهذيب العاملية في بنت جبيل، والمكتبة الإنجيلية في صيدا، والمكتبة العامة في صيدا.[96]

المكتبات الخاصة في جبل عامل : ظل جبل عامل أكثر من ثمانية قرون عامرا بالعلم آهلا بالعلماء لذلك كانت مكتباته مملوءة بالكتب القيّمة ونفائس المخطوطات من مؤلفات علمائه وغيرهم، وكل عالم من علمائه لابد أن توجد عنده مكتبة كبيرة أو صغيرة ...إلا أن الفتن والحروب فيه ذهب بأكثر كتبه ونفائس مخطوطاته وذهب كثير من مؤلفات علمائه... وأعظم حادثة أتلفت معظم كتب جبل عامل هي حادثة الجزار ، فقد نُقلت الأحمال الكثيرة

إلى عكا على ظهور الجمال وغيرها من كتب آل الأمين في شقرا وآل سليمان في مزرعة مشرف والبياض وآل خاتون في جويا وآل يحيى وآل السبيتي في الطيبة وكفرا وغيرها ... وكان يكفي سببا لإتلافها لاكونها مختصة بالشيعة بل كونها من كتبهم وإن لم تختص بهم فأوقدت بها الأفران في عكا أياما وسُرِق منها الكثير.[97] هذاإضافة إلى مكتبات آل نعمة وآل مرتضى وآل عزالدين ومكتبة الشيخ سليمان ظاهر ومكتبة الشيخ أحمد رضا ومكتبة السيد عبد الحسين شرف الدين ومكتبة آل نورالدين ومكتبة السيد محسن الأمين في دمشق ومكتبات أخرى لعلماء آخرين.

مظاهر الحركة الثقافية في جبل عامل : كانت الحركة الثقافية في جبل عامل مطبوعة بطابع الدين لأنها حركة فكرية عقائدية، الدين فيها قطب الرّحى، وينحدر عنه معارف متعددة، تتعلق فيه وتدور في فلكه سائر العلوم والآداب من الفقه والحديث إلى الفلسفة وعلم النفس والتربية والعلوم العقلية والتاريخ والسيرة وعلوم اللغة من نشاط أدبي وشعري، وقد أخذ العامليون بوسائل الأدب، فهو راسخ في أرضهم وفي تاريخهم أقدم عهدا وهو لنفوسهم أقرب وسعى العامليون بدافع نهضتهم بالأدب والعمل على نشره في آخر دور وبدأوا يعملون على نشره وتعميمه[98]

ميزات الأدب ومواضيعه في العهود المتأخرة: لقد تداخل القديم بالجديد واتخذت الحركة الثقافية نهجا جديدا متأثرا بعوامل النهضة، ومن ميزات هذا الدور هو تنوع المواضيع، مع بقاء القالب القديم حيث ظهر واضحا تلمس الشعراء الجدد خطى القدماء، فرغم جهوز الفكرات، ظل المدح الديني الذي كان في العهود السالفة، وما زال للعهد الحاضر يرفده الشعور الديني،والعصبية الشيعية، ينبع من معين لاينضب هو بطولات علي وأبنائه، خاصة الحسين (ع) منهم الذي كانت مأساته حدثا إنسانيا خرج عن نطاق الأمجاد الشيعية ليضاف إلى تراث البشرية، ضرب من الجهاد الخالد، حدا بالكثير من شعراء جبل عامل. وفي طليعتهم عبد الحسين صادق الذي استقى من كربلاء، مواضيع ديوان شعره.[99] وهاهو الشيخ المذكور يبرز شجاعة الحسين المتفادي(ع) حيث يقول:

أقام سوق وغى راجت بضائعها	فابتاع لله منها ماعلا وغلا
تعطيه صفقتها بيض الصفاح وسمـ	ـرالخِطِّ تربح منه العلّ والنهلا
قضى منيع القفا من طعن لائمة	مذ للقنا والمواضي وجهه بذلا

وهاهو يصوّر شهادة الحسين (ع) أنّها في سبيل الحق والكرامة الإنسانية وفي سبيل الدين الحنيف :

أحيا ابن فاطمة في قتله أمما	لولا شهادته كانت رميما بلا
تنبّهت من سبات الجهل عالمة	ضَلال كل امرئ عن نهجه عدلا[100]

وكثيرا ماتميز الشعر والأدب العاملي بالمواضيع المتعارفة ، كالمدح والرثاء والغزل والذي جاء في أكثره من شعور يخالج الشاعر في حياته. وهاهو الشيخ عبد الكريم الزين يغوص متغز لا :

هلهـا أهـلهاأاااا ودعـي الهوى يعـدو على كبدي أنّى انتحى ويدبّ في عصبي
كـم ليلـة بتـنا وتـرمـقـنـا عـيـن الأقـاح وأعين الشـــهب

ولعل شعر الحنين كان مميزا لصلته بقدمائهم من العهود السابقة، حيث يبدي الشعراء العامليون تعلقهم ببلادهم، ففيه من العاطفة الرقيقة، أكثر مافيه من الإعتزاز والشعور بالفخر.وقد جاء في شعر السيد محسن الأمين (قد):

سقاك ياعامل غيث الغمام همًى على ربوعك آكاماً وغيطـــانا
لأنت أول أ رض مسّ تربتهـــا جسمي وفيها قديما منشأي كانا
وأنت أول أرض قد رضعت بها عصر الصبا من ثدي العلم ألبانا [101]

ولقد جاء في هذه العاطفة من شعر الشيخ سليمان ظاهر،عاطفة التعلق بالوطن بعيدا عن الحماس والإندفاع:

أعـامـل والجـزيـرة لي بـلادٌ ولي في أهـلها أهل وصحب
وما وطني سوى جسـدي وروحي ومنه غـذاهما جـود وتـرب
سأقضي ماحييت لـه حقـوقا إلى أن ينقضـي أجل ونحـب[102]

وقد نجد هذه الرقّة العالقة بالقديم من الشعر ، تسمو على الحب الوطني، نجد غزلا آخر فيه من الصوفية لمحات واضحة، تستقي من نبع العقيدة الشيعية، ومن تراث الأئمة الأثني عشر، ومن أدعية وأوراد زاخرة بالحب الإلهي، عابقة بشذى العرفانيات، وهذا ماجعل لحب الشعراء والعلماء العامليين خصائص مميزة ، ورد منها في شعر الشيخ محمود مغنية :

للعاشـقين عـلائم ظـهرت مافـيك من آثـارهم أثر
لايبصرون سـوى الحبيب ولا لهم يمـر بغيره فـكـر
فلكل بلـوى عندهم نعـم ولكل نعمى عندهم شـكر
أُمّوا الحـبيب فلا يُنـهْنهم عن وصله ردع ولا زجـر [103]

لكن العاطفة الدينية والحب الإلهي، برز هيكله عاريا في شعر الشيخ عبد الكريم شرارة، الذي وجد في تعذيب هذا الحب له عذوبة، مستكينا له على رضا،معتصما من البلوى التي ينزلها فيه ورغم ذلك فإن الشعراء العامليين بقوا في نطاق الواقع والدين في عاطفتهم

هـذه، يعنـي إنهـا المرحلـة القصـوى مـن التقـوى. وهـذا نمـوذج مـن شـعره المتصـوفي :

كم تحجب عن خاطـــــــــري إن كنت عن طـرفـــي محجـب

عــــــذّب فــؤادي في هــــوى له فإنما التعــذيب أعــــــذب

هبْ أن عبدك كـــــان أذنـــب أوَ ليس عطفـــك منه أقـــرب[104]

ميّـزات التجديـد في الثقافـة العامليـة: (الإتجـاه الإجتماعـي) : عمـد الشـعراء العامليـون في هـذه الفـترة إحيـاء المـاضي، حيـث راحـوا يتطلعـون إلى الأحـداث الواقعيـة التـي تلامـس الواقـع والجماعـة. وتصبـح موضوعـا يحمـل الموعظـة والنصيحـة، وممـن تأثـر بهـذا الواقـع الشـيخ محمـد مهـدي شـمس الديـن الـذي كان لـه في دنيـا الشـعر القديـم جـولات، تخالـه فيهـا إبـن الصحـراء والرمال،وهاهـو يطلـب السـير عـلى نهـج الآبـاء فالخـروج عنـه خـروج عـن الـشرف الرفيـع:

أبـدلتـم الشرف الـرّفيـع بـجـزمة أفهكــذا أوصـتكم الآبــاء؟

وهاهـو يسـجل الحـدث التاريخـي إبـان ثـورة 1920 ضـد الفرنسـيين، راثيـا حـال جبـل عامـل الـذي تلقـى ضربـة المسـتعمر، فوصـف واقـع الحـال:

ناخت عـلى الجبل الخطوب ضحى فقـل الســلام عـليك ياجبـل

صُـبّت عـليـه مصائب فعلـى أمثـــالهـا لاتبـرك الإبـــل

وتـدا فـعت تـرمـي مـدافعــها كِـلـلاً تـطـايـر تحتها القـلـلَ

والطـير طر الحـتـف فـوقـهم يـرمي القنابـل حيث ينتـقـل[105]

النـقد الإجتمـاعي في الشـعر العـاملي: اتجـه الشـعر العامـلي في هـذا الـدور، وجهـة النقـد الإجتماعـي، وكان يمتـاز باحتوائـه النكتـة والطرفـة، فهـذا السـيد عبـد الحسـين الأمـين يقـول مداعباأحـد الجبـاة الذيـن سـبق لهـم ظلـم الرّعيـة، وقـد عُـزل هـذا الجـابي مـن وظيفتـه :

تتـــلقـــاك زمرة المـفلسـينـا باحتـفال تـــراه دنـيا ودينـا

كنت للجوع فينا عضواً نشــيطا ورســـولا إلى العراة أميـــنا

كم قلبت(الطربوش)ظهـرا لبطـن كلما حـــاف أو تغــير لـونـا

فذق الذّلّ والهـوان كما ذُقـــــــ ـــناولا تمشي للهوان الهوينـا

فغدا تشـتهي الرّغيف فـلا تـد ركه مثـلما الـرغيف اشـتهينا

وغـدا هـذا الشـعر الإجتماعـي يبـين عـن تحسـس بالظلـم الإجتماعـي الـذي أحـاط بجبـل عامـل وخاصـة الضرائـب الباهظـة، فنـادى الشـعراء عاليـا بصوتهـم، وقـد جـاء شـعر الشـيخ

عباس البلاغي نقداًلمساوئ العشّارين،للتخلص من هذا الوضع الفاسد الظالم:

طغت سفهاء عامل في البلاد ومنها أ ظهروا كل االفساد

لقد ظلموا العباد ولم يخافوا من الرحمن في ظلم العباد

إذا (العشّار) وافى نحوقوم تراهم هائمين بكل واد

(وعاملة) عاثوا فيها فسادا كأنهم بقايا قوم عاد[106]

مرحلة التطوّر:امتاز الشعراء العامليون في هذه المرحلة بميّزتين اثنتين:

أولاهما: الثورة على الطلل والغزل الباكي **والثانية** : كسر الإطار التقليدي، والنقد الإجتماعي والدعوة إلى النهضة والخدمة الوطنية . وقد برزت في هذه الفترة أصناف الشعر الإجتماعي والشعر السياسي والوطني.

وقد جاء الشعر الإجتماعي وصفا لأحاديثهم وأعمالهم ومأكلهم وبيوتهم يائساً من رقّتهم :

أحاديثهم في كل وقت بديْنهم وزرعهم والحرث والبقرات

ويروون ما(للزير) في سهراتهم وعنترة العبسي من غزوات

فهذا مع الفدان يذهب عمره وذاك مع العنزات والبقرات[107]

أما المرأة فقد راح الشعراء العامليون يوعظونها ويدعون إلى تثقيفها، وهاهو عبد الرؤوف الأمين يدعو إلى تهذيب المرأة ورقيّها قائلا:

ماارتقت أمة من الناس إلّا يوم ساوت بين الفتى والفتاة

إنّ للأم في الحياة مقاما فهي سر الرقي في ذي الحياة

هذّبوا الأمهات كي يرتقي النشء ففضل الأبناء للأمهات[108]

وأما حال الفلاح في المجتمع العاملي فكان حافلا بالمآسي والظلم، وهذ مااستثار عاطفة الشعراء. وهاهو الشاعر الساخر محمد نجيب مروّة يرثي حال الفلاح البائس المؤلم المبكي، فيخاطب أصحاب الأملاك:

يتقلّب الفلاح حولا كاملا بين المتاعب في شقا وهوان

حتى إذا جمع الحبوب يجيئكم مثل الأسير بغلّة الفدّان

فيطول بينكم الجدال وبينه كي توصلوه لأبخس الأثمان[109]

وهـذه نخبـة مـن الشـعراء والأدبـاء يشـجعون أبنـاء عاملـة عـلى المضي في طريـق العلـم والإغـتراف مـن منابعـه. ولقـد جـاء هـذا التشـجيع عـلى لسـان الشـيخ محمـد رضـا الزيـن قائـلا:

وليت شعوب الشرق يحذون عيسهم   إلى العلـم كي يحظى ببغيته الشعب

فما العلم إلا منهج الحـق في الـــورى   وما الجهل إلا المـأزق الحرج واللزب

وهاهو محمد علي الحوماني يحث أبناء وطنه لأخذ العلم وسيلة لإنقاذ الشعب والوطن:

فإنّ العلـــوم بـإحيـائـــــــــــها   جلاء الهموم وفرج الكـــرب

أيثنيكـــــم عن ســــباق العـلــى   مسارح لهو ونادي طـــرب

وتلك مــــــواطنكــم تســتغيث   بكم بـين الأعـادي ســلب[110]

الإتجـــاه الســــياســـي والـــوطنـــي في الثـقافـة والأدب العاملـــي: جاءت هذه النهضة لتعبر عـن الشـعور الوطنـي الـذي يجيـش في صـدور العامليـين، وقـد ثـار العلامـة السـيد محسـن الأمـين عـلى فكـرة الإنتـداب والحمايـة والوصايـة، داعيـا إلى الثـورة قائـلا:

قالوا الشعوب تفكها مـن رقـها   كلا بل استعبادها قد رامــــوا

هبوا بني قحطان طال رقادكم   فإلام أنتم غافلـــــون نيــــام

باسم الحماية والوصاية يجتري   حـــقُّ لكم وتدوســـــكم أقدام

ولعـل القضيـة الفلسـطينية قـد أخـذت حيّـزا واهتمامـا، ممـا أثـار النّفحـة القوميـة لـدى الشـــعراء العامليـين . وهاهـو الشـيخ سـليمان ظاهـر يقـول:

لايغترر بالمنــى أبناء صـــهيون   موعد بلفور وعدٌ غير مضمـــون

سائل بريطانيا ماذا جنت يــــدها   وما تحاول من تمليك صــــهيون

جاسوا خال ديار العرب مخصـــبة   بالغلب تحت أسم تثقيف وتمدين[111]

وكل حـدث كان يقـع في العـالم العـربي كأنهـا أحـداث تقـع في جبـل عامـل، فتهـز الـروح الوطنيـة وتحـرك المشـاعرالقومية وتثـير الإعتـزاز، وإن واقعـة ميسـلون عـام 1920 حركـت الشـاعر العامـلي، فقـال مخاطبـا ميسـلون:

حي الكماة الصـــيّد من فتيانه   والناعمات الغيد من فتياتـــــه

أترى حسام الدين يعلم ماجرى   من بعده في شــــامه وحماتــه

نزلت بعاصمة البلاد مصائـــب   أودت بعرش العرب قبل ثباته[112]

وقد كان لكلّ من محمّد علي الحوماني وفتى الجبل عبد الرؤوف الأمين دواوين اهتمّت بمواضيع السياسة والوطنيّات والحماسة والسياسة والاجتماع. وعلى هذا نرى أنّ سائر الموضوعات التي ألهمت الشّعراء والأدباء في جبل عامل كانت مستمدة من واقع الحياة المحيطة بهم مع الدعوة إلى الجديد، والأخذ بوسائل النهضة.

الإخوانيّات في الشّعر العامليّ: الإخوانيات قديمة في جبل عامل قِدم الشعر في أرضهم، وهي تدلّ على المواهب الأدبية السامية التي برزت في كلّ مظاهر الحياة لدى العامليين، وإن كانت الإخوانيات ضربًا من تبادل الودّ والإخلاص فهي بالشعر أنبل وأسمى، وهذا السيد محمد الحسني المكي يبعث بقصيدة إلى زميل له فارقه في إحدى قرى النبطية وهو السيد نورالدين فحص، مذكّراً إياه أيام الصبا، ورفقة الدرس، حيث يقول:

غادرتَ روض العلم لمّا أينعت ... أثماره وزهت كأزهار الربى
أنسيتَ منتزه الجزائر والظبا ... اتخذت بها هاتيك المسارح ملعبا
فاسلم عليك تحيّة من صاحب ... يصبو لذكرك كلّما هبّ الصَّبا

فأجابه السيد نورالدين بالعاطفة نفسها:

هيّجت وجدي يامحمد عندما ... ذكّرتني عهد الجزائر والربى
إني على عهد الإخاء مثابر ... وغرار عزمي في المحبة ما نبى
غادرت روض العلم أهوى ربعه ... لكنّ دهري لم ينلني المأربا[113]

أما شعر الطبيعة جاء ضمن الشعر المشترك، وهو كناية عن قصائد ينظمها جماعة ربطتهم الأخوّة والصداقة وقد جعلوا من أماكن قصدوها للتنزّه ميدانًا للتباري في الوصف الشعري ومنهم: الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أسدالله صفا والأديب الشاعر محمد علي الحوماني وأحمد عارف الزين وغيرهم. وقد تمثّل نشاط هذه الفترة بكبيرين من الأدباء العلماء هما الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، وكبير من الشعراء هو محمد علي الحوماني[114]

مرحلة التّجديد: في عام 1935 بدأت (عصبة الأدب العاملي) تعمل على الثورة، على النظم الأدبية والوضع الاجتماعي وكانت غايتهم الثورة على القديم ونهجه. وتلخصت مبادِئُهم بصقل الأدب العاملي وإظهاره بما يقرّبه من المثل العليا في الأدب الصّادق، وإنصاف المواهب الفنية، والارتباط والتآلف بين الأدباء داخل البلاد العاملية، وتشجيع النقد النزيه وتوسيع دائرته. كانت الحركة من خلال مبادئها ردة فعل في وجه الذهنية القديمة.[115]
ولقد جاء النتاج الأدبي لهذا الدور متّسمًا بالثورة على كلّ شيء في الأدب وفي الاجتماع، ولقد اهتمّ الشعر والأدب في هذه المرحلة بالمجتمع بغية النهوض به، فكان قطب الرَّحى.

النقـد الاجتماعـي: فتحـت عصبـة الأدب العامـلي البـاب ولم تغلقـه، ونشُـط رئيسـها الأديـب والمؤرخ الشـيخ عـلي الزيـن، وراح الشـعراء يوجهـون النقـد الـلاذع والتهكـم القـاسي، وهاهـو الشـاعر موسـى الزيـن شرارة يقـول في رثـاء المخـترع العامـلي اللبنـاني حسـن كامـل الصبّـاح:

قال قومٌ مابال شـــعبك أمسى — لا يبالي بقاصـــمات الظهـــور

راضـــيًا بالهـــوان والذل عيشـــًا — لا شقاءً يشكو ولا ثقلَ نيـــرِ[116]

ولعـلّ موسـى الزيـن شرارة والشـيخ عـلي الزيـن وحسـين مـروّة كانـوا أكثـر الشـعراء الذيـن التزمـوا الشـعر الاجتماعـي السـاخر لمـا فيـه مـن ثـورة عـلى التقاليـد والتقليـد والحـثّ عـلى الوعي والوقـوف في وجـه الإقطـاع والزعامـات.

الشـعر السـياسي والوطنـي: سـنحت تلـك المرحلـة بأحـداث سياسـية بـدأت ترسـم الجـذور القوميـة والكرامـة الوطنيـة، فقضيّـة فلسـطين هـزّت أحاسـيس كلّ عـربي فـراح الشـعراء يدعـون إلى نـصرة هـذا البلـد السّـليب، خصوصًـا أن وجـدان الثـورة الدائمـة متـوارث في جبـل عامـل، وهاهـي الشـاعرة زهـرة الحـر تسـتصرخ الأمّـة قائلـةً:

لن ينـال المجـــد إلّا معشـــرٌ — اتخذوا من قوة البـــأس شـــعارا

يا فلسطين اطمئني انّـــنـــا — أمةٌ تحمي حِـماهـــا والديـــارا

عشـــت يا لبنانُ فانجـــد بقعةً — هامت الإسلام فيها والنصـــارى[117]

وهـذا الشـاعر والأديـب كامـل سـليمان يسـتصرخ الأمـة أيضًـا لإنقـاذ فلسـطين مـن براثـن الصهاينـة قائـلًا،

جرّدوا العزم ذي فلسـطين صاحت — واضياعاه بين ظفر ونـــــابِ

نحن عُرب ولا نثور لأخذ الثـــــ — ـــــار من واترين أو غُصّـــابِ

وهاهو الشيخ سليمان ظاهر يتكلم باسم الشهيد عبد الكريم الخليل قائلًا:

والموت أشهى من نســـيم الصَّبى — يعتـــــاد قلب المغـــرم الصبِّ

مَـــن لم يــــروِ أرضـــه مـــن دمٍ — هيهات يجني ريـــق العَشِـــبِ[118]

الإنسـانية في الشـعر العامـلي: لقـد تـدرّج العامليـون في شـعورهم الاجتماعـي مـن التـزام لنقد مشـاكل بقعتهـم، ووضعهـا القلِـق، عامديـن إلى حثّهـا عـلى النهضـة، وامتشـاق حسـام التجديـد، إلى الانفتـاح عـلى المشـاكل الإنسـانية. كهاشـم الأمـين وأخيـه جعفـر الأمـين، ومرتـضى شرارة الـذي ينـدد بالإقطـاع، وحيـاة البـؤس، وفقـدان الحريـة، ومعنـى الكرامـة والإحسـان، وثورتـه عـلى عمـود الشـعر العـربي، وهـا هـو يهـزأ ممّـن يتبّطونـه عـلى نعيـم عيشـه في الريـف، ويتسـاءل عـن هـذا النعيـم، أفي الجـوع أم في الظّمـأ؟

يقولون إنّ الحياة في الكوخ جميلة

وإنّ الريف جنةٌ رائعة.

ولكنّهم لو ناموا ليلة واحدة من ليالي الشتاء

في هذا الكوخ المتداعي

لو رأوا الأطفال بأسمالهم البالية

يرتجفون من شدّة البرد

لأدركوا مقدار غباوتهم

عندما يتغنّون بهذا النعيم

عندما يحاولون أن يوهموننا أننا في نعيم. (119)

التصوير الاجتماعي وصدق الشّعور: قد يكون هذا الوصف تصويرًا لمشاعر خاصّة أو منبئًا عن العادات والتقاليد في البلاد العامليّة، ولقد امتاز في هذا الباب الأستاذ محمد يوسف مقلّد، فهو في قصيدة عن الهجرة يبيّن الفقر الذي كان يسيطر على جبل عامل فيصوّر ذلك:

ركبتُ مع صحبي متون البحـــار	من بعد ما صلّى أبي واستخار
نـــزحت عن داري إلى غيـــرها	وبعتُ (كرم التين) داني الثمار
يا خـيمة (المُسطاح) في التـــين	ســام مـــن وراء البحـــار[120]

لقد ساير النتاج الشعري في هذه المرحلة النهضة في العالم العربي، وبعد النصف الأول من القرن العشرين الماضي انصهر جبل عامل في نهضة أدبية ثقافية عمّت كلّ لبنان، وأسهم وما زال في البذل بعاطفة مترجمة شعرًا.

وممّن كتبوا في النثر وميدان القصّة: حسن الأمين، وصدر الدين شرف الدين، ووداد سكاكيني. أمّا أدب المقالة فقد برع فيه حسن الأمين وكتب عن الرحلات في العراق وغيرها والأدب الوصفي.[121]

وفي الختام: لابدّ من القول إنّ ثقافة جبل عامل بمنابعها وخصائصها وميّزاتها، إنّما هي نتاج أدبيّ وفكريّ دائم الحياة بدأ منذ الفتح الإسلامي واستمرّ بعده حتّى يومنا هذا، والعامليّ كما وصفه الحرّ العامليّ في كتاب أمل الآمل، يبذل ويعطي في دنيا الفقه والشعر والأدب والتشريع والفلسفة والمنطق والعلوم الأخرى المختلفة. ويكمن وراء هذا العطاء والبقاء باعثان اثنان، أوّلهما الفطرة الأدبية ذات المنحى الشعري التي طُبِع عليها العاملي، فالشاعرية الصّارخة متأصّلة ومتجذّرة فيهم ولا تخلو قرية من شاعر وزجّال،

حتى قال فيهم شكيب ارسلان: «لم أجد أصدق من قريض أبناء عاملة صورة» للشعر العربي الصميم، ولا أخلصَ منه عرقًا في نسب اللغة التي امتازت بها سعدٌ وثقيفٌ وسَفلى وهوازن وعليا تميمً. [122] وثاني الدوافع الكامنة وراء دوام البذل الفكري، هو إرادة العاملي العملاقة وعِصاميّته المفردة التي رغبت في دعم مذهبه الفرد المستهان الضّعيف لنأيه عمّن يشاكله في المعتقد، قرب بيئات كانت ترى في معتقده خروجًا على الإسلام، فلا بدّ والحالة هذه أن ينشطوا لإثارة حركة علمية تعتمد على تركيز الدين في نفوس أبنائهم ودعم التشريع بمؤلّفاتهم الدينية، والهجرة العلمية للتوسّع بالثقافة الدينية.

لقد أسهم العامليون إلى حدّ بعيد في حضارة الشرق ولم يحصروا نشاطهم في جبلهم العاملي وجاوزوه موغلين نحو الشرق، لا تحدّهم الوطنيّة في سبيل العلم، وانطلقوا إلى العراق وإيران وأفغانستان والهند وأبعد من ذلك، ينشرون اللغة العربية ويبثّون شعرها ونثرها، ويتولّون أعلى المناصب، كمشيخة الإسلام في إيران (الشيخ البهائي والحرّ العامليّ) والمحقّق الكركي، وكانوا أصحاب الفتيا هناك، وهم الذين أقاموا للمذهب الجعفريّ في بلاد فارس فكانوا عمَده. وحموه، فاعتمد عليم الصفويون كأكثر من ندبوهم لمهمّة الدين، فعمروا لهم حركة فكرية فتيّة. وتركوا للشرع الجعفريّ ذخائر فكرية، وإرثًا ضخمًا من المؤلّفات، واعتبرت القمّة ممّا أعطى معاصروهم، فاعتُمدت مؤلفاتهم مراجع للفقهاء والمجتهدين وما زالت.

لقد أظهرتُ في هذا البحث الجهد الإنساني الذي بذله العامليون عبر قرون من الزمن وكيف خدموا وطنهم وتعلّقوا به ودعموه بنتاجهم الفكريّ وكيف خدموا الإنسانيّة.

إنّ جبل عامل، هذه البيئة الصّغيرة بأرضها وسكّانها، المتواضع بما وهبته لها الطبيعة، فقد تميّزت على غيرها من سائر بقاع العالم العربي في أنها استدامت في الأدب والشعر والفكر، الذي لم تنقطع عراه.

نعم، لم تتاثر حركة الفكر والثقافة والأدب في جبل عامل، بل سلكت بعصاميّة درب الخطّ البياني الصاعد ناميةً لطبيعتها. لقد كانت وما زالت الأنموذج والمثال وهي مفخرةٌ لنا وللأجيال القادمة يبرّر علاقتنا بالشعوب القريبة والبعيدة ويبدي المستوى الحضاري الزاخر بالجهد الإنسانيّ.

المصادر والمراجع:

1 - الأمين، محسن- خطط جبل عامل- ط-1 بيروت- -1961 ص 56

2 - الزين، علي- مع التاريخ العاملي

3 - كرد علي- محمد- خطط الشام- مكتبة النوري دمشق 1983

4 - صفا، محمد جابر، تاريخ جبل عامل، دار النهار، بيروت- 1989

5 - الحر- عبد المجيد- معالم الأدب العاملي – دار الآفاق- بيروت- ط1

6 - الزين، عارف، تاريخ صيدا

7 - الحرّ العاملي، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد 1965

8 - تاريخ إبن عساكر،دار الفكر، بيروت ،1995

9 - أمالي المرتضى،دار إحياء الكتب العربية،دمشق1954القسم الأول، المقدّمة

10 - إبن العماد ، شذرات الذهب، دار إبن كثير، دمشق 1986

11 - **BOURON**: تاريخ الدروزفي لبنان وحوران، باريس 1930

12 - إبن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي ،بيروت 1971

13 - مجلّة العرفان- المجلّدات: -8 -18 -27 -28 -31 -33 34

14 - رجال النجاشي، مؤسسة الأعلمي، بيروت،2010

15 - أمل الآمل ،تحقيق أحمد الحسيني ط2/ بيروت، مؤسسة الوفاء، 1983م

16 - إبن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب ،تحقيق يوسف البقاعي ، ط2/ بيروت، دار الأضواء، 1991م

17 - مكي، محمد كاظم. الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، ط2، 1982، دار الأندلس بيروت

18 - إبن معصوم، سلافة العصر، شركة التراث للبرمجيات،2015.

19 - القمّي ،عباس، الكنى والألقاب،مكتبة الصدر،طهران.

20 - الأغاني، دار الكتب العلمية،بيروت ،ط2، 1412هـ،القسم الأول

21 - المهاجر، جعفر. التأسيس لتاريخ الشيعة. ط 1، 1992، دار الملاك بيروت.

22 - نعمة(عبدالله)، فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم، ط/ بيروت: دار الفكر اللبناني، 1987م.

23 - حتّي، فيليب. التاريخ العربي والمؤرخون

24 - دائرة معارف بطرس البستاني، دار المعرفة ،بيروت،1998.

25 - **Albert Hourani**: **From Jabal Amel to Persia Bulletin of the School of Oriental**

26 - حسين زيدان، الاتجاهات الشعرية في جبل عامل خلال قرنين 1900-1700

27 - علي الزين،. أمال الوحدة.

28 - حسن زيدان. الاتجاهات الشعرية في جبل عامل خلال قرنين. -1700 1900 (أطروحة دكتوراه غير منشورة)

29 - محمد تقي الفقيه. جبل عامل في التاريخ. ط 2. 1986. دار الأضواء بيروت

30 - فالح الحجّية،. موسوعة شعراء العربية.

تجليات الظواهر المسرحية والفنّية في الثقافة العاملية



د. مشهور مصطفى

تحاول هذه الورقة البحثية معالجة الظاهرة العاشورائية كواقعة لا زالت تتفاعل منذ مئات السنين، من خلال تسليط الضوء على إشكالية عدم تحوّلها كرافعة للثقافة المسرحية في منطقة الجنوب اللبناني وفي لبنان من جهة وعلى عدم الانتباه لاستغلالها كمنتج وكمعين لا ينضب يرفد الحركة المسرحية محلياً وعربياً وعالمياً، ليس هذا فحسب، بل أيضاً الإشارة إلى الأشكال الاجتماعية في التعبير التي لم تستثمر في المسرح تاريخياً، حيث تبرز أسئلة وتساؤلات في صلب هذه الإشكالية منها:

1 - ما هي الأسباب والظروف التي حالت دون سلوك الملحمة العاشورائية طريقها نحو الاستلهام منها نصوصاً مسرحية وأشكالاً مسرحية على المستوى العالمي؟

2 - لماذا لم تعطِ الملحمة العاشورائية حقها في أن تدرس وتحلل كملحمة على صعيد البنية والهدف والحالة والواقع ، بحسب أدبيات التحليل الفلسفي والاجتماعي والأنتروبولوجي، نظرياً وإجرائياً؟

3 - ما هي النقاط والمحطات الدرامية في داخل النص العاشورائي الذي يحتمل التأويل والتوسيع والمراكمة عليه والتناص؟

4 - لماذا لم يُصَر إلى استغلال الأشكال التعبيرية الاجتماعية التي تقارب المسرح، مسرحياً وما هي الأسباب التي حالت دون ذلك؟

I- أشكال التعبير الاجتماعي

لم تخلُ منطقة جبل عامل من بعض أشكال تعبيرية إجتماعية كانت تقارب المسرح دون أن تبلغه.

وهذه الأشكال هي نوع من مظاهر «مسرحية» بين مزدوجين دون أن يصار إلى إطلاق هذا الوصف عليها يومذاك.

إذ يلزم الأمر معرفة ما هو المسرح وتحديد المصطلح وانزياحه عن السياق الاجتماعي ليستقل دون أن تقطع الصلة معه ليظل في علاقة جدلية.

ومن بين هذه الأشكال نذكر: وقفة الخطيب في مسجد يخطب في المصلين، الخطيب في مناسبة إجتماعية وغيرها، الأعراس والاحزان.

- المظاهرات في الشوارع وسوق الاثنين والأسواق الأخرى.
- طريقة توزيع أمكنة الاستقبال والجلوس في الأندية الحسينية والكلمات على المنابر.
- الاحتفالات القروية الموسمية، الدفن والتأبين وتقبل العزاء

II- الأشكال التعبيرية الملحمية/ من صميم المسرح

نستطيع تقسيم الطقوس العاشورائية إلى ثلاثة أقسام أو مظاهر:

أ- التعزية ومجالس العزاء:

إن الأيام التسع التي تسبق اليوم العاشر تشهد إقامة لطقوس العزاء بحيث أنها تنتشر في كل منزل وفي كل قرية وفي كل مكان أو نادي حسيني. إنها طقوس العزاء التي يتم فيها سرد الوقائع اليومية وبإسهاب مع ما تحمله من مخاطبات ووصف ومبارزات فردية.

إنَّ الطابع العام لهذه الظاهرة يغلب عليها التمثيل الصوتي وفعل الأداء هنا/ الآن، المحمل بأفعال الكلام. وبهذه الصيغة من القراءة التي تشتد أو تضعف بحسب الأمكنة، بهدف التأثير وإيقاظ العاطفة والانفعال الوجداني تجاه الأحداث التي هي في صيغة الحاضر وليس في صيغة الماضي.

إن وضع المستمع والمشارك في مجلس العزاء المفعّل من قبل القارئ، قارئ التعزية، متاثّر بصيغة السرد أولاً، ثم بصيغة الأداء واللحن الصوتي في الزمن الحاضر ثانيا ، وكأن الحدث يحدث الآن، مما يجعل المخيلة تتجه نحو إيقاظ الحدث الماضي ووضعه في صيغة الحدث الآني، و يجعل التفاعل في أعلى درجاته.

هذا التأثير للمتخيّل وللذاكرة الانفعالية تخلق متنفساً، في الوقت ذاته، لدى المستمع/ المشارك ، لتفريغ شحنات كبيرة وجعل الأفعال التطهيرية قوية وحاضرة. وهي في مثولها الوجداني الشعوري والنفسي توازي هذا الإحساس عند المعترف في الديانة المسيحية ولدى الذي يؤدّي مراسم الحج عند المسلمين. ففي كِلا الحالتين، يشعر المؤدي لهذه الأفعال بالإرتياح والتفريغ والتطهير فيغدو نقياً، فارغاً من الهموم ومتوازناً نفسياً وهكذا... ونوجز أعلاه بما يلي:

- إستعادة الواقعة مفصلة وذلك في جعل ليلة لكل شهيد مصحوبة بسرد الأحوال والأمكنة ووصف الأفعال المحيطة والفضاء الذي يحيط بمعسكر الإمام الحسين.

- يعطي التفصيل في الوصف والسرد أهمية لكل صاحب من أصحاب الحسين أو لكل شخص من آل بيت الرسول.
- يبرز التفاصيل الواقعيّة والمتخيلة طبقاً لكل حيثيات المبارزة.
- يصور هذا الطقس وكأن كل واحد استشهد في يوم على حدة، بينما في الواقع قد استشهد الجميع صباح اليوم العاشر.

غير أن العبرة من جعلهم فُرادى في الموت وفي الشهادة هو في إضفاء قيمة أكبر ومعنى أعمق على معنى الشهادة.

ب- الهيئة أو المسيرة الحسينية:

تستعيد الهيئة، تلك المسيرة الاستعراضية ليلة العاشر، والتي نشهدها سنوياً من نبطية الفوقا حتى النبطية التحتا، شيئين:

1 - عرض واستعراض أمام نظر الجميع لكل العناصر من بشرية وغير بشرية والتي سيتكون منها التمثيل المسرحي في اليوم التالي أي يوم العاشر (موقعة كربلاء).
2 - استعادة للركب الحسيني لكن هذه المرّة بعد انتهاء المعركة: السبي - الأسر - ثم التكبيل بالسلاسل المعدنية، ومشاهدة الشخصيات.

هذا الموكب، تختلط شخصياته وشخوصه مع عناصر وشخصيات الذين فعلوا المعركة: الشمر وأتباعه، مثلاً، الجيش وعمر بن سعد الخ...

ج- اليوم العاشر:

اليوم العاشر هو واقعة الطفّ، المعركة غير المتكافئة عدّة وعدداً وهي هنا الآن تمثيل للواقعة بما تحمل من عناصر وأشياء وبما هي متمثلة بالرجال والنساء.

إنها الواقعة بما يسبقها من نصوص ورسائل ومخاطبات. وإن تلك الرسائل والمخاطبات قد استمرت طيلة الأيام العشرة بلياليها. وإنه في المسرحية يجري استعادتها من أجل الشحن الانفعالي الدرامي والزخم التراجيدي وإضفاءالمعنى الأساس على ما سوف يجري. المعركة تبقى مجرد معركة اما ما سبقها فيبقى الأهم في نظرنا.

في المعركة يجري أيضاً تفاصيل لكل شخص يبارز معسكر ابن سعد. وهذا تفصيل كنا قد سمعناه توصيفاً من خلال القراءة والكلام في كل ليلة من الليالي العشر.

أما الآن في المعركة، فهو تصويري وتمثيلي، إنه تمثيل حيّ كأننا نقول: لو أنَّ كذا.. أو هكذا كان يمكن أن يكون...

III- محطات اليوم العاشر (يوم تمثيل الواقعة)

المحطات التي سنتحدث عنها هي محطات درامية شهدت تحوّلات درامية كبرى ومؤثرة:

• **المحطة الأولى: مخاطبات وحوارات السيدة الحوراء زينب مع اخيها أبي عبد الله الحسين**

ومن أهمّ حيثيات تلك المحطة التي تحوي عدّة حوارات ولقاءات تلك التي خاطبته فيها عندما وجدته في الهزيع الأخير من الليل جالسا لوحده خارج الخيمة أو الفسطاط متأملاً. ولما سألته عن السبب بعد سماع أبيات الشعر التي يرددها:

يا دهرُ أُفّ لك من خليل	كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالبٍ قتيل	والدهرُ لا يقنعُ بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجَليلِ	وكلّ حيٍّ سالكٌ سبيلِ

صرخت وسألت: وا أخيّاه، هل استقلت من الحياة واستسلمت، فأجابها الإمام الحسين:

لو تُرِك القطا لنام.

وهو القائل أيضاً:

وإن تكن الدنيا تُعدّ نفيسة	فإنّ ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأموال للترك جمعها	فما بال متروك به المرء يبخل

• **المحطة الثانية**: تتمثل بمسيرة القوم قوم الصحابة بمبادرة الحبيب بن مظاهر ليلة العاشر نحو فسطاط الحسين لمؤاساته ورفع المعنويات:

حبيب يقول: يا أخوان الصفا ويا فرسان الهيجا

معي معي خلفي خلفي

وعندما يصلون خيمة الإمام الحسين يبرهنون عن شجاعتهم وحبهم له واستعدادهم لبذل أرواحهم بين يديه.

• **المحطة الثالثة**: موقف الحرّ الرياحي والتحوّل الدرامي

إن عمق التحوّل في الدراما يمثله موقف الحرّ الرياحي الذي إتخذه في اللحظات الأخيرة وهو مناقض تماماً لموقفه الأول الذي تمثل بضرب الحصار على معسكر الحسين ومنعه من التقدم ومن العودة وهو الذي كما يقول «جعجع به في هذا المكان».

إن هـذا التحـوّل ينبنـي عليـه مسرحيـة بأكملهـا. والواقعـة تشـهد بحسـب النـص المتـداول بضـع حـوارات مـع الإمـام الحسـين ينهيهـا الحـرّ بطلـب التوبـة وبطلـب الإذن للمبـارزة.

لكـن ليـس هـذا كل شيء، إذ لـو بحثنـا في دواخـل الحـرّ لوجدنـا مونولوجـاً داخليـاً تراجيديـاً عميقـاً، مونولوجـاً مـلأه القلـق والتوتـر والإقـدام والإحجـام والـتردد قبـل إتخـاذ القـرار.

ومـا هـذا الحـوار القصـير والمقتضـب بينـه وبـين الإمـام الحسـين سـوى خلاصـة الحالـة الأولى التـي مـرّ بهـا.

فـما هـي يـا تـرى أوصـاف الحالـة الأولى لـدى الحـرّ، ومـا هـو توصيـف ذلـك الإعتـمال الداخلي الـذي جعـل أمـوراً متناقضـة تتصـارع وتقتتـل داخلـه؟. عوامـل السـلطة والسـلطان؟ أم الموقـع والـدور والمركـز والخـوف مـن عقـاب سـلطان الدنيـا مـن جهـة في مقابـل عوامـل الديـن وقيمـة الإمـام الحسـين، وصحـوة الضمـير، والخـوف مـن النـار والفـوز بالجنـة، مـن جهـة أخـرى؟

إن هـذا الـتردد والقلـق الداخـلي بـين الإقـدام والإحجـام لا يضاهيـه تـردد هاملـت وتـردد ماكبـث في مسرحيـات شكسـبير.

ولا يقابلـه في شيء تـردد الثائـر الـذي دخـل شـقة أحـد مسـؤولي العـدو في شـنغهاي خـلال الحـرب في شرق آسـيا، وذلـك في مقدمـة روايـة البـير كامـو «الوضـع البـشري»، الـتردد بـين أن يقـضي عـلى الضحيـة النائمـة في السريـر أم لا.

أيـن هـو يـا تـرى ذلـك المونولـوج؟ مـن سـمعه ومـن رآه ومـن درى بـه؟ هـذا مـا يجـب البحـث عنـه في سـيرة الإمـام الحسـين وعاشـوراء، يجـب البحـث عـما هـو غـير معلـن لأن الحقيقة الكـبرى تكمـن في المضمـر.

إنهـا محطـة تعتـبر مـن أهـم تلـك المحطـات، والسـؤال مـاذا اعـترى داخـل الحـرّ حتـى تغـير موقفـه بمعـدّل مئـة وثمانـين درجـة عـن موقفـه الأول؟

نحـن نتذكـر في حـواره الـذاتي بعـض الجمـل لكـن هـذا يحتمـل الكثـير الكثـير حتـى ليـكاد يحتمـل مسرحـاً بأكملـه ويمـلأ مئـات الأوراق مـن التحليـل والتفسـير وإن هـذه المحطـة في عاشـوراء هـي أم الدرامـا وأبوهـا.

إنهـا مخاطبـة الـذات للـذات، معانـاة وحالـة مشـبعة بفعـل الندامـة المسـتدرك بالتوبـة. إنهـا وقفـة أمـام المـرآة، مـرآة الـذات، إن مـا يهـم ليـس هـذا المونولـوج المختـصر في بيتـين مـن الشـعر، بـل بـما هـو مضمـر ومـا لم يَبُـح بـه الحـر الرياحـي. وكأني بالـذي نقـل النـص أو تخيّـل الواقعـة أو سـمع عنهـا لم يقتطـف منهـا سـوى هـذا. والسـؤال: هـل هـذا بـكافٍ؟ كلا.

إننـا في جبـل عامـل ولـدى الشـيعة بعامـة نمرّ مـرور الكـرام عـلى مـا كان قـد كُتـب أو سُـجِّل بهـذا الحجـم الصغـير، وإننـا لا نفعـل شـيئاً سـوى تكـرار الأمـر. وإن المسـألة هـي أبعـد مـن هـذا بكثير .

نحن جعلنا عاشوراء طقساً من الطقوس، والطقس يرتكز على التكرار بحسب بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والإتنيات، ومنهم مارسيل موس ومارسيل وغريول وجان كازينيف. التكرار للواقعة ذاتها وللهدف عينه صوتاً وحركة وكلاماً. وما قد حدث سابقاً قد تنوُقل عبر الأجيال. والسؤال هذا بعضه أم جلّه؟ هل هذا جزءه أم كلّه؟ الإجابة هنا غير ممكنة. لكن ما يمكن فعله هو عدم الركون بالمطلق لجمود النص وتقليديته.

فحادثة الحرّ قد تبحر في أمهات الكتب. هنا نجد المسرح مشعاً ومشبعاً ويفوق أي موقف أو تحوّل درامي في أدبيات المسرح العالمي.

لكن يلزم الاجتهاد لفك إسار النص وإفلاته من عقاله ورفع القيد الديني عنه وكأنه نص مقدّس. هذا ليس نصاً مقدساً كالقرآن. إنه حكاية، وقصة أو رواية ملحمية فيها جلّ الحقيقة وإنه خاضع للإجتهاد والإبداع والإبتكار لتوسيع المعنى وتعميقه وإيصال الصورة التي ربما لم تصل والتي لا نستطيع تصوّرها على قدر المساواة.

فلنحرر النص من عقاله ونؤول العالمي في هذا النص بما يحتمل من تأويل وتفسير وابتكار فني وثقافي وإنساني لنصل به أكثر إلى مستوى الحدث ونرتفع معه إلى مستوى الواقعة ومعنى الشهادة والغاية الأسمى التي سعى من أجلها الإمام الحسين.

• **المحطة الرابعة:**

لا بد من ذكر المحطة الرابعة التي تتمثل بوصية السيدة زينب لأخيها الحسين عندما أتته بالجواد، جواد المنية وودعته. إنّ ما لم يُقل هو أبلغ مما قيل على بلاغته.

• **المحطة الخامسة:**

ولا بُدَّ من التوقف عند عودة الجواد دون سيده من أرض المعركة ومشاهدة رأس الإمام الحسين مرفوعاً على القنا، وردة الفعل المحمّل بالمسؤولية المخيفة للإمام علي بن الحسين (السجّاد) وعزيمته مع السيدة زينب في لم الشمل والثبات والإستعداد للمرحلة الجديدة.

ومن المحطات نذكر التلّة الزينبية التي اتُّخذت مكاناً للحدث. مكان معاينة الواقعة ومحاولة إدارة المعركة والإستعداد للتوقعات كلها. لقد تراوحت المهام بين الذهاب والإياب والجلوس والقيام، مجبولة بالمشاعر والصور ولسان حال يقول وحوار داخلي يجول وصوت أوصراخ يصول.

المحطات كثيرة ويمكن أن نقدرها أيضاً دون التوسّع في شرحها وتحليلها ومنها: الكرّ والفرّ للإمام الحسين بين القتال في صلب ساحة المعركة ثم الانسحاب للإطمئنان على العيال والأطفال وكأني به منقسم دون أن ينقسم، وأكثر من رجل في واحد، له أكثر من عين ولسان ويد ورجل. هل بإمكانكم تصور الحالة الشعورية والنفسية لهذا الرجل في تلك الأثناء؟ كلا.. لا وصف يحيطها ولا وصف يفوقها.

• **محطة الانتظار:**

إن المحطة الأطول زمنياً والأغنى شعورياً هي محطة الانتظار طيلة الأيام التي سبقت الهجوم. إنها محطة تمثل قمة المأساة وجلّ الخوف الآدمي وعمق القلق البشري وهلع النفس الإنسانية. إن قوّة وغزارة التصورات للحالات القادمة وتمثُّلها والمشاعر التي ترافقها لهي الأشد والأصعب في وِقْفَة الإنسان وجهاً لوجه إزاء وضعه البشري.

إنها حالة الإمام الحسين لا شك في الانتظار، إنتظار الموت والشهادة، إنتظار هجوم القوم، التفكّر بما بعد المعركة، إنه انتظار مع ما يحمل هذا المفهوم على المستوى الواقعي مما ذكرنا أعلاه من صور ومفاهيم وأوصاف ومشاعر وانفعالات. إنه انتظار بما يحمل من ثبات وصبر وأناة وشجاعة وجرأة ومقاومة أو تسليم بالأمر الواقع.

إنه قمة المأساة وقمة الدراما في مثل هذه الواقعة: لقد كان الانتظار ذاك بطل الملحمة العاشورائية والحسين هو البطل المنتظر أو هو أب لهذا البطل. ورُبّ متسائل يقول لماذا؟ ونجيب لأن الإنتظار هو أشدّ إيلاماً من ضربة السيف القاطع في لحظة المعركة، وأكثر وجعاً من طعنة الرمح المسنون. إنه الهلع ما قبل الهلع. إنه صمت رهيب في وسط ضوضاء الكلم وجعجعة الكلام وصليل السيوف ووقع حوافر الخيول وصهيلها.

إنه هدوءٌ مخيف لما قبل العاصفة. إنه ترقّب مع ما يحمله من توتّر وقلق واستعداد، ومع ما يواكبه من تخيلات سلبية وإيجابية. الانتظار إذاً، محطة درامية كبرى عميقة وواسعة، ولا قعر لها.

IV- بين عاشوراء الملحمة وعاشوراء التمثيلية (المسرحية)

عاشوراء ليست مسرحية وليست تمثيلية. إنها أكبر من مسرحية لأنها ملحمة كبرى، أين منها ملاحم اليونان كالألياذة لهوميروس والأوديسا، وأين منها ملحمة جلجامش السومرية والمهاباراتا الهندية؟

- إنها ملحمة لأن لها بداية ونهاية دون بداية ونهاية ولها هذا المسار الطويل بدءاً بحوادث مكة وفك الإحرام في مناسك الحج ثم العزم على المسير، والسير في موكب، مع ما سبق ذلك ورافقه من مسألة الكتب والرسائل، ومع ما أحاط بذلك من أحداث (مقتل هانئ بن عروة ومسلم في الكوفة الخ..). إنها حوادث قد تشكل أجنحة ذلك الطائر الكبير: الملحمة الحسينية أو الملحمة العاشورائية.
- إنها ملحمة كبرى لأنها تحوي على الشعروالظرف والأدب إلى جانب الخوف والقلق والموعظة والإيمان والمحبة والإخلاص والتضحية...
- إنها ملحمة لأنها تحتوي على تفاصيل حياة عادية إلى جانب حياة استثنائية وفيها فلسفة الحياة والموت معاً. ذلك إلى جانب الانفعال القوي والإحساس المرهف.

- إنها ملحمة لأن فيها السيف والرمح والسهم، وفيها صهيل الجياد ووقع حوافرها، وفيها تضرّعات الأمهات وصراخ الأطفال وبأس الرجال وشجاعة الفرسان.
- إنها ملحمة لاحتوائها على الظرف والأدب والشعر والانتظار إلى جانب الدم والنّدب والعويل والتأبين والصلاة والصمت والعبادة.
- إنها ملحمة لأن فيها المخاطبات والإلتحامات والكلام اليومي ووضيع الكلم ورفيعه ومآلها الأسر والسَّبي ومشقّات السير والمسيرة المكسورة.
- إنها ملحمة لأنها أسفرت عن تداعياتها مباشرة بعد المعركة تجلت في خطبة السيّدة زينب ومواجهة الطاغية يزيد في عقر داره. موقف قوي وشجاع أين منه موقف «أنتيغون» إزاء «كريون» في أدبيات «سوفوكليس» و «آنويل» و «برخت»؟ ولأن لها تداعيات ما بعد المعركة لا زالت مستمرة حتى الزمن الراهن.
- إنها ملحمة لأنه يعتمل في داخلها هذا التقابل القويّ والشفّاف بين الموت والحياة بين ذلّ العيش أو الموت بكرامة، وهذا ما ذكره الإمام الحسين:

وإن تكن الدنيا تُعدّ نفيسة فإنَّ ثواب الله أعلى وأنبل

وفي مكان آخر:

«إن الدعيّ ابن الدعيّ قد وقف بين السلة والذّلة

لكن هيهات منا الذلة»

يكفي، الثقافة العاملية هذه الظاهرة الملحمية، لكن السؤال:

أما آن الأوان لتوسيعها وتطويرها والبناء عليها؟

V- بين ثقافة التلقي وثقافة الإرسال

في عصر العولمة يبرز السؤال المفصلي: ما مدى فاعلية التقوقع ضمن طقس إجتماعي ديني في زمن الانفتاح والتواصل والاتصال؟

لا شك أن ممارسة الطقس من قبل جماعة إجتماعية ما، أو من قبل مجتمع معيّن، هو المحافظة على الوحدة والتماسك لجميع الأعضاء والأفراد في ظل الإنقسامات والهجمات غير المتكافئة والصراعات بين القوى العالمية، ولأن الطقس من سماته التكرار فإنه يؤول إلى الجمود معبراً عن معتقدات وقيم وديناميه القوم التي تعتمل في ثبات.

في مثل هذه الحال يُعتبر الطقس حالة دفاعية عن الوجود المادي والثقافي للجماعات. وتبقى الجماعات والأفراد في مرحلة التلقي فقط للثقافات الأخرى وللغزوات الثقافية، محاولة الحؤول دون اختراق الحاجز الثقافي المحلي الذي تمتلكه وتتمتع به.

إن تمثيلية عاشوراء أضحت تتويجاً للممارسة الطقوسية، وهي مع تلك الممارسات توصد باب الانطلاق نحو الخارج ونحو الآفاق الرحبة ونحو العالمية. أما الاشتغال على النص العاشورائي انطلاقاً من المحطات الدرامية الكبرى التي في مفاصل الملحمة العاشورائية فإنه يوسّع أفق التعبير ويثري الإبداع، وينطلق بالملحمة نحو العالمية على المستوى المسرحي. وبهذه الصيغة نهجم بثقافتنا نحو الخارج بدل أن نكتفي بالدفاع وبالتلقي. فلندع ثقافتنا عالمية ولنصدرها نحو الخارج عندما نستخرج كنوز الثقافة من الأعماق الدرامية في هذه الملحمة. لكن ذلك يلزمه فك لإسار النص، ويلزم إفلات النص التمثيلي من عقاله، ورفع القيد الديني والاجتماعي عنه وكأنه نص مقدّس. إنه ليس نصاً مقدساً كالنص القرآني، إنه حكاية وقصة ورواية ملحمية فيها جلّ الحقيقة. وإنه يظل خاضعاً للإجتهاد ولآلية الإبداع والإبتكار لتوسيع المعنى وتعميقه. وذلك لإيصال الصورة التي لم تصل والتي لا نستطيع تصوّرها على قدر المساواة، فلنحرر النص من عقاله إذاً، ولنعمل على تأويل ما هو عالمي في هذا النص بما يحتمل من تأويل وتفسير وابتكار فني وثقافي وإنساني، كي تصل به أكثر فأكثر إلى مستوى الحدث ونرتفع معه إلى مستوى الواقعة الحسينية ومعنى الشهادة والغاية الأسمى التي سعى من أجلها الإمام الحسين.

خلاصة

لقد تُوِّجت الطقوس الصغيرة من دينية واجتماعية، وكذلك المظاهر الاجتماعية الاحتفالية، التي قاربت المسرح في ديناميتها وفي شكلها، بالملحمة الحسينية الكبرى، تلك الملحمة البطولية التي حوت على المسرحة وعلى ما هو أوسع منها، من عوالم فنون الأداء الواقعي والحيّ صوتاً وحركة، في الزمان والمكان، لأشخاص وشخصيات واقعية، ولشخوص مسرحية مثّلت الواقعة في السنوات التي تلت ذلك، سواء في العالم بعامة أم في منطقة جبل عامل بخاصة، وفي مدينة النبطية بالتحديد.

ومـن أجـل عـدم الوقـوع في التكـرار كسـمة للطقـس العاشـورائي، علينـا البحـث عـن ديناميـة الملحمـة خـارج طقوسـها مـن أجـل الخـروج بمعانيهـا الثقافيـة والإنسـانية أكثـر نحـو العالمية.

مراجع ومصادر البحث

1 - نص عاشوراء (مصدر)..

2 - ألشرقاوي، عبد الرحمان،الحسين ثائرا.شهيدا،الدار العالمية، بيروت، 1995.

3 - ألمقـرم، عبـد الـرزاق الموسـوي، مقتـل الحسـين، منشـورات مؤسسـة النـور للمطبوعـات، بـيروت.

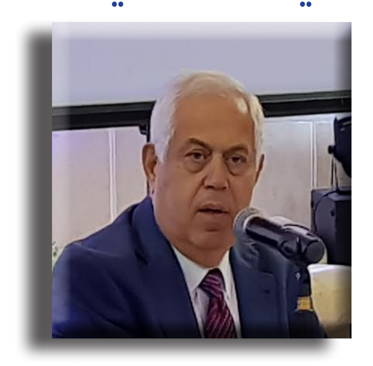
4 - زميزم، سعيد، هذا الحسين،مؤسسة البلاغ،دار سلوني2000،بيروت.

5 - ديفينيو،جان، علم إجتماع المسرح،بوف، 1965،باريس،فرنسا.

6 - كازينيف، جان،علم إجتماع الطقس،بوف ، باريس،1971.

7 - مغنيـة ، محمـد جواد،مـع بطلـة كربـلاء السـيّدة زينـب،دار التـيّر الجديـد، دار الجـواد، 1992، بـيروت.

الشيخ الصحافي وَ العرفانُ الصيداوي:
التفاعل الثقافي والسياسي مع قضايا صيدا



د. مصطفى متبولي

إذا ذكرنا اسم الشيخ أحمد عارف الزين فجأة يظهر اسم مجلة العرفان وإذا ذُكِرَت اسم مجلة العرفان استعادت ذاكرتنا الصحافي الشيخ أحمد عارف الزين. فكأنّ الواحد منهما هو من صلب الآخر و هذا أمر طبيعي لأن مجلة العرفان وُلدت من رحم معاناة و أحلام الشيخ أحمد عارف الزين الصحافي الإنسان المنفتح على الآخر والمناضل العربي و المفكر المتنور و الإصلاحي ... و لذلك يمكن القول إنه من الصعب جداً فك الارتباط والتلاحم بينهما وكأنّ الشيخ الصحافي أحمد عارف الزين و عرفانه دخلا في ذوبان روحي و أصبحا كائنًا واحدًا وأصبح اسمهما بعد ولادة المجلة «أحمد عارف الزين العرفان».

في العام 1904 قرّر الشيخ أحمد عارف الزين السكن في صيدا وكان عمره آنذاك 23 سنة و في الوقت نفسه بدأ مسيرته الصحفية والأدبية والسياسية كمراسل مجلة « ثمرات الفنون» الأسبوعية السياسية العلمية الأدبية التي تمّ تأسيسها سنة 1875 في بيروت والذي كان رئيس تحريرها عبد القادر القباني ، و بمراسلة جريدة «الإتحاد العثماني» التي أصدرها في بيروت الشيخ أحمد حسن طبارة على أثر إعلان الدستور في السلطنة العثمانية. وعمل أيضاً مراسلًا لجريدة «حديقة الأخبار» التي أنشأها خليل الخوري سنة 1858.

وبعد هذه الرحلة الصحفية في مهنة البحث عن الحقيقة و ما ينتج عنها من متاعب و معاناة وفرح و قلق يومي قرّر الشيخ الصحافي تأسيس «مجلة العرفان» ابنته الروحية. و في افتتاحية العدد الأول (الصادر في 5 شباط 1909) حدّد الشيخ الصحافي الأهداف المرجوة من إنشاء مجلة العرفان ونقتبس جملة كتبها الشيخ أحمد عارف الزين في هذا الصدد : «... ومنشىء هذه المجلة منذ نعومة أظفاره وهو يتشوق لإنشاء صحيفة يتمكن بها من خدمة أمته ووطنه اذ (كلّ امريء ميسّر لما خُلق له) وقد قيَّضَ الله لنا ما نتمناه (والأمور مرهونة

بأوقاتها) فأنشأنا هذه المجلة على اعتراف منّا بالعجز والتقصير، ودعوناها (العرفان) ولكل مسمى من اسمه نصيب. وقد أخذت على عاتقها البحث في العلم والأدب والأخلاق والإجتماع قدر ما يستطاع، على أنها ستزيد مباحثها إذا رأت إقبالا... وفقنا الله لإتمام هذه الخدمة والقيام بهذه المهمة كي يتسنى لنا خدمة الوطن والأمة خدمة حقيقية... ».

ونستخلص من هذه الإفتتاحية بأن المهمة المنوطة بمجلة العرفان حسب مؤسسها هي خدمة الأمة والوطن وهي وسيلة لتنوير العقول ونبراسًا مضيئًا ينير لها الطريق وينقذها من الظلم و يساعدها على محاربة الظالمين من خلال نشر مواضيع في العلم والأدب والأخلاق والإجتماع الخ ...

هذه الشعارات – المبادىء التي كتبها الشيخ أحمد عارف الزين في العدد الأول من مجلة العرفان جعلتني لا شعوريًا، أستذكر ملاحظة شهيرة للرئيس الراحل شارل الحلو التي جاء فيها: «إن من بين الأشياء المثيرة والملفتة التي خرجت بها بعد ست سنوات من ممارسة الرئاسة: أن لبنان هو بالنهاية بلد اليافطات».

و للإيضاح تابع الرئيس شارل الحلو قائلاً: «ترى يافطة كبيرة مكتوبًا عليها مدرسة، فاذا دخلت إلى الداخل فقد تكتشف بأنها ليست مدرسة بالمعنى المتعارف عليه، وينطبق الأمر على يافطة كتب عليها معهد أو سجن أو وزارة وإلى آخر اليافطات التي تملأ الشوارع والمدن والقرى».

ورغم اقتناعي الكامل بصوابية ودقة ملاحظة الرئيس الراحل شارل حلو والتي هي من وجهة نظري أصدق تعبير عن الواقع اللبناني ماضيًا و حاضرًا و ربما مستقبلًا إلا أنّ قراءتي لمسيرة حياة الشيخ أحمد عارف الزين الفكرية والنضالية والإصلاحية والصحافية دفعتني إلى الإمتناع عن تطبيقها على مجلة العرفان التي تبنّى مؤسسها الشعارات – المبادىء التي سعى طوال حياته وبذل الغالي و النفيس الى تحقيقها إنطلاقاً من مدينة صيدا.

و من هنا نطرح في هذه الدراسة السؤال الجوهري: هل استطاع أحمد عارف الزين تحويل هذه الشعارات- الأهداف في مجلة العرفان إلى مواقف سياسية و مبادىء تنويرية من خلال وضعها في « خدمة أمته ووطنه»؟ أم أنها بقيت كلمات و شعارات جوفاء اعتاد الناس على سماعها ؟

و الجواب المباشر على هذا السؤال يؤكد التزام الشيخ أحمد عارف الزين بشعارات وأهداف مجلة «العرفان» وترجمتها إلى مواقف وأفعال في نشاطاته الثقافية، الإجتماعية، التربوية والسياسية في صيدا وفي المحافل اللبنانية والعربية والعالمية على الرغم من كل الضغوطات المادية والاضطهاد السياسي والسجن لتغيير سلوكه النضالي العروبي والإصلاحي ولكن من دون جدوى. وهذا ما تمت ملاحظته من خلال وجود شواهد – أمثلة كثيرة مستقاة من سيرة حياة الشيخ الصحافي.

مجلة العرفان : ينبوع و مصهر التفاعل الثقافي

في البداية تمّت طباعة مجلة «العرفان» في بيروت ثم في صيدا بعد شراء الشيخ أحمد عارف الزين لمطبعة خاصة أسماها مطبعة العرفان في 11 كانون الأول سنة 1910 وظلّت العرفان تصدر و تطبع في صيدا حتى تاريخ وفاته سنة 1960.

كانت مطبعة العرفان تقع إلى جانب مكتب الشيخ أحمد عارف الزين في ساحة باب السراي في قلب صيدا القديمة ، هذه الساحة التي تتفرع منها الأسواق التجارية ، وفيها كانت تنعقد الإجتماعات العامة والمهرجانات الوطنية والسياسية والثقافية وتقام فيها أيضاً الأفراح والمناسبات الدينية . ونالت المطبعة شهرة كبيرة في البلدان العربية لقيامها بطباعة عدد كبير من كتبٍ لمفكرين وأدباء وشعراء وفقهاء وعلماء دين ؛ وهذا الأمر شكّل دليلًا واضحًا على أن مدينة صيدا تحوّلت بفضل جهود الشيخ الصحافي إلى مركز أساسي لطباعة الكتب في بداية القرن العشرين .

في البداية واجهت مجلة العرفان صعوبات كبيرة لأن المواد التحريرية كان يكتبها بشكل أساسي الشيخ أحمد عارف الزين واستاذاه ورفيقا دربه الشيخ أحمد رضا و الشيخ سليمان ضاهر و الأديب الصيداوي محمد علي حشيشو الذي ولد في صيدا سنة 1882 والذي تميّز بإتقانه للّغة العربية وآدابها و كان أديبًا وشاعرًا كبيرًا وأستاذاً للّغة العربية في المكتب الرشيدي في صيدا.

لكن الشيخ أحمد عارف الزين خسر صديقه و زميله في مجلة العرفان الشاعر محمد علي حشيشو لأن السلطات التركية اعتقلته بسبب مواقفه الوطنية والعربية وتمّت محاكمته في المجلس العرفي التركي في عاليه الذي أصدر قرارًا بنفيه الى بعلبك ثم إلى بلدة القصير القريبة من مدينة حمص حيث توفي سنة 1916 وهو في ذروة عطائه مما حرم مجلة العرفان من محرّر أديب آمن برسالة مجلة العرفان و صوابية توجهات الشيخ الصحافي. والجدير بالذكر أن للأديب محمد علي حشيشو مقالات عديدة وقصائد مختلفة نشرت في مجلة العرفان.

إنّ هذه الصعوبات التحريرية بدأت تدريجياً بالإنحسار وذلك للجدية والجِدة والعلمية التي اتّسمت بها مقالات مجلة العرفان والتي استطاعت جذب عدد كبير من الكتّاب و المفكرين من الأقطار العربية والإسلامية . بالإضافة إلى وجود سبب آخر و مهم دفع هؤلاء الكتّاب إلى نشر إنتاجهم الفكري والأدبي هو أن الشيخ أحمد عارف الزين كان مؤمنًا ومدافعًا صلبًا عن حرية الرأي والتعبير والمعتقد وملتزمًا طوال حياته الصحفية بمبدأ نشر الدراسات والمقالات حتى التي لا تتوافق مع آرائه لأنه كان يعتبر أن الإختلاف بالرأي هو مصدر غنى لمجلة العرفان ومن نتائجه ولادة أفكار جديدة بعيدة عن الأفكار النمطية السائدة والبائدة .

مـن المفيـد جـداً ذكـر أسـماء الكتّـاب والعلـماء والمفكريـن والفقهـاء لأنهـا هـي خـير دليـل عـلى الأهميـة الكـبرى التـي حظيـت بهـا مجلـة العرفـان لديهـم ومـدى انتشـارها وسـمعتها الطيبـة لـدى القـراء ، وهـذه الأسـماء اللامعـة كانـت مشـهورة ومحترَمـة في الأوسـاط الأدبيـة والعلميـة والدينيـة والتـي انتمـت إلى مـدارس فكريـة وطوائـف ومذاهـب دينيـة مختلفـة نذكـر منهـم عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر :

كتّـاب مـن لبنـان : العلامـة السيد محسـن الأمـين، الشـيخ أحمـد رضـا، سـليمان ظاهـر، محمـد جابـر آل صفـا، الشـيخ عبـد الله العلايـلي، أمـين الريحـاني، مـارون عبـود، بولـس سـلامة، عيسـى اسـكندر المعلـوف، الأخطـل الصغـير، حسـين مـروة ورئيـف خـوري.

كتّاب من سوريا : فارس الخوري، بدوي الجبل ومحمد كرد علي.

كتّـاب مـن العـراق: أحمـد الصـافي النجفـي، عبـد الـرزاق الحسـني، الشـيخ محمـد رضـا الشـبيب، معـروف الرصـافي، محمـد مهـدي الجواهـري ونـازك الملائكـة.

كتّاب من الأردن : عيسى ابراهيم الناعوري...

كتّـاب مـن مـصر : محمـد تيمـور، أحمـد شـوقي، عبـاس محمـود العقـاد، حافـظ ابراهيـم وخليـل مطـران.

كتّاب من فلسطين: وداد سكاكيني وفدوى طوقان.

كتّـاب مـن المهجـر: إيليـا أبـو مـاضي، جـورج صيـدح، اليـاس فرحـات، والشـاعر القـروي رشـيد سـليم الخـوري.

وهكـذا أصبحـت مجلـة العرفـان مرجعًـا اساسـيًا في الأدب والفكـر والتاريـخ بالنسـبة لعـدد كبـير مـن الفتيـان والشـباب اللبنـاني والعـربي وهـذا مـا أكّـده الكاتـب الصحفـي سـمير عطـا الله في مقالـه بعنـوان «بـدل عـن وطـن ضائـع» نـشره في جريـدة النهـار (23-12-2015) :

«... و مجلـة العرفـان، صاحبهـا الشـيخ أحمـد عـارف الزيـن، التـي كنّـا نقرأهـا فتيانًـا وهـي تحمـل في صفحاتهـا أبـرز وأهـم أسـماء الأدبـاء والمفكريـن العـرب».

حـول هـذا الموضـوع كتـب شـاعر جبـل عامـل موسـى الزيـن شرارة عـن أهميـة مجلـة العرفـان كمصـدر للأخبـار ومرجـع لنـشر المعـارف و المعلومـات : « في العقـد الأول مـن القـرن العشريـن ... كان النـاس إذا عرفـوا مـن الأخبـار شـيئًا يقولـون: قالـت العرفـان، وهـذا يعنـي أن مجلـة العرفـان أصبحـت بحـق وسـيلة جيّـدة للتعبـير عـن آراء عامّـة النـاس. ..إنّ الجيـل إذا تعلّـم شـيئًا مـن الخـارج فهـو بفضـل مجلّـة العرفـان، لقـد أخـذت هـذه المجلـة بأيـدي أوائـل تلاميـذ جبـل عامـل وشـوّقتهم إلى الكتابـة، فكانـت بالنسـبة لهـم مدرسـة الشـعب والمصلحـين».[1]

يمكـن القـول إنّ مـا كتبـه الإمـام السـيد محسـن الأمـين عـن دور مجلـة العرفـان التنويـري

1- سلطاني، محمد علي ، قراءة في تجربة مجلّة العرفان، ترجمة: عقيل البندر،27 تشرين الثاني 2014

والتثقيفي ونقل المعلومات في مختلف الحقول المعرفية هو الأكثر تعبيرًا و دقة : " فإذا كان ناسٌ من جيلنا، في هذه البقعة من لبنان، قد طمح في العشرينات، بالأخص، إلى العلم الحديث يتعلمونه، وإلى الأدب الجديد يتذوقونه أو يكتبونه، وإلى أسباب المعرفة يتشبثون بها من وراء المجاهل كلها، وإلى التراث العربي الصالح يتخيرون أطايبه وفضائله، وإلى الحياة الحرة الكريمة ينشدونها ويكافحون لها، فذلك كله إنما كان في ذلك الزمان لأن عرفانات أحمد عارف الزين كانت الحافز الأول لهذا الطموح كله، يوم لا حافز غيرها في معتزلنا هنا آنذاكً. [1]

وتميز الشيخ أحمد عارف الزين باهتمامه بالطاقات والمواهب الشابة في مجال الكتابة الصحفية و فتح لهم أبواب صفحات مجلة العرفان لنشر مقالاتهم والتي كانت لهم مدرسة صحفية بامتياز قبل تأسيس كليات لدراسة الصحافة وقد تتلمذوا فيها على يد الشيخ الصحافي وتعلموا منه أصول المهنة و قواعد الكتابة الصحفية و كانت منصة انطلاق للعديد من الصحافيين وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الصحافي الكبير كامل مروة الذي كتب افتتاحية في جريدة الحياة البيروتية يوم الخميس في 14 تشرين الاول 1960 يرثي فيها الشيخ أحمد عارف الزين ويروي فيها قصة أول مقالة نشرت له في المجلة عندما كان لا يزال فتى :

"ما تزال ذكرى ذلك الحادث ماثلةً أمام عينيّ، وسترافقني إلى آخر يوم من حياتي...

كان ذلك قبل اثنين وثلاثين عاماً، في عشية يوم من أيام الصيف الحارة. وقفت أمام مكتبه أترقّب خلوّه من الزائرين، وفي يدي ورقة أقبض عليها وكأنها كنز. وطال انتظاري ولا عجب، فمكتب الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة «العرفان» في صيدا كان مقصد الأدباء وملتقى الخلّان!

وأخيراً خرج آخر زائر، فدخلت عليه، أتعثّر الخطى، ومددت إليه الورقة، وقد احمرّ وجهي حياءً، فاستقبلني بابتسامة الحنان التي طالما غمرني بها منذ وفاة والدي، وإقامته وصيًا عليّ. تناول الورقة وراح يقرأها، وقبل أن ينتهي منها، أرخى – رحمه الله– نظّارتيه، وقال لي:

– أأنت كتبت هذا؟

فأومأت بالإيجاب، فقال:

– أحسنت! أحسنت! سأنشرها لك في عدد «العرفان» القادم، شرط أن توالي الكتابة!

هكذا أيها القاريء رأى النور أول مقال كتبته في حياتي في عام 1928، وكنت في الثالثة عشرة من عمري، وهكذا خطوت الخطوة الأولى في الطريق الوعرة، التي قادتني عبر إثنين وثلاثين عامًا إلى هذه السطور...

1- أعيان الشيعة ، حققه واخرجه الامام السيد محسن الأمين ، الشيخ أحمد عارف الزين ،المجلد السابع ، بيروت ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، ص 406

وكان موضوع مقالي «واحة سيوة» [الواقعة في الصحراء الغربية من مصر] استوحيته من مجلة جغرافية أجنبية. ولكن من أين لي أن أطّلع على مجلة أجنبية، أو أن أسمع بواحة سيوة، أو أن أكتب مقالًا، لو لم يكن في صيدا رجل اسمه أحمد عارف الزين؟ يومئذٍ كنا في الجنوب لا نعرف صحفًا، ولا مجلات، ولا سيارات ولا طيارات ولا راديو.

هذه المستحدثات كانت ما تزال - بالنسبة لنا – في طيّ الغيب. ولكن فعلها كان يجتمع في مجلة واحدة، أسمها «العرفان». لقد كانت الجسر الوحيد الذي تنتقل عليه المعرفة بين العالم وبين جبل عامل، فعاش ربع مليون نسمة وأكثر من جيل، على غذاء «العرفان»، نافذتهم الوحيدة على العالم.

[...] هذا المنبر، قام بإرادة رجل واحد، وتضحية رجل واحد، هو الشيخ أحمد عارف الزين، الذي نعيناه للقراء في «حياة» أمس. وأنا واحد من الذين فتحوا عيونهم على الدنيا من خلال [نافذته]، واستمدوا [منه] العدة لاقتحام غمار الحياة... " (جريدة الحياة، الخميس 14 تشرين الاول 1960).

ولم يكن كامل مروة الصحافي الوحيد الذي تعلم مهنة الصحافة في مدرسة الشيخ الصحافي أحمد عارف الزين لأن عددًا كبيرًا من الشباب اللبناني و العربي دخلوا الى «كلية» صحافة « مجلة العرفان» قبل أن يبحروا في عالم الصحافة و نذكر منهم الصحافي و الأديب الصيداوي شفيق الأرناؤوط الذي كتب حول تجربته الصحفية في مجلة العرفان :

" وكان يشجع الناشئين على الكتابة. فكان حلمي أن أقرأ اسمي مطبوعًا في «العرفان» في ذيل مقال ... إلى جانب أسماء الكتّاب المعروفين. فلخّصت موضوعًا عن الفرنسية، ولم أجرؤ على تسليمه للشيخ عارف يدًا بيد مخافة الإعتذار عن النشر.. فأرسلت المقالة بالبريد، وراحت تؤرقني حتى آخر الشهر. وإذا بي أتلقف العدد، وأقلّب صفحاته سريعًا حتى عثرت على الإسم المنشود ... فرحت أعيد قراءة ما كتبت مثنى وثلاث ورباع منتشيًا إعجابًا! وفي اليوم التالي زرت الشيخ عارف في مكتبه أول مرة، وكان ذلك في العام 1936، فشجعني على متابعة الكتابة في «العرفان»، فتابعتها حتى نهاية الأربعينيات.

ثم دفعني التشجيع – او غرور الشباب! – إلى النشر في «الثقافة» المصرية، وفي «المكشوف» و«الأمالي» و«العلوم» و «الأداب» اللبنانية، و«التمدن الإسلامي» الدمشقية وتحوّلت من التدريس في مقاصد صيدا إلى الصحافة والإعلام، ثم إلى القضايا القومية، فلم يعد اسمي مطبوعًا، مثار اهتمامي وأحلامي ... ولكن بقي محفورًا في نفسي اسم ذلك الشيخ الوقور الشجاع الذي مثل العقيدة والجهاد أمام القوة والسلطان أبلغ تمثيل، وامتحن بالسجن والحرمان والجحود، فلم تلن له قناة، ولم تهن عزيمته، ولم يضعف ايمانه.[1]

1- الارناؤوط، شفيق،اديب مجاهد ومجلة رائدة ،وجوه ثقافية من الجنوب ، بيروت ، دار ابن خلدون ، 1981، ص. 51

الشيخ الصحفي و تفاعله مع البيئة الثقافية الصيداوية

لم تكن صيدا في منتصف قرن التاسع عشر و السنوات الأولى من القرن العشرين معزولة عن الحوارات التي تجري في المجالات الفكرية والثقافية والإجتماعية والتعليمية والنقاشات حول تحديث وتطوير ونهوض مجتمعات الأقطار العربية الخاضعة لسلطة الحكم العثماني بهدف الخروج من التقاليد القديمة وأنماط التفكير البالية التي شكّلت عائقًا كبيرًا أمام تطورها أسوة بسائر الشعوب المتقدمة. وشاركت نخبة من الصيداويين على اختلاف طوائفهم، الذين يشكّلون النسيج الإجتماعي لمدينة صيدا، في هذه الحوارات وساهموا بإغنائها وتفاعلوا معها وكان من نتائج هذه المشاركة تداعيات إيجابية في التعليم والثقافة.

وبعد صدور قانون التعليم العام المسمى معارف عمومية في الدولة العثمانية في عام 1869 الذي أجاز إنشاء مدارس خاصة للجمعيات والأفراد سواء أكان هؤلاء من رعايا الدولة العثمانية أو من الأجانب تمّ إنشاء نوعين من المدارس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهما : مدارس أهلية أنشأها مواطنون عرب مسلمون أو مسيحيون و مدارس أجنبية أسّستها الإرساليات الأجنبية المختلفة التي جاءت إلى لبنان بهدف التبشير لمختلف الطوائف المسيحية.

لا بد هنا من التنويه بالدور الإيجابي الذي قامت به المدارس الأهلية و المدارس الأجنبية في النهضة التعليمية في صيدا ونشر العلم والمعرفة والوعي الثقافي في صيدا ، وجبل عامل على الرغم من الإنتقادات الموجّهة إلى طرق وأساليب الإرساليات الأجنبية في التبشير .

وهذه النهضة التعليمية والصحوة الفكرية والعلمية والتواصل مع الشرق والغرب جعلت من صيدا نقطة جذب ومركز استقطاب لعدد من الشخصيات الثقافية والأدبية والدينية من جبل عامل التي تفاعلت مع زملاء لهم من الصيداويين ؛ وساهمت هذه المشاركة العاملية في الحياة الثقافية مع الصيداويين في خلق بيئة حاضنة ومحفزة للتفاعل الثقافي والفكري والعلمي والتربوي بينهما ومن أبرز هذه الشخصيات الشيخ أحمد عارف الزين الذي سكن نهائيًا في صيدا سنة 1904 وتفاعل مع البيئة الفكرية والعلمية والتربوية والثقافية الصيداوية وتحول مع إنشاء مجلة العرفان الى دينامو الحركة الثقافية والسياسية في صيدا وإلى صلة وصل بين صيدا وجبل عامل وهمزة وصل بين صيدا وسوريا والعراق والأردن ومصر وإيران .

مع إصدار الشيخ أحمد عارف الزين لمجلة العرفان في صيدا انحسر الدور المغيّب لمدينة صيدا ولمنطقة جبل عامل وأصبحت « عرفان صيدا» ساحة عامة agora للحوارات بين المفكرين حول الحداثة والإصلاح الإجتماعي والتقدّم والتطور وكيفية النهوض في المجتمعات العربية من أجل التحررمن غياهب الأفكار الظلامية والإبحار الى آفاق التجديد في الفكر

والثقافة. و بناء على السياسة التحريرية المعتمدة من الشيخ أحمد عارف الزين أصبحت مجلة العرفان المصهر الثقافي بين المفكرين والأدباء والشعراء من جبل عامل ونظرائهم من صيدا الذين تحاوروا وتساجلوا وكتبوا خلاصات أفكارهم وعبّروا عن وجهات نظرهم بنزاهة وموضوعية من دون أية رقابة من صاحب المجلة شرط أن يكون أسلوب التعبير يراعي القواعد الأخلاقية المرتكزة على احترام رأي الآخر وعلى أن يكون المضمون منطقيًا أوعلمياً.

وفي هذا السياق كان الشيخ أحمد عارف الزين المثل والمثال لهذا التفاعل الثقافي والإجتماعي مع قضايا صيدا وجبل عامل وكان المحفّز له وأحد صنّاع النهضة العلمية والأدبية والثقافية في صيدا وجبل عامل. ولابدّ من الإشارة إلى شغف الشيخ أحمد عارف الزين بتعلّم اللغات الأجنبية فقد تعلّم التركية والفارسية ، وبعد انتقاله إلى السكن في صيدا سنة 1904 درس اللغة الفرنسية عند أستاذ خاص اسمه توما أفندى كيال واللغة الانكليزية عند صديقه الطبيب الصيداوي شريف عسيران.[1]

ولم يكتف الشيخ أحمد عارف الزين بالكتابة في مجلة العرفان للقيام بمهمته التنويرية ورسالته الثقافية والنهضوية بل انطلق أيضًا في مشاريع تخدم المجتمع الصيداوي ونشر العلم والثقافة فيه. ومن هذه المشاريع أسّس الشيخ أحمد عارف الزين والشهيد توفيق البساط مع مجموعة من الصيداويين جمعية «نشر العلم» في 28 تشرين الثاني سنة 1912 وكان هدفها الأساسي «العمل على ترقية المدارس الإبتدائية الأهلية في صيدا، بإرسال التلاميذ على نفقتها إلى دار المعلمين ليقفوا على أحدث الأصول في التربية والتعليم العمليين، ليتولوا، بعد نيلهم الشهادة، أمور التربية والتعليم في تلك المدارس.

وبالفعل قامت الجمعية بمساعدة تلاميذ متوسطي الحال على إكمال تحصيلهم العلمي وعملت على نشر العلم والمعرفة .[2]

من أبرز الدلالات للتفاعل الكبير للشيخ أحمد عارف الزين مع البيئة الثقافية في صيدا هي مبادرته لتأليف كتاب تحت عنوان « تاريخ صيدا يحوي تاريخها وسائر شؤونها منذ عمرانها إلى وقتنا الحاضر» الذي طبع في مطبعة العرفان سنة 1913 والذي كان أول كتاب يصدر حول هذا الموضوع والذي أصبح فيما بعد مرجعاً أساسيًا لا غنى عنه لجميع المؤرخين وعلماء الاجتماع الذين ألّفوا كتبًا عن مدينة صيدا.

1- كان الدكتور شريف عسيران) صيدا -1890 بغداد 1954) أول طبيب صيداوي ولبناني نال شهادة في الطب سنة 1918 من الكلية السورية البروتستانتية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً). ومارس الدكتور شريف عسيران مهنة الطب في صيدا بعد تخرجه من الجامعة 1918 و لكنه هاجر إلى العراق سنة 1924 بسبب تعرض حياته للخطر بسبب مواقفه الوطنية المناهضه للإنتداب الفرنسي و تدهور الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية والسياسية في لبنان عامة وصيدا خاصة .

2- ولد الشهيد توفيق البساط في مدينة صيدا (صيدا 1891– بيروت 1916) وفيها نشأ وتعلم في المدرسة الخيرية الاسلامية التابعة لجمعية المقاصد الاسلامية في صيدا. وبعد قبوله في المدرسة السلطانية للضباط سافر الى دمشق الذي تخرج منها برتبة ضابط سنة 1914. وفي عام 1916 اتهمته السلطات العثمانية بخيانة الدولة وانتمائه الى جمعية «العربية الفتاةً. وقد تمت محاكمته امام المجلس العسكري العرفي في عاليه الذي اصدر الحكم عليه بالاعدام شنقاً والذي تم تنفيذه في ساحة الاتحاد البرج – ساحة الشهداء في بيروت في 6 ايار 1916.

كما كتب الشيخ أحمد عارف الزين قصيدة لمدينة صيدا أعرب فيها عن شدة تعلّقه بها وما جاش في صدره من حبّ لها وما يكنّ لها من عواطف صادقة وإعجاب ببرها وبحرها وتقدير وإجلال لتاريخها العريق :

يا زهرةَ المدْنِ سَرَّ القلبَ ذكراكِ
حيّا مناظرَكِ الغرّا ومرآكِ
هامت بك النفس يا صيدا ومن عجبٍ
أن ترغبَ النفسُ بين المدْنِ إلاك
جمعتِ منظر بحرٍ راق منظره
ومنظرَ البرِّ قد لبّى وحيّاك
هذي الحدائق ترنو وهي ضاحكةٌ
وذي الجداول تحكي أنّةَ الباكي
وذاك يمٌّ علاه الموج فارتسمت
على صفائحه أصداء شكواك
يا بحرَ صيداء ذكّرها بما صنعوا
فأنت يا بحرُ نعم الشاهد الحاكي
أيامَ «صيدونَ حيث الفُلْك قد صُنعت
وناطحت في علاها هامَ أفلاك
لا تذهبي منه يا صيداءُ مغضبةً
فالمجد مجدك والعلياء علياك
كم جاب أهلوك قدمًا غمرةً وسعوا
في اليمّ حتى غدا طوعًا ليمناك
جاسوا خلال ديارٍ وابتنوا سفنًا
قد قاوموا في قواها كلَّ فتّاك
صيدونُ ما «عولسٌ في حرب طروادةٍ
قد نال ما نلتِ أو في عهد «إيتاكَ
يسرّني منك ذاك اليمّ مبتسمًا
يرنو إليك وفيه غصة الباكي
يسرني منك ذاك البرُّ قد جُمعت
فيه الحدائق والأحداق ترعاك
يسرني منك ذاك الزهر قد نفحت
منه نوافحُ تحكي عَرْفك الذاكي

يسرني منك أشجارٌ لقد رزحت
تحت الفواكه فيها ازدان مرآك
يسرني منك آكامٌ لقد جَمعت
من المناظر ما يحكي سجاياك
يسرني منك آرامٌ لقد خطرتْ
بين الرياض ومرعى الغِيد مَرعاك
يسوءني منك أن العلم قد درستْ
آثاره وعفت أطلال علياك
يسوءني منك آدابٌ بمضيعةٍ
لا تشتكي اليومَ إلا مُرَّ شكواك
يسوءني منك توحيد الوئام سرى
فيه الشقاق إلى كفرٍ وإشراك
جمعتِ ضدّين يا صيدا وذا عجبٌ
فما أمرَّك في قلبي وأحلاك

التفاعل مع الحياة السياسية الصيداوية

إنّ سيرة حياة الشيخ أحمد عارف الزين تؤكد بشكل واضح بأنه لم يكن حياديًا ازاء التحوّلات السياسية الكبرى والمشكلات الناتجة عنها التي مرّت بها الأقطار العربية والتي كان لها ارتدادات قوية في الحياة السياسية في لبنان عامّة وصيدا خاصة. وقد تفاعل الشيخ الصحافي مع انعكاسات وتداعيات هذه الأوضاع على الحياة السياسية في صيدا والذي ظهر من خلال الإنسجام والتماهي مع المواقف السياسية للصيداويين نحوها وقد أكسبه ثقة الصيداويين، مما أتاح له أن يلعب دوراً قيادياً وريادياً في صيدا في الأحداث الوطنية والتحركات النضالية والمطلبية.

في البداية كان الشيخ أحمد عارف الزين على علاقة طيبة مع العهد العثماني وهذا حال الصيداويين جميعاً ولكنها تحوّلت فيما بعد إلى عدائية بسبب قرارات الحكومة التركية «بتتريك» العرب واضطهادهم التي نتج عنها موجة كبيرة من حركات الإحتجاج في الأقطار العربية والتي طالبت بالإنفصال عن السلطنة العثمانية وبروز التيار الوطني السوري العروبي. و قد وصلت ارتدادات هذه الإحتجاجات إلى لبنان عامة وصيدا خاصة.

انضم الشيخ أحمد عارف الزين ومعه مجموعة من الشخصيات الصيداوية و العاملية إلى الجمعيات العربية السرية التي كانت تدعو إلى انفصال المناطق العربية الواقعة تحت حكم السلطنة العثمانية وقيام الدولة السورية. وكانت «جمعية العربية الفتاة» من أبرز هذه الجمعيات السرية وكان الشيخ أحمد عارف الزين واحدًا من أهم المنتسبين إليها في صيدا .

وفي العام 1913 أغلقت السلطات التركية جريدة «جبل عامل» وحَكَمَ الديوان العرفي في عاليه على الشيخ أحمد عارف الزين بالسجن شهرًا ونصف الشهر لهجومه على طغيان السلطة وعلى «جمعية الإتحاد والترقي» التي كانت تعمل على تتريك الشعوب العربية.

وبتاريخ 18 تشرين الأول 1914، كلّف عبد الكريم الخليل باسم «جمعية الثورة العربية» الشيخ أحمد عارف الزين لكي يكون مندوبًا للجمعية في صيدا وجوارها وقد تحوّلت مطبعة العرفان إلى مقر للجمعية. وتمّ اعتقاله مجددًا وتمّ سَوقه إلى الديوان العرفي في عاليه ولكن تمّ إخلاء سبيله بعد المحاكمة مما دفعه إلى الإمتناع عن القيام بأي نشاط صحفي أو سياسي وعلى إيقاف إصدار مجلة العرفان لمدة ست سنوات. وقد شاء الباري تعالى على أن لا يكون مصيره النفي مثل صديقه محمد علي حشيشو أو الإعدام شنقًا مثل رفيقه في النضال توفيق البساط .

وفي العام 1915 اعتقل الشيخ الصحافي مجددًا وتمّت محاكمته أمام المجلس العرفي في عالية بتهمة تأليف «جمعية فتاة العروبة» مع عبد الكريم الخليل ومحمد حيدر و حكم عليه

بالسجن ستة أشهر وحول هذه المحاكمة كتب الشيخ أحمد عارف الزين :

"... وأخذنا بعد ذلك للديوان العرفي في عالية بعد تفتيش بيتنا تفتيشًا دقيقًا. وشاءت العناية الإلهية أن لا يجد المفتّشون ما يدينون به لأن الواشي اللئيم أكّد للمفتشين أنّ في جيبنا بطاقة تشعر بدخولنا في جمعية فتاة العروبة. ويا لها من جريمة عظيمة لو وجدت لكان جزاؤنا الشنق كما فعلوا بالشهداء الأبرار. لكن ظهر أن في العمر بقية. وكان المرحوم عبد الكريم الخليل، وفي صحبته الدكتور محمد حيدر، قبل ان ينال الشهادة الطبية، أعطانا هذه البطاقة ولفيف من الإخوان. ولما نفدت البطاقات، كلفنا أن نحلف اليمين لمن يريد الدخول بهذه الجمعية الفتية ..." 1

وعند إعلان المندوب السامي في لبنان وسوريا الجنرال غورو ولادة «دولة لبنان الكبير» وعاصمتها بيروت في 1 أيلول 1920 عاد الشيخ أحمد عارف الزين من جديد إلى المشاركة في الحياة السياسية الصيداوية وأعلن عن رفضه لإنشاء هذه الدولة ومطالبًا أسوة بسائر القوى الوطنية بالوحدة مع سوريا في إطار دولة مستقلة تعتمد نظام اللامركزية .

وقد حوّل الشيخ أحمد عارف الزين رفضه الكلامي إلى فعل سياسي من خلال مشاركته ضمن وفد من صيدا ومن جبل عامل في المؤتمر السوري الأول الذي دعا إليه الزعيم الصيداوي اللبناني رياض الصلح والذي عقد في دمشق بتاريخ 23 حزيران 1928. وفي هذا المؤتمر تمّ انتخاب عبد الحميد كرامي رئيسًا له والشيخ أحمد عارف الزين وملحم الفرزلي سكرتيرين للمؤتمر. وطالب أعضاء المؤتمر بالوحدة السورية الكاملة في إطار دولة مستقلة ذات سيادة ووحدة لا تتجزأ وصياغة دستور لها وبإعادة الأقضية التي سلخت منها وضمت إلى دولة لبنان الكبير. وبعد عودته إلى بيروت اعتقلت سلطات الإنتداب الفرنسية الشيخ الزين ولكن تمّ إطلاق سراحه بعد عشرة ايام.

وعلى الرغم من الحكم بالسجن مرّات عديدة من قبل سلطات الإنتداب الفرنسي إلا أنّ ذلك لم يوهن عزيمة الشيخ أحمد عارف الزين و يضعف إرادته في مقاومة هيمنتها على الحياة السياسية في لبنان وفرضها خيارات مصيرية على شعبه. وقد تجلى إيمانه بضرورة قيام الوحدة السورية بمشاركتة مع مجموعة من الشخصيات الصيداوية والعاملية في عدد من المؤتمرات والمظاهرات الشعبية التي رفعت هذه المطالب. بالإضافة إلى القيام بتنظيم «مؤتمر الوحدة السورية» الذي عقد في صيدا بتاريخ 5 تموز 1936 للمطالبة بالوحدة السورية وقد صدر عن هذا المؤتمر قرارات تمّ رفعها إلى سلطات الإنتداب الفرنسي وحول هذا المؤتمر كتبت جريدة «النهار» في العدد 856 الصادر في 7 تموز 1936 ما يلي:

"...ومنذ صباح الأحد 5 تموز 1936، بدأت الوفود تصل إلى صيدا، فكان وفد

1 - الأرناؤوط، شفيق، معروف سعد نضال وثورة، بيروت، المؤسسة اللبنانية للنشر والخدمات الطباعية ، 1981، صفحة 19. (مجلة العرفان، المجلد 47 ، ايلول 1959)

طرابلس ووفد النبطية ووفد مرجعيون ووفد صور ووفد بنت جبيل ووفد شقرا. وقد اشترك في المؤتمر عن صيدا جمهور كبيرمن الوجهاء والشباب بينهم الأستاذ الشيخ عارف الزين، الأساتذة محمود الشماع، حسني أبو ظهر، توفيق بك الجوهري والدكتور رياض شهاب والحاج علي البزري الخ ...

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر افتتح المؤتمر في منزل الوجيه الشيخ عباس حر، فألقى الأستاذ الشيخ عارف الزين كلمة رحّب فيها بالقادمين، وأظهر الغاية من الإجتماع، ثم تلا برقية من الدكتور بيسار يعتذر فيها عن الحضور لأسباب قاهرة. وتكلم بعده الاستاذ كرامه (كرامي) شاكرًا، وحيّا المجتمعين. ثمّ تعاقب الخطباء حول هذا الموضوع وهم: الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ضاهر والأستاذ حسني أبو ظهر والأستاذ سليم أبو جمرة والسيد موسى الزين شرارة والسيد علي بزي والسيد أحمد بزي. ثم انتخب الاستاذ كرامه (كرامي) بالإجماع رئيسًا للمؤتمر، والشيخ أحمد رضا نائبًا للرئيس، والأستاذ الزين والأستاذ أبو سمرا سكرتيرين.

....وعلى أثر انتهاء المؤتمر خرج الناس وهم يحملون الاستاذين كرامه (كرامي) والزين على الأكتاف، وساروا في مظاهرة إشترك بها جميع أهالي صيدا والوفود التي حضرت المؤتمر. وقد دامت هذه المظاهرة زهاء الساعة والنصف، حتى خرجوا إلى الضواحي. وهنالك ودّع الأهالي الزعيم كرامه (كرامي) ....ً

وقد ألقى الشاعر موسى الزين شرارة (بنت جبيل 1902 – 1986). قصيدة في هذا المؤتمرقال فيها:

صيداء، أنت من الجنوب النخاب	الظفر أنت لعامل والنابُ
أيقظت عامل من عميق سباته	لَمَا تعالى صوتك الصخابُ
وهببت فيه تهتفين بوحدة	يا طالما حلمت بها الأعرابُ
فتوحدّت أهدافه وهمومه	فإذا الجميع أحبة وصحابُ
حطّمت غلًا كان من حلقاته	"باشكوف" والإقطاع والأذنابُ

وفي 12 تموز 1936 انطلقت تظاهرة سلمية في صيدا نحو سراي الحكومة بقيادة الشيخ الزين وعدد من الزعماء الوطنيين، تهتف بالوحدة السورية، فقامت سلطات الإنتداب باعتقال المتظاهرين ونقلهم الى سجن الرمل في بيروت وأصدرت المحكمة بتاريخ 3 ايلول 1936 حكمًا بسجن الشيخ أحمد عارف الزين شهرين وبسجن الزعيم الصيداوي معروف سعد عشرة أشهر.

ولم تغب القضية الفلسطينية عن النضال السياسي للشيخ أحمد عارف الزين لأنه كان واعيًا للمأساة التي يمر بها الشعب الفلسطيني ومستشرفًا للخطر الصهيوني على فلسطين والأقطار العربية. و لم يكن موقفه إزاء محنة الفلسطينيين فقط عبر مجلة العرفان بل تفاعلًا سياسيًا و ميدانيًا مع المظاهرات الإحتجاجية التي قام بها الصيداويون ضد تهويد فلسطين والممارسات القمعية والوحشية لسلطات الإنتداب الإنجليزي للفلسطينيين.

وعندما أصدرت اللجنة العربية العليا في فلسطين قرارًا بمقاطعة البضائع اليهودية في 15 أيار 1936 ، تشكّلت في صيدا لجنة سميت «لجنة الدفاع عن فلسطين». وكانت مؤلفة من الشيخ عارف الزين، معروف سعد، توفيق الجوهري، عارف لطفي، محي الدين البزري، عبد الله خروبي، سليم الزين، بدوي النابلسي، عبد الله البزري وحسني الصبّاغ وتم انتخاب الشيخ أحمد عارف الزين رئيسًا لها ؛ وقد حددت اللجنة أهدافها الأساسية وهي جمع التبرعات ، تنفيذ قرار منع تصدير الخضرة والفاكهة والمواد الغذائية من لبنان إلى يهود فلسطين من خلال مراقبة الطرقات و منع تهريبها عبر الحدود اللبنانية – الفلسطينية.

وخلال الحرب العالمية الثانية لم يمارس الشيخ أحمد عارف الزين أي نشاط سياسي وصحافي وتوقفت مجلة العرفان عن الصدور لمدة ثلاث سنوات من سنة 1942 الى سنة 1945.

ولكن هذا الاعتكاف الطوعي (القسري) في آن معاً لم يبعد الشيخ الصحافي عن العمل النضالي بل ظل مرجعًا وطنيًا وخشبة خلاص كبيرة لجأ إليها عدد كبير من اللبنانيين المنادين باستقلال لبنان. وبعد قيام سلطات الإنتداب الفرنسي باعتقال رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح وعدد من رجالات الإستقلال قررت تعليق الدستور وتعطيل مجلس النواب ومنع الصحف اللبنانية من الصدور بهدف منع تغطية التحركات الإحتجاجية اللبنانية على هذه الإعتقالات. وردًا على منع الصحف اللبنانية من الصدور قرر عدد من الصحافيين إصدار جريدة غير مرخصة اسمها «علامة استفهام» من أجل نقل أخبار التحركات الشعبية الرافضة للإجراءات التعسفية التي اتخذتها سلطات الانتداب. ولكن طباعة هذه الجريدة لم يكن سهلاً لأن هذه السلطات هدّدت بإقفال المطابع في حال طباعة أية جريدة مخالفة وهذا ماحصل فعلًا مع مطبعة «المعرض» و « منيمنة» في بيروت بعد قيامهم بطباعة جريدة «علامة استفهام».

وهذه التهديدات لم تمنع الجريدة من الصدور وتمّت طباعتها في مطابع «دار الكشّاف» ولكن عندما أصدرت سلطات الإنتداب قرارًا يقضي بإعدام كل صاحب مطبعة يطبع منشورات تمسّ بالإنتداب وتزعزع الإستقرار وكان المقصود من هذا القرار جريدة «علامة الاستفهام» هذا وقد رفض أصحاب المطابع البيروتية طباعتها خوفًا من عقوبة الإعدام.

ولكنهـا تمـت طباعتهـا في مطبعـة العرفـان في صيـدا. وحـول ذلـك كتـب نقيـب الصحافـة الراحـل زهـير عسـيران مـا يـلي :

«احترنـا في أمرنـا فاجتمعنـا وتسـاءلنا: مـا العمـل الآن؟ هـل نقـف مكتـوفي الايـدي وتتوقـف «علامـة الاسـتفهام» عـن الصـدور، وهـي وسـيلة الإتصـال بالجماهـير تمدهـا بأخبـار المقاومـة وتشـد العزائـم للصمـود ومتابعـة الإضراب؟ وقلـت في ذلـك الاجتماع أنـه لا بـد مـن وسـيلة نلجـأ إليهـا للإسـتمرار في الصـدور برغـم القـرار الإرهـابي، فأنـا ذاهـب إلى صيـدا في محاولـة لطبعهـا هنـاك في مطبعـة «العرفـان» لصاحبهـا الشـيخ أحمـد عـارف الزيـن. وقصـدت المطبعـة فلم أجـد صاحبهـا إذ كان خـارج صيـدا في تلـك السـاعة مـن الليـل والمطبعـة مقفلـة، فقصدنـا بيـوت العـمال وأيقظناهـم مـن النـوم وقلـت لهـم: «أنتـم مصـادرون الآن بأمـر مـن الحكومـة الوطنيـة». وجـاء معنـا المرحـوم الأسـتاذ نـزار الزيـن ابـن صاحـب «العرفـان» والمعـروف باتجاهاتـه الوطنية. ومشـينا نحـو المطبعـة الواقعـة في حـي السرايـا بصيـدا القديمـة والتـي يسـتحيل عـلى المصفحـات أو أي سـيارة اقتحامهـا ويسـلكها المشـاة فقـط. طبعنـا الجريـدة وعـدت بهـا مـع الصبـاح إلى بـيروت .... وقـد تـم توزيـع الجريـدة في أحيـاء بـيروت والضواحـي.»[1]

---

1 - عسيران، زهير، زهير عسيران يتذكر، المؤامرات والانقلابات في دنيا العرب، بيروت، دار النهار للنشر، 1998، ص 60.

الخاتمة

جاء الشيخ أحمد إلى صيدا وسكن فيها وسكنت فيه وتبنّته المدينة واعتبرته ابنًا لها ...و كان خير الأبناء ... تفاعل مع قضاياها و عاش مآسيها و أحلامها ... وناضل مع إخوانه الصيداويين و العامليين من أجل التخلص من هيمنة الإستبداد العثماني وقمع وقهر سلطات الإنتداب الفرنسي بهدف نيل استقلال لبنان. ومنحته صيدا ثقتها فتولى تمثيلها في المؤتمرات والمناسبات الوطنية .

ولم يكن النضال السياسي للشيخ الصحافي إلا فصلًا آخر من مسيرته المشرقة والنبيلة لأنه كان يعتبر أيضاً أن النضال من أجل النهوض العلمي والتربوي والثقافي والإجتماعي هو توأم نضاله السياسي. وكان مؤمناً بهذا النهوض التنويري الذي هو خشبة خلاص مدينة صيدا وجبل عامل من ظلم الإقطاعيين واضطهادهم للناس ومنعهم من العيش بكرامة والولوج إلى عوالم العلم و المعرفة والوعي الثقافي .

الثنائيات الثقافية



المديرالسابق لمعهد العلوم الاجتماعية الفرع الثالث د. غسان الخالد

تعتبر الثقافة كمفهوم من أكثر المفاهيم تعقيدا وتشعبا نظرا لكونها تتداخل مع الكثير من العلوم. وتشهد مسألة الثقافة أو بالأحرى الثقافات تجددا وتجعل منها مسألة راهنة، أكان ذلك على المستوى الفكري أم على المستوى السياسي (« على المستوى الفكري بفعل الثقافة الامريكية، وعلى المستوى السياسي كما في فرنسا والذي كان محصورا ولا يزال حتى اليوم بمسألة الوافدين أو المهاجرين»)[1] .

إنحصر الحديث في مفهوم الثقافة بين المدرستين الفرنسية والالمانية، وتاليا المدرسة الاميركية وخصوصا لجهة ما يتعلّق بالهوية الثقافية. وفي هذا المجال يقول « دنيس كوش»: « إن الدفاع عن الاستقلالية الثقافية مرتبط إرتباطا شديدا بصدق الهوية الجماعية»[2]،فكلاهما يميلان على شيء أو واقع واحد منظورا إليه من زاويتين مختلفتين وبحسب رأيه فإن التصور الجوهراني للهوية، لا يصمد عند التمعن فيه، أكثر مما يصمد تصور جوهراني للثقافة، إذ يصعب فهم الهوية الثقافية الخاصة إلاّ بدراسة علاقاتها بالمجموعات المجاورة.

إن الحديث عن الثقافة وبعيدا عن النظريات المدرسية المشار إليها، وبعيدا عن التطور الذي لحق بالمفهوم، وتعدّدت معه التعريفات، مرتبط بشكل رئيس بعلمين متقاربين يخدم أحدهما الآخر، وهما علم الاجتماع والانتروبولوجيا، وقد يرتبط بعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي في الكثير من المجالات وخصوصا عند الحديث عن الهوية الثقافية ومسألة الأقليات والشعور الأقلوي. وهو ناتج عن ما تستدعيه أحيانا الدراسات المتعلقة بهذا الشأن.

وبشكل عام فان على الباحث في موضوع الثقافة، أن يميّز دائما بين ثنائيات ثقافيةأرغب تسميتها «الثنائيات الثقافية»، وهي ثنائيات كثيرة ومتداخلة بشكل أو بآخر. وأعتقد أن عدم الأخذ بها، ووضعها بعين الاعتبار يشكل نقصا فادحا في هذه الدراسات، خصوصا لجهة

1 - Marc Ange“Lautre proche“ dans: ” L‘autre et le semblable“ (printed reversed: “elbalbnes el te ertua‘L ” :snad “ehcorp ertuaL“egnA craM)

2 - دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، م0د0و0ج0 ط اولى 2007 ص 13

التمييز بين العام والخاص كحقلين من حقول العلوم الاجتماعية، ومن ثم محاولة المقارنة والاسقاط التي يحتاجها الباحث وفقا لدراسته (الانتقال من العام الى الخاص أو العكس).

من أهم الثنائيات علينا التمييز بين :

أ- الثقافة العالمة والثقافة الشعبية : الثقافة العالمة قد تكون آحادية الجانب (التعمق في دراسة اختصاص ما)، والثقافة الشعبية هي الثقافة المتناقلة بين الأجيال من خلال التنشئة الاجتماعية ومن خلال ما يعرف بالخزان الثقافي للمجموعة وأقصد منظومة الأمثال .

ب- تقودنا هذه الثنائية الى التمييز بين ثنائية أخرى هي الثقافة المكتسبة، والثقافة الموروثة. الأولى محفوظة وهي باتت اليوم في متناول الجميع بفعل الثورة المعلوماتية، أما الثانية فيمكنني القول أنها في طور الانقراض ما لم توثق وتدوّن. وبالمناسبة فإن هذه الثقافة ذات سمة شمولية تكاد تغطي كل الحقول الاجتماعية .

ت- ينظر الكثير من المفكرين نظرة مختلفة الى مفهوم الثقافة، فمنهم من يعتبرها بنية متكاملة ومترابطة مع مجموعة البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية وغيرها... ومنهم من ينظر إليها على أنها مجموعة من العناصر السلوكية والتي يبدو أنها وفقا لرؤيتهم غير مترابطة أحيانا، بدليل التغيرات الثقافية التي تشهدها المجتمعات، وخصوصا في هذه المرحلة بفعل التطور العلمي الحاصل وبفعل الثورة المعلوماتية. والحقيقة أن هذه النظرة قد تكون صحيحة بالنسبة للمجتمع الغربي ونسبيا بالتأكيد، لكنها مختلفة كليا عند المجتمعات الأخرى، والتغيير الذي نراه ونلآحظه هو في القشور ولم يصل الى حد التغيير في المضمون والجوهر .

هذا التغيير يقودنا الى الحديث عن مسألتين: الأولى متعلقة وفي مرحلة ما يسمى «العولمة الثقافية»، بالتغيير في بعض السلوكيات والتي لا تقدّم ولا تؤخر في مسألة «الهوية الثقافية». فمن يأكل الهمبرغر لا يصبح بالضرورة اميركيا، ومن يضع العطر الفرنسي لا يصبح بالضرورة أيضا فرنسيا[1]. والمسألة الثانية متعلقة ومرتبطة بشكل كبير بمفهوم «التثاقف» المبتكر من عالم الانتروبولوجيا الاميركي J.W.POWEL في إطار دراسته لأنماط حياة المهاجرين، والتي لا يكتفي بها بعملية « النزع الثقافي»،وهذا المصطلح «البعبج» الذي لا يزال يشكّل هاجساً لدى الكثير من المجموعات البشرية.

وهنا يقول «كوش»، أنه وفي مسألة التثاقف علينا التميير بين «التثاقف»، و«التغيير الثقافي»، وهو التعبير المستخدم من علماء الانتروبولجيا البريطانيين. ويضيف «كوش» أنه وفي مسألة التثاقف أيضا ينبغي التمييز أو عدم الخلط بين التثاقف والاستيعاب، باعتبار

1 - حول الثقافة كبنية، أنظر: غسان الخالد، الهابيتوس العربي، منتدى المعارف،ط اولى 2015، ص 8

فهم هذا أو وجوب فهمه على أنه طور التثاقف النهائي. ويختم بقوله أنه عليه عدم الخلط بين التثاقف والانتشار، حتى ولو لازم الانتشار التثاقف، لكنه من الممكن حدوث إنتشار من غير «تماس وصول ومباشر»[1].

ث- على الباحث التمييز بين الثقافة العامة والثقافة الخاصة، الأولى تكون على مستوى الدولة- الأمة، والثانية على مستوى الجماعات المكونة للدولة- الأمة، قد يعبّر عن هذه الثنائية بثنائية أخرى، هي الثقافة العامة/ والثقافة الفرعية. الأولى ناتجة عن التوافق على مجموعة من الشروط التي تؤسس لمفهوم الاندماج الاجتماعي، وهو ما يعني بالضبط الاندماج على مستوى «الدولة- الأمة»، والثانية تعني محافظة المجموعات المشكلة للدولة- الأمة على ثقافتها الخاصة، حتى وإن تعارضت مع الثقافة المنتجة والمؤسسة للاندماج الوطني.

ج- من المتفق عليه أن الثقافة كمفهوم ذات طابع شمولي، بمعنى أنها تشمل مختلف الحقول والمجالات الخاصة بالمجموعة البشرية كما يسميها عالم الاجتماع الفرنسي « بيار بورديو». لكن عرفنا عبر التاريخ ما يسمى بالثقافة الجماهيرية/ تقابلها الثقافة الفردية أو المجموعاتية. نشأت الثقافة الجماهيرية وانتشرت في ظل أنظمة حكم معروفة في التاريخ (النازية، والفاشيستية، وحتى الشيوعية).

إن مفهوم الثقافة «الجماهيرية» الذي لاقى نجاحاً واسعاً في ستينات القرن الماضي، والذي يجمع بين مفهومي « الثقافة» و«الجماهير»، لم يصل الى حدّ العولمة، وقد أخذ طابعا سياسيا، والذي يخضع الى ترسيبات الانتاج الصناعي الجماهيري[2].. وبطبيعة الحال فإن العولمة الثقافية ووفقا لفهم المفهوم اليوم، ليست قريبة التحقق، لأن المجموعات البشرية لم تتوقف ولن تتوقف عن إنتاج الاختلاف الثقافي ولذلك أشرت سابقا الى أنه ينبغي التعاطي مع مفهوم الثقافة « كمفهوم بنيوي وليس كعناصر سلوكية» تتغير أو تتبدل في بعض الاحايين في إطار مسألة التثاقف وما تفرضه الشروط الموضوعية لحياة الأفراد والمجموعات كضغوطات العمل الذي تستدعي مثلا لا حصرا ضرورة تناول الوجبات السريعة [3].

ساعد انتشار مفهوم الثقافة الجماهيرية على انتشار مفاهيم أخرى كالثقافة الطبقية والثقافية المهنية، كما ساعد على انتشار مفهوم الثقافة العمالية، ومن غير أدنى شك ساعد على ظهور وانتشار مفهوم الثقافة البورجوازية4. وبالمناسبة فإن هذه الأنواع من الثقافات، أغلبها إن لم يكن كلها، قد تحوّلت الى ايديولوجيا وكرست مفهوم الثقافة كبنية .

1- دنيس،كوش، م.س، ص 94
2 - Edgar MORIN L esprit du temps:Essais sur la culture de masse Paris:B crosses 1962
3 - Jean- PIERRE Warnier la mondialisation de la culture now.ed Paris:Ed> la couverte 2003 P 260
4 - أنظر: دنيس كوش، م.س.، ص 142

خلافاً لذلك نرى عالم الأنتروبولوجيا الفرنسي « بيار بورديو» لا يستخدم المفهوم الأنتروبولوجي للثقافة، سواء تعلق ذلك بالمجتمعات التقليدية (المجتمعات القبلية التي درسها في الجزائر)، أو المجتمعات المصنعة. يستخدم بورديو مفهوم آخر هو مفهوم «الهابيتوس»، ويقصد به أنه مفهوم يسمح للأفراد بالتوجه في فضائهم الاجتماعي وتبني التعلّق بممارسات تتفق وانتمائهم الاجتماعي، مع بناء تصورات مستقبلية قد تكون منقادة بترسيمات لا واعية، «ترسيمات إدراك وفكر وفعل»[1].

خ- على الباحث في مسألة الثقافة عدم الخلط بين ثنائية التعددية الثقافية والتنوع الثقافي. التعددية الثقافية موجودة في كل المجتمعات كما التنوع الثقافي، وخصوصا على مستوى الدولة- الأمة، وهي ناتجة عن تعدد المجموعات البشرية المكونة لها. لكن التعددية الثقافية والاصرار عليها يعني مطالبة باعتراف سياسي رسمي قد يصل أحيانا الى حد المطالبة بالانفصال عن الدولة- الامة.(البلقان - الأكراد)، في حين أن التنوع الثقافي هو نظرة نحو التوافق والتوائم مع المجموعات الأخرى. يحمل التنوع الثقافي قدرة استيعابية على الاعتراف بالآخر ولذلك هو على تناقض مع مفهوم التنوع الثقافي. ويرى بعض المفكرين أن التعددية الثقافية بما هي نمط في إدارة التنوع الثقافي، تؤدي الى نوع من تشيؤ الثقافات عبر التشجيع عليها على أنها كيانات مستقرة الى هذا الحد أو ذاك وكأنها متطابقة في الغالب(كما في حالة المهاجرين) مع ثقافات الأصل والإبقاء المصطنع على المجموعات الثقافية .

لقد شجعت النيوليبرالية على تغليب سيادة مفهوم التعددية الثقافية، في إطار المزيد من السيطرة على الموارد الطبيعية للشعوب والدول وتحويلها الى مجتمعات إستهلاكية، وهو ما أدّى الى الانتشار الواسع اليوم لمفهوم الهوية الثقافية والشعور الأقلّوي (الأقليات والشعور بالغبن والتهميش ومصادرة القرار، والسيطرة عليه) أدى ذلك الى تبدل في منظومة القيم السياسية لدى الكثير من المجتمعات وبين الكثير من الدول، وأجج المشاعر الخاصة بهذه الجماعة وهو ما أوصلنا الى التبدل في الأولويات السياسية لدى الكثير من المجتمعات والدول (الصراع السني-الشيعي، هو نموذج من النماذج، كما في البلقان وكذلك للأكراد وغيرهم وغيرهم)[2].

د- الثقافة المهيمنة والثقافة المهيمن عليها.

تعود مسألة التنظير لهذا النوع من الثقافة الى « كارل ماركس» و«ماكس فيبر» من خلال تأكيدهما على أن ثقافة الطبقة المهيمنة هي الثقافة المهيمنة. هذا لا يعني بتاتا أن الجماعات المهيمن عليها تفتقر الى موارد ثقافية خاصة، أو الى القدرة على إعادة تأويل ما يفرض عليها، وهو ما يفيد أنه من غير الممكن العودة الى تأكيد التساوي بين الجماعات كلها والى

1 - Pierre Bourdieu Le sens pratique le sens commun Paris E. de minuit 1980 P 88

2 - للمزيد من المعلومات حول التعددية الثقافية والتنوع الثقافي راجع: فردريك معتوق،تنوع ثقافي لا تعددية ثقافية،جروس برس،طرابلس،

تأكيد التعادل بين ثقافاتها. وتتوقف حسب ماركس كما فيبر القوة النسبية الخاصة لمختلف الثقافات وخلال مرحلة التنافس تتوقف على القوة النسبية الخاصة بالجماعات الداعمة لها أو التي تسندها. ولعل هذه الرؤيا هي التي طغت على مختلف تحليلات ماركس وفي كل المجالات. ويبدو انه قد يكون من الطبيعي أن تفرض الطبقة المهيمنة ومن موقعها السلطوي نماذج ثقافية أو نموذج ثقافي ما، لكن هذا لا يعني بالضرورة ان الثقافة المهيمنة عليها ان تصبح مستلبة كليا أو تابعة كليا. قد يكون من الضروري ان تأخذ الثقافة المهيمن عليها وخلال مسار تطورها، بعين الاعتبار الثقافة المهيمنة، لكنها تملك في الوقت ذاته عناصر الفرض الثقافي المهيمن[1]. وبطبيعة الحال فإن الحديث عن ثقافة مهيمنة وثقافة مهيمن عليها مرتبط بشكل أو بآخر بمفهوم التبعية وخصوصا التبعية السياسية.

في هذا الإطار لا يرى « كلود غرينون» و«جان كلود باسورون»، أن علاقات الهيمنة الثقافية لا يمكن تحليلها بالكيفية نفسها التي تحلل بها علاقات الهيمنة الاجتماعية، وهي علاقات الهيمنة السياسية[2].

إنه من الضروري القول أن الحديث عن الهيمنة الثقافية قد ساد كثيرا في عصور الاستعمار والتبعية السياسية للدولة المستعمرة وهناك نماذج من الأدلة، ليست محاولة التتريك في بلادنا ولا الفرنسة في الجزائر، إلاّ بعضا منها. وقد ينتج عن التبعية المطلقة لجماعة ما على جماعات أخرى، أودولة ما على دولة أخرى، وخصوصا في الحقل السياسي، الى التأثر بالثقافة للدولة المسيطرة.

ذ- هنا أرى أنه ربما من الضرورة إلقاء الضوء على نوعين من الثقافة، قد قصرت الدراسات في إلقاء الضوء عليها، هذان النوعان،أو هذه الثنائية تتمثل في الثقافة المقاوِمة وثقافة المقاومة.

يعني المصطلح الأول وفق إعتقادي أنه من الضرورة إنتاج عناصر وسلوكيات ثقافية ومنظومة قيم ثقافية ترفض الهيمنة والتبعية على أن لا تبقى في إطارها الطوباوي. والغاية من عملية الانتاج هذه، هي مقاومة حالات التطبيع مثلا(الكيان الصهيوني)، أو الدعوة الى المزيد من الوحدة منعا للتجزئة والتقسيم، أو محاولات التجزئة والتقسيم، كما يمكن أن يكون هذا الانتاج نموذجا لمقاومة الاحتلال أيا كان نوعه (الاحتلال الصهيوني للجنوب مثلا) يشكّل نموذجا فعالا في إنتاج الثقافة المقاومة .

أما ثقافة المقاومة وهي حالة أضيق من الأولى في عملية الانتشار، إلاّ أنها قد تصبح وبناء على الأولى وإنطلاقاً منها نموذجاً معمما على مختلف القوى والجماعات المشكّلة للدولة. ولكن بشرط ألا تتحول هذه الثقافة إلى ايديولوجيا.

1 - دنيس كوش،م.س ص 121 وأيضا
Claude Grignon et Jean-Claude Passeron le savent et le populaire Paris Grallimard le seuil 1989 2

يترافق هذا النموذج من الثقافة مع إنتشار ثقافة مضادة هي ثقافة العمالة، وهو موضوع لن أخوض فيه الآن بسبب الطبيعة والعوامل المؤثرة والمرتبطة إلى حد ما بمواقف سياسية أحاول الابتعاد عنها قدر المستطاع.

أعود وأكرر أن الأخذ بعين الإعتبار لهذه الثنائيات- وربما نقع على ثنائيات أخرى- قد يساعد الباحث في تحقيق الموضوعية المطلوبة في البحوث الاجتماعية والإنسانية، وهي نسبية (الموضوعية) بالتأكيد، وهو ما ينعكس أيضا على الثقافة وينظر إليها أيضا على أنها نسبية.

إن الكلام عن ثقافة المقاومة والثقافة المقاوِمة ينسجم بشكل كبير مع سمة أساسية من سمات المثقف وهي الالتزام كما يقول جان بول سارتر. فالمثقف الذي لا يلتزم بقضايا مجتمعه ووطنه وأمته، هو مثقف مغترب، أو إنهزامي أو إنقلابي. ولذلك فإنه من الضروري وفي ظل الصراعات التي نشهدها والتبدلات الحاصلة في منظومة القيم السياسية ومصالح النخب السياسية الحاكمة في أوطاننا، وفي ظل محاولات الهيمنة والسيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، في إطار ما يسمى بالعولمة الثقافية، إزاء كل ذلك أرى أنه من الضروري التنبه للمحاذير المرتبة عن سيادة مثل هذه الثقافات والعمل على إعادة إحياء أو إنتاج ثقافة وحدوية تعيد الدور الأساسي الذي فقدناه. ولا تعني هذه الدعوة بتاتا الانغلاق على ثقافاتنا، لكنها بالتأكيد تصر على ممانعة « العزل الثقافي».

المحور الثاني :

جبل عامل : التاريخ و الجغرافيا



تعريف المحور : أ . غدير حوماني



طيـب هوائـه ، ونقـاء وعذوبـة مائـه، وخصوبـة تربتـه، نموذجـاً ومثـالاً يشـكل مفخـرة للتاريـخ ، ومنـارة للجغرافيـا بـكل ابعادهـا .

جبـل عامـل بأسمائه المتعـددة التـي عـرف بهـا قديمـا، تميـز بالتيـارات الفكريـة، والشـخصيات التاريخيـة والحـركات الاصلاحيّـة ، بسياسـة نقديـة للواقـع الإجتماعـي . وتميـز ايضـاً بحريـة الفكـر والمفكـر، بالاسـتقلال النفسـي والفكـري ، الـذي يعتـبر شرطـاً أوليـاً لصحـة التفكـير، ولوصـف الإنسـانية، فالأمـة التـي لا تحفـظ تاريخهـا ، وتحافـظ عـلى جغرافيتهـا ، وتعنـى بلغتهـا، وتراثهـا الثقـافي ، هـي أمـة يخشـى عليهـا مـن الـزوال . ونحـن في هـذا المحـور مـن المؤتمر سـنعالج موضـوع التاريـخ و الجغرافيـا و سـيتولى ادارة هـذه الجلسـة : دكتـور اشـتهر بسـعة معارفه ووسـعة مجالاتهـا في الادب و الشـعر والاجتـماع ،. لـه بـاع في الخدمـات الاجتماعيـة و الانسـانية .

ترجـم لمعظـم شـعراء الزجـل في جبـل عامـل ، ومـن مؤلفاتـه منتخـب اللطائـف والطرائـف، عبقريـة الابـداع في شـعر زيـن شـعيب ، الجاحـظ حياتـه وأثـاره ،الشـامل في زجـل جبـل عامـل،....

إنـه منسـق الجنـوب في التجمـع الوطنـي للثقافـة والبيئـة والـتراث الدكتـور عـلي عبـد الحليـم شـعيب.

رئيس الجلسة :



د. علي شعيب

لو ميّزو لبنان عن غيرو بجبل   حد السما والارض من عمر الأزل

بجبيل وبعلبك وصور بيجمعو   التاريخ والجعرافيا بردة زجل

إن الحديث عن تاريخ جبل عامل حديث مشوق وشاق في آن مشوق لأنه حديث عن تاريخ كتب بدماء التضحية والفداء كُتب بدماء الشهداء ومداد العلماء الذين أقاموا المدارس وحاربوا الجهل وعملواعلى تثقيف أبنائهم تثقيفا صحيحا وغرسوا في نفوسهم أصول الدين الحنيف عن طريق المساجد والنوادي وقد كان للتهجير القسري الذي فُرض على أبناء جبل عامل أثره الواضح في المجالين العلمي والأدبي إذ كانت الأماكن التي طلبها العامليون أو هاجروا إليها حواضرَ فكريةً ومراكزَ إشعاعٍ ونور كالعراق وإيران والهند وحيدر آباد ومصر وغيرها حيث أمدتهم هذه الحواضرُ بمعينٍ خصب وساعدتهم في تنشيط الحركة الفكرية والأدبية إذ انتشرت المدارس في معظم قرى جبل عامل وخاصة المدارسُ الدينيةُ التي ساهمت في توعية الناشئة وتوجيهها توجيها سليما بالإضافة الى عدة روافد أخرى كالصحافة والمطابع والجمعيات الأدبية والمؤسسات الإجتماعية والمكتبات العامة.

حيث يبدو للباحث في تاريخهم والمتمعنِ في دراسة آثارهم العلمية والأدبية أنهم استطاعوا في كثير من المواقف السلبية ان يدافعوا عن كيانهم بما تهيأ لهم من تيقظِ روحِ النجدة والحمية وأن ينقذوا أنفسهم وأعراضهم من خطر السلب والنهب من جهة وان يكونوا تاريخا علميا وأدبيا مجيدا فاخروا به سائر الحواضر .وهذا ماستتعرف إليه من أصحاب الإختصاص أقطاب هذا المؤتمر.

ستتعرف إلى أن جبل عامل الذي ظلّ مصدر ثقافاتٍ ومبعث دراساتٍ ومطلِع دعوات أضافت الخير العام لاعليه وحده بل على أقطار معينة كان رجاله فيها بناةُ النهضات وحَمَلةُ الإشعاعاتِ ممّا لاتزال آثارُه ماثلةً إلى اليوم.

هذا الجبل الذي جنى عليه الجانون ولا يزالون فاهتضموه حقه بعد أن بدلوا اسمه فأطلقوا عليه اسم «الجنوب» وتركوا اسم جبل عامل وذلك عندما أنشأوا دولة لبنان الكبير وضموا إليه جبل عامل وبدلا من الإبقاء على الاسم الفصيح والصريح الاسم الحامل لذكريات المجد الخالد حاولوا فصله من ماضيه الرفيع والمنيع والبديع وحالوا بينه وبين تذكر الخوالي من الأيام أيامِ الشعر والأدب والفقه واللغة والصلاح والإصلاح وارشاد الامم وبعث النهضات فيها وهذا لايعني أننا نريد العودة إلى الوراء و نريد أن نكتب تاريخ جبل عامل فقط بل نريد ان نكتب تاريخنا الموحَّد الموحِد.فالإنقسام ممنوع والتقسيم ممنوع سواء انطلق المنع من الداخل أم من الخارج

أما الحديث الشاق فهو الحديث عن التاريخ والجذور اذ اتفق القدماء والمحدثون – من دارسي التراث العاملي على وعورة مسالك البحث والتنقيب عن تاريخ جبل عامل لما يكتنفه من غموض ويحيط به من إبهام لقلة المستندات وضياع الوثائق التي يرجع إليها الباحث لتحليل الحوادث واستنباط الادلة والبراهين لمعرفة أوضاع البلاد وما طرأ عليها من تغيير.

لأن كتابة البحث تقوم على نقد الأصول أو التحليل التاريخي لأن بعض النصوص تضم معلوماتٍ متضاربةً أو متناقضةً أو متفرّدةً أو قد تكون معرضة للتلف أو النسيان أو التناسي أو للتزوير بسبب قَدمها مما يطرح تساؤلاتٍ حول مدى موضوعيتها وتطابقِ معلوماتِها مع وثائقَ اخرى

ولعل أجمل ماقيل عن مفهوم التاريخ إنّه السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه بمعنى أنه.: «حياة إنسانية غنية القوى متنوعةُ العناصر تشترك في تكوينها خوالجُ القلوب وهبّاتُ النفوس وانطلاقُ الخيال وتوثبُ الفكر وتصطدم في مرافقها الرغباتُ والأهواءُ والمطامع ويمتزج في صنعها الخيرُ والشر والحسن والقبيح والحق والباطل سلاسلٌ متماسكة من الأحداث ترتبط فيها السياسة بالإقتصاد والأدب بالإجتماع والفن بالأخلاق وتنبثُ هذه جميعا في خلاياها فتفعل وتنفعل وتؤثر وتتأثر وتخرج نتاجا متموجا صعب الممسك سريع الانفلات» وعلى العموم فقد يبدو للباحث في تاريخ جبل عامل أن العامليين لم يبحثوا في يوم من الأيام عن صيغ مصالحة أو مهادنة مع المحتل –اي محتل- وإنما بحثوا عن صيغ مواجهة وتحد ومقاومة.

جبل عامل، لمحة تاريخية



د. مصطفى بزي

1 – قبيلة عاملة:

قبل أن تنتقل قبيلة عاملة، إلى المنطقة التي أصبحت تعرف فيما بعد باسمها، فإن المؤرخين استفاضوا في الحديث عنها، على أنها كانت احدى القبائل التي هاجرت من اليمن بعد حصول سيل العرم، الذي يختلف الإخباريون حول تاريخ حدوثه، لكن المتفق عليه، أن أحداً منهم لا يعيده إلى أبعد من القرن الرابع للميلاد. وقبل هذا التاريخ، ورد اسم القبيلة، مع غيرها من القبائل العربية الأخرى.

لقد وردت لدى الطبري إشارة، تربط بين القبيلة المذكورة والعماليق، حيث يقول: «إن إسماعيل حمل رسالة إلهية إلى قبيلة العماليق، وقبائل اليمن، وهذا يعني أن هذه القبيلة كانت موجودة ومعروفة، قبل زمن إسماعيل وإبراهيم، وهي احدى تسع قبائل، يجعلها النسابون من العرب العاربة، الأصليين في العروبة، (بعكس العرب المستعربة)، والقبائل هي: عاد، ثمود، أميم، عبيل، طسم، جديس، عمليق، جرهم، وبار»[1].

وقد اقترن ذكر قبيلة عاملة، بانتسابها للعماليق، عند عدد كبير من المؤرخين، كابن الأثير، والطبري والنوري والمسعودي، الذي يقول: «من أهل عاملة من العماليق...» والطبري الذي يقول: «ويقال العمليق، من عاملة العماليق»[2]

والعماليق كانوا يحكمون مصر في زمن يوسف، ثم انتقل الحكم إلى المصريين، والنصوص العبرية تشير إلى أماكن وجود العماليق، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حيث حاربوا الإسرائيليين على حدود مصر.

1 الطبري: «تاريخ الأمم والملوكً ج1، نشر دار المعارف بمصر، سنة 1960 ص 311 – 314.

2 نفس المرجع: وأيضاً: النويري: «نهاية الإربً ج2، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة. لا تاريخ للنشر ص 292 وابن الأثير: «الكامل في التاريخً ج1 القاهرة، ص 198 والمسعوديً «مروج الذهبًومعادن الجوهرً ج1، تحقيق يوسف داغر ج1، دار الأندلس، سنة 1973 ص 69

والقرائـن الموجـودة في ارض عاملـة، تثبـت هويـة هـذه الجماعـة مـن الرعـاة (الهكسـوس)، التـي امتلكـت قـوة اسـتطاعت بهـا السـيادة عـلى أرض مـصر، طـوال قـرن ونصـف قـرن مـن الزمـن تقريبـاً.

المسـعودي، يكـرّر في موضـع آخـر، ارتبـاط قبيلـة عاملـة بالعماليـق، الذيـن كانـوا جماعـة حـرب وغـزو، برغـم أنهـم كانـوا رحومـين مـع أعدائهـم، فيقـول: «أن الزّبـاء بنـت عمـرو بـن ظـرب» بـن حسـان بـن أذينـه بـن السـميدع، ملكـة الشـام والجزيـرة مـن أهـل بيـت عاملـة مـن العماليـق»[1].

ويعلـق يوسـف حـوراني عـلى ذلـك فيقـول: «هكـذا تكـون قبيلـة عاملـة وحدهـا بقيـت مـن العماليـق»، فغـدت وكأنهـا اسـم آخـر لهـم، ووجـود هـذه القبيلـة لم يكـن أقـل إنتشـاراً مـن أسـلافها العماليـق، وقـد لاحـظ ذلـك المـؤرخ جـواد عـلي، الـذي يقـول: «ويذكـر الإخباريـون أن بطونـاً مـن عاملـة كانـت في الحـيرة، كـما أن بعضـاً منهـا كانـت خاضعـة للزبـاء، وإذا صـحّ زعـم الإخباريـين هـذا، فإنـه يـدل عـلى قـدم وجـود هـذه القبيلـة في بـلاد الشـام والعـراق، ولكننـا لا نجـد لهـا ذكـراً، مثـل أكثـر القبائـل الأخـرى، في كتـب الكلاسـيكيين».

لقـد أصـاب عندمـا أفـترض قـدم وجـود هـذه القبيلـة في بـلاد الشـام والعـراق، فهـي إن لم يرد لهـا ذكـر في كتابـات اليونـان والرومـان، فقـد ورد ذكرهـا مـع قبائـل عربيـة أخـرى، في سـجلات آشـور، في القـرن الثامـن قبـل الميـلاد، وقـد غـاب إسـم (عماليـق) عـن هـذه السـجلات، «مما يعنـي أنهـا غـدت التسـمية الجديـدة لهـا»[2]

إن سـجلات تغـلات بـلاصر، العائـدة إلى سـنة 728 ق.م، تـورد تعـداداً للقبائـل التـي تغلـب عليهـا في الباديـة، فنجـد منهـا قبيلـة «عاملاتـو»، التـي ينسـب إليهـا سـكان جنـوب لبنـان، حيـث تدعـى البـلاد «جبـال عاملـة»3.

وهـذه اللوحـة تعتـبر أقـدم ذكـر لهـذه القبيلـة، ولـلأرض التـي نزلـت عليهـا، وحطّـت رحالهـا فيهـا، هـذه الأرض التـي كانـت بالفعـل، طـوال التاريـخ القديـم، مركـز الدفـاع الأول عـن مـصر، ونقطـة الـصراع الدائـم بـين سـلطات أرض الرافديـن، أو آسـيا الصغـرى مـن جهـة، وسـلطان وادي النيـل مـن جهـة مقابلـة.

ونحـن نفـترض، أن إلى ذلـك العهـد تعـود ظاهـرة اسـتيطان «الحوريـين»، وإنشـاء تحصينـات لهـم، كـما تبـدو آثارهـا عـلى تـلال مثـل: حبـوش وشـارما «في منطقـة النبطيـة» والقـوزح وعيثـا

1 - المسعودي: نفس المرجع
2 - حسن الأمين: «جبل عامل، السيف والقلمً ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت سنة 2003 ص -34 35
راجع أيضاً: يوسف حوراني: «المجهول والمهمل من تاريخ الجنوب اللبنانيً ط1، دار الحداثة، بيروت سنة 1999 ص 33.
3 - يوسف حوراني: نفس المرجع.

الشعب «منطقة الشّعب وسموخي وعين داما وكوا

(في منطقة بنت جبيل)[1].

وإن إنشاء حصن، يشرف على طريق المركبات الآتية من الساحل الفلسطيني، إلى الداخل السوري، يفيد أن هذه الطريق كانت تستعمل يومياً، وبحركة ناشطة، تتطلب المراقبة الدائمة، من قبل السلطات المسؤولة، وتجدر الإشارة أن اسم هذا الطريق، هو «الطريق السلطاني»، وهو يمرّ شرقي بلدة يارون، آتياً من شمالي مدينة عكا، عبر جبال الجليل، ثم يجتاز عبر بلدة عيترون (عيثرون)، إلى ضواحي مرجعيون، قبل أن يستدير إلى الشرق نحو بانياس، «أو يكمل عبر سهل البقاع»[2].

في عهد الملك تحوتمس الثالث، يبدو من خلال النص الذي وجد محفوراً على جدار معبد الكرنك، أن عدة قرى في الجنوب اللبناني قد نهبها، ومنها: عناة (يبدو أنها عيناثا) وبيت عناة (يبدو أنها بنت جبيل)، وقدس المطلة على بحيرة الحولة وهي في جوار بلدة عيثرون الجنوبية، وغنية بآثارها وبقايا معبدها، «والتقاليد المتبعة للدخول إلى حرمة»[3]، وهكذا يبدو واضحاً أن تحوتمس وصل في حملته المذكورة هذه إلى المنطقة.

في الألف الأول قبل الميلاد، كان الجنوب اللبناني عامراً، مكتظاً بالساميين، مزهراً جداً، ويبدو ذلك من خلال سجلات شلمناصر الثالث 858 – 828 ق.م، الذي يقول، في سجله عن حروبه مع الآراميين في جنوب لبنان: «مشيت حتى جبال بعلي راسي»، الذي هو رأس، وأقمت هناك نصباً مع صورتي كملك، في الوقت ذاته، تلقيت ضرائب صور وصيدا، «وسيحو ابن غمري»، ويعلق يوسف حوراني على ذلك فيقول: لدينا رأسان مشهوران في جنوب لبنان: الأول «رأس الناقورة» على البحر، والثاني «مارون الرأس»، وعندما نترجم كلمة «مار» بمعناها «السيد أو البعل»، وتعتبر اللاحقة «أون» أي «المقام»، يصبح معنى مارون الرأس: «بعلي راسي».

وهكذا يرجح أن يكون هذا الموقع، هو ما قصده الملك المحارب، وليس الناقورة، لأن الجيش الآتي من الشرق، مع عربات، لا يسهل عليه الوصول إلى رأس الناقورة، «خلال الغابات والممرات الضيقة»[4].

---

1 - نفس المرجع ط 14
2 - نفس المرجع ص 24
3 - نفس المرجع ص 45
4 - نقلاً عن «نفس المرجعً ص 128، راجع لانكستر هاردنغ: «آثار الأردنً عمان سنة 1965 ص 116، وفيليب حتي: «تاريخ سورية ولبنان وفلسينً ج1، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت 1972 ص 426، ونبيه عاقل: «تاريخ العرب القديم وعصر الرسولً ط2، دار الفكر، دمشق سنة 1972 ص 106.
فيليب حتي يقول، في كتابه:ًتاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضرً ط2، دار الثقافة بيروت 1972، أن المقصود بعبارة رأس البعل (بعلي راسي)، الرأس الداخل ف البحر: جبل الكرمل، وقد خلق لنا شلمناصر نقشاً عند مصب نهر الكلبً.

في القـرن الثامـن مـن قبـل الميـلاد، ورد إسـم قبيلـة «عاملـة» للمـرة الأولى، خـلال النصـوص الآشـورية، وكانـت المنطقـة، في عـداد المناطـق التـي أخضعهـا الملـك تغـلات بـلاصر الثالـث، (745 – 727 ق.م) لسـلطته، وفي أوسـاط الألـف الأول قبـل الميـلاد، كان الكلدانيـون في المنطقـة، وقـد سـجّل ملكهـم :نبوخـذ نـصّرَ الثـاني، حصـاراً عنـد مدينـة صـور، دام حـوالي 13 عامـاً (585 – 572 ق.م)، ولا يعـرف إذا كان هـذا الملـك قـد وصـل إلى مناطـق الثغـور، كمنطقـة بنـت جبيـل وجوارهـا.

في القـرن السـادس قبـل الميـلاد، نشـأت دولـة الأنبـاط، وبلغـت أوج ازدهارهـا خـلال القـرن الرابـع قبـل الميـلاد، واتخـذت مـن البـتراء عاصمـة لهـا، وكانـت هـذه الدولـة تمتـد مـن نهـر الفـرات شرقـاً إلى البحـر الأحمـر غربـاً، وتشـمل مناطـق: «دمشـق، سـهل البقـاع، جبـل عامـل، والأقسـام الشرقيـة والجنوبيـة مـن فلسـطين وحـوران وآدم ومديـن..».

وإذا مـا كانـت مديـن هـي قـرب قريـة قـدس (مـن القـرى السـبع) قـرب بئـر شـعيب، وقـرب يوشـع، فهـذا يؤكـد أن المنطقـة كانـت تتبـع تلـك المملكـة.

تجـدر الإشـارة، أن عبـادة أهـالي المنطقـة في تلـك الفـترة، كانـت عبـادة وثنيـة، فعبـادة الأصنـام كانـت هـي الشـائعة بـين عـرب شـبه الجزيـرة العربيـة، ومـن بينهـا عاملـة، فـكان لهـا صنـم يدعـى «الأقيـصر»، نصبتـه في مشـارف الشـام، وكانـت تحـجّ إليـه، «ويحلقـون رؤوسـهم عنـده»[1]، وشـاركتها في عبـادة هـذا الصنـم اخواتهـا مـن قضاعـة ولخـم وجـزام وغطفـان[2].

ثـم كان الـدور الفـارسي، في المنطقـة، وتشـير الأخبـار إلى سـقوط كل المـدن الرئيسـية بأيـدي قـورش، الـذي كان أسـس الإمبراطوريـة الفارسـية سـنة 539 ق.م.

لكـن مـا لبثـت هـذه المـدن، وبعـد قرنـين مـن الزمـان، أن سـقطت بأيـدي الإسـكندر المقـدوني، الـذي زحـف إلى المنطقـة، ربيـع 334 ق.م، وهـزم الفـرس، وانتـصر عليهـم، «وفتحـت المـدن في المنطقـة أبوابهـا لـه»[3].

ويبـدو أن المنطقـة الجنوبيـة كان فيهـا سـكان عـرب، عندمـا أتـى الإسـكندر إليهـا، وفي هـذا الصـدد يقـول أسـد رسـتم: «والإسـكندر الكبـير»، إذ تحدّتـه صـور، وصمـدت في وجهـه، واضطـر أن يحاصرهـا حصـاراً طويـلاً، أحـبّ في يـوم مـن أيـام الحصـار، أن يـروّح عـن النفـس برحلـة صيـد قصـيرة، فقـام مـن ضواحـي صـور ممتطيـاً جـواده، واتجـه شرقـاً، متسـلقاً جويـا وتبنـين، فوجـد نفسـه بـين قـوم مـن العـرب، هكـذا يقـول اريانـوس، أقـدم مـن أرّخ للإسـكندر، وأقربهـم إليـه زمنـا»[4].

1 - عمر رضا كحاله: «معجم قبائل العربً ج2، ط3 مؤسسة الرسالة بيروت سنة 1982 ص 714.
2 - حسن إبراهيم حسن: «تاريخ العرب قبل الإسلامً، ج6 ص 275 – 276
3 - راجع فيليب حتي: «المرجع السابقً ص 185 – وص 195.
4 - حسن الأمين: «دائرة المعارف الإسلامية الشيعيةً ج6 دار المعارف، بيروت، دون تاريخ، ص 135

في أوائل القرن الأول للميلاد، زار استرابو المنطقة، وقال: «إن منطقة الجليل مسكونة بمجموعات مختلطة من الشعوب، من مصريين وعرب وقبائل فينيقية»[1].

يلاحظ هنا أن الفرس واليونانيين، الذين شغلوا هذه المنطقة، لم يتركوا أسماء معينة على آثارهم، مع أنها ضخمة وهامة في بعض المواقع.

في بدء الدعوة المسيحية، كانت أرض الجليل ميداناً لدعوة السيد المسيح (ع)، ويقال أن البشارة الأولى بالإنجيل كانت في عرس قانا الجليل، وعندما بدأ يستعمل معجزاته في إحياء الموتى، وشفاء المرضى، تجد أهالي صور وصيدا يأتون إليه لشفاء مرضاهم، ويقول مرقس في هذا الصدد «والذين حول صور وصيدا، وجمع كثير إذ سمعوا كم صنع، أتوا إليه[2].

هذا المرور لا يجزمه قطعياً البعض، إنما يعتبرون أن «الدلائل الأثرية الرومانية والبيزنطية في بلدة يارون (على بعد 3 كلم جنوب بنت جبيل)، وتلة شلعبون (على بعد 1 كلم غرب المدينة وضمن أراضيها، وعلى طريق عين إبل) أثارت اهتمام الرحّالة الذين زاروا الأراضي المقدسة، فزاروها وقدموا شروحاً مستفيضة عن معالمها، نذكر منهم الرحّالة الإنكليزي ادوارد روبنسون، والفنان الألماني كارل وليم فان دي فلد، والباحث في الآثار الفرنسي أرنست رينان، والمستشرق الفرنسي فرانسوا صولسي، وأكدت المنشورات التي قدّموها إلى التواصل الحضاري لهذه المنطقة، مع الأراضي المقدسة في فلسطين»[3].

بعد رفع السيد المسيح (ع) إلى السماء، كان الجليل الملجأ الآمن لتلامذته، وخاصة لوصيّه شمعون الصفا (ع)، هذا الوصي الذي كان يتكلم اللغة العربية، إلى جانب لغته الأصلية الآرامية، ويظهر ذلك من خلال ما جاء في الفصل الأول من أعمال الرسول، «ومن تسمية ابنه اسماً عربيا»[4].

وانقسم اتباع المسيح إلى فئتين كبيرتين، فئة تزعّمها بولس، الذي تربطه علاقات متينة بكهنة اليهود والسلطة الرومانية، وفئة ثانية تزعّمها شمعون الصفا، ابن عمة السيدة مريم(ع)، ووصي عيسى وخليفته، واشتد الضغط الروماني اليهودي على شمعون الصفا، فأخذ يتنقل في البلاد، وقبيل استشهاده في أرض الجليل، كتب لشيعته كتاباً سمي ب «الزاجرة» من إملاء عيسى ابن مريم، يخبرهم فيه عن خروج نبي من بلاد العرب، يعرف ب «البارقليط» يعني أحمد[5].

وكان الجاحظ، المتوفي سنة 255 ه، أول من تحدث عن تنصّر قبيلة عاملة، وغيرها من قبائل عرب الشام، ويقول: «هذا مع ما كان في العرب من النصارى، الذين يخالفون

1 - يوسف حوراني: «المرجع السابقً
2 - مرقس 3/8 و 7/24، حتى 15/21 ولوقا 6/17
3 - راجع: حسن رامز بدوي، «بنت جبيل التراث العمرانيً ط1، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت سنة 2011 ص -26 28.
4 - مرقس 7/31
5 - راجع: علي جابر: «شمعون الصفاً (بطرس) بين المسيحية والإسلامً ط1، دار الهادي، بيروت سنة 2002 ص 101

ديـن مشركـي العـرب كل الخـلاف، كتغلـب وشـيبان وعبـد القيـس، وقضاعـة وغسـان وسـليح والعبـاد، وتنـوخ وعاملـة ولخـم»[1].

كـما ذكـر بعـض المؤرخـين أخبـاراً عـن تنـصر القبيلـة، حيـث يقـول جـواد عـلي: «ومـن القبائـل التـي يحشرهـا أهـل الأخبـار في جملـة العـرب المتنـصّرة: غسـان وتغلـب وتنـوخ ولخـم، وجـذام وسـليح وعاملـة»[2].

إن كثـيراً مـن الآثـار الموجـودة في المنطقـة، تعـود إلى العهـد الرومـاني، وهـي عبـارة عـن مسـاكن وأنصـاب وكتابـات، دون أسـماء مميـزة، أو بالأسـماء السـامية القديمـة لمواقعهـا، مثـل تلـك الموجـودة في يـارون، ويعـتر (ياطـر)، عـين إبـل ودبـل وغيرهـا، وهنـا لا بـدّ مـن الإشـارة إلى أن آثـار بنـت جبيـل الموجـودة قـرب الجامـع الكبـير، هـي رومانيـة، وقـد نقـش عـلى بعضهـا كتابـات تحمـل إسـم الإمبراطـور الرومـاني سـبتيموس سـفيروس3 وعبـارات مثـل: «هـذا بيـت الـربّ، وهـي لا تـزال ماثلـة للعيـان حتـى الآن.

ونشـير أن المنطقـة كانـت خاضعـة لـلإدارة الرومانيـة، في نفـس الفـترة التـي كانـت فيـه مدينـة تدمـر تحـت السـلطة الرومانيـة أيضـاً، خاصـة منـذ سـنة 41 ق.م، ثـم أصبحـت جـزءاً مـن المقاطعـة العربيـة، التـي شـكلها الإمبراطـور تراجـان سـنة 105 – 106 م»[4].

وفي فـترة لاحقـة كانـت المنطقـة تحـت سـيطرة الإمبراطـور الرومـاني سـبتيموس سـفيرونس، الـذي حكـم بـين سـنتي 193 – 211 م، وهـذا مـا تؤكـده الآثـار الموجـودة، في أكثـر مـن مـكان في المنطقـة، ومنهـا في بنـت جبيـل، بنـاء لتحليـل النـص الموجـود عـلى حجـارة في منـزل قـرب الجامـع الكبـير، ترجمتهـا: «مـن (الإمبراطـور)

أغسـطس سـبتيموس سـفيروسّ، و «تحـت إشراف نيكـو سـتراتوس الكاهـن الأكـبر و...» و«بنـى المعبـد»5.

2 – إسلام قبيلة عائلة:

لا يوجـد عنـد النسّـابه العـرب، ولا في الكتـب التاريخيـة القديمـة، إي ذكـر محتّـم للفـترة الزمنيـة التـي نزلـت بهـا عاملـة أرض الجليـل، الأرض التـي أصبحـت تعـرف بجبـل عامـل، أو جبـل عاملـة، أو جبـال عاملـة، لكـن هنـاك اجتهـادات حـول هـذا الموضـوع، وعـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، يقـول خليـل عثامنـه، أن نـزول عاملـة في جبـل الجليـل كان بعـد القـرن الرابـع الميـلادي، مضيفـاً: «ويذكـر شـهيد، أن قبيلـة عاملـة، كانـت في القـرن الرابـع للميـلاد، تجـاوز

1 - الجاحظ: «كتاب الحيوان» ج7، مطبعة الحلبي، مصر سنة 1938 ص 216 -
2 - جواد علي: «تاريخ العرب قبل الإسلام» ج6، ص 599 وج 8 ص 475
3 - حسن بدوي: «المرجع نفسي».
4 - جواد علي: «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » ج3 ص 85.
5 - حسن بدوي: «المرجع السابق ص 52.
نقلاً عن: فريدريك ألبي: «البروفسور في المركز الفرنسي للشرق الأدنى» بيروت – دمشق – عمان (IFPO).

قبيلة جذام في جنوب فلسطين والأردن، وأنها انتقلت فيما بعد، واستقرت بالجليل، الذي أطلق عليه جبل عاملة، على اسم هذه القبيلة»[1].

أول ذكر للقبيلة في العصر النبوي، ظهر في السنة الثامنة للهجرة، إذ كانت مع غيرها من قبائل العرب مجتمعة في الطرف الجنوبي لبلاد الشام، فبلغ خبرها النبي (ص)، فأرسل سرية، بقيادة عمرو بن العاص، فهاجمهم وفرّق جمعهم، يقول البلاذري في هذا المجال: «فلقي العدو، من قضاعه وعامله ولخم وجذام، وكانوا مجتمعين ففضّهم، وقتل مقتلة عظيمة، وغنم...»[2].

ويقال ان سرية أسامة بن زيد سنة 632م، كانت إلى آبل الزيت (ويمكن أن تكون هي نفسها آبل القمح في جبل عامل) وإلى عيون «وربما تكون مرجعيون»[3].

وبقي أسامة بن زيد يغزو في نواحي آبل الزيت أربعين يوماً، وقتل سبعين، حتى قدمت جيوش الفتح إلى الشام، فرجع بسريته إلى المدينة المنوّرة.

هكذا دخلت عاملة في الإسلام، وكانت تتوزع بين جندي دمشق والأردن، وكان المكلف بفتحها ثلاثة: يزيد بن أبي سفيان، لمنطقة صيدا وجزين والنبطية والبقاع الغربي، وشرحبيل بن حسنة لمنطقة قدس والشقيف وتبنين وصيدا أيضاً، وعمرو بن العاص، لفلسطين والساحل العاملي إلى مدينة صور»[4].

ثم شاركت عاملة مع القبائل العربية مع المسلمين ضد الروم بعد معركة اليرموك وغيرها.

ويذكر أن عمرو بن العاص فتح مرجعيون سنة 636 م[5]، ولا يعرف إذا كانت منطقة جبل عامل قد فتحت على يد شرحبيل بن حسنة، الذي وصل إلى قدس وتبنين، أو على يد عمرو بن العاص، الذي وصل إلى مرجعيون.

وعندما دخلت جبال عاملة بأكملها في الإسلام، وفتحت جميع مدنها وقراها سنة 636م ولّى عمرو بن الخطاب، يزيد بن أبي سفيان على الأردن وفلسطين، وأصبحت مناطق صور وقدس وتبنين ومرجعيون، تحت إمرته، وولّى أبا الدرداء على دمشق، فأصبحت منطقة

1 - نقلاً عن علي داود جابر: «الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عاملً، دار الهادي، بيروت سنة 2005 ص 25.
2 - البلاذري: «أنساب الأشراف» ج1، تحقيق إحسان عباس،ط1، مؤسسة النشر الإسلامي سنة 1411 هـ، ص 380.
البلاذري: «فتوح البلدان» تحقيق رضوان محمد رضوان، دار ومكتبة الهلال، بيروت سنة 1988 ص 67
وجواد علي: «المرجع السابق» ج4 ص 251.
3 - محسن الأمين: «خطط جبل عامل» ج1، ط1، مطبعة الأنصاف، بيروت سنة 1961 ص 232.
4 - راجع: الطبري: «المرجع السابق» ج 3 ص 224.
5 - ابن الأثير، «المرجع السابق» ج2 ص 131

صيدا وجزين والنبطية والبقاع الغربي خاضعة له[1].

لكن علي الزين يعتبر أن وصول الإسلام إلى لبنان، كان بعد سنة 640 م[2].

3 - تشيع جبل عامل:

يقول البلاذري، وغيره من المؤرخين، أن تشيّع أهالي جبل عامل، تمّ على أيدي الصحابي الجليل أبي ذرّ الغفاري، الذي نفي إلى الشام، حيث كان فيها معاوية بن أبي سفيان، الذي حاول إغراءه لإسكاته، فلم يفلح، فأخرجه معاوية إلى قرى الشام، تحديداً إلى جبل عاملة، «فجعل ينشر فيها فضائل أهل البيت (ع)، فتشيع أهل تلك الجبال على يده، فلما علم معاوية، أعاده إلى دمشق، ثم نفي إلى المدينة» ولا يزال لأبي ذرّ مزارات معروفة، في بلدتي الصرفند وميس الجبل.

ومن المتداول لدى بعض المؤرخين، أنه عندما نفي أبو ذر من قبل معاويه، فإنّه حلّ في قرية «الصرفند»، وفي قرية «ميس الجبل»، وهي من قرى جبل عامل الواقعة على الحدود الشرقية لفلسطين، واتخذ منها منطلقاً لدعوته في نشر الفكر الشيعي[3].

لكن ما أخرّ ظهور التشيع في جبل عامل أحياناً، وحسب البعض، فإن سببه الظروف السياسية، حيث كان الشيعة لا يزالون معتصمين بالتقية، متكتمين في أمرهم، وأنه لم يسبق أهل جبل عامل في التشيع إلا بعض أهل المدينة، وكثرت فيه العلماء من القرن السادس إلى اليوم...، ولا يوجد قرية من قراه لم يخرج منها جماعة من الفقهاء والفضلاء الإماميةً[4].

يحاول بعض المؤرخين أن يعزوا شيعة جبل عامل إلى العنصر الفارسي، واستدلوا على ذلك من وحدة المعتقد، بين شيعة جبل عامل وشيعة إيران، ليس هذا فحسب، بل أنهم يردون أيضاً كل شيعة لبنان إلى هذا العنصر الفارسي، ومن أهم هؤلاء طنوس الشدياق، في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» الجزء الأول، أما رينان، فاعتقد أن بعض العائلات في جبل عامل، نقلها معه صلاح الدين الأيوبي، وهي كردية الأصل، وإلى هذا اتجه الأب لامنس في أول أمره[5].

ويعقّب على هذا الرأي، المؤرخ الفرنسي دومينيك شيفالييه، الذي يدحض افتراض الأب لامنس، ويقول: «أن هذه الفرضية هي ضعيفة وهشّة إلى أبعد حدّ، ذلك أنه في تلك

1 - البلاذري: «فتوح البلدان» المرجع السابق ص 141.
2 - علي الزين: «فصول من تاريخ الشيعة في لبنان» دار الفكر الحديث، ط2، بيروت سنة 2001
3 - أحمد رضا: «العرفان» م 2 ص 239، ومحمد تقي آل فقيه «جبل عامل في التاريخً المطبعة العلمية، لبنان سنة 1946 ص 49 – 51، وأحمد رضا: "أغلاط الإعلام" العرفان م 3. ج1 وج2 .
4 - محسن الأمين: «أعيان الشيعة» ج1 القسم الثاني، ط4، بيروت سنة 1960 ص 24.
5 - الأب لامنس: «مجلة المشرق» م 20 ص 739.

الفترة، كانت المقاطعات والمناطق الإيرانية بعيدة كل البعد، عن أي أثر للتشيع فيها على الإجمال»[1].

تشير مجلة المشرق، في موضع آخر، أن الأب لامنس «تراجع عن آرائه هذه، بعد اطلاعه على الحقائق الواردة في رحلة ناصر خسرو، التي أشار إليها لامنس نفسه»2.

وبعد أن يتحقق لامنس من دراسة العناصر الساكنة في جبل عامل، يخطو خطوة جديدة ليقول بجرأة ووضوح: «يجب أن نعد بني عاملة من سلفاء متاولة لبنان، أما زعم كريستي، في أن لغة العامليين العامية، فيها آثار من اللفظ الفارسي، فقد يكون أمراً نتج عن اتصالهم بجامعات النجف وكربلاء، ولزيارتهم لحواضر الشيعة، التي لا تخلو من سكان فرس، فقد كانوا يقصدون هذه الحواضر صغاراً، طلباً للعلم، ويعودون للوطن بعد اكتهالهم3.

وبالفعل فإن طلاب العلم الذين يذهبون إلى جامعات النجف وقم، يتأثرون باللهجة العراقية أو الفارسية، فينقلونها معهم إلى البلاد بعد عودتهم.

وعلى هذا الأساس، فإنه من المؤكد، ان التشيع في جبل عامل، هو بعيد كل البعد عن التأثر الفارسي، وكان التشيع فيه قبل القرن الرابع الهجري، في الوقت الذي كانت فيه إيران سنّيّة المذهب، في غالب بقاعها، كما يؤكد معظم الباحثين، ويولي الشيخ محمد جواد مغنية الأمر أهمية بالغة، ويعالجه من زاوية أخرى، حيث يؤكد أن من نشر التشيع في إيران «هم عرب» لأنهم سادة أشراف من نسل الإمام موسى بن جعفر، وهؤلاء لا يمكن بحال ان يتعصبوا للأكاسرة، والذين يجوز في حقهم ذلك هم قدماء الفرس، وهؤلاء جلّهم كانوا على مذهب التسنن، إن الذين نشروا التشيع، وناصروه في إيران، هم بين عربي أصيل، كالإمام الرضا (ع) والأشعريين، أو من أصل عربي كالصفوية، وان الذين دعموا التسنن وناصروه هم فرس أقحاح، كالبخاري والنسائي والرازي وغيرهم4.

كما يؤكد هذا الرأي الأمير شكيب ارسلان، الذي يعتبر أن «التشيع في جبل عامل هو أقدم في العجم، بل في كل قطر، حاشا الحجاز، فمن الحقائق التي لا خلاف فيها، ان التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الإسلام» 5.

---

1 - Dominique chevalier: la société du Mont Liban a l’époque de la révolution industrielle en Europe Paris 1971 P : 6-7

2 - الأب لامنس: «المرجع السابق»، م 30 ص 772

3 - محسن الأمين: «المرجع السابق» ص 67

4 - محمد جواد مغنية: «الشيعة والتشيع» دار الكتب اللبناني، بيروت، دون ذكر سنة الطبع ص 102 وما بعدها، راجع أيضاً: محسن الأمين: «المرجع السابق» ص 49

5 - نقلاً عن: محمد تقي آل فقيه: «المرجع السابق»، ص 51

كما أثبت أن التشيع ظهر في العجم في زمان بثّ الدعوة العباسية في خراسان.

ورغم هذه التأكيدات، ينبري البعض مؤكداً عكس ذلك، ويذكر إسماعيل علي، المدرّس بالمدرسة الخديوية، ومدرّس علم تقويم البلدان بالجامع الأزهر الشريف، عند ذكر سورية، في كتابه «التحف الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية» ما لفظه، «فمن سكان الشام العرب والترك والمتاولة والسريان والدروز واليهود والموارنة، والروم والإفرنج»، ثم قال بعد ذكر العرب والأتراك، «المتاولة فريق من الشيعة، وهم من أصل فارسي، وتنظم إليهم فرق من الملاحدة، كالنصيرية والإسماعيلية، وعدتهم جميعاً ثلاثمائة ألف نفس تقريباً...»[1].

ويردّ عليه السيد محسن الأمين، مؤكداً أن الشيعة في بلاد الشام، ويسمون المتاولة، عرب صميمون، عريقون في العروبة، وأعرق فيها، من جميع سكان سورية، لأنهم من نسل عاملة بن سبأ، العربي الصميم، ولا علاقة لهم بالفرس، فمن أين وأنّى قلت أنهم من أصل فارسي، وكأنك لما سمعت قومك المصريين العوام، يسمون الشيعي «عجمي»، ظننت أن كل شيعي هو فارسي، أو من أصل فارسي[2].

ولتأكيد قدم التشيع في جبل عامل، يقول الشيخ أحمد رضا أن «قدم التشيع في هذا القطر (يعني جبل عامل)، يمتد إلى خلافة عثمان، وإلى عهد نفي أبي ذر»[3].

أما الحرّ العاملي، صاحب «الوسائل»، وهو من أعظم الثقاة، ومن أجلاّء أهل زمانه، فيؤكد ان تشيع العامليين «اقدم من تشيع غيرهم، فقد روى أنه في زمن عثمان، لما أخرج أبا ذر إلى الشام، بقي أياماً، فتشيع جماعة كثيرة، ثم أخرجه معاوية إلى القرى، فوقع في جبل عامل، فتشيعوا من ذلك اليوم... ثم لما خرج الرضا (ع) إلى خراسان، تشيع كثير من أهلها، وذلك مذكور في التواريخ والأحاديث، فظهر أنه لم يسبق أهل جبل عامل إلى التشيع، إلا جماعة مخصوصة من أهل المدينة، وقد كان أيضاً في مكة والطائف واليمن، والعراق والعجم شيعة قليلون، وكان أكثر الشيعة في ذلك الوقت أهل جبل عامل»4، ومن عرف ما كانت تشتمل عليه مكتبة صاحب الوسائل، وعرف ما أنفقه من عمره الشريف، في التصنيف والتأليف والضبط، جزم بكل ما مرّ في كلامه.

---

1 - محسن الأمين: «المرجع السابق» ص 54
2 - محسن الأمين: «نفس المرجع» ص 54
3 - أحمد رضا: «أغلاط الإعلام» المرجع السابق.
4 - محمد تقي آل فقيه: «المرجع السابق» ص 54، نقلاً عن الحرّ العالمي: «أمل الآمل في علماء جبل عامل «في الطبعة الملحقة برجال الميرزا محمد

4 – التسمية ببلاد بشارة:

من المؤرخين من اطلق على جبل عامل إسم «بلاد بشارة»، أي القسم الجنوبي من جبل عامل، متجاهلاً بذلك قسمه الشمالي، أي بلاد الشقيف، ولذلك تتعدّد الروايات حول هذه التسمية، إلا أن المؤرخين، يتوافقون كلهم تقريباً على أن التسمية هي نسبة لحسام الدين بشارة بن اسد الدين العاملي «من أمراء صلاح الدين»، وأن هذا الأخير كافأه بإعطائه خيط بانياس، لمساعدته للسلطان في مجاهدة الفرنج، ويردّ السيد محسن الأمين التسمية إلى أمير هذه المنطقة بشارة بن مقبل القحطاني»[1]، وهناك رأي يقول: «بشارة، المنسوبة إليه بلاد بشارة، هو «معنى الأصل»، وأنه الأمير بشارة بن معن»[2]. أما فانديك الأميركاني، فيقول في تحديده لجبل عامل: "إن بلاد بشارة هي إلى الجنوب الشرقي من صور، وأكثر أهلها متاولة، وقاعدتها تبنين"[3].

ويعترض الشيخ علي سبيتي على هذا الإفتراض، مؤكداً أن «صور ليست خارجة عن بلاد بشارة، وان حدود هذه البلاد تقع بين خيط بانياس إلى البحر من جهة، وبين الناقورة ونهر الأولي من جهة ثانية»[4].

5 – التسمية ببلاد المتاولة وغيرها:

سميت هذه المنطقة ب «بلاد المتاولة»، وذلك نسبة للشيعة الإمامية الذين يسكنونها، والذين يسمّون ب «المتاولة»، وإطلاق هذا الإسم على هذا الجبل، يعيده الشيخ أحمد رضا إلى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة، حين كان أبناء هذه البلاد من الشيعة «يلقبون أنفسهم ببني متوال»5، لما في هذا اللقب من الإشارة إلى مذهبهم، وكانوا في ذلك العصر يفتخرون بهذا اللقب، وشاعرهم الزجلي في ذلك الوقت يقول في قصيدة طويلة:

لا بني متوال ظهر العاديات ... من ظهور الخيل يمضون الصقال

ما يفوت المير ديرتنا حـرام ... ولو نَبَتْ من فوق طربوشه نخل

لكن من يراجع تاريخ الأزمنة للدويهي، وتاريخ الأمير فخر الدين للصفدي، يبدو له أن هذا اللقب، كان يطلق على العامليين، منذ أوائل القرن الحادي عشر، غير ان اللبنانيين

1 - محسن الأمين: «المرجع السابقَ ص 109

2 - محمد جابر آل صفا: «المرجع السابقَ ص 27

3 - محسن الأمين: «المرجع السابقَ ص 51-50

4 - نفس المرجع

5 - احمد رضا: «المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، مجلة العرفان، م2 ج2 سنة 1910 ص 241

في الشـمال، كانـوا يقولـون «متاولـة»، كـما في تاريـخ الدويهـي والشـهابي، والفلسـطينيين يقولـون «بنـي متـوال» كـما في «تاريـخ الصفـدي»1.

يلاحـظ أن هـذا اللقـب يختـص بشـيعة جبـل عامـل وبعلبـك وجبـل لبنـان، أو كـسروان، وتلقيبهـم بذلـك، كـما يقـول السـيد محسـن الأمـين: «إمـا لأنهـم كانـوا يقولـون في حروبهـم «مـت وليـاً لعـلي» أو «لتوليهـم عليـاً وأبنـاءه»2.

ويؤكـد عـلى هـذا الـرأي شـكيب ارسـلان، نقـلاً عـن الأسـتاذ محمـد عبـده المـصري، أمـا المـؤرخ لويـس زوان، فيؤكـد أن التسـمية بالمتاولـة «تعـود إلى كلمـة تـولى»3.

أمـا المـؤرخ الفرنـسي دومينيـك شـيفالييه، فيسـميهم ب «الشـيعة الإماميـة». نسـبة إلى الأئمـة الإثنـي عـشر، الذيـن يبتدئـون بالإمـام عـلي بـن أبي طالـب، وينتهـون بالإمـام الغائـب الثـاني عـشر، محمـد بـن الحسـن المنتظـر»4.

كما يطلق على الشيعة اسم «الإثني عشرية»، نسبة إلى الأئمة الشيعة الإثني عشر.

وهنـاك تسـمية أخـرى، تطلـق عـلى الشـيعة في جبـل عامـل وغـيره، وهـي: «الجعفريـون»، نسـبة إلى الإمـام جعفـر الصـادق، صاحـب المذهـب الجعفـري، وصاحـب المدرسـة، التـي تخـرج منهـا كبـار الأئمـة، ومنهـم أئمـة المذاهـب الأخـرى،

أمـا تسـمية جبـل عامـل ب «لبنـان الجنـوبي»، فهـي حديثـة، منـذ الإحتـلال الفرنـسي للبنـان، وبعـد أن ضمـت إليـه بشـكل رسـمي منطقتـا جزيـن وحاصبيـا، ومـن الطبيعـي أن تجـد هـذه التسـمية مـن يعـترض عليهـا، خاصـة وأن هنـاك قناعـة راسـخة لـدى سـكانها، وهـي التصـاق التسـمية (جبـل عامـل) بالتاريـخ وبالذاكـرة وبالشـيعة، سـاكنيها عـلى وجـه الخصـوص، وفي هـذا السـياق تـورد مجلـة العرفـان مـا يـلي: «أسـموه لبنـان الجنـوبي، وجاراهـم عـلى ذلـك الإطـلاق الحكومـي بعـض الوطنيـين مـن أبنائـه، ومـع أنـه مـن الـلازم الإحتفـاظ بالإسـم القديـم (جبـل عامـل)، لأن لـه تاريخـاً ولـه أمجـاد، ولـه ذكريـات، نريـد الإحتفـاظ بهـا والحـرص عليهـا، ولم يدخـل في جبـل عامـل مـن الجنـوب، مـا هـو خـارج عنـه سـوى حاصبيـا وبعـض قراهـا، لأنهـا مـن وادي التيـم، وهنـاك قـرى قليلـة مـن جزيـن5.

وبنفـس التوجّـه، يقـول محمـد تقـي آل فقيـه: «وإذا سـمي جبـل عامـل، لبنـان الجنـوبي عنـد الإحتـلال، وسـمي هـو لبنـان الكبـير، وسـمي لبنـان الأصـلي، لبنـان الصغـير، وسـمي جبـل عامـل في المـدة الأخـيرة (الأربعينيـات) بالجنـوب، حتـى شـاع ذلـك، وحتـى اسـتعمله نوابـه

1 - علي الزين: «المرجع السابق» ص 561- 661
2 - محسن الأمين: «المرجع السابق» ص 05
3 - al ed toped el rap séilbup” siraP “sianabil ruegayov nu‘d srinevuos te setoN” :niauoZ siuoL
89:p 0881 “eniraM
4 - 7-6 :p “tic po” reilavehc .D
5 - مجلة العرفان م 72 ج1 سنة 7391 ص 3-4

في بطاقاتهم، فإن ذلك لا ينسيه اسمه الأصلي، والتاريخ لا يغفل عن الإشارة إلى هذه الأهداف»[1]

يبقى أن نشير إلى أن اضطراباً يحدث في تحديد الإنتماء المذهبي لحسام الدين بشارة، فهل كان حسام الدين المذكور، وأبناؤه، مسلمين متسننين، أم أنهم على المعتقد المذهبي للغالبية العظمى من سكان «جبل عامل»؟ إن المسلم به، لدى معظم المؤرخين، أن الناصر صلاح الدين قد اضطهد المعارضة الإسلامية، وتحديداً الإسماعيلية والإمامية الإثني عشرية، وهذا واقع تاريخي، إلا أن السياسة التي اعتمدها السلطان مع المسلمين، غير القائلين بالمذاهب الأربعة، «لم تكن ثابتة»[2].

6 - المساحة والحدود:

اختلف المؤرخون والكتّاب حول تحديد مساحة هذه المنطقة وحدودها، فمحمد جابر آل صفا يعتبرها «ثلاثة آلاف كلم2»، ويتفق معه كل من علي الزين وحسن الأمين، على اعتبار ان متوسط طول هذا القطر، من الجنوب إلى الشمال يبلغ نحواً من ثمانين كيلو متراً، ومتوسط عرضه نحواً من أربعين[3]، هذا إذا جعل منتهاه من الشرق الجنوبي ضفة بحيرة الحولة، ومن الشمال الشرقي منتهى جبل الضهر، إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط.

هنا ترتسم حدود جبل عامل بشكل واضح، لكن إذا تمت زيادة بعض المناطق إليه، فمعنى ذلك أن المساحة ستكون أكثر من ثلاثة آلاف كلم2، كما سبق.

يذكر أن الحدود قديماً كانت تختلف عما حصل في فترة لاحقة، «حيث تدخل في حدوده، إضافة إلى صيدا وجزين قسم من قرى عكا»[4]، وقد جاء في كشكول يوسف البحراني، في مقام تعداد قرى جبل عامل، أنه كلّف بعض العامليين، وهو من قرية أنصار، كما يظهر، بتعداد قرى جبل عامل، فعدّها وعدّ منها (الجيّة)، وهي قرية بين صيدا وبيروت، وعدّ منها مشغرة[5]، ومما يذكر أنه يوجد في بلدة الجية، بعض الشيعة، وجلّهم من آل الحاج. أما بالنسبة لمشغرة، ففي عدة كتب من كتب الرجال، يتم التعرض للشهيد الأول، فيذكرون جزيناً، ويقولون قرية من جبل عامل... وكذلك يعبّرون عن علماء مشغرة وصفد»[6].

وهناك من يعتبر أن امتداد جبل عامل في الماضي، أشرف على طبرية، وحاذى بذلك الأردن، وأصبحت جبال الجليل تنمى إليه، وهذه الجبال هي الأماكن الأولى التي سكنتها قبيلة عاملة»[7].

---

1 - محمد تقي آل فقيه: «المرجع السابق» ص 5-6
2 - أحمد حطيط: «إشكاليات كتابة تاريخ جبل عامل في العصر الوسيطً السفير 26/9/88 ص 11
3 - راجع: محمد جابر آل صفا، «المرجع السابق» وراجع علي الزين: «المرجع السابق»، وحسن الأمين: «المرجع السابق» ص 35
4 - العرفان م27 ج1
5 - نقلاً عن: محمد تقي آل فقيه: «المرجع السابق» ص 16
6 - الفقيه: «نفس المرجع»، ص -17 18، نقلاً عن شكيب ارسلان: «العرفان» م2 ص 446
7 - أحمد رضا: «العرفانً م 31 ص 37، ومحمد جابر آل صفا: «المرجع السابق» ص 24

يتضح أن الإختلاف الحاصل حول حدود جبل عامل، وبالتالي مساحته، عائد إلى الإختلاف في وجهات النظر حول دخول بلدات أو قرى ضمن هذه الحدود، أو لا، حيث أن الحدود تغيرت جغرافياً، تبعاً للتغيرات التي حصلت على الوجود الطائفي والمذهبي في مناطق معينة، فالبعض يعتبر أن حدود جبل عامل هي حدود التواجد الشيعي، فعندما كانت جزين تجمعاً شيعياً، كانت تعتبر جزءاً لا يتجزأ من جبل عامل، أما وفي الوقت الذي لم يعد فيه للشيعة تواجد فيها، أصبحت خارجه، وكذلك بالنسبة لمناطق عديدة أخرى، فلو لم تكن مشغرة ويحمر وسحمر وغيرها مناطق شيعية، لما اعتبرت من جبل عامل، خاصة وانها أقرب إلى منطقة البقاع الغربي، منها إلى منطقة جبل عامل.

كذلك الأمر بالنسبة لبعض بلدات وقرى في إقليم التفاح، المجاورة لجزين، حيث تغيّر اللون المذهبي لها، بعد أن «اسكنها الدروز لفلاحين من الطوائف المسيحية يقيمونهم شركاء بالعمولة، لاعتمار الأرض واستدرار بركاتها (وهذا بعد خروج الشيعة من جزين، إثر معركة قامت بينهم وبين الدروزسنة 1170-1176 هـ)1.

كما أن هناك قرى في منطقة صيدا، تخرج عن نطاق جبل عامل، لأنها غير شيعية، وكذلك الامر بالنسبة لبلدات وقرى العرقوب، مثل كفر شوبا، كفر حمام، شبعا، الهبارية، ميمس، الميري وغيرها...

وعلى هذا الأساس أيضاً، يقال أن «هناك قرى، كانت تابعة لجبل عامل في فلسطين، لكنها أخرجت منه، مثل قرى «الزيب» و «البصّة» (بقيت تابعة لجبل عامل حتى استشهاد ناصيف النصار سنة 1195 هـ)، ومزارع البصّة كانت تخص جبل عامل، وخراجها كان يؤدي إلى قلعة تبنين، والأرض المسماة ب"الجليل" وهي التي وضع أل ترشيحا يدهم عليها، أقروا بأنها كانت تابعة لبلاد بشارة، وكذلك "المعاصر"، وهي أرض مزروعة قرب "جاليل"، فإن خراجها كان تابعاً لتبنين، وكذلك بالنسبة لخربة "ديشوم" أو "ديشوب".

وفي الجزء الشمالي من جبل عامل، المسمى ب إقليم التفاح، جملة قرى، يقول بشأنها الشيخ محمد مهدي مغنية: «إختلسها أهل لبنان»، وذلك في كتاب «جواهر الحكم»، نقلاً عن «العقد المنضد في شرح قصيدة الأسعد» للشيخ علي سبيتي.

وهناك قرى وبلدات عاملية، ألحقت بإقليم الشوف ومقاطعاته، أثناء المعارك مع المعنيين والشهابيين، وأثناء حكم الأمير بشير الثاني بعد وفاة الجزار، وهذه القرى هي قرى مقاطعة جزين.

كذلك هناك قرى في مقاطعة إقليم التفاح الشمالي، ألحقت به، بعد سلخها عن جبل عامل، وهي: الهلالية، البرامية، وجوارهما، حتى مغدوشة والمية ميّة.

1 - راجع يوسف خطار أبو شقرا: الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية» بيروت 1952

والموضوع ذاته ينطبق على مقاطعة جبل الريحان، ومنها الريحان القاعدة، والعيشية، عرمتى، الجرمق، وغيرها1.

بعثة إيرفد (وهي مرجع حديث)، حاولت هي الأخرى، رسم حدود هذه المنطقة، فاعتبرت أن «منطقة لبنان الجنوبي – وهي التسمية الرسمية التي أصبحت تطلق على هذه المنطقة – التي تقع في محافظة صيدا (قبل أن تقسم إلى محافظتين)، تبدأ من نهر الأولي (أي أن صيدا تدخل ضمنها)، ونلاحظ هنا أن الضفة اليمنى لنهر الأولي، التي تضم في شمالي الإقليم دير المخلص وجون، قد ألحقت بهذا الإقليم، على الرغم من أنها تقع إدارياً، خارج المحافظة.

أن التركيب الطولي للبنان يتعرض لتعديلات، تعطي لبنان الجنوبي تركيبه الخاص، تتابع الرقعة الساحلية بعد صيدا، حتى تبلغ الحدود الفلسطينية، لتشكل المنطقة الساحلية للبنان الجنوبي، وتنتهي سلسلة جبل لبنان، بحرف في جبل الريحان، وتشكل جبل جزين، وتشكل المنحدرات الواقعة بين الساحل والجبل، وراء عاصمة الإقليم، المنطقة الصغيرة لما وراء صيدا، والباقي، أي ما يقارب نصف الإقليم، تشغله نجود من الأراضي البيضاء والحمراء، منجرفة دائماً وخالية من الماء، وتلك هي خاصة الجنوب: «أنه جبل عامل»2.

7 – مميزات جبل عامل:

يمتاز جبل عامل عن غيره من المناطق اللبنانية الأخرى بمميزات عديدة، واضحة، جديرة بالإهتمام، تبرز جلية لمن يقوم بمهمة دراسة واقع تلك المنطقة، اجتماعياً وسياسياً وثقافياً وفكرياً واقتصادياً وعلمائياً وغير ذلك. ومن أهم هذه المميزات:

أ- طيب الهواء العاملي ونقاؤه وعذوبة المياه، وطيب التربة وخصبها، وكثرة العيون في بعض النواحي، واعتدال الفصول الأربعة، وعدم حدة البرودة، في فصل الشتاء، والحرارة المتوسطة في فصل الصيف.

ب- امتياز السكان بالذكاء، واعتدال القرائح، ولعل ذلك ناشئ عن تأثير المناخ والطبيعة والتضاريس في الطباع والقرائح.

ج- اشتهار العامليين بالشعر والأدب، حتى يقال أن «تحت كل حجر من جبل عامل هناك شاعر»، ويلاحظ أن أبناء العائلات الدينية، معظمهم شعراء، (فضل الله، نور الدين، سبيتي، شمس الدين، الأمين، شرارة، الحرّ، بدر الدين...) وغيرهم.

يشهد السيد محسن الأمين في خططه على ذكاء العامليين، فيقول: أنه «ما حلّ العامليون

1 - علي الزين: «المرجع السابق» ص 163-162
2 - بعثة إيرفد: «لبنان يواجه تنمية «دراسات وثائق معهد التدريب على الإنماء -1960 1961» بيروت سنة 1963

في قطر من الأقطار، إلا وتعلموا لغة أهله بأقرب وقت، وتكلموا بلهجتهم، بحيث لا يمتازون عنهم، ولا يظنهم السامع غرباء، بل يخالهم من أهل تلك البلاد»1.

د- حضارتهم العلمية والفكرية والإيمانية تطورت، وامتدت، فتجاوزت حدود جبل عامل الجغرافية، الصغيرة، الضيقة، إلى مساحات واسعة، وبلدان عديدة، فنقل العاملي إلى هناك علومه ومعارفه وفكره، وهضم علوم ومعارف الآخرين.

هـ- يمتاز جبل عامل بكثرة ما نبغ فيه، منذ أوائل الفتح الإسلامي، وبعده، بالأدب والشعر والفقه والعلوم الأخرى كافة، ويقول السيد محسن الأمين في هذا الصدد: «أنه يجتمع في قرية في جنازة سبعون مجتهداً، وقد كثرت مؤلفاتهم في كل فن، حتى أن أفران عكا بقيت تشتعل منها ستة أيام في حادثة الجزار المشؤومة، ولم ينجُ منها إلا ما سرقه أهل فلسطين من نفائسها، وما حمله الهاربون إلى بلاد غير بلادهم»2، وقد عاد أشخاص من منطقة جبل عامل، واشتروا بعض هذه الكتب من أهالي فلسطين.

و- يمتاز جبل عامل بعراقة العامليين في العروبة، ومحافظتهم على العادات والتقاليد، وركوب الخيل، واقتناء الخيول العربية.

ز- محافظتهم على بعض العادات العربية الأصيلة، مثل الطاعة للجد والوالد والأخ الأكبر، والإلتزام بالعبادات وشعائر الدين، واتصافهم بالتقوى والورع، ووجود فئة في كل مجتمع بلدة أو قرية من المتدينين المؤمنين، إلى جانب رجال الدين.

ح- نبوغ عدد من المخترعين، الذين قدّموا للبشرية اختراعات جليلة، وفي مقدمة هؤلاء حسن كامل الصباح الذي قدّم أكثر من ثلاثين اختراعاً، في أميركا، والذي كتبت عنه جريدة «لسان العدل» الصادرة في دوتريت – ميشيغين، لصاحبها، ورئيس تحريرها شكري نعمان، في العدد السادس، تاريخ 3 شباط سنة 1933 مقالاً جاء فيه: «للأستاذ الكبير كامل الصباح، المخترع النابغة همة عاليه ونشاط، لا يعرف الملل، وذكاء متوقد، يكاد يكون الوحيد في هذا العصر، فهو في كل شهر يأتي باختراع جديد، عجيب مدهش في فن الكهرباء، ويدخل تحسينات جديدة على الهندسة الكهربائية، مما جعل علماء هذا الفن يدهشون لاختراعاته، ويعجبون بنظرياته المبتكرة، وقد قررت السير على مبادئه معظم الشركات والمؤسسات الكهربائية في العالم...»3.

وهناك المخترع العالمي رمال رمّال، الذي حقق هو الآخر اختراعات مهمة، لكن ما أصاب حسن كامل الصبّاح، أصاب رمّال، فانتهى عمره بحادث وضعت عليه علامات استفهام عديدة.

ط- قدرة العامليين على تجاوز الأمية في مجتمعهم، فبعد أن كانت الأمية سنة 1930 – 82 بالمئة، تدنّت هذه النسبة، خلال الثمانين سنة الفائتة، وهي أقل من عشرة بالمئة حالياً.

1 - محسن الأمين: «المرجع السابق» ص 56
2 - نفس المرجع ص 56
3 - يوسف مروة: «كامل الصباح عبقري من بلادي» مطابع لبنان، بيروت سنة 1956 ص 270

ي- كثرة المزارات للأولياء والمشاهد في المنطقة، وعلى سبيل المثال: مشهد محيبيب (بن يامين)، مشهد منذر في كوكبا، مشهد العويذي في كفركلا، مشهد حزقيل قرب قرية دبين، مشهد بنات يعقوب في شقرا (قرب الجبانة)، ومشهد شيت في برعشيت، مشهد جَمال الحِسْن في حداثا، ومشهد الصياح في جويا، مشهد محمد نوف في البازورية، مشهد المعشوق قرب صور، ومشهد شمع في منطقة الشّعب، في شمع، وعدة مشاهد أخرى يبلغ عددها ثلاثة وعشرون»1، وهناك مشهد الخضر في يارون، ومحمد مالك في بنت جبيل. (أزيل من مكانه!!).

ك- لا يوجد بلدة أو قرية إلا وفيها مسجد أو أكثر، وتتميز المساجد القديمة في جبل عامل بحسن الإتقان، ودقة الهندسة والبناء، وبعض هذه المساجد كان لها مآذن، والبعض الآخر لم يكن لها.

أهم هذه المساجد: مسجد بنت جبيل الكبير، مسجد بليدا، مسجد شقراء، مسجدعيناثا، مسجد مارون الرأس، مسجد عيثرون2.

الحسينيات حديثة العهد نسبياً في المنطقة، وقد أنشئت لإقامة عزاء أبي عبدالله الحسين، ومناسبات الفاتحة والأسبوع، قبل أن تعقد فيها لاحقاً، إضافة لما ذكرنا، الندوات والمحاضرات والمهرجانات وغيرها...

8 - جبل عامل في ظل الحكم الأموي:

لم يكن لجبل عامل، في ظل سيطرة الأمويين على الحكم، وضع سياسي مستقل، بل كان تابعاً - شأن جميع الأمصار - للدولة الإسلامية الواحدة، التي اعتمدت، في حكم البلاد، على التقسيمات السابقة، وبقيت بلاد عاملة الجنوبية تتبع جند الأردن، أما بلاد عاملة الشمالية، فكانت تتبع جند دمشق، هذا يعني أن منطقة بنت جبيل، وجوارها، كانت تتبع في تلك الفترة لجند الأردن، ولا نستغرب ذلك، إذا علمنا أن المسافة بين هذه المنطقة الجنوبية من جهة، والمثلث، الواقع بين الأراضي السورية والفلسطينية والأردنية، هي مسافة قصيرة نسبياً، حيث كان الأهالي يقطعونها إفرادياً، أو على شكل قوافل، على البغال، وكان هؤلاء يسمّون ب «المكارية» الذين كانوا يسلكون طريق بانياس - درعا.

هذا، وبقي القسم الجنوبي من جبل عامل، يخضع للحكم الأموي، «وتحديداً لحكم الوالي حسان بن بحدل الكلبي، الذي ضم فلسطين، بعد وفاة يزيد، إلى جند الأردن، وفي ذلك الوقت، وتحديداً سنة 59 ه- سنة 678م، تمكن البيزنطيون من الإستيلاء على صور وصيدا، وتسلقوا جبال لبنان بمساعدة الجراجمة، إلى ان عقد معاوية الهدنة مع الإمبراطور البيزنطي واستعادهما»3.

1 - محسن الأمين: «نفس المرجع» ص 146-148.
2 - نفس المرجع ص 144 - 145 وص 149
3 - الطبري: «المرجع السابق» ج5 ص 84

9 - في ظل الدولة العباسية:

بعد إنهيار الدولة الأموية، دخل جبل عامل تحت السيطرة العباسية، بعد القضاء على بني أمية سنة 132 هـ، وكان يحكم بلاد الشام، عبدالله بن علي، العدو اللدود للأمويين، فدخل دمشق سنة 132 م، وأمر بنبش قبور بني أمية ولاحق أولادهم واتباعهم، واستمر في حكمه لدمشق إلى سنة 136 هـ"1.

ولا ريب أن العامليين كانوا في تلك الفترة على اتصال، منذ عصر صدر الإسلام، بالأئمة الأبرار من آل بيت رسول الله محمد (ص)، وعنهم أخذوا أصول مذهبهم وفروعه، وأنواع الفرائض والعبادات، ولا شك أنهم، وبعد القضاء على الحكم الأموي، (وما حدث ليزيد بن سفيان، من مقتله مشهورة، وهو يلاحق الغزالة في منطقة الجولان، فشردت به فرسه، وقطعته إرباً إرباً) فإنهم تنفسوا الصعداء لفترة من الفترات.

تحدث البغدادي، المتوفي سنة 320 ه، عن جندي دمشق والأردن، وذكر بعض المدن والقرى في جبل عامل، فقال: «وأما الثغور البحرية فهي: سواحل جند دمشق، عرقه وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدلون، وسواحل حند الأردن وهي: صور وعكا، وبصور صناعة المراكب2.

إن هذا الأمر يؤدي إلى القول، إلى أن «صيدا والصرفند والنبطية والخيام» وجزين ومشغرة كانت تتبع لجند دمشق يومها، أما صور والناقورة وبنت جبيل وقدس، وتبنين وهونين، فكانت تابعة لجند الأردن»3.

وفي ظل الحكم العباسي، ولظروف سياسية وعسكرية، خضع جبل عامل لسلطة الأخشيديين، وتحديداً، لسلطة القائد طغج الأخشيدي، والي الأردن ودمشق سنة 321 هـ، واستمر على ولايته حتى سنة 327 هـ، أي لفترة بسيطة، لتعود بعدها السيطرة العباسية، حيث انتقل الحكم إلى القائد العباسي ابن رائق سنة 328 هـ، الذي كانت صور وصيدا وجميع الجبل العاملي تحت سلطته، نتيجة اتفاق مع طغج بعد معركة معه، حيث حصل هذا الأخير بدوره على مدينة الرملة، وما تحتها بفلسطين»4.

وبقي جبل عامل تحت سيطرة العباسيين، حيث حكمه بدر بن عمار الطرابلسي سنة 329 هـ.

---

1 - نقلا عن علي داود جابر: «المرجع السابق» ص 39 (يقول المؤلف أن معلومته مأخوذة من كتاب ابن الأثير: «المرجع السابق» ج3 ص 215 وص 225، وبعد مراجعة المصدر الأساسي لأبن الأثير لم تظهر هذه المعلومة).

2 - البغدادي: «نبذ من كتاب الخراج»، ص 47

3 - علي داود جابر: «المرجع السابق» ص 119

4 - ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء أهل الشام والجزيرة»ج2، دمشق سنة 1962 ص 77 و ص 127

10 – الحكم الفاطمي لجبل عامل:

خضع جبل عامل للسيطرة الفاطمية منذ سنة 373 هـ، وقد مرّ البشاري المقدسي (وهو محمد بن أحمد بن البناء، أبو عبدالله، سنّي المذهب، اعتنق المذهب الشيعي، وتوفي سنة 380 هـ) في جبل عامل، ما بين سنتي 375 هـ وسنة 380 هـ، «وصرّح بأن مذهب أهل هذا الإقليم، وما يجاوزه هو التشيع»، ثم يتحدث عن أحوال جبل عامل، فيقول: «جبل عامل ذو قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون وعيون، المطر يسقي زروعهم، يطلّ على البحر، ويتصل بجبل لبنان...» ويتابع قائلاً: «خير العسل من رعى السعتر بايليا وجبل عاملة»1.

شهدت بلاد الشام اضطرابات ضد الفاطميين سنة 387 هـ، واستغل الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني هذه الأوضاع، ودعم رجلاً من صور يعرف ب «علاّقه»، ضد الحكم الفاطمي، لكن الفاطميين قضوا على ثورة علاقة، ومن ورائه الملك البيزنطي2.

وقد مرّ في طرف جبل عامل ناصر خسرو، الرحالة الفارسي المعروف، وذلك سنة 437 هـ، فقال عن صور، أن «أكثر أهاليها شيعة إمامية، ومن بلداته تبنين وهونين وقدس والشقيف، ومن أكبر مدنه صيدا ثم صور، ومن أكبر قراه النبطية وبنت جبيل والخيام، وكثرت فيه العلماء، من القرن السادس إلى اليوم3.

11 – إلى الحكم السلجوقي:

منذ سنة 464 هـ، بدأت بلاد العاملية تسقط في قبضة السلاجقة، الذين ينتسبون إلى سلجوق، من صغار أمراء الأتراك، وكانت السمة الأساسية لحكمهم التعصب المذهبي، وخاصة ضد الشيعة الإماميّة، ويقول ابن الجوزي، أن «الجبال العاملية المحيطة بصور، سقطت في قبضة السلاجقة، فأخربوا سوادها»4.

ويبدو أن طبرية كانت في تلك الفترة شيعية، بل كانت قاعدة اساسية لهؤلاء، ويقول ابن الجوزي، أنه في سنة 464 هـ، «توجه السلاجقة إلى طبرية، بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي التركماني، فنزلوها، واقتسموا البلاد وأخذوا غلالها، وقام سنة 467 هـ، بنهب طبرية وقتل أهلها»5، وتهجّر الشيعة منها باتجاه جبل عامل، ويبدو أن هذا التهجير كان نهائياً، إذ لم يعرف بعد تلك الفترة، أن عاد الشيعة إلى طبرية.

1 راجع: المقدسي البشاري: «احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة 1987 ص 141 وص 158
2 نقلاً عن علي جابر: «المرجع السابق» ص 159
3 محسن الأمين: « المرجع السابق» ص 37
4 راجع: ابن الجوزي: «مرآة الزمان» ص 158
5 وليم الصوري: «الحروب الصليبية» ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1991م ص 268
راجع أيضاً: سعيد عاشور:» الحركة الصليبية» ج1 ط1، مكتبة الإنجلو، مصر سنة 1963 م.

هذا واستمر حكم السلاجقة على جبل عامل حتى سنة 482 هـ، حيث عادت المنطقة للسيطرة الفاطمية، وبقيت كذلك، حتى الإجتياح الصليبي للمنطقة سنة 493 هـ، سنة 1099 م.

12 - جبل عامل تحت السيطرة الصليبية:

في الحادي عشر من ربيع الثاني سنة 493هـ، مرّ الصليبيون في البرّ المواجه لمدينة صور، وكانوا جيشاً جراراً، من الفرسان الذين يضعون على صدورهم علامة الصليب، ولم يتعرضوا لمدينة صور بأي سوء، وكان هدفهم القدس.

بعد استتباب الأمن لهم في القدس، قرروا التوجه شمالاً، و «عهد الملك»،

«جود فري بوايون»، إلى الأمير «تنكر النورماني» بفتح إقليم الجليل، حيث احتل مدينة طبرية، الواقعة على أطراف جبل عامل الجنوبية الشرقية، وسقطت نابلس، وفرّ من سلم من أيدي السلاجقة والصليبيين، من أهالي هذه المناطق، إلى جبل عامل، وسكنوا بين أهله، الذين تجمعهم وحدة النسب والمذهب والإنتماء.

من المؤكد، أن منطقة جبل عامل وجوارها، أصبحت في تلك الفترة بيد الصليبيين، ويبدو أن المقاومة كانت غير متوفرة في هذه المنطقة، لصدّ تقدّم الصليبيين، وإذا كانت المناطق الساحلية، وخاصة صيدا، لم تستطع الصمود أكثر من فترة قصيرة، أمام الزحف الصليبي، فكيف بهذه المنطقة الريفية، التي لم يكن لديها أية مقومات للصمود، ولأنها منطقة غير محمية، ويجب الدفاع عنها مستقبلاً، في 498هـ - وفي 499هـ، قام الصليبيون ببناء قلعة تبنين على جبل تورون»[1].

وبالطبع، عندما قام الصليبيون بالدخول إلى تبنين، فإن طريقهم كانت حتماً عبر بنت جبيل وجوارها، التي أصبحت منطقة خلفية بالنسبة لتبنين، التي أضحت معقلاً مهماً من المعاقل الصليبية، إضافة إلى معاقل أخرى في دوبيه (بين حولا وشقراء)، ودير كيفا، حيث بنوا هناك قلعة وسموها قلعة مارون.

نشير أن حصن تبنين شيّد فوق الجبال المشرفة على مثلث الطريق، الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق، والذي شيّد الحصن هو أمير الجليل «هيو سانت أومير»، وذلك سنة 500 هـ 501-هـ"[2]، وكان لهذا الحصن أهمية مميزة لدى الصليبيين، ودور مهم وفاعل ومؤثر في شمال الجليل، ولما يمثله هذا الحصن من خطر مباشر على أطراف صور ودمشق، وطرق القوافل والإمدادات، فقد كانت الضرورة تقتضي من المسلمين مهاجمته وإزالة خطره، وبالفعل، فقد استرجع المسلمون حصن تبنين سنة 510هـ - 511 هـ، ومات بلدوين

1 - راجع «عاشوراء»، «نفس المرجع»

2 - حول هذا الحصن راجع: عمر عبد السلام تدمري:»لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بين الصليبين سنة 969 هـ - سنة 124 م، دار الإيمان، طرابلس سنة 1944 ص 277، وعفيف مرهج، «اعرف لبنان» الجزء الثاني وتدمري «نفس المرجع» ص 285

الأول، ملك القدس سنة 512هـ، من غير أن يحقق حلمه في الإستيلاء على صور، التي صمدت حوالي ربع قرن، مليء بالبطولات، قبل أن تسقط بيد الصليبيين، وبسقوط هذا الثغر، تمّ لهم احتلال مدن لبنان الساحلية، ويحمّل المؤرخ ابن تغري بردي، الفاطميين مسؤولية التفريط بثغر صور، على زمان الآمر بأحكام الله العلوي، ونائبه عنها عز الملك الأعزّ القاضي، الذي كان الشيعة شديدي الإمتعاض من تصرفاته، ومن مساعديه الذين كانوا السبب في إفساد أمرها»1.

لقد مرّ الرحّالة ابن جبير في جبل عامل سنة 579هـ، في رحلته التي قام بها بين سنتي 578هـ، وسنة 581 هـ، وذكر المدن والمناطق اللبنانية التي مرّ بها، وهي التالية: حصن هونين، ويقول عنه أنه «حصن للإفرنج،بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ»2.

كما تحدث عن ميس الجبل، ويسميها بـ «الميسيه»، ثم إلى وادي الإسطبل، ويقول: «اجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بوادٍ ملتف الشجر، وأكثر شجره الرند، بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوى، تلتقي حافتاه، ويتعلق بالسماء أعلاه، يعرف بالإسطبل، لو ولجته العساكر لغابت فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودتان، فعجبنا من أمر ذلك المكان»3.

ثم يتحدث عن حصن تبنين، وهو «موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة، تعرف بالملكة، وهي أم الخنزير، صاحب عكّة دمّرها الله، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن»4.

ثم توجه ابن جبير من تبنين إلى اسكندرونه (قرب الناقورة)، ثم إلى صور، وهنا يتضح ان ابن جبير لم يمر وقتها في بنت جبيل وجوارها، لأن طريقه كانت من هونين، ثم بالوادي المعروف حالياً ب «وادي السلوقي»، بين حولا وشقرا ومجدل سلم، ثم إلى تبنين، ومن هناك إلى الساحل، عند صور وغيرها.

نشير ان القلقشندي، عندما تحدث عن تبنين، قال انها «ولاية تبنين وهونين»5.

بينما ذكرت عند القاضي العثماني باسم «بلاد تبنين»6.

في تلك الفترة كانت بنت جبيل والبلدات المجاورة لها، تتبع ولاية تبنين وهونين، التي تحدث عنها القلقشندي، وغيره، مثل المقريزي، ونقل عنهم محسن الأمين، وعفيف مرهج وغيرهما.

---

1 - راجع: تدمري: «نفس المرجع» ص 286
ووليم الصوري: «الحروب الصليبية» المرجع السابق، م3 ص 46

2 - الكناني الأندلسي الشاطبي، أبو الحسن محمد بن أحمد: «رحلة ابن جبير» دون سنة طبع، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت سنة 1984 ص 273

3 - نفس المرجع ص 274

4 نفس المرجع

5 القلقشندي: «صبح الأعشى» ج4 ص 156، وابن جبير: «المرجع السابق» ص 274

6 راجع: طه ثلجي الطروانه: «مملكة صفد في عهد المماليك ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت سنة 1982م ص 95

أما البلدات الأخرى التي كانت تابعة لهذه الولاية في المنطقة فمنها: برعشت، (برعشيت)، حاريص، حانين، حداثا، رامية، شقرا (شقراء)، صفد البطيخ، الطيرة (طيرة حداثا، أو الطيري) تمييزاً لها عن (الطيرة في فلسطين)، عيثرون، عيناثا، كونين (وكانت من أشهر القرى في هذه الولاية)، مارون الرأس، يارون النصارى»[1].

13 -عاملة تحت سيطرة البشاريين:

حسام بشارة ينتمي إلى قبيلة عاملة، التي اصبحت بعد الفتح الإسلامي بفترة قصيرة على مذهب أهل البيت، كما صرّح به غالبية من زار هذا الجبل، أو تحدث عنه.

أولاد بشارة وأحفاده حكموا المنطقة «طيلة ثلاثة قرون، وكانت علاقاتهم مميزة بعلماء الشيعة في جبل عامل»[2].

وهناك أحاديث متعددة، حول العلاقات الوطيدة التي كانت تربط حسام بشارة مع ابني صلاح الدين الأيوبي، الملك الأفضل علي، وأخيه المحسن، هذه العلاقة التي قامت على إعجابهما بقوة، وشجاعة وحنكة حسام، واستماتته وقومه في الدفاع عن بلاد المسلمين، إذ سرعان ما اعلنا تشيعهما لآل البيت، وخالفا أباهما وأرحامهما في عقيدتهما»[3].

وإذا كان أعداء حسام قد تجاهلوا سيرته والتحدث عنه، مع أنه كان المقدّم في جهاده ومواقفه على كل قادة صلاح الدين، فإن ذلك كان لدواعي التعصب المذهبي لدى هؤلاء.

هذا ولم يتحدث الكثير من المؤرخين عن تشيع أولاد بشارة إلا الذهبي، المتوفي سنة 852 هـ، ويحتمل بولياك، ان «يكون أحفاد بشارة وبنو صبح أو صبيح من الشيعة»[4].

هذا ونتيجة للظلم والضرائب والسخرة، وتدنيس المحرمات التي مارسها الصليبيون بحق العامليين، فإن عدداً مهماً، لا يستهان من شباب ورجال الجبل العاملي فروا منه، وانتظموا تحت لواء حسام العاملي.

أول ذكر لحسام كان في 8 جمادي الآخرة سنة 582 هـ قبل معركة حطين بسنة، وهو اشترك بالمعركة التي حصلت سنة 583 هـ، ولأنه أبلى بلاء حسناً فإن «صلاح الدين ولاّه على عكه»[5]، وأثناء هذه الولاية، اتخذ من بلدة زبقين مركزاً لإمارته»[6].

---

1 نفس المرجع: ص -97 100 حول البلدات التي كانت تتبع تبنين راجع: المقريزي: «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوكًج1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1936 ص 549 550- ومحسن الأمين: «المرجع السابق» ص 204، وعفيف مرهج:»المرجع السابق» ج3 ص 103 و 244

2 محسن الأمين: «أعيان الشيعة» ج2 ص 189، وحول حسام بشارة راجع: محسن الأمين: «المرجع السابق» الخطط ص 132، ومحمد تقي الفقيه: «المرجع السابق» ومحمد جابر آل صفا: «المرجع السابق».

3 راجع: علي جابر: «المرجع السابق» ص 334

4 بولياك: «الإقطاعيةفي مصر وسوريا وفلسطين ولبنان» ترجمة عاطف طرم، ط1، دار المكشوف، بيروت سنة 1948 هـ ص -45 46

5 ابن تغري: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ج6، دار صادر، بيرون سنة 1968 ص 109

6 محمد جابر آل صفا: «المرجع السابق» ص 28

وفي فترة لاحقة تمت توليته من قبل صلاح الدين على قلعة بانياس، واتخذها مقراً له ولأولاده، وجعل من قلعة تبنين مركزاً لعملياته العسكرية»1.

وعندما حاول الصليبيون استعادة تبنين سنة 594 هـ، كانت القلعة بيد حسام بشارة، وقد استطاع ردّ الأعداء عنها، وقد توفي سنة 598 هـ، ويقال أنه توفي في بانياس»2.

الملاحظ، خلال حكم صلاح الدين، بروز انتقامه ممن كانوا يسمّونهم بـ «الرافضة» أي الشيعة، والملاحظة أيضاً، أن وجود ابني صلاح الدين، وعلاقتهما الوطيدة بحسام بشارة، جعلت وطأة الإنتقام من الشيعة في جبل عامل أخف، خاصة وأن الملك الأفضل علي كان شيعي المذهب، وهذا الأخير استلم السلطة بعد وفاة والده، وكان هذا الأخير قد «أعدّ ولده ليكون خليفته من بعده، فكان حسن السيرة، متأدباً، متديناً، حليماً، بيد أنه خالف أباه، وأرحامه في عقيدته ومذهبه...»3.

14 –عاملة بين المماليك والصليبيين:

في عهد المماليك، قام الظاهر بيبرس بمهاجمة البلاد العاملية، وتمّ ذلك

سنة 657هـ 658 هـ، وكانت المهاجمة الأولى لقلعتي الشقيف، القديمة، والمستحدثة، ثم هاجم صور في نفس العام، بعد أن كان قد مرّ إلى صفد، وأخذ من صور شيئاً كثيراً، وفي سنة 662 هـ، شرع بالبناء في شقيف تيرون، بعد أن كان قد خرّبها سنة 658 هـ.

وبعد أن ثبّت المماليك حكمهم في مصر، عملوا على إخضاع بلاد الشام الداخلية، بالإضافة إلى المناطق الساحلية، فأغاروا على الفرنج في صور، وتوجهوا إلى صيدا، ثم إلى جبال عاملة»4.

وتفيد المعلومات، ان حصني تبنين وهونين ظلا يخضعان للحكم الصليبي، منذ سنة 638 هـ إلى 664 هـ، حيث تسلّمها السلطان الظاهر بيبرس، فدمّر قلاعهما، ولم يبق لها أثر»5.

هذا الأمر يؤدي بنا إلى القول أن المنطقة الجنوبية، كلها، قد وقعت تحت سيطرة المماليك، بقيادة الظاهر بيبرس.

سنة 672 هـ، عقدت هدنة بين السلطان المملوكي، الملك قلاوون، والفرنج، في عكا وصيدا، وتمّ تقاسم النفوذ في البلاد العاملية بينهم، فكانت المملكة الصفدية، وما ينسب إليها، وتبنين وهونين وما معهما من البلاد، وما هو منسوب إليه، يكون جميعه، بحدوده

1 ابن شداد: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» تحقيق جمال الدين الشيال، ط1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سنة 1964 ص 143
2 الذهبي:»تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام» تحقيق عمر تدمري، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت سنة 1993 ص 341
3 راجع علي جابر: «المرجع السابق» ص 350
4 أحمد حطيط: «تاريخ لبنان الوسيط» ط1، دار البحار، بيروت سنة 1986 هـ، ص 57
5 ابن شداد: «المرجع السابق»

وبلاده لمولانا السلطان، ولولده، والنصف لمملكة عكا، ومشغرة وأعمالها وشقيف تيرون، وأعماله والمغاير جميعها، زلايا وغيرها، وبانياس وأعمالها»[1].

سنة 682 هـ، عقدت هدنه بين السلطان المملوكي المنصور، وبين حكام مملكة عكا وصيدا، فكانت منطقة جبل عامل تحت سلطته، وهي: تبنين وهونين، وما معها من البلاد والاعمال، والشقيف، المعروف بشقيف أرنون، وما معه من البلاد والأعمال، وما هو منسوب إليه، وكانت صيدا بأيدي الصليبيين»[2].

سنة 684 هـ، حصلت هدنه، بين السلطان قلاوون، مع مرغريت، أميرة صور، وردت فيها أسماء ثمان وسبعين ضيعة ومزرعة، ووردت أسماء أخرى في صور وتبنين، من أسماء القرى التابعة لإمارة تبنين هناك: Maron (مارون)، Belide (بليدة)، Mess (ميس)، Quabrikuesm (قبريخا)، Cades (قدس)، Haris (حاريص).

وأورد إسم قريتين مجهولتين هما: Eux – Led، و Moga Ras [3].

ظل المماليك يحترمون بنود اتفاقية الهدنة مع صور، حتى سنة 690 هـ، (سنة 1291م)، حيث جهّز الأشرف خليل جماعة من الجند، وطلب أهل صور الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم... وسقطت صور بيد المماليك»[4].

وهكذا أصبح جبل عامل كلّه تحت سيطرة المماليك، حيث دمّروا المدن، وحوّلوها إلى خراب، ومن المعروف ان سلاطين المماليك، ومن قبلهم سلاطين الأيوبيين، كانوا قد اتبعوا سياسة جديدة مع الصليبيين، تقوم على تدمير المدن والقلاع الساحلية، التي يستولون عليها، ولا يتمكنون من البقاء فيها، حتى لا يفكر الصليبيون بمعاودة التحصن بها.

هكذا دخل جبل عامل تحت السيطرة المملوكية، «وكانت بلاد عاملة موزعة بين نيابتي صفد ودمشق، وكانت ولايات تبنين وصور والشقيف، تتبع نيابة صفد وولاية صيدا، بما فيها قلعة الشقيف تيرون، وجبع وجزين كانت تتبع نيابة دمشق»[5].

هكذا نرى أيضاً أن معظم بلدات المنطقة، كانت تابعة في تلك الفترة لنيابة صفد، مع تبنين المركز، وعندما افتتح الملك الأشرف جبال عاملة، أوقف صديقين ومعركة، من ساحل صور على تربة والده، وأوقف على تربته الأشرفية طيرزبنه (الشهابية لاحقاً)[6].

---

1 راجع: علي جابر «المرجع السابق» ص 367
ملاحظة: طه الطراونة لا يذكر في مرجعه السابق شيئاً عن الهدنة التي تمّ التحدث عنها ولا عن التقسيم المذكور.

2 محي الدين ابن عبد الطاهر: «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور بين 876- 986 هـ «تحقيق مراد كامل، ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر سنة 1961 ص 37

3 رضا السيد حسن: «الصليبيون وآثارهم في جبل عامل» دون ذكر الطبعة، دار مصباح الفكر، بيروت سنة 1987 ص 110

4 راجع: «علي جابر: «المرجع السابق» ص 368 وما بعد.

5 علي درويش: «جبل عامل بين 1516 – 1697“، ط1، دار الهادي، بيروت سنة 1993 ص 27.

6 راجع: علي جابر: «المرجع السابق»ص 389

بعـد وفـاة أمـير الامـراء، حسـام الديـن بشـارة العامـلي سـنة 598 هـ، لم يذكـر لنـا التاريـخ أن أحـداً مـن أبنائـه أو أحفـاده المباشريـن، قـد حكـم جبـل عامـل، حتـى سـنة 783 هـ، لتظهـر مـن جديـد معلومـات، تتحـدث عـن عـودة أحفـاده إلى حكـم بـلاده، واحتفظـت هـذه البـلاد باسـمها الجديـد «بـلاد بشـارة»، إلى جانـب تسـميتها جبـل عامـل»1، وأكثـر سـكانه مـن الشـيعة، كـما يذكـر بوليـاك.

ويبـدو أن الأسرة البشـارية مـرّت في ظـروف صعبـة، جعلتهـا تفقـد بريقهـا وأهميتهـا، ونفوذهـا وسـيطرتها في المنطقـة، وهـذا مـا حـدا بالبعـض للقـول، أنـه «لم نظفـر بـأي خـبر عـن هـذه العائلة، حتـى مطلـع القـرن التاسـع للهجرة/ الخامـس عـشر الميـلادي، ولكنهـا تظهـر مـع اطلالـة هـذا القـرن كزعامـة متنفـذة ذات دور بـارز في التاريـخ المحـلي للمنطقـة.

بعـد ذلـك يتوقـف الحديـث لـدى المصـادر عـن أخبـار هـذه العائلـة، وهـذا لا يعنـي أنهـا انتهـت، بـل بقيـت أسرة متنفـذة في جبـل عامـل، حتـى وقـت متأخـر مـن العهـد المملوكـي، لكـن أثرهـا ودورهـا تراجـع بعـض الـشيء، لذلـك خفّـت أخبارهـا، لتعـود وتـبرز مـن جديـد سـنة 909 هـ.

بعـد فـترة وجيـزة، بـرزت عـلى السـاحة العامليـة أسر أخـرى، غـير الأسرة البشـارية، مثـل آل سـودون، آل عـلي الصغـير، آل صعـب، آل شـكر، آل مشـطاح، وآل خاتـون، التـي بـرزت في المنطقـة مـا بـين سـنتي 906 هـ، و 922 هـ، ويقـال أن الأصـل مـن مزرعـة إميّـة، قـرب بلدة رشـاف حاليـاً، وهـي اليـوم خـراب، وفيهـا تلقبـوا بـآل خاتـون، وهـم مـن آل جمـال الديـن ابـن خاتـون، وسـكنوا عيناثـا ثـم جويـا، وخـرج منهـم مـن عيناثـا جماعـة كثـيرة مـن أكابـر العلـماء»2.

أمـا آل سـودون، فهـم أسرة حكمـت قسـماً مـن جبـل عامـل، في عهـد دولـة المماليـك، وتسـلّم هـؤلاء الحكـم في بدايـة عهـد الدولـة العثمانيـة، وكانـت بنـت جبيـل، إضافـة إلى كونهـا عاصمـة لآل عـلي الصغـير، مركـزاً رئيسـياً لآل سـودون وآل مشـطاح، «وكان آل سـودون سـنة 882هـ، عـلى خـلاف مـع والي نابلـس، الـذي جهّـز جيشـاً، قصـد جبـل عامـل لمهاجمتـه، ولمـا وصـل إلى بنـت جبيـل، وكانـت قاعـدة حكومتهـم، طـوّق منازلهـم بخيولـه، وقتـل رجالهـم، وهـزم جندهـم، وشـتّت أنصارهـم مـن آل شـامي وآل مشـطاح، وتـمّ لـه اسـتلام البـلاد»3.

أمـا آل عـلي الصغـير، فقـد بـرز منهـم في القـرن العـاشر الهجـري، الشـيخ حسـين بـن عـلي الصغـير، الـذي وقـع بينـه وبـين الأمـير فخـر الديـن المعنـي خـلاف، فشـدّد هـذا الأخـير الخنـاق عـلى الشـيخ حسـين...»4، وسـتبرز أهميـة هـذه الأسرة في وقـت لاحـق.

أمـا آل شـكر، فهـم عائلـة قديمـة في جبـل عامـل، نشـأت في بلـدة عيناثـا، وآل شـكر أسرة

1 بولياك: «المرجع السابق» ص 45 – 46
2 محسن الأمين: «أعيان الشيعة»، ج2 ص 584 ومحمد جابر آل صفا: «المرجع السابق» ص 270
3 آل صفا: «نفس المرجع» ص 40
4 نفس المرجع: ص 39

عاملية «حكمت بلاد بشارة الجنوبية فترة من الزمن، ونازعت آل علي الصغير الحكم، واستمرت في الحكم المتقطع للبلاد الجنوبية إلى سنة 1059 هـ، عندما قضى عليهم الوائليون في قانا وعيناثا، وانتهى عهد الأسرة على يد آل علي الصغير سنة 1059 هـ.

أما آل مشطاح، فقد برزوا من بين العائلات الحاكمة في جبل عامل، مع السيطرة العثمانية على هذه المنطقة[1]، لكن لم يبق ذكر لهذه العائلة، ولآل سودون خلال الفترات اللاحقة.

وتسلم آل علي الصغير حكم البلاد كلها، وتفردوا به، فحكموا بلاد بشارة الجنوبية (تبنين، هونين، قانا ومعركة) وجعلوا تبنين قاعدة لهم»[2].

15 -جبل عامل تحت السيطرة العثمانية:

بعد الفتح العثماني، لم يتغير شيء على المستوى الإداري، فقد اتّبع العثمانيون في حكم جبل عامل، نفس السياسة المتبعة في إدارة الولايات الأخرى، وقتها كانت البلاد تتبع ولاية صيدا.

على المستوى السياسي، كان يتولى مسؤولية المقاطعات مجموعة من المشايخ، يقيم كل منهم في إحدى هذه المقاطعات، مع اتباعه المزارعين، الذين يتعهدون أرض المقاطعة لحسابه»[3].

لقد برزت على المسرح السياسي في تلك الأثناء، أسرتان جديدتان، أخذتا تتنافسان فيما بينهما، وكلاهما تنافس الأسرة الرئيسية في جبل عامل، وهي اسرة آل علي الصغير، أو الأسرة الوائلية، والعائلتان هما: بنو صعب، حكام مقاطعة الشقيف، من بلاد بشارة الشمالية، وقاعدتهم النبطية، وآل منكر، حكام إقليمي الشومر والتفاح، من بلاد بشارة الشمالية أيضاً، وقاعدتهم جباع»[4].

بالمقابل سيطر آل علي الصغير على القسم الجنوبي من بلاد بشارة، وكانت قاعدتهم تبنين، وكان هناك «صراع بين البيوتات الإقطاعية، بهدف مدّ نفوذ الإلتزام و «المتسلمين» تحت سقف التوازن، الذي يقرّه الوالي العثماني القوي في المنطقة[5].

لكن لم يكن آل علي الصغير وحدهم على الساحة الجنوبية، بل كان هناك آل شكر في عيناثا، ولم تكن العلاقات وديّة بين الأسرتين»[6].

---

1 نفس المرجع ص 39

2 ياسين سويد: «جبل عامل في عهد الإمارتين المعنية والشهابية 1516 – 1842» دراسة في صفحات من تاريخ جبل عامل» منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي» دار الفارابي، بيروت، 1979، ص 57

3 دار الوثائق القومية في باريس، مجموعة (A.E.B.I)، مجلد 1019، تقرير صادر عن صيدا بتاريخ 2/9/1712.

4 ياسين سويد: «المرجع السابق» ص57

5 وجيه كوثراني: «صورة العثماني في الخطاب التاريخي المعاصر» السفير 2/3/1984

6 راجع: محسن الأمين: «أعيان الشيعة» م 15 ص 103، وعلي الزين: للبحث عن تاريخنا...» ط1، بيروت 1973

يبدو أن المشاريخ كانوا قادرين على حكم مقاطعاتهم، وعلى التصدي لكل من يحاول التعدي عليهم، وتثبت التقارير أنه «كان بمقدور كل شيخ عند الحاجة، أن يجنّد من مئتين وخمسين إلى ثمانماية رجل، إذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية، قوامها تقريباً ستة آلاف مقاتل، معظمهم من الفرسان، اشتهروا في كل سوريا بشجاعتهم النادرة، التي شهد لهم بها معاصروهم من الفرنسيين1، فقد أشار إلى ذلك الدبلوماسي الفرنسي باراديس (-par adis) بقوله: "شاهدناهم يقاتلون بترتيب ونظام، ممّا جعلهم ينتصرون على أعدائهم، الذين يفوقونهم عدداً".

لقد نمت قوة مشايخ جبل عامل، في تلك الفترة، وبشكل ملفت للنظر، أن على المستوى العسكري، أو على المستوى السياسي، وهذا الأمر ربما نتج عن شيء مهم، وهو أن منطقة جبل عامل، شهدت في تلك الفترة هدوءاً واضحاً، انعكس على الوضع الإقتصادي، الذي ازدهر، نتيجة حركة ونشاط التجّار الأوروبيين، وخصوصاً الفرنسيين منهم، في بلاد الشام الجنوبية، وتشجيع التجارة معهم، فاهتم السكان بزراعة القطن والتبغ، بعد أن وجدوا أسواقاً لها لدى الفرنسيين، بالإضافة إلى مصر»2، وكان مزارعو الداخل العاملي يرسلون تبغهم المطلوب جداً، إلى مصر، كما وانهم كانوا ينقلون إنتاجهم إلى مدن الساحل (خاصة صور وصيدا وبيروت)، حيث يأخذها التجار اللبنانيون، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى التجار الأجانب.

إن هذا النمو الإقتصادي، الذي انعكس على نسبة نمو المداخيل، كان له أثر على المستوى السياسي، خاصة بعد أن استلم قيادة العامليين من هو أهل للقيادة، وللدفاع عن الجبل.

وقبل الدخول في هذا الموضوع، لا بدّ من الإشارة، إلى أنه في ظل السيطرة العثمانية، واثناء حكم الأمير فخر الدين في الجبل، مرّت العلاقات بين هذا الأخير والشيعة العامليين بفترات متباينة، فمن مساعدة وتحالف، إلى تصادم، فإلى تحالف من جديد، وكان هذا شأن العلاقة بين الطرفين، وأدت العلاقة هذه بالأمير فخر الدين، لمقابلة الشيعة بالعسف والقوة، خاصة آل أبو شامة، حيث أرسل فخر الدين جيشاً، هدم بيوت أولاد شكر في عيناثا، والحاج علي أبو شامة في بنت جبيل، وفرحات بن داغر في أنصار، والحاج ناصر الدين ابن منكر من الزرارية، وولده في قرية حومين الفوقا، وضبط جميع غلاّتهم»3.

نشير أن العلاقات تأزمت بين آل شكر وآل علي الصغير، الذين قضوا على الشكريين، وساعدهم في ذلك آل أبو شامة»4.

1 راجع فولني: «3 أعوام في مصر وبرّ الشام «مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، نقلها إلى العربية ادوار البستاني، ج1، منشورات دار المكشوف، بيروت 1949 ص 463

2 نقلا» عن: F.p / 6430: paradis memoires sur la Syrie M.S. a (B.N.P)N°: 20 21

3 محمد تقي آل فقيه «المرجع السابق» ص 46

4 محسن الأمين: «اعيان الشيعة» م 15 ص 103

16 -المقاومة العاملية بقيادة ناصيف النصّار وفارس النصّار:

بانتهاء النصف الأول من القرن الثامن عشر، ظهر على مسرح الساحة الشامية ثلاث قوى، تهدّد فعلاً أمن وسلطات والي الشام، هذه القوى هي:

ناصيف النصّار زعيم جبل عامل، علي بك الكبير في مصر، وظاهر العمر في فلسطين.

لقد تزعّم شيخ المشايخ ناصيف النصّار المنطقة، «واتخذ من قلعة تبنين مقراً له»1، واستطاع مع باقي المشايخ، ترميم القلاع العاملية وتزويدها بالأسلحة والذخائر2، وامتنع عن دفع الضرائب لوالي صيدا، وأشارت الوثائق الفرنسية إلى ذلك بقولها: الشيخ ناصيف يعتقل نائب قنصل الرملة، ويقتاده إلى تبنين، أبلغ القنصل الفرنسي في صيدا، باشا الولاية بالحادثة، لكن الأخير أبدى له استياءه، من تصرف الشيخ المذكور، الذي يرفض أن يدفع له الميري المتوجبة للباب العالي»3.

وجاء في وثيقة أخرى، ما يلي: «أرسل الشيخ مائة وخمسين فارساً لمصادرة البضائع، وأمرهم بمصادمة قوات الباشا إذا حاولت منعهم»4. في تلك الفترة لم تكن العلاقات طيبة مع والي الشام، ويوسف الشهابي، وحتى أن المتوافقين على مواجهة الدولة العثمانية، حدثت بينهم مشاكل، ونشير هنا إلى محاولات عديدة، قام بها ظاهر العمر، لضم المتاولة في جبل عامل إلى جانبه، بالقوة والعنف، لكنه فشل في ذلك، واقتنع باستحالة الأمر، فسكت عنهم وحالفهم، وذلك سنة 1184هـ.

لكن أسوأ الظروف التي عاشتها المنطقة، كانت خلال فترة حكم أحمد باشا الجزار، الذي أسندت إليه ولاية صيدا سنة 1190هـ- 1218هـ، وقد تجنب بداية التصادم مع شيخ المشايخ ناصيف النصار.

سنة 1195هـ صدر فرمان عثماني يأمر أحمد باشا الجزار «بالسير إلى بلاد عاملة وتدميرها»5، استفاد الجزار من هذا الفرمان، ويمكن القول أن المنطقة العاملية، بقيت تتأثر بما جرّه عليها الجزار من ويلات ومشاكل، ومن أهم الأحداث التي كان لها تأثير على المنطقة، المعركة التي حصلت في يارون، بين الشيخ ناصيف النصّار، ومعه العامليون، ضد الجزار، هذه المعركة، غير المتكافئة، التي انتهت بمقتل شيخ مشايخ جبل عامل، الذي زلّت به قدم حصانه، وهو يقاتل، وذلك على البلاطة، التي لا زالت تحمل اسمه حتى اليوم، أي «بلاطة ناصيف»، الواقعة في محلة «تين الخربة»، في خراج بلدة يارون، من الناحية الجنوبية، وذلك في 23 أيلول سنة 1195 هـ، وذلك مع أربعمئة من مقاتليه، الذين قتلوا معه.

1 دار الوثائق القومية في باريس، مجموعة ((A.EBI، تقرير صادر عن قنصلية صيدا، مجلد رقم 1030 تاريخ 3/1/1755
2 Mariti.G.”voyege dans l’isle de chypre…” 2 volumes. V2 p: 96 1977.
3 دار الوثائق: «المرجع السابق» مجلد رقم 1030 تاريخ 4/11/1755
4 أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا، مجموعة (j) ، ملف رقم 795، وثيقة مؤرخه في 4/12/1754
5 دار الوثائق: «المرجع السابق» مجلد رقم 1039 تاريخ 2/10/1781

وبمقتل الشيخ ناصيف، خضع جبل عامل لحكم الجزار طيلة ربع قرن، ورغم القوة التي مارسها الجزارضد هذا الجبل، وأبنائه، فإنه بقي متمرداً، وكان «ردّ الجزار مزيداً من تخريب الديار، ونهبها، وسلب خيراتها، وقتل أبنائها، وتهجير من تبقى منهم، وهدمت القلاع، وهربت مشايخ البلاد إلى الشام والعراق، ونهب الجزار مكتبات جبل عامل، وأحرقها، وكان لأفران عكا من هذه الكتب العاملية، ما أشعلها بالوقود أسبوعاً كاملاً، بعد أن كانت الربوع زاهرة بالعلماء وأرباب الفضل والتأليف»1.

من الأمور المثيرة، والجديرة بالإهتمام، أن ما لاقاه جبل عامل من حملة الجزار، كان يمكن أن يجعل هذا الجبل يستكين ويهادن لفترة طويلة، لأنه لم يكن من السهل أبداً أن يستعيد جبل عامل عافيته، بعد التدمير القاسي الذي حصل، والتشريد الذي طال أهاليه ومشايخه، لكن هذا الشعب، طوال تاريخه لم يستكن، ولم يتوقف عن المواجهة والنضال، وان اضطر أحياناً للتراجع، فإن ذلك كان يحصل لفترات قصيرة، حتى إذا استطاع أن يلتقط أنفاسه، ويستعيد قواه، فإنه ينتفض من جديد، وهذا ما حصل مع الشيخ فارس الناصيف، الذي تابع أسلوب وخط والده، فجمع شمل العامليين، و«شكّل منهم فرقاً انتحارية، للإغارة على معسكرات الجزار»2، وهذه سابقة مهمة في التاريخ العاملي، كما أنه راح يتصل بمن بقي في جبل عامل، ويحاول التنسيق معهم، بهدف تنظيم صفوف الثورة ضد الجزار.

علم الجزار بتحركات العامليين، بقيادة الشيخ فارس، وحاول اقتياد بعضهم إلى عكا سنة 1196هـ، لكن كل اجراءاته لم تنجح في ثني العامليين عن اكمال مسيرتهم، و «تعاونوا سنة 1198هـ مع يوسف الشهابي ضد الجزار، وقد أمدّهم الأمير بالمؤن والعتاد والمقاتلين»3، وقد بلغت جرأة العامليين، إلى حدّ «قيام الشيخ عقيل، ابن الشيخ فارس النصّار، بالهجوم على قلعة تبنين، فأفنى العساكر الموجودة فيها، وأخذ الثروة التي كان خبأها والده في الحصن المذكور»4.

هذا وتابع الشيخ فارس ناصيف النصّار، ومن معه من الثوار، مقاومة الجزار، والجند العثماني.

لم يتنفس العامليون الصعداء، إلا بعد وفاة الجزار سنة 1219 هـ- (سنة 1804م)، وذلك في الاسبوع الأول من شهر آيار، وقد تسلم مقاليد الولاية معاونه إسماعيل باشا، رغماً عن إرادة السلطات العثمانية5، فتعاون العامليون مع زعماء الشوف لاستعادة السيادة على المقاطعات العاملية، وأنزلوا معاً هزيمة قاسية بضباط الباشا عند مرجعيون، لكن الوضع

1 حول مآسي الجزار وما فعله في جبل عامل، راجع: آل فقيه، «المرجع السابق» ص 166
2 إبراهيم العورة، «تاريخ ولاية سليمان باشا العادل»، نشرة قسطنطين الباشا، حريصا، صيدا، 1939 ص 34
3 أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين» الجامعة اللبنانية، 3 أجزاء، بيروت سنة 1933 ص 137
4 دار الوثائق القومية... المرجع السابق، تاريخ 4/6/1784
5 إبراهيم العورة: «المرجع السابق» ص 18-20

لم يستمر لمصلحة العامليين وزعماء الشوف، حيث استطاع إسماعيل باشا أن يعيد السيطرة على جبل عامل.

تمرّد العامليون من جديد، وحاولوا التملص من التبعية للسلطة في عكا، وخشي سليمان باشا أن يعود جبل عامل إلى وضعه السابق، أيام المشايخ الكبار، لذلك فإن مفاوضات جرت بينه وبين مشايخ جبل عامل، بواسطة الأمير بشير الشهابي، وتم الإتفاق على عودة العامليين إلى بلادهم، وان يترأس عليهم، بصفة شيخ مشايخ، فارس ناصيف النصّار... وان يبقى جانب من القوات العثمانية في المقاطعات العاملية، باستثناء إقليم الشومر... وان يلبي العامليون نداء سليمان باشا حين يستدعيهم للقتال...»1.

هكذا عاد الشيخ فارس ناصيف النصّار ليبرز من جديد، ويلعب دوراً على المسرح السياسي، بين عامي 1221 هـ، وسنة 1237هـ، وأصبح مقرّه في بلدة الزرارية، منذ سنة 1228 هـ.

احترم العامليون تعهداتهم، وانضموا بقيادة الشيخ فارس ناصيف إلى بقية العشائر في ولاية صيدا سنة 1225هـ، حين استدعاهم سليمان لقتال خصمه والي دمشق2، وكان لمساهمتهم تلك، أثر فعّال للهزيمة التي لحقت بالأخير3.

وفي عهد عبدالله باشا، الذي خلف سليمان باشا (الذي توفي سنة 1234 هـ)4، تحسنت العلاقات مع المتاولة، وشارك هؤلاء مع الوالي الجديد في بعض حملاته، لكن هذه العلاقة لم تستمر، فقد «أشارت الوثائق الفرنسية، الصادرة عن حلب، بتاريخ تشرين الأول سنة 1239هـ، استدعاء عبدالله باشا للشيخ إلى عكا وبأنه اعتقله، ولم يفرج عنه إلا مقابل مبلغ ضخم، وحين وصل الأخير إلى بلاده توفي، من تأثير السم، الذي دسه له الباشا»5.

بعد الشيخ فارس الناصيف، لم يعد للمتاولة زعامة قوية أو نافذة، ولم يكن لديهم موقف موحّد، يجمعهم، ولا قائد نافذ الكلمة، يأخذون بأمره، ويعتبر الشيخ علي الزين أن «هذه النهاية مجهولة»6.

وبنهاية الشيخ فارس، انتهت مرحلة مهمة من تاريخ جبل عامل، ليخضع هذا الجبل منذ سنة 1246هـ للحكم المصري، كباقي بلاد الشام.

---

1 علي الزين: «فصول من تاريخ الشيعة في لبنان»، دار الكلمة للنشر، بيروت سنة 1979 ص 115- 116
راجع ايضاً العرفان م 27 ص 511- 512
2 حيدر رضا الركيني: «جبل عامل في قرن» العرفان م 29 سنة 1940 ص 681
3 إبراهيم العورة: «المرجع السابق» ص 128
4 نفس المرجع: ص 460
5 أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، قنصلية فرنسا العامة في بيروت (B.E.I) محفظة رقم 8 تاريخ 6 ت1 سنة 1824
6 علي الزين: «المرجع السابق»، ص 135

17 – جبل عامل تحت الحكم المصري 1248 هـ، مقاومة متجددة:

خضع جبل عامل، كغيره من المقاطعات اللبنانية للحكم المصري، بعد الحملة التي قادها إبراهيم باشا، لاحتلال المنطقة سنة 1248 هـ- ويتضح من النصوص التاريخية المتوافرة، أن الشيخ حسين السلمان، الذي ظهر على المسرح السياسي سنة 1255هـ (وهو حفيد الشيخ عباس المحمد، وأول من سكن صور من آل علي الصغير)، كان على رأس الموالين للأمير بشير وحلفائهم من المصريين، وينقل الشيخ علي الزين، عن أحد وجهاء أل صعب أن «حسين السلمان كان يحمل صليباً في صدره، تزلفاً للأمير بشير وحاشيته»1.

اتخذ حسين السلمان من بنت جبيل مقراً لحكمه سنة 1264 هـ، وبنى فيها سرايا، وكان «الزعيم الوحيد من زعماء الشيعة، الذي سالم المصريين وانضم اليهم، وكان من انصارهم، وخدم الحملة المصرية، بالإتفاق مع الأمير بشير الثاني، وكانا صديقين»2.

مقابل هذا الموقف للشيخ حسين السلمان، رفع الشيخ حسين الشبيب ابن الشيخ فارس، ناصيف النصار، لواء الثورة ضد المصريين والشهابيين، وذلك منذ أوائل تشرين الثاني سنة 1255هـ، يعني في نفس فترة حكم حسين السلمان، ويتضح من ذلك ان اولاد وأحفاد الشيخ ناصيف النصّار، لم يحيدوا أبداً عن الخط الذي مشى عليه ناصيف، في معاداة العثمانيين ومن معهم، ومن يحاول احتلال هذا الجبل.

إن التاريخ يذكر خبر معارك، خاضها الشيخ حسين الشبيب في بلدتي يارون ومارون، ضد الشهابيين الموالين للمصريين، وكان مع الشيخ حسين «أكثر من ستمئة نفر مجهزين بالبنادق والخناجر والعصي، وهو الذي كان يتلقى المساعدات من الأمير خنجر الحرفوشي من نواحي بعلبك، ومن درويش بعلبكي أيضاً3.

وتذكر الأخبار «ان ثورة حسين الشبيب وأخيه محمد الشبيب دامت ثلاث سنين»4.

ثم برز على الساحة العاملية في تلك الفترة حمد البيك، وهو حفيد محمود النصّار، شقيق الشيخ ناصيف النصّار (يعني هذا الأخير هو عم والد حمد البيك)، وهو ابن محمد النصّار.

حمل لواء الثورة ضد المصريين، واستقطب حوله العامليين، «وكانت ثورة سنة 1256 هـ التي برز فيها حمد البيك، بفعل الظروف التي استغلها، وكانت ثورته بالتالي، ثورة شعبية، لا ثورة حاكم متسلط»5.

---

1 نفس المرجع: ص 150- 151

2 محمد جابر آل صفا: «المرجع السابق» ص 58، ومحمد جابر آل صفا: «العرفان» م 27 ص 290
راجع أيضاً حول حكم حسين السلمان: آل فقيه: «المرجع السابق» ص 198

3 علي الزين» «المرجع السابق» ص 154

4 محمد جابر آل صفا: «العرفان، المرجع السابق» ص 9

5 علي الزين: «المرجع السابق»، ص 158

هكـذا نلاحـظ، أن العامليـين كانـوا يرفضـون الـذل والخنـوع، لأي دخيـل عـلى المنطقـة، كـما أن زعماءهـم، كانـوا يعرفـون كيـف يتحالفـون، ومـع مـن، وأيضـاً، كانـوا قادريـن عـلى التكيـف مـع الظـروف، وعـلى الإسـتفادة مـن الصراعـات بـين القـوى الأساسـية في تلـك الفـترة، لتحقيـق أهـداف العامليـين دون التراجـع عـن القواعـد الأساسـية، وكدليـل عـلى ذلـك، فـإن هـدف حمـد بيـك في تخليـص المنطقـة مـن المصريـين، جعلـه يتعـاون مـع العثمانيـين، وقصـد لملاقـاة الجيـش المـصري بالقـرب مـن جـسر بنـات يعقـوب، ويقـول الشـيخ الفقيـه، أن حمـد «جمـع ثمانيـة آلاف مقاتـل، وقادهـا بنفسـه، وعـلى حسـابه، وكان معـه عـلي بـك الأسـعد، المحمـد، حفيـد أخيـه... وانضـم إلى الجيـوش العثمانيـة، وأظهـر ضروبـاُ مـن البسـالة والتدبـير، فاسـتدعاه عـزت باشـا، قائـد الجيـش التركـي العـام، وأثنـى عليـه، وعّينـه حاكـماً عامـاً عـلى جبـل عامـل، بلقـب شـيخ مشـايخ بـلاد بشـارة، وعهـد إليـه بمطـاردة الجيـش المـصري في جنـوب جبـل عامـل، فرجـع حمـد البيـك، وجعـل يطـارد المصريـين، ويحطّـم قواتهـم، فاشـتبك معهـم في عـدة معـارك في رميـش، ووادي الجـشّ وشـفا عمـرو، وكانـت واقعـة الجـشّ، أهـم تلـك الوقائـع، فإنـه أسرفيهـا مـن الجيـش المـصري أربعمائـة وعشريـن جنديـاً، وارسـلها مـع حفيـد أخيـه عـلي بـك إلى عـزت باشـا»[1].

تـوفي حمـد البيـك سـنة 1267 هـ – 1269 هـ ،وحـلّ مكانـة حفيـد أخيـه، عـلي بـك الأسـعد (لأن حمـد لم يـترك عقبـاً مـن ذكـر أو أنثـى).

حكم علي بك، يعتبر امتداداً لحكم حمد البيك، مع اختلاف في الظروف.

18 –حكم الدولة العثمانية من جديد:

بعـد خـروج الجيـش المـصري مـن المنطقـة، بمسـاعدة العامليـين، بشـكل رئيـسي، عـادت السـلطة العثمانيـة مجـدداً، ويجمـع المؤرخـون ان «عهـد عـلي بـك الأسـعد، كان عهـد اسـتقرار وهـدوء، وانـه لم يسـجّل في عهـده أيـة حـوادث داخليـة مهمـة، سـوى الطلـب إليـه في مـرات عـدة، واسـتدعائه مـن قبـل الدولـة، للمشـاركة في إخمـاد بعـض الثـورات»[2]، واسـتجاب للدولـة، والمهـم أن عـلي بـك الأسـعد كان حريصـاً عـلى الـولاء للدولـة العثمانيـة.

في تلـك الفـترة بـرز خـلاف بـين زعامتـي عـلي بـك الأسـعد حفيـد أخ حمـد البيـك، وتامـر بـك ابـن حسـين السـلمان[3]، وهـو أكـبر سـناً مـن عـلي بـك، واحتـدم الـصراع بينهـما، خاصـة وأن الذاكـرة، كانـت لا تـزال تذكـر وقـوف والـد تامـر بـك – حسـين السـلمان – مـع المصريـين، بعكـس إرادة معظـم العامليـين.

1 آل فقيه:»المرجع السابق»ص 186 – 187 عن شبيب باشا، ومحمد جابر آل صفا: ''المرجع السابق'' ص 151، (الشيخ علي الزين يشكك في هذا الأمر).
2 الفقيه: «نفس المرجع»ص 209 وسنة -218 219 ومحسن الأمين «أعيان الشيعة» م 42 ص 21
3 نفس المرجع ص -140 141

وأخيراً استطاع علي بك الإنفراد بالسلطة والزعامة، إنما في ظل خلافات داخلية، استمرت ضمن العائلة الواحدة، ولم يرضخ تامر بك لسلطة علي بك، وهذه الخلافات كانت سبباً في نهاية حكم علي بك الأسعد، ونهايته هو أيضاً، حيث «اعتقل بناء لوشاية تامر بك الحسين... ووصلت أخبار إلى والي صيدا، بأن علي بك يستعد للهجوم عليه، فأرسل بطلبه مع محمد بك الأسعد ابن عمه، إلى مركز الولاية»1.

الشيخ محمد مهدي مغنية، يشير في كتابه «جواهر الحكم» أن «السبب في اعتقال علي بك الأسعد وابن عمه محمد، هو جمعهما الأموال الأميرية من أهالي البلاد، وعدم تسديدها لخزينة الدولة، على مدى سنة أو سنتين أو أكثر»2.

المهم أن علي بك الأسعد وابن عمه محمد بك مكثا في السجن، في الشام، أشهراً، ثم حصل الوباء سنة 1282 هـ، وكانا أول من مات به3، وقيل انهما ماتا مسمومين في هذا العام سنة 1281هـ.

خلا الجوّ بعد ذلك لتامر بك الحسين، فذهب إلى مصر، وهناك أعيد تنصيبه على مقاطعتي جبل هونين ومرجعيون، وولّته السلطة العثمانية المشيخة العامة، مكان علي بك الصغير، لكنه لم ينتفع بهذا التعيين، إذ سرعان ما أقدمت الحكومة العثمانية إلى الغاء الحكم الإقطاعي بتاتاً»4.

وتوفي تامر بك سنة 1298هـ، في بلدة ميس الجبل من جبل عامل، ودفن هناك، ولايعرف سبب موته، أو سبب دفنه في ميس.

وبعد وفاة علي بك الأسعد، قام خلاف داخل العائلة، وتحديداً بين أولاده والأقارب، إلى ان فاز بالسلطة العاملية ابن عمه خليل على حساب شبيب باشا، ابن علي الصغير، ثم حدث صراع بين ابن خليل بك الاسعد، كامل من جهة وشبيب باشا من جهة أخرى، فكانت الغلبة للأول، واستمر يتبوأ هذه الزعامة حتى وفاته.

وبقي العثمانيون في جبل عامل حتى الحرب العالمية الأولى، حيث هُزموا على يد الحلفاء، الذين احتلوا لبنان وغيره من البلدان العربية، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة جبل عامل، وذلك تحت الإنتداب الفرنسي منذ سنة 1920م

---

1 نفس المرجع: ص 142
2 نفس المرجع: ص 142 نقلاً عن محمد مهدي مغنية في كتابه: «جواهر الحكم».
3 نفس ارجع: ص 227 وعلي الزين: «المرجع السابق» ص 201
4 نفس المرجع: ص 154

جغرافيا جبل عامل :



العميد السابق لكلية الآداب والعلوم الانسانية : د. علي فاعور

مخطط البحث :

أولاً– مقدمة في الجغرافية التاريخية

1. التسمية: نسب قبيلة عامله
2. جبال الجليل (أو الخليل) أو جبل عامل
3. قبيلة عاملة وبلاد عاملة
4. المساحة والحدود الجغرافية

ثانيا– خصائص الجغرافية الطبيعية

1. المعالم الطبيعية العامة
2. الموارد المائية وإنتشار التصحّر

ثالثاً– السكان في جنوب لبنان

1. تطور عدد السكان المقيمين بين الماضي والحاضر
2. ما هو مجمل عدد السكان المسجلين؟
3. التحركات السكانية: بين الهجرة والمقاومة

خلاصة: جغرافية الصمود والإرتباط بين الإنسان والأرض

أولاً- مقدمة في الجغرافية التاريخية

1 - التسمية: نسب قبيلة عامله

أجمع النسّابون العرب على أن نسب عامله يعود إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان حيث يقول ابن عبد ربه، في العقد الفريد: «عامله هم بنو الحارث بن عدي بن الحارث بن مرّة بن أدد، بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

كما حدد ذلك ابن الأثير بقوله «الصحيح، أن عامله ولد الحارث بن عدي بن الحارث... بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»

وجاء في كتاب الأنساب للسمعاني، رُوي عن فروة ابن مسيك أنه قال: «أتيت النبي(ص) فقلت: أخبرني عن سبأ، أرجل هو أم إمرأة، فقال: «هو رجل من العرب، وَلَد عشرة، تيامن (أي سكن اليمن،... منهم عاملة وغسان ولخم وجزام، وهم الذين أرسل عليهم سيل العرم ، ودفن السيل بيوتهم»، وكان حصول سيل العَرِم بين عامي 115 و145 قبل الميلاد.

وقال الهمذاني أيضاً، وفي نفس الموضوع: «فأولد عدي بن الحارث عفيراً ومالكاً، وهو لخم، وعمراً وهو جزام، والحارث وهو عامله، وأمهم رقاش بنت همدان»[1].

أما الأصفهاني[2] فيورد أن عامله تنسب إلى أم هي عامله بنت وديعه من قضاعه، حيث يقول: «الحارث، وهو عاملة بن عدي بن الحارث، به مرة بن أدد، وأم معاوية بن الحارث عاملة بنت وديعة من قضاعة، وبها سموا عاملة»

بدوره يقول ابن خلدون[3] في حديثه عن القبيلة: «وأما عاملة، واسمه الحارث بن عدي، وهم أخوة لخم وجذام، وهم بطنٌ متّسع، ومواطنهم ببرية الشام»

وعلى العموم إن أسماء: جبل عامل أو جبل الجليل أو جبل الخليل، وكذلك بلاد بشارة[4] أو بلاد المتاولة[5]، تلك هي الأسماء المتعددة التي عرف بها قديماً جبل عامل من لبنان الجنوبي، ويكاد المؤرخون يجمعون على سبب تسميته نسبة إلى قبيلة عاملة بن سبأ، وفيما يلي أيضاً بعض أقوال المؤرخين وعلماء البلدان:

بالنسبة للعلامة السيد محسن الأمين: «من أسمائه جبل عامل او جبل عاملة او جبال بني عاملة، فجبل عاملة او بني عاملة نسبة إلى بني عاملة الذين سكنوه وتسميته بجبال عاملة بلفظ الجمع باعتبار انها جبال كثيرة، وبجبل عاملة بلفظ المفرد باعتبار إرادة الجنس، أما تسميته بجبل عامل بحذف الهاء فهو تخفيف لكثرة الاستعمال».

1- راجع: «مقدمة تاريخية عن جبل عامل، موقع وزارة الداخلية والبلديات،إتحاد بلديات قضاء بنت جبيل، في 11 تيسان 2012.

2- أبو الفرج الأصفهاني: يعتبر كتاب الأغاني، من أغنى الموسوعات الأدبية التي ألفت في القرن الرابع الهجري، وقد طبع الكتاب طبعات عديدة فقد تم نشره لأول مرة في أوروبا سنة 1868. ثم نشر فيما بعد مجدداً في 24 مجلداً ضخماً، بمعدل جزئين في كل مجلد، بالاضافة إلى فهارس فنية مفصلة في المجلد 25 عن دار احياء التراث العربي البيروتية. ونشر كذلك عن دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت.

3- تاريخ ابن خلدون، إبن خلدون، الجزء الثاني، الصفحة ٢٥٦.

4- لقد سُميت بعض أجزاء من جبل عامل ببلاد بشارة، نسبة إلى أحد الزعماء الذي تعددت الآراء حول نسبه.

5- كما عرف هذا الجبل ببلاد المتاولة، كون معظم سكانه من المتاولة حسب التسمية المعروفة في لبنان أي الشيعة.

كما ورد في كتابات القلقشندي: "جبل عاملة وجبال عاملة وجبل الخليل وجبل الجليل وبلاد بشارة والبشارتين، تسميات لمسمى واحد وهو جبل عامل، نزله بنو عاملة بن سبأ من عرب اليمن عند تفرقهم بسيل العرم فعرف بهم وهو جزء من لبنان[1]".

كذلك بالنسبة للمؤرخ محمد جابر آل صفا أن هذه البلاد «دعيت بجبل الخليل، وجبل الجليل»، كما " سمي بعامل نسبة إلى اهله الذي يعود نسبهم إلى قبيلة بني عاملة اليمنية، وهم من أقدم من سكن لبنان، وقد قدموا عند تهدم سد مأرب في اليمن، وهم عرب أقحاح»[2]. كما ورد في تاريخ الكامل لابن الأثير[3] قوله «جبل الخليل الذي يعرف بجبل عاملة»، وتاريخ أبي الفداء، واليعقوبي، وكتاب معجم البلدان وهوموسوعة شهيرة للأديب والشاعر المشهور ب ياقوت الحموي، ولقد كتبها بين 1220 و 1224 ميلادية.. وغيرهم.

2 – جبال الجليل (أو الخليل) أو جبل عامل

كان لمنطقة جبل عامل أهمية مميزة عبر التاريخ، القديم والحديث، وحتى المعاصر، ويبرز ذلك من خلال كتابات العديد من الباحثين والمؤرخين والرّحالة، كما أن الإمبراطوريات القديمة قد تنافست وتصارعت على احتلالها، لأهمية مواقعها الإستراتيجية، ووفرة مواردها الطبيعية. وهي كانت تدعى منذ القديم بجبال الجليل (أو جبال الخليل)، كما ذكر محمد جابر آل صفا، أن هذه البلاد «دعيت بجبل الخليل، وجبل الجليل، فيما سبق.. أما ابن خلدون، فيذكر ان القبيلة «لم تثبت مكانها، بل امتدت شمالاً، وحلّت في جبل الجليل، الذي دمغته باسمها...» يضاف إلى هذا أيضاً، أن أرض الجليل كانت مكاناً لدعوة السيد المسيح(ع)، بحيث ان البشارة الأولى بالإنجيل، كانت في عرس قانا الجليل، وعندما بدأ يستعمل معجزاته، في إحياء الموتى، وشفاء المرضى، نجد أهالي صور وصيدا، كانوا يأتون إليه لشفاء مرضاهم.

3 – قبيلة عاملة وبلاد عاملة

قبل أن تنتقل قبيلة عاملة، إلى المنطقة التي أصبحت تعرف فيما بعد باسمها، فإن المؤرخين استفاضوا في الحديث عنها، على أنها إحدى القبائل العربية التي هاجرت من اليمن بعد حصول سيل العرم، الذي يذكره المؤرخون في كتاباتهم، كابن الأثير، والطبري والنوري والمسعودي الذي يقول: «من أهل عاملة من العماليق...» ، حيث اقترن ذكر قبيلة عاملة، بانتسابها للعماليق الذين كانوا يحكمون مصر، كما ورد لدى الطبري قوله: «ان إسماعيل حمل رسالة إلهية إلى قبيلة العماليق، وقبائل اليمن، وهذا يعني أن هذه القبيلة كانت موجودة ومعروفة، قبل زمن إسماعيل وإبراهيم»..

1- القلقشندي - صبح الأعشى - الجزء الرابع - صفحة صفحة 86.
2- محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل – بيروت، دار متن اللغة -ص25.
3- كتاب الكامل في التاريخ، لمؤلفه الإمام العلامة أبي الحسن علي بن أبي الكرم..المعروف بابن الأثير الجزري 630 هـ.

كـما ورد في مدونـات تغـلات بـلاصر (سـنة 728 ق.م)، تعـداداً للقبائـل التـي كانـت في الباديـة، ومنهـا قبيلـة «عاملاتـو»، التـي ينسـب إليهـا سـكان جنـوب لبنـان، حيـث تدعـى البـلاد «جبـال عاملـة»[1].

4 – المساحة والحدود الجغرافية

تبلـغ مسـاحة "جبـال عاملـة» بحسـب تقديـرات بعـض المؤرخـين نحـو ثلاثـة آلاف كيلومـتراً مربعـاً، ويرتفـع هـذا الرقـم إلى ثلاثـة آلاف ومئتـي كيلومـتراً مربعـاً[2]، عـلى اعتبـار ان طـول الجبـل يبلـغ ثمانـين كيلومـترا وعرضـه أربعـون[3].

أمـا حـدود جبـل عامـل فهـي تختلـف بحسـب المصـادر وكتابـات المؤرخـين، حيـث بقيـت غـير معروفـة لفـترة طويلـة، كونهـا غـير واضحـة المعـالم، تتسـع أحيانـاً في مجالهـا الجغـرافي، ثـم تعـود وتتراجـع عـبر فـترات زمنيـة متفاوتـة، ومثـلاً يذكـر الحمـداني (ق 10 م) : «إن جبـل عاملـه يطـل عـلى بحـيرة طبريـة باتجـاه البحـرً، ثـم يضيـف في مـكان آخـر انـه يـشرف عـلى عـكا ويطـل عـلى الأردن، لكـن هـذا الاختـلاف بـين المؤرخـين يبقـى في حـدوده الدنيـا، ويمكـن تعيـين حـدود هـذه المنطقـة كـما وصفهـا السـيد محسـن الأمـين في كتابـه «خطـط جبـل عامـل» وفـق الآتي:

"..يحـده مـن جهـة الغـرب شـاطئ البحـر المتوسـط أو بحـر الشـام، ومـن الجنـوب فلسـطين، ومـن الـشرق الأردن (ألحولـه) ووادي التيـم وبـلاد البقـاع، وقسـم مـن جبـل لبنـان الـذي هـو وراء جبـل الريحـان ووراء إقليـم جزيـن . ومـن الشـمال نهـر الأولي أو مـا يقـارب منـه وهـو المسـمى قديـماً (نهـر الفراديـس)، وهـذا التحديـد بمجملـه ممـا لا شـبهة ولا شـك فيـه ولكـن يقـع التأمـل في الحـد الفاصـل بينـه وبـين فلسـطين فقـد قيـل انـه هـو النهـر المسـمى نهـر القـرن وحينئـذ يدخـل في جبـل عامـل مـا ليـس منـه[4]».

ولابـد مـن الإشـارة بـأن كتابـات المؤلفـين العامليين تمـت بعـد إنشـاء دولـة لبنـان الكبـير عـام 1920، ثـم تحويـل جبـل عامـل إلى محافظـة لبنـان الجنـوبي[5] (قبـل إنشـاء محافظـة النبطيـة) عـلى إن هـذه المحافظـة وهـي دائـرة إداريـة لا تطابـق الحـدود السـابقة، تضـم اليـوم 7 أقضيـة تبلغ مسـاحتها الإجماليـة 2019 كـم2، ذلـك أن السـلطات الفرنسـية قـد تخلـت في بدايـة الانتـداب عن بعـض القـرى العامليـه للبريطانيـين فأصبحـت مـن ذلـك الحـين جـزءاً مـن فلسـطين المحتلـة.

1- موقع وزارة الداخلية والبلديات، مصدر سابق.-

2- توجد آراء متفاوتة حول تحديد مساحة هذه المنطقة وحدودها، بينما يعتبرها المؤرخ محمد جابر آل صفا «ثلاثة آلاف كلم2»، ويوافقه كل من المؤرخين علي الزين وحسن الأمين، على اعتبار ان متوسط طول هذا الجبل من الجنوب إلى الشمال يبلغ نحواً من ثمانين كيلو متراً، ومتوسط عرضه نحواً من أربعين، هذا إذا جُعل منتهاه من الشرق الجنوبي ضفة بحيرة الحولة، ومن الشمال الشرقي منتهى جبل الضهر، إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط.

3- الياس صادر: ثورة جبل عامل1920 ص18

4 السيد محسن الامين - خطط جبل عامل. دار المحجة البيضاء للنشر والتوزيع، 2002. 340 صفحة.

5 حاولت بعثة إيرفد عام 1960، رسم حدود منطقة جبل عامل، فاعتبرت ان»منطقة لبنان الجنوبي (قبل أن تقسم إلى محافظتين)، تبدأ من نهر الأولي (أي أن صيدا تدخل ضمنها)، ونلاحظ هنا ان الضفة اليمنى لنهر الأولي، التي تضم في شمالي الإقليم دير المخلص وجون، قد ألحقت بهذا الإقليم، على الرغم من أنها تقع إدارياً، خارج المحافظة. ان التركيب الطولي للبنان يتعرض لتعديلات، تعطي لبنان الجنوبي تركيبه الخاص، تتابع الرقعة الساحلية بعد صيدا،حتى تبلغ حدود الأراضي الفلسطينية المحتلة، لتشكل المنطقة الساحلية للبنان الجنوبي، وتنتهي سلسلة جبل لبنان، بجرف في جبل الريحان، وتشكل جبل جزين، وتشكل المنحدرات الواقعة بين الساحل والجبل، وراء عاصمة الإقليم، المنطقة الصغيرة لما وراء صيدا، والباقي،أي ما يقارب نصف الإقليم، تشغله نجود من الأراضي البيضاء والحمراء، منجرفة دائماً وخالية من الماء، وتلك هي خاصة الجنوب: "انه جبل عامل"، راجع: "مقدمة تاريخية عن جبل عامل"، مصدر سابق.

31 – قرية تقع ضمن حدود فلسطين المحتلة

يعتبر بعض المؤرخين أن امتداد جبل عامل كان في الماضي، يشرف على طبريا ويجاور الأردن، بحيث أصبحت جبال الجليل تُنمى إليه، وهذه الجبال تمثل الأماكن الأولى التي سكنتها قبيلة عاملة، لهذا يتبيّن بحسب المصادر التاريخية، والخرائط الجغرافية الحديثة وتوزيعات القرى والمزارع والخرائب في المنطقة، لا سيّما بالرجوع إلى كتابي «معجم قرى جبل عامل[1]»، ثم «خطط جبل عامل[2]»، أن عدة قرى كانت تتبع إدارياً لجبل عامل، تقع الآن ضمن حدود فلسطين المحتلة، ويصل عددها إلى 31 قرية عاملية[3]، تتوزع في ثلاث مجموعات، وفق الآتي:

قرى تتبع لقضاء عكا، أهمها: إقرط (جنوب غرب تربيخا)، خربة أدمث، البصة (تقع جنوب رأس الناقورة)، الجوردية، حانوتا، دير القاسي (تبعد 5 كم عن الحدود اللبنانية)، الزيب (تقع على البحر، وتتبعها عدة خرائب وهي آخر حدود جبل عامل)، سروح أو صروح (تقع على تل صخري، مطل على تربيخا والنبي روبين)، خربة سمح (تقع شرقي البصة، وهي ملاصقة لمزرعة حوارة). عرب العرامشة (تقع في الجليل وبالقرب من لبنان)، عربّين (تقع شمالي وادي كركرة، وتبعد عن الحدود اللبنانية الحالية 2 كيلومتر)، فارة (تقع نهاية جبل عامل من ناحية بلاد صفد)، ثم فسّوطة والنواقير (تقع على جبل مطلّ على صور)..

قرى تتبع لقضاء صفد، أهمها: تل الحسينية (تقع قبالة يارون وقرب صلحا)، الخالصة (تسمى كريات شمونة اليوم، وهي تقع جنوب هونين ومقابل حولا)، ديشوم (تقع بالقرب من المالكية)، راميم (تلة يمرّ بها الخط الأزرق الحالي، وتقع فوق المنارة وتشرف على حولا)، سعسع (تبعد 4 كيلومتر عن حدود لبنان الحالية، وتقع جنوبي كفر برعم)، المنارة (تقع شرقي بلدتي حولا وميس الجبل، أقيم على جزء منها مستعمرة المنارة)، خربة المشيرفة، منصورة (كانت جزءا من لبنان حتى العام 1923م، وهي مزرعة معظم اهلها نصارى. وتقابل في موقعها بلدة رميش اللبنانية)، المطلة (تقع شمالي أبل القمح، وهي اليوم مستعمرة)، جاحولا (تقع إلى جنوب غرب بلدة بليدا اللبنانية)، كفربرعم (وهي تبعد 5 كيلومتر عن الحدود اللبنانية الحالية، وأهلها كانوا من الموارنة بغالبيتهم).

القرى السبع: وهي تضم قرى هونين،آبل القمح، قدَس، صلحا، تربيخا، النبي يوشع، وقرية المالكية (مالكية الجبل).

---

1 سليمان ظاهر، معجم قرى جبل عامل المجلد 1، مؤسسة الإمام الصادق للبحوث في تراث علماء جبل عامل، 2006

2 السيد محسن الأمين، خظظ جبل عامل..ولد وعاش في بلدة شقرا- قضاء بنت جبيل(1952-1865م).

3 راجع: حسن ترحيني، 31 قرية عاملية ألحقت بفلسطين، موقع «جنوبية» في 24 آذار 2017.

ثانيا- خصائص الجغرافية الطبيعية

1 - المعالم الطبيعية العامة

تتبع منطقة جنوب لبنان الخطوط الكبرى في البنية الجيولوجية العامة للبنان، حيث توجد الإنكسارات الرئيسية في سلسلتي جبال لبنان الساحلية والداخلية، وتتبع هذه الإنكسارات مجرى المياه في وادي الأردن ثم البحر الميت، حتى منخفض الحولة، ومنها شمالاً داخل الأراضي اللبنانية، حيث يبرز الإنكسار الرئيسي في سلسلة جبال لبنان الغربية[1].

وعلى العموم «تمتد أراضي جنوب لبنان من مجرى نهر الأولي ورافده الأعلى الباروك شمالاً، وحتى حدود لبنان الدولية المحاذية لفلسطين المحتلة في الجنوب، والممتدة من راس الناقورة على البحر حتى قمم جبل حرمون في الشمال الشرقي، وسوريا في الشرق، وهي تضم في الشمال القسم الجنوبي من مرتفعات جبل نيحا، حيث يمر الحد الإداري في قمة جبلية يصل إرتفاعها إلى 1700م، ثم مرتفعات جزين، وهي تقع بمجملها فوق إرتفاع 500م، كما أنها محددة من الشمال والشرق بالحدود الإدارية لمحافظة لبنان الجنوبي، وفي الجنوب بالوادي الذي يفصلها عن هضاب النبطية، كما تضم في الشرق السفوح الغربية والجنوبية الغربية لمرتفعات جبل حرمون، حيث تمتد منطقة مرجعيون- حاصبيا، أما المنطقة الجنوبية فهي تضم أجزاء واسعة من هضاب جبل عامل التي تتكوّن من الأراضي البيضاء والحمراء المعرّضة للتآكل والقليلة المياه، والتي يصل إرتفاعها إلى نحو 940م تقريباً عند بلدة مارون الراس جنوب بنت جبيل»[2].

هذا بالإضافة إلى مناطق واسعة من السهول الساحلية المستوية السطح، والسهول الفيضية (دون 200م إرتفاع)، الممتدة عند الأحواض الدنيا للأنهار، والتي تتراوح مساحتها بين 50 كم2 مربعاً عند نهر القاسمية، و15 كم2 عند الأولي، و11 كم2 عند نهر سينيق، و10 كم2 عند نهر الزهراني. كذلك توجد بعض السهول الضيّقة الممتدة بين الهضاب وفي الأودية الواسعة، وأهمها سهل الخيام – مرجعيون الذي يقع على مستوى 500م، ويمتد على مساحة تزيد على 10كم2، ثم سهل سردة المشهور بتربته البركانية الخصبة، وسهل الوزاني الذي يجري فيه نهر الوزاني.

ويمكن أن نميّز في جنوب لبنان بين عدة مناطق طوبوغرافية، لكل منها مميزاتها وخصائصها الطبيعية والبشرية.. وهذه المناطق هي: السهول الساحلية والداخلية، ومنطقة الهضاب، ثم منطقة الجبال العالية..وهي تمثل من حيث مساحتها حوالي خمس مساحة لبنان (2019 كم2)، ويبلغ عدد سكانها نحو خمس عدد سكان لبنان، يعيش حوالي نصف هذا العدد في مناطق الجنوب، ويشمل الباقي النازحين داخل لبنان، والمهاجرين في الخارج.

1 راجع لمزيد من التفاصيل، د. علي فاعور: جنوب لبنان الطبيعة والإنسان، الطبعة الأولى عام 1985.ص 27.
2 راجع لمزيد من التفاصيل، د. علي فاعور: جنوب لبنان الطبيعة والإنسان، الطبعة الأولى عام 1985.ص 57.

2 – الموارد المائية وإنتشار التصحّر

يمكـن أن نميـز في جنـوب لبنـان بـين ثـلاث مناطـق حسـب إمتـداد الأنهـار وتوزعهـا، وهـي منطقـة صيـدا حيـث توجـد ثلاثـة أنهـار (الأولي وسـينيق والزهـراني)، ثـم المنطقـة الممتـدة بـين الزهـراني والحـدود الجنوبيـة (ويجـري فيهـا نهـر الليطـاني ونهـر العزيـة)، وأخـيرا منطقـة الحاصباني التـي تتميـز بوجـود نهـر الحاصبـاني وروافـده.

وتمثـل المنطقـة التـي يجـري فيهـا نهـر الليطـاني أكثـر مـن ثلثـي التصريـف المائـي في جنـوب لبنـان، ونحـو ربـع التصريـف المائـي في لبنـان، أمـا الأراضي الواقعـة جنـوب الليطـاني فهـي تفتقـر للميـاه خلافـاً لمـا هـي الحـال في منطقـة صيـدا والمنطقتـين الشـمالية والوسـطى في لبنان، وهـذا يعود لطبيعـة التكويـن الجيولوجـي حيـث تتكـون الطبقـات الجيولوجيـة الجوفيـة في منطقـة الجنـوب مـن تكوينـات كلسـية وكلسـية دلغانيـة متشـققة، تخترقهـا ميـاه الأمطـار بسـهولة، بالإضافـة إلى إنخفـاض كميـة الأمطـار الهاطلـة، ونـدرة الثلـوج (لقلـة الإرتفاعـات التـي تبلـغ حـوالي 800م في بعـض الأماكـن الواقعـة جنـوب بنـت جبيـل) فـوق الأراضي حيـث تبلـغ مسـاحة المناطـق الواقعـة دون 500م حـوالي 450 كـم2 (مـا يمثـل نصـف الأراضي الممتـدة جنـوب الليطـاني)، ويتضـح أكثـر إفتقـار هـذه المنطقـة للميـاه، مـن خـلال تعـداد الينابيـع الصغـيرة التـي يقـل عددهـا كلـما إتجهنـا نحـو الجنـوب في السـاحل والداخـل[1].

أمـا منطقـة حـوض الحاصبـاني في الداخـل، فهـي تمتـد عنـد سـفوح جبـل حرمـون، وتوجـد فيهـا عـدة ينابيـع غزيـرة تقـع عـلى إمتـداد الصـدوع، وأهمهـا نبـع الحاصبـاني جنـوب حاصبيـا، ونبـع الـوزاني عـلى نهـر الحاصبـاني، ونبـع القرشـة جنـوب قريـة المـاري، ونبـع الجـوز ونبـع المغـارة جنـوب شرق حاصبيـا، كـما توجـد عـدة ينابيـع في سـهل المـرج الـذي يمتـد بـين الخيـام مـن الـشرق، ومرجعيـون والقليعـة مـن الغـرب، وأهمهـا نبـع الحـمام ونبـع الـدردارة ثـم البـاردة والرقيقـة، بالإضافـة لعـدة ينابيـع مؤقتـة يسـتخدمها السـكان خـلال أوقـات الجفـاف. وبرغـم تراجـع كميـات الميـاه وجفـاف الينابيـع فـإن معظـم أراضي الجنـوب تشـكو الجفـاف لعـدم القـدرة عـلى إسـتثمار المـوارد المائيـة، حيـث نجـد أن 92 في المائـة مـن حجـم التصريـف المائـي في منطقـة الحاصبـاني مثـلاً، تنسـاب إلى داخـل أراضي فلسـطين المحتلـة، بينـما منطقـة الحاصبـاني بحاجـة ماسـة للميـاه.

وتشـكل الميـاه عامـل إرتبـاط رئيـسي بـين السـكان والأرض، فهـي تعـزز قـدرة الإنسـان عـلى التعامـل مـع الأرض وإسـتثمار مواردهـا، لقـد أهملـت الأرض الجنوبيـة طيلـة سـنوات، ولم تنـل حقهـا مـن العنايـة نظـراً لموقعهـا الجغـرافي ومجاورتهـا لفلسـطين المحتلـة، حيـث لإسرائيـل أطماعهـا التوسـعية في السـيطرة عـلى الأرض والميـاه، وهكـذا تحولـت مسـاحات واسـعة مـن أراضي الجنـوب (خصوصـا الهضـاب الداخليـة في جبـل عامـل)، إلى أراض شـبه صحراويـة

---

1 راجع كتاب جنوب لبنان ..مصدر سابق.ص 137-139.

تغطيها النباتات الشوكية بعد إنجراف التربة، نظراً لقلة المياه والأمطار الهاطلة، وعدم إكتمال مشروعات الري، وقلة إستخدام المياه التي تذهب هدراً إلى البحر.

ونتيجة هذا الواقع تتدهور الزراعة التي تمثل المورد الرئيسي للجنوبيين، وتتراجع أمام زحف الجفاف الواسع، فلا تصمد سوى الزراعات المعيشية الفقيرة(زراعة الحبوب والخضار)، المتمسكة في بطون الأودية وعلى السفوح، والباقية كمورد وحيد لسكان الهضاب، بإستثناء زراعة التبغ التي تتعرض لأزمة تصريف الإنتاج بإستمرار، ولا يستفيد منها سوى بعض الملاكين الكبار، بينما بالمقابل تتكدس الديون على كاهل الفلاح، بالرغم من العمل المتواصل الذي يشارك فيه الأولاد الصغار. إن الجنوب الذي كان مصدراً للحبوب والخضار والحمضيات والموز والزيت وعسل النحل، قد تحوّل منذ عدة سنوات إلى تصدير القوى البشرية واليد العاملة الزاحفة من الأرياف الجنوبية الفقيرة والمدن الصغيرة نحو ضواحي العاصمة بيروت والمدن الكبرى.

إنها هجرة العمل، هجرة المغامرين ما وراء البحار لتحصيل لقمة العيش، يوم كانت الهجرة مغامرة في المجهول، هجرة الباحثين عن العمل في المدن لتعليم اولادهم وتحسين اوضاعهم، فليست الهجرة برغم التشتت القائم بمثابة إنقطاع عن الأرض الأم، إنها مرحلة مؤقتة يليها إتصال دائم بوسائل جديدة، وليست النهضة العمرانية في معظم المناطق الجنوبية سوى حصيلة هذه المغامرة للنازحين عبر القرى والمدن والمهاجرين نحو القارات الخمس.

ويتبيّن أن هذه التحركات السكانية الكثيفة والمتنوّعة، قد أدت إلى إفراغ مناطق واسعة من سكانها خصوصاً في القرى الحدودية والبلدات الصغيرة.

ثالثاً– السكان في جنوب لبنان

1 – تطور عدد السكان المقيمين بين الماضي والحاضر

تزايد عدد السكان بحسب فترات زمنية مختلفة وفق الآتي:

- عام 1970، بلغ عدد السكان المقيمين 249،945 ساكن ، يمثلون نحو 11،7 في المائة من مجمل سكان لبنان1 (ما عدا اللاجئين في المخيمات الفلسطينية)، بينما كانت هذه النسبة تبلغ نحو 13،2 في المائة عام 1964 (دراسة بالعينة قامت بها مصلحة النشاطات الإقليمية في وزارة التصميم العام).
- في عام 1996[2] ، وبعد أكثر من ربع قرن فقد إرتفع عدد السكان المقيمين في محافظتي الجنوب والنبطية ، ليبلغ حوالي 488،469 ساكن، يمثلون 16 في المائة

---

1 وزارة التصميم العام، مصلحة النشاطات الإقليمية عام 1970، وذلك بموجب إحصاء بالعينة لعدد السكان المقيمين في لبنان وقد بلغ عددهم الإجمالي 2 126 325 نسمة، بينما كان عدد السكان عام 1960 يبلغ 1،626،000 نسمة بحسب دراسة بعثة إيرفد.

2- راجع نتائج مسح المعطيات الإحصائية للسكان والمساكن عام 1996، وزارة الشؤون الإجتماعية بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للسكان.

من مجمل سكان لبنان . ويرتفع العدد بحسب سجلات النفوس ليبلغ نحو 668،126 نسمة، يمثلون 22 في المائة من مجمل سكان لبنان.

- في عام 2004، إرتفع العدد ليبلغ نحو 623،043 ساكن، يمثلون حوالي 16،6 في المائة من سكان لبنان (منهم 10،7 في المائة في محافظة صيدا، و 5،9 في المائة في محافظة النبطية).
- في عام 2007، بلغ عددهم الإجمالي نحو 659،718 ساكن (ما عدا النازحين السوريين واللاجئين في المخيمات الفلسطينية)، وإرتفعت النسبة إلى 17 في المائة من سكان لبنان. كما إرتفعت الكثافة السكانية إلى 327 نسمة/ كم2.

2 – عدد السكان المسجلين

أما بالنسبة لتوزيع السكان بحسب مكان التسجيل (عدد السكان المسجلين في وثائق قيد النفوس):

- عام 1965، بلغ عدد السكان المدونين في سجلات الأحوال الشخصية في محافظة لبنان الجنوبي حتى 1-1-1965، نحو 232،709 نسمة[1].
- عام 1970، بلغ عدد السكان المسجلين في محافظة لبنان الجنوبي 413 250 نسمة (وفق التفسيم الإداري السابق لإعلان محافظة النبطية عام 1975)، يمثلون19،4 في المائة من مجمل سكان لبنان، بينما بلغت نسبة النازحين إلى بيروت وضواحيها نحو 42 في المائة (منهم 64،695 نسمة يقيمون في بيروت، و110 130 نسمة في ضواحي بيروت).
- أما عام 2018، فقد بلغ عدد المسجلين في لوائح الشطب لإنتخابات 2018، نحو 781 477 ناخب[2] (وهم يمثلون عدد الناخبين ممن أعمارهم 21 سنة وأكثر)، يتوزعون بين 304 192 ناخب في الدائرة الثانية (صيدا وصور وجزين)، و 460 565 ناخب في الدائرة الثالثة (مرجعيون وحاصبيا والنبطية وبنت جبيل)، بالإضافة إلى الذين تسجلوا في بلدان الإغتراب في الدائرتين وعددهم 16720 نسمة. بحيث يمكن تقدير مجمل عدد السكان المسجلين في سجلات النفوس في الدائرتين (أو في أقضية الجنوب اللبناني ال7) بنحو 1،350،000 نسمة، يمثلون أيضاً نحو 22 في المائة من مجمل سكان لبنان (بحيث يمكن تقدير مجمل عدد سكان لبنان المسجلين في سجلات قيد النفوس ب 6،370،000 نسمة).

1- راجع السكان في الشريط الحدودي المحتل: مخاطر إفراغ الجتوب من السكان، التهجير والنزوح، جدول صفحة 11، (بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي للسكان والتنمية، القاهرة عام 1994). 27 صفحة.

2- بلغ مجموع عدد المسجلين في لوائح الشطب في لبنان 3 746 483 ناخب (ممن أعمارهم 21 سنة وأكثر). أما عدد الناخبين في الجنوب بحسب لوائح الشطب المقيدين للانتخابات النيابية (أيار 2006)، فقد كان 670 ألفاً و121 ناخبا.

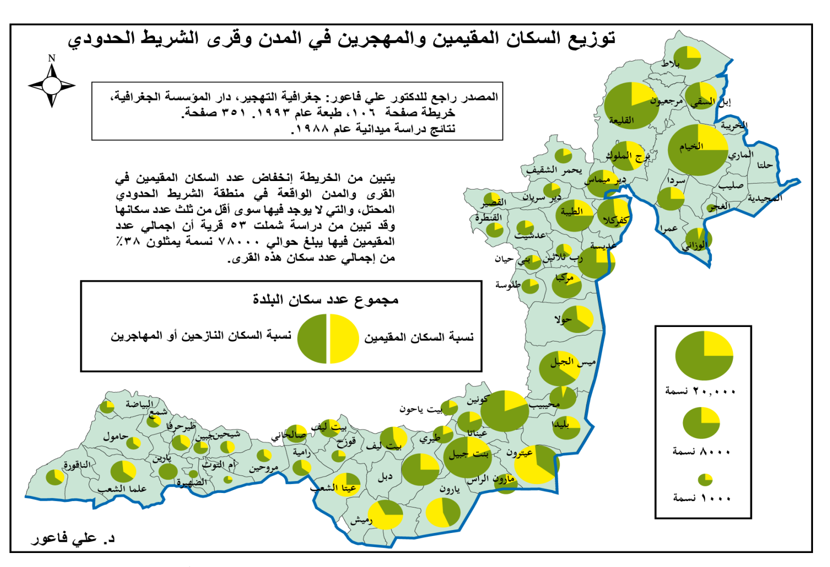
3 – التحركات السكانية: بين الهجرة والمقاومة

لكـن هـذه التوزيعـات لا تعبر بشـكل دقيـق عـن الواقع السـكاني، حيـث يمثـل الجنـوب اللبناني منطقـة حافلـة بالمتغـيرات والتحـولات الديموغرافيـة والإجتماعيـة والإقتصاديـة، فمنـذ عـام 1948 تاريـخ إعـلان دولـة الإحتـلال الإسرائيـلي وتاريـخ النكبـة بالنسـبة للفلسـطينيين، يعيـش الجنـوب حالـة عـدم إسـتقرار ناجمـة عـن الأطـماع الإسرائيليـة في الأرض والمياه، حيـث أقدمـت إسرائيـل على إحتـلال مسـاحات واسـعة مـن الأراضي اللبنانيـة وضمهـا بالقـوة وتهجـير أهلهـا وتغيـير معالمهـا عـلى فـترات متقطعـة، أبرزهـا إعتـداءات 1967 حيـث إجتاحـت إسرائيـل عـدة مـرات منطقـة العرقـوب ونفـذت إعتـداءات واسـعة عـلى القـرى الحدوديـة، وحتـى عـام 1978 حيـث إحتلـت مسـاحات واسـعة في الجنـوب وهجـرت سـكانها، وأنشـات مـا اسـمته منطقـة الحـزام الأمنـي رافضـة الإنسـحاب مـن الأراضي اللبنانيـة دون قيـد أو شرط (وتنفيـذ قـرار مجلس الأمـن الـدولي رقـم 425)، ثـم عـادت وإجتاحـت الجنـوب مـرة ثانيـة عـام 1982، وإحتلـت مسـاحات واسـعة مـن أراضيـه، رغـم أن لبنـان هـو الدولـة العربيـة الوحيـدة التي لديهـا حـدود دوليـة مـع فلسـطين المحتلـة، معـترف بهـا بموجـب إتفـاق الهدنـة الموقـع في بلـدة الناقـورة عـام 1949.

إن خريطـة الجنـوب اللبنـاني أثنـاء الإحتـلال كانـت مقسـمة إلى منطقتـين: واحـدة تحـت الإحتـلال، وتضـم نحـو 73 قريـة ومدينـة، يبلـغ مجمـوع عـدد سـكانها المسـجلين حـوالي 300،000 نسـمة (الخريطـة المرفقـة)، والثانيـة كانـت منطقـة أمنيـة تحـت المراقبـة وعنـد إمتـداد المنطقـة الأولى لتوفـير المزيـد مـن الحمايـة للمسـتوطنات الإسرائيليـة فـي الشـمال، وهـي تضـم حـوالي 43 بلـدة سـكانها 150،000 نسـمة تقريبـاً، أي أن نحـو نصـف مليـون نسـمة مـن سـكان الجنـوب قـد توزعـوا خـلال فـترة الإحتـلال الإسرائيـلي بـين نازحـين ومهجريـن عـن بيوتهـم ومهاجريـن في مختلـف أرجـاء العـالم، حيـث إعتمـدت إسرائيـل سياسـة الأرض المحروقـة لإفـراغ الجنـوب مـن سـكانه[1].

في مواجهـة هـذا الواقـع بـرزت ظاهـرة مقاومـة الإحتـلال والتـي احدثـت تغيـيراً جذريـاً في ميـزان المواجهـة، حيـث إنهـارت خطـوط الدفـاع الموهومـة وتلاشـت معهـا نظريـات التفـوق العسـكري أمـام تشـبث المقاومـين بأرضهـم، مما أجـبر العـدو الإسرائيـلي عـلى الإنسـحاب يـوم 24 ايـار مـن العـام 2000 (يـوم النـصر والتحريـر) حيـث احتفـل اللبنانيـون بتحريـر الجنـوب والبقـاع الغـربي مـن الاحتـلال الاسرائيـلي الـذي إسـتمر 22 عامـا، وأعلنـت إسرائيـل لأول مـرة تنفيـذ القـرار 425، حيـث إنسـحبت مـن معظـم الأراضي الجنوبيـة، مـا عـدا مـزارع شـبعا وبعـض تـلال حرمـون والتـي لا زالـت تحـت الإحتـلال الإسرائيـلي.

1 راجع للدكتور علي فاعور: جغرافية التهجير، دار المؤسسة الجغرافية، صفحة 106، طبعة عام 1993. 351 صفحة.



بـل إنهـا مفارقـة يصعـب قياسـها بـين الهجـرة والمقاومـة التـي أكـدت موقعهـا ودورهـا، فأصبحـت علامـة بـارزة في تاريـخ الجنـوب المقـاوم، وهـي التـي شـكلت خـط الدفـاع الإسـتراتيجي عـن وحـدة لبنـان. فالجنـوب في الواقـع ليـس مكانـاً للهجـرة المغـادرة بمعناهـا المطلـق، والتـي أرادتهـا إسرائيـل في عمليـات التهجـير وإفـراغ القـرى مـن أهلهـا، بـل هـو مـكان للمقاومـة بأشـكالها مـن التشـبث بـالأرض إلى الهجـرة العائـدة، والتـي أخـذت تعمّـر القـرى والمـدن الجنوبيـة التـي تكبـدت خسـائر جسـيمة أثنـاء الإحتـلال.. انهـا ظاهـرة فريـدة ، تسـتحق أن تـدرس بعنايـة ليسـتصفى منهـا جوهـر شـخصية الجنـوب الجغرافيـة، حيـث سـقطت نظريـات الهجـرة القسريـة التـي إعتمدتهـا إسرائيـل طيلـة أكثـر مـن ربـع قـرن خـلال فـترة الإحتـلال، بهـدف إفـراغ الجنـوب مـن سـكانه فيسـقط نهائيـاً ويتـآكل مـع الزمـن أمـام توسـع عمليـات الإسـتيطان. لقـد بـات مـن الـضروري اليـوم في مناهـج البحـث الإسـتراتيجي أن نتحـوّل مـن دراسـة الهجـرة المغـادرة في الشـتات1، إلى دراسـة آثـار الهجـرة العائـدة وكيفيـة بنـاء الجسـور وتوثيـق العلاقـات مـع المهاجريـن لتأمـين مشـاركتهم في مشـاريع إعـادة الإعـمار وكل مـا يتعلـق بعمليـات التخطيـط الإقليمـي وتنظيـم إسـتخدامات الأراضي.

1 لمزيد من التفاصيل حول الهجرة يمكن مراجعة الأبحاث المنشورة للدكتور علي فاعور:
1. "الإحصاءات السكانية وعوائق التنمية في جنوب لبنان" مجلة الباحث (بيروت) السنة الرابعة العدد الثاني والثالث -1982-1981 ص (52-21).
2. "الهجرة من جنوب لبنان، مع دراسة ميدانية للتهجير الجماعي"، النشرة السكانية، اللجنة الاجتماعية والاقتصادية لغربي آسيا (أسكو) في هيئة الأمم المتحدة، العدد 21 (1981) - ص ص(85-27).
3. "التحركات السكانية ومستقبل التنمية في جنوب لبنان"، النشرة السكانية، اللجنة الاجتماعية والاقتصادية لغربي آسيا (اسكو) في هيئة الأمم المتحدة، العدد 25 كانون الأول- ص ص (70-41) سنة 1984.
4. "مخاطر إفراغ الجنوب من السكان والتهجير في الشريط الحدودي" ، بحيث قدم في المؤتمر الوطني العام للمهجرين، بيروت، الأحد في 21 حزيران 1992، 20 صفحة.
5. "إعمار الجنوب اللبناني وتحديات التنمية السياحية"، دراسة قدمت في مؤتمر "الجنوب اللبناني وتحديات التنمية، منتدى حرمون الثقافي بالتعاون مع مجلس الجنوب، في جديدة مرجعيون (نادي شبيبة المرج)، تاريخ19 -20 أيار عام 2001. ونشر في كتاب "الجنوب اللبناني وتحديات التنمية" ص.ص. 106-79، عام 2002..
6. السكان في الشريط الحدودي المحتل: مخاطر إفراغ الجنوب من السكان، التهجير والنزوح، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي للسكان والتنمية، القاهرة عام 1994. 27 صفحة.

خلاصة: جغرافية الصمود و الإرتباط بين الإنسان والأرض

- إن جغرافيـة جبـل عامـل بـين المـاضي والحـاضر، هـي في جوهرهـا جغرافيـة الصمود، الصمـود في مقاومـة الإحتـلال والصمـود ايضـاً في وجـه الحرمـان الـذي عانـت منـه المناطـق الجنوبيـة، وهـي لا تـزال تعـاني فشـل السـلطة السياسـية في تنظيـم الجغرافيـة وحمايـة الحـدود والأرض، وبرغـم مـرور نهـر الليطـاني في جنـوب لبنـان، تتحـول سـفوح الهضـاب إلى حقـول صخريـة جـرداء.. وفي كل مـكان مـن المدينـة إلى القريـة الصغـيرة النائيـة، يطالـب الجنـوبي بالميـاه، الميـاه للـشرب، الميـاه للـري وإسـتصلاح الأراضي، الميـاه لتأمـين العمـل والإسـتقرار.

- إن ثمـة حقيقـة أصبحـت ثابتـة، برغـم النـزوح والهجـرة والتهجـير المسـتمر، وهـي الإرتبـاط بـين الإنسـان والأرض.. لقـد إسـتمد الجنـوب شـخصيته مـن أرضـه ومناخـه ومياهـه وتربتـه.. ولعـل في هـذه الموهبـة سر بقائـه وحيويتـه وصمـوده.

المياه في لبنان وجبل عامل مشاكل وحلول



الدكتور المهندس يوسف حمزة

مشكلة المياه التي يعاني منها لبنان بشكل عام والجنوب وجبل عامل بشكل خاص ومنذ زمن بعيد هي مشكلة متعددة الجوانب، نحن هنا في هذا البحث العلمي سنلقي الضوء على اسباب المشكلة بشكل سريع وسنطرح الحلول لها ضمن الأطر العلمية والهندسية والبيئية

هذه الأزمة التي كنا نعاني منها في السابق ومنذ الإستقلال ما زلنا نعاني منها وبالرغم من التطور العلمي في مادة الهندسة المائية في العالم.

1) أسباب أزمة المياه في لبنان وجبل عامل

1-1) الإدارة المائيه السيئه والغير عادلة

1-2) زيادة عدد السكان في لبنان، منها اللاجئين السوريين، أدى إلى حاجة أكثر لكميات المياه

1-3) هبوط مستوى المياه الجوفية في لبنان وجبل عامل نتيجة الإستعمال الغير مدروس لها

1-4) عدم الإستغلال الجدي للمياه السطحية ومياه الثلوج ومياه الينابيع الحلوة داخل البحر

1-5) عدم وجود سدود لحفظ المياه التي تذهب بسرعة هائلة إلى البحر نتيجة الإنحدارات سلسلة جبال لبنان الغربية، القوية المنحدرات، والتي تذهب بسرعة هائلة إلى البحر بعد أن تحدث فياضانات في شوارع بيروت والساحل وتعيق حركة السير.

1-6) الإستعمال المفرط لمياه الشرب في السياحة والري

1-7) التغيير المناخي وشح المياه المطرية في السنوات الأخيرة

1-8) عدم إستغلال مياه الصرف الصحي بعد تكريره بالرغم من وجود محطات تكرير كبيرة.

لقد وضعت الدولة اللبنانية خطة لمعالجة مشكلة المياه في لبنان ببناء سدود متعددة وأنجز منها فقط سد شبروح بالرغم من الصعوبات، أما السدود الأخرى منها قيد الدرس او قيد البناء، ومنها ما ينتظر التمويل للتنفيذ.
بالنسبة للخطة الموضوعة من قبل الوزارات نتمنى الأنتهاء منها، وقد تحل مشكلة المياه في لبنان إلى حد كبير، أما الحلول الأخرى التي نهتم بها فعليا في بحثنا هذا هي:

2) إعادة تنظيم الإدارة للمياه في لبنان

2-1) إعادة عملية ضبط المياه بواسطة عدادات حديثة
2-3) رفع الغطاء السياسي عن المخالفات
2-4) عدم إستعمال مياه الشفة في الري ولأغراض السياحة والمسابح والصناعة
2-5) تحسين النظام المائي
2-6) تنظيم عملية التوزيع للمياه
2-7) إعادة تنظيم الجهاز الإداري في الإدارة اللبنانية للمياه بواسطة تطويرها، وخلق فرص عمل لكوادر مختصة جديدة وتدريب الطاقم القديم
2-8) وضع خطةعمل لتصويب ومعالجة وحفظ المياه السطحية ومياه الثلوج ومياه الينابيع الحلوة داخل البحر وإستغلالها وخاصه في منطقة البياضه، صور والصرفند.
2-9) الإستفادة من مياه الصرف الصحي بعد تكريره للري.

3) حفظ المياه السطحية

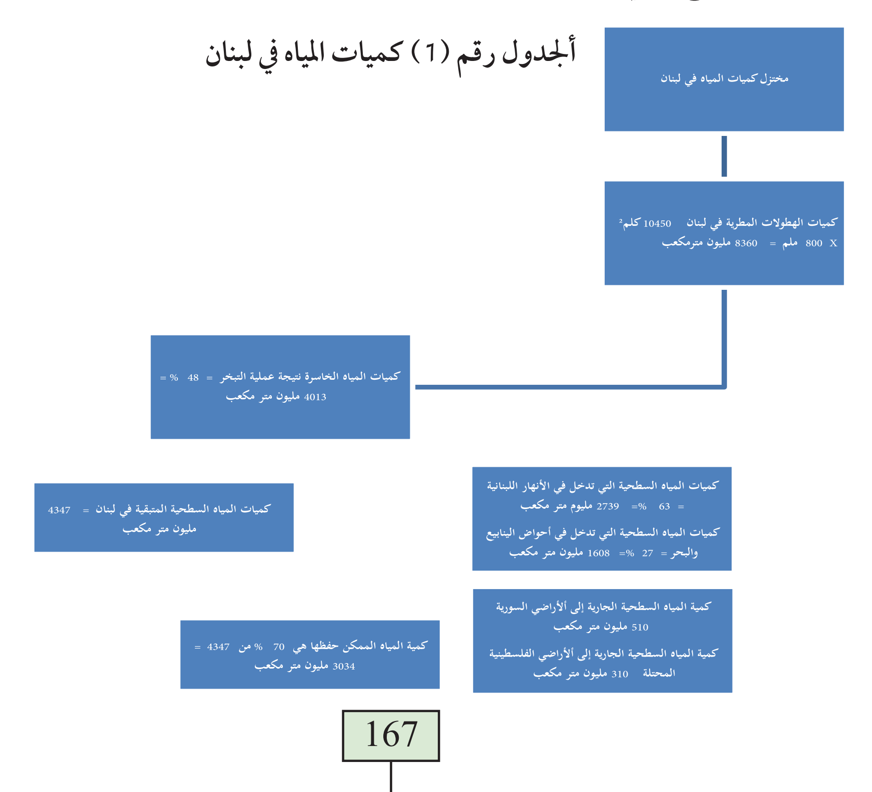
3-1) بناء بحيرات جبلية خلف سدود صغيرة على مجاري ألأنهار الصغيرة، والينابيع وحفظ مياه الثلوج لإستعمال هذه المياه في تغذية المياه الجوفية، والري، ومياه الشفة، ولتطوير الأحواض النهرية لإستخدامها في السياحة وتربية الأسماك وتطوير الإقتصاد في تحسين المعيشة لسكان هذه المناطق وخلق فرص عمل لهم...
كثرت مشاكل المياه في لبنان والعالم العربي وفي مناطق عديدة من العالم في السنوات الأخيرة، وذلك نتيجة لتزايد عدد سكان العالم وسوء إدارة المياه والتغيرات المناخية وتطور التكنولوجيا حيث زادت حاجة ألأنسان لإستعمال المياه التي دخلت في رفاهيتة ...
هناك أفكار تقول بأن لبنان فيه كميات كبيرة من المياه، ولكن الحقيقة وبعد الأبحاث التي قام بها الزميل د.حسين ياغي الذي تسنى له وللفريق الباحث الذي عمل معه في الجامعة الأميركية في بيروت التعرف بعمق على واقع المياه في لبنان من خلال القيام بتنفيذ برنامج كمبيوتر باستخدام تقنية التواصل المنوع (multimedia) عن المياه في لبنان من العام 1991 وحتى 1993. لقد تبين لهم، وبكل وضوح، عدم الانسجام بين الإحصاءات المنشورة في معظم المراجع والواقع الذي عاينوه، حيث توحي دراسات كثيرة إلى الإيحاء بأن لبنان غني بالمياه بينما المعاينات التي قاموا بها على مدى ثلاث سنوات تفيد العكس وأننا بحاجة ماسة إلى المياه في لبنان...

إن كميـات المياه الجوفيـة تسـتنفذ في لبنـان، فمثـلا في الأربعينـات وفي بعـض الأماكـن اللبنانيـة كنـا نصـل للميـاه الجوفيـة عـلى عمـق 50 مـترا، أمـا اليـوم وفي نفـس هـذه المناطـق فإننـا بحاجـة إلى الحفـر عـلى عمـق 250 مـترا، أمـا في الجنـوب فكنـت تجـد المياه عـلى عمـق 200 مـتر أمـا اليـوم فإنـك تصـل إلى الميـاه الجوفيـة حتـى عمـق 500 مـتر في بعـض المناطـق.

إن الحاجـة الماسـة للمياه في لبنـان أدت إلى أن نقـوم بالتعـاون مـع مجلـس البحـوث والجامعـة اللبنانيـة ومـع بلديـة عربصاليـم ولمـدة ثلاثـة سـنوات مـن العـام 2003 وحتـى العـام 2006، حيـث راقبنـا مجـرى نهرالزهـراني عـلى الـوادي الأخـضر، ودرسـناه مـن الناحيـة الهيدروجيولوجيه والهيدروليكيـة، وعدنـا إلى إحصـاءات مصلحـة ميـاه الليطـاني ماقبـل 1976 التـي كانـت تـدرس بدقـة كميـات المياه في المجـرى وعـلى عـدة محطـات في أماكـن متعـددة، ودرسـنا هـذه الإحصائيـات في الأعـوام أيضـا بـين الأعـوام 2000 و2008، حيـث تبـين وجـود شـح للميـاه في مجـرى النهـر نتيجـة تحويـل مياهـه ونتيجـة شـح ميـاه الشـتاء في الأعـوام الأخـيرة.

لكـي نؤمـن ميـاه الشـفة للمواطنـين توصلنـا في بحثنـا إلى حـل أسـاسي وهـو حفـظ المياه في النهـر وأعتـبر كبحـث نموذجـي لكـي يطبـق عـلى كافـة مصـادر الميـاه في لبنـان والعـالم العـربي الـذي هـو بأمـس الحاجـة إلى الميـاه.

هـذه السـدود الصغـيرة هـي مجديـه وصديقـه للبيئـه ونحصـل عـلى بحـيرات جبليـة خلـف سـدود باطونيـة صغـيرة لا يتجـاوز إرتفاعهـا عـن ال15 مـترا، وقبـل شرح ذلـك علينـا أن نبـين كميـات الميـاه المطريـة الموجـودة في لبنـان والكميـات التـي يصرفهـا السـكان وذلـك مبـين في الجـدول رقـم (1)، أمـا كميـات المياه المطلوبـة في لبنـان وحتـى العـام 2025، و حسـب القانـون العالمـي فهـي كـما هـو مبـين في الجـدول رقـم (2) تحـت دون الأخـذ بعـين الأعتبـار المسـابح الداخليـة والمسـابح التـي تتغـذى مـن ميـاه البحـر المالحـة عـلى الشـاطئ اللبنـاني...

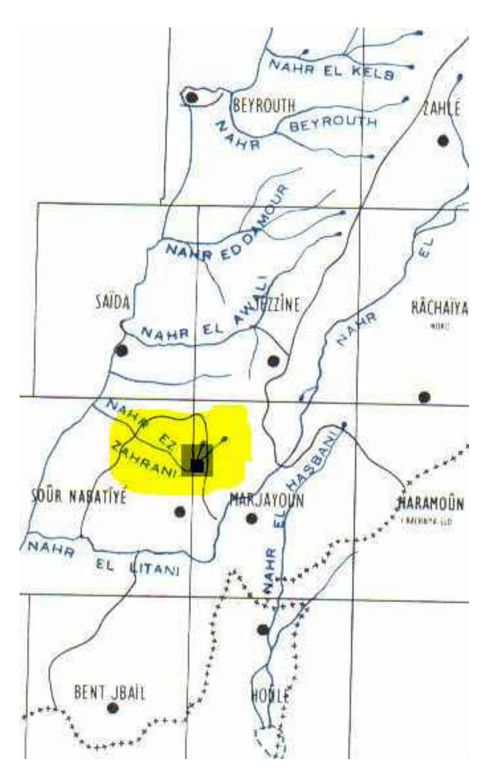


الجدول رقم (2) حاجة المياه في لبنان ما عدا اللاجئين

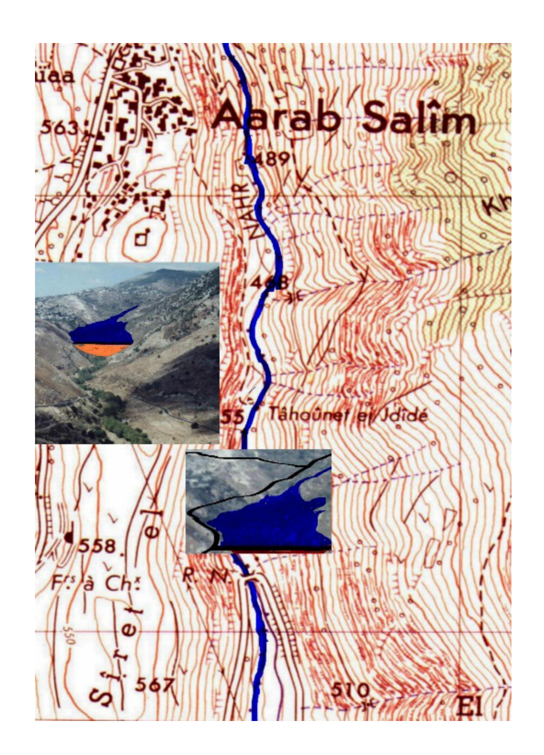
جهة الإستعمال	الحاجة في العام 2005	الحاجة في العام 2025
مياه للشرب	مليون متر مكعب400	900 مليون متر مكعب
مياه للري	700 مليون متر مكعب	2100 مليون متر مكعب
مياه للصناعة ممكن تكريرها	100 مليون متر مكعب	250 مليون متر مكعب
المجموع	1200 مليون متر مكعب	3300 مليون متر مكعب

نستنتج من الجدول المبين أعلاه أن حاجة لبنان في العام 2025 تصبح 3300 مليون متر مكعب، هذا وبعد البحث ألأكاديمي والهندسي تبين لنا أننا بحاجة ماسة إلى إستغلال كميات المياه في لبنان المتبقيه وهي فقط 34 مليون متر مكعب، ومن هنا نحن نلفت الأنتباه إلى بناء السدود الصفيرة على الأنهار والينابيع وبرك جبلية في المناطق الثلجيه والمطريه، هذه السدود والبرك لها معايير بيئية مدروسه لا يتيح المجال لذكرها هنا .

حفظ المياه في لبنان وجبل عامل مشروع نموذجي لحفظ المياه ببناء بحيرات جبلية صغيرة على مجرى نهر الزهراني خلف سدود باطونية صغيرة ،







الصورة رقم (1) تبين البرك الجبليه خلف سدود صديقه للبيئه على مجرى الزهراني

مثلا دراسة مجرى نهر الزهراني في منطقة الوادي الأخضر خصوصا وعلى طول المجرى عموما وذلك بإنشاء بحيرات جبلية بواسطة بناء سدود ترابية أو سدود من الباطون صغيرة وحفر وبناء طرق وتصحيح أراضي حيث يتم استغلالها لمياه ألشفه والري وتغذية المياه الجوفية، وتربية ألأسماك والسياحة، تستفيد منه قرى: جر جوع (6000) نسمة، عربصاليم (8250) نسمة، كفررمان (10500)، حبوش (9800)، حومين الفوقا (5600)، دير الزهراني (7250)، رومين (32500)، عزة (2500)، بفروة (2000)، خزيز (1700)، الحجة (3800)، ركاي(2700) والمعمارية (1400).

بينت الدراسة لمجرى نهر الزهراني في منطقة الوادي الأخضر في خراج منطقة جرجوع، عربصاليم، كفررمان و حبوش وحومين، أنه يوجد كمية من الماء تقارب أل 25 مليون متر مكعب حسب الرصد المائي لمصلحة نبع الطاسة ومصلحة الليطاني من العام 1965 حتى العام 1975، وهذا قبل الاستغلال الكامل لنبع الطاسة، وحسب دراستنا الأولية تبين لنا أنه بالإمكان حفظ كمية من الماء تصل إلى المليون متر مكعب من الماء وذلك بواسطة بناء سد ترابي أو من الباطون صغير حسب المواصفات الفنية العالمية الحديثة، وذلك على مواقع مناسبة بحيث تتناسب مع الدراسات الجيولوجية و الجيوتكنيكية و الدراسات الهيدرولوجية و الهيدروجيولوجية، الدراسات السوسيولوجية والديموغرافية،

كذلك الدراسات البيئية والتراثية من حيث أهمية هذا المجرى الاقتصادية لأهالي المنطقة وهذا المشروع هو:

1) بناء بحيرات خلف سدود صغيرة

2) شق وبناء طرق تربط جسر الوادي الأخضر بالسد على المجرى و بقرية عربصاليم، وفي المناطق الأخرى تربط الطرق السدود بقراها.

3) حفظ المنطقة التراثية بتنظيف المغاور وحفظ التنوع البيئي وتصحيح الأراضي الموجودة على المجرى لإنماء المنطقة سياحيا و اقتصاديا.

في عربصاليم يتم تأمين كمية مياه في بحيرة فيها ما يزيد عن 150 الف متر مكعب من المياه تزيد حسب ارتفاع السد. من الينابيع الخمسة الموجودة على ضفاف المجرى والتي تجري طيلة أيام السنة، بحيث يجب تأمين دراسة لقياس هذه الكمية وبالإضافة إلى ذلك كمية المياه التي يزودها المجرى خلال فصل الشتاء والتي تزيد على ثلاثة ملايين متر مكعب من المياه .

وبذلك يتم بناء عدة سدود وحواجز مائيه على مجرى النهر الذي هو مشروع نموذجي لكل أنهار لبنان والذي ندرس فيه الشروط البيئيه الموجوده في الجدول رقم (3)

الجدول رقم(3) الدراسات البيئيه التي تؤخذ بعين الإعتبار في دراسة السدود.

هندسة مدنية	هندسة الصرف الصحي	هندسة هيدرولوجية
هندسة إنشائية للجسور	هندسة كهربائية	هندسة إضاءة
هندسة تلوث الهواء	هندسة الضجيج الصوتي	التوزيع الديموغرافي
هندسة الترتيب الأرضي	تحليل طرق البناء	هندسة علم الطبيعة البيئة
جيومورفولوجيا	الهندسة البيئية	الهندسة الجيوغرافية
المسح المائي	علم المياه	جيولوجيا
الرصد الجوي	ألتربة	الإقتصاد الزراعي
علم البيولوجي	علم الغابات	ألإدارة الحرة
قانون	الحياة البرية	السمك









الصورة رقم (2) مجاري مياه الينابيع السطحية في منطقة حوض الجرمق في سهل الميذنه كفررمان.

2-3) حفظ المياه بواسطة البرك الجبلية

إن حفظ المياه لإستثمارها في تغذية المياه الجوفية بواسطة حفر برك جبلية عشوائيه في المناطق الثلجية، وبحفر وبناء برك مقفلة القعر والجوانب للإستفادة من هذه المياه في الري ولوقف إنزلاق الثلوج والمياه إلى البحر عند ذوبانها بل لتغذي هذه الأحواض الجوفية وأحواض الينابيع.





الصورة رقم (3) تبين حفظ المياه والثلوج

4) تلوث المياه :

إن أهم أزمة للمياه في لبنان هي تلوث المياه بواسطة

4-1) تلوث المياه نتيجة الصرف الصحي إلى مجاري مصادر المياه

4-2) نتيجة رمي النفايات الصلبة على أو قرب مجاري مصادر المياه

4-3) نتيجة السماد الكيماوي الذي يستعمل في الزراعة

4-4) نتيجة النفايات السائلة والصلبة الصادرة من أكثر من 500 معمل ومصنع ومسلخ ومزرعة ابقار ودواجن في البقاع على مجرى الليطاني الذي اصبح مجرى صرف صحي في بعض المناطق كما هو في الصورة (4)



الصورة رقم (4) تبين تلوث المياه في الحوض الأعلى لليطاني

5) حفظ مصادر المياه من التلوث

بكل بساطة لمنع تلوث مصادر مجاري المياه السطحية والجوفية يجب الإلتزام بما يلي :

5-1) إستكمال دراسة وبناء محطات الصرف الصحي على كافة الأراضي اللبنانية، وذلك لتكرير هذه المياه لتصبح صالحة للزراعة وخالية من الملوثات

5-2) منع الصرف الصحي والمياه المستعملة في المعامل والمصانع على طول مجرى الليطاني، وذلك ببناء حفر صحية مقفلة القعر، لتكرير هذه المياه وذلك حسب قرارات وزارة البيئة المتعددة بهذا الموضوع.

5-3) منع كب النفايات الصلبة على مجاري مصادر المياه، وذلك ببناء معامل فرز للنفايات الصلبة، وبناء مطامر للعوادم وذلك بإنشاء (Master plan for solid waste treatment) على كافة الأراضي اللبنانية، ونحذر هنا من معامل الحرق للنفايات الصلبة تحت مسميات متعددة، والمقصود مصادر المياه هي الينابيع والأنهار والشاطئ.

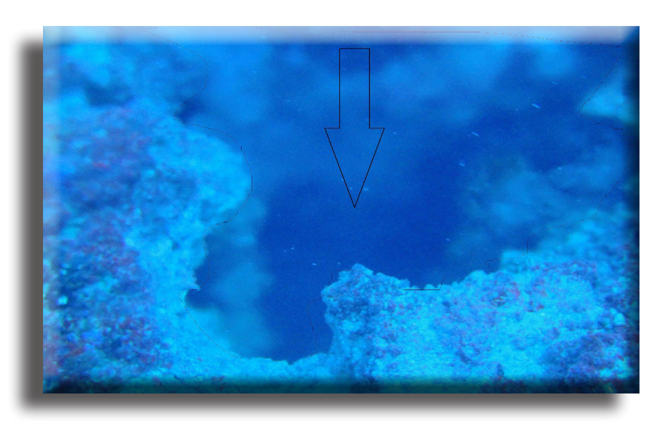
5-4) التخفيف من إستعمال السماد الكيميائي في الزراعة

5-5) منع وجود المرامل والكسارات قرب مجرى النهر

6) إستثمار المياه الجوفية ومياه الينابيع داخل البحر

6-1) إن ينابيع المياه الحلوة المتفجرة على طول الشاطئ اللبناني وتمتد من الساحلي السوري حتى البياضه في الجنوب، نذكر من ٥١ه الينابيع نبع البياضة، ونبعين في شاطئ صور وينابيع الصرفند وشكا وغيرها، إذ يجب إستثمار هذه الينابيع كما يلي:

6-1-1) تحدد مصادر هذه الينابيع بواسطة الإستشعار عن بعد لمعرفة مصدرها إذا كانت جارية على شكل نهر جوفي من البر فيحدد مكانه على البر وبواسطة سدود وجوفيه لمنعه من التسرب إلى البحر وإستغلاله على الشاطئ، أما إذا كان حوض جوفي فيمكن إستخراج هذه المياه بواسطة قساطل معدنية بعد منع تسرب مياه البحر إلى جوف الحوض الذي هو بعمق 38 مترا تحت سطح المياه في منطقة صور، الصورة رقم (5)، صورة النبع داخل البحر على عمق 38 متر



الصورة رقم (5) صورة نبع الميادين داخل البحرعلى بعد 7 كلم شمال غرب مدينة صور

7) الأحواض الجوفيه في منطقة جبل عامل

إن الأحـوض الجوفيـه هـي الميـاه الإسـتراتيجية لـكل بلـد ، لذلـك يجـب علينـا الحفـاظ عليها، بتغذيتهـا الدائمـة وذلـك بمنـع ميـاه السـيول الشـتويه الإنـزلاق بسرعـة إلى البحـر، و بواسـطة بنـاء بـرك جبلية عشـوائيه تحفـظ هـذه الثلـوج والميـاه مـن ألإنـزلاق إلى البحـر عنـد ذوبانها بـل لتغـذي هـذه الأحـواض الجوفيـة وأحـواض الينابيـع.

الميـاه الجوفيـه نذكـر منهـا آبـار فخـر الديـن في النبطيـه وآبـار وادي جيلـو وهنـاك آبـار متعـددة أخـرى قيـد الإسـتثمار في كل لبنـان وجبـل عامـل، وهنـا نحـذر مـن الطريقـة الغيرمتوازنـه مائيـا وبيئيـا في اسـتثمار هـذه الأحـواض، وفي الصـورة (6) مواقـع أحـواض الميـاه في جبـل عامـل



الصورة رقم (6) الأحواض الجوفية وخصائصها في منطقة الجنوب وجبل عامل

هــذه الأحـــواض هـــي : 19-a) الحـــوض الكرتاســـيوس- الناقـــورة الصرفنـــد، 19-b) الحـوض الكرتاسـيوس- الصرفنـد و خلـده، 20-a) الحـوض الكرتاسـيوس – الجرمـق، 24-a) نبطيـة بنـت جبيـل الحـوض ألأيوسـيني، 24-b) صـور – الصرفنـد الحـوض الأيوسـيني، و5) الحـوض الجيراسـيكي- حرمـون.

القلاع والحصون في جبل عامل



رئيس هيئة تكريم العطاء المميز د. كاظم نورالدين

تـوالى عـلى جبـل عامـل منـذ القديـم، العديـد مـن الزعامـات والبكـوات، ووقـع تحـت نفـوذ القـوى المحليـة والإقليميـة، فضـلا عـن الإحتـلالات والأطـماع مـن الخـارج... ومـضى الجميـع إلى محكمـة التاريـخ وبقـي الجبـل شـامخاً، وبقيـت آثارهـم تـدلّ عليهـم. فجـاءت المصنفـات لتسـتعرض مـا تـرك الأسـلاف مـن قـلاع وحصـون وبـرك وطواحـين وملاحـات ومسـاجد وعيـون وأسـواق ومقامـات ومـزارات ...إضافـة للكثـير مـن الأشـعار والروايـات والمؤلفـات التـي حكـت طيـب العيـش الممـزوج بالمـرارة والإسـتبداد تـارة، وبالـولاء والرجولـة أطـواراً أخـرى.

وفي هـذه العجالـة سـوف أعـرض بعـض صـور القـلاع و الحصـون التـي تتبـوأ تاريـخ جبـل عامـل ، كـما أنني سـأتعرض لتواريخهـا وواقعهـا واهميتهـا والحضـارات التـي اشرفـت عـلى بنائهـا ...

1 - قلعة الشقيف:

- قلعة الشقيف أو قلعة «شقيف أرنون ،بالفرنسية Chateau de Beaufort)) هي قلعة تقع في جنوب لبنان، تبعد حوالي كيلو متر واحد عن بلدة أرنون، بناها الرومان، وزاد الصليبيون في ابنيتها، ورممها فخر الدين الثاني.

- بنيت هذه القلعة على صخر شاهق «شير» يُشرف على نهر الليطاني وسهل مرجعيون، ومنطقة النبطية من جهة أخرى. لكن هندستها التي تلتوي مع الجبل، وجدرانها المشيدة بالصخور المحلية ، تجعلها تبدو كأنها «مخبأة» بين حنايا الصخور، فيما يُرى معلمها من على بعد مسافات. تُعرف القلعة في المراجع التاريخية باسم قلعة بوفور Beaufort أي الحصن الجميل.

- تعرضت القلعة للتخريب من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي. إذ جرى قصفها عدة مرات قبل اجتياح عام 1982 . ثم استخدمها كمركز عسكري ، وقد عملت هذه القوات بجهد على تدمير معالمها ، فتداعت وتشققت جدرانها بسبب تحرّك الآليات العسكرية داخل حرمها. أضف إلى ذلك التغيير في شكل القلعة الهندسي، فالغارات والقصف المدفعي دمّرت البرج الرئيسي، والجدران الخارجية خلال سنين الاحتلال. و بقي ردم الخندق المحيط بتلة شقيف أرنون من أكثر عمليات التشويه التي عرفها الموقع. هذا الخندق الذي حفره الصليبيون، والذي يهدف إلى تأمين مركز دفاع عن القلعة، ردمه الإسرائيليون أولاً بالاسمنت، ثم شيّدوا تحصينات في داخله.

- يؤكد رئيس بلدية أرنون أهمية هذه القلعة ، واعتبارها من أهم المعالم السياحية في لبنان ، من حيث موقعها الاستراتيجي الجغرافي ، المطلّ على الساحل وفلسطين وسوريا. وموقعها التاريخي الذي شهد على حروب عدة .





2 - قلعة دوبيه



- **الموقـع** : تقـع قلعـة دوبي بـين بلـدات شـقراء وحـولا وميـس الجبـل ، عـلى مرتفـع تحيـط بهـا الجبـال والوديـان مـن جهاتهـا الثـلاث ، عـدا الجهـة الجنوبيـة التـي تصلهـا ببلـدة ميـس .
- **اسـمها**: سـميت قلعـة دوبيـه نسـبة لاسـم القائـد الصليبـي الـذي جـدد بناءهـا وهـو دو بـو Debou وذلـك سـنة 1109 ميلاديـة ، ويقـول المـؤرخ سـليمان ظاهـر: «ومـن قـلاع جبـل عامـل مـا هـو مـن منشـآت الرومـان بعـد الميـلاد كقلعـة الشـقيف ومنهـا مـا هـو مـن أبنيـة الصليبيـين كقـلاع هونـين وتبنـين ودوبيـه.»
- **البنـاء** : بنـاء القلعـة صليبـي قائـم عـلى أنقـاض بنـاء رومـاني ، والدليـل عـلى ذلـك مـا يوجـد مـن حولهـا، مـن مدافـن شـبيهة بالمدافـن الرومانيـة المحفـورة في الصخـر.
- **اقسـام القلعـة** : تتألـف القلعـة مـن بنـاء ضخـم طولـه مـن الشـمال إلى الجنـوب مئة وخمسـة عـشر مـتراً، وعرضـه خمـس وسـبعون مـتراً تقريبـاً، مؤلفـاً مـن ثـلاث طبقـات يحيـط بـه خنـدق بعمـق ثلاثـة أمتـار مـن جهاتـه الثـلاث مـا عـدا الجهـة الجنوبيـة .

الطبقـة الثالثـة متهدمـة ، والثانيـة نصفهـا متهـدم ، في الطبقتـين الأولى والثانيـة مـا يقـارب مـن خمسـة وعشريـن غرفـة عبـارة عـن أقبيـة مبنيـة مـن الحجـر الصلـد ، وفي داخـل القلعـة عـدة آبـار وصهاريـج ، وفي خارجهـا صهريـج منقـور في الصخـر الأصـم. ذكـر العلاَّمـة السـيد محسـن الأمـين في كتابـه « خطـط جبـل عامـل » قلعـة دوبيـه قائـلاً: «لهـا ربـض مـن غربهـا يسـمى الزنـار.

بنـاء هـذا الحصـن في هـذا المـكان كان يسـاعد الصليبيـين، في كشـف كل التحـركات المعاديـة لهـم في المناطـق الداخليـة . جـدد بنـاء هـذه القلعـة أخـيراً الشـيخ ناصيـف النصـار الوائـلي سـنة 1750م.، وأسـكن فيهـا قسـماً مـن الأسرة الوائليـة ، ومـن المقاتلـين والعاملـين بالزراعـة، لتكـون حصنـاً يحمـي إمارتـه. ولكـن بعـد مقتلـه وسـقوط جبـل عامـل في يـد الجـزار سـنة 1780م. هـدم قسـماً منهـا في الهجـوم وبقيـت مهجـورة إلى أن اسـتعادت الأسرة الوائليـة بشـخص الشـيخ فـارس بـن ناصيـف النصـار الحكـم وذلـك سـنة 1805م. بعـد وفـاة الجـزار وعـودة العامليـين إلى جبلهـم عـلى أثراسـتعادة حكمهـم الـذاتي بفضـل مقاومتهـم ضـد جنـود الجيـش الأنكشـاري العثـماني الـذي عـاث في البـلاد فسـادا».

كذلـك جـدد بنـاء هـذه القلعـة آل عـلي الصغـير الوائليـين، مشـايخ جبـل عامـل الذيـن كانـوا يسـكنون تبنـين وهونـين في عهـد الشـيخ ناصيـف النصّـار وسـكنوها.

الوصـول إلى هـذه القلعـة الأثريـة يتـم عـن طريـق شـقراء أو حـولا أو ميـس الجبـل وذلـك بعـد أن شـق مجلـس الجنـوب شـبكة مـن الطـرق المعبـدة، وذلـك بعـد إنجـاز التحريـرفي 25 أيـار 2000. وهـذه الطـرق تصـل بـين البلـدات الثـلاث المذكـورة وقلعـة دوبي الأثريــة .

- **أهميــة القلعــة** : كان لقلعـة دوبيـه أهميـة اسـتراتيجية نظـراً لموقعهـا الجغـرافي القريـب، مـن حـدود فلسـطين وسـوريا ولبنـان، والواقعـة عـلى هضبـة تكمـن بـين جبـال تحجبهـا مـن جهاتهـا الأربـع، وتـشرف عـلى أوديـة سـحيقة تعتـبر شـبكة مـرور مـن وإلى هـذه المناطـق الثـلاث. وهـذه الأوديـة هـي وادي السـلوقي ووادي الأسـطبل ووادي السـكيكي،. وقـد اعتمدهـا الصليبيـون منطلقـاً لهجومهـم عـلى مـدن السـاحل السـوري والمناطـق المجـاورة لهـا، فشـكلت مـع غيرهـا مـن القـلاع العامليـة سلسـلة دفاعيـة هامـة عـن الإمـارات الصليبيـة في فلسـطين وسـوريا وجبـل عامـل، وخاصـة عـن ممتلكاتهـم الرئيسـية في بيـت المقـدس وسـائر المناطـق.

كـما جعـل الأيوبيـون في عهـد صـلاح الديـن وأخيـه العـادل وانتهـاءً بالعهـد المملوكـي أيـام الظاهـر بيـبرس وقـلاوون والأشرف خليـل، مـن قلعـة دوبيـه وغيرهـا مـن قـلاع وحصـون جبـل عامـل سلسـلة مـن الدفاعـات عـن وجودهـم في هـذه الديـار الإسـلامية .

3 - قلعة شمع



- **الموقـع** : بنـى الصليبيـون قبـل أكثـر مـن 800 سـنة قلعـة «شـمع» التـي تسـتمد إسـمها من مقـام دينـي يعـرف بمقـام النبـي شـمعون الصفـا ، لتكـون واحـدة مـن حصونهم العسـكرية مـن جهـة ، ومقـراً لحكامهـم مـن جهـة ثانيـة .
- تـشرف القلعـة التـي تتوسـط قريـة شـمع عـلى بعـد 17 كيلومـتراً جنـوب مدينـة صـور عـلى سـاحل المدينـة وبعضـاً مـن سـاحل مدينـة حيفـا في فلسـطين وهـي لا تبعـد سـوى كيلومـترات قليلـة عـن الحـدود اللبنانيـة مـع فلسـطين المحتلـة.
- لعبـت قلعـة شـمع إلى جانـب القـلاع الأخـرى المتراميـة في جنـوب لبنـان ، ومنهـا الشـقيف وتبنـين دوراً عسـكرياً وسياسـياً عـلى طـول الحقبـة الزمنيـة إبتـداء مـن تاريـخ إنشـائها في القـرن الثـاني عـشر الميـلادي وحتـى اليـوم.
- في عـام 1978 اسـتباحت إسرائيـل، التـي إجتاحـت منطقـة جنـوب الليطـاني ، القلعـة وحولتهـا عـلى مـدى 22 عامـاً إلى مركـز عسـكري ، ممـا تسـبب في إلحـاق ضرر كبـير في بنيتهـا وأثرهـا التاريخـي.

بينـما كانـت الحكومـة اللبنانيـة ممثلـة بـوزارة الثقافـة والمديريـة العامـة للآثـار تقـوم بإعـداد الدراسـات فـور الإندحارالإسرائيـلي في مايـو أيـار عـام 2000 ، لتأهيـل القلعـة عاجلـت إسرائيـل مجـددا القلعـة بغـارات جويـة خـلال حـرب يوليـو تمـوز عـام 2006 ، فـأدت الغـارات إلى تدمـير أكثـر مـن 80 بالمئـة منهـا ولا سـيما الأبـراج المنتـشرة عـلى أطرافهـا ، وباحاتهـا الداخليـة والخارجيـة ، إضافـة إلى المقـام الدينـي الـذي يجاورهـا.

- ترميـم القلعـة: سـاهمت الحكومـة الايطاليـة التـي شـاركت بعـد إنتهـاء حـرب يوليـو تمـوز بأكـبر عـدد مـن الجنـود في قـوات الامـم المتحـدة المؤقتـة وفقـاً للقـرار الـدولي 1701،

بإعادة القلعة إلى وضعها السابق وقدمت هبة قيمتها 700 ألف يورو إلى الحكومة اللبنانية للقيام بهذه الأعمال .

وتمهيدا لهذه الاعمال بدأت الكتيبة الإيطالية في تأهيل الساحة الخارجية للقلعة حتى تكون مهيئة لإستقبال السائحين ، واستعادة اهميتها التراثية والسياحية.

- أهمية القلعة : تعتبر القلعة واحدة من أهم القلاع في الجنوب نظراً لموقعها المطل على بحر صور من جهة ، والساحل الفلسطيني من جهة ثانية ، إضافة إلى إمتدادها الجغرافي، وتحصيناتها ،وقاعاتها الرحبة ، وأبراجها العالية. وكان المماليك قد استعادوها من الصليبيين في القرن الثالث عشر. وفي القرن الثامن عشر أصبحت من أملاك آل الصغير الذين كانوا يحكمون جبل عامل.
- اقسام القلعة : تنقسم القلعة إلى أربعة أقسام رئيسية وهي الحصن والمقام والمعصرة والقرية. ويحتل الحصن الجزء الشمالي الشرقي ضمن أسوار القلعة ، وكان مقراً لحاكمها، ويتألف من عدة طوابق خصص السفلي منها للمخزن والإسطبل، وإلى جانبها معصرة زيتون ونقوش وزخارف على الجدران الداخلية. وكان الطابق العلوي مسكناً للحاكم.

تجدر الاشارة الى أن قطر قامت بتأهيل المقام وترميمه بعد حرب يوليو تموز ، وهو يعتبر من أكثر أقسام القلعة حيوية حيث يزوره الآلاف سنويا مقدمين نذورهم على اختلافها .



4 - قلعة مارون



- **الموقع** : بنيت قلعة مارون على تلة جبلية، من قبل آرام بن يعقوب على طرف تومات نيحا من السلسلة الغربية لجبال لبنان، تجاورها السهول الزراعية، وقد كانت قلعة تجارية اكثر منها سكنية .
- بنيت في عهد مارون بن كنعان ، ويطل عليها جبل «الطرطاء»، فيما تطل على قلاع الشقيف ويارون وتبنين، ونشأت بينها علاقة تجارية وعسكرية .
- يعود تسمية القلعة الى مارون إبن يثرون إبن عيص شقيق النبي يعقوب ، وتسمى بالقلعة الآرامية نسبة الى سمعان .
- تتألف من ثلاث طبقات ، وتمتد على مساحة عشرين ألف متر مربع، وفيها أربع ينابيع و365 بئراً، و12 برجاً بعضها دائرياً ، أرامي كنعاني، وبعض منها مربعة صليبية، كان فيها مدينة رياضية وصالات للإجتماعات ، وتحوي قصر الملك ناحية الغرب ، وأقبية تأخذ الشكل المربع، وتزاوج بين حضارات الكنعانيين والاراميين والبيزنيطين، ومكث فيها المسيح عليه السلام .
- الوصول الى القلعة اشبه بمغامرة ممتعة، بحثاً عن المجهول، طريق وعرة يتوجب أثناء تسلقها توخي الحذر ، في رحلة اكتشاف قلعة جميلة، تظهر المعالم لقناطرها المتبقية روعة البناء الذي تصارعت عليه الشعوب .

- **البنـاء** : تحاكـي طبقـات القلعـة الثـلاث حضـارات تعاقبـت عليهـا، الطابـق الأرضي يشـير إلى صليبيـة طابعـه، والانقـاض التـي في أسـفله إلى الحقبـة الفينيقيـة. و الطابـق العلـوي حديـث العهـد ،جـدّد بنـاءه الشـيخ النصـار، ويتـوزع بـين أقبيـة وآبـار وبيـوت حجريـة، إنهـار معظمهـا، وطمـر بعضهـا.
- يحيطهـا سـور منيـع بارتفـاع سـتة أمتـار وعـرض متريـن، وينتصـب عنـد كل زاويـة مـن زوايـاه السـبع، بـرج مسـتدير يبلـغ قطـره ثمانيـة أمتـار، أو أكثـر، بداخلـه قبـو يسـتخدم مهجعـاً للحـراس، فضـلاً عـن الأقبيـة التـي اسـتُعملت كسـجون لعقـود خلـت . وتجـدر الاشـارة الى وجـود صلـة مـا بـين القلعـة ومغـارة النفاخيـة المكتشـفة حديثـاً والتـي تبعـد عـن القلعـة بضـع مئـات مـن الأمتـار، ويرجـح وجـود نفـق بـين الأثنـين .

5 - قلعة ميس



- الموقع : تطل قلعة ميس، أو «قلعة أبي الحسن (الحصن)"، القائمة على مرتفع لا تقل مساحته عن عشرة دونمات، على بقاع واسعة من الجنوب وقرى "عاملة". وتقع بين الزرارية جنوباً وأنصار شمالاً وبريقع شرقاً ووادي جهنم والبحر غرباً. ويمكن من القلعة رؤية بعض قرى صيدا والنبطية وصولاً إلى قلعة الشقيف وقرى تبنين والقطاع الأوسط. وكيفما تدور في أرجاء الحصن، تكتشف من ارتفاعه خبايا جبل عامل وتلاله ونتوءاته.

تتحدث الأدلة التاريخية باسهاب عن وجود قلعة او حصن ميس، توزعت في تحديد عمرها بين الألف سنة هجرية، أو ما يتجاوز الثمانمئة سنة، لتكرس حقيقة دامغة لم تغيّبها المراجع: ان هذه القلعة أثرية، شهدت فتوحات وعاصرت معارك فر وكر دارت في رحاها.

- البناء : قلعة ميس من بناء بعض أمراء المسلمين. (خطط جبل عامل للسيد محسن الأمين). وقلعة أبي الحسن في معجم البلدان (لشهاب الدين البغدادي)، «قلعة عظيمة ساحلية قرب صيدا الشام، فتحها يوسف بن أيوب، وأقطعها ميموناً القصري مدة من الزمن .

ويقول الشيخ ابراهيم آل سليمان في (بلدان جبل عامل)، «قال عمي: قلعة ميس في وسط سهل واسع جنوب قرية أنصار». وقال ابن الخال الفاضل السيد حسن هاشم: «ان قلعة ميس بين صير وكفرصير جنوبي أنصار»، وفي قاموس لبنان: قلعة ميس تابعة لمديرية النبطية.

- في الــوادي القريــب جنوبــاً، تنتــشر عــشرات البســاتين في التخــوم الشرقيــة للزراريــة. ويــردد أبنــاء المنطقــة والجــوار، أن جــدران بعــض هــذه البســاتين هــي مــن حجــارة القلعــة، وان معظــم «الحصــن» شــوه بعــد تدمــير ســوره وأبراجــه، في الربــع الأخــير مــن القــرن المنــصرم، مــن دون أي رادع. ثــم تولــت الجــرارات نقــل حجارتــه إلى عــدد مــن البســاتين، أو بيعهــا بأثــمان بخســة.
- الواقــع الحــالي للقلعــة : تركــت عوامــل الطبيعــة والطقــس آثارهــا البالغــة عــلى القلعــة الحصــن. وســاهم عبــث الفاتكــين، في تداعــي أقبيتهــا وغرفهــا وســقوفها وقناطرهــا العلويــة والأطــلال العتيقــة، خصوصــاً مــا كان قائــماً وظاهــراً عــلى المســاحة المســتقيمة مــن ظهــر القلعــة، فتناثــرت الحجــارة في أكثــر مــن مــكان، ثــم نقلــت إلى خــارج القلعــة. حتــى أن بعــض القناطــر التــي كانــت قائمــة مــن ســنوات قليلــة، انهــارت هــي الأخــرى وغابــت. ويلاحــظ أن المعــالم الخارجيــة للغــرف والخانــات والزنزانــات القديمــة. قــد تغــيرت ، و ســدّت العديــد منهــا أو أزيلــت كــما احدثــت كــوات ومنافــذ في الأبــراج والأقبيــة.

يؤكــد أبنــاء الزراريــة أن القلعــة شــهدت، في الفــترة الســابقة، خصوصــاً إبــان الأحــداث اللبنانيــة هجمــة واســعة مــن قبــل المنقبــين أو الباحثــين عــن الآثــار والأواني وغيرهــا. ولم يثنهــم ذلــك، عــن حفــر أرضهــا ودهاليزهــا، ودكّ بعــض الجــدران.

6 - قلعة القط



- الموقع : قلعة القط هي كتلة صخرية بركانية شاهقة ، تتميز بنتوءاتها وتجويفاتها، تقع في بلدة مجدل سلم في جبل عامل (جنوب لبنان)، وسميت باسم «قلعة القط» بسبب ما فيها من«السنانير» البرية (نوع من قطط).

ويقال أن سبب هذا النتؤ هو سقوط نيزك في تاريخ غير محدد. وقد أجريت فحوصات فيزيائية على الصخور لقلعة القط وتبين أنها ليست من نفس الطبيعة الفيزيائية الموجودة في المحيط ، وتلزم فحوصات مخبرية ومقارنتها بغيرها من النيازك لاثبات انه نيزك.

7 - قلعة قلاويه (دير كيفا)



- الموقـع : تقـع قلعـة قلاويـه او ديركيفـا الى الجنـوب مـن مدينـة صـور ويحدهـا بلـدات صريفـا، بـرج قلاويـة، سـلعا، النفاخيـة وقلاويـة، وهـي قلعـة مبنيـة عـلى تلـة مرتفعـة، ارضهـا خصبـة، غنيـة بالينابيـع.

اول مـا يشـد الانتبـاه في قلعـة ديركيفـا هـو تلـك الاعمـدة الضخمـة المحاطـة بأسـوار مرتفعـة، مبنيـة بأحجـار كلسـية وصخريـة ، بالاضافـة الى الغـرف الاثريـة وبعـض المعابـد، ويلفـت النظـر الجـدران المبنيـة بالفـن المعـماري القديـم.

الواقـع المأسـاوي للقلعـة دفـع بلديـة ديـر كيفـا ، رغـم ضعـف امكاناتهـا المادية ، إلى البـدء بترميـم عـدد مـن الأبـراج والجـدران الرئيسـية حفاظـا عـلى القلعـة ورمزيتهـا التاريخيـة والأثريـة، كـما قامـت بتنظيفهـا وتنظيـف محيطهـا كـي تصبـح قابلـة لاسـتقبال الـزوار والمهتمـين والسـياح.

8 - قلعة تبنين



- بناها الآراميون في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، بأمر من «حزائيل بن بنجدد» عام 1850 ق.ب. ويقال انها فينيقية ومن ثم جدّد بناءها الرومان.
- تعرضت للهدم تكراراً على يد ملوك الاشوريين والكلدانيين وهم في طريقهم إلى صور. واعيد ترميمها في العصر اليوناني الروماني ، ووضعت فيها حامية عسكرية لحماية القوافل المتجهة إلى المدن التجارية .
- بعد الميلاد تقول الاديبة زينب فواز في كتابها «الدر المنثور» عن قلعة تبنين ما يلي:

قلعة تبنين بناها «هيوسنت أومر» صاحب طبرية سنة 1107م ، وجعلها معقلاً لغزو صور وما يليها ، وهي على مرتفع صعب المرتقى في وسط بقعة خصبة وعامرة بين الجبال، تكثر فيها الكروم والثمار والغابات.

ويسميها الإفرنج «طورون» وكانت حصناً منيعاً مهماً وسمى بها عائلة أصحابها.

فتح هذه البلاد صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م الموافقة لسنة 583 هجرية وذلك أنه سير إليها ابن أخيه تقي الدين ففتحها وأخرج الإفرنج منها.

- سنة 594 هجرية كانت «تبنين» بيد الملك العادل بن صلاح الدين فرحل إليها الإفرنج وحاصروها وقاتلوا من بها ، وجدّوا في القتال ونقبوا الحصن من جهاتهم، فلما رأى مَن في القلعة ذلك خافوا على أنفسهم وأموالهم، فنزل بعضهم يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليستلموا القلعة .
- وصف القلعة : القلعة مستديرة الشكل ويبلغ قطرها 180م ومساحتها التقريبية 25500 متر مربع. وعدد أبراجها عشرة، أوسع ابراجها هو البرج الغربي المطل على وادي السلطانية والمعروف باسم برج ابي حمد.

9 - قلعة صيدا البحرية



- تقع القلعة على ساحل البحر المتوسط على شاطىء مدينة صيدا.
- بنى الصليبيون حصن صيدا وهي القلعة البحرية على جزيرة صغيرة متَّصلة بالبرّ (في أوائل القرن الثالث عشر).
- بعد عدَّة حروب تضرَّرت القلعة بشكل كبير وتمَّ ترميمها عدَّة مرات.
- تم تدميرها جزئياً على يد المماليك.
- تتكوَّن من البرج الغربي المستطيل على يسار المدخل. من برجين متَّصلين بواسطة جدار.

10 - قلعة صيدا البرية



- تدعى قلعة المعزّ نسبة الى المعزّ لدين الله الفاطمي.
- ارتبط اسمها بقلعة القديس لويس الذي قاد الحملة الصليبية السابعة، تختزن في جوفها مراحل تاريخية متعاقبة.
- أعمدتها تعود الى العصر الروماني.
- أهميتها أنها تحمي مدخل الميناء والمدينة من جهة البحر من الغزاة.
- تعاني الإهمال والإقفال منذ سنوات طويلة.
- هناك مشروع لتأهيل القلعة بهبة إيطالية.

11 - قلعة صور



الطرق الرومانية المعبدة وقوس النصر في المدينة الفينيقية القديمة في مدينة صور



- تقع قلعة صور في مدينة صور جنوب لبنان.
- هي قلعة رومانية ذات أهمية كبيرة.
- يوجد فيها آثار فينيقية وكنعانية وبيزنطية.
- كانت توصف بمعبد ملكارات الشهير.

أخيراً تعرضت القلاع والحصون في جبل عامل مراراً للتدمير إبان الحروب الصليبية والهجمات الداخلية، كما تعرضت للتعمير ومن ثم التدمير من قبل العدو الإسرائيلي.

بعضها حظي بالترميم وما زال البعض الآخر يصرخ وجعاً تعالوا أعيدوا إليَّ الحياة من جديد. لنكون مقصداً للسياح الى معالم أثرية لبنانية مميزة.

المراجع

1 - ياسين سويد:التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين. الطبعة الاولى 1980 ص. 34.

2 - علي الزين: للبحث عن تاريخنا في لبنان -الطبعة الاولى -1973 ص25.

3 - محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل - بيروت دار متن اللغة مجهول التاريخ ص25.

4 - علي الزين: المرجع السابق- ص166.

5 - احمد رضا : المتاولة و الشيعة في جبل عامل ،مجلة العرفان المجلد الثاني ج2،ص241.

6 - علي الزين: المرجع السابق - ص167

7 - السيد محسن الأمين: خطط جبل عامل ص65و66

8 - السيد محسن الأمين خطط جبل عامل . ص178و179و180

9 - سليمان ظاهر تاريخ قلعة الشقيف ص5 – 6 صدر عن المطبعة العصرية – صيدا.

العمران في جبل عامل



عضو هيئة المعماريين العرب : المهندس نبيل مكي

إن المعالم المعمارية هي إفراز طبيعي للتفاعلات الحضارية والسياسية و الاقتصادية والاجتماعية في كل مرحلة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث .

فالتطور العمراني هو مظهر من مظاهر التطور الانساني في هذا العصر مثلما كان في كافة عصور التاريخ حيث تأثرت البيئة العمرانية بإحتياجات كل مرحلة من مراحل التطور الانساني وتغيرت تبعاً لتغيرها.

ولمعرفة العمران وكيفية العلاقة الرابطة بين التواجد البشري والأرض كان هناك فن العمارة أو علم العمارة أو كلاهما .

- العمارة هي اللعب المتقن بالكتل المنظورة تحت الضوء (لو كوربيزيه) .
- العمارة هي بيت العلوم والفنون على مر العصور (حسن فتحي) .
- والعمارة هي السجل الموثق لتاريخ الانسان منذ نشأته على هذه الأرض وحتى يوم بعثه.
- هي ذلك الفراغ من الابداع الانشائي الذي يؤطر الذاكرة ويعطيها شكلاً يحفظ ماأختزنته الأجيال من صور ومفاهيم وتجارب وما ارادت التعبير عنه من مواقف ومشاعر ومعتقدات.
- العمارة هي الفن العلمي لاقامة أبنية تتوفر فيها عناصر المنفعة العامة والمتانة والجمال والاقتصاد وتفي بحاجات الانسان المادية والروحية في حدود أوسع الامكانات وبأحسن الوسائل المتوفرة في العصر الذي تكون فيه وهي طريقة في العمل وبتفكير ومنطق سليم.
- العمارة هي فن تكوين الاحجام والفراغات المتخصصة لاحتضان الوظائف

والنشاطات الانسانية والاجتماعية بتنوعها وهي انطلاقاً من ذلك تعكس في سماتها وأشكالها الانجازات التقنية والحضارية والتطلعات الجمالية والروحية والقدرات المادية للمجتمع في بيئة ما . وفترة تاريخية محددة.

- هي رحلة شاقة وبحث مضني عن مجالس تثنى عندها الركب أمام معالمها الخالدة وشواهدها العظيمة التي تحكي عن سيرة المجتمعات الانسانية الدؤوبة في صراعها ضد توازن الطبيعة وضرورات الحياة ومتطلبات الاستقرار. ورسالة الاعمار في الارض التي حملها بني أدم أباً عن جد. وهي التحدي المستمر للتراث بحثاً عن الاصالة والتجديد.
- هي نتاج حالة ابحار دائم في فنون الوعي بحثاً عن موانئ ترسو عندها القناعات وتستقر المفاهيم وهي سباحة ضد تيارات شتى جارفة تحمل بين ثناياها معتقداتها وقيمتها المتضاربة لتستعمر العقول قبل الأماكن وهي احتماء بصروح راسخة الجذور لا تعصف بها رياح التغيير كل يوم.
- العمارة هي علم تصميم الصروح والمدن وفن صياغة الحياة وادب تشكيل الأفكار ورسم المسارات وارساء حدود واشكال العلاقات الانسانية وتنوعاتها بين الأمم والمجتمعات والافراد مهمتها الاساسية توظيف الموارد والتقنيات الممكنة والمتاحة لتوفر للانسان ملاذاً يحميه من تقلبات البيئة الطبيعية ويحقق له الشعور بالأمن والاحتواء . ويوفر له فضاءات مغلقة ومفتوحة متعددة الأنشطة ومتنوعة الاشكال والأحجام.
- وهي البوتقة التي تحتضن ذاكرته ورؤاه وتطلعاته وقيمه وغاياته وقواسمه المشتركة مع بني جنسه وأدائه في التعبير عن ذاته وخصوصيته ضمن محيطه الانساني.
- إنها الفن الوحيد الذي يلامس حواس الانسان الخمسة على عكس باقي الفنون وكذلك هي الفن الذي يجمع الزمان والمكان (الزمكان) .

وندخل في عمارة جبل عامل أوجبل الجليل أو بلاد بشارة . وجبل عامل أسم يطلق على معظم الاراضي الواقعة في جنوب لبنان وعلى قسم قليل من الاراضي الواقعة شمال فلسطين المحتلة .

وهو مجموعة من هضاب وشعاب وأودية وبعض منبسطات متصلة بالبحر الابيض المتوسط وله امتداد الى الاردن والشام و يتبع بحضارته المعمارية الى بلاد الشام لانه جزء منها مع اختلاف في الطبيعة والطقس وهذا ما اعطاه هوية معمارية متميزة عن محيطه .

اذا أخذنا بقول المهندس والمعماري الفرنسي الشهير(لو كوربيزيه) البيت الة للمعيشة .

فـان البيـت اللبنـاني في بدايـة تكوينـه وتشـكيله ومنـذ جـرى الـكلام عنـه للمـرة الاولى بالمفهـوم الشـعبي العـام البعيـد كليـاً عـن المفهـوم العلمـي الهنـدسي المتعـارف عليـه عالميـاً جسـد أيـام حكـم الامبراطوريـة العثمانيـة وصـولاً الى خـروج الانتـداب الفرنـسي.

فكَّـر الانسـان في جبـل عامـل بدايـةً بالمـأوى ثـم الملجـأ ثـم الحمايـة وبـدأ بتحسـين الفـراغ الـذي يحيـط بـه حتـى أصبـح البنـاء يحقـق سـعادة أو تعاسـة مسـتخدميه وأوجـد المخطـط للبيـت وأصبـح اتباعـه فريضـة مسـتعملاً الطـين والخشـب. ثـم تعـرف عـلى الحجـر الصلـب فأتقنـه وأعطـاه روحـاً وحولـه الى حاجتـه فأكتسـب الحجـر طاقـة تحولـت الى كلام وأصبـح الشـاهد الأوحـد الـذي يحدثـك عـن قيـم الأجـداد (العـمارة التراثيـة) .

وبـما ان الموقـع الجغـرافي لهـذا الجبـل جعلـه حلقـة وصـل بـين الـشرق والغـرب اقتبـس المواطـن العامـلي ممـا دخـل عليـه بواسـطة تجارتـه وعلاقتـه مـع البلـدان الغربيـة مـن البحـر المتوسـط. ومـزج ممـا ورثـه عـن الفـن العـربي فأوجـد اسـلوباً لبنانيـاً خاصـاً انتـشر اسـتعماله عنـد جميـع الطبقـات . وأسسـت تلـك المدرسـة اللبنانيـة التـي تمتـاز برشـاقتها وسـعتها وحسـن ارتباطهـا وتـوازن اعضائهـا بعضهـا ببعـض .

شـكل الجـدار في البيـت اللبنـاني التراثـي الخـط المعـماري الاول لشـكله وتوافقـه مـع المنـاخ والظـروف ووسـائل العمـل والخـبرة الانسـانية والتطـور الاجتماعـي والطوبوغـرافي والجغـرافي، وكلهـا عوامـل حـددت في مجملهـا خاصيـة البيـت كوحـدة سـكنية متكاملـة ومتلائمـة مـع الطقـوس اللبنانيـة وأعرافهـا وقيمهـا في جبـل عامل(كـما في كل المناطـق اللبنانيـة) فطبيعة الانسـان واحساسـه الروحـي والمجتمعـي والنفـسي والجـمالي حـددت المـادة التـي وصلـت في تركيبتـه(أي البيـت) ويتجـلى ذلـك في خمسـة نـماذج هـي :

1 – بيوت الطين : يعود تاريخها الي ايام التنوخيين.

2 – دور العبادة : الاسلامية والمسيحية المتأثرة بالعمارة العربية والعثمانية والبيزنطية.

3 – السرايات الكبرى .

4 – اللوكندات .

5 – الخانات .

أولاً: بيـوت الطـين: غالبيتهـا متـداع بتعاقـب الزمـن وبعضهـا مسـكون حتـى الان لفقـر اصحابهـا مـن الانتقـال الى منـازل اسـمنتية حديثـة.

والناظـر اليهـا يكتشـف منـزلاً ذا وظائـف معقـدة ارتبطـت بنمـط حيـاتي زراعـي حـرفي تقليـدي هـو منـزل مكعـب الشـكل يعلـوه سـقف مـن جـذوع الاشـجار وتـراب محـدول عـلى تنـوع وظيفـي مـن الغـرف بـين المهجـع والمخـزن والمطبـخ والتنـور والطاحونـة...

وبالعودة الى تاريخ البناء الطيني كشفت الابحاث توارثه من بلاد ما بين النهرين وهو ظاهرة موجودة في كل العالم العربي مشرقه ومغربه.

ومن حسناته: قابليته للتكيف مع المناخ المتبدل(صيفاً وشتاءً) وبكونه مكاناً وظيفياً يتصل مباشرة بحياة الانسان وبهذا المعنى مكّن المعمار اللبناني من استغلال الغرفة في وظائف متعددة في مساحتها الافقية والعامودية معاً.

ثانياً: دور العبادة : منذ القدم اقترنت يوميات اللبناني بالصلاة والعمل فكان لا بد أن تقرن هذه الحياة بدور عبادة (مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين في كل مدينة وقرية وضاحية) .

وقد تكون هذه الدور لعبت دورها الفاعل في ترسيخ الوحدة الوطنية وكان اعيان المدينة او القرية يختارون اجمل الساحات والتلال لتشييد هذه الدور واعتماد امهر البنائين والمهندسين لتشكيلها فتبدو بأحلى حللها.

وهذه الدور اتخذت من الشق الهندسي البيزنطي والعربي اشكالها وبحيث يمكن للناظر ان يقرأ في هندستها مجموعة حضارات. تعاقبت على جبل عامل لتترك بصماتها على هذه الدور.

ثالثاً: السرايات الكبرى: كانت السراي تشاد من طابقين من الحجر الصلب والاعمدة الرخامية والقناطر تحيط بها زخرفات تشي بالفن المعماري الذي ساد في تلك الفترة وتجمع بين النمطين التركي والعربي وكانت تمتاز بالبهو الكبير وتمثل آية في دقة البناء والزخرفة.

رابعاً: اللوكندة : تكاد تجسد الذات المعماري اللبناني الذي ساد فترة ما بعد تفكك الامبراطورية العثمانية ودخول لبنان مرحلة الانتداب الفرنسي .

واللوكندة من حيث الهندسة لا تختلف كثيراً عن البيوت اللبنانية المترفة معظمها شيد بأجدد انواع الحجارة الرملية.

خامساً: الخانات : سرى القول على لسان المعماريين في لبنان ان الخان او اللوكندة واحدة في الخدمات والتقديمات وهذا يغاير الواقع ذلك ان اللوكندة والخانات تختلف في وجوه كثيرة أكان ذلك في تصميمها الهندسي ام على صعيد الوظيفة. واذا شئنا وصفاً ادق لوظيفة الخان امكننا القول انه كان مقراً ثابتاً للقناصل والسفراء وثكنة العسكر ومركزاً للدسائس والمؤمرات والانقلابات.

ان تطور العمارة له عدة عوامل :

من العوامل المؤثرة في العمارة والتي لا دخل للانسان بها العوامل الطبيعية مثل المناخ والجغرافيا.

وتأتي بعد ذلك العوامل البشرية مثل الحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلد فنجد انه بالضرورة تغير الطابع المعماري للبلد بتغير أيٍ من العوامل السابقة (الهجرة - الوضع الاقتصادي والوضع الأمني والسياسي غير المستقر) .

اما البيوت في جبل عامل التي تأثرت بالعوامل الجغرافية والطبيعية والمناخية والتاريخية. لا سيما بعد توطيد العلاقات بين الامارة المعنية وتوسكانا اذ بدأ استخدام القرميد الأحمر والرخام وانتشرت الشرفات الواسعة المسقوفة (السطيحة) التي هي امتداد غرفة المعيشة الى الخارج ومداميك الحجر الملون والعتبات والقصور والمشربيات.

تزامن هذا التطور العمراني في جبل عامل مع هجرة العديد من طاقاته البشرية الى العالم بسبب الاحتلال الاسرائيلي بشكل اساسي لفلسطين ، وتوسعه الى جنوب لبنان وعدم توفر ادنى مقومات الحياة الكريمة في هذه المنطقة في تلك الحقبة . وبدأ المهاجر اللبناني الجنوبي بضخ امواله الى المنطقة رغم عدم توفر الأمن الاجتماعي وكان هدفه الأول بناء منزل في ضيعته، رغم عدم وجود استقرار امني. وهذا ملفت للغاية ودليل على تشبث المواطن الجنوبي في بلاده مما اثمر ثورة معمارية تزامنت مع استعمال الإسمنت وحجر الباطون وبد استعمال الباطون المسلح الذي كان تأثيره كبيراً في التغيرات التي طرأت على الهندسة المعمارية.

وبعد هذا المزيج من الثقافات المعمارية المتعددة ظهرت اشكالية العمارة المعاصرة في جبل عامل ، التي هي جزء من اشكالية العمارة المعاصرة في كل المناطق . فالعمارة المعاصرة تعاني من تحديات عديدة أهمها:

- فقدان الهوية المعمارية الاصيلة .
- اجتياح العمارة الغربية وتأثير العولمة ووسائل الاتصال .
- التأثير السلبي لجمود القوانين العمرانية .
- التطور التكنولوجي بكافة جوانبه .

وهنا لا بد من التركيز على الصحوة المعمارية التي يشعر بها كثير من المعماريين المعاصرين حيث يتنامى الشعور في الأوساط المعمارية بضرورة العودة الى الماضي واستلهام

المقومـات التـي تخلـق عـمارة معـاصرة متميـزة تشـكل جـسراً رابطـاً بـين المـاضي والمسـتقبل. وفي نفـس الوقـت هنـاك مـن يرنـو الى المسـتقبل بـكل مـا يحملـه العـصر مـن تطـورات تقنيـة عاليـة في النظـم الانشـائية المتطـورة والمـواد الحديثـة التـي تقدمهـا تكنولوجيـا العـصر. وهـذا مـا يدعونـا للتسـاؤل: هـل نحـن في طـرفي النقيـض اللذيـن يتجاذبـان العـمارة المعـاصرة ؟ وهـل أن هويتنـا التـي نسـعى اليهـا تعنـي البقـاء والحفـاظ عـلى تقليديـة العـمارة وأن التكنولوجيـا قـد تشـكل عقبـة في تحقيـق خصوصيتنـا وهويتنـا ؟ ومـا هـي الصـورة التـي يجـب ان تكـون عليهـا عمارتنـا المعـاصرة لتؤكـد مـا نملكـه مـن إرث معـماري غنـي ؟

ولتحقيـق عـمارة معـاصرة تنبـع مـن مـاض عريـق وتسـير في اركان المسـتقبل . اذاً لا بـد ان تسـتمد النظريـة المعماريـة المحليـة لعمارتنـا جذورهـا مـن القيـم الحضاريـة والتراثيـة المحليـة عـلى ان تتفاعـل معالمهـا مـع المنجـزات الحضاريـة المعـاصرة .

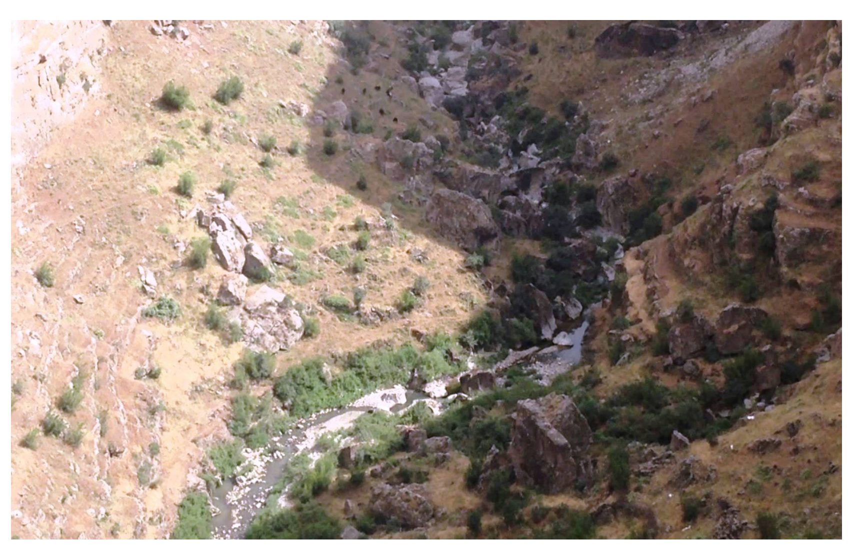
فهل سنتوصل الى حل تلك المعادلة الصعبة في العمارة ؟

جبل عامل في صور



الاستاذ اسماعيل رمال















سميت بلادنا بجبل عامل أو عاملة وأطلق عليها اسم بلاد بشارة ودُعيت أيضاً بجبل الخليل وجبل الجليل .

وهي تنقسم الى قسمين : جنوبي وشمالي يفصل بينهما نهر الليطاني .

وفي حدودها خلافٌ، والمعوَّل عليه أنَّها تمتدُ من نهر القرن بالقرب من ترشيحا (في فلسطين) جنوباً الى نهر الأولي شمالاً ومن شواطىء البحر المتوسط غرباً الى واحةِ الحولةِ ونهر الغجر ووادي التيم شرقاً .

وتبلغ مساحة هذه البلاد ثلاثة الآف كلم مربع . أما سكانها فهم من أصل عربي لغةً ونسباً ويعود نسبهم الى قبيلة عاملة وهي قبيلة هاجرت من اليمن الى أطراف الشام بعد انهيار سد مأرب ونهاية مملكة سبأ وذلك وبحسب المصادر التاريخية قبل الميلاد بثلاثماية سنة وسكنت بلادنا منذ أكثر من مايتي سنة .

وأما تسمية جبل عامل ببلاد بشارة فالأقوال في ذلك متضاربة فمنهم من يقول أنّ التسمية نسبةً الى الأمير بشارة بن معن ومنهم من قال أنه بشارة بن مقبل القحطاني والأقربُ الى الصِّحة أنه الأمير حسام الدين بشارة .

خضع جبل عامل للحكم الإقطاعي منذ القرن الثالث عشر للميلاد ومن أشهر العائلات الإقطاعية التي حكمت تلك البلاد : آل وائل آل سودون وآل مشطاح وآل شكر .

ومن مشاهير الرجال من آل علي الصغير : محمد بن هزاع – علي الصغير – مشرف البطل – ناصيف النّصار – فارس النّصار حمد البك الشاعر العاملي ومن أشهر قصائده :(السالفيه) وهي قصيدة طويلة امتدح بها السلطان عبد المجيد جاء في أولها :

تورّدَ خدُّ الظبي واخضَّر سالفُهُ   لهُ الخالُ قد أضحى سميراً بسَالِفُه

وعلي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد وتامر بك الحسين وخليل بك الأسعد وكامل بك وغيرهم ...

وكما برز العديدُ من رجال الدين والمشايخ وأبرزهم (علي الحر الجُبعي) .

تعرض جبل عامل وفي فترات تاريخية متعاقبة للإضطهاد الديني والعسكري وذلك منذ عهدي المماليك وبني عثمان الذي حكم بلادنا وبلاد المشرق منذ العام 1517م وحتى العام 1918م بعد خسارته في الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء . وخلال تلك الفترة التاريخية عرف جبل عامل قيام ثوراتِ عديدة ضد السلطنة العثمانية وتحالفوا مراتِ عدة مع خارجين عنها كتحالفهم مع ظاهر العمر (في فلسطين) .

وفي العام 1920 وبعد فرض الانتداب الفرنسي على لبنان خضع جبل عاملة للحكم الفرنسي الذي كان له منه موقفُ معادِ ورافضِ وطالب سُكانه بالوحدة مع سوريا كما سكان الولاية (ولاية بيروت) .

وخـلال تلـك الفـترة بـرزت حركـة المقاومـة ضـد الانتـداب الفرنـسي مـع مجموعـة الشـهيدين أدهـم خنجـر وصـادق حمـزة والتـي أطلـق عليهـا الفرنسـيون آنـذاك (تسـمية: العصابـات المسـلّحة) كشـكلٍ مـن أشـكال المقاومـة وردات الفعـل مما دفـع قياداتهـم الدينيـة الى عقـد مؤتمـر وادي الحجـير والـذي دعـا اليـه المغفـور لـه السـيد عبد الحسـين شرف الديـن في 24 نيسـان مـن العـام 1920 ليكون الشـعلة التـي حـددّت المسـار و المنـارة للمصـير .

وبعـد الاسـتقلال السـياسي للبنـان عـام 1943 والجـلاء العسـكري عـن أراضيـه في العـام 1946 وإعـلان دولـة إسرائيـل (الكيـان المغتصـب) في فلسـطين بدعـمٍ أجنبـي في العـام 1948 شـهد لبنـان ومنطقـة جبـل عامـل اعتـداءات وهجـمات اسرائيليـة متكـررة حيـث احتّـل خمس عـشرة قريـة جنوبيـة ونفّـذت مجـزرة الحـولا .

ثّـم توالـت الاعتـداءات الاسرائيليـة عامـيّ 1964 و1965 حتّـى كانـت حـرب حزيـران 1967 والاعتـداءات اللاحقـة عامـيّ 1970 و 1972 الى أن جـاء الاجتيـاح الاسرائيـلي في العـام 1978 تحـت مسـمّى (عمليـة الليطـاني) وفي هـذا العـام نشـأت المقاومـة اللبنانيـة والفلسـطينية للتصـدي للعـدوان ونفـذّت سلسـلة عمليـاتٍ بطوليةجريئـة ضـدّهُ في مناطـق عـدَّة وكبدتـه خسـائر فادحـة .

وفي العـام 1982 تجـددت الاعتـداءات الاسرائيليـة وكان الاجتيـاح الثـاني والـذي أطلـق عليـه إسـم عمليـة (سـلامة الجليـل) حيـث تحولـت أراضي الجنـوب اللبنـاني العامـلي الى مسـاحات قتال بين المقاومـة الوطنيـة اللبنانيـة ومنظمـة التحريـر الفلسـطينية والقـوات السـورية وبـين العـدو الإسرائيـلي .

انتهـت هـذه الحـرب بشـكلها المعـترف بـه في العـام 1985 إلاّ أنّ آثارهـا ومخلفاتهـا لم تنتـهِ حتّـى نيسـان مـن العـام ألفـين عندمـا انسـحب الجيـش الإسرائيـلي وأعوانـه مـن جنـوب لبنـان بعـد هزيمتهم أمـام ضربـات المقاومـة في شـهر أيـار مـن العـام ألفـين .

ثّـم تكـرر العـدوان الإسرائيـلي مـن جديـد في الثـاني عـشر مـن شـهر تمـوز مـن العـام 2006 والـذي اسـتّمر أربعـة وثلاثـين يومـاً، حيـث قصفـت مناطـق واسـعة مـن لبنـان، مـا احـدث خسـائر فادحـة عـلى الصعيديـن البـشري والمـادي ، وهـذا ادّى الى نـزوح مئـات الآلاف مـن أهاليـه إزاء همجيـة العـدوان ومجـازره .

إلاّ أنّ صمـود أهـالي جبـل عامـل وتضامـن الشـعب اللبنـاني ووحدتـه أنهـى العـدوان واسـقطه فكانـت معـارك بنـت جبيـل ومـارون الـراس المظّفـرة ومجـزرة الدّبابـات في ووادي الحجـير وسـهل الخيـام التـي حطمّـت أسـطورة الجيـش الـذي لا يقهـر .

وكان النـصَّرُ في شـهرآب 2006 الـذي خلّـد وأرّخَ للبطـولات والانتصـارات ، وأعـاد الأهـالي الى قراهُـم ومدنهـم ليعيـدوا إعمارهـا مـن جديـد في ظاهـرة فريـدة لم يعـرف العـالم العـربي مثيـلاً لهـا عـلى امتـداد تاريخـه الحديـث .

جبلُ عامـل تاريـخ تعمّـد بدمـاء الشـهداء شـعب سـطّر حكايـات العّـز والمجـد والكرامـة وصـاغ ملاحـم بطوليـة سـتتناقلها الأجيـال جيـلاً بعـد جيـل، وسـيبقى جبـل عامـل منـارة تنـير دروب الثائريـن والرافضـين للظلـم والعـدوان .

جبل عامل ودولة لبنان الكبير(١٩٢٠ - ١٩٢٦)

(إشكالية الخيارات بين الرفض والإندماج)



د. محمد نجيب مراد

أولاً: التعريف بالبحث.

يطرح هذا البحث إشكالية تاريخية لا زالت المقاربات العديدة التي حاولت إيجاد تفسيرات لأسبابها مغلفة بالضبابية من غير التوصل إلى حقيقة حاسمة لمسألة الخيارات التي عكست مواقف السكان من المنطقة المسماة بجبل عامل (لبنان الجنوبي فيما بعد) من الانضمام إلى دولة لبنان الكبير التي أعلن قيامها الجنرال غورو(Gouraud) – المفوض السامي الفرنسي الأول- على دويلات سوريا الداخلية ولبنان الكبير في الأول من أيلول عام 1920 .

الإشكالية المركزية التي يسعى هذا البحث إلى تظهيرها وتحويلها إلى قضية معرفية بوسائل منهجية وتقنية أكاديمية تنطلق من تحليل الدوافع العميقة الكامنة وراء الإتجاهات والخيارات العاملية تجاه مواقفهم الرافضة أو المؤيدة لإلحاقهم بدولة لبنانية هي ترجمة واقعية لمشروع شراكة جيوسياسية بين رأسمالية المركز الفرنسية من جهة وطموحات برجوازية الحرير النامية في متصرفية جبل لبنان في توسعة النطاق الجغرافي لهذه المتصرفية بهدف وصولها إلى مرافئ المدن الساحلية في طرابلس وبيروت وصيدا وصور وكذلك إلى الأراضي الخصبة للزراعة في سهول جبل عامل والبقاع وطرابلس وعكار من جهة أخرى.

الإطار الزمني لهذه الدراسة يغطي كامل المرحلة التي إستمرت فيها دولة لبنان الكبير أي منذ الإعلان عن ولادتها في الأول من أيلول عام 1920 وحتى إقرار الدستور اللبناني بقيام الجمهورية اللبنانية في الثالث والعشرين من أيار لعام 1926.

أما المنهج الذي يعتمده هذا البحث في معالجة إشكالية الخيارات وهي إشكالية تقوم على

ثنائية الرفض والإندماج فهو منهج يرتكز بدوره إلى ثنائية التفكيك والدمج. فالتفكيك يعمل على تجزئة الظاهرة التاريخية إلى عناصرها المكونة من أجل الخروج بدراسة وافية لخصوصيات كل عنصر منها على حده في حين أن الدمج يعيد تركيب العناصر المدروسة في عملية ثنائية جديدة الأمر الذي يساعد على فهم مظاهر الظاهرة في حراكها العام وبالتالي على تعين أكثر وضوحاً للنتائج والتداعيات التي تتركها في الواقع الإجتماعي والإقتصادي والسياسي.

على مستوى النتائج المتوقعة من هذه الدراسة تؤكد على حقيقة تاريخية مفادها أن الأغلبية السكانية في جبل عامل (الجنوب اللبناني فيما بعد) كانت وما زالت حتى اليوم مدفوعة بقوة إلى علاقة مصيرية مع دمشق والداخل السوري هذه المصيرية في العلاقة عبر عنها خيار الأكثرية في مرحلة تأسيس دولة لبنان الكبير وفي سائر المراحل التي أعقبتها ومع مشروع الإمام السيد موسى الصدر في أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضي وهو المشروع الذي تضمن دعوة صريحة للجماعة الشيعية اللبنانية في جبل عامل وسائر المناطق اللبنانية الأخرى دعوة تقوم على إعتبار لبنان وطناً نهائيا لهم وما عليهم أي الشيعة إلا القبول الطوعي بخيار اللبننة والإندماج في الكيان الوطنى اللبناني على قاعدة المساواة مع الجميع في الحقوق والواجبات وإرساء العدالة الإجتماعية في التوزيعات العامة.

يبقى ثمة تساؤل على درجة عالية من الدلالات والأهمية وهو أنه إذا كان الخيار الأكثري العاملي محكوماً إلى مصيرية تاريخية في العلاقة مع سورية الداخلية ومع حكم مركزي قوي في دمشق فهل هذه المصيرية الحتمية تقدم تبريراً منطقياً لتدخل حزب الله والمقاومة الإسلامية في الحرب السورية التي تجاوزت السنوات السبع على إنفجارها؟ والتي دفعت فيها أثمان باهظة من الدماء إنتصاراً لسورية ومنعاً لإختراقها من قوى تكفيرية ظلامية تطيح ليس فقط بالموقع المفصلي الجيو-إستراتيجي لسورية وإنما تمتد في اختراقها إلى لبنان وتحاصر الحالة العاملية خصوصا والحالة الشيعية عموما وتحول بينها وبين بيئتها الجغرافية والتاريخية الحاضنة لها؟

ثانياً: بلاد الشام أمام ثلاثة مشاريع بعد الحرب الكونية الأولى1.

الأول: مشروع رأسمالية المركز الفرنسي آنذاك في السيطرة والتوسّع وإقامة مشرق عربي فرنسي يدور في عجلة السوق الرأسمالية الفرنسية ويتيح لها جني تراكمات مستمرة.

الثاني: مشروع البرجوازية النامية في جبل لبنان (برجوازية الحرير) ومعها مصالح البطريركية المارونية في تطوير إقتصادها البضاعي النقدي (بالات الحرير) إلى التمدد والوصول إلى المرافئ الساحلية في مدن طرابلس وبيروت وصيدا وصور من ناحية وإلى الأراضي الزراعية الخصبة التي يفتقدها جبل لبنان والتي تنتشر في جبل عامل وفي البقاع وفي طرابلس وعكار من ناحية أخرى.

الثالث: مشروع الحركة الوحدوية في إقامة حكم عربي مركزي في دمشق تحت التاج الفيصلي (الملك فيصل) ويشمل سائر مقاطعات بلاد الشام التي كانت خاضعة للسلطنة العثمانية.

ثالثاً: خيارات جبل عامل.

توزّعت مواقف السكان في جبل عامل بين ثلاثة خيارات أساسية:

الأول: وحدوي مؤيد للوحدة مع سورية في ظل ملكية فيصل بن الحسين مقابل الرفض للإنتداب الفرنسي وأيضاً لدولة لبنان الكبير.

الثاني: مؤيد بقوة الإنضمام لدولة لبنان الكبير تحت الإنتداب الفرنسي مقابل الرفض المطلق للإلتحاق بالدولة السورية الموحّدة.

الثالث: متردد متقلب المواقف كانت تحكمه نزعة السلطة والحفاظ على مواقعه الإجتماعية والسياسية .

1 - الخيار العاملي المؤيد للوحدة مع سوريا والرافض لدولة لبنان الكبير.

تجلت الدوافع العميقة الكامنة وراء هذا الخيار بخمسة أساسية:

أ- الدافع الأول: التاريخية الإدارية:

ظلَّ جبل عامل تابعاً إدارياً حتى مطالع الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أي حتى 1864 إلى إيالة صيدا. وقد عرف كغيره من مقاطعات بلاد الشام الأخرى النظام المقاطعجي بحيث تولى إدارة مقاطعاته الداخلية عدد من المقاطعجيين الذين مارسوا دور وساطة السلطه بين والي صيدا كمرجعية حاكمة وبين أتباعهم من القوى المنتجة الفلاحية العاملة في أراضي ملكياتهم وحيازاتهم الواسعة من الأراضي. أبرز عائلات المقاطعجية العاملية كانت ثلاث:

1. بنو صعب في مقاطعة الشقيف.
2. بنو منكر في الشومر والتفاح.
3. آل علي الصغير في مقاطعة بشارة.2

بيد أن ثمة تطورات إدارية طرأت على تقسيمات بلاد الشام وكانت على علاقة مباشرة بتطور وضع بيروت التي أضحت بعد 1864 مقراً للقنصليات الأجنبية المعتمدة لدى متصرفية جبل لبنان الممنوحة حكماً ذاتياً مضموناً دولياً من الدول الكبرى آنذاك فقد تحولت بيروت إلى

مركز للمتابعة والتدخل ليس فقط في شؤون المتصرفية وحدها وإنما أيضاً في شؤون كل المناطق المنضوية إدارياً في ولاية سورية الكبرى3. لذلك لجأت السلطة المركزية العثمانية إلى استحداث ولاية بيروت عام 1888م. بهدف محاصرة الظاهرة النامية بسرعة في جبل لبنان بإتجاه الإلتحاق بالغرب وحصرها بالتالي بين ولايتين: ولاية بيروت الساحلية وولاية دمشق الداخلية. ضمت ولاية بيروت شريطاً ساحلياً يبدأ من اللاذقية شمالاً وحتى نابلس جنوباً. ويتألف من خمسة ألوية هي4:

1. لواء بيروت.
2. لواء طرابلس.
3. لواء اللاذقية.
4. لواء عكار.
5. لواء نابلس.

أتبع جبل عامل الى لواء بيروت وتوزعت جغرافيته الادارية على ثلاثة أقضية:

1. قضاء صيدا.
2. قضاء صور.
3. قضاء مرجعيون.

شملت هذه الأقضية كامل المنطقة الواقعة بين نهر الأولي (شمالي صيدا) شمالاً والرأس الأبيض (جنوبي صور) جنوباً وبين البحر المتوسط غرباً وبحيرة الحولة شرقاً بطول يصل في المتوسط إلى 80 كلم ومتوسط عرض نحو 40 كلم[5]. وبذلك تكون مساحته حوالي 3200-3000 كلم[2]. لكن هذه المساحة تراجعت بعد إقتطاع أراضٍ من منطقة الحولة تحت ستار تقويم ترسيم الحدود بين مناطق الإنتدابين البريطاني والفرنسي. فقد قضت معاهدة حسن الجوار المعقودة بينهما عام 1923 بضم قرابة 23 ألف دونم من سهل الحولة[6] الذي كان حتى ذلك التاريخ يتبع قائمقامية مرجعيون ويعرف بإسم «جورة الذهب» إلى دائرة النفوذ البريطاني في فلسطين استجابة للضغوط التي مارستها الحركة الصهيونية آنذاك.

إن التّاريخية الإدارية التي طبعت جغرافية جبل عامل كوحدة إدارية ظلت تابعة لمراكز الإدارة في صيدا ودمشق وبيروت عززت من تفاعلات الجغرافية في اطار دائرة كبرى هي دائرة بلاد الشام الأمر الذي أفضى إلى تماثل في وحدة التكوين التاريخي وإلى انتاج هوية ثقافية وإجتماعية وسياسية واحدة. من هنا كان الدافع التاريخي الإداري وراء خيار الأكثرية السكانية في جبل عامل في مطالبتها الإلتحاق بالدولة السورية الموحّدة وعدم قبولها الإندماج في كيان دولة لبنان الكبير التي أنشئت استجابة لمصالح فرنسا وطموحات القوى النافذة إقتصادياً وإجتماعياً وسياسياً في متصرفية الجبل.

ب- الدافع الثاني: إقتصادي تكاملي مع دائرة سوقية عربية مجاورة:

لم يشكل جبل عامل منذ استقراره كاجتماع بشري وحدة مجتمعية متميزة عن محيطه وإنما كان تشكله الاجتماعي الاقتصادي و الثقافي متماثلاً مع هذا المحيط لا بل ان عناصر هذا التشكل كانت تنتمي بكل خصائصها إلى دائرة مجتمعية أوسع عرفت ببلاد الشام وهذه بدورها كانت تتداخل مع دائرة أخرى أكثر اتساعاً هي الدائرة العربية- الإسلامية.

انخرط جبل عامل مع الدوائر المحيطة في شبكة العلاقات الاقتصادية والإجتماعية الأمر الذي جعل من تشكله التاريخي متماثلاً معها إلى أبعد الحدود.

ظلّ الاقتصاد العاملي حتى عشرينيات القرن الماضي (القرن العشرين) يتسم بسمتين بارزتين: فهو اقتصاد فلاحي بسيط غلب عليه طويلاً طابع المبادلات العينية والمقايضة من جهة واقتصاد كساية عائلي عبر مبادلة الفائض الزراعي والحرفي بتوفير حاجات الغذاء والكسوة وتجديد أدوات الإنتاج من جهة أخرى.

إن تنوع الإنتاج الزراعي والحرفي في جبل عامل يظهر أن ثمة فائضاً قابلا للتصريف والتبادل7 وعلى هذا الفائض قامت إلى درجة كبيرة حركة التبادل بين أسواق القصبات الداخلية8 في جبل عامل من ناحية وتوسعت الى أسواق عكا والناصرة وطبريا والحولة في فلسطين وصولاً إلى أسواق دمشق والداخل السوري من ناحية أخرى9.

اقتضت عملية التبادل إيجاد وحدات خاصة بالمقاييس والأثقال فكان «المد» الوحدة الشائعة في الأوساط الزراعية الريفية والمستعملة في كيل الحبوب وعلى صعيد الأوزان الفلاحية شكَّل «الدرهم» وحدة الوزن الأساسية بينما شاع استعمال «الذراع الشامي» و«الذراع الإسطنبولي» بالنسبة لقياس الأقمشة والألبسة10.

أرست عملية التبادل بين جبل عامل والبلدان المجاورة أرضية مشتركة من العلاقات الاقتصادية والإجتماعية والثقافية وتترجمت بنسيج من الروابط الأسرية والعائلية من زواج ومصاهرة واقتباس العادات والتقاليد والأعراف. فقد انتقل العديد من العائلات والأسر السورية والفلسطينية وكذلك المصرية من مدن دمياط والإسكندرية ورشيد والمنصورة على ساحل المتوسط إلى مدن ومراكز قصبات جبل عامل في صيدا وصور والنبطية وغيرها أمثال آل الحريري البكري الشامي درويش الحوراني الإسكندراني الدمياطي الرشيدي وغيرها الكثير.

كان من الطبيعي أن تترك العلاقات الاقتصادية والإجتماعية أثرها المباشر في إرساء حراك دائم من التفاعلات الثقافية والفكرية والسياسية بين الجماعات المتفاعلة الأمر الذي عزّز

وحـدة الخيـارات في القضايـا المصيريـة المشـتركة. مـن هنـا وعـلى قاعـدة هـذا الحـراك التفاعـلي إرتسـم موقـف الأكثريـة في جبـل عامـل في الانسـياق وراء خيـار التوحـد مـع سـورية الداخليـة مقابـل رفـض الانسـلاخ عنهـا والالتحـاق القسـري بدولـة لبنـان الكبـير عـلى حسـاب وحـدة البـلاد السـورية وعـلى حسـاب جغرافيتهـا وتاريخهـا.

ج- الدافع الثالث: الديمغرافيا العاملية.

عـام 1921 جـاء في إحصـاء المفوضيـة العليـا الفرنسـية للسـكان في دولـة لبنـان الكبـير تـوزع السـكان في المنـاطـق التاريخيـة التـي كانـت تؤلـف منطقـة جبـل عامـل وفقـاً للانتـماءات الدينيـة الأتيـة:

جدول 1: توزع سكان جبل عامل عام 1921.

الفئة الدينية	العدد	النسبة المئوية
شيعة	٥٩٢٢١	٦٢,٩٪
سنة	١٢٤٩٣	١٣,٣٪
موارنة	٦٨٨١	٧,٣٪
كاثوليك	٥٥٤٧	٥,٩٪
ارثوذكس	٤٨٣٤	٥,١٪
دروز	٣١٩٣	٣,٤٪
بروتستانت	٩١٨	١,٠٪
أقليات	٦١٥	٠,٧٪
المجموع	٩٤١٧٢	١٠٠٪

تظهـر أرقـام الجـدول أنّ إجمـالي السـكان مـن المسـلمين «شـيعة سـنة ودروز» بلغـت قرابـة 80٪ مـن سـكان جبـل عامـل مقابـل 19.5٪ للفئـات المسـيحية المختلفـة و0.5٪ للأقليـات.

كان مـن الطبيعـي أن تشـكل الأكثريـة الإسـلامية العامليـة الدافـع القـوي الـذي يقـف وراء خيـار العامليـين للإلتحـاق بدمشـق ومشروعهـا في إقامـة الدولـة السـورية الموحّـدة ورفـض قيـام الجغرافيـة السياسـية لدولـة لبنـان الكبـير عـلى حسـاب الجغرافيـة السياسـية لسـورية موحـدة.

د- الدافع الرابع: اجتماعي - ديني:

ثمـة ظاهـرة اجتماعيـة بـارزة في جبـل عامـل تتمثـل بكثافـة وانتشـار العائـلات الدينيـة في مدنـه وقـراه. وقـد بـرزت عائـلات عديـدة تنتمـي إلى «السـادة» أو «السـياد» الذيـن يعـودون بجذورهـم التاريخيـة إلى سـلالة الرسـول الأكـرم محمـد بـن عبـدالله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم

من هذه العائلات أمثال: بدر الدين نور الدين محي الدين شرف الدين قمر الدين الأمين إبراهيم نصر الله الصادق جواد مكي وغيرها الكثير.

برزت من عائلات السادة عناصر نخبوية في الفقه والتشريع والخطابة والتفسير والقضاء وسوى ذلك. وقد لعبت عناصر النخبة الدينية دور القيادة المحلية إذ تحولت إلى مرجعيات قضائية واجتماعية وتربوية وثقافية. والأمر الأكثر أهمية هو أنّ دور هذه الإنتلجنسيا الدينية لم يبق مقصوراً على جبل عامل وحده وإنما امتدّ إلى فضاء عربي_اسلامي في سوريا والعراق وإيران وأفغانستان وصولا إلى الهند وتركت بصمات عميقة في ميادين الفقه والفكر والأدب وعلوم اللغة والتفسير والبيان وما إلى ذلك.

في مرحلة ازدحام المشاريع السياسية وتعدد الخيارات بين سورية الموحدة ولبنان الكبير تبوأت عناصر علمائية شيعية مركز الصدارة في قيادة الخيار الوحدوي العاملي إلى جانب مشروع الوحدويين السوريين في إقامة حكم عربي استقلالي بقيادة دمشق تحت التاج الفيصلي. وقد تجلى ذلك في الاجتماع الذي عقد في دار الحكومة في دمشق في 5 أيار 1919 والذي حضره مندوبون يمثلون مختلف المناطق حيث قدموا لسماع خطاب الأمير فيصل «الملك فيما بعد» في هذا الاجتماع أعلن الشيخ عبد الحسين صادق الذي ترأس وفداً عاملياً موسعاً مبايعته بإسم الوفد الأمير فيصل بقوله: «إنني بإسم أهل جبل عامل أبايعك على الموت».11

في العام 1923 أي بعد قيام دولة لبنان الكبير بثلاث سنوات إشترك وفد يمثل مختلف أنحاء جبل عامل في المؤتمر الذي عقده سكان الملحقات بالدولة اللبنانية الجديدة والذي رفع فيه دعاة الوحدة السورية مذكرة مسهبة بالمطالب إلى المفوض السامي الفرنسي الجنرال «ويغان». كان في عداد الوفد العاملي كل من: الحاج عبد الله يحيى خليل إسماعيل خليل داود دادا سعيد حلاوي محمود حلاوي محمود عز الدين الشيخ أحمد رضا أحمد عارف الزين والدكتور شريف عسيران.12 أما المطالب التي تناولتها المذكرة فقد تمحورت حول طلب الانسلاخ عن لبنان والالتحاق بالوحدة السورية على قاعدة اللامركزية.13

هـ- الدافع الخامس: بسيكولوجي- سياسي:

جبل عامل منطقة زراعية فلاحية كانت على علاقات متوترة دائماً مع السلطة الخراجية واجهزتها في مراكز الولايات والالوية والأقضية والنواحي التابعة لها فهذه السلطة كانت عنيفة في ممارساتها وسلوكياتها تجاه القوى الفلاحية المنتجة أمثال جبل عامل وغيره إذ كان همها الأكبر يتمثل بقدرتها على سحب الفائض الفلاحي والحرفي على شكل ضرائب متعددة الأمر الذي ولّد صراعات واضطرابات وانتفاضات ظهرت في غير منطقة فلاحية

في حلب واللاذقية وغوطة دمشق وفي الريف الفلسطيني كما في أرياف طرابلس والبقاع وجبل عامل.

في جبل عامل إرتدت العلاقات المتوترة مع السطلة الخراجية طابعاً أكثر عنفاً وقساوة ذلك أن جغرافية جبل عامل هي منطقة محاصرة تاريخياً بحزام السلطة الحاكمة من ناحية البر ابتداءً من عكا «مركز ولاية» وصفد وحدود التماس مع الأقضية الأربعة «حاصبيا راشيا البقاع وبعلبك» التابعة لولاية دمشق وصولاً إلى صيدا «مركز ولاية». اما من جهة الغرب فهناك محاصرة من البحر.

أفضت التوترات المستمرة بين القوى العاملية المنتجة وأجهزة السلطة الخراجية في المراكز المحيطة إلى تأثيرات بسيكولوجية «نفسية» على أهل جبل عامل الأمر الذي ولّد عندهم عصبية الممانعة والرفض لكل مظاهر الحكم التسلطي والاستغلال والحرمان. هذا العامل البسيكولوجي النفسي كان من بين الدوافع القوية الكامنة وراء خيار العامليين في رفض السلطة الإنتدابية ومعها دولة لبنان الكبير بوصف الإنتداب والدولة وجهان لاستغلال وحرمان واحد.

وليس غريباً أن تكون الخلفية التاريخية للحرمان الذي عاشه أهل جبل عامل هي وراء هذه الممانعة التي إستمرت عندهم وما تزال تعبر عن نفسها في غير تشكل سياسي أو فكري حتى اليوم.

تجلت الممانعة العاملية في المرحلة المقصودة بالدراسة (1926-1920) باعتماد وسيلتين: المواجهة المباشرة من خلا أعمال الفرق المسلحة14 والمواجهة السياسية من خلال المشاركة في مؤتمرات الساحل والأقضية الأربعة واستمرار التنسيق مع الحركة الوطنية في دمشق.

2 - الخيار المؤيد بقوة الانضمام لدولة لبنان الكبير:

ارتدى هذا الخيار طابعاً مسيحياً واضحاً لكون مشروع لبنان الكبير هو مشروع يستجيب لطموحات الفعاليات والنخب المسيحية من دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية في توسيع نطاق المتصرفية الى جغرافية سياسية لدولة لبنانية جديدة مزودة بمرافئ ساحلية جديدة تسهل الانفتاح التجاري مع الخارج من جهة وتتوفر فيها الأراضي الخصبة للزراعة تكون كافية لتأمين الحاجات الغذائية للسكان من جهة أخرى.

رأى مسيحيو جبل عامل لا سيما في مدينة صور الساحلية15 والبلدات الممتدة على طول الشريط الفاصل بين جبل عامل وفلسطين وهي بلدات عين إبل رميش دبل القليعة ومرجعيون رأوا في قيام دولة لبنان الكبير فرصتهم الذهبية لانتقالهم من أقلية سكانية في جبل عامل وكذلك في دولة سورية الموحدة إلى أكثرية في دولة جديدة يغلب عليها طابع الأكثرية المسيحية.

عبر هذا الخيار عن توجهاته السياسية في العديد من العرائض والبرقيات التي أرسلت من مدينة صور وسائر البلدات والقرى المسيحية في جبل عامل إلى مؤتمر الصلح في فرساي وإلى وزارة الخارجية الفرنسية والتي تطالب بإلحاح بقيام لبنان الكبير تحت الإنتداب الفرنسي. وكانت أبرز العرائض تلك التي رفعت من مدينة صور ومنطقتها وهي تتحدث باسم أربعين الفاً من مسيحيين وشيعيين كما جاء فيها. رفعت العريضة إلى مؤتمر الصلح في باريس في 11 أيلول 1919 مطالبة الإنضمام إلى لبنان الكبير ومعللة موقفها بأنّ «لبنان وبيروت مدينته هما سوقنا التجارية منذ القدم. هناك نبيع غلاتنا ومن هناك نأخذ حاجاتنا. فنريد صوناً لإقتصادياتنا أن نُضم لإخواننا في الشمال وأن نخضع لقوانينهم ونطلب الوصاية الفرنسية التي طلبوها». 16

لم يقتصر دعاة هذا الخيار على النخب الإجتماعية والتجارية والأوساط المسيحية العاملية ولكنه بات ظاهرة شعبية طالت سائر الشرائح في السلّم الإجتماعي الأهلي. وقد عبّر هذا الخيار عن طروحاته ليس في رفع المذكرات والعرائض وحسب وإنما أيضاً في العديد من المظاهر الشعبية فهناك أهزوجة شعبية كان يرددها أبناء دبل وعين إبل وسائر البلدات المسيحية الأخرى تعكس عمق مشاعر هذه البلدات في تأييدهم لفرنسا ولمشروع دولة لبنان الكبير فقد جاء في الأهزوجة وهي تتوجه إلى الأهالي من الشيعة في البلدات المجاورة.

«فرنسا أم الدنيا عموم — اعتزوا يا لبنانيـــي»

«فرنسا يا شعب مليح — يا معزز دين المسيح»

كان مناصرو الوحدة السورية من أبناء الشيعة في البلدات المجاورة يردون بأهزوجة مقابلة:

« تقوا و موتوا يا عدوان — البنديرة شـــريفـية»[71]

« تقوا موتوا يا عـــدوان — والرايـــة فيصليـــة»

3 – الخيار المتردد:

إذا كان الخيار الوحدوي قد أوجد نقاط إرتكاز له في جبل عامل من خلال إنخراط هذه البقعة الجغرافية في نسيج العلاقات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية لبلاد الشام والمشرق العربي وصولاً إلى العراق ومصر والحجاز فإن ثمة معطيات اخرى كانت تلقي بتأثيراتها على بعض النخب الإجتماعية-السياسية وتدفعها إلى حالة من إنعدام التوازن في مواقفها وخياراتها. فقد كانت هذه النخب وبحكم تجربتها في ممارسة السلطة على غير مستوى في العهد العثماني تجنح دائماً نحو المساومة وتسعى في حراكها السياسي إلى تأييد القوى التي تتقاطع مصالحها معها.

في البداية توجهت أنظار هذه النخب في جبل عامل نحو دمشق بوصفها آنذاك تمثل مركز القوة في الحركة العربية. فأسرع أعيان المدن ومتنفذو الأرياف إلى تأييد حكومة دمشق العربية إعتقاداً منهم بأن هذه الحكومة سوف تشكل مرجعية مقرّرة للسلطة في المنطقة برمتها. لكن هذا التأييد الأعياني النخبوي لحكومة دمشق لم يكن ليعكس ولاءً سياسياً أو أيديولوجياً بمقدار ما كان سلوكاً مظهرياً شكلانياً حكمته نزعة هؤلاء الأعيان نحو تدعيم مراكز نفوذهم الإجتماعي والسياسي. فكامل بك الأسعد أراد أن يحتفظ بمركز الزعامة الاول في جبل عامل لذلك رأى في وجود رياض الصلح على رأس حكومة صيدا الموالية لدمشق على أنه ليس سوى تمهيد لتمدد نفوذ العائلة الصلحية إلى العمق الداخلي لجبل عامل. ويذكر محمد جابر آل صفا أنه « عقد في النبطية بدعوة من كامل بك إجتماع حافل بالعلماء والأعيان كان الغرض منه إسقاط حكومة رياض بك والحملة على مناصريه من العامليين الشيعيين ومنهم محمد جابر والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد رضا والشيخ عارف الزين لأنهم أشاروا بالأناة وتوحيد العمل». 18

وجاء في مذكرات الشيخ سليمان ظاهر غير المنشورة أنه « باشر اليوم كامل بك بمساعدة الشيخ عبد الحسين (صادق) والشيخ علي حلاوي والبكوات توقيع لائحتين الأولى للمؤتمر السلمي والثانية للجنرال «غورو». وتتضمن أولاهما مطالبة المؤتمر بضم جبل عامل إلى لبنان الكبير بحدوده القديمة وإمتيازاته والثانية الإلتماس من «غورو» تقديم اللائحة إلى المؤتمر وإبلاغ أمانيهم ومساعدتهم على تحقيق هذه الفكرة. وتسلم نسخاً منها كلّ من نعمان بك وملحم شرف الدين وعلي فياض على أن يوقعوها من الشقيف والشومر والتفاح لتأمين أهلها. وسافر هو والشيخ إلى الجديدة ضحى اليوم»19.

يصف الشيخ سليمان ظاهر موقف كامل الأسعد وحركته المشار إليها على أنه بمثابة إنقلاب على مواقف الأكثرية في جبل عامل المؤيدة للوحدة مع سورية والرافضة للإنضمام إلى لبنان الكبير ويقول بهذا الصدد: «بلغنا أنّ السخط على كامل بك عامٌ في أكثر أنحاء عامل بسبب إنقلابه وسعيه إلى ضم البلاد للبنان»20. ويتابع «أن لوائح كامل بك بطلب ضم عامل إلى لبنان رفض توقيعها أهالي بنت جبيل حيث أرسلها إليهم والسخط عام من عمله هذا المضاف إلى إنقلابه وسمعنا أنّ سكان قراه غير راضية من عمله»21.

كان الفرنسيون قد عملوا منذ البداية على إستمالة الأعيان والمتنفذين في المدن والأرياف الزراعية مدركين لما لهؤلاء من قوة تأثيرية هامّة لدعم مشروعهم السياسي القائم على إعتماد التجزئة والتفكيك السياسي في سورية الداخلية مقابل الضم والجمع في تأليف لبنان الكبير. وقد تمكن الفرنسيون بالفعل من اختراق فئة الأعيان بسهولة وذلك بسبب هشاشة بنيتها الداخلية من جهة وتعدد مواقفها واتجاهاتها المتلازمة مع طموحاتها السلطوية من جهة أخرى. وإن كان التردد قد حكم مواقف العديد من الأعيان والزعامات النافذة في أول

الأمر فإن هؤلاء «لم يجرأوا على الجهر بآرائهم هذه إلاّ بعد دخول الجيش الفرنسي دمشق إثر معركة ميسلون»22 وإنهاء الحكم العربي الفيصلي تمهيداً لمباشرة المخطط الإنتدابي الذي يستجيب للمصالح الفرنسية العليا.

وإذا كانت ثمة أسباب عديدة قد أفضت إلى سقوط الحركة الفيصلية في دمشق فإن سبباً مركزياً كان المانع الأكبر الذي حال دون نجاح هذه الحركة وهو يكمن في إعتمادها بشكل أساسي على أعيان المدن(تجار وملاّك) وعلى استمالة زعماء العشائر والقبائل والطوائف الدينية المختلفة ضمن أشكال من العلاقات الإجتماعية-السياسية القائمة على مبدأ (المبايعة) أي مبدأ العقد ما بين سلطة مركزية وسلطات محلية تمثلها(قبائل وطوائف). هذه الحركة لا تستطيع بتركيبها الإجتماعي هذا أن تتحول إلى (حركة قومية) أي حركة مشروع بناء دولة مركزية على إمتداد (وطن) نظر له مثقفو المدن آنذاك بصيغة «المملكة العربية السورية»23.

أدركت فرنسا أن سياسة التجزئة التي إعتمدتها للفصل السياسي بين المناطق تتطلب مزيداً من الإحتواء للقوى الإجتماعية النافذة هذه القوى التي تبني مواقفها وخياراتها السياسية على أساس الضمانات التي تحفظ لها مصالحها ومواقعها الإجتماعية لهذا لجأت سلطات الإنتداب الفرنسي ولأسباب سياسية واضحة إلى تعزيز شرعية الملكيات العقارية الكبيرة 24 متوخية من وراء ذلك كسب المزيد من الموالين لسياستها من أعيان ومتنفذين في المدن والأرياف فقد أصدرت سلسلة من القرارات لتنظيم الملكية العقارية التي لم يكن الهدف الفعلي منها سوى المزيد من استيعاب العناصر النافذة إجتماعياً وسياسياً وتطويعها لسياسة الضبط والإشراف من قبل سلطة مركزية عليا هي سلطة المفوضية الفرنسية «Haut Commissariat».

أما النتائج البارزة التي ترتبت على ظهور الملكيات العقارية الكبيرة فقد تمثلت بنجاح السياسية الإنتدابية الفرنسية في عملية «ترويض» لكبار ملاّك الأراضي الذين ما لبثوا أن إندمجوا في الحياة الإنتدابية وتبوأوا مراكز السلطة عبر تراتبيتها الهرمية بدءاً من قاعدتها المحلية المتمثلة بالمجالس البلدية والإختيارية في أحياء المدن والقرى الريفية مروراً بجهاز الوظائف الإدارية المختلفة وصولاً إلى المجالس التمثيلية والوزارية.

في اللجنة الإدارية التي أنشأها الجنرال «غورو» (22 أيلول -1920 8 أذار 1922) مثّل المقعد الشيعي عن جبل عامل الحاج حسين زين (شقيق يوسف بك الزين) فكان نائباً لرئيس اللجنة.25

في المجلس التمثيلي الأول (24 أيار -1922 13 كانون الثاني 1925) مثّل محافظة لبنان الجنوبي كبار ملاّكي الأراضي الزراعية وهم:26

1. فضل بك الفضل (شيعي-ملاّك)
2. رزق الله بك نور (كاثوليكي-ملاّك)

3. يوسف بك الزين (شيعي-ملّاك)
4. نجيب بك عسيران (شيعي- ملّاك)
5. نصري بك عازوري (ماروني- ملّاك)
6. الأمير خالد شهاب (سني-ملّاك)

في المجلس التمثيلي الثاني (13 تموز 1925 – 17 تشرين الأول 1927) كان الممثلون عن جنوبي لبنان:27

1. نجيب بك عسيران
2. عبد اللطيف بك الأسعد
3. يوسف بك الزين
4. الأمير خالد شهاب
5. الدكتور حبيب ناصيف (ماروني-طبيب)
6. يوسف سالم (كاثوليكي-مهندس)

في مجلس الشيوخ الذي تم تعيين أعضائه من 24 أيار 1926 – 17 تشرين الأول 1927 كان عن الجنوب اللبناني:

1. حسين بك الزين (شيعي-ملّاك)
2. فضل بك الفضل (شيعي-ملّاك)28.

إن اشتراك ممثلين عن جبل عامل (لبنان الجنوبي فيما بعد) في المجالس التمثيلية وفي مناقشات الدستور اللبناني (أيار 1926) 29 يؤكد الخيار السياسي للبعض من النخب في تأييدهم قيام الدولة اللبنانية الجديدة حيث تقاطعت مصالحهم معها فتحولت عناصر من هذه النخب إلى جزء من جهاز السلطة في الدولة الجديدة وقد ترتب على هذا التحول تراجعات في الموقف الوحدوي وصولاً إلى المعارضة في بعض الأحيان لمطلب الوحدة السورية.

لكن هذه النخب التي تقاطعت مصالحها مع مصلحة الإنتداب الفرنسي وتحولت إلى جزء من جهاز السلطة الإدارية والسياسية للدولة اللبنانية هذه النخب لم تستطع الفصل بين جبل عامل ومحيطه المجاور. فقد ظل الشعور العاملي قويا بالوحدة لا بل دخل هذا الشعور وجدان العامليين الذين ما لبثوا أن عبروا عن تطلعاتهم الوحدوية في غير مناسبة. فإنتصروا لقضية فلسطين في كل معاركها إبّان الإنتداب البريطاني واندفعوا في مظاهرات صاخبة عام 1936 إنطلقت من بنت جبيل القريبة من الحدود اللبنانية-الفلسطينية لتشمل جبل عامل امتداداً إلى صيدا وقد عكست هذه المظاهرات تلازم القضايا الإجتماعية (الاحتجاج على مونوبول التبغ) مع القضايا القومية. واستمر العامليون وحتى اليوم يدفعون ضريبة الدم عن قضية فلسطين وعن القضية السورية الراهنة وعن سائر القضايا العربية والإسلامية يحركهم في ذلك خصوصيتهم التاريخية وأصالتهم العربية-الإسلامية وميلهم الفطري لرفض مشاريع التسلط والاستبداد والاحتواء.

المراجع

1 – للمزيد من التفاصيل حول المشاريع التي ارتسمت في أعقاب الحرب العالمية الأولى بشأن الجغرافيا السياسية لبلاد الشام راجع الورقة البحثية التي قدمتها إلى مؤتمر «العلاقات السورية اللبنانية» المنعقد في دمشق بين 18-14 نيسان 2009 دار التكوين دمشق طبعة أولى 2009 ص 334-309.

2 – حسين سلمان سليمان «المقاومة العاملية لسياسة القمع العثماني 1825-1750م» مجلة «الفكر العربي» الصادرة عن معهد الإنماء العربي العدد الثامن والخمسون تشرين الأول – كانون الأول 1989 ص 113.

3 – عام 1864 صدر قانون الولايات العمومية والذي بموجبه توزّعت بلاد الشام بين ولايتين اثنتين: ولاية حلب وولاية سورية التي استمرت حتى عام 1914.

4 – محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك ولاية بيروت دار لحد خاطر بيروت طبعة ثالثة 1987 وهو قسمان شمالي وجنوبي. راجع ايضاً بياناً بعدد الأقضية والنواحي والقرى والمزارع التابعة لولاية بيروت في: ساطع الحصري البلاد العربية والدولة العثمانية دار العلم للملايين بيروت طبعة ثالثة 1965 ص 245.

5 – الشيخ علي الزين للبحث عن تاريخنا في لبنان د.ن طبعة أولى 1973 ص 164.

6 – يورد سلام الراسي وهو من مرجعيون بياناً بالمساحات المفقودة والتي ما زال أصحابها يحتفظون بالمستندات الثبوتية بأملاكهم كما يورد مسعود ضاهر لائحة بأسماء 17 قرية من جبل عامل جرى إلحاقها بدائرة النفوذ البريطاني في فلسطين وهي: المطلة النخيلة الصالحية الناعمة الخالصة الزوية المنصورة الذوق الفوقاني الذوق التحتاني خان الدوير الدوّارة الخصّاص العبّاسية دفنه اللزازة هونين دار الفارابي بيروت طبعة أولى 1974 ص 87-86.

7 – ثمة تفاصيل وافية عن الإنتاج الزراعي والحرفي في جبل عامل أوردها مؤلفا كتاب «ولاية بيروت» القسم الجنوبي مرجع سابق ص 338-291.

8 – أشهر أسواق جبل عامل الداخلية: سوق النبطية سوق بنت جبيل سوق عديسة وسوق الخان بين حاصبيا ومرجعيون.

9 – بشأن مبادلات الأسواق بين جبل عامل وفلسطين وسورية الداخلية راجع دراستنا: العلاقات اللبنانية-السورية دار الرشيد للعلوم بيروت طبعة أولى 1993 ص 118-125. أنظر أيضاً بشأن الأسواق .

1 – HIMADE Said Economic organization of Syria Beirut 1935 p 203

10 – محمد مراد العلاقات اللبنانية-السورية المرجع نفسه ص 125-123 وكذلك: روجر أوين الشرق الأوسط في الإقتصاد العالمي 1914-1800 ترجمة سامي الرزّاز مؤسسة الأبحاث العربية بيروت طبعة أولى 1990 ص 14-13.

11 - حسن الحكيم الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والإنتداب الفرنسي 1946-1915 دار صادر بيروت 1974 ص 56 وأيضاً: ساطع الحصري يوم ميسلون دار الكشاف بيروت 1947 ص 211.

12 - يوسف قزما الخوري مشاريع الوحدة العربية 1987-1913 (وثائق) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت طبعة أولى 1988 ص 50.

13 - أبرز الفرق المسلحة التي قادت المواجهة العسكرية ضد الفرنسيين كانت ثلاث: فرقة صادق حمزة فرقة أدهم خنجر وفرقة محمود أحمد البزي أنظر السيخ أحمد رضا «مذكرات للتاريخ» العرفان مجلد 33 الجزء السابع ص 733 وأيضاً صحيفة «لسان الحال» العدد 8361 تاريخ 4 تموز 1921 ص 2.

14 - بلغ عدد سكان مدينة صور في مطالع القرن العشرين حوالي 7000 نسمة توزعوا مناصفة 3500 مسيحيين 3500 مسلمين. ورد ذلك في كتاب «ولاية بيروت» القسم الجنوبي مرجع سابق ص 289.

15 - هذه الوثيقة من محفوظات مكتبتي الخاصة وقد حصلت عليها من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية:

1- Ministère des Affaires Etrangères E-Levant Syrie-Liban 19181929 V 44 P.112

16 - منذر جابر « الكيان السياسي لجبل عامل قبل 1920» ورد في: صفحات من تاريخ جبل عامل منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بيروت 1979 ص 95.

17 - محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل دار النهار للنشر طبعة ثانية بيروت 1981 ص 223.

18 - مذكرات الشيخ سليمان ظاهر غير المنشورة الاثنين 13 جمادي الأولى 1338ه / الموافق 2 شباط 1920 (من محفوظات الأستاذ يوسف أحمد مروة – النبطية).

19 - يوسف الحكيم سورية والعهد الفيصلي دار النهار للنشر طبعة ثانية 1980 ص 247-248

20 - وجية كوثراني بلاد الشام قراءة في الوثائق معهد الإنماء العربي بيروت طبعة ثانية 1984 ص 248-247.

21 - - للمزيد من التفصيل حول السياسة العقارية للانتداب الفرنسي راجع دراستنا: التملك والسلطة في الجنوب اللبناني 1975-1920 منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية الرقم (49) طبعة أولى بيروت 2009 الفصل الثاني ص 180-133.

22 - أحمد مصطفى حيدر الدولة اللبنانية 1953-1920 دار مكتبة الحياة بيروت 1953 ص 10-9 14- 15-

المحور الثالث:
الريادة العاملية



تعريف للمحور:



أ . غدير حوماني

دم وفتك، هدم وتدمير، خوف وذعر، روح جهادية، مواقف رافضة على مدى القرون للوحشية الصهيونيّة ...

جبل عامل ما نضب قلم الأعلام فيه، ولاجفت كلمات الوعي والإرشاد، رغم التعسف والاضطهاد، بقي هذا الجبل، جبل العزّة والإباء والكرامة. وقد ساهم في تحصينه ثلل من الفقهاء والمفكرين والعلماء والمقاومين، ملتزمين مقولة : حيث لا تنمو أمة لا يمكن لأي منهج أو صيغ محنّطة أن تغيّر من الواقع شيئاً .

سيترأس هذا المحور عالمٌ معرفيٌّ، إمتاز بعمق ثقافته وخبرته الادبية والتربوية والعلمية والبحثية ... التي طالت ميادين المعرفة كافة.

إنه العميد السابق للمعهد العالي للدكتوراة في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية الدكتور طلال عتريسي.

كلمة رئيس الجلسة



العميد السابق للمعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية د. طلال عتريسي

جبل عامل الريادة التي يستحق

الريادة تعني التميز. والتميز يعني عدم تكرار ما فعله أو قاله، أو فكر فيه الآخرون. هو المبادرة الى تقديم فكرة، أو مشروع، أو سلوك، من جانب شخص أو مؤسسة، أو دولة، أو منظمة، أو أي هيئة اجتماعية، أو فكرية أو ثقافية..بحيث تكون هذه المبادرة غير مألوفة وتخدم في الوقت نفسه المصلحة العامة، أي مصلحة الإنسان والمجتمع. وبحيث تملك الجرأة على تجاوز ما هو تقليدي، أو ما هو متعارف عليه.

عندما تطرح قضية الريادة في جبل عامل فليس لأن هذه البقعة تتميز بموقعها الجغرافي، أو بمساحتها، أو بأي بعد آخر من هذا القبيل. فمثل ذلك قد نشهد مثله أو حتى أفضل منه في كثير من مناطق لبنان التي تشتهر بمناخها أو بشلالاتها، أوحتى بآثارها القديمة...

لقد شهد جبل عامل عبر العصور مجموعة من الأحداث التي جعلته في موقع الريادة بسبب تفاعله الإستثنائي معها.وبسبب وجود شخصيات سياسية وعلمية برزت في مواقفها، وفي حقل اختصاصها في هذه البقعة الصغيرة نسبياً. وبسبب تصديه غير المسبوق لأكبر وأخطر مشروع استيطاني تجسد في دولة الإحتلال الإسرائيلي.بحيث جعلت هذه العوامل كلها، التي احتضنها هذا الجبل في موقع الريادة والتميز.

فإذا عدنا الى التاريخ غير البعيد عندما وقع الإنقسام في مطلع القرن العشرين بين من يؤيد الوحدة السورية الكبرى وبين من يريد الإنفصال برعاية فرنسية غربية، كان جبل عامل من أهل الوحدة مع سوريا ومن دعاتها.

وعندما تبلور مشروع لبنان الكيان وتوافقت الطوائف اللبنانية على ولادته، لم يكن جبل عامل خارج هذا التوافق على الرغم من التهميش الذي لحق به في داخل هذا الكيان، منذ ذلك اليوم والذي استمر سنوات طويلة من الزمن.

وجبل عامل كان ريادياً في قتال المحتلين الفرنسيين. فقدم للأجيال انموذجاً عن أبطال مثل صادق حمزة وأدهم خنجر،سوف يكررهذا الجبل مثل بطولاتهم في قتال المحتلين الإسرائيليين. وعلى الرغم من إهمال التاريخ اللبناني ودروسه لهذين البطلين، وعلى الرغم من تشويه الرواية الفرنسية لهذه البطولات، واتهامها بالتخريب... فإن ذاكرة أهل جبل عامل لا تزال حية وتروي شعراً ونثراً وزجلاً سيرة وبطولات أدهم خنجر وصادق حمزة الفاعور.

كان جبل عامل ريادياً في رفضه المبكر الفتن الطائفية والمذهبية،مع السيد عبد الحسين شرف الدين في مؤتمر وادي الحجير الذي دعا فيه الى التنبه للفتنة التي يريد الخرج أن تقع بين المسلمين والمسيحيين. وكان الإمام الصدر لاحقاً هو الريادي الإستثنائي الذي اعتبر أن أفضل وجوه الحرب مع اسرائيل هي السلام الداخلي. وهو أول من اعتبر ان الطوائف نعمة وأن الطائفية نقمة، في الوقت الذي كان النقاش السياسي والديني في لبنان يحوم حول هذه الطوائف ولا يصل الى الرؤية التي يجب النظر من خلالها الى هذه الطوائف ودورها في الحياة السياسية والإجتماعية في لبنان.كان الإمام الصدر ريادياً في دعوته الى تأسيس المقاومة ضد اسرائيل في الوقت الذي كانت ثقافة لبنان السياسية الرسمية هي «قوة لبنان في ضعفه».

أنجب جبل عامل العلماء المخترعين البارزين غيرالعاديين أمثال حسن كامل الصباح ورمال رمال وسواهما ممن لم يجدوا في بلدهم الحضن العلمي الذي يلائم تطلعاتهم واختراعاتهم، فذهبوا الى ما وراء البحار ليقدموا للعالم وللإنسانية من خلال تميزهم العلمي واختراعاتهم خدمات جلى، تأسس عليها الكثير من النظريات والتطورات العلمية في مجالات شتى.

عانى جبل عامل الكثير من الإضطهاد السياسي والمذهبي في الحقبتين العثمانية والفرنسية. ولكنه مع ذلك كان ريادياً في إنجاب العلماء في ميادين الفقه والتأليف والنشر والأدب والشعر. وكان لجبل عامل قصب الريادة في نشر التشيع في بلاد فارس، تلك الأمبراطورية الشاسعة التي قدمت للعالم ثقافة غنية لا تزال آثارها الى اليوم.ويروى أن أحدى المناسبات في هذا الجبل جمعت نحو ستين مجتهداً من كبار علماء الشيعة. والإجتهاد كما هو معلوم درجة علمية لا يحصل عليها طالب العلم في الحوزات الدينية الا بعد انقضاء سنوات طويلة من الدرس والبحث والتعلم والتتلمذ على كبار العلماء والفقهاء....

جبل عامل كان ريادياً في أثناء الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان،بين 1975 و1989. فلم ينزلق الى «التطهير» المذهبي والديني، الذي تعرضت له مناطق أخرى كثيرة في لبنان.

فقد حافظ أهل هذا الجبل على عيشهم المشترك والطبيعي مع باقي الطوائف والمذاهب، ولم يحدث أن أرغم أي كان على مغادرة بيته أو أرضه، تحت التهديد أو الوعيد، بسبب انتمائه الديني.

لقد تجلت ريادة هذا الجبل بشكل خاص في المقاومة التي رفع لواءها ضد الإحتلال الإسرائيلي منذ عام 1982. هذه المقاومة أثمرت عام 2000 تحريراً لمعظم الأراضي اللبنانية المحتلة، وقد فرض هذا التحرير بالقوة على العدو، أدى الى انسحابه من دون قيد أو شرط خلافاً لما كان قد حصل مع انسحابات مماثلة من أراض عربية محتلة .. وفي عام 2006 أثمرت هذه المقاومة تغييراً في معادلات الردع والتهديد مع العدو. وأنجبت هذه المقاومة قادة وشهداء استثنائيين وروداداً، تحولوا الى إيقونة في الصراع مع العدو.

يستحق جبل عامل هذا التكريم. فالريادة التي نتحدث عنها هي التي أتت اليه من خلال تاريخه العلمي والأدبي والسياسي، والجهادي، ومن خلال شخصياته البارزة في تلك الميادين كافة.

الريادة الفكرية في الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية
(كوكبة من روّاد جبل عامل)



د. ناهض قديح

1 – تمهيد:

الحديث عن جبل عامل شيّقٌ وممتع، لكنه يضع الباحث فيه أمام إشكالية كبرى، لكثرة عدد العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين والمبدعين، وضخامة إنتاجهم وغزارته رغم ضياع الجزء الأكبر منه، وهذا ما يجعلنا عاجزين عن الإحاطة بإبداعات هذا الجبل، وإعطاء شخصياته العلمية والفكرية حقها، ويلزمنا الجهد المضني في البحث والتقميش، لقلة المستندات التاريخية والوثائق التي تساعدنا في الكشف عن الحقائق. ومن جهة أخرى سنجد أنفسنا أمام كمّ كبير ممن كتبوا التاريخ خارج إطار العلم والصدق، وملاحقة الأحداث؛ لأن تحيزهم للسلطة وأصحاب القرار كان واضحاً وضوح الشمس.

فالتاريخ كما قرره إبن خلدون[1] هو خبر عن «الإجتماع الإنساني»، أي عن المجتمع، وما يحصل فيه من ظواهر إجتماعية، سواء كانت سياسية أو إقتصادية أو تربوية أو ثقافية وغيرها، وكيف تنشأ الدول والسلطة. والأهم أن يكشف المؤرخ عن الدوافع والأسباب، أي عن العوامل التي تقف وراء هذه الظواهر.

إن المتنورين من مؤرخي جبل عامل قد عرفوا هذه الحقيقة، فانطلق محمد جابر آل صفا مثلاً من أن التاريخ هو «الإخبار عن الحوادث، والبحث في القضايا التي وقعت في الأعصر الغابرة، وعللها وأسبابها»[2]. كما أن علي الزين يقول بأن «الدافع الذي جعله يتحول من النقد إلى كتابة التاريخ، هو تصحيح ما كتبه مؤرخو الجنوب حديثاً عن جبل عامل، فقد كانوا يبحثون التاريخ لغايات، وتزلفاً لبعض الحكام»[3]، لأن التاريخ عنده هو بحث في الحقيقة، وبحاجة للتمحيص والبحث والدقة.

---

1 - المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة ثالثة 1967، ص 57.
2 - تاريخ جبل عامل، دار النهار، بيروت، طبعة ثالثة، شباط 1998، ص 13.
3 - مجلة الحرية اللبنانية، تشرين الأول 1977.

2 – مميزات جبل عامل:

جبل عامل هو هذه البقعة من لبنان، الغالية على قلوبنا، الممتدة من البحر الأبيض المتوسط جنوباً، إلى جبل حرمون (الشيخ) والحدود السورية شرقاً، ومن الحدود الفلسطينية حتى نهر الأولي شمالاً[1].

يمتاز جبل عامل بطيب هوائه، وعذوبة مائه وطيب تربته. كما يمتاز سكانه بالذكاء وإعتدال القرائح، ولعل هذا ناشئ عن الأمر الأول لتأثير الإقليم في الطباع، وإعتدال الهواء في إعتدالها[2].

عرف جبل عامل على مدى تاريخه، الكثير من العلماء والأدباء والمفكرين، الذين وقفوا ضد الظلم والإستبداد والإقطاع والطائفية والطبقية والتخلف، وناضلوا من أجل الحرية والمساواة والعدالة، وعملوا على تطوير مجتمعهم.

3 – دوافع الحركة الفكرية في جبل عامل:

شهد جبل عامل حركة فكرية تراكمت لتقدم لنا ما نشهده الآن من نهضة في العلوم والآداب والثقافة وكل ألوان المعرفة. وكان وراء هذه الحركة كدافع لتطويرها عدة عوامل هي: الدين والتطلع إلى النشاطات الفكرية المجاورة – الرحلة العلمية – المدارس – المكتبات[3]، وسنلخصها بما يلي:

عندما عرفت السواحل اللبنانية الإسلام مع الفتح، كان من الطبيعي ضرورة تعليم القرآن والشريعة. وقد برزت صيدا وصور والصرفند كقواعد علمية بعد القرن الثاني. وسايرت هذه المنطقة الحركات العلمية القائمة في دمشق وبغداد ومصر وتأثرت بها وأخذت عنها. واعتمدت الحركة الفكرية في القرن السابع على الرحلة العلمية وعلى المدارس القائمة في جبل عامل.

رحل العامليون طلباً للعلم إلى العراق (الكوفة، بغداد) فبرز العديد منهم في الفقه الجعفري. ثم تابعوا رحلاتهم إلى إيران لأنها كانت مركزاً علمياً شيعياً، ثم إلى الهند وحيدر أباد ومصر.

وما زاد في تنشيط الحركة الأدبية الفكرية في جبل عامل المدارس، كمدرسة جزين، وميس الجبل، وشقرا، والكوثرية، وجباع، وحنويه، بنت جبيل، والمدرسة النورية والحميدية ومدرسة النبطية الحديثة.

كما ساهمت المكتبات المنتشرة في جبل عامل في تطوير الأدب والثقافة، ونذكر منها:

---

1 - عن حدود جبل عامل راجع: محمد بسام، جبل عامل بين سوريا الكبرى ولبنان الكبير 1918 – 1920، دار الكواكب، بيروت، طبعة أولى 2011، ص 31. وعلي الزين، للبحث عن تاريخنا في لبنان، بيروت، طبعة أولى 1973، ص 160، 164.

2 - محسن الأمين، خطط جبل عامل، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة أولى 1983، ص 72.

3 - لقد فصل هذه العوامل: محمد كاظم مكي، الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، دار الأندلس، بيروت، طبعة ثانية 1982، ص 22 – 42.

مكتبة عبدالله نعمة، مكتبة آل الحر، وآل الأمين، آل السبيتي، آل خاتون، آل عز الدين، النبطية وغيرها.

لقد قسم محمد كاظم مكي[1] أدوار الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل لأربعة أدوار: دور النشأة العلمية والتطلع الهجري (القرن 8 إلى 13م)، دور المدارس والإتصال بالعراق وإيران منذ بداية القرن 8هـ حتى أواخر 11هـ (14 – 18م)، دور الحكومات الإقطاعية ومحاولات الإستقلال منذ أواخر القرن 11هـ – 13هـ (18 – بداية 19م)، دور النهضة الحديثة منذ 1300هـ (1882م) حتى ثمانينات القرن الماضي.

زخر جبل عامل بالمثقفين والعلماء والمفكرين والأدباء والشعراء، حتى قيل: قد نجد واحداً من هؤلاء، تحت كل حجر، ووراء كل شجرة، وخلف كل هضبة وتلة في هذا الجبل العزيز. وقد ساهم هؤلاء في تطوير ثقافته وآدابه وعلومه، والمجتمع بشكل عام. منهم على سبيل المثال لا الحصر، الذين إشتهروا في النصف الأول من القرن العشرين، وغيرهم الكثير.

- الشيخ أحمد رضا 1872 – 1953.
- الشيخ سليمان ظاهر 1873 – 1960.
- الشيخ أحمد عارف الزين 1884 – 1960.
- السيد عبد الحسين شرف الدين 1873 – 1957.
- الشيخ عبد الحسين صادق 1962 – 1940.
- الشيخ أحمد عارف الحر 1910 – 1971.
- زهرة الحر 1917 – 2004.
- الشيخ محمد جواد مغنية 1904 – 1979.
- السيد محسن الأمين 1867 – 1952[2].

سيضيء هذا المؤتمر، من خلال المشاركين بمحاوره، على طبيعة جبل عامل وكل ما يتعلق به إقتصادياً وثقافياً وتربوياً وإجتماعياً، وشخصياته الفكرية والعلمية. والحقيقة أنه يلزمنا عشرات المؤتمرات، إذا أردنا الإحاطة بكل مكونات هذا الجبل الأشم.

سأتناول هنا أربع قامات، لعبت أدواراً هامة في النصف الأول من القرن العشرين، وتركت بصماتها المضيئة في تاريخ جبل عامل، فكانوا روّاد معرفة في الأدب والشعر والتاريخ والنضال السياسي. وقد رتبناها حسب ظهورها الزمني.

- محمد جابر آل صفا 1870 – 1945.
- محمد علي الحوماني 1898 – 1964.
- علي الزين 1901 – 1984.
- علي بدر الدين 1909 – 1986.

1- المرجع السابق، ص 45.
2- راجع الملحق، ص 28.

ويعود إختيار هذه الكوكبة من المفكرين والأدباء والشعراء والمؤرخين لإجتماعها على الأمور التالية:

- أنهم ولدوا في فترة متقاربة، وهي نهايات القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين.
- أنهم واجهوا نفس الظروف والأحداث؛ الحربين العالميتين الأولى والثانية ومآسيهما.
- وقفوا ضد الممارسات العثمانية؛ ومعظمهم أقتيد إلى محاكم جمال باشا في عاليه، ليواجهوا التهم والإعدام، لكنهم نفذوا من ذلك.
- كانوا ضد الإنتداب الفرنسي أيضاً، وعملوا لمقاومته.
- عايشوا ظروف جبل عامل، التي كانت تتلخص بسيادة الجهل وانتشار الفقر والتخلف. وجاهدوا في سبيل إنقاذ هذا الجبل من أمراضه المميتة، ومحاولة زيادة الوعي لدى العامة.
- عملوا لتجديد الأدب وتطويره، وإبعاده عن الرتابة وتخليصه من الأسلوب المحافظ والتعابير التقليدية.
- إنتقدوا الإقطاع، والسياسيين الذين يضربون مصالح الشعب بعرض الحائط، ولم تهمهم إلاّ مصالحهم الشخصية.

أولاً: محمد جابر آل صفا (1870 – 1945):

هو محمد جابر بن الحاج طالب جابر الصفوي، والمعروف من أسرته أنها غير عربية، هاجرت من أصفهان في أوائل القرن التاسع الهجري إلى العراق، فحوران، فجبل عامل. هو مؤرخ وأديب وشاعر لبناني، ولد في النبطية عام 1870م[1].

تابع الدراسة في المدرسة الحميدية، التي عرفت بمدرسة السيد حسن يوسف مكي. لازم الشيخين أحمد رضا وسليمان ظاهر.

أتم النحو والصرف والمنطق والبيان على السيد محمد إبراهيم الحسيني. كان عضواً فاعلاً في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في النبطية. إنتسب عام 1908م إلى عضوية الهيئة المركزية لفرع جمعية الإتحاد والترقي[2] فرع النبطية، المناهضة للحكم التركي. ولكن سرعان ما تركها بسبب إتجاهاتها العلمانية التي كانت تتعارض مع أفكاره الإسلامية.

عيّن في وظائف عدة، وأنشأ مدرسة في مسقط رأسه في العهد العثماني، عمل أستاذاً بها، كما عمل بالتجارة، وانتظم في سلك الجمعيات العامة.

1 - نوال فياض، صفحات من تاريخ جبل عامل في العهدين العثماني والفرنسي، دار الجديد، بيروت، طبعة أولى 1998، ص 143.
2 - كان إسمها جمعية الإتحاد العثماني، تأسست عام 1889 من قبل طلبة طب بينهم: إبراهيم ساتر وفا وعبدالله جودت. وهي حركة معارضة وأول حزب سياسي في الدولة العثمانية.

أسس عام 1899م جمعية علمية، ثم جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في النبطية، مع أحمد رضا وسليمان ظاهر، وغيرهم من رجالات العلم والأدب[1]. وكان من مؤسسي جمعية النهضة العاملية عام 1927م، وواضعي بيانها وقانونها[2].

كان محمد آل صفا يدعم كل نهضة علمية وسياسية وإجتماعية. شارك عام 1920م في مؤتمر وادي الحجير[3]. وساهم في وضع مقرراته النهائية.

في العام 1915 أصدر جمال باشا أمراً بمحاكمته مع عدد من رفاقه وأصدقائه، بسبب معارضته للحكم العثماني، وإنتسابه للجمعيات السرية التي كانت رائجة آنذاك. وقد نجا من حبل المشنقة وأطلق سراحه.

أ- نماذج من شعره:

يقول محمد جابر آل صفا في قصيدة له بعنوان: «عبرات»

يا هند غادرتُ الصّبا	وهوى المها البيض الخرائد[4]
يا هند ما عيشٌ مضى	بالأبرقين لنا بعائد
أعلمتِ أن الشوق قد	شقَّ الفؤاد ولم يعاود
والقلب ذاب فآب عن	جَوْب الفيافي والفدافد[5]
ما هزّني نحو العُذَ	يبِ جوىً ولا عذراء ناهد
نضبت سواكبُ عبرتي	فالدمع بعد اليوم جامد[6]

ويقول في قصيدة أخرى عنوانها: «يا دارها»

أتطمع في ليلى وترجو وصالها	ومن دونها عضبٌ ذليقٌ وعسَالُ[7]
فيا دارها بالحزن إن مزارها	قريب ولكن دون ذلك أهوالُ
أعاذلني إن الحياة وإن حَلَت	شقاءٌ وإن الدهر للحُرّ مغتالُ
وقد ذاق ذرعي بالبلاء كأنما	نصيبي من الدنيا شجونٌ وبلبالُ[8]
أيُرفع خوَارٌ ويُخفض حازمٌ	إذاً فنتاج الفضل ضيمٌ وإذلالُ[9]

1 - راجع: محمد كاظم مكي، الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، مرجع سابق، ص 212.
2 - شارك في وضع البيان وقانون لها، وكبيراً من بين أعضائها محمد جابر آل صفا. وقد إنتمى إليها عدد كبير من الشباب المثقف في جبل عامل، وكان هدفها إحياء الحركة الفكرية والثقافية في البلد.
3 - إجتماع دعا إليه الشيخ عبد الحسين شرف الدين، حضره وجهاء وثوار جبل عامل، يوم السبت 24 نيسان 1920. كان الهدف منه إطلاق المقاومة ضد الإستعمار الفرنسي، والإصرار على الوحدة السورية. حضره أدهم خنجر الصعبي وصادق حمزة الفاعور.
4 - الخرائد: جمع خريدة: وهي اللؤلؤة التي لم تثقب. الفتاة العذراء التي لم تمس.
5 - الفدافد: جمع فدفد: وهي الأرض الواسعة المستوية لا شيء فيها.
6 - معجم البابطين لشعراء العربية في القرن التاسع عشر والعشرين، عبر الموقع التالي: www.almoajam.org
7 - عضب: مانع. ذليق: حاد. عسال: إضطراب.
8 - بلبال: شدة الهم.
9 - خوار: الجبان – الضعيف – الخائف.

ب- قراءة في كتابه «تاريخ جبل عامل»[1]:

يعتبر الكتاب تاريخاً لجميع الأدوار التي مرت بجبل عامل، منذ الفتح العثماني حتى نهاية القرن التاسع عشر وهي فترة ما زالت غامضة في التاريخ اللبناني، لذلك كان عمله هذا مثالاً للمؤرخ الصادق الباحث عن الحقيقة[2].

لقد عرّف محمد جابر آل صفا التاريخ وموضوعه وفوائده، وخصائص الباحث. ثم أشار إلى صعوبة البحث بتاريخ جبل عامل لغموضه وقلة المستندات وضياع الوثائق التي يمكن الرجوع إليها. وانتقد من سبقه في ذلك، بأن بعضهم حرّف الأخبار ومسخ الحوادث.. ولا يدعي محمد جابر آل صفا بأنه وصل إلى الكمال، آملاً بأن يأتي بعده من يسد الثغرات.

لقد قسّم تاريخه إلى ثلاثة أدوار: قديم ومتوسط وحديث. الأول من هجرة قبيلة «عاملة بن سبأ» حتى عام 1517م. المتوسط من 1517 – 1865م. والحديث من 1865 – 1918م. وتناول في هذه الأدوار الحكومات التي تعاقبت على جبل عامل، ومشاهير الرجال من آل علي الصغير. ثم الإدارة التركية والإقطاع وأثرهما في جبل عامل، والثورات الأهلية والحروب. وأخيراً تحدث عن الحالة السياسية في العهد التركي المباشر (الجمعيات – الثورة العربية – الحركة العربية – الحياة العلمية – المدارس والهجرة العاملية).

يبقى أن الكتاب هو محاولة لوصف تاريخ زعماء جبل عامل أكثر من كونه وصفاً لتاريخ هذا الجبل، مع محاولة لتأصيل الهوية الطائفية لحركة التاريخ، وعدم إخضاع المسألة لمصالح الزعماء ورغباتهم في الإستحواذ على الإلتزام وإخضاع الفلاحين لسلطانهم.

ويصف الكاتب مهمته بأنها بذلُ ما في الهمة لإحياء آثار السلف من بين قومي[3].

ج- وفاته:

توفي محمد جابر آل صفا عام 1945م، بسبب مرض خبيث، وقد رثاه الشاعر عبد الرؤوف الأمين (فتى الجبل) بقصيدة نالت الإعجاب والإستحسان.

ويذكر عمر كحالة[4] أن وفاته كانت في بيروت، غير أن جثمانه نقل إلى النبطية ودفن فيها. فيما ذكر خير الدين الزركلي[5] أن آل صفا من أهالي النبطية في جبل عامل بلبنان، مولده ووفاته فيها.

1 - دار النهار، يوميات وحكايات باحث ريفي، على الموقع التالي: sakerbdolwordpress.com 215
2 - نوال فياض، صفحات من تاريخ جبل عامل، مرجع سابق، ص 143.
3 - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 145.
4 - الأعلام، منشورات دار العلم للملايين، بيروت 1980، ص 68.
5 - معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق.

والجدير ذكره أن معجم البابطين قد أخطأ في تاريخ مولده ووفاته؛ حيث ذكر أنه ولد في عام 1875م وتوفي عام 1942م.

د- بعض ما قيل فيه:

ورد في معجم البابطين(4): «إنه شاعر يسير على نهج القدماء في مدحهم؛ إذ يطيل في النسيب مقدمة للمدحة، ويجعل منه قصة تستقل بنفسها، ثم يخلص منها إلى ذكر فضائل الممدوح مبتدئاً بآبائه، ثم يذكر صفاته ومكانته وفضله في زمانه، مفتخراً برفعة نسبه الذي قد يشاركه فيه، تأثر بالشعراء القدماء في معانيه وألفاظه أيضاً. كما إستخدم المحسنات البديعية وإلتزم بوحدة الوزن والقافية، تميل قصائده إلى الطول».

وقال فيه حسن الأمين: «كان محمد جابر مؤرخاً، سجل تاريخ فترة من أدق الفترات التي مرت في حياة الجبل.. كان إلى جانب ذلك شاعراً معدوداً من شعراء الجبل وأدبائه.. ووطنياً سيق مع من سيقوا من الوطنيين الأحرار إلى الديوان العرفي في عاليه أيام السفاح جمال باشا، ولم ينج من كيده إلاّ بأعجوبة. كما كان داعية من دعاة التقدم والنهوض، يستأنس برأيه الشباب المتوثبون إلى نهضة وطنهم»[1].

1 - في تقديمه لكتاب محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، دار النهار، بيروت، طبعة ثالثة 1998، ص 11.

ثانياً: محمد علي الحوماني (1898 – 1964):-

هو محمد علي بن أمين بن الحسن بن خليل الحوماني. ولد في بلدة حاروف (قضاء النبطية). تلقى أولى دروسه في بيته على يد أبيه، وأخيه الشيخ حسن. ثم إنتقل إلى مدرسة النبطية الإبتدائية، وتابع دراسته في مدرسة السيد حسن يوسف مكي، التي كانت تُعرف يومها بالمدرسة الحميدية[1].

أ- أولاده:

- ولده رضا شاعر ومهندس، له مجموعة من الإنجازات العلمية. وينسب له جملة من الإختراعات التي ما زالت محل نقاش وجدل.
- ثلاث بنات: سلوى – بلقيس – أميرة، جميعهن أديبات مميزات.

سلوى: أديبة شاعرة صحافية، لها العديد من الإصدارات الأدبية.

بلقيس: تخصصت في فن القصص، ولها كتب مطبوعة.

أميرة: شاعرة وموسيقية، عملت على إحياء الفولكلور اللبناني، ولها مئات القطع الموسيقية والشعرية في الإذاعة اللبنانية.

ب- أسفاره وتنقلاته:

في عام 1922م هاجر إلى النجف، فتعلم هناك علوم المنطق والبلاغة واللغة، ومن أساتذته يومها: الشيخ محمد تقي صادق، الشيخ محمد علي نعمة، السيد محمد محمود الأمين، والسيد حسن يوسف.

ذهب إلى سوريا ودخل الجامعة العلمية في دمشق؛ حيث نال الشهادة الثانوية عام 1932م، ثم إلى لندن لدراسة الأدب الإنكليزي، إلاّ أنه عاد ولم يحقق هذه الغاية بسبب مشاكل صحية[2].

كان الحوماني مولعاً بالشعر منذ صغره، وحدثنا عن ذلك قائلاً: «كنت وأنا في دور الصبا، لم يتجاوز سني العاشرة، أختلف مع أخوي وأبي إلى مجالس أدبية، تعقد أيام الربيع في المتنزهات وفي ليالي الشتاء في النوادي، لا أنس لهم بغير إنشاد الشعر...»[3].

في كتابه «وحي الرافدين»، الجزء الثاني، ص 17، يتحدث عن زمن التلمذة واستهواء الفنون له فيقول: «وكنا ونحن تلامذة، نتبارى في الرسم أو الخط أو نظم الشعر، وكل يتحدى زميله في سمو الفن الذي يستهدفه وجمال المعنى الذي يرمي إليه...»[4].

---

1 - راجع: أميرة الحوماني، محمد علي الحوماني شاعر العروبة والإسلام، جمعية اليقظة الثقافية الإجتماعية، دون دار نشر أو تاريخ، ص 3، 4.
2 - راجع: دانيا يوسف، شاعر الإصلاح والثورة «محمد علي الحوماني»، موقع عيترنيات: www.aitarouniat.com
وأيضاً: ويكيبيديا – الموسوعة الحرة: ar.m.wikipedia.org
3 - محمد علي الحوماني، شاعر العروبة والإسلام، جمعية اليقظة الثقافية الإجتماعية، دون دار نشر أو تاريخ، ص 4.
4 - المرجع السابق، ص 5.

لقد تنقل الحوماني كثيراً، فعاش في لبنان والعراق وسوريا وفلسطين ومصر والأردن والسعودية وإنكلترا، وزار الأرجنتين والبرازيل والولايات المتحدة الأميركية (1929م، 1939م، 1947م)، والهند وسيلان (1938م)، أفريقيا (1936م)، تشيلي، المكسيك[1].

عمل مدرّساً في مدرسة الطيبة، وتنقل بين حاروف وجبشيت وشقرا، ثم النبطية وكلية التربية في طرابلس.

كما عيّن عضواً في اللجنة الفاحصة لشهادة البكالوريا (بناءً على المرسوم رقم 474 الصادر في 6 حزيران 1934م).

أسّس الحوماني في بيروت مجلة أسبوعية بإسم «بعد نصف الليل»، أصدر العدد الأول منها في تموز 1934م. وبعد سنة بدل إسمها بإسم «العروبة». وساهم بتأسيس مجلة «الأمالي» مع عبدالله المشنوق، وعمر فروخ، محمد خير النويري. صدر العدد الأول منها في 2 أيلول 1938م. ثم مجلة «مع الناس» عام 1947م.

ج- مواقفه السياسية:

كان الحوماني ثائراً على الواقع الأليم، فوقف ضد الظلم والتسلط والقهر، واجه الإستعمار، وها نحن نراه عندما قامت الثورة السورية الكبرى عام 1925م ضد الإحتلال الفرنسي، كان بلبلها الصدّاح، فأحيل إلى المجلس التأديبي، فهرب إلى شرق الأردن، وفي ذلك قال:

يا بلاداً قضى الشقاءُ على الحر	بها أن يكون عنها بعـــــيدا
يمرح النذلُ آمناً في ذُراهـــا	وتعاني الأحرارُ فيها القيودا[2]

كان الحوماني أول من رفع الصوت ضد الإقطاع والإقطاعيين في لبنان من خلال كتاباته. وصب جام غضبه ونار نقمته في ديوان «فلان» على الحكام الفاسدين الذين جوّعوا الشعب وأفقروه ونهبوا خيراته، فراح يكشف زيفهم وألاعيبهم وخداعهم.. مما دفع برجال السلطة إلى إقتحام المطبعة وإتلاف الديوان؛ وذلك لأنه يتضمن نقد مر لسياسة رئيس حكومة لبنان آنذاك[3].

أسس مع فريق من الشباب العاملي في بيروت، في نيسان، جمعية الإصلاح الخيرية الإسلامية، ومدرسة الإصلاح.

وفي حزيران 1935م إفتتح النادي الحسيني ومما قاله: «...إنا لن نصل إلى الحياة حتى

1 - راجع: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين على الموقع التالي: www.albabtaiprize.org
2 - محمد علي الحوماني، شاعر العروبة والإسلام، مرجع سابق، ص 7.
3 - نظام حوماني، مقدمة ديوان «فلان» لمحمد علي الحوماني، ص 24.

نكـون عربـاً، ولـن نكـون عربـاً حتـى نكـون مسـلمين، ولـن نكـون مسـلمين حتـى نؤمـن، ولم نبلـغ الإيـمان حتـى نكـون أعـزة في الحيـاة، ولـن نكـون أعـزة في الحيـاة حتـى نحـرز القـوة...»[1].

وفي المجـال الإجتماعـي لاحـظ الحومـاني التخلـف في جبـل عامـل، وسـيادة الجهـل والـولاء الأعمـى للزعـماء الإقطاعيـين، ورأى البـؤس والحرمـان، ورضى معظـم النـاس بهـذا الواقـع البائـس، فقـال يومهـا:

نحن الجياعُ وهل في الجوع من ضرر — نحن العراة وهل في العري من باس

لنا الجراحُ، وللسـمّار قهقهـة — وللمواسم ضرباتٌ من الفـاسِ

تفاقم الداءُ واسـتشرى بعامـلةٍ — أَلَيْسَ عندكَ يا لبنـانُ مـن آسِ[2]

لقـد كان الحومـاني عـلى قناعـة تامـة بـأن الأديـب أو الشـاعر عليـه أن يتحسـس أوضـاع مجتمعـه، ويعـبر عنهـا، ويحاول تصحيحهـا. ولذلـك رأينـاه يعتقـد أن لعـصره عليـه حـق، فانـبرى محـاولاً الإصـلاح وداعيـاً لـه، علّـه يقـدم شـيئاً جميـلاً للأجيـال القادمـة. وهـو الـذي رأى أن الزعامـة لم تقـم بدورهـا، بـل إسـتغلت طموحـات الشـباب، وقيدتهـا تبعـاً لأهوائهـا ومسـايرة لواقعهـا، فقـال:

أعَلِمتُم أن الزعامة أضحـت — مـورداً في بلادنا يُسـتَغَـلُّ

في العـام 1928م كان عضـواً في مؤتمـر الوحـدة السـورية بدمشـق، مندوبـاً عـن جبـل عامـل. وكذلـك مثّـل الجمعيـات الإسـلامية للأمريكيتـين في المؤتمـر الإسـلامي الـذي عقـد في بيـت المقـدس عـام 1932م.

ولأنـه إتخـذ القلـم وسـيلة لحملتـه ضـد الإقطـاع، تعـرض لإعتـداء في مدينـة صيـدا عـلى أيـدي مجموعـة مـن رجالاتهـم الذيـن أوسعوه ضربـاً، فأغمـي عليـه، وكـسرت أناملـه، وجـرح رأسـه وكتفـه. وقـد علّـق مـارون عبـود عـلى الحادثـة بقولـه: «آلمنـي جرحـك، وعـزاني أنـه نبيـل، ففـي سـبل الإصـلاح والتعذيـب دمـك المهـراق، ليكـن النبـي مثلـك الأعـلى، وحسـبك الإمـام الشـهيد قـدوة».

واسـتنكر هـذا الإعتـداء عـلى الحومـاني بعـض المفكريـن والأدبـاء أمثـال: مـارون عبـود، اليـاس أبـو شـبكة.

وقـد تابـع الحومـاني خـارج لبنـان ثورتـه ليتصـدى للقضايـا الكـبرى: الإسـتعمار، الوحـدة العربيـة، قضيـة فلسـطين[3].

---

1 - منقول عن مجلة العروبة، العدد 20، ص 34.
2 - محمد علي الحوماني، شاعر العروبة والإسلام، مرجع سابق، ص 9.
3 - راجع: دانيا يوسف، مرجع سابق.

د- إنتاجه الأدبي:

ترك لنا الحوماني إنتاجاً أدبياً غزيراً، حوالي 40 كتاباً في الشعر والأدب.

- **في الشعر**[1]:

1 – ديوان الحوماني، مطبعة العرفان، صيدا 1927م. (208صفحات).
2 – نقد السائس والمسوس، مطبعة العرفان، صيدا 1928م.
3 – القنابل، طبع ديترويت، الولايات المتحدة 1930م.
4 – حوّاء، مطابع الكشاف، بيروت 1940م. أعيد طبعه في مصر والعراق.
5 – فلان، مطبعة العرفان، صيدا 1945م. أعيد طبعه في مصر والعراق عام 1953م. وكان هذا الديوان ثورة على النظام السياسي وقتها[2].
6 – النخيل، القاهرة عام 1953م.
7 – أنت أنت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1954م.
8 – معلقات العصر، بيروت 1960م.

له العديد من القصائد المخطوطة منها قصيدة بعنوان: «أنشودة السماء». والجدير ذكره أنه عندما أصدر الحوماني ديوانه السياسي الذي أسماه «فلان» أحدث ضجة كبرى بين رجال الدولة في ذلك العهد، فصادرته الحكومة وأحرقته. وقد ذكر علي مروة[3] قصيدة من الديوان، ورد الشاعر موسى الزين شرارة عليها من مهجره في أفريقيا آنذاك.

- **في الأدب النثري:**

المآسي (قصص)، دمشق 1932م، ثم أعادت طبعه دار علي حمد في بيروت – في باريس (قصص) 1943م – وحي الرافدين (جزءين، الأول 1944م، والثاني 1945م) – بين النهرين (دجلة والفرات) دار الكشاف، بيروت 1946م – مع الناس، القاهرة 1948م – بلا سم، دمشق 1950م – من يسمع 1952م – الأصفياء، دار مصر للطباعة، القاهرة 1955م – دين وتمدين، القاهرة 1958، خمسة أجزاء حول القرآن والحديث والبلاغة – سلوى (رواية) – أدب المجالس – رجال الأدب – في ظلال الوحي.

وله من الأعمال المخطوطة: أشقى الناس (سيرة ذاتية 124ص) – دين وتمدين، الجزء السادس – ذكرى الحسين بن علي – أربعون محاضرة في الأدب العربي والنحو والشعر.

منحه رياض الصلح وسام الإستحقاق عام 1944م، ووسام المعارف خلال حفل أقيم لتكريمه عام 1950م، وكان ذلك بعد وفاته.

---

1 - معجم البابطين، مرجع سابق. وللإطلاع على تفاصيل إنتاجه الأدبي يمكن العودة إلى كتاب محمد علي الحوماني شاعر العروبة والإسلام، مرجع سابق، ص 28 – 48.
2 - طبع هذا الديوان بتحقيق نظام حوماني، دار الناشر العربي، دون مكان، عام 2008م.
3 - يستطيع القارئ العودة إلى كتابه: روائع الأدب الفكاهي العاملي، مطابع الأمان، لبنان، طبعة أولى 1972م، ص 253 – 256.

ومن مؤلفاته أيضاً:

- سلاف الأفكار في مدح عترة المختار، وهو ديوان شعر، طبع بشركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1990م.
- تاريخ جبل عامل، طبع في دار النهار للنشر، بيروت 1981م.
- شذرات في الفلسفة والطبيعيات.
- مختارات من الشعر القديم والحديث.
- المذكرات في التاريخ.
- ثلاثة وخمسون يوماً في عاليه (رسالة مخطوطة)، وهي بمثابة وثيقة سجل فيها سير المحاكمة بالتفصيل يوماً بعد يوم.

وله قصائد منشورة في «العرفان»، مجلد 3 عام 1911م، ومجلد 14 عام 1928م، وله ديوان شعر مخطوط.

كما كتب في مجلات وصحف عربية منها: الرسالة – المقتطف – الهلال في مصر – الساعة في العراق – والمدينة المنورة في الحجاز.

له العديد من المؤلفات والمقالات السياسية والإجتماعية والتاريخية التي نشر معظمها في مجلة «العرفان» اللبنانية منها: العرب في العهد التركي والعثماني، المجلد 30 عام 1940، جبل عامل والحكومة الإقطاعية فيه، المجلد 27 عام 1937[1].

هـ- المنفى:

لقد عارض الحوماني بعض رجال السياسة، وبعدما أصدر ديوانه اللاذع «فلان» بحق بعض السياسيين وفي مقدمتهم رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك رياض الصلح، تم نفيه عام 1945م فانتقل إلى

دمشق، فعمان، فطهران، فبغداد. وفي العام 1947م ذهب إلى الولايات المتحدة الأميركية، ومنها إلى مصر حيث إستقر هناك.

في منفاه أكثر من مدح ذوي المناصب السياسية وذوي المكانة الإجتماعية والأثرياء، فكان شعره للتكسب في هذه المرحلة، حتى أنه ألف بعض دواوينه في مدحهم (المعلقات). وهذا اللون من الشعر أثار الكثير من الإنتقادات بحقه، وكان أكثرها شدة وقساوة ما قاله السيد حسن الأمين في مستدرك أعيان الشيعة مما لا يجبذ نقله في ترجمة هذا الشاعر.

---

1 - عن آثاره أنظر: محمد علي الحوماني، «فلان»، تحقيق نظام حوماني، دار الناشر العربي، دون ذكر مكانها، الطبعة الثانية 2008م، ص 184 – 187.

و- وفاته:

ترك أديبنا مصر عام 1961م وعاد إلى الوطن، ثم ما لبث أن توفي في 11 نيسان عام 1964م، في بيروت ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه «حاروف».

لقد ترك إرثاً أدبياً شعبياً تناقله أهل بلدته ومثقفوها عايشوا زمنه لا سيما المختار الحاج عبدالله عياش والمربي محمود عياش والشاعر الشعبي عباس حرقوص والمربي نظام حوماني وأحمد حوماني ووجيه حوماني، بالإضافة لجميع أولاد الشاعر المحبوبين من كل أهل حاروف لأخلاقهم الرفيعة[1].

لقد رثاه عدد كبير من رجال الفكر والأدب والصحافة:

قال محمد قره علي: «وهذا فارس آخر من فرسان النهضة الأدبية يختطفه الفناء... ولم يزل القلم بين يديه يُجري المسحة الأخيرة على المجلد السادس من كتابه الضخم «دين وتمدين»، إنه الشاعر الكبير الذي طالما أرقص أعواد المنابر وهز المشاعر، ولم تمر في بلاد العرب نازلة إلاّ وغنى أطيافها ونظم لها الأناشيد والزغردات...»[2]. وكُرم الحوماني من جانب الأدباء والمفكرين، حيث نال جائزة الشعر الكبرى من مجمع اللغة العربية في مصر عن ديوانه: «أنت أنت 1954». كما إحتفى بشعره رجال الفكر والأدب، وعبروا عن تقديرهم لأدبه وثقافته، أمثال طه حسين، إيليا أبو ماضي، الأخطل الصغير، بدوي الجبل، لويس شيخو، عباس محمود العقاد، مارون عبود، روز حداد، محب الدين الأمين، الشهرستاني، أحمد عارف الزين، أحمد رضا، سليمان ظاهر، عبد الحسين الكاظمي، محمود الحبوبي وغيرهم[3].

قال فيه أمير البيان شكيب إرسلان: «تهنأ بما أتاك الله من قريحة عاملية وشعر عذب رائق وبيان يجمع بين أبدع الخيالات وأصدق الحقائق».

ووصفه أحد قادة الثورة السورية عبد الرحمن شهبندر بالقول: «غني عن القول أن السيد الحوماني بما له من القصائد العز الصادرة من أعماق النفس، والكلمات البليغة الرافلة بأثواب الشعور لم تحبك أوراقاً بين جلدين يدعوها ديواناً، بل ألف ركناً في بناء المجد العربي الباذخ. إنه أحد الملهمين الذين يوحون إلى الشعب أصول العقيدة بالنفس والإيمان بالوطن...»[4].

وقال محقق ديوان «فلان» عنه: «كانت حياة الحوماني سلسلة جهاد ونضال على مدى عقود كاملة، وهو في جهاده المضني الشاق، وكفاحه المتواصل، ثار على الباطل، ونصر الحق، وتمرد على الظلم، وناوَأ الظالمين. وما كانت الصدمات لتشفيه، وما كانت الأحداث لتلويه؛ لأنه قوي الإيمان، صلب العزيمة، كثير الأناة. ظل صامداً كالطود

1 - راجع: ويكيبيديا – الموسوعة الحرة ar.m.wikipedia.org
2 - محمد علي الحوماني، شاعر العروبة والإسلام، مرجع سابق، ص 48.
3 - راجع المرجع السابق، ص 50 – 56. ومعجم البابطين، مرجع سابق.
4 - محمد علي الحوماني، شاعر العروبة والإسلام، مرجع سابق، ص 51.

الأشـم لا تزعزعـه العواصـف، ولم يضطـرب، ولم يضــق صــدره بالبـذل والتضحيــة، برغـم كل حمـلات التضليـل والتشـويه التـي صـدرت مـن بعـض الأطـراف ضـده»[1].

وقـال عنـه عبـد اللطيـف يونـس: «كان يحمـل مشـعلاً للإصـلاح، فقـال الحاقـدون إنـه معـول هـدام، وحاربـوه واعتـدوا عليـه، لكنـه لم يأبـه ولم يتراجـع، لأنـه كان جريئـاً ومجازفـاً ومقدامـاً، وكان صاحـب عقيـدة يؤمـن بهـا ويدافـع عنهـا»[2].

---

1 - نظام حوماني، مرجع سابق، ص 10.

2 - المرجع السابق، ص 10. وهذا النص مأخوذ عن مجلة العرفان، العدد 3، مجلد 53 آب 1954م.

ثالثاً: علي الزين (1901 – 1984):

يتمتع علي الزين 1901 – 1984 بعدة مزايا، فهو شاعر ناقد، مؤرخ ومناضل.. وإن كان قد ولد في النجف بالعراق، إلاّ أنه نشأ وترعرع في قرية جبشيت[1]، ثم عاد وسافر إلى النجف عام 1919م لمتابعة دراسته الدينية... وهناك تكوّنت شخصيته الأدبية والثقافية والفكرية. وإذا أردنا رصد العوامل التي أثرت ببناء هذه الشخصية، نراها فيما يلي:

- المناخات والمجالس الأدبية المتوافرة يومها في النجف.
- رياح التطور والتجديد التي كانت تعبّر عنها أقلام الأدباء والمفكرين في الصحف المصرية، كالهلال والمقتطف وغيرها.
- الشعراء الكبار كأحمد شوقي، حافظ إبراهيم، خليل مطران، إيليا أبو ماضي، القروي، عمر أبي ريشة.

لقد ظهر تأثير هذه العوامل عنده، حين أخذ يرفض كا ما هو قديم تقليدي، وينتقد من بقي محافظاً، ولم يماشِ النزعة التطورية، ويدعو إلى التجديد.

والحديث عن علي الزين سيتضمن العناوين التالية:

أ- علي الزين الناقد:

عاد علي الزين من النجف عام 1928م ليجد جبل عامل بحالة لا يحسد عليها سياسياً وإجتماعياً وفكرياً. وقد لخصها لنا بسيطرة الرجعية على السياسيين والأدباء والمفكرين.. وأن علماؤه مشتتون، لم تجتمع كلمتهم على أمر.

أما بالنسبة للمناخ الأدبي العام، فنجد أن حواضر جبل عامل كانت تغلي بالإجتماعات واللقاءات الأدبية والثقافية؛ في النبطية وجبشيت وحاروف وشقرا والصوانة وبنت جبيل. وهذه الحالة سمحت لعلي الزين بالإنطلاق في نقد الأوضاع كافة، وإبداء ملاحظاته السلبية والإيجابية بالجرأة التي تميز بها.
وبدأ علي الزين يأخذ إنتاج الأدباء والشعراء في جبل عامل، ويقارنه بغيره من الآثار والإنتاج، ليراه بأنه ما زال محافظاً على أسلوبه الرصين، وتعابيره التقليدية، ومضامينه الشائعة. بينما يرى إنتاج الشعراء في مصر وسوريا والعراق والمهجر، قد تأثر بالحياة الجديدة، والتعبير الصادق عن الأفكار والشعور، وبدأ بالتطور في مواضيعه وأسلوبه ومعانيه.

1 - من قرى جبل عامل، تبعد عن مدينة النبطية حوالي 10 كلم إلى الجنوب الغربي.

ومـن نـماذج نقـده، عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، إنتقـاد لشـعر الشـيخ عبـد الحسـين صـادق في قصيـد لـه يصـف بهـا القطـار[1]. وإختلـف مـع محمـد عـلي الحومـاني مـن خـلال نقـد أدبي[2]، كـما أنـه كان يراسـل موسـى الزيـن شرارة مبديـاً ملاحظـات عـلى أدبـه.

ب- علي الزين المؤرخ:

لاحـظ عـلي الزيـن أن مـا كتبـه مؤرخـو الجنوب عـن جبـل عامـل، كان لغايـات وتزلفـاً لبعض الحـكام ومسـايرة لهـم[3]. وكانـوا يعللـون الحـوادث، ويرتبـون الفصـول، ويوضحـون الأغـراض والنتائـج بصـورة يوهمـون القـرّاء بصحـة مـا يرونـه، فوقعـوا بالتحيـز والأخطـاء والمتناقضـات والإنحرافـات.

لذلـك إنـبرى عـلي الزيـن، وتحـوّل مـن النقـد إلى كتابـة التاريـخ وتصحيـح مسـاره؛ حيـث إتخـذ سـبيله يبحـث ويناقـش ويسـجل الملاحظـات ليصفـي الواقـع التاريخـي مـن الشـوائب والمغالطـات، ويخلصـه مـن الأسـاطير[4].

وهنـا لا بـد مـن الإشـارة إلى أن الظـروف لـو أتيحـت لعـلي الزيـن كـما أتيحـت لغـيره، ونـال نفـس الإهتـمام، لـكان مـن أفضـل المؤرخـين في لبنـان.

ج- علي الزين السياسي، ومحطاته النضالية:

إن مكـوث عـلي الزيـن تسـع سـنوات في الغربـة (النجـف) نمـت الـروح الوطنيـة عنـده، وعـززت شـعوره الوطنـي. لا سـيما أنـه كان يتابـع أخبـار الثـورة السـورية المشـتعلة في جبـل الـدروز، ويقـرأ عـن المواقـف البطوليـة والشـعر الحـماسي الـذي قيـل فيهـا. وقـد نظـم عـلي الزيـن قصيـدة إمتـدح فيهـا سـلطان باشـا الأطـرش زعيـم هـذه الثـورة، وأرسـلها لـه مـن النجـف[5].
أمـران إسـتحوذا عـلى إهتمامـات عـلي الزيـن السياسـية همـا: التحـرر مـن الأجنبـي والوحـدة السـورية.
ينطلـق عـلي الزيـن مـن إيمانـه بـأن الإسـتعمار يعمـل لإنقسـامنا وتجزأتنـا، وضرب بلادنـا العربيـة وإنهيارهـا. لذلـك كانـت الوحـدة هـي الشـعار الـذي يتـم في ظلـه التصـدي للإسـتعمار. وطريـق الوحـدة يبـدأ مـن خطـوة التحـرر مـن الأجنبـي[6].
لقـد كان عـلي الزيـن قوميـاً بتفكـيره، ولذلـك نـراه يعمـل جاهـداً لتحقيـق مـا يؤمـن بـه؛

1 - يمكن العودة إلى كتاب علي الزين: مع الأدب العاملي، مطبعة سميا، بيروت، ص 61، وما بعدها.
2 - من مقابلة مع علي الزين في تموز 1983.
3 - راجع مجلة الحرية اللبنانية، تاريخ تشرين الأول 1977م.
4 - علي الزين، فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، دار الكلمة، بيروت 1979م، ص 145.
5 - وهي قصيدة طويلة منشورة في كتابه: من أوراقي، دار الفكر الحديث، بيروت، دون تاريخ، ص 121 – 123.
6 - راجع جريدة السفير اللبنانية، السبت 8/3/1980 تحت عنوان: علي الزين يتذكر في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

فالفكرة يلزمها ممارسة لتطبيقها. من هنا كان له الفضل في إرسال برقية إلى المفوض السامي، موقعة من شباب في بنت جبيل يطالبون بالوحدة السورية، وهذا نصها:

بيروت – المفوض السامي بالوكالة

«شباب من جبل عامل يطالبون بالوحدة السورية الشاملة، ورد دعوى المأجورين، بطلب الإستفتاء الحر، يفوض الوفد السوري بأمانيه، يرفعها بواسطة فخامتكم للمفاوضين»[1].

وهو من بين الذين أبرقوا إلى الرئيس «بلوم» وإلى نواب فرنسا ووزرائها، يهنئون بفوز الجبهة الشعبية في الإنتخابات، وهي المعروفة بمواقفها المؤيدة للوحدة السورية[2].

كما وقّع علي الزين على مقررات مؤتمر صيدا المنعقد في 5 تموز 1936م، بمناسبة المفاوضات الجارية في باريس بين الجانبين السوري والفرنسي. وقد طالب المؤتمرون بما يلي:

«تحقيق أمانيهم بالوحدة السورية والسيادة القومية، ويعتبرون أن كل حل لا يأتي متفقاً مع هذه الأماني لا يحمله على القبول به. وإذا كان المفوض الفرنسي يشك في صحة هذه الرغبات، نطلب الإستفتاء النزيه. كما نفوض الوفد السوري بالمرافعة والملاحقة وتحقيق أمانينا»[3].

لقد ناضل علي الزين من خلال رفضه فصل لبنان عن سوريا، وربطه بالمستعمرين، وأن يكون على رأس دولته رجال لا يعرفون إلاّ مصالحهم الشخصية، هم أزلام السفارات. فوقف ضدهم، ولم يثق بهم وبأقوالهم ووعودهم، لأنهم يقولون ما لا يضمرون، ويفعلون بنواياهم الخبيثة اللئيمة. لذلك نراه يوجه سهامه ضد الإقطاع السياسي والديني للتخفيف من سطوتهما، ويجهد في سبيل توحيد المواقف الداخلية لجبل عامل.

يشير علي الزين إلى أهمية سوريا بالنسبة للبنان، الذي لا يستطيع الإستمرار والعيش بدونها؛ فهي بمثابة الأم التي تحفظه وتصون حدوده وتدعمه ضد مطامع الغزاة كما يقول. ويخاطب علي الزين بعض اللبنانيين الذين يرفضون هذه الوحدة، ويعملون لإبعاد البلدين، فيقول: «هل بوسعهم أن يطيّروا لبنان من محله في أحضان سوريا إلى هضبة من هضاب المريخ ليقصوه مما يحيط به من هذه البلدان العربية التي لا يسوغ لها – في غمرات هذا العالم المضطرب جشعاً وغدراً وتهاوناً بحقوق المستضعفين – أن تطمئن إلى مستقبلها السياسي والإقتصادي، وإلى حريتها الوطنية ووحدتها القومية بدون أن تعتبره جزءاً كريماً منها، له ما لها من حق وحرمة، وعليه ما عليها من واجب ومسؤولية..»[4].

1 - أنظر: المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، من دفتر الذكريات، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة أولى 1981م، ص 32 وما يليها.
2 - أنظر نص البرقية في: علي عبد المنعم شعيب، مطالب جبل عامل (الوحدة والمساواة في لبنان الكبير 1900 – 1936)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة أولى 1987م، ص 143.
3 - مجلة العرفان، مجلد 32، عدد 5 تاريخ نيسان 1946م، ص 404، 405.
4 - علي الزين، من أوراقي، مرجع سابق، ص 108.

د- رأي علي الزين بالحرية:

يؤمن علي الزين أن الإنسان الذي يخضع للإستعمار والظلم والطغيان، تقتل فيه شخصيته ويصبح تابعاً ومطيعاً بشكل كلي، وبالتالي يفقد كرامته وعزته وإستقلاليته. والحل عنده بأن يحقق الفرد حريته التي يستعيد فيها قيمته وقيمة الإنسانية، وهي التي تدفعه للإصلاح والتقدم والتطور.

من هنا يدعو علي الزين الإنسان لنيله حريته، وأن يناضل في سبيل إستقلال بلده وأمته من المحتلين الغاصبين الذين يريدون إبقاء البلد في حالة من التبعية التي تؤدي إلى التخلف والعجز. وهو يقول بالحرف: «إن الأمة التي تفقد حريتها وإستقلالها السياسي والثقافي، تفقد أكبر وسيلة من وسائل الإصلاح والتوحيد بين مختلف عناصرها وطبقاتها. ولذا كان أول واجب على من يشعر من نفسه القدرة على الإصلاح أن يعمل على إستقلال أمته وبلاده من كل إستعباد وإضطهاد»[1].

هـ- السياسي كما يراه علي الزين:

الرجل السياسي هو من يقدم نفسه لخدمة شعبه وأمته. وعليه أن يكون ملماً بمستوى الشعب الفكري والعقلي، وعارفاً بعادات وتقاليد وأعراف مجتمعه، والظروف التي يمر بها. وذلك حتى ينجح هذا السياسي في مهمته، هذا إذا كان لديه النية الصادقة في خدمة شعبه، والعمل على تطوره وازدهاره، وأن يبعد عنه ألوان الجهل والتخلف[2].

و- كيف ينظر علي الزين للديمقراطية:

عندما نقرأ رأي علي الزين بالديمقراطية نستخلص أنها مرحلة من مراحل تطور المجتمع، ولا يجوز فرضها على مجتمع ليس مهيئاً لتقبلها. فهي تصلح لمجتمع «وصل أفراده إلى مستوى معين من الفكر والثقافة والرأي الحر وإحترام الذات والإعتزاز بالقومية؛ أي أن يُحضر هذا المجتمع لتقبل الديمقراطية هذه.. لأنها إذا كانت في غير مكانها وظروف غير متكاملة للتوافق معها، قد تنقلب إلى فوضى وتزعزع الوحدة الوطنية، وتضرب كل حركة إصلاحية لا تتفق مع هوى المغرضين والمشاغبين الذين لا يخلو منهم زمان ومكان»[3].

ويعطي علي الزين مثلاً ظريفاً ليعبر عن هذه الفكرة فيقول: إذا لم يكن المجتمع مهيئاً لتقبل الديمقراطية، سيكون في هذه الحال «كمن يُدخل الطعام الثقيل لجسم مريض في حالة نقاهته. ومما لا شك فيه أن هذا الطعام قد يضر بصحة هذا الجسم، ويقضي على حياة صاحبه»[4].

1 - المرجع السابق، ص 102.
2 - المرجع السابق، ص 103.
3 - المرجع السابق، ص 103
4 - المرجع السابق، ص 103

ز- علي الزين والطائفية:

يؤكد علي الزين أن الطائفية هي من أخطر الأمراض التي تضرب المجتمع اللبناني؛ والأخطر أن كل طائفة تلتجئ لدولة أجنبية تستند إليها وتستقوى بها. وهذه الدولة تستغل حجتها بأنها تحمي الأقليات، وتتدخل في شؤون لبنان الداخلية، كما تشكل هذه العلاقة باباً لفرض الإستعمار والإستبداد والطغيان، وتشكيل الحكومات، وفرض الموظفين في المراكز العليا في الدولة[1].

فلسطين في فكر علي الزين:

ينتقد علي الزين الذين يكثرون الكلام عن فلسطين، ووجوب تحريرها.. وما هذا إلاّ شعارات مزيفة فقط، وهؤلاء أشبعونا بنصائحهم القومية والوطنية والدينية، وهم في نفس الوقت يتعاملون مع اليهود، ويقدمون لهم المساعدات، ويغضون الطرف عن مشترى أراضي فلسطين، وطرد شعبها، ويشاهدون بأم العين بناء المستعمرات الصهيونية، بمساعدة السماسرة العرب الذين يخونون بلادهم وقضيتهم[2].

ط- علي الزين والإقطاع السياسي:

كان علي الزين ثائراً على طبقة الإقطاع السياسي في لبنان بشكل عام، وفي الجنوب بشكل خاص، ويعتبرها عائقاً في سبيل التطور والتقدم.

لقد أوضح نظرته للإقطاع وتحليل للمجتمع اللبناني أيام الأتراك، والأسر التي كانت تدير الجنوب، ودورها غير الوطني أو القومي على الشكل التالي[3].

- المجتمع والأسر النافذة فيه:

كان المجتمع اللبناني أيام الأتراك ينقسم إلى أسر متعددة، والأسر تنقسم إلى طبقات وعشائر: الأمراء، وهم أعلى مرتبة. المقدمون وهم بعد الأمراء ومساعديهم. المشايخ الذين يحكمون الطوق على رقاب الطبقة الشعبية.

- الزعامات والتقاليد:

بعد العثمانيين أصبحت الزعامة للإقطاعيين، ونفوذهم كان بالوراثة. وفي هذه المرحلة كانت تقاليد الأهالي تختصر بالمثل القائل: «كل من يأخذ أمي بناديلو يا عمي». أما تقاليد الزعماء، فهي حرصهم على التقرب من الحكومة والتزلف لأفرادها، وهمهم المحافظة على نفوذهم ومكانتهم الإجتماعية والمادية. وقد بقيت تقاليد الأهالي سائدة طيلة مدة

1 - المرجع السابق، ص 104
2 - المرجع السابق، ص 106
3 - جريدة جماهير لبنان، السنة الثانية، العدد 67 تاريخ 20/5/1978.

بقاء الجهل مسيطراً عليهم، لأن الإقطاع تعمد إبقاء الشعب بعيداً عن العلم والمعرفة. وقد تمادى الزعماء في الإستبداد والجور وإستباحة الأعراض والأموال والدمار في سبيل أغراضهم ومطامعهم الشخصية.

• علاقة الإقطاع بالصهيونية:

يشرح علي الزين هذه العلاقة فيقول: عندما إستولى الصهاينة على فلسطين، بدأوا بشراء الأرض. وكان للإقطاع اللبناني مساحات من الأرض في فلسطين وعلى الحدود اللبنانية الفلسطينية، فباعوا أملاكهم هناك. والأرض التي لم تستطع إسرائيل شراءها، فقد أخذتها بالقوة من الأهالي، وعلى مرأى من الحكام والملوك في حرب عام 1948. فقد إستولت على قرية صلحة، إبل القمح، تربيخا، قسم من عيترون ومارون الراس وميس ويشع وهونين.

ولم يكتف الإقطاعيون ببيعهم العلني للأرض، إنما ساهموا بحراسة أملاك الصهاينة عن طريق الأزلام الذين عملوا كنواطير، والذين لعبوا دوراً في طرد مقاتلي الحركة الوطنية والمقاومة، ولهذا نشأت جسور لتهريب البقر والحشيشة والذهب وغير ذلك إلى الأراضي المحتلة.
وبعد نكبة 1948 تحولت علاقات الإقطاع بالصهانية وتبدلت. فعندما بدأ الإحساس الوطني والقومي يبصر النور، وبدأت مراكز الإقطاعيين تهتز، غيّر الإقطاعيون طريقة إتصالهم بالعدو، حيث صارت عن طريق السفير الأميركي في بيروت، وكانت جميع أعمالهم تصرف عن طريق السفارة الأميركية، ولهذا كان «كرت» أحد الإقطاعيين في إسرائيل فاعلاً ربما أكثر منه في لبنان.

ي- رأي علي الزين بالإشتراكية:

يرى علي الزين أن الإشتراكية «بحقيقتها نظام إقتصادي، لا علاقة له بالعقائد الدينية، أو فلسفة الكون، ثم أنها لا تتناف مع الشريعة الإسلامية في شيء، إذا ما فكرنا وعرفنا أن جميع وسائل الإنتاج، من أرض ومعادن ومياه، كانت في عهد الخلافة الإسلامية ملكاً لدولة الخلافة، وتابعة لبيت المسلمين، ولا يجوز بيعها أو تمليكها لأي فرد منهم»[1].

ثم إذا عرفنا بعد أنه «لم يكن هناك معامل كبرى وشركات تحتكر الصناعة والتجارة، وتتحكم بالأسعار وأجور العمال، وإنما كانت الصناعة والتجارة بيد الأفراد، لكل منهم عمله وانتاجه الخاص به، وأنه لم يكن هناك أداة إنتاج عامة غير الأرض والمعادن والمياه، وهي جميعاً ملك لبيت المسلمين».
ثم عرفنا مع ذلك أن الإسلام حرّم الربا، ونهى بشدة عن كنز الذهب والفضة

1 - علي الزين، من أوراقي، مرجع سابق، ص 118، 119.

والإحتكارات، وحرّم التطفيف في المكاييل والموازين والأجور، كما حرّم الغش والكذب في سائر المعاملات الإقتصادية، ثم جعل للفقراء حق معين في أموال الأغنياء. وعلى ذلك هل يكون نظام الدين الإسلامي بهذا المعنى، وبهذا المضمون نظاماً رأسمالياً أو إقطاعياً بقدر ما هو نظام إشتراكي، وأقرب ما يكون إلى إشتراكية هذه الأيام المنظمة علمياً..؟»[1].

بالإضافة لكل ما ورد عن مكانة علي الزين العلمية والفكرية، وسلوكه النضالي، كان شخصية دمثة، سريع البديهة، صاحب نكتة وفكاهة لطيفة محببة.. يعشق مجلسه الكبير والصغير، العامة والخاصة.

قال عنه علي مروة[2] «مثال للنديم المحبوب الذي لا يُمل حديثه، ولا يمله جليسه، ذو روح مرحة، نقاد، ونقده مستساغ حتى عند من ينتقدهم خلافاً لما عرف عن أكثرية زملائه المشايخ من غلظة، وأديبنا الشيخ علي تروى له في باب المنادمة نوادر ولطائف بين الأدباء وفي مجالس الأنس والظرف، وهو مع ذلك محيط بالأدب القديم. وهو في أدبه نثراً وشعراً يقلد فيه القدماء في معانيهم وأخيلتهم بما لم يعد يتناسب وهذا العصر وحضارته. حاد الذكاء، سريع البديهة، وأهم من ذلك طبيعة مرحة قادرة على انتزاع الضحك حتى من أشد المتزمتين مع الإحتفاظ بالوقار والمنزلة عند عارفيه».

هذا هو علي الزين، الذي إستمر لعدة عقود، صديقاً للشباب والعلماء والمفكرين، ومنارة للباحثين الطلاب الذين كانوا يقصدون بيته المتواضع في بلدته جبشيت لإستشارته والتزود منه بالمعلومات، ومختلف ألوان المعرفة، ويجدون لديه كل ما يفيدهم ويحتاجون إليه، والتمتع بحديثه الشيّق..

رابعاً: علي مصطفى بدر الدين (1909 – 1986):

مع بداية القرن العشرين، وحتى نصفه الأول، برز من بين الشخصيات العاملية الأدبية، علي بدر الدين، الذي عاش أوضاع جبل عامل السيئة وقتها، والتي نلخصها بتملق الأدباء والسياسيين والمفكرين للحاكم وصاحب السلطة ومسايرته وعدم معارضته، وأن معظم علماء تلك الفترة، كان واحدهم لا يتجرأ على المعارضة، أو على إتخاذ موقف نقدي لزعيم.

ورغم ذلك كان المتنورون في هذا الجبل يتحركون في كل الإتجاهات، يجتمعون ويلتقون للبحث في تطوير الأدب، والإبتعاد عن السطحية في طرح المواضيع والمعاني. وكانت مدن وقرى جبل عامل مسرحاً لهذا التحرك، في النبطية وجبشيت وحاروف وشقرا والصوّانة وبنت جبيل وغيرها، في محاولة لبعث الأمل في هذا المجتمع المفكك سياسياً وإجتماعياً وفكرياً.

---

1 - علي الزين، من أوراقي، مرجع سابق، ص 118، 119.
2 - روائع الأدب الفكاهي العاملي، مرجع سابق، ص 120.

أ- دراسته:

ولد علي بدر الدين في النبطية عام 1909م، وتعلم في مدرستها. وترعرع مُظهراً رهافة في الحس، وأناقة في اللغة، ولباقة في الحديث، وبلاغة في الخطابة، ووعياً في السياسة، ونباهة ملفتة، وذكاء حاداً. ومنذ يفاعته عاشر العلماء والأدباء وجهابذة اللغة؛ كالشيخ عبد الحسين صادق المتوفى عام 1945م، والشيخ أحمد رضا المتوفى عام 1953م[1]، والشيخ سليمان ظاهر المتوفى عام 1960م.

كان مولعاً بالقراءة والكتابة، فنضج كأديب وخطيب وشاعر وناشط في مجتمعه.

في العام 1925م إلتحق بمدرسة الإنترناشيونال كولدج بمنحة من البعثة البروتستانتية. دخل الجامعة الأميركية في بيروت ونال شهادة الدكتوراه في الطب والجراحة والصيدلة.

مارس مهنة الطب منحازاً إلى الفقراء ومتوسطي الحال، واقفاً إلى جانبهم يعالجهم بكل طيبة خاطر.

ب- نشاطاته:

لقد تحولت عيادة الدكتور علي بدر الدين، وعلى مدى خمسة عقود، «إلى منتدى يؤمّه أهل الفكر والعلم والأدب والشعر أمثال: إبراهيم الطوقان 1941م، شكيب رسلان 1946م، محمد نجيب مروة 1948م، محمد علي الحوماني 1964م، أحمد صافي النجفي 1977م، بدوي الجبل 1981م، مخائيل نعيمة 1988»[2].

كان علي بدر الدين إجتماعياً نشطاً؛ بحيث لم يترك مناسبة إلاّ وشارك فيها بخطبة أو قصيدة شعرية. وما زلنا نذكر ليالي عاشوراء في النبطية، حيث كان يتكلم في الليلة العاشرة، والكل ينتظر ما سيقوله في تلك الليلة.

ج- علي بدر الدين نائباً:

وصل إلى البرلمان اللبناني، وكان نائباً عن الجنوب عام 1951 – 1953م؛ حيث كان يأمل أن يحقق أماني شعبه وطموحاته. إلاّ أنه إستقال من المجلس النيابي برسالة وجهها إلى رئيس المجلس يومها أحمد الأسعد[3]. وقد كان عنوان البيان الذي وزعه في النبطية ومنطقتها: «كرامة بلا نيابة، خير من نيابة بلا كرامة»[4]. والإستقالة كانت إحتجاجاً على إستشراء الفساد، وتسلط المال، وإنهيار القيم والأخلاق في العمل السياسي وضعف الدولة، فانسحب لعدم قدرته على التغيير[5].

1 - صاحب معجم متن اللغة، وقاموس رد العامي إلى الفصيح.
2 - الدكتور علي بدر الدين شاعراً، جمعه وحققه وقدم له د. حسن محمد نور الدين، دار الموسم، بيروت، الطبعة الأولى 2007م، المقدمة ص 10.
3 - كتاب الإستقالة منشور في المرجع السابق، ص 23، 24. والرسالة نشرت في جريدة النهار، عدد 5329.
4 - البيان منشور في كتاب: الدكتور علي بدر الدين شاعراً، المرجع السابق، ص 25. وهو مؤرخ في 19 آذار 1964م.
5 - موقع النبطية nn-lb.com

والفقرة الأخيرة من كتاب الإستقالة تشير إلى الدوافع والأسباب التي جعلت علي بدر الدين الإقدام عليها. ولذلك سننقلها حرفياً كما وردت:

«...ولما كنت قد أوشكت أن أيأس من صلاح الحال، وحسن المآل، وأصبح من المتعذر عليّ جداً القيام بواجب النيابة، وتحقيق رغبات من أمثّلهم، وخدمة منطقتي، بعد أن تصدعت كتلة الجنوب هذا التصدع المؤسف، وبعد أن قنطت من المسؤولين لإهمالهم حقوق الطائفة وإنصافها، بالرغم من الشكوى والخطب والنجوى، لذلك ولكل ما تقدم أرفع إليكم كتاب إستقالتي من النيابة، هذا راجياً من المجلس الكريم قبولها. وهي مؤرخة في 6 أيار 1953م.

وهكذا فقد آثر أديبنا ترك النيابة التي تتطلب المداهنة والمسايرة و«تمسيح الجوخ»، وهو بعيد كل البعد عن هذه الصفات. وتفرغ لإهتماماته في الطب والأدب والشعر والخطابة وخدمة الناس، واللقاءات المفيدة.

د- آثاره:

للطبيب الأديب علي بدر الدين العديد من المقالات والخطب الأدبية والسياسية، كان ينشرها في مجلة «العرفان» اللبنانية، وفي «الرفيق» التي كان يصدرها في الأرجنتين يوسف كمال. وفي الجريدة الأسبوعية «العصر» ليوسف فضل الله سلامة. وكان له زاوية «عيون وآذان» في جريدة «الحياة» اللبنانية، على مدى أربع سنوات.

وكان له ديوان شعري مخطوط، فُقد من منزله في النبطية، عندما إضطر لتركه بسبب الأحداث الأليمة. وله قصيدة طويلة تتألف من ألف بيت، عنوانها: «الفتنة» يتحدث فيها عن لبنان والأيام العصيبة التي يمر بها، وقد نظمها عام 1979م وهو في الأردن. وقد أسمعني إياها، وبصوته مسجلاً على شريط، في منزله بالنبطية، حيث كنت بزيارته عام 1985م قبل وفاته عام 1986م[1]، يقول فيها:

الأرض نارٌ والسماء سُحامُ ... شُلَّت يمينُك أيها الضرّامُ

والنار أولُها شرارةُ عابثٍ ... فإذا شواظُ خصومها عمّام

(اللهب لا دخان فيه)

وفي آخرها يقول:

سرُّ السعادة في الحياة عقولُنا ... يُجْلى بها الإشكال والإبهامُ

والعدلُ كافلُ كونِنا فإذا انتفى ... لم يبق إلاّ الواحدُ العلاّمُ

1 - أنظر: ناهض قديح، الشيخ علي الزين، ناقداً، مؤرخاً، مناضلاً، الطبعة الأولى 2008م، ص 42، هامش رقم 25. والقصيدة الألفية (الميمية) نشرت في كتاب: الدكتور علي بدر الدين شاعراً، مرجع سابق، ص 177 – 258، تحت: «على هامش الفتنة».

ويقول في قصيدة بعنوان «أزاهير»:

الفجرُ ذرّ وهـــذه ذرّاتُـــهُ والرَّوضُ فاحَ وهذه نفحاتُهُ

عادتْ أزاهيرُ العُلا في عامـلٍ تزهو بها مُزْدانةٌ ســاحاتُهُ

اَلمَجدُ أَثْمَرَ زهرُه والعلـــمُ في هذي المنازلِ أشرقَتْ مرآتُـهُ

يَا حَبذا في الشرق نهضةُ سؤدُدٍ ينسابُ فيها نيلُهُ وفُراتُـــهُ

يَا حَبذا لو كـان فيـه تكاتُـفٌ فرقانُهُ، إنجيلُـــهُ، توراتُــهُ

لقـد كان أديبنـا حذقـاً، ذكيـاً، سريـع البديهـة، محدثـاً لبقـاً، خطيبـاً بارعـاً، وإنسـاناً بـكل معنـى الكلمـة. كان يضمـن خطاباتـه شـيئاً مـن «نهـج البلاغـة» ومواعظـه وحكمـه، والكثـير مـن الأشـعار مـن نظمـه ونظـم غـيره. وقـد وصفـه الدكتـور حسـن نـور الديـن، جامـع ديوانـه ومحققـه في تقديمـه قائـلاً: إنـه «السـياسي الـذي عـاصر أعتـى النظـم، وأقسـى المراحـل وأمرّهـا، وشـهد الحربـين الكونيتـين، وعانـى ظلـم الإحتـلال التركـي، فسـاد الإنتـداب الفرنـسي، وتـألم لضيـاع فلسـطين، وتشريـد شـعبها، وزامـن تألمـه إنتشـار الفـوضى في لبنـان، ونشـوب الحـرب التـي خلّفـت المـآسي والويـلات، التـي تظافـرت عليـه، ودعتـه إلى الزهـد في الحيـاة، ومَقْـت العنـف والفسـاد، والميـل إلى الوحـدة، وعشـق الطبيعـة، ثـم الإنطـلاق إلى خـارج الوطـن 1976م ليمـضي خمـس سـنوات في الأردن، حفلـت بنشـاطات بوّأتـه موقعـاً بـارزاً في المجالـس التـي كان يحضرهـا الكبـار مـن أهـل العلـم والأدب والسياسـة، ورفـدت نتاجـه بملحمـة شـعرية مـن ألـف بيـت عنوانهـا: عـلى هامـش الفتنـة»[1].

عندمـا نسـتعرض الألقـاب التـي إشـتهر بهـا في الصحافـة وبـين النـاس: النابغـة – أبـو الفقـراء – سـيد الفصحـى – سـلطان المنابـر – بديـع زمـان عـصره، عندهـا نـدرك مـا لهـذه الشـخصية مـن تأثـير في محيطـه ومجتمعـه، والمكانـة التـي تميـز بهـا بـين أترابـه مـن المبدعـين، والسـلوك الإنسـاني الـذي عامـل بـه الآخـر.

كان أديبنـا عـلي بـدر الديـن هاويـاً لجمـع السُـبحات، ولديه خـبرة واسـعة ومهمـة بمعرفـة أنواعها، وتحديـد قيمتهـا، وتقريـر مـا إذا كانـت مـن الأحجـار الكريمـة؛ كالياقـوت والمرجـان والزمـرد واليسر والكهرمـان وعـين الهـر والعقيـق أم لا. وكان مرجعـاً صالحـاً في هـذا المجـال، يلجـأ إليـه الآخـرون لإستشـارته وإعطـاء رأيـه الحاسـم في سُـبحاتهم.. وقـد كان يمتلـك مجموعـة قيّمـة منهـا.

«إنـه في عقـول الجنوبيـين والنبطانيـين ووجدانهـم، والذيـن مـا زالوا يذكـرون تفانيـه وتضحياته وخدماتـه في مختلـف المجـالات وهـو طبيـب الفقـراء بامتيـاز، الشـاعر والأديـب المبـدع والخـلاق والسـياسي الحـر المتحـرر مـن كل الضغـوط السياسـية الضيقـة والملتبسـة في آن، وكان رفيـق الطبقـات الشـعبية وصديقهـا التـي تأنـس بجديتـه ويأنـس بوجودهـا معـه في جلسـات الشـاي

1 - الدكتور علي بدر الدين شاعراً، مرجع سابق، ص 12.

في الساحات والمقاهي الشعبية في النبطية، وهو الوطني المسؤول الذي لم يتخلَ يوماً عن مسؤولياته وواجباته تجاه وطنه وأهله، وله مواقف مشهودة عبر عنها في أكثر من محفل ومناسبة، وقد برز كناشط سياسي ثائر ومناضل ضد الجيوش الأجنبية ومناصراً عنيداً لحركات التحرر الوطنية والقومية آنذاك»[1].

توفي أديبنا الطبيب علي بدر الدين، تاركاً بصماته الفكرية والثقافية والإجتماعية والإنسانية. وما زال أهلنا يتذكرونه ويتحدثون بمآثره التي لا تنسى.

وتخليداً لذكراه الطيب، أقيم في مدينة النبطية مجمع يحمل إسمه، للعمل الإنساني والخيري. وفي 2015/ 5/ 18 وضع حجر الأساس للمركز الثقافي البلدي في هذا المجمع.

1 - علي شريف بدر الدين، كرامة بلا نيابة خير من نيابة بلا كرامة، شبكة أخبار النبطية 3/6/2015. Nn.lb.com

ملحق

من رواد جبل عامل

- الشيخ محمد حسن الحر العاملي المشغري.
- الشهيد الثاني العاملي الجبعي (زين الدين).
- السيد محمد صاحب المدارك.
- الشيخ حسن صاحب المعالم إبن الشهيد الثاني.
- الشيخ حسين بن عبد الصمد، والد الشيخ البهائي.
- الشيخ البهائي محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي الجبعي الحارثي.
- المحقق الثاني الشيخ علي الكركي العاملي صاحب المقاصد.
- السيد جواد العاملي من شقرا، صاحب مفتاح الكرامة.
- الشهيد الأول محمد بن مكي.
- الشيخ حسين مغنية رئيس جمعية العلماء العامليين.
- السيد محسن الأمين العاملي من شقرا.
- الشيخ أحمد عارف الزين العاملي صاحب مجلة العرفان.
- السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي.
- الشيخ يوسف الفقيه العاملي الحاريصي.
- السيد جواد مرتضى الحسيني العاملي.
- السيد عبد الحسين نور الدين العاملي النباطي.
- السيد حيدر مرتضى الحسيني العاملي.
- الشيخ موسى شرارة العاملي.
- الشيخ محمد علي عز الدين العاملي.
- الشيخ عبدالله نعمة العاملي.

- السيد صالح الكبير العاملي المعروف بالسيد صالح شرف الدين.
- الشيخ محمد الحرفوشي.
- الشيخ أبو الحسن الفتوني العاملي.
- السيد حسين المجتهد الكركي العاملي.
- إبن نجم الدين الأطراوي العاملي.
- السيد محمد الشحوري العاملي، المعروف بالسيد محمد شرف الدين.
- إبن قاسم العاملي.
- السيد حسن الصدر.
- الشيخ إبراهيم بن يحيى الطيبي العاملي.
- الدكتور شريف عسيران العاملي.
- حسن كامل الصباح العاملي النباطي.
- الشيخ سليمان ظاهر.
- الشيخ علي الزين.
- محمد جابر آل صفا.
- محمد علي الحوماني.
- الشيخ علي البياضي العنقجوري.
- الشيخ محمد إبن الشيخ حسن صاحب المعالم، إبن الشهيد الثاني.
- الشيخ عبد الحسن نور الدين العاملي.
- السيد جعفر مرتضى العاملي.
- علي بن يونس النباطي.
- إبراهيم الكفعمي.
- نجيب الدين علي الجبيلي (علي بن محمد بن مكي).
- محمد بن عبد الحسين بن عبد الصمد.
- حسن بن زين الدين (جمال الدين).

- محمد علي المشغري.
- إبراهيم الحاريصي.
- إبراهيم يحيى.
- زينب فواز.
- أسعد رحال (أصدر مجلة المرج).
- سعيد رزق – حبيب ناصيف – محمد كامل شعيب (جريدة الإتفاق).
- حسن دبوق (جريدة القوة).
- الخوري يوحنا الرز (جريدة الشلال).
- رفقي بكار – حسيب شاهين (جريدة أبو دلامة).
- فائز غسطين (جريدة الأدب).
- راضي دخيل (جريدة صدى الجنوب).
- ألفرد أبو سمرا (جريدة القلم الصريح المرجعيونية).
- الشيخ محمد جواد مغنية.
- الشيخ عباس البلاغي.
- الشيخ علي مهدي شمس الدين.
- الشيخ محمد حسين شمس الدين.
- الشيخ حسن الحانيني.
- الشيخ محمد علي بن خاتون.
- عبد المحسن الصوري الشيعي.
- الشيخ توفيق إبن الشيخ عباس البلاغي.
- أبو الفرج غيث بن علي الصوري الأمنازي.
- أحمد بن شبيب أبو زرعة الصوري.
- حطي بن أحمد بن محمد أبو هاني السلمي الصوري.
- الحسن بن محمد بن النعماني أبو علي الصيداوي.

- محمد بن مبارك الصوري.
- محمد بن إبراهيم أبو عامر الصوري.
- أحمد بن محمد بن المؤمل الصوري.
- الشيخ جعفر مغنية.
- الشيخ علي إبن الفقيه الشيخ محمد علي عز الدين.

المراجع

أ- الكتب:

1 - إبن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة ثالثة 1967.

2 - أميرة الحوماني، محمد علي الحوماني شاعر العروبة والإسلام، جمعية اليقظة الثقافية الإجتماعية، دون دار نشر وتاريخ.

3 - حسن نور الدين، الدكتور علي بدر الدين شاعراً (جمع وتحقيق وتقديم)، دار المواسم، بيروت، طبعة أولى 2007.

4 - خير الدين الزركلي، الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1980.

5 - علي الزين:

للبحث عن تاريخنا في لبنان، بيروت، طبعة أولى 1973.

مع الأدب العاملي، مطبعة سميا، بيروت.

فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، دار الكلمة، بيروت 1979.

من أوراقي، دار الفكر الحديث، بيروت، دون تاريخ.

6 - علي عبد المنعم شعيب، مطالب جبل عامل... المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة أولى 1987.

7 - علي مروة، روائع الأدب الفكاهي العاملي، مطابع الأمان، لبنان، طبعة أولى 1972.

8 - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

9 - محسن الأمين، خطط جبل عامل، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة أولى 1983.

10 - محمد بسام، جبل عامل بين سوريا الكبرى ولبنان الكبير 1918 – 1920، دار الكواكب، بيروت، طبعة أولى 2011.

11 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، دار النهار، بيروت، طبعة ثالثة 1998.

12 - محمد كاظم مكي، الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، دار الأندلس، بيروت، طبعة ثانية 1982.

13 - المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، من دفتر الذكريات، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة أولى 1981.

14 - ناهض قديح، الشيخ علي الزين (ناقداً، مؤرخاً، مناضلاً)، طبعة أولى 2008.

15 - نظام حوماني، تحقيق وتقديم ديوان «فلان» لمحمد علي الحوماني، دار الناشر العربي، دون مكان، عام 2008.

16 - نوال فياض، صفحات من تاريخ جبل عامل في العهدين العثماني والفرنسي، دار الجديد، بيروت، طبعة أولى 1998.

ب- الجرائد والمجلات:

1 - جريدة جماهير لبنان، السنة الثانية، العدد 67، تاريخ 1978/ 5/ 20.

2 - جريدة السفير اللبنانية تاريخ 1980/ 3/ 8.

3 - مجلة العرفان، مجلد 53، العدد 3 تاريخ 1954 - ومجلد 32، العدد 5.

4 - مجلة العروبة، العدد 20.

5 - مجلة الحرية اللبنانية، تشرين الأول 1977.

ج- المواقع الإلكترونية والمقابلات:

1 - مقابلة مع علي الزين، في تموز 1983، في منزله بجبشيت.

2 - مقابلة مع الدكتور علي بدر الدين، في منزله بالنبطية عام 1985.

3 - ويكيبيديا - الموسوعة الحرة: ar.m.wikipedia.org

4 - دانيا يوسف، شاعر الإصلاح والثورة «محمد علي الحوماني»، موقع عيترونيات:

ريادة جبل عامل في العلوم التجريبيّة



الدكتور الصيدلي عباس وهبي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنما يخشى اللهَ من عبادهِ العلماءْ﴾ سورة فاطرْ

ونحن في محور ريادة جبل عامل الذي غصَّ بالمفكرين والأدباء والفلاسفة والشعراء والمؤرخين وعلماء الجغرافيا و الفيزياء والرياضيات ... أرى لزامًا عليI أن أقدم اهداء بحثي الذي أنجزته لمؤتمر جبل عامل حول الريادة في العلوم التجريبيّة إلى روح مفكر أعطى من حياته بصمات علميّة معرفيّة فلسفيّة لهذا الجبل الشّامخ في المجد، إنّه أخي المرحوم الدكتور كمال حسن وهبي الذي أسير على دربه درب البحث العلميّ والنضال السياسيّ.



المقدمة :

لطالما تمتع تراثنا بثروات كبيرة جدًا، فعلماؤنا لم يتركوا علمًا من العلوم والمعارف والفنّون، إلاّ و سبروا أغواره، لا بل خاضوا في غمار خباياه وأسراره، ولم يقفوا على جانب من جوانب المعرفة إلا وجعلوه يبوح بمكنوناته المشعة، ولم يكن في زمانهم فنّ من الفنّون إلا و تمحصوا به، تاركين لأجيال هذه الأمة كنوزًا ثمينة ...وما هذه المعارف التي بين أيدينا إلا إشعاعات من تلك اللمعات الوضّاءة البهية، التي شعّت من جهودهم الجبارة

وصبرهم وسعيهم المشكور... إن جبل عامل لطالما كان مركز علم وحضارة، لا بل مركز تفاعل حضارات شتى، وصلة وصل استراتيجيّة في بلاد الشّام، فبدا كالدرّة الفريدة التي تشعُّ علمًا وفلسفة وفقهًا وأدبًا وشعرًا وفنّونًا .. ولا غرو بذلك فظاهرة الإبداع العامليّ هي ابنة تراث عريق انحنى أمام الحضارة لثقل ما تحمله سنابله، فهو وليدة إرث حضاريّ قديم تمتدّ جذوره عبر آلآف السنين، فتاريخ الحضارة الإنسانيّة في بلادنا، سواء في بلاد الشّام أو في بلاد الرافدين أو في بلاد النيل، حافلٌ بإيقاعات العبقريّة التي ولّدت أجمل الألحان العلميّة في سياق منتظم ومثمرٍ، و قد بان ذلك في بلاد سومر وبابل وصيدون وصور ودمشق وفي نبطية الانباط «نبطية العلماء والشهداء»، وسائر البلاد السّوريّة التي شكّلت المهد الأول للعبقرية والحضارة ..إنها بلاد الأبجديّة الأولى التي أنجبت كبار العلماء والمخترعين الذين تجسدت فيهم إرادة الحياة ليمارسوا دور الأنبياء والرسل . والإبداع كما يقول أحد العلماء هو ذلك الدلاّف السحري.».و قد راحت الحضارات الساميّة والفرعونيّة والإغريقيّة القديمة تقدم نموذجًا من العطاء الحضاريّ الشّامل « (أنظر مقابلة مع فؤاد صروف 1982/ 02/ 21») ، وقد زخرت هذه الحضارة بالعشرات من العلماء الرياضيين الذين قدموا للعالم مئات من المؤلفات والتي لا زالت الغالبية العظمى منها أسيرة خزائن المخطوطات»[1].

لقد كان لزينون الأيلي إشراقات متوهجة قبل الميلاد وغيره من علماء ذلك الزمن، و قد أحدثت النهضة العربيّة الإسلاميّة خلال قرنين كاملين من التألق والعظمة تغييراتٍ نوعية، ولم تلبث إنجازات عميد الجراحة العربيّة جالينوس العرب أبو بكر الرازي، وأبو القاسم الزهراوي، ومكتشف الدورة الدموية الصغرى ابن النفيس، وابن الهيثم، وجابر بن حيان، والخوارزمي والرازي ونابغة عصره في الطب ابن سينا، وابن الجزار القيرواني، وأبي القاسم الشرقاوي، وأبو القاسم الزهراوي، والبصري والفيلسوف الرياضي يعقوب الكندي، وعلماء وفلاسفة كثر قدموا في ميادين الرياضيات والفلك والكيمياء والطب والفلسفة ، نقلت العلوم التجريبيّة إلى مقام الريادة الحضاريّة.

وبعد مرور مرحلة على الفتح الإسلاميّ، جاءت الهجمات السلجوقية والفاطمية والصليبية والأيوبية والمملوكية على جبل عامل التي كادت تؤدي إلى إطفاء جذوة العلم لولا انتشار عشرات المدارس الدينيّة، لكن هذا النبع الفيّاض قد استمرَّ متدفقًا رغم كل الأهوال فعاش أهله ما بين السيف والقلم ..» فالشهيد الثاني حسب الشيخ محمد تقي الفقيه»[2]، قد ترك ألفي مجلد منها مئتان بخطه، ومكتبة آل خاتون كانت تضم بين دفتيها خمسة آلاف من الكتب النادرة ولا يزال بعضها موجودًا إلى اليوم .. وحسبك من العامليين على صغر البقعة

1 - د. جلال شوقي، الاعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي، ص .50.
2 - أنظر جبل عامل في التاريخ ص 10.

وشظف العيش أنه لا يوجد علم من العلوم التي كانت معروفة في البلاد الإسلاميّة إلا ولهم فيه الحظ الأوفر، والقدح المعلى، والتأليف المتعة، وإنّ قسمًا منها لا يزال يُدرّس في الجامعات الدينيّة الشيعيّة الموجودة في العراق وإيران وباكستان وأفغانستان ولبنان وغيرها..[1] و قد اشتملت مناهج هذه المدارس على توجيهات في علم الحساب والرياضيات وعلم الفلك والكيمياء، وقد تبوأ التدريس فيها علماء مجتهدون أفاضل نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العلامة الشهيد شمس الدين بن مكي الجزيني المعروف بالشهيد الاول الذي أسس مدارس في بلدة جزين وقتل عام 1384م، والشهيد الثاني زين الدين علي بن أحمد المعروف بابن الحجة الجبعي العاملي وقد اغتيل عام 1559م، وغيرهما من العلماء الأفاضل.

و لكن مؤلفات السواد الأعظم منهم كانت في علوم الدين والفلسفة والأدب والشعر كما يبدو، وعلى الرّغم من أنّ هناك ضبابًا قد انسدل على تاريخ جبل عامل قبل القرن السادس الهجري فجلُّ الباحثين لم يستطيعوا النفاذ إلى ما يُخبئه هذا الستار العجيب، ولم يلبث هذا الجبل أن أنجب عالم الرياضيات الأديب والفقيه محمد بن عبد الصمد المعروف ببهاء الدين الحارثي العاملي الجبعي الهمذاني المولود في بعلبك عام 1547 –1622م. وفي بحث مستفيض تبين لنا أنّ علماء جبل عامل الرياديين في العلوم التجريبيّة هم قلة قليلة، لكن ما قدّموه للبشرية قد أحدث انقلابًا جذريًا على مستوى بعض العلوم التجريبيّة ولا سيما ما قدّمه العالم المخترع العبقري حسن كامل علي الصباح النباطي العاملي ...

أسباب ندرة وجود العلماء في المواد التجريبيّة: إذا رصدنا الظروف التاريخيّة التي أدَّت الى وجود قلة من العلماء الذين خاضوا غمار العلوم التجريبيّة والتي استبقت بزوغ الريادة العلميّة فيها لبطل العجب وتبين السبب لما كان علماؤنا ينصرفون نحو الدراسات الدينيّة الإسلاميّة، فذلك لأنهم كانوا يخوضون حرب وجود، وشكّل الدين لهم بوصلة هداية وطريق حق وسلاح بقاء لديهم من أجل تعزيز العقيدة، وتوحيد الصفوف ولا سيما في ظلّ تلك الهجمات الطائفيّة والمذهبيّة التي كانت تجتاح جبل عامل بين فينة وفينة، والتي أدّت إلى عدم وجود الإمكانيات، لا بل المناخات الملائمة للإبحار في هذا النّوع من العلوم الذي يحتاج الى متابعة آخر الأبحاث العالمية، بل قل الاقليمية في تلك المراحل، وإلى وجود المختبرات «بمفهوم وإمكانيات ذلك العصر» لبعض العلوم الكيميائية والفيزيائية والطبية والصيدلانية... وهذا كان متوفرًا في زمن الخلافتين الأموية والعباسية ولا سيما الأخيرة، أو في الحضارة الأندلسية، لكنه لم يكن متوفرًا في جبل عامل الذي كان انتماؤه المناطقيّ يختلف بين احتلال وآخر، وحدّث بلا حرج عما كان يصول ويجول من بطشٍ وقتلٍ وسبيٍ وتدميرٍ للبنى والمقومات العاملية والمحاصيل وكل الأرزاق.

1 - م.ن ص 10.

لـذا لا غـرو بـما ذكـره الرحالـة فولنـي: «والعلـوم في الـشرق ليسـت أحسـن حـالًا مـن الفنّـون، فهـي في أقـصى درجـة مـن التقهقـر ليـس فقـط في مـصر وسـورية ، بـل أيضًـا في سـائر البـلاد العثمانيّـة، وعبثًـا حـاول بعضهـم إنـكار هـذه الحقيقـة اسـتنادًا إلى مـدارس ومعاهـد جـاؤوا عـلى ذكرهـا، فهاتـين اللفظتـين ليـس لهـما المدلـول نفسـه الـذي ينسـبه إليهـما الأوروبيـون. فعـصر الخلفـاء مـضى وانقـضى، وعـصر الأتـراك لم يبـدأ بعـد: فتلـك البـلاد ليـس فيهـا الآن مهندسـون ولا فلكيـون ولا موسـيقيون ولا أطبـاء. وقلّـما تجـد فيهـا مـن يعـرف الفصـاد، والتطبيـب هنـاك مقصـور عـلى الكـي وبعـض العقاقـير، وكيـف يمكنهـم أن يتعلمـوا الطـب وليـس في البـلاد معهـدٌ يتقـن فيـه، وقـد يميلـون إلى علـم الفلـك رغبـة منهـم في معرفـة الغيـب والمسـتقبل مـن حـركات الأجـرام الفلكيـة. إلا أنّهـم لا يحفلـون بالعلـم العويـص الـذي يـشرح تلـك الحـركات بالاسـتناد الى علـم الحسـاب ...والسـبب الحقيقـي لهـذا الجهـل هـو في قلـة وسـائل التعليـم ولا سـيما الكتـب التـي هـي كثـيرة في أوروبـا حيـث يوجـد الكثـير مـن القـراء، أمّـا في سـورية فإنّهـم لا يعرفـون سـوى مجموعتـي كتـب إحداهمـا في ديـر مـار يوحنـا الشـهيرة والأخـرى عنـد أحمـد باشـا الجـزار في عـكا والتـي لا يتجـاوز عـدد كتبهـا الثلاثمائـة، وهـي كل مـا تسـنى للجـزار غنمـه مـن جميـع البـلاد السّـوريّة بـما في ذلـك خزنـة ديـر المخلـص الواقعـة عـلى مقربـة مـن صيـدا وخزانـة الشـيخ خـيري مفتـي الرملـة»[1]. لكـن فولنـي قـد فاتـه أن مئـات الكتـب قـد أحرقهـا الجـزّار في محرقـة عـكا.

ولذلـك نـرى أنّ الشـهيد الاول محمـد بـن مكـي المستشـهد سـنة 786ه والمولـود سـنة 734ه مـن أهـم مؤلفاتـه اللمعـة الدمشـقية ووسـم الـشرح بالروضـة « قـد اسـتند الى علـم الحسـاب في شرح أهـم نظرياتـه الدقيقـة في كيفيـة اسـتخراج النسـبة بـين الصحيـح والمعيـب.

وأمّـا العـالم الكبـير حسـن كامـل الصبـاح فقـد كان لسـفره إلى الولايـات المتحـدة الاميركيـة وتوفـر الظـروف الملائمـة لتفجـير ينابيـع عبقريتـه الفضـل الكبـير رغـم الاحتـكار والظلـم المريعـين لمـا ابتكـره وقدمـه. وحـدّث عـن انجـازات بهـاء الديـن العامـلي في إيـران و العالمـين د.يوسـف بخـدود و رمّـال رمّـال وغيرهـم بـلا حـرج. هـذه القلـة التـي سـلكت درب العلـوم التجريبيّـة عـلى قلتهـا قدمـت إنجـازاتٍ نوعيـة للحضـارة البشريـة تعـادل مـا قدمـه مئـات مـن علـماء العـالم.

وكان العامليـون يعتقـدون أن الطـب تجربـة واختبـار، لذلـك قالـوا إسـأل مجـرب ولا تسـأل حكيـمًا، وكثـيرا مـا كانـوا يعالجـون بوصفـات العجائـز والشـيوخ بالضـمادات والفصـد والكـي وتنـاول بعـض العقاقـير الطبيـة والحقـن، أو ينـذرون للمعابـد وقبـور الأوليـاء وزيتًـا وبخـورًا، أو ينقلـون بعـض العقاقـير النابتـة في جدرانهـا فيفضلونهـا عـلى غيرهـا. وقـد يتركـون بعـض

1 - علي الزين العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية ص3 184-18 نقلا عن رحلة فولني تعريب السيوفي ص 108-105

الأمـراض بـدون عـلاج كالفالـج، ويقولـون «فالـج لا تعالـج»، وإن اضطـروا إلى طبيـب جـاؤوا بأحـد الدّجالـين مـن الوطنيـين أو المغاربـة الذيـن يطوفـون في القـرى بالعقاقـير أو بكتابـة الحجـر والتعاويـذ حتـى انهـم كانـوا يُجرعـون البـول للمذعـور. وكان الطـبّ للمثقفـين منهـم مـن كان عـلى طريقـة ابـن سـينا»[1]. وهـذا إن دلّ عـلى شيء إنّـما يـدلّ عـلى حـال مـن الفقـر والجهـل، لذلـك كانـت هجـرة الأدمغـة هـي السـبيل الوحيـد ولا سـيما بعـد مرحلـة بطـش الجـزار وغـيره مـن الـولاة العثمانيـين بالعلـماء. وخـلال مرحلـة المجاعـة في أوائـل القـرن التاسـع عـشر، وحتـى إبـان الاحتـلال الفرنـسي الـذي صـادر كلّ ثـروات جبـل عامـل إذ يقـول أمـين الريحـاني: إن الجنـرال نيجـر فـرض خـلال حملتـه عـلى جبـل عامـل مائـة وخمسـين الـف لـيرة ذهبـا وفـوَّض إلى حاكـم صيـدا العسـكري ورجالـه وفيهـم ثلاثـة مـن الصوريـين لجمعهـا فجمعـوا ضعـف المائـة وخمسـين ألفًـا، وحسـب الشـيخ أحمـد رضـا: إن هـذه الغرامـة قـد سـلبت كل ثـروة الشـيعة في جبـل عامـل فوقعـوا في عجـز مـادي أفقـر الطائفـة[2]. وقـد بـرز خـلال القـرون الوسـطى نخبـة مـن العلـماء نذكـر منهـم الشـيخ زيـن الديـن بـن عـلي بـن يونـس النباطـي العامـلي النباطـي 1472م، والشـيخ أحمـد بـن الحسـين بـن احمـد بـن سـليمان النباطـي العـالم والأديـب المتـوفي عـام 1668م، والشـيخ سـليمان بـن الحسـين بـن محمـد بـن احمـد بـن سـليمان العامـلي النباطـي المتـوفي عـام 1686م، والشـيخ عبـد النبـي بـن أحمـد العامـلي النباطـي المتـوفي في الهنـد، والشـيخ عـلي بـن أحمـد بـن موسـى العامـلي النباطـي الـذي رحـل وعـاش في أصفهـان، والسـيد حيـدر نـور الديـن الموسـوي العامـلي النباطـي الـذي كان مرجعًـا في أوائـل القـرن التاسـع عـشر في منطقـة النبطيـة... لكـن هنـاك مـن العقـول التـي اسـتقت مـن نبـع جبـل عامـل الثقـافي، إذ يقـول المـؤرخ حسـن الأمـين: فاسـم جبـل عامـل ينطلـق بـك الى المـاضي البعيـد الـذي كان فيـه هـذا الجبـل العظيـم مصـدر ثقافـات، ومبعـث دراسـات، ومطلـع دعـوات أفاضـت الخـير العميـم لا عليـه وحـده بـل عـلى أقطـار قصيـة كان رجالـه فيهـا بنـاة النهضـات وحملـة الإشـعاعات مما لا تـزل آثـاره ماثلـة الى اليـوم. ففـي مدينـة أصفهـان بإيـران مثـلا يحمـل شـارع مـن أعظـم شـوارعها اسـم نابغة مـن نوابـغ جبـل عامـل تعتـز بـه المدينـة الكبـيرة بفضـل هـذا الرجـل وتقـر بإحسـانه هـو محمـد بهـاء الديـن العامـلي الـذي يعـرف هنـاك باسـم الشـيخ البهائـي... وفي المدينـة نفسـها مسـجد مـن أفخـم مسـاجد الدنيـا يحمـل اسـم عامـلي آخـر هـو الشـيخ لطـف الله العامـلي، وفي مدينـة مشـهد هنـاك ضريحـان لعامليّـين اثنـين همـا موضـع الاجـلال والاكبـار محـط رحـال الـزوار أولهـما ضريح الشـيخ البهائـي نفسـه والثـاني ضريـح الشـيخ محمـد الحسـن الحـر العامـلي، وفي مدينـة حيـدر آبـاد في الهنـد ضريـح لعامـلي آخـر هـو الشـيخ محمـد عـلي خاتـون.

الأكثريـة شـبه المطلقـة مـن العلـماء العامليـين خاضـوا غـمار العلـوم الدينيّـة بسـبب طبيعـة هـذا المجتمـع الـذي جعـل الديـن درب النـور الـذي يسـير عليـه، وقـد ازداد هـذا التمسـك

1 - الشيخ علي الزين العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية ص 155-146.
2 - النبطية في الفلكين المحلي العاملي والاقليمي- جزء أول –عباس وهبي ص72.

مـن خـلال الهجـمات الطائفيـة والمذهبيـة التـي كانـت تجتـاح جبـل عامـل، مـا جعلهـم يعمـدون إلى الإصرار عـلى تبيـان أهميـة المذهـب الشـيعي، والتّحصـن بعقيدتـه مـن أجـل رصّ الصفـوف والتـوكل عـلى البـاري عـزّ وجل..هـذا مـن ناحيـة ومـن ناحيـة أخـرى: فـإن القلـة منهـم أبحرت في علـوم الرياضيـات والهندسـة بسـبب بعـض المقتضيـات الدينيّـة للتمكـن مـن شرحهـا عـلى غـرار الشـهيدين الأول والثـاني، أو الشـيخ أحمـد رضـا وحتـى الشـيخ البهائـي، والبعـض منهـم بسـبب سـفره الى الخـارج وإحتكاكـه مـع الحضـارات الأخـرى لـردح مـن الزمـن عـلى غـرار الشـهيد الثـاني والشـيخ بهـاء الديـن العامـلي، والطبيـب العـالم الحكيـم الكركـي الـذي عـاش وتـوفي أصفهـان، ومـن ثـم العـالم المختـرع العبقـري حسـن كامـل الصبـاح ومـن بعـده العالمين يوسـف بوخـدود ورمـال مـال وغيرهـم، ومنهـم مـن أبـدع و غـدا مرجعًـا علميًـا في حنايـا الجبـل عـلى غـرار العـالم الطبيـب ابـن رشـيد الصـوري وغـيره، ومـن ثـم توالـت قوافـل الإبـداع والاخـتراع... إذًا الحاجـة أم الاخـتراع، وهـذا مـا حصـل في جبـل عامـل عـلى الرّغـم مـن أنّـه -كـما اسـتعرضنا- قـد يكـون بعـض العلـماء الذيـن تـم ذكـر اسـماؤهم قـد شـاركوا في مجـالات العلـوم التطبيقيـة، لا سـيما في العهديـن الأمـوي والعبـاسي ولكـن أحـدًا لم يتحـدث عـن ريادتهـم وهـذا مـا يحتـاج الى البحـث والتدقيـق.

ومـن أهـم العلـماء الرياديـين في العلـوم التطبيقيـة في تاريـخ جبـل عامـل حتـى الثمانينيـات مـن القـرن العشريـن الذيـن تمكنّـا مـن معرفتهـم هـم :

1- **زياد بن أبي ورد الأشجعي** 127**هجرية**/ 744م .

2- **جرجس أبو السرّي الصيداوي:** طبيب نصراني من أهل صيدا.

3- **« المبـارك1» بـن شرارة أبـو الخـير الحلبـي** 490ه/ 1096م وهـو ابـن شرارة الحلبـي النـصراني مـؤرخ وكاتـب طبيـب نـصراني ولـد ونشـأ في حلـب .

4- **العـالم والطبيـب رشـيد الديـن الصـوري :** 573هـ/ 1177م- 639ه/ 1241م. رشـيد الديـن بـن أبي الفضـل بـن عـلي الصّـوريّ، نسبة إلى مدينـة صـور عـلى السّـاحل اللّبنـانيّ، طبيب وعـالم نبـات، مـن علـماء القـرن السـادس الهجـريّ، ولـد في صـزر سـنة 573ه، ونشـأ فيهـا، ثـم انتقـل إلى بيـت المقـدس. عـدّ مؤرخـو العلـوم رشـيد الدّيـن الصّـوري عـالم عـصره في علـوم النبـات، ومـن أهـمّ مؤسـسي الكيميـاء الطّبيّـة، ورائـد اسـتعمال التّراكيـب الدّوائيّـة والعقاقـير لعـلاج الأمـراض الباطنيّـة. كتـاب الأدويّـة المفـردة أهـمّ مؤلّفاتـه.



5-**داود الأنطاكي**: كان صيدلانيًا علمًا مبدعًا عاش في القرن العاشر هجري عندما كانت سلطة الدولة العثمانية في أوج قوتها وامتدادها في عهد السلطان سليمان القانوني أكبر سلاطين هذه الدولة ولد في منطقة أنطاكية (وتشير بعض الروايات إلى قرية قرب انطاكية)، ودرس على أحد الأساتذة في بلده وتعلم الرياضيات والطبيعيات واللغة اليونانية ثم رحل إلى جبل عامل ودمشق. واستقرّ في مصر وصار كبير الأطباء في العاصمة القاهرة وكان مفكرًا شاملًا أمينًا يحترم من سبقوه ولا يمنعه مدحهم من النقد والتمحيص لكل كلمة. وكان قوي الشخصية واثقًا بنفسه وبعلمه.

6- **الشيخ الأجل زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي الدين بن صالح** تلميذ العلامة ابن مشرف الجبعي العاملي المعروف بالشهيد الثاني: **ولد في 13 شوال سنة** 911 مصنفاته كثيرة مشهورة. وله مؤلفات منها شرح اللمعة الدمشقية.

7- **الشيخ أحمد بن الحسن بن محمد بن علي الحر العاملي المشغري الجبعي**: من علماء القرن الحادي عشر الهجري، عالم فاضل ماهر محقق عارف بالعقليات والنقليات خصوصًا الرياضيات.

8- **محمد بن عز الدين حسين بن عبد الصمدبن شمس الدين محمد بن علي بن الحسين بن محمد بن صالح العاملي الجبعي الحارثي الهمْداني، المعروف ببهاء الدين العاملي- الشيخ البهائي** 953 هـ/ 1546م - 1030 هـ/ 1633م هو العالم الذي ذاع صيته في البلدان، وملأ اسمه الآفاق وهو نزيل أصفهان. ولد في بعلبك 27 ذي الحجة سنة 953 هـ، وكان والده من تلاميذ الشهيد الثاني، دعي بالجبعي نسبة الى قرية جُبع التي تعرف بجباع الحلاوة. وتقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة صيدا، والى هذه القرية ينتسب إليها كل من والده الشيخ بن عبد الصمد الجبعي العاملي، وجده شمس الدين محمد الجباعي[1].

ويعدّ الشيخ البهائي من ألمع علماء القرن الحادي عشر الهجري، لما عرف من موسوعيته المعرفيّة في شتى العلوم، ولبراعته الفائقة في البعض منها فكان فقيها أصوليا، أديبا، بالإضافة إلى كونه عالما في الهندسة، والفلك، والحساب، والجبر، وجميع أقسام الرياضيات، كما جمع إلى ذلك كله الحكمة والكلام وعلوما أخرى، انتقل الشيخ البهائيّ مع والده الشيخ عزّ الدين إلى بلاد فارس، وهناك درس عند والده وغيره من العلماء. وقد عاش في عهد الدولة الصفوية التي شهدت حركةً علميّة واسعة آنذاك. تولّى الشيخ البهائي مشيخة الإسلام في زمن الشاه عباس الصفوي الكبير. توفي في أصفهان، ومنها نقل إلى المشهد الرضوي المقدس بحسب وصيته، حيث دُفنّ قرب الحضرة المقدّسة.

1 - د. دلال عباس بهاء الدين العاملي ص 78.

وأساتذته: الشيخ أحمد الكجائي الجيلاني- القاضي المولى أفضل القايني- المولى عبد الله بن الحسين اليزدي الشهابادي، المتوفى سنة 981 هـ- الشيخ عبد العالي الكركي، المتوفى سنة 993 هـ - المولى علي المُذَهّب- محمد باقر بن زين العابدين اليزدي، المتوفى حدود سنة 1056 هـ- الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن أبي اللطيف المقدسي الشافعي، المتوفيسنة 993 هـ.

وكان لشهرة الشيخ البهائي وموقعه الإجتماعي الأثر في إقبال الكثير من الطلاب على الاستفادة من دروسه، وقد ذكر العلامة الأميني أكبر عددٍ لتلاميذ الشيخ البهائي (97 طالبًا) مع الاستناد إلى المصادر والمراجع عند تعداده لهم؛ **ومن أشهرهم:** محمد تقي المجلسي، المتوفى سنة 1070 هـ- المولى محسن الفيض الكاشاني، المتوفى سنة 1091 هـ- صدر المتألهين الشيرازي- السيد ماجد البحراني.صاحب التعليقة على كتاب «الإثنا عشرية»- الشيخ جواد بن سعد، المعروف بالفاضل الجواد البغدادي، شارح كتابَي خلاصة الحساب وزبدة الأصول للشيخ البهائي- الشيخ حسن علي الشوشتري، وقد إجازه الرواية- خليل بن الغازي القزويني- الشيخ زين الدين بن محمد بن الشيخ حسن بن الشهيد الثاني- محمد صالح بن أحمد المازندراني- السيد الميرزا رفيع الدين النائيني.

وقد أصبح الشيخ البهائي شيخ الإسلام في الدولة الصفوية بطلب من الملوك الصفويين، وهو أعلى منصب رسمي في الدولة. وقد بقي الشيخ في منصبه هذا إلى آخر حياته، ولم يكن للشيخ رغبة في هذا المنصب، إذ كان له ميل للانعزال والتعبّ، وبعد تولي منصب شيخ الإسلام، أصبح له منزلة خاصة عند البلاط الصفوي، فكان من خلال تقواه وعلمه محل ثقة الشاه عباس الأول، الذي قرر أن يجعله وزيرًا ومستشارًا له. ونقل إسكندر المنشي، أن الشاه عباس استفاد من جلسات الشيخ البهائي، وكان الشاه يقدر هذه الجلسات بشكل كبير، وكان يرجع إلى الشيخ حتى في أموره الخاصة بالأسرة.

وله مصنفات أهمها: بحر الحساب - تشريح الأفلاك - وضيح المقاصد - لجامع العباسي - حاشية الخلاصة في الرجال - لحبل المتين - الحديقة الهلالية - الخلاصة في الحساب -رسالة في الأسطرلاب -رسالة الكرة - زبدة الأصول - شرح الأربعين حديث- العروة الوثقى في تفسير القرآن- عين الحياة في التفسير - الفوائد الرجالية - الكشكول- مشرق الشمسين- فتاح الفلاح. بلغت مؤلفات الشيخ البهائي حوالي مئة مؤلف[1].

الآثار المعمارية التي حققها الشيخ البهائي في اصفهان: ميدان تصوير العالم (نقش جهان) - مسجد الشاه عباس (الإمام الخميني)- قبة الصدى..- الحمام الساخن بالشمعة التي لا تنطفىء - المنارتان المهتزتان (منار جنبان)- تصميم مقام أمير المؤمنين(ع) النجف الأشرف- قصر(شهيل ستون) قصر الأربعين عمودا -جسر(سي وسه بل) جسر ال(33)

1 - انظر كتاب الدراية ص 35.

قنطـرة.- قنـاة نجـف أبـاد المائيـة- مسـجد الشـيخ لطـف الله الميـسي العامـلي - الصحـن الحيـدري الشريـف.

9- **محمـد بـن الحسـن بـن عـلي بـن محمـد بـن الحسـين الحـر العامـلي المشـغري**، مؤلـف كتـاب أمـل الآمـل كان مولـده في قريـة مشـغرى ليلـة الجمعـة ثامـن رجـب سـنة ١٠٣٣ قـرأ بهـا عـلى أبيه وعمـه الشـيخ محمـد الحـر وجـده لأمـه الشـيخ عبـد السـلام بـن محمـد الحـر وخـال أبيـه الشـيخ عـلي بـن محمـود وغيرهـم، وقـرأ في قريـة جبـع عـلى عمـه أيضـا وعـلى الشـيخ زيـن الديـن بـن محمـد بـن الحسـن بـن زيـن الديـن.

10-**الشـيخ حسـين بـن شـهاب الديـن بـن حسـين بـن محمـد بـن حسـين) بـن حيـدر العامـلي الكركـي الحكـي** (: كان عالمًـا فاضـلًا ماهـرًا أديبًـا شـاعرًا منشـئا مـن المعاصريـن، لـه كتـب منهـا شرح نهـج البلاغـة ، وعقـود الـدرر في حـل أبيـات المطـول والمختصر ،وحاشـية المطـول، وكتـاب كبـير في الطـب، وكتـاب مختـصر فيـه، وحاشـية البيضـاوي، ورسـائل في الطـب وغـيره، وهدايـة الأبـرار في أصـول الديـن ومختـصر الأغـاني، وكتـاب الاسـعاف، ورسـالة في طريقـة العمـل، وديـوان شـعري، وأرجـوزة في النحـو، وأرجـوزة في المنطـق ، وغـير ذلـك...

11- الفيلسوف العبقري حسن كامل الصبَّاح



بعـد قـرون عديـدة مـن الظـلام الدامـس توهّـج نـور الصبـاح لكـي ينـير الكـون مـن جـذوة ذكائـه وعبقريتـه فـكان للفـرادة تاجًـا، وللابتـكار والاخـتراع رائـدًا، فـإذا كان ،ينشـتين عالمًـا وأديسـون مخترعًـا، فـإن الصبـاح كان عالمًـا ومخترعًـا ..نعـم « إنــه كان بــذرة في الأرض نبتــت ونمــت فــإذا علماؤنــا اليــوم بالعـشرات، وإذا الباحثـون العلميّـون في شـعبنا بالمئـات « يسـيرون عـلى دربـه النـيِّر» و إذا هـم في وطنهـم و في الخـارج يقدمـون كل يـوم البرهـان عـلى طاقـة هـذا الشـعب الكامنـة ....»[1].

حسـن كامـل الصبـاح عـالم مـن بلادنـا شـعّ فكـره في العـالم. أبـصر النـور في السـادس عـشر مـن شـهر آب أغسـطس 1895م في النبطيـة جنـوب لبنـان، والـده الحـاج عـلي الصبـاح ووالدتـه الحاجة آمنـة رضـا. عندمـا بلـغ حسـن السادسـة مـن العمـر راح يسـأل والدتـه وهـو ينظـر إلى الفضـاء: «لمـاذا لا تصطـدم هـذه النجـوم بعضهـا بالآخـر؟ ومـا الـذي جعلهـا معلقـة هكـذا في السـماء؟ وتحـار الوالـدة وتجيـب ببسـاطة لا تـروي غليـل الولـد الجائـع إلى المعرفـة.

1 - البروفسور حافظ قبيسي –الفيلسوف العبقري حسن كامل الصباح ص 118.

وفي الحقيقة، فإنّ هذا السؤال قد أجابت عليه النظرية النسبية التي أطلق سراحها العالم ألبرت أينشتين، لأن النظرية النسبية العامة توجب درس الحركات والحوادث الطبيعية درسًا تامًا والحوادث الطبيعية هي خواص طبيعية هندسية للفضاء الأينشتايني، ولا سيما أن الفضاء نسبي بتحول الزمان والمكان، ويذكر د. منيف موسى[1]: «يلوح في مخيلتي، رسم ذلك الصبي، وهو عائد من الكتّاب، ليرتمي في حجر أمّه، ليضع رأسه على ركبتيها وهي متربعة أمام الدار على مصطبة:

- أمي، هل تشعرين بثقل رأسي؟
- أبدًا يا حبيبي، إنه كالنسمة.

فيقول لها:

- رأسي أثقل من جبل الرويس (والرويس مرتفع يطل على النبطية جنوبًا).
- هل تحسّ بألم أو صداع يا بني؟
- أحسّ أنني أحمل ما هو أثقل من الصداع والمرض... فهل أعيش يا أمي،...؟
- وبماذا تفكر؟
- بأشياء لا أعرفها، بعيدة.. بعيدة.. بعيدة...

هذا الفتى النباطي أصلًا الجنوبي محتدًا، اللبناني ولاء، طبع على القيم والتقوى، وتركت لمسات الوالدة في نفسه تطبعًا نبيلًا، يقول في رسالة إلى والدته: «إني لا أزال أذكر أيام الطفولة، وما يتعلق بها، وأذكر الأماكن التي كنت ألعب فيها... حيث كنت أركب الحصان... أذكر درجات «الليوان» حيث كنت تقعدين مساء مع لفيف من الجيران – النسوة – وتلقين عليهن بعض القصص الحكيمة.. وهناك أمور لا زلت أذكرها وأكثرها كان السبب في تكييف طبعي. وأصبح الوطن عرفي هو أنت».

حسن كامل الصباح، الصبي المتوله بالعلم، يذكر أنه كان في العاشرة من عمره، وكانت غاية الغايات عنده، أن يعثر على خزانة كتب فيها قصة فيروز شاه وعنترة والملك سيف، ويرثي لحال أولئك الذين لا يمكنهم قراءة تلك القصص. ولما كان في الثانية عشرة كان يقول مساكين السُذّج الذين لا يمكنهم أن يتلذذوا بفهم القضايا الهندسية والظفر بحلّ غوامضها. فذاك كان في نظره عين السعادة.

ويذكر في كتاباته المختارة: « وكان خالي الشيخ أحمد رضا كثير الاهتمام بدرس الحقائق الكونيّة طبيعية كانت أم روحية، وكانت للغة العربيّة وآدابها المنزلة العليا في نظره، وقد سادت تلك الروح على من حولها من الأقارب لهذا كانت أمي وشقيقاتي مولعات بآداب العرب وأشعارهم ونوادر عطائهم، فأصبحت أنا بحكم الطبع أنظر إلى آداب العرب وعلومهم نظرة طموح وأمل. وكان ذلك مبدأ قوميتي الشديدة وطموحي العلميّ...»،

1 - مداخلة حدثت في الندوة التي عقدت في 21/4/1988 في الحركة الثقافية – أنطلياس.

وكذلك يقول نشأتُ وأعداد مجلة المقتطف حولي يقرؤها عمي الشيخ سعيد الصباح وخالي الشيخ أحمد رضا وأهل البيت بإعجاب. وكنت كلما أردت قراءة بعض المقالات العلميّة أعثر على تعابير عدة رياضية لا أفقه لها معنى. « لذلك نراه فيما بعد أنه لم يكتف بالتدريس وتقاضي الراتب بل راح كعادته يدرس على نفسه وأرسل إلى مكتبة تيبر الشهيرة في برلين و طلب مجموعة من الكتب الرياضية والفيزيائية بلغ ثمنها 639.10 مارك. وهذه المجموعة تتألف من عشرة كتب تبحث في نسبية لورانتز وأينشتاين ومينقوفسكي وغيره وقد استلمها الصباح في 9 تموز سنة 1921 م مع فاتورة الحساب باللغة الألمانية[1].

عام 1901م، أدخله والده إلى المدرسة الإبتدائية في النبطية. فبرز ميله واضحًا إلى الرياضيات والحساب[2]. منذ صغره، شغلته الرياضيات، والقضايا العلميّة، في أثناء مطالعته المقالات العلميّة كان يعثر على تعابير رياضية لا يفقه لها معنى. كان متفوقًا في الحساب والطبيعيات، ويكره الدروس التي تحتاج إلى استظهار وألف الشعر والنحو. وعندما أدرك طبيعة العلوم بعد انتقاله من كتّاب النبطية إلى المدرسة السلطانية في بيروت خريف 1908م التي أمضى فيها أربع سنوات، لينتقل، فيما بعد في خريف سنة 1914م إلى الكلية السّوريّة (الجامعة الأميركية اليوم) ليقضي مدة عام كامل وحيث لفتته نظرية آينشتين.

وفي الحقيقة فإن والد الصباح كان تاجرًا مستنيرًا وأمه مثقفة وأديبة، ولا سيما أنها أخت الشيخ أحمد رضا الأديب والشاعر العربي، وهكذا نشأ في بيت علم وأدب تنيره الهداية المحمدية ولآلئ العلوم المضيئة، وكما لُحظ فمنذ ولادته كانت بشائر النبوغ تلمع في عينيه السوداوتين.

وفي العام 1914م كان قد تمكن من اللغتين الفرنسية والإنكليزية وقد تعلم الأولى في غضون سنة واحدة ثم ألمّ بالثانية في الجامعة الأميركية في غضون ستة أشهر. وفي 14 تشرين الأول 1915م، باشر الصباح دروسه في صف السوفومور، وفي 21 شباط 1916م، استدعي للخدمة العسكرية الإلزامية، في الجيش التركي التحق بادئ الأمر بسرية التلغراف اللاسلكي في كاشان، ثم رُقي إلى رتبة ملازم في آب 1916م. وقد استفاد من ذلك متعلمًا اللغتين الألمانية والتركية، وتعمقت خبرته في الأجهزة الإلكترونية.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، عاد إلى دمشق والتقى فيها مدير المعارف في الحكومة العربيّة السّوريّة الأستاذ ساطع الحصري حيث عينه مدرسًا للرياضيات في مدرسة التجهيز الدمشقية. وفي عام 1921م، غادر دمشق إلى بيروت حيث عُيِّن مدرسًا للرياضيات في المدرسة الإعدادية للجامعة الأميركية، وهناك تبلورت تطلعاته الوطنية. كما سعى إلى وضع مشاريع للإستفادة من مياه نهر الليطاني لكنه تلقى خيبة أمل كانت من

1 - انظر : يوسف مروة، عبقري من بلادي ص . 3 و سعيد الصباح، عالم من لبنان.
2 - فارس فيروز: فارس المشاهير، تشرين الثاني – كانون الأول 1989م، ص 76.

جملة ما حمله على التفكير إلى مغادرة الوطن ومتابعة دراسته في الولايات المتحدة الأميركية. في 30 آب 1921م غادر الصباح بيروت إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث وصل مرفأ نيويورك في 4 تشرين الأول 1921م.

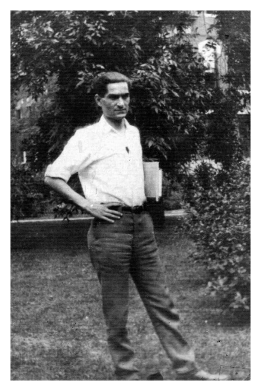
خلال العام الدراسي 1921م-1922م، التحق بمعهد ماساشوستس الفنّي (MIT). وفي 10 تشرين الثاني 1922م، إلتحق بجامعة Illinois واستمر فيها حتى 10 آب 1923م حيث حاز شهادة معلم علوم في الهندسة M.A..

وفي يوم الإثنين الموافق فيه 20 آب 1923م، بدأ العمل في شركة جنرال إلكتريك بعد أن وقّع تعهدًا بأن تكون جميع اختراعاته ملكًا للشركة. قضى الصباح الفترة الممتدة من عام 1923م وحتى أوائل 1935م من إنجاز إختراعاته بكل مثابرة ودون كلل أو ملل ورغم كل العوائق.

الساعة الرابعة من نهار الأحد الموافق فيه 31 آذار 1935م، استشهد حسن كامل الصباح من جراء مؤامرة خبيثة أدت إلى العبث بحياته خصوصًا وأنه كان يتفاوض مع أحد الزعماء العرب على بناء مزارع لتوليد الطاقة الشمسية... وتحويل الصحراء العربيّة إلى منطقة خضراء، ومن الدلائل غير المباشرة هي تلك الرسالة التي بعث بها إلى أهله[1] في 1935/ 3/ 29م.

وكانت الأخيرة، وقد جاء في أحد مقاطعها: «إنني أجتاز مرحلة صعبة خطيرة أسأل الله أن ينجيني منها، فأدعو لي لأن دعاءكم ورضاكم قد يخلصاني من أعداء ألداء يكيدون لي ويسعون لزحزحتي من طريقهم».

وفي يوم الأول من نيسان 1935م، وصل نبأ نعيه إلى وطنه ونُقل جثمانه من مرفأ نيويورك في 8 أيار حيث وصل إلى مرفأ بيروت يوم الثلاثاء الواقع فيه 31 أيارو دفنّ جثمانه يوم السبت في الأول من حزيران 1935م.





1 - عباس وهبي: الفيلسوف العبقري حسن كامل الصباح، ص 14-12.

لقـد التحـق الصبـاح بشركـة الكهربـاء العامـة في ولايـة نيويـورك، وكانـت تعـدّ أعظـمَ شركات الكهربـاء في العـالم، وفيهـا اكتمـل إشـعاعُ عبقريتـه وتفوّقـه عـلى المئـات مـن المهندسـين العاملـين بالشركـة، ولم تمـضِ سـنةٌ واحـدة عـلى عملـه بهـا حتـى بـدأت تتـوالى اختراعاتُـه التـي نالـت إعجـاب رؤسـائه والمهندسـين مـن زملائـه ، فخصصـوا لـه مختـبرًا ومكتبًـا وعيّنـوا عـددًا مـن المهندسـين العاملـين تحـت إدارتـه، وأرسـل اليـه الرئيـس الاميركـي هوفـر رسـالةَ تهنئـةٍ أثنـى فيهـا عـلى نبوغـه وذكائـه، وكـما أرسـل الرئيـس الاميركـي روزفلـت إكليـلا،» بعـد وفاتـه واكبـه الى النبطيـة ، كـما أرسـلت إليـه شركاتُ الكهربـاء الكـبرى شـهاداتٍ تعـترف بصحـة اختراعاتـه، ومنهـا شركـة وسـتنجهاوس في شـيكاغو، وثـلاث شركات ألمانيـة أخـرى.

ويقـول سـليمان بـدور في مقـال لـه[1]: «عـاد ذلـك النابغـة والعـالم المفكـر الكبـير إلى وطنه... عـاد وياللأسـف ضمـن تابـوت ليدفـنّ في مسـقط رأسـه النبطيـة، ويحـرم الوطـن فوائـد علمـه ومواهبـه العقليـة. عـاد، ويـا للأسـف ليـس عـلى متـن طائرتـه الخاصـة التـي اشـتراها ليطـير فيهـا إلى ربـوع الوطـن المفـدَّى إلى حيـث كانـت تطمـح نفسـه الكبـيرة.

يقـول بـول ماسـون أورسـيل في كتابـه الفلسـفة في الـشرق[2]. لـذا لا غـرو أن نتحـدث عـن عـالم قـد استشـهد وهـو يأمـل في العـودة إلى موطـن أمتـه لتنفيـذ مـا أبدعـه ومـا حلـم بـه ولا سـيما تحويـل أشـعة الشـمس إلى طاقـة كهربائيـة تنـير الصحـراء والأقطـار العربيّـة كافـة... ورغـم التقـدم الكبـير الـذي شـهده الغـرب، ورغـم هجـرة هـذا العـالم المبـدع الفـذ مـن وطـنٍ أنهكتـه الإحتـلالات والاسـتعمار والاسـتبداد والمجاعـة... فـإنَّ هـذه الحضـارة الغربيـة لم تفتنـه، بـل ثابـر وصـبر واسـتُغِلَّ في كل اختراعاتـه التـي كان يتقـاضى دولارًا واحـدًا عـن كل اخـتراع، في حـين كانـت الشركـة تبيـع هـذه الإختراعـات بملايـين الـدولارات! ومـا أعظـم هـذه المفارقـة، ومـا أخبـث هـذا الاسـتغلال، ولكـن الصبـاح كان همـه أن يعـود إلى أمتـه لكـي يهديهـا مـا أنجـزه، وفي الوقـت نفسـه كان حسـه العلمـيّ وشـغفه العلمـيّ يدفعانـه لمزيـد مـن العطـاء. لقـد فـرض الصبـاح نفسـه في المجتمـع الأمريكـي فقـد منحـه معهـد المهندسـين الكهربائيـين الأميركيـين لقـب «فتـى العلـم الكهربائـي» وأطلقـت عليـه الصحـف الأميركيـة لقـب أديسـون الـشرق[3].

كـما أن العديـد مـن زملائـه ومعارفـه قـد أدلـوا بشـهاداتهم بهـذه الشـخصية العبقريـة ونذكـر منهـم: المهنـدس الكسندرسـن: كان الصبـاح مهتـمًا في المـدة الأخـيرة بمـشروع كهربـة الولايـات المتحـدة بواسـطة التيـار المتواصـل، وقـد أقنـع جميـع مهنـدسي الشركـة بإمكانيـة تحقيـق هـذا المـشروع.

أمـا العـالم ألـبرت هـول فيقـول: كان الصبـاح مـن المدرسـة الحديثـة التـي أعجبـت بالأنابيب الإلكترونيـة، فدرسـتها واستخدمتها لمنفعـة العـالم، وكان عظيـم الثقـة بمقدرتـه عـلى إتمـام أي عمل

1 - نشر في جريدة «البيان» النيويوركية في عدد 19/5/1935.
2 - مجلة الباحث، التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العلمي، العدد الخامس والسادس، آذار – حزيران 1979، ص 195-183.
3 - رسائل الصباح.

أُنيط به، وواقع الحال قد برهن على أنه كان على حق وأنه مصيب في اعتقاده.

والمهندس أ. ألن قال: دماغ الصباح يشتغل دائمًا وهو يحوي قدر خمسة أدمغة. وقد أخبر هذا المهندس ذلك للدكتور إلياس مرشد الصبَّاغ. ويتحدث المهندس ك. وستون عن قدرات الصباح قائلًا: كان الصباح الوحيد بيننا الذي تجرأ على مناقشة آراء أنيشتاين الرياضية وانتقادها، والتحدث عن النسبية كأنه آينشتاين نفسه. هذا إلى جانب أقوال كثيرة ونوعية ومتعددة في هذه الشخصية الفذة العبقرية. إن الصباح له من المخترعات أكثر مما لأي مهندس آخر في شركة جنرال إلكتريك المهندس الهنغاري جبريال كرون[1].

ويذكر كذلك عجاج نويهض أنه كان زميلًا للصباح كمدرس في المدرسة السلطانية التي كان يعلم فيها الصباح الرياضيات. ويقول: «وسبب تعارفنّا لا بأس أن أذكره موجزًا: فأول ما حرت من أمره كأستاذ من الأساتذة الزملاء، لا من حيث الأناقة المهيبة واللباقة في الأسود دائمًا، بل من حيث تواضعه الزائد طبعًا وخلقًا، لا تطبعًا، حتى نكاد قبل اكتشاف شخصيته وكينونته، إنه أستاذ عادي بلغ الغاية من المؤانسة ورقة المعشر، كان له ولوع باختيار اللون الأسود لملبسه فلا أذكر طوال صحبتي له، إني رأيته مرة بغير الملبس الأسود ولا أدري السبب في إيثاره هذا اللون. وخطر في بالي يومًا أن أسأله عن هذا، فأمسكت عنه لاعتقادي أن لا مجادلة في الذوق[2]. وهذا ما يدل على الذوق الخاص والطبيعة المميزة لهذا العبقري.

لقد كان مسلمًا حنيفًا مؤمنًا من خلال تربيته الدينيّة التي تلقاها وقد ازداد قناعة بوجود الخالق من خلال سبره لأغوار النظرية النسبية. وهو لم يكن مخترعًا وعالمًا في الرياضيات والفيزياء فحسب، بل كان فيلسوفًا وصاحب نظرية فلسفية ونظرة إجتماعية شاملة إلى الوجود، وهو المتذوّق للشعر والأدب وكيف لا وقد تربى في كنفهما منذ ولادته فخاض غمارهما، ولكن اختراعاته وأبحاثه العلميّة كانت تبعده عن الإبداع في هذين المجالين.

نزعة الصباح القومية:

طمح وعمل الصباح من أجل تحرر أبناء قومه العرب وأهل بلاد الشّام وبني وطنه لبنان، وسعى لتحقيق حلم راوده بنهضة عمرانية شاملة تعم ربوع بلاده. وهذا الإيمان العميق إنما ساهمت في إرساء أسسه ودعائمه تلك الظروف التي نشأ الصباح في ظلها وترعرع في مسقط رأسه النبطية، كبرى حواضر الجبل العاملي الأشم، تلك الحاضرة التي شهدت أجواء استنارة دينية وقومية وعلميّة مميزة، ففيها تفتح وعي الصباح.

1 - الأستاذ مهند صباح، أرشيف لجنة الصباح الموجود لدى لجنة الصبَّاح الوطنية.
2 - مجلة العربي، العدد 267، شباط 1981، مقال تحت عنوان: «هذا هو أديسون العرب حسن كامل الصباح».

وبعد انتقاله إلى الدراسة في الكلية السّوريّة الإنجيلية التقى بزميل قادم من الشمال هو نقولا شاهين[1]، وقد توافق هذان الطالبان على تأسيس جمعية سرية ثنائية جعلا هدفها تحرر الوطن والتخلص من النير التركي الطوراني. لكن ذهاب الصباح إلى الخدمة العسكرية الإلزامية «سفر برلك» وضع حدًا لهذه الجمعية الثنائية، وعندما طرق الفرنسيون أبواب دمشق بعد معركة ميلسون، راح الصباح يبكي مخاطبًا زميله بالقول: «لا يمكن قهر المستعمرين إلا بسلاح العلم وسلاح الثوار».

بعد انتقال الصباح إلى بيروت ليدرس في المدرسة الإعدادية التابعة للجامعة الأميركية، انتسب إلى جمعية العروة الوثقى التي رأسها، يومذاك، الأديب المناضل أديب مظهر. خلال فترة وجود الصباح في الوطن راح يخطط للإفادة من مياه الليطاني، وإذ نجده في رسالة مطولة بعث بها من بيروت في العام 1921م إلى خاله الشيخ أحمد رضا يتحدث عن هذا المشروع ومما قاله في ختامها: «إن توزيع قسم من مياه الليطاني على القرى حتى الساحل واستخراج قوة كهربائية من القسم الآخر مسألة ممكنة تعود بالأرباح الطائلة».

وفي رسالة لاحقة إلى ذويه يقول: «... إن ملوك العرب مشغولون بالسياسة، أما من جهة التقدم العلميّ و«جلب المخترعين» إلى ديارهم فهم في غنى عن ذلك...» (26-12-1934م). ولكن مهما كان الأمر، فقد بدأت، بهذه الرحلة، مسيرة الصباح العلميّة[2].

المسيرة العلميّة والمرارة:

بُعيد وصوله إلى أميركا، التحق الصباح بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.) وهو، كان ولا يزال، أحد أهم وأبرز مراكز العلم والإختراع في أميركا. وفي العام التالي التحق بجامعة إلينوي حيث حاز شهادة جدارة في العلوم. ((M.A. كل ذلك وهو يكابد الأمرّين، ويواجه ظروف الحياة الصعبة، وحده، وفي محيط غريب، وعلى الرغم من ذلك، كان دائمًا من الأوائل، ومحطّ عداوة وحقد من أولئك «الناقمين على الأجنبي الذي تفوق عليهم». هذه الغربة، وهذه المرارة أجبرته في 20 آب 1923م على توقيع اتفاقية مجحفة مع إحدى أكبر الشركات الأميركية، شركة «جنرال الكتريك». ونصّت تلك الإتفاقية على ضرورة أن يرسل الصبّاح «... علمًا إلى دائرة التسجيل بجميع الإختراعات التي يتوصّل إليها... وتبقى الإختراعات ملكًا للشركة...» وتقضي بأن «يتقاضى دولارًا واحدًا مقابل كل اختراع»!!

كل هذا مع العلم أن الشركة دفعت مبلغ ربع مليون دولار على تسجيل أحد تلك الإختراعات!! وينقل الصباح عن أحد المهندسين الأميركيين قوله: «... لو لم يكن الصباح

1 - زار النبطية في 1/5/1983 وقام د. محمد فران بواجب ضيافته فيها لأنه (الفران) اشتم فيه رائحة الصبّاح.
2 - عباس وهبي: العبقري الفيلسوف حسن كامل الصباح، ص 15.

مستخدمًا في الشركة لابتاعت منه هذا الاكتشاف بما لا يقل عن نصف مليون دولار...» (1930/4/26م).

على الرّغم من كل ذلك واصل الصباح جدّه وعمله، حتى فاق أقرانه، وذاع صيته، فعُيّن مهندسًا أصيلًا في الشركة... ومُنح في 1932/12/25م رتبة «فتى العلم الكهربائي»، وهذه الرتبة كما يقول الصباح نفسه: «... أرفع بكثير من رتبة دكتور. أما ترقيته ومنحه هذا اللقب فقد جرى ذلك بعد انتخابه من جمعية المهندسين الكهربائيين الأميركيين في نيويورك. إذ إن حامل شهادة دكتور، لا تُمنح له إلا بعد أن يصرف عشرة أعوام في ممارسة مهنته...» (1933/2/1م).

وفي عام 1932 منحه مجمعُ مؤسسة الكهرباء الأمريكي لقب «فتى مؤسسة مهندسي الكهرباء الأمريكية»، وهو لقب علمي لا يُعطى إلا لمن اخترع وابتكر في الكهرباء، ولم ينل هذا اللقب إلا عشرة مهندسين في الشركة «وذلك بعد انتخابه من جمعية المهندسين الكهربائيين الأمريكيين في نيويورك» وقد اعتبرها أدباء المهجر أنها رتبة فتى العلم الكهربائي إعجابًا و تقديرًا لهُ... كما مثَّل شركة جنرال الكتريك في المؤتمر الكهربائي العالمي الذي عُقد في باريس عام 1932 م وألقى فيه دراسة حول تأثير المدارات الكهربائية على الأقواس المنعكسة في مقومات القوس الزئبقي ، و في 1933/1/25 تمَّت ترقيته في الشركة إلى رتبة زميل أي فيلوي بالانكليزية .

هكذا سطع نجم الصباح عاليًا، فحفلت الصحف بأخباره وبمحاضراته ومقالاته، وسجّلت «جنرال إلكتريك» معظم اختراعاته في كبرى دول العالم، كي لا يحق لأحد استغلالها. وفي ذلك الوقت كان متمكنًا من اللغات: الفرنسية والإنكليزية والتركية والألمانية، وفي أواخر أيامه كان يدرس اليونانية والروسية. نتيجة كل ذلك، انهالت عليه العروض والدعوات والشهادات من كبرى الشركات والجمعيات والشخصيات العالمية، ولا سيما من ألمانيا وروسيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا، وبعض الشخصيات العربيّة في وقت لاحق.

إختراعات الصباح:

وصل عدد ما اخترع الصباح من آلات وأجهزة «صمامات ودارات ومقومات وفي مجالات الهندسة الكهربائية «الكهرباء الصناعية المشتملة على الكترونيات القدرة والتلفزة، هندسة الطيران، والطاقة إلى أكثر من 120 اختراعًا سُجّل منها 52 اختراعًا في 13 دولة نذكر منها: الولايات المتحدة الأميركية، كندا، بلجيكا، فرنسا، إيطاليا، بريطانيا، أستراليا، اليابان، أسبانيا، الهند، واتحاد دول أفريقيا الجنوبية.

أمـا مـن اختراعـات الصبـاح المسـجلة في مكتـب التسـجيل الإتحـادي في واشـنطن فقـد بلغـت 52 إختراعًـا نذكر منهـا أربعـة، منهـا ثلاثـة أنجزهـا بمفـرده في التلفـزة وهـي تحـت عنـوان: إرسـال الصـور والمناظـر Transmissionpictures and views ، وواحـد بالتعـاون مـع أحـد زملائـه وهـو تحت عنـوان: جهـاز التصويـر الفوتوغـرافي بواسـطة الشـعاع المهبطـي -Cathode Ray Photograph ic–apparatus، حيـث تـم تسـجيله بعـد وفـاة الصبـاح في مكتـب التسـجيل الإتحـادي في واشـنطن...

وقـد شـملت علـوم الصبـاح نواحـي معرفيّـة عديـدة في مجـالات الرياضيـات البحتـة والإحصائيـات والمنطـقِ والفيزيـاءِ وهندسـةِ الطـيران والكهربـاءِ والإلكترونيـاتِ والتلفزة،والطاقة وتحـدث عـن مـادة «الهيدروليـة» ومـا ينتـجُ عنهـا مـن مصـادر للطاقـة، واستشـهد بشـلالات نبـع الصفـا في جنـوب لبنـان ونهـر الليطـاني، وكان قـد اسـتهل اختراعاتـه بجهـاز ضبـط الضغـط الـذي يعـين مقـدار القـوة الكهربائيـة اللازمـة لتشـغيل مختلـف الآلآت ومقـدار الضغـط الكهربائـي الواقـع عليهـا ثـم أتبعـه بجهـاز يُدعـى «المربـع الوحيـد الكـرة «والـذي يسـاعد عـلى إضـاءةِ عـدة مصابيـح مسلسـلةٍ بنـور ثابـت مهـما بلـغ عددهـا، ومـن ثـم صنـع جهـازًا للتلفـزة يسـتخدم تأثـير انعـكاس الإلكترونـات مـن فيلـم مشـع رقيـق في أنبـوب الأشـعة المهبطيـة، وهـو جهـاز إلكـتروني يمكّـن مـن سـماع الصـوت في الراديـو والتليفزيـون ورؤيـة صاحبـه في آن واحـد، ثـم بـدأ بدراسـة توليـد الطاقـة المتجـددة النظيفـة و«المجانيّـة»، فتوّجهـا باخـتراعٍ رائـدٍ قـلّ نظـيره حتـى أيامنـا هـذه، يعمـل عـلى توليـد تيـار كهربائـي دائـم مـن الطاقـة الشمسـية و ذلـك عـام 1932 م ، حيـث كان عبـارة عـن بطاريـة ثانويـة يتولّـدُ بهـا حمـلٌ كهربائـي بمجـرد تعرّضهـا لأشـعة الشّـمس، فـإذا وُضـع عـدد منهـا يغطّـي مسـاحة ميـل مربـع (2.5 كـم مربـع) فـإن القـوة الكهربائيّـة التـي يمكـن اسـتصدارها مـن الشـمس عندئـذ تصـل الى مئتـي مليـون كيلـو واط «فولـت» أو مئـة وأربعـين مليـون حصـان... ومـن الاختراعـات المميـزة والرائـدة والتـي تعـدُّ مـن الانجـازات العلميّـة الباهـرة نذكـر أيضًـا : جهـاز لنقـل الصـورة، يسـتخدم اليـوم في التصويـر الكهروضوئـي، وهـو الأسـاس الـذي ترتكـز عليـه السـينما الحديثـة، وخاصـة السـينما سـكوب و كذلـك – جهـاز لتفريـغ الشـحن الكهربائـي في الفضـاء –جهـاز لارسـال الصـور والمناظـر –أنظمـة ذات صمامـات لتغيـير الطاقـة الكهربائيـة – أدوات كهربائيـة بخاريـة –أجهـزة ذات صـمام لتغيـير التيـار الكهربائـي –نظـام التوصيـل المركـب للمقومـات –وسـائل التفريـغ التوهجـي للتحكـم في درجـة الحـرارة –وسـائل تـوازن للمقومـات –دارات لانتقـال الكهربـاء – وسـائل لمنـع اختـلال التـوازن في نظـم التوصيـل المركـب للمقومات–جهـاز التحكـم في الضغـط – أجهـزة لتغيـير الطاقـة – أداة تفريـغ كهربائيـة الخ...وتسـتخدم اختراعـات الصبـاح حاليًـا ولـو تـمَّ تطويرهـا في المجـالات التاليـة –الصناعـة الآليـة – محطـات توليـد الطاقـة الكهربائيـة – أجهـزة قيـاس الحـرارة والضغـط الالكترونيـة – الصناعـة الثقيلـة و تطويـر طـرق جديـدة للتلحيـم الكهربائـي – صناعـة الفضاء:الأقـمار الصناعيـة والمركبـات الفضائيـة – الصناعـة الاليـة: السـيارة

الكهربائيـة الشمسـية ..... وتعـدّ اختراعاتـه التـي سـجلتها الشركـة واسـتثمرتها وطورتهـا بعـد وفاتـه الركيـزة الأساسـية لتطـور التقنيـة الغربيـة في المجـالات الكهربائيـة والالكترونيـة، ومـا انفكـت تـؤدّي دورًا حاسـمًا في عمليـات توليـد الطاقـة الكهربائيـة وتقويمهـا وتحويلهـا وتوزيعهـا ونقلهـا، كـما أن لـهُ الفضـل الكبـير في أسـاليب وطـرق وتقنيـات وعمليـات مميـزة وهندسـية لفحــص وضبــط ومراقبــة إختبــار المعــدات والأجهــزة والالآت الكهربائيــة، ونذكــر منهــا المقومـات والضوابـط والحوافـظ والمعـدلات والعاكسـات والمحـولات والمجمعـات والناقـلات والمنسـقات والمصححـات والموزعـات والمثـيرات والمفرغـات، كـما كانـت لـه أبحـاث في الـذرة.

لقـد سـجل الصبـاح معظـم اختراعاتـه في ميـدان المركبـات الإلكترونيـة. وكان قسـم كبـير منهـا يبحـث في تطويـر الأدوات والنظـم الإلكترونيـة المسـتخدمة في تطبيقـات القـدرة، خاصـة المقوِّمـات ذات القـدرة العاليـة والمقومـات القوسـية ذات الحـوض الزئبقـي. كانـت الأبحـاث في هـذا المجـال تقـضي باكتشـاف مكونـات إلكترونيـة أحسـن أداء مـن التـي وجـدت أولًا، وأكثـر سرعــة، وأرفــع مــردودًا. وكان هــذا الموضــوع هــو الــذي شــكل الثقـل العلمـيّ في مسـاهمة الصبـاح. وتكفـي نظـرة سريعـة عـلى بـراءات اختراعاتـه للتأكـد مـن ذلـك. ولا يخفـى عـلى أحـد أن الشركــة التــي عمـل فيهـا الصبــاح كانـت، ومـا زالـت سـباقة في تطبيقـات الإلكترونيـات الصناعيـة، ولهـا فيهـا إنجـازات رائعـة مـا زالـت تتـوالى حتـى اليـوم. فهـل مـن الصعـب استنتاج الــدور الــذي ســاهم فيـه عالِمُنـا في تقـدم هـذه الشركـة وتفوقهـا؟

وكان مــن أهــم اختراعاتــه بطاريــة ثانويــة تســخن لــدى تعرضهــا للشــمس، وقــد أثبــت أننــا إذا وضعنــا عــددًا منهــا يغطــي مســاحة ميــل مربــع في الصحــراء العربيّــة فالقــوة الحاصلــة مــن الشــحن تكــون نحــو 200 مليــون كيلــوواط فولــت أو 140 مليــون حصــان، وقــد دفعــت الشركــة التــي كان يعمــل بهــا ربــع مليــون دولار لتســجيل هــذا الإكتشــاف.

لقـد أصبـح هـذا الإكتشـاف حدثًـا هامًـا في عـالم اليـوم «أي الثمانينات مـن القـرن الماضي»، فقــد خصصــت المملكــة العربيّــة الســعودية نحــو 15 مليــون دولار ســنويًا في القــرن المــاضي لبرامـج الطاقـة الشمسـية؛ بالإضافـة إلى 50 مليـون دولار لمشروع مشـترك لمـدة خمـس سـنوات مـع الولايـات المتحـدة الأميركيـة. ويـرى العـالم بـأسره أن الطاقـة الشمسـية هـي الوحيـدة لتغطيـة مـا يلـزم مـن طاقـة عالميـة. وقـد دخلـت عـالم الفضـاء بتزويدهـا المكـوك الفضائـي بصـورة عاديـة بالطاقـة اللازمـة. واليـوم يوجـد في أمـيركا مـشروع قـد تحقـق، يولّـد مليـون واط مـن الكهربـاء يؤمـن حاجـة ثلاثمئـة بيـت. وكذلـك مـشروع في السـعودية وقـد ابتـدأ عـام 1980م. ومهـما قيـل عـن اكتشـافات ذات أهميـة فيظـل تفكـير الصبـاح هـو الرائـد في الأوسـاط العالميـة والفنّيـة، وهـذا شرف لبـلاده لا ينازعـه أحـد في ذلـك»[1]. وعليـه لا يمكننـا القـول أن إختراعـات الصبـاح قـد كانـت لعـصره، وانتهـى الأمـر لأن هـذا يعتـبر ظلـمًا لا مـبرر لـه بتاتًـا.

1 - كلمة الأستاذ نقولا شاهين ألقيت في الإحتفال الذي أقيم في النادي الحسيني في النبطية، الأحد في 1 نيسان 1983.

أما القسم الثاني من أعماله فيتسم بالكثير من الإبداع:

أولًا: لقد توصل الصباح إلى استنباط بطارية تولّد الكهرباء بمجرد تعرضها لأشعة الشمس. وفكّر في تطبيق اختراعه هذا في تسيير الطائرات، وفي توليد الكهرباء في الصحاري العربيّة. كانت فكرته هذه عظيمة وعملية. فالأقمار الاصطناعية في يومنا هذا تستخدم كما هو معلوم ألواحًا من الخلايا الشمسية تولد الكهرباء من الطاقة الشمسية مباشرة. والخلايا الشمسية تعمل بفعل الضوء على وصلة شبه ناقلة "Semi conducteurs"، وأدوات أشباه النواقل الحديثة لم تكن معروفة بعد في زمن الصباح، أما بطارية الصباح فتتألف على ما يبدو، من صفائح معدنية بينها مواد كيماوية مشعة.

كان اكتشاف الظاهرة الكهرضوئية المدخل النظري والمفتاح الرياضي لميدان تحويل الطاقة الشمسية إلى كهرباء. وكان عقل الصباح مقبلًا على تخطي الإمكانات التكنولوجية المتاحة في ذلك الوقت، وكانت رغبته في تأسيس مزارع من البطاريات الشمسية لا تقل عن مرارته من بقاء الصحراء العربيّة قاحلة[1]. «ومن الإطلاع على تركيبة هذا الاختراع تبيّن بأنه يشتمل على لوحة من سلفات التاليوم، توجد فيها خصائص معينة، تحول الصورة إلى إشارات كهربائية، وبالتالي فإن الصباح إستخدمها في تجاربه لاستنباط البطارية الشمسية التي تحول أشعة الشمس إلى قوة كهربائية، وقد تحدث الصباح عن هذه البطارية، فقال: «تمكنت من استنباط قوة كهربائية ثانوية يتولد بها حمل كهربائي بمجرد عرضها لأشعة الشمس». والواضح أن الصباح قد اعتمد في اختراعاته على قوانين النظرية النسبية.

ثانيًا: تقدم بمشروع نظام إلكتروني صرف للتلفزة، حين كانت الأفكار السائدة تعتمد طرقًا ميكانيكية، أو ميكانيكية – إلكترونية مختلطة. وقد حاول في هذا النظام حل المشكلات الأساسية التي كانت تعترض النظم السائدة، وأهمها سرعة الإستجابة، وضعف التيار المنبعث من الخلايا الكهروضوئية، وصعوبة حفظ التزامن بين جهازي الإرسال والإستقبال. إلا أن الصعوبات التكنولوجية حالت على ما يبدو اعتماد هذا النظام. ولكن تكمن أهمية هذا الإختراع أنه كان رائدًا في إيجاد نظام إلكتروني صرف. وتجدر هنا الإشارة كما ورد أن الصباح قد سجل في هذا الميدان، أي الـ3 إختراعات تحت عنوان: «إرسال الصور والمناظر».

ثالثًا: ساهم الصباح إسهامًا مبدعًا في تحقيق استخدام المقوِّم بنجاح تام كمعكاس يغير التيار المستمر إلى تيار متناوب للقدرات الكهربائية العالية، ولهذه الطريقة أهمية كبيرة في يومنا هذا، إذ تعتمد في العديد من البلدان لنقل كميات هائلة من الطاقة الكهربائية عبر مسافات شاسعة بواسطة التيار المستمر.

1 - أرشيف لجنة الصباح الوطنية: العالم المخترع حسن كامل الصباح، الذكرى المئوية لولادته، إعداد أ. سعيد الصباح، ص 165.

رابعًا: توصل الصباح إلى طريقة للاستغناء عن بعض المكونات الميكانيكية في محركات التيار المستمر وذلك باستخدام الصمّام الثلاثي الغازي – التيراطرون – فينشأ بذلك محرك ذو مردود مرتفع يمكن تغيير سرعته بسهولة في مدى كبير. وتستخدم مثل هذه المحركات حاليًا على نطاق واسع في الصناعات الثقيلة، كصناعة الفولاذ، حيث تدعو الحاجة إلى محركات كبيرة متغيرة السرعة كما يستخدم مثل هذا النظام في القاطرات والسيارات الكهربائية. وهنا أيضًا، نجد أشباه النواقل في هذه النظم الحديثة، وليس الصمّام الغازي الذي استخدمه الصبّاح». والمسألة هي نفسها أن أشباه النواقل إن دلت على شيء إنما تدل على تغيير في آلية الإختراع وليس في الأساس والمبدأ الذي قام عليه.

«لم يكتف الصباح بهذا القدر من الأعمال. ولعل الإلكترونيات في القسم الآخر والقليل من إنجازاته الباقية، التي تبدو خليطًا من التطبيقات التقنية، لم تكن غائبة عن البحث العلميّ الذي كان يجري في أماكن أخرى، وعلى علاقة وثيقة بموضوعي الساعة الأساسيين: التلفزيون والطاقة الشمسية، وكانت تتميز بلحظات مأساوية تتخللها الفرص الضائعة والشخصيات التاريخيّة والقصص المحزنة والظواهر غير المتوقعة. وفي الخمسينيات، عندما بدأ الترانزستور يحل محل الصمامات الإلكترونية كان هناك أكثر من 18000 طراز مختلف من هذه الصمامات. وحتى اليوم، في عصر الحاسب وتكنولوجيا الفضاء، لم تتبلور بعد إمكانية التخلي التام عن الصمام في التلفزيون والرادار، وفي توليد الإشارات، وفي طبخ الطعام بموجات الميكرو، وفي إرسال الإشارات للأقمار الصناعية. فجميع الأجهزة التي نستعملها اليوم ولدت قبل ذلك بكثير، أي قبل إتمام البحث في أشباه النواقل، وكانت مبنية في الواقع على تكنولوجيا الصمّام. وإذا صح القول إن الإلكترونيات علم ولد في صميم فضول العلماء وعبقرية المهندسين، فإن الصباح رجل علمي فذ ومهندس عبقري».

وهو الذي استشرف أهمية الطاقة الكامنة فيها وقد ورد ذلك في كتاباته المختارة اذ قال عام 1920 : «ان الجسيمة الكهربائية الموجبة التي اكتشفها رذر فورد الانكليزي وأطلق عليها اسم البروتون هي من أهم الاكتشافات التي ستلعب دورًا خطيرًا في الفيزياء الحديثة، وإني أعتقد بأن هذه الجسيمة الموجبة هي التي تعطي للجوهر صفاته الكيميائية المعينة، وتلعب الدور الأول في تقرير المميزات والصفات الثابتة للعنصر» ، كما أنه توقّع في تشرين الثاني عام 1924 م : إن الفيزياء الحديثة بعد فترة ليست بالطويلة ستصبح قادرة على خلق العناصر الجديدة،و تغيير العناصر التي بين أيدينا إلى عناصر أخرى تختلف عن الأولى بصفاتها الفيزيائية والكيميائية «... واشار عام 1933م الى أن اليوم الذي يستطيع فيه العلم أن يسيطر على نشاط العناصر المشعة والجسيمات الكهربائية المتحركة داخل النوى والجواهر ليس ببعيد، وأنَّ تجارب واكتشافات طمسون و رذر فورد و شدويك وكوري وبيت بيكر وغيرهم أثبتت بأن العقل البشري يسير بسرعة في طريقه للسيطرة على المادة واستغلال الطاقة الكامنة فيها».

كـما أنـه في مجـرى حديثـه عـن الطاقـة يتحـدث قائـلا: وكل الاجسـام السـاكنة تتضمـن مقـدارا يفـوق حـد التصـور مـن القـوة ، فالكيلوغـرام الواحـد مـن الفحـم يحتـوي عـلى ثلاثـة وعشريـن ألـف مليـون كالـوري ، فـاذا عرفنـا كيـف نسـتخرج هـذا المقـدار مـن القـوة تمكنـا أن نسـيِّر قطـارًا بخاريـا طولـه مئتـين كيلومـتر مـدة سـنتين بكيلوغـرام واحـد مـن الفحـم، وهـذا عـدا عـما يضيـع مـن القـوة بالاشـعاع ، ومـع ذلـك فاننـا لم نتوفـق حتـى الآن لاسـتخراج أكثـر مـن سـبعة الآف كالـوري مـن كيلـو الزيـت فتكـون نسـبتنا إلى من سـيعرفون كيـف يسـتفيدون من نظريـة أينشـتين أحـط مـن نسـبة البربـر إلينـا ....أمّـا و قـد تبينـوا الحقيقـة فسـيتوصلون إلى حـل الـذرات الماديـة الى قـوة لا حـد لهـا وليتفكـروا بالنتائـج العظيمـة التـي أتـى بهـا أينشـتين بتصـور الوقـت النسـبي و ليكتشـفوا سر القـوى الكامنـة و قـد أصبـح ذلـك سـهلًا يسـيرًا بعـد أن دلّنـا أينشـتين عـلى مكمنهـا فسـيتمكنون مـن اسـتخراج كل مـا تحتاجـه مـن القـوة بـصرف مقدار يسـير مـن الجهـد ...» حتـى إن شركـة جنـرال الكتريـك تهتـم بانتـاج كل أنـواع الطاقـة مـن كهربائيـة وبديلـة و غيرهـا... وقـد توَّقـع اكتشـاف طرائـق الانشـطار والدمـج النـووي المسـتخدمة في صنـع القنابـل الهيدروجينيـة والنوويـة والنيترونيـة وبالتـالي قـد تحقـق هـذا الأمـر لاحقًـا بعـد وفاتـه. و حـدث بـلا حـرج عـمَّا قالـه العميـد نصـير صبـح عـن رؤيتـه التحليليـة الثاقبـة في اسـتغلال الطاقـة الكامنـة في الـذرة، وفي تحويـل العنـاصر الكيمياويـة مـن عنـصر الى آخـر... حتـى إنـه قبـل وفاتـه تحـدث في رسـالة الى والديـه عـن اخـتراع خـاص و مـن رصيـده الخـاص في منزلـه الخـاص، ويبـدو أنـه كان قـد بـدأ يعمـل عـلى أبحـاث نظريـة تتعلـق باخـتراع الطاقـة الذريـة،» ولا سـيما انـه كان قـد سـجَّل اختراعاتـه في التلفـزة والتـي تتضمـن اخـتراع الطاقـة الشمسـية قبـل وفاتـه بثـلاث سـنوات»، وهـذا مـا يتطلـب مزيـدًا مـن البحـث والاسـتقصاء رغـم عوائـق كثـيرة.... وقـد تعـرض منزلـه للعبـث مـن أهـل الضغينـة بعـد وفاتـه بحثًـا عـما كان يخترعـه وهـذا مـا أكـده أصدقـاؤه في المهجـر مـن أمثـال إيليـا ابـو مـاضي والدكتـور مصطفـى الخالـدي.

يرجـع اكتشـاف الطاقـة النوويـة وموادهـا المشـعة إلى عـام 1896 عـلى يـد أحـد العلـماء الألمـان ويدعـى «رونتجـن» عندمـا توصـل إلى اكتشـاف نـوع معـين مـن الأشـعة التـي تصـدر عـن معـدن اليورانيـوم، و في عـام 1905 أعلـن العـالم الكبـير ألـبرت اينشـتاين نظريـة النسـبية عندمـا كان يعمـل أسـتاذا للرياضيـات بجامعـة برلـين لقـد بـيَّن اينشـتاين أن المـادة ليسـت الا طاقـة مجمـدة يمكـن تحويلهـا إلى طاقـة وكذلـك الطاقـة يمكـن أن تتحـوّل الى مـادة لأن العلاقـة بـين المـادة والطاقـة يمكـن التعبـير عنهـا بمعادلـة في غايـة البسـاطة والسـهولة وهـي تنـصّ عـلى أنّ: الطاقـة = كتلـة المـادة × مربـع سرعـة الضـوء، والغريـب أنّ لهـذه المعادلـة تطبيقـات مذهلـة في مجـال العلـوم الرياضيـة والطبيعيـة مما جعـل علـماء عـصره يشـهدون بعبقريتـه وعُـدّ العـالم ألـبرت اينشـتاين أكـبر علـماء القـرن العشريـن لمـا تميـز بـه مـن نبـوغ كبـير، ورغـم ذلـك، ورغـم اعتـماد الصبـاح عـلى النظريـة النسـبية في تحقيـق اختراعاتـه، فإنّـه قـد انتقـده قائـلا : كان عـلى أينشـتين

أن يمد المعادلات أبعد من ذلك أو أن يغيرها بشكل كامل ليحصل على التقاء أبعد من ذلك مع الحقيقة . وبعد ذلك برز العالم الدانيماركي الشهير «يزبوهر»، وهو متخصص في الطبيعة النظرية. لقد درس العلوم الذرية على يد العالم الانجليزي ارنست رذرفور مما كان له أثر كبير أن يصبح من كبار العلماء في تخصصه... لقد كانت بحوث ودراسات العالم الدنماركي نيلز بوهر امتدادًا لبحوث أرنست رازرفورد في محاولة اكتشاف الترتيب الذري. وضع بوهر موديلًا جديدًا للذرة وجسيماتها وهذا الموديل يتعلق بالتركيب الذري، وهو أشبه بالمجموعة الشمسية. لقد بيَّن أن النواه تشبه الشمس وتدور حولها الكترونات في مدارات مختلفة تشبه دوران الكواكب حول الشمس..

بذلك أزاح نيز بوهر الغموض حول تركيب الذرة وقد كانت هذه النظرية مذهلة حينما تبين الشبه بين الذرة والمجموعة الشمسية. كذلك تمَّ اكتشاف كبير في انجلترا عام 1932 على يد العالم الانجليزي جيمس شادويك الذي درس أيضًا العلوم الذرية في معمل « كاڤندش» على يد العلامة الانجليزي أرنست رذر فورد. لقد تمكن شادويك من اكتشاف جسم متعادل داخل نواة الذرة وزنه يعادل وزن البروتون أطلق عليه اسم «النيوترون» ومنذ ذلك الوقت تغيرت مفاهيم العلماء عن تركيب نواة الذرة وأصبح معروفًا أنّها تتركب من بروتونات ونيوترونات، وليست تتركب من بروتونات فقط كما كان مفهومها من قبل ، كذلك كان في فرنسا علماء موهوبين في مجال العلوم الذرية وهي عائلة مدام كوري العالمة التي اكتشفت العناصر المشعة الطبيعية وهي الراديوم والبلوتونيوم الذرية.

كانت إيرين كوري وزوجها العالم الفرنسي يجريان أبحاثهما للحصول على عناصر مشعة صناعية تحت توجيه واشراف مدام كوري واستخدم في هذه الدراسة عنصر اليورانيوم الذي يضع جسيمات ألفا التي استخدمت في قذف العناصر بها، وتمكنت ايرين وزوجها من تحويل عنصر الألومنيوم إلى نظير مشع لفسفور في عام 1933،اي قبل رحيل الصبَّاح بسنتين. وكان لهذا الاكتشاف أهمية كبيرة في الحصول على النظائر المشعة صناعيا مما اهَّلها للحصول على جائزة نوبل تقديرا لهذا الانجاز العظيم.

و لو تمعنا في هذه الأحداث العملية التي كانت تدور في زمن الصباح و فيما قاله، وأيضا فيما انتقد به أينشتين و تحدثه عن أهمية البروتون وغيرها مما ورد. لتبادر الى الأذهان: أن من استخرج الطاقة الشمسية لما كان لا يحاول استخراج الطاقة الذرية التي كانت واضحة معالمها في عصره؟ و علمًا بأن تاريخ ميلادها هو عام 1942، و تاريخ ميلاد القنبلة الذرية عام 1945م، و كذلك ما هو الاختراع السري الذي كان يجري أبحاثه النظرية في بيته ؟ علما بأنّه بعد وفاته قام في برلين عالم الكيمياء الالماني (أوتوهان) ومعه عالمة الفيزياء النمساوية اليهودية ليزاميتنر بإعادة تجربة العالم الايطالي اثركوفيرمي باطلاق نيوترونات بطيئة على اليورانيوم ثم فحصا العناصر الناتجة من

التفاعـل فاكتشـفا وجـود عنـاصر كثـيرة بكميـات ضئيلـة جـدا، ثـم هربـت ميتنـر الى السـويد عـام 1938 هربًـا مـن هتلـر، وهـي التـي أطلقـت اسـم الانشـطار أو الانقسـام عـلى العمليـة. نعـم لقـد كانـت مرحلـة سـباق مـن كان سيكتشـف الطاقـة الذريـة لأن نظريـة أينشـتين قـد فتحـت البـاب عـلى مصراعيـه حتـى إن الصبـاح قـد تحـدث عنهـا قائـلا : « أمّـا وقـد تبينـوا الحقيقـة فسـيتوصلون إلى حـلّ الـذرات الماديـة الى قـوة لا حـد لهـا ليتفكـروا بالنتائـج العظيمـة التـي اتـى بهـا أينشـتين بتصـور الوقـت النسـبي وليكتشـفوا سرَّ انتشـار القـوى الكامنـة، وقـد أصبـح ذلـك سـهلًا يسـيرًا بعـد أن دلّنـا أينشـتين عـلى مكمنهـا، فسـيتمكنون مـن اسـتخراج كلّ مـا تحتاجـه مـن القـوة بـصرف مقـدار يسـير مـن الجهـد وعندهـا تدخـل البشريـة في طـور لم تكـن تحلـم بـه مـن قبـل .إضافـة الى أنّـه قبـل رحيلـه قـد بـدأ العمـل عـلى محـرك للطائـرة يمكنهـا مـن الطـيران في طبقـات الجـو العليـا (شـبيه بالمحـرك النفـاث) واسـتطاع صنعهـا، وقـد ورد ذلـك في رسـالة أرسـلها الى ابـن أختـه السـيد هـاني فيـاض، لكـن يـد الغـدر نالـت منـه في حـادث يبـدو لـكلّ ذي بصـيرة أنّـه مفتعـل، ولا سـيما انـه كان يراسـل الملـوك العـرب مـن أجـل نقـل إنجازاتـه الى الوطـن العـربي مـن أجـل بنـاء المصانـع والقـدرات الاقتصاديـة والمعاهـد العلميّـة وإنـارة الصحـراء العربيّـة، فكانـت المؤامـرة الصهيونيـة عـبر البروفسـور يودعـان يوجـل وزوجتـه اللذيـن يبـدو أنهـما غـرّرا بـه، و بـدلا سـيارتهما المعبـوث بهـا ممـا أدى إلى استشـهاده.

إن هنـاك مـن الاختراعـات المشـتركة للصبّـاح مـع علـماء اخريـن، وقـد سُـجلت باسـمه سـبعة وثلاثـين اختراعًـا و خمسـة عـشر اختراعـا قـد سـجلت باسـمه وباسـم زملائـه الذيـن انجزوهـا معـه، علـمًا بـأن هنـاك سـتين اختراعًـا قـد سـجّلت معظمهـا في دفاتـر الشركـة، ولم تقـدم بهـا طلبـات امتيـاز باسـمه وذلـك حسـب رسـالته الى صديقـه د. فـؤاد صروف و ذلـك بسـبب احتـكار شركـة جنـرال الكتريـك لهـا، وإذا رصدنـا التوقيـع الموجـود تحـت اخـتراع الصبـاح رقـم 36 عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، لرأينـا أنـه اخـتراع لـه مشـترك مـع ألـبرت ميتـاغ، وأحيانًـا كان يتوجـب أن يوقعـه عـالم آخـر معـه، ومـن اختراعاتـه مـا هـو أحيانـا مشـترك مـع أحـد زملائـه، ومـن ذلـك نذكـر مارفـين م. مـوراك و بـول غـراي عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، أو قـد أنجـزه بمفـرده، وهـذا لا يعنـي إذا قـام الـبرت ميتـاغ بتطويـره، أو بإعـداد بـراءة اخـتراع آخـر تحـت الاسـم نفسـه أنّهـا غـير مكتملـة، علـمًا بـأن هنـاك عـدة بـراءات اختراعـات تحمـل الاسـم السـابق، هـذا عـدا عـن السـعي الصهيـوني لطمـس ذكـره منـذ البدايـة.

وهنـا يمكننـا القـول إنّ أهميـة اختراعـات الصبـاح تكمـن في أنهـا رائـدة وإنّهـا وضعـت مداميـكَ، لا بـل أسسًـا راسـخة لثـورة العلـوم الإلكترونيـة، وفي كل ثـورة سـواء أكانـت اجتماعيـة أم علميّـة لا بـد مـن أن تصطـدم بتطـوّرات العـصر والظـروف المسـتجدة، فـإذا كان لينـين قـد طـوّر الماركسـية فهـذا لا يعنـي أن الأخـيرة قـد فقـدت قيمتهـا بـل عـلى العكـس لقـد اغتنـت وترسـخت أكثـر فأكثـر. ومقارنـة بقوانـين الطبيعـة مـع قوانـين المجتمـع يـسري الأمـر نفسـه

على ما أوجده أينشتين حين وضع النظرية النسبية فهل النقد الذي وجه إلى أينشتين من قبل الصباح أولًا ومن ثم علماء الفضاء في أريزونا عام 1984م أن «أينشتين أخل في حساباته الخاصة بالتذبذبات الصغيرة «مبادرة الإعتدالين كوكب عطارد» وتحديدًا حين قال الصباح: «ربما كان على أينشتين أن يمد المعادلات أبعد من ذلك أو أن يغيرها بشكل كامل ليحصل على التقاء أبعد من ذلك مع الحقيقة»[1]، هل هذا يعني أنّ نظرية أينشتين قد سقطت دون جدوى. بالطبع كلا، بل يمكننا القول إنّها طُوّرت من قبل علماء اليوم إلى المسار الصحيح المطابق».

لكن المشكلة تختلف مع العالم نيوتن الذي غرق في بحر المطلق عندما عدّ مبدأ القصور الذاتي مبدأ قطعيًا، في الوقت الذي هو مبدأ تقريبي إذ لا يمكن تحقيق كل المبادئ المنطلقة من أسس أرضية في عالم الكواكب الأخرى والنجوم والمجرات المعدّة بالمليارات حسب الإحصاءات العلميّة. فمثلًا جاذبية القمر هي 1/ 6 من قوة جاذبية الأرض وجاذبية المريخ 38٪ من قوة جاذبية الأرض. وقد أخطأ نيوتن حين عدّ الزمان والمكان منفصلين ومطلقين. نحن هنا أمام نظرية فاشلة ولكن ليس تمامًا لأنها هيأت لظهور النسبية واعتبرت زاهية عصر الثورة الميكانيكية. والنظرية النسبيّة تعود في جذورها الأولى إلى هندسة ريمان وهي هندسة المنحنيات ولا تقل ترابطًا وانسجامًا عن هندسة إقليدس. ومن يقرأ كتب بوانكاريه يشعر أنه على أبواب هذه النظرية، وكذلك ترجع هذه النظرية إلى مينكوفسكي، أستاذ أينشتين. فهذا الزمكان، هذا الكون المربع الأبعاد تلقاه أينشتين من أستاذه القديم ليخرج لنا منه نظريته في النسبيّة العامة فالزمان من دون المكان لا وجود له وكذلك العكس تمامًا. ومينكوفسكي ليس أول من قال بأن الزمان بعد رابع للأشياء فهناك من سبقه من المفكرين مثل ديدرو عام 1777م. ولكن أينشتين كان رائدًا في إثبات البعد الرابع الذي هو الزمن. وحتى في هذه المقارنة فإن الصباح لم يخطئ في اختراع البطارية الشمسية بل نجح فيه ولكن تطبيقه قد طُوِّر مع اختراع أشباه النواقل.

«وعندما توفي الصباح عام 1935م، بدا أن عصرًا جديدًا سوف يبدأ بالظهور، وأن الإلكترونيات به ستتوالى عبر ثورات متتالية: ثورة الترانزستور عام 1948م، وثورة الإلكترونيات الصغرية واللايزر والإلكترونيات الكم عام 1968م... وثورة الدارات المتكاملة عام 1972م... والآن، لقد تخطت الثورة التي أحدثتها أشباه النواقل والترانزستورات حدود الأحلام التي عصفت بكل من عاصر بدايات هذه النقلة التكنولوجية. ولولا هذه الأدوات، لما كانت الحاسبات الصغيرة والراديوات الترانزستورية وأجهزة الأتمتة والمسح، ولما كانت الجذاذات في قلب الحاسب وفي داراته المنطقية، وفي أجزاء معالجته وأقسام الذاكرة فيه.

1 - عباس وهبي: الفيلسوف العبقري حسن كامل الصباح، ص 18.

في السنوات الأخيرة ارتفع زخم وتيرة التغيير في هذه العلوم. فأصبحت كلمة السر فيها «أصغر حجمًا وأقل ثمنًا». لقد سمح اختراع المعالج الصغري، وهو عقل الكمبيوتر، بتصغير الحجوم وتخفيض الكلفة، فأرسى بذلك معالم الحضارة الإلكترونية التي نعيشها اليوم. والإلكترونيات اليوم هي قاعدة ثاني أضخم ثورة تكنولوجية في تاريخ الأرض: ثورة علوم الأحياء الدقيقة والتكنولوجيا الحيوية. لكن الإلكترونيات لم تزل مليئة بالحكايات والإنجازات والشخصيات الخارقة، ناهيك عن الفرص الضائعة والمآسي الشخصية. وهي أيضًا مليئة برجال منهم النجوم والشعراء وعلماء الإجتماع والصبَّاح أحد هؤلاء القوم.

لقد كان الصباح ضليعًا في العلوم النظرية من فيزياء ورياضيات. كما كان متمكنًا من الهندسة الكهربائية التطبيقية، فإن أينشتاين كان عالمًا ولم يكن مخترعًا وأديسون كان مخترعًا عظيمًا ولم يكن عالمًا لأنه لم ينطلق من النظرية إلى التطبيق بل العكس، وأما أينشتين فقد وضع النظرية ولم ينتقل إلى التطبيق!!

ويقول العميد د. نصير سبح: «لقد تشبث أديسون «المكتشف صدفة عام ألف وثمانماية وثلاثة وثمانين» ظاهرة الإصدار الكهرحراري المعروفة أيضًا بمفعول أديسون«تشبث باستخدام التيار المستمر المنخفض الفلطية، وفاتته مزايا التيار المتناوب العالي الفلطية لنقل الطاقة» أمَّا الصباح فقد حل هذه المشكلة وكان له باعًا طويلًا...

«والأمر الثاني أنه في زمن الصباح كان الصمام الإلكتروني ومشتقاته الأداة الإلكترونية الفاعلة الوحيدة «إذ إن الأدوات الإلكترونية شبه الناقلة كالثنائي الوصلي والترانزستور بمختلف أنواعه لم تكن قد اكتشفت بعد.

ولم ينتشر استخدامها على نطاق واسع حتى النصف الثاني من الخمسينيات. وبما أن للصمام الإلكتروني عيوبًا حالت دون انتشاره في ميادين كثيرة، اقتحمتها أشباه النواقل فيما بعد. فإذا العديد من أفكار الصباح ومخترعاته كان سيقدر لها نجاح أعظم في كنف تكنولوجيا أكثر تطورًا. وكثيرًا ما يحدث هذا في عالم الإختراع، إذ تتخطى طفرات العقل البشري الخلاق الوسائل التكنولوجية المتاحة.

فالتصميم الأساسي للحاسوب، أو الكمبيوتر، وضع منذ مئة وخمسين عامًا تقريبًا إلا أن تحقيقه العمل تأخر مئة عام بسبب التخلف التكنولوجي»[1].

1 - مجلة المنابر، العددين 50 و51، في نيسان – أيار 1995م، ص 115-112.

إن إنجازات الصباح تتلخص بما يلي:

- تطوير وتحسين المعدات والنظم الإلكترونية المستخدمة في تطبيقات القدرة الكهربائية، وبالتخصيص المقومات العالية القدرة، والمقومات القوسية ذات الحوض الزئبقي.
- الإبداع في عدة حقول من حقول الإلكترونيات.
- الإبداع في العلوم النظرية البحتة: فالصباح من الأوائل الذين أدركوا كنه نظرية آينشتين النسبة، وسبروا أغوارها وتناولوها بالشرح والنقد. وقد وجد أن قوانين العلم تكشف في قوتها الشّاملة عن وجود غاية أي مقصد شامل كلي في الكون وإنَّ ذلك المقصد الكلي للوجود يتم عبر البعد العقلي الخامس وكما نقل الأستاذ إميل ضومط فقد أضاف الصبَّاح إلى الأبعاد الكونية الأربعة التي ترتكز عليها نظرية النسبية بعدًا خامسًا هو العقل. فيكون الصباح بذلك قد استبق النظريات الحديثة التي تقضي بإضافة الوعي، وهو من مظاهر العقل، إلى ميكانيك الكم ليتسنى دراسة النظم البيولوجية العليا، كالدفاع البري.
- لقد كان للصباح رؤية إستراتيجية وتحليلية ثابتة لاستغلال الطاقة الكامنة في الذرة وفي تحويل العناصر الكيماوية ولا سيما المشعة من عنصر إلى آخر.
- وحدث بلا حرج عن اختراعه في تحويل الأشعة الشمسية إلى طاقة كهربائية.
- إيجاده لنظام إلكتروني للتلفزة: ورغم أنه حلّ المشكلات الأساسية المعترضة آنذاك للنظم السائدة، إلا أن صعوبات تكنولوجية حالت دون اعتماده.
- تقويم التيار الكهربائي وعكسه: وجديد الصباح هو تطوير المقوم ذي القوس الزئبقي وداراته وتحسين أدائه، واستخدامه كمقياس يغير التيار المستمر إلى تيار متناوب للقدرات الكهربائية العالية.

وبناء عليه، وكما نعلم فإن التطور العلميّ آفاقه مفتوحة، وهو سلسلة من التجارب والنظريات التي تتطور من جيل إلى جيل ومن مخترع إلى مخترع لا بل هناك إستمرارية وتواصل، كما أنّ قانون النفي للنفي يبدو هو السائد دائمًا. ومن الغبن لا بل من الجهل القول إنّ اختراعات الصباح قد كانت لعصره ولدت وانتهت آنئذ.

وهذا يعدّ ظلمًا مقرونًا بغباء لا مسوّغ له. فالذي تغير في مبدأ تخزين الطاقة الشمسية هو جزء من آلية الإختراع، وبالتالي فإنه لولا اختراع الصباح هذا لما وصل الإنسان اليوم إلى القمر والمريخ وبقية الكواكب أو بالأحرى لما استطاع غزو الكون ولا كان بإمكان الأقمار الإصطناعية أن تؤدي وظيفتها المطلوبة لأنها تستمد طاقتها من أشعة الشمس. هذا على سبيل المثال لا الحصر. ويعد اختراع البطارية الشمسية جزءًا من الإختراعات الثلاث التي سجلت تحت عنوان «إرسال الصور والمناظر». وكان السبب الأساسي المباشر الذي أدى إلى استشهاده.

الصمام الثلاثي الغازي التيراطون: الذي استعمله الصباح كمقوم يمكن التحكم فيه متوصلًا إلى طريقة للإستغناء عن المبدل والمسافر في محركات التيار المستمر عبر استخدامه. علمًا بأن المبدل والمسافر يحدان من مردود محرك التيار المستمر وعوليته ويحولان دون تغيير سرعته في مدى واسع.. وقد استعاض الصباح عنهما باستعمال أدوات إلكترونية فنشأ من جراء ذلك محرك ذو مردود وتحولية عاليتين يمكن تغيير سرعته بسهولة كبيرة في مدى واسع. وتستخدم مثل هذه المحركات حاليًا في القاطرات والسيارات الكهربائية، وفي الصناعات الثقيلة، كصناعة الفولاذ حيث تدعو الحاجة إلى محركات كبيرة متغيرة السرعة، إلا أن مصير الصمام الثلاثي الغازي أو المقوِّم القوسي الزئبقي أو البطارية الشمسية المحتوية على صفائح معدنية محتوية على مواد مشعة والتي استعيض عنها بأشباه النواقل إنما شكلت مرحلة انتقالية مهمة أسست خلالها لتطور علمي باهر، ولكن أهميتها أنها لبّت حاجات الإنسان المستجدة من جراء التطور العلميّ من ناحية، كما أنها كانت الرائدة للثورة الإلكترونية التي تتجلّى روعتها اليوم أكثر فأكثر جنبًا إلى جنب مع الثورة الذرية. وإذا أخذنا الحاسوب أو الكمبيوتر الذي كان حجمه أوائل الثمانينات بحجم غرفة كبيرة، فنّرى اليوم أنه يزداد صغرًا إلى أن وصل إلى حجم رقاقة صغيرة. كما أن السينما الحديثة ترتكز اليوم على الجهاز الذي اخترعه الصباح لنقل الصورة ويستخدم اليوم في التصوير الكهروضوئي وخاصة في السينما سكوب.

الصباح وهندسة الطيران:

ليس غريبًا على الصباح قيامه بتصميم وصنع طائرة تحلق في الطباق (Strato-sphère) أي تلك الطبقة من الغلاف الجوي التي تبلغ سماكتها حوالي 30 كلم وتبدأ من ارتفاع 11 كلم عن سطح الأرض... لكنها الحادثة المفجعة التي حالت ما بين الصباح وطموحاته لإنجاز محرك إضافي قد يكون شبيهًا بتوربينات الطائرة النفاثة التي ظهرت أثناء الحرب العالمية الثانية.

الصباح وأينشتين ونيوتن علم الفلك و علم الحروريات :

تعدّ نظرية أينشتين مقدمة لبدء مرحلة عظيمة في حياة البشرية على صعيد علم الفيزياء والرياضيات تحديدًا وفق النظرية النسبية لأينشتين، فإن الأبعاد الاربعة التي تحدث عنها هي عبارة عن الأبعاد الثلاثة التي تحدد الحدث في المكان وهي: الطول العرض والارتفاع، يضاف اليها البعد الرابع، وهو الزمن الذي يرتبط بهذه الابعاد الثلاثة ارتباطا وثيقا، وهذا ما يتناقض مع نظرية نيوتن التي تفصل إحداثيات المكان عن الزمان وهذا الاخير يعدّه مطلقا.

ويقول الدكتور عبد الرحمن مرحبا « في كتابه أينشتين والنظرية النسبية [1]»: إن أكثر ما يحيط بالنسبية من غموض مرجعه تلك الصعوبة التي يجدها الانسان في القول بأن الاحساس بالزمن شأن الاحساس باللون صورة من الادراك الحسي فكما أن اللون لا وجود لها اذا لم توجد عين تميزه فكذلك الدقيقة والساعة ليسا شيئا إذا لم تكونا إمارة على حادثة، و كما أن المكان ليس غير نظام الاشياء فكذلك الزمان ليس غير نظام الحوادث. ولقد ألح أينشتين على هذه الفكرة : ذاتية الزمان. بينما يقول الصباح «نسبية الزمان والمكان بالمعنى الذي استنتجنا القول فيه، هي مخالفة للعرف والبداهة، لكن المنطق العلميّ يستلزم وجودهما فيجب أن لا نتردد في قبولهما. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل ّعلى تأثر الصباح بأينشتين واقتناعه بنظريته. لقد تكلّم الصباح في الوقت النسبي والمكان النسبي مشيرًا إلى أنّهما يختلفان باختلاف بالمقدار في اختلاف الفضاء المنسوبين اليه! ومن المعلوم أن عمدة ميكانيكا نيوتن هو مبدأ القصور الذاتي و مؤداه أن أي جسم يظل ساكنًا أو يتابع حركة مطردة مستقيمة ما لم تؤثر فيه قوى خارجية تحيد به عنه هذه الحال، وقد اثبت غاليليو هذا المبدأ 1642 – م 1564 . لكن نيوتن غرق في بحر المطلق عندما عدّ هذا المبدأ مبدأ قطعيًا، وهو في الوقت ذاته مبدأ تقريبي إذ لا يمكن تحقيق كل المبادىء المنطلقة من أسس أرضية في عالم الكواكب الأخرى والنجوم والمجرات المعدة بالمليارات، لأن التاثير الجاذبي موجود في كل الأجرام السماوية، و لكن يختلف من كوكب إلى آخر بسبب إختلاف قوته: وأمّا تغييرات أينشتين فهي تهيمن على الزمان والمكان معا فتحدد الحادثات من خلفك وأمامك ويمينك وشمالك وماضيك وحاضرك دفعة واحدة دون توقيف الزمن.

ونستخلص ممّا ورد أن أينشتين وجد أن ذلك المشيج المسكب من الزمان والمكان له وحده ان يتصف بالحقيقة على أن لكل كوكب هناك مقاييس زمكانية خاصة به.

ويقول الصباح أيضًا: والكون كله هو كائن رباعي الحدود يتحدب تحدبا مطردا كلما قربت من المادة.

فالحجر الساقط مثلا ليس هو كل الحجر بل هو مقطع لكائن رباعي الحدود من خواصه الهندسية، إنك كلما اتجهت الى المستقبل صغرت المسافة بينه وبين الأرض نظرًا لتحدب الفضاء بجوار الأرض، أي إنه كلما امتد الزمن كلما صغرت المسافة. فكل ما حدث وماسيحدث هو أمر مقرر في نظر العالم النسبي. وهنا يبدو تأثره ودعمه لما طرحه وأثبته اينشتين.

1 - دار القلم بيروت لبنان ص 98-96.

البعد الخامس:

يقول الصباح[1]: «إن وجود مقصد واحد تتّجه لتحقيقه كل النّواميس والقوى الطبيعية التي نشاهدها هو نتيجة لازمة لوجود البعد العقلي الخامس، أي مجرد تنبؤاتنا بالحادثات قبل وقوعها هو إقرار ضمني بذلك» وقد أضاف هذا البعد لأن إدراك الأبعاد الاربعة الواردة يتطلب وجوده كبعد خامس.

وقد وضع الصباح تحديدًا شاملًا للعقل إذ يذكر:

"والعقل إذًا آلة التفكير والاستنتاج «هو الذي يتحرك في الفضاء الرباعي الحدود، وكما أنّ الحركة في الفضاء الثلاثي الحدود تؤول بالبعد الرابع، فإنّ التعقل وهو الحركة في البعد الرابع يؤول بالبعد الخامس..

كيف برهن الصباح أنّ النظرية النسبية هي الحكم السائد في الكون:

- النور هو إهتزازات كهربائية والألوان تختلف باختلاف عدد الأهتزازات في الثانية وهي تتغير بتغير الزمان والمكان.
- تحدّث عن قيمة نظرية أينشتين بالنسبة لعلم الحروريات.
- ما هي قيمة نظرية أينشتين بالنسبة لعلم الحروريات؟[2]

في ذلك يذكر الصباح: وفيما أنتجته النظرية النسبية لعلم الحروريات حقيقة بديعة ذات أهمية كبرى في حياة الانسان وأعماله إذ أصبح من المقرر:

أن ناموس ثبوت المادة هو جزء ضمني لثبوت القوة. وقد أورد أهم النتائج وهو كون المادة ليست إلا قوة مكيفة وبالامكان تحويل بعضها إلى قوة. أما تكاثف القوة إلى مادة ربما حدث في بعض أرجاء الكون السحيق. إلا أننا بامكاننا البرهنة على أن بعض المادة يتحول إلى قوة بالمثل الآتي –غاز الهليوم يحصل من اتحاد أربع قوى من قوات ذرة غاز الهيدروجين والفرق في الوزن يظهر كقوة عند الحصول على غاز الهليوم أثناء اشعاع الراديوم .والمدهش في ذلك أن مقدار تلك القوة ينطبق تماما على حساب أينشتين. وبنسبة ذلك التعدي لو تمكن المرء من تحويل المادة كلها الى قوة لكفى رطل واحد من الفحم

لتسيير قطار مدة سنتين!!! وانطلاقا من مبدأ المادة هي مظهر من مظاهر الطاقة و من مظاهر النور والاشعاع والحرارة والحركة.

1 - في كتاباته المختارة ص-22 ص23.
2 - كتابات الصباح المختارة ص 25-24-23.

فـإن تخزيـن الطاقـة هـو المبـدأ الاول في الفيزيـاء والمـادة في تحللهـا تتحـول الى طاقـة وكذلـك الطاقـة تتحـول إلى مـادة في ظـروف معينـة. فمثـلا نـرى أن الشـمس تخسر مـن وزنهـا لأنهـا تخسر المـادة التـي تتحـول الى طاقـة. وحسـب الصباح في مقـال لـه حـول الكتلـة والطاقة: وفقًـا لنواميـس النسـبية والتـي تنظـر إلى الأبعـاد المكانيـة في حركتهـا المسـتمرة أي عنـد البحـث في حركة الفضـاء الرباعـي الحـدود لا بـد مـن تبيـان القانـون الكـوني الـذي أظهرتـه النظريـة النسـبية ألا وهـو ذلـك التسـاوي مـا بـين الكتلـة والطاقـة. وبعـد البحـث والتّمحيـص إنتهـى إلى أنّ الكتلـة ك=ث2عـلى ط و قـد اضطلعـت هـذه المعادلـة بأكـبر نصيـب في تحقيـق القنبلـة الذريـة وإخراجهـا الى حيـز الوجـود. ومعناهـا في لغـة الفيزيـاء: إنّ الطاقـة المحتـواة في جـزء مـن المـادة تسـاوي كتلـة هـذا الجسـم مضروبـة بمربـع سرعـة الضـوء. وتـشرح لنـا هـذه المعادلـة: كيـف تشـع النجـوم والحـرارة والضـوء مليـارات السـنين، وعليـه فقـد كان اكتشـاف الظاهـرة الكهروضوئيـة المدخـل النظـري والمفتـاح الريـاضي لميـدان تحويـل الطاقـة الشمسـية الى كهربـاء. سرعـة الضـوء =299279485=300000كـم / ث....

فلسفة الصباح في سطور

لقـد جمـع الصبـاح مـا بـين مفهومـي المثاليّـة والماديّـة جمعًـا ديالكتيكيًـا مـن خـلال إيمانـه بالخالـق، فيكـون قـد جمـع مـا بـين مفهومـي الشـخصانية Subjectivite والموضوعيـة Objectivite في مناقشـة الوجـود، وهـذا مـا كان يُعـدّ مسـتحيلًا قبـل بـزوغ الصبـاح الـذي اسـتطاع أن يـزاوج مـا بـين الفكريـن المـاديّ والمثـالي. كـما وأنـه أوجـد ممـرًا بـين الحقيقـة النسـبيّة والحقيقـة المطلقـة. وقـد تـمّ هـذا عـبر إضافـة البعـد الخامـس إلى الأبعـاد الكونيـة الأربعـة التـي ارتكـزت عليهـا نظريـة النسـبية الأينشـتينية، إنّ حديـث الصبـاح عـن اسـتخراج النظـام مـن عـدم النظـام، والنامـوس مـن حالـة الفـوضى، دليـل عـلى اسـتخراج النقيـض مـن نقيضـه وتحـول السـلبي إلى إيجـابي، والإيجـابي إلى سـلبي، وكل ذلـك يـبرز المعـالم الماديـة عنـد الصبـاح.

أمّـا المثاليـة عنـده فيحدّدهـا قائـلًا: إنّ خـير العبـادات بنظـر الله هـي تمجيـد حكمتـه، وكذلـك جعلـه المقصـد الواحـد مركـزًا جاذبًـا تتجـه لتحقيقـه كل النواميـس والقـوى الطبيعيـة، في الوقـت الـذي نـرى فيـه مثـلًا أنّ دفـاع افلاطـون عـن مفهومـه النخبـوي للعدالـة يجعلهـا انعكاسـا لتـوازن أزلي قائـم في عـالم المثـل. وفي إيمانـه بالدّيـن الإسـلاميّ الحنيـف وجـد «أن القـران الكريـم مـليء بحـثّ المؤمنـين عـلى التفكـير في خلـق السـموات والأرض والوقـوف عـلى حكمـة الله في خلقـه». ويظهـر الصبـاح في كتاباتـه معلـمًا ومثـالًا ويبـدو ذلـك مـن خـلال أفـكاره النـيرة إذ تـراه يقـول: و نـدي أن خـير وسـيلة لإنتـاج فلاسـفة صادقـين مخلصـين هـي عـدم إعطـاء شـهادة الفلسـفة إلا لمـن صرف زمنـا طويـلا في معامـل التجربـة في الطبيعيـات والكونيـات والعلـوم المحكمـة الضبـط كالهندسـة والتحليـل الريـاضي. وهنـا يبـدو تحليـه بحـس

مـادي نسـبي. لقـد دامـت الفلسـفة المحافظـة عـن المـوروث المثـالي والرّوحـي للعصـور الوسـطى ووجهـت شـتى الاتهامـات والانتقـادات إلى الماديـة الميكانكيـة ليـس أقلهـا الالحـاد والافسـاد في الأرض، ثـم فاضـت الفلسـفة الراديكاليّـة أو اليسـار الفلسـفي التـي تبنـت الماديـة الميكانكيـة، وكان أبـرز أعلامهـا الفيلسـوف الانكليـزي تومـاس هوبـز وكان أول مـن حـول الكوزمولوجيـا الجديـدة بصيغتهـا الذّريـة إلى أنطولوجيـا شـمولية متماسـكة تدعـي تفسـير الوجـود عـبر ظواهـره و تجلياتـه تفسـيرا علميـا اسـتنادا إلى علـم الحركـة أو الميكانيـك، ولـو كتـب الصبـاح فلسـفته قبـل ظهـور النظريـة النسـبية الاينشـتينية لـكان تبنـى جـزءًا مـن فلسـفة هوبـز إنطلاقًـا مـن اعتبـاره للفلسـفة أنّهـا أحـد العلـوم، و لكـن تلقيـح الماديّـة الميكانكيـة بنظريـة النسـبيّة قـد أدى إلى إيـمان الصبـاح بالحقيقـة النسـبية في جانـب مـن فلسـفته، وهكـذا يـبرز لنـا الصبـاح جامعًـا مـا بـين جـزء مـن مـوروث الفلسـفة المثاليـة الروحيـة وجـزء أخـر مـن مـوروث الفلسـفة الراديكاليـة الملقحـة بالمفاهيـم الجديـدة للنظريـة النسـبية مطـورًا الأخـيرة إلى فلسـفة ماديـة نسـبية مـن خـلال جعلهـا سـببًا للوصـول الى النتيجـة المبتغـاة، إلا وهـي المقصـد الشّـامل الـذي اتجهـت نحـوه الفلسـفة المثاليـة مـن دون سـلطان العلـم.

بينـما يـتراءى أن فلسـفة الصبـاح هـي نـواة لفلسـفة قـد تؤكدهـا العلـوم في يـوم مـن الأيـام ولكـن سـبب اسـتمراريتها حتـى الآن هـو تمسـكها بالماديّـة النسـبيّة لإثبـات ذاتهـا، وقـد أتـت فلسـفة لايبنـز كمحاولـة لبنـاء اونطولوجيـا مثاليـة ذريـة نتيجـة الأهميـة الحاسـمة التـي أخـذت تتمتـع بهـا الماديـة الذريـة، بينـما أتـت فلسـفة الصبـاح أكثـر ذكاء وإبداعًـا وواقعيـة لا بـل حولـت الأونطولوجيـا المثاليـة الذريـة إلى أونطولوجيـا مثاليـة نسـبية وليـس هـذا فحسـب بـل عززتهـا حـين دمجتهـا في وحـدة متكاملـة مـع اونطولوجيـا الماديـة النسـيية. وقـد كان شـعار بـاركلي المعـروف: «وجـود الموجـود هـو أن يـدرك أو يـدرك يعنـي أن الموجـود حقـا يتلخـص بالتـالي: الـذات الكليـة المدركـة زائـد مدركاتهـا، الـذات الجزئيـة المدركـة زائـد مدراكاتهـا ومحسوسـاتها ولا تشـكل الاخـيرة إلا جـزءًا صغـيرًا مـن مـدركات الـذات الإلهيـة، أمـا المـادة فهـي موجـودة وفقًـا لوصـف الماديـين. وهنـا يبـدو لنـا الصبـاح متعاطفًـا نسـبيًا مـع شـعار بـاركلي وجـود الموجـود هـو أن يـدرك أو أن يـدرك ولكنّـه لا ينفـي وجـود المـادة، فالمقصـد الشّـامل هـو الـذّات الكليـة المدركة زائـد مدركاتهـا ومحسوسـاتها وهنـا ينـبري الصبـاح ليطـور هـذه الفكـرة عندمـا يجـد علاقـة متبادلة مـا بـين وجـود الوعـي المطلـق والوعـي النسـبي، الـذات الكليّـة والـذات الجزئيـة متسـلّحًا بالعلم وبـكل قوانينـه المتطـورة بـدءا مـن الماديّـة الذريـة وصـولًا الى الماديّـة النسـبيّة.

إن مثاليـة الصبـاح متقاربـة مـع مثاليـة افلاطـون لأنّـه كان عاشـقًا للمعرفـة سـاعيًا لمعرفـة الخالـق الوجـود الثابـت بالنسـبة لـه . وليطـور هـذه الفكـرة عندمـا يجـد علاقـة متبادلـة مـا بـين وجـود الوعـي المطلـق والوعـي النسـبي.

الخالـق الوجـود الثابـت بالنسـبة لـه. فمعرفـة الـذات الالهيـة عنـد الصبـاح هـي الهـدف الثابـت الاسـاسي عنـده، وهـي الحقيقـة المطلقـة التـي يطمـح للوصـول إليهـا و يـبرز ذلـك مـن قولـه : «ان الله ليـس ذلـك الكائـن الأكثـر تطابقـا مـع مفاهيمنـا «لكـن هـذه المثاليـة لا تطـير مـع أجنحـة النـور الحالمـة الوهميـة إنـما باجنحـة النظريـة النسـبية الرافضـة للمطلـق فـي حيـاة الانسـان العاديـة. ولم يصـب أفلاطـون حـين عـدّ أنّ الفضائـل وحدهـا كافـة لإحـراز السـعادة في هـذه الدنيـا، ولكـن الفضائـل هـي مـن الأمـور الضروريّـة للوصـول الى السـعادة أيضـا، لذلـك نـرى أن الفيلسـوف باكـون قـد حـذر مـن المنافـع الماديّـة التـي عدهـا مـن أخطـر مهيئـات هذه السـعادة وكذلـك دعـا الى وحـدة التربيـة. بينـما نـرى السـعادة عنـد الصبـاح تهـدف الى السـعادة الكـبرى ألا وهـي اكتشـاف خبايـا الكـون ونواميسـه وقوانينـه مـن أجـل الوصـول إلى معرفـة الكـمال. أو لم يقـل» إن في الطبيعـة عـوالم لا نهايـة لهـا، ولـكل مبحـث مـن مباحـث الطبيعـة سـواء كانـت ماديّـة أو روحيّـة لسـان خـاص بـه فـاذا كان في النفـس رغبـة لـكل منهـا نكـون قـد عشـنا بـكل منهـا. وهـذا مفتـاح السـعادة الفرديـة الاجتماعيـة فهلمـوا إليـه. في حـين أن الصبـاح قـد اسـتعان بالواقعيـة العلميّـة لصالـح الإيـمان وبالماديّـة العصريّـة للوصـول إلى إثبـات وجـود الـروح ورفض فكـرة كنـط حـول تلقائيـة الأفعـال بـل دافـع عـن الحتميـة السـببية واعتبرها الاسـاس في فلسـفته. ويعـرف العقـل: «اذا هـو العـين التـي نـرى بهـا الله وهـو الواسـطة التـي نرتكـز بهـا عـلى الحقيقـة «وإذا كان ماركـس قـد تمـرد في الأطروحـات عـلى المعرفـة المنفعلـة المترتبـة عـلى ماديـة فويوربـاخ السـاكنة بتأكيـده أن الواقـع الاجتماعـي والتاريخـي لا يعـرف حقـا الا اسـتنادا إلى فعـل البشريـة وعملهـم التحويـليّ لـه وهـذا مـا تسـميه الماركسـية عـادة بالبراكسـيس، فـإنّ الصبـاح يحـث عـلى البحـث والمعرفـة للوصـول إلى حقيقـة العلـم الطبيعـي والفلكـي. وغيرهـا مـن العلـوم وكذلـك الى معرفـة الديـن. والـذي قالـه ماركـس حـول تحديـد الانسـان قـد عـبّر عنـه الصبـاح بشـكل آخـر: «ذلـك النامـوس هـو أنّ هنـاك مقصـدًا جبـارًا لا تقـف أمامـه أشـد القـوى الطبيعيـة يـود أن ينمـو كل منـا يتكامـل جسـدًا ثـم عقـلًا، وقولـه كذلـك : «والعقـل اذا آلـة التفكـير والاسـتنتاج، وهـو الـذي يتحـرك في الفضـاء الرباعـي الحـدود وكـما أن الحركـة في الفضـاء الثلاثـي الحـدود تـؤول بالبعـد الرابـع، فـإن التعقـل وهـو الحركـة في البعـد الرابـع يـؤول بالبعـد الخامـس.

وإذا كان هيغـل قـد رأى أنّ حيـاة الظـلال والخـداع أغنـى ألـف مـرة مـن حيـاة الحقيقـة وأنّـه يكمـن فيهـا معنـى الوجـود وأنّ عـالم الحقيقـة هـو فقـير شـاحب هزيـل لا معنـى لـه، وأنّـه مهـما أمعـن الفلاسـفة والعلـماء في الغـض مـن شـأن عـالم الظّواهـر فإنّـه يظـلّ عـالم النـور والجـمال.... فالإنسـان هـو سرّ الأسرار وأحجيـة الأحاجـي ولـن نفهـم الكـون قبـل أن نفهـم الإنسـان، فـإنّ مقولتـه قـد سـقطت في قعـر الكـون المحـدب لاينشـتين!

لذلـك نـرى أن هيغـل قـد تناقـض مـع الصبـاح الـذي يعتـبر أن الكـون يحتـوي عـلى المـادة مهـما تنوعـت أشـكالها وعـلى القـوة المتحوّلـة إلى مـادة أحيانـا وأن الكـون لـه قوانينـه ونواميسـه

التي تسيره، والواضح أن مثالية هيغل متشائمة نلمسها من حسه الميتافيزيقي لأن اعتباره للوجود والعدم شيء واحد هو مناف للواقع وللحقيقة.

لقد استطاع الصباح أن يجد ممرًا ما بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة مزاوجًا ما بين مثالية نسبية ومادية نسبية وبذلك يكون هذا العالم الفيلسوف المعاصر قد قدّم الجديد ليس للعلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية والفلكية وغيرها فحسب، لا بل للفلسفة العلميّة بشكل عام.

و ممّا قاله هذا العبقري الفيلسوف:

«فلنبتهج بحالتنا الحاضرة لأنّ لنا وحدنا الامتياز بأن نشارف على جبهة الوجود وناحية الغد ووجه الله، أما وجهة نظر الباحث الملاحظ المدرك فهي الناموس العام:
إن كل ما حدث هو يجب أن يحدث وهذا الناموس هو أشبه بالنظريّة النسبيّة التي تجمع بين مختلف وجهات النظر ...»[1].

الصباح والثورة التكنولوجية:

يقول الصباح: إن بلاء الناس ليس بالآلات والمخترعات بل بسبب الجهل.

ج- نظرة الصباح إلى الإنسان:

يقول الصباح: «إنّ الإنسان لا يحيا بالمال وحده ولا بالسعي لتحصيله فقط، بل بالسعي لتحقيق غايات وأهداف متنوعة تتطوّر مع تطوّر العمر العقلي للإنسان وتتنوع، فكلما حقق المرء هدفًا شعر بالسعادة والسمو. عندها يحقق الإنسان ذاته». كما كانت له آراؤه في التدخين والسينما والموسيقى وغيرها من الأمور الحياتية المهمة.

ويجدر الذكر بما قاله هذا العبقري الذي كان مفعمًا بالتفاؤل ومقرًا بحتمية الوصول إلى معرفة وجه الخالق أي معرفة جميع القوانين والأنظمة المتعلقة بهذا الكون إذ يقول: «والكون كله هو كائن رباعي الحدود يتحدَّب تحدبًا مُطَّردًا كلما قربت من المادة. فالحجر الساقط مثلًا ليس هو كل الحجر بل هو مقطع لكائن رباعي الحدود من خواصه الهندسية إنك كلما اتجهت إلى المستقبل صغرت المسافة بينه وبين الأرض نظرًا لتحدب الفضاء بجوار الأرض أي إنه كلما امتد الزمن كلما صغرت المسافة»!!.

1 - انظر الفيلسوف العبقري حسن كامل الصباح –عباس وهبي « ملخص» ص -126 187.

ح- الصباح أديبًا وشاعرًا:

في رسالة بعث بها الصباح إلى صديقة الدكتور فؤاد صروف ورد هذا المقطع:

«أذكـر أن أحـد العلـماء كتـب في مجلـة ”Nature“ الإنكليزيـة، لا الأميركيـة، كلمـة مـا زلـت أذكرهـا وأصـادق عليهـا، وهـي أن الريـاضي الحقيقـي هـو شـاعر بطبيعـة الأمـر، وأن الشـاعر الـذي يبتكـر المعـاني ابتكـارًا هـو ريـاضي ومخـترع ضمنـي». هـذا الفتـى العـربي المنهمـك بالتجـارب العلميّـة وبمعاناتـه للعشـق في فسـحات الراحـة. هـذا الشـاب كان لـه تجـارب في الشـعر، كـما امتـاز ببلاغـة نثريـة، وقـد أورد نـماذج مـن شـعره في مقالـة عنوانهـا «الشـعر فـنّ مـن الفنّـون الجميلـة – أو ديـوان القنابـل».

ونظم الصباح هذه الأبيات:

وقائلة لـمّا مـــررت ببابـــها	وسدّدت سهمي نحو طير أصيدها
عجبنا لمن يصطاد حول بيوتـــنا	ألم يخش أن يصطاد قلت أريدهـــا
فقال: أينبغي الأسر من هو مطلق	وهل يخضع الآساذ ظبي يقودهـــا
فقلت سلي من مغنطيس محاجـرٍ	فما بين أسلاك الفؤاد حديدهـــا

ومن أشعاره أيضًا:

بتأثـــــير مبســـمــك	الجمـــــيل تـــموّجـــت
خطـــرات لـــطـــــف	لا مســـــــت أوتـــاري
فأعادهــــــا مــــــوج	الــمـــحبـــــة كهربـــا
للجـــيـــن خــــــدّك	فاكتـــــــسى النــــــار

أمّا أبياته المبدّلة عن أبيات أبي الطّيب المتنبي، فهي كما يلي

فلا تحسبن النجد مالًا وثـــروة	فما المجد إلّا العلمُ والفكرة البـــكر
وســـبر نواميس الوجـــود وأن	ترى حقائقه كالشّمس ما دونها ستر

والحرفة عن أبيات أبي فراس فهي كما يلي:

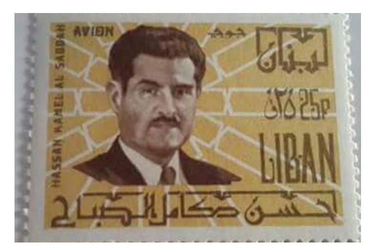
نحن قوم تذيبنا الأعـين النـــجل	على أنّـــنا نذيـــب الحديـــدا
خضعت للحسـان منّا نفـــوس	أخضع البرق برقها والرعـــــودا

وفي عـز ذلـك السـطوع والتماهـي، وفي أوج ذلـك العطـاء امتـدت يـد المـوت إلى الصبـاح لتنتزعـه في «حـادث سـير» مفتعـل في 31 آذار 1935م.

«فبعد ظهر يوم الاحد من هذا التاريخ ذهب كامل وبعض أصدقائه من العائلات الأميركية إلى مدينة مالون حيث تفقد طيارة كان قد اشتراها ليقوم برحلة إلى البلاد العربيّة وفي عودته إلى سكنكتدي كانت سيارته تسير في المقدمة ففقدوا أثره قرب مدينة إليزابيت تون وعادوا أدراجهم فوجدوا سيارته خارجة عن الطريق العام إلى منحدر يبلغ علوه خمس عشرة قدمًا، ووجدوه قتيلًا فيها. فحملت أسلاك البرق النبأ المؤلم إلى جميع أصدقاء الفقيد في الولايات المتحدة فتوافدوا إلى سكنكتدي غير مصدقين ما فاجأتهم به الأنباء. وعلمت إدارة المعمل في سكنكتدي فأرسلت عددًا من موظفيها مع رجال التحري فنّقلوا جثمان الفقيد إلى المدينة . وكان المأتم الذي جرى له في هذه المدينة من المآتم المهيبة التي لم تشهدها سكنكتدي من قبل وقد إشترك فيه الاعيان من الأميركان وأدباؤهم وعارفوا فضل الفقيد منهم. وأوقفت الشركة حركة العمل مدة خمس دقائق حدادً على الفقيد العزيز[1].

ويبدو أن الحادث كان مدبرًا من أعداء العروبة والإسلام، ولا سيما أنّ الصباح كان يتفاوض مع أحد الزعماء العرب على بناء مزارع لتوليد الطاقة الشمسية، وتحويل الصحراء العربيّة إلى جنة خضراء...» كما قال الصباح في 1935/ 1/ 7م، وكان فعلًا، يعتزم السفر للمباشرة في ذلك المشروع.

لذا لا غرو بما قاله المفكر منح الصلح: «وقد كانت عناية الصباح بالشجرة العائلية فوق ما هي حنين إلى الأهل والمنشأ والوطن ذات صلة بسياسة المجتمع الاميركي إزاء المتفوقين والنوابغ. ولا شك أنّ الولايات المتحدة أرض يسر لا أرض عسر. وأنّها بالاجمال لا تبخل بالفرص على أبنائها المقيمين بل أنّها وكما هو معروف تغري كل عبقري بالذهاب إليها في ما يسمى بهجرة العقول، و لكن مما لا شك فيه أيضًا أن لمؤساساتها سياسة تجاه أنساب المتفوقين والنوابغ فهي لا تسلم بسهولة بالنسب غير الاوروبي، وخصوصا العربي لأي نابغ..» وهذا بديهي لان الحركة الصهيونية بدأت شوكتها المسمومة تندس في العالم الغربي وتحديدًا الأوروبي منذ العهد الصليبي،» وذلك عندما حرض هؤالاء اليهود المسيحيين على غزو الشرق وتحديدا بلاد المقدس[2].



لقد سجّل في تسعة أعوام اختراعاته البالغ عددها 76 اختراعًا (66 بمفرده، 10 مشتركة)، أي بمعدل اختراع واحد كل شهر ونصف، وهو إنجاز يخرج عن حدود

1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 30.
2 - انظر دراسة د. لبنان الدبس.

المعقـول. وسـجَّل العـام 1928م خمسـة اختراعـات، وفي 1930م سـبعة اختراعـات، وفي العـام 1933م ثمانيـة اختراعـات، وأخـيرًا، وفي العـام 1935م واحـدًا وثلاثـين اختراعًـا!!».

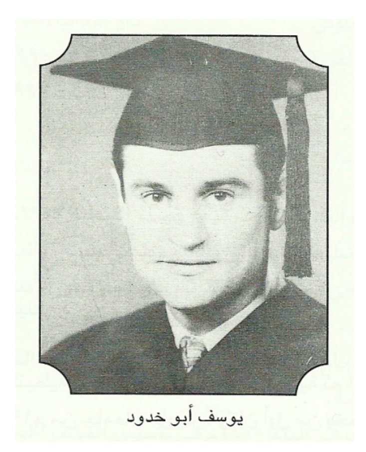
وكان لـه حلـم كبـير بإفـادة بـلاده العربيّـة مـن إختراعاتـه، ولا سـيما ذلـك الـذي يتعلـق منهـا بالبطاريـة الشمسـية التـي ابتكرهـا وسـعى الى تطويرهـا. ويمكـن تلمـس هـذا المسـعى مـن الرسـالة التـي بعـث بهـا الشـيخ خليـل بـزي مـن ديترويـت إلى الملـك فيصـل الأول في العـراق والأمـير شـكيب إرسـلان ، وهـي صـورة مـن الأحـلام العلميّـة والقوميـة التـي مـلأت قلـب المخـترع الصبـاح. ونجـد الرسـالة تتحـدّث عـن تأسـيس مصانـع لعمـل المـواد الحديثـة التـي تكـوِّن مقـدرة الحكومـات، وإنشـاء معاهـد للبحـث والاسـتقصاء العلمـيّ، وتلـك المؤسسـات التـي ربّـما كان نتاجهـا كـما يقـول البـزي: أن تحـول الصحـراء العربيّـة إلى بـلاد معمـورة آهلـة بالسـكان، وذلـك يمكـن حصولـه بـدرس المبـدأ الـذي دعمـه العـالم الطبيعـي العـربي حسـن كامـل الصبـاح لتحويـل أشـعة الشـمس إلى قـوة كهربائيـة رأسًـا، وربـما أمكـن التوصـل إلى تصميـم خـزان كهربائـي أخـف حمـلًا وأشـدُّ قـوة» مـن الزيـت. وقـد حلـم الصبـاح بالعـودة عـلى أرضـه العربيّـة وبنـاء معمـل للطائـرات إذ قـال في رسـالة بعـث بهـا الى والديـه «أرشـيف لجنـة الصبـاح الوطنيـة»: إننـي سـأقتصد المقـدار الـكافي لاتقـان فـنّ الطـيران وعمـل الطائـرات وأتوجـه إلى المملكـة العربيّـة السـعودية أو إلى العـراق، وأؤسـس معمـلًا للطائـرات. وهـذا يسـتغرق مقـدار سـنة أو سـنتين، وبهـذه الوسـيلة أتمكـن مـن تحطيـم نـير الظلـم والاسـتبداد الـذي يكبلنـي بـه القـوم هنـا. وإني سـأضطر إلى صرف كل راتبـي أجـرة تمريـن عـلى الطـيران وثمـن طائـرة أتمـرن عليهـا مـن ذاتي بعـد أن أجيـد استعمالها.» نعـم لقـد كان الصبـاح معتقـلًا في السـجن الكبـير وحينـما أراد التحـرر ارتقـى شـهيدًا إلى رحمـة ربـه...

إن الحديـث عـن الصبـاح يطـول فهـو رجـل في أمـة وأمـة في رجـل، وإن غـاب عنـا ذلـك العبقـري لا بـل ذلـك الشـباب الغـض فـإن شـذا أفـكاره العطـرة مـا زالـت تفـوح في هـذا الكـون المطلـق المحـدب لعلنـا نهتـدي يومًـا إلى الحقيقـة المطلقـة...

و مـا إن حـلّ عـام 1981م حتـى نشـأت لجنـة الصبـاح الوطنيـة بمبـادرة مـن الأسـتاذ سـعيد الصبـاح والدكتـور كـمال وهبـي، وفي الأول مـن نيسـان عـام 1982م حسـب مـا قـال الدكتـور كـمال وهبـي إن هـذه اللجنـة أقامـت مهرجـان تكريـم في النبطيـة للعـالم المبـدع، وفي عـام 1983م اختـير نقـولا شـاهين رئيسًـا مؤقتًـا لهـا وأقيـم مهرجـان آخـر في ذكـرى ولادة العـالم في العـام 1983م . ويقـول أمـين سر اللجنـة الأسـتاذ سـعيد الصبـاح أنّهـا حصلـت عـلى الترخيـص المرفـق بالعـم والخـبر مـن وزارة الداخليـة في 1986/ 12/ 16م تحـت رقـم أزد/ 219 وقـد تـم انتخـاب الرئيـس الأول للجنـة المرحـوم الدكتـور حافـظ قبيـسي في 1987/ 12/ 23م وأمـا الرئيـس الحـالي فهـو الأسـتاذ مهنـد الصبـاح ابـن أخ العـالم والـذي إنتخـب منـذ ايـار عـام 1994

م . وبمبادرتين من أمين الشؤون الثقافية فيها المرحوم الدكتور كمال وهبي تمّ إقامة نصبين له في المدينة بدعم من الفاضلين الحاج مالك الصباح والأستاذ عصام بو درويش، وقد رُمّم ضريحه مرات عدّة من قبل بلدية النبطية وكان آخر ترميم حتى إصدار هذا الكتاب من قبل معالي الأستاذ أنور الصباح وعائليته متعاونًا مع بلدية النبطية برئاسة الدكتور أحمد كحيل، هذا عدا عن العديد من الانجازات التي حققتها هذه اللجنة وما انفكت مثابرة حتى اليوم، ولا غرو بذلك فإننا مهما عملنا فإننا لن نفيه حقه، وكما قال الدكتور كمال وهبي: «لن تموتَ أمةٌ أنجبتْ حسن كامل الصباح» ..

12- العالم في الإلكترونيات الدكتور يوسف أبو خدود


يوسف أبو خدود

يوسف أبو خدود العالم النباطي الجنوبي – اللبناني.

ولد في النبطية عام 1928م، متحدرًا من عائلة يعود نسبها إلى الأشراف الحسينيين، ولد في مرحلة الإنتداب الفرنسي على لبنان وخلال مراحل صباه كانت أصوات المتظاهرين الداعين إلى الوحدة السّوريّة والداعين لدعم مزارعي التبغ تضجّ في أذنيه... مما جعله ينمو في بيئة ثائرة ضد القمع والحرمان، وهذا ما أجّج نار الحماسة فيه وجعله يعي الدنيا باكرًا، فقد امتاز منذ نعومة أظافره بحبّ الإستطلاع والإكتشاف وسبر أغوار خفايا الأشياء وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على شخصيته الصلبة وعلى ذكائه الخارق، وتؤكد أخته الشاعرة بلقيس أبو خدود أنه كان متيَّمًا بحب الموسيقى ولا سيما الكلاسيكية منها وكذلك الخفيفة، فكان عازفًا على «الفيولان» «الترومبيت» و«البيانو» والمندلين وقد تعلمت أخته الشاعرة العزف على هذه الآلة بطريقة منظمة ومتقنة وذلك عندما كان عمره ثلاثة عشر عامًا.

تحصيله العلميّ:

وكغيره من رجالات النبطية، تلقى دروسه في المدرسة الإبتدائية الرسمية في البلدة «أم المدارس» التي أصبح اسمها اليوم مدرسة عبد اللطيف فياض وكذلك أطلق عليها الناس اسم المربي الراحل الفاضل الأستاذ أحمد جابر. وفاز بالشهادة الإبتدائية «السرتيفيكا» فيها. وأكمل تحصيل دراسته التكميلية في الجامعة الوطنية في عاليه، ومن ثم الثانوية فحصل فيها على شهادة «الهاي سكول». ولم يلبث أن أنهى دراسته الجامعية في الجامعة الأميركية في بيروت حائزًا على شهادة (الفرشمان) عام 1947م.

وأسوة بحسن كامل الصباح وبسبب عدم وجود جامعات للاختصاص هاجر في العام نفسه ميممًا وجهه شطر الولايات المتحدة الأميركية، ملتحقًا بجامعة كاليفورنيا للدراسة

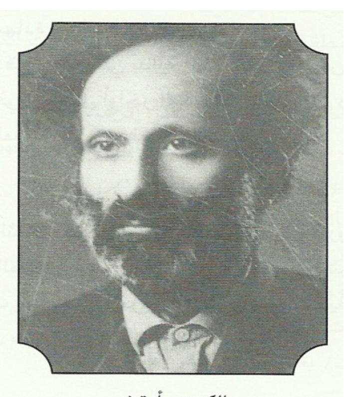
الطب، وقد قضى في هذا الاختصاص ثلاث سنوات ولكن عشقه لعلم الإلكترونيات جعله يلبي الرغبة الجامحة في نفسه لدراسة علم الإلكترونيات جنبًا إلى جنب مع علم الطب، لكنّه سرعان ما هجر هذا الأخير وانصرف كليًا إلى علم الإلكترونيات قاضيًا مدة ست سنوات متبحرًا وباحثًا فيه حتى نال عن جدارة «شهادة الدكتوراه في الأبحاث الإلكترونية في جامعة لوس أنجلوس». تزوج يوسف في أوائل الخمسينيات من مواطنة أميركية تدعى جين ورزقا في العام 1954م بابنة اسمها يسرى.

ميدان العمل:

في العام 1960م عمل كمستشار في ميدان الصناعة الإلكترونية في الولايات المتحدة الأميركية مشتركًا في تحقيق إنجازات عديدة في حقل الإلكترونيات المتعلقة بعلم الفلك، وتحديدًا في مجال المركبات الفضائية، و«هذه الأعمال المتنوعة لا يمكن إحصاؤها على حدّ تعبيره. والجدير بالذكر تصميمه للقوة الكهربائية الإلكترونية في المركبة الفضائية «مارينز – 7» التي أرسلت إلى الفضاء في العام 1961م. وكان إطلاقها التمهيد الأول لإطلاق مركبة حملت الإنسان إلى الفضاء وتحديدًا إلى القمر في العام 1969م.، «وقد اعتبر الدكتور يوسف أبو خدود هذا الحدث العلميّ المذهل مفتاحًا لمعرفة أسرار الكون، فالتربة والحجارة التي جلبت من القمر هي مفيدة لتعريف العلماء على المواد المكونة للقمر، وهي بحدّ ذاتها مفيدة لمعرفة تكوين المجرّات والنجوم. لقد كان أبو خدود عالمًا متفوقًا في الإلكترونيات في «مركز كيب كندي» للأبحاث الفضائية الأميركية.

وككل عالم عربي اصطدم العالم الدكتور يوسف أبو خدود بعوائق كثيرة، لكن تربيته النباطية، وثقافته العاملية، وإيمانه الكبير جعله يتخطى كل الصعوبات ومن ذلك نذكر مثابرته على إكمال إنجازاته العلميّة حتى لو اقتضى أن يهجر النوم لأيام يقضيها في مختبره بشكل متواصل منكبًا على إنجاز ما يبغيه. وهذا ما تؤكده شقيقته إذ كان يقول لها: «أنه لا يستطيع مغادرة مكانه من أجل الراحة مخافة أن تخذله بنات أفكاره فتبتعد عنه».

13 – العالم في الرياضيات الأستاذ اسكندر قرقش:


الكسندر أرقش

ولد اسكندر قرقش في بيروت في 12 كانون الثاني عام 1924م، وعلى الرّغم من ذلك فإنّه أصبح من صميم تاريخ النبطية لأنّه زرع فيها الكثير من السنابل المضيئة التي جعلت بيادر الوطن تموج بعشاق علم الرياضيات، فغاصوا في علم الأرقام وحلقوا في كواكب الهندسة الرياضية، وقد عاش إسكندر قرقش أفراح وأتراح النبطية حتى حلول تلك الحرب السوداء... إنه عالم متواضع توهج عقله في شخصية رجل فذ، كان زاده

العلـم، وعشـقه علـم الرياضيـات، كان يطمـح إلى إيجـاد أجيـال وطنيـة واعيـة تسـتطيع أن تسـبر أغـوار هـذا الكـون المربـع المحـدب مـن خـلال بـث أنـوار الديناميكيـة العقليـة فيهـا. وكان لديـه قـدرة فائقـة عـلى إيجـاد المصطلحـات، واختصـار الأسـماء بدلائـل فيهـا سـهولة الحفـظ والتذكـر، وجعـل مـن الرمـوز بدائـلًا لمـا يصعـب قولـه، لم يكـن ضليعًـا باللغـة العربيّـة.

وتـكاد حيـاة قرقـش (1924-1997م) تكـون نموذجيـة نظـرًا للتفـاني والإخـلاص الـذي أبـداه في تربيـة الناشـئة وللـدور الريـادي الـذي لعبـه عـلى صعيـد لبنـان والعـالم مـن خـلال انجـازه للمجسـم الـذي يمثـل معادلـة غريـن – ريـمان أو ستوغرادسـكي في حسـاب التفاضـل والتكامـل عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر...

عمـل والـده فيليـب قرقـش في الصيرفـة وكان معروفًـا في هـذا القطـاع ولعـل موهبتـه وذكاءه إلى جانـب تربيتـه قـد جعـلاه يعشـق علـم الرياضيـات، وتلقـى علومـه الابتدائيـة والمتوسـطة والثانويـة في معهـد عينطـورة، وحـاز عـلى دبلـوم تخـرج بدرجـة جيـد جـدًا في العـام 1941م.

وفي العـام 1942م نـال بجـدارة شـهادة البكالوريـا الفرنسـية – القسـم الثـاني – فـرع الرياضيـات، ومـا إن حـل 2 تشريـن الأول عـام 1950م حتـى حصـل عـلى دبلـوم الهندسـة الإحداثيـة في الرياضيـات العليـا مـن معاهـد التعليـم البريطانيـة».

المرحلة الثانية من حياة اسكندر قرقش: «الجهاد التربوي»:

في العـام الـدراسي 1949-1948م، عـين قرقـش مدرسًـا في مدرسـة النبطيـة الجديـدة الرسـمية للصبيـان التـي كان مديرهـا المـربي الفاضـل الراحـل سـميح دخيـل شـاهين، الـذي سـميت المدرسـة باسـمه بعـد وفاتـه بقليـل.

«وقـد أطلـق اسـم الأسـد عـلى الأسـتاذ سـميح شـاهين، ولطالمـا كان قرقـش يهـدد تلاميـذه المشـاغبين (للتخويـف فقـط، عندمـا كان يقـول «إذا زعبتـك لـبرّا بيكمشـك الأسـد».

كان منـزل قرقـش قريبًـا مـن مفـترق دكان أبـو محمـود رعـد، ومـن طريـق فرعيـة عـلى اليسـار كان يقـع منزلـه قـرب منـزل أبـو سـمير الصايـغ «الجوهرجـي» في حـي الميـدان – حـارة المسـيحيين.

وقـد بانـت قـدرات قرقـش اللامتناهيـة مـن خـلال نشـاطه الـدؤوب في أداء مهمتـه التعليميـة، والتـي انعكسـت إيجابًـا مـن خـلال النتائـج الحسـنة التـي حصـل عليهـا طلابـه في امتحانـات الشـهادة التكميليـة، وفي كل سـنوات تدريسـه، وهـذا الأمـر عـبرت عنـه وزارة التربيـة الوطنيـة والفنّـون الجميلـة في كتابهـا المرسـل إليـه في 17 كانـون الأول 1954م.

وقـد اسـتمر بالتدريـس فيهـا حتـى عـام 1967م أي إلى حـين انتقالـه نهائيًـا إلى التعليـم الثانـوي. علـمًا بأنـه قـد ابتـدأ بتعليـم مـادة الرياضيـات في ثانويـة النبطيـة الرسـمية منـذ العـام

الـدراسي 1962-1961م، وقـد سـميت هـذه المدرسـة لاحقًـا باسـم ثانويـة حسـن كامـل الصبـاح الرسـمية. وقـد علـم فيهـا بصفتـه متعاقـد، ولم يلبـث في 12 كانـون الأول 1967م أن أصبـح أسـتاذًا في مـلاك التعليـم الثانـوي، لكـن موجـة القصـف والتهجـير التـي شـنها العـدو الصهيـوني ضـد النبطيـة عـام 1976م اضطرتـه إلى مغادرتهـا والالتحـاق بثانويـة بشـامون الرسـمية أسـتاذًا للرياضيـات. وهكـذا كان فراقـه مـع النبطيـة جسـدًا ولكـن روحـه كانـت تتـوق دائـمًا إلى العـودة إليهـا حسـبما روى لنـا أهلـه وأصدقـاؤه...

ولكـن الحـرب الأهليـة لم تـدع الأسـتاذ قرقـش وشـأنه ففـي العـام 1983م نشـبت حـرب الجبـل ممـا أدى إلى انتقالـه إلى منطقـة سـن الفيـل حيـث سـكن هنـاك ملتحقًـا بثانويـة فـرن الشـباك الرسـمية في إطـار اختصاصـه واسـتمر حتـى إحالتـه عـلى التقاعـد في 12 كانـون الثـاني عـام 1988م.

لكنـه لم يسـتكن ولم يـكلّ ولم يملّ فـراح يعطي دروسًـا خصوصيـة في الرياضيـات ومعظمها دون مقابـل إنطلاقًـا مـن إيمانـه بـأن التعليـم رسـالة ونـور هدايـة للأجيـال التـي سـوف تحمـل أمانـة الوطـن والوطنيـة، وانطلاقًـا مـن ولعـه بعلـم الرياضيـات الـذي أصبـح ركنًـا أساسـيًا في ذاتـه وفي عقلـه خصوصًـا...

المؤلفات:

في العـام 1952م نـشر كتابـه الأول تحـت عنـوان «السـنة الأولى في الجـبر» وهـو عبـارة عـن كتاب مـدرسي.

في العــام 1955م، أنجــز قرقــش المجسّــم الــذي يمثــل معادلــة غريــن - ريــمان - أوستوغرادســكي في حســاب التفاضــل والتكامــل.

الأبحاث المنشورة في حقل المتغيرات العقدية: variables complexes.

1 - البحث الأكاديمي الأول:

«تطبيــق معادلــة بوانكاريــه عــلى نــشر تايلــور وفورييــه للخصائــص التحليليــة ذات المتغــيرات المتعــددة»

«Application de la formule de Poincaré au developpement en série Taylor et Fourier des fonctions analytiques de plusieurs variables».

وقـد نـشر هـذا البحـث في المجلـة التـي تصدرهـا جمعيـة العلـوم الرياضيـة والفيزيائيـة، وهـي مجلـة الرياضيـات والفيزيـاء Gaseta matematica si Fizica، Seria A.

وفي 16 كانـون الأول عـام 1983م، أرسـلت إليـه أكاديميـة العلـوم في المعهـد الفرنـسي كتابًـا قـدرت فيـه هـذا البحـث.

2- البحث الأكاديمي الثاني:

«توسيع الخصائص التحليلية في قواليات لانهائية وجداءات لانهائية بتطبيق خصائص ذات قيم متعددة».

“Epansion of analytic functions in infinite series and infinite products with application to multiple valve and functions”.

وقد نشر هذا البحث في تشرين الأول عام 1965م في مجلة الرياضيات الأميركية الشهرية التابعة لجمعية الرياضيين الأميركيين. كما أن هذين البحثين قد حازا على تقدير من أكاديمية العلوم في فرنسا. ويبدو ذلك جليًا في الكتاب المرسل إلى العالم قرقش بتاريخ 16 كانون الأول 1983م.

3- البحث الأكاديمي الثالث:

«استخدام (الخيط المطاط) لتوضيح الأشكال المتشابهة»

“The uses of elastic for illustrating homothetic figures”

ونشر هذا البحث في مجلة الرياضيات الأميركية الصادرة في الأول من كانون الثاني عام 1968م، ووضع موضع التداول في المنهج الدراسي للرياضيات في الجامعة الأميركية في بيروت.

4- البحث الأكاديمي الرابع:

«المعادلات التفاضلية غير المحددة»

“Equation défferentielles illimitées”

وقد تقدم بهذا البحث في مؤتمر الرياضيات الذي عقدته الجمعية اللبنانية لتقدم العلوم في قاعة قصر الأونيسكو في بيروت في 14 تشرين الثاني 1970م.

5- كما أنجز العالم إسكندر قرقش العديد من الأبحاث في الرياضيات العالية، لكنها لم تنشر ويبدو أن ذلك بسبب أحداث الحرب الأهلية التي مر بها لبنان.

لقد شارك هذا العالم في إلقاء العديد من المحاضرات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: في اللقاء الذي نظمه قسم الرياضيات في كلية الفنّون والعلوم في الجامعة الأميركية وعلى مدى عامين متوالين، وكانت المحاضرة الأولى تحت عنوان:

«مشتقات الترتيب الكسري والإستكمال الداخلي»

“Derivatives of Fractional order and interpolation”

وقد جرت يوم الجمعة الواقع فيه 19 كانون الثاني عام 1962م.

أما المحاضرة الثانية فقد ألقاها يوم الجمعة الواقع فيه 26 نيسان عام 1963م وكانت تحت عنوان: «تطبيق معادلة بوانكاريه على نشر تايلور وفورييه للخصائص التحليلية ذات المتغيرات المتعددة»

“Application of poincarés formula to the expansion of analytic functions of several complex variables in Taylor and Fourier Series”

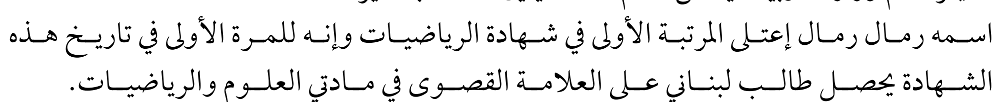
وفي 31 كانون الثاني من عام 1957م أرسل له المعهد الروماني المركزي كتابًا فيه تقدير عالٍ لمجسم معادلة غرين – ريمان – أوستوغرادسكي، وقد ورد فيه: «إن هذه المعادلة قد تقرر تدريسها في الجامعات الرومانية».

لقد عاش العالم الأستاذ اسكندر قرقش حياته مناضلًا مثابرًا متطورًا حتى بذل الكثير من طاقاته الوافرة ومن حبره المضيء عاش بتواضع ورحل بصمت ناثرًا لآلئ علم الرياضيات في هذا الكون المنظم أحسن تنظيم[1].

14- قبسات من حياة العالم رمال حسن رمال وآثاره:

رمال رمال

من الدوير في قضاء النبطية، البلدة الوادعة، المترامية أحياؤها على تلك الهضاب العاملية، كانت رحلة رمال حسن رمال إلى هذا الوجود، في الثلاثين من أيلول عام 1951م. وأمام انعدام فرص العمل والتعليم في البلدة آنذاك، كما في سائر البلدات العاملية، نزحت العائلة إلى بيروت لتقيم هناك حيث عمل الوالد والتحق رمال بمدارس بيروت حتى مرحلة الدراسة الثانوية عام 1969م. آنذاك بدأت تتفتح أولى بواكير نبوغه حين وقف مدير عام وزارة التربية ليعلن أمام الصحفيين، أن طالبًا مميزًا



اسمه رمال رمال إعتلى المرتبة الأولى في شهادة الرياضيات وإنه للمرة الأولى في تاريخ هذه الشهادة يحصل طالب لبناني على العلامة القصوى في مادتي العلوم والرياضيات.

وبدأت رحلة رمال رمال في آفاق النبوغ والتألق في جامعة «غرونوبل» في فرنسا، إذ نال عام 1973م شهادة الكفاءة في الرياضيات التطبيقية، وشهادة الكفاءة في الفيزياء، آنذاك حصل على منحة من الجامعة، وعرضت عليه الجنسية الفرنسية، ولكن ورغم

1 - دراسة مخطوطة بالفرنسية عن حياة وعطاء العالم اسكندر قرقش بقلم شقيقته الدكتورة إيمي قرقش، لا ت، معززة بالشهادات وكتب التقدير لهذا العالم.

- Gazeta matematica si fizica seria A September 1959.
- American mathematical monthly October 1965.
- Ibid volume Lx1 No 1 January 1968.

2 - مقابلة مع ابنته الآنسة ماري اسكندر قرقش في 23/6/1997م.

3 - مقالة بقلم العميد فرنسوا جنادري في مجلة لاريغودي ليبان، عدد 15، 22/3/1997م.

4 - مقالة بقلم سعيد الصباح، جريدة النهار، عدد 19/3/1997م.

حاجتـه الملحـة إلى تلـك الجنسـية لمـا تخفـف عنـه مـن أعبـاء، ولمـا تفتـح لـه مـن آفـاق، لم يقبـل أن يأخذهـا، وآثـر الإحتفـاظ بجنسـيته اللبنانيـة، دون أن يغـرب عـن بالـه مـا لتلـك الفرصـة مـن أهميـة في حياتـه.

في هـذه الأثنـاء، ورغـم كونـه لم يـزل طالبًـا، انتدبتـه جامعـة «غرونوبـل» للتعليـم، لمـا آنسـت فيـه مـن التفـوق، كـما اختـاره المركـز الوطنـي للبحـث العلمـيّ باحثًـا في علـم الفيزيـاء والرياضيـات البحتـة، ولم ينـه بعـد شـهادة الدكتـوراه الأولى.

لم تنحـصر آثـار تفوقـه في حـدود جامعـة «غرونوبـل» ومركزهـا للبحـث العلمـيّ، وإنـما تعدّتهـا ليذيـع صيتـه العلمـيّ في سـائر الجامعـات العالميـة، فاسـتدعي إلى جامعـات أميركيـة وكنديـة يحـاضر فيهـما بصفـة أسـتاذ زائـر. في مرحلـة أولى حـاضر في مدرسـة الكـوادر العاليـة في باريـس (Ecole Normale superieure) وفي مرحلـة ثانيـة حـاضر في جامعـات بنسـلفانيا وشربـروك وهوبكنـز في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. كـما حـاضر في مرحلـة ثالثـة في مركـز إطـلاق المركبـات الفضائيـة NASA.

وتوالـت نجاحـات رمـال وإبداعاتـه في آفـاق النبـوغ، وذاع صيتـه العلمـيّ في أوسـاط الباحثـين والمتخصصـين، ممـا حـدا بمجلـة «العلـوم والأبحـاث» الأمريكيـة لتطلـق عليـه لقـب «أصغـر عـالم في جيلـه عـلى مسـتوى الكـون». في السـنة ذاتهـا عـام 1984م قلّـده وزيـر الثقافـة الفرنسـية ميداليـة البحـث العلمـيّ، كـما انتدبـه المركـز الوطنـي للبحـث العلمـيّ لتمثيلـه في 38 مؤتمـرًا علميًـا في فرنسـا وخارجهـا، وغالبًـا مـا انتخـب في هـذه المؤتمـرات ليكـون مقـررًا.

إزاء هـذا التألـق، وتتويجًـا لتقديـره والإسـتفادة مـن عبقريتـه في مجـال البحـث العلمـيّ رقـي عـام 1988م إلى رتبـة مديـر أبحـاث Directeur de Recherches، وكان آنـذاك في سـن السـابعة والثلاثـين:

«ولم يحـدث قـط في تاريـخ فرنسـا أن وصـل باحـث إلى هـذا المركـز الإسـتراتيجي في مثـل هـذا السـن المبكـر، كـما أن أحـدًا لم يكـن يتصـوّر أنّ هـذا المديـر الشـاب، الـذي يحتـل الآن مركـزًا حساسًـا وخطـيرًا لا يحمـل الجنسـية الفرنسـية، لأن رمـال لم يقبـل رغـم كل الإغـراءات والضغوطـات أن يغـير جنسـيته أو أن يختـار وطنًـا بديـلًا لوطنـه».

وفي عـرض للوظائـف التـي شـغلها حتـى وفاتـه، ولمؤلفاتـه وأبحاثـه العلميّـة، نعـود إلى الكـراس الـذي أصدرتـه «الهيئـة التأسيسـية لإحيـاء ذكـرى العـالم رمـال رمـال»

في الوظائف التي شغلها حتى وفاته:

- في عام 1976م وقبل حصوله بسنة واحدة على دكتوراه حلقة ثالثة شغل رمال مركز أستاذ مساعد في جامعة «غرونوبل» العلميّة والطبية التي يتابع فيها دراسته الجامعية.
- بين عام 1978 و1981م عين رمال برتبة باحث Attache de Recherches في المركز الوطني للبحث العلميّ وفي مركز تدرجات الحرارة المنخفضة.
- في عام 1982 – 1983م عمل رمال أستاذًا محاضرًا بصفة زائر في المدرسة العليا في باريس Ecole Normal Superieure ، هذا الصرح العلميّ الذي تدرّجت على مقاعده خيرة الكوادر العلميّة في فرنسا.
- وفي عام 1984–1983م شغل منصب أستاذ زائر في قسم الفيزياء التابع لجامعتي «بنسلفانيا» «بروكهافنّ» في الولايات المتحدة الأمريكية وفي جامعة «شروبروك» في كندا.
- وفي عام 1986–1985م شغل رمال وظيفة أستاذ باحث Maitre des recherches في المركز الوطني للبحث العلميّ.
- وفي عام 1987–1986م عمل بصفة أستاذ زائر visiteur في جامعتي «هوبكنز» و«ميراي هيل» في الولايات المتحدة الأمريكية.
- وفي عام 1988م رقّي إلى رتبة مدير أبحاث Directeur de Recherches، في مركز درجات الحرارة المنخفضة Grenoble.

عن مؤلفات وأبحاث العالم رمال رمال العلميّة

عام 1988م وضع رمال مع مجموعة من الباحثين كتابًا حول المادة المكثفة كما نشر مجموعة من التقارير العلميّة في موضوع تغير الحالات والموصلات العالية على درجات الحرارة المرتفعة.

أما أبحاثه العلميّة المنشورة – التي أعدها بنفسه أو بمشاركة مجموعة من الباحثين فقد بلغ عددها 113 بحثًا – وقد ساهمت هذه الأبحاث المبتكرة بصورة فعّالة في تطوير أساسيات علم الفيزياء كما جاء حرفيًا في برقية التعزية التي أرسلها رئيس المركز الوطني للبحث العلميّ لأهل الفقيد. كما أن آخر ما اهتم به كانت أبحاثًا تتعلّق بحفظ الأعضاء البشرية (قلب – كلي...) وكان كثيرون يتوقعون له نتائج إيجابية. قلّد العالم رمال في 1991/6/11م. بعد وفاته وسام الأرز الوطني برتبة كومندور.

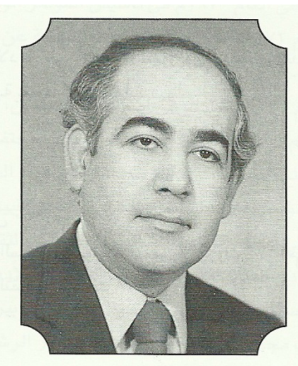
رمال رمال في الصحافة الأجنبية:

قبل عامين أدرجته مجلة Le Point الفرنسية بين أهم 100 شخصية فرنسية مهيأة لتغيير وجه فرنسا على أبواب العام 2000م. قد ورد في النص المترجم عن الصحيفة:

37 فيزيائي.

هذا الرياضي الفيزيائي من أصل لبناني، والذي دخل إلى المركز الوطني للبحوث العلميّة عام 1979م، هو واحد من أفضل المتخصصين في المادة المكثفة في جيله في العالم، وعلى الخط الأول من جبهة علم التواصل السريع... وإن خصوبة إنتاجه العجيب على المستوى النظري لم تمنعه من الاهتمام بالعلوم التطبيقية في مركز درجات الحرارة المنخفضة[1]...

15- الدكتور حافظ علي رضا قبيسي:


حافظ قبيسي

ولد في زبدين- النبطية عام 1936م، وكانت بوادر النبوغ لديه تظهر منذ طفولته، لقد تربى على روح قومية سامية إذ يقول: لقد مرّ على شعوب كثيرة، عبر التاريخ فترات قحط حضاريّ، وفترات عمران وازدهار، كما عرف التاريخ مناطق جغرافية واسعة لم تقدم شعوبها، خلال آلاف طويلة من السنين، مساهمة ثقافية أو علميّة تذكر. إلا أنّ شعبنا تميّز عن شعوب العالم قاطبة بالتصاقه الحميم بالحضارة والعلم والثقافة منذ أن خرج الإنسان من الكهوف وأسس قريته الأولى، **متحده الاجتماعي الأول.**

إن شعبنا هو وريث السومريين الأفذاذ الذين وضعوا في جنوب العراق أسس الحضارة الإنسانيّة التي يعيشها اليوم... وضعوا أسس علم الرياضيات قبل آلاف السنين من حضارة الإغريق.

وراقبوا السماء ورصدوا النجوم، ووضعوا أسس علم الفلك مسجلة في صفائح... أوجدوا الأبجدية واستعملوها وحفظوا علومها بواسطتها. أنشاوا دولة وشرعوا لها كما أسسوا العلم، والتجارة، كتبوا الشعر وسطروا الملاحم ومالوا إلى الموسيقى...».

حاز الدكتور حافظ على دكتوراه دولة في الفيزياء من جامعة ليون فرنسا، وعلى دكتوراه في الأدب العربي. وكان أستاذًا محاضرًا في كليّة العلوم في الجامعة اللبنانية، ومستشارًا في الجامعة الإسلاميّة في لبنان، عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين، عضو مجلس إدارة ندوة الدراسات

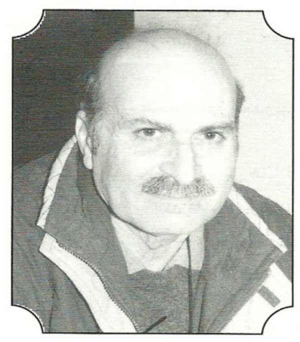
1 - Le Point- مجلة الفرنسية، العدد 899، تاريخ 1 كانون الأول 1989م.

الإنمائية، مؤسس وأمين عام سابق في جمعية «تقدّم العلوم في لبنان»، مؤسّس الجمعية الفيزيائية العربيّة وأمين عام لها، أمين عام المجلس الوطني للبحوث العلميّة، مؤسس ورئيس سابق لـ «لجنة الصّباح الوطنية».

انتمى إلى الحزب القومي السوري الاجتماعي عام 1956 وبقي على إيمانه وانتظامه وتوليه للمسؤوليات: منفذًا عامًا، عميدًا للثقافة، رئيسًا لمكتب الدراسات، رئيسًا للندوة الثقافية، عضوًا فرئيسًا للمجلس الأعلى، رئيسًا للمحكمة الحزبية العليا. توفي عا 1988.

أبحاثه واكتشافاته : لقد حصل حافظ قبيسي على دكتوراه دولة في علم الفيزياء وحقق هذا الرجل العصامي الوطني لأمته العديد من الأبحاث في علم الفيزياء التي تركزت في الفيزياء الجزئي والذرة ، وإيجاد طريقة جديدة لتعيين الجهد داخل الذرة والجزيء، وهذه الأبحاث قام بها سوية مع الدكتور نبيل فخرالدين[1].

16 – الدكتور مكرم حبيب الحاج علي



مكرم الحاج علي

ولد في النبطية عام 1939م، وتعلّم في مدارسها، ومن ثم انتقل إلى مدينة بيروت حيث أكمل دراسته الثانوية، وبعدها انتسب إلى الجامعة اليسوعية. لقد نشأ في بيت علم وأدب، فعائلة آل الحاج علي من العائلات العريقة في المدينة، وأول رئيس بلدية في النبطية كان المرحوم الأستاذ محمد الحاج علي. وقد خاض د. مكرم وأخوته «ولا سيما المربي الفاضل أ. مصطفى الحاج علي و الأستاذ كاظم الحاج علي والسيدة فريحة الحاج علي «التي كانت مديرة لمدرسة البنات الرسمية، والتي اطلق اسمها على اسم المدرسة بعد رحيلها» وبعد خوضها غمار الحياة الإجتماعية والنضال من أجل مجتمع راقٍ وجيل واعٍ ووطن سعيد..! ولم يلبث مكرم أن سافر إلى فرنسا حيث راح ينهل العلم من جامعاتها فحصل على شهادة دكتوراه في الفيزياء النووية، وما زال مقيمًا في فرنسا منذ عام 1966م، وهو متزوج من فرنسية وقد أنجب منها صبي وفتاة... يعمل حاليًا وحتى إصدار هذا الكتاب بصفته باحثًا في المركز النووي الفرنسي في «استراسبورغ».

وفي غمرة هذا النضال وهذا التألق وهذه المثابرة، استطاع أن ينجز العديد من الأبحاث والإكتشافات العلميّة المسجلة»[2].

1 - مقابلة مع د. نبيل فخرالدين في 05/10/2018.
2 - مقابلة مع د. حسن بدير في 17/2/2010.

17 - الدكتور حلمي رشيد شاهين:


حلمي شاهين

ولد في النبطية عام 1937م حيث كانت رائحة أشجار الليمون تنعش المناخ المعتدل في النبطية، وفي حنايا عائلة نباطية أصيلة ترعرع فيها هذا الرجل العلميّ.

وكيف لا وعائلة آل شاهين لعبت دورًا بارزًا في تحول النبطية من بلدة إلى مدينة، من خلال أبنائها الذين اغتربوا أو وصلوا إلى سدة النيابة والوزارة... وكغيره من علماء النبطية أتم دراسته الإبتدائية في أم المدارس في النبطية، ثم أكمل المرحلتين المتوسطة في تكميلية سميح دخيل والثانوية في كلية المقاصد بصيدا

وبما أنه كان شغوفًا بعلم الكيمياء فقد خاض غماره باحثًا في رحابه، فعشق ثورة الكيمياء من خلال التحولات الرائعة في أشكال المادة وألوانها مما جعله ينال الإجازة في الكيمياء العضوية من الجامعة اللبنانية في العام 1963م، وبسبب تفوقه نال منحة من مجلس البحوث العلميّة اللبناني لإكمال اختصاصه في الخارج.

وليس هذا فحسب فإن عزيمته وطموحه وإمكانياته المعززة بالحس العلميّ جعلته ينال دكتوراه دولة في الكيمياء العضوية من جامعة السوربون في فرنسا، ويتعين فيها كأستاذ جامعي متابعًا مسيرته التي تكللت بأربع براءات إكتشاف في مجال الكيمياء العضوية من وزارة الصناعة الفرنسية.

وقد كانت كأعمال عامة في إطار الابحاث المتعلقة حول المركبات العضوية للفوسفور: ثلاث منشورات وإثنين من براءات الاختراعات :

براءتان تحملان الأرقام 153229 و 93637 ... وقد تركزت حول :

التشكيل وطبيعة سلسلة جديدة من غير المتجانسة الموجة رقم 791 : المركبات العضوية للفوسفور. تشكيل وطبيعة سلسلة جديدة من حلقات غير متجانسة موجبة . أملاح الفوسفونيك -4-بيران.

- حلقات غير متجانسة من غما ? كيتونات و دلتا الأنول الرملي المؤستل énolisable.
- سلسلة جديدة من حلقات غير المتجانسة الموجبة المحتوية عاى عنصر الأوكسجين والفوسفور .
- رقم 572 – المركبات العضوية للفوسفور .
- دراسة عبر الرنين المغنطيسي النووي لأملاح الفوسفونيا -4-بيران ...

ومـن أوروبـا إلى أفريقيـا وتحديـدًا إلى زائـير حيـث علّـم في كليتـي الصيدلـة والعلـوم في جامعـة كنشاسـا في العاصمـة، فأمـضى عشريـن عامًـا كنائـب لعميـد كليـة العلـوم فيهـا حتـى العـام 1989م، تاريـخ عودتـه إلى الوطـن اللبنـاني.

ولم يـكل أو يمـل بـل تابـع التدريـس ولمـدة وجيـزة في الجامعـة اللبنانيـة حتـى حـل بـه المـرض الـذي أدى إلى ضعـف عضلـة قلبـه والـذي قـصَّر عمـره، وجعلـه يفـارق الحيـاة في العـام 1997م[1].

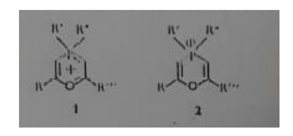
مـن أبحاثـه : رقـم 791 : المركبـات العضويـة للفوسـفور :تشـكيل وطبيعـة سلسـلة جديـدة مـن الحلقـات غـير المتجانسـة. أمـلاح مـادة فوسـفونيا-4 بـيران « والبـيران هـو مركـب عضـوي حلقـي غـير متجانـس وغـير مشـبع لـه الصيغـة الكيميائـة C_5H_6O . يتألـف المركـب مـن بنيويًـا مـن حلقـة سداسـية حاويـة عـلى ذرة أوكسـجين واحـدة وعـلى رابطتـين مضاعفتـين ،و يطلـق عـلى مشـتقاته إسـم بيرانـات. يوجـد هنـاك متصاوغـان مـن المركـب، وهمـا : 2H-بـيران (أو -بـيران) وحيـث تكـوِّن مجموعـة ...»[2]. مـن أجـل تحديـد أو عـدم تحديـد السـمة المتحركـة للشـحنة الموجبـة لسـتة روابـط حاويـة في الموضـع 1 و 4 عـلى ذرة مـن الأوكسـجين وآخرمـن الفوسـفور فـإن منهجيـة أصليـة مـن التركيـب لهـذه النـواة قـد إقتُرحـت . تتكـون مـن التفاعـل الفوسـفيني - الأسـيتيليني والهاليدات -الكيتونيـة أو الألدهيـدي . التشـكل الرباعـي والدائـري يحصـلان في مرحلـة واحـدة . و ينتـج عنـه سلسـلة جديـدة مـن أمـلاح الفوسـفونيوم (وتُنتـج أملاحـه مـن تفاعـل مـادة الفوسـفين مـع الأحمـاض القويـة غـير المؤكسـدة)[3]، الخـواص الكيميائيّـة للفوسـفين «أو مـا يطلـق عليـه بفوسـفيد الهيدروجـين،» يعتـبر مـن الغـازات السّـامة جـدًّا، ويتميّـز بأنّـه عديـم اللـون وقابـل للاشـتعال، كـما أنّـه ذو رائحـة تشـبه رائحـة الثـوم القويـة غـير المحتملـة، بالإضافـة إلى أنّـه يمتلـك صيغـة بنائيـة مشـابهة للصيغـة البنائيـة للأمونيـا؛ إلّا أنّـه يعتـبر مُذيبًـا ضعيفًـا وأيضًـا لا يـذوب جيّـدًا في المـاء، ويتكـوّن الفوسـفين كنتيجـة لتفاعـل الفسـفور الأبيـض مـع إحـدى القواعـد القويـة أو مـع المـاء السـاخن، أو نتيجـةً لتفاعـل المـاء مـع فوسـفيد الكالسـيوم، وعنـد ارتبـاط الفوسـفين مـع مركبـات عضويـة أخـرى فإنّهـا تُسـمى مُشـتقات الفوسـفين، حيـث مـن الممكـن أن تُسـتبدل احـدى الروابـط مـع ذرات الهيدروجـين بإحـدى هـذه المجموعـات، ويمكـن تكويـن روابـط أحاديـة أو ثنائيـة أو ثلاثيـة، ويُسـمى المركـب الناتـج بإضافـة المقطـع الأول مـن المركـب الـذي ارتبـط معـه، وفي حالـة ارتبـاط الأمـلاح المعدنيّـة فتسـمى المركبـات الناتجـة بمركبات الفوسـفايد، وعنـد ارتبـاط ذرات الهيدروجـين تسـمى النواتـج بمركبـات الفوسـفونيوم[4]، التـي فيهـا ذرة الفوسـفور تشـكل جـزءًا مـن حلقـة غـير متجانسـة. السـمات الأيونيـة الحلقيـة غـير المتجانسـة

1 - مقابلة مع ابن أخته رئيس إتحاد بلديات الشقيف د. محمد جميل جابر
2 - https :ar wikipedia .org/wiki/
3 - أنظر المحاضرة الحادية عشرة في الكيمياء اللاعضوية- كلية بابيلون في العراق – الموقع الالكتروني.
4 - "Phosphine (PH3)"، www.britannica.com، Retrieved 29-11-2017. Edited..

وغـير العطريّـة لهـذه المركبـات قـد تـمّ توضيحهـا عـبر وسـائل كيميائيـة وظيفيـة . إن محـاولات النقـل الالكترونيـة تتـم عـبر تضمـين الحلقـات غـير المتجانسـة في تنظيـم ميزوميري حيثـما فشـلت مـواد السـيانين. وقـد اعتمـد د. شـاهين في عمله هـذا عـلى قـراءة منشـورات G . Marki الـذي قـام بوصـف تركيـب مـادة ثنائـي فينيـل الفوسـفابنزين... وقـد اهتـم بمعرفـة إذا كانـت السـمة العطريـة لـذرة الكربـون في الموضـع 4 سـوف تكـون مسـتبدلة بـذرة أوكسـجين. وهنـا يـراد القـول إنّنـا نتحـدث عـن مركبـات مشـابهة لمـادة البيريليـوم «هو عنـصر كيميائـي لـه الرمز **Be** والعـدد الـذرّي 4. يقـع البيريليـوم في الجـدول الدوري ضمن عنـاصر الـدورة الثانيـة، وفي المجموعـة الثانيـة كأوّل الفلـزّات القلويّـة الترابيّـة، وهـو عنصر ثنائـي التكافؤ وسـام. إنّ وفـرة هـذا العنـصر في الكـون قليلـة، وذلـك بسـبب قـصر عمر تشـكّله في النجـوم، أمـا عـلى سـطح الأرض، فغالبًـا مـا يوجـد مرتبطًـا مـع عنـاصر أخـرى عـلى شـكل معـادن مختلفـة. هنـاك بعض الأحجـار الكريمـة...[1] التـي تحـوي البيريليـوم في تركيبهـا مثل البيريل الزمـرّد الأخضر أو الأزرق وكريسـوبيريل التـي فيهـا ذرة الكربـون في الموضـع 4 سـوف تكـون مسـتبدلة بمجموعـة الميثيلـين الفوسـفوري ...



و مـع ذلـك النظريّـة تسـتبق وجـود الكاتيـون المتسـاوي الالكترونـات الـذي فيـه الحمولـة سـوف تكـون متموضعـة عـلى ذرة الفوسـفور عـلى شـكل ملـح الفوسـفونيوم 2. و هكـذا فـإن الصيغـة الأولى 1 تتشـابه مـع كاتيـون ذوسـمة عطريـة مـع حمولـة متنقلـة. أمـا الصيغـة الثانيـة 2 تتشـابه مـع الكاتيـون فوسـفونيا-4 بـيران . ومـن الواضـح أن الكاتيونـين 1 و 2 لا يمثـلان شـكلين مـن تكافـؤ ميزومـيري، وذلـك لأن الكاتيـون رقـم 2 سـوف يكـون لديـه الهيـكل « التركيبـة» سيكلوهيكسـادييـنيك -4-1 ، إذًا غـير مخطـط.



*** مبـدأ التصنيـع « حسـب معرفتنـا بـالأدب الكيميائـي فإنـه لا يحتـوي عـلى المنتجـات مـن نـوع 3 و 4 مفصولـة.

مـن ناحيـة أخـرى إشـتراك الكيتونـات خـلال تشـكل نـواة البـيران يبـدو غـير قابـل للجـدل. و بالتـالي مـزدوج الفينيـل -2 ،6 بـيرون-4، ممكـن أن يكـون محـضرًا عـبر تأثـير الأسـتوفينون المحتـوي عـلى الصوديـوم عـلى الفينيـل بروبيـولات الإيثيـل دون أن يكـون مـزدوج الكيتـون

1 - الويكيبيديا –الموسوعة الحرة» .

الأسـيتيلي الوسـطي مسـلطًا الضـوء عليـه (2). و كـما أنَّ إضافـة الكحـول عـلى الروابـط الثلاثيـة لكـي يشـكل إسـترات الفينيـل يتطلـب وسـطًا قلويًـا قويًـا، فإنـه يمكننـا بشـكل عقلاني اعتبـار أن إثيـلات الصوديـوم المكونـة خـلال تكاثـف كلايـزن هـي المسـؤولة عـن الـدورات غـير المتجانسـة المؤديـة إلى ⍰- بـيرون _ . 3d

لقد شملت أعمالنا صناعة النواة البيرانية عبر تأثير الأسيتيل ميثيلنيتريفنّيلفوسفافاران (3)..

- ✻✻✻ دورات غـير متجانسـة مـن غـما ⍰ كيتونـات و دلتـا الأنـول الرمـلي المؤسـتل énolisable. - سلسـلة جديـدة مـن الحلقـات غـير المتجانسـة الموجبـة المحتويـة عـاى عنـصر الأوكسـجين والفوسـفور .
- ✻✻✻C.R.Acad Sc.Paris t. 266 p. 1098-1100 01/04/1968 : الكيميـاء العضويـة : دورات غـير متجانسـة مـن غـما ⍰ كيتونـات و دلتـا الأنـول الرمـلي المؤسـتل énolisable. - سلسـلة جديـدة مـن الـدورات غـير المتجانسـة الموجبـة المحتويـة عـلى عنـصر الأوكسـجين والفوسـفور : إن تأثـير البروميـد -السـيتوني عـلى الفوسـفين - الأسـيتيلي يـؤدي مباشرة إلى بروميـدات الفوسـفونيوم والتـي فيهـا ذرة الفوسـفور تشـكل جـزءًا مـن دورة الأوكسـجين غـير المتجانسـة . هـي بروميـدات الفوسـفين -4 البـيران المسـتبدلة . السـمات الأيونيـة والدوريـة غـير المتجانسـة لهـذه المركبـات يتـم تسـليط الضوء عليهـا بالإضافـة إلى الطبيعـة غـير الأروماتيـة للكاتيـون.
- بحسـب معرفتنـا بـالأدب الكيميائـي فإنـه لا يحتـوي عـلى أوصـاف المنتجـات مـن النـوع (1)أو (2) المفصولـة.

$$R-\overset{\overset{O}{\|}}{C}-CH_2-\overset{R'\ \ R''}{\overset{\diagdown\diagup}{C}}-C\equiv C-R''' \quad (I)$$

$$R-\overset{\overset{O}{\|}}{C}-CH_2-\overset{\|}{C}-C\equiv C-R' \quad (II)$$

مـن ناحيـة أخـرى إشـتراك الكيتونـات خـلال تشـكل نـواة البـيران يبـدو غـير قابـل للجـدل. و بالتـالي مـزدوج الفينيـل -2 ،6 بـيرون-4(I II) ، ممكـن أن يكـون محـضرًا عـبر تأثـير الأسـتوفينون المحتـوي على الصوديـوم عـلى الفينيـل بروبيـولات الإيثيـل دون أن يكـون مـزدوج الكيتـون الأسـيتيلي الوسـطي مسـلطًا الضـوء عليـه . و كـما أن إضافـة الكحـول عـلى الروابـط الثلاثيـة لكـي يتشـكل مـن إسـترات الفينيـل فإنـه يتطلـب وسـطًا قلويًـا، ويمكننـا الاعتبـار عقلانيًـا أنَّ إسـترات الصوديـوم المشـكلة خـلال تكاثـف كلايـز ن (**تكاثـف كلايزن** هو تفاعـل عضوي يحـدث فيه تفاعـل تكاثف بـين مركبي إسـتر، أو إسـتر مـع مركـب يحـوي عـلى مجموعة كربونيل بوجود قاعـدة قويـة، بحيـث تتشـكل رابطة كربون-كربون جديـدة عـلى هيئـة β-كيتـو الإسـتر أو ثنائـي الكيتـون..

ينسب التفاعل إلى مكتشفه الكيميائي راينر لودفيج كلايزن، والذي نشر علميًا عنه لأول مرة سنة 1887) ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

R–CH₂–C(=O)–O–R' + R–CH₂–C(=O)–O–R' → (1. NaOR' 2. H_3O^+) beta-keto ester + R'–OH

ester — beta-keto ester — alcohol

Φ–C(=O)–CH_2Na + Φ–C≡C–CO_2Et → (III) + EtONa

إن أعمالنا المشتملة على تركيب النواة البيرانية عبر تأثير أسيل ميثيلين ثلاثي فينيل فوسفوران يُقترح كواسطة للدورات غير المتجانسة للكيتونات ، الاسيتيلية من النوع (II) رغم أن الوسط المؤدي إلى إستر الفينيل ، وفي بعض الأحيان ممكن أن يكون حمضًا .العمل الحالي يصف تفاعل الدورة غير المتجانسة للنوع نفسه الذي دون شك لا يمكن أن يخطط على أي دور للمؤثرات القلوية .

- *** 572 – التركيبات العضوية للفوسفور :

دراسة عبر الرنين المغنطيسي النووي لأملاح الفوسفونيا –4–بيران :

** المقدمة: تفاعل الفوسفينات الأسيتيلين والهاليدات أو الألديهيدات الموصوف سابقًا ممكن أن يدخل إلى سلسلة جديدة من الدورات غير المتجانسة الكاتيونية والتي فيه ذرة الفوسفور تشكل جزءًا من النواة . وأحد الأسباب الرئيسية للعمل كان تحديد طبيعة هذه الدورات غير المتجانسة . كان في الواقع عملية تميز بين الشكل 1 ذو السمة العطرة والحمولة المتنقلة و الشكل 2 ذو السمة الحلقية الهيكسانية»(**حلقي الهكسان (سيكلوهكسان** هو مركب عضوي له الصيغة الكيميائية C_6H_{12}. يتكون حلقي الهكسان من 6 ذرات كربون مرتبطين معا في شكل حلقي، وترتبط كل ذرة كربون بذرتي هيدروجين..«ويكيبيديا الموسوعة».

- والحمولة المتموضعة على ذرة الفوسفور

-

1 — 2 — 2a

- دراسة الامتصاص في الأشعة فوق البنفسجية والتفاعل الكيميائي برهنا أننا في حضور الشكل 2، وأن نقل الحمولة و تعطير التركيبة «النظام» هو مستحيل . وخلاصة لقد رأينا في الشكل 2 سمة غير مستوية2a .

وحدّث بلا حرج عن عشرات العلماء المعاصرين حتى إصدار هذا الكتاب المنتشرين في كل دول العالم والذين سوف يذكرهم التاريخ ...

ريادة المقاومة في جبل عامل: خصوصية وتواصل



د. يوسف عبد الأمير طباجة

ليس جديدا أن نقاوم في جبل عامل؛ بل ثقافة صنّاعها مقاومون وثوار في بيئة حاضنة

تشكل المقاومة العاملية إحدى روافد العاملية الثقافية، وحيث أن لكل مجتمع يتشكل في مسيرة عيشه الطويل والمستمر؛ ثقافة ما ينتجها[1]. فالثقافة العاملية تشكلت مرتكزة على ثلاثة أسس:

- **العروبة:** التي يفاخر بها العامليون بانتمائهم لقبيلة عاملة بن سبأ. قال الحمداني (ت٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م)[2]: وجبل عاملة من بلاد الشام هو صليبة عاملة[3]. فالهوية العربية مُعْطَى قبلي سابق وجوديا على المواطنة، وهذه الأخيرة استحقاق بَعْدِي مُكتسب؛ يتحدد في ضوء الشروط والثوابت القَبْلِيَة للهوية. وعليه فالعروبة تأتلف فيها كل المكونات الإثنية والدينية..
- **الاسلام:** بولاية آل بيت النبوة(ع) ومرجعيتهم الفكرية والقيادية اعتقادا (باعتبار الإمامة استمرارا وتواصلا لنبوة محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين)، على يد الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، منذ مشاركته في الفتح الاسلامي ورباطه على

1 - نُعرِّفُ المجتمع بأنه: كينونةٌ (كيان يتكوَّن (يَنشأ أو يُنشَّأ) في فترةٍ زمنيَّةٍ ما؛ على مساحة جغرافية معينة/ بيئة طبيعية)، من جماعات وفئات إجتماعيَّة (السكان)، تنتظمُ فيما بينها بطريقةٍ ما؛ بعلاقاتٍ إجتماعيَّة وأنظمةٍ مُحدَّدَةٍ تتعارف عليها (نظم ومؤسسات إجتماعية Social institu-tions end orders)، ومِن نَسقٍ إجتماعيٍّ ما (Système sociale) (بيئة اجتماعيةSocial enveronement)، وتَنتجُ في مسيرة عيشها الإجتماعي الطويل؛ ثقافة Culture معيَّنة ومحدَّدة، تصبو إلى الحضارة Civilization (نظام إجنماعي) إذا ما نهضت... أو تذوب في ثقافة أو ثقافات أخرى وتفقد هويتها...

- راجع: يوسف طباجة: التعليم والتغير الاجتماعي، محاضرات لطلاب شهادة الماستر، الجامعة اللبنانية، عمادة كلية التربية، العام الجامعي 2017-2018.

2 - ترجمته في: الزركلي: الأعلام، ج8، ص 233.

3 - ابن فضل الله العمري(ت 749هـ): مسالك الابصار، ج4، ص358. القلقشندي(ت821هـ): نهاية الأرب في معرفة الأنساب العرب القلقشندي، ج 1، ص.111 . والصليب الشديد القوي والخاص النسب، يقال: عربي صليب: خالص النسب. المعجم الوسيط، ج1، ص 519. وتاج العروس، ج3، ص 209. المتأصلة من عاملة بن يعرب بن قحطان بن هود بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح أبوالعرب أول من كتب اللغة العربية القديمة، ومنه أخذ العرب اسمهم، نزل مع أخيه يقطان بن قحطان أرض اليمن...

- راجع مقالة: الشيخ أحمد رضا: ذالمتاولة أو الشيعة في جبل عامل، مجلة العرفان، م2، ج5، ص237. وشكيب أرسلان: المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، مجلة العرفان، م2، ج9، ص444. وهو بمثابة تعقيب على مقالة الشيخ أحمد رضا الذي كان قد نشرها في مجلة المقتطف م36. وأعيد نشرها مع التعقيب في مجلة العرفان. ومقالة ثانية للشيخ أحمد رضا: بنو عاملة، مجلة العرفان،م31، ج5و6، ص 218.

ثغور بلاد الشام وولده عبد الملك (صيدا، صرفند، صور..)، وهو المشارك بفتح قبرس[1].

ثم في زمن عثمان أُخرج أبا ذر لّما صدح بأعلى صوته متسلحا بالإيمان والعقيدة، يقود ثورته على فساد السلطة والإدارة وعنوانها القرآن الكريم، خصوصا الآية الكريمة ﴿ والذين يكنزون﴾، « ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع»[2]... إلى الشام بقي أياما فتشيع جماعة كثيرة[3]، ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليومً[4]. تلك المنطقة النائية في ولاية الشام، سمع الفقراء للمرة الأولى كلاما جديدا يتغلغل في القلوب والعقول[5]، وثبتوا عليها[6]...

- **الأرض**: مع العنصر الأول (العروبة) يَألفُ و يُؤلفُ فيها المواطن[7]، لما روي من أن: حب الوطن من الإيمان[8]، وأيضا: ومن إيمان الرجل حبه لقومه[9]. ومن مات دون ماله، أو أرضه، أو عرضه فهو شهيد[10]، وأنها الأرض المقدسة[11]، التي يدخل فيها جبل عامل[12]...

إذاً، تتجلى الريادة العاملية في الدور الحضاري الذي شغله جبل عامل على امتداد التاريخ، فالعاملية الثقافية المكونة للعقل الجمعي العاملي هي فعل اجتماعي مارسه العامليون لحمة ووحدة لم يكن للعصبية فيها حضوةٌ أو حضور، وإنما فعل إيمان عنوانه إسلام « الثقلين» المستمسك بحبل من السماء: القرآن الكريم والعترة الطاهرة من آل بيت النبوة.

تجاوزت « العاملية الثقافية» الحدود الجغرافية لجبل عامل، فقد انتمى لهذه المدرسة الكثير ممن هم من خارج جبل عامل كالعلامة الكركي والشيخ ابراهيم بن جعفر بن عبد الصمد العاملي الكركي[13] والسيد حسن الصدر[14] و إبراهيم بن محمد الحرفوشي العاملي

1 - محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، 23 . عمر تدمري: الصحابة في لبنان، ص 143 . وعمر تدمري: لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، ص 98 . و 160 و 161 .

2 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، (أحداث عام 30 هـ) ص 483.

3 - راجع وقائع حركة أبا ذر في دمشق ومنها بعد أن يصلي الصبح، يمشي مناديا " جاءت القطار تحمل النار، لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له، ولعن الله الناهين عن المنكر والآتين له ". اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص 171. وجرأته بوجه الخليفة عثمان، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 630. وبوجه الوالي القوي معاوية

4 - الحر العاملي: أمل الآمل في علماء جبل عامل، ص 13. و السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة، م16، ص358 وما بعدها.

5 - د.ابراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 108.

6 - الشيخ محمد جواد مغنية: الوضع الحاضر في جبل عامل،ط2، دار الجواد، بيروت 1984. ص75.

7 - عن أهمية الإلفة راجع: الشيخ حسين بن عبد الصمد: نور الحقيقة ونور الحديقة، تحقيق يوسف طباجة...ص 109. ومن أسبابها أولا: الدين..

8 - الشيخ عباس القمي: سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، ج2، ص 668. وعن الحديث راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة النبي(ص)،ج4، ص 153. وعده الشيخ محمد باقر الكجوري: الخصائص الفاطمية، ج1، ص 17. من الأحاديث النبوية.

9 - الحر العاملي: أمل الآمل في علماء جبل عامل،ج1، ص 5. وانظر: الشيخ علي البحراني: منار الهدى في النص على إمامة الإثنى عشر، ص 269.

10 - السيد جعفر مرتضى العاملي: مختصر مفيد،ج11، ص 57. وقارن مع الكليني: الكافي، ج5، ص 52.

11 - سورة المائدة/ الآية 21. و راجع ما ذهب إليه الحر العاملي في تفصيل حب الأرض. في مقدمة أمل الآمل في علماء جبل عامل.

12 - يوسف طباجة: تاريخ جبل عامل بين الضياع والجمع والتشييد، مشاركة في المؤتمر الدولي حول التجديد في صناعة التاريخ وكتابته، العراق 2018، ص1.

13 - الحر العاملي: أمل الآمل في علماء جبل عامل، ج1، ص 27. و الأمين: أعيان الشيعة، م2، ص 115.

14 - السيد حسن الصدر صاحب " تكملة أمل الآمل " هو من أصول عاملية لكنه ولد وعاش في العراق خارج جبل عامل. ولاحظ: القاضي نور الله المرعشي التستري(ت 1019هـ/ 1610م): مجالس المؤمنين، ج1،ص 158 و 159. يقول: البقاع بقعة من بلاد جبل عامل.

غيره[1]، أو ممن تنشأوا وتربوا خارج الأرض العاملية، ولكنهم احتفظوا بكنيتهم العاملية دلالة على « العاملية الثقافية « التي ينتمون إليها، وأبرز هذه الشخصيات محمد بن الحسين بن عبد الصمد الهمداني العاملي، المعروف ببهاء الدين العاملي.

ينقل الشيخ محمد جواد مغنية من أن العامليين عرفوا بالتقوى والورع، « حتى اشتهر عن أحد المراجع في النجف الأشرف [لعله السيد محسن الحكيم][2] أنه كان يقال: أن الأصل في كل عاملي العدالة، وأن الحق يثبت بشهادة عاملي واحد، ولا يثبت في غيره إلا بشهادة عدلين. وكان النجفيون يتسابقون في شهر الصيام إلى دعوة العامليين إلى تناول الطعام في بيوتهم للتبرك بهم والتقرب إلى الله تعالى بالإحسان إليهم»[3].

وقارب أمير البيان شكيب أرسلان العاملية الثقافية في شهادة كبيرة له عن « الشعر و الشعر العاملي»[4]، جاء فيها:

« واللهُ يعلمُ؛ إنِّي ما زلتُ أقرأُ شعرَ العربِ في هذا العصرِ من مُنْجدٍ ومُتْهم، ومُعْرقٍ ومُشْئم، ومصريٍ ويماني، وشنقيطي وقيرواني، فلمْ أجدَ أصدقَ منْ قريضَ أبناءِ عاملةَ: صورةً للشعرِ العربي الصميم، ولا أخلصَ منهُ عِرقاً في نسبِ اللغةِ التي امتازت بها سعدُ وثقيفُ وسفلى هوزانُ وعليا تميم، ولقد أراني أشربُ ولا أرتوي، حتى إذا وقعتْ في يديَّ بعضُ قصائدٍ من نظمِ العامليينَ شَبِعَتْ كَبِدِي رَيّاً، وامتلأ دماغي بياناً عبقريا، وقلتُ: الآنَ قد وجدتُ تحتَ الألفاظِ معنىً سرياً، وكمْ يخيلُ لي أنِّي أَسِيحُ من ذلكَ الفصيحِ في بَرٍ فسيح، وأضربُ بينَ مرابعِ الآرامِ ومنابتِ الشِّيحِ، من رقةٍ تذوبُ معها الأنفسُ، وجزالةً تقفُ لها الشعورُ في الأرؤس [الرؤوس]، وأسلوبٍ يمثلُ لكَ من العربِ الماضينَ صفاءَ قرائحهم، وشفوفِ ألبابهم، وينفثُ في رَوْعِ الحاضرينَ لغةَ صيَّابتهم وفصاحةِ لُبابِهم، ويذكِّرُنا عَنْجَهِيةَ أولئكَ الفاتحينَ الذينَ تحدّرنا من أصلابهم».

والتاريخ العاملي الممتد منذ حطت قبيلة عاملة بن سبأ رحالها على هذه الأرض وأعطتها اسمها، بعد هجرتها مع من تشاءم[5] من القبائل اليمنية إثر انهيار سد مأرب، وسكنت تلك البقاع الممتدة على مساحة من جبل الجليل يحدها جنوبا بيت المقدس وشمالا جبل لبنان، ومن الغرب بحر الروم / المتوسط إلى جبل حرمون شرقا. فَعَمَرَت المزارع والقرى والدساكر والمدن. فكانت صيدا وصور حاضرتا البحر ومهد حضارته، وطبرية حاظرتها

1 - المجلسي: بحار الأنوار، ج 10 . أنظر الإجازة وتوقيعه ..
2 - سمعت هذا الحديث تواترا من أكثر من نجفي...

3 - الشيخ محمد جواد مغنية: الوضع الحاضر في جبل عامل، ص 75.
4 - أمير البيان شكيب أرسلان: الشعر والشعر العاملي، مجلة العرفان1927، م14، ج1، ص 45. أعيد نشرها في مجلة الضحى، تصدر عن المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز في لبنان. عدد 3 أيلول 1960. ونشرها نجيب البعيني: من آثار أمير البيان شكيب أرسلان في الشعر والنثر، الدار الجامعية، بيروت 1996، ص 196.

5 - سندا لحديث النبي محمد (ص) عندما سئل عن القبائل اليمنية عن انفجار سد مأرب: ”

الأولى وقَدَس وعسقلان، ثم تبنين وكل بلاد بشارة، وشقيقتها (المعتقلة) هونين ومعها سهلها أو سهل الحولة أو سلة غذاء جبل عامل[1]، والشقيف وبلداته، وجزين وجوارها حتى تخوم المختارة (مركز الزعامة الجنبلاطية اليوم)[2]، بما فيه جبل الريحان، وإقليم التفاح، وأنصار مركز إقليم الشومر ومعها الزرارية وأخواتها...

خلص اللواء الركن الدكتور ياسين سويد في دراسته عن جبل عامل في عهد الإمارتين المعنية والشهابية إلى أن: « العاملي ثائر بطبيعته، مقاتل بفطرته. إلا أنه كان يفتقر دائماً الى الفن العسكري المنظم، فظل، بسبب ذلك، يعتمد على شجاعته وبسالته أكثر من اعتماده على أسلوب قتالي تكتيكي محدد، اللهم سوى أسلوب «الكر والفرّ الذي كان سائداً في بلادنا حينذاك، باستثناء ما كان يأتي «بداهةً وَدون أدنى حسابٌ باعتبار ان التكتيك العسكري هو «فن القتال، أو فن إدارة المعركة بشكل يضمن للقائد إحراز النصرً[3].

أما البارون دي توت Baron de Tott (ت 1797م) أحد مهندسي السياسة الفرنسية في الشرق، ومستشار لدى الدولة العثمانية أيام السلطان مصطفى الثالث) فيقول في مذكراته: « المتاولة الذين يسكنون جبل لبنان، بين صيدا وعكا، هم أقل بكثير من الدروز، ولكن قلاعهم التي يسكنونها، تعزز من صمودهم، وتحفزهم على النهوض والثورة، كما تجعل إخضاعهم أكثر صعوبة، فكل قِمة في جبلهم حصن قائم بذاته، وكل ملَّاك هو إقطاعي كبير[4]، وهذا الشعب متعصب لتعاليم [الإمام] علي (ع)،... وقد اتفقوا على دفع المتوجب السنوي عليهم كضريبة للدولة وقيمتها 200 كيس، كي يتصرفوا بجبالهم، وفي ظل زعمائهم وإقطاعاتهم...ً[5].

وفي البدء كان أبوذر المعلم، الثائر الأول في الإسلام على الفقر والظلم، رافضا الخنوع والخضوع والتردد ومهادنة الطغاة والمستغلين، لأنها تمكن لفسادهم في الأرض وعدوانهم[6]... وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقول: أوصاني خليلي رسول الله(ص) أن أقول الحق ولوكان مرّاً، ولا أخشى في الله لومة لائم[7]، وأعوذ بالله من الجبن.. وصرخته بالناس قائلا: أيها الناس اجمعوا مع صلاتكم وصومكم غضبا لله عز وجل إذا عصي في الأرض، ولا ترضوا أئمتكم بسخط الله، وإن أحدثوا ما لا تعرفون فجانبوهم، وأزروا عليهم ...فإن الله أعلا وأجل لا ينبغي أن يسخط برضى المخلوقين[8].

---

1 - سلام الراسي: لئلا تضيع،

2 - محمد جميل بيهم: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، مطبعة الباي الحلب بمصر 1950، ص 52. إنظر: الشيخ علي الزين: للبحث عن تاريخنا في لبنان، ص 71 .

3 - ياسين سويد: جبل عامل في عهد الإمارتين المعنية والشهابية (1516 – 1842)، ضمن: صفحات من تاريخ جبل عامل، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت 1979. ص 52.

4 - إشارة إلى تعدد القلاع والحصون الجاهزة للدفاع والمقاومة في جبل عامل، وبالتالي تعدد الزعامات المتحدة تحت قيادة ناصيف النصار في ذلك الوقت، بعكس الوضع في إمارة الشوف من الناحية العسكرية والسياسية.

5 - Baron de Tott: Memoire sur les Turcs et les Tartares Amesterdam.1785.p122-123.

6 - الشيخ محمد جواد مغنية:مقالات،ابو ذر،ج2، ص 59.

7 - مغنية: م.ن. والسيوطي: الدر المنثورفي التفسير بالمأثور، ج2، ص 221.

8 - مغنية:مقالات،م.ن.ج2، ص 61. والحديث بطوله: الشيخ المفيد: الأمالي، ص 163.

حتى القرن الربع الهجري، لا توجد – إلى الآن – نصوص واضحة ترشدنا إلى معرفة كيفية التواصل عبر الخصوصية للثقافة العاملية، أما وفقا لمنهج البحث في الأنثروبولوجيا (الاجتماعية والثقافية) والأركيولوجيا تحديدا[1]، نجد على أرض جبل عامل أضرحة لأعلام محفوظة لقدسيتها ومكانتها يرجح أنها لتلامذة الأئمة عليهم السلام، ومنهم مثلا: خليد بن أوفى أبوالربيع العاملي الشامى[2]. من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليم السلام، وابراهيم بن أدهم (ت 172هـ) المنصوري (وهو اسم جده) وقبره معروف في بلدة المنصوري (التي سميت بسام جده) بالقرب من صور، أيضا من أصحاب الإمامين الباقر والصادق[3]. أبو غرة بن عبيد الأنصاري[4]، من أصحاب الأمامين الباقر والصادق، قبره في بلدة رأس العين، على تلة الرشيدية، على مقربة من مدفن ابراهيم بن أ إن وجود شاعر بمستوى عدي بن الرقاع العاملي(ت بين 99 و 101ه)[5]، « وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم»[6] . يقف أمام جرير الشاعر الأموي المعروف بسرعة بداهته ليناظره، أو ليحاوره في

1 - لمزيد من التفاصيل راجع: يوسف طباجة: محاضرات في علم الانسان أو الأنثروبولوجيا، الجامعة اللبنانية، كلية العلوم الاقتصادية وإدارة الأعمال، الفرع الخامس، العام الجامعي -2017 2018.

2 - الحر العاملي: أمل الآمل في علماء جبل عامل، ج1، ص82. وأعيان الشيعة، ج6، ص 280 و 348. وأثنى عليه الشهيد الأول في الكثير من مؤلفاته مثل:غاية المراد،ج 1، ص 271 . و ج 2، ص 38 و 39 و 45 و 48 . وذكرى الشيعة، ج 1، ص 212 . والدروس الشرعية،ج 1، ص 228 و 266 . ج 3، ص 202 و286 .) في موسوعة الشهيد الأول. كما ذكره كبار فقهاء وعلماء الشيعة كما بينه الحر العاملي والشهيد.

3 - عده الشيخ الطوسي: الأبوب (رجال الطوسي)، في عداد أصحاب الامام الباقر، رقم 1238/ 10، ص124، والامام الصادق، رقم 1753/ 57. ص 158. الأمين: أعيان الشيعة، ج2، ص182، و ج5، ص108. والسيد مير حبيب الله: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة،ج16، ص169. الأصبهاني(ت 430هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج8، ص8. و ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج1، ص175.

- راجع رواية حديثه عن الإمام الباقر (ع) في: ابن منده(ت395هـ): مسند ابراهيم بن أدهم، ص 19.

4 - الأمين:أعيان الشيعة، م7، ص62.

5 - جاء في لسان العرب لابن مظور، ج11، ص477. مادة عمل. " وَبَنُو عامِلة وَبَنُو عُمَيْلة: حَيَّان مِنَ الْعَرَبِ؛ قَالَ الأَزهري: عَامِلَة قَبِيلَةٌ إِليها يُنْسَب عَدِيُّ بْنُ الرِّقاع العامِليُّ، وعامِلة حيٌّ مِنَ الْيَمَنِ، وَهُوَ عَامِلَة بْنُ سَبإٍ، وَتَزْعُمُ نُسَّاب مُضَر أَنهم مِنْ وَلَدِ قَاسِطٍ؛ قَالَ الأَعشى:

أَعامِلَ حَتَّى مَتى تَذْهَبِين   إِلى غَيْرِ والدِكِ الأَكْرَم؟

ووالِدُكُم قاسِطٌ، فارْجِعوا   إِلى النَّسَبِ الأَتْلَد الأَقْدَم

- انظر أخباره في: الاغاني 9 / 307، ومعجم الشعراء للمرزباني ص 253 والمؤتلف والمختلف للامدي ص 116 والشعر والشعراء 2 / 618 وخزانة الادب 4 / 470 طبقات الشعراء لابن سلام ص 192 وسير أعلام النبلاء 5 / 110 وجمهرة ابن حزم ص 420

- وتجدر الإشارة أن ابن منظور في لسانه العربي، يستشهد بالكثير من أشعار عدي بن الرقاع العاملي مثلا: م6، ص 148. قصيدته في مدح عمر بن عبد العزيز [وهي طويلة (52 بيتا) كما في الديوان، ص 128] أورد منها:

جَمَعْتَ اللَّواتي يحمَد اللهُ عبدَه   عليهنَّ، فَلْيَهْنِئْ لَكَ الخيرُ واسْلَمِ

فأَوَّلُهنّ البِرُّ، والبِرُّ غالِبٌ،   وَمَا بكَ مِنْ غَيْبِ السَّرائر يُعْلَمِ

وَثَانِيَةٌ كَانَتْ مِنَ اللهِ نِعْمَةً   عَلَى المُسْلِمِين، إذ وَلِي خيرُ مُنْعِمِ

وَثَالِثَةٌ أَنْ لَيْسَ فِيكَ هَوَادَةٌ   لِمَنْ رامَ ظُلماً، أَو سَعَى سَعْيَ مجْرِمِ

ورابعةٌ أَنْ لا تَزالَ مَعَ التُّقَى   تَخُبُّ بِمَيْمُونٍ، مِنَ الأَمْرِ، مُبْرَمِ

وَخَامِسَةٌ فِي الحُكْمِ أَنَّك تُنصِفُ الضَّعِيف،   وَمَا مَنْ عَلَّمَ اللهُ كالعَمِي

وَسَادِسَةٌ أَنَّ الَّذِي هُوَ رَبُّنا اصْطَفَاك،   فَمَنْ يَتْبَعْك لا يَتَنَدَّمِ

وَسَابِعَةٌ أَنَّ المَكارِم كلَّها،   سبَقْتَ إليها كلَّ ساعٍ ومُلْجِمِ

وَثَامِنَةٌ فِي مَنْصِبِ النَّاس أَنَّه   سَمَا بكَ منهمْ مُعْظَمٌ فَوق مُعْظَمِ

وَتَاسِعَةٌ أن البَرِيَّة كُلّها   يَعُدُّون سَيباً مِنْ إمامٍ مُتَمِّمِ

وَعَاشِرَةٌ أَنَّ الحُلُومَ تَوَابِعٌ   لحِلْمِكَ، فِي فصْل مِنَ القول مُحْكَمِ

6 - كذا صرح: ابو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج9، ص 210. ولاحظ تعليقات محقق الديوان: ديوان عدي ابن الرقاع العاملي، تحقيق: نور القيسي وحاتم الضامن، المجمع العلمي العربي، بغداد 1987. ص 11.

قضيـة مـا، « ففـي شـعره طـراوة الحضـارة، وفي ألفاظـه رقـة التحضر وفي تعابـيره عبـق الصـور الزاهيـة وهـي طـرز ببصـمات الفـن الحضـاري وعلاقـات النـاس وهـي تـشرق بقسـماتها في أنـماط السـلوك الاجتماعـي»[1]. إنهـا لاشـك تـدل عـلى أن في جبـل عامـل كانـت الحيـاة الثقافيـة والفكريـة والحضاريـة عـلى شـيئ كبـير مـن المسـتوى مـن حيـث الحركـة التـي أنتجتـه، كـون الشـاعر يكـون ابـن بيئتـه، خصوصـاً إذا مـا عرفنـا أن لهـذا الشـاعر ابنـة اسـمها سـلمى كانـت شـاعرة عـلى نسـق أبيهـا[2]. لا بـل أخـوه يزيـد بـن الرقـاع العامـلي « كان شـاعر أهـل الشـام »[3].

ويصعـد مـن صـور (مهـد المِلاحـة) صـوت الشـيخ عبـد المحسـن الصـوري (ت 419هــ)[4] كبـير شـعراء العـرب[5]، وتكفـي الإشـارة إلى مـا نقلـه شـاعر بمسـتوى غيـث بـن عـلي الأرمنـازي الصـوري[6] عـن حـوار بـين شـاعر عظيـم صديـق لـه هـو « الأمـير أبي الفتيـان بـن حيـوس[7] الـذي كان مغـرىً و شـديد التفضيـل لـه[8].. لعظيـم قـدْره بشـعر الصـوري.. وأبـو العـلاء المعـري الـذي كان يعيبـه بقـصر النفـس.. فحدثـت أن أبـا الفتيـان بـن حيـوس لمـا حـضر عنـد أبي العـلاء المعـري أنشـده أبـو العـلاء أبياتـا لعبـد المحسـن الصـوري، فقـال: هـذه لقصـيرك فقـال لـه أبـو الفتيـان هـو أشـعر مـن طويلـك يعنـي المتنبـي، قـال: فمـد أبـو العـلاء يـده إليـه وقبـض عـلى ثوبـه وقـال الأمـراء لا يناظـرون »[9]. فهـو مـن عائلـة شـعراء، إنـه شـاعر، ابـن شـاعر، والـد شـاعر، وأخـو شـاعر[10]. وتـبرز أهميـة الصـوري ليـس عـلى المسـتوى الأدبي[11] فقـط، بـل كمصـدر مـن مصـادر التاريـخ للقرنـين الرابـع والخامـس الهجريـين (العـصر الفاطمـي)، وتـزداد أهميتـه كـون شـاعرنا مـن أهـل وسـكان مدينـة صـور (أهـم المـدن) عـلى السـاحل الشـامي، فهـو أكثـر احتـكاكا بمـن تـرددوا عـلى مـدن هـذا السـاحل، والالتقـاء بالشـخصيات المعـاصرة التـي كثـر عددهـا وتعدادهـا[12]، رغـم الفقـر الـذي كان يعانيـه حيـث يقـول:

---

1 - من مقدمة تحيق الديوان، ص 11.

2 - محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص249. . ابن عساكر: تاريخ دمشق،ج40، ص126. « .. بلغني أن جماعة من الشعراء أتوا إلى باب ابن الرقاع الشاعر فدقوه فخرجت إليهم بنية له صغيرة فقالت من القوم فقالوا نحن شعراء أتينا أباك لنهاجيه قالت لهم هو غائب قالوا لا ولكنه هرب منا فقالت:

تجمعتم من كل شرق ومغرب على واحد لا زلتم قرن واحد

- انظر ترجمة عدي بن الرقاع العاملي: ابو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج9، ص 210.

- وأفرد ابن عساكر ترجمة موجزة لابنة عدي، ج70ن ص 274. جاء فيها: « قرأت بخط علي بن سليمان الأخفش النحوي عن علي بن يحيى النديم قال: قال الأصمعي: اجتمع ناس من الشعراء فأتوا باب ابن الرقاع يطلبونه فخرجت بنية له فقالت: ماذا تريدون ؟ قالوا نريد أباك لنجزيه ونفضحه، فنظرت إليهم هنيهة ثم قالت: تجمعتم من كل أفق وبلدة على واحد لا زلتم قرن واحد

3 - ابن عساكر: تاريخ دمشق،ج65، ص198.

4 - الحر العاملي: أمل الآمل، ج1، ص 194. السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج8، ص 95.

5 - يوسف طباجة: " الشاعر عبد المحسن الصوري (ت 419هـ/1028م) " في الذكرى الألفية الأولى لرحيلة . مجلة النبراس، جمعية التوجيه والإرشاد الاسلامي، صيدا، عدد4،السنة الثانية، خريف 2008 .

6 - ابن عساكر(ت 571هـ): تاريخ دمشق، ج48، ص 124. الزركلي: الاعلام، ج5، ص 123. " خطيب صور "

7 - ابن عساكر(ت 571هـ): تاريخ دمشق، ج53، ص 110. الزركلي: الاعلام، ج6، ص 146. " شاعر الشام في عصره. يلقب بالإمارة، وكان أبوه من أمراء العرب". راجع مقدمة ديوان ابن حيوس لخليل مردم بك، ص 31.

8 - قال ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج4، ص 269. " كان أبو الفتيان بن حيُّوس مغرى بشعره، ويفضله على أبي تمام والبحتري والمتنبي..".

9 - ابن عساكر(ت 571هـ): تاريخ دمشق، ج36، ص 482.

10 - د.عمر تدمري: ديوان عبد المحسن الصوري دراسة نقدية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد 24-23، عمان 1984. ص 157.

11 - ديوان عبد المحسن الصوري (مجلدين): تحقيق: مكي جاسم وشاكر شكر، بغداد 1980.

12 - تدمري: ديوان عبد المحسن الصوري دراسة نقدية، حيث يضيف العديد من الأسماء والشخصيات على الأسماء الواردة في التحقيق.

عجبت من نفسي ومن أنها … كأنها تكبر بالقلة
تعتز بالفقر متى استشعرت … إن الغنى يؤخذ بالذلة[١]

ويصعد صوته يردد صدى الوجود الشيعي الإمامي الجهير في بلاد الشام، والمعبر عن المناخ والموقف الاجتماعي والثقافي السياسي والديني، والذي يرسم صورة المجتمع العاملي في تلك الحقبة، حيث يمدح الحاكم بأمر الله الفاطمي ووالده العزيز بالله، وفي الإمامة يقول:

آل النبي هم النبي وإنما … بالوحي فرق بينهم فتفرقوا
أبت الإمامة أن تليق بغيرهم … إن الرسالة بالأمانة أليق[٢]

ورأيه بالخلافة:

نفر من أمية نفر الإسلام … من بينهم نفور آباق
أنفقوا في النفاق ما غصبوه … فاستقام النفاق بالإنفاق
وهي دار الغرور قصر باللوم … فيها تطاول العشاق
وأراها لا تستقيم لذي الزهد … إذا المال مال بالأعناق
فلهذا أبناء أحمد أبناء … على طرائد الآفاق
فقراء الحجاز بعد الغنى الأكبر … أسرى الشام قتلى العراق
عرفت فضلكم ملائكة الله … فدانت وقومكم في شقاق
يستحقون حقكم زعموا ذلك … سحقا لهم من استحقاق
واستثاروا السيوف فيكم فقمنا … نستثير الأقلام في الأوراق[٣]

وقال في يوم الغدير:

ولاؤك خير ما تحت الضمير … وأنفس ما تمكن في الصدور
أبا حسن تبين غدر قوم … لعهد الله من عهد الغدير
وقد قام النبي بهم خطيبا … فدل المؤمنين على الأمير
أشار إليه فيه بكل معنى … بنوه على مخالفة المشير
فيا لك منه يوما جر قوما … إلى يوم عبوس قمطرير
لأمر سولته لهم نفوس … وغرتهم به دار الغرور[٤]

ومن قصيدة يمدح فيها آل البيت عليهم السلام يقول:

ورزايـــــا المـصـطـفـى في أهـلـه ... فـــاتحــــات لـــلــــرزايــــا وخــتـــم
يــا بني الــزهـــراء مـــاذا اكتسبت ... فـيـكـم الأيـــــام مــــن عــتــب وذم
أي عــهـــد يـــرتجــى الحــفــظ له ... بـعــد عـهـد الله فـيـكـم والـــذمـــم
لا تــسـلـيــت وأنـــــــوار لـكـم ... غشيتها مـــن بـنـي حـــرب ظلم
ركـبـــوا بـحــر ضـــلال سـلـمـوا ... فـيـه والاســـــلام فيهم مـــا سلم
ثـــم صـــــــارت ســنـــة جـاريـــة ... كـــل مـــن أمـكـنـه الـظـلـم ظلم
وعـــجـــيـــب أن حـــقـــا بـكـم ... قـــام في الــنـــاس وفـيـكـم لم يقم
والـــــــولا فـهـــو لمـــن كــــان على ... قـول عبد المحسن الـصـوري قسم
وأبــيـــكـــم والـــــــذي وصى به ... لأبـيـكـم جـدكـم في يــــوم خم
لـــقـــد احـــتــــج عــــلى أمـتــه ... بـــالـــذي نـالـكـم بـاقـي الأمـــم[°]

ويمـدح الأسـتاذ أبـا الجيـش بشـارة[1]، ولعلـه أبـو العائلـة البشـارية التـي حكمـت جبـل عامـل فيـما بعـد.. ففـي قصيـدة يقـول فيـه مدحـا عـلى طريقـة المتنبـي بسـيف الولـة الحمـداني، ثـم يمـدح رئيـس الرؤسـاء أبـا الحسـن عـمّار بـن محمـد[2] مـن وزراء الدولـة الفاطميـة بمـصر، وقـد تـولى ديـوان الإنشـاء في أيـام الحاكـم بأمـر الله، ويبـدو أنـه ينتمـي إلى أسرة بنـي عـمار التـي كانـت تحكـم طرابلـس.

إن ثـورة ذاك البحـار « علاّقـة »، أحـد الملاّحـة الصوريـين سـنة 387هــ – وكان قـد اسـتنصر بالـرُّوم، وكان قـد ضرب السـكة باسـمه وكتـب عـلى الدينـار الصـوري «عـزّ بعـد فاقـة، وشـطارة بلباقـة، للأمـير العلاقـة»[3] – وفشـلها في أعقـاب انتصـارات باهـرة حققهـا الأسـطول الفاطمـي[4]، وتأسـيس إمـارة بنـي عقيـل في صـور – بعـد إمـارة بنـي عـمّار في طرابلـس – حتـى عـام 482هــ، ثـم فشـل القائـد الفاطمـي (منـير الدولـة الجيـوشي 486-482ه) بالاسـتقلال في صـور[5]، يـدل عـلى مـدى الـتعاطف لأهـل صـور وبالتـالي لأهـل جبـل عامـل – باعتبـار أن صـور كانـت أهـم حـواضره – مـع الحاكـم متمسـكين بالحكـم الفاطمـي المركـزي[6]، الـذي كان يتجانـس إلى حـد مـا مـع المواقـف العامليـة « فثـار أهـالي صـور وأعلنـوا تمسـكهم بتشـيعهم »[7].

1 - ديوان الصوري: طبعة بغداد،ج1، ص170. وطبعة بيروت، ص 116.
2 - ديوان الصوري: طبعة بغداد،ج1، ص49. وطبعة بيروت، ص 29، وفيها تجد ترجمة له.
3 - النويري (ت 733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج28، ص174.
4 - د.ابراهيم بيضون: ثورة صور، ظاهرة التمزق السياسي في العهد الفاطمي، ضمن: صفحات من تاريخ جبل عامل، بيروت 1979، ص21.
5 - ابن الأثير (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج8، ص 370.
6 - ابن الأثير (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج8، ص 371.
7 - مكي: لبنان من الفتح العربي، م.م. ص103.

ويرفد الفقه الشيعي (الذي عبّر عن التمسك به الشاعر عبد المحسن الصوري) بلاد الشام في ذلك القرن، ليغذي المناخ الاجتماعي/ السياسي السائد، بالتثقيف الفقهي الأساسي، عبر رسائل الشريف المرتضى (ت436هـ) - تلميذ الشيخ المفيد - إلى طرابلس وحلب والرملة وصيدا وطبرية[1].

وتعرف مدن طرابلس وصيدا وصور زيارات « تبشيرية »[2]. من العراق يمثلها أبو الفتح الكراجكي[3] (توفي في صور 449هـ) تلميذ الشريف المرتضى وسفيره إلى هذه البلاد، والذي يطلق عليه الباحث والمؤرخ عمر تدمري صفة « الفيلسوف المصنف »[4]. في حين يصبح تلاميذ الشريف المرتضى في بلاد الشام دعاة محليين يؤمّنون العلاقات « الإمامية » بين المناطق الشامية، فيؤلف ابن البرّاج (ت 491هـ) قاضي طرابلس (التي كانت تقوم فيها إمارة بني عمار الشيعية، أسسوا فيها « دار العلم » ومكتبة كانت أكبر مكتبة في الدنيا »[5]، والتي ساعدت ذلك المناخ الانتعاش أكثر، خصوصا أنه كان يتأقلم مع السلطة المركزية الفاطمية، وهذا المناخ مسحوبا على الرأي العام في جبل عامل كما في بلاد الشام) مسائل فقهية لأهل جبل عامل، ويقدم علي بن زهرة الحلبي (ت585هـ) فتاوى لأهل هذه البلاد[6].

وفق منهج الأنثروبولوجيا الثقافية أيضا، تعتبر الأثنوغرافيا Ethnography إحدى أدواتها، والتي تهتم بالمعاينة الميدانية لخصائص المجموعات البشرية الصغيرة، الثقافية والاقتصادية والسياسية والدينية[7]...، وهذا ما أغنانا به شمس الدين المقدسي (ت378هـ) في كتابه الشهير « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الذي ترك لنا صورة رائعة عن مجتمع جبل عامل ومحيطه[8]، « وجبل عاملة ذو قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون وعيون، المطر يسقى زروعهم، يطلّ على البحر ويتّصل بجبل لبنان، كله قرى جليلة وزيتون وأعناب.... وأهل طبريّة ونصف نابلس وقدس وأكثر عمّان شيعة..»[9]. ويصف المقدسي العلاقات الاجتماعية من عادات وتقاليد الإقليم خصوصا مع المسيحيين واليهود ويتحدث عن عاشوراء[10]. وعن الجبال الفاضلة « الشريفة»[11] مثل جبل زيتا وصدّيقا [زيتا وصديقين

1 - راجع: مهدي رضائي: رسائل الشريف المرتضى، ج1، رسائل بلاد الشام، ص ص (135..165) و الرسائل الطرابلسية، ص ص (309 .. 449) وغيرها.

2 - على قاعدة الآية القرآنية (.. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) في سورة الإسراء / 105. وسورة الفرقان / 56. و الفتح / 8.

3 - الذهبي (ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر تدمري،ج30، ص 236. الأمين: أعيان الشيعة، ج9، ص 401.

4 - د.عمر تدمري: الحركة العلمية والثقافية في ساحل بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري، ص 1.

5 - د.عمر تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، ص39. د.مصطفى جواد: دار العلم بطرابلس، مجلة العرفان،م33، ص149.

6 - راجع أطروحتنا للدكتوراه، في الجامعة اللبنانية 1993. ص74.

7 - يوسف طباجة: محاضرات في علم الانسان أو الأنثروبولوجيا، م.س . ص 26. الاثنوغرافيا: كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدب والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة

8 - شمس الدين المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت.د.ت. ص 151. وللتفاصيل راجع أطروحتنا للدكتوراه، ص 75.

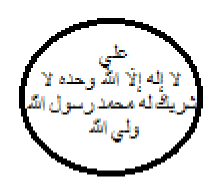
9 - المقدسي: م.ن، ص179.

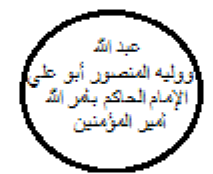
10 - المقدسي: م.ن، ص183.

11 - المقدسي: م.ن، ص188.“ واما الجبال الشريفة فجبل زيتا يطلّ على بيت المقدس وقد ذكرناه، وجبل صدّيقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا ثمّ قبر صدّيقا عنده مسجد له موسم يوم النصف من شعبان يجتمع اليه خلق كثير من هذه المدن ويحضره خليفة السلطان واتّفق وقت كوني بهذه الناحية يوم الجمعة في النصف من شعبان فأتاني القاضي ابو القاسم بن العبّاس حتّى خطبت بهم فبعثتهم في الخطبة على عمارة ذلك المسجد ففعلوا وبنوا به منبرا وسمعتهم يزعمون ان الكلب يعدو خلف الوحش فإذا بلغ ذلك الحدّ وقف وما يشبه هذه من الحكايات..“.

قـرى في جبـل عامـل[1]] ولبنـان والأرض المقدسـة المطلّـة عـلى السـاحل..[2].

تجـدر الاشـارة إلى أنـه في صـور كان أكـبر مـضرب للعملـة الذهبيـة التـي عرفـت بــ « الدينار الصــوري»،. وهــي عملــة معتمــدة ومتداولــة في مــصر وبــلاد الشــام حتــى القــرن الســادس والسـابع الهجـري في العهـد المملوكـي[3]. وأول مـن بـادر بهـا « العلّاقـة « ذلـك البحـار الثائـر كـما مـرّ معنـا أعـلاه. أمـا أول ظهـور للدينـار الصـوري الـذي ضرب باسـم الخلافـة الفاطميـة- أيـام الحاكـم بأمـر الله (ت 411ه/ 1021م)- فـكان في العـام 401ه، كـما تظهـره مجموعـة النقـود في المتحـف الإسـلامي بالقاهـرة، ونقـش عليـه مـن جهـة ثلاثـة عبـارات بالتـدرج هـي: الشـهادة بالوحدانيـة لله تعـالى ومحمـد رسـول الله، يحيـط بهـا الولايـة للإمـام عـلي، والوجـه الثـاني اسـم وكنيـة ولقـب الحاكـم بأمـر الله الفاطمـي، ويحيـط بهـا دائريـا عبـارة: بسـم الله ضرب هـذا الدينـار بصـور سـنة إحـدى وأربعمايـة[4]. كـما يظهـره الشـكل التـالي:





بعـد المقـدسي يمـر في البـلاد رحالـة مشـهور هـو نـاصر خـاسرو (ت 481هــ) فيعجـب بالبـلاد ووفـرة خيراتهـا وجمالهـا وترتيبهـا، متحدثـا عـن إمـارة بنـي عقيـل في صـور المتكاملـة مـع إمـارة بنـي عـمار في طرابلـس[5].

المقاومة العاملية للصليبيين

...مـع بدايـة الحمـلات الصليبيـة عـلى الـشرق في أواخـر القـرن الخامـس الهجـري / أواخـر القـرن الحـادي عـشر الميـلادي، سـقطت بيدهـا القـدس عـام 493هــ/ 1099م، وبعـد صمـود وحصـار وتقتيـل بـدأت المـدن السـاحلية تسـقط الواحـدة تلـو الأخرى...فأحكـم الحصار عـلى طرابلـس (حكامهـا الشـيعة بنـو عـمار) التـي بقيـت مسـتعصية عليهـم حتـى يـوم عيـد الأضحـى 502هــ/ 1109م... وبـيروت وصيـدا سـنة 1110م[6]، التـي قتـل فيهـا كبـير فقهـاء الشـيعة « ابـن أبي روح»[7] بعـد ارتحالـه إليهـا مـن طرابلـس بعـد سـقوطها...وبعد سـقوط صيـدا

1 - الشيخ سليمان ظاهر: معجم قرى جبل عامل، مجلة العرفان، م24، ص10.
2 - المقدسي: م.ن، ص187. لمزيد من التفاصيل راجع أطروحتنا للدكتوراة، ص 77.
3 - انظر: ابن الأثير (ت 630هـ):الكامل في التاريخ، ج9، ص 436. النويري (ت 733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30، ص292. اليونيني (ت 726 هـ):ذيل مرآة الزمان،ج2، ص344. ابن خلدون (ت808هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، [تاريخ ابن خلدون]، ج5، ص300. وغيره
4 - د.عمر تدمري: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، ج2، ص 162. حيث تجد تفصيلا عن عدة حقبات لمسكوكات الدنانير الصورية والطرابلسية وغيرها ...
5 - ناصر خسرو (ت 481هـ): سفر نامه، ص 48. وللتفاصيل راجع أطروحتنا للدكتوراه، ص 78.
6 - راجع: د.محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص113.
7 - عن أهمية الرجل راجع: الذهبي (ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر تدمري،ج35، ص 447.(لاحظ المصادر والمراجع)

تكون كافة المدن الساحلية تحت قبضة الصليبيين؛ ما عدا صور التي اتخذها الفاطميون مركزاً لإسطولهم البحري، يغيرون به على المراكز الصليبية المختلفة، بعد أن بقيت منطقة جبل عامل بعد سنة 1110م الوحيدة التي تربط دمشق بميناء بحري هو صور، فامتناع صور واستبسال أهلها وطلبت النجدة « ..وأتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة، رغبوا في ذلك مع رجالة من دمشق، وصلوا إليهم وحصلوا عندهم وشرع أتابك في إنفاذه عدة أخرى..»[1].

1 - صور العصية على الدهر

وبقي « ثغر صور»[2] على حال من القتال والممانعة والحصار والمهادنة أمام الصليبيين ما يزيد على الربع قرن من الزمن، « وتمادت الأيام بذلك إلى أن ضعفت النفوس وأشرف أهلها على الهلاك»[3]، وسقطت في نهايته بتاريخ 23 جمادي الأولى 518هـ/ تموز 1124م[4]... وعلى ما يبدو أن الهجرة السكانية تكثفت نحو داخل جبل عامل والشام... ولم يبق منهم إلا ضعيف لا يطيق الخروج[5]...

2- جزين الحاضنة وحاضرة جبل عامل

لم يكن الأثر الفقهي والديني الشيعي في المنطقة دون رجال حفظوه، لكن التاريخ غيّب الكثير من الأسماء، خصوصا ما قبل القرن السادس الهجري[6]، وممن حفظهم التاريخ في مرحلة ما قبل التأسيس للزعامة السياسية على يد الأمير بشارة، فقيه يخرج من جزين ميمما وجهه شطر الحلة في العراق، هو الشيخ شهاب الدين اسماعيل بن الشيخ شرف الدين أبي عبد الله الحسين العودي العاملي الجزيني (ت 580هـ/ 1184م)[7]، ليأخذ عن فقهائها ويعود إلى جزين التي ستغدو عاصمة جبل عامل وحاضرته الدينية وحاضنته الثقافية، إن لم نقل الملجأ[8] الذي بقي عصيا عن دنس الصليبيين ووحشيتهم، رغم أنهم حاولوا في العام 614هـ/ 1217م، بعد انكسارهم في معركة الطور، كما ورد في الرواية التالية.

«وصل الفرنج جزّين، ضيعة قريبة من مشغرى، ولما عادوا من الطور، فقصد ابن أخت الهنكر صيدا، وقال: لا بدّ لي من أهل هذا الجبل. فنهاه صاحب صيدا، وقال:

---

1 - ابن القلانسي (المتوفى: 555هـ): تاريخ دمشق لابن القلانسي، تحقيق: د سهيل زكار، ص 284. ابن تغري بردي (ت 874هـ):النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ص 180.

2 - ابن القلانسي: المصدر السابق نفسه، ص 336.

3 - ابن القلانسي: المصدر السابق نفسه، ص 337.

4 - ابن القلانسي: م.ن. و ابن الأثير (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج10، ص 620. ولاحظ: ابن جبير: الرحلة، ص 252. حديث « أحد أشياخ أهل صور ” عن حصار المدينة وسقوطها.

5 - ابن القلانسي: م.ن.

6 - لم يرد في كتاب الحر العاملي: أمل الآمل أسماء قبل القرن السادس إلا القليل وبشكل عابر...

7 - الحر العاملي: أمل الآمل، ج1، ص41. والسيد محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج3، ص319.

8 - السيد محسن الأمين:خطط جبل عامل، ص78.

هـؤلاء رمـاة، وبلدهـم وعـر. فلـم يقبـل [قولـه]، وصعـد في خمـس مائـة مـن أبطـال الفرنـج إلى جزيـن ضيعـة الميادنـة [الميإذنـة][1](بالقـرب مـن مشـفرا [مشـغرة])[2]، فأخلاهـا أهلهـا.

وجـاء الفرنـج، ونزلـوا بهـا، وترجلـوا عـن خيولهـم ليسـتريحوا. فتحـدرت عليهـم الميادنـة [الميإذنـة] مـن الجبـال، فأخـذوا خيولهـم، وقتلـوا عامتهـم. وأسروا ابـن أخـت الهنكـر. وهـرب مـن بقـي منهـم نحـو صيـدا. وكان معهـم رجـل يقـال لـه الجامـوس مـن المسـلمين قـد أسروه، فقـال لهـم: أنـا أعـرف إلى صيـدا طريقـا سـهلا أوصلكـم إليهـا، قالـوا: إن فعلـت أغنينـاك، فسـلك بهـم أوديـة وعـرة، والمسـلمون خلفهـم يقتلـون ويـأسرون، ففهمـوا أن الجامـوس غرّهـم، فقتلـوه. ولم يفلـت منهـم إلى صيـدا سـوى ثلاثـة أنفـس، بعـد أن كانـوا خمـس مائـة. وجـاؤوا إلى دمشـق بالأسـارى، وكان يومـا عظيـماً[3].

ويبـدو أن إصرار ابـن الهنكـر عـلى مهاجمـة جبـل جزيـن هـو لِموقـفٍ مـا أغضبـه، وأن نهـي صاحـب صيـدا عـلى أن أهـل جزيـن رمـاة، يعنـي أنهـم مجرَّبـون، واقـتران اسـم جزيـن بمشـغرة دلالـة عـلى التوأمـة بـين البلدتـين[4]، وأن مـا أوقعـوه مـن قتـل ومطـاردة العـدو عـلى مسـافة الطريـق إلى صيـدا، ثـم سـوق مـن وقـع أسـيرا – ولا شـك أن ابـن أخـت الهنكـر بينهـم – إلى دمشـق، دلالـة عـلى تواصـل حـكام جزيـن مـع السـلطة المركزيـة في دمشـق التـي كان فيهـا المعظـم عيسـى ابـن العـادل. وهـذا مـا يبعـد الشـك في أن إشـكالية الأمـير بشـارة كانـت شـخصية، ولعل حـوار الملـك العـادل مـع ابنـه المعظـم أثنـاء توجـه الهنكـر إليهـم وهروبهـم أمامـه[5]، واسـتباحة الأخـير بـلاد المسـلمين، دليـل عـلى جبـن العـادل كـما تقـدم مـن نعتـه الذهبـي وغـيره[6].

3 –الشقيف وأهله البواسل

وبقـي (حصـن الشـقيف) في يـد الملـك الصالـح إلى أن أعطـاه فيما أعطـى من الحصـون للفرنج في الهُدنـة التـي كانت سـبباً لإبقاء دمشـق في يده في أول سـنة ثـمان وثلاثين وسـتمائة(638هـ).

والحـدث الجلـل؛ الـذي يظهـر شـهامة العامليـن ومقاومتهـم للصليبيـين لـمّا أمـر نائبـه في القلعة الحـاج موسـى بتسـليم الحصـن للفرنـج أبـى وامتنـع وأقسـم: « **والله، لا جعلتـه في صحيفتي** »[7].

فسـار إليـه الملـك الصالـح وضربـه [كـي يقنعـه ويوافـق لكنـه لم يفعـل] حتـى قتلـه، واسـتأصل

1 - الميإذنة: نسبة للمآذن التي كانت كثيرة في جزين أو لأنهم من مشيدي المآذن.

2 - وأبو شامة (ت 665هـ):: الذيل على الروضتين، ص 103.

3 - سبط ابن الجوزي(ت 654هـ): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج22، ص219. وأبو شامة (ت 665هـ):: الذيل على الروضتين، ص 103. النويري (ت 733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29، ص80. الذهبي (ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق:عمر تدمري، ج44، ص 18. لاحظ رواية اسطفان الدويهي (ت 1704م):تاريخ الأزمنة، ص 206. نقلا عن ابن الحريري.

4 - بولياك: الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ص 45. حيث يشير إلى بنو صبح الشيعة مقدمي مشغرة.

5 - تأخَّر العادلُ وتَقَهْقَر،فَقَالَ لَهُ المُعَظَّم: إلى أَيْنَ؟ فَشَتَمه بالعَجَميَّة، وَقَالَ: بمن أُقاتل؟ أقطعْتَ الشَّام مماليكَكَ وتركتَ أولاد النَّاس. هل هي إشارة للأمير بشارة ؟؟

6 - الذهبي (ت 748هـ): تاريخ الإسلام، ج44، ص 17.

7 - الصحيفة: الكتاب، والكتاب: ما أثبت على بني آدم من أعمالهم، يحاسبون عليها يوم القيامة أو يوم الحساب. ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص699. مادة كتب. وج10، ص 123. مادة: رق. والرق: الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة....

مالـه، ويبـدو أن ذلـك تـم خـارج القلعـة]. وكان [الحـاج موسـى] أولاً مشـارف مطبـخ الملـك الصالـح، فقـرب منـه وكان واليّـا للشـقيف مـن قبلـه، وكان معـه- الحـاج موسـى - معتمـد[1] يقال لـه « الشـهاب أحمـد الشـقيفي».

ولـمَّـا علـم مـن بالحصـن أن الملـك الصالـح قـد عـزم عـلى تسـليمه للداويـة، اجمعـوا رأيهـم - يبـدو بقيـادة نائبـه أحمـد الشـقيفي - عـلى عـدم تسـليمه للفرنـج، وعصـوا بـه عازمـين عـلى المقاومـة وعـدم التسـليم. وكاتبـوا الملـك النـاصر داود ابـن الملـك المعظـم صاحـب «الكـركً، فسـيَّر عليهـم مـن بعـض أصحابـه رجـلا يقـال لـه فخـر الديـن العيـداني يصعـد إلى القلعـة، ونـادوا بشـعار الملـك النـاصر صاحـب « الكـرك».

فلـمّا تحقـق الملـك الصالـح إسـماعيل ابـن الملـك العـادل، صـاح بدمشـق إذ ذاك حميتهـم للمسـلمين، وانتصارهـم للدّيـن خـرج بعسـاكره، ونـازل الحصـن وضايقهـم حتـى أخـذه. وطلبـوا الأمـان منـه، وقالـوا: « أنـت أمَرْتنـا أن نُسـلمه إلى نُـوَّابِ الداويّـة[2]، ونحـن **فـما يحـل لنـا أن نسـلمه للفرنـج**[3]، ونحـنُ نسـلمه إليـك، وأنـت تفعـل فيـه مـا تختـار»، فتسـلمه الدَّاويـةّ[4].

أمـا المقريـزي فـأردف قائـلا: «خَـانَ الصَّالـح عـماد الدّيـن إبـن الْملـك الصَّالـح نجـم الدّيـن، فكاتـب الفرنـج وَاتفـقَ مَعَهـم عـلى معاضدتـه ومسـاعدته ومحاربـة صَاحـب مـصر، وَأَعْطَاهُـمْ قلعـة صفـد وبلادهـا وقلعـة الشـقيف وبلادهمـا ومناصفـة صيـدا وطبريـة وأعمالهـا وجبـل عاملـة وَسَـائِر بِـلَاد السَّـاحِل»[5].

وهكـذا خـرج الشرفـاء مـن قلعـة الشـقيف تحـت الوعـد والوعيـد بعـد قتـل زعيمهـم وامتناعهـم عـن تسـليم القلعـة إيمانـا واحتسـابا في الحـل والحـرام، ولا شـك أنهـم واصلـوا مقاومتهـم للفرنـج وعملائهـم، تمامـا كـما حصـل في صـور وتبنـين وهونـين...

تـبرز وقائـع المقاومـة العامليـة زمـن الصليبيـين المتأتيـة مـن ثقافـة عامليـة لا شـك أنهـا تحاكـي صـدى الحركـة الثقافيـة والمقاومـة التـي شـهدتها طرابلـس عاصمـة إمـارة بنـي عـمّار[6]... ومشـاركة العامليـين مـع صـلاح الديـن الأيـوبي بفتـح عـكا و بيـت المقـدس[7]...

---

1 - معتمد: مفوّض بالعمل نيابة عن شخص طبيعي أو معنوي، وتعني بالانجليزية: Accredited

2 - طائفه عسكريه دينية صليبية عرفت بإسم فرسان المعبد أو الهيكل للنبي سليمان (ع).

3 - لاحظ الحلال والحرام والإيمان وحفظ العهود وممانعة المحتل الظالم.

4 - ابن شداد (ت 684هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ص 81. وأطروحتنا للدكتوراة، ص 87.

5 - المقريزي (ت 845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، طبعة دار الكتب بالقاهرة 1970، ص 303، وفي طبعة دار الكتب العلمية في بيروت 1997، حرّفت كلمة خان إلى خاف. فاقتضى التنويه.

6 - عن مقاومة طرابلس راجع: ابن القلانسي(ت555هـ): تاريخ دمشق، ص262. وعن الحركة الثقافية: د.عمر تدمري، الحركة العلمية والثقافية في ساحل بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري (طرابلس - صيدا - صور)، الجامعة اللبنانية، طرابلس. و د.عمر تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى، دار فلسطين، بيروت 1972.

7 - د.حسين مؤنس: أطلس تاريخ الاسلام، ص 269. الأمين: خطط جبل عامل، ص 132. و يوسف طباجة: تاريخ جبل عامل بين الضياع والجمع والتشييد، مشاركة في المؤتمر الدولي حول التجديد في صناعة التاريخ وكتابته، العراق 2018، ص 20.

تجدر الإشارة هنا إلى ظهور شخصية حسام الدين بشارة كزعيم سياسي وشخصية ممانعة ومقاومة إلى جانب القيادة الدينية التي برزت على الساحة لتؤسس للخصوصية العاملية[1]... استمرت أسرة بنو بشارة – رغم التنكيل فيها ومحاربتها – في الحكم وأصبحت « من أشهر الزعماء (اللبنانيين) في مطلع عصر المماليك[2]، وتدريجا تمكن ابن بشارة من أن يصل إلى رتبة « مقدم العشير » في البلاد الشامية[3]. وظلت سلالتهم في الحكم حتى الفتح العثماني[4].

يجود المجتمع العاملي بالرجال فيدرج السيد محسن الأمين في خططه العديد من الأسماء والشخصيات التي كنيت « بالعاملي »[5]، وعلى منواله آخرين[6]. نستطيع الإضاءة على بعض العلماء العامليين الذين شكلوا النواة الأولى للحركة العلمية العاملية الثقافية، والتي يمكننا تسميتها بالمدرسة الفقهية العاملية، التي أرسى قواعدها الشهيد الأول[7]. ومن هؤلاء: الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي العاملي، وينسبه الشهيد إلى مشغرة (ت ح 664هـ/ 1263م) [8]، توأمة جزين في أعالي الجبل العاملي. والشيخ طومان بن أحمد المناري العاملي(ت728هـ/ 1327م)، نسبة لقرية المنارة على تلة عالية في جبل عامل قبالة قلعة الشقيف، ضمها الصهاينة في العام 1948 إلى كيانهم ضمن الشريط العاملي من سهل الحوله إلى مصب نهر الزيب[9]. والشيخ صالح بن مشرف الطلوسي العاملي الجبعي (ح: أوائل القرن الثامن الهجري)، والذي ترك طلوسة التي تقع ضمن بلاد بشارة، والتجأ إلى اللويزه ثم إلى جبع بالقرب من جزين، وهو الجد الأعلى للشهيد الثاني. الشيخ جمال الدين مكي بن محمد بن حامد الجزيني(ح: 728ه/ 1327م) والد الشيد الأول وتلميذ المناري[10]. والشيخ ابراهيم بن ابي الغيث ابن الحسام العاملي(ح

1 - يوسف طباجة: تاريخ جبل عامل، م.ن. ص 24. تحت عنوان: خيط بانياس أو بلاد بشارة.
2 - بولياك: الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ص 45.
3 - علي الزين: للبحث عن تاريخنا في لبنان، ص 702. ومحمد كرد علي: خطط الشام، م2، ص 189.
4 - يوسف طباجة: جبل عامل القيادة والسلطة، أطروحة دكتوراة في الجامعة اللبنانية، 1993. ص 170.بعنوان: نموذج الزعامة السياسية بنو بشارة في جبل عامل. ومجلة العرفان، المجلد 80، ج5، ص 116.
5 - السيد محسن الأمين: خطط جبل عامل، ص ص 52 ..60.
6 - ياقوت الحموي (ت 626هـ): معجم البلدان، ج3، ص 402 (صرفندة). الشيخ سليمان ظاهر: معجم قرى جبل عامل (مجلدين). الشيخ ابراهيم سليمان: بلدان جبل عامل (مجلدين). علي داود جابر: معجم أعلام جبل عامل (أربعة مجلدات).
7 - يوسف طباجة: الشهيد الأول ومشروع القيادة الدينية/ سياسية في جبل عامل، مجلة العرفان، المجلد 80(أربع حلقات). و يوسف طباجة: الشهيد الأول الفقيه القائد، ضمن كتاب: مجموعة مقالات المؤتمر العالمي للشهيدين، قم 1430هـ/2009م، ص85. و يوسف طباجة: تحقيق مخطوط: مختصر نسيم السحر في حياة الشهيد الأول، مجلة المنهاج، الجزء الأول في العدد 51، والجزء الثاني في العدد 52. وضمن موسوعة الشهيد الأول المجلد صفر. وضمن كتاب: الشيخ رضا مختاري: الشهيد الأول حياته وآثاره، مؤسس تراث الشيعة، ص597.
8 - الشيخ جعقر المهاجر: جبل عامل بين الشهيدين، ص68. وفي: الشيخ رضا مختاري: الشهيد الأول حياته وآثاره، مؤسسة تراث الشيعة، ص185.
9 - راجع أعلاه عن حدود جبل عامل. ويوسف طباجة: حدود لبنان اجنوبية بين اتفاقيتي سايكس بيكو وحسن الجوار. مجلس النواب اللبناني، بيروت 2000. ص70. و يوسف طباجة: الشهيد الأول ومشروع القيادة، العرفان م80، عدد 3 و4، ص98.
10 - الشيخ رضا مختاري: الشهيد الأول حياته وآثاره، مؤسسة تراث الشيعة، ص38.

737ه/ 1335م)[1]، الشهيد الأول (استشهد 786ه/ 1384م)[2]، العلامة الكركي (استشهد 940ه)[3]، الشهيد الثاني (استشهد 965هـ/ 1557م)[4]...

الأمراء المعنيون و ممانعة جبل عامل

أمسى نظام الالتزام أحد المفاسد الذي ساعد على انهيار الدولة العثمانية، إذ لم يعد للولاة العثمانيين سوى جمع المال لخزانة السلطان / الدولة، والعلاوات والإكراميات والهدايا لجيوبهم، بعد أن يلزِّم الاقطاعات لمن يدفع أكثر بالمزاد، فيفوضوا إليه البلاد يتحكم ويتصرف فيها كما يشاء ويريد[5]. غير أن العامليين لم يكونوا يوما خاضعين لمن يلتزم بلادهم أو يريد أن يحكمها بالقوة، فكانوا يقاومونه ويثورون عليه حتى يعيدوا حقهم ويحكموا أمرهم[6].

أول من تقدم لإلتزام جبل عامل (تابع لولاية صفد) من والي دمشق مصطفى باشا هو الأمير فخر الدين الثاني الذي حاول جمع الضريبة من أهاليه – عندما تولى صفد وسكن صيدا – عن ثلاث سنوات مرّة واحدة، بينما التزامه محدد بسنة واحدة[7]. فكان صدامه الأول (عام 1009هـ/ 1600م)على أبواب صيدا مع العامليين الذين كسروه[8].

أخذ فخر الدين بتقديم الهدايا ويغدق الأموال على الوزراء والولاة، فتمكن من توسيع حكمه يساعده الدول الغربية مع الكرسي الرسولي وتمده بالسلاح والمال والسفن الحربية، ثم الخبراء والقادة العسكريين[9].

... وبعد استيلائه على قلعة الشقيف خدعة وحصنها و جعلها مخبأ لخزينته[10]... غضب باشا دمشق عليه وسار لمحاربته، وانظم إليه الأمير يونس الحرفوش، وانهزم فخر الدين عند جسر الخردلة وأحس بالضعف والخطر[11].

في ظل هذه الأجواء التي لم تنطلِ على العامليين فتحركوا وعقدوا اجتماعا (1022هـ/ 1613م)

---

1 - يوسف طباجة: دراسة وتحقيق (مخطوطة): مناظرة بين فقيهين: ابن الحسام العاملي ومهنا بن سنان المدني(من أعلام القرن السابع والثامن الهجريين/ الرابع عشر الميلادي).مجلة (كتاب الشيعة)، العدد الأول، قم1431هـ/2010م.ص ص(335..377). يوسف طباجة: جبل عامل/ الحراك الثقافي، الإجتماعي والسياسي(الشيخ ابراهيم بن الحسام العاملي أنموذجا) القسم الأول- مجلة المنهاج، العدد 64،ص ص (117..149)، بيروت 2012. القسم الثاني – العدد 65،ص ص(130..171) بيروت 2012.

2 - يوسف طباجة: الشهيد الأول الفقيه القائد، ضمن كتاب: مجموعة مقالات المؤتمر العالمي للشهيدين، قم 1430هـ/2009م، ص85. و يوسف طباجة: تحقيق مخطوط: مختصر نسيم السحر في حياة الشهيد الأول، مجلة المنهاج، الجزء الأول في العدد 51.

3 - يوسف طباجة: جبل عامل القيادة والسلطة، أطروحة دكتوراه في الجامعة اللبنانية 1993. ص180.

4 - يوسف طباجة: الشهيد الثاني، مسيرة نهوض ووحدة، مجلة المنهاج، العدد 62 (عدد خاص: الشهيدان)، بيروت صيف 2011م. ص.ص(9..46). ويوسف طباجة: الشهيد الثاني، مسيرة نهوض ووحدة، المؤتمر الدولي في فكر الشهيدين، بيروت 2011. ص.ص(135..167).

5 - الغي هذا النظام بخط التنظيمات الخيرية 1856م. محمد عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص 28.

6 - آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص110 و 111.

7 - سعدون حمادة: الثورة الشيعية في لبنان، دار النهار، بيروت 2012، هامش ص 232.

8 - الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص 455.

9 - الزين للبحث عن تاريخنا، ص 228. نقلاعن: قرألي: تاريخ فخر الدين...و الدويعي: تاريخ الأزمنة.

10 - بولس قرألي: تاريخ فخر الدين، ص 84.

11 - ألوف: تاريخ بعلبك، ص 67. والصفدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين، ص

غايته الانقلاب على فخر الدين، لكن تسرع واستعجال آل منكر في قرية الكوثرية[1]، أضاع عليهم نتائج خططهم ومحاولاتهم، ونبه الأمير فخر الدين للقضاء على حركتهم في مهدها قبل أن تصل إليه ضربة الحكومة العثمانية، وقبل أن يغادر البلاد من صيدا (غرة شعبان 1022هـ/ منتصف أيلول 1613م) متخفيا إلى إيطاليا[2].

أثناء غياب فخر الدين تسلم أخوه الأمير يونس بلاد عاملة، متخذا من صور مقرا له، ومساعده حسين اليازجي كان يقيم في قلعة تبنين، « وكانا يقودان الشعب بأجمعه وقت الحاجة، ويوجهانه حيث أرادا». ومنها أن العامليين حاربوا مع المعنيين ضد آل سيفا في وقعة الناعمة سنة 1616م، وذلك خضوعا وتنفيذا لنظام « الالتزام» التي كانت سائدة[3]. وبلغ الفساد والظلم أنَّ اليازجي أرسل رجاله « لينهبوا من بلاد صيدا قرايا وينهبوا... في الحولة، فيبيعوا نصف المكسب ويتقاسموا النصف الآخر»[4].

المقاومة الشكرية في عيناثا (1023هـ/ 1615م)

...ثم أرسل ثلاثماية من الرجال من قلعة بانياس، ومايتين من قلعة الشقيف للسلب والنهب واستباحة قرية عيناثا قاعدة السادة الشكريين في بلاد بشارة، وما أن وصلوا إلى القرية حتى تداعت عليهم القرى المجاورة ووقع القتال، وقتل قائد المهاجمين « علي قول أوغلي سردار السكمانية» وانكسروا منسحبين، « فتبعهم أولاد شكر وجماعتهم إلى قرية عين الدقيقة من الحولة» موقعين فيهم القتلى والجرحى[5].

يبدو أن حال من الوفاق كان بين الأمراء المعنيين و الأمراء الحرافشة، وكانت الحاكمية لمن يدفع أكثر... إلى أن تمت مبادرة من الأمير

حركة جبل عامل والأمراء الحرافشة

أثناء غياب فخر الدين في أوروبا لم تغب عيونه ومشروعه السياسي[6]، وتوضح النصوص التاريخية أن العامليين قد أثقلتهم جبايات المعنيين وضاقوا ذرعا بسياساتهم. فسارعوا كلما سنحت لهم فرصة ضد المعنيين؛ منها لمّا أيدوا حسين اليازجي يوم تولى سنجقية صفد[7]. وهم الذين نجَّذتهم تجربتهم التاريخية فنهضوا بحركة تسوغ لهم جمع جبل عامل والبقاع تحت ظل إمارة الحرافشة[8]، كونهم يحملون أعلى وأقدم رتبة إقطاعية /

1 - الصفدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعنب الثاني، ص 16.
2 - الصفدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص 19.
3 - راجع الأسباب نوردها في هامش ص 233 من أطروحتنا للدكتوراه.
4 - الصفدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص 40.
5 - المصدر نفسه. ولاحظ تعليق الشيخ علي الزين: للبحث عن تاريخنا في لبنان، ص 259 و 260. وتساؤله عن هذا الحشد والعدد المهاجم؟!
6 - يمكن أن نستشف ذلك المشروع من حركته السياسية ووقائعها وعلى وجه الخصوص ما كتبه بولس قرألي في تاريخ فخر الدين والوثائق التي استعان بها، وما كان خلفه من دول وسياسات أوروبية.
7 - الصفدي: م.ن. ص 60 و 71و70 . و الدويهي: م.ن. ص 310.
8 - الصفدي:م.ن. ص 66. والشيخ علي الزين: للبخث عن تاريخنا، ص 261 و 262. ومحمد جاب آل صفا: م.ن. ص 112. اعتمادا على: ألوف: تاريخ بعلبك، ص 66. والشدياق: أخبار الأعيان، ص395

إدارية، وأهم مؤسسة (وكلاء تحصيل ضرائب) مالية في النظام الإداري للسلطنة العثمانية.

قوام هذه الحركة أو التحرك أن بادر الأمير يونس الحرفوشي على مصاهرة الأمير فخر الدين المعني بعقد قران ابنه أحمد على إبنة الأمير « فاخرة» عام (1027هـ/ 1617م)، ثم شرع ببناء قصر في مشغرة ليكون عقدة الوصل بين جبل عامل والبقاع (سلة غذاء روما)، وهما منطقتان يضمان أهم الأراضي الزراعية والثروة الحيوانية، فوق الموارد البشرية التي شكلت الخوف للدولة العثمانية من اتصال هؤلاء الشيعة بالصفويين[1]. الأمر الذي استنفر الأمير علي المعني وعارضه بشدة، نظرا للخطر الذي يحدثه على حساب مستقبل الإمارة المعنية. فاستعان الأمير علي المعني بالسيد نور الدين من جبع لوقف البناء بمشغرة... «ومع هذا كله ما انقطعت حكايتهم ومراسلاتهم إلى مشايخ بني متوالي وهم لم يمتنعوا من التردد إليه»[2].

أول ما تصدى له الأمير فخر الدين بعد عودته وهو على أرض عكا هو القضاء على تلك الحركة أو التحرك العاملي الحرفوشي، وأمر باعتقال الحاج ناصر الدين ابن منكر، في حين التجأ باقي مشايخ جبل عامل إلى الأمير موسى الحرفوش في بعلبك... فأرسل الأمير فخر الدين من يهدم بيوت « أولاد شكر في عيناثا، والحاج علي ابن أبي شامة في بنت جبيل وفرحات وابن داغر في قرية أنصار والحاج ناصر الدين ابن منكر في قرية الزرارية وولده في قرية حومين الفوقا، وضبط جميع غلاتهم»[3]...

اضطراب أحوال العلماء والحالة السياسية في جبل عامل

...بعد ذلك لم تقتصر الحالة على ما ذكرنا أعلاه[4]، بل امتدت لا بل تمادى الأمير فخر الدين إلى محاولة القضاء وإلغاء إمارة الحرافشة باعتبارها المنافس الحقيقي له ولإمارته[5]، ذلك لّما شعر وأحس به جراء الحركة الوحدوية بين جبل عامل والبقاع تحت رايتها، ثم لما أخذ الأمير يونس الحرفوشي لواء صفد – جبل عامل منه – من والي الشام، والتي كانت هدف معركة عنجر.

منذ أن لوحق الشهيد الثاني بعد خروجه القصري من بعلبك، سادت أوساط العلماء

1 - كمال الصليبي: بيت بمنازل كثيرة، ص 165. حيث لا يستبعد الصليبي منذ أمد بعيد اتصال الصفويين بالأمراء الحرافشة كما كان لهم علاقة مع علماء جبل عامل.
2 - الصفدي: نفسه.
3 - الصفدي: نفسه. ص 71.
4 - لاحظ إرسال الأمير يونس الحرفوشي "خمسمائة قرش" إلى الشيخ محمد (حفيد الشهيد الثاني ت 1030هـ/ 1620م) وهو مهاجر في مكة طالبا منه العودة... الشيخ علي بن محمد العاملي(سبط الشهيد): الدر المنثور في المأثور وغير المأثور، ج2، ص675. ترجمة والده.
5 - لم تكن علاقة فخر الدين بالعثمانيين تختلف عن علاقة الكثيرين من معاصريه بحسنها وسوئها، ولم يمنح فخر الدين أبدا رتبة عثمانية [سلطان البر] أرفع من رتبة " أمير لواء " صفد، وهو الذي نافسه عليه الأمير يونس الحرفوش الذي ناله عام 1032هـ/ 1622م. وكان أحد أسباب معركة عنجر 1033هـ/1623م. راجع:
- أبوحسين: لبنان والإمارة الدرزية، ص 19. و الصفدي: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص 139.

حالة أكبر من الذعر والخوف تمثلت بالملاحقة والقتل والنهب بلغت حدا لا يطاق أدت بأغلبهم إلى الهجرة في أسقاع المعمورة[1].

إلى ذلك يخلص القاضي الشهيد نور الله المرعشي التستري (ت 1019هـ/ 1610م) بوصف العامليين إلى: « صفوة القول: أنّ تجلي الرحمة الإلهية تشمل أهل جبل عامل دائما، وتتلألأ على نواصي أيمانهم كأنها بارقة النور من شاهق الطور، أنوار محبة أهل البيت. ولا توجد قرية من قرى الجبل ليس فيها جماعة من فقهاء الإمامية وفضلائها »[2].

1 - راجع:الشيخ علي العاملي (سبط الشهيد الثاني): الدر المنثور في المأثور وغير المأثور، خصوصا ترجمته لجده ووالده ونفسه. المهاجر: الهجرة العاملية إلأى إيران. و يوسف طباجة: رسائل الشيخ حسين بن عبد الصمد إلى أستاذه الشهيد الثاني، منشورة في مجلة المنهاج.

2 - القاضي نور الله المرعشي التستري (ت 1019هـ/ 1610م): مجالس المؤمنين، ج1،ص 159.

المقاومة العاملية للمعنيين والولاة العثمانيين بعد فخر الدين

ملحمة أنصار 1048هـ/ 1638م

بعد اعتقال فخر الدين المعني وإعدامه في اسطنبول عام 1633م، عينت الدولة العثمانية خصوم المعنيين، ما أدى إلى صراع على السلطة في الجبل. تمكن الأمير ملحم المعني من الحصول على إمارة الشوف سنة 1637م، ولجوء خصمه إلى جبل عامل مستنجدا بآل منكر... فهاجم الأمير ملحم قرية أنصار وقتل فيها أكثر من 1500 قتيل ونهبها ودمرها على مدى أربعة أيام[1]. وتنقل الروايات أن المعركة حصلت في أجواء فتوى الشيخ نوح[2] ضد الشيعة[3].

عيناثا (1070هـ/ 1660م) ونهاية الشكريين واسغلال باشا صيدا

داخل عيناثا(1059هـ)انهى آل الصغير حكم الأسرة الشكرية في جبل عامل، فاستغلّ والي صيد الجديد الأمر لتحصيل الضرائب...

المقاومة في النبطية وادي الكفور (1077هـ/ 1666م).

... نهض زعماء العشائر العامليين واجتمعت كلمتهم، فنظموا صفوفهم، وثاروا سنة 1077هـ/ 1666م ثورة رجل واحد، وطردوا عمال والي صيدا وفتكوا فيهم، فاستنجد أرسلان باشا بالمعنيين، فقابله العامليون في النبطية وادي الكفوروهزموا المهاجمين، وفر أعداؤهم فلحقوا بهم إلى عين المزراب[4].

بعد تلك المعارك والمجابهات، وما سبقها والتي خاضها العامليون ودفعوا الكثير من الأرواح والأرزاق لم تثنهم عن روح المبادرة إلى مقاومة المعتدي، تدل دلالة واضحة أنهم شعب دائم التحفز رغم الويلات، وهذا واضح أنهم يمتلكون روح الجماعة التي تمتلك ثقافة التضحية والإيثار المتواصل مع عقيدتهم التي كان يضطلع بها العلماء والمجتهدين مع دور واضح للزعامة الإقطاعية / سياسية منذ استشهاد الشهيد الأول الذي وضع لهم مشروعه النهضوي الذي امتد على مساحة العالم الاسلامي خصوصا في العراق وإيران وصولا إلى الهند[5].

---

1 - الشيخ سليمان ظاهر: معجم قرى جبل عامل، مجلة العرفان، م8، ص 343. والشيخ علي الزين:للبحث عن تاريخنا، ص 311.
2 - ترجمته: الزركلي: الأعلام، ج8، ص 51.
3 - ابن زهرة الحلبي: غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع، المقدمة: ص 11. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، هامش ص 66.
4 - آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص113.
5 - راجع أطروحتنا للدكتوراة، ص 105 ما يليها.

بعد مقاومة الحروب الصليبية وويلاتها...، ومسايرة المماليك رغم غطرستهم وظلامتهم...، والتعايش مع الأيوبيين رغم مرارة الغدر...، و الصبر على تعسف الدولة العثمانية التي غرقت بالحروب والصراعات شرقا (مع الصفويين) وغربا (مع الأوروبيين)، وبلغت أوج مجدها أيام السلطان سليمان القانوني الذي منح الإمتيازات الأجنبية بداية لفرنسا عام 949هـ/ 1536م، شكلت معها مرحلة بداية أفول نجم الدولة العثمانية وبزوغ فجر الدول الأوروبية... دلالة ذلك أيضا معاهدة كالوفيتز Carlowitz عام 1110هـ/ 1699م[2]... والحدث الهام هو معاهدة كوجك قينرجي[3] Kutchuk Kainardji (1188هـ/ 1774م) والتي بموجبها انفصلت جزيرة القرم عن الدولة العثمانية بعد أن اجتاحتها الجيوش الروسية، وأعطيت روسيا امتيازات بحماية ورعاية الأرثوذوكس كما فرنسا وبريطانيا، وأن تدفع الدولة العثمانية لروسيا تكاليف الحرب. بالمختصر أن هذه الإتفاقية كانت أسوأ المعاهدات التي دمرت الدولة العثمانية فيما بعد إذ فتحت شهية باقي الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا[4].

هذا على المستوى العام، أما في جبل عامل ومع بداية القرن الثامن عشر، يبدو أن العامليين استطاعوا الامساك بزمام أمرهم، وتثبيت الزعامة المحلية بدعم من القيادة الدينية[5] على كافة أنحاء بلادهم والتي عرفت بحكومة الإتحاد الثلاثي[6]، حيث أُقِرَّ بني منكر على إقليمي الشومر والتفاح، وبني صعب على مقاطعة الشقيف، وكان مشرف بن علي الصغير على بلاد بشارة. بالمقابل ولي ظاهر العمر على بلاد صفد[7]...

امتنع مشايخ جبل عامل عن تأدية الأموال الأميرية والتي كانت على ما يبدو كبيرة، فاستنهض والي صيدا الأمير حيدر الشهابي، فبلغ قرية النبطية مستهل محرم 1118هـ/ 1706م... وحصلت المعركة وانكسر العامليون، واستولى الأمير حيدر الشهابي على كافة أنحاء جبل عامل بعد أن نكل بأهله وقتل في النبطية الفقيه الشيخ يونس العاملي المرجوع إليه في الرياسة الدينية[8].

وولّى جابياً عليه محمود أبو هرموش، الذي أجرى ظلما وأخذ مالا زائدا لم يدفعه جميعه،

1 - آثرنا استعارة هذا العنوان الحرفي للفصل الأول من كتاب د.مسعود ضاهر:الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطجي، دار الفارابي، بيروت 1988. ص 39.
2 - سارهنك: تاريخ الدولة العثمانية، ص 192.
3 - اسم قرية في بلغاريا.
4 - إميل خوري وعادل اسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج1، ص 26. ومحمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية. وكل كتب تاريخ الدولة العثمانية.
5 - Adel Ismail:Documents diplomatiques. T2 p243.
6 - أطروحتنا للدكتوراه، ص 245.
7 - تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم، تحقيق: هشي، دار لحد خاطر، بيروت 1984، ص 93.
8 - الصدر: تكملة أمل الآمل، ص 437.

مما أغضب الأمير حيدر وطلبه للمحاسبة ففر إلى والي صيدا الذي يبدو أنه كان شريكه بالبلص والمصادرة والتعسف، فعينه على بلاد الشوف وتوابعها بعد أن اشترى أبوهرموش لقب باشا... وفر الأمير حيدر إلى المتن حيث وقعت معركة عين دارة المشهورة التي خلفت دمارا كبيرا بالبلاد والعباد...عاد على أثرها الأمير حيدر إلى إمارة جبل لبنان.

وبالإشارة إلى دور العلماء العامليين نجد أن الشيخ عبد السلام الحر الجبعي العاملي تربطه بوالي صيد عثمان باشا أبو طوق (عين سنة 1713م) علاقة «صداقة ومحبة أكيدة، وكان يستشيره ...»[1]، وكذلك على وفاق تام مع الأمير حيدر الشهابي الذي أسرَّ له الشيخ شيئاً يتعلق بنية الوالي بعزله... وأوصل الشهابي الخبر للوالي الذي سجن الشيخ عام 1122هـ/ 1710م،...ثم تحرر من السجن وبقي فاراً إلى حين وفاته سنة 1138هـ/ 1725م.[2]..

وفي العام 1136هـ/ 1723م ينبري الشيخ ابراهيم الحر الصوري العاملي ويرد ويناظر عالم بالشام شهير بتصوفه هو الشيخ عبد الغني النابلسي الذي نظم قصيدة عارضه فيها الشيخ الحر[3]...

واستمرت المقاومة العاملية رغم الجراح، وكانت معركة القرية (1131هـ/ 1718م) مع الأمير حيدر الشهابي (ومن وراءه) الذي يبدو أنه هاله ما أصبح عليه العامليون من اتحاد وقوة واستقرار، وأثاره ازدهارهم بعد تمتعهم بشيئ من الراحة والهدوء. « فزحف باثني عشر ألف راجل إلى بلاد المتاولة القبلية وبلاد الشقيف وإقليم الشومر، ونهب البلاد وقتل منها نحو أربعين قتيلا، وأخذ منهم ألف وحرق البلاد ونهب سحته (تبغه) وقطع أشجاره وهدم سرايات الحكمومة (العاملية) هدما مريعا »[4]....

العامليون والصدام الأول مع ظاهر العمر (1133هـ/ 1720م)

لم تثن تلك الجراح العامليين، فهذه الحوادث تشير تماما إلى سياسة الولاة العثمانيين، وبالتالي طمع الأمراء المحيطين بجبل عامل، وبغلاله وما كان يتمتع به من غلال وافرة وثروات زراعية كونه كان مجتمعا زراعيا متنوع الغلال، والسيطرة علية واستغلال أبنائه، الذين كابدوا الأيام والسنين للبقاء على وحدتهم والمقاومة والممانعة بكل من يتربص بهم شرا. ليس في هذه الفترة فحسب بل حتى في فترة الحكم الصليبي والأيوبي.. يضاف إلى ذلك بعض الاعتبارات والعنعنات والفتن المذهبية.

« وفيها كانت الفتنة بين مشايخ المتاولة والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد، وجرى بينهم قتال شديد فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير، ثم خرج عثمان باشا

1 - راجع الرواية كاملة عن مخطوط: نزار الحر: حادثة الشيخ عبد السلام الحر، مجلة العرفان م37، ص 1035 و 1141.
2 - ترجمته: الأمين: أعيان الشيعة، م8، ص 16 .
3 - القصيدة والرد في: الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، ص 757. و الأمين: أعيان الشيعة، م2، ص122. وأسامة عانوتي: الحركة الأدبية في بلاد الشام، ص 193. وراجع مجلة العرفان م 37، ص 1039....
4 - الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 403. نقلا عن الوثائق التاريخية ...وجلة أوراق لبنانية 1957.

بالعسكر على بلاد صفد، وقتل منهم أكثر من ثلاثماية ...»[1]. ولعل هذه الحادثة هي التي دفعت ظاهر العمر إلى السعي للتحالف مع العامليين فيما بعد.

استمرار المقاومة والممانعة والثورة بوجه ملحم الشهابي

رغم ما قيل عن قوة ملحم حيدر الشهابي[2]، بقي سلوك العامليين هو هو مع الشهابيين كما كان مع المعنيين، فكانت الصعوبة الكبرى التي واجهها الأمير ملحم الشهابي طيلة فترة حكمه هي ممانعة ومقاومة جبل عامل، أي سلوك الرفض والثورة وعدم الإذلال للتسلط المعني والشهابي[3].

بحسب تقارير قناصل فرنسا فإن استياء من الصدر الأعظم والولاة العثمانيين من العامليين لعدم دفعهم المطلوب منهم[4]. «فأمر الصدر الأعظم والي صيدا، كما أمر أمير الدروز بمحاصرة قلاعهم وتصفية سكان تلك البلاد بحد السيف»[5]، فطالب الأمير ملحم تولية جبل عامل « وكان أهل هذه البلاد وحكامها قد أرهقوا الوالي عصيانا وتمردا وثورة، فوافقه الوالي عى طلبه...»[6].

هاجم الشهابي بني علي الصغير – على حين غرة – في عاصمتهم يارون، فهزمهم وأسر مقدمهم الشيخ نصار بن علي الصغير (والد ناصيف النصار)، وباغت إخوته في جويا ... إلا أنه بعد أيام، جاءه إخوة نصار، واستماحوا منه إطلاق أخيهم، وقدموا له مالا فداء عنه، فأخذه وأطلق لهم أخاهم (هكذا حصل مع أولاد منكر وفخر الدين) وأعادهم إلى بلادهم ولاة من قبله[7]...

في هذه الحقبة كانت السياسة الفرنسية بمساعدة العثمانيين قد أمست واضحة[8]، كما السياسات الدولية تجاه الدولة العثمانية[9]، وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية في العاصمة اسطنبول[10]، واتخذ الفرنسيون لبنان وسوريا الطليعة في استراتجيتهم التي تخدم مصالحهم ومشاريعهم في الشرق، عبر الطائفة المارونية باعتبار «أن زمام الحكم كان بيد الموارنة، وليس لحاكم الوقت سوى أن يحكم بما يشاؤون»[11]. وارتمى الدروز بأحضان

1 - الشهابي: تاريخ الأمير حيدر، ص 756.
2 - ياسين سويد: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية، ج2، ص 63.
3 - سويد: م.ن. ص 65.
4 - Adel Ismail:Documents diplomatiques. T2 p77.
5 - Op.cit.
6 - سويد: م.ن. ص 65.
7 - الشهابي: تاريخ الأمير حيدر، ص 768. الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 406.
8 - زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ص 23.
9 - للتوسع راجع أطروحتنا للدكتوراه، ص 255 و 256 و257.
10 - فليب مانسيل: السطنطينية، المدينة التي اشتهاها العالم، ج 2، علم المعرفة عدد 427، الكويت 2015. ص 56.
11 - الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 417. نقلا عن العالم النمساوي أندريا أوبلينر في تاريخه للبنان سنة 1729- 1795. المنشورة في مجلة أوراق لبنانية 1956. ص 323.

بريطانيا على حد تعبير قنصلها: « أن الموارنة مستسلمون نفسا وجسدا إلى فرنسا... وعليه فلم يبق لانكلترة أن تختار في الأمر بل أمسى من المحتم عليها عضد الدروز»[1]. أضف إلى ذلك أن كواخي أو مستشاري الأمراء قد أصبحوا قناصل فرنسا[2]. إلى حد « أن يطلب الكرسي الرسولي إلى سفير فرنسة في الأستانة أن يوصي السلطان بالأمير»[3].

1 - المحررات السياسية م1، ص 73.
2 - لاحظ: الشدياق: أخبار الأعيان، م.م . ص86. "سنة 1656 أنعم البابا اسكندر السابع على الشيخ أبي نوفل بكوليرية رومية. أي وظيفة فارس، وأنه يتجند متقلداً بطوق وسيف ومحايز ذهبية. وسنة 1658 أرسل الأمير ملحم المعني الشيخ أبا نوفل يجبي المال الأميري ... فاستورده وأدّاه إلى الدولة بحسب تعهده. وكانت الدولة تثق به جداً..و لما توفي الأمير ملحم المعني (1658م) المعني وتولى عوضه ولداه الأمير أحمد والأمير قرقماس صار الشيخ أبو نوفل مدبرهما كما كان عند والدهما. وسنة 1659 أنعم ملك فرنسا على الشيخ أبي نوفل بقنصلية بيروت ووكالة قنصلية البندقية ". وراجع تعلق الشيخ علي الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 378. وعلاقة ذلك بالهجوم على الشيخ مشر ف في جبل عامل.
3 - تقرير الأب يوسف السمعاني: مجلة أوراق لبنانية، م8، بيروت 1957. ص 343.

الأطماع مستمرة والنظال متواصل

خيم الصراع الصفوي (نادر شاه احتل العراق 1156هـ/ 1743م) العثماني على الأجواءالإقليمية / دولية[1]. وحيث أن الإمارة – بحسب كمال الصليبي – مؤسسة عثمانية مالية تخضع لتجديد سنوي، مصممة لخدمة حاجات العثمانيين وليس الدروز[2].

وقعة أنصار (1156هـ/ 1743م)

امتنع العامليون عن الاستجابة لأطماع الوالي العثماني في صيدا[3]، فاستنهض الأمير ملحم الذي غدر بالعامليين بحجة المفاوضات؛ بعد أن استأمنوا الوالي ودفعوا له وتعهدوا بدفع ما تبقى عليهم، وكانت المذبحة على مدى ثلاثة أيام راح ضحيتها بحدود ألف وستمائة قتيل من العامليين، بعد السلب والحرق، وقبض على أربعة من مشايخهم[4]... فنال تهنئة الوالي[5]..

وقعة مرج قدس 1157هـ/ 1744م وفيها توفي الوالي

كان على رأسها والي صيدا نفسه «الذي أقسم أن يحرق بلاد بشارة..»[6]، فزحف بجيش كبير ونزل في مرج قدس وبقي ثلاثة عشر يوما كافية من نهب وتسخير وتلف للمحاصيل[7]... وقتل مسموما في طبرية[8].

الأنتصارات الأولى للعامليين بعد اتحادهم

-1 معركة مرجعيون 1157هـ/ 1744م: التي يبدو أن ما حصل في أنصار «من نار ودم» بحسب تعبير القنصل الفرنسي في صيدا De Lane[9]، وقبلها في يارون وغيرها من البلدات العاملية كانت دروسا قاسية للعامليين باتجاه تصفية خلافاتهم ووحدة صفهم وتحفزهم، وهم الواثقون بقوتهم وإمكاناتهم التي مكنتهم من هزيمة جيوش زحفت عليهم من وادي التيم وجبل لبنان[10]. ليس هذا بل «ثم اجتمعت المتاولة في

---

1 - سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، ص212. راجع ترجمة نادر شاه: الأمين: أعيان الشيعة، م10، ص 200.
2 - كمال الصليبي: الإمارة اللبنانية 1667-1841. مجلة أبحاث، مج20، ج3. الجامعة الأميركية في بيروت 1967. ص 7.
3 - Adel Ismail:Documents diplomatiques. T2 p77.
4 - الشيخ سليمان ظاهر، معجم قرى جبل عامل، مجلة العرفان، م8، ص 345. وآل صفا: تاريخ جبل عامل، ص 83. والزين: للبحث عن تاريخنا، ص 417 و ما يليها.
5 - الشهابي: تاريخ الأمير حيدر، ص 769.
6 - الفقيه: جبل عامل في التاريخ، ص 196.
7 - Adel Ismail:Documents diplomatiques. T2 p77.
8 - الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 438.
9 - Adel Ismail:Documents diplomatiques. T2 p77.
10 - الشهابي: تاريخ الأمير حيدر، ص 771. حيث يكتفي المؤرخ بهذه الرواية دون أن يذكر الأسباب، أو أن يعقب عليها ولم يذكر أيضا عن قيادة الحملة شيئ.

قرية النباطية. وأرادوا أن يغزوا جبل الدروز، فمنعهم وزير صيدا»[1]. حيث قال أحد الزجالين:

يا بنت مردم بك طلّي وشوفي   دخان مرجعيون غطّى الشوفي

ويعلق الشيخ علي الزين على رواية الأمير حيدر أحمد الشهابي ابن أخ الأمير ملحم ومدير المعارك بين المتاولة والدروز... خلو قصة هذه المعركة من ذكر أمير الشوف وأمير وادي التيم الشهابيين، وكأنهم ليس لهم علاقة بأهالي الشوف ووادي التيم؟ إذن فمن الذي جمع الجموع .. وضرب لهم موعدا لحرب المتاولة في زمن معين ومكان محدد؟ ... فلو أن الكسرة كانت على المتاولة هل يكون الحديث خابا من مثل هذه العبارات المتكررة في وصف المعارك الشهابية؟ كما في وصفه معركة أنصار: «واصطف الفريقان وانقلبت الأرض من ضجيج أولئك الأمم فحمل الأمير ملحم برجال جيشه وهجم على القوم بشدة بأسه فنكسرت عند حملته جيوش المتاولة وانفضوا كالنعم الهاملة»[2].

2- **وقعة الخربة القليعة** 1163هـ/ 1749م: بالتحالف مع الصفديين: والتي شارك فيها الشيخ ظاهر العمر العامليين بعد أن عقد معهم حلفا، فوقع في هذه المعركة للمهجمين أكثر من ألف قتيل[3]. وهي المعركة التي لم يأت على ذكرها أي من المؤرخين اللبنانيين...![4].

3- **وقعة جباع** 1163هـ/ 1749م: كانت بمثابة ردة فعل الأمير ملحم على معركة الخربة والقليعة وهي آخر غاراته على جبل عامل. والتي كاد أن يكسر العامليين لولا استنجادهم بالشيخ ظاهر العمر[5].

1 - الشهابي: تاريخ الأمير حيدر، م.ن.
2 - الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 435. لا حظ عن المؤرخ الأمير حيدر الشهابي رأي: نسيب سعيد نكد: الإمارة الشهابية والإقطاعيون الدروز. ص 18 و27. ورأي فارس الشدياق: الساق على الساق في ما هو الفارياق، طبعة باريس 1855م. ص 37 و 38. واحدة من صفاته « اللؤم ».
3 - الشيخ سليمان ظاهر: معجم قرى جبل عامل، مجلة العرفان، م8، ص 346. و م24، ص942.
4 - الزين: للبحث عن تاريخنا، ص 440.
5 - أطروحتنا للدكتوراة، ص 263.

الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل شهيداً

هِمَّةٌ... شَهيدٍ يُطَهِّرُه الدَّمُ[1]

مدخل:

بينما نشبت الصراعات الداخلية بين الشهابيين، وضعفت شوكتهم[2]، اختفت الحوادث بينهم وبين العامليين[3]، الذين لم يمنعهم هذا من التحسب والإستعداد، وطيلة تلك الفترة كان العامليون ينعمون بالحرية وبالإستقلال الذاتي.

ففي سنة 1163هـ/ 1749م، كانت هبوب ريح الأمراء العامليين[4]، «فشرعوا من عمارة القلع في تبنين وهونين ودوبيا وشمع، وفي هذه السنة أيضاً، اقتسم المشايخ (من آل الصغير) البلاد (بلاد بشارة)، فكانت مقاطعة هونين للشيخ قبلان (شرق بلاد بشارة)، وللشيخ ناصيف مقاطعة تبنين والبلاد الجنوبية كلها (وسط بلاد بشارة ومركز زعامتها التاريخي، والشيخ عباس المحمد مقاطعة قانا وشحور والشعب[5] -ساحل صور- (ساحل بلاد بشارة أو غربها)»[6*].

الأحوال السياسية في جبل عامل وخارجه في بداية زعامة ناصيف النصار:

برز اقتسام السلطة، جراء اقتسام بلاد بشارة، نتيجة نزاع في الأسرة الصغيرية على حكم مقاطعة بلاد بشارة الجنوبية، والذي انتهى بتحكيم ظاهر العمل حاكم عكا[7]، فكان التقسيم الثلاثي الذي مر معنا، وكان ناصيف النصار في تبنين.

لكن الصراع المحلي بين العائلات الحاكمة، كانت تهدد البلاد لولا السيطرة عليها واحتوائها، فقد بدأ الصراع الشيخ قبلان الحسن باتخاذه مواقف مغايرة للشيخين ناصيف وعباس، وخصوصاً في مواقفه من ظاهر العمر وأخصامه والتي أصبحت مغايرة تماماً فيما بعد، علماً أنه اشترك مع الشيخ ناصيف في معارك أخرى خاضها الأخير والذي خرج متفقاً مع آل صعب بعد المناوشات فيما بين الأسرة الصغيرية وآل صعب ومنكر حكام مقاطعات الشقيف والشومر والتفاح، ومن خلال سرد الأحداث الداخلية هذه، تتضح لنا حركة الإجتماع السياسي ي جبل عامل كما ذكرها معاصرها حيدر رضا الركيني:

1 - من قصيدة الشيخ ابراهيم يحي يرثي فيها الشيخ ناصيف.الأمين: أعيان الشيعة، م2، ص 246. راجع من القصيدة لاحقا في هذه الدراسة.
2 - لاحظ ذلك في: الشهابي من الصفحة 772 ويليها في أحداث سنة 1749م.
3 - لم يذكر المؤرخين حوادث تذكر في تلك الفترة بين حكام الشوق ومشايخ جبل عامل.

4 - الشيخ سليمان ظاهر، معجم قرى جبل عامل، العرفان، م 8، ص 438.
5 - المؤرخ السبيتي، جبل عامل في قرنين العرفان، م 5، ص 23.
6 *- كان هؤلاء المشايخ يمثلون كبار الزعماء الإقطاعيي، كان كل منهم لديه عدة مشايخ وجهاء (ملتزمون) يساعدونه أو بالأحرى يلتزمون منه القرى والمزارع وعليهم تجاهه ما عليه تجاه اوالي، وتتسلسل تلك الزعامة لتصل إلى درجة الناطور في القرية بحسب النظام الإقطاعي وهذا ما سنلاحظه من أسماء وجهاء في الأحداث التي سترد.
7 - آل صفا، المرجع نفسه، ص 92.

1166ه[1]: (1)- ركبت خيل واكد وناصيف على عرب القنيطرة. (2)- بعدها ركب الشيخ قبلان إلى حاصبيا لمواجهة الأمير ملحم بن شهاب. (3)- السبت في 24 جمادي الآخرة، ركب الشيخ قبلان والشيخ عباس على عرب مرج رميش ونهبوهم نهبة عظيمة..

1167[2]: (1)- صباح الأربعاء جاء مصطفى باشا (والي صيدا) من صيدا إلى أنصار فكبسها ونهبها نهبة عظيمة، ومسك الحاج محمد الحمادة وسليمان جواد[3]، وأخذهم منكر حكام الشومر) وكبسوا الدولة في مغراقة أنصار[4]. (3)- الأربعاء 9 ذي القعدة، ركب ناصيف وعباس مع الشيخ ظاهر العمر على أولاده إلى طبريا، ولم يركب معهم قبلان...

1168[5]: (1)- الجمعة 8 شعبان ركب الشيخ عباس والشيخ ناصيف على شريعة منذور، فغنموا أهلها وقتلوا منهم قدر 20 رجل...

1169[6]: (1)- كبست الإفرنج إلى مينا صور فأخذوا 15 نفساً رجالاً ونساء.. (2)- في شهر رمضان خربت بلاد الشقيف.. (3)- وفيها مسك الشيخ عيسى فارس (من آل صعب) في قلعة بلاد الشقيف.. (4)- آخر هذه السنة ركب أخو الشيخ قبلان إلى الشام[7]. (5)- وفيها عزلت العظام (آل العظم) من الشام وصيدا، وجاءت الباشوية إلى كواخيهم حسين بك بن مكي إلى الشام، وموسى كاخياً إلى صيدا، وفيها رفع الأمير ملحم بن شهاب عن حكم الشوف، وحكم موضعه أخوته الأمير أحمد والأمير منصور (دون أولاده الذين تنصروا).

1171[8]: (1)- توفي أولاد قبلان الشيخ حسين وحيبى في يوم واحد. (2)- ليل الإثنين غرة ربيع الأول ركب محمود (أخو الشيخ ناصيف) إلى إقليم الشومر ومسك الحاج علي سليمان بن أبي صعب[9]، وفتح ظاهر العمر قلعة سمحوثا..

1172ه[10]: (1)- الأربعاء 22 صفر، طلع سعد الدين باشا العظم إلى بلاد بشارة وقتل ونهب. (2)- الأربعاء 22 صفر (نفس اليوم) سافر الشيخ ناصيف إلى الشام[11]..(3)- الأربعاء 6 ربيع الأول صار بين الشيخ قبلان والشيخ ناصيف والباشا سعد الدين العظم (والي صيدا) وقعة عظيمة في رأس العين. (صور) وقتل من الفريقين قدر ثمانين رجلاً[12]

1 - الركيني، مصدر مذكور، العرفان، م 27، ص 526.
2 - الركيني، المصدر نفسه.
3 - ربما ك انا ملتزمي قرية أنصار (وجهاء).
4 - واد فسيح بين أنصار وقلعة ميس والزرارية، ويطلق عليه إسم وادي جهنم.
5 - الركيني، الصمدر نفه، ص 526.
6 - المصدر نفسه.
7 - لعل إرسال إخوة المشايخ إلى لاشام كان في سبيل التحاور (سفراء أو رسل) في شؤون سياسية وإدارية.
8 - الركيني، المصدر نفسه.
9 - يبدو من هذه الحادثة طول باع الشيخ ناصيف النصار التي وصلت إلى إقليم الشومر وحكامه من آل صعب.
10 - الركيني، الصمدر نفسه.
11 - إن سفر الشيخ ناصيف إلى لاشام في نفس اليوم الذي طلع به والي صيدا إلى جبل عامل يتراوح بين أمرين، إما أنه سافر قبل وصول الباشا أو أنه سافر للإحتجاد والتباحث ولا بد أن في الزيارة تلك تباحث في شؤون سياسية.
12 - دلالة أخرى على طول باع الشيخ ناصيف، ولكن المستغرب عدم مشاركة الشيخ عباس في تلك المعركة علماً أنه حاكم المقاطعة، ويبدو أن المعركة كانت توضع حد للوالي الذي قبل شهر قد صعد إلى بشارة فقتل ونهب...!

(لم يأت على ذكر مشاركة عباس المحمد حاكم ساحل صور).. (4)- وفيها سجنوا الحاج حيدر أبا بشير وولديه محمد وحسين في البئر، ومات الحاج حيدر وولده محمد، وقلعوا عيني حسين في قلعة بلاد الشقيف (لعل هؤلاء من الوجهاء الملتزمين).

1173ه[1]: (1)- الجمعة 14 محرم ركب العسكر من بلاد بشارة إلى بلاد صفد على النوابلسي..

1175ه[2]: «(1)- فيها الشيخ حمزة (المحمد شقيق الشيخ عباس) إلى قانا، وحاصر الشيخ واكد في قلعة شمع[3]..».

1176ه[4]: «(1)- الجمعة رابع وعشرون خلت من رمضان توفي الشيخ واكد..».

1177ه[5]: «(1)- فيها كبس الشيخ حسين منوصر (من آل منكر وقاعدته جباع[6]» قرية الغازية وخرب اقليم التفاح، وتضعضعت أحوال الناس، فركبت خيل ناصيف إلى بلاد الشقيف، وخيل قبلان وعباس إلى إقليم الشومر[7].

1178ه[8]: (1)- أواسط جمادي الاولى ركب علي الظاهر على الحولة وحرق الخالصة وبعض قُراها. (2)- وفيها منع المطر إلى أول كانون أول، وصلت الناس صلاة الإستقساء فلم يستجب منهم، ومن أول كانون أول إلى آخر شباط، أمطرت السماء ثلاث مرات لا غير.

1179ه[9]: «(1)- وفيها في شهر جمادي الآخرة ركب علي الظاهر وقبلان إلى مرج عيون إلى قرية إبل (إبل السقي[10]) فقتلوا من الدروز قدر ستين رجلًا، وقتل منهم قدر خمسة عشر رجلاً[11]. (2)- الإثنين 8 ربيع الأول ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس بعسكرهم وعسكر الدرفة إلى وادي المعظمية إلى عسكر علي الظاهر[12]، فكسروه كسرة عظيمة، وذبحوا من الصفدية قدر مائتين وخمسين رجلاً. (3)- وفيها خربت إقليم الشومر، وحاصر عباس العلي (حاكم الإقليم) وعلي منوصر في قلعة ميس (قاعدة إقليم الشومر). (4)- وفيها في آخر جمادي الآخرن شنق باشا صيدا رجلين من بلاد بشارة. (5)- وفيها كبست

1 - الركيني، المصدر نفسه، ص 626.
2 - المصدر السابق نفسه.
3 - قعلة شمع تقع على رابية تشرف على مدينة صور وسهولا، راجع الأمين، خطط جبل هعامل، ص 301.
4 - الركيني، مصدر سابق، ص 627.
5 - الركيني: المصدر السابق، العرفان، م 27، ص 627.
6 - لاحظ: Ismail Ibd T2 P. 327
7 - يلاحظ هنا تدخل مشايخ بلاد بشارة ف يأحداث إقليم التفاح الذي كان يشهد اضطرابات داخلية.
8 - الركيني، المصدر نفسه.
9 - الركيني، نفس المصدر.
10 - قرية من قرى جبل عامل: أنظر معجم قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر، م 20، ص 155 من العرفان.
11 - لاحظ تحالف علي الظاهر ابن الشيخ عمر الظاهر والشيخ قبلان.
12 - كما لاحظ خلاف الشيخ ناصيف وعباس المحمد مع حليف الشيخ قبلان الآنف الذكر.

الغازية، وركب الشيخ أبو حمد إلى قرية طير فلسيه[1]، وأخذ معزة عباس العلي بعض جمال وخيل، وسلبوا بعض أناس. (6)- وقيل خرب عديسة وعمر سوق الطيبة وحرق بدياس. (7)- وفيها في شهر رجب المبارك صارت الجمعية[2] بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس وعلي فارس والأمير اسماعيل (شهاب) والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا. (8)- في نصف شهر رجب المبارك انكسر في البحر غليون أهل الروم، واختلف عليه مشايخ بلاد بشارة وعباس العلي، وبعد هذا ظبته (ضبطته) الدولة بأمر باشا صيدا[3].. (9)- وفيها يوم الثلاثاء 22 رمضان طلع باشا صيدا ومعه عسكر الدروز إلى قلعة ميس وحاصروا عباس العلي[4]. (10)- وفي عشرين شوال ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس المحمد والشيخ عثمان الظاهر إلى بلاد الدروز في الجمعية[5]. (11)- الأحد 22 من ذي الحجة ركب عساكر بلاد الشقيف وبلاد بشارة وإقليم التفاح[6] على بلاد صفد وعثمان الظاهر معهم أيضاً[7].

1180ه[8]: «(1)- فيها مسك عباس الشيخ قبلان، ورده إلى خلف، في سنة تاريخها ظرف (1180) وقتل خمسة رجال وطلب وراءه الشيخ عباس صبيحة الثلاثاء فأدركته الخيل شرق القنيطرة، فاستيسره واستيسر أخاه أحمد وجابهما إلى قلعة مارون وأدخلهما السن كما قال عز شأنه ﴿لا يحيق المكر السيء إلا بأهله[9]﴾. (2)- وفيه الأحد 24 محرم كانت وقعة بلاد صفد بين علي الظاهر ومشايخ بلاد بشارة وكانت النصرة للمشايخ وقتل من الصفدية نحو مايتي رجل وقالت أهل الزيادة زيادة، ونقل ما لم يصلح ليس فيه إفادة، وكانت هذه الوقعة قبل نهبة صور بيوم وليلة[10]. (3)- وفيها 23 ربيع الثاني كبس الشيخ ظاهر العمر البصا وقتل فيها أناس وقبل منها بستة أيام مر عثمان الظاهر قرب (قرية) الزيب (حدود جبل عامل الجنوبية) ونهب منها طرشاً[11]. (4)- وفيها الإثنين 8 جمادي الأولى كبس ظاهر العمر قرية تربيخا، وصار بينه وبين الشيخ ناصيف وقعة عظيمة وانكسر

---

1 - قرية من قرى جبل عامل وهي من أعمال صيدا ذكرها الشيخ سليمان ظاهرن معجم قرى جبل عامل، العرفان، م 8،و ص 525 وم24، ص 15.

2 - لاحظ حركة الإجتماع السياسي في الإختلاف الحاصل بين المشايخ العامليين الشيخ ناصيف والشيخ عباس والشيخ علي الفارس حاكم إقليم الشقيف، وأمراء الدروز في حاصبيا الأمير إسماعيل والشيخ علي جنبلاط هؤلاء من جهة والشيخ قبلان علي الظاهر من جهة ثانية.

3 - الركيني، المصدر السابق، م 27، ص 628، حيث يلاحظ الخلاف ما بين مشايخ بلاد بشارة والشيخ عباس العلي حاكم إقليم الشومر، والذي سيلعب دوراً بارزاً فيما بعد وفي ظل الإتحاد العاملي بزعامة ناصيف النصار.

4 - لعل باشا صيدا استغل خلاف عباس العلي مع مشايخ بلاد بشارة فاستفرده.

5 - رغم أن المقاصد من تلك «الجمعياتً بقيت مجهولة، غلا أنها لا شك كانت لأمور هامة في سياسة وإدارة المنطقة، وموقفها من الأحداث المرتقبة حيث نلفت النظر إلى ذهاب الشيخ ناصيف إلى دمشق، وقبلها أرسل إليها شقيقه.

6 - لم يذكر إقليم الشومر «حاكمه عباس العليً ويورد المؤرخون شيئاً من خلاف عثمان الظاهر مع والده الذي استقبل الجميع واحتفى بهم وصفح عن ولده عثمان. راجع هذه المسألة: الزين، للبحث في تاريخنا، ص 463، والشهابي، تاريخ الأمير حيدر ص 792.

7 - يلاحظ اهتمام مشايخ جبل عامل بمصالحة الشيخ عثمان الظاهر مع والد، ظاهر العمر وتأديبهم لولده على الذي كان خارجاً عن طاعة أبيه.

8 - الركيين، نفسه، العرفان، م 27، ص 735.

9 - سبق الحديث عن قلعة مارون كقاعدة لعباس المحمد.

10 - راجع حول نهب صور واعتقال الشيخ قبلان.

11 - كان ناصيف وظاه رالعمر متعاونين ينجد الواحد منهم الآخر أحياناً فقد نجد الأول والثاني في حربه مع بني صقر من عرب مرج بني عامر بعدها هموه في سخنين من أعمال فلسطين، فاستظهر عليهم ناصيف وهزمهم وتفاهم إلى خارج فلسطين، وإلى ذلك اشار الشيخ إبراهيم الحاريصي ت 1185ه، حيث يقول:

أنسيتم أيام سحنين التي لم ينسكم طول المدى أهوالها

أنظر: أعيان الشيعة، م 2، ص 117، ترجمة الحاريصي أما البصة فهي قرية من قرى جبل عامل (أنظر معجم جبل عامل لشليخ سليمان ظاهر) العرفان، م 8، ص 524.

الشيخ ظاهر كسرة عظيمة، وقتل من عسكره مائة وخمسون رجلاً، وأخذ من عسكره أيضاً مائة قلعة (أي مائة فارس لم يثبتوا على سروجهم[1])، وقتل عشرون رجلاً من عسكر الشيخ ناصيف[2]. (5)- ثاني يوم الثلاثاء سافرت الزوار إلى العراق (ويعني بالزوار الذين يذهبون إلى العراق لزيارة أضرحة أئمة الشيعة والذين قتلوا في كربلاء..). (6)- وفيها 23 ذي القعدة نزل الشيخ عباس إلى صور واسترجع الأمور. (7)- الجمعة 9 ذي الحجة كبست قرية صلحا من الصفدية.

1181ه[3]: (1)- وفيها نزل الشيخ عباس المحمد إلى صور يسكنها[4]. (2(- وفيها 6 ربيع الأول دار بين كاخيا (نائب الوالي) وخيل الشيخ عباس وقعة وقتل من الفريقين محو عشرة رجال منهم الحاج علي عجمي وعلي حسين وعلي نصار. (3)- وفيها 17 ربيع الأول وصل الشيخ علي جنبلاط والشيخ ظاهر العمر إلى مدينة صور إلى الجمعية وما تمت[5]. (4)- لجأ الأمير حيدر الحرفوش إلى بلاد بشارة (لأنها أصبحت أكثر أمناً بعكس أيام فخر الدين وغيره التي لجأ فيها العامليون إلى الحرافشة)، لأن الأمير يوسف شهاب كتب على بلاد بعلبك وحكم فيها الأمير محمد أخ الأمير حيدر الحرفوش). (5)- وفيها 5 جمادي الأولى ركب الشيخ ظاهر العمر وحاصر ولده علي في مدينة صفد. (6)- الخميس 5 جمادي الآخرة كبست الصفدية تربيخا وأخذوا منها معزاً، وقتل فيها واحد وامرأة، ومن الصفدية واحد، وفي اليوم نفسه كبست الدولة العاقبية والصرفند[6]. (7)- وفيها 8 رجب سار الشيخ ناصيف إلى عكا إلى عند الشيخ ظاهر العمر ووقع الصلح بينهم، ثم سافر إلى عند الدروز[7].

---

1 - ابن منظور، لسان العرب، مجلد 8، مادة قلع، ص 291.

2 - هي معركة الدولاب وتربيخا والتي اشترك فيه المشايخ العامليون بقيادةناصيف النصار كما تشير أعار كل من الشيخ إبراهيم الحاريصي (ت 1184ه) والشيخ إبراهيم يحيى (ت 1314ه) ومما يقوله الأول في مدح ناصيف النصار:

وافى بها في يوم «طربيخاً وقد … جلست خيول الدارعين خلالها

وفي قصيدة ثانية يمتدح فيها الفارس الصمي حاكم الشقيف حيث يقول:

أبصر «الدولابَ منه وقفة … يومة في جنح ليل من غبار

وفي قصيدة أخرى في نفس الممدوح حيث يقول:

وله يوم «طربيخاً على الخصم غارا … تكاد بها شم الجبال تتقطر

أما الثاني فقد قال في نفس الممدوح:

وأوا من سيوف الهند بحراً واصبحوا … يدورون في «الدولابَ شعثاً طواميا

- ذكرت الأبيات في:أعيان الشيعة م 2، ص 117، في ترجمته الحاريصي وص 237 في ترجمة ابن يحيى، أما محمد جاب رآل صفا والشيخ علي الزين فإنهم يوردون أن الشيخ ظاهر العمر طلب من الشيخ ناصيف تسليمه قريتي البصة ومارون ولكن ناصيف رد عليه بالرفض والتحدي، فما كان من ظاهر العمر إلا أن هاجم القريتين واستولى عليهما لكن العامليين تنادوا إلى المعركة التي وقعت في الدولاب وتربيخا وحصل فيها ما حصل ناصيف من تمكين الرمح من صدر ظاهر العمر لكنه اكتفى بسلبه ترسه المعروفة (بالبوصة) والتي قال فيها ناصيف كلمته المشهورة بعد أن استرد البصة وا'ادة ابرصة لظاهر «لاح حاجة لنا بالبرصة بعد أن عادت لنا البصيصةً تصغير البرصة والبصة.

راجع: -1 آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 118، -2 الزين، للبحث عن تاريخنا ص 491 وما بعدها. -3 اهر: معجم قوى جبل عامل العرفان، مجلد 8، ص 523، -4 العقد المنضد في ديوان شبيب باشا الأسعد ص 26.

3 - الركيني، المصدر نفسه، م 27،- ص 736.

4 - هذه العودة كانت بعد حادثة نهب صور من قبل الشيخ قبلان.

5 - إن عدم إتمام هذه الجمعية يعود لعدم حضور الشيخ ناصيف إليها، وربما كان عدم حضوره هذا مبنياً على ما حصل في البصة ودولاب وتربيخا من غارة على بلاد عاملة وانهزام ظاهر العمر الذي بادر إلى الإجتماعي بالعامليين في صور لكن الشيخ ناصيف لم يعمل بمبادرة الشيخ ظاهر العمر بل بادل هو بنفسه إلى زيارة الأخير بعد أن قيّم الوضع نذهب إلى عكا وبعدها إلى عند الدروز، مظهراً بذلك قدرة على توقيت وتوظيف تحالفاته وكذلك فعل ظاهر العمر.

6 - قريتان على الساحل بين الزهراني وصور راجع: الشيخ سليمان ظاهرن معجم قرى جبل عامل، العرفان، م 8، ص 763و764.

7 - سبق الحديث عن هذه الزيارة في الهامش والتعليق السابق.

في الحقيقة لا يبلغ شعباً (أو قيادة أو زعامة) مرحلة التحالفات الخارجية، إلاّ عندما يصبح في وضع متماسك داخلياً، وبالنسبة للطرف الآخر (الحليف) الذي لا شك يقدّر مدى تأثير ذلك التحالف في مجريات الأمور عبر موقعه كحليف أو متحالف، ليقوم بدور، له غايته وأهدافه الجماعية، وما هذه التحالفات إلاّ شكلاً من أشكال التعاون العسكري والسياسي، والتي تهدف في الأساس إلى الإستعداد لصد عدوان محتمل، أو الإعداد لشن حرب على عدو مشترك.

إذن فالركيزة الأولية للأحلاف كانت وجود قوة عسكرية، وتضامن سياسي (يخفي وراءه مصالح اقتصادية واجتماعية) يكفلان للمتحالفين فيها الحماية الجماعية، والمصلحة المشتركة.

وبالفعل فإن مشايخ جبل عامل كانوا قد أظهروا من تماسكهم الداخلي ووحدتهم بعد العام (1180هـ/ 1766م) بقيادة ناصيف النصار الذي أطلق عليه فيما بعد شيخ مشايخ جبل عامل، خصوصاً بعد أن أوقعوا (مجتمعين) الهزيمة بالشيخ ظاهر العمر وأجبروه على التراجع وقد تجلى دور هذا التماسك والوحدة العاملية فيما يتحدث عنه شعراء جبل عامل في تلك الحقبة في قصائدهم، خصوصاً لجهة إبلاء الشيخ على الفارس (حاكم مقاطعة الشقيف) في تلك المعركة وغيرها من بعدها.

أسباب التحالف: كان تحالف ظاهر العمر مع العامليين نتيجة للظروف السياسية والعسكرية على المستويين الداخلي والخارجي، فالبرغم من تمحور الإجتماع السياسي الداخلي لدى كل منهما حول مشروع واحد يتمثل بتحقيق الإنفصال عن السلطة العثمانية، او على الأقل تكريس أمر واقع يتمتع بحد أقصى من الإستقلال الذاتي والتبعية الإسمية للدولة العثمانية، متسغلين عدة متغيرات تسارعت على ساحة الأحداث[1]. أدت إلى إرباك عسكري وسياسي للسلطنة من إنشغالها بحربها مع القياصرة الروس والتي كان للفرنسيين دوراً بارزاً في تسعيرها وتغذيتها[2]، وبالتالي فإن إعلان علي بك الكبير حاكم مصر إستقلاله عن

1 - سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، ص 217 و218، حيث يقول: «... والحاصل أن الدولة لم تقدم على حرب قبل ذكل وحالتها هي الآن من الضعف والإختلال، وزيادة من ذلك فإن كثيراً من جهات آسيا لم يكن يعترف للسلطان بالتابعية إلا بالإسم فقط، وكانت جهات لبنان وسوريا في حالة تشبه الإستقلال التام، ولم تكن الدولة تجني من تلك الجهات خراجاً إلا النذر البير، وإن جبته فبشق الأنفس، وسبب ذلك عدم تمكنها من الإلتفات إلى إدخال هذه البلاد ضمن دائرة النفوذ الفعلي لما هي فيه نم الإشتباك في الحروب، ولخيانة العمال ومد يدهم لأخذ الرشوة من الجهة الأخرى...ً

2 - منير وعادل إسماعيل، الصراع الدولي، ج 1، ص 19، حيث يركدان على ذلك بالقول: «.. وفي عهد وزارة شوارزول، سنة 1766، توطدت العلاقة بين فرنسا والباب العالي، ولم يكن هذا الوزير ليتورع عن استعمال الرشوة في اتصالاته بالوزراء، وكبار رجال الدولة العثمانية، وتدل التقارير السياسية المحفوظة ف يوزارة الخارجية الفرنسية عن أن شوارزول وضع تحت تصرف فرجين، سفيره في القسطنطينية، في سنة واحدة، مبلغ ثلاثة ملايين فرنك لشراء موظفي الباب العالي وإبعادهم عن النفوذ الوسي، وكان ثمة سباق في الرشوة والتفنن في أساليبها بين شوارزول من جهة وكاترين الثانية، من جهة ثانية، لكس أكثر عدد ممكن من وزراء الدولة العثمانية...ً، وقد شكل ذلك بداية لظهور السياسة الأوروبية في اطراف الدولة العثمانية (استراتيجية فرنسا) خصوصاً في سياسة الأمراء الشهابيي،.. لاحظ: علي الزين للبحث عن تاريخنا، ص 485 وما بعدها.

الدولـة العثمانيـة شـجعهم لسـلوك طريـق الاسـتقلال بدورهـم عـن تلـك الدولـة[1] «وليشـكلوا معـه اتحـاداً شـبهه أحـد القناصـل الفرنسـيين «بالكونفـدرالي» Confederation[2].

بدايـة حـاول ظاهـر العمـر أن ينفـرد باسـتغلال تلـك الظـروف، محـاولاً ابتـزاز العامليين الذيـن وقفـوا بوجهـه موقـف الرفـض لهـذا الإبتـزاز (مطالبتـه بالبصـة ويـارون) الـذي حولـه ظاهـر العمـر إلى صـدام بعـد هجومـه عـلى جبـل عامـل الـذي صـده العامليـون بقيـادة ناصيـف النصـار، موقعـين بظاهـر العمـر شر هزيمـة (معركـة الـدولاب وطربيخـا) أدت بـه إلى توقيعـه معهـم معاهـدة صلـح، بعـد اقتناعـه بطـي صفحـة العـداء، وبـدء مرحلـة التحالـف والتعـاون[3] التـي بـدأت بزيـارة ظاهـر العمـر نفسـه إلى صـور للإجتـماع، ثـم توجهـه إلى حاصبيـا لزيـارة الـدروز، تـلاه تحـرك ناصيـف النصـار الـذي زار عـكا حيـث تـم توقيـع معاهـدة الصلـح، ومـن ثـم توجـه الشـيخ ناصيـف مـن عـكا إلى عنـد الـدروز[4]، لتشـكل هـذه التحـركات مجتمعـة تمهيـداً لوصـول حاكـم مـصر عـلي بـك الكبير،وهـذا مـا كانـت تسـعى إليـه كاترينـه الثانيـة مـن بـث روح الثـورة في شـعوب محيـط البحـر الأبيـض المتوسـط الخاضعـة للدولـة العثمانيـة، وذلـك سـعياً لفتـح بـاب هـذا البحـر عـلى أسـطولها الـذي سـاندته بريطانيـا[5].

ناصيـف النصـار والشـهابيين: رأينـا أن الـصراع مـا بـين إمـارة الشـوف وجبـل عامـل قـد اختفـى بفعـل عـدة عوامـل وأسـباب أهمهـا تعـرض جبـل الشـوف لحمـلات عسـكرية مـن الـولاة أوقعتـه في عجـز اقتصـادي كبـير مما أدى إلى إضعـاف الإمـارة اقتصاديـاً، وانقسـام الجبـل بسـكانه إلى حزبـين جديديـن غـير القيسـية واليمنيـة، همـا اليزبكيـة والجنبلاطيـة، إضافـة إلى ظهور زعامـة قويـة في جبـل عامـل، عملـت عـلى تحصينـه وتشـييد القـلاع فيـه، انتهـت هـذه الزعامـة إلى قيـادة ناصيـف النصـار الـذي كان يتمتـع بشـخصية قياديـة فـذة، أمنـت لجبـل عامـل وحدتـه الداخليـة ومناعتـه وتحالفاتـه الخارجيـة.

هـذه الظـروف أتاحـت للشـيخ ناصيـف النصـار، ومشـايخ جبـل عامـل أن يتفاهمـوا مـع الشـهابيين بـدءاً بشـهابيي وادي التيـم، وانتهـاء بشـهابيي الشـوف، فكانـت اللقـاءات بـين ناصيـف النصـار مـن جهـة، والأمـير اسـماعيل الشـهابي في حاصبيـا، والشـيخ عـلي جنبـلاط في جزيـن، وأخـيراً الأمـير منصـور في ديـر القمـر مـن جهـة أخـرى، وقـد جـرت هـذه المـداولات والإجتماعـات في منطـق الطرفـين فمـرة في حاصبيـا، ومـرة في صـور، ومـرة في الشـوف. وكان ينضـم إلى تلـك المفاوضـات الشـيخ ظاهـر العمـر.

---

1 - المرجع السابق، ص 23.
2 - A. Ismail Ibd T2 p. 169 . وعادة هذا التحالف أو هذا النوع من التحالف يكون بين الدول .
3 - Edouard Lockroy Ahmed le bouvher OP. cit 39
4 - الركيني، المصدر نفسه (أحداث سنة 1181ه).
5 - منير وعادل غسماعيل، الصراع الدولي، ص 23 و24.

هـذا وقـد تحـدث عـن هـذه الإجتماعـات قنصـل فرنسـا في صيـدا -كليرامبولـت- في رسـالة بعـث بهـا إلى وزيـر الدولـة الفرنسـية -الـدوق دي براسـلان- بتاريـخ 23 نيسـان 1767م يقـول فيهـا: «الشـيخ ناصيـف النصـار هـو اليـوم شـيخ مشـايخ المتاولـة الذيـن يقيمـون مـن صيـدا حتـى أرض عـكا، وبـما أن الحـرب في هـذه البـلاد تهـدأ ثـم تتجـدد كل ثلاثـة أشـهر فإنهـا تنتهـي بخـراب أحـوال الفلاحـين، وبإعطـاء المـبرر لمشـايخهم لتأجيل دفـع الضرائـب والمسـتلزمات الماليـة للـوالي: وقـد وصـل إلى هنـا -أي إلى صيـدا- الأمـير إسـماعيل أمـير وادي التيـم، وثلاثـة مـن مشـايخ الـدروز هـم: الشـيخ عـلي جنبـلاط، والشـيخ عبـد السـلام العـماد، والشـيخ كليـب النكـدي، وهـؤلاء يعاضـدون الشـيخ ناصيـف، فعملـوا عـلى إحـلال الوفـاق بينـه وبـين الشـيخ ظاهـر العمـر[1]..»

في ظـل هـذا المحـور التحالفـي، مـضى كل مـن ناصيـف النصـار وظاهـر العمـر إلى طموحهـم بالخـروج عـلى الدولـة العثمانيـة بعـد أن أمنا خطـر الشـهابيين (حلفـاء الـولاة الدائمين) الـذي كان سـابقاً، فتعاونـوا مـع عـلي بـك الكبـير في دخـول دمشـق، هـذا الدخـول الـذي باركـه الأمـير منصـور بإرسـاله الهدايـا، الأمـر الـذي أدى إلى عزلـه مـن إمـارة الشـوف بعـد انسـحاب قـوى التحالـف الثلاثـي مـن دمشـق وعـودة عثـمان باشـا إليـه، وتوليـه الأمـير يوسـف شـهاب مكانـه مـن قبـل والي صيـدا درويـش باشـا بعـد أن تنـازل عنهـا (صوريـاً) الأمـير منصـور[2].

ونذكـر هنـا أن الأمـير يوسـف بـن ملحـم الشـهابي، كان قـد تنـصر عـام 1754م واعتنق المذهـب المـاروني، فـكان أول حاكـم شـهابي مـاروني للإمـارة المعنيـة، أو إمـارة الـدروز، في بـلاد الشـوف، وقـد قُيِّـض لهـذا الأمـير أن يلعـب دوراً شـبيهاً لسـلفه فخـر الديـن المعنـي الثـاني، ووالـده الأمـير ملحـم وكـما سـيكون خلفـه الأمـير بشـير الشـهابي الثـاني.

1 - A. Ismail Ibd T2 p. 150

2 - سويد التاريخ العسكري، ج 2، ص 86 و87.

ناصيف النصّار وموقعه في الأحداث

بالطبع لم تكن الثورة هذه مطالبة بتغيير أنظمة الحكم، وإدارة الدولة، بل كانت محاولة الحكام المحليين لتعزيز نفوذهم، وبسط سلطانهم على شؤون الحكم والإدارة في ولاياتهم ومقاطعاتهم، مع بقائهم تابعين – على نحو ما – لسلطان الدولة كي تحميهم من أطماع الدول الأخرى «فالمتاولة ليس لديهم أي أطماع توسعية، وهم لا يكسبون من ثورتهم سوى مرحلة من الاستقلال والإعفاء من الجعلات المطلوبة منهم للسلطان. وليس بين الشيعة أمراء البتة، بل شيوخ يملكون القرى والقصور، يعيشون مع مقطعيهم كما لو كانوا من أمثالهم، وهم جميعاً من شيعة علي(1)..ً هذا ما قاله دي توليس قنصل فرنسا في صيدا برسالة له حول الأحداث التي وقعت في البلاد خلال شهر حزيران 1772.

بدأت انتصارات التحالف الثلاثي بوجه الدولة العثمانية وولاتها منذ أن استقر علي بك الكبير في مصر وطرد الوالي العثماني منها.... وكانت معركة نابلس عام 1770م [2]، ليستكمل الجيش المصري حملته باتجاه الحجاز بقيادة محمد أبي الذهب، ودخلت مكة [3].

عام 1771م كانت معركة دمشق التي دخلها الحلفاء وطردوا الوالي منها؛ لكن وشوشة وقعت فانسحب الجيش المصري بأمر من أبي الذهب أدت صدمة عند قادة الحلفاء وعلى رأسهم علي بك الكبير!؟...

لكن العامليين وحليفهم ظاهر العمر سارعوا إلى احتلال صيدا بعد أن علموا بهروب الوالي منها عندما انهارت معنوياته جراء أصداء سقوط دمشق [4]...

بعد الانساب المصري من دمشق عاد الوالي إليها ليجرد حملة ضد التحالف الثلاثي فكانت معركة ببحيرة الحوله الشهيرة بانهزام الوالي وعسكره شر هزيمة كان للشيخ ناصيف النصار والعامليين الدور الكبير [5].

1 - A. ismail. Ibd. T2. P253.
2 - أطروحتنا للدكتوراه، ص 285.
3 - الركيني، المصدر نفسه ص 185، والشهابي، تاريخ الشهابي، ص 799.
4 - التفاصيل في أطروحتنا للدكتوراه، ص 288.
5 - التفاصيل في أطروحتنا للدكتوراه، ص ص 289 .. 292.

في الحقيقة لم تكن هذه المعركة مستقلة بين المتاولة والدروز كما مشهور، وإنما كانت بينهم وبين الدولة العثمانية، ثم بينهم وبين (اللبنانين) جميعاً من دروز ونصارى، الذين لم يكونوا سوى (مخلب قط) تابعين لأوامر الدولة وبشواتها، وذلك لأن تسلسل الحوادث التي اشترك فيها المتاولة ومشايخهم مع ظاهر العمر، والتي كان آخرها معركة الحولة، أضف إلى ذلك هرب والي صيدا إلى طرف أبيه في الشام بعد أن عصت عليه المتاولة، وأرسلوا يهددونه بترك صيدا، فأرسل الأمير الشهابي له عسكراً يحافظ على المدينة وذلك بإيعاز من عثمان باشا والي دمشق الذي ترك له مطلوب بيروت والجبل (من ميري) تلك السنة[1] (1771م) ثم (ميري) سنتين بخط همايوني من الباب العالي[2]، كل ذلك مجتمعاً أدّى إلى ما حصل في كفررمان/ النبطية.

بعد فترة هدوء أو خلود للراحة (حسب تعبير دراغون) تلت معركة الحولة، بدأت مراحل هذه المعركة في نبذ مشايخ جبل عامل طاعة درويش باشا، كما أظهروا الشحناء للأمير بسبب توليه مكان عمّه الأمير منصور[3]، وقد شجّع على ذلك علي بك الكبير الذي وضع بتصرف الشيخ ظاهر العمر وحلفائه العامليين «أسطولاً بحرياً مؤلّفاً من سبعة عشر سفينة محمّلة بالمؤن، وعلى متنها سبعة آلاف من المقاتلين بأمرة أيوب بك[4]..».

وبالفعل أمر الشيخ ظاهر الأسطول بالإبحار باتجاه صور وصيدا، وأمر مشايخ جبل عامل بموافاته إلى بعد ثلاث ساعات من هذه المدينة، حيث سيكون مقرّ قيادته، أما هو فقد سار على رأس جيش من الغزاويين يراوح ألفي أو ثلاثة آلاف مقاتل[5].

في هذه الأثناء شاع خبر تقدّم جيوش التحالف الثلاثي باتجاه صيدا برّاً وبحراً، فذعر درويش باشا وجمع أركان الدولة والجيش في قصره، وأعلن عليهم «بكل وجل وضعف أنه عاجز عن مواجهة العاصفة التي تهدده[6]» وأنه قرّر اللجوء إلى دمشق، فلم يوافقه المجلس قراره، بل قرّر الأعضاء إيفاد مندوبين للمفاوضة...

---

1 - الزين، للبحث، ص 519.
2 - رسالة دراغون A.Ismail Op. Cit P.194.
3 - لم تكن علاقة العامليين بالأمير منصور قائمة على التّبعية أو العصبية والولاء، وإنما كانت سياسة، كصلتهم كأي حاكم مسالم لهم تتطور بتطور الظروف والمصالح، والأهداف فمثلاً كانت علاقتهم بالشيخ علي جيدة انقلبت إلى التنافر عندما أعلن الأخير وقوفه إلى جانب الولاة العثمانيين وسياستهم...
4 - اعتمدنا في تسلسل أحداث هذه المعركة على تقرير المعتمد التجاري الفرنسي في صيدا دراغون بتاريخ 9ت2 1771هـ A.Ismail. Op Cit. P/189/198.
5 - لاحظ الركيني، جبل عامل، العرفان م 28، ص 55 حيث يشير إلى أنه في رابع رجب (11 ت1) وكب ظاهر العمر إلى رأس العين ووصل الغز في البحر في عشرون مركباً إلى حد صور ونصبوا المدافع..
6 - Ismail. Op. Cit. P191.

ما كاد المندوبان ينطلقان حتى اعترضهما فريق من العامليين وساروا بهم إلى قصر الشيخ عباس العلي (قلعة ميس قاعدة إقليم الشومر) حيث تم التفاوض وعاد بعدها المندوبون لإبلاغ الباشا وجوب رحيله عن المدينة ليس كرهاً به، بل لأبيه عثمان باشا، وأعطي مهلة يومين للانسحاب باحترام، وإلا فإنه سوف يكون الضحية الأولى والمسبب للويلات التي ستحل بأبناء المدينة.

في 12 ت 1 عاد الوفد المفاوض إلى صيدا وبلغ ما سمع، فغادر على أثرها الباشا المدينة في 13 ت1، وتمّ ذلك بهدوء، وعهد بالمدينة إلى السلطات فيها، وليستلمها أول طالب[1].

في هذه الأثناء، تحرّك الأمير يوسف بجيش بلغ الخمسة والعشرون ألفاً نحو صيدا بناء لطلب والي دمشق عثمان باشا، وفي الطريق أوقفت درويش فرقة عسكر الأمير يوسف وأبلغته باسم الأمير أن لا يكمل طريقه، وبعد مداولات، عاد الباشا إلى صيدا مع قوة حماية درزية بقيادة الأمير أفندي شقيق الأمير يوسف، ولكن أصحاب السلطة تردّدوا بالسماح لهم بالدخول «ولكن بعد تهديد ووعيد سمحوا لهم بالدخول[2]...».

فوجئ الشيخ ظاهر العمر، وحليفه الشيخ ناصيف النصار بوصول الأمير يوسف بجيشه للدفاع عن صيدا، فعدلاً عن قرارهما بمهاجمتها، وقرر ظاهر العمر على مضض الانكفاء إلى عكا، تاركاً العامليين في المعسكر تجاه صيدا، الذين ما لبثوا أن غادروا إلى صور[3]...

في 17 ت1، وصل الأمير يوسف إلى نهر الأولي حيث عسكر هناك بانتظار المقاتلين الذي أمر بتجنيدهم، بحيث يصبح لديه جيش من أربعين ألف مقاتل، وفي ذلك اليوم وصل ساع من قبل عثمان باشا ليسلم الأمير يوسف، خطاباً همايونياً من الباب العالي يأمره فيه بالانضمام إلى الباشوات للعمل ضد المتمردين، ويعفيه من رسوم سنتين من الميرة... فتسلّم الأمير الأوامر بكل احترام وسجلها في المحكمة.

في 19 ت1، وبعد أن تمّ تجمع الجيش، أصدر الأمير يوسف أمره بالتحرك نحو بلاد المتاولة، فانطلق الجيش (باتجاه إقليم التفاح) يحرق ويدمر، وترك الشيخ علي جنبلاط لحراسة صيدا مع ألف وخمسمائة من أتباعه، بالتعاون مع الباشا الذي أذهله كل ما يحدث.

في 21 ت1، اغتنم الحلفاء هذه الفرصة فتقدمت السفن السبع عشرة التي تقل جنود علي بك، إلى قبالة صيدا محاولة الإنزال ولكنها لم تتمكن، فاكتفت بقصفها لمدة

---

1 - Op. Cit. P192 عندما بلغ داراغون بحشود الحلفاء أوفد لهم يلتمس منهم حماية الخان ودار القنصلية وجميع الرعايا الفرنسيين، فطمأنوه.

2 - Op. Cit. P192. وعند وصول الدروز أيضاً أرسل دراغون يهنئوهم بالسلامة وقدم الهدايا والمرطبات.

3 - Op. Cit.

ساعة.. ورد على القصف مدفع واحد كان في القلعة ما لبث أن نفذت ذخيرته[1].

تابعت جيوش الأمير يوسف تقدّمها إلى جباع حيث أحرقها مع قرى إقليم التفاح[2]، فهرب آل منكر (حكام المقاطعة) والشيخ حيدر الفارس (من مشاريخ مقاطعة الشقيف) الذي أتى لنصرتهم، إلى النبطية، التي كان قد تجمّع او في طريقهم إليها، العديد من النجدات من كل أنحاء جبل عامل ومعهم عساكر ظاهر العمر بقيادة أبنائه، وأخذوا يتداولون الرأي في رسم الخطط لمواجهة الغزاة[3].

بعدها واصل دروز الأمير يوسف زحفهم باتجاه النبطية مروراً بعرب صاليم حيث باتوا ليلتهم على نبع المئذنة[4] ثم تابعوا سيرهم لدخول النبطية بأربعة فرق ومن أربعة اتجاهات (حبوش، كفررمان، عرض الهوا وهو مدخل النبطية الشرقي، كفرتبنيت[5]) ولكن هذه الفرق لاقت قوى عاملية أوقفت تقدّمها وأفسدت عليها خططها، خصوصاً في كفررمان حيث اشتبكت معها وهزمتها. وكذلك وصلت فرقة إلى النبطية التي خرج منها الشيخ علي الفارس الصعبي ومعه علي الظاهر بخطة محنكة هزمت الفرقة التي هربت.

وعند وصول جيوش الشيخ ناصيف من ناحية شوكين، دخل إلى النبطية من جهة زبدين، مدخل النبطية من الجهة الغربية وحاصر عسكر الأمير يوسف وانقضّ عليه فتقهقر أمامه باتجاه كفررمان[6].

في صباح اليوم التالي طارد المتاولة بالسلاح الأبيض باقي فلول المهاجمين «فانكسر عسكر الأمير يوسف كسرة هائلة لم يكن مثلها في عسكر آخر على عهد هذه البلاد، حتى أن كثيراً من العسكر مات تعباً وعطشاً، ومنهم اختلت عقولهم فلم ينتبهوا لأنفسهم، ومنهم من ألقوا ثيابهم وأسلحتهم غنيمة للعدو ينشغل بها، وقيل أن رجلاً علقت ثيابه بشجرة هناك فوقف إلى أن وصلوا إليه وقتلوه، ومات في تلك الموقعة من عسكر الأمير يوسف أكثر من ألف وخمسمائة قتيل[7]، ولو وصل إليهم باقي عسكر المتاولة لما سلم منهم أحد[8]... ورجع الأمير يوسف ومن بقي معه من عسكره إلى البلاد وضجّت

---

1 - Ismail. Ibd. T2. P194.
2 - الشيخ سليمان ظاهر، معجم جبل عامل، العرفان، م8، ص 348.
3 - آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 127 وما يليها حيث يفصل للمعركة بإسهاب.
4 - الزين، للبحث عن تاريخنا، ص 526 و527 حيث يتحدّث ويناقش عن وساطة قام بها الأمير إسماعيل أمير حاصبيا وعلي الظاهر ثم يدحضها ليؤكد أن الأمير يوسف أرسل إلى الشيخ علي الفارس طالباً منه الصلح والنزول على رغباته ويسند رأيه هذا بزجلية الشاعر النابلسي الذي يقول:

لا علي تيروح لا عند الأمير   تايجبز الصلح وتعاود قبل

ثم يخلص إلى أن هذه المناورة كانت خداعاً ومكراً للمتاولة الذين لم تنطل عليهم. كذلك يؤيد مسألة الوساطة المعتمد التجاري دراغون في تقريره بتاريخ 9 ت2 ص 195 من الوثائق الدبلوماسية، وبعد فشل هذه المفاوضات التحق علي الظاهر بالمتاولة.
5 - آل صفا، المرجع السابق.
6 - آل صفا، المصدر نفسه والشيخ سليمان ظاهر، معجم قرى جبل عامل، العرفان، م8 ص 653.
7 - ذكر دراغون في رسالته أن عدد القتلى بلغ ألفين Ismail. Ibd. Op. Cit. 196 والمصادر العاملية تقول 3000 آل صفا ص 130 والزين 528.
8 - يذكر الشهابي في تاريخه ص 180 أن الأمر لا يخلو من مداخلة الأمير منصور مع الحلفاء للتخفيف من عدد القتلى.

الأرض بالبكاء والعويل، وتسربلت النساء بأثواب الحداد حتى كنت ترى نساء البلاد كالغربان[1]...».

وتتابع الروايات العاملية لهذه المعركة أن الشيخ ناصيف تمكّن من الأمير يوسف في عقبة جرجرع، فقنع رأسه بالرمح، وأنزله عن ظهر بغلته إلى الأرض، وإليه وألبسه الفرو مقلوباً[2]... كما تحدّث المؤرخون عن شجاعة وبسالة، وشدة، وبطولة المتاولة[3]... تلت هذه المعركة احتلال صيدا كما ذكرنا آنفا وطرد الوالي العثماني...

عام 1772 حصل الانقلاب من محمد أبو الذهب على سيده علي بك الكبير.. ما أن علم الباب العالي بذلك حتى أخذ يعدّ العدة لاستعادة صيدا، وضرب المتمردين، الشيخ ظاهر العمر ومشايخ جبل عامل، بعد أن فقدوا سنداً قوياً هو علي بك الكبير بجيشه الضخم الذي كان يقدر بأربعين ألف مقاتل، إضافة إلى بحريته... ووقعت معركة سهل الغازية التي انتصر فيها العامليون مع حليفهم ظاهر العمر على جيش السلطان وحلفائه[4].. واحتفظ الحلفاء بالمدينة إلى العام 1775م... بعدها بدأ التحالف بالإنهيار لأسباب عدة على رأسها خيانة أبي الذهب وقتله لعلي بك الكبير عام 1773م، ووصول أحمد باشا الجزار كوالي على صيدا وقتله للشيخ ظاهر العمر 1775م، ثم الشيخ ناصيف النصار ..

العامليون وموقفهم من تطور الأحداث

مع نهاية علي بك الكبير كأحد أركان التحالف الثلاثي، ترافقت تطورات وأحداث دولية مهمة تسارعت باتجاه الضغط على الحليفين الباقيين ناصيف النصار وظاهر العمر.

الحدث الأول هو قيام محمد أبي الذهب حاكماً مطلقا في مصر بعد علي بك، وبالتالي إقدامه على مصافحة الدولة العثمانية وتقديم الخضوع والولاء لها، حيث أرسل إلى الآستانة الجزية التي انقطعت عنها مدة ست سنوات، وتوسل بحدة إخلاصه للسلطان فاستأذنه في محاربة ظاهر العمر المناهض لحكم السلطان[5]،وهو طلب لو أتيح للباب العالي أن يلتمسه التماساً لفعل فكيف به وهو يمنحه تكرماً. وبالفعل فقد أجيب لطلب أبي الذهب حيث أسبغ عليه لقب باشا القاهرة حتى غدت الحملة شغله الشاغل فتمكن من طرد الظاهر من دياره.

---

1 - النص الكامل للأمير حيدر شهاب في تاريخه، ص 809 و810 والتي تعتبر روايته من أصدق الروايات كونه أخا الأمير يوسف وبالتالي معاصراً للحدث.

2 - آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 130.

3 - حول هذه المعركة يمكن الاطلاع على Lockroy P55 Ismail Op. Cit T2. 190 فولني والشهابي والشيخ سليمان ظاهر وآل صفا والشيخ علي الزين الذي يشير إلى عدّة مؤرخين أيضاً ويناقش أقوالهم مثل طنوس الشدياق وعيسى إسكندر المعلوف وغيرهم.

4 - للتفاصيل راجع أطروحتنا للدكتوراه، ص ص 300 ... 304.

5 - فولني، ص 97.

الحدث الثاني والأهم وهو أن الدولة العثمانية كانت قد أنهت صراعها مع الروس بمعاهدة (كوجوك / فينرجي) في 21 تموز 1774م[1] والتي بموجبها أعلن عن استقلال عدة بلاد طالبت بها روسيا، كذلك بحرية الملاحة في البحر الأسود، وضمان سلامة الحجاج الروس إلى القبر المقدس، وحق الأمبراطورة كاترينا في حماية الأرثوذكس وكنائسهم في الأمبراطورية العثمانية، ورفعت هذه المعاهدة روسيا إلى مستوى الدول الأكثر رعاية في الدولة العثمانية من امتيازات تجارية، وإنشاء قنصليات لها في مختلف مدن الأمبراطورية، إضافة إلى أن الدبلوماسيين الروس تعمدوا وضع بنود المعاهدة بأسلوب تفسح في المجال للتأويل، تمشياً مع الظروف، فنزل خبر المعاهدة هذه على الأوساط الأوروبية نزول الصاعقة، فكانت فاتحة عهد جديد في العلاقات الدولية بين أوروبا والأمبراطورية العثمانية تكثفت على أثرها تقارير ورحلات، ومذكرات الساسة والرحالة الأوروبيين، عن أهمية الشرق وآثاره وغناه وأهميته الإستراتيجية[2].

وبكلمة هي أن الروس وبموجب تلك المعاهدة قد نالوا كل ما يريدون، وباتت أهدافهم «في فتح باب المتوسط، وبث روح الثورة في شعوبه الخاضعة للدولة العثمانية في مصر وسورياً[3]، في متناول أيديهم، عندما تخلوا عن دعمهم لقادة تلك الثورات ومنها ثورة (الحلفاء الثلاثة) الذي فقد أحدهم (علي بك)، وأخذ الثاني (ظاهر العمر) ينهار بسرعة دون أي تدخل للأسطول الروسي الذي كان من أهم دعائم التحالف الثلاثي، والتي تتحدث بعض الروايات عن أن هذا الأسطول انسحب من البحر المتوسط بعد تلك المعاهدة[4].

لعله إنطلاقاً من هذا الواقع وهذه الحقائق، لاحظ العامليون الذين لم يفكروا يوماً بالتوسع سوى بالحرية والإستقلال في بلادهم، انهم عاجزون عن مجابهة الأحداث التي بدأوا يترقبونها، والتي كان ظاهر العمر نفسه يشعر بخطرها.

لهذا، فإنه عندما طلب منهم -أي العامليين- ظاهر العمر «أن يركبوا خيلهم ورجالهم لملاقاة أبي الذهب إلى غزة، وذلك يوم السبت 30 محرم 1189ه[5]» لم يلبوا طلبه، بل أنه في «صفر -أي في الشهر الطالع- أرسل المشايخ التقادم والذخيرة إلى باشا -الشام[6]...!»

مما يلاحظ، بأن مشايخ جبل عامل، قد توقفوا عن الإسترسال مع ظار العمر في خوض

1 - سرهنك. تاريخ الدولة لعثمانية، ص 226، كذلك منير وعادل إسماعيل الصراع الدولي، ص 25.
2 - منير وعادل إسماعيل، الصراع الدولين ص 25 و24.
3 - المرجع نفسه، ص 23.
4 - الزين، للبحث عن تاريخنا، ص 548.
5 - الركيني، المصدر السابق، العرفان، م 287، ص 255.
6 - المصدر السابق نفسه.

المعارك ضد الدولة، وضد أنصارها من الحكام كأبي الذهب بعد انقلابه، بل أخذوا يتقربون لمثليها من حكام الشام بإرسال التقادم والذخيرة سلفاً، وعذرهم في ذلك تطور الأحداث وتقلبها[1].

لأجل ذلك، وأثناء وصول أبي الذهب إلى عكا، يقول الركيني أنه «سافر الشيخ ناصيف النصار أيده الله إلى عكا لمواجهة محمد بك أبي الذهب، فأكرمه إكراماً زايداً، وكانت شفاعته ماضية عند جنابه في كل شيء يريده[2]». أما الشهابي فيقول أنه «حضر الشيخ ناصيف النصار إلى مقابلة محمد بك أبي الذهب وأصحب معه عشرين حصاناً من جياد الخيل، فقدمها إليه، فطيبت قلبه، وأمره أن يقيم عنده إلى أن تحضر بقية مشايخ المتاولة[3]»، ويتابع الركيني «ثم أن الشيخ قبلان سافر إلى عكا لمواجهة محمد بك..، وتعبت في سطوته جميع العجم والعرب، وما أحد إلا ونزل به الهم والكرب، وحل بالناس الويل والعطب، وكل يقول الهرب ثم الهرب، ما دام أبو الذهب لنا في الطلب[4]».

زعماء جبل عامل والجزار:

مع وصول الجزار والياً على إيالة صيدا سنة 1191هـ/ 1777م ووفق نهجه السياسي، بدأ بضغطه على الأمير يوسف، فطلب منه الأموال السلطانية عن ثلاثة أعوام[5] (فترة ولاية ظاهر العمر وتحالفه معه) ثم بدأ بتأليب الشهابيين وأمراء الشوف عليه، محاولاً خلعه من بيروت (التي طرده منها بمساعدة الحلفاء) حيث ساعد أخوته الأمير سيد أحمد والأمير أفندي الذين فرا إلى حاصبيا حيث أخذا يعملان لعزل أخيهما الأمير يوسف، وباستمالة الشيخ ناصيف كبير المتاولة[6].

ولما كانت خطوة ذينك الأميرين لا تتعارض ونوايا الجزار العدائية تجاه الأمير يوسف، فقد مال ناصيف إليهما وناصرهما مصانعة للجزار (هادفاً إبعاد جبل عامل من الفتن الأخيرة) الأمر الذي أدى بالأمير يوسف لاسترضاء أخويه في حينه.

استمر الشيخ ناصيف والعامليون بعلاقتهم الطيبة مع بعض أعيان الشوف – خاصة من مناهضي الأمير يوسف الإمارة ولعل هذا التوادد يعود إلى ما بين الأمير يوسف والجزار من عداء. انعكست في لقاءات بينهم بمناسبات اجتماعية «ففي ذي القعدة 1191هـ حضر الأمير عثمان بن الأمير سليمان الشهابي إلى قلعة مارون، وعزّى بالشيخ أسعد بن محمد النصار الذي كان قد توفي في يوم الجمعة 13 شوال من السنة نفسها[7]».

1 - راجع مشاورة ناصيف النصار لكبار علماء جبل عامل وعلى رأسهم السيد ابو الحسن جد آل الأمين في شقرا وغيره. حسن الأمين: مستدركات أعيان الشيعة، ج1، ص 244.
2 - الركيني، المصدر السابق، العرفان، م 28، ص 255.
3 - الشهابي، تاريخ الأمير حيدر، ص 823، والزين، للبحث عن تاريخنا، ص 549، نقلاً عن المؤترخ جورج بني.
4 - لاركيني، الص
5 - الشهابي، ص 828.
6 - المصدر السابق.
7 - الركيني، مصدر سابق، العرفان، م 28، ص 351.

«وفي 21 شعبان 1192هـ 1778م ذهب جميع مشايخ جبل عامل إلى بلاد الدروز للتعزية بالشيخ علي جنبلاط. (حليف العامليين ووسيط الأمير يوسف معهم) الذي كان قد توفي في 18 شعبان[1]. حيث بعد مأتمه (رجع الأمير يوسف إلى نبع الباروك، وعقد ديواناً مع أكابر البلاد وترك الحكم لأخويه الأمير السيد أحمد وأفندي، وسكن في غزير)[2] وخلع الجزار على الأميرين فيما بعد، ويتضح أن تخلي الأمير يوسف عن الإمارة بهذه السرعة لم يكن بملء إرادته (حيث بعدها عمد إلى مراسلة أكابر البلاد سراً ويبعدهم عن أخويه..[3]) وكان قد اشتهر عن الجزار أنه يبيع خلعة الولاية لمن يدفع أكثر، (فدفع الأمير يوسفماية قرش أكثر)[4] عندها أمر الجزار جيوشه التي أمرها محاصرة الأمير يوسف بالرجوع والتخلّي عن الأميرين سيد أحمد وأفندي الذين فرّا إلى المتن ولكن المساعي أدّت إلى صلحهما مع أخيهم وعودتهما إلى دير القمر* (وفي 15 ذي القعدة جاء كليب بن أبي نكد – من معارضي الأمير يوسف – وسكّن في ديردغيا[5] في جبل عامل).

«في ذي القعدة من نفس السنة ذهب عقيل بن ناصيف إلى عند أولاد علي جنبلاط[6]» وما هذه الزيارات والمجاملات، إلا دليلاً على مدى الاستقرار والطمأنينة التي كان بها العامليون أو بالأحرى بالهدوء الذي سبق العاصفة بحسب منهجية الجزار السياسية*.

في البدء طلب الجزار من المتاولة المساعدة في غارته على بلاد الدروز، ولكنهم لم يرتموا في أحضان الجزار لأول وهلة، ولا تهافتوا أمام قوى الدولة وسطوتها لأول بادرة،

1 -.الركيني، المصدر نفسه، ص 453.
2 - الشهابي، ص 834.
3 - المصدر السابق 835.
4 - المصدر نفسه.
* - بعد هذا، لم تستقر الأوضاع في الجبل بين الأخوة، بل استمرت معارك وقتال دام على أثرها كانت إمارة الجبل تتأرجح أيضاً بين الأخوة، هذه الحروب الداخلية لا يمكن أن يستبعد الجزار عنها جانباً، بل كان حاضراً في كل حدث من الأحداث، فالجزار بدأ حياته السياسية مع الأمير يوسف عاملاً له، وانتهى سيداً عليه في ولاية صيدا يألب إخوته ومن حوله عليه، فكان نهاية الأمراء الأخوة على يد بعضهم، والأمير يوسف شنقاً على يدي الجزار في عكا بعد أن أعطاه الأمان، إثر تسلّم الإمارة في الشوف للأمير بشير المقرب من الجزار جداً، إنها بالفعل صورة واضحة عن منهجية الجزار السياسية والعسكرية.
- حول هذه التفاصيل راجع تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا.
- Ismail.Ibd. P359-363. Renard. Seyde. 11/4/1781.
- وتقرير القنصل الفرنسي Ismail. Ibd. 359-358 Arazy. Seyde 11/4/1781.
- وتقرير نائب القنصل الفرنسي أيضاً Ismail. Ibd. P381 – 384 Renard. Seyd 1/9/1781.
- وتقرير القنصل الفرنسي Ismail. Ibd. P417- 418 Arazy. Sayde 8/5/1784 et p419-430 والشهابي المصدر نفسه ص 835 – 863.
5 - الركيني، مصدر سابق، ص 454، وديردغيا قرية من قرى جبل عامل قضاء صور ذات أغلبية مسيحية.
6 -.الركيني، المصدر السابق.
* - قد يكون الرد التساؤل الذي يخطر بالبال عن احتلال الجزار لجبل عامل مباشرة بعد توليه ولاية صيدا، لأسباب تعود إلى تقدير الجزار لقوةالعامليين التي تنامت في عهد ناصيف النصار الذي وصفه القنصل الفرنسي دي توليس «بكبير مشايخ المتاولة، الشهير بين جماعته بالشجاعةً. Ismail. Ibd T2 p213 Seyde 28/6/1772 ثم قال عنه «الشيخ ناصيف الشهير في جميع أنحاء سوريا بشجاعته.ً. Op. Cit P241/242.Syde 28/6/1772 وهذا ما ناله البارون دي توت «.. إن قلاعهم التي يسكنونها، تعزز من صمودهم، وتحفزهم على النهوض والثورة كما تجعل إخضاعهم أكثر صعوبة، فكل قمة في جبلهم قائم بذاته، وكل ملاك هو إقطاعي كبير، (إشارة إلى تعدد القلاع والحصون في جبل عامل وبالتالي تعدد الزعامات المتحدة تحت قيادة ناصيف النصار بعكس الوضع في إمارة الشوف من الناحية العسكرية والسياسية) وهذا الشعب متعصب لتعاليم (الإمام علي).. وقد اتفقوا على دفع المتوجب السنوي عليهم كضريبة للدولة وقيمتها 200 كيس – إشارة إلى اتحادهم أيضاً كي ينصرفوا بجبالهم، وفي ظل زعمائهم وإقطاعاتهمً. Baron de Tott Memoire sur les turcs et les tartars. Amsterdam. M. DCC. LXXXV (1785) – p.86-87.

ولكنهـم وقفـوا موقـف الحيـاد والحـذر إلى أن جـرت الأمـور بمجراهـا الطبيعـي[1]، وبـدا مـن الجزار مـا بـدا في زيارتـه لمدينـة «صـور بتاريـخ 20 صفـر 1190هــ[2]» ومبيتـه عنـد الشيخ حمـد العبـاس. «ثـم نـزل الشيـخ ناصيـف النصـار بعـد ذلـك لمواجهتـه في صـور بتاريـخ 2 ربيـع الأول مـن نفـس السـنة[3]» حيـث يعتقـد أنهـم اتفقـوا عـلى شي مـا؟

بعـد ذلـك اشـترك مشـايخ المتاولـة مـع الجـزار في عـدة معـارك منهـا ضـد عـلي الظاهـر بـن ظاهـر العمـر[4] (حليفهـم مـن قبـل) وكذلـك في واقعـة الجـولان سـنة 1192 هــ ضـد حلفاء والي الشـام محمـد باشـا العظـم (مـن تقاليـد الدولـة العثمانيـة – إذا تمـرد عليهـم أحـد مـن النـاس أو غضبـوا عـلى حاكـم أو أمـير – أن يدفعـوا مجاوريـه مـن الحـكام ورؤسـاء العشـائر مـع ثلـة مـن عسـاكر الدولـة العثمانيـة اشـترك في المعركـة مـع والي الشـام[5].

كـما اشـترك مشـايخ جبـل عامـل مـع عسـاكر الجـزار والأمـير شـهاب في واقعـة علـمان وعانـوت وذلـك بعـد قتـل الأمـير يوسـف لأخيـه أفنـدي، وقامـت الأهـالي ضـده وفـرّ إلى عنـد الجـزار ودفـع لـه ثلاثمائـة ألـف قـرش وأعـاده إلى حكـم البـلاد بعـد أن أرسـل معـه عسـكراً.! وعندمـا وصـل الأمـير يوسـف بعسـكر الجـزار إلى قريـة علـمان وعانـوت، جـرت بينهـم وبـين عسـكر الأمـير سـيد أحمـد شـهاب معركـة انكـسر فيهـا عسـكر الأخـير وأهـالي الشـوف. وفي هــذه المعركــة ركــب المتاولــة بقيــادة ناصيــف النصــار مــع عســاكر الجــزار والأمــير يوســف ووصلــوا بهجومهــم إلى جزيــن[6].

في هــذه الحملــة فــرّ أبنــاء عــلي جنبــلاط إلى قريــة الريحــان في جبــل عامــل ثــم خفيــة إلى جبــاع إلى عنــد الفقهــاء بيــت الحــر، وقابلــوا الشــيخ ناصيــف إلى الجــزار في رتــق أمورهــم فــكان جوابــه (أن يدفعــوا ألــف وخمســمائة كيــس حتــى نســمح لهــم عــن دمهــم، ونســكنهم في الموضــع الــذي نريــده لا في الموضــع الــذي يختارونــه هــم[7]...». ثــم اشــترك المتاولــة مــع الجــزار في واقعــة ظهــر الأحمــر لنجــدة الأمــير محمــد أمــير راشــيا ضــد عســاكر محمــد باشــا العظــم والي الشــام[8]، الــذي أراد توليــة الأمــير ســيد أحمــد عــلى وادي التيــم، وبعــد عــودة هــذا الأخــير مــن واقعــة ظهــر الأحمــر، عــاد إليــه الجنبلاطيــون موالــين لــوالي الشــام، فســار إليهــم الأمــير يوســف بــما عنــده مــن عســاكر الجــزار وعســاكر جبــل عامــل، ودارت الحــرب بــين الطرفــين في أرض قــب اليــاس

1 -.الزين، فصول، ص 40.
2 -.الركيني، المصدر نفسه ص 350.
3 -.المصدر السابق.
4 -.المصدر السابق.
5 -..الركيني، ص 454 حيث يشير أيضاً إلى أن الجزار قاتل مع الشيعة الحمادية في جبيل ضد والي طرابلس ويذكر هنا أن هؤلاء أبدوا تآزرهم مع العامليين أثناء معركة سهل الغازية فاقتص منهم يومها الأمير يوسف (راجع آنفاً).
6 -.الركيني، مصدر سابق، ص 830.
7 -.المصدر نفسه، ص 831. وهذه الرواية تدلّ على مدى دور الفقهاء في جبل عامل ومدى الاحترام الذي كان يكنّه لهم ناصيف النصار والمحيط الذي يعرف ذلك.
8 -.الركيني، المصدر نفسه، ص 831.

وكانـت الغلبـة للأمـير يوسـف وحلفائـه[1]*.

خراب جبل عامل بعد واقعة يارون ومقتل ناصيف النصار 1195هـ 1781م

لسـبب أو لآخـر. يمـت إلى مكـر وعدوانيـة وشـخصية الجـزار، ولكـن يظهـر أن هـذا الأخـير بعـد أن صفـى كل أخصامـه، بقـي يـراوده إخضـاع جبـل عامـل لسـلطته المباشرة، حيـث لم يـبرز مـا يـبرر مقاتلتـه للشـيخ ناصيـف النصـار[2]، وفجـأة حـضر الجـزار بجيـش لجـب لقتـال العامليـين فكانـت معركـة يـارون سـنة 1195هــ يـوم الاثنـين الخامـس مـن شـوال، حيـث قتـل الشـيخ ناصيـف النصـار الـذي لم يخـف شـجاعته بمنازلتـه ذلـك الجيـش «وبموتـه حزنـت عليـه المتاولـة أجمـع إلى مرجعيـون[3]» وتشـتت جنـوده وطويـت صحيفـة اسـتقلال جبـل عامـل طيلـة ربـع قـرن حتـى مـوت الجـزار سـنة 1804م.

ثـم بعـد المعركـة اكتسـحت جنـود الجـزار البـلاد، وأحرقـت القـرى، ودمـرت المنـازل. وشـحن مـا في مكتبـات جبـل عامـل مـن التآليـف والتصانيـف والمخطوطـات النـادرة والثمينـة حيـث أحرقـت في أفـران عـكا التـي بقيـت – سـبعة أيـام – تعمـل عـلى حسـاب أوراق الكتـب والمخطوطـات[4]. وهدمــت القلعــة وأخــذوا مــا في القلعــة وهدموهــا[5].

وكذلـك الأمـير إسـماعيل (أمـير حاصبيـا) الـذي صـار يعـد النسـاء ويأخـذ عليهـن خفـراً[6]، كـما أخـذ العـداد والخـراج، فشـكى علـماء وزعـماء ووجهـاء العامليـون عـبر شـكوى وقعوهـا ورفعوهـا إلى الأسـتانة تنسـب للجـزار الأعـمال الفظيعـة (امتنـع عـن توقيعهـا العـالم الكبـير الشـيخ حسـين نعمـة الـذي كان يقيـم في قريـة جبـع، وهـو جـد العلامـة الشـهير الشـيخ عبـدالله نعمـة..!)، ولكـن حكومـة البـاب العـالي رغبـة منهـا كذلـك أرسـلت إليـه – أي للجـزار – الشـكوى، فانتقــم نــم الموقعــين أشــد انتقــام، ومــن شــدّة بطشــه وإسراف رجالــه في ذلــك الشـعب قتـلاً وذبحـاً، قبـض عـلى فريـق مـن الوجهـاء فأماتهـم خنقـاً في سـجون عـكا، وفـر

---

1 -.المصدر نفسه.

* - إذن القوة العسكرية الموزعة في أرجاء جبل عامل كانت الحائل دون سيطرة الجزار، باعتبار أن القوة الموزعة تحتاج إلى قوة أكبر لم تكن متوفرة بعد عند أحمد الجزار الذي لم يكن قد ركّز سلطته جيداً بعد، وبالتالي فإن الجزار كان يريد أن يضرب ضربة تؤلم جبل عامل بكامله وليس جزءاً منه كون السلطة السياسية فيه موزعة على أقاليمه السبعة رغم أن الزعامة كانت معقودة للشيخ ناصيف الذي كان قد ساهم مع الجزار في عدة معارك ومواقف استفاد منها الجزار من قوة العامليين..!؟.

2 -.سوى أن ناصيف النصار كان في التحالف الثلاثي الذي أرغم الجزار على الانسحاب من بيروت عام 1773م بعد أن انهزم مع جيوش الدولة العثمانية في معركة الحارة/ سهل الغازية ولكن يتحدث بعض المؤرخين عن فرمان سلطاني بأمر اجتياح جبل عامل لاحظ حسين سليمان مجلة الفكر العربي، عدد 58، ص 114.

3 -.الركيني، مصدر سابق، العرفان م28، ص 832.

4 -.حسن الأمين، مستدرك أعيان الشيعة م2 ص 122 حيث يذكر أن بعض الفلسطينيين من أهل المعرفة استطاعوا إنقاذ القليل منها، وبيع بعض آخر وبعض آخر وصل إلى مكتبة بشير الثاني وبعض البيوت البيروتية.

5 -..الركيني، المصدر السابق، ويذكر لي الحاج محمد دكروب من تبنين أن أحد ضباط قوات الطوارئ الدولية العاملة في لبنان استحصل له على صورة لبوابة قلعة تبنين والتي هي اليوم في عكا.

6 -.الركيني، المصدر نفسه.

وشرد من بقي منهم إلى البلادة المجاورة والبعيدة كالشام والعراق والهند وإيران والأفغان، ومنهم من التجأ إلى الحرافشة في بعلبك وبعضهم قصد «عكارً فأنزلهم حاكمها علي بك الأسعد المرعبي في دار رحبة ما تزال للآن تعرف بدار العشائر، وأما الشيخ حسين نعمة فقد أكرمه الجزار لامتناعه عن توقيع مضبطة الشكوى[1]. وجعلت الدولة بعدها تأخذ من الرعية الأموال والخيل والسلاح وكانت هذه السنة سنة خوف وجزع وذعر شديد[2].

ظل أهل جبل عامل مدة تقرب من قرن يفتتحون كل عزاء (على الإمام الحسين) بميت منهم بعزاء الشيخ ناصيف، إلى أن أفتى أحد علماء الدين (لعله السيد محسن الأمين) بحرمة ذلك، كي لا يتحول شعيرة دينية، فكفّ الناس بعدها عمّا كانوا عليه[3].

وتحدّث قنصل فرنسا العام في صيدا السيد آرزاي في رسالة إلى الكونت دي فرجيني وزير الدولة بتاريخ 2 تشرين الأول 1781 يقول: «.. إن موت الشيخ ناصيف النصار ونحو ثلاثمائة إلى أربعمائة من فرسانه، مع عدد من المشايخ، وضع بضربة واحدة، حداً لهذه الحرب وذلك بتشتيت باقي المشايخ الذين وقع اثنان منهم في قبضة الباشا.. وقد غنم عسكر الباشا كثيراً نظراً لغنى تلك البلاد وخصابة أرضها[4]..».

يوضح التقرير على ما كان لناصيف النصّار من أهمية في قيادته لجبل عامل في ذلك التاريخ، على أننا لا نغفل دور الزعماء العامليين الآخرين الذين بموتهم قد فقد ناصيف النصار الكثير الكثير من الوحدة والاستئناس بمساعديه، لا بل القوة العاملية. فقد توفي عباس المحمد وعلي منصور المنكري سنة 1187هـ وعلي الفارس الصعبي سنة 1189هـ ومحمود النصار وقاسم المراد سنة 1193هـ[5] أضف إلى ذلك مقتل حلفائه ظاهر العمر وعلي بك بعد مجيء الجزار الذي استعمل معه ناصيف النصار أقصى درجات التودد المشوب بالحذر معتمداً سياسة الحنكة والحكمة ومحافظاً على قوته الذاتية، ولكن المنهج السياسي عند الجزار كان واضحاً، وبالتالي كانت النتيجة رغم ذلك واضحة، ولكن ناصيف بالحقيقة استطاع أن يستمر فترة طويلة وربما كانت أطول لو أن الظروف الداخلية والخارجية لم تكن لصالح الباشا.

إن ما يميز عهد ناصيف النصار هو فترة الحكم الذاتي، في ظل قيادة أمسكت تماماً بالسلطة السياسية والعسكرية، فشاع الأمن والاستقرار، وحددت الضرائب على

1 -.أحمد عارف الزين، جبل عامل في تاريخ الجزار، العرفان م 43 ص 234.
2 -.الركيني، المصدر نفسه.
3 - هذا شائع إلى اليوم تتواتره الناس في جبل عامل وأتى على ذكره الشيخ جعفر المهاجر: شيعة لبنان، ص226.
4 -.Ismail. Ibd. T2. P385-386. Arazy. Seyde. 2/10/1781.
5 -.الركيني، مصدر سابق، العرفان، م 28، ص 158 و256 و454.

جميع مقاطعات جبل عامل لصالح الدولة العثمانية، سنوياً بستين ألف قرش[1] وكان الأقطاعيون لا يلزمون برفع علم الدولة الرسمي في اجتماعاتهم بل كان لهم أعلام خاصة من نسيج حريري، أخضر وأحمر، كتب عليها بالنسيج الأبيض ثلاثة سطور، الأول: لا إله إلا الله – والثاني: لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار – والثالث: نصر من الله وفتح قريب[2]. كما أعفي العامليون من الضرائب المتنوعة التي فرضها العثمانيون من (ويركو، وأعشار، وتمليك) وغير ذلك – حيث عاد وطبق هذا النظام فيما بعد في جبل عامل فناء تحته العامليون خصوصاً في عهد عبد الحميد – بحسب النظام الأقطاعي العسكري الذي كان سائداً، كما أعفي الشباب العاملي من أن يساقوا إلى الجندية إلا تحت قيادة الزعامة العاملية المحلية[3]، فانعكس هذا في وحدة سياسية وعسكرين واقتصادية واجتماعية، ازدهرت معها الحركة العلمية والثقافية على يد العلماء الذين أمسكوا بالتعليم والتشريع والقضاء[4]، ما أكسبت جبل عامل شخصيته الحقيقية..

مع استباحة الجزار لجبل عامل هجر الشيخ إبراهيم وطنه إلى دمشق وعاش هناك متخفياً متشوقاً إلى وطنه عاملة، فأظهر ذلك الحنين إلى الوطن بشعرٍ اعتبر مظهراً انفرد به شاعرنا باعتباره الحنين إلى مكرمات الوطن وأمجاده مناسبة للفخر[5]، فما أن يتوجع على أيام مضت في بلاده الجميلة، بين جبالها الشم وهضباتها العالية، وروضها الأفيح، حتى يستعيد ذكر رجالاتها العظام، من كريم سمح، وفارس مغشم، وعالم حبر، وتقي خاشع، وشاعر مقول، ثم يختم بالتلهف على تلك الديار وأهلها ويذكر سبب خروجه منها مشتكياً إلى الله غربته فيقول في مطلع قصيدته المشهورة:

من لي ببرد مواسم اللذات والعيش بين فتى وبين فتاة

إن استشهاد المرثي الشيخ ناصيف النصار بنظر شاعرنا حرم الأمة سيفها، وسهمها، ورمحها، لأنه كان في حياته كريماً بين كرام، فهذا التعبير يدلّ على مستوى التفاعل بين القيادة والأمة، ولكنه جازهم (المرثي) كلهم، وقضى شهيداً في حومة النضال والشرف، مقدماً نفسه في محراب الدفاع عن هذه الأمة، ليقدم بذلك أروع نموذج في القيادة « فأي شهيد لا يطهره الدم »؟.. فجاء في قصيدة رثائه للشيخ ناصيف هي رثاء على مستوى الأمة:

---

1 -.راجع: ما قاله "Baron de Tott. Ibd. P86- 87" وقناصل فرنسا في صيدا.
2 -.آل صفا، تاريخ جبل عامل، هامش ص 90.
3 -.المرجع السابق.
4 -.الأمين، خطط جبل عامل، ص 127.
5 - أسامة عانوتي: الحركة الأدبية في بلاد الشام، ص 118.

مـنـازل أهــل الـعـدل منهم خلية | فيها لأهـل الجــور جيش عرمرم
وعــهــدي بهـا مـأهـولـة وربيعها | عـلى كـل مـرتـاد الـعـنـاد محـرم
وكــان لهـا مــن آل نـصـار صـارم | صقيل وسهـم لا يطيش ولهـذم
هو الليث بل أعدى من الليث في العدى | هو الغيث بل أنـدى بناناً وأكرم
قـضي في ظـلال المـرهـفـات مطهراً | وأي شـهـيـد لا يـطـهـره الـدم
فـقـدناه فـقـدان الـصـباح ومــن لنا | بطلعته الـغـراء والـدهـر مظلم
فجعنا به والشمس في رونـق الضحى | فـلـم نـمـس إلا والـبـلاء مخيم
وعـاثـت يـد الأيـــام فينا فمجدنا | وبـالـرغـم مني أن أقــول مهدم
ولـسـت تـرى إلا قـتـيـلاً وهـاربـاً | سليباً ومـكـبـولاً يغل ويرغم
وكـم عــالم مـن عـامـل طـوحـت به | طوائح خطب جرحها ليس يلأم
وأصـبــح في قـيـد الهــوان مكبلاً | وأعـظـم شيء عـالم لا يعظم[٦]

المقاومة العاملية رداً على سياسة الجزار

العامليـون، الذيـن تعـوّدوا التمـرد والثـورة عـلى كل حكـم أجنبـي، وآنسـوا في حياتهـم شـيئاً مـن الحريـة والاسـتقلال الـذاتي، لم يسـتكينوا لحكـم الجـزار الـذي تميّـز بالغلظـة والقسـوة، فحكـم البـلاد بالحديـد والنـار، وقـضى عـلى قسـم كبـير مـن زعمائهـم، وشرّد القسـم الآخـر.. وهاجـر العلـماء والمثقفـون لمـا كان لهـم مـن تأثـير سـياسي واجتماعـي. أمـا الأشـخاص العاديـن فلـم يكـن فرارهـم يتجـاوز الغابـات والأدغـال العامليـة حيـث يتسـنّى لهـم أن يعـودوا إلى أعمالهم وبيوتهـم وحقولهـم عندمـا يخـف الضغـط، وتهـدأ الأمـور لأنهـم ليسـوا المسـؤولين ولا المعروفـين بأسـمائهم لـدى الدولـة..

ولكـن البـلاد عرفـت في عهـد الجـزار عـدد مـن الانتفاضـات التـي كانـت أول مظاهرها بعـد سـيطرة عسـاكر الجـزار عـلى المقاطعـات العامليـة وقلاعهـا كافـة هـي تمـرد الشـيخ حيـدر الفـارس الصعبـي – حاكـم مقاطعـة الشـقيف – مـع 500 إلى 600 مـن أتباعـه وممـن لجـأ إليهـم هاربـين، وصمودهـم في قلعـة الشـقيفً التـي لم يبـق بوجـه الجـزار سـواها مـن الحصـون التـي كان بإمكانـه المقاومـة نسـبياً فيـما لـو كان محميـاً جيـداً[1]..».

وبالفعـل فقـد بقـي العامليـون في القلعـة شـهرين بعـد معركـة يـارون، مظهريـن مقاومـة بـكل مـا أتـوا مـن قـوة حيـث «أبـدى مـن فيهـا كل حميـة ممكنـة للقيـام بواجبهـم ولم تتمكـن المدفعيـة مــن تهديـم القلعــة»[2]..

1 -.Ismail.Ibd. P386. Arazi. Seyde de 2/6/1784
2 -.Ibid

بعد هذا الحصار الطويل لجأ الجزار إلى الحيلة التي كان من ورائها أخذ القلعة المحاصرة سلماً حتى لا تتدمر الأمتعة والثروات التي كانت فيها خصوصاً أن بعض الأسر الرئيسية في البلاد قد لجأت إلى القلعة بكل ما تملكه من حاجات وكنوز، ومن ناحية ثانية دبّ الوهن والملل والاستياء في صفوف قواته نتيجة للحصار دون جدوى.

وبصورة سليمة تم تسليم قلعة الشقيف التي حضر الجزار شخصياً إليها في 24 تشرين الثاني 1781م، وخرج الشيخ حيدر الفارس ومن معه سالمين بعد أن أعطيت الأوامر بعدم أذية أي من المستسلمين. وكان الجزار قد أقطع الشيخ حيدر وأتباعه إقطاعاً ليعيشوا فيه، وقد اتبع الجزار هذه السياسة السليمة ليعيد تأهيل المنطقة بالسكان، وزراعة الأرض الخصبة التي تحوّلت إلى بور، والتي ستعود عليه بفواد اقتصادية هامة، خصوصاً أنه اتبعها المتسلمين من قبله[1].

ولكن مآسي الجزار وطبيعة العامليين أبت الخضوع لقوات ومتسلمي الجزار، فما إن عاد الأخير إلى عكا حتى فرّ العامليون وعلى رأسهم الشيخ حيدر والتجأ إلى والي دمشق الذي كان يكنّ العداء التقليدي لأحمد باشا الجزار، وقدموا له الهدايا..

وفي صور بقي شيخ المدينة وحيداً بعد فرار عائلته وأتباعه، فاضطر للدخول تحت طاعة الجزار، فأمنه الأخير واستقبله بحفاوة وذلك لتشجيع باقي المشايخ وأتباعه على العودة، ومنحه التزام قرى قريبة من صور مقابل رسم سنوي مقداره ألفي قرش، ومع ذلك فقد ظل هذا الشيخ مع سكان أقطاعه يترقبون المناسبة لنيل حريتهم والتخلص من الجزار، والعودة إلى حكم بلادهم بأنفسهم كما كانوا سابقاً، ظنوا أن حلمهم بات قريباً، حين سرت في بلاد عاملة إشاعات بأن الباب العالي سوف يرسل حملة بحرية وبرية للقضاء على الجزار غير المرضي عنه، وفي 8 أيار 1782م مرت بمحاذاة شاطئ صور السفينة الملكية الفرنسية «- أورورAurorً يرافقها سبعة عشر مركباً تجارياً، فظن العامليون أنها السفن العثمانية الموعودة، فأعلنوا عن فرحتهم بدون تحرز، وتهيأوا للانتفاضة ضد قوات الجزار حالما وصول السفن إلى عكا. ولكن نبأ المؤامرة هذه وصل إلى الجزار، فعزل الشيخ واقتيد مع أعوانه بوحشية إلى عكا حيث أودعهم السجن مغلولين. بعد ذلك أمر الجزار بمطاردة المتاولة، وعاملهم بوحشية تامة ونزع سلاحهم بمن فيهم سكان صيدا، الذين كان بينهم متاولة كثيرون لكنه لم يلبث أن أعاد السلاح لسكان صيدا خوفاً من أن يعتبر الباب العالي هذا التصرف غير سليم تجاه شعب لم يقم بأية شائنة[2] خصوصاً أن السلطان كان قد أهداه سيفاً وخلعة من الفرو على سبيل الهدية[3].

1 -.راجع حول هذا Ismail. Ibd. P.386. Arazi. Op. Cit.

2 -.كذلك راجع: Ismail. Ibid. P390.

3 -.Op.Cit.

وحـول هـذه المسـألة الأخـيرة يقـول الركينـي المعـاصر للأحـداث «إن الجـزار أرسـل بـردة طيبـان خاطـر إلى رجـل منهـم هـو الشـيخ حمـد العبـاس – حاكـم صـور – فرجـع هـو وعيالـه وإخوتـه إلى بلادهـم – في صـور – فمسـكهم الجـزار في مدينـة عـكا وحبسـهم إلى أن ماتـوا في السـجن. الشـيخ حمـد وأخـوه حسـين وأولاد عبـاس العـلي – حاكـم مقاطعـة الشـومر – ثـم آل أمـر حريمهـم وبقيـة عيالهـم وأولادهـم إلى أن داروا في البـلاد يشـحذونً[1]

المقاومة وحرب العصابات:

لم تثبـط جرائـم الجـزار تلـك مـن عزيمـة العامليـين، حيـث بـادر الشـيخ فـارس الإبـن الأكـبر للشـيخ ناصيـف إلى لعـب دور والـده النضـالي (القيـادي). فجمـع شـمل العامليـين الذيـن تركـوا بلادهـم، وشـكل منهـم فرقـاً انتحاريـة للإغـارة عـلى معسـكرات الجـزار[2]، كـما سـعى في الوقـت نفسـه إلى الإتصـا ل بمـن بقـي في البـلاد العامليـة، لتنسـيق الكفـاح مـع الفـرق كلهـا، والتـي حققـت نجاحـاً في عملياتهـا، كـون الجـزار كان قـد أبقـى عسـاكر لـه في المناطـق ظنـاً منـه أنهـا ستمسـك بزمـام الأمـور، وإلى ذلـك يقـول آرازي قنصـل فرنسـا في رسـالة لـه بتاريـخ 2 حزيـران 1784م أن «بعـض مشـايخ المتاولـة –أولاد ناصيـف النصـار والشـيخ حيـد الفـارس وغيرهعـم– الذيـن طـردوا قبـل سـنتين وعاشـوا في كنـف والي الشـام، عـادوا مـع سـتين مـن الخيالـة، وصـاروا حـوالي الألـف بعـد انضـمام عـدد مـن الفلاحـين إليهـم، وقامـوا بالإغـارة عـلى المجموعـات القليلـة التـي تركهـا الجـزار بعـد انتصـاره عـلى المتاولـة، فشـتتوها وذبحـوا بـلا شـفقة كل الذيـن وقعـوا مـن هـؤلاء في قبضتهـم، كـما أحرقـوا بعـض القـرى[3]..» التـي كانـت تتعامـل معهـم.

وتشـكّلت مـن هـؤلاء فـرق عرفـت لـدى العامـة باسـم «الطيّـاحً[4]، أي التائهـين في الأرض، أو الثـوار بالأحـرى. كتلـك التـي قـام بهـا الشـيخ حمـزة بـن محمـد النصـار مـن آل الصغـري والشـيخ عـلي الزيـن صاحـب شـحور[5]. بلـدة في جبـل عامـل –اللـذان شـكلا فرقـة مـن الثـوار أخـذت تهاجـم المراكـز الحكوميـة العائـدة للجـزار[6].

لم يكـن الجـزار ليعـترف بالهزائـم التـي كان يلحقهـا الطيـاح بجنـوده، بـل كان يقلـب الحقائـق ويبـذل جهـوداً إعلاميـة، لجعـل الأهـالي يصدقـون كذبـه، كإطـلاق المدافـع احتفـاء بانتصـار مزعـوم حققتـه قواتـه، كـما كان يحـاول أن يوقـف نشـاط الثـوار عـن طريـق إثـارة

1 -.الركيني، مصدر سابق، ص 952.
2 - د. حسين سليمان، المقاومة العاملية لسياسة القمع العثماني، مجلة الفكر العربي، عدد 8، ص 115.
3 - Ismail Ibd p. 421 arazi Seyde 2/6/1784
4 - طاح: تاه في الأرض، فنطوح في البلاد إذ رمى بنفسه ههنا وههنا، أو حمله على ركوب مفازة يخاف فيها هلاكه. (فدائي بلغة اليوم). وطوحه: بعث به إلى لاراض لا يرجع منها، وطاح به فرسه أي ذهب به كالسهم بسرعة، وطيح: تاه، راجع لسان العرب لابن منظور، م 2 مادة، طوح، ص 535/536.
5 - ظاهر، معجم قرى جبل عامل، العرفان، م 8، ص 524.
6 - آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 137.

الرعب بين الرعايا لكي يمتنعوا عن إمداد هؤلاء بالمساعدات، أو الإنضمام إليهم كإنزال العقاب العلني بصورة وحشية، بكل من يشتبه بأن لهم علاقة بالثوار، سواء بوضعهم على الخازوق وإبقائهم على هذا الوضع لايام عديدة على مداخل مدينتي صيدا وعكا، أو برفع رؤوس القتلى على مرأى من الناس في أعالي أسوار قلعتي المدينتين المذكورتين[1].

وفشلت كل محاولات الجزار للإيقاع بتلك الفرق الإنتحارية، التي هاجمت إحداها في أهم عملية قام بها الطياح واستهدفت حاكم البلاد العام في (تبنين) من طرف الجزار، فذبحوه ذبح النعاج، وأثخنوا بأعوانه وجنده، ونهبوا الخزينة الأميرية، فرّ الكاتب وهو من بيت الأيوب، وأخذ الدفاتر إلى صيدا إلى الجزار[2]، الذي أنكر تعرض قواته للهزيمة في تبنين وأطلق في الأول من حزيران 1784م مدافع قلعة صيدا احتفاء بانتصار جنوده على عصاة جبل عامل[3]. وعند الساعة الرابعة من مساء اليوم في نفس التاريخ أرسل جنوده وزبانيته تتعقب الثوار، فداهموهم في قرية شحور وثارت بينهما حرب دامية اعتقل فيها الشيخ حمزة النصار -الذي قال السبيتي عنه أنه صلب على الخازوق[4]، وقتل من أعوانه حوالي 200 رجل كما اعتقل البعض وفر الباقون، ونهب البلدة نهبة عظيمة، وأخذت الدولة السلب ورؤوس القتلى إلى صيدا[5]»، وشردت الناس في جبل عامل في البراري والأوعار والجبال والأفقار، وكل امرئ في عقله محتار وحار الناس من الدولة يهربون وفي كل واد يهيمون[6]..». وسار الشيخ علي الزين وأخوانه إلى العراق ثم إلى إيران في عهد (محمد شاه) فأكرم وفادته، ثم أتى الهند واستوزره أحد ملوكها وأقام فيها زمناً، وحين وقعت البلاد -الهند- في يد الإنكليز عاد إلى وطنه[7].

بذلك كال الجزار ضربة قاسية للطياح في جبل عامل وتمكن من السيطرة عليه، وكذلك تمكن من إيقاع الخلاف بين أمراء الشوف وبالتالي الخضوع لأمره وسلطته، الشيء الذي أقنع الباب العالي بقوة الجزار العسكرية والإقتصادية، فصدر فرمان بحقه لقيادة وتمويل قافلة الحج، كما صدر فرمان آخر بجعل اثنين من مماليكه ولاة طرابلس وصيدا، ليصبح بذلك الجزار سيد سوريا الأوحد[8].

---

1 - Ismail. Op. Cit. P 422

2 - آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 139، هناك روايتان: رواية تقول بأن مجموعة حمزة النصار هي التي هاجمت تبنين، ولكن الرواية الثانية: تقول بأن ابن اناصيف النصار هو الذي هاجم القلعة لأخذ كنز كان والده قد خبأه فيها.. راجع آل صفا ص 139، وحسين سليمان، المقاومة العاملية، ص 165 عن وثيقة قنصل فرنسا في صيدا الزاري بتاريخ في 4/6/1784.

3 - Ismail. Op. Cit. P. 455

4 - السبيتي، جبل عامل في قرنين، العرفان، م 5، ص 23، وقد أشار قنصل فرنسا في صيدا آزاري إلى أنه تم في هذه الحملة تدمير أربعة قرى، وأن الجزار خوزق أحد زعماء العامليين. راجع Ismail. Op> Cit.

5 - الركيني، مصدر سابق، العرفان، م 29، ص 75، وقد أشار آزاري في رسالته إلى عرض رؤوس القتلى خارج أبواب مدينة صيدا.

6 - الركيني، نفس المصدر.

7 - آل صفا، المرجع نفسه، ص 139، وقد أشار إلى ذلك مخطوط نشر في مجلة العرفان، م 73، ص 56 إلى 58.

8 - الشهابي، تاريخ الأمير حيدر، ص 848.

لكن متسلمي الجزار عاشوا في البلاد فساداً وظلماً، مما أدى إلى استياء العاملين منهم، فحاولوا الإستفادة من ابتعاد الجزار عن الساحة عندما نقل إلى دمشق، فعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض، تم الإتفاق على الإنقضاض على عمال وجنود الوالي في جبالهم، وقرروا أن يستهلوا خططهم بالهجوم على صور وذبح عساكر ومتسلم الجزار فيها، لكنه بطريقة أو بأخرى علم سليم باشا -والي صيدا- بالخطة قبل تنفيذها «فأصدر أمراً إلى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين وإرسالهم إلى عكا، وفي الرابع عشر من أيار 1785م. نفذ الباشا فيهم العقوبة، فأمر برفع أربعة وثلاثين منهم على الخازوق عند أبواب المدينة، ولا يزالون حتى الآن ويشاع أنهم سوف يستبدلون بعدد من أبناء وطنهم الموقوفين والمتهمين كذلك بالتحالف مع المتمردين[1].

بعد الذي حدث في صور وجوارها، علم سيد سوريا بنزول بعض مشايخ جبل عامل في قرية مشغرة وأقامت فيها بأمر من الأمير يوسف الشهابي، ومخافة أن يستغل هؤلاء فرصة غيابه -كونه كان متوجهاً- أي الجزار- إلى الحج- فأرسل إلى الأمير يوسف أن يقبض على لامشايخ المتاولة. فقبض على سبعة عشر منهم وأرسلهم إلى عكا إلى سليم باشا فأمر بشنقهم، ولامت الناس الأمير يوسف على ذلك لأنهم كانوا قد نزلوا في بلاده بإذنه واستأمنوا به[2]، وبهذا يكون الجزار قد قضى على الزعماء العامليين دون أن يتكلف شيئاً، وبالتالي ضرب التحالف الشهابي العاملي الذي كان مناوئاً له، فزرع الشقاق بينهما للحيلولة دون اتحادهم ثانية.

صورة عن مظالم الجزار (للمتاولة) العامليين

جرّد الجزار سيف الظلم على العامليين « ويأخذ رجالهم إلى ورشة عكا (بالسخرة) ويعاملهم مثل معاملة فرعون الظالم لبني إسرائيل بالقساوة الشديدة. وكم وكم من المئات منهم قتلوا في الطريق بالناقورة [الرأس الأبيض] لمّا كان يحشرهم السائقين لهم بسرعة الجري، فمن شدة الضرب كان يحشر بعضهم بعضا وبسبب ضيق الطريق هناك كانوا يسقطون في البحر بالخمسين والستين وما يسأل ولا يرحم أحد. وبوصولهم إلى ورشة عكا كانوا يستعملون معهم شدة القساوة، وكم وكم ماتوا من شدة القساوة. ومن ذلك أنه في أحد الأيام كان الوقافة على الورشة بأمر الجزار واضعين فلاحين من بلاد بشارة بمحلٍ بين السورين يشتغلون فيه بعضهم يحفرون الأساس وهم نحو مئتين وثلاثين نفراً

---

1 - د. حسين سليمان، المقاومة العاملية، مرجع سابق، ص 116، نقلا عن الوثائق الفرنسية الصادرة عن عكا بتاريخ 16 / أيار / 1785م، كذلك لاحظ مسألة العريضة الموقعة من الفقهاء إلى الباب العالي والتي يشكرون فيها الجزار، والعريضة المضادة من نفس الفقهاء مضادة لنص العريضة الأولى ما عدا الشيخ حسين نعمة، السيد محمد الأمين قشاقش الذين حذروا من مغبة العمل الذي ألزم الطواح به رجال الدين، وبالفعل كانت ردة الفعل عنيفة من لجزار عندما أرسل الباب العالي إليه نص العريضتين، راجع حول ذلك الزين، فصول من تاريخ الشيعة في لبنان ص 99-98 وقارن مع آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 197.

2 - الشهابي، تاريخ الأمير حيدر، ص 848 – 849.

والبقيـة يسـحبون الـتراب بالحبـال في القفـف مـن الأسـاس، فاتفـق أن انفلـع القسـم الأعـلى مـن الأرض وصـار الذيـن فـوق يصيحـون عـلى الذيـن في الأسـاس ليسرعـوا بالخـروج قبـل أن ينطبـق عليهـم الـتراب، وكذلـك صـارت الصيحـة مـن الوقافـين ومـن الفلاحـين أقاربهـم الذيـن كانـوا في عـكا. وإذ سـمع الجـزار الصيحـة وعـرف سـبب ذلـك إذ كان هنـاك انتهـر الجميـع أن يسـكتوا قائـلاً لهـم: دعوهـم، إذا كان الله قتلهـم مـا لكـم ومـا لهـم. ومنعهـم أن يخرجـوا أحـدا منهـم. وسـقط حائـط الأسـاس وانطبـق عـلى الجميـع وقبرهـم كلهـم أحيـاء. ومـا خـرج أحـدٌ منهـم. وهكـذا كانـت معاملتـه الوحشـية لهـم»[1].

هـذه الصـورة القاسـية لسـوق أعـداد كبـيرة مـن العامليـين للسـخرة، وموتهـم بهـذه الصـورة المذلـة كانـت حافـزا للثـورة المشرفـة والمقاومـة (الطيـاح) واسـتمراريتها طيلـة خمـس وعشريـن عامـا.

لم تكـن الإنتفاضـات العامليـة هـذه منظمـة كـما يجـب، ولم يكـن لهـا قائـد واحـد يوجههـا (كناصيـف النصـار)، وغالبـاً كانـت خاليـة مـن أي توجـه ثـوري أو غايـة سياسـية محـددة، ويعـود هـذا لتـشرد العامليـين، فقـد طـال أذاهـا أحيانـاً الأهـالي، وأنـه لمـا بلغـت نقمـة الجـزار عـلى (الطـواح) مـن مشـايخ المتاولـة حدهـا الأقـصى، وعـدم فعاليـة بطشـه في البـلاد بحيـث أنـه ألـف جيشـاً خاصـاً لمحاربـة (الطـواح) أسـماها (السردلـه) -معناهـا تنظيـف البـلاد مـن العصـاة والمترديـن، لأن السردلـه عـلى وزن الغربلـة تلـك الطريقـة التـي يتـم فيهـا تنظيـف الحنطـة مـن الـتراب الناعـم والحـصى الصغـيرة بواسـطة الغربـال[2]، وكذلـك ألـف جيشـاً مـن المتاولـة ولكـن لم يجـد نفعـاً، فعمـد إلى رجـال الديـن والفقهـاء مـن العامليـين الذيـن لم يعاكسـوه، وفـوض إليهـم حكـم البـلاد وإدارتهـا عـلى موجـب الـشرع الشريـف، ثـم وكل إليهـم جمـع الأمـوال الأميريـة المفروضـة عـلى القـرى والمقاطعـات العامليـة مـن قبـل الدولـة إلى أن منـح السـيد محمـد أمـين قشـاقش لقـب (مفتـي بـلاد بشـارة[3])، علـماً أن هـذا اللقـب كان مقصـوراً عـلى علـماء المذهـب الحنفـي ديـن الدولـة العثمانيـة الرسـمي.

ويذكـر أن السـيد محمـد هـو الإبـن الأكـبر للسـيد أبي الحسـن موسـى صاحـب مدرسـة شـقرا وإمـام مسـجدها الكبـير الـذي كانـت لـه الرياسـة العامـة دينـاً ودنيـا -راجـع آنفـاً- فانتهـت هـذ ه الرياسـة مـن بعـده إلى ولـده السـيد محمـد الـذي سـكن دار أبيـه، وقـد قـام بأعبـاء هـذا المنصـب -إضافـة عـلى مـا أوكل إليـه الجـزار كمفتـي للديـار الشـامية- ولكنـه أشـغله عـن التفـرغ للعلـم وتفـرغ لـه أخـوة السـيد حسـن[4] وسـبب ذلـك أن تلـك المرحلـة كانـت مـن أصعـب المراحـل التـي عاشـها جبـل عامـل.

1 - ابراهيم العورة: تاريخ ولاية سليمان باشا، ص 35.
2 - الزين، فصول، ص 98.
3 - الأمين، أعيان الشيعة، م 9، ص 61/62.
4 - الأمين، المرجع السابق، ويذكر أن السيد محمد لأمين كان قد هرب بأهله فيمن هرب إلى بعلبك، لكن يبدو أن هناك من أشار إلى الجزار بأن يؤمن العلماء لما لهم كلمة مسموعة في جبل عامل كي يكف يد المقاومة فوقع الراي على السيد محمد الأمين.

هـذا وبعـد لجـوء الجـزار إلى العلـماء في جبـل عامـل، كفـل السـيد محمـد طاعـة البـلاد للجـزار، وكذلـك تكفـل بأمـراء البـلاد، فأعطاهـم الجـزار الأمـان ليعـودوا إلى أوطانهـم، لقـاء ذلـك وضـع السـيد محمـد ولـده عـلي -الجـد الأدنـى للسـيد محسـن الأمـين صاحـب أعيـان الشـيعة- رهينـة في عـكا عنـد الجـزار، عـلى أثـر ذلـك عـاد الهـدوء النسـبي إلى البـلاد وعـاد الكثـير مـن أهلهـا.

لكـن السـيد محمـد الأمـين لم يسـلم مـن مخالـب الجـزار حتـى سـجنه في عـكا ثـم في دمشـق نحـواً مـن سـنتين وقيـل ثـلاث سـنين، وجـاء ولـده عـلي إلى الجـزار يتوسـط لإطـلاق والـده، فأطلقـه الجـزار، وبقيـت البـلاد خـراب حتـى مـوت الأخـير[1].

عانـت بـلاد عامـل كثـيراً مـن تسـلط الجـزار وجنـده، ومثـلاً عـلى ذلـك أن تلـك النكبـات تركـت بصماتهـا عـلى مدينـة صـور، فقـد أفادنـا الرحالـة الفرنـسي (أوليفيـه Olivier) الـذي زارهـا في أواخـر القـرن الثامـن عـشر، أنـه لا يوجـد مدينـة في الأمبراطوريـة العثمانيـة فيهـا تعاسـة مثـل تلـك الموجـودة في مدينـة صـور، كـما أن (سـان إنيـان St. Aignant) قـد أشـار بأنـه لم يبـق مـن هـذه العاصمـة الفينيقيـة الأثريـة، التـي كانـت سـابقاً في غايـة الثـراء والقـوة، إلا مـا لم يتمكـن الإنسـان أن يسـلبه منهـا[2].

1 - الأمين، خطط جبل عالم، ص 17 و20.

2 - لقد استقيت هذه المعلومات من دراسة د. حسين سليمان، المقاومة العاملية، مجلة الفكر العربي، عدد 58 ص 116، نقلاً عن St. (Aignnt la terre Sainte p. 122. Olivier Voyage dans l’empire ottoman uvols Paris 1804. P.(58 59

ما أن وصل نابليون بونابرت إلى عكا وحاصرها، حتى أرسل إلى أهالي الشام يستأمنهم فوجد العامليون في مساعدة الفرنسيين فرصة جديدة للتخلص من الجزار، وبالفعل (لما وصل الفرنسيون إلى عكا حضرت إليها مشايخ المتاولة، فأعطوهم الحكم الذي كان بأيديهم من بلاد بشارة[1]) ويبدو أن اتصال العامليين هذا بالفرنسيين هو ما أطلقته الثورة الفرنسية من عارات في الحرية والمساواة[2]، ومما أبداه بونابرت في رسالته إلى أهالي مصر والشام[3] يحثهم فيها على الثورة، ويعدهم بالمساعدة من أجل الحرية والإستقلال، خصوصاً في سوريا التي أرهقتها مظالم الجزار[4]..ً ومما لا شك فيه أن ذلك كله كان يندرج في سياسة التوسع الفرنسي نحو الشرق وباتجاه القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية التي كانت فرنسا عبر سفيرها هناك تؤكد لها حسن نيتها[5]..! ومن جهة ثانية كانت أجواء السياسة الدولية قد بدأت تكشف عن بداية النهاية للدولة العثمانية، الأمر الذي أدى إلى صراع أوروبي أوروبي، أتخذ شكل السباق والصراع على النفوذ والسيطرة عليها[6].

بالطبع لم تكن شعوب بلاد الشام في تلك المرحلة، تستطيع أن تعي تلك السياسات الدولية لما كانت تعانيه من جهل وتخلف سببته الحروب الدائمة، والظلم والإرهاق في دفع الضرائب جراء الفساد في الإدارة والحكومة، ولكن هذه الشعوب ومنها العامليون، كانت تتوق إلى الحرية التي آنست شيئاً منها أيام التحالف الثلاثي والتخلص فعلاً من مظالم الجزار.

على أثر ذلك قام الشيخ فارس ناصيف النصار ومن معه بمتابعة المقاومة والإغارة على جند الجزار المتواجدين في بلاد عامل، ووجد بونابرت في العامليين حليفاً قوياً في مساعدته لاختراق بلاد الشام، فعمل على استعادة مقاطعاتهم وقلاعهم، فوجه لهذا الغرض الجنرال (فيال) على رأس قوة من خمسمئة جندي يرافقهم مائتا مقاتل عاملي بقيادة نصار ناصيف النصار[7] الذي كان من عداد المشايخ العامليين الذين ذهبوا إلى عكا لملاقاة بونابرت.

لكن سيادة العامليين لم تستمر طويلاً، فقد تجمعت عدة عوامل أجبرت بونابرت على الإنسحاب من عكا والمنطقة أهمها: صمود عكا الطويل من ثم الموقف الأوروبي

1 - الشهابي، المصدر نفسه، ص 887.
2 - منير وعادل إسماعيل، الصراع الدولي، ج 1، ص 28.
3 - الجيرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 3، ص 72 و 73، النص الكامل لرسالة نابليون لأهالي مصر.
4 - إميل خوري وعادل إسماعيل، السياسة الدولية، ج 1، ط 2، ص 72 و73.
5 - لاحظ إميل خوري وعادل إسماعيل، السياسة الدولية، ج 1، ص 71 إلى ص 73.
6 - لاحظ المرجع السابق ايضاً من ص 51 إلى ص 59.
7 - د. حسين سليمان المقاومة العاملية، مرجع سابق، ص 117، نقلاً عن Ray baud Luis Histoire Scinetifique et Militaire sur (l'éxpédition Francaise en Egype vois 10 Parid (1830-1837) voir v. 5. Pp (278-281

المعارض خصوصاً البريطاني من الحملة الفرنسية[1]، على الفور وبعد الإنسحاب باشر الجزار بالإنتقام من خصومه الذين وقفوا إلى جانب الفرنسيين، فوقع جبل عامل والعاملين مرة أخرى في قبضة الجزار قتلاً وتنكيراً[2].

موت الجزار وأثر العصيان العاملي:

توفي الجزار عام 1219ه / 1804م، ولم تهدأ الأحوال، فاتسعت حرب العصابات وامتدت سلطة الثوار فشملت بلاد عكا وصفد وكانوا يفرضون الضرائب والرسوم على البلاد ويفتكون بمن يخالفهم[3].

وكان قد تسلم بعد الجزار اسماعيل باشا القدسي بناء على اجتماع مجلس شورى ولاية صيدا / عكا، وكتبوا للباب العالي يخبرونه ولكن الدولة العثمانية / لأمر ما عينت إبراهيم باشا والي حلب مكان الجزار، ولكن بعد يومين نزل راغب أفندي رسول الباب العالي وأمين الخزانة بالسر إلى سليمان باشا الذي تسلم الأوامر السلطانية بتوجيه الإيالة له وعزل إبراهيم باشا..!، وكذلك وصل أمر خاص إلى الأمير بشير من الصدر الأعظم -كان كلما صدر أمر سلطاني يأتي للباشا من اسطنبول يأتي معه آل للأمير بشير؟- حتى أصبح الأمير بشير في عهد سليمان باشا يعامل ويستقبل كما يستقبل الصدور العظام من وزارة الدولة[4]!

لكن الحالة الإجتماعية والإقتصادية والنفسية لزعماء ومشايخ جبل عامل وصلت إلى حالة مظلمة. وإن أعمال (الطواح) قد فعلت فعلها بشرها وضررها، ولم يقتصر ذلك على بلاد بشارة بل شمل أيضاً بلاد صفد، وبالإختصار كان عندهم قتل الإنسان أهون من أن يكسروا رغيف خبز باعتراف سليمان باشا والي عكا الذي بادر إلى مهادنة زعماء جبل عامل تحت شعار (إعادتهم إلى حكم بلادهم مضافاً إلى ذلك ما تقتضيه- راحة العباد وعمار البلاد واستجلاب النازحين وعمار الديرة- فارسل إليهم الضابط (بكر آغا الأرناؤوط)(ليتصل بهم وكان جوابهم عليه جافاً في بداية الأمر، ولكنهم عادوا وتحسروا على فعلتهم لقلة بعد النظر والوعي والحزم لديهم[5].

1 - د. منير وعادل إسماعيل، الصراع الدولي، ص 32.
2 - عن مصير العاملي: أنظر: السبيتي، جبل عالم، العرفان، م 5، ص 24-23 وكذلك الزين، فصول ص 94 نقلاً عن مخطوط الشيخ محمد مغنية.
3 - آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 140.
4 - الزين، فصول، ص 108.
5 - الزين، فصول، ص 112.

في هذه السنة (1220هـ/ 1805م)، أخذ [سليمان باشا] يتعاطى استجلاب المشايخ المتاولة وتأمينهم وهم فارس الناصيف وإخونه وسائر مشايخ بيت علي الصغير الذين قتل الجزار والدهم ناصيف النصار و .... هربوا واختفوا ... ثم تجمعوا وحضروا إلى ديرتهم واستعملوا الطياحة، وصار اسمهم طياح، أي قطاع الطرقات... ولبثوا هكذا كل مدة حكومة الجزار الذي عين عساكر كثيرة كان يسميها السردلة، وأرسلهم ضدهم إلى بلاد المتاولة. ثم عين عساكر من المتاولة أنفسهم وما صار منهم نفع لأن العساكر كانت تحضر للتفتيش عليهم فيكون المشايخ في آخر الوعرة أو طرفها والعساكر في أولها فيدخلوا ويخرجوا ولا يعرفوا بهم ويظنون أنهم ليسوا فيها فيذهبوا يفتشوا عليهم في غير مكان وما يستفيدوا شيئا. وبقيت هكذا بلاد المتاولة كل مدة حكومة الجزار، يدفعون للسردلة وللطياح...عوضا عن الأرواح والممتلكات[1].

هذا الندم الذي نزل (بالطواح) من زعماء جبل عامل جعلهم يتصلون بالأمير بشير، الذي كان دوره يقتصر على تأمينهم وتطمينهم في عملية المصالحة التي أعدها سليمان باشا مع رسوله الضابط الأرناؤوط. لذلك الندم استحسنوا بأن يحرروا إلى الأمير بشير بأن بكر آغا هو ضابط عسكر فما أركنوا لقوله ومواعيده.. وأنهم لا يركنوا لأحد سواه (أي الأمير بشير) بما أنه راس العشائر وله الغيرة التامة على أبناء العشائر، وطلبوا منه أن يضع يده للمصالحة مع سليمان باشا بإنهاء خصومتهم وتسلمهم أمورهم في الولاية[2].

وكان الخطأ الذي وقع فيه الزعماء العامليون ايضاً هو موقفهم بأن أصبح الأمير بشير المسألة كلها، فاتفق مع سليمان باشا وتآمر على الزعماء العامليين ومن دلالتها أن عزل الضابط الأرناؤوط مدير الإتصال[3]، وحصل ما حصل من توقيع اتفاقية حشرت بموجبها الزعامة العاملية في بلاد الشومر فقط[4] وإبقاء المقاطعات الباقية تحت الحكم المباشر، وانتقال المركز من تبنين وغيرها وحصرها في الزرارية بزعامة الشيخ فارس ناصيف النصار[5]، وفي الطيبة بزعامة شقيقه محمد[6] وإملاء شروط الإتفاقية عليهم دون طموحهم وقد نصت الإتفاقية على:

1 - ابراهيم العورة: تاريخ ولاية سليمان باشا، ص 34.
2 - المرجع السابق، ص 113.
3 - المرجع السابق، ص 113.أنظر حول عزل الأرناؤوط وتآمر بشير على مشايخ المتاولة الذين اختلفوا في ما بينهم في المرجع السابق أيضاً، من ص 118 إلى 129.

4 - لاحظ: الزين، المرجع نفسه، ص 128.
5 - أنظر وثيقة تسليم إقليم الشومر للشيخ فارس ناصيف النصار، بتاريخ 122ه، في المرجع نفسه ص 127 نقلاً عن مخطوط الشيخ عبد المحسن الظاهر.
6 - كذلك وثيقة تسليم الطيبة للشيخ محمد ناصيف النصار بتاريخ 29 رمضان 122ه، المرجع نفسه ص 126 نقلاً عن العرفان، م 39، ص 511.

1 – العفو العام عن جميع الثائرين.

2 – إعادة إقليم الشومر إلى الحكم الذاتي بزعامة الشيخ فارس النصار الذي يوزع بمعرفته قرايا الإقليم.

3 – الإلتزام بأي وقت الأمر إلى طلبهم بترحال العشائر لمحاربة إحدى المحلات أن يحضروا دون تردد ولا عائقة ولا طلب علائف.

وبعد توقيع الإتفاقية المكفولة من قبل الأمير بشير الشهابي بإلاس الشيخ فارس ناصيف خلعة فاخرة من فرو السمر تعلن بأنه شيخ مشايخ العشيرة[1].. وظلت هذه المعاهدة قائمة حتى ولاية عبد الله باشا الذي خلف سليمان باشا في صيدا / عكا. وفي عام 1882 م عقد عبد الله باشا مع مشايخ جبل عامل اتفاقاً جديداً[2] أعاد إليهم بموجبه حكم بلادهم كما كان في السابق بعيداً عن حكم الأمير بشير، وكان العامليون أوفياء للوالي المذكور فخاضوا معه القتال ضد درويش باشا والي الشام في معركتي المزة وجسر بنات يعقوب[3]، ول الإتفاق قائماً بين عبد الله باشا وزعماء جب لعامل حتى عام 1832[4] العام الذي احتل فيه إبراهيم باشا المصري البلاد وألحق جبل عامل بالإمارة الشهابية، وكان قد تولاها الأمير بشير الثاني منذ العام 1790 م، فكان غلحاقه بهذ الإمارة أحد أهم اسباب اشتراك العامليين بالثورة التي قامت فيما بعد في بلاد الشام على الصمريين والشهابيين معاً، وذلك للنزاع البعيد الجذور الذي قائماً بين العامليين والشهابيين[5]، وخصوصاً اكتشافهم أمر الأمير بشير الشهابي ودوره في المصالحة مع سليمان باشا، الذي لم يكن في فكره كف يد الزعماء العامليين عن بالدهم قبل أن يتدخل الأول الذي كان سبباً في خلاف الزعماء العامليين فيما بينهم.

خلاصة واستنتاج:

من الملاحظ أن مرحلة ما بعد ناصيف النصار، أو بالأحرى بعد العصر الذهبي لجبل عامل، الذي نعم به وآنس أهله فيه الحرية والإستقلال، اتسمت بمرحلة الضياع على مستوى القيادة السياسية التي لم تعد قادرة على التمييز بين من يكون حليفها ومن يكون عدوها في مقابل موقفها العدائي والمبدئي من الجزار، فكانت تلاطمها الأمواج من كل النواحي، مكيلة لها الضربة تلو الضربة.

صحيح إن هذه القيادة في تلك المرحلة موفورة الخطى بإعلان المقاومة بوجه أحمد باشا الجزار، أنها سقطت بتحالفها، فالأمير يوسف الشهابي لم يكن يوماً مع العامليين

1 - الزين، فصول، ص 118-115.

2 - الشهابي، تاريخ الزمير حيدر، ص 909-989.

3 - الشهابي، تاريخ الأمير حيدر، ص 992.

4 - راجع ما ذكره حسين سليمان، المقاومة العاملية، ص 120، نقلاً عن تقارير فرنسية.

5 - لاحظ بدايات تركز السياسة الفرنسية القادمة على إثارة وتأليب الأطرف في الدولة العثمانية للسيطرة عليها.

لـولا غلـب عـلى أمـره في آخـر عهـد التحالـف الثلاثـي، فانضـم إليـه دون رغبـة منـه، إضافـة إلى أنـه أعـاد الـصراع العامـلي / الشـوفي، وأسـقط منـه بعـد هزيمتـه النكـراء في معركـة كفـر رمـان / النبطيـة، فـكان تحالـف، ومسـاعدة مشـايخ جبـل عامـل لـه في مرحلـة (الطـواح) أو المقاومـة العامليـة، خطـأ كبـيراً، أدى إلى تسـليم قـادة هـذه المقاومـة للجـزا بعـد اللجـوء إليـه، رغـم ملامـة الشـوفيين لـه. وذلـك حفظـاً لسـلامته وخوفـه مـن الجـزار، ولكـن مرونـة الأمـير السياسـية وإعادتـه إلى الإمـارة مـرات عديـدة، ورغـم ذلـك كلـه كانـت نهايـة الأمـير شـنقاً عـلى يـد الجـزار.

ثـم مآزرتهـم مماليـك الجـزار في ثورتهـم عـلى سـيدهم كانـت أيضـاً خطـأ فادحـاً باعتبـار أنـه لم يكـن يوجـد أي قاسـم مشـترك، في الوسـيلة أو الأهـداف، بـين هـؤلاء وبـين العامليـين في مقاومتهـم[1].

كذلـك موقفهـم السريـع والمتـسرع مـن علاقاتهـم بالحملـة الفرنسـية إلى عـكا -لاحـظ موقـف الأمـير الـذي بـشري الـذي غـازل الفرنسـيين،وكان بينهـم رسـل ومراسـلات، ولكنـه كان يحفـظ خـط الرجعـة. وانطلاقـاً مـن سياسـته هـذه اسـتطاع أن يعـود مـراراً إلى الحكـم بعـد عزلـه، كـما كان الأمـير يوسـف..! فكانـت ردة مـن الجـزار عـلى جبـل عامـل عنيفـة بعـد فشـل الحملـة الفرنسـية عـلى أبـواب عـكا، بينـما نعـم جبـل لبنـان بالهـدوء رغـم حـذر الجـزار منـه ..!؟

والأهـم مـن ذلـك كلـه أن قـادة المقاومـة (الطـوّاح) رغـم فشـلهم في جميـع مغامراتهـم تلـك، فإنهـم لم يفسـحوا في المجـال للمرونـة السياسـية التـي حـاول بعـض علـماء جبـل عامـل القيـام بهـا تجـاه الجـزار -السـيد محمـد الأمـين (شـقرا) والشـيخ حسـين نعمـة (جبـاع) امتنعـوا محذريـن مـن توقيـع عريضـة مضـادة كان علـماء جبـل عامـل قـد وقعوهـا إلى البـاب العـالي تأييـداً للجـزار -ممـا أدى إلى الفتـك بالموقعـين عـلى العريضـة، ثـم بهذيـن العالمـين الذيـن تعهـدا عـلى أنفسـهم بكفالـة زعـماء المقاومـة بعـد عودتهـم! كذلـك أوقـع زعـماء جبـل عامـل أنفسـهم في الخطـأ في حوارهـم مـع وسـيط الأمـير بشـير -الأرنـاؤوط- هـذا الخطـأ جرهـم إلى معاهـدة إذلال، انعكسـت خلافـاً فيـما بـين المشـايخ أنفسـهم.

يسـتخلص مـن الواقـع المبسـوط، أن تشـتت القيـادة الدينيـة التـي كان لهـا القـول الفصـل في المواقـف العامليـة، انسـحبت عـلى المواقـف السياسـية المتسرعـة والتـي انعدمـت فيهـا الرؤيـة (الإسـتراتيجية) لتلـك المواقـف، التـي خلـت مـن المرونـة تجـاه الجـزار، وإشـهار العـداء لـه عـلى طـول المراحـل التـي كانـت نتائجهـا دمـاً ودمـاراً ومـداداً وثـروة فكريـة كانـت طعـماً للنـار بعـد تشـبب أهلهـا في أسـقاع الدنيـا – رغـم أن التقيـة مـن أهـم القواعـد الشرعيـة عنـد الشـيعة وقـد اتبعهـا الشـهيد الأول والشـهيد الثـاني وكثـير مـن العلـماء العامليـين عـلى مـر التاريـخ!؟

1 - راجع: الزين، فصول، ص 79 إلى ص 84 ولاحظ كذلك موقف الأمير يوسف المتخفظ عند الشهابي، تاريخ الأمير حيدر.

لحظة زحف جيش نابليون باتجاه مصر وتقدمه نحو بلاد الشام، ومعارضة الانكليز لا بل محاربتهم له، هاجم الوهابيون عام 1801 مدينة كربلاء المقدسة وهدموا القبة الحسينية ونهبوا كنوز المرقد الشريف، وقتلوا وذبحوا وسفكوا الدماء حتى الحوامل بقروا بطونها.. رغم المعاهدة التي وقعوها مع الوالي العثماني.. وفي العام 1803 سيطروا على مكة المكرمة وطردوا الحجيج منها ونهبوهم[1]. وبعدها عام 1804 استولوا على المدينة المنورة وقاموا بتخريب الأضرحة وكل المساجد والصوامع المكرّسة لذكر النبي (ص)، بل تعدوا على قبر النبي نفسه، ونهبوا خزينة المسجد النبوي، وطردوا كل سكان المدينة المنورة الذين هم من أصول تركية[2].

وحاولوا (عام 1805) الدخول إلى النجف الأشرف؛ إلا أن فتوى الجهاد من الفقيه الشيخ جعفر بن الشيخ خضر الجناجي النجفي صاحب كشف الغطاء (ت 1228هـ/ 1813م)، «الذي انبرى بالدفاع بيده ولسانه وجمع الأسلحة في داره ورتب المقاتلة على السور وباشر العلماء القتال بأنفسهم وشجعوا المقاتلين»[3]. وكان من بين العلماء العامليين الذين قاوموا في النجف السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة[4]، «لم يفتر عن التأليف والتدريس مع اشتغاله مع العلماء بأمور الجهاد ومباشرة الحصار وتهيئة أسباب الدفاع والطواف ليلا على الحرس والمحاربين، فقد صنف يومئذ رسالة في وجوب الذب عن النجف وأنها بيضة الإسلام. وصنف جملة من مجلدات مفتاح الكرامة وفرغ منها في تلك الحال، كمجلد الضمان والشفعة والوكالة، وكان في عشر السبعين ويدل على جده واجتهاده ليلا ونهارا»[5].

لهذا؛ منعت قافلة الحج السلطانية لعدة مواسم (سبع سنوات)[6] (واحدة منها كانت فيها والدة السلطان) من الوصول إلى مكة، بل نهب وسلب الوهابيون الحجيج...[7]، ولم تستطع الدولة العثمانية ولا ولاتها وضع حد للتمدد الجغرافي للوهابية. التي وصلت إلى أطراف دمشق مهددة عاصمة ولاية الشام[8]، مما اضطر الباب العالي إلى عزل ولاتها

1 - أسامة أبو نحل: التهديد الوهابي لبلاد الشام، مجلة جامعة الأزهر،م9، ج1، غزة 2007، ص 317. في هذه الدراسة نلاحظ تفاصيل انهيار الدولة العثمانية وعجزها واضطراب السلطة فيها على مستوى الولاة ومركز السلطان بعد انقلاب الانكشارية وخلع السلطان سليم الثالث سنة1807.

2 - بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 552. وفيلبي: تاريخ نجد، ص 145 و 146. عبد الرحيم: الدولة السعودية الأولى، ص 217 و 218 و 219.

3 - الأمين: أعيان الشيعة، م4، ص 100. و فيلبي: تاريخ نجد، ص 163.

4 - الأمين: أعيان الشيعة، ج4، ص 388.

5 - الأمبن: م.ن، ص 389. ولا حظ إنهاءات المجلدات المشار إليها أعلاه من مفتاح الكرامة حيث يذكر ذلك. ولاحظ في مقدمة تحقيق مفتاح الكرامة، ص 7.

6 - الركيني:جبل عامل في قرن، مجلة العرفان، م29، ص 680.

7 - الركيني:م.ن ص 681.

8 - أبو نحل: م.ن. ص323.

(عبد الله باشا العظم و يوسف كنج باشا)، بعد أن استنجد الأخير بوالي صيدا سليمان باشا الذي جمع جيشا من كافة ولايته تحت عنوان الدفاع عن الدين والدولة، من غزة وبيروت، وأوعز للأمير بشير الشهابي في جبل لبنان الذي حشد خمسة عشر ألف مقاتل. فهب العامليون ملبين النداء بقيادة الشيخ فارس ناصيف النصار (أحد قادة الثوار / الطياح ضد الجزار) والذي كان سليمان باشا قد صالحهم (بعد 25 سنة من المقاومة من عام 1195 تاريخ استشهاد الشيخ ناصيف النصار إلى العام 1220هـ) تقديرا منه على مكانتهم، إذ كان من مصلحة من ولي بعد الجزار أن يسكن الثورة ويؤمن الثائرين ويرجع النازحين إلى أوطانهم[1]، فعقد معهم اتفاقية تضمنت العفو العام عن الثوار، وإعادة إقليم الشومر إلى الحكم الذاتي بزعامة الشيخ فارس ناصيف النصار الذي يوزع بمعرفته قرايا الإقليم[2]....وهذا ما لم يرق للأمير بشير الذي الح بالتزام بعض بلدات جبل عامل .. فوبخه سليمان باشا « إن حضورك بالجرود ليس فضلا ولا منة كما ظننت بخلاف المأمول بمعقوليتك بل فعلت ما يجب عليك... و أنت مأذون أن تتفق مع مشايخ المتاولة »[3] ... إلى هذا نقدر حماس العامليين هذا والمسحوب أيضا على علمهم بما جرى في كربلاء المقدسة، وجهاد النجفيين في رد الخطر الوهابي[4].

لهذا؛ لّما علم الوهابيون بالقوة التي سيواجهونها قرّروا الإنسحاب بعدما استولوا على غنائم طائلة عادوا بها إلى ديارهم[5]... مكتفين بتوجيه رسالة إلى أهالي الشام يدعونهم فيها للدخول في عقيدتهم[6]...تأسيسا على الوقائع المتقدمة فلو قدر للوهابيين تحقيق مآربهم في بلاد الشام، لكان عمر الدولة العثمانية أقصر، وأن الديموغرافيا والمجتمع الشامي تغير وتغيرت معه اتجاهاته ...

الثورة العاملية بوجه الحكم المصري

تم إجلاء الفرنسيين من مصر بمساندة إنكليزية... ووصل إلى حكومة مصر محمد علي باشا سنة 1220هـ/ 1805م بعد أن كان قائدا عسكريا في الحملة ضد الفرنسيين، ولكنه بدأ بتوسيع ملكه لما رأى تضعضع كيان الدولة العثمانية، وتوالى انهزام جيوشها أمام الروس، فراوده حلم بناء دولة واسعة، وفي عام 1831م بدأ بتنفيذ فكرته، فأرسل ولده ابراهيم باشا على سوريا فاستولى عليها وسقطت عكا تلك المدينة الحصينة التي عجز عنها

1 - الشيخ سليمان ظاهر: وثائق، مجلة العرفان، م37، ص 378.
2 - الزين: فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، ص 115 و ما يليها وفيها نصوص الاتفاقيات والتعهدات .
3 - ابراهيم العورة: تاريخ ولاية سليمان باشا، ص 142.
4 - لا بد من الإشارة هنا إلى أن السيد محسن الأمين ألف كتابا مهما في الرد على الوهابية بعنوان: كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب، والذي يعتبر من أهم الكتب التي تصدت للفكر الوهابي باكرا.
5 - فيليبي: تاريخ نجد، ص 178.
6 - العورة: تاريخ ولاية سليمان باشا، ص 138.

نابليـون الأول[1]، وألحـق جبـل عامـل بجبـل لبنـان وأمـيره يومئـذ الأمـير بشـير الشـهابي الثـاني المعـروف بالمالطـي والأمـير الأحمـر[2].

تقاطعـت الأسـباب العامـة بـين جميـع المقاطعـات والمناطـق عـلى الثـورة بوجـه المصريـين، «فضـلا عـن الأسـباب الخاصـة التـي تميـزت بهـا منطقـة جبـل عامـلٍ[3]... وكان بشـير الثـاني (الأمـير الأحمـر)[4] ولّى حفيـده مجيـد إدارة مقاطعـات جبـل عامـل، وكان هـذا شـابا غـرا متغطرسـا (مـن مدرسـة جـده) شـديد الإعجـاب بنفسـه، فاضطهـد وتعسـف حتـى بلـغ محبسـه في صـور قرابـة الألـف رجـل، وحقّـر العلـماء والأعيـان فثـار العامليـون في مناطقهـم وقراهـم يقودهـم حسـين بـك الدويـش الصعبـي وأخـوه محمـد عـلي أحفـاد الشـيخ عـلي فـارس الصعبـي، كـما قـاد الثـورة في بعلبـك جـواد الحرفـوش. واسـتمر التمـرد عـلى ابراهيـم باشـا قرابـة الثـلاث سـنوات إلى 1839) عجـز خلالهـا الأمـير مجيـد مـن إخضاعهـم أو الظفـر بهـم، بعـد أن هاجمـوا مراكـز الحكومـة وطـردوا عمالهـا ونكلـوا بجنودهـا[5]. غـير أن الأعـمال العسـكرية والمواجهـات أثقلـت الأهـالي ممـا دفـع بزعيمـي الثـورة باللجـوء إلى حـوران واربـاض دمشـق بهـدف التخفيـف مـن وطـأة جنـد الحكومـة عـلى الأهلـين بنـاء عـلى أصحـاب الـرأي في جبـل عامـل[6].

ممـا أجمـع عليـه المؤرخـون أن إدارة المصريـين في سـوريا ومـا اتخذتـه مـن الشـدة في جمـع الضرائـب ومضاعفتهـا، ومـا نـال منهـا جبـل عامـل مـن قسـاوة المعاملـة، ويعـود السـبب إلى الخـلاف المسـتحكم بـين الشـهابيين وزعـماء جبـل عامـل... فعـادت الثـورة – التـي يبـدو أنهـا اسـتفادت مـن أخطـاء المـاضي – إلى هـذا الجبـل ولكـن بقيـادة حسـين بـك الشـبيب ابـن الشـيخ فـارس الناصيـف[7]، وكان قسـم مـن هـؤلاء الزعـماء قـد والى السـلطة تحـت يـد الأمـير بشـير، أمثـال الشـيخ حسـين السـلمان الـذي قتـل أحمـد داغـر أحـد قـادة الثـورة وأرسـل رأسـه إلى بيـت الديـن، وكان السـلمان « يحمـل في صـدره صليبـا تزلفـا للأمـير بشـير وحاشـيته «[8].

اسـتقوت الدولـة العثمانيـة عـلى ابراهيـم باشـا بمسـاعدة الـدول الأوروبيـة بعـد مؤتمـر لنـدن في 15 تمـوز 1840... فوزعـت السـلاح عـلى الأهـالي تحرضهـم عـلى الثـورة ضـده، وكان الأمـر يتعلـق بإفشـال حركـة التوسـع المـصري بعـد أن اسـتدرك الأوروبيـون خطـورة مشروعـه عـلى مصالحهـم بعـد انهيـار الدولـة العثمانيـة[9].

---

1 - إميل خوري و عادل اسماعيل: السياسة الدولية، ج2، ص23 و 24. وكذلك: A.Ismail:ibid t22.p21. Defarin.c26/11/1831.
2 - آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص 147.
3 - غنام: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص 110.
4 - لقب بهذا اللقب لما نالت يده من القتل وسمل العيون وقطع الألسن... غنام: المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، ص 104.
5 - آل صفا: تاريخ جبل عامل، 147 و148.

6 - آل صفا: م.ن.
7 - م.ن.
8 - الزين: فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، ص 151. ولاحظ استغلال البريطانيين لسوء إدارة المصريين في (لبنان) والتحريض على الثورة عليهم. منير وعادل اسماعيل: الصراع الدولي، ص 43.
9 - الزين: فصول..، ص 159. وراجع خطاب وزير خارجية فرنسا (الشاعر) لامارتين الذي يوضح أسباب حماية أوروبا للدولة العثمانية كموقع استراتيجي لا زال قائما حتى اليوم مقابل تمدد روسيا (حاجز طبيعي)، تخطته روسيا في أيامن الحاضرة عندما اندفعت بكل قوتها تدافع عن سوريا ووحدة أرضها... إميل خوري و عادل اسماعيل: السياسة الدولية، ج2، ص154.

عاود رفع علم الثورة في جبل عامل حمد البطك المحمود[1] الذي كان يراقب الأحداث ويرتقب الفرص، وأول خطوة على طريق الثورة، التزم حمد البطك الاستئناس برأي العلماء، فاستشار السيد علي ابراهيم[2] في الكوثرية، الذي حبذ الرأي وشجعه عليه وخرج من عند السيد متحمسا يطوف البلاد ويحرض الأهالي ويجمع الأنصار[3]..

نسق حمد البطك مع الدولة العثمانية[4]..التي عهدت إليه بمطاردة الجيش المصري، فكانت معارك جسر القعقعية مع الأمير مجيد الشهابي حليف المصريين من قبل الأمير بشير، وفي رميش، ووادي الحبيس... وشفا عمرو (في فلسطين) مطاردا فلول الجيش المصري المنهزم، واستولى على صفد وطبريا والناصرة، وأجلى المصريين عنها[5].

لكن كما يتضح فإن السياسة الدولية والصراع على المغانم بين البريطانيين والفرنسيين على إرث الرجل المريض، ومخططاتهم ذهب ضحيتها الزعماء والشعب[6]...

1 - ترجمته: الأمين: أعيان الشيعة، م6، ص 230، ومسترك أعيان الشيعة، م2، ص 120.
2 - راجع ترجمته: الأمين أعيان الشيعة، م8، ص 150.
3 - الزين: فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، ص 158.
4 - آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص 149 .. 151. وراجع التاب الموجه لحمد البك من أحد قادة العثمانيين. شبيب باشا الأسعد: العقد المنضد، ص 33. وآل صفا ص 151.
5 - عن تلك المعارك راجع: آل صفا: م.ن . و الزين: فصول، ص 164.
6 - للتفاصيل راجع أطروحتنا للدكتوراه ص 343 وما بعدها.

جبل عامل وممانعة الانتداب الفرنسي

الحركة العربية في جبل عامل ومحاولة الاستقلال قبل الإستغلال الغربي

... شرّعت انتخابات مجلس المبعوثان الأبواب للتيار العروبي في ولاية بيروت بدعم مرشحه عن جبل عامل عبد الكريم الخليل، مقابل الزعامة السياسية التقليدية المتمثلة آنذاك بكامل بك الأسعد الذي كان حليفا لمصلحته سواء مع الأتراك أو الفرنسيين بعد أن شعر بقوة التيار العروبي المنافس له...

.... بعد فضح نوايا الاتحاديين، بدأ العروبيون بالانسحاب من جمعية الاتحاد والترقي كذلك انسحب العامليون والعروبيون منها واقفلوا نواديها وأبرقوا الى الصحف باسم جبل عامل احتجاجاً تبع هذه الاجواء نشوء حركات عربية سرية رداً على سياسة التريك (فعل وردة فعل) والتي لم يتسن للعروبيين العامليين الانضمام الى إحداها، فعمد نفر منهم الى تشكيل شبه جمعية سياسية، كانت تبث بين الشعب العاملي فكرة المقاومة والانتفاض على الحكومة ... والمطالبة باصلاح جبل عامل، و اعطائه الحكم الذاتي على طريقة اللامركزية في نطاق الجامعة العثمانية . فكان الرد قاسياً على هذه الحركة ومنها تعطيل مجلة العرفان التي كانت بمثابة الوسيلة الاعلامية المعبرة عن تطلعات العروبيين العامليين [1] .

يذكر ان الاحداث الوطنية الهامة كانت قد غابت على صعيد البلاد الشامية، حتى التأم مؤتمر الشباب العربي في باريس عشية انهزام الدولة العثمانية في البلقان، ولشدة التنكيل في البلاد وما وقع للأرمن من مذابح . انعقد المؤتمر في باريس في 18 حزيران 1913، وحضره مندوبون عن كافة الجميعات العربية آنذاك، ولما تعذر على العروبيين في جبل عامل المشاركة في هذا المؤتمر كان لهم لائحة في جملة ما وضع من لوائح الاصلاح وقد تلقى المؤتمر برقيتين من الشبيبة العربية في جبل عامل، الأولى باسم قضاء صيدا والثانية من الشيخ احمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان، يأسف فيها لعدم استطاعته حضور المؤتمر ويشير الى الاسباب ويؤكد على المطالب في الاستقلال تحت العلم العثماني المظفر [2] ..

إن النجاح الذي حققه المؤتمر جعل من الاتحاديين يرون أن المسألة العربية تتخذ شكلاً دولياً فأشاروا الى الدول الاوروبية لا سيما فرنسا وانكلترا كي تُلعب أصابعها في القضية ووجهوا حملة اعلامية ضد المؤتمرين ورمتهم بالخيانة، واقدمت على اعمال قمعية في البلاد وحاولت ضرب العرب بالعرب وبوسيلة اغراء بعض العشائر العربية، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، واضطرت بالنهاية جمعية الاتحاد والترقي الى ارسال مندوب لها هو مدحت

1 - بسام الحركة العربية في جبل عامل مرجع سابق ص 69
2 - كوثراني . وثائق المؤتمر العربي الاول 1913 ط1 بيروت دار الحداثة 1980 ص 162/163

شكري الى باريس الذي وقع اتفاقاً مع المؤتمرين بقبول مطالبهم، وصدقت عليه جمعية الاتحاد والترقي، ووقعه باسمها طلعت باشا السكرتير العام للجمعية، وعبد الكريم الخليل باسم الاحزاب العربية [1] .

لكن لم يمض وقت قصير على الاتفاق الذي جرى عقب مؤتمر باريس حتى انقلب الاتحاديون على و عودهم، وكان ما كان من تدابير ضد العرب وخصوصا ابعاد 490 ضابطاً من ضباط العرب عن الاستانة، وغيرها من المراكز التي كان يحتلها اشخاص عرب ..

بعد اشتعال الحرب، سيق الناس للجندية افواجاً واشتد نفور الشعب من الدولة لكثرة ما عانوه من فوضى وتنكيل ومآسي، وبدا الموقف واضحاً أن الدولة العثمانية مقبلة على هزيمة لا بد منها، فبدأ العروبيون نشاطهم من جديد، على يد عبد الكريم الخليل في 18 تشرين الاول عام 1914 رئيس المنتدى الادبي العربي في الاستانة مندوباً لجمعية الثورة العربية التي اتحدت مع جمعية اللامركزية، فأنشا فرعا لتلك الجمعية في صيدا، وآخر في النبطية كان في طليعة مؤسسة الثلاثي العاملي من رجال الدين المتنورين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر ال صفا[2].

وفي هذه المرحلة من الانتظام السياسي للشبيبة العربية في جبل عامل التي تلقى الدعم من البرجوازية المدينية كآل الصلح وآل الخليل .. أحس رجالات الاقطاع السياسي المحلي بالخطر يتهدد زعامتهم التقليدية، اذ علم أن إحدى مواد حزب اللامركزية كانت تنص على وجوب النظر في قانون تعديل الاراضي على الوجه الذي ينمي الثروة العامة وفي تحضير القبائل البدوية لاجل تنمية الثروة وترقية الامة .. فكان طبيعياً أن ينشأ بين تينك الطائفتين الاجتماعيتين صراع حاد. ولما كان التيار العروبي يتحرك ضد السياسة التركية، كان طبيعياً أن يبادر الزعماء التقليديون الى تكثيف اتصالاتهم بالاتراك خاصة جمال باشا الذي بدأ حملته المعروفة ضد العروبيين التحرريين في البلاد الشامية [3].

عبد الكريم الخليل شهيداً [4]

كان أعيان صيدا مختلفين على رئاسة البلدية فئة تريد بقاء مصباح البزري رئيساً لها .. وفئة تعارض هذه الاخيرة اتصلت بعبد الكريم الخليل – اذ كانت كلمته لا ترد من قبل الحاكم العثماني – فوعدهم بالمساعدة مما أوجب جزع الفئة الاولى ونقمها على عبد الكريم [5] .

1 - ال صفا – تاريخ جبل عامل ص 163
2 - ال صفا تاريخ جبل عامل –ص 211
3 - بسام المرجع نفسه . ص 70
4 - الامين . اعيان الشيعة . م8 ص 32 ترجمته وحسن الامين مستدرك أعيان الشيعة المجلد الاول ص 92
5 -الزين . من عهد البكوات في جبل عامل العرفان م 39 –ص 380

وصودف أن وصل أمر جمعية الثورة العربية- اجتماع في مطبعة العرفان في صيدا – الى مصباح البزري عبر عبد المنعم عاصي مختار قرية انصار الذي عرف الخبر من السيد محمد ابراهيم الذي اجتمع مع الشيخ منير عسيران والشيخ محي الدين عسيران والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .. والحاج عبد الخليل والحاج اسماعيل الخليل وعبد الكريم الخليل وكلهم جاؤوا الى زيارة صديقهم الشيخ عبد الكريم الزين – الذي كان مريضاً – وصادفوه بمطبعة العرفان القريبة من منزله[1].

وفي هذا الاجتماع الذي استغله عبد الكريم الخليل وتحدث عن افكاره .. حتى بلغ الحماس بالشيخ منير عسيران [2] الذي اقترح على بعض أصحابه أن تبدأ الثورة فعلاً في صيدا وذلك بأن الجيش العثماني الموجود فيها انذاك كان جله أو كله من شيعة بعلبك الذي يسهل على الشيخ حملهم على إعلان الثورة أو الاشتراك بها .

بعد هذا ابلغ مصباح البزري الامر الى القائمقام التركي ضيا بك الذي أبلغ الوالي التركي بكر سماي بك .. الذي أمر عثمان بك مدير القسم الاداري في دائرة الشرطة والذي حضر الى صيدا بصحبة بعض رجال الدرك وبحثوا في أوراق الشيخ أحمد عارف الزين صاحب العرفان ومطبعتها ولما لم يجدوا وثائق خطية قفلوا الى بيروت وأخذوا بالتحقيق مع السيد ابراهيم وعبد المنعم عاصي [3].

اتصل الخبر بكامل بك الاسعد الذي سارع بدوره فكتب لصديقه مفتي الجيش الشيخ أسعد شقير يعلمه بخلاصة ما انتهى اليه وأنه على استعداد لتفصيل الامور وتوضيح الحوداث وتقدم الشيخ اسعد شقير باقتراحه على جمال باشا أن يطلب كامل بك الى القدس ليطلعه على حقيقة ما جرى وبأن الثورة قد بدأت علاماتها في سورية[4] . فحضر كامل بك الى القدس بعد يومين وبصحبة آخر (فضل بك الفضل أحد أحفاد الاسرة الصعبية من حكام مقاطعة الشقيف) .. وجرى ما جرى من أحاديث بين جمال باشا وكامل بك الاسعد .. « بعدها أصدرت التعليمات اللازمة وظل التحقيق اسبوعين ثم اسفر عن ادانة كل من رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل فابرقت بالقبض عليهما وعلى شركائهما فوراً[5]» الاول نفي الى الخارج والثاني علق على المقصلة بتاريخ آب 1915 [6].

تجدر الإشارة هنا إلى كلام ذكره جمال باشا السفاح في مذكراته يقول فيه: « أما محاكمة عبد الكريم الخليل وعصابته فقد استمرت شهرين..لقد دهشت لعظم شبكة الدسائس

1 -الزين المصدر السابق ص 381
2 -اول قاضي قضاة المحكمة الجعفرية في لبنان (راجع قصص من حياتي للدكتور فؤاد عسيران) والامين – اعيان الشيعة م2 ص 497
3 - ال صفا – مصدر سابق – ص 212 وحول تفاصيل المحاكمة في عالية راجع مخطوط ال صفا «53 يوما في عالية « وكذلك الشيخ احمد رضا مذكراته في سجن عالية – العرفان م58 ص 696/706 .
4 - الزين – من تاريخ البكوات في جبل عامل - العرفان م 49 ص 382 نقلاً عن مذكرات جمال باشا تعريب علي احمد شكري 354
5 -الزين –نفسه نقلاً عن مذكرات جمال باشا ص 355
6 -راجع محضر الجلسة السابعة كما وردت في مخطوط محمد جابر ال صفا (53 يوما في عالية)

التي نسجوها ونصبوها ولم يكن في سوريا إذ ذاك من الجنود سوى الكتائب العربية، فلو خطر لها فكرة التمرد لما كان ثمة وسيلة لكبح جماح الثورة ..»[1].

تلك كانت خاتمة أفعال الدولة العثمانية في بلادنا التي دخلت تحت نير الاستعمار الأجنبي، تشذيبا تحت عنوان الإنتداب.

المقاومة العاملية للإستعمار الفرنسي

هكذا هو التاريخ العاملي، عندما أصبحت الزعامة السياسية (المشايخ) بدون دور وطوردت على يد الجزار، وحكم جبل عامل من غير العامليين، لجأ العامليون إلى المقاومة المسلحة (الطياح) تعبيرا عن رفضهم لكل ما جرى...

وعندما دخلت القوات الحليفة بنواياها الاستعمارية والمتناقضة مع مواقف جبل عامل الداعية الى الوحدة العربية مع سوريا، وككل ثورة مسلحة تنشأ لمناهضة احتلال وغاصب، من الطبيعي ان لهذه النشأة اسباب وممهدات تأتي عملاً عسكرياً بعد فشل الوسائل السياسية وحرب العصابات هي الانجح في الطرف الضعيف وهذا ما حصل مع الاحتلال الفرنسي[2] ...

تآلف العديد من العصابات في جبل عامل، فهناك عصابات الفارين من الجيش التركي خلال الحرب العالمية الاولى، فهؤلاء كانوا يهربون امام السلطات التركية التي كانت تأتي لتبحث عنهم، ووضع اقامتهم السري الجأهم الى النهب والسرقة .. وكذلك هم الجنود الاتراك انفسهم الذين يهربون من جبهة السويس .. والذين كانوا يضطرون لبيع اسلحتهم للأهالي ليشتروا بها الطعام .. وأيضاً البدو من عرب اللهيب الذين كانوا يعيشون من السلب والنهب، وهو أمر تعودوه، ولكن أعمالهم هذه كانت تقوى في ظل الفوضى .. اما العصابات التي نشأت مع الاحتلال الفرنسي فيمكن أن تقسم حسب مراميها وابعادها الوطنية الى ثلاث فئات:

عصابات وطنية لمناهضة الاحتلال:

نشأت حالة تذمر سرعان ما انقلبت مقاومة مسلحة خصوصا بعد أن أدرك العامليون ان التغير في الصورة السياسية لجبل عامل لم تتناول سوى الاطار الخارجي . فذات يوم استفاق الناس في النبطية وإذ بعشرات الاعلانات والمنشورات الثورية الصقت على جدران الاسواق والمعابد وسرايا الحكومة ومقر الجند وعلى باب الحاكم .. ومآلها حض الناس

1 - الزين: من عهد البكوات، مجلة العرفان، م49، ص 289. نقلا من مذكرات جمال باشا، تعريب: على أحمد شكري ص 337 و 338.
2 - فلا ديمير لوتسكي: الحرب الوطنية التحروية في سوريا . انظر الفصل الرابع تحت عنوان : حركة التحرير الوطني في سوريا ولبنان في 1924-1920 وما يليها وقارن مع مسعود ضاهر الانتفاضات اللبنانية . فصل: جبل عامل مهد الانتفاضات الاولى ص 38 وما يليها.

على مقاومة الفرنسيين المحتلين وطردهم من ربوع جبل عامل ورفع الراية العربية .. واشتد تذمر العامليين من الموظفين الفرنسيين .. وعظم اليأس فتألفت عصابات ثورية في داخلية جبل عامل لمقاومة موظفي الحكومة ومنع الاهالي من دفع الضرائب[1]...

تصاعد عمل هذه العصابات بعد اتفاق فيصل مع كليمنصو وتعرض الاول للانتقاد[2] .. وظهرت بوادر عصيان وتمرد .. وكانت خسائر الفرنسيين جسيمة[3] .. بلغت اعمال العصابات ذروتها بعد اعلان مقررات مؤتمر « سان ريمو « في 25 نيسان 1920، ووضع لبنان وسوريا تحت الانتداب الفرنسي، فتعرضت المواقع الفرنسية الى هجمات عنيفة [4].. وكان الملك فيصل في موقف حرج للغاية فهو من ناحية يتلقى التهديدات من الجنرال غورو المفوض السامي الجديد .. ومن ناحية اخرى يتلقى رسائل التوسل من اتباعه لاعلان الحرب على فرنسا .

إن النواة الاساسية لنشوء العصابات الوطنية تكونت في جبل عامل المطالب بالوحدة مع سوريا، فقد عملت الحكومة السورية على مساعدة هذه العصابات، وقد قال قائد الفرقة الثالثة في حلب يوم 13 نيسان 1919 « لما كنا لا نستطيع ان نعلن الحرب على الفرنسيين يجب علينا ان نملأ البلد بالعصابات التي تجهز عليها تدريجياً، وسيقود ضباطنا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته[5]» . ويتحدث كثيرون حتى اليوم .. عن طرق وصول الأسلحة والذخيرة الى رجال العصابات. عبر ضابط ارتباط من حكومة دمشق ويدعى علي خلقي ومركزه يوم ذاك بلدة العديسة من قرى جبل عامل[6] .

---

1 -ال صفا مصدر سابق ص 225

2 - عن اتفاقية كليمنصو وفيصل، النص والتعليق عليه مجلة العرفان م18، ج5. ص 422.

3 - حول اعمال العصابات راجع –General (CR) du HAYS les armes francaises du levent . 1919- 1939 وهذه التقارير تشير الى كل من محمود الفاعور وكامل بك الاسعد وصادق حمزة .T2 P1 47ET 148 .

4 - حول هذه الخسائر راجع .OP/Cit General HAYS ومذكرات الشيخ احمد رضا المنشورة في مجلة العرفان م 32 وم 33 وكذلك الصحف اليومية الصادرة في تلك السنة كجريدة الحقيقة والبشير ولسان الحال وغيرها .

5 - قدري قلعجي جبل الفداء ص 386 .

6 - رضا مذكرات للتاريخ العرفان م33 ص 733

أهم العصابات الوطنية

في معظم قرى جبل عامل كنت تجد مجموعة من الشباب الذين حملوا السلاح وألفوا فرقة ترأسها اكثرهم شجاعة و اقداماً[1] .. لكن اشهر هذه الفرق واكثرها عملاً في ذلك الوقت كانت ثلاثة هي:

أ- عصابة صادق حمزة: وهي من اهم الفرق التي عرفها جبل عامل، حيث ان اعمالها كانت تغطي جبل عامل بأكمله، وزعيم هذه الفرقة هو صادق الحمزة من قرية دبعال في قضاء صور، وينتمي بنسبه الى الاسرة الصغيرية . ولكنه نشأ نشأة فقيرة وقد يكون السبب في احتضان العامليين لعصابته.

من أعمال ومواقف هذه العصابة انه: « شاع اليوم- الخميس 11 آذار 1920 – أن صادق الحمزة من قادة الثورة، أتى الى العديسة – من قرى جبل عامل – ورفع العلم السوري، ثم فعل ذلك بقرية بليدا، بعد ان مر بقرية الطيبة – بلدة كامل الاسعد – ومعه مائة وخمسون من رجاله ما بين راكب وراجلٍ[2].

ب- عصابة ادهم خنجر: وينتمي زعيمها أدهم بك خنجر الى الأسرة الصعبية، حكام بلاد الشقيف والتي منها آل الفضل في النبطية، وكان جده احمد بك الدرويش (الصعبي) من أصحاب المروءة، فحمى عدداً من المسيحيين خلال مذابح سنة 1860 في داره التي لا تزال قائمة حتى الآن في قرية زفتا[3].

تروي قصة ان ادهم خنجر كان معسكراً في قلعة الشقيف، وان الفرنسيين كانوا يعسكرون في تلال النبطية، فأخذوا يطلقون على قلعة الشقيف قنابل مدافعهم، وان أدهم خنجر لم يبال بل دعا رجاله الى حلقة الدبكة وأخذوا يدبكون على دوي القنابل[4] . يروي الشيخ احمد رضا في مذكراته يقول:

« .. ان العصابات الثائرة ملكت جسر الخردلة، وان عصابة صادق حمزة مرابطة في علمان وعلى جسر القعقعية، وعدتها نحو ثلاثماية، وعصابة أدهم خنجر وشبيب العبدالله – من الخيام- احتلت قلعة الشقيف وعددها نحو مائتين وخمسين، وان محمد بك التامر ومعه اربعمائة محارب في قرية عديسة، وانه وقع اشتباك بين الدرك والثائرين في قلعة الشقيف .. وذهبت سرية من العسكر لمطاردة ادهم وشبيب في القلعة ووضعت المدافع عيار 7.5 على الرابية القريبة من بركة كفرتبنت .. واطلقوا نارها على القلعة ولم يظهر احد من الثائرين

1 - حول هذه الفرق والعصابات راجع: البشير 3 نيسان 1920 .
2 - رضا المصدر السابق ص 733 . وراج أعمال أخرى مشرفة في أطروحتنا للدكتوراه، ص392.
3 - سلام الراسي: لئلا تضيع، ص 93.
4 - حسن الامين من دفتر الذكريات الجنوبية ص 71. والقصة في مجلة العرفان، م 22، ص 525. واقرأ الرواية مفصلة في مذكرات احمد رضا العرفان م 34 .

.. ولكن العسكر بعد اطلاق المدافع رجع الى النبطية ولم يهاجم[1]...

بتاريخ 12 اذار 1920 قطعت الطريق ما بين النبطية وصيدا بسبب «معركة حمي وطيسها غربي خان محمد علي عند عقبة زلوم - ما يعرف اليوم بمنطقة الرادار الذي بني عليه مجمع نبيه بري الثقافي – بين عصابة أدهم خنجر وثلة من جنود النقل الفرنسية كانت تحرس العربات الناقلة لارزاق العسكر»[2]...

ج- عصابة محمود الاحمد بزي: رئيسها من وجهاء – بلدة بنت جبيل وكان ينسق مع صادق حمزة، ورجال هذه الفرقة لعبوا دوراً بارزاً في الهجوم على عين إبل ...

هذا فإن ما ذكره الناس حول اعمال الثوار يدل على أن هؤلاء كادوا أن يملكوا ناحية جبل عامل « فالاخبار الطارئة من جنوبي جبل عامل (بلاد بشارة) أن الثائرين قد ملكوا ناحية المنطقة وأن الحكومة لم يبق لها ادنى اثر ولا سلطة، حتى أن مأموري المالية والدرك لا يقدرون على التجول فيها، وهي اشبه بحالة العصيان التام[3].

كانت العصابات الوطنية في جبل عامل تعبيراً عن الشعور العام لدى العامليين تجاه الاحتلال الفرنسي من جهة والوحدة مع سوريا من جهة ثانية، وهذا ما بدا في الالتفاف حول هذه العصابات وأشخاصها ... فالنظرة إلى صادق حمزة وأدهم خنجر عند العامليين في تلك الفترة تجاوزت الأطر المعقولة لتضفي عليها هالات من السحر .. فكانت القرى تتسابق لإحلال صادق حمزة وأدهم خنجر ضيفاً عليها، وكانت القرية تلتئم مع القرى المجاورة لها في عرس، حيث تنعقد حلقات الدبكة والرقص والغناء[4]..

1 - رضا المصدر السابق العرفان م.34 ص 354
2 - رضا المصدر نفسه . م 33 ص 1117 .
3 - رضا المصدر نفسه م 33 . ص856 ولاحظ تقرير الجيش الفرنسي من ناحية صور حيث يقول: توسعت الاضطرابات في جنوبي صور التي هي في قبضة زعيم الشيعة صادق حمزة الذي يحاول ان يكون نوعاً من حكومة مستقلة مع بعض من البلدات التي هي في متناوله HAYS. p . General. 152 .
4 - راجع تفاصيل أكثر في أطروحتنا للدكتوراه.

مؤتمر وادي الحجير قمة الموقف السياسي لجبل عامل

إن اضطراب وتحرج الوضع السياسي في المنطقة وبالتالي في جبل عامل، كان السبيل في التداعي الى عقد مؤتمر عاملي عام يعبر عن الوحدة العاملية بين اقطاب الجبل الذين اصبحوا ثلاثة: الزعماء السياسيين التقليديين (كامل الاسعد) وبعض الزعماء الجدد المندرجين في فئة الوجهاء، والقيادة الدينية وما تمثله من لحمة دائمة، وزعماء العصابات المسلحة .

كان التحرك الفرنسي يمهد الى الاندراج السياسي لجبل عامل في لبنان الكبير – مشروع فرنسا في اطار استراتيجيتها في التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي[1]– مما جعل التأييد المكثف لفرنسا من قبل المسيحيين . فكانت خطوات رجال السلطة الفرنسية بالتداعي الى الاتصال برجال جبل عامل وحثهم على التعاون معها، والقضاء على التطلعات الوطنية التي كانت المقاومة تشكل فيها رأس الحربة ..وهذا ما ظهر بزيارة غورو الى النبطية في 25 شباط 1920[2] . كذلك الطلب لا بل الالحاح الى حد الفرض على الاهالي والزعماء والوجهاء ورجال الدين بتوقيع العرائض المطالبة بحكومة فرنسا. « والتبرؤ من أعمال دمشق في مؤتمرها السوري والاحتجاج على تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا المتحدة وبأن العامليين لا يريدون سوريا بل الالتحاق بلبنان» [3] ..

لكن هذه التحركات المكثفة باءت بالفشل مما حدا الفرنسيين بالتوجه الى شخص كامل بك الاسعد كزعيم، والذي اصبح يشكل قبلة التوجه الفرنسي، والذي اجتمع معهم بناء على طلبهم في اذار 1920 على جسر الخردلي، والذي عرف فيما بعد بمؤتمر جسر الخردلي والذي ضم الى جانب كامل بك الاسعد زعماء جبل عامل .

« وكانت الغاية من هذا الاجتماع توقيع الاحتجاج على ملكية فيصل وعلى التبرؤ من مقررات المؤتمر السوري بدمشق»[4]. لكن كامل بك الاسعد رفض كونه « لا يستطيع فعل ما لا يريده الشعب العاملي لا سيما اذا كان ما يخالف مبدأهم الديني»[5]، وهذه الاشارة الى مدى حضور القيادة الدينية والثوار في مسار تقرير مصير جبل عامل، وعدم استطاعة الزعامة السياسية تقرير هذا منفردة .

لكن الالحاح الفرنسي على رجالات جبل عامل خصوصاً زعمائه أدت الى اجتماع اخر

1 - حول مشروع فرنسا في السيطر ة والتجزئة انظر: وجيه كوثراني – بلاد الشام خصوصاً ص 233 وما يليها . وكذلك مسعود ضاهر جبل عامل في اطار استراتيجيتها في التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي – صفحات من تاريخ جبل عامل ص 107 وما يليها .

2 - رضا العرفان م 33 ص 472

3 - رضا العرفان م 33 ص 724 لاحظ نماذج هذه المضابط في وثائق إطروحة محمد بسام للدكتوراه .مرجع مذكور .

4 - رضا المصدر نفسه ص 735 كذلك لاحظ ما يلي هذه الصفحة من المذكرات تشديد الفرنسيين في توقيع هذه المضابط

5 - رضا المصدر نفسه ص 735 لاحظ مقابلة الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر لشاربتييه في النبطية بتاريخ 3 نيسان 1920 وما تخلله من حوارات حول الوحدة السورية والتطرق الى المذهبية الاسلامية (سنة /شيعة) .. ص 853 من العرفان في مذكرات الشيخ احمد رضا

بـين هـؤلاء الزعـماء والاعيـان والحـكام الفرنسـيين وذلـك في نيسـان 1920 في مزرعـة (هـورا) قـرب مرجعيـون حيـث تـم التـداول بإنشـاء حـرس وطنـي مناهـض للعصابـات المسـلحة [1]، لكـن هـذا لم يحصـل لعـدة امـور اهمهـا ان الزعامـة السياسـية لم تكـن قـادرة عـلى اتخـاذ قـرار يلـزم بـه العامليـين، وهـذا مـا حـدا بكامـل بـك الاسـعد قولـه الى الحاكـم العسـكري الفرنـسي « انني اصبحـت في مركـز حـرج بينكـم وبـين العـرب – العروبيـين في جبـل عامـل – ولا أجـد لي عـذراً منكـم فـإذا سـمحتم لي خرجـت الى فلسـطين، فـان بيتـي نهـب ومـالي ذهـب ولا أزال عرضـة للمسـاءة»[2]. ثـم بعـد الحـوار طلـب كامـل بـك مشـاورة علـماء البـلاد وإعيانهـا .

وبالفعـل فإنـه دعـي ومعـه الزعـماء الى اجتـماع عقـد في النبطيـة حـضره بعـض العلـماء، وطـرح عليهـم الحديـث الـذي جـرى مـع (شـاربنتييه) في هـورا، فعـارض فيـه أحـد العلـماء الحاضريـن وهـو الشـيخ موسـى قبـلان معارضـة شـديدة .. ثـم جـاء للمجتمعـين خـبر أن العروبيـين عازمـون عـلى احتـلال بـلاد بشـارة وأن بيدهـم زمـام الامـور، فأثـر هـذا الخـبر عـلى المجتمعـين تأثـيراً كبـيراً[3] ..

مـن ناحيـة أخـرى أثـر موقـف الملـك فيصـل عـلى رجـالات جبـل عامـل وخصوصـاً مـا بـين 1919 و 1920، وهـي الفـترة الحرجـة في حيـاة الحركـة العربيـة. حيـث لم يكـن قـد حـدد نهجـاً سياسـياً، فقـد كان يتقلـب في بورصـة الوعـود والمقابـلات والمؤتمـرات المنعقـدة في أوروبـا أم في المـشرق العـربي. ممـا أدّى إلى تذبـذب المواقـف عنـد رجـالات جبـل عامـل، بالنسـبة للمواقـف مـن الفرنسـيين والحركـة العربيـة والحركـة الوطنيـة في جبـل عامـل، خصوصـاً أن الأحـداث كانـت تتلاحـق بشـكل أفقـد الجماهـير قدرتهـا عـلى رصـد هـذه الأحـداث، إذ أن الوعـي كان في مسـتوى لا يحمـد عليـه..

هـذا كلـه في موقـع، والموقـع الثـاني كان ينسـف الموقـع الأول، فازديـاد فاعليـة أعـمال العصابـات وتطـور المفهـوم السـياسي عندهـا مـا خـلا بعضهـا أو إحداهـا، وكذلـك تطورهـا العسـكري، وأعمالهـا تـدل عـلى ذلـك وهـذا مـا جعلهـا طرفـاً بـارزاً في تحديـد الإطـار السـياسي لجبـل عامـل وفرضـه عـلى المتنفذيـن في الزعامـة، كذلـك لا ننسـى الظـروف الاقتصاديـة التـي كان يمـر فيهـا الجبـل إذ إن هـذه الناحيـة كثـيراً مـا تؤثـر عـلى المسـار المسـتقبلي لـكل مجموعـة لا بـل أمـة في العـالم..

هـذه الأمـور والظـروف المجتمعـة كانـت مـن أبـرز الأسـباب لانعقـاد مؤتمـر وادي الحجـير أضـف إليهـا سـبباً مهـماً هـو طلـب رجـالات سـوريا مـن جبـل عامـل تحديـد موقـف واضـح

1 - رضا العرفان م 33 ص 858 .
2 - رضا المصدر نفسه.
3 - المصدر نفسه .

عبر رسالة موجهة من الملك فيصل إلى كامل بك الأسعد بعد أن رأت الالتفاف الشعبي حول العصابات المسلحة والمتطلعة إلى الوحدة مع سوريا حيث نقل الشيخ محمد رضا الشبيبي[1] عن الملك فيصل قوله: « قل للبكوات وخصوصاً كامل بك بأن يساعدوا الثوار خاصة إنني ما زلت على القول أن جبل عامل يدي اليمنى... ».

وعن أجواء المرحلة المصيرية يتحدث السيد عبد الحسين شرف الدين قائلاً:

« في هذه الفترة وقد غلت مراجل الغيظ واضطربت الحال، جاءت رسل الرؤساء من عشائر الفضل في المنطقة الشرقية يحملون لكامل بك الأسعد رسائل الثورة ويدعونه إلى خوض المعركة ويخيرونه بين اثنين: إما أن ينضم إليهم بجبل عامل فيكون معهم حرباً على فرنسا، وإما أن يعتزل فيكون غرضاً لحربهم قبل فرنسا [2].

ولم يجد هذا البلاغ استعداداً من كامل بك الأسعد لأنه لم يكن متهيئاً له، فاستمهل الرُّسل وحملهم إلى أصحابهم رسالته: إنه ليس المفرد بالرأي في عاملة دون العلماء من أولي الشأن ودون الزعماء الذي لهم كلمتهم ولهم أتباعهم[3]. فلا بد له من أجل يضربه لميعاد ويجتمع فيه العلماء والزعماء ويبحثون هذه القضية على ضوء التفكير والتأمل وهكذا كان»[4].

إن الدعوة التي وجهها كامل بك الأسعد لعقد المؤتمر كانت لعدة أسباب ذكرناها، ولكن الأهم الواجب ذكره هو لهدم الهوة التي اتسعت بينه وبين رجال الثورة والتي كادت أن تصل إلى الصدام المسلح، جراء مواقفه التي كانت أقرب إلى سلطات الاحتلال منها إلى الحركة العربية، والتي عقد لأجلها متنفذو جبل عامل سلسلة اجتماعات في 14و15و17 نيسان 1920 بدعوة وبرئاسة كامل الأسعد ولم يحصل على ما يرغب به، وقد جاءت هذه الاجتماعات اثر لقاء الأخير مع الفرنسيين في (مؤتمر جسر الخردلي) .

وكذلك الخوف الذي اعترى كامل بك من الاتساع بالسيطرة الجماهيرية على جبل عامل لصالح هذه العصابات، وإن تحديد الموقع الجغرافي(وادي الحجير) لهو دليل اقره الجميع أن هذا المكان هو الوحيد الذي يستطيع أن يصل إليه زعماء العصابات المسلحة

1 - الأمين - أعيان الشيعة م9 ص287: «.. حمل لواء الإصلاح السياسي والاجتماعي في شعره ونره ومن يتصفح بعض صحف مصر والشام ولبنان والعراق الصادرة في ذلك العصر يقرأ له شعرً اجتماعياً وسياسياً غير قليل..
2 - وفد عليه السيدان أحمد مريود واسعد العاصي: موفدان من قواد الثورة ويقولان له، انه انقضى دور الأقوال وجاء دور الأعمال. فعلى جبل عامل، أن يصرح بخطته ومنهاجه، فإما أن يكون معنا فليساعد للثورة، وأما لا فيفعل فيكون علينا ويكون لنا وله شأنً رضا. مذكرات للتاريخ. م 23 ص989.
3 - من الطبيعي أن يكون هذا رد كامل الأسعد والذي جاء موازياً لرده على الفرنسيين في لقائه على جسر ألخردلي وفي طورا حيث لم يستطع يومها اتخاذ موقف (يرجع ذلك كون الثوار كانوا قد ملكوا ناصية البلاد ومن ورائهم القيادة الدينية المتحدة دائماً، فإن الحجم السياسي والاجتماعي الذي اكتسبته حركة الثوار في جبل عامل لم يكن يسمح لأحد بأن يتجاهلها).
4 - شرف الدين - صفحات من حياتي - الألواح عدد15، ص2.

ورجالهم، وبالتالي دون أن تكون في منطقة نفوذ أحد الزعماء[1]..

انعقد المؤتمر في 24 نيسان 1920 وسط تظاهرة سياسية وشعبية كبيرة وصفها أحد الحضور أنها «كان العمل كالنمل والدنيا مثل يوم القيامةً. فقد حضر الأقطاب العامليون جميعهم برفقة أعداد كبيرة من أنصار كل منهم فكان من الوجوه البارزة من العلماء السيد عبد الحسين شرف الدين الذي ترأس المؤتمر وكان أكبر الحاضرين.

ومن الزعماء الذين حضروا كامل بك الأسعد، ومن الثوار صادق الحمزة وادهم الخنجر[2].

كان الجو العام في المؤتمر يميل إلى الإجماع، ولكن الخلاف كان بارزاً بين قادة الثورة، وكامل الأسعد الذي ذهب بنفسه عليهم، حيث انتحوا جانباً من الوادي، وقال كامل بك مواجهاً صادق الحمزة ابن سعدى ـ كامل بك ـ بيطلع لعند ابن خديجة ـ صادق الحمزة ـ فتقدم صادق عندها وسلم عليه، وبعد تدخل العلماء أهداه كامل بك سيفه وثمنه 300 ليرة عثمانية تقديراً وإعجاباً .

وهذا ما حصل أيضاً مع أدهم خنجر الذي أعلن عن وصوله بزخات كثيفة من الرصاص، وانتحى الجهة الشرقية قبالة الجهة التي كان يجلس فيها كامل بك ورجالات جبل عامل. فما كان من كامل بك بعد هذا ألا أن خرج وقد تملكه الغضب قاصداً أدهم، وقبل أن يصل تقدم أدهم أعزل السلاح.. وسلم عليه مبرراً عمله[3] . وهذا يدل على ازدياد شعبية الثورة وقادتها وتطلعاتها، ويدل على ذلك مقررات المؤتمر بإرسال وفد على الشام لتهنئة الملك فيصل بما قرره المؤتمر السوري المنعقد في 8 آذار 1920، وقرر أن يكون جبل عامل مستقلاً استقلالاً داخلياً ضمن الوحدة السورية[4]...

إن هذه المقررات تغلب على تطلعات العامليين السياسية من جهة، والثوار المناهضين للفرنسيين الذي استطاعوا قبل المؤتمر إيجاد ثغرات في التطلع السياسي لهذه المنطقة.. ولا يغيب عن بالنا أن الحضور القوي، وان بلورة هذه المواقف كان بالدرجة الأولى للقيادة الدينية التي مثلت القيادة الحقيقية لجبل عامل وليس هذا المؤتمر إلا دليلاً بارزاً على ذلك خصوصاُ لجهة الحضور العلمائي المميز والذي أدى بالمؤتمرين إلى انتخاب العلامة كبير

1 - لاحظ كلام السيد عبد الحسين شرف الدين ـ صفحات من حياتي ـ الألواح ـ عدد 15 ص53 اختاروا وادي الحجير لتوسطه بين البلاد العاملية....

2 - هناك تفاصيل أكثر حول انعقاد المؤتمر وأجوائه ومقرراته والحاضرين في المصادر والمراجع التي تناولناها فيقتضي الرجوع إليها عند الحاجة ومنها ـ الشيخ سليمان ظاهر ـ جبل عامل في الحرب الكونية ـ ص71 وما يليها ـ مذكرات الشيخ أحمد رضا العرفان م 34 ص988 وما يليها. محمد علي الحوماني. مجلة العروبة عدد 20 ص26 وما يليها. منذر جابر مؤتمر وادي الحجير ـ ص59 ـ وما يليها ـ يوسف طباجة ـ الزعماء السياسية ص115 وما يليها. محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل. ص225 وما يليها وغيره من الصحف اليومية الصادرة في ذلك التاريخ.

3 - منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير، مرجع مذكور ص72 و 73.

4 - طاهر – جبل عامل في الحرب الكونية، ص72.

العلماء الشرعيين الشيخ حسين مغنية فاعتذر لعجزه. فعاد المؤتمر لينتخب العلامتين السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين لهذه المهمة، وفي دمشق يجتمعان بعلامة الشيعة الأكبر السيد محسن الأمين ويقوم هؤلاء الثلاثة بمفاوضة جلالة الملك[1].

ما إن انفض مؤتمر وادي الحجير حتى تفاجأ الجميع في المشرق العربي بمقررات مؤتمر (سان ريمو) في 28 نيسان 1920، الذي وضع أولى وصاياه سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.. بالرغم من احتجاج الحكومة العربية في دمشق..؟ فصعق القوميون العرب، أو بالأحرى العروبيون بالنبأ، فيما استقبلته أغلبية المسيحيين في لبنان بالارتياح[2].

اما على الصعيد المحلي فقد كان تعاظم العمل الطائفي، والمغذى في أوساط المسيحيين من قبل الفرنسيين بارزاً، وخصوصاً موقف مسيحيي جبل عامل من مؤتمر وادي الحجير ومقرراته.فكانت سياسة(الفعل) وردّة (الفعل) التي أرادتها فرنسا بغية إحكام سيطرتها وقد ساعدها على ذلك الظروف الدولية والمحلية ـ إقليمية.

1 - رضا، مذكرات، العرفان، م34، ص989.

2 - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص208 ولاحظ كيف استدعي مدير النبطية الوجهاء والأعيان إلى دار الحكومة لإبلاغهم قرار الانتخاب ثم علقه رسمياً بالسوق، رضا ـ مذكرات، م33 ص1116.

حادثة عين إبل: عين إبل، هي من القرى المسيحية الكبرى في جبل عامل، ذات الأكثرية المارونية[1] هذه البلدة التي اتخذت مواقف ملازمة لمواقف القرى والبلدات المسيحية في جبل لبنان، واتخذت عين ابل موقفاً مؤيداً لها (أي للبلدات في جبل عامل) ومعارضاً لمعارضيها، ومن الوقائع الدالة على ذلك الاحتفالات التي كانت تقام فيها، خصوصا الاحتفال الذي أقامته بمناسبة قدوم الجنرال غور الى لبنان والتي وصفته الراهبة كليمنتين خياط رئيسة راهبات القلبين الأقدسين في عين ابل قائلة «فلما كان العشر الثالث من تشرين الأول من العام الماضي، حتى بلغ عين ابل قدوم القائد المغوار الجنرال غورو.. اجتمع أهالي البلدة واتفقوا على أن يقاسموا نصارى بيروت ولبنان أفراحهم.. فنصبوا العلم الفرنسي، وبإزائه صورة الجنرال مطرزة بيد الراهبات،.. مهنئين الدولة الفرنسية على انتصارها»[2]. كذلك تألقت في هذه البلدة طليعة الجمعيات المؤيدة لفرنسا، ثم أن قوات الاحتلال عملت على توسيع الفرقة بتحريك العواطف من جراء أعمال الفرق المسلحة من قبل الطرفين، ونجحت بذلك حتى أصبحت أقل حادثة بسيطة كافية لتفجير الوضع برمته، فرغم ما قيل في مؤتمر وادي الحجير عن الوحدة والمحافظة وتحليف اليمين، وتهديد لقادة العصابات لأجل ذلك، إذ أنّ هذه المقررات قلبتها السلطات الفرنسية وأعوانها شراً وفتنة، وهذا ما صدر في الجرائد والصحف الموالية والناطقة باسم الفرنسيين، فجريدة البشير بعد أن تحدثت عن سفر الوفد إلى الشام لمباحثة فيصل في الحوادث التي تقع في جبل عامل تتابع قائلة:

«هذا ظاهر الاجتماع، أما باطنه فخفي، ولا يصدق القول حتى يصدق العمل، وإن ما يجعلنا بريبة من ثبات هؤلاء تهافتهم مؤخراً على مشترى الأسلحة[3]..ً ثم تتابع هذه الصحيفة حملتها فتركزها على السيد عبد الحسين شرف الدين بقولها..وقد أهاج القوم السيد شرف الدين من قرية شحور، وهذا زعيم الشيعيين الديني في صور، بتكراره على شقيف مؤتمر الحجير، تلك الفتوى الشرعية التي كان قد أصدرها قبل حوادث دردغيا بإفناء المسيحيين عن بكرة أبيهم في قضاء صور، إذ حلل لشيعيين دم المسيحيين وأموالهم وأعراضهم[4]..».

أما الراهبة كليمنتين خياط فإنها أيضاً أدلت في مساهمتها قائلة:ً.. بقينا في هذه الحال شهراً كاملاً، وكل يوم تأتينا الأنباء بفضائح أهل الشيعة في كل جهات القضاء، ولا سيما بعد اجتماع شيوخهم وزعمائهم في الحجير.. أن صمموا النية على مهاجمة القرى التي لم يجسر المتاولة بعد أن يلحقوا بها ضرراً، وخصوصاً عين ابل دبل، رميش وعلما لبسالة أهلها[5]..».

1 - ظاهر، معجم قرى جبل عامل، العرفان، م8، ص523 حيث يقدران بداية سكن المسيحيين فيها يعود لايام فخر الدين كذلك نفس المصدر. م24ص740.

2 - كليمنتين خياط، مجلة المشرق، تشرين الأول 1920، م 18، ص779، وكانت ترافق هذه الاحتفالات أهازيج مثل بيبا فرنسا (فيفا) يحيا دين الصليبيا، منذر جابر مرجع مذكور، ص87.

3 - البشير، 6 أيار 1920.

4 - البشير 20 أيار 1920.

5 - كليمنتين خياط، المشرق، ص722.

وفي الحقيقة إننا لو أردنا مناقشة هذه الاتهامات فان الواقع يدحضها، فمن ناحية أجواء مؤتمر الحجير ومقرراته فهي واضحة وقد أجمع من أرّخ وتحدث عن هذا المؤتمر إصرار المؤتمرين على الثوار لا بل تهديدهم لأجل المحافظة على التعايش الطائفي، وبالتالي فإن الحوادث التي شهدتها منطقة مرجعيون أثناء إعلان الحكومات العربية وفرار المسيحيين إلى النبطية وضواحيها والذي استقبلوا أحسن استقبال، ونحن لو نظرنا إلى توزيع القرى المسيحية في أنحاء جبل عامل لرصدنا عدداً قيلاً من هذه القرى جرى حوادث ويمكن إحصاءها عن القرى مثيلاتها التي لم تشهد أي حادثة تذكر والسبب هو الموقف والتحزب للفرنسيين والدخول في عصبات وجمعيات أنشأتها هذا الأخيرة لهم[1]، فكانت الحوادث تجري بينهم وبين الثوار أو كانت مدبرة من قبل أعوان الفرنسيين وهذا ما أشار إليه محمد جابر آل صفا من أن «بعض الموظفين، الذين التفوا حول الحاكم الفرنسي من بيت العازوري وبيت نور وغيرهم ممن لم يرق لهم ذلك الاجتماع، ورأوا فيه خسراناً لمراكزهم وسداً لباب منافعهم، أشاعوا أن ذلك المؤتمر عقد للتنكيل بالمسيحيين، ثم شرعوا بتحريض آهل القرى المسيحية، وهم يعلمون أن المسيحيين في تلك الجهة أقلية ضئيلة جداً عاشت بسلام مع الشيعيين قروناً عديدة متآخية متصافية[2]».

أما بالنسبة للسيد عبد الحسين شرف الدين، فانه يدحض ما نسب إليه، ملقياً تبعة الأحداث وتطورها على الفرنسيين الذين كانوا يبتغون من ذلك كله إظهار البلاد أمام الدول بمظهر من لا يستطيع إدارة مستقلة، لتبث نفسها وصية عليها بحسب نظام الانتداب الذي توصلت إليه مع حليفاتها[3]...

لهذا يقول السيد شرف الدين نثرت فرنسا على الجرح ملحاً بأن سلحوا أهل عين ابل من جهة، وأظهرت عجزها إزاء العصيان المدني الشامل الذي تحصن به العامليون[4].. «ثم عن مسالة الفتوى فإنه يقول «إن الأفرنسيين.. نسبوا إلينا فتوى بجهاد النصارى قالوا إنها كانت في مؤتمر الحجير وكانت دعواهم هذه تحريفاً سيئاً لموقفنا المشهود في الحجير[5]..».

إلى ذلك فإن الأحداث والقرائن تنبئ بأن السيد شرف الدين قد ساهم وساعد جميع الفقراء من كافة المذاهب أثناء المجاعة في الحرب الكونية الأولى، إضافة إلى موقفه الحازم من حادثة دردغيا تلك القرية المسيحية في قضاء صور والتي هوجمت من قبل صادق

1 - لاحظ مذكرات الشيخ أحمد رضا، العرفان م 34 ص358 و359 و505، وما يليها حيث يورد وقائع محاولته لقاء الجنرال غورو بعد أن عقد عدة لقاءات مع أصحاب الصحف للتوقف عن مهاجمة جبل عامل وأبنائه افتراء.. وفي تقرير لغورو نفسه يعترف أنه كان يخشى وحدة الجماهير الشعبية التي تمثل ضربة أخرى تقضي على العداء المستمر بين الأتنيات التي يراهن و حكومته عليها للاستمرار بالتواجد على تخوم الحدود الجديدة لتركيا. راجع محمد بسام الاتجاهات مرجع مذكور ص142،نقلاً عن وثائق الخارجية الفرنسية وراجع حول سياسة فرنسا الخارجية في هذا الصدد ما ذكرناه آنفاً عن تقرير الشاعر الفرنسي لامرتين. راجع إميل خوري وعادل إسماعيل . السياسة ج الدولية، ص154.

2 - آل صفا، صفحات من تاريخ جبل عامل ص227.

3 - شرف الدين، صفحات المصدر نفسه، ص4.

4 - نفس المصدر السابق،

5 - المصدر السابق.

الحمـزة، وفـرّ أهلهـا حيـث اسـتقبلهم السـيد في داره، وقـد حفـظ أهـل دردغيـا الجميـل للسـيد، حتـى أنّ مختـار القريـة آنـذاك واسـمه خليـل إبراهيـم لقـب السـيد بمطـران النصـارى[1].

وقائـع الحادثـة: رافـق ذلـك التشـنج كلـه حادثـة بسـيطة أشـعلت الفتنـة، وكانـت السـبب للهجـوم عـلى عـين ابـل بعـد أن أشـيع أن شـباب هـذه القريـة يتهجمـون عـلى الديـن الإسـلامي علانيـة والحادثـة «إن بائعـة لبـن مسـلمة مـن بلـدة حانـين، اعتـدى عليهـا شـباب مـن عـين ابـل وجردوهـا مـن أثوابهـا بالقـوة وأمروهـا أن تمـشي أمامهـم هكـذا ذاهبـة جائيـة ثـم تناولوهـا بالفاحشـة علنـاً[2] والحقيقـة أن الإشـاعة ضخمـت وفي يـوم الأربعـاء 5 أيـار 1920 بـدأ الهجـوم عـلى عـين ابـل أحرقـت وشرد أهلهـا، وقـدر الخسـائر الماديـة بالكثـير والأرواح بحـوالي المائـة، رافقهـا أعـمال سـلب ونهـب حيـث لم يبـق مـن عـين ابـل سـوى الأحجـار المحروقـة والمبعثـرة[3]. أضـف إلى الضغينـة والحقـد الـذي خلفتـه هـذه الحادثـة بـين أبنـاء المنطقـة..! ويقـول السـيد عبـد الحسـين شرف الديـن حيالهـا لقـد كان اسـتياؤنا لهـذه الكارثـة عظيـماً، أزعجنـا مظهرهـا الفوضوي البربـري بقسـوته التـي لا تبيحهـا شريعتنـا المقدسـة، وأزعجنـا أنهـا أسـاءت إلى خطتنـا التـي أعلنّاهـا في الحجـير مـن المحافظـة عـلى الأمـن والمبالغـة في تأمـين النصـارى وسـائر الأقليـات. وهـذه هـي خطـة الملـك فيصـل، وقـد كانـت الكارثـة مـن العراقيـل التـي عاقتنـا عـن الوصـول إلى غايتنـا مـن الاسـتقلال والتحـرر[4]».

إذاً نجحـت الخطـة الفرنسـية أن تكتسـب موقفـاً مهـد لهـا القيـام بحملـة عسـكرية كبـيرة عـلى جبـل عامـل للسـيطرة عليـه بحجـة الانتقـام لمسـيحيي المنطقـة وحمايتهـم مـن اضطهـاد المسـلمين، وكان لهـا الحجـة والدليـل المـادي لتبريـر عـدم كفايـة الشـعب لمـا ينشـده مـن التحـرر، وبالتـالي الحـق في حمايـة الأقليـات المسـيحية في المنطقـة.

1 - منذر جابر. مؤتمر الحجير ص83 نقلاً عن الشيخ إبراهيم سليمان بمقابلة سنة 1973.
2 - ظاهر، جبل عامل، مصدر سابق، ص73، ويذكر سبب آخر لنكبة عين إبل
3 - منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير، راجع تفاصيل وافية من ص87 ص97 ويشير تقرير الجيش الفرنسي إلى أن عدد القتلى في عين ابل هو 53 شخصاً وذلك نقلاً عن راعي أبرشية صور بتاريخ 10 أيار 1920 راجع: General. HAYS.p152.
4 - الدين، المصدر نفسه ص4 وعن الخطة الفرنسية راجع قوله في نفس المصدر ص2.

الحملة الفرنسية بقيادة نيجر لإخضاع جبل عامل
وتشتت زعامته فكانت المقاومة

في 18 أيار 1920 جردت فرنسا إلى جبل عامل حملة انتقامية عددها أربعة آلاف جندي عدا المتطوعة (من المسيحيين) بقيادة الكولونيل نيجر بهدف إخضاع هذا الجبل والقضاء على الحركة الوطنية فيه. وقد اتخذت الحملة وجهتي سير، واحدة سلكت باتجاه النبطية والثانية سلكت طريق الساحل باتجاه صور، والتقت الفرقتين في تبنين ثم أكملتا باتجاه بنت جبيل وقراها ومرجعيون ونواحيها[1].

لم تلق هذه الحملة أية مقاومة، سوى بعض الجيوب التي لن تؤثر على الزحف الفرنسي بل حاولت تأخيره، وذلك لان العصابات المسلحة لم يكن لديها إمكانية مواجهة جيش نظامي مسلح.. أضف إلى ذلك الحملة المعنوية التي كانوا عليها مع أهالي جبل عامل[2].. «والأمر الذي أصدره كامل بك الأسعد إلى عامة القرى التي تمر بها الحملة بعدم المقاومة[3] وكيف يقاومون بلا عتاد ولا سلاح ولا مدد[4]».

مارست الحملة الفرنسية التي استمرت سبعة عشر يوماً حتى 3 حزيران[5]، أقسى ضروب العسف والابتزاز والإرهاب[6] وحجتها في ذلك الانتقام لأهالي عين ابل، كما أن الجيش كان يعدم بالرصاص كل من يقبض عليه بتهمة الانتماء إلى العصابات[7] وكثيراً ما كانت هذه التهم تصدر عن المتطوعة[8].

فوق هذا استدعى نيجر كامل الأسعد إلى هونين، فجاء الأخير «وقابل الكولونيل، وطلب إليه الكولونيل أن يصطحبه إلى بيروت مصراً على ذلك، وبعد محاورة شديدة توافقا على أن يرجع كامل بك إلى داره في الطيبة تلك الليلة، ليستعد لحلول العسكر قرية الطيبة، ثم يعود كامل بك إلى الكولونيل في الصباح، ولكن كامل بك رجع فعلاً إلى الطيبة وحمل أهله في جنح الليل إلى فلسطين[9]..؟!».

---

1 - حول التفاصيل العسكرية لتنظر -General. HAYS ipd.p- 153- 152.
2 -لاحظ الحملة الإعلامية ضد جبل عامل بعد الحجير وحادثة عين ابل حتى بداية الحملة الفرنسية عليه في الصحف الصادرة في تلك الفترة كذلك راجع: رضا، مذكرات المصدر السابق ص991 وما يليها وظاهر، جبل عامل مصدر مذكور ص74 وما يليه وآل صفا. مصدر مذكور ص227 وما يليها.. كذلك لاحظ بعد المواجهات التي لثلث الحملة من العصابات ظاهر. جبل عامل. ص77 ورضا نفسه م 34 ص199 وما يليها.
3 - رضا مذكرات، م 34، ص200.
4 - ظاهر، جبل عامل ص77 و 78.
5 - General. HAYS op.cit.
6 - لاحظ ما ذكره رضا وظاهر حول أعمال النهب والسرقة وإحراق القرى من قبل الحملة...
7 - لاحظ مقتل 6 أشخاصخطأ في صور بتهمة أنهم كانوا في الحملة على عين ابل ومقتل آخرين في جويا بنفس الخطأ... رضا م 34 ص199 و 200 و 202 وما يليها وظاهر المصدر السابق ص77.
8 - هؤلاء المتطوعة كانوا من القرى الذين امتلأت قلوبهم غيظاً بالعصبية المذهبية والطائفية بتشجيع من الفرنسيين. لاحظ، رضا، المصدر نفسه ص200 وغيرها كذلك لاحظ ما رواه أحد المتطوعين ونقله الشيخ سليمان ظاهر. العرفان م 33 ص609.
9 - رضا مذكرات، المصدر نفسه، م 34، ص201، وظاهر - جبل عامل، المصدر نفسه، ص79 و80.

وفي صبيحة اليوم التالي 30 أيار 1920 وصل الجيش الفرنسي إلى الطيبة، وساء فرار كامل بك، فطوق داره . وعزموا على تدميرها ولكنهم اكتفوا بنهبها.. أما السيد عبد الحسين شرف الدين الذي عاد لتوه من دمشق فقد هوجمت داره في قرية شحور التي هجرت وسرقت فانسل منها بأعجوبة ملتجئاً على احد الكهوف ثم إلى دمشق فمصر[1]، بعد أن أحرقت مكتبته الثمينة في صور[2].. وقد لعب يوسف بك الزين دوراً في حماية عدد من القرى في منطقته وكان يكفي أن يقول للفرنسيين إن هذه القرية تخصني حتى يمتنعوا عن مضايقة أهلها لما كان من علاقة وطيدة معهم.. وهذا ما جعل تلك القرى هدفاً لأعمال العصابات العاملية[3]..

بعد أن عمد نيجر إلى جمع بعض الوجوه من أعيان العامليين في الطيبة، وطلب منهم خمسة أمور، تسليم السلاح، التعهد بحفظ الأمن، دفع غرامة العسكر، التعويض على أهالي عين ابل، إعادة ما سلب من عين ابل، فرد هؤلاء بأنهم ليسوا ممثلين للطائفة كلها، فأمرهم أن يكتبوا له أسماء أعيانها ليجمعهم في صيدا يوم الخامس من حزيران[4].

وفي الموعد المحدد عقد الاجتماع الذي قرره نيجر، في (انطش) دار الأسقفية الكاثوليكية في صيدا، بحضور وجوه من مسيحيي صيدا ومرجعيون وصور، ووجوه من أهل السنَّة، إضافة إلى الوفد العاملي الكبير ومنه العلماء الشيخ حسين مغنية والشيخ عبد الحسين صادق، والشيخ منير عسيران، والشيخ أحمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، ومن الأعيان فضل بك الفضل، ويوسف بك الزين، ونجيب بك عسيران، وراشد بك عسيران، ومن الوجوه محمد جابر آل صفا، والحاج إسماعيل الخليل والحاج عبد الله يحيى الخليل وكثيرين غيرهم.

ترأس الاجتماع الكولونيل نيجر الذي خطب خطاباً شديد اللهجة على الشيعة[5] وخلص إلى إملاء الشروط التي وضعها الجنرال غورو لوقف الحملة العسكرية، وكانت هي نفسها التي عرضها نيجر في اجتماع الطيبة إضافة إلى شرطين آخرين: الأول دفع مائة ألف ليرة عثمانية ذهبية غرامة توزع بمعرفة المجتمعين على عامة القرى العاملية، والثاني التصديق على ما أصدرته السلطة العسكرية من أحكامها المختلفة، من إعدام وإبعاد ومصادرات على رؤساء الثوار وبعض العلماء والزعماء والوجهاء[6].

1 - المصدران السابقان، وكذلك شرف الدين صفحات من حياتي، المصدر نفسه، ص9.
2 - يوسف طباجة - الزعامة السياسية رسالة دبلوم، ص122، رضا مذكرات، م 34، ص990 مثلاً.
3 - رضا المصدر نفسه، وظاهر المصدر نفسه.
4 - رضا المصدر نفسه ص202 وظاهر المصدر نفسه
5 - رضا المصدر نفسه ص202 وظاهر المصدر نفسه ص81.
6 - رضا المصدر نفسه وظاهر المصدر نفسه هذا وقد نفذت العديد من الأحكام بالإعدام ببعض رجال الثورة ممن ظفرت به قوات الاحتلال، راجع شرف الدين، صفحات ص9 ورضا المصدر نفسه ص692 حيث يورد أسماء المحكومين بالإعدام والنفي من المتاولة نقلاً عن جريدة لسان الحال 17 آب 1920 ومنهم قادة الثورة صادق حمزة وأدهم خنجر وغيرهم والزعماء كامل الأسعد والعلماء السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين اللذين ألفّا وفداً إلى سوريا بعد مؤتمر الحجير وغيرهم..

وخرج المدعوون من غير الشيعة، وحظر على هؤلاء الخروج من (أنطش) ما لم يوقعوا على الشروط المفروضة التي بقوا يتداولون فيها حتى الساعة الثالثة بعد الظهر بحراسة مشددة من الدرك والبوليس، ثم استدعي رؤساء المسيحيين، ونحي وجوه الشيعة وعلماؤها عن المقام الأول حيث كانوا جالسين، وأجلس مكانهم من استدعي من المسيحيين زيادة في الإرهاق والإذلال، وكذلك فعل في اجتماع الصباح، وبقي العامليون في أخذ ورد في التوقيع وعدمه حتى الساعة السادسة والنصف مساءاً وأخيرا تم التوقيع وتمنع البعض الذين احضروا فيما بعد فوقعوا إلا الشيخ حسين مغنية كبير علماء جبل عامل في ذلك الوقت فإنه امتنع فوقع عنه إسماعيل الخليل حسماً للنزاع[1].

بهذا الأسلوب من التنكيل العسكري، والابتزاز السياسي الضاغط، استطاعت الحملة الفرنسية سلخ المقاومة العاملية وتطلعها إلى الاستقلال والوحدة السورية، وانتزعت كذلك صك الإذلال والاستسلام من علماء جبل عامل وأعيانه، وبالتالي انتزعت البلاد من أهلها، تحت وطأة ما أحدثته تلك الحملة من خراب ودمار. وتمت السيطرة الفرنسية على جبل عامل الذي في الحقيقة ان المقاومة فيه ليست جديدة بل متجددة... فما أن علم رجال الثورة بما يحصل في صيدا حتى انفجر الوضع العسكري في نواحي مرجعيون والنبطية بهدف استعادة سيطرتها على بعض المناطق العاملية، وقد أسفرت الهجمات عن موجة جديدة من التهجير للمسيحيين ومرة أخرى كانت لمنطقة النبطية وقفة إنسانية مع هؤلاء المنكوبين، فأحلهم أهلها على الرحب والسعة[2]، بينما «كثرت فضائح العصابات المسيحية، وزاد ويلها وشرها[3] «بتشجيع من الفرنسيين»!.

ثم أن الغرامة التي فرضت على البلاد العاملية كانت فادحة لا تتحملها ثروة البلاد في الأحوال العادية، فكيف بها وهي تنهب وتسلب، فقد دفعتها من دمها وأملاكها، فبلغ ما جبوه خمسة أضعاف ما فرض، بحيث لو وزعت على النفوس كبيرها وصغيرها لأصاب كل نفس عشر ليرات ذهبية أو نحو ذلك[4] وكان الزائد عن الغرامة من هذا المبلغ نصيب السماسرة وباعة الضمير والأوطان[5]، وفي هذا الصدد يقول أمين الريحاني:

«.. وجاء بعد خراب البصرة الكولونيل نيجر لينكّل بالعصابات، ففرض على أهل جبل عامل مئة وخمسين ألف ليرة ذهبية، وفوض إلى حاكم صيدا العسكري ورجاله، ومنهم ثلاثة من الصوريين، بجمعها فجمعوا ضعف المائة والخمسين ألف ليرة، بطرائق

---

1 - لاحظ وقائع الاجتماع في المصادر التالية: رضا، مذكرات، مصدر سابق، ص203 حتى ص304 وكذلك ظاهر جبل عامل مصدر سابق، ص81 حتى ص85 آل صفا تاريخ جبل عامل ص328 و 329 ويذكر أن الثلاثة كانوا من ضمن الحاضرين.

2 - رضا، نفس المصدر، ص356، ولاحظ جريدة الحقيقة 30 حزيران والأول من تموز 1920.

3 - ظاهر نفس المصدر السابق ص84 ولاحظ وجيه كوثراني الاتجاهات السياسية ص339 نقلاً عن جريدة لسان الحال 220 حزيران 1920، حول دعوتها لاستكمال ضرب جيوب الانتفاضة العاملية.

4 - رضا، المصدر السابق نفسه، ص305.

5 - شرف الدين صفحات من حياتي، الألواح، عدد 15 ص10.

لا حاجة لذكرها الآن، وقال العارفون المدققون أن الجباة الماهرين جمعوا أربعمائة وخمسة وثمانين ألف ليرة، فدفعوا تعويضاً لأهل الجديدة ـ مرجعيون ـ خمسين ألف ليرة منها و.. أطلقت الحكومة على شارع من شوارع بيروت اسم الكولونيل نيجر[1]» الذي هو سيختار ليقوم بحملة أخرى لإخضاع بعض المناطق الثائرة في سوريا[2]. وهكذا قدر لهذا الجبل أن يخفق، فكان إخفاقه سبباً في إخفاق القضية السورية، لأنه كان المرحلة التي جرأت فرنسا بعدها على سوريا[3]...!

معركة ميسلون وسقوط دمشق 25 تموز 1920:

اتضح للسلطة الفرنسية في حملتها على جبل عامل، أن تصفية جيوب الثورة في المنطقة الغربية نهائياً لا يمكن إلا أن يتم عبر تصفية النواة التي نشأت في دمشق وكان الزحف على دمشق باتجاه عاصمة الوحدة له الهول الكبير، ففي 24 تموز 1920 جهز الفرنسيون حملة كبيرة لإسقاط حكومة الملك فيصل، وإخضاع سوريا، فالتقى الفريقان في ميسلون، دون توازن في القوى، فواجه يوسف بك العظمة قائد الجيش العربي، الفرنسيين ببضعة عشر رجلاً من الجيش النظامي وعدد من المتطوعين والثوار، ولكن المعركة كانت معروفة تماماً نتائجها، وفرّ الملك فيصل إلى العراق.. وتشتت الجيش والحكومة العربية، وسقطت آخر نداءات الثورة في سوريا التي كان جبل عامل يستمد ويغذي مواقفه منها.. لكن العامليين لم يتوقفوا عن المقاومة للمحتل، وإن سايروه، لكن الموقف كان حادا عندما بدأت قضيه فلسطين والمؤامرة عليها تنكشف منها مشاركة العامليين في مؤتمر القدس عام 1936، وانتفاضة 1936 في بنت جبيل وشملت أنحاء جبل عامل....

1 ـ أمين الريحاني، ملوك العرب، ج 2، ص318، ولاحظ تعليقه على مؤتمر الحجير وقوله أن السيد شرف الدين قد أفتى بضرب المسيحيين، نفس المرجع، ص-315 316، مطبعة صادر، بيروت، د.ت.

2 ـ كوثراني، نفس المرجع السابق، وكذلك بلاد الشام، ص371، لنفس المؤلف.

3 ـ شرف الدين، صفحات، المصدر نفسه.

القضية الفلسطينية

الإعتداءات الصهيونية على جبل عامل... المقاومة والتحرير

كانت ولا زالت قضية فلسطين هي قضية جبل عامل منذ سايكس بيكو والانتداب على بلادنا، دفع العامليون على مذبح القضية ولم يبخلوا منذ اللحظة الأولى على ضياع فلسطين، قتلا وتشريدا ودمارا واعتداءات وتخريب وكل أنواع الهمجية.

التحق الكثير من الشبان العامليين في صفوف المقاومة الفلسطينية، ثم كانت المواقف المساندة للقضية الفلسطينية من كل العلماء ومثالهم كبارهم من السيد عبد الحسين شرف الدين الذي قال بداية في ندائه للعرب والمسلمين: « أيها العرب، أيها المسلمون: هذا شهر المحرم الدامي الذي انتصرت فيه عقيدة، وبعث فيه مبدأ. ألا وإن قتلة الحسين (ع)، بكر في القتلات، فلتكن قدوتنا فيه بكراً في القدوات، ولنكن نحن من فلسطين وكان سيد الشهداء من قضيته. وليكون لنا ولفلسطين ما كان له ولقضيته من مجد وخلود». كذلك السيد محسن الأمين: "أيها العرب، أيها المسلمون: إن لكم في فلسطين تراثاً، وإن لكم في كل غور ونجد وحزن وسهل منها دماً عُجن به ترابها، واختلط به ماؤها ونباتها.. إن اخوانكم في فلسطين قد أقض مضاجعهم ما هم فيه من محن وبلاء، وأسهر عيونهم وبوَّح احساسهم ما يلاقون من كيد الخصومً. الشيخ سليمان ظاهر[1]... ثم كان حضور السيد موسى الصدر الذي أسس للمقاومة ضد إسرائيل، وغيب على مذبح القضية بعد أن عصفت الحرب الأهلية اللبنانية وهدفها كان تصفية القضية الفلسطينية حتى الاجتياح الاسرائيلي في العام 1982 وكانت الهبّة متجسدة بالمقاومة التي شكلها العامليون جماعات وفرادى أحزاب وطنية وإسلامية...، وكان النموذج في المقاومة الإسلامية التي قادها بعبقريته و نجّذها فذٌّ من أبطالها صيّر المقاومة مدرسة نموذجية تدرّس أفعالها ووقائعها في كافة المعاهد العسكرية؛ عنيت به الشهيد عماد مغنية قائد الانتصارين عام 2000 و 2006 ليسقط غيلة في دمشق عام 2008 على يد المخابرات الصهيونية...- وكل قادة المقاومة سقطوا غيلة - بعد أن عجزت عنه كل أجهزة استخبارات العالم طيلة فترة قيادته لأروع نموذج في حركات التحرر في العالم[2]... ليسجل التاريخ أن العامليين استطاعوا أن يهزموا المشروع الصهيوني دون قيد أو شرط[3]...

إن الميزة أو الخصوصية للمقاومة الاسلامية في حاضرنا أنها لم تستدرج ضمن المشاريع الغربية / العربية، لا شك أنها استفادت من تجارب الأخرين، رغم المحاولات المستمرة... لاستيعابها، أو للإيقاع بها في شرك ألاعيبهم، وأَسْرِ أو مصادرة قراراتها لتصبح أهدافها في مكان

1 - له ديوان شعر اسمه: الفلسطينيات. وتجد آلاف القصائد من نظم العامليين عن فلسطين

2 - بالطبع لا ولن ننسى كل البارزين في قيادة المقاومة منذ البداية مع الشهداء محمد سعد و زهير شحاده وكل الشهداء...

3 - موضوع هزيمة إسرائيل بفعل المقاومة يحتاج لبحث خاص نظرا لغنى المصادر وكوننا بحمد الله ممن عايشوا الحدث وشهدوا عليه، قدرنا الله أن ننجز هذا المشروع.

آخر... والحقيقة أن الله تعالى قيّض للمقاومة سنداً أساسيا لها هي الجمهورية الاسلامية في إيران، وظهيرا ممانعا هي الجمهورية العربية السورية... ما مكنها من إنجاز ما أنجزته، ولا ننسى «الأمة العاملية» على حد تعبير الشيخ أحمد رضا[1]، والتي هو ديدنها في تحمل كل ويلات هذا الواقع المبسوط أعلاه، مضحية وحاضنة انطلاقا من ثقافتها رغم الجراح ...

1 - الشيخ أحمد رضا: المتاولة أو الشيعة قي جبل عامل، مجلة المقتطف، م36. وأعيد نشرها مع التعقيب في مجلة العرفان م2،ص242. وتعقيب وشكيب أرسلان: المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، مجلة العرفان، م2، ج9، ص444. ومقالة ثانية للشيخ أحمد رضا: بنو عاملة، مجلة العرفان،م31، ج5و6، ص 218. ومقالة الشيخ أحمد رضا: ما هي الأمة ؟، العرفان م2، ص 459. والشيخ محمد جواد مغنية: الوضع الحاضر في جبل عامل، ص74.

الشيخان العامليان سليمان ظاهر و أحمد رضا



إعداد .د.نادين نورالدين

اولاً: الشيخ العاملي سليمان ظاهر 1873-1960

1 - حياته: هوسليمان بن محمد بن علي ظاهر العاملي . رجل دين ومؤلف واديب وشاعر ومؤرخ لبناني من جبل عامل .

ولد في النبطية، قرأ القرآن، وتعلم مبادىء الخط والاملاء على بعض شيوخ الكتاتيب في النبطية . وتعلم النحو على السيد محمد نور الدين . ومن اساتذته ايضاً السيد حسين ابراهيم، والشيخ مصطفى عاصي . لازم السيد محمد ابراهيم، وقرأ عليه علوم العربية وآدابها، والفلسفة القديمة و الإلاهيات وعلم الكلام.

ارتحل سليمان ظاهر الى مدرسة بنت جبيل لمؤسسها الشيخ موسى شرارة والتي كان يقصدها الطلاب من خريجي مدرسة جباع وحنويه وشقرا وكفرة ومجدل سلم وغيرها . عاد الى النبطية ودرس على الشيخ جواد سبيتي .

كانت منطقتنا تشهد حركة فكرية و بعثاً حضارياً ازدهاراً، ورغبة جامحة في التجديد، ودعوة جادة الى احياء التراث العربي، ودراسة آثاره وكنوزه . وقد شارك سليمان ظاهر هذه الحركة، وكان احد الثلاثة الذين أطلقوا النهضة العلمية والاجتماعية الحديثة و هم: الشيخ احمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان اللبنانية –الشيخ احمد رضا الكاتب و الشاعر واللغوي و الناشر – الشيخ سليمان ظاهر احد كبار مفكري جبل عامل .

2 - مكانته الفكرية: لسليمان ظاهر إسهامات غنية في المجالات الفكرية و السياسية والاجتماعية وغيرها ...

- كان عضو المجمع العلمي العربي في دمشق .
- ترجم له خير الدين الزركلي في الاعلام قائلاً: « انه كان من حاملي لواء العربية لغة قومية في بلاد جبل عامل . وهو من احفاد الفقيه الشيعي زين الدين بن

علي الجبعي العاملي المعروف بالشهيد الثاني .»

- كان له صلة وثيقة بالكثير من العلماء في عصره وعلية ادبائه منهم: الامير شكيب ارسلان، محمد كرد علي، عيسى اسكندر الخوري، ابراهيم الاسود، الشيخ محي الدين الخياط وغيرهم كثر .
- دخل الكثير من الجمعيات، لكنه لم يجد ثمرة لعمله الا في جمعية المقاصد الخيرية الاسلامي التي تسلم ادارتها، وأنشأ بمشاركة زميله احمد رضا في النبطية مدرسة للبنين، واخرى للبنات، تابعتين للجمعية .
- تولى سليمان ظاهر ادارة جمعية المقاصد الخيرية في النبطية، وتولى الكتابة العلمية والادبية، وكانت مجلة العرفان أكثر المجلات التي نشرت آثاره، ولم يخل جزء من اجزاء جريدة جبل عامل من مقال له في مختلف المباحث . كما كتب في جريدة المقتبس الدمشقية، وكان معظم شعره في الاجتماع و الاخلاق و الحكم و الوصف وذم المساوىء و الحرب، منحازاً الى السلم و الحماسة و السياسة .

3 – مواقفه الوطنية: وقف سليمان ظاهر في وجه الاتراك، ودافع عن عروبة جبل عامل وأهله مع بداية الانتداب الفرنسي . شارك في مؤتمر الحجير، وساهم بكتابة مقرراته النهائية . ناضل ضد تقسيم المنطقة العربية، ودعا الشعب العربي في بلاد الشام وفلسطين الى الثورة من اجل العيش الكريم .

4 – وظائفه: تولى سليمان ظاهر وظيفة قاضي التحقيق عام 1918 في محكمة صيدا البدائية، واقيل من قبل الانتداب الفرنسي بعد اربعة اشهر .

انتدب عضواً لمحكمة كسروان البدائية عام 1022، ثم عين حاكم صلح للهرمل عام 1927، واخرج منها لاسباب سياسية .

5– مؤلفاته: ترك سليمان ظاهر مؤلفات عديدة منها:

- تاريخ قلعة الشقيف.
- صفحات من تاريخ جبل عامل .
- الفلسطينيات .
- تاريخ الشيعة .
- معجم قرى جبل عامل.
- آداب اللغة العربية .
- الملحمة العربية الاسلامية .

- الأماني الجامعة .
- اطروحة بعنوان: صلة العلم بين دمشق وجبل عامل ».
- من وحي الحياة .
- العراقيات (بالاشتراك مع احمد عارف الزين واحمد رضا ومحمد رضا الشبيبي وهومختار شعر من شعراء العراق ومحتقر تراجمهم) .

المراجع

موقع almarja.com

موقع nabatieh.gov.gb

موقعar.m.wikipedia

موقعwww.aitoroumiat.com

ثانيا: الشيخ احمد رضا

1 - حياته:

ولد الشيخ احمد رضا في النبطية عام 1872، وفي الخامسة من عمره أدخله والده الكتّاب، فقرأ القرآن الكريم، وتعلم أصول الخط العربي. وفي العام 1880 انتقل إلى قرية أنصار لطلب العلم في مدرسة العلاّمة السيد حسن إبراهيم، فدرس فيها الصرف والنحو مدة عشرين شهراً، ثم عاد إلى النبطية يساعد والده في التجارة، ويتردد على مدرستها الرسمية التي أنشأها رضا بك الصلح، (والد رياض)، الذي كان حينها مدير ناحية النبطية. وكان يتردّد في بعض الأحيان إلى مجلس العلامة السيد محمد نور الدين في النبطية الفوقا.

في العام 1884 قدِم العلامة السيد محمد إبراهيم إلى النبطية لتطوير الحالة العلمية فيها، فلازمه أحمد رضا، وقرأ على يديه المختصر في المعاني والبيان والمنطق، ورسائل ابن سينا في الطبيعيات والفلسفة. كان له باع في العمل الاجتماعي فاشترك في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تحت اسم «جمعية المعارف». ومع مجيء العلامة السيد حسن يوسف مكي إلى النبطية العام 1891، كان الشيخ أحمد رضا من تلامذته، بالإضافة إلى الشيخ سليمان ظاهر وأحمد عارف الزين. وقد تلقى على يديه دورس الفقه وغيرها من العلوم الدينية العليا. وفي الوقت نفسه كان معلماً للصفوف الأولى لدروس النحو والصرف والمنطق والبيان.

في العام 1894 أسس مع محمود بك الفضل والشيخ سليمان ظاهر جمعيةً قائمةً على مبدأ التعاون الخيري، أخفوا أمرها عن الحكومة وجعلوها سرية، وبلغ عدد أعضائها 24 شخصاً من الوجهاء والأعيان، واستمرت حوالي العامين.

تعلم الشيخ احمد الكثير على يد معلمه السيد حسن يوسف مكي، وكان مرافقاً له في حله وترحاله مع صديقه الشيخ سليمان ظاهر لمعالجة الكثير من مشاكل وأمور جبل عامل، متنقلاً بين صور وبنت جبيل والخيام وغيرها من الحواضر العاملية.

تابع الشيخ أحمد رضا مسيرة معلمه بعد وفاته العام 1906، ويعتبر امتداداً له بمحاربة الجهل والتخلف. فعمل على إنشاء مدرسة خاصة لجمعية المقاصد للذكور والإناث، وأقدم على رعاية معظم شؤونها وتدريب معلمين أكفياء للقضاء على الجهل والأمية، ليس في النبطية وحدها بل في جبل عامل.

عُرف الشيخ أحمد رضا مع رفيقه الشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر آل صفا بالثلاثي العاملي، إذ كانوا يشتركون دائماً في النشاط السياسي والاجتماعي.

2 – مكانته الفكرية

- تأثر الشيخ باستاذه السيد محمد ابراهيم العالم الذي تميز بالخبرة و السعة في الافق و الشمول في المعرفة . فشغف بالعلوم العصرية و الدراسات الفلسفية . ولفقدان المدارس التي تتيح فرصة التزود بهذه العلوم فقد بذل جهداً في اقتناء الكتب معلقاً عليها و شارحاً ما غمض منها .
- لقد قرأ على يد استاذه عدة مصادر من اهمها رسائل ابن سينا في الطبيعيات . كما درس على يد استاذه الادب العربي .
- في سنة 1891 قدم الى النبطية السيد حسن يوسف مكي، فدرس عليه مجموعة من أهم مصادر الفقه ومنها شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني زين العابدين الجبعي .
- انصرف الشيخ احمد رضا الى تدريس المنطق و البيان ومبادىء الاصول لمن يرغب من التلاميذ . والقى على بعضهم دروساً في الطبيعيات و الرياضيات ...
- وصف رضا بأنه يمثل خلاصة النهضة الادبية التي عرفها لبنان في النصف الثاني من القرن العشرين .
- كما تميز من قبل بعض المثقفين اللبنانيين بأنه واحد من الكواكب المشرقة في زمن بزغت فيه اضواء الحلم ليقظة عربية .
- عرف عنه انه عالم لغوي في المقام الاول، و كان عالم دين ومؤرخ وشاعر وكاتب ومصلح وطني .
- وصفه الشيخ احمد عارف الزين بأنه كان امة في رجل . وكان حاضراً وفاعلاً في عصره .
- كتب المئات من المقالات في دوريات زمنه، وكان له الصدارة في معظم الجمعيات التي كانت تهدف الى نشر العلم و الثقافة وتحسين الاوضاع الاجتماعية و السياسية .
- كان في طليعة الاعلام و الادباء و كان يبحث في الوسائل التي يمكن ان تساهم بإخراج جبل عامل من بعض اوضاعه المتردية . فكانت له مواقف مشهودة و خدمات جلية في تهذيب النفوس .
- نشر المعرفة وشاد المدارس و المعاهد .
- في العام 1889 اختاره اعيان النبطية عضواً في لجنة المعارف .
- في عام 1891 انشأ بالتعاون مع بعض المثقفين المجمع العلمي العربي و الذي كان الهدف منه تنمية اهل المنطقة .

- في العـام 1899 اسـس مـع بعـض زملائـه ومنهـم الشـيخ سـليمان ظاهـر جمعيـة المقاصـد الخيريـة الاسـلامية في النبطيـة و قـد عـين رئيسـاً لهـا .
- في العام 1908 افتتح فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي في النبطية .
- بعـد الحـرب العالميـة الاولى اسـس مـع اصدقـاء لـه جمعيـة العلـماء العامليـين التـي اعتنـت بالتعليـم و انشـاء مؤسسـات ثقافيـة .

3 – حياته السياسية:

- كانـت حياتـه السياسـية حافلـة بالأحـداث والأخطـار . عـاصر إعـادة الدسـتور العثـماني للحيـاة في العـام 1908، بعـد أن توقـف منـذ العـام 1876، ثـم انضـم إلى جمعيـة الاتحـاد والترقـي، وسرعـان مـا تركهـا بعـد اتضـاح نوايـا الاتحاديـين العنصريـة ضـد العـرب، وسـاءت علاقتـه مـع الأتـراك، وجـرت مداهمـة منزلـه مـع صديقيـه بوشـاية مـن مديـر الناحية.واسـتمرت المراقبـة والملاحقـة، حتـى اقتيـد إلى الديـوان العـرفي في عاليـه مـع رفيقيـه في حزيـران العـام 1915، واسـتمر اعتقالهـم مـدة شـهرين ثـم أفـرج عنهـم، وكاد أن يكـون مـع قافلـة الشـهداء الأولى التـي أمـر جمـال باشـا بإعدامهـا . رافـق الثـورة العربيـة ضـد الأتـراك خـلال الحـرب العالميـة الأولى . وحـارب الانتـداب الفرنـسي منـذ أن وطـأت قواتـه الأراضي العامليـة والسـورية . وكان مؤيـداً للملـك فيصـل، ومشـاركاً في مؤتمـر وادي الحجـير العـام 1920 .كل هـذه الأحـداث، ومـن خـلال وجـوده في قلبهـا أو مشـاركاً مـن خلـف السـتار في صناعتهـا، جعلـت منـه أحـدث رواد الفكـر السـياسي العامـلي .في أيـام 1920، ومـع بـدء حملـة «نيجـر» ضـد جبـل عامـل، وُضـع قيـد الإقامـة الجبريـة في صيـدا مـن قبـل الفرنسـيين .
- في حزيـران 1928، شـارك في مؤتمـر الوحـدة السـورية الـذي حـضره 68 مندوبـاً يمثلـون جميـع مـدن السـاحل السـوري وجبـل عامـل .
- في العـام 1931، كان عضـواً في المؤتمـر الإسـلامي العـام المنعقـد في القـدس، والـذي حضرتـه شـخصيات سياسـية بـارزة مـن العالمـين العـربي والإسـلامي، للتضامـن مـع الشـعب الفلسـطيني في مواجهـة الصهيونيـة والسياسـة الاسـتعمارية البريطانيـة .
- في تشريـن الثـاني العـام 1933، شـارك في أعـمال "مؤتمـر السـاحل" الـذي عقـد في منـزل سـليم عـلي سـلام وبرئاسـته، وذلـك للمطالبـة بالوحـدة السـورية، وإقامـة المسـاواة بـين مختلـف الطوائـف .
- في آذار العـام 1936، شـارك للمـرة الثانيـة في «مؤتمـر السـاحل» للبحـث في مـشروع المعاهـدة الفرنسـية – اللبنانيـة .

- في 5 تموز 1936، ساهم في أعمال «مؤتمر الوحدة السورية» الذي عقد في منزل الشيخ عباس الحر في صيدا. وقد اختير نائباً لرئيسه عبد الحميد كرامي.
- في 8 أيلول 1937 حضر اجتماعات «المؤتمر العربي القومي» الذي انعقد في بلودان وشارك فيه 411 مندوباً من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر، وقد طالب المؤتمر بإلغاء وعد بلفور والانتداب على فلسطين ورفض تقسيمها.
- بتاريخ 2 أيلول 1947، ساهم مع نخبة من رجالات الثقافة العرب في المؤتمر الثقافي الأول للجامعة العربية الذي عُقد في بيت مري، من أجل تطوير الثقافة واللغة العربيتين. (أرشيف علي مزرعاني – خاص أجداد العرب)

4 – نتاجه العلمي:

نادراً ما خلى مجلد من مجلدات المجمّع اللغوي العربي الذي تألف في دمشق عام 1920، من مقال أو بحث أو دراسة أو اقتراح للشيخ احمد رضا، ومن أطرف الدراسات التي أعدها «رد العامي إلى الفصيح»، وقد صدرت في كتاب عام 1952 عن دار «العرفان». وبذلك حصل على تقدير من المجمع العلمي، وانتخب عضو شرف فيه، وكان هذا التقدير حافزاً على متابعة الجهد، فتبحّر في اللغة واطّلع على أوانسها، وألمّ بفلسفة اللغات، وخاصة السامية.

- وهو أحد أئمة اللغة في النصف الأول من القرن العشرين. أنفق أكثر من ربع قرن يبحث في أصول اللغة ومصدرها ونشأتها وتطورها، ووضع فيها مؤلفات عدة أهمها:

- متن اللغة، وهو مؤلف من خمسة أجزاء بلغ أكثر من ثلاثة آلاف صفحة، (طبع بعد وفاته). دار مكتبة الحياة 1958، بيروت.
- الوسيط في اللغة (مخطوط).
- الموجز في اللغة (مخطوط).
- وأفرد للكلمات المستحدثة ذات المعاني الجديدة كتاباً خاصاً سماه «التذكرة في الأسماء المنتخبة للمعاني المستحدثة» (مخطوط).
- رد العامي إلى الفصيح (طبع بعد وفاته).
- مولد اللغة (مخطوط).
- الدروس الفقهية في مذهب الشيعة
- رسالة الخط (طبع بعد وفاته) دار الرائد العربي، بيروت 1986.
- روضة اللطائف (مخطوط).
- الوافي في الكفاية والعمدة (مخطوط)، شرح به كفاية المتحفظ لإبن الأجدابي، وهي من نظم محمد بن أحمد الطبري.

- وصدر له العام 2006 في بيروت كتاب بعنوان «طرفة الطرائف وزبدة المعارف»، وهو من تحقيق الأستاذ حبيب جابر.
- كما نشرت مجلة العرفان على حلقات مذكراته التاريخية بين عامي 1920 و 1922، وصدرت فيما بعد عن دار النهار العام 2009 من تحقيق (الدكتور منذر جابر)

5 – نشاطه الأدبي والفكري والثقافي

له مقالات وقصائد واشتهر بذلك كله، وعهد إليه المجمع العلمي بدمشق بتصنيف معجم يجمع بين مفردات اللغة قديمها ومحدثها، وما وضعه مجمع دمشق أول مجمع للغة العربية، وأقر استعماله من كلمات ومصطلحات فألف في خلال اثنى عشر عامًا كتابًا سماه «متن اللغة العربية» في خمسة مجلدات، وله مؤلفات منها: «رد العامى إلى الفصيحً في اللغة، و«الدروس الفقهية» في مذهب الشيعة، و«رسالة الخط» في تاريخ الكتابة العربية، و«الوافى بالكفاية والعمدة» شرح به كفاية المتحفظ لابن الأجدابى، ونظمه المسمى بالعمدة لمحمد بن أحمد الطبري.

6 – مؤلفاته:

ترك مجموعة كبيرة من المؤلفات الشعرية و النثرية مطبوعة و مخطوطة:

أ–المطبوعة

- معجم متن اللغة
- كتاب رد العامي إلى الفصيح
- كتاب الدروس الفقهية
- كتاب هداية المتعلّمين إلى ما يجب في الدين
- كتاب العراقيات(بالاشتراك مع صديقيه سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين)
- رسالة الخطيب(نشرت في مجلة العرفان متسلسلة)
- ديوان ثمرات الافكار 1901
- ديوان صدى الخاطر 1913
- ديوان الالهام 1931
- النيات 1927
- مجمعة مقالات في اللغة و الادب و النقد
- دقائق العربية 1952
- غادة بصرى رواية
- مسرحيات: الوصي – عاقبة الخداع – الحكومة الظالمة.

ب- المخطوطة

- (روضة اللطائف) جمعه الشيخ أحمد في عهد الدراسة الأولى.
- الوافي بالكفاية والعمدة.
- قاموس الألفاظ العامية.
- قاموس الوسيط وقاموس الموجز، كان الشيخ أحمد قد ألحق بمعجمه(متن اللغة) قاموسين(الوسيط والموجز) تسهيلاً على الطلاب والمبتدئين في الرجوع إلى مصدر مناسب لهم.
- (التذكرة في الأسماء المنتخبة للمعاني المستحدثة) وهو كتاب خاص أفرد فيه الشيخ أحمد رضا الكلمات المستحدثة للمعاني الجديدة
- الفلك – الثمر اليانع في الصرف و النحو- غرائب الظلم- الرافد معجم في اللغة – هداية المنشىء، معجم الحيوانات والطيور والحشرات – نثر الجمان.
- روايات نثرية: - العاقبة الحسنة – الفتاة المغربية – الجاسوس العاشق

(فؤاد صالح السيد اعظم الاحداث المعاصرة 1900 -2014)

وصلات خارجية

- ترجمة الشيخ أحمد رضا في معجم البابطين
- مذكرات للتاريخ - حوادث جبل عامل 1914 - 1922 - الشيخ أحمد رضا العاملي

المراجع

1 — http: / /data.bnf.fr /ark: /12148 /cb12574772h تاريخ الاطلاع: 10 أكتوبر 2015 — الرخصة: رخصة حرة

2- السيد حسن الصدر - باب الأف - الترجمة رقم 17

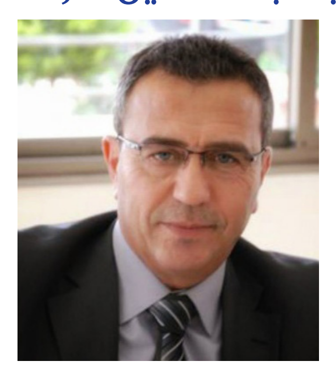
3-هاني فرحات -الثلاثي العاملي في عصر النهضة، ص 46-45

4-معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة - الجزء الأول - صفحة 98

5- الأعلام - الزركلي- الجزء الأول -- صفحة 125

6- الشيخ أحمد رضا: مركز الشرق العربي نسخة محفوظة 03 مارس 2016 على موقع واي باك مشين

شخصية من رجالات جبل عامل الافذاذ :
السيد عبد الحسين شرف الدين



إعداد .أ . اسماعيل رمال

1 – ولادته ونشأته :

ولد عبد الحسين شرف الدين في مدينة الكاظمية المقدسة في العراق عام 1290 هـ في عائلة علمية متدينة، و كان والده السيد يوسف شرف الدين من علماء جبل عامل . والدته ابنة آية اللهّ السيد هادي الصدر، وأخت المرجع الكبير السيد حسن الصدر.

– درس عند والده في لبنان. ثم درس عند الشيخ باقر حيدر، والسيد صادق الاصفهاني والشيخ علي باقر (ابن صاحب الجواهر) .

– عندما بلغ عمره 17 سنة هاجر الى العراق لاكمال دراسته في حوزة النجف الاشرف والحوزات العلمية المنتشرة في مدن العراق .

– اخذ يحضر دروس المراجع و العلماء الاعلام في النجف الاشرف من امثال : الشيخ حسن الكربلائي والشيخ محمد طه نجف والشيخ الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي،والسيد اسماعيل الصدر، والشيخ فتح اللهّ الاصفهاني، والسيد حسن الصدر.

– عاد الى جنوب لبنان لاداء مهماته الرسالية بعد ان نال درجة الاجتهاد وعمره آنذاك 32 سنة .

– سافر الى مصر للاطلاع على دروس علماء جامعة الازهر ومدرسيها ، والاستفادة من آرائهم ، ومن جملة اولئك المدرسين الشيخ محمد الكتاني ، والشيخ سليم البشري...

الهجرة والمنجزات

ظل السيد يتنقل بين المراكز الدينية والعلمية في العراق، حتى بلغ الثالثة والثلاثين من العمر، حينها عاد مع عائلته الى موطنها الأصلي في جبل عامل بلبنان، وفي مدينة صور حصراً، وكان ذلك سنة 1905م.

بدأ السيد عبد الحسين حركة علمية واصلاحية كبيرة في مدينة صور، أسس من خلالها الكلية الجعفرية لتربية الجيل الصاعد، والروضة الجعفرية للأطفال، كما أسس نادي الإمام الصادق للاحتفالات الدينية والثقافية، إضافة الى المدرسة الجعفرية، كما أسس جمعية البر والإحسان الاجتماعية التي كانت تجهز وتدفن الموتى من فقراء المسلمين.

جهاده

كان السيد عبد الحسين شرف الدين، من المجاهدين المناوئين للاحتلال الفرنسي للبلدان العربية والإسلامية آنذاك، فقد أصدر فتواه الشهيرة بوجوب مقاومة الاحتلال الفرنسي للبلاد العربية، وقد سببت له فتواه هذه الكثير من المتاعب والملاحقات.

حُكم عليه بالإعدام غيابياً من قبل السلطات الفرنسية، وقد أدى ذلك الى هروبه من لبنان الى دمشق .

شارك في مؤتمر علماء وادي الحجير، وألقى فيه خطاباً حماسياً، دعا فيه المسلمين الى مقاومة وطرد الاحتلال الفرنسي من البلاد الإسلامية، كما دعا فيه الى وحدة الصف ونبذ الطائفية والعنصرية، وحشد جميع القوى لصالح المقاومة، وانتخبه المؤتمر مع السيد عبد الحسين نورالدين والسيد محسن الأمين ليلتقوا الملك فيصل ويفاوضوه بإسم العامليين .

على أثر مواقفه هذه، هاجم الفرنسيون داره في صور، فلم يجدوه فيها، فاحرقوا الدار التي كانت تضم مكتبة علمية كبيرة، فاحترقت جميع محتوياتها من الكتب النفيسة، والتي كانت تتضمن بعض مؤلفاته، وقد اضطر في هذه الاثناء بعدها الى النزوح من سوريا، الى مصر وأخيراً الى فلسطين. وأقام في قرية تسمى (علما) قرب الحدود مع جبل عامل حيث اجتمع بأهله ثانية هناك. أُسْقِط عنه حكم الإعدام بعد استقرار الأوضاع السياسية في المنطقة، فعاد الى مدينة صور ثانية، ليمارس دوره العلمي والجهادي والإصلاحي هناك.

ومن مواقفه ايضاً دعمه لحركات التحرير في البلدان العربية والاسلامية مثل حركة تأميم قناة السويس في مصر وحركة تأميم النفط في ايران..

وقف بقوة إلى جانب الثورة العربية الكبرى، وكان من المنادين بالوحدة السورية تحت راية **الملك فيصل**.

مناظراته

كان السيد عبد الحسين شرف الدين من الدعاة الى التقريب بين المذاهب الإسلامية، وله في ذلك مواقف وخطب كثيرة، يقول في احداها: «إن الشيعة والسنة فرّقتهم السياسة ويجب أن توحّدهم السياسة»، له كثير من الحوارات والمناظرات مع الطوائف الإسلامية الأخرى، تتصف بالهدوء والسماحة والخلق الرفيع، واعطاء الطرف الآخر الفرصة في التعبير عن رأيه، وليس أدل على ذلك المناظرة التي أجراها على شكل رسائل متبادلة مع شيخ الأزهر آنذاك، الشيخ سليم البشري ، وقد طبعت جميعها في كتاب أسماه المراجعات. وله مناظرة مع الملك السعودي عبد العزيز آل سعود، بعدما قدم له السيد مصحفاً مغلفاً بجلدٍ كهدية، أخذه الملك وقبّله، فقال له السيد:

- لم تقبِّل هذا الجلد وتعظمه؟

ـ قال كان غرضي هو احترام القرآن وتعظيمه وليس الجلد.

فقال السيد:

ـ أحسنت، نحن كذلك حين نقبل أضرحة الأولياء، فليس غرضنا الا احترام وتعظيم من بداخل الضريح، لا الضريح نفسه، عندها أمر الملك بالسماح بتقبل الأضرحة الشريفة ، ثم بعد ذلك منعها مرة أخرى..

آثاره

له من المؤلفات ما يقارب الثلاثين، ما بين كتاب ورسالة، منها:

1 - كتاب المراجعات، وهو مجموعة رسائل متبادلة مع الشيخ سليم البشري، شيخ الأزهر آنذاك .
2 - الفصول المهمة في تأليف الأمة.
3 - المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة.
4 - النص والاجتهاد .
5 - شرح التبصرة بثلاث مجلدات، وغيرها كثير
6 - سبيل المؤمنين : يشتمل على ثلاث مجلدات في الأئمة وأحوالهم ومناقبهم.
7 - بغية الراغبين في أحوال آل شرف الدين: وهو كتاب في تواريخ أسرته وفروعها.
8 - تعليقة على استصحاب رسائل الشيخ : في مجلد واحد.
9 - رسالة في « منجزات المريض « استدلالية.
10 - النصوص الجلية في امامة العترة الزكية : يشتمل على ثمانين نصا، أربعين مما أجمع على صحته المسلمون وأربعين مما انفردت به الإمامية.

11 – تنزيل الايات الباهرة في فضل العترة الطاهرة : يشتمل على مائة آية نزلت في أئمة أهل البيت بحكم الصحاح المجمع على تصحيحها.

12 – تحفة المحدثين في من أخرج عنه الستة من المضعفين.

13 – تحفة الأصحاب في حكم أهل الكتاب.

14 – الذريعة في نقض البديعة.

15 – الفضائل المختلقة وأحاديثها الملفقة.

16 – مختصر الكلام في مؤلفي الشيعة من صدر الإسلام.

17 – رسالة بغية الفائز في نقل الجنائز.

18 – زكاة الأخلاق.

19 – رسالة « الفوائد والفرائد».

20 – تعليقة على صحيح البخاري.

21 – تعليقة على صحيح مسلم .

22 – الأساليب البديعة في رجحان مآتم الشيعة .

23 – رسالة « النجعة في أحكام المتعة».

24 – الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء.

25 – أبو هريرة .

26 – فلسفة الميثاق والولاية.

27 – مسائل فقهية.

28 – إلى المجمع العلمي العربي.

29 – أجوبة مسائل جار الله.

30 – كلمة حول الرؤية .

وفاته

توفى في مدينة صور سنة 1957 ميلادية (1377 هجرية)، ونُقل جثمانه إلى النجف فدفن في مشهد الإمام علي بن أبي طالب (ع)

المصادر

1 - عمر كحالة معجم المؤلفين ج5

2 - مجيد الحدراوي ، مجلة العرفان اللبنانية ، دراسة تاريخية رسالة ماجستير جامعة الكوفة ، كلية الاداب

3 - مقدمة عبد الأمير سبيتي لديوان "أوزان" الصادر عن المجلس الثقافي للبنان الجنوبي- بتاريخ 2001

4 - الشيخ احمد رضا ، حوادث جبل عامل ، دار النهار بيروت 2009

5 - المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، شعراء راحلون من الجنوب اللبناني 2010

6 - محسن الامين ، اعيان الشيعة بيروت - لبنان، تاريخ الطبع مفقود، منشورات دار التعارف.

7 - حسن الصدر ، تكملة امل الآمل قم - إيران، 1406 هـ، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

قائد تارخي من بلادي : الامام السيد موسى الصدر



اعداد د. كاظم نور الدين

تعجـز المؤلفـات في ان تلَـم بالمعـارف التـي تكشـف شـخصية الامـام الصـدر في كافـة الميادين الدينية (الفقهية) والاقتصادية والادبية والحقوقية والسياسية والاجتماعية والفكرية ... وسأحاول فقط في هذة العجالة ان القي الضوء على بعض سمات و خصائص هذه الشخصية العاملية التي تركت بصماتها في المجتمع اللبناني كافة .

1 - ولادته ونشأته :

السيد موسى الصدر هو ابن السيد صدر الدين ابن السيد اسماعيل ابن السيد صدر الدين ابن السيد صالح شرف الدين، من جبل عامل في جنوب لبنان. ولدفي 15 نيسان 1928م في مدينة «قم» في ايران ، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدارسها الحديثة، كما تلقى دراساته الدينية في كلية «قم» للفقه.

تابع دراسته الجامعية في كلية الحقوق بجامعة طهران ، وحاز الاجازة في الاقتصاد.

أتقن اللغتين العربية والفارسية، وألّم باللغتين الفرنسية والانكليزية.

تزوج سنة 1955 ورزق أربعة أولاد: صبيان وبنتان.

الإمام السيد موسى الصدر عالمٌ ومفكرٌ، وقائدٌ قدوة ومجاهدٌ مؤمن، نذر عمره وحياته في خدمة الإسلام والإيمان، داعٍ للحوار ورسول للمحبة والسلام. اسس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان وترأسه، تزعم الطائفة الاسلامية الشيعية، وكان أبرز قادتها وأشهر علمائها.

2 - نشاطاته العملية والاجتماعية :

- عمل أستاذاً محاضراً في الفقه والمنطق في جامعة «قم» الدينية.
- أنشأ في «قم» مجلة باسم «مكتب إسلام» أي المدرسة الاسلامية، وقد اعتبرت من أكبر المجلات الدينية في ايران.
- انتقل إلى العراق سنة 1954، وبقي في النجف الأشرف أربع سنوات، حيث أتم

علومـه في الفقـه والاصـول عـلى يـد كبـار علـماء المسـلمين الشـيعة: السـيد محسـن الحكيم، الشـيخ محمـد رضـا آل ياسـين والسـيد ابـو القاسـم الخوئـي .

- قـدم الإمـام السـيد موسـى الصـدر إلى لبنـان أول مـرة سـنة 1955، وتحديـداً إلى بلـدة شـحور في قضـاء صـور ، وحـلّ ضيفـاً في دار كبيرهـم سـماحة السـيد عبـد الحسـين شرف الديـن الـذي تعـرف إلى مواهـب الإمـام الصـدر ومزايـاه.
- بـدأ الامـام الصـدر الرعايـة الدينيـة والخدمـة العامـة في صـور . وتحـرّك في مختلـف قـرى جبـل عامـل ، ثـم في قـرى منطقـة بعلبـك- الهرمـل، كـما كانـت لـه جولـة في باقـي المناطـق اللبنانيـة، متعرفـاً عـلى أحوالهـا ومحـاضراً فيهـا ومنشـئاً علاقـات مـع النـاس مـن مختلـف فئـات المجتمـع اللبنـاني وطوائفـه، وداعيـاً إلى نبـذ التفرقـة الطائفيـة وإلى نبـذ المشـاعر العنصريـة وإلى تفاعـل الحضـارات الإنسـانية ، وإلى مكافحـة الآفـات الاجتماعيـة والفسـاد والالحـاد.
- شـارك في « الحركـة الاجتماعيـة» مـع المطـران غريغـوار حـداد في عـشرات المشـاريع الاجتماعيـة. وسـاهم في العديـد مـن الجمعيـات الخيريـة والثقافيـة.
- أعـاد تنظيـم «جمعيـة الـبر والاحسـان» في صـور للعمـل عـلى ايـواء وتعليـم الايتـام وذوي الحـالات الاجتماعيـة الصعبـة، ثـم أنشـأ مدرسـة فنيـة عاليـة باسـم «مدرسـة جبـل عامـل المهنيـة» و «بيـت الفتـاة» و «معهـد الدراسـات الاسـلامية».
- أسـس في العـام 1969 المجلـس الإسـلامي الشـيعي الأعـلى كإطـار يتـولى شـؤون الطائفة الشـيعية ويدافـع عـن حقوقهـا ويعمـل عـلى رفـع مسـتواها.
- أطلق الإمام الصدر ومن بعلبك وصور «حركة المحرومين» في العام 1974.
- اعلن عن ولادة أفواج المقاومة اللبنانية «أمل» في عام 1975
- أعلـن الإمـام الصـدر ورقـة للحـوار الوطنـي، متضمنـة مقترحـات محـددة للاصلاحـات المنشـودة في شـتى الحقـول. (في العـام 1975)
- قـدّم نموذجـاً رائـداً في مفهـوم التعايـش المشـترك بـين المسـلمين والمسـيحيين وفي سـعيه لإنهـاء الحـرب الداخليـة اللبنانيـة وانقـاذ الجنـوب مـن المشـاريع الصهيونيـة.
- وصـل الامـام الصـدر الى ليبيـا بتاريـخ 25 / 8 / 1975 يرافقـه الشـيخ محمـد يعقـوب والصحـافي الاسـتاذ عبـاس بـدر الديـن ، في زيـارة رسـمية، وحلـوا ضيوفـاً عـلى السـلطة الليبيـة، فكانـت هـذه هـي الزيـارة الأخـيرة للسـيد وبعدهـا انقطعـت كافـة الإتصـالات بـه.

3 – بعض المحطات في مسيرة الامام :

أ– انشاء المجلس الاسلامي الشيعي :

كان همّ الإمام الصدر حفظ حقوق الطائفة الشيعية وإعلاء شأنها وصون كيانها، ومن هنا كانت ولادة حلم تشكيل مجلسٍ إسلامي شيعي أعلى يحفظ للشيعة حقوقهم ويجسدهم مكوناً أساسياً من مكوّنات المجتمع اللبناني، ويثبتهم خيطاً من خيوط نسيجه الوطني أُسوةً ببقية المكوّنات والشرائح...

لقد بدأ الإمام بالتمهيد للفكرة بنقاشها مع عدد من المقربين إليه، ولكنها بقيت في مهدها، وراحت تظهر ملامحها أكثر فأكثر مع انتقاله إلى بيروت وذياع صيته وانتشار أخباره. إذ شهد عام 1962 رواج أخبار الإمام في الصحف والمجلات اللبنانية التي راحت تتحدث عن المؤسسات الاجتماعية التي أسسها الإمام في مدينة صور، مروراً بمحاربته لآفة التسول وتحصينه الأمن الاجتماعي، وصولاً إلى المحاضرات الدينية التي كان يلقيها في المدرسة الجعفرية في صور أو الثانوية العاملية في بيروت وغيرها من النشاطات الأخرى المختلفة...

حينها، لم يعد الإمام مشهوراً في الوسط الشيعي فقط، بل صار معروفاً في الوسط الفكري اللبناني المثقف (على مختلف مذاهبه)، وهذا ما دفع مؤسس «الندوة اللبنانية» ميشال أسمر إلى الاتصال به والطلب إليه تقديم محاضرة في «الندوة اللبنانية» يعرّف فيها عن نفسه والشيعة، وقد وجد الإمام في هذا الطلب فرصة مناسبة ، فبعد أن أسس لحالة دينية واجتماعية راقية في مدينة صور، حيث المهمة كانت أسهل والبيئة أكثر جهوزيةً وتقبلاً، بات لزاماً عليه الانتقال إلى بيروت لنشر أفكاره والعمل على تحقيق أحلامه حيث البيئة مختلفة والجمهور أكبر والمهمة أصعب... وهذا ما كان، فالإمام هو طليعة القادة وحامل الأمانة...

حاضر الإمام الصدر في «الندوة اللبنانية» عام 1965 بوجود عدد كبير من وجوه الثقافة والفكر اللبنانيين في السياسة والاجتماع والتاريخ والأدب والفلسفة... من بينهم شارل الحلو وكمال جنبلاط وصائب سلام وغيرهم ممن عُرف عنهم في مجالات الفكر والسياسة...

لقد شكلت هذه الفترة مرحلة انتقال الإمام من العمل الاجتماعي الشعبوي في مدينة صور إلى الحوار الفكري النخبوي المثقف والمعاصر في بيروت، فبعد محاربته للتسول في مجتمع صور راح يحارب جهل مجتمع بطائفة من طوائفه، ومُكوِّنٍ من مكوِّناته وبجمع من أبنائه... ولكن انتقال الإمام إلى مرحلة نشر الأفكار عن التشيع والإسلام في وسطٍ نخبوي مثقف لم يمنعه من إكمال العمل الاجتماعي والتبليغي الديني في وسطه الشعبي العادي...

حرص الامام على اطلاق الحوار ولقاء الآخر للتعريف بالشيعة وعقائدهم... والحديث عن مشاكلهم وهمومهم، وما كتاب «أبجدية الحوار» (وهو أول نتاج صدر شاملاً لخطب ومحاضرات الإمام، ويعد ألف باء الحوار في كل حين ومكان) ومحاضرته المهمة التي ألقاها في الرابع والعشرين من أيار عام 1965 تحت عنوان «الإسلام وثقافة القرن العشرين» (التي تُرجمت إلى اللغة الفرنسية) إلا خير دليل على هذا التوجه وذاك السعي.

وتتويجاً للنشاطات والمحاضرات التي نظمتها «الندوة اللبنانية» عن المسيحية والإسلام وقّع الإمام الصدر مع رفاقه المطران جورج خضر والأب يواكيم مبارك والشيخ صبحي الصالح وحسن صعب والأب فرنسوا دوبره لاتور ويوسف أبو حلقة ونصري سلهب في الثامن من تموز عام 1965 بياناً تحت عنوان «المسيحية والإسلام في لبنان» يعتبر النواة الحقيقية للحوار الإسلامي المسيحي ونقطة بدايته الفعلية والأساسية لما حواه من تأكيد على الثوابت المشتركة في المسيحية والاسلام ومساحات اللقاء المتقاطعة...

راح الإمام ينتقل بين القرى والمدن اللبنانية من دون التفات إلى انتماء ناسها وديانة أهاليها، فكان يزور الشيعة ويسأل عن السّنة ويلتقي بالمسيحيين، وهذا ما أكسبه حباً ووداً واحتراماً لدى جموع واسعة من اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، فهو ما دخل قرية أو مدينة إلا ودخل حبه قلوب أبنائها، لأنه مارس حقاً قناعته بأن خدمة الإنسان هي خدمة لله، وخدمة لمحمد (ص) والمسيح (ع)...

لقد كان يلبي الدعوات التي تأتيه من جهات ومناطق مختلفة بلا تردد وبلا تمييز.. لتشكل هذه الزيارات والجولات واللقاءات جسور التواصل والاتصال بين الإمام وأبناء الوطن.

في تلك الفترة استأجر الإمام الصدر شقة صغيرة في منطقة رأس النبع لمزيد من مأسسة العمل وتنظيمه، استكمل فيهاالاجتماعات واللقاءات، وهمّه ما زال تشكيل البنيان الشيعي وتركيز دعائمه..

كان الهمّ الاساسي للامام خلق شخصية معنوية وقانونية للشيعة، تتكلم باسمهم وتحمل صفتهم التمثيلية، تجمع علماء الدين والمدنيين من سياسيين ومثقفين ومفكرين (أي الشخصيات الملتزمة وغير الملتزمة) ضمن إطار هيكلية واحدة في مجلس ملّي، فالطائفة الشيعية تضم شخصيات كبيرة، منها رؤساء ونواب وأطباء ومحامون ومديرون... ولا يجوز اختزال الشيعة واختصارهم ببعض قيادات إقطاعية تنطق باسمهم ولا تمثل كل أطيافهم وألوانهم ولا تحمل همومهم وآمالهم...

أما المجلس الإسلامي الموحد الذي كان قائماً آنذاك فقد اقتصر التمثيل الشيعي فيه

على عضوين اثنين من مجموع أعضائه الاثني عشر، وهو ما رفضه الإمام، إذ لا يجوز اختصار تمثيل الشيعة بنسبة السدس من مجموع المسلمين برغم مجموعهم العددي الكبير، مع العلم أن صلاحيات هذا المجلس لم تكن تتعدى صلاحيات جمعية خيرية.... نظم الإمام مؤتمراً صحافياً طرح فيه فكرة إنشاء المجلس الشيعي، طالباً من عامة الناس بعث العرائض الخطية الى رئيسي الجمهورية والحكومة والهيئات الرسمية ونُسخ عنها إلى مكتب المتابعة، وقد لبى الناس تلك الدعوة التي اعتبرت بمثابة تفويض شعبي كامل للإمام ورضىً تامّ عن مطلبه المحق...

بعد هذا التفويض الشعبي أقرت الدولة اللبنانية رسمياً قانون إنشاء المجلس الشيعي، وقد اعتُبر ذلك بمثابة تفويض رسمي للإمام، وعندما بادر المرجع الشيعي السيد محسن الحكيم إلى إرسال برقية تهنئة للإمام والشعب بانشاء المجلس الذي سيمثل الشيعة ويتحدث باسمهم للمرة الاولى في تاريخهم، اعتبرت هذه التهنئة بمثابة تفويض شرعي جديد للإمام، وبهذا حصل الإمام على تفويض من أعلى سلطة شرعية إضافة إلى التفويضين الحكومي والشعبي.. ليُصار بتاريخ 1969/ 05/ 23 إلى انتخاب الإمام السيد موسى الصدر أول رئيس للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، وكانت ولاية الرئيس قد حُددت بموجب قانون إنشاء المجلس بست سنوات.. ثم جرى تعديل هذه المدة لاحقاً بحيث أصبحت لغاية إتمامه الخامسة والستين من العمر. وتم هذا التعديل وفقاً للأصول بعد موافقة الهيئة العامة للمجلس بالاجماع بتاريخ 1975/ 03/ 29.

مع بداية ولايته في رئاسة المجلس عمل الإمام الصدر على تأمين مقر للمجلس الإسلامي الشيعي الاعلى يقع في محلة الحازمية بضاحية بيروت الشرقية الجنوبية، في بناءٍ لائقٍ يتألف من أربعة طوابق، ويقوم على عقار مساحته 6375 متراً مربعاً، ويحتوي على قاعات واسعة للاجتماعات العامة، وقد سجلت ملكية هذا العقار باسم أوقاف الطائفة الإسلامية الشيعية.

ب- السعى لحماية جنوب لبنان وتثبيت صمود أهله

اعتبر الإمام الصدر الجنوب أرض الحضارات، وينبوع الثقافات، ومعلّم الأبجديات، واعتبره أرض الإنسان والإيمان، وأعلن استعداده الصادق لتقديم حياته كي تتوقف الآلام فيه. وكانت الأشهر الأولى من بداية ولايته في رئاسة المجلس قد شهدت اعتداءات إسرائيلية وخروقاً طاولت الحدود الجنوبية، فأطلق الامام حملة طالب فيها السلطة اللبنانية بحماية وتحصين قرى الجنوب الحدودية، معتبراً أن من واجب كل إنسان في لبنان، أرادت السلطة أم لم ترد، أن يتهيأ، وأن يتدرب، وأن يتسلح لحماية لبنان من الأخطار والأطماع الإسرائيلية.. إذ لا كرامة للبنان ولا سلامة له بدون الجنوب..

وجاء اتفاق القاهرة عام 1969 لغرض تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان ليزيد من حالة غياب الدولة عن المشهد الجنوبي، بعد إفراغ المناطق الحدودية من مؤسسات الدولة وتجميد كل المشاريع الإنمائية فيها، لتجعل الجنوبيين والفلسطينيين وجهاً لوجه في مواجهة مباشرة، تكون فيها «إسرائيل» أكبر الرابحين وأكثر الفرحين لصراع الأشقاء على أرض الجنوب..

ولكن الإمام الصدر عمل على تفويت تلك الفرصة على الإسرائيلي ومن يتربصون شراً بالجنوب وبناسه، وقد أكد في إفطار نظم لدعم المقاومة، بأنه لن يوجه سلاحه إلى الداخل اللبناني إلا إن حاول البعض تقسيم لبنان، أو محاصرة الوجود الفلسطيني والتضييق عليه، من دون أن يعترف بقوات المقاومة الفلسطينية قوات بديلة عن الجيش اللبناني.

فإلى جانب وقوفه إلى جانب الفلسطيني، قام الإمام بحملة توعية وتحذير من خطر تفريغ القرى الحدودية اللبنانية إعادةً لسيناريو تهجير الفلسطينيين من مدنهم وقراهم في نسخة لبنانية هذه المرة، فنهى الناس عن النزوح من أرضهم، مشدداً على دور الدولة وضرورة حضورها الدائم بجيشها ومؤسساتها في الجنوب ، ودعم قراه وأهله. لقد آمن الامام بضرورة بناء مجتمع مقاوم يرتكز على استراتيجية وطنية مضادة للمشروع الاسرائيلي الاستيطاني التوسعي، سعياً لمواجهة الاجتياحات المتكررة للحدود ولمقاومة الاحتلال المتوقّع للأرض اللبنانية.

عندما قصفت قوات العدو الإسرائيلي ذات مرة بلدة عيترون في الجنوب اللبناني سارع الإمام إلى زيارة البلدة وتفقد أهلها، ودعاهم إلى الثبات والصمود وعدم ترك أرضهم وديارهم، وكذا فعل عندما قُصفت بلدة كفرشوبا ومسجدها، حينها هرع الإمام لمساعدة أهالي البلدة ومواساتهم والشد من عزيمتهم، وقد أدى صلاة الجماعة في المسجد المتضرر، إلا أنهم بعد اشتداد القصف لجأوا إلى الكنيسة..

كان الإمام يحرص في جميع المناسبات والأعياد على زيارة كافة المناطق الجنوبية بغية تشجيع الناس ودعمهم وتقويتهم وشحذ هممهم، فقد كان يحذر من مخطط تفريغ منطقة الليطاني من الجنوبيين على غرار نكبة اغتصاب أراضي الـ 48 في فلسطين. كان هم الامام عدم التخلي عن الدولة والجيش وعدم تكريس غيابهما واقعاً دائماً، فدعا إلى سن قانون خدمة العلم، وطالب بتدريب شباب الجنوب وتسميتهم بأنصار الجيش في إشارة واضحة إلى إصراره الكبير على جلب الدولة وإبقائها في الجنوب..

وقد أثمر سعيه هذا وضغطه المتواصل قراراً حكومياً من مجلس الوزراء اللبناني عام 1970 قضى بوضع خطة عامة لتعزيز أوضاع مناطق الجنوب الحدودية.

ت- أنشأ مجلس الجنوب

لأن الامام كان يرى بعينيه أن الجنوب في خطر، وهذا الخطر يستدعي منه البدء بكتابة الحرف الأول في مواجهته. واصل الإمام جولاته ـ من دون كلل أو ملل ـ على المناطق اللبنانية شارحاً ومحاضراً عن وضع الجنوب وأهله، داعياً إلى تعبئة عامة لأجل الجنوب. وعندما تعرضت القرى الحدودية لعدوان إسرائيلي جديد منتصف عام 1970 أدى إلى خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات ونزوح الآلاف من سكان ثلاثين قرية حدودية، دعا الإمام الصدر رؤساء الطوائف الدينية في الجنوب لاجتماع عاجل، وأسس «هيئة نصرة الجنوب»، وقد تولى، بناءً لطلب أعضائها، رئاستها، فيما عُين المطران أنطونيوس خريس نائباً له، وقد وضعت هذه الهيئة ـ بناء لرؤية الإمام ـ مجموعة من المطالب لحماية الجنوب وتنميته. وعندما لم تستجب السلطة السياسية لتلك المطالب تمت الدعوة إلى إضراب وطني سلمي عامّ من أجل الجنوب، وقد كان التجاوب اللبناني مع تلك الدعوة عاماً وعارماً في مختلف المناطق ولدى جميع الطوائف، ومساء يوم الإضراب ذاك، أقر المجلس النيابي مشروعاً قضى بإنشاء مؤسسة عامة تحت اسم «مجلس الجنوب» استجابةً لمتطلبات وحاجات منطقة الجنوب ودعماً لأهلها، وللتعويض عن أضرار الاعتداءات الإسرائيلية والانفاق على مشاريع وخدمات إنمائية عامة في المنطقة.

ث- أسس حركة المحرومين

اعتبر الإمام أن مسؤولية علماء الدين في المجتمعات كبيرة ودقيقة، لأنهم أمناء على خدمة الأمة وأبنائها، لا سيما المحرومين منهم، ولأنهم وحدهم يتمكنون من إعطاء صورة صحيحة عن نضال المحرومين والمظلومين داخل هذه المجتمعات؛ ومن هنا أولى الإمام الفقراء والمحرومين والمهمشين عناية خاصة واهتماماً أكبر، لأن الدّين يعتبر أبناء مجتمع يموت فيه الفقير قَتَلَة، داعياً إلى تلبية مطالب المحرومين وتنمية المناطق المحرومة..

وكان عام 1971 وما بعده قد شهد استمرار الاعتداءات الإسرائيلية وتكرارها على السيادة اللبنانية، استمر معها الإمام مطالباً بحقوق هذه المنطقة وبواجبات الدولة الغائبة عنها تجاهها، مؤكداً أن انهيار الجنوب يعني الانهيار الكامل للبنان، مجدداً دعوته بفرض التجنيد الإلزامي وتحصين القرى وتشييد الملاجئ وتأمين مقومات الصمود والدفاع.

كذلك طالب الإمام السلطة اللبنانية بتنفيذ سياسة إنمائية متوازنة، لا تضع العاصمة وحدها في سلّم أولوياتها وتهمش باقي المناطق الطرفية، فلكي يكتمل مشهد الوحدة اللبنانية كاملاً لا بد أن يبنى الوطن بكامل مناطقه، داعياً إلى إنهاء المناطق وإلغاء التمييز

الطائفي، وعدم تهميش الشيعة في المناصب الوزارية والوظائف الإدارية العامة وموازنات المشاريع الإنمائية برغم أنهم كانوا دائماً من أكثر المواطنين ولاءً وإطاعة للحاكم الوطني، ومن أقلهم إزعاجاً للسلطات.

ولكن هذه السلطات تجاهلت مجدداً تلك المطالب والدعوات، فصرح الإمام عندها بمعارضة حكام لبنان لتجاهلهم حقوق المحرومين والفقراء، وواجب إنماء المناطق الفقيرة المهمشة، وقام بتصعيد حركته الاحتجاجية من أجل المحرومين عبر مهرجانات شعبية حاشدة أضخمها مهرجانا بعلبك وصور، والتي زاد عدد الحضور فيها عن مئة ألف، عاهدوا الإمام على متابعة الحملة وعدم الركون والهدوء حتى تحقيق المطالب.. وهكذا ولدت «حركة المحرومين» من رحم الشعب ومعاناته وحرمانه، وأعلنت في مبادئها التمسك بالإيمان بالله والإنسان والحرية والكرامة، ورفض الظلم والطائفية، ومحاربة الاستبداد والاقطاع، والتمسك بالسيادة الوطنية وسلامتها ومحاربة الاستعمار والاعتداءات والمطامع..

ج- أنشأ أفواج المقاومة اللبنانية «أمل»

دعا الإمام الصدر مبكراً إلى قيام المقاومة المسلحة وتشكيل مقاومة لبنانية تواجه العدوان الإسرائيلي ومؤامراته وأطماعه، ورفض الانتظار حتى تُحتل الأرض وتُدمر البيوت ويُشرد الناس وُتنتهك الكرامة، وبعد ذلك تُؤسس المقاومة لاستعادة الأرض المحتلة وإعادة الناس إليها، معتبراً أن الدفاع عن النفس حقٌ بل واجب كل مواطن لا يمكن منعه عنه، ولا يحتاج إلى اتخاذ قرار، ولا يحتاج إلى خطة، ولا يحتاج إلى تفكير، ولا يحتاج إلى استشارة، لأن الوطن يُحفظ بالجهاد، والكرامات تحفظ بالشهادة، داعياً إلى المرابطة لأنها مقصد إسلامي وواجب وطني، وهذا وقت المرابطة والاستشهاد في وجه العدو بعدما تخلّت السلطة عن واجباتها.

رأى الامام أن المقاومين هم الذين يطبّقون شرعة الإنسان، ويؤتمنون على صيانة الأخلاق والمثل، وينفذّون إرادة المسيح(ع) وإرادة محمد(ص)، رآهم أبطالاً كباراً لا يحتاجون إلى تكبّر ، وعظماء دون مزايدة، رابطاً بين الدين والجهاد، وبين الحرب والصلاة، واعتبر العمل المقاوم استمراراً لعبادة الله في ساحات الحروب والفداء مثلما تكون العبادة في محاريب المساجد وفي مجالات خدمة الخلق.

وقد أعلن الإمام الصدر عام 1975 عن ولادة أفواج المقاومة اللبنانية «أمل»، مؤكداً

وجـوب وقـوف هـذه الوقفـة التاريخيـة بـكل الجهـود والامكانيـات، حفاظـاً عـلى الـشرف والوجـود ومسـتقبل البـلاد والأجيـال، وأداءً للـدور التاريخـي، مـع علمـه الأكيـد بـأن النضـال شـاق وطويـل، وأن عـدو الإنسـانية قـوي وشرس . فدعـا إلى تقدّيـم كل يـوم مجاهـد وشـهيد وقضيـة وتضحيـة، لأن الثـوار مثـل مـوج البحـر، إذا مـا توقفـوا انتهـوا، نافيـاً أن تكـون أعـمال المقاومـين لازعـاج «إسرائيـل» فحسـب، فالمقاومـون أصحـاب حـق ومظلومـون، وأن هـذا الجهـاد ليس ثـورة شـعب مضطهـد فحسـب، بـل إنّهـا ثـورة أمّـة عـلى ماضيهـا القريـب والبعيـد.

ح- استحضر القدس في وجدانه

اعتـبر الإمـام الصـدر القـدس قبلـة المسـلمين وملتقـى قيمهـم وتجسـيد وحدتهـم، اعتبرهـا قضيتـه الخاصـة والمقدسـة، وجهـاد الفلسـطينيين في سـبيل تحريرهـا جهـاده الشـخصي وجهـاد النـاس جميعـاً ومسـؤوليتهم المشـتركة، لأن هـذه الأرض المقدسـة ينبـوع الرسـالات السـماوية وأصـل مهـد الأديـان والحضـارات الإنسـانية جمعـاء، ومـن يتنـازل عـن هـذه الأرض المطهـرة ـ مسلماً كان أم مسـيحياً ـ فإنـما يتنـازل عـن دينـه ويفـرط بـه، مسـتغرباً جمـود النـاس وقعودهـم عـن القيـام والنهـوض والتحـرك لاسـترجاع فلسـطين وطـرد الصهاينـة الغـزاة ، وقـد انتهكـت المحـارم ودنسـت المقدسـات، فيـما الواجـب يقتـضي العـودة إلى العـزة والكرامـة، إلى الفصـح والقيامـة، إلى المولـد والهجـرة والإسراء..

خ- موقفه من الحرب الداخلية في لبنان

مـع بدايـة الحـرب اللبنانيـة عـام 1975 وتحـزّب المحاربـين في خنـادق المواجهـة والقتال سـعى الإمـام لـدى مختلـف الأفرقـاء لـوأد الفتنـة وخنقهـا، وقـد دعـا المتصارعـين إلى التنبـه لمخططـات الخـارج لأن السـلاح الفعـال الوحيـد بيد العـدو الإسرائيـلي ليس سـلاح الطائـرات ولا الصواريخ ولا حتـى القنابـل، ولكنـه في دس سـم الخـلاف في صفـوف العـرب وبـزرع بـذور الفتنة والشـقاق بـين اللبنانيـين، مؤكـداً ضرورة صـون الوطـن اللبنـاني والثـورة الفلسـطينية معـاً، فإن كان السـلاح زينـة الرجـال، فهـو كذلـك عندمـا يكـون في وجـه العدو، أمـا السـلاح في وجـه الصديـق، في وجه الجـار، فهـو ليـس سـلاحاً ولا زينـةً ولا زينـاً... لقـد طالـب الإمـام بإنهـاء الاقتتـال الداخـلي ونقل أسـلحة المعـارك إلى الجنـوب والدفـاع هنـاك حيـث البوصلـة الحقيقيـة للسـلاح وأصـل اسـتعماله. شـكل الإمـام مـع مجموعـة مـن اللبنانيـين «لجنـة التهدئـة الوطنيـة» للاجتـماع بممثـلي المقاومـة الفلسـطينية لمباشرة تهدئـة الأوضـاع ووضـع نقـاط التلاقـي المشـترك المتمثلـة بحفـظ العيـش بـين الطوائـف واعتـماد الحـوار لتحقيـق الاصـلاح ورفـض القهـر الطائفـي والمحافظـة عـلى التعايـش اللبنـاني ـ الفلسـطيني..

ولـما لم تفلـح تلـك المسـاعي في وقـف الاقتتـال اعتصـم الإمـام في الكليـة العامليـة متعبـداً

صائماً مطالباً بتشكيل حكومة وطنية تعيد السلام وتقيم المصالحة بين المتقاتلين معلناً بقاءه في الدرب، وإصراره على المواقف، إلى أن يطلع الفجر، وينتشر السلام في وطنه.. وقد لاقى اعتصامه هذا استحساناً شاملاً لدى مختلف الشرائح والطوائف دينياً وشعبياً وسياسياً.. وعند تأليف الحكومة التي أخذ منها وعداً بالعمل على إقامة المصالحة أنهى اعتصامه.

لم ير الإمام في الحرب الدائرة رحاها على الأرض اللبنانية إلا شراً أكيداً سيلحق بالوطن اللبناني والمقاومة الفلسطينية والجار السوري وبالقضية العربية إجمالاً، وخيراً واعداً لكيان العدو الإسرائيلي، لأن السلاح الذي يستعمل داخل لبنان ـ أياً كان حامله ـ تستفيد منه إسرائيل، أي طلقة تطلق في لبنان، كأنها تطلق من جبهة «إسرائيل» على الجسم اللبناني. شجب الإمام الصدر قتل المدنيين الأبرياء، ولم يقبل بالرد بالمثل ، فبعد قتل العشرات من أبناء الطائفة الشيعية وتدمير مساكن آخرين والاعتداء عليهم وتهجيرهم ضمن مناطق ذات أكثرية مسيحية، أكد على وجوب حماية الأقليات المسيحية المقيمة في مناطق إسلامية، محذراً من الاعتداء والانتقام من الأبرياء، إلى جانب استمراره بتوجيه النداءات لوقف القتال وإنهاء الحرب والعودة إلى الحوار والتلاقي. شجب الإمام الصدر أعمال تكوين فيدراليات طائفية، أو ما عرف بـ"الكونتنات" المذهبية، حيث أنشأ كل طرف إدارة محلية ودويلة على قياسه لتكون بديلاً عن الإدارات الرسمية والوجود الرسمي للدولة الجامعة..

د- عمل على محاولات إنهاء الحرب الأهلية في لبنان

لأن إنهاء الحرب اللبنانية كان يتطلب وفاقاً وطنياً لبنانياً واتفاقاً عربياً مشتركاً على هذا الوقف، كان الإمام الصدر يتنقل بين العواصم العربية بين دمشق والقاهرة وبين الرياض والكويت ورئاسة الجمهورية اللبنانية وقيادة المقاومة الفلسطينية مجتهداً في إقناع القادة والمسؤولين لتوحيد المواقف من حرب الفتنة بهدف وقف نزيف الدم المستمر في لبنان، وساعياً لتوحيد الرأي على إنهاء الحرب المستعرة في البلاد.. وبقي الإمام الصدر يعيش أمل الفجر إلى أن أنتجت هذه الجهود مع آخرين قراراً بإنهاء الحرب اللبنانية عبر قوات الردع العربية. لاحقاً أعلن الإمام ضرورة الخروج من الحرب وأتونها والعودة إلى التمسك بشرعية الدولة والمؤسسات متمسكاً بوحدة لبنان الواحد الموحد، وحماية سيادته وحريته واستقلاله، وإعادة إعمار ما تدمر وبناء ما تهدم ووصل ما انقطع ورتق ما فتق مشدداً على التعايش المشترك والنهائي بين ألوان وأطياف لبنان وطوائفه، مقترحاً الامتناع عن إقحام لبنان في الأزمات الإقليمية الكبرى، وإبطال مفاعيل اتفاق القاهرة، ووضع صيغة جديدة منظمة للعلاقة بين الدولة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية..

ر- أُخفي في ليبيا

بناءً على دعوة من العقيد الليبي معمر القذافي، وعلى إشارة من الرئيس الجزائري بومدين، سافر الإمام الصدر إلى ليبيا بتاريخ 1978/ 08/ 25 برفقة الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين. وكان الإمام الصدر قد بات آخر لياليه في لبنان في منزل شقيقته السيدة رباب الصدر، وحاول كثيرون ـ يومذاك ـ ثنيه ومنعه عن هذه الزيارة، إلا أن الإمام أعلن عزمه على السفر إلى ليبيا لعقد اجتماع مع العقيد القذافي.

لم تغطِ وسائل الإعلام الليبية تفاصيل أخبار الإمام في ليبيا ووقائع زيارته إليها، ولم تشر إلى أي لقاءات عقدها الإمام مع المسؤولين الليبيين، وانقطعت أخباره فجأة ظهر يوم 31 آب 1978، فيما أعلنت السلطات الليبية سفر الإمام الصدر ورفيقيه من طرابلس الغرب مساء ذلك اليوم إلى إيطاليا، وقد وُجدت الحقائب في فندق «هوليداي إن» في روما.

وبنتيجة التحقيق الواسع الذي أجراه القضاء الايطالي في قضية اختفاء الإمام توصل المدعي العام الاستئنافي في روما إلى التثبت من أن الامام الصدر ورفيقيه لم يدخلوا الأراضي الايطالية، ولم يمروا بها «ترانزيت»، وجزم ببقائهم في ليبيا، وتم إبلاغ ذلك رسمياً إلى حكومات لبنان وسوريا وإيران والمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.

حاولت الحكومة اللبنانية عبر بعثة أمنية أوفدتها إلى ليبيا استجلاء الحقيقة، إلا أن السلطات الليبية لم تسمح لها بدخول البلاد، وقد توصلت هذه البعثة بعيد التحقيقات الدقيقة التي أجرتها في إيطاليا إلى نفس النتيجة التي كان قد أعلن عنها القضاء الإيطالي وأبلغها لبنان.

تم تحميل العقيد معمر القذافي مسؤولية إخفاء الإمام الصدر ورفيقيه منذ ذلك الحين.

5 - مقومات وعناصر البناء الفكري عند الإمام موسى الصدر:

اهم مقومات البناء الفكري عند الامام ما يلي :

- فكرة الدولة الملجأ لكل المكونات على قاعدة المواطنة الواحدة.
- العدالة الإجتماعية.
- الوحدة الوطنية.
- الحوار لمعالجة أي خلاف.
- التناقض الأساسي في المنطقة هو مع اسرائيل ما يفترض أن تكون المقاومة خيار الأمة والديبلوماسية سلاحاً مكملاً لدى الأنظمة السياسية.

- استبعاد سياسة التحدي في العلاقات بين المكونات والطوائف والقوى السياسية.
- الدين في جوهره هو واحد غايته بناء الإنسان وإزالة الحواجز التي نصبتها عوالم مفتعلة. والقاسم المشترك بين المسيحية والاسلام هوالإنسان الذي هو هدف الوجود والمحرك للتاريخ .
- ابراز القيم المشتركة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية.
- رفض فكرة الذمّية التي ترتّب شروخاً في المجتمعات العربية.
- تعميم الحوار المسيحي - الإسلامي الذي أطلقه الإمام الصدر بالتعاون مع المطران غريغوار حداد والأب واكيم مبارك والدكتور صبحي الصالح والدكتور محمد مجذوب وآخرين في «الندوة اللبنانية» وإحياء ندوات مشابهة.
- الوصول إلى تعريف واحد للإسلام يركز على الإنفتاح والتسامح والإعتراف بالآخر. وهنا ثمة دور رئيسي للأزهر والنجف وقم.
- امتلاك رؤى ايجابية حول دور الشباب والمرأة في المشاركة واتخاذ القرار.
- مواجهة البطالة.
- الربط بين السياسات التعليمية وحاجات السوق في اتجاه تعزيز الإعتماد على الذات.
- الضغط لتسوية التأزم في العلاقات الايرانية - السعودية وفتح إمكانية الحوار بين طهران والرياض، لأنّ الخلاف بين الطرفين يمعن في تمزيق المنطقة واستدراج التدخلات الأجنبية.
- الاستفادة من دور المسيحيين المشرقيين كنافذة على الغرب الأوروبي والأميركي لتصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام والتي عمّمها صاموئيل هنتنغتون في كتابه «صدام الحضارات» أو في كتابه اللاحق حول تعريف الهوية الأميركية، حيث يرى أنّ «تعريف هذه الهوية يتم من خلال تحديد من هو العدو. ويستنتج أن العدو هو الإسلام».
- الإمام موسى الصدر هو أول من تكلم على حوار الحضارات عندما استنتج أن الصيغة اللبنانية تعني «التمسك بوحدة لبنان وانسجامه مع المنطقة وصيانة كونه أمانة للحضارة العالمية».
- الاعلام في البناء الفكري للإمام موسى الصدر يرتبط بالوظيفة التي تعطى له فإماّ أن يكون بنَّاءً أو هدَّاماً. وهو يرى أنّ الإعلام له وظيفة تربوية وتثقيفية باتجاه تعميق الوحدة الوطنية والمواطنة. فالحرب على ما يقول «ليست فعل المدافع فحسب، بل هي أيضاً حرب العقول والنفوس والألسن أيضاً».

6 - المرأة في فكر الامام الصدر :

للمـراة في فكـر الامـام موسـى الصـدر حضورهـا الفاعـل في المشـهد الانسـاني ، تجسـد ايمانـاً بقدراتهـا ككائـن واع لـه التأثـير في بنـاء المجتمـع . بخطابـه الغـى سياسـة الاقصـاء والتهميـش التـي لحقـت بهـا في البيئـة الاجتماعيـة .

شـارك مـن موقـع ادراكـه ووعيـه العميـق بـضرورة تفعيـل موقعهـا كقـوة ابداعيـة تسـاهم في العمليـة التنمويـة ، معتـبراً اياهـا عنـصراً هامـاً في قـوام هـذه العمليـة .

الامـام الصـدر مـن القلـة النـادرة التـي امتلكـت الرؤيـة المتكاملـة لاصـلاح المجتمـع وركزت عـلى المـرأة في ذلـك.

7 - عاشوراء في فكر الامام موسى الصدر :

- معركـة كربـلاء ليسـت معركـة مفصولـة وظاهـرة فريـدة في تاريـخ الإنسـان إنّهـا حلقـة مميّـزة.
- إنّ السـاحة الحقيقيّـة التـي ولـدت فيهـا معركـة عاشـوراء هـي سـاحة القيـم الإنسـانيّة التـي لا تنفصـل عـن الإيـمان. أمّـا أبعادهـا فإنّهـا تمتـدّ مـع الإنسـان ومـع حياتـه أينـما كان ومتـى يكـون، تحطّـم جـدران سـجن ذاتـه وتربـط بينـه وبـين بنـي نوعـه وتخلـق منـه وجـوداً كبـيراً يفـوق حـدود الزمانيّـة والمكانيّـة ويتجـاوز قدراتـه وكفايتـه.
- الإمام الحسين عليه السلام حافظ بقتله وباستشهاده على الإسلام.
- هـذه الثـورة ـ عاشـوراء ـ انتقلـت مـن الصحـراء مـن وسـط الرمـال إلى جميـع العـالم الإسـلاميّ وانتقلـت أيضـاً مـن سـنة إلى سـنة ومـن جيـل إلى جيـل ومـن قـرن إلى قـرن حتـى بقـي هـذا اليـوم.
- واقعـة كربـلاء بالشـكل الـذي مارسـه الحسـين عليـه السـلام ، أوضحـت الحقيقـة... وكشـفت الواقـع... ووضّحـت الصـورة أمـام الأمّـة.
- اعطت العبر للامة الاسلامية .
- نحـن لا نركـع ولا نخضـع، والحسـين عليـه السـلام علّمنـا ذلـك، وإحياؤنـا لذكـرى عاشـوراء يعنـي ذلـك.
- المهمّـة التـي كان ينشـدها الحسـين عليـه السـلام قائمـة في هـذا اليـوم، لأنّ الأمّـة باقيـة، وبإمكاننـا اليـوم أن ننـصره، وأن نؤيّـده، وأن نقوّيـه عـلى خصمـه، وأن نحقّـق أهدافـه.
- احتفـالات عاشـوراء كانـت إحتفـالات دينيّـة ترمـي إلى هـدف سـياسيّ، وهـو محاربـة الظلـم والطغيـان عـبر العصـور.

- السيدة زينب عليها السلام قامت بدور مصيريّ في إنجاح حركة الحسين عليه السلام ،لإعادة روح الإسلام إلى الأمّة وللقضاء على الظلم والإستعباد.
- حادثة كربلاء في أبعادها تتجاوز محنة عاطفيّة ومأساة بشريّة، بل إنّها نموذج بأسبابها وتفاصيلها ونتائجها تعلّم الأجيال كلّ الأجيال.

مؤلفاته

أ- محاضرات وأبحاث

جُمعت بعض محاضراته وأبحاثه في كتابين:

- نبر ومحراب
- الإسلام عقيدة راسخة ومنهج للحياة

ب-كتابات ومقالات

- الإسلام وثقافة القرن العشرين
- الإسلام والتفاوت الطبقي
- حوارات صحفية ، تأسيساً لمجتمع مقاوم
- حوارات صحفية ، الوحدة والتحرير
- معالم التربية القرآنية «دراسات للحياة»
- معالم التربية القرآنية «أحاديث السحر»
- المذهب الاقتصادي في الإسلام
- أبجدية الحوار
- فلسفتنا

ج-كتب الإمام مقدمات مطولة للمؤلفات التالية:

- - كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية» للبروفسور الفرنسي هنري كوربان، 1966.
- - كتاب «القرآن الكريم والعلوم الطبيعية» للمهندس يوسف مروة، 1967.
- - كتاب «فاطمة الزهراء» للأديب الجزائري سليمان الكتاني. وهذا الكتاب نال جائزة أحسن كتاب عن فاطمة الزهراء، 1968.
- - كتاب «ثمن الجنوب» لمؤلفه جان نانو.
- - كتاب «حديث الغدير» لآية الله السيد مرتضى خسروشاهي 1978.
- - كتاب «تاريخ جباع» للاستاذ علي مروة.

المراجع

1 - يعقوب ضاهر الموسوعة الضخمة (مسيرة الامام السيد موسى الصدر) هذه الموسوعة ضمت بين دفتيها مقالات الامام وخطبه وتصريحاته ومحاضراته من عام 1960 حتى عام 1978 وقد جاءت في اثني عشر مجلدا ضخما ...

2 - مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات بجمع كتابات ومقالات الإمام ونشرها تباعاً وقد صدر حتى الآن الكتب التالية:
الاسلام وثقافة القرن العشرين، الاسلام والتفاوت الطبقي، حوارات صحفية (1: تأسيساً لمجتمع مقاوم)، حوارات صحفية (2 : الوحدة والتحرير)، معالم التربية القرآنية «دراسات للحياة»، معالم التربية القرآنية «احاديث السحر»، المذهب الاقتصادي في الإسلام، أبجدية الحوار.

3 - مقالات المطبوعة اصدرها مركز الامام الصدر في كتيبات منها :
حوار تصادمي، الاسلام وكرامة الانسان، الدين وحركات التحرر، العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الاسلام، القضية الفلسطينية وأطماع اسرائيل في لبنان، تقرير الى المحرومين، رعاية الاسلام للقيم والمعاني الانسانية، الجانب الاجتماعي في الاسلام، الاسلام، الاصالة- الروحية- التطور.

4 - فاطمة صوان هيدوس المرأة في فكر الامام موسى الصدر دار الامير للثقافة والعلوم

الجلسة الفنية



رئيس الجلسة : أ . يوسف نصار

الاخـوة والاخـوات ، الزمـلاء والزميـلات، المؤتمـرون الاعـزاء ، الحضـور الكريـم السـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه.

لقـد اطلـق عـلى هـذه الجلسـة اسـم النشـاط الفنـي ، لان لبنـان هـذا البلـد الصغـير بمسـاحته، الكبـير بـدوره ، وموقعـه ، ورجالاتـه ، النوعـي بجـمال طبيعتـه المتشـابكة روعـة بـين بحـر وجبـل وانهـار واوديـة وقـلاع . مـن شـماله حتى جنوبـه ومـن سـاحله حتـى بقاعـه . هـذا اللبنـان الـذي تميـز بفنونـه الجميلـة والخلاقـة ، حيـث تتنافـس الابداعـات فيـما بينهـا بمظاهـر فنيـة ، نوعيـة ومتنوعـة ، بـين الادب والشـعر والموسـيقى والغنـاء والرسـم والنحـت والمسرح . ويمثـل جبلنـا العامـلي عـلى مـر التاريـخ مرتبـة مضيئـة ، ومحطـة فنيـة ، تعـبر عـن نفسـها في شـتى المواسـم .

وبالمناسـبة انني وبصفتي الشـخصية ادعـو الادبـاء والشـعراء والكتـاب والمفكريـن والفنيـن عـلى اختـلاف مواقعهـم الفنيـة ، ادعـو الجميـع الى إغنـاء تراثنـا الشـعبي والتمسـك بـه تراثـاً ادبيـاً وطنيـاً جامعـاً، وإحيائه في شـتى المناسـبات الدينيـة والبلديـة ، لمـا يمثلـه هـذا الـتراث مـن تقاليـد انسـانية وعـادات سـلوكية واخلاقيـة ، تجمـع ولا تفـرق ،تبنـي ولا تهـدم ، تثقَـف ولا تجهَـل ، لان عـدم التمسـك بتراثنـا الشـعبي او الاسـتهانة بـه ، تفرقنـا في جحيـم الجهـل الاجتماعـي والانسـاني ، وتفريـغ القيـم الاخلاقيـة مـن محتواهـا ويرمـي بنـا الى حضيـض الانحـدار اللامسـؤول. عندهـا تتسـخ هويتنـا الوطنيـة الجامعـة بغبـار النسـيان والاهمـال والتمـزق . والفـت النظـر الى كامـل احترامنـا وتمسـكنا بالطقـوس الدينيـة والانسـانية للمجموعـات والافـراد ضمـن المنطـوق الاخلاقـي الانسـاني .

ويجـدر بنـا ايهـا الحضـور ان نـضيء عـلى محطـة الشـعرفي هـذا المؤتمـر النوعـي والمتميـز حضـوراً ومشـاركين .حيـث ان بـين جبـل عامـل والـتراث الادبي والشـعبي حكايـات مزدحمـة مـن الزمـن العتيـق .

وقـد امتـزج هـذا الـتراث العامـلي بتربـة نفـذت مـن عـرق أهلهـا ، والشـعب العريـق ، وانبتت

سنابلها قمحاً وخبزاً، وأبطالاً ومجاهدين... حيث صنعوا من الروابي السمر للمجد طريق. حتى اذا اورقت الاغصان وأزهرت شعراً وأدباً وصموداً ومقاومة واينعت ثمارها وانبتت سكرى بين خل ورفيق، غنت قصائدها وقوافيها انشودة النصر في فيافيها ، واستحم الفجر بقطرات الندى و أذَن الشروق .

فمن حكاية الضيعة والعين وجرار الخير على اكتاف الصبايا يحملنها بزغاريد واغنيات قروية ، الى عرس القرية والدبكة مع الصبية في الساحات ، وسهرات السمر تحت ضوء القمر، الى الاعياد المزينة بطبيعة اهلها ، وضحكات الاطفال ، كتغاريد الطيور تراقص الفراشات. في جبل عامل تستمع الى حكاية الروابي الخضر ، حيث يسجد العشب المندى مع صلاة الفجر ، وترنيمة الجداول التي تتلوى بين الصخور تنشد مجرى النهر ، حكاية الفلاحين والقمح والتبغ بلذة عرق الجبين ، بعيداً عن القهر . وهديل الحمام وتغاريد الطيور وفوح التراب بأزكى العطور . في جبل عامل يغنَى الشعر وتتراقص القصيدة على انغام القوافي ، فالشعر عندنا يغازل النجوم ، والقمر ينتفض متمرداً على القدر . وفي الليالي الحالمات لا ينام إنه يعشق السهر ، يضحك ، يغرد، يصرخ ، يبكي ويغني انشودة المطر . يرتعش مع نسيمات خريفية، ويحن الى الوتر ، والشعر عشق وجمال ، حب ودلال وعبرة لمن اعتبر . يرسم الكلمات لوحات من رهافة حس وحسن نظر . فالشعر ليس بإله ولكنه معبود من ذوي البشر .

تقديم الشاعر موسى جعفر

يا موسى تحمل العافية عصاً بيدك

تشقَ بها بحور الشعر والكلمات

موسى يا حكاية الوجع المكتوب

كم اشتاقت الانفاس الى عطرك المسكوب

وانت تغرد بشعرك على كل الدروب

اليك المنبر يا نسر الجنوب

قصائد الشاعر موسى جعفر (نسر الجنوب)



القصيدة الاولى

جبل عامل صفوة الي بيعرفوك

رمز الشهامة والشرف بيصنفوك

اعتادوا لانك للقيم عنوانها

يتكرمو فيك النخب ويكرموك

كرهت الملوك ال عابدة تيجانها

صيصان للغاصب على شعوبن ديوك

كرهت القصور العالية بنيانها

وسكانها اوطى الخلايق بالسلوك

لكن ملوك الي الشرف ايمانها

ملوك ال بحب الناس أغنى من البنوك

البيئة الثقافه والعطا ميدانها

انتو ملوك التضحية ووجدانها

واشرف ملوك تجمعوا بقصر الملوك.

القصيدة الثانية

وقت الي جبل عامل دعانا

لقينا بيرق العز ولقانا

بطهر وجوه فيها العتم نور

كأنو الشمس عم تسهر معانا

ومعانا مش عجيبة الشمس تسهر

وتشحذ نور من بهجة ضيانا

لما شعبنا هالأرض حرر

صارت أرضنا تضوي سمانا

نحنا قبل فجر وقبل خيبر

قهرنا مدفع البغي بدمانا

وحتى بحرب تموز المظفر

احتما الصاروخ فينا ما حمانا

نحنا ولاد بو ذر الغضنفر

اعلى من الكواكب مستوانا

مرغنا بوز جيش ال ما بيقهر

بشحاطة لبسها طفل قانا

نحنا انبل واطيب وأطهر

من ال عم يحلمو الرقص بعزانا

نحنا نسور بو الحسنين حيدر

إذا وقفنا بوقفتنا

البطولة

وإذا مشينا ما منطلع ورانا.

شايف متل فردوس متكامل

من كل حورية شفق حامل

مدري نجوم وكل نجمة بلون

جبل عامل سحرهن شامل

ومش بس انتو يا احرار الكون

من جبل عامل اصلكون من هون

كل حر مقاوم وعامل

بيكون أصلو من جبل عامل.

القصيدة الثالثة

جبل عامل أرض من دماتها

بحور الشجاعة بيشربو مياتها

مش للبطولة والكرامة بس دار

هييّ البطولة والكرامة بذاتها

هي أرضنا من شموخها الغرار غار

اكسير ترياق المجد جواتها

من نورها شمس الإبا بتشحذ نهار

ويمكن الذل يشوف حالو انتصار

لو كحل عيونو من تراباتها.

الشاعر ابن حالو بكل محل

بيطلع من الصمت ومن الضجة

تتضل تقرالو ضروري يضل

يتمتم يئن يدندن يهجي

هكـذا هـو الشـاعر محمـد بنـوت ابـن جبـل عامـل ، تقـرأ شـعره فيشـدك اليـه بخيـوط مـن سـحر ، تسـمع ترانيمـه ودندناتـه فيغـرد كالحسـون بـلا وتـر

قصيدة الشاعر محمد بنوت



دَلِّلْ الحَوْرْ ولَيْعِبْ الأغصانْ

عَمَيْ حِلْوة نَيِّمْ ظْلالَكْ

يا نَهْرْ يا شارِدْ بِهالوِدْيانْ

كِتْرِةْ ما راكِضْ سَبَّقْتْ حالَكْ

حَدَّك صَخْرْ حارِسلَكْ الضَّفّة

إنْتِ وهُوِّي مِنْ دَهْرْ رِفْقَة

بيْكِبْ حالو فيكْ تَتْكَفِّي

شْرودَكْ وما تِتْعَرْكَشْ الدَّفْقَة

بالشَّمسْ جاري كِنْتْ أو بالفَيْ
تْغَنَّجْ على الدَّفْلة بْيِطْلَعْلَكْ
ما أبْلَغَكْ لَمَّا بْحَديثْ المَيْ
تهَدْهِدْلْنَا ونحنا مْنِسْمَعْلَكْ

فَوْقَكْ جَبَلْ جبّارْ داعِسْ فيكْ
يبورد اللهبة بجبهة التلة
وبعدك رُغمْ ما بْدَعسْتو آذيك
موضيه ومداريه ت يصلي

بيشق عبك عالسكت طفلين
وانت لانك طيب وزهري
بيتقسوا ومن عجقة الايدين
بتقول ايديهن سمك نهري

اياك تستسلم بساعة قهر
للبحر انت موكل بنحرو
غير طريقك وانتفض يا نهر
جداديل مياتك ل عمرن شهر
اكبر ظلم بالبحر ينتحروا
كل شي بيقاوم هوم ما بيزيح
صامد الشوك بفند صبيرة
حتى بزاروبة ان جنت ريح
بواب الخشب بتصير منجيرة

هون الطبيعة سحرها سيال

شكة المعول شاعر واكتر

بتنحت صور بيروحنو الوزال

الشلال كاتب والصخر دفتر

قد الموسيقى بركضة الاطفال

وفيروز صوت اللوز والسكر

صار الشعر ع سطوحنا خيال

محتاج لشرودو فضا اكبر

لكن بقول باغلب الاحوال

الشاعر ضروري يضل يتذكر

مش هالخشب بيرجف الابطال

الرهبة الدقة بمين عم يحضر

الكلمة امانة بعهدة الاجيال

ما في ولا منبر صنع جمهور

الجمهور هوي بيصنع المنبر

نتفة وقت مش عمرك الكامل

عملو التاريخ وما عم جامل

اكتر ما عمل العلم انجازات

انت كرامة للوطن عامل

السيد عبد الحسين للوقفات

بوادي الحجير مواقفو دامل

الشيخ البهائي عبق الصفحات

بالهندسة والصوت والزامل

وعند الشهيد الاول اللمعات

من السجن فجرها بحر شامل
الصباح اسس فكرة الشاشات
ومنو سرقها كم متحامل
بو ذر من عنا مرق مرات
وبعدو مرورو صخرنا حامل
وبدنا نضل نجيب شخصيات
ما دام في عنا بطن حامل
ويوم القيامة الكل لولا مات
وزلزل جبال بشكل متكامل
رح يصمدو تراباتنا بالذات
ويمكن يطق من القهر عزريل
وما يقدر يزحزح جبل عامل
لكن شو اشبك يا جبل زعلان
منك مرقت استنطقت حجرة
يا للاسف قالت زماني خان
كل يوم عني بيقطعو شجرة
وبمنطق التجار والحرمان
تموت الشعوب وتربح التجرة
ومش عيب ت ما يفقر الفنان
يبوج النصب وينكش المجرى
بس الدخيل محاصر البستان
وعم ينرفض شغيل بالاجرة
بدك تلاقي عذر للتعبان
العم يرحل ويفجر فرد فجرة
مازال شاف بقيمة الانسان
مهجر بعيش بضيعتو وهونيك
عايش مواطن بس بالهجرة

صديقي ورفيقي وأخي الحميم حسين شعيب .

عـذراً لا يسـعني في هـذه العجالـة أن أقـول شـيئاً عنـك ، ولـن أتحـدث عـن ابداعاتـك في الشـعر وانـت تجـوب بصـورك الشـعرية الجهـات الاربـع . ولكنـي عـلى يقـين بـأن اسـمك وشـعرك والقـاؤك قـد أرهفـت المسـامع ، فنشـتاق الى سـماعك في كل لحظـة ، ولا نشـبع ... إن شـعرك هـو الـذي يعـبر عنـك

قصائد الشاعر حسين شعيب



القصيدة الاولى

عالعين ميَل شخــص تيملي	ويرتاح يشرب مي ويصـلي
وبالايد مي العين ما بتنـطال	وحبلو قصير وكيلتو سـلي
ونحن اهل لبنان ذات الحال	بالعين عنا الـمـــي بتحـلي
وهنا النبع ةالنهر والشــلال	وبيضل موســمنا بـلا غلي
عنا الملك غرقان بالامــوال	وجيابنا بتشكــي من القلي
كيف الفرج بدو يجي ما زال	بيعطوك ابرة بياخـذو مسلي
نحن جماعــة فاضيين البال	مع كل قادم في لنـــا طلي
الغراب لولا في معو رسـمال	منقول عن الغراب ترغـلي

القصيدة الثانية

عن هالارض انحكيت شو رح قلها ... ولما جبلها بالكـــرامـي بلــهـــا
من ترابها بيفوح عطر العنفـــــوان ... ومهما الزمان يذل ما بذلـــهـــا
قبل البشر عالارض مـتلاقي مكـــان ... وقفوا ملائكة الوحـي عمطلهـــا
بسهولها قمـــح الصليـبي بلا زوان ... وكرومـهـا جنينات دايـم ظلـهـــا
ع هالارض كم صار مارق امتحـــان ... الله خلقـهـا وبعـــدها بمحلـــهـــا
لا تصدقوا بيحتلها غاصب جبـــان ... اسكندر بذاتو ما قدر يحتلـهـــــا
من يومها والشعر عامل مهرجـــان ... بينقال عنها الشعر ، بيحقلهـــــا
بالحبر شو مكتوب من سحر البـيان ... الاعلى هالارض ع مرور الزمـــان

بالدم مكتوبي القصايد كلها

القصيدة الثالثة

من هون طلع الضـــو عالانســـــان ... من هون طللو العلـم والايمـــــان
هون التقـى هــــون الورع والـديـن ... مطرح ما بوذر الغفاري كـــــــان
هون الادب والفـــن والتلـويـــن ... والشعر وفَى الكيل والـميــــزان
هالارض لما تكوَن التكـــــويـــن ... صلى عليها وسلم الرحــــمــــن
هون الـمواسـم خـير مزروعــــين ... وقمح الصليبي ما انزغـل بـزوان
من هون ما بيمـــرق ولا تشـــرين ... هون مستوطن شهر نيســـــــان
هوني غمـــار الـورد والياســـمين ... عا كل مفرق فالشة بســـتـــان
وبقية كروم العنب والـــتـيــــــن ... عاللوز عم يتدلع الرمــــــــــان
هون الصبايا طهر مجـــــــبولين ... هون الطهر مـجبول بالصبـيـان
هوني حكايا الحــــــب خلقانـــين ... هون البراءة ملونة الحيطـــــان
النسوان هــــوني كلهـم حلويــــن ... يا رب دخلك كتر النســــــوان
عالبيض عم يتشهـــــون النســـرين ... وعالسمر عم يتوحمـــوا الغـزلان
هون الرجـال زنـــود مفـــــتولين ... لو شمروا ونزلوا على الـمـيدان
بيحمر لـــــون التلـــج عا صـــنين ... وبترعد وبيغـــير العــــــدَان
يا أهل مرجعيون انتــــــو مـــين ... الإخوان كنا وبعـــدنا اخـــوان

يا رميش انتي وجارتك كونين ... عتلالكن ذات القمر سـهران

يا دبل قومـي فيقـي تبتين ... وصلوا الصبح عا تلة الحقبان

وحيوا مقاوم صلب ما بيلين ... سلاحو بكتفو والكمر مليان

خلاَ سمانا ملعب حساسين ... وبيحولولو عبَق الدخان

ممرق نسور ومهبط شواعين ... هون الفضا ممنوع عالغربان

الليلة ع بنت جبيل يا جايين ... تا تسكروا ع الشعر والالحان

من هون شموا ريحة فلسطين ... وقولوا يا عيب الشوم عالعربان

ما أبشع الحكام محكومين ... وما ابشع السلطان مش سلطان

التيجان بدها روس مرفوعين ... كتر الحني بيوقع التيجان

قولاوا ياعيب الشوم ع ملايين ... العميان فاقوا وبعدهم عميان

يسكوتهن عالذل محقوقين ... وبعدن بيحطوا الحق ع الطليان

وبيفتشوا عالنصر بالفنجان

ايها الشاعر المتألق في الروح تستوحش الريح
ايها المسافر على طرقات الليل وعينيك المصابيح
دع عنك جراح السنين وغني مع الطيور
فروحك الشاعرية كم اسعدها صنع العطور
فأنت للشعر هدى ، وللدين حسن ونور

قصيدة الشاعر د. حسن نور الدين



جبل الثلج

جبل الثلج والثرى والهضـــــابا عم صباحاً كم شوقنا لك طابا
صبغ الثلـــج مقلتـك وارضي فوقك الكون لابـساً أحقـــابا
تبعث الشمس كل يوم رسـولاً تتمنى الا يعـــــود مصـــابا
انمــــا الثلـــج لا يطيق رؤاه فكَ عني ياقـــوتك الخلابــا
يصرع الـبرد لامتـــيه ويلقــي فيه مضن على الجليد عـقابـا
ما ترى انت دونك الكون حلم انت فيض من الرؤى ما غــابا
صخرة العنفوان سمتني امـــي يعصر الافق فوقي العـــنـابـا
قال اني من عامل نسب الـمجد تربــى فتـــوة وشـــبابـا
انا شـيخ وعمتـــي عامـلـي لونها نت طفولتـي ما شـــابا
كنت في جذوة السماء محيـــطاً فرمتني على الجبـــال حجابـا
تستريح النجوم فوق ســـنامي وأغذي من ثديي هذي الهضابا
ولدتني الرعود والغيم بحــراً وحبتني من السمــاء جــرابا
يقــرأ الغيـم ســـرَه فيلبي كالاعاصير مــاؤها تســكابا
و يحيل الصقيع مـــاء التجلي جبـــلاً من جليـــده جلبـــابا

انا سمتي النضال عروة وجهي تتلوى السفوح عندي إكتئابا

خسىء الحلم ان يكيد سفوحاً اذ بميل الجفنين يضحي سرابا

جبل العلم والكرامة حاشا ان يعريه خصمه مغتابا

صبر تموز قلبه بيديه قد سقاه المنون لما تصابى

سيفه ذو الفقار عمر سنيه لم تزدها عشرينه أطيابا

أهل يعلم وأهل دين وفقه بزَ ادناهم الاعالي شبابا

ذاك لبنان شيخه جبل الشيخ وجفناه ايقونة لن تصابا

يا نسيم العلى وعطر التصابي مجد لبنان أن يظل مهابا

قد بنيناه بالتمني صغاراً و أقمناه للخلود قبابا

من ذرى الارز قد قطعنا سماءً من تراب الفد وصار ثوابا

لي جدود عليه ارسوا وشادوا وأقاموا لكل صعب جوابا

علماء من منبع العلم شادوا دولة الفقه مشرقاً واغترابا

ورجال في العالم الحر ارسوا صور العلم حرفة وكتابا

إيه لبنان ما يغيضك الا بعض حكام خلفوك خرابا

أمعنوا في رباك قتلاً وسفكاً وأحالوك للضواري شرابا

واستردوك للطفولة حلماً بعد أن كنت للندى ميزابا

فسل المشرفين كيف اساؤوا وغدوا للجمال ظفراً ونابا

سلبوا الارض رزقها وجناها وأعادو للورى أحقابا

بلد العلم والطرافة أضحى هيكلاً عمره الجديد خرابا

جبل الشيخ شمت دمعك يجري تسقي عينيك أبحراً وترابا

كان لبنان جنة الشرق ولياليه للحلى مرآبا

فتأمل شحوبه اليوم أضحى هيكلاً عمره الجديد خرابا

حاكموه الاغرار كم سلبوه وأحالوه للقنا أخشابا

جبل الشخ لا أغاضك دمع سوف يغدو جداولاً ورحابا

شبَ اعلام من بنيك وشادوا موكب العلم عزة وصوابا

إن نهراً من الكرامة داو سوف يمحو جحافلاً أذنابا

تدري كل الشعوب من نحن منها جبل الشيخ عن علا ما غابا

إنه الحلم أن نعود فنبني نظراء لنا البلاد شبابا

ويبيدون زمرة من فساد كانوا للارض حية وغرابا

وتعود البلاد نخلة عز جبل الشيخ يسترد الجوابا

صديقي وزميلي مصطفى سبيتي

نحن لا نبخل عليك ولا نبخسك حقك في الشعر والادب والفلسفة، دعنا نطلق عليك تسمية متنبي جبل عامل .

حيث تزدحم عندك الافكار والصور فتظهر الابيات والقصائد سريعة وغزبرة، نهابها من كثافة محتواها ونغم ايقاعها ونظم قوافيها وانسياب معانيها

قصيدة الشاعر الاستاذ مصطفى سبيتي



مجدنا الآتي

مضوا يعبرون النهر في غفلة الفجر	فغاضت حياء منهم لجة النهر
يوشحهم منها رذاذ كـأنه	يلوذ بدفق الطهر من اسن الغمر
تظن نيام العشب مرَ نعالهم	عليها إنحناء النسم أثقل بالعطر
وقد ادركت صم الحصى من خطاهم	مناهم فودت لو تقوم من القعر
يظللهم ليل تطوَع بينهم	دليلا لجند الله يطمع بالاجر
ورعد يضلَ السمع عنهم يلفه	ضباب يضل العين عن انجم زهر
كأن الذي خفوا لنصرة دينه	أراهم بأن النصر من عنده يجري
أحاطوا بآمال الغزاة يشوقهم	تحرر سكنى برعشيت من القهر
وردوا الى تلك الديارابتسامها	وأعطو الشذا والورد للتلة البكر
فأي انتصارفات من من مصابهم	يحيكون درعاً نسجها زرد الصبر
وأي سلاح بز من عبواتهم	عجين من الايمان والبؤس والفقر
وأي جناح فاق من حب أرضهم	سباهم، وهم أحرار في ظلمة الأسر
استغاثت كفرتبنيت فانشق صخرها	عن الحدقات الحمر والاذرع السمر

بأرض يحار الكون كيف ترابهــــا يعير الصبا برداً ويطفو على جــــمر

فلا يدهشوا هذا انتقــــام لامــــة اصيبت على التاريخ بالظلم و الغدر

ولا يعجبوا ، أرض الغفاري زلزلـت وساح عليَ الطاهر اعتز بالكـفـــــر

هووا لعناق الارض لكن نفوسهــم سمت شعلاً حمراء في ليلنا الـمزري

يخب بهم ركب الشــهادة ســـابراً سوى القبر أنفاق الجراح الى النصر

ليسري حـــياة ذكرهم في رفاتهـــم كما كان حب الارض في دمهم يسري

ســـنيون في جوف القبور تلألـــؤا يغنـــون في الاصـداف لألأة الـدرَ

وخلف سدول الموت يؤنس صمتهم ومجلسهم يسلي وأكفانهــم تغـــري

وفيَون ما باعــــوا الحســـين بمأمل رخيص ولا احتجوا بصبَارة القـــرِ

ولا اتبعو دنيا دعـــونـا لتركـــــها ولا انشغلوا عن جوهر الدين بالقشر

بهـم كل أرض كربـــلاء وعندهـم جراح حسين لن تجف مدى الدهــر

إذا اشرقت شمس يخالــــون أنـها تطالعهم من صرخة السـبط للثـأر

فهم صحبه منذ الطفـــوف وإن بـدا بعيداً زمان الطف عن طفَ ذا العصـر

يلوذ الجسوم الارض ظلَت عيونهـم ترابط في الانسام والورد و الصخر

يقومون قبل النشر مع كل برعــــم وصبح ومولود الى ســاعة الحشــر

يجيئون مع كل انتصـــار كأنــــه ربيع يضخ النسغ في يبس الزهـــر

يسوقون ضوء الشمس عبر جباههم الى حيث قرص الشمس يجري ولايـدري

هم مجدنا الآتي ومدعـــاة عــزنا بغير عطاهم لا ســبيل الى الفخـــر

هم النور في الآفاق والخير في الثـرى هم الأرج المضواع فوق الربى الخضـــر

ضلال ن حروب لا تقفي حروبـهـم لتهلك اسرائيل شرنقة الــشــــــر

وزيف ، جراح لا تباري جراحهـــم فترسم مسرى التائقين الى الفــجـــر

مولاي الشيخ فضل ، باسم الشعر اقرئك السلام
واراك في العطاء الادبي مجاهداً وعيناً لاتنام
في الكتابة نثراً وشعراً، أدباً وفلسفةً ، كلٌ في ازدحام
إن المنبر يشتاق الى وقفتك ، نبرتك مع كل احترام (أ. يوسف نصار)

فضيلة الشيخ فضل مخدر



القصيدة الاولى

قرى الله...

عشتُ عمري أكرع الكأسَ الهنيا
وأغـذي الـروح سـرّاً بابلياً

لم أجد سكراً يعاني مثل سكري
فجنوني لم يـزل غضّاً طـرياً

وشديُّ الثغر ما زال يغـنّي
بخبايا القلب لحناً صاح فيّا

نحن والشعرُ المخبّى قد ثملنا
بـرؤى العنقودِ إن لاح نديّا

فلم اليوم بدا الخمـرُ زُلالاً
والخـوابي سلسبيلاً عسـلياً

فأجابتْ نبضاتُ القلب خفـقاً
وتـراءى مسـرحُ الله لدّيـا

وبَدَتْ فيهِ الروابي أغنـياتٍ
وصـدى الـوديـانِ عـزَفـاً غزليا

وعلى رقصِ ينابيـع قراهـا
فـضَّ بـوحُ الـوردِ سرّاً قرويـا

فسَكبْتُ المـاء في كـأسِ عمـري
أرشف الدهـرَ خـريراً عامِليّا

وغفتْ بين ضلوعي نسمـاتٌ
من رؤاها وانتشتْ في مقلـتيا

وتبدّتْ كل ذكـرى من هواهـا
وشدا الشعرُ غريداً غجريـا

وسرى العشـقُ غنـاءاً
يُسكن الدهرحروفاً لبنيها ودويّا

وسقتْ خاطـرَ ظِلٍّ يتـلالا
في الدم الحـرِّ بَنَاناً ومحـيّا

أيُّ سكر؟.. أخـبروني أنها لـم
تسلبِ الشعرَ نشـيداً ورويّـا

عندها يمكن أن أنـأى بكأسـي
أو أواريها جفونـي ويديـا

إنما أقسمتُ أني سـأغني
لقرى اللهِ هوىً ما دمـتُ حيـّا

لَحْــنٌ عَلى أَوْتَــارِ الرَّهْبَـةِ...

خُــذْ بِقَـلْـبِـي وَكُــنْ عَــلَيَّ رَفِـيقَـا ... وَاقْـبَـلِ الـشِّـعْـرَ صَـاحِـباً وَرَفِـيقا

لُمْلِمِ الحُـبَّ مِـنْ حُـروفِ الأَقَـاحِـي ... وَانْـثُـرِ الـلَّـحْـنَ نَـسْـمَـةً وَرَحِـيـقـا

حَـسْـبُـكَ الـيَـــوْمَ أَنَّـنـي لَخَـليقٌ ... أَنْ يَـكُــونَ الـهَــوَى عَــلَيَّ خَلِيقا

فَـأَنَـا مَـا اقْتَحَمْتُ تِـلْـكَ الـقَـوَافِي ... قَـبْـلَ أَنْ أَعْـتَـلِي جَــوَاداً عَتِيقا

بَعْضُ مَا يُرْتَجَى مِـنَ الشِّعْرِ طَوْعاً ... قَــدْ أَتَـــانِي وَبَــعْــضُــهُ مَـوْثُـوقـا

غَـــيْرَ أَنِّي أَهَـــابُ يَـوْمـاً عَـظِـيـماً ... كَــادَ فِـيـهِ الـدُّجى يَـكُـونُ شُرُوقـا

يَــوْمَ لُـبْـنَـانَ حَـيْـثُ أَضْـحَى هَـوَاه ... فَــوْقَ شِـعْـرِي وَلَحْـنُـهُ التَّصْفِيقا

لا تَـلُـمْـنـي فَـإِنَّـنـي بَــيْنَ نَـارَيْــ ... ـنِ مِـنَ الـوَجْـدِ وَالهَــوَى لَـنْ أُطِيقا

نَـشْـوَةُ الـنَّـصْرِ وَاسْـتِـعَـادَةُ ذِكْـرَى ... نَــامَ عَنْهَا الخَـيَــالُ نَـوْمًـا عَمِيقا

أَسْــكَــرانِي حَـتَّـى الـثُّـمَالَـةِ عَـقْـلاً ... كُــلَّـمَا طَـــاوَعَ الـبَـيَـانَ أُعِـيـقـا

فَـتَـأَوَّهْـتُ مِـنْ لَـظَـى رَهْـبَـتِي لَحْـ ... ــناً قَـدِيـماً مُـنَـمْـنَـماً مَعْشُوقا

أَنَّ لُـبْـنَـانَ وَالــقَـــوَافِي وَقـومِـي ... وَالـعُـلَى وَالخُــلــودَ وَالتَّحْلِيقا

غـنْـوَةٌ مِـنْ تُــرَابِ أَرْضٍ وَقَـمْـحٍ ... لَــنْ يُجِـيـدَ الخُـنُــوعَ وَالتَّمْليقا

يَـا رُبُـــوعَ الـعُـرُوبَـةِ الـيَـوْمَ قُـوْمِـي ... وَارْتُـقِـي ثَــوْبَ عُـرْسِـكِ المَمْزُوقا

أُنْـسُـجِـي مِــنْ وَرِيـــفِ زَيْـتـونَـةٍ أَوْ ... سَرْوَةٍ فِي الجَــنُــوبِ بُــرداً أَنِيقا

رَدِّدِي مِــنْ شَـظَـى حِـجَـارَةِ قلبِ ... فِي فِـلَـسْـطِـينَ صَــوْتَـكِ المَخْنُوقا

وَاسْرُقِـــي مِــنْ شَــدَا شِفاهِ الصَّبَايَا ... خَــاطِـراً فَــاقَ حُلْمَهَا المَسْروقـا

وَاعْـزِفِـيـهِ.. إِلى نَخِيلِ الصَّحَارِي ... وَتَـــراً نَــاعِــمَ الـصَّـدى مَنْسُوقا

أُنْــثُـرِيـهِ.. عَــلَى مِـيَـاهِ الـسَّـوَاقِـي ... وَجِـبَـاهِ الـصُّـخُـورِ عَـذْبـاً رَقِيقَا

وَارْضِـعِـيــهِ.. لِـكُـلِّ طِـفْـلٍ وَلِـيـدٍ ... دَامِـــعَ الـعـينِ شُـعْـلَـةً وَطَـرِيـقَـا

حَـدِّثِـي الـكَـوْنَ إِنَّـنَـا فَــرْعُ غُصْن ... طَـــاوَلَ المَـجْـدَ بَـــذْرَةً وَعُـرُوقَـا

مِـنْ هُـنَـا تُـوْلَـدُ الـقَـوَافِي وَيَـرْقَـى سِربُ أَوْزَانِهَـــا جَـنَـاحـاً وَثِيقَا

مِـنْ هُـنَـا نَـصْـدَحُ الخَـلائِـقَ شِـعْـراً وَنُـحِـيـلُ الـبَـيَـانَ ثَـغْـراً طَلِيقا

فَـيَـدٌ مِـنْ وَرَاءِ قُـضْـبَـانِ أَسْرٍ طَـوَّقَـتْ وَجْـهَ حُلْمِنَا تَطْوِيقا

وَزَغَـــارِيـــدُ دَفْـلَــةٍ وَرَوَابِي تُـلْـهِـبُ الـكَـوْنَ بَهْـجَـةً وَصَفِيقا

وَرَصَـــاصُ الـبَـنَـادِقِ الـيَـوْمَ يُنْدِي بَـيْـدَرَ الـعُـرْسِ نَغْمَةً وَمُوسِيقَى

وَصَـبَـاحَــاتُ فِـتْـيَـةٍ وَحِـجَـار لَحْــنُ صَـفْـصَـافَـةٍ تَهِــفُّ وَرِيـقـا

وَأَذَانُ المـقَــاوِمِ الحُــرّ يَـشْـدُو فَـيَـهُـزُّ الـزَّمَـانَ كَـيْ يَسْتَفِيقا

وَمَـــآقٍ تَجُـــولُ عَـتْـمَ الـلَّـيَـالِي فَـتَـسُـوقُ الـنُّـجُـومَ خَـيْـلاً وَنُـوقَـا

أَيُّ شِـعْـرٍ وَشَـاعِـرٍ بَـعْـدَ هَـذا خُــذْ بِـقَـلْـبِـي وَكُــنْ عَــلَيَّ رَفِيقَا

المحور الرابع :

الواقع التعليمي والصحي في جبل عامل



عريف اليوم الثاني :
الاستاذ علي جوني مدير مدرسة جرجوع الرسمية



انتشرت الكتاتيب في جبل عامل بشكل كبير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، حتى وُجد في كل قرية أو دسكرة كتّأب أو أكثر.

وارتبط ظهور الكتاتيب بانتشار رجال الدين فيه، حيث أنّ الكتاتيب الأولى التي أنشئت كانت برعاية هؤلاء الرجال أو من يدور في محيطهم أو من يتخرّج عليهم. وقد اقتصرت على تعليم القرآن الكريم، وبعد ذلك تم زيادة تعليم القراءة والكتابة، ومن ثم أضيف على المواد المقرّرة مبادئ الحساب لحاجة الناس إليه.

تابع التعليم تطوره مروراً بمراحل وأنظمة حتى وصلنا عصر الجودة التربوية .

وعلى الصعيد الصحي ساهمت المستشفيات الخاصة و الحكومية في تأمين الطبابة والاستشفاء لجزء من السكان ، وخاصة الذين لا تسمح ظروفهم من الانتقال الى مستشفيات العاصمة ، رغم أن ذلك ما زال يتأثر بالمحسوبيا ت وبفعالية القوى السياسية .

سيترأس هذا المحور الدكتور حسين ظاهر عضو مكتب بيروت لاتحاد الأكاديميين والعلماء العرب . حائز على الدكتوراه في الحقوق والعلوم السياسية . له مؤلفات عديدة، وشارك في مؤتمرا ت حقوقية وسياسية في لبنان وخارج لبنا ن وكان آخرها في الاردن منذ يومين .

رئيس الجلسة



د. حسين علي ظاهر

الجلسة الرابعة بعنوان : الواقع التعليمي والصحي

يتحدث فيها أربعة من الدكاترة المختصين في مجالات التربية والتعليم، والصحة والاستشفاء، وعلم النفس لجهة تأثير الأمن على الأطفال ، والطب بشكل عام .

الله سبحانه وتعالى خاطب رسولَه الكريم بكلمة : «إقرأ» وعبارة « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم»

فالقراءة والتعليم مسألة جوهرية ، وهي الوسيلة الأساسية لبناء عقل الإنسان . والتعليم لا يقتصر على التلقين ، بل هوى زرع وتكريس ثقافة معينة ، تربية أجيال قادرة على الإبتكار والإبداع و تتحسَّس المسؤولية الوطنية ، وتعتمد العمل الجماعي ، وتلتزم القيم الانسانية و الأخلاقية . فالأخلاق هي ضمانة القائد المؤتمن الصادق الناجح . وقد أصاب أحمد شوقي عندما قال :

« إنما الأمم الأخلاق ما بقيت　　　فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا».

والاستثمار في التربية والتعليم هو استثمار آمن من جهة ، وأساسيٌّ في بناء المجتمعات وتطورها من جهة أخرى .

والدول التي عرفت كيف تهتمّ بالتربية والتعليم حقّقت قفزاتٍ هائلةً في التطور والتقدم في مختلف المجالات . وأبرز مثالٍ على ما نقول هو التطور الهائل الذي شهدته دول شرق آسيا في نصف قرن تقريباً . من الصين إلى اليابان وكوريا وماليزيا وغيرها . إذ

إن نظام التعليم في اليابان هو الذي ساعد على تحول اليابان من دولة إقطاعية إلى دولة حديثة، ومن دولة منهكة تتلقى المساعدات بعد الحرب العالمية الثانية إلى دولة اقتصادية كبرى (ثالث اقتصاد في العالم) .

ولجهة الصحة والأمن يحضرني قولُ الإمام علي (ع) : «الصحة والأمان نعمتان مجهولتان»، الصحة في الأبدان والأمن في الأوطان .

وفي دعاء للإمام السجاد (ع) يقول : « اللهم اعطني السعة في الرزق ، والأمن في الوطن، وقرَّةَ العين في الأهل والمال والولد ، والصحة في الجسم ، والقوة في البدن» .

فالأمن هو اطمئنان النفس وزوال الخوف ، وينقسم إلى قسمين: أمن في الدنيا وأمن في الآخرة.

1 – الأمن في الدنيا يتحقّق على الصعيد الفردي والاجتماعي بمختلف الأشكال الحياتية. فهو أمن سياسي ، وأمن عسكري ، وأمن اقتصادي ، وأمن اجتماعي . وهو الأمن الصحي والاهتمام بالمريض ، والأمن التربوي وتعليم الأبناء ، والأمن الأخلاقي وتهذيب النفوس ، والأمن النفسي أي الرضا والقناعة بما قسم الله ، والأمن بالمشورة في كلِّ أمر حتى يُخُفُّ ما على كاهل الانسان بإعطائه للآخرين : « وشاورهم في الأمر».

2 – والأمن في الآخرة ، هو الاطمئنان بعدم العذاب في جهنم . قال تعالى : « الذين آمنوا ولم يَلبِسوا إيمانَهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

وفي حديث نزول المسيح (ع) في آخر الزمان عبارة : (وتقعُ الأمنةُ في الأرض). فإذا انتشر الأمن بين الناس زادت الحركة الاجتماعية

ونبدأ بعنوان التعليم والمدارس في جبل عامل مع أحد رجالات التربية والتعليم مع السيد محسن جواد لنتعرَّف إلى حال التعليم والمدارس في جبل عامل ، ونرى أيّة ثقافة خلَّفت تلك المدارس والمناهج .

السيّد الدكتورمحسن جواد هو : مدير ثانوية ومدارس المهدي (ع) في بلدة الشرقية، واستاذ علوم القرآن في الحوزة العلمية ، ومفتش تربوي سابق . له مؤلَّفات وأبحاث عديدة ، وشارك في مؤتمرات علمية وتربوية داخل لبنان وخارجه .

التعليم والمدارس في جبل عامل



مدير مدرسة المهدي في الشرقية د. محسن جواد

يتناول هذا البحث، بإيجاز، واقع التعليم في جبل عامل، والحيوية العلمية في البلاد العاملية خلال العصور المتعاقبة. ويشير إلى أبرز المدارس التي أُنشئت فيه، وإلى دور هذه المدارس في تحقيق النهضة العاملية، وفي تعزيز ثقة الناس بتاريخهم وتراثهم، فكان تمسُّكهم بالأرض وحرصُهم على الانتماء إليها من عوامل النصر على كل أشكال العدوان.

جبل عامل، بيئةٌ حيويةٍ علمية

يُجمع الباحثون في تاريخ جبل عامل، على أن أهل هذه البلاد العاملية قد حافظوا على خصوصية اجتماعية وحضارية، على الرغم من تغيّر الظروف السياسية والأمنية، وتعاقب الدول على هذا المحيط الجغرافي في المشرق العربي؛ ويرون أن ما أنتجته هذه البلاد من الشخصيات العلمية البارزة والمؤثرة، رغم ضيق الرقعة الجغرافية وقلة عدد السكان، كان محلَّ تقدير وإعجاب، ويستحق الدرس والمتابعة.

ولعل السبب الأول وراء هذه الحيوية العلمية هو أصالة الالتزام الديني، والحرص على أداء الواجبات العبادية اليومية، وعلى قراءة القرآن الكريم وتعليمه. ولا ينكر أحدٌ ما للصحابي الجليل أبي ذر الغِفاري، من أثر في التنشئة على تلاوة القرآن والتفقّه في الدين، والتخلق بأخلاق النبي (ص) ووصيّه الإمام علي عليه السلام. يضاف إلى ذلك سبب متصل بالأصالة اللغوية الموروثة من الأصول اليمنية العربية القديمة، والتي جعلت عامية جبل عامل أقرب العاميات إلى العربية الفصيحة.

وقد نتج عن هذه الحيوية دافعٌ إلى الارتحال في طلب العلم، فنشطت الهجرة التي كان يقوم بها نفرٌ من العامليين إلى المراكز العلمية في الحواضر المقدسة، حيث يتابعون حلقات الدرس لدى علماء الطائفة البارزين، ومراجعها المتقدمين، ثم يعودون إلى ديارهم لينشروا ما تعلموه بين أهلهم، وليقوموا بدور ريادي في الفكر والثقافة والأدب. وفي ذلك استجابة لقوله تعالى، في سورة التوبة: «... فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة 122).

وقد تصدى بعض العلماء العامليين لأدوار سياسية فرضتها الظروف العامة في البلاد، فقد واجه الشهيد الأول حركة اليالوشي وأخمدها، وواجه السيد عبد الحسين شرف الدين الانتداب الفرنسي. وهاجر نفرٌ من العامليين إلى العراق وإيران، حيث كان لهم حضور بارز في نشر الدين، وإدارة الحياة الاجتماعية، وتنظيم الشؤون الدينية في الأقاليم، كما فعل المحقق الكركي، والشيخ بهاء الدين العاملي، والشيخ لطف الله الميسي، وسواهم. وتعود بعض العائلات العلمية البارزة في العراق وإيران إلى أصول عاملية، منها عائلة الصدر المشهورة.

ويعزو السيد حسن السيد محسن الأمين حبَّ العامليين للعلم إلى عاملين دينيين: «أما الأول فيتمثل بالنظرة الإسلامية للتعليم على أنه واجب وفريضة على المسلمين، وأما الثاني فواجب المحافظة على التشيّع وسط مجتمع متنوع الطوائف والمذاهب. وتولدت لديهم قناعة بأن اعتماد التعليم هو الوسيلة الفضلى التي تسهم في بناء قاعدة شيعية متصلة اتصالا وثيقا بجذور التعاليم والعقائد التي قام عليها مذهب التشيع.»(1).

ويشير الأمير شكيب أرسلان إلى الأصالة العربية لدى العامليين فيقول: «لم أجد أصدق من قريض أبناء جبل عامل صورة للشعر العربي الصميم، ولا أخلص منه عرقاً في نسب اللغة، التي امتازت بها سعد وثقيف، وسفلى هوازن وعليا تميم، ولقد أراني أشرب ولا أرتوي، حتى إذا وقعت في يدي بعض قصائد من نظم العامليين شبعت كبدي رياً، وامتلأ دماغي بياناً عبقرياً، نعم هو الشعر الذي ينبغي أن يبقى في العرب مرفوعاً شعاره، مضيئاً مناره، زاهراً نواره، مهتزة أوتاره، حتى لا تتنكر اللغة على أهلها...»(2).

وهذه شهادة أخرى تشير إلى ذلك، يقول المؤرخ حسن الأمين: "... وكان يؤم الجبلَ طلابُ العلم وعشاق المعرفة من كل صوب، فيوافون حلقات العامليين، ويبرزون في بلادهم مفكرين وشعراء متأثرين بهذا الوسط العلمي الذي كان على مستوى رفيع، وهذا ما جعله محط أنظار الراغبين من الطلاب..."(3).

وهذا التميّز لدى العامليين دفع بالمرحوم الدكتور محمد كاظم مكي إلى طرح عنوان جديد هو العاملية الثقافية. وقد حدد لهذه العاملية الثقافية ثلاثة عناصر هي: "الإسلام والعروبة واللبنانية." (4).

وعــزز رأيــه بقولــه: «والمعــروف أن جبــل عامــل قــد اغــترف مبكــراً مــن أصالــة الإســلام يــوم تقبلــه مــن شــيخ الفقــراء، وزعيــم خلصائهــم ومجاهديهــم، مــن ابي ذر الغفــاري (31هـــ/ 653م) فاستوعب العامليون الطرح الإسلامي، وتمثلوه في أعماق الصدور، ورعوه في جبلهــم بعيــداً عــن عيــون الســلطان الجائــر، حتــى اســتوى فقهــاً ناضجــاً، وعلــوم حديــث محققــة المصــادر، وأصــول فقــه متينــة القواعــد، ليــدروا هــذه العلــوم الدينيــة إلى كل مناطــق المســلمين الباحثــة بلهفــة عــن أصالــة الإيــمان...»(5).

وأضـاف في مقـام آخـر: "قـد تكـون الحـروب المتتاليـة بـين أهـل جبـل عامـل ومجاوريهم شــمالاً وجنوبــاً، خــلال القــرن الثامــن عــشر الميــلادي هــي التــي أثــارت فيهــم عصبيــة وطنيــة وحركــت عاطفــة الاعتــزاز بقوتهــم وانتصاراتهــم."(6).

فكيــف كانــت صــورة التعليــم في جبــل عامــل؟ ومــا هــي أنماطــه، ومــا هــي المــدارس التــي أُنشــئت خــلال هــذه العصــور، في منطقــة ذات خصوصيــة حضاريــة، وفي ظــل دول متعاقبة؟

أنماط التعليم في جبل عامل

الكُتّــاب. أول أنــواع المــدارس هــو الكُتّــاب، وهــو المدرســة الأولى التــي كان يديرهــا معلّــمٌ واحــد، وكان منتــشراً في القــرى أو في أحيــاء البلــدات الكبــيرة. ويتــمّ التدريــس في بيــت المعلــم، أو في المســجد، أو في الهــواء الطلــق حــين تكــون الظــروف ملائمــة. **وفي فصــل الشــتاء كان التلاميــذ يُحضــرون مــا تيــسر مــن الحطــب مؤونــةً للموقــد.**

وقــد ظــل هــذا النمــط مــن التعليــم قائــماً حتــى أواســط القــرن العشريــن في القــرى التــي لم تصــل إليهــا المدرســة الرســمية. وكان الــدرس في هــذه الكتاتيــب ممهــداً لدراســة أعــلى، ومقتــصراً عــلى تعليــم القــرآن الكريــم، والقــراءة والكتابــة ومبــادىء الحســاب، ويضــاف أحيانــاً تعليــم أبيــات مــن الشــعر لبعــض التلاميــذ النابهــين. **وإذا كانــت الكتاتيــب منتــشرة في معظــم قرى جبــل عامــل، إلا أن المــدارس الكبــيرة كانــت معــدودة، وفي حــواضر معيّنــة، ويرتبــط وجودهــا بوجــود عــالم مشــهود لــه بالعلــم.**

الحــواضر. كان التدريــس يتــم في بعــض البيــوت الكبــيرة، لشــخصيات مرموقــة. ومثــال ذلــك أن عــلي بــك الأســعد، حاكــم قلعــة تبنــين في النصــف الثــاني مــن القــرن التاســع عــشر الميــلادي، اســتقدم أحــد العلــماء لتدريــس أفــراد أسرتــه، في محــل إقامتــه في القلعــة. وفي هــذه القلعــة درســت الكاتبــة الكبــيرة زينــب عــلي فــواز.

يقــول شــبيب بــن عــلي بــك الأســعد: "... وهــو أني لمــا بلغــت الســنة الثامنــة مــن عمــري، وكنــت قــرأت القــرآن الشريــف، وأخــذت في قــراءة الأجروميــة وقطــر النــدى في مبــادىء علــم النحــو عــلى الفاضــل الشــيخ جعفــر مغنيــة، مــن أهــل العلــم في بــلاد بشــارة. وكان

عينه الوالد رحمه الله تعالى بالمدرسة التي اتخذها بنفس قلعة تبنين، قاعدة حكومة تلك البلاد، ومحل إقامتنا ونشأتنا وسكنانا وقتئذ. وداعي اتخاذ تلك المدرسة هو لمجرد تعليم هذا العاجز وأخي نجيب بك (رحمه الله). واجتمع إليها عدد كثير من تلامذة وطلاب العلم في البلاد. وكانت مصارفات الجميع على نفقة منشئها المرحوم والدي، الذي كان له مزيد غرام بتقدم العلم والأدب..." (7)

وقبل الحديث عن المدارس العاملية، ينبغي الإشارة إلى مرحلة هامة في تاريخ هذه المنطقة، وهي وصول العلامة ابن العود قادماً من حلب إلى جزين، منتصفَ القرن السابع الهجري، مُبعَداً من قِبل آل زنكي. وهو أبو القاسم نجيب الدين بن الحسين بن العود الأسدي الحلّي الحلبي الجزيني. وكان عالماً فقيهاً متكلماً. وقد أوجد في جزين حركة علمية ناشطة، واعتنى بالتعليم، وأسهم في إعداد ثلةٍ من التلاميذ المجدّين. وقد توفي في جزين عام 679هـ، ودُفن في صحن داره.

ورثاه تلميذه الشيخ جمال الدين إبراهيم بن الحسام أبي المغيث العاملي بقصيدة مشهورة، مطلعها:

«عرّج بجزينَ يا مستبعد النجفِ ففضل من حلها يا صاح غير خفي
نورٌ ثوى في ثراها فاستنار به وأصبح الترب منها معدنَ الشرفِ
فلا تلومُنّ إن خفتم على كبدي صبرا ولو أنها ذابت من اللهفِ
لمثل يومك كان الدمع مدخراً بالله يا مقلتي سحّي ولا تقفي
لا تحسبَنْ جودَ دمعي بالبكا سرفاً بل شحُّ عينيَ محسوبٌ من السرفِ»(8)

المدارس الكبرى

كانت المدارس الكبيرة تقام في المساجد، أو بيوت العلماء البارزين. وكان التدريس فيها يشمل علوم القرآن، وعلوم اللغة العربية، النحو والصرف والبلاغة، ثم الفقه والأصول والمنطق وعلم الكلام.

1) مدرسة جزين:

هناك إجماع لدى الباحثين على أن مدرسة جزين هي أول مدرسة نظامية أُنشئت لتدريس العلوم الدينية، أسسها الشيخ شمس الدين محمد بن مكي الجزيني، المعروف بالشهيد الأول (ت 786هـ/ 1384م). وفي ذلك يقول الشيخ جعفر السبحاني: «وأما مدرسة جبل عامل فقد كانت تتراوح بين القوة والضعف، إلى أن رجع الشهيد الأول

من العراق إلى مسقط رأسه «جزين» فأخذت تلك المدرسة نفسها نشاطاً واسعاً، وقد تخرج من تلك المدرسة منذ تلك العهود إلى يومنا هذا مئات من الفقهاء والعلماء لا يحصيها إلا الله سبحانه، ومن الشخصيات البارزة في هذه المدرسة: المحقق الشيخ علي الكركي مؤلف «جامع المقاصد» (المتوفى عام 940 هـ) وبعده الشيخ زين الدين المعروف بالشهيد الثاني (911-966هـ).» (9)

والإجماع واضح كذلك على دور الشهيد الأول في ازدهار الحركة العلمية في جبل عامل، ويُنظر إلى عودته من العراق بوصفها تأريخاً لنهضة علمية وأدبية. يقول السيد حسن الأمين: «وهكذا يمكننا اعتبار سنة 755 هجرية، وهي سنة عودة الشهيد الأول من العراق، مبدأ البعث العلمي والأدبي في جبل عامل.» (10)

ولعل الشهيد الأول لم ينطلق من فراغ، فالأرض كانت ممهدة لإنشاء المدرسة، إذا أخذنا بالحسبان طبيعة أهل البلاد وميلهم إلى العلم، وإذا نظرنا إلى قدوم ابن العود من حلب، بعد أن نفاه آل زنكي منتصفَ القرن السادس الهجري.

وقد كانت جزين درّة الحواضر الشيعية في ذلك العصر، والعاصمة العلمية والمعنوية للبلاد العاملية، وإليها نُسب كبار العلماء والفقهاء، وما تزال قبورهم ماثلةً في ربوعها، ومن مدرستها انطلق مؤسسو المدارس العاملية التي نشرت العلم في البقاع العاملية، وفي العراق وبلاد فارس، وامتد أثرها حتى عصرنا الحاضر.

2) مدرسة جُبع:

هي المدرسة الثانية بعد مدرسة جزين، أسسها العلامة زين الدين الجبعي العاملي بعد عودته من الحج عام 944 هـ.

وقد تخرج فيها الكثير من العلماء، من بينهم نفر من ذرية الشهيد الثاني، سُموا «بسلسلة الذهب». و قد ذكر السيد محسن الأمين، في خططه، ما يزيد على ثلاثين عالماً من علماء جبع، منهم السيد نور الدين علي صاحب كتاب «مدارك الأحكام»، والمحقق السيد علي الحسيني، والشيخ حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي، والشيخ محمد بن الحسن المعروف بالحر العاملي، ثم تلميذه المرافق له في كل أسفاره بهاء الدين محمد بن علي المعروف بابن العودي. وقد توقفت هذه المدرسة بعد استشهاد مؤسسها في العام 965 هـ.

ثم أعاد تأسيسها، في أواسط القرن الثالث عشر الهجري، الشيخ عبد الله نعمة (ت 1303 هـ/ 1886م)، الذي كان من تلاميذ مدرسة الكوثرية، وغادر إلى العراق حيث نال درجة الاجتهاد، ثم ارتحل إلى إيران حيث أقام عشر سنوات، ثم عاد إلى جبل عامل وأنشأ مدرسته في جُبع.

وقد تخرج في هذه المدرسة، في مرحلتها الثانية، كوكبةٌ من العلماء البارزين، منهم: «العلاَّمتان المجتهدان السيد حسن يوسف مكي الحسيني، (مؤسس المدرسة الحميدية في النبطية)، والشيخ موسى شرارة... والعلاَّمتان الأخوان الشيخ محمد سليمان الزين مؤلف كتاب شرح النظام في الصرف والشيخ حسين المعروف بأبي خليل الزين، وولده الشيخ حسن نعمة وكان معروفاً بطول الباع وسعة الاطلاع بالفقه وعلوم الدين. والشيخ علي الحر وغيره من الفقهاء والأدباء.

وقد انضم إلى مدرسة جبع عدد من أهل النبطية وجوارها منهم الشيخ قاسم محمد قدوح والشيخ قاسم محمد صفا (زبدين) والسيد قاسم والسيد جواد أحمد فحص (جبشيت) وغيرهم.» (11) وقد عمّرت هذه المدرسة أربعين سنة ثم أفل نجمها.

3) مدرسة ميس:

أسسها المحقق الشيخ علي عبد العالي المتوفى 933هـ/ 1526م، وهو المشهور بالمحقق الميسي. وقد بلغ عدد طلابها أربع مئة طالب، منهم العلامة الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي، الذي قضى فيها ثمانية أعوام، حتى عام 933هـ.

4) مدرسة شقراء:

أنشأها العلامة السيد أبو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي (ت1195هـ/ 1780م). وقد قامت بدور تعليمي ناشط، وبلغ عدد طلابها أربع مئة طالب.

5) مدرسة الكوثرية: (1830-1842م)،

أسسها العلامة الشيخ حسن قبيسي، بطلب من كبار علماء النجف الأشرف. وقد كان مؤسسها من تلامذة العلامة بحر العلوم السيد مهدي الطباطبائي. ويرى محمد جابر آل صفا أنها أول مدرسة في العهد الثاني من حياة جبل عامل العلمية تدرس فيها العلوم العربية والدينية وآداب اللغة. وقد استمرت هذه المدرسة حتى وفاة صاحبها عام 1842م.

« وقد تخرج بها في العقد الرابع وما يليه من المئة الثالثة عشرة الهجرية فريق من أقطاب العلم العاملي، ومنهم العلامتان السيد علي آل إبراهيم جد العلامة السيد محمد إبراهيم وأخيه السيد مهدي إبراهيم المعروفين والشيخ عبد الله نعمة الشهير المتوفى سنة 1303 هـ/]/ 1886[والشيخ علي السبيتي اللغوي المتوفى سنة 1303هـ/ 1886م والمرحوم حمد البك حاكم بلاد بشارة إلى كثيرين غيرهم...» (12)

ويظهر من تتبع متخرجي هذه المدرسة أن معظمهم قاموا بتأسيس أمّهات المدارس في جبل عامل في العقود اللاحقة. فقد أسس العلامة الأكبر الشيخ عبد الله نعمة الجبعي مدرسة جُبع. وأسس العلامة الشيخ محمد علي عز الدين مدرسة حنويه. وتخرج في مدرسة الكوثرية رجل سياسي بارز، هو الزعيم المشهور حمد المحمود، من آل النصار.

وفي ذلك يقول محمد جابر آل صفا: «... وحمد البك بن محمد بن محمود النصار الوائلي وقد خرج من مدرسة الكوثرية عالماً شاعراً أديباً وأصبح بعدها زعيم جبل عامل وشيخ مشايخ بلاد بشارة كما تنعته المراسلات الحكومية.» (13)

6) **مدرسة حنويه:**

أسسها العلامة الشيخ محمد علي عز الدين (ت 1304هـ/ 1886م)، بعد أن أتمّ تحصيله العلمي في النجف الأشرف، وكان من قبلُ طالباً في مدرسة الكوثرية. وقد أدخل إلى مدرسته علوماً عصرية كعلم النفس والفلسفة الحديثة. وكان فقيهاً عالماً، جمع بين علوم الدين وفنون الأدب والشعر.

وقد أشار الباحث غسان الغداف إلى أن الدكتور لورتيه ((Dr. Lortet، عميد كلية الطب في جامعة ليون الفرنسية في ذلك الوقت، قد زار هذه المدرسة بين عامي 1875 و 1880م، وقال في شأنها: «الثقافة منتشرة جداً بين المتاولة في حنويه القرية الصغيرة ذات الأربعمئة نسمة ويوجد في حنويه ليس مدرسة ابتدائية يقصدها كل الأطفال الصغار (إشارة إلى كُتّاب القرية) ولكن مدرسة عليا عامرة». (14)

وكان لهذه المدرسة أثر كبير، إذ كان لبعض طلابها دورٌ رائدٌ في النهضة العلمية العاملية. منهم السيد محمد بن علي بن إبراهيم الحسيني (ت 1908م)، مؤسس مدرسة النبطية الأهلية الحديثة. والشيخ مهدي شمس الدين (ت 1915م)، مؤسس مدرسة مجدل سلم. والسيد نجيب فضل الله (ت 1917م)، مؤسس مدرسة عيناثا، وسواهم.

7) **مدرسة بنت جبيل:**

أسسها الشيخ موسى أمين شرارة عام 1879م، بعد عودته من العراق. لكنه توفي في السادسة الثلاثين من عمره (1850-1886م)، وقد توقفت المدرسة بوفاة صاحبها. وكان من طلابها الأجلاء: الشيخ حسين مغنية، والسيد محسن الأمين، والشيخ عبد الحسين صادق، والسيد يوسف شرف الدين، والسيدان حيدر وجواد مرتضى، والشيخ موسى مغنية، والشيخ عبد الكيم الزين، والشيخ محمد دبوق.

8) مدرسة النبطية الفوقا، أو المدرسة النورية:

تُنسبُ إلى آل نور الدين المقيمين في النبطية الفوقا، وهي قديمة العهد منذ قدوم أجداد هذه الأسرة من قرية سكيك في الجولان، بعد أن كانوا قد رحلوا إليها من قرية كفرحونة قرب جزين، إثر خلاف نشأ بينهم وبين بعض أمراء جبل لبنان. وقد تخرج فيها العالم السيد عبد الحسين نور الدين ابن السيد إبراهيم نور الدين، والعالمان الشيخ عبد الله والشيخ محمد الحر، والشيخ رشيد قعون الزبديني المتوفى في النجف سنة 1899م. والعلامتان الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، عضوا مجمع اللغة العربية في دمشق. والشيخ علي مروة، والشيخ جواد سبيتي، والشيخ حسين محمد صفا، والسيد علي جواد فحص.

9) مدرسة النبطية الحديثة:

يشير محمد جابر آل صفا إلى أن أول مدرسة حديثة أُنشئت في النبطية كانت عام 1300هـ/ 1882م، على يد الزعيم رضا الصلح، حين تولى حكومة النبطية وملحقاتها. وقد أولاها عناية خاصة، وكان يزورها كل يوم، ويتولى التدريس بنفسه في بعض الأحيان. (15). وبعد انتقال رضا الصلح إلى اللاذقية تولى التدريس في هذه المدرسة السيد محمد بن علي بن إبراهيم الحسيني (ت 1908م)، أحد طلاب مدرسة حنويه، فأحدث فيها تغييرا جذرياً؛ إذ أضاف إلى منهجها الدراسي مادة الطبيعيات، وكتاب النقش في الحجر، تأليف الدكتور كرنيليوس فانديك (1818-1895م). وهو موسوعة من تسعة مجلدات في العلوم الحديثة.

ثم اعتنى السيد بتثقيف كبار الطلبة وتلقينهم الأدب الرفيع، وتدريبهم على إنشاء الرسائل وقرض الشعر، إضافة إلى دروس المنطق والبيان والفلسفة على طريقة ابن سينا. وقد شمل بعنايته البلدة كلها، «فكان في الليل يعقد مجلساً عاماً في منزل آل رضا، يحتشد فيه القوم على اختلاف طبقاتهم، فيلقي عليهم دروساً دينية في العقائد والعبادات، ويعظ ويرشد على منبر المسجد الجامع، ويحض الناس على النهضة ونبذ الجمود، وعلى تعليم أبنائهم، ومساعدة الطلبة والمشتغلين في طلب العلوم. مما كان له في النفوس أحسن الأثر وأعظم النفع.» (16)
وقد استمرت هذ المدرسة على تلك الحال إلى عام 1891م، حين قدم من العراق إلى النبطية العلامة السيد حسن يوسف مكي، وافتتح المدرسة الحميدية سنة 1892م.

10) المدرسة الحميدية:

أسسها العلامة السيد حسن يوسف مكي، عام 1892م، بعد رجوعه من العراق. وتسميتها الحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد. وكان الإقبال على هذه المدرسة شديداً،

وقد انضم إليها طلاب المدرسة النورية، وزاد عدد طلابها على ثلاث مئة طالب.

وقد عدد محمد جابر آل صفا الكثير من مزايا هذه المدرسة، وشدة عناية رئيسها بالطلبة، وبالناس عموماً. وبقيت قائمة أربعة عشر عاماً، إلى العام 1906م، وتوقفت بعد موت مؤسسها، كما هي حال معظم المدارس العاملية.

المدارس الصغرى

1) مدرسة طيردبا:

أنشأها الشيخ حسين بن حسن بن محمود آل مغنية، في أواسط القرن الثامن عشر، ولم يكن لها أثر كبير.

2) مدرسة كفرة:

أسسها الشيخ علي بن محمد السبيتي، العلامة اللغوي الأديب الشاعر، مؤلف كتاب اليواقيت في البيان، والجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد.

3) مدرسة عيناثا:

ارتبط اسمها بعلماء آل فضل الله. أسسها السيد نجيب ابن السيد محيي الدين فضل الله الحسيني (1863-1917م). ومن أساتذته الشيخ محمد علي عز الدين في حنويه، والشيخ موسى شرارة في بنت جبيل. ومن تلاميذه السيد محسن الأمين. وقد توقفت المدرسة بوفاة مؤسسها.

4) مدرسة عيتا الزط:

أنشأها السيد جواد مرتضى بعد عودته من العراق سنة 1879م. وكان من تلاميذها الشيخ أحمد بري والشيخ محمد دبوق وسواهما. وقد توقفت عام 1882م بعد عودة مؤسسها إلى العراق.

5) مدرسة مجدل سلم:

أنشأها ابن الحسام في مرحلتها الأولى أواخر القرن السابع الهجري، وهو جمال الدين إبراهيم بن أبي المغيث، المعروف بابن الحسام (660-736هـ). وكان ذا مجلسين، أحدهما للوفود، والآخر لطلبة العلم، وهو يجلس تارةً إلى زواره، وتارة أخرى إلى طلابه. أخذ عن ابن العود وابن مقبل الحمصي، ورحل إلى العراق في طلب العلم ثم عاد إلى جبل عامل.

ثم جدد هذه المدرسة الشيخ مهدي شمس الدين، حوالى سنة 1882م، وهو من تلاميذ مدرسة حنويه، والظاهر أنها لم تدم طويلا بسبب ضعف مدرّسها، وانتقال طلابها القلائل إلى مدرسة بنت جبيل.

6) **مدرسة النميرية:**

أنشأها السيد علي إبراهيم في النصف الأول من القرن التاسع عشر. لكنها تراجعت، ثم تولاها وأعاد إحياءها ابن مؤسسها، السيد حسن علي إبراهيم.

7) **مدرسة أنصار:**

أنشأها السيد حسن علي إبراهيم ابن مؤسس مدرسة النميرية، في أواخر القرن التاسع عشر. ومن الذين تخرجوا فيها، السيد محمد إبراهيم، والشيخ عبد المطلب مروة، والشيخ باقر ابن الشيخ الحافظ محمد حسين مروة، والشيخ طالب سليمان البياضي، والشيخ حسن ابن الشيخ محمد علي قبيسي، والشيخ خليل كوثراني وسواهم.

التدريس في المدارس الدينية

قدّم السيد محسن الأمين صورة عن طبيعة حلقة الدرس التي كانت تتم في المدارس العاملية، قبل المدرسة الحديثة المعاصرة. فالمتعلمون يأتون إلى المدرسة صباحاً، بعد قيامهم بتحضير الدروس المقررة.

يبدأ الشيخ درسه بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ثم يشرع في درسه، «فإذا وصل إلى موضع له فيه رأي يخالف صاحب الكتاب بيّنه واحتجّ عليه، وإذا كان في عبارة المؤلف خلل أو خطأ في نقلٍ أو غيره بيّنه لهم. وإذا لم يفهم أحدهم ما قرأه الأستاذ طلب منه إعادته حتى يفهمه. وإذا كان لأحدهم اعتراض على تفسير الشيخ للعبارة، أو اعتراض يعترضه على المؤلف أبداه. فيجيبه الشيخ حتى يقنع أحدهما الآخر فيرجع إلى رأيه أو يبقى مصراً عليه...“ (17)

ومن التقاليد التي كانت مصاحبةً للدراسة في الكتاتيب أن يقام للمتعلم احتفالٌ عندما يختم القرآن الكريم. فيأتي التلميذ في اليوم الموعود إلى الكُتاب وقد ارتدى ثيابًا جديدة، ويأخذ مكانه بين رفاقه، ويطلب المعلم إليه أن يبدأ بقراءة سورة البقرة، حتى يصل إلى آية (ختم الله على قلوبهم...)، وحين ينتهي منها تتعالى صيحات الفرح والابتهاج من الرفاق، وينطلقون جميعاً في موكب إلى بيت التلميذ. وقد يحمله الرفاق على أكتافهم. وهناك يستقبلهم الأهل مرحبين، ويوزعون الحلوى عليهم، ثم ينصرفون. **وفي هذه المناسبة يقدم الأهل للمعلم هدية ختم القرآن، وهي مما تيسّر من المؤونة أو الزبيب أو التمر أو التين. ويشير الدكتور علي درويش إلى ”أن مجالس العلماء العامليين كانت، بالإضافة إلى العاملية، مكاناً آخر لبعث النهضة وتلقيح الفكر وشحذه“** (18).

المدارس المعاصرة

أنشأت وزارة المعارف، في زمن الانتداب الفرنسي، مدرسة النبطية الرسمية الأولى، في العام 1926م. ثم أُنشئت في المدن والبلدات العاملية، تباعاً بعد الحرب العالمية الثانية، مدارسُ رسميةٌ عصرية تعتمد مناهجَ جديدةً متنوعة، وتدرس القراءة والكتابة والقواعد والحساب والعلوم الطبيعية، واللغة الفرنسية، والرياضة والفنون.

وكانت الإرساليات الأجنبية، الكاثولكية والبروتستانتية، التي افتتحت مدارس في جبل لبنان منذ مطلع القرن التاسع عشر، قد بدأت العمل على تعميم تجربتها التعليمية في المدن العاملية. فأنشأت في كل من المدن الرئيسية، صور والنبطية ومرجعيون وبنت جبيل، في منتصف القرن العشرين، مدرسةً تابعة للرهبانية المارونية، تعتمد اللغة الفرنسية لغة ثانية بعد العربية، ومدرسةً تابعة للسينودوس البروتستانتي، تعتمد اللغة الإنكليزية لغةً ثانية.

وفي وقت مماثل، أنشأت جمعية المقاصد الإسلامية في مدينة النبطية، المدرسة العلمية للذكور، ومدرسة الزهراء للإناث. واعتنت بتدريس الدين والقرآن في هاتين المدرستين، إلى جانب العلوم العصرية. كذلك أنشأ الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين المدرسة الجعفرية في مدينة صور، في العام 1938م. وكان تدريس الذكور في هذه المدرسة يتم في غرفة مستأجرة، أما تدريس البنات فكان في منزل السيد.

النبوغ العاملي، نموذجان من نماذج المرأة العاملية

الأول: فاطمة العاملي الجزيني

هي أم الحسن فاطمة المدعوة بست المشائخ بنت الشهيد محمد بن مكي العاملي الجزيني، المعروف بالشهيد الأول. وقد قال عنها الحر العاملي في أماليه: «كانت عالمة فاضلة فقيهة صالحة عابدة، سمعت من المشائخ مدحها والثناء عليها، ... وكان أبوها يثني عليها، ويأمر النساء بالاقتداء بها، والرجوع إليها في أحكام الحيض والصلاة، ونحوها.» (19)

ومن مآثرها أنّها وَهَبَت ميراثها من أبيها الى أخويها محمد وعلي، مقابل بعض نسخ الكتب، وكتبت بهذا الشأن وثيقة وقع عليها عدة شهود، كما أنَّ نص الوثيقة، يكشف بلاغتها وأدبها وتأدُّبها، وحبها للعلم وتعلقها بالكتب العلمية، وهذا مقطع من نص الوثيقة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي وهب لعباده ماشاء، وأنعم على أهل العلم والعمل بما شاء، وجعل لهم شرفاً وقدراً وكرامةً، وفضَّلهم على الخلق بأعمالهم العالية، واعلا مراتبهم في دارَيْ الدنيا والآخرة، وشهد بفضلهم الانس والجان. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد سيد ولد عدنان، المخصوص بجوامع الكلم الحسان، وعلى آله وأصحابه أهل اللَسن واللِسان، والساحبين ذيول الفصاحة على سحبان، وعلى تابعيهم ومن تابعهم ما اختلف المديدان وأضاء القمران .

أما بعد، فقد وَهَبَتْ السِّت فاطمة أم الحسن أخويها: أبا طالب محمداً، وأبا القاسم علياً، سُلالة السعيد الأكرم والفقيه الأعظم، عمدة الفخر وفريد عين الزمان ووحيده، محيي مراسم الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين مولانا شمس المِلَّة والحقّ والدين محمد بن احمد بن حامد بن مكي (قدس سره)، المنتسب لسعد بن معاذ سيد الأوس (قدس الله ارواحهم) جميع ما يخصها من تركة أبيها في جزين وغيرها هبة شرعية ابتغاءًا لوجه الله تعالى ورجاءً لثوابه الجزيل، وقد عوضا عليها كتاب التهذيب للشيخ رحمه الله، وكتاب المصباح له، وكتاب من لا يحضره الفقيه، وكتاب الذكرى لأبيهم رحمه الله، والقرآن المعروف بهدية علي بن مؤيد، وقد تصرف كل منهم والله الشاهد عليهم، وذلك في اليوم الثالث من شهر رمضان العظيم قدره، الذي هو من شهور ثلاثة وعشرين وثمان مائة والله على ما نقول وكيل.» (20)

الثاني: زينب علي فواز

ليس من قبيل المصادفة أن تكون الريادة في بعض فنون الأدب قد انطلقت من جبل عامل، فهو أرض العلماء والأدباء والشعراء. يدل على ذلك أن الجزار عندما غزا جبل عامل لم يجد ذهباً ولا فضة، بل مكتباتٍ عامرةً بنفائس المؤلفات، فصادرها لتكون وقوداً للأفران في عكا.

في هذا المناخ العابق بالعلم، ولدت زينب فواز، في أسرة فقيرة. ثم جيء بها وهي طفلةٌ إلى قلعة تبنين، بعد أن اختارتها السيدة فاطمة الخليل، زوجة علي بك الأسعد حاكم تبنين، لتكون صديقةً لابنتها الوحيدة زينب ورفيقةً لها. وكانت تحضر مع أولاد علي بك الأسعد الدروس التي كان يعطيها الشيخ جعفر مغنية.

وحين بلغت زينب التاسعةَ عشْرةَ من عمرها، غادرت تبنين إلى مصر، حيث ظهرت موهبتها وثقافتها، من خلال كتاباتها وحضورها في الأوساط الأدبية. فاتخذت لنفسها مجلساً كان يحضره الكاتب عباس محمود العقاد. وبدأ اسمها يلمع في عالم الفكر والثقافة في مصر، مع نشر مقالاتها في الصحف والمجلات المصرية وأهمها صحيفة «المؤيد» التي اسسها عبدالله النديم، منظّر ثورة عرابي في العام 1882، وهي الصحيفة الاوسع في مصر في حينه.

ولدت زينب علي فواز في بلدة تبنين، قضاء بنت جبيل في جنوب لبنان، وقد اختُلف في تاريخ ولادتها، فقد ذكر عمر رضا كحالة أنها ولدت عام 1262هـ/ 1846م. وذكر خير الدين الزركلي أنها ولدت في العام (1276هـ/ 1860م)، أما وفاتها ففي العام (1332هـ/ 1914م)

ويتضح توجّهها التربوي والاجتماعي، وتتنوع كتاباتها في أكثر من فن أدبي بين شعر وقصة ومسرحية ورواية. ويظهر كذلك التزامها بقضايا المرأة. ولها خمسة كتب طُبعت في

حياتها، هـي الآتيـة:

(1) الرسـائل الزينبيّـة: وهـي مجموعـة مقـالات ورسـائل، كتبتهـا في الصحـف المصريّـة، ثـم جمعتهـا في كتـاب واحـدٍ سـمّته الرسـائل الزينبيـة؛ وأكثـر أبحـاث هـذه الرسـائل في المـرأة وحقوقهـا ومكانتهـا الاجتماعيـة .

(2) رواية الملك كورش.

(3) روايـة حسـن العواقـب أو غـادة الزاهـرة: وقـد أودعتهـا كثـيراً مـن العـادات العامليـة، لا سـيّما عـادات الأسرة التـي قضـت مـدّة في خدمتهـا.

(4) كشـف الإزار عـن مخبئـات الـزار: والـزار شـعوذةٌ مـن شـعوذات شـيخات مـصر، حضرتـه ووصفتـه في ذلـك الكتـاب .

(5) الـدر المنثـور في طبقـات ربـات الخـدور: يـورد الكتـاب 456 ترجمـةً لمشـهورات النسـاء مـن شرقيّـات وغربيّـات، متقدّمـات ومتأخّـرات. وفيـه ترجمـة واحـدة لامـرأة عامليّـة هـي السـيّدة فاطمـة بنـت أسـعد بـك الخليـل زوجـة عـلي بـك الأسـعد. وهـو أكـبر مؤلّفاتهـا وأحسـنها، وكتبـت في أوّل الكتـاب هذيـن البيتـين:

كتابي تبدَّى جنة في قصـــورها ... تروِّح روح الفكر حور التراجم

خدمتُ به جنسي اللطيفَ وإنّه ... لأكرمُ مـا يُهدى لِغُرِّ الكـرائـم

يقـول الشـيخ أحمـد عـارف الزيـن صاحـب مجلـة العرفـان، متسـائلاً ومجيبـاً: «... مـن لم يسـمع بذكـر هـذه النابغـة العامليـة في هـذا القـرن سـواء في سـورية أو مـصر، أو في سـائر الاقطـار العربيـة؟.. فزينـب لم تكـن أبـدا مجهولـة منـذ أواخـر القـرن التاسـع عـشر وحتـى أوائـل القـرن العشريـن.. فمـن يطلـع عـلى مقدمـات كتبهـا ومـا كان يأتيهـا مـن تقريـظ لهـذه الكتـب يجـد فيهـا دليـلا عـلى شـهرتها في الأوسـاط الأدبيـة والفكريـة في ذلـك الحـين» (21)

خاتمـة: بعـد هـذه الرحلـة الموجـزة مـع واقـع التعليـم في جبـل عامـل، عـبر مـاض يمتـد إلى قـرونٍ بعيـدة، رأينـا كيـف حفـل هـذا الجبـل بالغنـى الثقـافي والإنسـاني، وامتـاز بالحيويـة والإبـداع العلمـي، الـذي تجـاوز حـدود البـلاد العامليـة إلى العـراق وإيـران، وأسـهم في تمكـين الحيـاة الدينيـة في تلـك البـلاد، بعـد أن جعـل الحـوزة العلميـة فيهـا مؤسسـة عـلى درجـة عاليـة مـن التنظيـم.

واليـوم تزخـر البـلاد العامليـة بالحـوزات العلميـة، وبمؤسسـات التعليـم العـام والمهنـي، الرسـمي والخـاص، وتنتـشر فيهـا الجامعـات المتنوعـة، فتجنـي الأفـواج الناشـئة ثـمار التأسـيس السـليم، مـن رجـال كبـار أنتجتهـم هـذه الأرض المعطـاء، التـي نهلـت مـن أمانـة أبي ذر وصدقـه وتقـواه.

الاستشفاء في جبل عامل هو جزء من النظام الصحي في لبنان .

يعاني هذا النظام من مشاكل حقيقية تستوجب المعالجة ، لأن صحة المواطنين لا تحتمل الشعارات الطنانة والمزايدات السياسية بخاصة في هذه المرحلة الدقيقة التي تمرُّ فيها البلاد. فلا بد من زيادة الانفاق على قطاع الصحة والاستشفاء .

إن المستشفيات الحكومية تعاني في معظمها من أزمة مالية تستوجب عناية خاصة من قبل الدولة .

إن المستشفيات ترفض أحيانا قبول المرضى على حساب وزارة الصحة ،

ومنهم من لا يستطيع الدخول إلى أيِّ مستشفى فيُحرم من العلاج .

ولعلَّ من أكثر المفارقات غرابة في لبنان ، هو توقُّف ضمان المواطن عندما يصبح أكثر حاجة للخدمات الصحية ؛ فبينما تزداد الاحتياجات للمتقدمين بالسن فهم يُحرمون من تقديمات الضمان الاجتماعي عند تقاعدهم .....

وكلنا يعلم أن النظام الصحي في لبنان يرتبط ارتباطا وثيقا بالنظام الاقتصادي والاجتماعي ، وبالأزمات المالية والاقتصادية والأمنية التي تشكل التحدي الأكبر لنظام الاستشفاء والصحة في لبنان ...

فماذا عن واقع الاستشفاء والصحة في جبل عامل ؟

الاستشفاء في جبل عامل



د. نادين نورالدين

مقدمة

شــهد العــالم في الآونــة الأخــيرة تطــوراً هائــلاً، شــمل جميــع مجــالات الحيــاة، وبالأخــص مجــال الطــب، الأمــر الــذي كان لــه الأثــر الإيجــابي عــلى صحــة الإنســان، لمــا تــم التوصــل إليــه مــن أدويــة ومخترعــات طبيــة، تمكنــت مــن محاربــة ومكافحــة العديــد مــن الأمــراض، والمشــاكل الصحيــة التــي كانــت تفتــك بحيــاة النــاس قديــماً، وبالتــالي فإنهّــا لعبــت دوراً كبــيراً في الحفــاظ عــلى الإنســان، الأمــر الــذي جعــل النــاس في المجتمــع يشــعرون بــأن صحتهــم بأيــدٍ أمينــة، وأنهــم في أمــان مــن فتــك الأمــراض المختلفــة.

«وبــما أن المستشــفيات نظــام إنســاني مــن الدرجــة الأولى تعمــل مــن أجــل الإنســان المريــض بهــدف معالجتــه بعنايــة واحــترام والمحافظــة عــلى كرامتــه وخصوصياتــه وتقديــم كل مــا تحتاجــه حالتــه المرضيــة كــي لا تكــون ســبباً في تدهــور صحتــه». (ناديــن نورالديــن ، السياســة الصحيــة في لبنــان 2014 ص 36).

«وكــون منطقــة جبــل عامــل كانــت مهمشــة ومحرومــة مــن الخدمــات، ولا ســيما الصحيــة منهــا، وتفتقــر إلى التنظيــم والبرامــج والنــدوات الصحيــة والتوعيــة مــن مخاطــر الأمــراض ومســبباتها وســبل الوقايــة والعــلاج... ممــا دفــع الكثيرمــن الجنوبيين بالنــزوح إلى بــيروت طلبــاً للإستشــفاء لتوافــر الــكادر الطبــي وســائر المعــدات والتقنيــات الحديثــة»...(كــمال ديــب ، ثمــن الــدم والدمــار والتعويضــات المســتحقة للبنــان 2001 ص 67)

لذلــك كانــت الفكــرة في أن يتركّــز البحــث الــذي ســأقدمه في هــذا المؤتمــر عــلى واقــع الإستشــفاء في المنطقــة الجغرافيــة التــي يــضيء عليهــا مؤتمــر جبــل عامــل.

1- إشكالية البحث:

يتدنَّى المردود الصحي في لبنان رغم الكلفة الباهظة التي يتكلَّفها قطاع الصحة اللبناني فلبنان يحتل المرتبة الحادية عشرة عربياً في مؤشرات الصحة وذلك رغم أن إنفاقه يأتي خامساً عربياً بعد الكويت والبحرين والإمارات والسعودية ومع ملاحظة تدني متوسط دخل الفرد اللبناني بست مرات مقارنة بنظيره الخليجي فلماذا هذه المفارقة؟ ولماذا لا يحصل اللبنانيون على حق متساو في العلاج والرعاية الصحية؟ وهل نوعية الخدمة الصحية المقدمة للناس ملائمة وكافية؟(نادين نور الدين ، م.س ص 143)

ومن هذا التساؤل تتفرَّع التساؤلات التالية:

هل سلوك العاملين في المستشفيات يتناسب مع المعايير المتَّبعة في الحفاظ على سلامة المرضى؟

هل لإدارة المستشفيات دور في تعزيز إستراتيجية التعاطي العادل في التعامل مع فئات المرضى؟

الى أي مدى تتأثر استراتيجية العمل ضمن المستشفى في الوصول الى الجودة الإستشفائية (أطباء – أطباء مساعدين – ممرضين وممرضات – إداريين – عمال نظافة...)؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نطرح الفرضيات التالية:

2- فرضيات الدراسة:

أ – تؤثِّر العوامل البشرية في تباين الإنتاج الصحي في المستشفيات.

ب– طرق وآليات المستشفيات التي تتم حسب استراتيجيات إدارة المستشفى تساهم في تطور عمل المستشفيات ونجاحها.

3- أهمية البحث:

أهم الدواعي المؤدِّية لاختيار الموضوع: إلقاء الضوء على طبيعة وواقع الإستشفاء في قرى ومدن جبل عامل للأسباب التالية:

أ – عدم وجود خطَّة محدَّدة لتوزع المستشفيات في المنطقة الجغرافية المدروسة.

ب– عدم قدرة إستيعاب المستشفيات للمرضى في منطقة جبل عامل.

ت– عدم تمكن استيعاب المستشفيات لجميع حالات الإستشفاء (جراحة القلب المفتوح وزراعة الأعضاء و...).

وهكذا تكمن أهمية الموضوع في أنه يساهم في خلق دراسة حقيقية عن الإستشفاء، في ظل وجود مستشفيات ذات أنظمة مختلفة منها: المستشفيات الخاصة والمستشفيات الحكومية.

4- مجالات الدراسة الميدانية:

- **المجال الجغرافي**: قرى ومدن جبل عامل.
- **المجال البشري**: تمثل المجال البشري بمديري المستشفيات ميدان الدراسة.
- **المجال الزمني**: إستغرق البحث مدة أربعة أشهر انتهت في 5 أيلول 2018.

5- منهجية البحث:

تعتمد منهجية البحث على الدراسة النظرية الوصفية والتطبيقية التحليلية، والدمج ما بين مستلزمات الإدارة الحديثة للمستشفيات والمفردات التخطيطية للعمل الإستشفائي.

وقد إستخدمت في هذه الدراسة مجموعة مناهج منها:

أ- المنهج التاريخي: ساهم في تحديد التطور الزمني لتأسيس المستشفيات (الحكومية والخاصة).

ب- المنهج المقارن: ساعد في مقارنة العمل الطبي ضمن المستشفيات المدروسة، وبين العمل الطبي في كل من المستشفيات الحكومية والمستشفيات الخاصة.

ج- منهج دراسة الحالة، كون المجتمع المدروس (المستشفيات) تمثل حالات تعبِّر عن واقع إدارة العمل الطبي في المستشفيات المدروسة.

6- طرق جمع المعلومات:

إعتمدت لجمع معلومات هذه الدراسة على مصدرين رئيسين:

الأول: المصادر المكتبية (الكتب العلمية المتوفرة - الأبحاث والرسائل الجامعية - المصادر الإحصائية المحلية - التقارير الصادرة عن المؤسسات الدولية).

الثاني: المصادر الميدانية: لتنفيذ الدراسة الميدانية قمت باستخدام تقنية المقابلة. وقد أجريت ٢٨ مقابلة مع مديري المستشفيات الحكومية وأصحاب أو مديري المستشفيات الخاصة.

وقد تمَّ طرح الأسئلة التالية:

- اسم المستشفى:
- تاريخ التأسيس:
- طبيعة المستشفى: حكومية ☐ خاصة ☐
- ملكية المستشفى الخاص: فردية ☐ شراكة ☐
- البناء :
  - عدد الطوابق:
  - عدد الغرف:

- أقسام المستشفى:
- عدد الأسرَّة:
  - أسرَّة وزارة الصحة:
  - الأسرَّة الخاصة:
- عدد العاملين:
  - الموظفون الإداريون:
  - الممرضون والممرضات:
  - الأطباء : أ- أطباء الملاك:

    ب- الأطباء المتعاقدون:
  - الأطباء المساعدون:

وسيكون موضوع بحثنا المقدم إلى المؤتمر الجنوبي الثاني: جبل عامل: تاريخ وواقع الذي تقيمه هيئة تكريم العطاء المميز والتجمع الوطني للثقافة والبيئة والتراث مركّزاً على طبيعة وواقع الإستشفاء في المجتمع المدروس (قرى ومدن جبل عامل)، أي مستشفيات محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية بإعتبار أن جبل عامل أو جبل الجليل أو بلاد بشارة أو بلاد المتاولة أو البشارتين هي المنطقة التي يطلق عليها اليوم إسم لبنان الجنوبي أو الجنوب اللبناني.

الفصل الأول

الاستشفاء في جبل عامل

المستشفى هو مكان لعلاج المرضى وتأهيلهم، وهي المسؤولة عن تقديم الرعاية الصحية لهم من خلال طاقم طبي متخصِّص بأجهزة طبية حديثة، وتختلف المستشفيات من حيث حجم المستشفى (البناء)، وعدد الأسرَّة فيها، ومن حيث الخدمة المقدمة لمرضاها(ميشال كرم ، السياسة الصحية والصندوق الوطني للضمان الاجتماعي في لبنان 2005 ص 71).

اولاً: المستشفيات الخاصة: هي مراكز علاجية يملكها القطاع الخاص وبالتحديد أطباء متخصِّصون، وهذه المستشفيات تكمِّل عمل الدولة التي تعجز عن تقديم الرعاية الصحية والعلاج المطلوب للمواطنين من خلال المستشفيات الحكومية المنتشرة في كل المناطق اللبنانية (كامل مهنا ، الصحة ودور القطاع الاهلي في لبنان ، مجلة دراسات لبنانية 2003 ص 84).

بشكل عام تغطي المستشفيات الخاصة الجزء الحيوي من خدمات الصحة في المجتمع.

ثانياً: المستشفيات الحكومية: أنشأت وزارة الصحة في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية التي تمثل منطقة جبل عامل 9 مستشفيات حكومية، من أهم مزاياها أنها تعاني مشاكل مادية، ونقصاً بشرياً وإدارياً، وعدم وجود أجهزة متخصِّصة، في مقابل تخمة موظفين غير مؤهَّلين، وأطباء لا يداومون إلا في عياداتهم الخاصة، أو يحوِّلون مرضى الوزارة الى المستشفيات الخاصة بهم.

وتوزعت هذه المستشفيات على المحافظتين والأقضية فيهما بهدف تأمين البنية التحتية للخدمات الصحية. لكن بسبب الممارسات الخاطئة وعدم وجود سياسة إستشفائية واضحة وضعف الإدارة وانتفاء أي عنصر من الرقابة وغياب الضمير المهني، إضافة الى الإعتداءات الإسرائيلية، لم تتمكن هذه المستشفيات من أداء دورها الإستشفائي وتقديم الخدمات الصحية المطلوبة للمواطنين.

وتتراوح المشاكل التي تعاني منها المستشفيات الحكومية في جبل عامل بين:

- العجز المالي كما هو الحال في مستشفى صيدا الحكومي الذي لا يزال يعاني من التأخير الكبير في الحصول على مستحقاته المالية من معظم الجهات الضامنة المتعاقدة معه.
- العجز الإداري الناتج أساساً عن التجاذبات السياسية كما هو الحال في مستشفى جزين.

- العجز في التجهيزات والمعدات في مستشفيات عدة كمستشفى قانا الحكومي الذي لا يزال يفتقر منذ تدشينه في العام 2000 إلى التجهيز بالمعدات الطبية اللازمة لتشغيله، وكذلك مستشفيات تبنين وصور (نادين نور الدين ، م . س ص 197)

العمل الميداني

تتولى الإستشفاء في منطقة جبل عامل 39 مستشفى، ساهمت العوامل الإقتصادية والأمنية والإجتماعية في توقف بعضها عن العمل، واستمرت 28 مستشفى في تأمين الإستشفاء للسكان المقيمين في هذه المنطقة، وقد توزعت هذه المستشفيات كما تظهر في الجدول التالي:

جدول رقم (1): توزع المستشفيات في قرى ومدن جبل عامل حسب المحافظات والأقضية

الرقم	اسم المستشفى	المحافظة	القضاء	النوع
١	مستشفى حكمت الأمين (النجدة الشعبية)	النبطية	النبطية	مستشفى خاص
٢	مركز عبد الحميد غندور الطبي	النبطية	النبطية	مستشفى خاص
٣	مستشفى الشيخ راغب حرب	النبطية	النبطية	مستشفى خاص
٤	مستشفى الدكتور علي الصياغ / الحكمة سابقاً)	النبطية	النبطية	مستشفى خاص
٥	مستشفى الشهيد صلاح غندور	النبطية	بنت جبيل	مستشفى خاص
٦	مستشفى نبيه بري الحكومي الجامعي / النبطية الحكومي)	النبطية	النبطية	مستشفى حكومي
٧	مستشفى مرجعيون الحكومي	النبطية	مرجعيون	مستشفى حكومي
٨	مستشفى تبنين الحكومي	النبطية	بنت جبيل	مستشفى حكومي
٩	مستشفى بنت جبيل الحكومي	النبطية	بنت جبيل	مستشفى حكومي
١٠	مستشفى ميس الجبل الحكومي	النبطية	مرجعيون	مستشفى حكومي
١١	مستشفى حمود الجامعي	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٢	مستشفى دلاعة	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٣	مركز لبيب الطبي	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٤	مستشفى قصب	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٥	مستشفى النقيب	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٦	مستشفى عسيران (ماهر حمزة حالياً)	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٧	مستشفى الهمشري	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٨	مستشفى الجنوب (شعيب)	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى خاص
١٩	مركز الراعي الطبي	لبنان الجنوبي	الزهراني	مستشفى خاص
٢٠	مستشفى خروبي	لبنان الجنوبي	الزهراني	مستشفى خاص
٢١	مستشفى علاء الدين	لبنان الجنوبي	الزهراني	مستشفى خاص
٢٢	مستشفى حيرام	لبنان الجنوبي	صور	مستشفى خاص
٢٣	مستشفى جبل عامل	لبنان الجنوبي	صور	مستشفى خاص
٢٤	مستشفى نجم	لبنان الجنوبي	صور	مستشفى خاص
٢٥	مستشفى صيدا الحكومي	لبنان الجنوبي	صيدا	مستشفى حكومي
٢٦	مستشفى جزين الحكومي	لبنان الجنوبي	جزين	مستشفى حكومي
٢٧	مستشفى صور الحكومي	لبنان الجنوبي	صور	مستشفى حكومي
٢٨	مستشفى قانا الحكومي	لبنان الجنوبي	صور	مستشفى حكومي

المصدر : تفريغ المقابلات

- مستشفيات أخرى في صيدا:
  - مستشفى عساف (وقف الروم الكاثوليك) دار للعجزة.
  - المستشفى التركي للطوارىء والحروق (2010) متوقف حالياً.
  - مستشفى دار السلام للرعاية الإجتماعية والإقامة الدائمة.

- أما المستشفيات التي أغلقت أبوابها في مدينة صيدا فهي:
  - مستشفى جميل معماري.
  - مستشفى اسكندر الحاج.
  - مستشفى رمزي الشاب.
  - مستشفى الياس ايليا.
  - مستشفى راشد الخوري.
  - مستشفى جورج نجم.

مستشفى نيازي جبيلي (متوقف بسبب الترميم).

تظهر معطيات الجدول رقم (1) المعلومات التالية:

- تتولى الإستشفاء في محافظة النبطية عشر مستشفيات توزعت مناصفة بين القطاع العام والقطاع الخاص كما توزعت على الأقضية كما يلي:
  - 5 مستشفيات في قضاء النبطية.
  - 3 مستشفيات في قضاء بنت جبيل.
  - مستشفيان في قضاء مرجعيون.

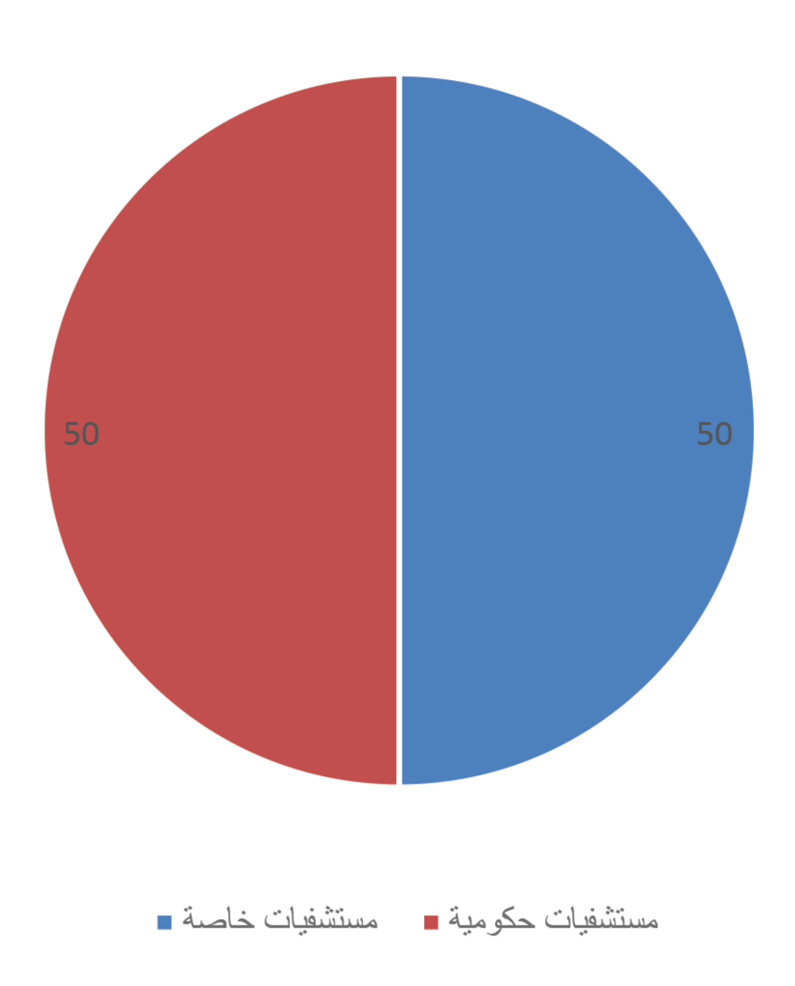
نستدل من هذه النتائج أن معظم المستشفيات تتركز في مدينة النبطية باعتبارها المركز المديني الهام في المنطقة، وتبرز فيها ثلاث مستشفيات هامة (مستشفى النجدة الشعبية – المستشفى الحكومي ومستشفى الشيخ راغب حرب).

- كذلك تتولى الإستشفاء في محافظة لبنان الجنوبي 18 مستشفى بينها 4 مستشفيات حكومية، و14 مستشفى خاص تتوزع على الأقضية كما يلي:
  - 9 مستشفيات في قضاء صيدا.
  - 3 مستشفيات في قضاء الزهراني.
  - 6 مستشفيات في قضاء صور.
  - مستشفى واحد في قضاء جزين.

توزع المستشفايات في محافظة لبنان الجنوبي تشير إلى أن العدد الأكبر منها يتركز في عاصمة الجنوب مدينة صيدا.

الفصل الثاني:

المستشفيات في محافظة النبطية



تـوزع الإستشـفاء في محافظـة النبطيـة عـلى 5 مستشـفيات خاصـة (جميعهـا في مدينـة النبطيـة وجوارهـا)، و5 مستشـفيات حكوميـة توزعـت عـلى أقضيـة النبطيـة وبنـت جبيـل ومرجعيـون (ضمـن جغرافيـة جبـل عامـل)

جدول رقم (2): توزع المستشفيات الخاصة في محافظة النبطية

الرقم	اسم المستشفى	مكان المستشفى وتاريخ بدء العمل فيها	عدد الغرف	عدد الأسرَّة	عدد الأطباء	عدد الممرضين والممرضات	عدد العاملين
1	مستشفى حكمت الأمين	النبطية 1989	118	126	13 متفرغاً 217 متعاقداً	141	87
2	مركز عبد الحميد غندور الطبي	1981	45	40	7 متفرغين 83 متعاقداً	37	26
3	مستشفى الشيخ راغب حرب	2003	107	115	13 متفرغاً 178 متعاقداً	143 معهد تمريض خاص	81
4	مستشفى االدكتور علي الصباغ	النبطية 1980	42	68 حالياً 35	6 متفرغين 118 متعاقداً	64 حالياً 18	36 حالياً 21
5	مستشفى الشهيد صلاح غندور	2000	54	42	11 متفرغاً 59 متعاقداً	74	65

المصدر : المقابلات

المستشفى التي أقفلت: مستشفى الجنوب التي تداور على إدارتها وتشغيلها عدد من الأطباء واستقرت بإدارة الهيئة الصحية الإسلامية إلى أن توقف العمل فيها وتحولت إلى مركز طبي للهيئة الصحية في حزب الله.

بيانات الجدول رقم (2) تشير إلى ما يلي:

- المستشفيات الخاصة في محافظة النبطية قد تأسست إبتداء من العام 1980 (مستشفى الحكمة الذي هو اليوم مستشفى الدكتور علي الصباغ)، تلاه في العام 1981 مستشفى غندور (مركز عبد الحميد غندور الطبي)، واستمر تأسيس هذا النوع من المستشفيات حتى العام 2003 عندما بدأ بالعمل مستشفى الشيخ راغب حرب.
- بالنسبة لحجم المستشفيات (البناء وعدد الغرف) فقد تراوح عدد الغرف في المستشفيات بين 42 غرفة (مستشفى الشهيد صلاح غندور)، و118 غرفة مستشفى النجدة الشعبية النبطية.
- على صعيد إستعاب المستشفيات للمرضى (حسب عدد الأسرَّة) فقد توزَّعت بين 40 سريراً (مستشفى غندور) و126 سريراً مستشفى النجدة الشعبية ويتأثر ذلك بعوامل

عديدة أهمها تجهيزات المستشفى والحالات التي تستقبلها والأقسام التي تستحدثها والحجم و...

- على صعيد الأطباء نلاحظ إنخفاضاً في عدد الأطباء المتفرّغين الذين يعملون بدوام كامل في المستشفى والذين تخصص لهم عيادات خاصة فيها، كما نلاحظ ارتفاعاً في عدد الأطباء المتعاقدين أي الذين يتعاملون مع المستشفى إما بالتعاقد معها وإما بتحويل مرضاهم إليها، وهنا أشير إلى أن أكثرية الأطباء يتعاملون مع أكثر من مستشفى والبعض مع معظم المستشفيات. وقد تراوح عدد الأطباء المتفرغين بين 6 أطباء و13 طبيباً. وعدد الأطباء المتعاقدين بين 59 و217 طبيباً.

- توَزَع المرضون والممرضات في المستشفيات حسب حجم المستشفى واستيعابها للمرضى وعدد الأسرَّة بين 37 ممرضاً وممرضة (مستشفى غندور) و141 ممرضاً وممرضة مستشفى النجدة الشعبية.

- كذلك أظهرت بيانات الجدول توزُّع الموظفين الإداريين الذين يهتمون في تسيير العمل في المستشفيات المدروسة بين 21 موظفاً (مستشفى الدكتور علي الصباغ) و87 موظفاً (مستشفى النجدة الشعبية).

وفيما يلي تفصيل لمعطيات المستشفيات الخاصة في محافظة النبطية بناء على المقابلات التي أجريت مع مديري هذه المستشفيات أو الموظفين المسؤولين بعد موافقة المدير.

1- مستشفى النجدة الشعبية اللبنانية في النبطية «مستشفى حكمت الأمين»:

خلال شهر حزيران 1980، وضع حجر الأساس لبناء المستشفى، وكان الهدف إنشاء مستشفى ميداني من طابق واحد تحت الأرض، يتَّسع لـ 24 سريراً، ويتمتَّع بالحماية اللازمة من أعمال القصف، ذلك أن منطقة النبطية بأكملها كانت خالية من وجود أي مؤسسة صحية رسمية أو خاصة، صالحة لإيواء ومعالجة جرحى القصف المستمر الذي كانت تتعرض له من المواقع والطيران الإسرائيليين .

(المصدر: وزارة الشؤون الإجتماعية وإدارة الإحصاء المركزي وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الدراسة الوطنية للأحوال المعيشية للأسر عام 2004، «المسح المتعدد الأهداف»، بيروت.)

وفي حزيران 1982، إجتاحت إسرائيل المنطقة واحتلتها، وكانت أعمال البناء في المشروع لا تزال في منتصفها. وبدلاً من التوقف إستمرت الأعمال وبوتيرة أعلى، خاصة مع ورود مساعدة من الحكومة الكويتية، التي كان من نتيجتها تطوير المشروع من مستشفى ميداني إلى مستشفى عام، يتَّسع في المرحلة الأولى لـ75 سريراً، وقد تواصل العمل في المشروع حتى في ظل الإحتلال. ورغم المضايقات الكثيرة أنجزت أعمال البناء الأساسية في نهاية عام 1985، بعد ذلك، أي في العام 1989 بدأ المستشفى في إستقبال المرضى .

في العام 1998 بدأ تنفيذ خطة توسيع وتطوير المستشفى، أنجزت هذه الأعمال في نهاية العام 2000، حيث أضيفت أقسام أخرى للمستشفى هي: قسم غسيل الكلى، قسم العناية الفائقة، قسم العلاج الفيزيائي، كما تم تطوير وتحديث تجهيزات مختلف الأقسام، لا سيما قسم المختبر والأشعة، وتم تجهيز المستشفى بجهاز تصوير طبقي، كما تمت إعادة تأهيل مبنى المستشفى من الداخل والخارج وكذلك الطرق المؤدية إليها والحدائق المحيطة بها .

في العام 2015 إفتُتِحت أقسام جديدة في مستشفى النجدة الشعبية – النبطية، وهي «قسم تمييل القلب والشرايين»، «قسم تفتيت الحصى»،»قسم العناية القلبية»، «قسم الرنين المغناطيسي والتصوير الطبقي المحوري»، «وقسم الطوارىء» بعد التوسعة وإعادة التأهيل.

بعد التعديلات التي طالت المستشفى، والأقسام الجديدة التي تم إفتتاحها، أصبح عدد الأسرَّة فيها 126 سريراً، وبات بإمكانها إستيعاب عدد أكبر من المرضى.

يدير شؤون المستشفى : – 87 موظفاً إدارياً.

- 141 ممرضاً وممرضة.
- 217 طبيباً وطبيبة، بينهم 13 متفرغاً في المستشفى، والآخرون يتعاملون معها، ويتابعون مرضاهم فيها، ويغطون الإختصاصات كافة.

2- مستشفى الدكتور علي الصباغ (الحكمة سابقاً):

- تأسست عام 1980.
- البناء:
  - عدد الطوابق 3 طوابق.
  - عدد الغرف 48 غرفة.
  - عدد الأسرَّة تراوح بين 68 سريراً في العام 1982، و35 سريراً حالياً.
- الأطباء:
  - عدد الأطباء المتفرغين 6 أطباء.
  - عـدد الأطبـاء المتعاقديـن والمتعاملـين مـع المستشـفى 118 طبيبـاً يغطـون كل الإختصاصـات.
- الممرضون والممرضات:
  - تـراوح عـدد الممرضـين والممرضـات في المستشـفى بـين 64 ممرضـاً وممرضـة في الثمانينـات و18 ممرضـاً وممرضـة حاليـاً.
- الموظفون:
  - عـدد الموظفـين العاملـين حاليـاً في مستشـفى الحكمـة بلـغ 36 موظفـاً وموظفـة.
- الأقسام: تتوزَّع الأقسام في مستشفى الحكمة على الشكل التالي:
  - قسم الطوارىء.
  - قسم الصحة العامة والإستشفاء.
  - قسم الجراحة العامة.
  - القسم النسائي والتوليد.
  - قسم المختبر والأشعة والعلاج الفيزيائي.

مركـز عبـد الحميـد الطبـي (مستشـفى غنـدور): النبطيـة الفوقـا عـلى بعـد 2 كلـم مـن النبطيـة التحتـا:

- تأسس عام 1981 من قبل الإخوة:
  - د. أحمد غندور.
  - د. عادل غندور.
  - د. علي غندور.
  - المهندس عزت غندور.
  - والمرحومين د. توفيق ود. محمد غندور.

- البناء:
  - عدد الطوابق 4 من ضمنها الطابق الأرضي.
  - عدد الغرف 54 غرفة.
  - عدد الأسرَّة 40 سريراً.
- الأطباء:
  - عدد الأطباء المتفرغين في المستشفى 7 أطباء.
  - عـدد الأطبـاء المتعاقديـن مـع المستشـفى والذيـن يتابعـون مرضاهـم ضمنهـا 83 طبيبـاً يغطـون جميـع الإختصاصـات.
- الممرضون والممرضات:
  - بلـغ عـدد الممرضـون والممرضـات الذيـن يعملـون في المستشـفى ويغطـون خدمـات المـرضى عـلى مـدى الــ 24 سـاعة، 37 ممرضـاً وممرضة.
- الموظفون الإداريون:
  - في المستشفى 26 موظفاً وموظفة.
- أقسام المستشفى:
  - قسم الصحة العامة.
  - قسم الأطفال والنساء.
  - قسم الجراحة العامة.
  - قسم الطوارىء.
  - قسم التغذية والعلاج الفيزيائي.
  - قسم المختبر والأشعة.

3- مستشفى الشيخ راغب حرب: منطقة تول (ضاحية النبطية):

- تأسست عام 2003.
- البناء:
  - عدد الطوابق 3 طوابق.
  - عدد الغرف 72 غرفة.
  - عدد الأسرَّة: 115 سريراً حالياً.
- الأطباء:
  - عدد الأطباء المتفرغين 13 طبيباً.
  - عـدد الأطبـاء المتعاقديـن والمتعاملـين مـع المستشـفى 178 طبيبـاً يغطـون كل الإختصاصـات.
- الممرضون والممرضات:
  - بلـغ عـدد الممرضـين والممرضـات في المستشـفى143 ممرضـاً وممرضـة (تجدر

الإشـارة إلى وجـود معهـد تخريـج ممرضـين وممرضات خـاص بالمستشـفى).

- الموظفون:
  - عدد الموظفين العاملين في المستشفى بلغ 81 موظفاً وموظفة.
- الأقسـام: تتـوزَّع الأقسـام في مستشـفى الشـيخ راغـب حـرب عـلى الشـكل التـالي:
  - قسم الطوارىء.
  - قسم الصحة العامة والإستشفاء.
  - قسم الجراحة العامة.
  - القسم النسائي والتوليد.
  - قسم الأطفال.
  - قسم العناية المركَّزة.
  - قسم القلب والشرايين.
  - قسم الجراحة اليومية.
  - قسم المختبر والأشعة والعلاج الفيزيائي.

4- مستشفى الشهيد صلاح عندور: (مستشفى بنت جبيل سابقاً):

تـم بـدء العمـل في المستشـفى واقتـصر عـلى الطـوارئ بشـكل أسـاسي، إضافـة إلى الأشـعة وعيـادات الإختصـاص والصيدليـة والمختـبر وكل الخدمـات، بعـد التحريـر (عـام 2000)، وكذلـك الأدويـة التـي قدمـت مجانـاً، وبلـغ عـدد الحـالات خـلال أسـبوع واحـد بعـد التحريـر (أي منـذ 5-23 الى 5-30) 994 مريضـاً، ووحـدات الـدواء 1892 وحـدة، أمـا بالنسـبة للأطبـاء فـان متوسـط عددهـم بلـغ 4 أطبـاء إضافـة إلى جـراح وطبيـب صحـة عامـة، أمـا الـكادر التمريـضي فقـد بلـغ 10 متطوعـين في وقـت واحـد، والطاقـم الإداري والفنـي بلـغ 23 شـخصاً بـما فيهـم موظـف الأشـعة والمختـبر والصيانـة.

وفي العـام 2001 تقدمـت الجمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة بمبـادرة لتطويـر وتجهيـز المستشـفى، حيـث تضمـن المـشروع إضافـة بنـاء جديـد بغيـة توسـيع المستشـفى، وشراء تجهيـزات جديـدة ومتطـورة، وتـم الإفتتـاح بشـكل رسـمي في الذكـرى السـنوية الثانيـة لتحريـر الجنـوب، وأصبحـت مستشـفى الشـهيد صـلاح غنـدور تتسـع ل 42 مريضـاً، وتحتـوي الأقسـام التاليـة : الطـوارئ – العمليـات – التوليـد – التصويـر الإشـعاعي والمحـوري الطبقـي – العيـادات– الجراحـة – الإستشـفاء – المختـبر – الصيدليـة.

لم يتوقف المستشفى طيلة عملية التأهيل عن تقديم خدماته في الأقسام كافة.

بعـد بضـع سـنوات عـلى التحريـر تعتـبر مستشـفى الشـهيد صـلاح غنـدور المستشـفى الوحيـد في المنطقـة، لـذا وضعـت إدارة الهيئـة الصحيـة الإسـلامية خططـاً مدروسـة لتحسـين أدائهـا، وذلـك كـون المستشـفى عانـت منـذ انطلاقتهـا الإربـاك وعـدم وضـوح في المصـير، أضـف إلى ذلـك حداثـة الخـبرات الإداريـة الموجـودة، والضعـف النسـبي في القـدرات الفنيـة، وصعوبـة إيجـاد أفـراد مـن ذوي الخـبرة والكفـاءة في شـتى المجـالات، نظـراً للظـروف الصعبـة التـي عانـت منهـا المنطقـة.

حاليـاً انتقلـت المستشـفى إلى المرحلـة الأكثـر جديـة والتـي ترتبـط بالتخطيـط وتثبيـت الموازنـة المقترحـة لهـا، والتـي ترتكـز بشـكل أسـاسي عـلى ضرورة إحـداث التغيـير الداخـلي، وتطويـر وتفعيـل التواصـل مـع المحيـط.

تضـم المستشـفى 42 سريـراً، يعمـل داخلهـا 70 طبيبـاً و65 موظفـاً. أقسـامها: المختـبر – الأشـعة – بنـك الـدم –الصيدليـة – العيـادات الخارجيـة – العمليـات – التصويـر الطبقـي المحـوري.

وتسـتقبل حـالات الطـوارئ كافـة، بحيـث يعتمـد عليهـا أبنـاء المنطقـة لأن أقـرب مستشـفى لهـم مـن جهـة الجنـوب في مدينـة صـور، أمـا مـن جهـة الـشرق فمستشـفى مرجعيـون التـي تبعـد 50 كلـم.

هـذا ويـروي العاملـون في المستشـفى أنهـا في حـرب تمـوز 2006 بقيـت تعمـل بـما تيسر لهـا مـن

طاقة حتى الأسبوع الرابع من الحرب، حيث تم استقبال مئات الجرحى، فكان يتم تضميد جراحهم ومن ثم تحويلهم إلى المستشفيات الأخرى وقد وصل جيش العدو الإسرائيلي إلى مسافة تقرب حوالي 200 متراً من المستشفى، وبقيت تعمل، بتعاون بعض العاملين مع مدير المستشفى، فكانوا يناوبون في مبنى قريب منها، وكانوا كلما جاءت حالة صحية إلى المستشفى يهرعون إلى استقبالها، وتقديم الخدمات المتوفرة عندهم. علماً أنه حصل قصف مدمر لمحيط المستشفى، وتضرر جزء كبير من أجنحتها.

6- مستشفى الجنوب: في ساحة النبطية وقد تحولت إلى مركز للعناية الصحية والنفسية، يتبع للهيئة الصحية الإسلامية.

جدول رقم (3): توزع المستشفيات الحكومية في محافظة النبطية

الرقم	اسم المستشفى	مكان المستشفى وتاريخ بدء العمل فيها	عدد الغرف	عدد الأسرَّة	عدد الأطباء	عدد الممرضين والممرضات	عدد العاملين
1	مستشفى نبيه بري الجامعي الحكومي (مستشفى النبطية الحكومي)	مدينة النبطية 1996	98	100	12 متفرغاً 75 دوام جزئي 81 متعاقداً	132	91
2	مستشفى مرجعيون الحكومي	بلدة مرجعيون 2000	38	52	7 متفرغين 72 متعاقداً	46	43
3	مستشفى تبنين الحكومي	بلدة تبنين 2008	42	60	8 متفرغين 47 متعاقداً	49	52
4	مستشفى بنت جبيل الحكومي	بلدة بنت جبيل 2010	65	67	10 متفرغين 160 متعاقداً	90	45
5	مستشفى ميس الحكومي	بلدة ميس الجبل 2001	45	60	7 متفرغين 54 متعاقداً	56	27

المصدر : المقابلات

تدل بيانات الجدول رقم (3) على المعطيات التالية:

- بدأت الحكومات اللبنانية المتعاقبة بالتفكير في صحة المواطنين الجنوبيين في محافظة النبطية، الذين صمدوا في وجه الإعتداءات الإسرائيلية من قصف واحتلال، وذهب خلالها الشهداء وسقط الجرحى، وارتفعت وتيرة الأمراض... فتم إفتتاح أول مستشفى حكومي في المحافظة في العام 1996 (مستشفى النبطية الحكومي والذي

يطلق عليه حالياً مستشفى نبيه بري الحكومي الجامعي)، وتتالى إفتتاح مستشفيات حكومية في المنطقة وكان في نهايتها حسب الجدول عام 2010 (مستشفى بنت جبيل الحكومي).

- على صعيد البناء توزعت الغرف المستخدمة في المستشفيات حسب الجدول أعلاه بين 38 غرفة (مستشفى مرجعيون)، و98 غرفة (مستشفى النبطية الحكومي).
- الأسرَّة في هذه المستشفيات توزعت بين 52 سريراً (مستشفى مرجعيون)، و100 سرير (مستشفى النبطية الحكومي).
- كباقي المستشفيات ينخفض عدد الأطباء المتفرغين (الموظفين الدائمين)، ويرتفع عدد الأطباء المتعاقدين. وقد تراوح الصنف الأول بين 7 متفرغين (مرجعيون الحكومي وميس الحكومي) و12 متفرغاً (النبطية الحكومي)، وتراوح عدد المتعاقدين بين 47 (تبنين الحكومي)، و156 طبيباً (النبطية الحكومي).
- توزع المرضون والمرضات بين 46 ممرضاً وممرضة (مستشفى مرجعيون الحكومي)، و132 ممرضاً وممرضة (مستشفى النبطية الحكومي).
- يرتفع عدد الموظفين الإداريين في المستشفيات الحكومية متأثراً بالمحسوبيات وقوى الأمر الواقع وعوامل عديدة أخرى، بحيث بتنا أمام رؤية تسمح بأن نميِّز بأن الموظفين في هذا المستشفى أو ذاك ينتمون الى هذا الفريق السياسي أو ذاك أيضاً. هذا ينطبق كذلك على الأطباء والممرضين والممرضات. وقد تراوح عدد الإداريين بين 27 موظفاً (مستشفى ميس الجبل الحكومي)، و91 موظفاً (النبطية الحكومي).

فيما يلي تفصيل لمعطيات المستشفيات الحكومية في محافظة النبطية.

1- مستشفى نبيه برّي الجامعي الحكومي (مستشفى النبطية الحكومي):

تأسَّس مستشفى النبطية الحكومي عام 1996 بتمويل من الصندوق الكويتي للتنمية الإقتصادية العربية، وجرى إفتتاحه عام 1998. وهو يتألف من ثلاث طبقات، وتم بناؤه على قطعة أرض من حرج تلة العسكر في النبطية وتبلغ مساحته الإجمالية حوالى 20 دونماً، وتتوزع أقسامه الطبية على الشكل التالي: الطب الداخلي بإختصاصاته كافة، الجراحة بإختصاصاتها كافة، التوليد والجراحة النسائية، الأطفال، العناية الفائقة القلبية CCU، العناية المركزية ICU، العناية بالأطفال الحديثي الولادة، العمليات، الطوارئ، غسل الكلى، التنظير، العلاج الفيزيائي، العيادات الخارجية، المختبرات وبنك الدم، الأشعة والرنين المغناطيسي MRI، التصوير الطبقي بواسطة البوزيترون PET – CT، الصيدلية والتغذية.

أما الأقسام التي تم بناؤها وتجهيزها حديثاً فهي: قسم العيون، وحدة تخطيط الدِّماغ، مركز الحروق، إضافة إلى مركز الأمراض السرطانية الذي يتألف من أربع طبقات بمساحة 700 متر مربع لكل طبقة، وهو يحتوي الأقسام التالية: الأورام عند الأطفال، الإقامة المديدة والعلاج، اليوم الواحد للعلاج الكيميائي، العلاج بالأشعة Radiotherapy الذي لم يجهَّز بالمعدات اللازمة حتى الآن.

يحتوي المستشفى على مئة سرير، ويبلغ عدد المستخدمين فيه على اختلاف وظائفهم 230 موظفاً، فيما عدد الأطباء المتفرغين 12 طبيباً و81 طبيباً بدوام كامل و75 طبيباً بدوام جزئي، وهو متعاقد مع عدد من المؤسسات الضامنة الرسمية والخاصة وشركات التأمين، إضافة إلى وزارة الصحة العامة، الضمان الإجتماعي، قوى الأمن الداخلي، الجيش اللبناني وتعاونية موظفي الدولة.

جرى تجهيز مستشفى النبطية الحكومي بأحدث التجهيزات المتطورة من بينها التصوير المغناطيسي PT-SCAN، التصوير الطبقي بواسطة البوزيترون، وهو الجهاز الوحيد في المستشفيات الحكومية والثاني في لبنان، ومخصَّص لكشف الأورام وانتشارها، كذلك أحدث تجهيزات التخدير والإنعاش والعناية الفائقة والعناية بالمولودين الجدد.

يستقبل المستشفى ما معدَّله حوالي 11 ألف مريض داخلي سنوياً وما يزيد عن 71 ألف حالة خارجية موزَّعة على الأقسام الخارجية من الطوارئ والعيادات والمختبر والأشعة والعلاج الفيزيائي وغيرها، أما العدد الإجمالي الذي أدخل إلى المستشفى منذ افتتاحها فيفوق الـ 120 ألف مريض.

وعلى الرغم من كون المستشفى حكومياً، ويخضع لنظام المؤسسات العامة لجهة الإستقلالية الإدارية والمالية، إلا أن عنوانه واسمه يحمِّله أعباء رعاية المرضى المعوزين وأصحاب الإحتياجات الخاصة، كذلك يتحمَّل المستشفى حسماً معيَّناً للكثيرين من المرضى الذين لا يتمكَّنون من تأمين تكاليف العلاج كافة. وقد استطاع خلال ثلاثة عشر عاماً من بدء العمل بها من المحافظة على توازنه المالي وتطوير نفسه وزيادة الكثير من النواقص والمستلزمات في الأقسام وإعادة تأهيل الأقسام والغرف بعد مرور كل هذا الوقت على استعمالها.

يحتاج المستشفى لتجهيز قسم أمراض وجراحة القلب والقسطرة كذلك 21 غرفة في القسم المذكور لزوم العناية لما بعد الجراحة القلبية، وما قبل، وتجهيز قسم المعالجة بالأشعة السينية Radiotherapy ليصبح المستشفى متكاملاً لجهة إحتوائه على الأقسام المطلوبة كافة...

2- مستشفى مرجعيون الحكومي:

تأسست مستشفى مرجعيون الحكومي عام 2000م ، وبناء المستشفى هو بالاساس فكرة المرحوم الدكتور مخايل شديد، وبجهود وتبرعات ابناء البلدة، وقد شكل هذا المستشفى اهمية صحية في المنطقة.

وقد شهد تطوّرًا لافتاً في السنوات الأخيرة لجهة نوعية الخدمات المقدّمة لأبناء المنطقة، باعتباره كان الصرح الطبّي الوحيد خلال عدوان تمّوز، وقد طوّرت مختلف أقسامه وصولاً الى افتتاح أقسام جديدة بينها قسم عناية الاطفال حديثي الولادة ومختبر لفحص مياه الشفة، وكافة الاقسام الطبية الضرورية ...

وقد اظهرت المعطيات الاحصائية ما يلي :

- بلغ عدد غرف المستشفى 48 غرفة .
- عدد الاسرَّة 52 سريراً
- عدد الاطباء الذين يؤمنون الطبابة و الاستشفاء 7 اطباء متفرغين و 72 طبيباً متعاقداً.
- عدد الممرضات و الممرضين بلغ 46 ممرضاً وممرضة .
- واخيراً بلغ عدد الموظفين والعاملين الذين يغطون العمل الاداري والخدمات و الصيانة43 موظفاً وموظفة .

3- مستشفى تبنين الحكومي:

الاوضاع الصحية المتردية بسبب الاعتداءات الاسرائيلية و مخلفاتها ، وعدم وجود مستشفيات خاصة في المنطقة ، والاوضاع الاقتصادية المتردية للسكان بعد حرب 2006م ...كل هذه الاسباب ساهمت في تأسيس مستشفى تبنين الحكومي في العام 2008 م، الذي ساهم الى جانب غيره من المستشفيات الحكومية في المنطقة الجنوبية (قضائي مرجعيون وبنت جبيل) في تأمين الطبابة للأهالي وايضاً الاستشفاء والجراحة البسيطة و المتوسطة ضمن امكاناتها المتواضعة . وقد اظهرت المقابلة التي اجريت مع مدير المستشفى الاحصاءات التالية :

- بلغ عدد غرف المستشفى 42 غرفة .
- بلغ عدد الاسرَّة التي تسمح باستقبال المرضى 60 سريراً .
- بلغ عدد الاطباء 55 طبيباً بينهم 8 أطباء متفرغين .
- بلغ عدد العاملين في المستشفى 52 عاملاً وعاملة .
- بلغ عدد جهاز التمريض 47 ممرضاً وممرضة .

هذا وتتوزع اقسام المستشفى على الشكل التالي :

- قسم الطوارىء.
- قسم الصحة العامة والإستشفاء.
- قسم الجراحة العامة.
- القسم النسائي والتوليد.
- قسم الأطفال.
- قسم الجراحة اليومية.
- قسم المختبر والأشعة والعلاج الفيزيائي.

4- مستشفى بنت جبيل الحكومي:

تـم افتتاحـه مطلـع كانـون الثـاني 2010، ويعمـل المستشـفى، كـما قـال رئيـس مجلـس إدارتـه، توفيـق فـرج، عـلى اختيـار الـكادر الطبـيّ المتخصِّـص والكفـوء بحكمـة وضمـير حـيّ بعيـداً مـن المحسـوبيات والواسـطات. وأشـار إلى أنّ الحكومـة القطريّـة قامـت بأكثـر ممـا وعـدت بـه لتحقيـق حلـم أبنـاء المنطقـة الحدوديـة، وكان لهـم مستشـفىً مجهَّـزاً بمختلـف أنـواع المعـدَّات الطبيـة. وفي هـذا الإطـار، يـشرح فـرج أنّ القطريـين رمَّمـوا المستشـفى بعـد حـرب تمـوز 2006 وأنشـأوا كل البنـى التحتيَّـة، قبـل أن يجهِّـزوه بأحـدث المعـدات وأكثرهـا تطـوُّراً. وقـد شـمل التجهيـز كل الأقسـام، مـن الطـوارئ إلى العيـادات الخارجيـة، مـروراً بقسـم العنايـة الفائقـة الخـاص بالأطفـال والكبـار، إضافـة إلى أقسـام الأمـراض الداخليـة والعـلاج الكيميائـي والقلـب والجراحـة النسـائية والجراحـات الأخـرى.

هـذا وقـد تـم اسـتحداث قسـم خـاص ومتطـوِّر للعـلاج الفيزيائـي وثـلاث غـرف كبـيرة للعمليـات الجراحيـة، وذلـك بعـد مناقصـة أجرتهـا الحكومـة القطريـة داخـل قطـر، حيـث فاقـت كلفـة المعـدَّات الطبيـة 10 ملايـين دولار أميركـي.

وإذا قُـدِّر للمستشـفى النجـاح، فسـيُغني ذلـك مـرضى المنطقـة عـن الذهـاب إلى مستشـفيات صـور وصيـدا وبـيروت. لانـه ليـس في المنطقـة سـوى مستشـفى الشـهيد صـلاح غنـدور لاسـتقبال الحـالات المرضيَّـة الصعبـة، علـماً بأنـه غـير قـادر عـلى اسـتيعاب عـدد كبـير مـن المـرضى.

أمـا مستشـفى تبنـين الحكومـي، فهـو يسـتقبل فقـط حـالات الطـوارئ، حيـث يُقـدِّم الإسـعافات الأوليـة قبـل إحالـة المـرضى عـلى مستشـفيات أخـرى. يُذكـر أنّ وزارة الصحّـة العامـة أجـرت كشـفاً عـلى المعـدّات والآلات وتأكـدت مـن جودتهـا العاليـة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مستشفى بنت جبيل فتح أبوابه لفترة قصيرة بُعَيد حرب تموز، بهدف معالجة حالات الطوارئ والحالات المستعصية من جراء الحرب. وقد قدمت دولة قطر آنذاك الأدوية والإستشفاء مجاناً.

وقد تبين من خلال البيانات الاحصائية ما يلي:

- بلغ عدد الغرف: 65غرفة
- بلغ عدد الأسرَّة: 67سريراً
- بلغ عدد الأطباء: 170 طبيباً متعاقداً
- بلغ عدد المرضات والمرضين: 90ممرضاً وممرضة
- بلغ عدد الموظفين الاداريين: 45موظفاً

وقد توزَّعت الأقسام الحاليَّة في المستشفى على الشكل التالي:

قسم الصحة العامة (العيادات) – الجراحة العامة – التوليد والجراحة النسائية – الطب الداخلي – الأنف والأذن والحنجرة – العيون العناية الفائقة – العناية القلبية – عناية الأطفال – غسيل الكلى- المختبر – الأشعة – الصيدلة – العلاج الفيزيائي.

5- مستشفى ميس الجبل الحكومي

الظروف الصعبة التي مرَّت بها المنطقة الجنوبية، من معاناة في جميع الميادين، وخاصة الطبيَّة منها، ساعدت في إنشاء مستشفى حكومي في بلدة ميس الجبل في العام 2001، بعد التحرير، ساهمت في تأمين الطبابة والإستشفاء لسكان المنطقة المجاورة. وقد أظهرت البيانات الإحصائية المتعلِّقة بالمستشفى الأرقام التالية:

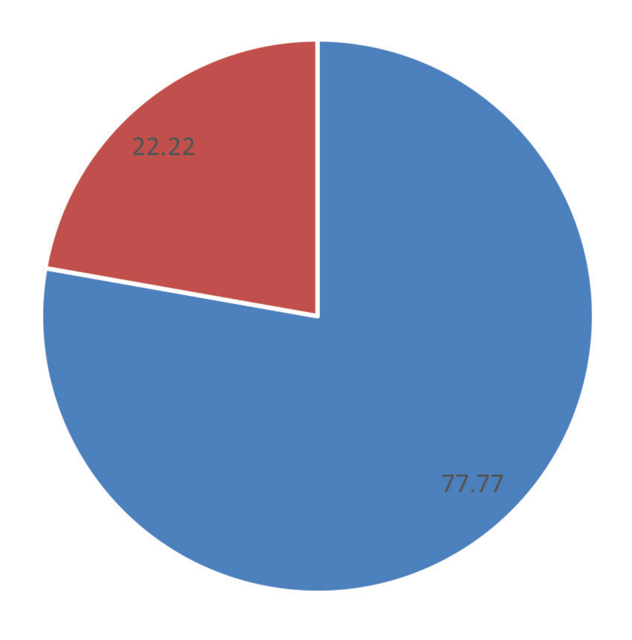
- بلغ عدد الغرف في المستشفى والتي تغطي الأقسام والمكاتب كافة 45 غرفة.
- بلغ عدد الأسرَّة 60 سريراً.
- اما الأطباء الذين يعملون في المستشفى فقد بلغ عددهم 61 طبيباً، بينهم 7 أطباء يتفرغون للعمل الطبي والجراحي في المستشفى، و54 طبيباً متعاقداً.
- كذلك بلغ عدد المرضات والمرضين المتفرغين في المستشفى لتغطية العمل على مدار ال 24 ساعة 56 ممرضاً وممرضة (9 ذكور و47 إناث).
- العاملون الإداريون (الموظفون) الذين يديرون شؤون المستشفى في الميادين كافة بلغ عددهم 17 موظفاً.

تجدر الإشارة إلى أن أقسام المستشفى توزعت على الشكل التالي:

- قسم الطوارىء – قسم الطب العام – قسم الأطفال – قسم الجراحة – قسم التوليد والجراحة النسائية- قسم المختبر – قسم الأشعَّة – قسم الإدارة ويضم أيضاً المحاسبة والدخول.

الفصل الثالث : المستشفيات في محافظة لبنان الجنوبي

توزع الاستشفاء في محافظة لبنان الجنوبي على 14 مستشفى خاص و 4 مستشفيات حكومية



جدول رقم (4): توزع المستشفيات الخاصة في محافظة لبنان الجنوبي

الرقم	إسم المستشفى	المكان وتاريخ بدء العمل فيها	عدد الغرف	عدد الأسرَّة	عدد الأطباء	عدد المرضين والمرضات	عدد العاملين
1	مستشفى حمود	مدينة صيدا 1966	165	180	94 متفرغاً 168 متقاعداً	169	87
2	مستشفى دلاعة	مدينة صيدا 1976	138	117	39 متفرغاً 103 متعاقداً	74	31
3	مركز لبيب الطبي	مدينة صيدا 1954 1974	146	125	48 متفرغاً 122 متعاقداً	164	43
4	مستشفى قصب	صيدا الهلالية	38	46	15 متفرغاً 73 متعاقداً	43	19

5	مستشفى النقيب	صيدا الهلالية 1978 2015	20	43	6 متفرغين 37 متعاقداً	32	15
6	مستشفى عسيران	مدينة صيدا	68	77	70 متفرغاً 33 متعاقداً	45	23
7	مستشفى الهمشري	عين الحلوة 1984	83	66	9 متفرغين 63 متعاقداً	47	21
8	مستشفى الجنوب (شعيب) 1969	مدينة صيدا	55	90	10 متفرغين 27 متعاقداً	46	57
9	مركز الراعي الطبي	الغازية 1984	112	150	17 متفرغاً 61 متعاقداً	53	23
10	مستشفى خروبي	الصرفند					
11	مستشفى علاء الدين	الصرفند 1978	94	100	6 متفرغاً 30 متعاقداً	60	130
12	مستشفى حيرام	مدينة صور 1979	83	100	60 متفرغاً 40 متعاقداً	100	30
13	مستشفى جبل عامل	مدينة صور 1982	125	210	7 متفرغين	190	175
14	مستشفى نجم	مدينة صور 1989	54	42	18 متفرغاً 36 متعاقداً	34	14

المصدر : المقابلات

- المستشفيات الخاصة في محافظة لبنان الجنوبي تأسست إبتداء من العام 1954 (مستشفى أبو ظهر الأول الذي استبدل بمركز لبيب الطبي منذ العام 1974 حتى الآن)، واستمر تأسيس هذا النوع من المستشفيات حتى العام 2015 عندما بدأ العمل من جديد بمستشفى النقيب الذي كان سابقاً مستشفى روبير عبود.
- بالنسبة لحجم المستشفيات (البناء وعدد الغرف) فقد تراوح عدد الغرف في المستشفيات بين 20 غرفة (مستشفى قصب)، و146 غرفة مستشفى حمود الجامعي.

- على صعيد إستعاب المستشفيات للمرضى (حسب عدد الأسرَّة) فقد توزعت بين 42 سريراً (مستشفى نجم) و180 سريراً (مستشفى حمود) ويتأثر ذلك بعوامل عديدة أهمها تجهيزات المستشفى والحالات التي تستقبلها والأقسام التي تستحدثها والحجم و...

- على صعيد الأطباء نلاحظ انخفاضاً في عدد الأطباء المتفرغين الذين يعملون بدوام كامل في المستشفى والذين تُخصَّص لهم عيادات خاصة فيها، كما نلاحظ إرتفاعاً في عدد الأطباء المتعاقدين أي الذين يتعاملون مع المستشفى إما بالتعاقد معها، وإما بتحويل مرضاهم إليها، وهنا أشير إلى أن أكثرية الأطباء يتعاملون مع أكثر من مستشفى والبعض مع معظم المستشفيات. وقد تراوح عدد الأطباء المتفرغين بين 6 أطباء و94 طبيباً. وعدد الأطباء المتعاقدين بين 27 و168 طبيباً.

- توزع الممرضون والممرضات في المستشفيات حسب حجم المستشفى واستيعابها للمرضى وعدد الأسرَّة بين 32 ممرضاً وممرضة (مستشفى النقيب) و169 ممرضاً وممرضة مستشفى حمود الجامعي.

- كذلك أظهرت بيانات الجدول توزُّع الموظفين الإداريين الذين يهتمون في تسيير العمل في المستشفيات المدروسة بين 14 موظفاً (مستشفى نجم) و87 موظفاً (مستشفى حمود).

تفصيل مستشفيات محافظة لبنان الجنوبي
(من خلال المقابلات الميدانية)

1- مستشفى حمود:

تأسس مستشفى غسان حمود سنة 1966، برأسمال بسيط للغاية، وكانت عبارة عن طابقين ولم يكن يوجد فيها مصعداً كهربائياً، وقد ضمت آنذاك غرفة عمليات واحدة، وغرفة توليد واحدة، وغرفة أشعة واحدة، وطبيب واحد هو الدكتور غسان حمود، الذي كان هدفه دائماً أن ينضم إليه أطباء من كافة الإختصاصات، لأنه لا يمكن الإستمرار بمجهود شخص واحد.

منذ عام 1966 حتى 1969 كانت المستشفى تحوِّل العمليات الصعبة إلى بيروت، لعدم وجود طبيب بنج مختص، ود. حمود لا يعطي البنج لأن هناك أطباء متخصصين في هذا المجال. بعد تدهور الوضع الأمني في لبنان، صمم د. حمود أن يوسع نشاط المستشفى لصعوبة تحويل المرضى إلى بيروت في تلك الظروف الأمنية. فبدأ بتوسيع المستشفى وقدراتها خطوة خطوة، إبتداءً بتركيب المصعد الكهربائي وزيادة المبنى أربع طوابق.

في سنة 1982، حصل الإجتياح الإسرائيلي، وقطعت الطرقات كافة، مما زاد الدكتور حمود تصميماً في الإتكال على النفس، وقرر ضرورة تأمين أطباء من الإختصاصات كافة في المستشفى. وإستحدث في هذا العام قسم لغسيل الكلى، لاستحالة ذهاب المريض الى بيروت، في ظل الظروف الأمنية الصعبة في تلك الأيام، لإجراء غسيل. سافر الدكتور حمود إلى ألمانيا حيث مارس مهنة الطب في بداية حياته ليطلب المساعدة في هذا الموضوع، واجتمع مع العديد من الأطباء وطرح مشكلة غسيل الكلى في المستشفى، فكان الرد إيجابياً بمساعدته، ولكن حينها لم يكن يملك المال، ورغم ذلك، تمَّت الموافقة على مساعدته على أن يسدِّد المصاريف لاحقاً وبالتقسيط لأنه كان معروفاً هناك.

وبدأ العمل في قسم غسيل الكلى حتى كان المرضى يقصدونه من الشريط الحدودي والآن تم تطوير مركز غسيل الكلى وأصبح الأهم في لبنان. ولقد أُجري عمليات زراعة كلى حيث أخذت من مريض على حافة الموت وطبعاً بموافقة الأهل، إلى مريض بحاجة إلى كلى سليمة وكانت ناجحة. ومستشفى غسان حمود تعتبر اليوم من أكبر مراكز زراعة الكلى في لبنان. بعد ذلك وُلد قسم جراحة القلب وعمره حتى الآن 14 عاماً، وقد تبرع الطبيب مجدي يعقوب بإجراء 17 عملية لأطفال حديثي الولادة ذوي العاهات القلبية ولفترة أسبوع.

حالياً أصبح مستشفى حمود مستشفىً أكاديمياً جامعياً، يخرِّج أطباء في الإختصاصات كافة، وفترة التخصُّص تكون من ثلاث سنوات حتى سبع سنوات، ومعظم الأطباء الذين يتخرجون من المستشفى الجامعي يتلقّون طلبات للعمل في الخارج. المستشفى يحتوي على 93 طبيباً وبإختصاصات مختلفة، وهم جميعهم على مستوى عالٍ في عالم الطب.

في المستشفى أربعة مراكز عناية فائقة، مركز جراحة القلب، ومركز لحديثي الولادة وللأطفال، ومركز لمريض القلب (بحالة ذبحة – ضغط ...)، ومركز لحوادث مختلفة (نزيف في الرأس...)، ويوجد أطباء مفرزون للعناية الفائقة بشكل خاص.
حالياً المعطيات الإحصائية في المستشفى تشير إلى المعطيات التالية:

- عدد الغرف 165 غرفة.
- عدد الأسرَّة 180 سريراً.
- عدد الأطباء 262 طبيباً يتوزعون بين 94 متفرغاً و168 متعاقداً.
- عدد الممرضات والممرضين، الذين يؤمنون العمل على مدار 24 ساعة، بلغ 169 ممرضاً وممرضة.
- عدد الموظفين العاملين في المستشفى 87 موظفاً.

2- مستشفى دلاعة:

بدأ مستشفى دلاعة إستقبال مرضاه مع بداية عام 1979 بافتتاح (50) سريراً، ضمن بناء مؤلف من خمسة طوابق ومقتصراً على الأقسام التالية:

- قسم الجراحة النسائية والتوليد والعقم – قسم العناية الفائقة – قسم المختبر وقسم الأشعة .

لقد تأثَّر المستشفى بالإجتياح الإسرائيلي عام 1982 حيث نال نصيبه من الأضرار عندما قصف الطيران محيطه. وبعد الإجتياح تم البدء بتأهيل وتكملة البناء بحيث أصبح عشرة طوابق تضم الآن معظم الإختصاصات الطبية والجراحية:

- الجراحة العامة والجراحة التنظيرية – الجراحة النسائية – جراحة الأعصاب – جراحة العظم – غسيل كلى – الجراحة بواسطة الليزر.

وتابعت المستشفى إفتتاح أقسام طبية جديدة، واستقدام المهارات الطبية، والكفاءات التمريضية، ومواكبة التطورات التقنية والتقدُّم العلمي المتسارع.

ضم المستشفى:

- قسم عناية فائقة يضم 8 أسرَّة ومجهَّز تجهيزاً كاملاً (تمت توسعته مؤخراً وهو يضم أحدث التجهيزات الطبية).

- قسم عناية فائقة للأطفال ويضم أحدث الأجهزة للعناية بالمواليد الجدد.
- قسم للأشعة يضم مركزاً للتصوير بالرنين المغناطيسي وفق أحدث الطرق Open MRI وجهاز تصوير رباعي الأبعاد (الأول في لبنان).
- وتضم المستشفى قسم ولادة متطور جداً خاصة وأنه القسم الأساسي والأول في المستشفى بإدارة مجموعة كبيرة من الأطباء المهرة.
- قسم معالجة أمراض الكلية بواسطة الكلية الإصطناعية باشر عمله منذ عام 1986.

بالنسبة للمعطيات الإحصائية الحالية فقد تم رصدها على الشكل التالي:

- عدد الغرف 138 غرفة.
- عدد الأسرَّة 117 سريراً .
- عدد الأطباء 142 طبيباً بينهم 39 متفرغاً.
- عدد المرضين والمرضات 74 ممرضاً وممرضة.
- عدد الموظفين 31 موظفاً إدارياً.

3- مركز لبيب الطبي:

أسَّس الدكتور لبيب أبو ظهر أول مستشفى له في شارع الجمرك قرب البحر أسماه «المستشفى الأهلي» (1954 – 1974)، وقد صدر قرار عن وزير السياحة في 24 تموز 1972م باعتبار «المستشفى الأهلي» قرب القلعة البحرية خاصة الدكتور لبيب أبو ظهر ضمن الأبنية الأثرية العامة.

أسَّس الدكتور أبو ظهر مركز لبيب الطبي في حي أبو ظهر في العام 1974. وكان عدد أسرَّة المستشفى آنذاك 52 سريراً، وارتفعت لتصل حالياً إلى 125 سريراً.

توزَّعت التخصُّصات في مركز لبيب الطبي وشملت:

- التخدير – جراحة القلب – طب القلب – جراحة القولون والمستقيم – عناية حرجة – طب الأمراض الجلدية – قسم الطوارئ – علم الغدد – الأنف والأذن والحنجرة – الجراحة العامة – طب النساء – مبحث الدم – الأمراض المعدية – غسيل الكلى – المختبر – جراحة الوجه والفكين – حديثي الولادة – طب الكلى – جراحة الأعصاب – طب التوليد – علم الأورام – طب العيون – جراحة العظام – طب الأطفال – الجراحة التجميلية – طب إشعاعي – الروماتيزم – جراحة الصدر – علم أمراض المسالك البولية – جراحة الأوعية الدموية.

وتُقدَّم في المستشفى خدمات المرضى التالية:

- قسطرة القلب - رسم القلب القلبي - الأشعة المقطعية - Doppler Echography - مختبر - تفتيت الحصى - التصوير الشعاعي للثدي - التصوير بالرنين المغناطيسي (MRI) - العيادات الخارجية - بانوراما الأشعة السينية - طب إشعاعي.

- بلغ عدد أسرَّة الجراحة 38 سريراً، وعدد أسرَّة الأطفال 8 أسرَّة، وكذلك عدد أسرَّة الطب 31 سريراً، وأيضاً عدد أسرَّة الطوارىء 20 سريراً.
- بلغ عدد الأطباء بدوام كامل في المستشفى 39 طبيباً متفرغاً و103 أطباء متعاقدين.
- بلغ عدد الممرضين والممرضات بدوام كامل 164 ممرضاً وممرضة.
- كذلك بلغ عدد العاملين في المستشفى 64 عاملاً وعاملة.

4- مستشفى قصب:

كانت مختصَّة بمعالجة الأطفال وبالأعمال الجراحية المتعلقة بهم. ولكن ما لبثت أن تحولت الى مستشفى عام يستقبل كافة الحالات العلاجية وكافة الجراحات المتوسطة.

أشارت الإحصاءات التي تم الحصول عليها الى المعطيات التالية:

- بلغ عدد الغرف في مستشفى قصب 55 غرفة تتوزَّع على كافة الأقسام.
- بلغ عدد الأسرَّة في المستشفى 46 سريراً تتوزع كما يلي:
  - عدد أسرَّة الجراحة: 6 أسرَّة
  - عدد أسرَّة الأطفال: 18 سريراً
  - عدد أسرَّة الطب 6 أسرَّة
  - عدد أسرَّة الNYGB 21 سريراً
  - عدد أسرَّة الطوارئ 4 أسرَّة
- كما بلغ عدد الأطباءالذين يؤمنون الطبابة والإستشفاء في مستشفى قصب 85 طبيباً، يتوزعون بين: 51 طبيباً يعملون بدوام كامل، و34 طبيباً متعاقداً.
- وبلغ عدد الممرضين والممرضات 34 ممرضاً وممرضة.
- يدير العمل في المستشفى 31 موظفاً إدارياً.

5- مستشفى النقيب : لم تتجاوب المستشفى في إعطاء معلومات

6- مستشفى عسيران:

مستشفى عسيران من المستشفيات القديمة في مدينة صيدا، وقد انتقلت ملكيتها الى الدكتور بشير شام وأصبحت مستشفى تخصصياً لأمراض وجراحة القلب تحت إسم

المستشـفى الأوروبي لجراحـة القلـب. ولكـن بسـبب الأوضـاع المالية لم تسـتطيع أن تسـتمر، وغـرق الدكتـور شـام بالديـون، ممـا اضطـره الى بيـع المستشـفى منـذ بضعـة سـنوات إلى الدكتـور ماهـر حمـزة الـذي حوَّلها الى مستشـفى نسـائي ومـن ثـم الى مستشـفى عـام يسـتقبل جميـع الحالات المرضيـة والجراحـات المتوسـطة.

المقابلة التي اجريت مع مدير المستشفى أظهرت البيانات التالية:

- توزعت أسرَّة المستشفى والتي بلغت 74 سريراً بين:
  - عدد أسرَّة الجراحة 16 سريراً
  - عدد أسرَّة الأطفال 16 سريراً
  - عدد أسرَّة الطب 25 سريراً
  - عدد أسرَّة الـBGYN 10 أسرَة
  - عدد أسرَّة الطوارىء 10 أسرَة
- بلغ عدد الأطباء بدوام كامل 7 أطباء والمتعاقدين 33 طبيباً.
- بلغ عدد الممرضات والممرضين بدوام كامل 45 ممرضاً وممرضة.
- يدير الشؤون الإدارية 23 موظفاً.

7- مستشفى الهمشري:

يتألف مستشفى الهمشري من ثلاثة طوابق ورابع أرضي وخامس تحت الأرضي:

- الدور تحت الأرضي: وفيه أقسام العمليات، والأشعة، والمختبر، والتعقيم المركزي.
- الـدور الأرضي: وفيـه القسـم الإداري للمستشـفى، والطـوارئ، وقسـم غسـيل الغيـارات للمستشـفى، والمطبـخ.
- الـدور الأول: وفيـه العيـادات الخارجيـة بمختلـف التخصُّصـات في مقابـل قسـم الأطفـال والحاضنـات، والأطفـال حديثـي الـولادة، وقسـم الإنعـاش (العنايـة المركـزة).
- الدور الثاني: وفيه قسم التوليد وقسم الأمراض الداخلية والباطنية.
- الـدور الثالـث: وفيـه قسـم الجراحـة العامـة والجراحـة التخصصيـة وقسـم غسـيل الـكلى. (أمـراض القلـب، أمـراض الضغـط والسـكر).

مستشـفى الهمـشري المركـزي التابعـة لجمعيـة الهـلال الأحمـر الفلسـطيني إقليـم لبنـان تـم بناؤهـا (عـام 1984) في مدينـة صيـدا، لتتَّسـع لـ ''68'' سريـراً، وقـد أقيمـت عـلى مسـاحة إجماليـة تقدَّر(بــ168^{2}م) وتتكـوَّن مـن المبنـى الرئيـسي بالإضافـة إلى أقسـام أخـرى مخصصـة لسـكن الـكادر الطبـي وقاعـة للمحـاضرات والمكتبـة العلميـة، وكذلـك يوجـد مسـتودعات مركزيـة للأدويـة واللـوازم الطبيـة وقـد تـم البـدء بالعمـل في المستشـفى (عـام 1986) وتضـم المستشـفى الأقسـام (العلاجيـة والفنيـة المختلفـة) والتـي تنسـجم مـع كونهـا مستشـفى يعمـل

لخدمة أبناء الشعب الفلسطيني والمجتمع المحلي، ويوجد فيها قسم للطوارئ والإسعاف وتحتوي على «4» أسرّة، بالإضافة إلى غرفة الإنعاش القلبي الرئوي وتحتوي على «3» أسرّة وغرفة الحوادث «3» أسرّة وغرفة عمليات صغرى حيث جهّزت بأحدث الأجهزة الطبية للتعامل مع الحالات الحرجة. ويستقبل قسم الإسعاف والطوارىء بما يقارب «1650» حالة شهرياً أما عن قسم العيادات الخارجية فيستقبل بما يقارب «2000» مريض شهرياً وتجدر الاشارة إلى أن قسم العيادات الخارجية يغطي معظم الإختصاصات الطبية، وقسم الأطفال يتسع لـ «14» سريراً وتبلغ نسبة إنشغال الأسرّة (بنسبة ٪85) شهرياً، أما عن قسم العناية الفائقة فهو مجهز بـ «4» أسرّة ونسبة إنشغاله بنسبة (٪95) شهرياُ، وقسم الباطني يحتوي على «25» سريراً وقسم التوليد يحتوي على «10» أسرّة وقسم الجراحة يحتوي على «16» سريراً، و«3» غرف عمليات رئيسية بالإضافة لغرفة عمليات صغرى.

أهم إنجازات المستشفى لعام 2016 :

أولاً: قسم حديثي الولادة :

يُعدّ قسم حديثي الولادة في مستشفى الهمشري من الأقسام الهامة في المستشفى، حيث تم تحديثه بشكل كامل من خلال تجهيز القسم بجهازي تنفس إصطناعي للأطفال حديثي الولادة، وهذا ما يشكل تطوراً هاماً بشكل كبير لعمل المستشفى، بما تقدمه من خدمات لأبناء الشعب الفلسطيني والمجتمع المحلي، وما يخفف عن كاهل المريض الفلسطيني من التكاليف الباهظة لهذه الخدمة في المشافي الأخرى .

ثانياً: قسم الجراحة :

تطوير قسم الجراحة من الناحية الخدماتية ورفع مستوى العمل الجراحي بحيث أصبحت العمليات الجراحية عبر المنظار. وقد تم تأهيل وتجهيز قسم الجراحة للمرضى بشكل كامل بما يرفع من مستوى الخدمة المقدمة في المستشفى .

ثالثاً: العمليات :

تم تأهيل جميع غرف العمليات بشكل كامل وتحديث العمل الجراحي بحيث أصبحت العمليات الجراحية تجرى بواسطة المنظار .

رابعا: قسم الأطفال :

تأهيل قسم الأطفال بشكل كامل وزيادة عدد الأسرّة من «12» سريراً إلى «16» سريراً.

8- مستشفى الجنوب (شعيب):

- أسَّس الدكتور وهبي شعيب مستشفى الجنوب سنة 1969، وبدأ بتطويرها تباعاً بحيث أصبحت تستقبل عدداً أكبر من المرضى، وتساهم في تأمين الطبابة والإستشفاء والجراحة لهم.
- يتألف البناء من 3 طوابق تحوي 55 غرفة مجهَّزة بـ 90 سريراً.
- بلغ عدد الأطباء في مستشفى الجنوب 37 طبيباً بينهم 10 أطباء متفرغين وعدد الممرضين والممرضات 46 ممرضاً وممرضة.
- بلغ عدد العاملين 57 عاملاً وعاملة.

توزعت الأقسام على الشكل التالي: طوارىء – أشعَّة – تمييل – مختبر وبنك دم – صيدلية – عناية فائقة ومركَّزة – أطفال – جراحة عامة – جراحة نسائية – علاج فيزيائي – الأقسام الخدماتية.

9- مركز الراعي الطبي:

- تأسس هذا المركز عام 1984.
- بلغ عدد الغرف 55 غرفة، وعدد الأسرَّة 150 سريراً موزَّعة على الإختصاصات كافة.
- بلغ عدد الأطباء الذين يتولّون معالجة المرضى 78 طبيباً بينهم 17 طبيباً متفرغاً.
- بلغ عدد أعضاء الجهاز التمريضي 53 ممرضاً وممرضة.
- بلغ عدد العاملين 23 عاملاً وعاملة.

يستقبل المستشفى جميع حالات الإستشفاء والجراحات البسيطة والمتوسطة، ويقدِّم الإسعافات الأولية للجراحات الصعبة ويساعد في نقلها إلى مستشفيات أخرى.

10- مستشفى خروبي: لم تتجاوب ادارة المستشفى في اعطاء معلومات

11- مستشفى علاء الدين:

إن حاجة منطقة الصرفند وجوارها إلى مستشفى يؤمِّن الخدمات الطبية لأبناء قرى قضاء الزهراني دفع بالأخوين الدكتور اسماعيل والدكتور حسن علاء الدين إلى تأسيس مستشفى في العام 1978.

توزعت مواصفاته حالياً على الشكل التالي:

- يتألف البناء من 94 غرفة تضم 166 سريراً.
- بلغ عدد الأطباء 6 أطباء متفرغين و30 طبيباً متعاقداً.
- بلغ عدد الممرضات والممرضين 60 ممرضاً وممرضة.

- بلغ عدد العاملين 60 عاملاً وعاملة.

وقد توزعت أقسامه بين: طوارىء – أشعَّة – تمييل – مختبر وبنك دم – عناية فائقة ومركَّزة – أطفال – جراحة عامة – جراحة نسائية – الأقسام الخدماتية.

12- مستشفى حيرام:

تـم افتتاحهـا في آب1997. تبيّن الاحصـاءات التـي تـم الحصـول عليهـا مـن خـلال مقابلـة مـع مديـر المستشـفى مـا يـلي:

- عدد الأطباء 60 طبيباً أساسياً و40 طبيباً زائراً.
- عدد المرضين والمرضات أكثر من 100 من ذوي الشهادات والخبرات.
- التجهيزات: أحدث الآلات والتجهيزات الطبية.
- البناء 6 طوابق.
- عدد الأسرَّة أكثر من 100 سريراً.

هذا وقد توزَّعت أقسام المستشفى على الشكل التالي:

- قسـم العمليـات وفيـه 5 غـرف، قسـم العنايـة الفائقـة، الطـوارىء، التوليـد، حديثـي الـولادة والأطفـال، طـب داخـلي، جراحـة، عيـادات خارجيـة، الأشـعة والمختـبر. وجديـد المستشـفى قسـم الطـب النفسـي برئاسـة الدكتـور «جـون بيـتر جـبران» وهـو محـاضر في امـيركا. وتـم إضافـة قسـم TRIAGE أي الجـودة، وهدفهـا الأسـاسي تحسـين الجـودة للمستشـفى عـبر التطـور المسـتمر لطريقـة تقديـم وإسـتمرارية جـودة العنايـة الطبيـة، التمريضيـة والخدماتيـة مـع مـا يتوافـق مـع خطـة المستشـفى الإسـتراتيجية.أيضاً هنـاك قسـم سـلامة المريـض، وقسـم الاداء المهنـي لتقديـم خدمـات أفضـل.

مستشـفى «حـيرام» هـي شركـة تتألَّـف مـن 25 شريـكاً متعـددي الإتجاهـات والإنتـماءات والطوائـف، قاسـمهم المشـترك الإرتبـاط بـالأرض والإنسـان.

13- مستشفى جبل عامل:

تأسس مستشفى جبل عامل في العام 1982، وهو عبارة عن بناء كبير يتألف من 125 غرفة مجهَّزة ب 210 أسرَّة، تتيح لهذا المستشفى باستيعاب 210 مرضى.

- بلـغ عـدد الأطبـاء الذيـن يتولّـون الطبابـة والإستشـفاء 60 طبيبـاً، بينهـم 7 متفرغـين و53 متعاقـداً.
- بلغ عدد المرضين والمرضات 190 ممرضاً وممرضة.

- بلغ عدد العاملين 175 عاملاً.

يستقبل هذا المستشفى جميع حالات الطبابة والإستشفاء المتوسط، وقد توزعت أقسامه كما يلي:

- الطوارىء – التوليد والجراحة النسائية – الأطفال – الطبابة والصحة العامة – الأشعة – المختبر وبنك الدم – الجراحة العامة – الصحة الغذائية...

14- مستشفى نجم:

وضع المرحوم الحاج محمود نجم، حجر الأساس لمستشفى نجم في صور، عند ما يُعرف بمفرق قانا في منطقة الحوش على طريق عام صور – الناقورة بتاريخ 1/9/1989. وقد لعبت المستشفى دوراً حيوياً في مواجهة المشكلات الصحية للمنطقة لا سيما في عدوان نيسان 1996 ومجزرة قانا الأولى وعدوان تموز 2006. وقد أثيرت الكثير من التساؤلات حول دور وأهمية المستشفى على الصعيد الصحي. مما جعلها تتعرض لرياح كثيرة. لكن يبقى الموضوع الأهم وهو حاجة صور ومنطقتها وأطراف جبل عامل إلى الصروح الصحية وضرورة تفعيلها وزيادة عددها بالمستوى المطلوب لمواجهة جميع الأخطار الصحية الطبيعية والكوارثية.

وحالياً يتردد في أوساط المجتمع الصوري خاصة، والجنوبي عامة، أسئلة كثيرة حول ما يجري التخطيط له لمستشفى نجم. هل ستبقى؟ أم تقفل؟ أم ماذا؟

في الواقع جرت مفاوضات طويلة مع مجموعة من المهتمين ورجال الأعمال لإعادة إستثمار مستشفى نجم. وقد تم الإتفاق مع مجموعة عمل يترأسها رجل الأعمال الجنوبي السيد مكرم جعفر من بلدة يارون الجنوبية، وتحويل المستشفى وفق نظام إدارة حرة تشرف على أعماله تحت عنوان «المستشفى اللبناني – الإيطالي». على أن تبدأ اعمالها من 1/1/2008. وقد آلت الإدارة وجميع المسؤوليات دون استثناء إلى الإدارة الجديدة برئاسة السيد مكرم جعفر الذي بدأ بالتخطيط لمستشفى نموذجية. ومواكبة جميع التطورات العلمية الصحية، وجعله صرحاً أساسياً على مستوى الجنوب. وقد رافق ذلك مع ورشة تحديث كاملة تطال كل المستويات:

- تجهيزات طبية متطورة وحديثة تواكب العصر.
- تأهيل الخدمات الفندقية.
- تطوير الكادر الإداري.
- تطوير الكادر التمريضي.
- إفتتاح أقسام جديدة.

وفيما يتعلق بالأطباء والموظفين سيتم الحفاظ على جميع حقوقهم المالية والمعنوية بالكامل من قبل إدارة مستشفى نجم الحالية وعن دور الأطباء الحاليين قال المصدر سيبقون في

المستشـفى بشـكل طبيعـي.

جدول رقم (5): توزع المستشفيات الحكومية في محافظة لبنان الجنوبي

الرقم	اسم المستشفى	المكان وتاريخ التأسيس	عدد الغرف	عدد الأسرَّة	عدد الأطباء	عدد الممرضين والممرضات	عدد العاملين
1	مستشفى صيدا الحكومي	صيدا حي الامركان 2006	130	128	50 متفرغاً 77 تعاقداً	141	53
2	مستشفى جزين الحكومي	مدينة جزين 1985 1999 2004	32	20	6 متفرغاً 39 متعاقداً	30	15
3	مستشفى صور الحكومي	مدينة صور 2012	93	100	32 متفرغاً 42 متعاقداً	93	74
4	مستشفى قانا الحكومي	بلدة قانا 2012	49	55	11 متفرغاً 28 متعاقداً	37	16

المصدر : المقابلات

1- مستشفى صيدا الحكومي:

على الرغم من إفتتاح مستشفى صيدا الحكومي رسمياً في 11 أيلول 2007، إلا أن العمل بدأ فيها في 1 كانون الأول 2006. لقد بدأ المستشفى بطاقة إستيعابية 30 سريراً متضمنة قسم الطبابة والجراحة، والجراحة النسائية والتوليد، والأطفال بالإضافة إلى قسم تفتيت الحصى (Lithotripsy).

واجه المستشفى صعوبات وتحديات كان أهمها:

- الموقع.
- الفكرة السلبية التي كانت راسخة عند المواطنين عن مستوى المستشفى الحكومي.
- منافسة القطاع الصحي الخاص الذي يعتبر في مدينة صيدا من الأقوى على صعيد لبنا ن.

ونتيجةً للإقبال الشديد على المستشفى زاد عدد الأسرَّة من 30 سريراً إلى 111 سريراً، يضاف إليها 9 أسرَّة عناية فائقة وعناية قلبية، و8 أسرَّة للعناية الفائقة لحديثي الولادة، ليصبح عدد الأسرَّة العاملة في المستشفى 128 سريراً لتلبية حاجات المرضى الفقراء.

في المستشفى عدَّة إختصاصات منها: عناية فائقة - القلب - الأمراض الصدرية - الكلى - جراحة عامة - جراحة تجميلية - طب عائلي - أنف أذن حنجرة.

يتألف مبنى مستشفى صيدا الحكومي من أربعة طوابق:

- الطابق الأرضي ويضم الإستعلامات ومكتب الدخول وقاعة الإنتظار والمكاتب الإداريّة. المختبر والأشعة والصيدليّة (توفر الصيدلية الأدوية لمرضى المعاينات الخارجية المزمنين مجاناً وذلك بالتعاون مع برنامج الرعاية الصحية الأولية (وزارة الصحة العامة) و(جمعية الشبان المسيحية) وقسم تفتيت الحصى والطوارىء وقسم المناظير.
- الطابق الأول ويضم القسم النسائي والتوليد، وقسم الأطفال، وقسم غسيل الكلى.
- الطابق الثاني ويضم قسم الطبابة، وقسم الجراحة، والعناية الفائقة والعناية المركَّزة.
- الطابق السفلي ويضم قسم العمليات الجراحية والتوليد والتعقيم.
- أما قسم العيادات الخارجية فهو في المبنى القديم.

عدد الأطباء بدوام كامل 50 طبيباً، وعدد المتعاقدين 77 طبيباً.

عدد الممرضات والممرضين 141 ممرضاً وممرضة.

هذا ويؤمن العمل في المستشفى 53 موظفاً إدارياً.

2- مستشفى جزين الحكومي:

مستشفى جزين الحكومي، كان في الأصل مدرسة زراعية، ثم تحول الى مستشفى حكومي، نظراً لحاجة قضاء جزين وجزء من الشوف الى مستشفى في هذه المنطقة. ومع ذلك، أقفل أكثر من مرة، وأعيد افتتاحه، كما تحول الى مقر أمني قبل أن يستقر على وضعه الحالي كمستشفى حكومي. إلا أن هذا المستشفى قدَّم لأكثر من 55 قرية في القضاء خدمات طبية لا تحصى، خاصة في زمن الإحتلال الإسرائيلي، وتحديداً عندما الحقت جزين بمنطقة الحزام الأمني التابع لقوات الإحتلال مطلع 1985 عندما سيطرت الميليشيات التابعة له على هذه المنطقة، ولغاية 1999 موعد رحيل هذه القوات عن قضاء جزين.

في عام 1976 وأثناء تواجد القوات العربية السورية في المنطقة في إطار ما كان يعرف بقوات الردع العربية أقفل كمستشفى وتحوَّل الى مركز أمني. وبعد مغادرة القوات السورية وأثناء الغزو الإسرائيلي الى لبنان عام 1982 بقي مقفلاً حتى عام 1985 حيث أعيد افتتاحه بمساهمة من منظمة فرسان مالطا والراهبات اليسوعية، وأنشئت له لجنة دعم أهلية تؤمن إستمرار خدماته الطبية لأهل المنطقة.

هذا المستشفى، ورغم صغر حجمه وضعف إمكانياته وتواضعه، قدَّم طيلة فترة الإحتلال الإسرائيلي خدمات جليلة وكبيرة لأبناء المنطقة برُمَّتها، والتي تحولت في حينه الى حزام أمني لها بوابات عند حدودها تفتح بموعد وتقفل بموعد، وصولاً الى سنة 1999 عام رحيل الإحتلال وميليشياته عن منطقة جزين، خاصة أنه المستشفى الوحيد في كل قضاء جزين، حيث لا مستشفيات خاصة ولا غيرها في هذه المنطقة، ومع ذلك كان يقدم خدمات طبية وجراحية لنحو 55 قرية في هذا القضاء، وأحيانا كان يستقبل مرضى من خارج القضاء من منطقة الشوف تحديداً.

يؤكد رئيس مجلس إدارة مستشفى جزين الحكومي الدكتور بشارة الحجار أنه بالرغم من قلَّة إمكانات المستشفى على صعيد التجهيزات، خاصة أنه يحتوي على 20 سريراً فقط وغرفة عمليات واحدة ومختبر ومعدات طبية عادية، فقد تمكن الطاقم الطبي فيه من إجراء عمليات تعتبر كبيرة. أما العمليات الجراحية النوعية فنجري لأصحابها الإسعافات المطلوبة ونحوِّلها الى المستشفيات المختصة إن في صيدا أو في بيروت.

وأشار كذلك الحجار الى وجود جهاز طبي في المستشفى مع فريق طوارئ على مدار الساعة، مع إختصاصات طبية متكاملة، من جراحة العظم الى الجراحات العامة، مع طاقم إداري مؤلف من 15 موظفاً، وطاقم تمريضي مؤلف من 30 ممرضة. ويعتبر الطاقم مقبولاً، وهو يؤمن الخدمة على مدى الأسبوع بكامله.

كما أكد أنه منذ عام 2005 بدأ مستشفى جزين الحكومي خطوات نوعية مهمة بعد أن تحوَّل الى مؤسسة عامة متعاقدة مع كافة الهيئات والمؤسسات الضامنة، من رسمية وخاصة،

في لبنان، رافضاً تحديد قيمة السقف المالي المقدَّم للمستشفى من قبل وزارة الصحة.

حالياً، أصبح لجزين مستشفى حديث جديد ومتطور وتم إنجاز البناء بكامله بهبة كويتية من البنك الإسلامي للتنمية، وبإشراف مجلس الإنماء والإعمار، وبمساعدة لافتة وحثيثة من نائب جزين سمير عازار، الذي تابع ويتابع ملف المستشفى الجديد بشكل حثيث منذ المباشرة ببنائه عام 1998 لحين إنجاز البناء المؤلف من 3 طبقات ويجاور المبنى القديم، الذي يتصل به بممر كبير. وقد أنجز بناء للمواصفات المطلوبة من قبل وزارة الصحة، ويضم 50 سريراً للمرضى بعد العمليات الجراحية، لكنه لم يفتتح بعد. ولفت الحجار الى أنه يتم حالياً إستدراج عروض من أجل تجهيز المبنى الجديد خلال الأشهر القليلة المقبلة، خاصة أن أموال التجهيزات مؤمنة، علماً أنه يتألف من 4 غرف لعمليات الجراحات المختلفة العامة وللتوليد، و8 أسرَّة للعناية الفائقة، و4 وحدات لغسيل الكلى، إضافة الى أقسام الأطفال والجراحة والطب الداخلي والنسائي وقسم متطور وحديث للتصوير الشعاعي ومختبر حديث أيضاً. وأخيراً ركَّز على حاجة المستشفى الجديد للتعاقد مع 35 طبيباً من مختلف الإختصاصات، و126 ممرضاً وموظفاً من جزين ومنطقتها، وهو الطاقم الذي سيسيّر المستشفى الجديد.

3- مستشفى صور الحكومي:

مستشفى صور الحكومي هو الوحيد في لبنان الذي يديره الجيش منذ عام 1967، عندما قرر مجلس الوزراء أن تدير وزارة الدفاع المستشفيات الحكومية في جنوب الليطاني، عملاً بقانون الطوارئ في المنطقة.

استمر ذلك حتى إستعار الحرب الأهلية عام 1976 ومغادرة الجيش المنطقة، قبل أن يعود إليها عام 1990. وفي 2012، صدر مرسوم جمهوري بإنشاء مؤسسة عامة لإدارة مستشفى صور الحكومي بناءً على إقتراح وزير الصحة حينذاك علي حسن خليل، من دون أن يعيِّن مجلس إدارة له حتى الآن، فبقيت إدارته تابعة لسلطة المؤسسة العسكرية.

القرار المفاجئ بإخلاء الجيش للمستشفى أثار بلبلة في المنطقة، وتوقف مستشفى صور الحكومي عن استقبال المرضى. وزاد الأمور سوءاً أن معاملات الإستشفاء على نفقة وزارة الصحة للمرضى في مستشفيات قضاء صور، تنفذ في هذا المستشفى.

الاتصالات التي أجراها مسؤولون في المنطقة مع قيادة المؤسسة العسكرية ووزارة الصحة، وتنفيذ عدد من الموظفين اعتصاماً أمام ثكنة صور للمطالبة بعودة الجيش، أثمرت تراجعاً عن القرار بعد يومين ليُستأنف العمل على نحو طبيعي. إلا أن أسباب القرار لم تُحسَم. فقد رجحت مصادر مطلعة أن قيادة الجيش سحبت عسكرها من المستشفى، كخطوة إحتجاجية، بسبب «أزمته المالية والتشغيلية».

واللافت أن القرار جاء في فترة شغور منصب المدير العسكري للمستشفى إثر إحالة مديره السابق على التقاعد منذ ثلاثة أشهر. بعده، عيّن أحد العمداء الأطباء رئيساً بالتكليف، إلا أن وزير الصحة رفض التعيين، مطالباً بتكليف رئيس أصيل (موافقة الصحة شرطية) بحسب مصادر من داخل المستشفى. وجود الجيش في المستشفى، بحسب أوساط الموظفين، لا يشكل ضمانة لأمن المبنى والعاملين فيه فحسب، بل صمام أمان لمنع السرقة والهدر بسبب إشرافه الإداري والمالي عليه. إلا أن الأمن والأمان ليسا كافيين لصمود المستشفى الذي لم يشهد تطوراً منذ بدء العمل فيه عام 1961 كمستشفى ريفي يؤمن الرعاية الصحية الأولية بسعة 40 سريراً (صدر مرسوم إنشائه عام 1955). وكانت الخطط الحكومية التي وضعت قبل الحرب قد لحظت تحويل المستشفى من ريفي إلى وسطي وتوسيعه (100 سريراً) لتقديم الخدمات إلى نحو 100 ألف مواطن.

لا تزال المستشفيات الحكومية في لبنان تقبع تحت خط الحاجة إلى أبسط المقومات التي يضمها أي مستشفى ليكون قادراً على تقديم الخدمات اللازمة لمرضاه ولكي يستطيع، على الأقلّ، أن يكسب ثقتهم للتوجُّه إليه والإستفادة من طبابته، فكيف إذا كان هذا المستشفى يعاني اللامبالاة بكل أشكالها على صعيد المعدات والمبنى والغرف والموظفين والرواتب وغيرها، ما يجعل هذه المستشفيات الخيار الأخير للجميع.

هذا وقد دلَّت بيانات المقابلة التي أجريت مع أحد الموظفين الإداريين في المستشفى المعطيات التالية:

- بلغ عدد الغرف في المستشفى 93 غرفة.
- بلغ عدد الأسرَّة 100 سريراً.
- بلغ عدد الأطباء 74 طبيباً بينهم 32 متفرغاً.
- بلغ عدد المرضين والمرضات 93 ممرضاً وممرضة.
- بلغ عدد الموظفين الإداريين والعاملين 74 موظفاً.

4- مستشفى قانا الحكومي:

لقد بدأ العمل في مستشفى قانا الحكومي في العام 2012 لتلبية حاجة المنطقة الصحية ودعم صمود المواطنين في ظل الأوضاع الإقتصادية الصعبة وارتفاع فاتورة العلاج والإستشفاء.

وفي مقابلة مع مدير المستشفى تمكنا من الحصول على الإحصاءات التالية:

- عدد الغرف في المستشفى 49 غرفة.

- عدد الأسرَّة 55 سريراً.
- عدد الأطباء الذين يهتمون بشؤون الطبابة والإستشفاء 39 طبيباً بينهم 11 متفرغاً.
- عدد الممرضين والممرضات الذين يهتمون بأوضاع المرضى على مدى 24 ساعة 37 ممرضاً وممرضة.
- واخيراً بلغ عدد الموظفين الإداريين 16 موظفاً.

بعد هذا العرض لواقع المستشفيات في جبل عامل تبيَّن أن الأسباب التي تُهدِّد المستشفيات في صيدا وصور ومعظم مستشفيات الجنوب (جبل عامل) كثيرة منها:

1- الديون المتراكمة للمستشفيات على الجهات الضامنة كالضمان الإجتماعي ووزارة الصحة وشركات التأمين....

2- إرتفاع أسعار الكهرباء والمحروقات.

3- صيانة الأجهزة وارتفاع أسعار عقود الصيانة السنوية.

4- إرتفاع الفوائد المصرفية.

5- التخلص من النفايات الطبية.

وأن واقع الإستشفاء الحكومي في الجنوب مأساوي، وعلى وزارة الصحة إتخاذ خطوات جادَّة لإحداث تطور في هذه المستشفيات وإمدادها بالأجهزة الطبية الحديثة والأموال لاستكمال العمل.

خاتمة

بالرغـم مـن أن جبـل عامـل، كغـيره مـن المناطـق اللبنانيـة، غنـي بكادراتـه الطبيـة والعلميـة، المتطلعـة دائـماً إلى مواكبـة الحضـارة، والتـي تحـاول تأمـين أحـدث المسـتلزمات الطبيـة. إن في شـكل فـردي للأطبـاء المتخصصـين، أو مـن خـلال المؤسسـات الرسـمية والخاصـة، ومستشـفيات أخـرى عاملـة في هـذا القطـاع والتـي بعضهـا عـلى علاقـة بمنظـمات الأمـم المتحـدة والجمعيـات الدوليـة، إلا أن المواطـن الجنـوبي كـما اللبنـاني يتحمـل في شـكل رئيـسي تكاليـف هـذا التطـور. لأنـه لا يؤخـذ بعـين الإعتبـار مـن قبـل المعنيـين بهـذا الأمـر الفـرق بـين التكاليـف المطلوبـة ومسـتوى الدخـل العـام للمواطـن، مما يحـدث فجـوة كـبرى بـين الكلفـة الموضوعـة والكلفـة المطلوبـة، فـلا يعـود المواطـن قـادراً عـلى تسـديد فاتـورة الإستشـفاء، ناهيـك عـن أعبـاء الحيـاة اليوميـة الأخـرى... ولعـل عـدم وجـود سياسـة صحيـة عامـة تشـمل ليـس فقـط تحسـين الأداء الطبـي، بـل نوعيـة الخدمـات والكلفـة المتوجبـة الموحـدة للفئـة الأكـبر مـن الشـعب اللبنـاني، ليـؤدي إلى الفـارق في تقديـم الخدمـات بـين المؤسسـات الإستشـفائية ذاتهـا أو بـين تقديـمات المؤسسـات الضامنـة، والتـي تلخـص عـلى الشـكل التـالي:

1 – أنواع المؤسسات الإستشفائية:

أ- مستشـفيات تتبـع لـوزارة الصحـة وتتفـاوت الأسـعار بينهـا وبـين الخدمـات المطلوبـة نفسـها.

ب- مستشـفيات تتبـع للقطـاع الخـاص وتضـع كل مستشـفى أسـعار الكلفـة المطلوبـة تبعـاً لتصنيفهـا مـن قبـل وزارة الصحـة العامـة (3، 4، أو 5 نجـوم). (منظمـة الصحـة العالميـة ، التقريـر العالمـي للصحـة ، بـيروت 2006).

2 –أنواع المؤسسات الضامنة:

أ- مؤسسـات رسـمية: - وزارة الصحـة العامـة – تقديـمات الجيـش – طبابـة وإستشـفاء قـوى الأمـن الداخـلي والأمـن العـام وأمـن الدولـة – تعاونيـة موظفـي الدولـة - الضـمان الإجتماعـي.

ومـع أن مصـدر موازنتهـا هـو خزينـة الدولـة باسـتثناء الضـمان الإجتماعـي فهنـاك تفـاوت في الرسـوم التـي يفرضهـا عـلى المسـتفيد.

ب- المؤسسـات الضامنـة الخاصـة تتـوزع عـلى: شركات التأمـين - صناديـق التعاضـد الصحيـة–مؤسسـات خاصـة–النفقـات خاصـة.(ناديـن نور الديـن/ .س ص 137)

ومما لا شـك فيـه أن الإسـتمرار في السياسـة الصحيـة العامـة المتبعـة في لبنـان بشـكل عـام وفي

جبـل عامـل بشـكل خـاص عـلى هـذه المسـيرة، سـيؤدي الى المزيـد مـن العجـز والتدهـور الصحي الـذي ينعكـس بـلا شـك عـلى المواطـن بشـكل مبـاشر نظـراً لعـدم وجـود خطـة عـلى مسـتوى الوطـن لضبـط التكاليـف المتفاوتـة وتوحيـد الفاتـورة الإستشـفائية بشـكل عـادل ونهائـي.

إقتراحات حلول

يجب أن يتم التعامل مع قضية الإستشفاء وصحة المواطن بأسلوب مختلف تماماً عما يجري حالياً، إذ أن التجارة والربح والمصالح الخاصة والهدر الحاصل، طغت على المصلحة العامة وصحة المريض، والمطلوب:

1- أن تناط المسؤوليات الرقابية بمؤسسات شبه خاصة متخصصة في هذه المواضيع، وتوحّد جميع صناديق الإستشفاء، ويُوضع نظام خاص للإستشفاء تشارك فيه الشركات الوطنية والعالمية.

2- الوزير قانوناً هو رأس الهرم الإداري والفني ويُناط به تنفيذ سياسة الوزارة التي تصب في المصلحة العامة. وعليه فإن جميع القرارات الصادرة عنه تكون باقتراح الإدارة المختصة بما في ذلك التي تقع عليها مسؤولية إجراء العمل على الأرض، والتدقيق في الأعمال واقتراح القرارات وعرضها عليه للتوقيع والتنفيذ.

3- الآن وقد أثبتت التجربة العملية أن فريق العمل الموجود في الإدارة فشل وهو متورط مع المستشفيات الخاصة، وبالتالي أصبح غير مؤهل إطلاقاً للقيام بواجباته الوظيفية وبالتالي التصدي لملفات شائكة مثل الإستشفاء والدواء والمساعدات.

4- تأليف لجنة خاصة دائمة لتدقيق فواتير الإستشفاء، على أن تضم مفتشاً مالياً ومفتشاً إدارياً وطبيباً مراقباً ومفتشاً صيدلانياً، وأن يصار الى تغيير هذه اللجنة كل سنة كحد أقصى لأسباب كثيرة. وإذا تعذَّر ذلك، يُصار الى تكليف شركة خاصة بالمحاسبة إجراء التدقيق اللازم. وإذا تعذَّر أيضاً ذلك، يُصار الى تغيير الموظفين الذين يقومون بإجراء المحاسبة على فواتير الإستشفاء مرة كل سنة على أبعد تقدير.

المراجع

1- اميل بيطار، قضية الصحة في لبنان ، دار النهار للنشر ، بيروت 1973

2- حسين حمدان ، الضمان الاجتماعي احكامه وتطبيقاته ، بيروت 2003

3- كمال ديب ، ثمن الدم والدمار ، والتعويضات المستحقة للبنان نتيجة الاعتداءات الاسرائيلية ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، ط1 ، بيروت 2001

4- ميشال كرم ، السياسة الصحية والصندوق الوطني للضمان الاجتماعي ، بيروت 2006

5- نادين نور الدين ، السياسة الصحية في لبنان ، رشاد برس بيروت 2014

6- منظمة الصحة العالمية ، التقرير العالمي للصحة بيروت 2006

7- النجدة الشعبية اللبنانية ، الاوضاع الصحية في لبنان ، 1984

8- كامل مهنا ، الصحة ودور القطاع الاهلي في لبنان ، تجارب خلال الحرب ، مجلة دراسات لبنانية ، 2003

9- Azar souzane la politique de ante au liban deouis 1945 bey-routh 1995

10- مقابلات مع مدراء المستشفيات عينة الدراسة

إنعكاسات الصّدمة النفسيّة المرتبطة بالحرب على الأطفال

(دراسة حالات- جبل عامل «جنوب لبنان» نموذجاً)



د. سلام عبد الكريم شمس الدين

مقدّمة:

شهد جبل عامل عبر تاريخه العديد من الحروب، جراء الإعتداءات الصّهيونية عليه، والتي كان آخرها حرب تموز(2006)، حيث تعرضت المنطقة إلى أحداث مؤلمة تخطّت حدود التجربة الإنسانية، من نزوح و تهجير، وما رافقها من قتل وعنف ودمار وقصف متواصل ليلاً ونهاراً، ومجازر وخطف وتهديد، وفقدت العديد من الثروات ووسائل الإنتاج، وجفّت مصادر الدخل، وتحوّل إقتصاد المنطقة من إقتصاد إكتفائي إلى إقتصاد معونات، وتحّول الناس إلى حياة معسكرات بائسة، والسكن في الملاجئ وما فيها من حياة الذّل والمسكنة والمخاطر والأمراض وتسوّل المنظمات الأجنبية وإنعدام الرؤية والغد المجهول ...

إن هذه الأحداث الصادمة والمتكرّرة، الفجائية والمهدّدة للحياة، وما يرافقها من أعمال عنف وتشرد وفقدان المسكن وتقطّع أوصال الحياة العادية للأسرة، وفواجع الموت المفاجئ والتعرّض للعوز وصعوبات الحياة ومشاعر التهديد، كلها مؤثرات تسبب زعزعة الثّقة وسقوط الطّمأنينة بالوجود وتفاقم الضغوط النفسيّة على المواطنين، وتترك وراءها انعكاسات نفسية مرضية صنفت علميا بإسم: «المتلازمات النفسية التي تعقب التعرّض للشدّة أو إضطرابات ما بعد الضغوط الصّدمية (Post –traumatic stress disorders)،PTSD»[1]، سيما إذا لم يتوفّر لتلك الصدمات السيئة عوامل تصريف وبشكل كاف خاصة في مرحلة الطفولة، فإنها تستمر معهم بقية حياتهم، وتظهر بشكل أعراض

1 - محمد حمدي الحجار، الآثار الإجتماعية والنفسية الناجمة عن الكوارث الطبيعية، الثقافة النفسية، مركز الدراسات النفسية والنفس-جسدية – العدد التاسع والأربعون – المجلد الثالث عشر- ك2 2002، ص1 . نقلا عن http://www.psyinterdisc.com/mlaf49.html تاريخ الزيارة 10 أيلول 2018.

و اضطرابات نفسية واجتماعية مباشرة وغير مباشرة، قريبة الأمد ومتوسطة الأمد، وقد تستمر معهم بقية حياتهم، وتعتمد على قدرة الإنسان في التكيف مع تلك الأحداث.

وتشير دراسة نفّذتها الجمعيّة الكويتية لتقدّم الطفولة العربية حول الأحوال النفسية للأطفال والشباب في لبنان بعد حرب تموز بتسعة أشهرعلى عينة من 6632 تلميذاً وتلميذة من صفوف الروضة حتى صف الثاني عشر، إلى أن نسبة ٪26 من هؤلاء يعانون من «ضغط ما بعد الصدمة[1]».

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الأطفال يتأثرون بأحداث الحرب بطرق مختلفة تعتمد على المميزات الشخصية لكل طفل، والتي تحدد المعنى الخاص الذي يعطيه الطفل للحدث. كما تؤدي الخصائص الشخصية للطفل الذي يتعرض للأزمة دوراً مهماً في درجة تأثره بها، وتشمل:

- طبيعة المرحلة العمرية للطفل.
- طريقة إدراك الطفل للحدث الصعب.
- خبرات الطفل السابقة .
- قدرة الطفل على التعبير.
- إحساس الطفل بالدعم والرعاية الكافية من الأهل والمحيط.

من هنا يأتي اهتمامنا بشريحة الأطفال، البنية الأكثر هشاشة عن بنية باقي الفئات العمرية الأخرى، نتيجة عجزهم وقصورهم عن تلبية حاجاتهم بمفردهم، وعدم قدرتهم على حماية أنفسهم، وقلّة حيلتهم وضعفهم، وتبعيتهم للعالم الخارجي، بالإضافة إلى نقص المهارات في مواجهه الضغوط والمرونة النفسية في التكيف معها، مما يجعلهم أكثر عرضة لإضطراب ما بعد الصدمة، كون الحدث الصادم يجعلهم يقعون في دائرة المعرضين للخطر حسب ما عبر عنه اريكسون «الأزمة المحتملة عند الأطفال» في إطار حديثه عن التطور النفسي لكل مرحلة نمائية، والتي تتفاوت بدرجات مختلفة وتزداد شدّة في الظروف غير الطبيعية كالكوارث والحروب. بالإضافة إلى اعتبار مرحلة الطفولة من أخطر المراحل النمائية في تكوين الشخصية ولا يقتصر خطرها على أنها المرحلة التي توضع فيها بذور اضطرابات الشخصية المختلفة، بل إنها المرحلة التي توضع فيها أسس الشخصية السليمة بأبعادها ومكوّناتها المختلفة.

---

1 - الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية تأثير الحرب على الأطفال والشباب بعد حرب يوليو 2006 الأنباء 27 ديسمبر 2008.نقلا عن pff.alanba.com.kw>pdf>12dec2008 تاريخ الزيارة 10أيلول 2018.

هذه المقدمة تقودنا إلى طرح التساؤلات الآتية:

1- ما هي الإضطرابات المترتّبة على ضغط ما بعد الصدمة لدى الحالات التي تمّت دراستها؟

2- كيف انعكست تلك الإضطرابات على البنية النفسّية والاجتماعيّة للطفل؟

3- كيف يمكننا مساعدة هؤلاء الأطفال للحدّ من احتمالات تطوّر تلك الإضطرابات، ودرء عوامل الخطر التي قد تنذر بمرض نفسي، يهدّد صحتهم النفسية وتوازنها بقية حياتهم؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة وموضوعها على المستويين النظري والتطبيقي، حيث يعتبر موضوع الصدمة النفسية موضوعاً مفتاحياً في علم النفس المرضي، فمن جهة يجعلنا نفهم الإضطرابات النفسية انطلاقاً من فهم تأثيرات الصدمة النفسية المرتبطة بالحرب، ومن جهة أخرى لأن أغلب الإضطرابات المعروفة في علم النفس المرضي والطب النفسي في إطار التعرّض لأحداث صادمة تتجاوز القدرات الدفاعية للشخص.

- على المستوى النظري: تطلع هذه الدراسة على مجموعة من وجهات النظر والطروحات المعروضة في الأدبيات العالمية حول الصدمة النفسية وحول انعكاساتها سعياً للتعمق في تلك المعارف المتوفرة حولها.

- على المستوى التطبيقي: تعتمد هذه الدراسة في تفسير الحالات التي تم اختيارها على مقاربات سيكولوجية – تحليلية، تهتم بالجانب النفسي لتلك الحالات كون منظور البحث هو منظورعيادي. بالإضافة إلى مقاربات سوسيولوجية حول نمط الحياة الذي تعيشه تلك الحالات، حيث أنه لا يمكننا الفصل بين العوامل النفسية والعوامل الإجتماعية التي تشكل كلاً مترابطاً في فهم وتفسيرمفاعيل اضطرابات ما بعد الصدمة وتحقيق الأهداف المرجوة.

دوافع اختيار الموضوع:

1- دوافع ذاتية: تم اختيار هذا الموضوع انطلاقا من دوافع ذاتية مرتبطة في علاقته مع خبراتي في البحث من جهة والممارسة العيادية من جهة أخرى.

2- دوافع موضوعية : مما تقدم حول أهمية هذه الدراسة التي تأخذ طابعا خاصاً

ومميزاً، فإننا لم نجد أي من الباحثين قد قام بإجراء دراسة علمية لتقييم الآثار النفسية والإجتماعية «طويلة الأمد» المرتبطة بإضطراب ما بعد ضغوط الصدمة على الأطفال في جبل عامل تحديداً. ولهذا فان هذه الدراسة بمثابة حلقة مكملة لسلسلة من الدراسات المختلفة السابقة حول الموضوع نفسه في جبل عامل أو في لبنان ككل أو في غيرها من بلدان الوطن العربي.

الإطار المنهجي للدراسة:

للإجابة على تساؤلات الدراسة وتحقيق أهدافها، تمّ اعتماد الطرق والإجراءات المنهجية العلمية التي تجسّدت في الأطر الآتية:

المنهج المعتمد: نظراً لطبيعة موضوع البحث وأهدافه، تمّ استخدام المنهج الإكلينيكي الذي يعتمد على دراسة الحالة الفردية باعتبارها حالة إنسانية خاصة «لا سبيل للتعميم منها الى باقي الحالات الأخرى». هو منهج «يهتم بالتفاعل بين الوقائع أو ما يعرف بدينامية الوقائع (أي أن الوقائع ليست في حالة ساكنة بل تؤثر وتتأثر بالتغيرات المحيطة بالفرد). حيث لا يكون الفرد جامعاً لهذه الوقائع، بل هونتاج لتفاعله الداخلي»1 .

ودراسة الحالة التي تقوم على الدراسة المعمقة لحالات فردية ومتفردة من حيث كونها وحدات كلية موجودة في وضعية، تفيدنا في الكشف عن الوقائع الأكثر ارتباطاً بإضطراباته النفسية، والتعمق في فهم الإنعكاسات النفسية والإجتماعية التي خلفتها تلك الإضطرابات.

التقنية المستخدمة: تعتمد هذه الدراسة على تقنية مناسبة للمنهجية المتبعة، أهمها تطبيق المقابلة العيادية نصف الموجهة التي تسمح لنا بتشخيص الحالة، بالإضافة الى اعتماد تقنية الملاحظة الحرة كأداة مكمّلة للمقابلة العيادية، والتي تفيد في جمع بيانات تتصل بسلوك الفرد.

ج- عينة البحث وخصائصها: يمكن تصنيف عينة البحث بالعمدية، التي يقرر الباحث مقدماً مفرداتها، حيث وقع اختيارنا على ثلاث حالات تم فحصها في العيادة النفسية «من قبل الباحثة كونها اختصاصية نفسية»، ممن توفرت فيهم خصائص تشير إلى تعرّضهم لصدمة الحرب، وفق معاييروخصائص يوضحها الجدول الآتي:

جدول يوضح توزع العينة حسب القضاء الذي تنتمي اليه، النوع، العمرعند الصدمة، العمرعند زيارة العيادة النفسية، نوع الإضطراب، الوضع الإقتصادي للأهل.

1 - المنهج الاكلينيكي، 20 نوفمبر 2012 نقلا عن: topic-t624<net.ahlamontada.ykadri.www، تاريخ الزيارة، 16،9،2018.

أسماء الحالات والقضاء الذي تنتمي اليه	النوع	العمرعند الصدمة	العمر عند زيارةالعيادة النفسية- تاريخ الزيارة	نوع الإضطراب	الوضع الإقتصادي للأهل
ميرا- قضاء مرجعيون	أنثى	6 سنوات 2006	12 سنة 2012	التبول اللاإرادي	متوسط
حسن- قضاء النبطية	ذكر	7 سنوات 2006	15 سنة 2014	العدوانية والإنتقامية	غير ميسور
مهدي- قضاء صور	ذكر	9 سنوات 2006	17 سنة 2014	حزن شديد واضطراب في المزاج	ميسور

من خلال الجدول أعلاه، حول خصائص العينة التي تمّ اختيارها، تمّ مراعاة التنوع المناطقي (قضاء النبطية، قضاء مرجعيون وقضاء صور)، التنوع العمري الذي تراوح ما بين (9-6) سنوات (مرحلة الطفولة المتوسطة)، وهو عمر الأطفال عند اندلاع حرب تموز، والتنوّع النّوعي (إثنين من الذكور وأنثى واحدة)، والتنوّع الطّبقي (من ميسور إلى متوسط إلى غيرميسور).

كما حرصت الدراسة على اختيار مستويات متنوعة من الأطفال لجهة تعرّضهم لتأثير ما بعد ضغوط الصدمة المرتبطة بالحرب، منهم من فقد عزيزاً، ومنهم من تعرّض لمشاهد دموية، ومنهم من تعرّض لإنفجار لغمي. وذلك للإستدلال على مستويات متنوعة من التأثير.

مجالات الدراسة:

- **المجال البشري**: أجريت هذه الدراسة على فئة الأطفال ممن تعرّضوا لإضطراب ما بعد الصدمة جراء حرب تموز 2006، تراوحت أعمارهم بين (9-6 سنوات)، وهو عمر الأطفال عند اندلاع تلك الحرب.
- **المجال الزمني**: انطلقت هذه الدراسة فعليا في شهر تموز 2018 ولغاية نهاية شهر أيلول من العام نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن قصر مدة الدراسة يعود إلى توفّر جميع البيانات والمعطيات الموّثقة سابقاً في عيادتنا، منذ العام 2012 ولغاية العام 2014 (تاريخ زيارة تلك الحالات للعيادة النفسية بهدف العلاج).

- **المجال المكاني**: تم تطبيق إجراءات الفحص والتشخيص العيادي والعلاج النفسي في أحد المراكز العلاجية الواقعة في منطقة جبل عامل، قضاء النبطية.

المصطلحات المستخدمة في الدراسة:

- الصّدمة النفسّية: عرفها معجم مصطلحات التحليل النفسي على «أنها حدث في حياة الفرد يتحدد بشدّته وبالعجز الذي يجد الشخص نفسه فيه والإستجابة الملائمة حياله، بما يثيره التنظيم النفسي من اضطراب وآثار دائمة مولّدة للمرض» [1].

- اضطراب ما بعد الصدمة: «إنه وعقب التعرض لحدث صادم يحصل تنوع كبير في أشكال المعاناة النفسية». وفي بعض الحالات، يمكن أن تفهم الأعراض بشكل جيد ضمن السياق القائم على الخوف أو القلق»[2].

- الأطفال: يعرف الطفل وفق مواثيق الامم المتحدة «بانه كل انسان لم يتجاوز السنة الثامنة عشرة»[3] .

- مرحلة الطفولة المتوسطة: «(من 6 إلى 9 سنوات)، فيها ينتقل الطفل من البيت إلى المدرسة، فتتوسّع دائرة بيئته الإجتماعية وتتنوع تبعاً لذلك علاقاته، وتتحدد ويكتسب الطفل معايير اً وقيماً واتجاهات جديدة، والطفل في هذه المرحلة يكون مستعداً لأن يكون أكثر اعتماداً على نفسه وأكثر تحملاً للمسؤولية وأكثر ضبطاً لإنفعالاته وهي أنسب مرحلة للتنشئة الإجتماعية وغرس القيم التربوية والتطبيع الإجتماعي»[4].

- مرحلة المراهقة: هي المرحلة التي يكتمل فيها النضج الجسمي والإنفعالي والعقلي والإجتماعي وتبدأ بوجه عام في الثانية عشرة وتمتد حتى الواحدة والعشرين وإن ذهب بعض الباحثين على اعتبار نهايتها في الثامنة عشرة وتسمى الفترة الأولى من هذه المرحلة بفترة البلوغ»[5]. ويرى دوروتي روجرز «بأن المراهقة هي فترة نمو جسدي وظاهرة اجتماعية ومرحلة زمنية، كما انها فترة تحولات نفسية عميقة، ينتقل من خلالها الكائن البشري من مرحلة الطفولة الى مرحلة الرشد»[6]. وحسب «إريكسون» «يسعى المراهقون في هذه المرحلة إلى تأكيد هويتهم ويحاولون تحديد أدوارهم وطاقاتهم وإمكانياتهم... وتنشأ الأزمة بين حاجات ورغبات الافراد ومطالب المجتمع»[7].

- النكوصRegression: «هو نمط آخر من أنماط الحيل الدفاعية يتميز بالعودة إلى الوراء وإعادة تحريك لما سبق أن سجل في مراحل النمو المتتالية، فهو الرجوع في اتجاه

---

1 Lplanche et pantalais vocabulaire de la psychanalyse sous la direction de Daniel Lagache Puf edition Delta Paris 1997 p300. ،

2 خلاصة الدليل التشخيصي والاحصائي الخامس للاضطرابات العقلية DSM5،الدار العربية للعلوم ناشرون، ترجمة وإعداد الدكتور أنور الحمادي ، الطبعة الأولى، 2015، ص 195.

3 إتفاقية حقوق الطفل يونيسيف http://www.unicef.org>files>crc_arabic تاريخ الزيارة 11 أيلول 2018.

4 عبد الفتاح دويدار، سيكولوجية النمو والإرتقاء، دار المعرفة الجامعية، الأزرايطة، الطبعة الأولى،1996 ،ص218.

5 بول سون وآخرون، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة،سيكولوجية الطفولة والمراهقة، ط1، الكويت، 1986، ص 104.

6 أسعد ميخائيل ابراهيم، مشكلات الطفولة والمراهقة، دار الجيل ، بيروت، ط2، 1994، ص 225.

7 عماد عبد الرحيم الزغلول، مبادئ علم النفس التربوي، دار الكتاب الجامعي، دولة الإمارات العربية المتحدة- الجمهورية اللبنانية، الطبعة4، 2016، ص 200.

معاكس من نقطة ثم الوصول إليها، إلى نقطة تقع قبلها»[1].

- الإنكار Denegation: «إنكار الواقع عملية لا شعورية تحمي الأنا من مواجهة الواقع أوالحقيقة المؤلمة ويختلف الإنكارعن الكبت في أن مصدر الخطر فيه هو العالم الخارجي وليس اندفاعات الهو»[2].
- عمل الحدادTravail du deuil يعرّف معجم مصطلحات التحليل النفسي عمل الحداد على «أنه عملية نفسية داخلية تلي فقدان موضوع التعلق العاطفي، وينجح الشخص تدريجياً من خلالها في الإنفصال عن ذلك الموضوع»[3].
- التثبيتFixation: «هو توقف النزعة الغريزية عند مرحلة مبكرة من مراحل التطور تتخلف بعض المكونات تخلفاً دائماً عند أحد الأطوار الأولى، بينما تسير المكونات الأخرى في تطوّرها الطبيعي»[4].
- التماهي (تعيين، توحّد): Identification: «هوعملية نفسية يتمثل فيها الشخص دوافع وخصائص وصفات شخص آخر، فتغيره كلياً او جزئياً حسب نموذج التمثيل، فالشخصية تتمايز من خلال سلسلة من التماهيات»[5].
- الكبتRefoulement: «الكبت هو المحرك الأساسي للاشعور وهو عملية نفسية يحاول الشخص من خلالها حماية أناه، عن طريق دفع الأفكار والخبرات التي تتصارع مع مبدأ الواقع إلى حيز اللاشعور. فالخبرات المؤلمة التي تسبب للفرد الشعور بالذنب أو الدونية وتؤدي به إلى الشعور بالفشل غالباً ما تنسى، حتى لا تتسبب ألماً للأنا، إذاً فالفرد يهرب من كل ما يمكن أن يكون مصدر ضيق واضطراب عن طريق كبته ونسيانه»[6].

أقسام الدراسة:

في ضوء تساؤلات الدراسة وأهدافها والمنهجية المعتمدة، تم تقسيم الدراسة إلى مقدمة وثلاثة أقسام أساسية ومن ثم خلاصة وتوصيات.

يتناول القسم الأول الصدمة النفسية ومراحلها، أما القسم الثاني فيعالج اضطرابات ما بعد ضغوط الصدمة، ويتمحورالقسم الثالث حول دراسة الحالات، مناقشتها وتفسيرها، أما الخلاصة والإستنتاجات فتتبلور في ضوء تساؤلات الدراسة وأهدافها.

1 جان وبونتاليس لابلاش، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي،المؤسسة الجامعية،بيروت، ط4، ج.ب2002، ص555.
2 - السيد محمد عبد الرحمن، نظريات الشخصية، القاهرة، دار قباء، 1998 ، ص 55.
3 - جان وبونتاليس لابلاش المرجع السابق، 2002، ص 369.
4 - فرج،عبد القادر طه وآخرون ،معجم علم النفس – التحليل النفسي، دار النهضة العربية، بيروت ، ط1،.ص 91-90.
5 - المرجع السابق، فرج، عبد القادر طه، ص198.
6 - عبد الرحمن سي موسى، وزقار رضوان ، الصدمة والحداد عند الطفل والمراهق،الجزائر،2002،ص22-12.

أولاً: الصّدمة النفسيّة

يأتي الحديث عن الصدمة النفسية في هذا القسم لكونها الركيزة الأساسية والسبب المباشر للوصول إلى اضطراب ما بعد الصدمة. ويعدّ الحدث الصادم المتعلّق بالحرب سبباً في ملاحظة واكتشاف هذا الإضطراب. وتدل الأبحاث على «أن 34.6 ٪ من الأطفال والشباب اللبنانيين تعرّضوا لما بين 12، 24 حادثاً خلال حرب تموز (سماع قصف، رؤية مشهد، إصابة، فقدان منزل، فقدان قريب.. إلخ)»[1]. وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث الصدمية المسببة لإضطراب PTSD هي ليست المتعلقة بالحروب وكوارثها فقط، وإنما هذا الإضطراب ممكن أن يسبَب عن الكثير من أنواع الصدمات التي تنطوي على تهديد الحياة، وبإمكانه أن يصيب الذكور والإناث على حد سواء، ويصيب الأطفال مثلما البالغين.

ولتعريف الصدمة النفسية، علينا بداية التفريق بين مفهومي الضغط والصدمة كتمهيد للدخول في تفاصيل الصدمة النفسية وفهم الإضطرابات النفسية الناجمة عنها.

1- التمييز بين مفهومي الضغط والصدمة :

الضغط النفسي هوحالة نفسية وبدنية وشعورية تنتاب البشر جميعا في جميع الاعمار، يختبرها الشخص عندما يشعر بوجود خطر أو سبب يعرض استقراره، أو وجوده المادي، أو الاجتماعي، أو لمن يرتبط به بعلاقات أسرية أو عاطفية إلى التغير، فهو حالة من الإنهاك النفسي والبدني والشعوري المستمر نتيجة محاولتنا ضبط أوضاعنا النفسية والبدنية والشعورية في مواجهة التغيرات في محيطنا الخارجي. يقول هانس سيلي:» إن الضغط النفسي هوردّ فعل الإنسان للتغيرات التي هي جزء من حياته اليومية»[2].

أما الصدمة فهي تتظاهرغالبا بعد وقت كمون وبعد مواجهة حدث خارجي، حيث «يتحول التهديد من تهديد خارجي مرتبط بالحدث إلى تهديد داخلي مرتبط بالهلع الذي يتجاوز الخوف والقلق وأيضا الضغط، تنطبع بعد ذلك هذه الصورة للصدمة داخل الجانب النفسي في شكل «تهديد داخلي» ودائم، ناجم عن الإلتقاء العيني مع الموت reel de la mort، ويبقى تأثيره مستمراً على الشخص ولا ينتهي بانتهاء الحادث»[3].

إن مفهوم الضغط النفسي والصدمة النفسية لا يمكن فصلهما حيث انهما يتداخلان إلى درجة كبيرة «ويعود ارتباط مصطلح الضغط بمفهوم الصدمة النفسية إلى التسمية التي أطلقها المجتمع الأميريكي للطب النفسي A-P-A عندما أراد التخلي عن عبارة العصاب الصدمي وعصاب الحرب باعتبارهما يمدان بالصلة للتحليل النفسي» [4].

---

1 - pff.alanba.com.kw>pdf>12dec 2008، مرجع سابق
2 - سي موسى، عبد الرحمن وزقار رضوان، مرجع سابق، 2002، ص80
3 - De clerq.M.&Lebigot F.Manuel de psychique.Paris; Masson 2001 P16 بتصرف.
4 - عبد الرحمن سي موسى، وزقار رضوان،مرجع سابق 2002، ص80..

2- تعريف الصدمة النفسية:

- **من حيث اللغة**[1]: الصدمة من صدم والصدمُ: ضربُ الشيء الصلب بشيء مثله وصدمه صدماً: ضربهُ بجسده، وصادمه فتصادمه فتصادماً واصطداماً وصدمهم أي: أصابهم.
- **تعريف الصدمة في معجم أكسفوردالإنجليزي**[2]: إنها هزّة عاطفية ناتجة عن حادثة مؤلمة تؤدي إلى إضطراب عصبي وأصبحت كلمة صدمة ومشتقاتها كلمات متداولة في حديثنا اليومي ومدلول هذه الكلمة للشخص العادي يعني أنها حادثة مأساوية مؤثرة فيه ومسببة للإحباط.
- **تعريف الصدمة طبياً**[3]: هي التي تؤذي الجسم، وقد تسبب جروحا أوكسوراً أو حروقاً، والصدمة في الطّب النفسي هي التي لا يستطيع المرء تقبلها للوهلة الأولى،ولا يفيق من أثرها الا بعد مدة وقد تصيبه بالقلق الذي يولد العصاب المعروف بعصاب الصدمة.
- **الصدمة النفسية اصطلاحاً**: هي ردة فعل الفرد تجاه أحداث شديدة، ومهدّدة للحياة، تعرّض لها هو بذاته أو شخص قريب وعزيزعليه.

3- مراحل الصدمة النفسية:

بعد تعرض الفرد لحدث صادم، يمّرالفرد المصدوم بأوقات ومراحل متعددة هي[4]:

أ- مرحلة الكمون: تكون في شكل حالة من التوقف وعدم التصديق، والتأمل والتفكيرالمشتت والمركّز حول الحادث ثم التذكّرالدائم لظرف الحادث الصدمي. قد تدوم بضع ساعات أو تمتد إلى بضعة أشهر وفي بعض الأحيان تكون نقطة تحضير لدفاعات الأنا الصدمة المواجهة العنيفة .

خلال هذه المرحلة يجب حثّ الفرد على التعبير عن شعوره وحالته الداخلية محاولة للتحكم في الوضع عن طريق التعبير اللفظي، والإصغاء والمساندة العاطفية، وبمجرد بداية كلامه عن حيثيات الحادث الصدمي يمكن أن نعتبرذلك مؤشراً جيداً عن بداية تنظيم الجهاز النفسي للسيطرة على تظاهرات الصدمة.

ب- متلازمة التكرارأواستعادة الذكريات المؤلمة للحدث الصدمي: إن اضطرارب التكرار هنا يُحدث للشخص المصدوم حالة من إعادة استحضار الحادث الصدمي في

---

1 - ابن منظور لسان العرب دار العرب القاهرة الجزء الرابع 1914 ص 242.

2 - جلادينا مكماهون التكيف مع صدمات الحياة مكتبة العبيكان الرياض ط1 2002 ص7.

3 - عبد المنعم الحنفي، موسوعة التحليل النفسي،القاهرة، مكتبة مدبولي،ط4، 1994، ص 924.

4 جلال فرشيشي ،أثر الصدمات النفسية في حدوث الإضطرابات السيكوسوماتية لدى مرضى القصور الكلوي، دراسة عيادية، ل 8 حالات بمستشفى محمد بو رقلية،جامعة قاصدي مرباح، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم علم النفس وعلوم التربية، نقلاً عن:. www. univ-tebessa.dz>master-2369> 2014،ص40 تاريخ الزيارة 20/9/2018.

شكل معايشة خيالية وهوامية وذلك عن طريق صور متلاحقة في مخيلته لما حدث ولا يستطيع منعها، حيث يتذكر المكان نفسه، أو يشم رائحة المكان نفسها، أوعن طريق تمثيل الأحداث من خلال اللعب، أو من خلال الكوابيس المرعبة المتكررة وحالات الهذيان المؤقت في بعض الأحيان. وحالة التأثر الوجداني الكبير هو السبب في ظهور هذه النوبات من الهلع والخوف الكبيرين. وما متلازمة التكرار سوى إعادة تنشيط لهذه الخبرة بهدف مواجهتها مرة أخرى والتحكم بها.

في هذه الحالة على المختص أن يكون منتبها لإحتمالية دخول العميل في حالة مرضية حادة قد تؤثر في التشخيص الصحيح، والمهدئات النفسية وهي أحسن تدخل مؤقت لهذه الحالة.

جـ- مرحلة إعادة تنظيم الشخصية: بعد أن يكون العميل قد عايش الحادث الصدمي، يحدث نوع من التغيير في بنية الشخص فتتغير عاداته اليومية، وتصرفاته مع تصوراته، وحتى نشاطه الجنسي، فيدخل في نوع من عدم الثقة مع المحيط والبحث عن الأمان وينظر إلى الإستقلالية ومحاولة إعادة بناء النفس من جديد.

في هذه المرحلة على المختص أن يحاول مساندة العميل، ويجعله يدرك حالة الأمان التي يبحث عنها بعيداً عن الحادث الصدمي وما نتج عنه من اهتزازات على مستوى الشخصية ككل.

ثانياً: إضطراب ما بعد ضغوط الصدمة PTSD))

إن التهديد الخارجي وأشكال الخطر العديدة التي يتعرض لها الفرد، من شأنها أن تحدث اضطراباً وقلقاً يستدعي من (الأنا) مواجهة هذه الأخطار لتحقيق الإنسجام والتوازن بين أركان الشخصية والمرونة والإنفتاح على الدنيا والناس، ومفهوم الذات الإيجابي، والثقة بالذات وقبولها. «فالإفتقار إلى الطمأنينة القاعدية، أوما يسمى بالقلق القاعدي هونواة كل الإضطرابات النفسية وحالات المرض، حيث تختل العلاقة مع الواقع، وتقع الحياة الداخلية ضحية الصراعات والمآزم والدفاعات المرضية»[1] .

1- تعريف اضطراب ما بعد ضغوط الصدمة:

- «يورد تصنيف **منظمة الصحة العالمية** الخاصة بالإضطرابات العقلية والسلوكية (ICD-10-1992) إضطراب ما بعد الصدمةPTSD)) ضمن الفئة -F40 F48)) الخاصة بالعصاب والإضطرابات ذات العلاقة بالضغوط الجسمية المظهر

1 - مصطفى حجازي، الصحة النفسية ، المركز الثقافي العربي، ط3، 2006، ص 38.

ويضعـه ضمـن الفئـة الخاصـة بـردود الفعـل نحـو الضغـط الحـاد واضطرابـات التكيـف»[1] .

- **عرفـه فيلدمـان-**fildman[2]: بأنـه الإضطـراب الـذي ينتـج عـن تعـرّض الفـرد إلى صدمـة نفسـية أوجسـدية شـديدة فيهـا خطـورة عـلى حياته.
- **التعريـف الإصطلاحـي**: إن اضطـراب مـا بعـد ضغـوط الصدمـة، هـو مجموعـة أعـراض تنتـج عـن تعـرض الطفـل إلى حـوادث مرعبـة في الحـرب ومهـدّدة تـؤدي إلى معانـاة الطفـل إنفعاليـا وتزيـد مـن نسـبة التجنّـب السـلوكي لديـه، ويتمثـل في اسـتعادة خـبرة الحـدث الصدمـي للأنشـطة المرتبطـة بـه فضـلاً عـن تـدني المهـارات الإجتماعيـة والأكاديميـة.

2- تشخيص اضطراب الضغوط التالية للصدمة عندالاطفال:

إن التشـخيص النفسـي (Diagnosic) هـو تحديـد للأعـراض العامـة للإضطـراب والخطـوط العريضـة لمسـار العـلاج المحتمـل، والإسـتجابة للأنـواع المختلفـة مـن العـلاج. لذلـك لا بـد مـن تحديـد فئـات الأعـراض ليتـم التشـخيص بشـكل أكثـر دقّـة.

ولتشـخيص اضطـراب الضغـوط التاليـة للصدمـة عنـد الاطفـال، تـمّ الإعتـماد عـلى الدليـل التشـخيصي والإحصائي الرابـع المعـدّل -DSM4 1994 حيـث حُـدّدت معايير PTSD عـلى الشـكل التـالي[3]:

أ- أن يكون الشخص قد تعرض لحدث صدمي عاشه على النحو التالي:

- أن يكـون قـد شـاهد أوخـبر حدثـاً أوأكثـر فيـه حـالات مـن المـوت والتهديـد بـه أو بسـلامة الجسـم لـه وللآخريـن.
- أن يسـتجيب لهـذا الحـدث بخـوف شـديد او رعـب أوعجـز. في حالـة الاطفـال قـد يظهـر عـلى الطفـل سـلوك مضطـرب اومتهيـج.

ب- يستعيد الطفل الحدث الصدمي بشكل إقحامي في واحد او اكثر مما يلي:

- ظهـور ذكريـات أليمـة تبـدو عـلى شـكل صـور، أو أفـكار، او إدراكات ملحّـة ترتبـط بالحـدث الصدمـي. في حالـة الأطفـال يظهـر لديهـم نـوع مـن اللعـب التكـراري يرتبـط موضوعـه بالحـدث الصدمـي.

1 - فاطمة عبد الرحيم النوايسة، الضغوط والازمات النفسية واساليب المساندة، 2011 نقلا عن http://books.google.com.lb>books:

2 - Feldman.B.Board review series behavioral science.2nd ، new york harwel publishing1994 P 120

3 - American psychiatric Association 1994:Dagnostic and statistical manual of mental Disorder (DSM4).4th ،Washington American psychiatric. D.C:A.P.A.Author.p 427-429

- ظهور الحدث الصدمي، او اجزاء منه في الأحلام في حالة الأطفال تكون أحلامهم مفزعة دون ان يستطيعوا تحديد مضمونها.

- يتصرف الشخص، او يشعر كما لو أن الحدث الصدمي يحدث مرة أخرى. في حالة الأطفال قد تظهر في سلوكياتهم أجزاء محددة من الحدث الصدمي.

- شعور الشخص بالضيق والإرتباك عند التعرض لإشارات أو رموز داخلية أو خارجية ترتبط بالحدث الصدمي بشكل عام.

- تظهر لدى الشخص استجابات أو ردود أفعال فيزيولوجية عند التعرض لهذه الإشارات.

ج- تجنّب الشخص بشكل مستمر كل المثيرات المرتبطة بالحدث الصدمي، ويبدو هذا في ثلاثة على الأقل مما يلي:

- يبذل الشخص جهداً في تجنب الأفكار أو المشاعر أوالأحاديث المرتبطة بالصدمة.

- يبذل الشخص جهداً في تجنب الأشخاص والأماكن والأنشطة المرتبطة بالصدمة.

- نسيان أجزاء مهمة من الحدث الصدمي.

- الشعور بالعزلة والإغتراب عن الآخرين.

- العجز عن مشاعر العطف والحب، وضيق سعة الإنفعالات.

- نقص واضح في الإهتمام بالأنشطة المهمة أو المشاركة فيها.

- الشعور بالمستقبل محدود وغير واعد.

د- وجود أعراض مستمرة في يقظة مرتفعة تظهر في إثنين على الأقل مما يلي لم تكن موجودة قبل الصدمة:

- فاعلية برنامج إرشادي فردي في التخفيف من أعراض الصدمة النفسية الناتجة عن إساءة المعاملة.

- صعوبة الولوج في النوم والاستمرار فيه.

- Irritability قابلية للإستثارة ونوبات غضب وتهيج.

• صعوبة التركيز.

• Hyper vigilance فرط التيقظ.

• استجابات هلع مبالغ فيها.

هـ- استمرار الأعراض في (أ ب ج) مدة أكثر من شهر.

وتقسم الأعراض إلى ثلاثة أنواع حسب زمن التعرض للحدث الصادم:

• أعراض حادة: تستمر الاعراض أقل من ثلاثة اشهر.

• الأعراض المزمنة: تستمر الأعراض أكثر من ثلاثة اشهر.

• الأعراض المتأخرة: تبدأ بعد ستة شهور على الأقل من التعرض للحدث الصدمي، ويسبب الإضطراب تأذياً واضحاً في الوظيفة المهنية والإجتماعية للفرد.

3- مؤشرات اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة:

من هذه المؤشرات[1]: فقدان الدافعية، الإنسحاب الإجتماعي، الإثارة المفرطة، نوبات الهلع والقلق المعمّم والكرب والإكتئاب، اضطراب النوم، الحساسية المفرطة لبعض الأصوات، العدوانية، الرغبة في الإنتقام، فقدان القدرة على التركيز، الميل للبكاء بسهولة، الشعور بالذنب، السلوك النكوصي، صعوبة بإنشاء علاقات إجتماعية، الإتكالية الزائدة، فقدان الشهية، آلام في الراس، دقات قلب غير منتظمة، آلام في المعدة، فقدان الوزن، فقدان الطاقة، عدم الرغبة في اللعب وعدم الرغبة في الحياة والخوف من المستقبل والتشاؤم.

إن طبيعة المؤشرات والضغوط (من حيث الشدة والإستمرارية) وعمر الطفل ومرحلة النمو التي يمر بها والسمات الشخصية الفردية للطفل، كل ذلك يؤثر على كيفية تكيفه مع الظروف الصعبة. إذ كلما كانت التجربة مريرة أظهر الطفل اضطرابات عاطفية وسلوكية وعقلية، ولفهم وتقدير ما إذا كانت ردود الفعل على الظروف الصعبة طبيعية أم لا، لا بد من معرفة المراحل الأساسية لنموه.

1 - أحمد شيخاني، الدعم النفسي الاجتماعي للاطفال في ظل الحروب والنزاعات، عمان، دار الاعلام للنشر والتوزيع، 2013، ص 73.

4- التوجهات في تفسير اضطراب ما بعد ضغوط الصدمة:

تعدّدت وجهات النظر في تفسير اضطرابات ما بعد ضغوط الصدمة، ويمكن إيجازها بالتالي:

أ- التوجه البيولوجي[1]: Biological approach

حاول بعض الباحثين أن يربط اضطراب ما بعد الصدمة بعمل الدماغ وما يطرأ عليه من تبديلات كيميائية وفيزيولوجية ووظائفية فالصدمة تؤدي إلى اضطراب في وظيفة الدماغ وبعض أنحاء الجسم وهذا الإضطراب يظهر على شكل إرتفاع في نسبة الكاتيكولامين في الدم، ارتفاع في نسبة الأسيتيكولين، إنخفاض نسبة النورايبنفيرين، إنخفاض نسبة السيروتونين والدوبامين في الدماغ. إن مصير اضطراب ما بعد الصدمة يتوقف على نشاط الإفرازات المذكورة وكذلك على المواد المخدرة التي يفرزها الدماغ ويبدو أن الدماغ يقوم بهذه الوظيفة عندما يتعرض للصدمة وبعد أن تمر الصدمة تحدث حالة شبيهة بالإنسحاب والذي نلاحظه في عوارض الإنقطاع الفجائي لمتعاطي المخدرات».

ب- التوجه النفسي الدينامي[2]:Psychodynamic approach

ما يثير الحيرة في اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية، وإن بدايتها يمكن أن تحدث بعد أشهر أو سنوات من تعرض الفرد لحادث صدمي ما. وبما «أن فرويد 1856-1939، كان قد عدّ «صدمة الولادة» وما يصاحبها من إحساس الوليد بالإختناق، بأنها تجربة القلق الأولى في حياة الإنسان فإن منهج التحليل النفسي ينظر إلى الصراعات اللاشعورية التي تضرب جذورها في مرحلة الطفولة المبكرة على أنها السبب في الإضطرابات النفسية على وجه العموم. وعليه « فإن المنظرين النفسيين الديناميين قد اعتمدوا هذه الفكرة في تفسيرهم لإضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية. ولقد حاول Horowitz، 1986 تفسير هذا الإضطراب بنظرية نفسية دينامية خاصة، خلاصتها أن الحادث الصدمي يمكن أن يجعل الفرد يشعر بالإرتباك تماما، وإن مثل هذا الإرتباك قد يسبب له الفزع والإنهاك. ولأن مثل ردود الفعل هذه في الغالب تكون مؤلمة فإن الفرد يلجأ عادة إلى كبت معظم الأفكار الخاصة بالحدث الصدمي أو قمعها عن عمد. ولأن حالة التشويه والإنكار هذه لا تحل المشكلة كون الفرد لا يكون قادراً على أن يجعل المعلومات الخاصة بالحدث الصدمي تتكامل مع معلوماته الأخرى، فعندئذ يكون ما يكون من أحاسيس ومشاعر وإنفعالات»[3]

1 - غسان يعقوب سيكولوجيا الحرب والكوارث ودور العلاج النفسي دار الفارابي بيروت 1999 ص 188.

2 - محمد أحمد النابلسي ، الصدمة النفسية ،علم نفس الحروب والكوارث ،ط1، دار النهضة العربية ، بيروت.1991، ص 24.

3 - اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة وآثاره النفسية والاجتماعية على الطفل الفلسطيني نقلا عن: http://cjmes.scholaticahq.com>ar-ticle تاريخ الزيارة 21/9/2018.

ج- التوجه السلوكي[1]: Behavioral approach

وترى المدرسة السلوكية أن الحدث الصادم هو بمثابة منبه غير مشروط Unconditional stimulus يظهر الخوف والقلق والإستجابة اللاشرطية (الطبيعية) Unconditional reponse ويصبح المنبه غير الطبيعي (خبرة إذا ما اقترنت بالحدث الصادم، مثل الأصوات العالية، سيارات الاسعاف أو الدخان الكثيف وغيرها من المثيرات) منبهاً مشروطاً، وتظهرالإستجابات العاطفية المشروطة المتمثلة بالخوف والقلق Conditional emotional reponse التي يشعر الفرد بسببها بعدم الراحة وتؤدي به إلى أن يسلك سلوكاً مرضياً يتصف بالتجنّبة السلبية التي تمثل مظهراً من مظاهر اختلال الصحة النفسية. أي أن النموذج السلوكي يساعد على فهم اضطراب ما بعد الصدمة من خلال نظرية التشريط، فالصدمات والنكبات والحروب تعتبر بمثابة منبهات مطلقة غير مشروطة تؤدي إلى استجابة الخوف وردات فعل فيزيولوجية مطلقة.

د- اتجاه العوامل الإجتماعية[2]: Social factors approach

يرى باحثون آخرون أن أحد العوامل التي تساعد في تحديد ما إذا كان فردُ ما قد تعرض إلى حادث صدمي سيتطور لديه اضطراب ما بعد ضغوط الصدمة وتبعاتها أم لا، هومستوى حصول هذا الفرد على سند إجتماعي Social support.

هـ- التوجه المعرفي[3]: Cognitive approach

يقوم المنظور المعرفي على افتراض مفاده أن الاضطرابات.النفسية ناجمة عن تفكيرغيرعقلاني بخصوص الذات وأحداث الحياة والعالم بشكل عام. وعلى أساس هذا الإفتراض يرى Miller،1995 أن الفرد يدرك الحدث الصادم على أنه معلومة جديدة وغريبة عن مخططه الإدراكي فلا يعرف كيف يتعامل معها، فتشكل له عندئذ تهديداً ينجم عنه اضطراب في السلوك. وهذه الفكرة قائمة على نظرية معالجة المعلومات التي ترجع الى Kelly، 1995 الذي طرح العديد من التفسيرات المختلفة والمألوفة في حينها بخصوص القلق والخوف والتهديد. فهو قد عرف القلق النفسي: بأنه إدراك الفرد للأحداث التي يواجهها على أنها تقع خارج مدى ملاءمتها لنظام البنى لديه.

ووفقاً لدراسات عديدة حول الصدمة تبين أنه لا يوجد هناك نموذج واحد يصلح

---

1 - ميخائيل أسعد، علم الاضطرابات السلوكية، دار الجيل، بيروت، 1994، ص 35، بتصرف.

2 - اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة وآثاره النفسية والاجتماعية على الطفل الفلسطيني نقلا عن: http://cjmes.scholaticahq.com>article تاريخ الزيارة 21/9/2018.

3 اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة وآثاره النفسية والاجتماعية على الطفل الفلسطيني نقلا عن: http://cjmes.scholaticahq.com>article تاريخ الزيارة 21/9/2018.

لتفسير جميع أشكال الصدمة ومراحل عيشها عند البشر، وذلك تبعاً لتنوع مسببات عيش الصدمات النفسية من (الحروب، التعذيب، الكوارث الطبيعية، الاغتصاب)،كما ان هناك بعض الأشخاص تكون استجاباتهم للصدمات النفسية بصورة إيجابية، ويتم تكيفهم مع آثارها المختلفة باستخدام العوامل المختلفة للتكيف مثل التدين والترابط الأسري والإجتماعي والتكافل والعوامل الثقافية والإجتماعية للفرد، ولكن تبقى الآثار النفسية الخطيرة والمختلفة تلك التي تحدث للطفل إذا لم يتم التعامل معها بصورة واعية. وهنا كان تأكيد فرويد على أن الأمراض النفسية ما هي إلا بقايا خبرات صادمة في الطفولة.

ثالثاً: دراسة الحالات، مناقشتها وتفسيرها

1 - ظروف الإجراء

بعد اعتماد تقنية المقابلة نصف الموجهة والطريقة الإكلينيكية في جمع المعلومات الخاصة بكل فرد من مصادرعديدة «مستندات رسمية وطبية، وظروف أسرية وإجتماعية وإقتصادية، جلسات فردية، إختبارات نفسية وعقلية..إلخ»، بالإضافة إلى تحديد اضطراب ما بعد الضغوط الصدمية في ضوء الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع للإضطرابات العقلية dsm4 الخاص بالمحكات التشخيصية لإضطراب ما بعد الضغوط الصدمية، قررنا في مؤتمرنا المنعقد في 28 أيلول 2018، تقديم تلك الحالات التي تمت دراستها وتفسيرها في ضوء المنهج المعتمد الذي يسمح لنا بدراسة معمقة للحالة الفردية في مشكلاتها النفسية والسلوكية، ودوافعها وعلاقتها بالبيئة المحيطة بهدف الوصول إلى رؤية متكاملة حول الأبعاد النفسية والإجتماعية والتربوية والنفس -جسدية، وتقديم مقترحات متعلقة بنتائج الدراسة يمكن الإستفادة منها في أبحاث مستقبلية.

2 - تقديم الحالات، مناقشتها وتفسيرها

أظهر أفراد الحالات المعتمدة في هذه الدراسة، مجموعة أعراض مركّبة وطويلة الأمد لإضطراب ما بعد ضغوط صدمة الحرب، حيث ظهرت آثارها بصورة واضحة في شكل اضطرابات نفسية وسلوكية، تمحورت حول «اضطراب التبول اللإرادي، اضطراب سلوكي عدواني، اضطرابات مزاجية وقلق، إنعكست على شخصيتهم وأدت إلى عواقب وخيمة.

الحالة الأولى: ميرا

1- **تقديم الحالة**: ميرا فتاة تبلغ من العمر 12 سنة (العمر عند زيارة العيادة النفسية)، تعيش في كنف أسرتها المؤلفة من «الأب والأم وميرا وأخيها البكر»، في إحدى قرى جبل عامل الحدودية، في منزل متواضع ومستوى معيشة متوسط. قصد والداها العيادة النفسية بهدف علاج ميرا من اضطراب التبول اللاارادي الذي يحدث ليلاً ونهاراً، بعد معاناة طويلة مع هذه المشكلة.

تعود نشأة هذا الإضطراب إلى ما بعد حرب تموز 2006، بستة شهور، بعد أن تعودت ميرا دخول الحمام، حيث كان عمرها آنذاك 6 سنوات، عايشت هول الحرب طيلة فترة الإعتداء في قريتها مع أسرتها، لتصدم بعد ذلك باستشهاد عمّها (الطفلة المدلّلة لديه). ثُم تمّ إهمال الحالة من قبل الأهل لأسباب مادية من جهة ولبعد المراكز العلاجية من مكان السكن من جهة أخرى .. إلخ.

2- **الإنعكاسات**:

أ- على الوضع النفسي: إن صدمة الحرب كانت بمثابة الجلجلة التي بدأت تعيشها ميرا، إذ غيرت هذه الحرب مجرى حياتها وتركت أثرا عميقاً وبالغاً في نفسها. وما عزّز هذا الأثر استشهاد عمّها، حيث اعتراها تعلّق مفرط بالأب وتثبيت عند المرحلة الأوديبية (3-6) سنوات، وظواهر نكوصّية (تبول لإرادي)، أي رجوع الطفلة ميرا إلى عادات سلوكية سابقة سبق لها تعلمها وإتقانها. الأمر الذي أثّر فيما بعد على حالتها النفسية، من ظهورانفعالات شديدة، وارتفاع القابلية للإستثارة، إضطرابات مزاجية مرتبطة مع المحيط، مشاعر الذنب، وكوابيس ليليّة، بالإضافة إلى قلق الإنفصال، وإختلاط المشاعر، الإتكالية، وتقييم الذات المنخفض، صورة مشوّهة عن الجسد، تضرّر الشعور بالهوية، وصعوبة التوازن بين قابلية الأخذ والعطاء، والخوف من المواجهة، وإنعدام الثقة بالنفس، والخجل والإنطواءعلى الذات.

ب- على الوضع (نفس- جسدي): نشوء إضطرابات نفس- جسمية (أعراض سيكوسوماتية) منها: آلام في المعدة واضطراب في عملية الإخراج.

ج- على الوضع التّعليمي: صعوبة التذكر، صعوبة التركيز، تشتت الذهن، عدم الإنتظام في متابعة الدروس وتراجع في الأداء المدرسي .

د- على الوضع الإجتماعي:

- مع الأسرة: إضطراب العلاقة مع الأم وتعلّق شديد بالأب .

- مـع الأصدقـاء: ضعـف في الجانـب الوجـداني، شـعور بالغربـة عـن الأصدقـاء، الشعور بالدونيـة، الإنسـحاب والإنطـواء وعـدم القـدرة عـلى التفاعـل الإجتماعـي بشـكل طبيعـي، كالحرمـان مـن مشـاركتهم في الأنشـطة خوفـاً مـن حـدوث التبـوّل.

3- التفسير:

إن ظهـور اضطـراب التبّـول الـلاإرادي عنـد «مـيرا» والـذي هـو شـكل مـن أشـكال إضطرابـات مـا بعـد ضغـوط الصدمـة، وشـكل مـن أشـكال الهسـتيريا التحويليـة بحسـب فرويـد، قـد يعـود إلى تجـارب وخـبرات صادمـة مؤلمـة ومهـددة مـن جهـة وإلى تجـارب مؤلمـة ذات طابـع جنسـي، أوعاطفـي مـرّت بـه الطفلـة خـلال طفولتهـا، وهـذه التجـارب تعرّضـت للكبـت إلى أن ظهـرت بشـكل عـرض جسـمي. وتـرى «أنـا فرويـد» في كتابهـا عـن التحليـل النفـسي للأطفـال « إن عمليـة التبّـول الـلاإرادي هـي عبـارة عـن ظاهـرة نكوصيـة تكشـف عـن رغبـات الطفـل وصراعاتـه اللاشـعورية وتجاربـه السـابقة المؤلمـة مـع الأم وذلـك بالعـودة إلى مرحلـة الرضاعـة حيـث كانـت عمليـة التبـوّل تحـدث بصـورة لاإراديـة «[1]. كـما أن تعلـق مـيرا الشـديد بوالدهـا يعـود ربـما إلى حالـة التثبيـت عنـد المرحلـة الأوديبيـة (6-3) سـنوات، أوربـما يشـيرإلى خـوف مـيرا مـن فقدانـه بعـد أن فقـدت عزيـزاً عـلى قلبهـا (العـم الـذي كان يحـل محـل الأب أثنـاء سـفره)، بالإضافـة إلى كـون الأب يشـكل صـمّام الأمـان بالنسـبة إليهـا.

أمـا عـن ضعـف العلاقـات الإجتماعيـة، التـي اتسـمت بالإنسـحاب مـن الأنشـطة اليوميـة والمواقـف الإجتماعيـة فهـو تعبيرعـن تأثيرالقلـق لـدى الحالـة والخـوف مـن التقييـم السـلبي مـن قبـل الآخريـن. وهـذا ينسـحب عـلى تغـير وانخفـاض تقديرهـا لذاتهـا لمجـرد تفكيرهـا في نظـرة الآخريـن لهـا. كـما أن الإنشـغال الزائـد بعيـوب متخيّلـة في مظهـر الجسـد (الجسـد الملـوث) سـبّب لهـا قـدراً كبـيراً مـن الضغـط النفـسي والتوتـر، الأمرالـذي تسـبب في حصـول خلـل لديهـا في أدائهـا الإجتماعـي والوظيفـي.

---

1 - رأفت محمد بشناق ، دراسة في سلوك الاطفال واضطراباتهم النفسية ، ط1، دار النفاس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2001، ص154.

الحالة الثانية: حسن

1- تقديم الحالة: حسن شاب يبلغ من العمر 15 سنة (العمر عند زيارة العيادة)، يعيش في كنف أسرته المؤلفة من خمسة أشخاص: الأم والأب وحسن (الأصغر سناً) وأخيه وأخته، في إحدى قرى جبل عامل قضاء النبطية، في منزل متواضع، ومستوى معيشي متدن.

قصد والداه العيادة النفسية بهدف علاج «حسن» من اضطرابات سلوكية طويلة الأمد (عدوانية وإنتقامية)، بعد أن اتسمت شخصيته في الصغر بالخجل والإنطواء. تعود نشأة هذا الإضطراب إلى ما بعد حرب تموز بعام تقريباً، حيث كان عمر «حسن» فترة الحرب سبعة اعوام، عايش الموت والحياة طيلة فترة الحرب في قريته، شاهد خلالها مشاهد دموية (نقل جثث الجيران بعد دمار حل في منزلهم). ثمّ تمّ إهمال الحالة لأسباب مادية من جهة، وقلة وعي الأهل بعواقب الأمور من جهة أخرى .

2- الإنعكاسات:

أ- على الوضع النفسي: شعور داخلي بالنقص وقلة الثقة، إحباط، شعور داخلي بالغضب، كره، إندفاعية لا شعورية، تبلّد عاطفي،أحلام اليقظة، قلق، شعور بالحزن والضيق، انخفاض في تقدير الذات، إضطرابات عاطفية وجدانية، إضطرابات تكيّفية، كوابيس ليلية، إستثارة لا شعورية، تصوّرات وهواجس سلبية وفقدان الشعور بالأمن النّفسي.

ب-على الوضع (نفس-جسدي): فقدان الشهية وآلام في المعدة.

ج-على الوضع التعليمي: تشتّت ذهني، تراجع في الأداء المدرسي، رسوب متكرّر وصولاً إلى التسرّب الدراسي فيما بعد.

اتسم سلوكه العدواني بالفوضى والشوشرة على المعلم أثناء شرح الدرس، رمي الأوراق على الأرض، الخروج على النظام وعدم اتباع الأوامر، سلوك الإنتقام من الأساتذة، السلوك العدواني العنيف كالخنق والرفس إلى حد إلحاق الضرر بالآخرين وعدم القدرة على ضبط النفس والتحكّم في الانفعالات.

د- على الوضع الإجتماعي: إنعكس السلوك العدواني لهذه الحالة على علاقاته الإجتماعية، حيث فقد محبة الآخرين له، وقوبل بالرفض من قبلهم.

- مع الأسرة: عناد وتحدّ في علاقته مع الأم، سلوك عدائي هجومي اتجاهها، علاقة سلبية مع الأب تجلت في سوء المعاملة من قبل الأب (كالإهمال والصدّ وعدم إشباع الحاجات الأساسية)، وصولاً إلى انعدام

المحبـة والألفـة فيـما بينهـم.

- مـع الأصدقـاء: علاقـة متأرجحـة مـع الأصدقـاء، سـلوك هجومـي، عنـف لفظـي ومـادي، سـلوك هسـتيري يصـل إلى حـدّ الإيـذاء الجسـدي، رفـض مـن قبـل الآخريـن.

3- التفسير:

إن ظهـور السـلوك العـدواني لـدى «حسـن» قـد يعـود إلى الخـبرة الصدميـة التـي تعـرّض لهـا خـلال الحـرب وظـروف القهـر والظلـم والحرمـان والتدمـير ..الـخ، إنهـا عوامـل أدت إلى إحداث تغـيرات بيولوجيـة ونفسـية وسـلوكية، حيـث أن زيـادة التنبيـه في الإحسـاس لديـه (يقـوم مرعوبـاً مـن نومـه في الليـل متصبباً بالعـرق نتيجـة الكوابيـس حـول الخـبرة الصادمـة التـي تعـرض لهـا)، يـؤدي بـدوره إلى ظهـور تصرفـات عدوانيـة لـدى «حسـن»، عبّرعنهـا ظاهريـاً في شـكل عـدوان جسـدي أو لفظـي، التدمـير والإعتـداء عـلى الممتلـكات، التمـرّد والعصيـان والمخالفـة والعنـاد والتحـدّي والتخلـف والتهـوّر والفشـل في الدراسـة، والرغبـة في الإنتقـام.

وقـد يعـود تطـوّر هـذا السـلوك العـدواني إلى عمليـة التنشـئة الإجتماعيـة والتـي تجلّـت بسـوء المعاملـة وعـدم إشـباع حاجاتـه الأساسـية، سـيما وأن «حسـن» يمـرّ في مرحلـة عمريـة حرجـة تشـكل بحـد ذاتهـا أزمـة «مرحلـة المراهقـة»، تسـتدعي أن يتماهـى الفـرد بأبيـه كمثـال أعـلى لـه. إلا أن خيبـات الأمـل المتكـررة والإحبـاط ومـا رافقهـما مـن شـعور بالنقـص، قـد يدفع بالحالـة إلى تبنّـي السـلوك العنفـي كوسـيلة تعويضيّـة للتعبيرعـن ذاتـه وتأكيدهـا، وكأسـلوب في التعامـل مـع الآخريـن.

لقـد شـبه فرويـد هـذه «الشـخصيات العدوانيـة» في مراحـل النمـو الجنسـي «بالتوحّـد بالمعتـدي»، «وهـي حيلـة لا شـعورية مصطنعـة، للتغلّـب عـلى الخـوف حينـا « وأكـون أنـا المعتـدي «مـع الميـل اللاشـعوري لإختـلاق أسـباب غـير الأسـباب الحقيقيـة (التبريـر) ومـا يتضمنـه ذلـك مـن خـداع لأنفسـهم»[1].

---

1 سهير كامل ،الطفل تنشئته وحاجاته، ط2، مكتبة الانجلو المصرية. 1993،ص 17

الحالة الثالثة: مهدي

1- **تقديم الحالة:** مهدي شاب يبلغ من العمر 17 سنة (العمر عند زيارة العيادة)، يعيش في كنف أسرة مؤلفة من أربعة أفراد (الأم والأب ومهدي وأخته الصغرى)، في مسكن تتوفر فيه مقومات العيش الكريم ومستوىً معيشياً جيداً، في إحدى قرى جبل عامل قضاء صور. قصد والداه العيادة النفسية بهدف علاجه من إضطرابات نفسية تجسدت بالحزن الشديد واضطرابات مزاجية متقلّبة، وبعد المقابلات العيادية المعمقة، تبيّن أن مهدي يعاني من اضطراب ما بعد ضغوط صدمة الحرب، فهو قد عايش نصف فترة الحرب في قريته ليعود بعد التهجير إلى منزله ويصاب بلغم أرضي، أدى إلى بتر الطرف السفلي، مع معاناة طويلة الأمد من الألم النفسي والعضوي.

2- **الإنعكاسات:**

أ- على الوضع النفسي: اضطرابات نفسية اتسمت بخلل في المزاج، حزن عميق، نوبات غضب، استثارة زائدة، اضطراب صورة الجسم، إنطواء، خمول، عدم التكيف، خوف، ضيق، أرق، إنشغال داخلي، قلق، كآبة، جرح نرجسي، عجز، إنفعال وتوتّر، خيبة أمل، تقدير هابط للذات، الشعور بالنقص وقلة الثقة بالنفس ومشاعر إنعدام الأمل.

ب- على الوضع (نفس-جسدي): مظاهر فيسيولوجية مصاحبة للإنفعال والتوتّرالنفسي مثل الصداع، وحركات إيمائية لا شعورية في حركة العين واحمرارالوجه.

ج- على الوضع التّعليمي: تراجع في مستوى التحصيل الدراسي، تشتّت ذهني، غياب متكرّر.

د- على الوضع الإجتماعي: اضطراب العلاقة مع المحيطين به داخل الاسرة، مواقف إنفعالية متوتّرة، إعاقة حركية تؤثرعلى أدائه لأدواره الإجتماعية، اعتماده على الآخرين وتجنب الإختلاط معهم.

3- **التفسير:**

إنه نتيجة تعرض «مهدي» للبتر، لاحظنا أن الحادث اللغمي كان مولداً للصدمة لأنه يحمل مواصفات العنف والفجائية، وأيضا لأنه كان حادثاً خطيراً بمعنى DSM4، حيث تعرّض لتهديد الموت، وعانى من إستجابة لضغط حاد، فطوّر إضطراب صدمي على المدى البعيد، إنعكس على بنيته النفسية نتيجة عدم الإكتمال الجسمي (فقدان أحد أطرافه، مضافاً الى نقص في القدرات الجسمية)، في شكل جرح نرجسي، ترجمته وعبرّت عنه مشاعر الحزن والقلق، وقد حرضّت على مستوى التوظيف النفسي للحالة دخوله في سيرورة حداد، لتجاوز ما كان عليه سابقا»، وتقبّل «ما هو عليه حاليا»، أي لتجاوز (النقص الظاهري الجسمي) و(الداخلي النرجسي)، ذلك «أن صورة الجسم لها علاقة مباشرة مع شعوره بذاته أوب (أناه) أوحبّه لذاته، أو لأناه، وتقديره لها سيما وأن «مهدي» في مرحلة تشكيل الهوية وما لصورة الجسد من تأثير في تشكيلها. لقد استطاع «مهدي» أن

يتكيف مع حالة البتر مؤمنا بالقضاء والقدر لأنه لا يستطيع التعبير عن مشاعر معارضته لما يحدث له. أي أنه تقبل الفقدان في الواقع الخارجي» واقع غياب الطرف المبتور«إلا أنه على المستوى النفسي لم تنجح سيرورة الحداد ومآلاتها لديه، فهو لا زال يصارع ضد الحزن والقلق الناجمين عن عدم تقبّل النقص الخارجي الجسمي.

أما على مستوى علاقاته مع المحيطين، نجده يمرّ بمشكلات سوء تكيف وحالة من القلق الإجتماعي تسود العلاقات الإجتماعية لديه، ليصبح دائم الشعور بأنه يشكّل عبء على أدوار الآخرين نظراً لعدم قدرته على القيام بأدواره نفسها مقارنة بقدرته وتفاعلاته قبل الإصابة، أو لعدم قدرته على تحمّل آراء الآخرين السلبية تجاه إصابته.

ويمكن أن نفسر العلاقة السببية بين البعد المعرفي والمؤشرات الجسمية إلى أن التقييمات المعرفية التي يتوقع الفرد أن يصدرها الآخرون عنه، تجعله في حالة توتر وقلق، في نظرتهم إليه، ولآرائهم السلبية التي تصدر تجاهه. إن هذه الآثارنفسية في الدرجة الأولى وإجتماعية في الدرجة الثانية، تبدأ بتغيير مفهوم الفرد عن ذاته انطلاقاً من التغيير في صورة جسده التي كوّنها، وذلك ينسحب على تغيّر وانخفاض تقديره لهذه الذات لنجده فيما بعد حبيس الصدمة يعيش في عزلة وانطواء.

بعد هذا العرض المفصل للإنعكاسات المرتبطة بالصدمة من الناحية العرضية، توصّلنا من خلال التحاليل التي أجريناها إلى مجموعة من الملاحظات من بينها:

1- على مستوى التأثير: إن الأفراد المتعرضين لحادث من شأنه توليد صدمة، لا يطوّرون جميعهم اضطرابات ما بعد صدمية، فالأمر مرتبط بمقاومة الصدمة أوعدم مقاومتها كنتيجة لتأثيرتلك العوامل. كما أن الإضطرابات التي يطورّها بعضهم ليست متشابهة كلياً بالإضافة لإختلاف درجاتها من حيث الشدّة والأزمان. كما أنه لا يمكن تطوير الأفراد لإضطرابات ما بعد صدمية انطلاقا من تأثيرعامل واحد « خبرة الحرب » مثلاً أو « العامل الأسري» أو حتى من تأثير مجموعة من العوامل، لأنه لا يمكن دراسة تلك التأثيرات انطلاقا من عامل أوحد أو من بعض العوامل كما سبق وقلنا.

2- على مستوى التفاعلات: إنه وفي مجال الأمراض النفسية لا نتحدث عن سببCAUSE وحيد يمكن اعتباره شرطاً ضرورياً وكافياً لقدوم الإضطراب، ولهذا نتحدث عن عامل خطر مسبّب وعن سلسلة سببية Une chaine causal وحتى عن سلاسل سببية متعددة تحتوي على عوامل خطر (وراثية، بيولوجية، محيطية، عائلية، مدرسية ..الخ)، فتأثير أحد هذه العوامل لا يمكن فهمه جيداً في معزل عن العوامل الاخرى.. كما أن كل فرد متميز بفردانيته «البنيوية والتاريخية والوضعية» المتمثلة في العامل الضاغط / الحادث الصادم والعوامل المرتبطة به « حيث تلعب هذه الخصوصية في التفاعل دورها من أجل جلب بعض الإضطرابات ما بعد الصدمية.

الخلاصة:

يتبين لنا أن تأثيرات الحرب لها إمتدادات عبر الزمن، فقد تتظاهر بشكل آني، أوبعد فترة كمون، وقد تكون عابرة، أو تصبح مزمنة وتستمرمع الفرد مدى الحياة. فالتهديد الأمني الذي عايشته تلك الحالات فجّر الاستعدادات التي ظهرت من خلال العوارض والإضطرابات السلوكية والنفسية لديهم، مما لا يساعد في تطويرصحة نفسية إيجابية لهم، ليعيشوا حالة انسداد الآفاق المستقبلية وانعدام التوازن النفسي. «فلا صحّة وفاعلية للوظائف العقلية والجسمية والمعرفية والعاطفية والإجتماعية في بنية نفسية سقيمة، ولا إمكانية للنماء بدون صحّة البنية النفسية ووظائفها وتفاعلها مع محيطها الحيوي»[1].

ففي هذا السياق تظهر أهمية التدخّل المبكر واتخاذ الإجراءات العلاجية النفسية المناسبة لأي عارض طارئ مباشرة، لمنع معاناة الإضطرابات اللاحقة للصدمة النفسية كونها المكوّن الأساسي الذي يؤثر في اضطراب ما بعد الصدمة، والعمل على إعادة ترسيخ الأمن والسلامة والحماية عند الأطفال، وتشجيعهم على مواصلة الأنشطة الإعتيادية ومساعدتهم على فهم انطباعاتهم الحسّية القوية وتزويدهم بمعلومات وخبرات أكثر...إلخ. وتقع هذه المسؤولية على الأهل بالدرجة الأولى، إذ ثمّة اعتبارات عليهم أن ياخذوها بعين الإعتبار في عملية الدعم النفسي كالإصغاء، والمشاركة والإحتواء..إلخ، لتكون مساندتهم النفسية ناجحة مع أطفالهم، ومن ثمّ مسؤولية الدولة وما تحتضن من منظمات عالمية تعنى بشؤون الطفولة ومؤسسات تربوية وجمعيات أهلية وتطوعية، أن تتعاون في ما بينها وباستمرار في توفير المساندة النفسية الملائمة للطفل الذي عانى من صدمات الحروب. ونحن نعلم ما قدمه المجلس الأعلى للطفولة وفق برنامجه الوطني للدعم النفسي الإجتماعي للأطفال المتأثرين بالحرب وعائلاتهم بالتعاون وبدعم من منظمة اليونيسيف وغوث الأطفال البريطاني وبالتنسيق مع عمل الجمعيات الأهلية والدولية العاملة على الأرض وبالتنسيق والشراكة مع منظمة العناية الطبيّة الدوليّة واليونيسيف ومراكز الخدمات الإنمائية التابعة لوزارة الشؤون الإجتماعية وغيرها.... إلا أن هذه المساندة لم تشمل كل المتضررين نفسياً من الحرب من جهة، ولم توفر خدماتها في مسألة الدعم النفسي بشكل مستمرمن جهة أخرى.

كما يتوجب على الدولة إنشاء مراكز الرعاية الصحية –النفسية في المناطق اللبنانية كافة وبصفة خاصة منطقة جبل عامل التي تفتقر إلى مثل تلك المراكز، للتخفيف من آلام الناس ومعاناتهم وللحدّ من انتشار الأمراض النفسية على أنواعها وتطورها. وتجدر الإشارة إلى دراسة أجرتها جمعية إدراك 2018 «أن هناك شخص واحد من بين 4 أشخاص في لبنان، يعاني من اضطرابات نفسية».

بناء على ما تقدم، فإنه لا يجوزالإستهتاربالصحة النفسية والتغافل عنها، فهي مع تزايد تعقيدات الحياة وتصاعد متطلباتها وتحدياتها، لم تعد ترفاً، بل أصبحت على العكس من المستلزمات الأساسية تماماً كضرورة إشباع الحاجات الأولية.

---

1 - مصطفى حجازي، الصحة النفسية ، المركز الثقافي العربي، ط3، 2006 ،ص53، بتصرف

المراجع:

أولا باللغة العربية:

1. إتفاقيـة حقـوق الطفـل اليونيسـيف http: / /www.unicef.org>files>crc_arabic تاريـخ الزيـارة11 أيلـول 2018.
2. ابراهيم،ميخائيل أسعد مشكلات الطفولة والمراهقة، دار الجيل ، بيروت، ط2، 1994.
3. أسعد ميخائيل،علم الاضطرابات السلوكية، دار الجيل، بيروت، 1994، ص 35، بتصرف.
4. السيد عبد الرحمن، محمد نظريات الشخصية، القاهرة، دار قباء، 1998 ، ص 55.
5. الحنفي،عبد المنعم موسوعة التحليل النفسي،القاهرة، مكتبة مدبولي،ط4، 1994.
6. الزغلـول عـماد عبـد الرحيـم ، مبـادئ علـم النفـس التربـوي، دار الكتـاب الجامعـي، دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة- الجمهوريـة اللبنانيـة، الطبعـة4، 2016.
7. النابلـسي محمـد أحمـد، الصدمـة النفسـية، علـم نفـس الحـروب والكـوارث ، ط1، دار النهضـة العربيـة، بـيروت.1991.
8. بـول سـون وآخـرون، ترجمـة أحمـد عبـد العزيـز سلامة،سـيكولوجية الطفولـة والمراهقـة، ط1، الكويـت،1986.
9. حجازي مصطفى ، الصحة النفسية، المركز الثقافي العربي، ط3، 2006 ، بتصرف
10. خلاصـة الدليـل التشـخيصي والاحصائـي الخامـس للاضطرابـات العقليـة DSM5، الـدار العربيـة للعلـوم نـاشرون، ترجمـة واعـداد الدكتـور انـور الحـمادي، الطبعـة الاولى، 2015.
11. دويـدار، عبـد الفتـاح سـيكولوجية النمـو والإرتقـاء، دار المعرفـة الجامعيـة، الأزرايطـة، الطبعـة الأولى، 1996 .
12. سي موسى،عبد الرحمن وزقار رضوان، الصدمة والحداد عند الطفل والمراهق، الجزائر، 2002.
13. شـيخاني،أحمد الدعـم النفـسي الاجتماعـي للاطفـال في ظـل الحـروب والنزاعـات، عـمان، دار الاعـلام للنـشر والتوزيـع، 2013.
14. فرج.عبـد القـادر طـه وآخـرون، معجـم علـم النفـس – التحليـل النفـسي، دار النهضـة العربيـة، بـيروت، ط1 ب ت.
15. كامل، سهير الطفل تنشئته وحاجاته، مكتبة الانجلو المصرية ط2 1993.
16. لابـلاش جـان وبونتاليـس، معجـم مصطلحـات التحليـل النفـسي، ترجمـة مصطفـى حجـازي، المؤسسـة الجامعيـة، بـيروت، ط4، ج.ب2002.
17. محمـد بشـناق،رأفت دراسـة في سـلوك الاطفـال واضطراباتهـم النفسـية، دار النفـاس للطباعـة والنـشر والتوزيـع، لبنـان،ط1 2001.
18. مكماهون جلادينا التكيف مع صدمات الحياة مكتبة العبيكان الرياض ط1 2002.
19. يعقوب غسان سيكولوجيا الحرب والكوارث ودور العلاج النفسي دار الفارابي بيروت 1999.

ثانيا: باللغة الاجنبية

1. American psychiatric Association 1994: Dagnostic and statistical manual of mental Disorder (DSM4).4th،Washington American psychiatric،D.C:A.P.A.Author.p 427-429.،2009،
2. De clerq.M&Lebigot Manuel de psychique Paris Masson 2001.
3. Feldman.B.Board review series behavioral science .2nd newyork harwel publishing 1994.
4. Lplanche et Pantalis vocabulaire de la psychanalyse sous la direction de Daniel Lgache Puf،edition Delta Paris 1997.

ثالثا: الأنترنت

1	http://cjmes.scholaticahq.com.article	اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة وآثاره النفسية والاجتماعية على الطفل الفلسطيني، تاريخ الزيارة 2018/ 9/ 21.
2	http://www.psyinterdisc.com/mlaf49.html	محمد حمدي الحجار، الآثار الإجتماعية والنفسية الناجمة عن الكوارث الطبيعية، الثقافة النفسية، مركز الدراسات النفسية والنفس-جسدية – العدد التاسع والأربعون – المجلد الثالث عشر – ك2 2002 تاريخ الزيارة 2018/ 9/ 13.
3	www.univ-tebessa.dz.master-2369	جلال فرشيشي، أثر الصدمات النفسية في حدوث الإضطرابات السيكوسوماتية لدى مرضى القصور الكلوي، دراسة عيادية، ل 8 حالات بمستشفى محمد بورقلية، جامعة قاصدي مرباح، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، قسم علم النفس وعلوم التربية، 2014، تاريخ الزيارة 2018/ 9/ 20.
4	www.ykadri.ahlamontada.net.t624-topic	المنهج الإكلينيكي، 20 نوفمبر،2012 . تاريخ الزيارة، 2018،9،16.
5	http://books.google.com.lb/books	فاطمة عبد الرحيم النوايسة، الضغوط والأزمات النفسية وأساليب المساندة،2011.
6	pff.alanba.com.kw/pdf/12dec2008.	الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية تأثير الحرب على الأطفال والشباب بعد حرب يوليو 2006 الأنباء 27ديسمبر2008.تاريخ الزيارة2018/ 9/ 10.
7	http;//www.unicef.org>-files>crc_arabic.	إتفاقية حقوق الطفل اليونيسيف تاريخ الزيارة 2018/ 9/ 11.

إنه مدرِّب وإعلامي متخصص في تكنولوجيا المعلوماتية .

مديـر مؤسسـة حلـول تقنيـة المعلومـات المتخصصـة في مجـال برمجـة مواقـع الإنترنـت وتطبيقـات الهواتـف .

مؤسّس موقع جنوب لبنان الإخباري .

عضو في أكثر من جمعية ونادٍ .

شارك في العديد من ورشات العمل المحلية والعالمية .

له إطلالات تلفزيونية حول موضوعات تكنولوجية ، ومواضيع **الأمن الإلكتروني**.

لقـد وضعـتُ خطـاً تحت **الأمـن الإلكـتروني** ، لمـا للحـرب الإلكترونيـة (الحـرب السـايبيرية)، مـن تأثـير عـلى أمـن الـدول والعلاقـات فيـما بينهـا . وقـد اصبحـت الـدول تُخصـص ميزانيـات لهـذا النـوع مـن الحـروب ، وتُنشيءُ ألويـة في الجيـش مُختصّـة فقـط بالحـرب الإلكترونيـة ، مهمَّتهـا رسـم وتنفيـذ اسـتراتيجيات الدفـاع والهجـوم . إنهـا حـربٌ مـن غـير إراقـة دمـاء ، تُنفَّـذ عـن بُعـد ، إلاّ أنهـا مـن أخطـر الحـروب الحديثـة.

الاعلام في جبل عامل



الاعلامي أ. علي عميص

مواقع الإنترنت في لبنان ثورة بحاجة لقانون.

في البداية لا بد من إلتفاتة حزن فبعد السفير ها هي دار الصياد ومن ضمنها صحيفة الانوار ستقفل أبوابها في القريب العاجل بعد أكثر من ٦٤ سنة من العمل الصحفي، في هذا السياق يشير أنطوان خوري مدير مكتب إلهام فريحة لـ صحيفة «الأخبار» إلى أن قرار الإغلاق يعود لأسباب عدة، منها: الظروف الاقتصادية الصعبة التي يمرّ بها لبنان والعالم العربي. كما أن الدولة اللبنانية لا تدعم هذا القطاع، وسط شحّ لا مثيل له في الإعلانات. لذلك قررت «الصياد» إقفال العدد الورقي نهائياً والتركيز على الموقع الإلكتروني.

في ٩ أيلول عام ١٩٩٥ كان لصحيفة "الشرق الأوسط" الأسبقية على مستوى الدول العربية في دخول عالم المواقع الإلكترونية وأصبحت جميع موادها الصحافية اليومية متوافرة الكترونياً للقراء على شكل صور عبر شبكة الإنترنت. تلاها صحيفة "النهار" التي أصدرت طبعة الكترونية يومية خاصة بالشبكة إبتداء من الأول من شباط عام ١٩٩٦. ثم تلتها في المرتبة الثالثة "الحياة" في الأول من حزيران ١٩٩٦ و "السفير" في نهاية العام نفسه.

من هنا نستطيع القول انه في ظل عصر الإنترنت ومواقع التواصل الإجتماعية أصبح الإعلام والإعلاميين يتجهون إلى الوسائل الإعلامية الالكترونية ويبتعدون عن وسائل المرئي والمسموع والوسائل المكتوبة مما أدى إلى إقفال بعض المؤسسات الصحفية.

إنه عصر التكنولوجيا والصورة، عصر الأخبار العاجلة ووصولها إلى الناس بأسرع وقت ممكن، مما أدى إلى بلورة وسائل إتصال وتواصل جديدة، تتيح إمكانيات كبيرة جداً تخدم المستخدمين بشتى الطرق. ولكن التحدي الكبير هو في كيفية الحفاظ على مصداقية الأخبار والتمييز بين الشائعات والأخبار المزيفة.

بالعودة إلى لبنان نجد أن رقعة التطور التكنولوجي في إزدياد مستمر، وثورة مواقع

الإنترنـت في أوج عصرهـا وتطورهـا، بحيـث أنـه لم يعـد في بلـدة مـا إلا ونجـد أكثـر مـن موقـع إعلامـي وإخبـاري يديـره شـباب هـم في الأغلـب ليسـوا مـن ذوي إختصاصـات الإعـلام. وفي ظـل إنعـدام القانـون الـذي ينظـم عمـل المواقـع الإلكترونيـة في لبنـان، نجـد أن الصحافـة اللبنانيـة في مـأزق وإنحـدار نحـو الهاويـة، بحيـث أنـه لم تعـد المقـالات والتحليـلات تأخـذ الحيـز الأكـبر لـدى المتابعـين والقـراء، وأصبحـت صـور النشـاطات والفيديـو تحتـل المرتبـة الأولى. أي إننـا بعيـدون كل البعـد عـن القـراءة وعـن اللغـة العربيـة التـي تتهـاوى أيضـا بفضـل لغـات الشـات والكتابـة عـلى الإنترنـت.

بعـد كل مـا تقـدم أصبـح لزامـاً عـلى الدولـة اللبنانيـة وعـلى نوابنـا الأعـزاء بـضرورة وضـع التشريعـات والقوانـين التـي تنظـم عمـل المواقـع الالكترونيـة وتنظـم العلاقـة بـين المواطـن والدولـة بحيـث انهـا تضمـن لـكل الأطـراف حقوقهـم، وتعطـي الصلاحيـات لـوزارة الإعـلام وللمجلـس الوطنـي للإعـلام في تنظيـم عمـل هـذا القطـاع، ضمـن معايـير عالميـة، وفي الوقـت نفسـه بـأن تعطـي الحريـة لأصحـاب المواقـع بالتعبـير بحريـة دون المـس وملاحقتهـم بجرائـم متعـددة وبحجـج وقوانـين لم يتـم تحديثهـا منـذ عـشرات السـنين.

في الختـام إلتفاتـه صغـيرة للتلفـاز الـذي بعـد عـدة سـنوات سـيتم إسـتبدال المحطـات والتجهيـزات وصحـون البـث وغيرهـا مـن الأمـور المكلفـة بشـكل كبـير، بطـرق حديثـة ومتطـورة بحيـث سـتكون كل المحطـات منقولـة عـبر الإنترنـت ممـا يتيـح مشـاهدتها مـن أجهـزة التلفـاز الذكيـة ومـن الهواتـف النقالـة وممـا يتيـح إمكانيـة إختيـار البرنامـج الـذي نريـده وفي أي وقـت نريـد.

الاعلام الالكتروني في جبل عامل



المديرة التنفيذيّة لجمعيّة روح العمل الاجتماعية
«المهندسة جنى خليل حوماني»

تُعتبر المواقع الإلكترونيّة من الأدوات العصريّة التي تساعد على ربط الناس ببعضهم البعض، وتناقل المعلومات وتداولها، ولها أهميّة عظمى وكبيرة بشكل لا يوصف.

لهذا فإننا نجد إقبالاً كبيراً من مختلف أصناف الناس على إنشاء المواقع الإلكترونيّة سواء العامّة أو المتخصّصة بما يحقّق الفائدة العامة أو الخاصة على حدّ سواء.

وفيما يلي بيان لأهمّيّة المواقع الإلكترونيّة القصوى في منطقة جبل عامل:

- تساعد على ربط الناس ببعضهم البعض، من خلال المنتديات العامّة أو المتخصّصة، أو مواقع التواصل الاجتماعيّ، أو مواقع التعارف المنتشرة، أو أي موقع آخر يقدم خاصيّة التعليق على الموادّ التي ينشرها للعامّة.
- تقدم المعلومات لمختلف الناس بشكل مجانيّ، وذلك من خلال المواقع الموسوعيّة، والمواقع المتخصّصة بأنواع معيّنة من العلوم والمعارف المتعدّدة، وهذا السبب مكّن كلّ من يتوق للمعرفة من امتلاكها، حيث يستطيع مختلف الناس الحصول على المعلومة الصحيحة في العديد من الأوقات بكلّ سهولة ويسر.
- حلّت مشاكل ضيق الوقت، وقلة المال بالنسبة للأشخاص، وذلك من خلال تسريع إنجاز الأعمال الروتينيّة، وعلى رأسها الأعمال الحكوميّة، فمعظم الأعمال اليوم يمكن تنفيذها بشكل سهل وسريع للغاية من خلال المواقع الإلكترونيّة المتخصّصة بمثل هذه الأمور، كالمواقع الحكوميّة، ومواقع البنوك، وغيرها.
- سهّلت على الناس عملية التسوّق من خلال مواقع التسوق الإلكترونيّ، حيث صار باستطاعة الإنسان شراء أيّ غرض يحتاجه من أيّ مكان في العالم من خلال هذه المواقع، وتتميز هذه المواقع بموثوقيتها العالية، بالإضافة إلى تيسير سبل دفع المال فيها.
- سهلت على الأفراد الراغبين بإكمال مسيرتهم التعليمية القيام بهذا الأمر، وذلك من

خـلال التعلـم عـن بعـد مـن خـلال التواصـل مـع الجامعـة التـي انتسـب إليهـا الطالـب، وفي هـذا السـياق فقـد سـهلت المواقع الإلكترونيّـة عـلى الطـلاب النظاميـين في الجامعـات الخاصّـة واللّبنانيّـة عمليـة تفقـد علاماتهـم وأوضاعهـم، والتواصـل مـع أسـاتذتهم مـن خـلال بوابـات الطالـب المتوافـرة عـلى المواقـع الإلكترونيـة لهـذه الجامعـات.

نذكر بعض المواقع الإلكترونية الإخباريّة التي أخذت حيّزا مهمّا في منطقة جبل عامل:

- موقع اتحاد بلديات جبل عامل www.itihadjabalamel.com Union Of Jabal Amel Region Municipalities) 9617850181 /) 9617850681
- موقع جبل عامل 96176890101) www.jabalamel.org)
- موقع النبطية حاضرة جبل عامل96178801109) nabatiehlb.net)
- موقع جنوبية janoubiah.com (editor@janoubiah.com)
- شبكة أخبار جبل عامل jabalamelnews.com
- موقـع يـا صـور961 / 961 07351506 / 961 07350506) www.yasour.org (03919183
- موقع النشرة اتحاد بلديات جبل عامل Elnashra www.elnashra.com
- موقع الديار www.addiyar.com
- موقع جنوب لبنان 96181844092) www.southlb.com)

يطلـق "موقـع جنـوب لبنـان" بـإدارة الأسـتاذ عـلي عميـص خدمـة مجانيـة لـكل متابعيـه مـن أجـل مشـاركتهم مناسـباتهم الاجتماعيـة بأفراحهـم وأحزانهم.ينـشر أخبـار وصـور الـولادات والأعـراس وأعيـاد الميـلاد وكل المناسـبات الاجتماعيـة لمتابعـي الموقـع.

- موقـع المقاومـة الإسـلامية في لبنـان: المقاومـة والعلـماء في جبـل عامـل www.moqawa-ma.org
- موقع المقاومة الإسلامية عصائب أهل الحق www.ahlualhaq.com
- موقع يا هلا 96170654797) www.yala.org)

(موقـع يـا هـلا الالكـتروني يعنـى بالشـأن العـام ونقـل الاخبـار السياسـية والمحليـة في الجنـوب اللبنـاني والاغـتراب وكانـت انطلاقتـه عـام 2013 ويحصـد الموقـع نسـبة كبـيرة مـن المشـاهدة والمتابعـة)

- موقـع صـدى فـور بـرس /9613532202 /9613854674) sada4press.com

(9613961943

- مجموعة الوادي الإعلاميّة 96170790305) (www.wadipress.com

مجموعة الوادي الاعلامية هي مجموعة اعلامية الكترونية، تعنى بنقل أحداث الوطن على الأصعدة كافة إضافة إلى أخبار اللبنانيين في الاغتراب وبعض القضايا الساخنة

- موقع بنت جبيل جنوب لبنان /9617452111) www.bintjbeil.org (96171010310

موقع «بنت جبيل» يعنى بتغطية أخبار لبنان والعالم كما ينقل لزواره آخر الأخبار الاجتماعية والمنوعة - مواكبة 7 /24

- موقع مرجعيون www.marj-eyoun.com

موقع مرجعيون. كوم هو موقع شامل وعام ينتمي إلى لبنان بمكوناته الطائفية والأحزاب المقاومة.. يسلط الضوء على اخبار قضاءي مرجعيون وحاصبيا والجوار..

- موقع بكرا أحلى إيد بإيد (961363627418) www.BOUKRAA7LA.com
- موقع شبكة الزهراني الإخبارية www.ZNN-LB.COM

في أيار ٢٠١٥ أُطلق موقع ”شبكة الزهراني الاخبارية“ ZNN على شبكة الانترنت، وهو أول موقع اخباري في قضاء الزهراني.

شبكة الزهراني الاخبارية متخصصة في نشر الاخبار السياسية، الانمائية، الاقتصادية، الرياضية، العلمية، الثقافية، التربوية، الاجتماعية والنقابية... وفي نشر الأبحاث والدراسات والمقالات المتخصصة اضافة الى نشر اللقاءات والمقابلات الصحافية مع الشخصيات والقيادات كافة.

يحرص الموقع على حرية التعبير ومصداقية الاخبار وموضوعيتها لذا يتم التأكد من المصادر قبل النشر اعتماداً على مصادر رسمية أو شبه رسمية لمصدر الخبر والابتعاد قدر المستطاع عن الاشاعات المنتشرة.

موقع شبكة الزهراني الاخبارية هو موقع مستقل وعلى مسافة واحدة من الجميع ولا ينتمي الى أية جهة سياسية.

- موقع مرجعيون. كوم هو موقع شامل وعام ينتمي إلى لبنان بمكوناته الطائفية والأحزاب المقاومة.. يسلط الضوء على اخبار قضاءي مرجعيون وحاصبيا والجوار..

إنه ابن أبيه بكل ما للكلمة من معنى ، ويكفينا ذلك اعتزازاً وشرفاً وتكريماً.

هو طبيب القلب والشرايين من خرّيجي جامعات فرنسا .

رئيس بلدية النبطية من 1998 إلى 2010 .

نائب رئيس الاتحاد العالمي للتجمعات والمراكز والأندية الثقافية في اليونسكو .

من مؤسسي هيئة حماية البيئة والمحافظة على التراث في النبطية عام 1983 .

عضو في أكثر من جمعية صحية وثقافية وانسانية في لبنان .

عضو فاعل في هيئة تكريم العطاء المميَّز في محافظة النبطية ، ورئيس سابق لهذه الهيئة .. والكلام يطول ...

إنه الدكتور مصطفى بدر الدين

التطور الصحي في جبل عامل:

(الطب في جبل عامل بين الماضي والحاضر)



د. مصطفى بدر الدين

الطب في جبل عامل هو قصة تاريخ لشعب مناضل ، عاش حقبات زمنية فيها كل الصور لأحداث بذلت فيها الدماء وانتفضت فيها الهامات، مقاومة للقهر والحرمان للإحتلالات والتسلط والإستعمار فأصبح لجبل عامل دستور ، جمعه العاملي في عقود وقرون من الأزمان ، دوَّن فيه شروط الحياة الحرة الكريمة ، حياة العزة وهناء العيش والمحبة بالرغم من كل ما مرَّ عليه من ويلات متنوعة .

حقبات حاولت التغير في قناعاته وتاريخه وتراثه وتقاليده، فكانت المجابهة في النضال والجهاد وفي كل مهنة أو حرفة كما في الطب أو غيره . فحفظ إرثه ، والصورة الصحيحة الناصعة عن جبل عامل ورجالاته مستمداً قوته من علمه وثقافته وإيمانه، إنه جبل عامل جسر الثقافة العلمي، والمكنون الديني، لجميع معتقدات الأديان والأطياف إنه جبل الصمود وملجأ الحضارات ينشر في مخزون قراه ودساكره حوزات علم، وبحاثة ، وكتّاب فقه وأدب وشعر، ومناضلين مزارعين ، يؤرخون حياتهم في جميع لحظاتها في حلوها ومرها.

وهنا ما كان للطب إلا كما لغيره حصته من الحرمان ، وقد تعرض في كل عصر لكل ما تعرضت له الشرائح الإجتماعية وهذا حسب الواقع السياسي والإقتصادي والإجتماعي آنذاك ..

فالطب في كل زمان هو الذي قد يخدم أصحاب القدرات والساسة مرة ، أو أصحاب النفوذ مراراً ، أم طب الفقراء كأن ترجع ممارسته للشخصية والنفسية والقيم التي كان يتحلى بها الطبيب ، أو الساسة لسد النفقات والأكلاف والمتطلبات الصحية ، بفضل أصحاب الآيادي البيضاء الغيورة.

إذن لقد كنا دائماً أمام طب يدعمه مسؤول أو طبيب يعمل بضميره ، فيطبق رسالته الإنسانية بصدق وأمانة ، ولكن الحاجة كانت دائما تتطلب تطوراً علمياً ، وواقعاً اقتصادياً، واستحداث الإمكانيات المادية والعلمية ، وهذا ما كنا نحتاجه في كل حين الى مجتمع عادل واع ، يدعم ويشارك ويضحي وينتج ، يقف الى جانب المستضعفين من المواطنين ، فيه الأمان الصحي.

إذن هي قصة سلطة ومال ، وثقة بين الساسة والمواطن ، لأن الفقدان والنسيان والإستهتار وعدم التعاون وغياب القيم الإنسانية والمبادئ ، هم جميعاً كانوا وسيبقون السبب الأساسي في انهيار المجتمعات وهذا سيؤدي الى فشل التطبيق العملي في كل مهنة كما في الطب .

إن رسالة الطب ومبادئها وشروطها هو أن يكون الطبيب تام الخلق لصاحبها، يتحلى بجيد الروية مع العقلانية ، وخير الطبع ، وكتوم لإسرار الأهل . صفات سامية لصورة انسان، رغبته أولا في إبراء المريض ، يعالج الفقراء كما الأغنياء سواسية، إنه الطبيب السليم القلب ، عفيف النظر، صادق اللهجة ، عيناه ترى ولا يخطر بباله مما يراه سوى المنفعة لغيره، مأمونا على الأرواح والأموال ، إنه يعالج عدوه بصدق نية ، كما يعالج حبيبه ، هذا هو دستور كل من مارس مهنة الطب ، وفي كل الأزمان ، وعليه تبنى التواريخ الأصيلة ، وعليه تقاس درجات النجاح ، مهما كانت القدرات، أو الوسائل المتبعة ، حتى لو كانت طقوس تنجيم، او ابراء بجراحة او بدواء سحري حديث ، او عشبي قديم ، وحتى بالكلمة الطيبة، لأن التعامل هو مع الإنسان ، والتقرب اليه لمرضاة الله قبل كل شيء، وفي الدنيا ليكسب الإطراء والصيت الحسن .

هذه هي الروح الصحيحة للطب وطرقه المتبعة ، التي يجب الحفاظ عليها . تغذى بالمعرفة والتطور في كل حين، بل تطبق في كل عصر ، كسب الخبرات الصادقة قوة واستمرارية تطبيق . وهذا ما حاوله أبناء جبل عامل في ممارسة الطب ، ليتركون الأثر الطيب في تاريخهم الأصيل وليستفيد منهم أهل طيبون .

أثر الطب عند العرب في جبل عامل :

الى جانب التطور العلمي ، والضرورة لمعرفة الثوابت الأخلاقية للطواقم الطبية ، نرى أن علينا العودة للتاريخ ولدرس الروابط التاريخية العلمية ، التي كان لها الأثر للإستفادة من جهابذة الطب عند العرب . وهنا لا بدَّ أن نذكر المدارس القديمة وعلى المثال مع (تيو فراستوس) و(هيبو قراط) و(جالينوس) وغيرهم .... سلسلة تواصل وعلم لرواد الطب كإبن سينا والرازي وغيرهم من الأطباء العلماء من المسلمين والنصارى .، نضيف

عليهـم يحي بـن اسـحق ، والحـارث بـن كلـدة ، وابـن وصيـف الصـاري، وكان هـذا يفتـح نوافـذ وأبـواب عديـدة عـلى تلـك الأزمنـة والحقبـات الماضيـة ، وقـد جمعـت فيهـا كتـب منهـا الإبريسـم (الجامـع أو المجمـوع) ، وتذكـرة الشـيخ داوود الإنطاكـي ، وقـد دوَّن فيهـا كنـوز الطـب الأولى مـع انتشـار المستشـفيات في مـدن عربيـة عريقـة ،والمعروفـة بالبيمارستان يـمارس فيهـا الطـب بمسـتوى العـصر .

تواصـل جبـل عامـل مـع مـدن عديـدة ، وقـد اشـتهر منهـا : دمشـق ، بغـداد ، وسـامراء... لمـداواة الأمـراض الجلديـة والـبرص والشـلل، وكان للجراحـة مـكان مهـم ، فـازدادت الخـبرات لتسـتند الى الملاحظـة والإختبـار، وتطـور المعرفـة في علـم الصيدلـة والكيميـاء مـع فـن تركيـب الأدويـة واسـتعمال الأعشـاب في العقاقـير .

وهنـا نلحـظ الخـرق والتحـول والفـرق بـين الطـرق العلميـة المسـتحدثة ، لتأخـذ مـكان الطـرق المتبعـة لـدى العرافـين والمنجمـين وأصحـاب التعاويـذ ، واسـتعمال التمائـم والتـي كانـت تقـوم مقام الإيحـاء أو التوجيـه النفسـاني . ولا ننكـر بقـاء أثرهـا حتـى يومنـا هـذا في اسـتعمال التجبـير والكـي بالنـار مـع الحجامـة وغيرهـا مـن الطـرق التـي يعلـق عليهـا المريـض ومحيطـه أمالهـم للإستشـفاء والـبراء مـن مـرض عضـال .

إذن وفي هـذه الأجـواء كان للحضـارات عواصـم وشـعوب فرضـت طرقهـا ونمـط أسـاليبها للعيـش وممارسـة مخزونهـا العلمـي .كذلـك لا بـدَّ مـن ذكـر القـدس واسـطنبول والقاهـرة حتـى عواصـم اوروبيـة ، حـضرت بعلمهـا وقدراتهـا ومكنوناتهـا ، مثـل السـلطنة العثمانيـة ودول الإسـتعمار، وكانـت المواكبـة لإهـل جبـل عامـل لهـذا الأمـر بصـور وطـرق ووسـائل سـنأتي لذكرهـا .

هنا لا بدَّ من العودة لنذكر كما سبق :

أولاً : مواكبـة علميـة وبقـدرات متوفـرة كانـت تسـتفيد منهـا الطبقـة الراقيـة أي أصحـاب الشـأن ، والمدعومـة ماديـاً ومعنويـا ، وهـي الطبقـة القـادرة للتحـرك داخـل جبـل عامـل وخارجـه مـع الـدول المحيطـة أو أوروبـا .

ثانيـا : الطبقـة ذات القـدرات الذاتيـة الفرديـة ، والتـي تسـتطيع توفـير الإحتياجـات للإسـتفادة مـن وضـع صحـي أو تطـور علمـي في كل حـين .

ثالثـاً : الطبقـة الشـعبية التـي كانـت تحـت رحمـة الأمـر الواقـع ، لا تسـتفيد إلا مـن طـب وقائـي ومـا يسـتطاع مـن الحصـول عـلى خدمـات صحيـة وبرحمـة كريـم أو حاكـم عـادل .

وهنـا نصـل الى رابـع نقطـة: وهـي مسـتوحاة مـن واقـع الحرمـان واسـتفحال الأمـراض في

جبل عامل والتي نطلع عليها من خلال المخطوطات والكتب ، ومنها كتاب للأخ خضر ضيا والذي هو بعنوان تلك الأيام (معتقدات وطقوس) .

حكايات عن الحمة المثلثة، واسنان ابو قروش، وقاطع شرش الإنس، وكبسة النفساء .....

هكذا كان يمر جبل عامل مع تاريخه الأليم متعلقاً بمثله وقيامه رغم الحرمان .

جبل عامل في القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين :

تطور الطب الذي يعتمد على الطب الوقائي والطب الشفائي .

أولاً : الطب الوقائي: والذي تطور بفضل معرفة الجراثيم وعلم المناعة بالوقاية والرقابة، مع أخذ الإجراءات ، وإعطاء النصائح . بدأ يعطي ثماره لمكافحة الأمراض ولصيانة الإنسان، منها الدعوة الى سياسة النظافة العامة ، وتفادي الأماكن الموبوءة، والإبتعاد عن كل ما يضعف المناعة او الحصانة ، بسبب عدوى أو التعرض لإرهاق أو اجهاد أو لجوع وسقام وحرمان . وبالرغم من هذه السياسة الوقائية استطاع ابن جبل عامل ان يواجه الطبيعة بقوة بنيانه ، ينجو بفضل الفرز الطبيعي لإخطار الأمراض ، فهو استطاع العيش بسبب مناعته القوية ولهذا نرى أن أهلنا اشتهروا بالرجال الأشداء .

ثانيا : الطب الشفائي : والذي اشتهر بإكتشاف المضادات الحيوية وغيرها من العقاقير والطرق الجراحية ، ولوجود المؤسسات التي استطاعت أن تقدم الخدمات الأولية .

اذن تطور ودخول الى عصر حديث وبالرغم من كل التسهيلات والوسائل والخبراء، لا بدَّ أن نذكر بأن في هذه الحقبة التي بدأنا فيها الطب الحديث دخلت المواجهات والتداعيات المعاصرة .

إذ أن انسان هذا العصر راح يوغل في لجج الحياة الزاخرة ، ويغوص في غمرات الشهوات القاتلة، والملذات والمخدرات والكحول والمجون .....يرهق جسده وأعصابه وقلبه في مذالقها ومسالكها الصحيحة ، وإذا به يشيب ويشيخ ويهرم وهو فتى يصبح زبيباً في آوان الحصرم .... لتصبح المشكلة لا مشكلة حميات وأوبئة ،بل مشكلة نفسانيات وعصبيات ، تكاد تهد جيل مجتمعنا الحديث ، بالرغم من التقنيات الحديثة والتطور العلمي الذي حوَّل الطب الى علم فعَّال . ومع هذا كله نكون قد وصلنا وأصبحت المادة هي المراد لتطور مشبوه ، فيه الضغط الإجتماعي المتزايد مع الحياة الراهنة ، فيها الضغوطات المتصاعدة مع سباق طليق رهيب نحو الإثراء، كيفما كان ، وكل ذلك ضمن بيئة تهدم الكيان الانساني ، ترفع ضغطه وتتلف كبده.... وبهذا ومع كل الطب الحديث وبجميع مستكشفاته ووسائله لن يستطع أن يعوض أو يرد للإنسان حياة هي في الأصل قصيرة الأمد محدودة النفس، فكيف بها وقد أصبحت في عصر السرعة والتواصل الإجتماعي المشبوه سريعة المرور خاطفة العبور واسعة الخطى مستعجلة الأجل ....

سرد نعود به لنتذكر صوراً ومحطات تاريخية لطب جبل عامل نتعرف من خلاله إلى تاريخه .

نتعرف أولاً إلى شخصيته وعيشه في أرضه مع أريحيته وثقافته وواقع العيش الذي مرَّ عليه . وبالسرد نستطيع التعرف الى تطوره الصحي من خلال دراسة الثقافة والبنيان الإجتماعي، وفي كل مرة نرى أن العنوان كان رغم الظروف هو سعي ابن عاملة العيش بكرامة ، فهو الذي كان

يفر من الذل مفتشاً على راحة عائلته ، فيلجأ للهجرة وللسفر، أو يلتحق بالصابرين ويخضع لقانون البقاء في أرضه ، يهادن أو يثور ، يعمل ويشقى ، يقاوم ويناضل ، للحصول على حقوقه ولو بعد حين ، يتعايش مع وضع صحي و يخضع لما هو متوفر من قدرات شفائية قد يؤمنها مسؤول في سلطة أو غيور في تلك الأزمنة .

وهنا لا بدَّ من الذكر أن التطور العلمي في جبل عامل ، وبدء المنافسات العلمية، وبناء الجامعات الطبية في الشرق الأوسط : في الشام وبيروت والقاهرة ، كانت تواكب انتفاضات ثورية وتحررية مع حركات ثقافية الى جانب التطور الطبي .

فكان الخريجون في كل الإختصاصات حتى لمس الأدب والثقافة مع شعرائهم وكتابهم الوصف للطب وممارسته بقصائد وابيات شعرية، وطرائف من المدح والغزل والهجاء، وهذا يوضح الصورة بأن جبل عامل هو قلعة المبدعين في كل المجالات ونذكر منهم :

- العالم حسن كامل الصباح
- والشاعر الحوماني
- والأديب سلام الراسي
- والسيد جعفر الأمين
- والسيد حسين محمد ترحيني
- والسيد نور الدين بدر الدين
- والعلماء الكبار ثالوث جبل عامل
- والشيخ عبد الحسين صادق
- والسيد محسن الأمين

و يمكن القول بأن الأدباء والأهل أصحاب الأريحية شاركوا بأبيات شعبية أيام الكوليرا :

صرخ دحنون بالضيعة ينادي مية الشرب لا تشربوها
قوم بالليل حط الها حديدة وقبل الضو قوموا سخنوها

هذه عينة من الطرائف والقصص للذين أرخوا الحقبة العاملية بالقصائد والأبيات الشعرية القيمة ، وذكروا الأطباء الأوائل في القرن العشرين . فكانت تلك الحقبة شهادة على الصراع ما بين التجارب القديمة في الأداة الشفائية المتبعة الحديثة لذكر النقلة النوعية التي ظهر فيها طلائع الشباب الذين قصدوا الجامعات للتخرج ليمارسوا مهنتهم الشريفة في الطبابة والجراحة والصيدلة.

هم رجالات جبل عامل الذين بمعرفتهم وحكمتهم وتفانيهم وتضحياتهم، استطاعوا تقديم الخدمات الجلى لأهلهم ، وهم الذين عادو ليسكنوا الأرياف، يعطون المثل في القدوة والتعاطي الإنساني ، والمحافظة على القيم ، هؤلاء جميعاً الذين تشاركوا مع المثقفين،

والسياسـين ، والأدبـاء، والأطبـاء ، والعـمال، والمزارعـين في بنـاء الحيـاة العامليـة . وسـعوا مـن أجـل الكرامـة وعـزة العيـش وهنائهـا في ربـوع جبـل عامـل .

درسـوا عـادوا ناضلـوا ليكملـوا الرسـالة ، ويواكبـوا التطـور العلمـي ، جمعـوا العـالم في جنوبهـم العامـلي (النبطيـة ، مرجعيـون ، بنـت جبيـل ، ديـر ميـماس ، الخيـام ، وحاصبيـا، وجزيـن ...) دون أن ينسـوا التواصـل مـع أطبـاء صيـدا وصـور . هـؤلاء الرجـال الذيـن أحـضروا جامعـات العـالم الى جنوبهـم، ولكنهـم هـم بقـوا يزرعـون أنفسـهم في أرضهـم بالرغـم مـن الظـروف العصيبـة أيـام الإجتياحـات والحـروب والإحتـلالات مـن الإسـتعمار الى الصهاينـة . وقدمـوا التضحيـات دون منـة أو اسـتغلال مـادي. لمجتمعاتهـم بذلـوا الغـالي والنفيـس ، ولـو بإمكنيـات متواضعـة في أيـام الشـدة والقصـف والإستشـهاد، بالإضافـة الى الإلتحـاق بمـدارس المقاومـين، حتـى وصلنـا الى مـا وصلنـا عليـه اليـوم. مـن بنـاء المؤوسسـات والجامعـات والمستشـفيات وبنـاء المسـتوصفات والمراكـز الطبيـة والإسـعاف والمختـبرات .

إنـه تطـور علمـي سريـع ، مـع خدمـات متطـورة ، ووسـائل حديثـة ، مـع صروح منتـشرة . تقـدم مـا تقـدم مـن خدمـات بـروح تنافسـية شريفـة ، ضمـن الأوضـاع الأمنيـة والإقتصاديـة والسياسـية المعروفـة دون الدخـول بالتفاصيـل ....

أمثولـة هـي ذكرياتنـا مزروعـة في ضمائرنـا حيـاة كريمـة لشـعب أحـب أرضـه والذكـرى لا تبقـى الا في القلـب والضمـير

في أحضـان جبـل عامـل حيـث الآبـاء والأجـداد هـو درسٌ لـكل جيـل تعلمنـاه مـن أسـاتذة وحكـماء هـو درسٌ في التضحيـة والوفـاء والمـودة ممزوجـة بالعلـم والإيـمان لشـخصية مارسـت مهنـة الطـب .

الطـب العامـلي لم يكـن إلا نتيجـة الحكمـة والعقـل والمعرفـة والديـن ، فالطبيـب لا يـرى أمراضـا ، بًـل يـرى مريضـاً نسـتمع اليـه بـكل اهتـمام وآذان صاغيـة بيننـا وبينـه المـودة والمونـه والدعـاء للشـفاء ، طـب يـرى العـلاج قبـل المـال، والحنـان للـروح وليـس فقـط للجسـد ، فهـل يـا تـرى سـتعود ..؟ أو سـتبقى تلـك العبـارات اللطيفـة الحلـوة التـي كان يحملهـا الأهـل في زيـارة عيادتنـا .

هـؤلاء الأهـل الذيـن كنـا نأنـس برؤياهـم أصحـاء . وللكلمـة الدعـاء والـترضي التـي كانـت هـي بـدل المعاينـة .

أخيراً ولا بدَّ لي الا أن أنقل بعض الدرر العاملية التي كان يرددها أهلنا الأحباء بالقول :

السـلام عليـك يـا سـيد والتـي كانـت تسـبق كلمـة الطبيـب ويلحقهـا الله يـرضى عليـك والشـكوى للمريـض كانـت كالتـالي :

اذا نامت مية الميذنة اليوم أنا نمت ياحكيم من الوجع .

وغيرها :

ما فيش مغز إبرة إلا بيوجعني يا حكيم، مستوية مثل كوز التين، معجون لحمي بعظمي مثل الواقع عن السطح...

ويختمها صرت أحسن يا حكيم ان شاء الله الأرض تطلعلك والسما تنزلك يا ابن السيد علي ، وتمسك التراب بإيدك ويصير ذهب ...

والسؤال الأخير فهل ستبقى تلك العبر تنبع من القلوب في زمان الوزاراة والدولة في القرن الواحد والعشرين تحت رحمة شركات التأمين والضمان الصحي أو منة الآيادي البيضاء . سؤال سيبقى بانتظار اجابة التاريخ.

التعليم العالي في لبنان وجبل عامل



د.حسين ظاهر

بعـد متابعتـي لوقائـع مؤتمـر الجنـوب الثـاني (جبـل عامـل تاريـخ وواقـع)، ازددتُ إلمامـاً ومعرفـة بتاريـخ هـذا الجبـل الأشـمّ ، تاريـخٌ يوقـض فينـا روح التضحيـة والوفـاء لـلأرض والوطـن ، ويزيـد مـن عزمنـا وتصميمنـا عـلى رفـض الظلـم والاسـتعمار والخنـوع والاستسـلام. كـما يسـتثيرنا تعلُّـقُ أهـل جبـل عامـل بالعلـم ، وتَوقهـم للمعرفـة ، ولـو تحـت السـنديانة او في الجامـع ، او في المـدارس الدينيـة والأكاديميـة . وخـير دليـل عـلى مـا نقـول ورودُ كوكبـة منـيرة مـن أسـماء المفكريـن والأدبـاء والشـعراء ، والثـوار المقاومـين، والعلـماء والمبدعـين والمخترعـين و في مقدمهـم حسـن كامـل الصبـاح و رمـال رمـال وغيرهـما .

وإذا كنـا نعتـزّ ونفتخـر بهـذا المـاضي المشـعّ والمجيـد ، إلاّ إننـا نحـزن لواقـع التعليـم في جبـل عامـل، وبخاصـة التعليـم العـالي الأكاديمـي . إذ إنَّ جبـل عامـل كان يفتقـر لوجـود جامعـات عـلى أرضـه . مـا شـكَّل عبـأً ثقيـلاً عـلى الطـلاب القادريـن عـلى متابعـة التعليـم العـالي غـير المتوفـر إلاّ في العاصمـة . أمـا غـير المقتدريـن ماديـاً فقـد ضلّـوا محرومـين مـن متابعـة دراسـاتهم العليـا ، مـا شـكَّل خسـارة للعديـد مـن المواهـب والطاقـات الكامنـة .

وبـما أنَّ الزمـلاء الذيـن تناولـوا في أبحاثهـم مسـائل التعليـم والثقافـة والتربيـة لم يطرقـوا أبـواب التعليـم العـالي الأكاديمـي ، وجـدتُ نفسي ، كرئيـس لهـذه الجلسـة (الواقـع التعليمـي والصحـي في جبـل عامـل) ، مضطـراً أن أُلقـي الضـوء ، ولـو بصـورة سريعـة ، عـلى التعليـم العـالي في جبـل عامـل. لعـلَّ ذلـك يُكمـل البحـث ويُميـط اللثـام عـن تاريـخ و واقـع التعليـم العـالي في هـذه المنطقـة مـن لبنـان.

ومـن المؤسـف القـول أنَّ منطقـة جبـل عامـل ، التـي تمتـدُّ مـن نهـر الأولي شـمالي صيـدا إلى حـدود فلسـطين المحتلـة جنوبـاً ، ضلَّـت محرومـة مـن وجـود مراكـز للتعليـم العـالي حتـى سـبعينيات القـرن المـاضي .

ومـن المؤسـف أكثـر أنَّ دخـول التعليـم العـالي آنـذاك إلى جبـل عامـل (الـذي اصبـح يُعـرف

بلبنان الجنوبي) ، لم يكن نتاج خطة تربوية أو استراتيجية للتعليم العالي في الأطراف البعيدة عن العاصمة؛ وإنما كان نتيجة لاشتعال الحرب اللبنانية (1975 – 1990) سيِّئة الذكر ، التي عطَّلت معظم المرافق الحيوية في العاصمة ومنها الجامعة اللبنانية .

لذا أُنشئت عام 1977 فروعٌ للجامعة اللبنانية في صيدا ، سُمّيت فروع لبنان الجنوبي. وفي العام الجامعي 1979 – 1980 انقسمت هذه الفروع إلى كليات مستقلة هي : كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ومعهد العلوم الاجتماعية ، ومن ثم كلية الصحة والمعهد العالي للتكنولوجيا عام 2001 .

ونشأ في صيدا عددٌ من الجامعات الخاصة هي : الجامعة الأميركية للعلوم والتكنولوجيا (AUST) عام 2005 ، و الجامعة اللبنانية الدولية (LIU) عام 2006، وجامعة القديس يوسف (اليسوعية) عام 2010 ، وجامعة الجنان عام 2011 ، ومركزها الأساسي في طرابلس.

أما في النبطية ، حاضرة جبل عامل ، فقد أُنشىء لأول مرّة فرعٌ للتعليم العالي سنة 1986 ، هو الفرع الخامس لكلية العلوم في الجامعة اللبنانية . ثم تأسّست شعبة لكلية العلوم الاقتصادية وادارة الأعمال سنة 1989 ، والتي تحولت إلى فرع مستقل عام 2009 . والجدير ذكره هنا أنَّ هاتين المؤسستين لم ينعم اهلهما بانتظام العمل والأمن والاستقرار إلاّ بعد اندحار قوات العدوّ الصهيوني عن التلال المطلَّة على منطقة النبطية عام 2000 .

هذا على الصعيد الرسمي ، أما على مستوى التعليم الخاص فقد أُنشئت جامعات ومعاهد بعد تحرير الجنوب من رجس الاحتلال الإسرائيلي عام 2000 (باستثناء مزارع شبعا وتلال كفرشوبا) . فتأسست الجامعة اللبنانية الدولية (LIU) عام 2006 ، والجامعة الأميركية للثقافة والتعليم 2006 ، ثم معهد المنار الجامعي الذي يتميز باعتماده اختصاصات جديدة مطلوبة في سوق العمل ، مركزه في النبطية الفوقا ، جادة الرئيس نبيه بري . ثم توسع هذا المعهد فأقام فرعا ثانيا في العباسية – مدخل صور الشمالي ، وفرعاً ثالثاً في بئر السلاسل – طريق عام كفردونين – خربة سلم . ويوجد في النبطية معاهد مهنية أخرى مثال معهد أجيال ومعهد الآفاق ...

وعلى ساحل جبل عامل ، نجد في منطقة الزهراني جامعة فينيسيا (2012)، ومعهد الوفاء الفني ، ومعهد الميادين .

وفي صور يوجد ايضاً جامعات ومعاهد و شعب نذكر : شعبة كلية العلوم للجامعة اللبنانية – تتبع الفرع الخامس . وشعبة لكلية السياحة التابعة للجامعة اللبنانية . اما

على مستوى التعليم العالي الخاص في صور فنجد : الجامعة الإسلامية، والجامعة اللبنانية الدولية ، وكلية جويا الجامعية، ومعهدين للمنار سبق ذكرهما ، ومعهد الآفاق ، ومعهد أمجاد ، والمعهد الفني ، ومعهد الإمام الصدر للعلوم التمريضية .

إنَّ التعليم الجامعي في جبل عامل هو جزء لا يتجزأ من النظام التعليمي الرسمي الذي تشرف عليه وزارة التربية والتعليم العالي في لبنان . وترتبط حداثة التعليم العالي في جبل عامل ، إلى حدٍّ كبير ، بحداثة التعليم العالي الرسمي من جهة ، إذ تأسست الجامعة اللبنانية الرسمية عام 1951 ، وبالاعتداءات والحروب الإسرائيلية المتكررة على معظم مناطق جبل عامل من جهة أخرى .

اما التعليم العالي الخاص في لبنان فتعود جذوره إلى اواسط القرن التاسع عشر ، حيث أنشأت الإرساليات الأجنبية مدارس ومعاهد ما لبثت أن تحوَّلت إلى : الجامعة الأميركية البروتستانتية ، ذات اللغة الإنكليزية ، والتي تأسست في بيروت عام 1866. وجامعة القديس يوسف (اليسوعية) ذات الثقافة واللغة الفرنسية ، وتأسست عام 1875 .

وفي اوائل ستينيات القرن العشرين ، أسس جمال عبد الناصر جامعة بيروت العربية ، بمناهجها وثقافتها العربية ، وأحدثت ، مع الجامعة اللبنانية ، شيئاً من التوازن بين الثقافات في التعليم العالي في لبنان .

وبعدما وضعت الحرب اللبنانية أوزارها عام 1989 إثر اتفاق الطائف ، ونظرا للسياسات النيوليبرالية التي انتهجتها الحكومات ، كرَّت سُبَّحة التراخيص للجامعات الخاصة في لبنان . فكان منها ما هو جِدّي وأكاديمي ، ومنها ما هو تجاري ، معَ ما يحمل هذا التعبير من غشٍّ وتزوير وتبخيس للمستويات . هذا وخضعت عمليات الترخيص أحياناً لمبدأ المحاصصة الطائفية والمذهبية ، على حساب الأهلية والشروط القانونية والوطنية . هذا الأمر يستدعي تدخلاً من الدولة وممارسة رقابة جديّة وفعالة على المناهج ، وعلى الأهلية والأمانة لهيئات التدريس والإدارة، حفاظاً على رُقيّ مستوى التعليم الجامعي في لبنان ..

أما الجامعة اللبنانية، التي يبلغ عدد طلابها اليوم تسعةٌ وسبعون ألف طالبة وطالب، أي ما يوازي نصفَ مجموع طلاب التعليم العالي في لبنان، من مختلف الاختصاصات، وتواكبهم في مسيرتهم العلمية نخبة من الأساتذة البحاثة ، وهم متخرجو الجامعة اللبنانية وأكثرِ من ثلاثين دولةً حول العالم ، إنَّ هذه الجامعة ، وفق رئيسها البروفسور فؤاد ايوب ، تعمل بشكل دؤوب على وضع خطط واستراتيجيات من شأنها تطويرُ نظام التعليم العالي ، ومواكبةُ المستجدات ، ومتابعةُ ما يحتاجه سوق العمل، وفتحُ مجالات واختصاصات جديدة.

وتتّبع الجامعة نظاماً حديثاً في التعليم، هو نظام الأرصدة (LMD) ليسانس – ماستر – دكتوراه ، وأبرمت اتفاقياتِ تعاون مع الاتحاد الأوروبي وفرنسا . وقد حقق العديد من طلابها إنجازاتٍ عالميةً ونالوا براءاتِ اختراع. ويشهد الواقع أنَّ خريجي الجامعةِ اللبنانية يتصدرون الناجحين في مباراة مجلس الخدمة المدنية ، وفي امتحانات الدخول إلى القضاء، والسلك الدبلوماسي وغيره من الوظائف.

إنَّ الآمال الكبيرة والطموحة التي يبديها أهلُ الجامعة اللبنانية ، من أجل النهوض بالتعليم العالي وتطويره ، تبقى متواضعةً أمام الامكانات المتاحة ، وأمام عجز الدولة عن تلبية كافة المستلزمات . إذ إنَّ من واجب الدولة الاهتمامَ بإعداد الأساتذة في مختلف المجالات والتخصصات، وتسهيلَ مهماتهم لأداء رسالتهم بنجاح . كما ينبغي توفير المناخات الملائمة والمساعدة للطلاب، وتشجيعُهم على متابعة الدراسات العليا ، وتدريبُهم على اتخاذ القرار، وتأهيلُهم لقيادة المجتمع. فالجامعة مؤسسةٌ تعليمية ، نهضوية تنموية لخدمة الوطن والمواطن . من هنا تأتي أهميةُ وضعِ استراتيجية تطويرية للجامعة، لمواكبة التحولات التي يشهدها العالم. وذلك من خلال التركيز على الجوانب الآتية :

1 – تطويرُ المناهج والبرامج الأكاديمية ، على أن يترافق ذلك مع برامجَ تدريبيةٍ تتلاءم مع احتياجات أعضاء هيئة التدريس المتجدِّدة، من خلال ورشاتِ عملٍ وحلقاتِ بحثٍ تعزِّزُ المناهجَ الدراسيةِ والإبداع . فالتنمية المهنية لأعضاء هيئة التدريس ، تُعتبر محوراً رئيسياً لإحداث التغيير، واكتساب المهارات والقدرات المعرفية ، والمقوِّمات السلوكيّة الحضارية.

2 – إنشاءُ مراكزِ أبحاثٍ ومختبرات علمية ، وتأمينُ دعم ماديٍّ كافٍ للأبحاث العلمية ، واستقطابُ الكفاءات ، وتوجيهُ البحث العلمي لخدمة التنمية ، وتيسيرُ مَهمة النخبة المميّزة من الأساتذة والباحثين . ما يُمكّن الجامعةَ من التوصل إلى اكتشافات علمية جديدةٍ ، تواجه تحدياتِ العصر.

3 – تشجيعُ التبادل العلمي والمعرفي والبحثي ، وتوثيقُ التعاونِ بين مراكز الأبحاث العربية، واقامةُ الدورات التدريبية والزيارات الأكاديمية، ودعمُ المواهبِ الخلاقة ، وتأهيلُ أصحابها ليكونوا قادة الاقتصاد المعرفي في المستقبل . لعلَّ الجيلَ القادم يستطيعُ استعادةَ مجد العرب والمسلمين في العلم والمعرفة والاكتشافات .

4 – تأمينُ بيئة أكاديمية تساعد الطلاب على التفوُّق والتميُّز ، وتطويرُ البُنيةِ التحتيَّة لِتقنيَّةِ المعلومات والخدْمات الإلكترونية ، وإتاحةُ فرص الوصول إلى الإنترنت بأعلى مستوى ، والإفادةُ منه ، ليس فقط في مجال الأبحاث ، وإنما ايضاً استخدامُه للترفيه،

والنشـاطات الأدبيـة والفنيـة وغيرهـا مـن النشـاطات التـي تسـاهم في صقـل شـخصية الإنسـان .

5 - رفـعُ مستوى مهـارات الخرّيـج ، وتعزيـزُ شـخصيته ، وتوجيهُـه لحضـور الفعاليـات الثقافية، والمحـاضرات، وممارسـةِ الأنشـطة الإبداعيـة . والاهتـمامُ بتنميـة روحِ المنافسـة الرياضيـة الشريفـة . وتعزيـزُ القيَـم الأخلاقيـة والإنسـانية ، التـي تحـترم التعدُّديـةَ والتنـوُّع، وتعـترف بالآخـر، بعيـداً عـن أيِّ شـكل مـن أشـكال العنصريـة والتعصُّـب . وتمكـينُ القيـادات الشـابة الخلاّقـة مـن المناصـب القياديـة ، اسـتناداً إلى الكفـاءة والجـدارة . وتدعيـمُ التجـاربِ المعرفيـة لمجتمـع الطـلاب ، بحيـث يتمكنـون مـن المشـاركة في الشـؤون والقضايـا العالميـة .

إزاء كل هــذه الطموحــات والتطلُّعــات ، يؤلمنــي ، كأسـتاذ في كليـة الحقـوق والعلـوم السياسـية في الجامعـة اللبنانيـة ، تزاحـمُ عـددٍ كبـير مـن الأسـئلة والتمنيـات : كـم أتمنـى أن أرى عـلى سـبيل المثـال، مجمَّعـاتٍ للجامعـة اللبنانيـة ، في الشـمال والبقـاع والجنـوب ، عـلى غـرار تجمُّـع الحـدث الجامعـي في بـيروت . فترتـاح الجامعـة مـن عـبء ايجـارات الأبنيـة الجامعيـة ، المتناثـرة وغـير المؤهلـة ، وتسـتغني عـن هـذا العـدد مـن الفـروع والشُّـعَب في المناطـق ، والتـي تفتقـر أساسـاً لأدنـى مقوِّمـات العمـل الأكاديمـي، مـن مختـبرات ومكتبـات حديثـةٍ، ومراكـز أبحـاث وتجهيـزات .

نتساءل ،أنا و زملائي ، عن أسباب التقطير في الميزانية السنوية للجامعة اللبنانية ؟

وعـن مـدى قـدرة الأسـتاذ الجامعـي عـلى الاهتـمام بالبحـث العلمـي ، مـن غـير دعـم مـادي، وفي ظـروف معيشـية صعبـة ؟

وعـن إمكانيـة الأسـتاذ عـلى التفـرغ للكتابـة والتأليـف ، إذا لم يكـن بمقـدوره دفـعُ تكلفـة الطباعـة ؟

ونتسـاءلُ عـن جوائـز الإبتـكارات العلميـة ، ومِنَـح التفـوُّق ، والبعثـات إلى الخـارج ؟ وعـن سـوق العمـل للخرّيجـين ؟

إنَّ البـونَ شاسـعٌ بـين مـا نرغـبُ و مـا يتحقـقُ عـلى أرض الواقـع ، بـين النصـوص والتمنيـات وترجمـة الأقـوال إلى أفعـال ، وتنفيـذ الاتفاقيـات المبرمـة .

أقـول هـذا ويحـدوني الأمـل أن أرى التعليـم العـالي في لبنـان شـامخاً متطـوراً ، ومواكبـاً لاحتياجـات ومتطلبـات العـصر المتجـدِّدة بسرعـة هائلـة . إنَّ اللبنانيـين يسـتحقون الريـادة والتفـوّق ، فهـم عـلى مـرّ التاريـخ ، أهـلُ الثقافـة والعلـم والإبـداع ، ومـن هـؤلاء بـرز أبنـاء جبـل عامـل المقـاوم المعطـاء . و الـذي يُسـطِّرُ أهلـه باسـتمرار أصنافـاً مـن المعرفـة والابتـكار ، وألوانـاً مـن البطولـة والتضحيـة والوفـاء.

التعليم العالي في جبل عامل

تأخر دخول التعليم العالي إلى منطقة النبطية تحديدا ، بسبب الاعتداءات الإسرائيلية التي استمرت منذ عام 1976 حتى عام 2000 . إذ إن الفروع الجامعية التي كان مقررا لها أن تكون في النبطية نُقلت إلى صيدا بسبب القصف الإسرائيلي العشوائي على منطقة النبطية . فتأسّست في صيدا عام 1977 فروع لبنان الجنوبي مجتمعة . ثم انقسمت إلى كليات مستقلة في العام الجامعي 1979 – 1980 ، وهي : كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ومعهد العلوم الاجتماعية ، ومن ثم كلية الصحة ، وبعدها أُنشيء المعهد التكنولوجي عام 2001 .

اما الفرع الخامس لكلية العلوم الذي أُقيم في النبطية عام 1986 ، فقد عانى طلابه واساتذته كثيرا من الخوف والخلل في انتظام العمل بسبب عدم الاستقرار الأمني . وكذلك كان الحال بالنسبة لشعبة كلية العلوم الاقتصادية وادارة الأعمال التي أُنشئت في النبطية عام 1989 ، والتي تحولت فيما بعد إلى فرع مستقل عام 2009 ، هو الفرع الخامس لهذه الكلية .

أما بالنسبة للتعليم العالي الخاص ، فقد انتشر في جبل عامل بعد الاندحار الإسرائيلي عن الجنوب تحت وطأة ضربات المقاومة اللبنانية الإسلامية والوطنية . ففي صيدا أُنشئت الجامعة اللبنانية الأميركية، والجامعة اللبنانية الدولية عام 2006 ، وجامعة القديس يوسف عام 2010 ، وجامعة الجنان عام 2014 .

وفي النبطية نشأت ايضا جامعات ومعاهد خاصة وهي : الجامعة الأميركية للثقافة والتعليم عام 2006 ، والجامعة اللبنانية الدولية ايضاً عام 2006 ، ومعهد المنار الجامعي عام 2013 ويتميز باعتماده تدريس اختصاصات جديدة ومطلوبة في سوق العمل مثال قسم الإدارة والتربية ، وقسم الهندسة والتكنولوجيا ، وقسم الصحة ، وقسم الفنون . وللمعهد ثلاثة فروع : الأول في النبطية الفوقا ، والثاني في العباسية ، والثالث في بئر السلاسل .

المحور الخامس:

الواقع الاقتصادي والاغتراب في جبل عامل



واجه جبل عامل الاعتداءات والحروب الاسرائيلة التي امتدت حتى العام 2006 (حرب تموز) ، وأسهم ذلك في تضرر جميع البنى التحتية للاقتصاد اللبناني، وتراجع الناتج المحلي إلى النصف، وكانت له آثار كبيرة على المستوى المعيشي للسكان ، والذي انعكس بدوره على كافة البنى ، وتطلب خططا اقتصادية جديدة لاعادة التوازن الى المنطقة . وفي هذ الاطار سيعالج هذا المحور من المؤتمر واقع القطاعات الاقتصادية ومساهمة الاغتراب في دعمها .(أ . علي جوني)

يترأس هذا المحور الدكتور مصطفى بدر الدين .

- طبيب قلب وشرايين خريج جامعات فرنسا .
- رئيس بلدية النبطية (2010-1998).
- نائب رئيس الاتحاد العالمي للتجمعات والمراكز والاندية الثقافية في اليونسكو.
- من مؤسسي هيئة حماية البيئة والمحافظة على التراث في النبطية 1983 .
- عضو جمعيات ثقافية وانسانية وصحية في لبنان والعالم .
- رئيس سابق لهيئة تكريم العطاء المميز

رئيس الجلسة



د. مصطفى بدر الدين

أيها الكرام . أتشرف برئاسة هذه الجلسة القيمة التي من خلالها يمكننا الدخول إلى أعماق مكنونات الإنسان العاملي .

هذا الإنسان الذي لطالما أغنى ثقافته بتفاعلاته مع محيطه، وتراب أرضه، مفتشاً عن لقمة عيشه التي لم يردها الا كريمة ، في أزمان صعبة مؤلمة ، ولكنه استطاع أن يعطيها المقام والقيمة الوازنة الغالية ، لأنها مغمسة بعرق جبينه و رويت بدمائه وتضحياته ، كما روى تراب الأرض المجبول بعرق جبينه لتحيا هذه الارض العاملية . . . .

أيهاالأحبة:

لا أريد أن أدخل في التفاصيل لأنني اليوم أرى نفسي وموقعي ومكانتي في المعرفة هي نقطة في محيط العلماء وأصحاب المعرفة والإختصاص، لذلك أستبدل المعرفة بالتعبير وبالثناء والشكر مع الاحترام والتقدير لكم جميعا ، من منظمين ، ومشاركين، وداعمين، وخبراء في كل المجالات ، لأنكم أرّختم جذورنا وأصولنا وذكرياتنا وتجاربنا في هذا المؤتمر الرفيع المستوى، ليبقى للتاريخ وللأجيال ولمن أرادوا الاطلاع على الحقبات الهامة التي مرَّ بها جبل عامل وأهله بكل أطيافهم من رجالات ومواقف ومحطات وتضحيات في سبيل المحافظة على العزة والكرامة، لينعم بها الأبناء ويفتخر بها الأجداد والآباء والأمهات .

واقع إقتصادي ، واقع اغترابي أو الأثنان معا في تاريخ جبل عامل كلهم يصبون في خانة واحدة إنها الحياة العاملية مقاومة صراع ونضال وكل ذلك لحفظ الرزق والعيش الكريم .

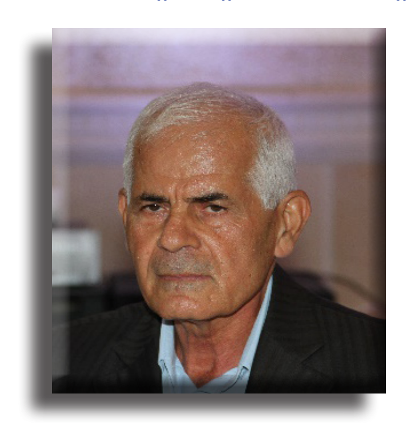
كما الاغتراب تضحية ، مغامرة ، صبر وإبداع ، إنها مجموعة من الصفات وقد شبعت في روح واحدة من أجل البقاء . ولا داعي لكي نذكر بالصعوبات والمعاناة لشعوبنا في أرض عامل والاغتراب على هذا الطريق الشاق، إنها حقبات مرة عاشها الأهل بالاضطهاد والحروب والاحتلالات والتنكيل والقهر والقلة في أزمان مليئة بالطغاة والمستكبرين والمهيمنين والمتسلطين على الروح والجسد .

حقبات نضال عاشها الأهل بين أشجار الزيتون وسنبلة القمح وبيادر الحصيد كانت تمر الأيام مراراً هانئة وفي غيرها نعض على الجراح ننزف شباباً يهاجرون فتلجأ للاغتراب.

هذا هو العاملي المسافر المناضل المتفاعل المتواصل مع العالم بأكمله والأهم فهو لم ينس أرضه وأهله فبنى النهضة الاقتصادية بردة فعل إيجابية وفي كل المجالات (اقتصاد ، تجارة، زراعة ، صناعة ، ثقافة ، أدب ، شعر ، سياسة ، وعائلة وعمارة) إنها أثمان باهضة قد دفعناها ودفعها الأبناء في الوطن والاغتراب .

أما اليوم ومع الخبراء والمدققين والبحاثة سيكون لنا إضاءة مسلطة على تلك الحقبات والمحطات التاريخية، نرجو منكم التقيد بالوقت لكي نستفيد أكثر وأكثر للاستماع والاستمتاع لكل كلمة غنية مفيدة من كل محاضر عزيز صديق صاحب معرفة وتجربة وخبرة .

القطاعان الزراعي والصناعي في جبل عامل وثنائية الفقر



د. معضاد رحال

يشكّل القطاعان الصناعي والزراعي الركيزة الرئيسة للاقتصاد الوطني ، كما يرتبطان بعوامل أخرى متعددة كحجم السكان والقوى العاملة ومسار التنمية الشاملة في المجتمع، من هنا كانت أهمية دراسة هذين القطاعين في منطقة عانت ولا زالت من مختلف انواع الاهمال والحرمان، وأن ما يبدو للمراقب من بعض التطور في البنى التحتية لا يعدو عن كونه احد جوانب الازدهار المظهري. فالمؤسسات الصناعية بغالبيتها عبارة عن مشاغل بسيطة ولو انها تستخدم تقنيات حديثة في الانتاج واسواقها لا تتجاوز حدود مناطقها الجغرافية، كما ان الزراعة أسوأ حالا فهي لا تكاد تكفي الاستهلاك العائلي، وهذا يعني ان العاملين في هذين القطاعين لا يستطيعون تامين الحد الأدنى من المستوى المعيشي لأسرهم، الأمر الذي يدفع بهم الى حافة الفقر والعوز ما يدفعهم الى التفتيش عن مصادر رزق في أعمال اضافية أخرى، إذ إن التعطل عن العمل في الأسر المتواضعة الدخل والتي تعيش على أجور العاملين فيها يحوّل الفرد من « منتج مبادل ومفضل على محيطه بعائد تعبه الى فرد يحتاج الى الاعالة ولو مؤقتا»[1]، وحجتنا في ذلك التدهور السريع في مستوى الصناعات التي كانت متطورة في سبعينات القرن الماضي كصناعة الأحذية في بنت جبيل التي كانت تعيل حوالى 400 أسرة ولم يبق منها حاليا سوى معمل واحد، وكذلك الحال صناعة الفخار في بلدة راشيا الفخار، والتراجع الكبير في زراعة التبغ ومختلف انواع الحبوب، والتي كان لها تداعيات كبيرة على مستوى الدخل الأسري والوطني ، ما دفع بالعاملين في هذه النشاطات الى سوق البطالة والنزوح والهجرة والعمل في القطاع الهامشي أو اللانظامي.

1 - أحمد، بعلبكي، موضوعات وقضايا خلافية في تنمية الموارد العربية، مقاربة اجتماعية -اقتصادية، دار الفارابي، بيروت، 2007 ،ص. 121

صحيح ان غياب سياسة انمائية شاملة للبنان بشكل عام ولمنطقة الجنوب بشكل خاص ادت الى بروز واقع ديمغرافي وانتاجي تجلى في عدم التشجيع على الاستثمار في مؤسسات انتاجية متطورة من ناحية والى دفع موجات من النزوح والهجرة من ناحية ثانية. واذا كانت الاعتداءات الاسرائيلية التي بدأت منذ عام 1967 على منطقة الجنوب اللبناني عاملا مضافا لتفريغ الجنوب من أهله اضافة الى افرازات الحرب اللبنانية عام 1975، الا ان علاقات الترابط الاقتصادي وغير الاقتصادي بين المدن والأرياف اللبنانية قد تغيرت منذ عقدي خمسينيات وستينيات القرن الماضي، اذ بدل ان يبقى سوق المدينة مفتوحا ومتلقيا لفوائض الانتاج الزراعي والحرف من الأرياف انفتح على استيراد الفوائض الزراعية الاغراقية المستوردة من الخارج والمنافسة لمنتجات القرى برخص اسعارها. كما راحت اسواق المدن في العاصمة بيروت وعواصم المحافظات تضخ المستوردات الاغراقية الى القرى، ما أدى الى توقف الكثير من المزارعين والحرفيين الصناعيين عن انتاج محاصيلهم التقليدية والى تحول المزارعين الكبار والمستثمرين في القطاع الصناعي الى الاعتماد على التكنولوجيا المستوردة التي لا تحتاج الى عمالة كثيفة ما دفع بصغار المستثمرين الزراعيين والحرفيين بالتوجه نحو المدن. هذا التوجه لم يكن ليحصل لولا اعتماد النظام الاقتصادي اللبناني على الليبرالية المتفلتة من أية قيود الى حد «الاباحة».

منهجية البحث: اعتمدنا في هذا البحث على مقاربتين: تمثلت الأولى بمراجعة الأدبيات المتعلقة بالقطاعات الانتاجية وخصوصا قطاعي الزراعة والصناعة لما لهما من أهمية في عملية التشغيل والانتاج والمساهمة في دعم الاقتصاد الوطني، والثانية تمثلت بالاطلاع على الوثائق في وزارتي الزراعة والصناعة وتوزع المؤسسات الصناعية في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية وكذلك انواع المزروعات والتحولات التي طرات على القطاع الزراعي والتحول نحو الزراعات المحمية والزراعات الحديثة التي حلت مكان زراعة الحمضيات والحبوب على انواعها.

فما هو واقع القطاع الصناعي والزراعي في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية؟ وما هو واقع المؤسسات الموجودة فيه ؟ كونها تمارس دوراً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وتشكل نسقاً من العلاقات الاجتماعية، بين الأفراد (عمال وأرباب عمل) وهل هناك سياسة صناعية وزراعية لتنمية هذين القطاعين ؟ وما هي المعوقات التي تعيق تطورهما واستمرارهما؟ وما هي العوامل التي تتحكم في خيارات المستهلكين، هل هي الإعلانات، أم الجودة أم عدم الثقة بالانتاج المحلي؟

من هذا المنطلق سنحاول استعراض الواقع الصناعي والزراعي في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية والتطورات التي مر بها هذان القطاعان خلال مراحل زمنية مختلفة.

اولا: الصناعة

تعتبر الصناعة احد الأبعاد الرئيسة في تحقيق التقدم للمجتمع وتطوره، باعتبارها عنصر تنمية كما ونوعا ، لأن مستوى التصنيع في أي مجتمع يعتبر أهم مؤشر على درجة تقدمه وازدهاره. فالنقلة النوعية لدى دول نمور آسيا لم تكن لتتم لولا اعتمادها على التصنيع لزيادة انتاجها وتحقيق حالة من التنمية الشاملة. فمن وجهة النظر الرأسمالية الكلاسيكية، « فإن التصنيع هو عملية تكنولوجية تستخدم فيها العلوم التطبيقية وتمتاز تنمية الانتاج من نطاق واسع باستعمال الآلات ويكون توزيع السلع الانتاجية والاستهلاكية في سوق واسعة، أما أداة الانتاج فقوة بشرية عاملة متخصصة، مقسّمة الوظائف تبعاً للتخصصات المختلفة، ويصحب ذلك كله عمران حضري سريع وواسع النطاق»(1). ويساهم القطاع الصناعي في تحقيق التنمية من خلال العوامل الآتية:

1- تحقيق قيمة مضافة عالية
2- تشغيل القوى العاملة
3- رفع قدرة الانسان الفنية وتمكينه من التحكم بقوى الطبيعة وتسخيرها لاشباع حاجاته
4- الخروج بالاقتصاد الوطني نحو السوق العالمي
5- الحد من الاستيراد الاستهلاكي
6- زيادة التصدير واحتياطي العملات الصعبة
7- تخفيف عجز الميزان التجاري
8- الحد من التضخم والمساهمة في تنشيط باقي القطاعات، فكل فرصة عمل في الصناعة تخلق فرصتين في باقي القطاعات ذات الصلة.

وفي لبنان تشكل الصناعة قرابة ٪18 من الناتج المحلي اي 3800 مليار دولار اميركي، بينما كانت تمثل في العام 1999 قرابة ٪27 من الناتج المحلي وتستوعب قرابة 240 ألف عامل أي ٪26 من العمالة اللبنانية، وبلغ عدد العاملين في القطاع الصناعي عام 2004 حوالى 135 ألف عامل بينهم 35 إلى 50 الف عامل أجنبي، وبين 80أو 90 ألف عامل لبناني 2. أما على مستوى المؤسسات الصناعية فقد أحصت مديرية الاحصاء المركزي عام 2004 حوالى 28685 مؤسسة صناعية بما فيها الصغيرة والمتوسطة والكبيرة في حين ان عدد هذه المؤسسات كان في العام 1996 حوالى 29917 اي بتراجع بلغ 1232 مصنعا3. ولا بد هنا من تسجيل العيوب التي تنتاب الاحصاءات أكان ذلك على مستوى التناقض الذي يعتريها حتى ولو كانت صادرة عن مؤسسات رسمية أم على مستوى الدمج بين المؤسسات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة واعتبارها وحدات صناعية متشابهة؟ وفي دراسة

1 - د.حسن الساعاتي،»التصنيع والعمران» دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص.ب.749، الطبعة الثالثة، 1980، ص255.
2 - ميشال، مرقص، الصناعة اللبنانية، اتجاهات وتوجه، دار النهار، بيروت ، 1983، ص.89
3 - المرجع نفسه، ص.89

غير منشورة حول مؤسسات صناعة النسيج في محافظتي الجنوب والنبطية أجراها السيد علي مطرعام 2018، تبين الخلل الفاضح في الاحصاءات اذ بلغ عدد المؤسسات التي تعمل في صناعة النسيج وفاقا لغرفة التجارة والصناعة في الجنوب 86 مؤسسة ، في حين ان الدراسة الميدانية التي أجريت على الحقل أفضت عن وجود 42 مؤسسة فقط، وباقي المؤسسات إما أقفلت أو غيرت طبيعة انتاجها.

1- القطاعات الانتاجية في مجال الصناعة في لبنان : ينتج لبنان حوالى 1284 سلعة [1] وهي موزعة على القطاعات الآتية:

1- قطاع الأدوية: يبلغ عدد المصانع اللبنانية في قطاع الأدوية حوالي «11 مصنعاً» «تأسست مؤخراً في بداية العام 2016 نقابة مصنعي الأدوية في لبنان

2- قطاع مواد البناء والبيوت الجاهزة والمواد المنجمية:

3- قطاع المواد المنجمية : عددها 410 ،حصة لبنان الجنوبي 40 مصنعا، و النبطية 7 مصانع

4- قطاع المجوهرات والفضيات: يشكل 30 ٪ من إجمالي الصادرات الصناعية اللبنانية

5- قطاع المواد الغذائية والمشروبات الروحية والألبان والأجبان: عددها 970 مصنعا حصة لبنان الجنوبي 85، النبطية 37،

6- صناعة المشروبات الروحية حوالى 500 مصنع

7- الألبان والأجبان :عددها 144 مصنعاً

8- قطاع المواد الكيميائية والبلاستيكية: عددها 366 مصنعا يوجد في لبنان 10 جامعات توفر برامج تعليمية خاصة بالصناعة الكيماوية .

9- قطاع الطباعة والورق والكرتون والتعبئة والتغليف عددها في العام 2015، نحو 388

10- قطاع الخشب والمفروشات الخشبية والمعدنية والبلاستيكية:

11- قطاع المنسوجات والملبوسات الجاهزة وكمالياتها والأزياء: ينفق اللبناني على الأزياء والألبسة بشكل عام ما نسبته 5.38٪ من مجمل نفقاته الشهرية، مجمل ما استورده لبنان خلال العام 2014 يصل إلى 48 ألف طن في حين بلغ التصدير اللبناني من الألبسة قرابة 4 آلاف طن.

12- قطاع الجلود والأحذية:. عددها 1200 مصنعاً في السبعينيات ومع بداية العام 2014 بلغ عدد مصانع الأحذية 200 مصنعاً فقط .

13- قطاع الكهرباء والكابلات: الامتيازات، المولدات الخاصة

15- قطاع الماكينات والمعدات

1 - دليل الصادرات الصناعية والمؤسسات الصناعية في لبنان، بيروت، 2017

2- التطور الصناعي في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية:

استنادا الى احصاءات وزارة الصناعة بلغ عدد المؤسسات الصناعية في الجنوب عام 1955 حوالى 55 مؤسسة يعمل فيها حوالى 755 عاملا اي بنسبة 3.2٪ من مجموع المؤسسات الصناعية في لبنان. وارتفع العدد في بداية سبعينيات القرن الماضي الى 1563 مؤسسة يعمل فيها حوالى 1020 عاملا [1]، أي ان عدد المؤسسات يفوق عدد العمال، وهذا ما يعطينا دليلا واضحا على الخلل الذي ينتاب عملية الاحصاء وعدم مراقبة هذه العملية من قبل أجهزة متخصصة.

فالصناعة في الجنوب كانت قبل عام 1975 عبارة عن حرف بسيطة كالحدادة والنجارة وصناعة الأحذية والمفروشا ت والصابون والحلويات وغيرها . وتنوعت الحرف التقليدية والصناعات اليدوية التي اندثر بعضها والبعض الآخر في طريقه الى النسيان (صناعة الأحذية في بنت جبيل، السلال في كفريا، الزجاج في الصرفند، السكاكين والشوك والملاعق في جزين، السجاد في صور، الفخار في راشيا الفخار)[2]. وأن وجود بعض المؤسسات الكبيرة مثل مصفاة الزهراني لتكرير البترول ، ومصانع توضيب الحمضيات في سهل الغازية، لا يمكن اعتبارها مراكز صناعية بحتة لأنها لم تعتمد على تحويل المادة الخام الى منتجات جديدة. وتتميز هذه المؤسسات الصناعية اجمالا بضعفها وضآلة رأس المال والتقنيات المستخدمة وضيق سوق تصريف انتاجها.

ولقد شكل اندلاع الحرب اللبنانية في بيروت بداية لتطور القطاع الصناعي في الجنوب الذي كان ينعم بحالة من الهدؤ النسبي ميزته عن باقي المناطق اللبنانية، بحيث انتقلت اليه الرساميل وارتفعت معدلات الاستثمار في مختلف النشاطات الانتاجية ولا سيما في القطاع الصناعي. فبين عامي 1978 و1982 نشأت مصانع حديثة في الجنوب حيث سجلت غرفة التجارة والصناعة في صيدا 58 مؤسسة بين عامي 1978 و1979[3]. وتشير احصاءات أخرى الى ارتفاع عدد المؤسسات الصناعية في الجنوب من 400 مؤسسة قبل الأحداث الى 800 مؤسسةعام 1980 [4]. وقدر رئيس غرفة التجارة والصناعة في الجنوب قيمة الرأسمال الصناعي الموظف في الجنوب عام 1995 بحوالى مليار دولاور امريكي ، وكانت نسبة الصادرات الخارجية حوالى 20٪ ويستهلك الباقي في السوق المحلي [5].

إلا أن منطقة الجنوب لم تنعم كثيرا بهذا الهدوء جراء الاجتياح الاسرائيلي عام 1982 الذي ادى الى اقفال العديد من المصانع بسبب التدمير الكلي او الجزئي للعديد من المصانع، وحالة التهجير السكاني، واقفال المعابر التي ادت بمجملها الى انخفاض نسبة التسويق الى الخارج الى الداخل اللبناني والى الخارج، ويشكل التراجع الكبير في صناعة

1 - احصاءات وزارة الصناعة
2 - شؤون اقتصادية، أضواء على الصناعات الحرفية في لبنان الجنوبي، مجلة الشؤون الاقتصادية، صيدا، 1981، ص.63
3 - ميشال، مرقص الصناعة اللبنانية، مرجع سابق، ص.69
4 هلال، زنتوت، الأوضاع الصناعية في الجنوب، مجلة الشؤون الاقتصادية، مرجع سابق، ص.19
5 - سعاد، نور الدين، السكان والتنمية ، مقاربة سوسيو تنموية، دار المنهل اللبناني، بيروت ، 2010، ص. نقلا عن مقابلة مع رئيس غرفة التجارة والصناعة في الجنوب

الأحذية في بنت جبيل مثالا حيا على تداعيات الاحتلال الاسرائيلي للجنوب ، كما ان الهدف الأساسي لاسرائيل من اقفال المعابر والتضييق على الصناعيين لاقفال مؤسساتهم هو اجبار المستهلكين على الاقبال على شراء الانتاج الاسرائيلي الذي غزا الأسواق اللبنانية ووصل الى الداخل اللبناني. ونتيجة لذلك انخفضت قيمة الصادرات من الجنوب الى ٪20 ثم الى ٪50 مع اقفال المعابر.

وبعد تحرير الجنوب من العدو الاسرائيلي عام 2000عادت وتيرة الاستثمار الى الارتفاع التدريجي بحيث بلغت نسبة الصادرات الصناعية في تلك الفترة ٪24.6 من مجمل الصادرات الجنوبية ، وأتت بعده الصادرات الزراعية التي بلغت ٪47.2 والتجارية ٪28.1 ثم ارتفعت نسبة الصادرات الصناعية عام 2008 الى ٪82 من مجمل الصادرات الجنوبية . واهم البلدان المستوردة: السعودية، سوريا، الكويت، قطر، الامارات العربية ، فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية [1]. أما الأصناف المصدرة فهي مواد غذائية، أقمشة، الكتب، الجلود، الأحذية، المفروشات، المولدات الكهربائية وغيرها.

بلغ عدد المؤسسات الصناعية في الجنوب عام 1996 (صغيرة ومتوسطة وكبيرة) 3130 مؤسسة وارتفع عام 2004 الى 3976 مؤسسة وفي النبطية من 1628 مؤسسة الى 1981 للفترة نفسها وهذا التطور كان نتيجة لتحرير الجنوب عام 2000 واهتمام المنظمات غير الحكومية بتنمية الجنوب وتحول قسم من الاستثمارات نحو الصناعة. وتشير بيانات الجدول الآتي الى تطور الصناعة في الجنوب بين عامي 1955 و 2004

جدول رقم 1 تطور المؤسسات الصناعية في الجنوب حسب السنة وعدد المصانع والعمال

السنة	عدد المصانع	النسبة من مجموع المصانع في لبنان	عدد العمال	النسبة من مجموع عمال المصانع في لبنان
1955	55	٪3.2	755	٪2.2
1959	209	٪6.1	1319	٪3.9
1964	65	٪3	949	٪2.3
1971	150	٪5	1040	٪1.9
1985	590	٪11.6	لا يوجد معلومات	
1988 (8 عمال وما فوق	213	٪7.2	لا يوجد معلومات	
1994 (8 عمال وما فوق)	280	٪9.3		
2004(الجنوب) 2004 (النبطية) (المجموع)	3130 1981	٪10.9 ٪6.9	15101 6155	٪9.1 ٪3.7
مجموع المصانع في لبنان2004	28685			

المصدر: – دليل الصادرات والمؤسسات الصناعية للأعوام 1988 و1990 و 1995 و 1996 ، ص. 106 و 1399

1 - المرجع نفسه، عن مقابلة مع رئيس غرفة التجارة والصناعة في الجنوب

- احصاء وزارة الصناعة والنفط ، بيروت 1985، ص. 42
- علي، الشامي، تطور الطبقة العاملة في الرأسمالية اللبنانية المعاصرة ، دار الفارابي، بيروت، 1981، ص. 121

يبدو واضحا من بيانات الجدول أعلاه حركة الانخفاض والارتفاع في عدد المؤسسات الصناعية في الجنوب ، وهذا التأرجح يعود بشكل أساسي الى الحالة الأمنية التي كان يمر بها لبنان عموما ومنطقة الجنوب خصوصا، بحيث ارتفع عدد المؤسسات الصناعية بعد اندلاع الحرب اللبنانية في العاصمة بيروت وضواحيها وانتقلت الحركة الانتاجية بكل فروعها ونشاطاتها الى الجنوب حيث شهد مرفا صيدا حركة تجارية ناشطة وانتقلت معظم الوكالات التجارية الى الجنوب، وكذلك الحال مع المؤسسات الصناعية التي ارتفع عددها من 150 مؤسسة عام 1971 الى 590 مؤسسة عام 1985 ثم عادت الى الانخفاض الى 213 مؤسسة صناعية عام 1988 جراء الاجتياح الاسرائلي للبنان عام 1982، ثم عادت الى الارتفاع بشكل كبير عام 2004 اي بعد تحرير الجنوب وبلغ عددها 5111 مؤسسة مختلفة الأحجام توزعت بين محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية.

3– مقاربة النشاط الانتاجي للمؤسسات الصناعية بين محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية ولبنان: تهدف هذه المقاربة في مستويات النشاط الانتاجي للمؤسسات الصناعية في الجنوب ولبنان لمعرفة مدى مساهمة منطقة الجنوب في عملية الانتاج الصناعي على الرغم من الصعوبات التي تعرض لها القطاع الصناعي في ظل عدم وجود اي دعم له باستثناء بعض القروض الميسرة من قبل المؤسسات الاقراضية الصغيرة.

جدول رقم 2 النشاط الانتاجي للمؤسسات الصناعية في محافظة لبنان الجنوبي بين عامي 1996 و 2004

قطاع الانتاج	1996	2004	التغيير
المنتجات الغذائية	619	1074	+455
المنسوجات والصناعات الجلدية	334	237	−97
الخشب والورق	198	185	−13
الطباعة والنشر	38	49	+11
المنتجات غير المعدنية	298	230	−68
المنتجات المعدنية	672	315	−137
الآلات والمعدات	109	79	−30
المفروشات	536	459	+77
ماء وكهرباء وغاز	81	87	+8
الانشاءات والبناء	191	215	+24
المجموع	3076	3130	+54

المصدر: جمعية الصناعيين ، كانون الأول ، 2006 ، ص. 42 و44

جدول رقم 3 النشاط الانتاجي للمؤسسات الصناعية في محافظة النبطية بين عامي 1996 و 2004

قطاع الانتاج	1996	2004	التغيير
المنتجات الغذائية	346	716	+370
المنسوجات والصناعات الجلدية	198	136	-62
الخشب والورق	137	164	+27
الطباعة والنشر	15	30	+15
المنتجات غير المعدنية	216	165	-51
المنتجات المعدنية	370	421	+31
الآلات والمعدات	36	35	-1
المفروشات	199	201	+2
ماء وكهرباء وغاز	55	29	-26
الانشاءات والبناء	36	84	+28
المجموع	1628	1981	+353

المصدر: جمعية الصناعيين، كانون الاول 2006 ص.44-42

جدول رقم 4 النشاط الانتاجي للمؤسسات الصناعية في لبنان بين عامي 1996 و 2004

قطاع الانتاج	1996	2004	التغيير
المنتجات الغذائية	7760	8274	+3514
المنسوجات والصناعات الجلدية	5256	3033	-2223
الخشب والورق	2048	1983	-65
الطباعة والنشر	1125	1090	-15
المنتجات غير المعدنية	2473	1982	-491
المنتجات المعدنية	5167	4187	-980
الآلات والمعدات	879	851	-28
المفروشات	5471	4711	-760
ماء وكهرباء وغاز	842	640	-202
الانشاءات والبناء	1896	1934	+38
المجموع	29917	28685	-1232

المصدر جمعية الصناعيين، كانون الاول 2006 ص.44-42

يلاحظ من خلال بيانات الجداول الثلاثة انه كلما ارتفع معدل الانتاج في نشاط محدد في الجنوب انعكس ذلك ايجابا على المستوى اللبناني (المنتجات الغذائية مثالا)، وهذا يعني

ان هناك حاجة ماسة على المستوى الوطني لتطوير القطاع الصناعي في مختلف المحافظات وخصوصا في محافظة الجنوب باعتبارها تشكل رصيدا استثماريا مهما جراء تحويلات المغتربين التي تساهم الى حد بعيد في دعم الاقتصاد الوطني بشكل عام.

جدول رقم 5 توزع المؤسسات الصناعية حسب الأقضية في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية بين عامي 2007 و2017

القضاء	عدد المؤسسات 2007	عدد المؤسسات ٢٠١٧	
صيدا	85	375	غالبيتها غذائية
الزهراني	104		غالبيتها ادوات منزلية
صور	70	110	مفروشات ،بلاستيك، معدات
النبطية	82	210	غذائية،احذية، ادوات منزلية
مرجعيون	10	49	بناء، غذاائية، المينيوم
جزين	15	35	بناء، ملبوسات
بنت جبيل	22	41	جلود واحذية، غذاء، مفروشات
حاصبيا	5	32	غذائية ، بناء
المجموع	393	852	

المصدر: غرفة التجارة والصناعة في الجنوب

- وزارة الصناعة، دليل الصادرات والمؤسسات الصناعية في لبنان، بيروت، 2017

نستنتج مما تقدم ما يأتي :

1- التراجع الكبير في عدد المؤسسات الصناعية بين عامي 2004 و 2017 أكان هذا التراجع على المستوى اللبناني أم على مستوى محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية، هذا في الوقت الذي لم تعد المعوقات السابقة موجودة ولا سيما حالة عدم الاستقرار الأمني والذي يمكن تلخيصه على الشكل الآتي:

- تراجع المؤسسات الصناعية في لبنان من 28685 مؤسسة عام 2004 الى 6208 مؤسسة عام 2017 أي بنسبة ٪21.6

- تراجـع عـدد المؤسسـات الصناعيـة في محافظتـي لبنـان الجنـوبي والنبطيـة امـن 5111 عـام 2004 الى 1245 عـام 2017 أي بنسـبة ٪24.3
- إن هذا الانخفاض يعود في تقديرنا الى عدة عوامل أهمها:
- التناقص الفعلي في الاستثمار الصناعي
- – عـدم اعتـماد منهجيـة موحـدة في الاحصـاء والدمج بـين المؤسسـات الكبيرة والمتوسـطة والصغـيرة والمتناهيـة الصغـر (حالـة دليـل الصـادرات والمؤسسـات الصناعيـة لعـام 2017)
- غياب سياسة تصنيعية واضحة وهادفة
- التوتر السياسي بين القوى السياسية الذي يؤدي الى احجام المستثمرين
- عدم تصريف الانتاج الى الخارج جراء اقفال الحدود السورية
- تـدني عـدد المؤسسـات الصناعيـة الكبـيرة في محافظتـي لبنـان الجنـوبي والنبطيـة ، فعـلى سـبيل المثـال لا يوجـد سـوى مصنـع واحـد للنسـيج عـدد العـمال فيـه ثمانيـة في محافظـة النبطيـة ومصنعـان في محافظـة لبنـان الجنـوبي[1]

2- المشاكل التي تواجه الصناعة

أ- الاهمال الرسمي المزمن (الاكتفاء باصدار القوانين والاحصاءات السنوية)

ب- الخلل الأمني والتوتر السياسي (حالة الشك والقلق بالمستقبل لدى المستثمر)

ج- هجرة ونزوح الكوادر المهنية والمتخصصة

د- الخلل في البنى التحتية وارتفاع الرسوم (ماء، كهرباء، اتصالات ، محروقات)

ه- المنافسة الحادة من قبل الصناعات المستوردة

و- اغراق السوق بسلع مستوردة من الخارج (جودة، اسعار متدنية)

ز- عدم توافر التمويل من المصارف، ٪70 من الدعم للمصانع هو ذاتي

ح- ارتفاع فوائد القروض الى ما يزيد على ٪12

ط- قروض كفالات ضئيلة، شروط معقدة

ي- عدم وجود شركات متخصصة للتسويق الذي يتم على همة صاحب المصنع

ك- الخلـل في التنظيـم والمتابعـة مـن قبـل غـرف التجـارة والصناعـة عـلى الأقـل في مـا يتعلـق بالاحصـاءات .(اسـتمرار تسـجيل المؤسسـات التـي مـضى عقـود عـلى اقفالهـا او تغيـير وجهـة انتاجهـا)

هذه الصعوبات تؤثر الى حد كبير في عملية الانتاج كما ونوعا.

1 - وزارة الصناعة، دليل الصادرات والمؤسسات الصناعية في لبنا، بيروت، 2017 ، ص. 1021

ثانيا: الزراعة

يشكّل القطاع الزراعي دورا هامشيا في الاقتصاد الوطني منذ الاستقلال ، في الوقت الذي تلعب فيه الزراعة دورا مهما في اقتصاد البلدان النامية ، أكان ذلك على مستوى مساهمتها في الدخل الوطني، أم على مستوى العمالة التي تستطيع استيعابها والتي تخفف من حدة البطالة، ام بالنسبة للسكان الذين يعتمدون عليها في معيشتهم. ولقد كان لتوجه سكان الأرياف نحو المدن اللبنانية عاملا مهما في انخفاض انتاج المواد الغذائية وانخفاض نسبة العلاقات التجارية بين المدن والأرياف التي اخذت بالاتجاه نحو الاستيراد من الخارج. وهكذا أخذ القطاع الزراعي في تدهور مستمر سواء على مستوى مساحة الرقعة المزروعة أم على مستوى اليد العاملة . فالمزارعون لم يعودوا يعطون أهمية لبعض المزروعات التي نحن بحاجة لاستهلاكها يوميا كالفول والعدس والبازيلا وغيرها من القرنيات. فضلا عن توجه المستثمرين الى الاستيراد من الخارج ، وتشجيع هذا التوجه من قبل الحكومة التي منحت المستثمرين وأصحاب المصانع الزراعية اجازة استيراد من الخارج كمصانع البطاطا المجلدة ومعامل الألبان والأجبان وغيرها؟ خصوصا ان الحكومة اللبنانية ألغت في العام 2008 الحواجز التي تعيق استيراد السلع من الاتحاد الأوروبي ما جعل المنتجات المحلية عرضة للمنافسة الأجنبية غير المتكافئة جودة وسعرا [1]. كما أن موازنة وزارة الزراعة لا تزيد على ٪1 من الموازنة العامة ، بينما تبلغ نسبتها في سوريا ٪27 وفي الأردن ٪20"[2] وهذه الاجراءات انعكست على تدني مستوى القطاع الزراعي في الناتج المحلي الى ٪4 وانخفاض نسبة العمالة الى ٪6 في الوقت الذي ترتفع فيه نسبة السكان الذين يعتمدون في معيشتهم على القطاع الزراعي الى ٪45 من مجموع السكان في لبنان. ويأتي هذا التراجع في القطاع الزراعي في الوقت الذي وضعت فيه منظمة الأمم المتحدة الزراعة كأحد أهداف الألفية الجديدة ولا سيما في ما يتعلق بتأمين الغذاء الكافي وتحسين معيشة الفقراء في الأرياف جراء توقعاتها بارتفاع الطلب العالمي على الغذاء بنسبة ٪60 بحلول عام 2050 [3].

وهذا يعني ان الدول النامية سوف تعتمد الى حد كبير على استيراد المواد الغذائية الذي يؤدي بدوره الى الاخلال في الميزان التجاري كما هو حاصل في لبنان من خلال الفارق في حركة الاستيراد والتصدير كما هو مبين في الجدول الآتي:

1 - بنك عودة، التقرير الاقتصادي، 2008
2 - عبد الهادي، يموت، الاقتصاد اللبناني وأهمية المجال العربي لنموه، منشورات الاقتصاد والأعمال، بيروت، 1994، ص. 65
3 - تقرير البنك الدولي، الزراعة من أجل التنمية، واشنطن، 2008 ، ص6.

جدول رقم 6 حركة استيراد وتصدير الصناعات الغذائية اللبنانية بين عامي 2009 و 2014
(الف دولار امريكي)

النوع	تصدير		استيراد	
	2009	2014	2009	2014
البان، عسل، طيور	9050	8083	253474	401949
دهون وزيوت	18877	32780	131599	186892
لحوم وأسماك	18243	24858	73451	116359
مصنوعات سكرية	24697	50675	104719	164853
مصنوعات كاكاو	17928	51401	62886	95810
مصنوعات حبوب ودقيق	31157	46515	145573	243864
مصنوعات غذائية	29625	83147	120051	202888
خضار وفواكه مصنعة	90099	127738	55874	88566
مشروبات	50190	101795	71785	132014
بقايا الأغذية	2431	3712	71586	142732
تبغ	19236	25350	183431	225097
المجموع	511533	556855	1341776	2001026

المصدر: الموقع الألكتروني الصناعة والاقتصاد، دخول بتاريخ 2018/ 10/ 15
www. Sinaaiktisadi.com

يبدو من خلال بيانات الجدول اعلاه التفاوت الكبير بين الصادرات والواردات الصناعية الزراعية الأمر الذي يلفت النظر الى مساهمة المستهلكين اللبنانيين في دعم اقتصاد الدول التي يتم الاستيراد منها، مقابل تدني قيمة الصادرات الى الدول الأخرى.

تطور المساحات الزراعية في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية

ان تطور الحالة الزراعية في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية نستنتجها من خلال البيانات الآتية:

جدول رقم 7 توزع الأراضي الزراعية في محافظتي الجنوب والنبطية لبعض السنوات (هكتار)

السنة		الجنوب			النبطية		
		مساحة مزروعة	مساحة مروية	%	مساحة مزروعة	مساحة مروية	%
1965		110802	13992	12.6	–	–	
1967		98000	11700	11.9	–	–	
1980		45690	15900	34.7	–	–	
1990		69790	18000	25.7% –	–	–	
1993		71183	18000	25.2	–	–	
1999		29570	12743	43	26027	2144	8.2
2007		30472	12798	41.9	24819	496	1.9

المصدر: وزارة الزراعة، المشروع الأخضر، وزارة الطاقة، وزارة التصميم

نستنتج مما تقدم ما يأتي:

1- هيمنة الزراعة البعلية في محافظة لبنان الجنوبي إذ بلغت نسبتها 87.4% مقابل 12.6% للأراضي المروية ، في الوقت الذي يشكل كل هكتار واحد من الزراعة المروية اعالة لعامل واحد بينما يلزمه خمسة هكتارات من الأراضي البعلية.

2 - اللافت في تناقض الاحصاءات حول الأراضي الزراعية سواء كانت مروية او بعلية بحيث سجلت منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو) أرقاما مغايرة تماما لما هو مبين أعلاه مع الأخذ في الاعتبار الفارق الزمني بين معطيات الجدول اعلاه والمعطيات الحديثة للمنظمة المذكورة التي اوردت ان المساحة المزروعة في محافظة النبطية بلغت 260949 والمساحة المروية بلغت 24819 هكتاراً[1]، فاذا صحت هذه التقديرات فان القطاع الزراعي يتعافى ويتطور على عكس الواقع الذي يعبر عن تراجع المساحات المزروعة في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية.

1 - الفاو، منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، بيروت، 2012، ص. 29

جدول رقم 8 توزع الأراضي الزراعية في أقضية محافظتي الجنوب والنبطية عام 1965

القضاء	الأراضي المزروعة	بعل	مروية	نسبة الأراضي المروية
صيدا	23754	18803	4951	20.8
النبطية	17185	16846	339	1.9
صور	21346	14639	6707	31.4
بنت جبيل	11799	11795	4	0.03
مرجعيون	15066	14184	882	5.8
حاصبيا	12901	12375	526	4.07
جزين	8751	8168	583	6.6
المجموع	110802	96810	13992	12.6

المصدر: وزارة الزراعة، المجموعة الاحصائية، بيروت، 1965، ص.85

يبدو من خلال الجدول أعلاه الفارق الكبير بين المساحات البعلية والمساحات المزروعة بحيث تزيد المساحات البعلية على المساحات المروية ما يفوق ستة أضعاف، ما يعني ان انتاج هذه المساحات يتدنى بمعدل 24 ضعفا اذا اعتبرنا ان كل هكتار من الأراضي المروية يعطي انتاجا يزيد اربعة اضعاف على الهكتار من المزروعات البعلية.

جدول رقم 9 توزع نسبة الأراضي المروية وغير المروية في أقضية محافظتي الجنوب والنبطية عام 1974

المنطقة	المساحة الاجمالية (هكتار	نسبة الأراضي البعلية	نسبة الراضي المروية	نسبة المروية من المجموع
صيدا	23754	69.3٪	30.7٪	19.2٪
النبطية	17185	96.7٪	3.3٪	16.4
صور	21346	76.3٪	23.7٪	18.3
بنت جبيل	11799	99.9	0.1	10.9
مرجعيون	15066	91.3	8.7	14.2
حاصبيا	12901	94.8	5.2	12.1
جزين	8751	94.3	5.7	8.9
المجموع	110802	–	–	14.6

المصدر: وزارة الزراعة ، المجموعة الاحصائية، بيروت، 1974، ص. 64

جدول رقم 10 توزع المساحات المزروعة في محافظتي الجنوب والنبطية بين عامي 2005 و2007

المحافظة	الجنوب				النبطية			
السنة	2005		2007		2005		2007	
النوع	المساحة	٪	المساحة	٪	المساحة	٪	المساحة	٪
خضار	1683	5	417	1.4	842	2.8	417	1.7
فاكهة	14423	43	13098	43	2278	7.6	1541	6.2
زيتون	10588	31.5	9962	32.6	11765	39.3	11720	47.2
أشجار أخرى	528	1.8	649	2.2	–	–	–	–
نجيليات	3910	11.6	4178	13.7	9775	32.6	6267	25.2
قرنيات	214	0.6	212	0.7	786	2.6	987	4
التبغ	2057	6.1	1642	4 5	4006	13.3	3573	14.4
زراعات أخرى	153	0.4	314	1	535	1.8	314	1.3
المجموع	33596	100	30472	100	29987	100	24819	100

المصدر: وزارة الزراعة، الزراعة في لبنان، بيروت، 2006 و 2007 ص.19.

يلاحظ ان غالبية انواع المزروعات تراجعت بشكل واضح بين عامي 2005 و2007، ففي محافظة لبنان الجنوبي تراجعت زراعة الخضار من 5٪ عام 2005 الى 1.4٪ عام 2007، وكذلك الحال في ما يتعلق بزراعة التبغ التي تراجعت من 6.1٪ عام 2005 الى 5.4٪ عام 2007 في محافظة لبنان الجنوبي خصوصا ان زراعة التبغ تشكّل قيمة معنوية ومادية للمزراعين في الجنوب. وهذا التراجع الدراماتيكي يجعلنا نعتقد بأن الاحصاءات التي اشرنا اليها اعلاه والصادرة عن الفاو يشوبها الخطأ والغموض، اذ طالما ان غالبية المزروعات تشهد تراجعا فكيف يمكن ان تزداد المساحات المزروعة سواء كانت بعلية او مروية؟

2- زراعة الحمضيات في الجنوب: تعتبر زراعة الحمضيات من الزراعات المهمة في تاريخ الجنوبيين وقد كتب فيها أحمد عارف الزين عام 1913 في كتابه تاريخ صيدا" ان عمدة معيشة الصيداويين هو الليمون على انواعه والمساحة المزروعة في المدينة وجوارها امتدادا الى ساحل صور كانت تصدر البرتقال وليمون الحامض يوميا الى بيروت وجبل لبنان وسوريا والأستانة وروسيا والمملكة المتحدة»

وقد توسعت زراعة الحمضيات في اربعينيات القرن الماضي وانتشرت بين صيدا والناقورة الا ان غالبية الملاكين كانوا من الصيداويين، وتعود اسباب ازدهار زراعة الحمضيات الى العوامل الاتية:

أ- مشروع القاسمية ومساهمته في ري الساحل الجنوب

ب-مساهمة المشروع الأخضر في استصلاح الأراضي

ج-استثمارات اموال المغتربين الذين وجدوا هذه الاستثمارات اكثر ضمانا وتحقق ارباحا سريعة

جدول رقم 11 تطور زراعة الحمضيات في السهل الساحلي الجنوبي لسنوات مختارة مقارنة بلبنان

	السنة		1963	1974	1987	1993	2007
	المساحة (هكتار)	لبنان	9000	12000	14646	12728	16700
		الجنوب	5000	7100	8866	6962	13500
		٪ الجنوب	56	58	60	54.6	83
	الانتاج (الف طن)	لبنان	-	300	340	382	392
		الجنوب	-	200	273	228	240
		٪ الجنوب	-	66	80	60	61

المصادر: - وزارة الزراعة، الاحصائيات الزراعية السنوية للأعوام 1963 و1974 و1987 و1993 و2007

- ديمتري، صايغ، زراعة الحمضيات في لبنان، مجلة الشؤون الاقتصادية، غرفة التجارة والصناعة في الجنوب، صيدا، 1979، ص.25

يلاحظ من خلال المعطيات أعلاه ما ياتي:

1- تطور الزراعة من 5 آلاف هكتار عام 1963 الى 7100 عام 1974
2- التراجع التدريجي حتى اصبحت حاليا لا تكفي للاستهلاك المحلي ، وهذا التراجع يعود الى عدة عوامل أهمها:
3- التوسع في زراعة الموز
4- تحول البساتين الزراعية الى زراعات بديلة كالزراعات المحمية والزراعات الافريقية
5- المد العمراني الذي اتجه بمعظمه نحو المناطق السهلية

جدول رقم 12 توزع المالكين في السهل الساحلي

مستثمرون	مهاجرون	تجار وصناعيون	مهن حرة	المجموع
1178	294	184	178	1834

الملاكون في غياب شبه دائم عن بساتينهم

تستثمر البساتين من غير اصحابها يتحمل المستثمرون وحدهم نتائج التصريف

(تقلبات الأسعار، مشاكل امنية، اقفال حدود ...)

3-زراعة التبغ: يعتمد اهالي الجنوب ولا سيما سكان القرى والبلدات المحاذية لفلسطين المحتلة الى حد كبير على زراعة التبغ ، باعتبار ان الانتاج يتم تسلمه من قبل الدولة، وقد مرت زراعة التبغ بمفاصل عديدة وحصلت مظاهرات وسقط شهداء في سبيل المطالبة بانصاف المزارعين ورفع اسعار التبغ حتى يستطيع المزارع تامين قوته. الا أن هذه الزراعة بدات بالتراجع جراء تعرض الحقول الى التلف بفعل الاعتداءات الاسرائيلية والنزوح والهجرة الى المدن وعزوف الجيل الجديد عن امتهان هذه الزراعة. وتعطينا بيانات الجدول الآتي صورة عن تطور زراعة التبغ في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية مقارنة بلبنان.

جدول رقم 13 تطور زراعة التبغ في بعض السنوات

السنة		1973	1983	1990	2001	2007
المساحة (هكتار)	لبنان	8535	3804.5	352.4	8211	8500
	الجنوب	6003	2886	281.9	5173	5032
	٪ الجنوب	70.4	76	80	63	59
الانتاج (الف طن)	لبنان	10000	5270	438	8520	5400
	الجنوب	6870	3920	352	5173	5032
	٪ الجنوب	68.7	74.4	80	61	53
سعر الكلغ $		2.5	1.90	1.90	6	7.6

المصدر: بعثة ارفد – الاحصاءات الزراعية– ادارة حصر التبغ والتنباك

من الملاحظ ان تدني اسعار التبغ سوف تدفع المزارعين الى التظاهر والاحتجاج على حالة الاجحاف والتجني في تحديد الاسعار والتي لم ترتفع لولا هذه الاحتجاجات التي ذهب ضحيتها بعض الشهداء واولهم الشهيد حسن الحايك من بلدة كفرتبنيت في اوائل سبعينيات القرن الماضي.

أما المشاكل التي تعانيها زراعة التبغ هي:

- عدم اعطاء رخصة لمن لا يملك ارضا صالحة لزراعة التبغ
- تمركز الزراعة في ايدي كبار الملاكين والعائلات
- الزراعة محصورة بمن يملكون رخصا
- سعر الرخص تخضع للعرض والطلب كالبورصة
- الأسعار لا تتناسب مع التكاليف
- الطلب على التبغ الجنوبي اعلى من تبغ الشمال لجودته

4 - **الزراعات المحمية**: تطورت هذه الزراعة بفعل عدة عوامل:

أ- الضغط المتزايد على الأراضي الزراعية وارتفاع اسعارها
ب- عدم قدرة السوق على تلبية الحاجات الاستهلاكية
ج- زيادة الطلب عليها في الأسواق العربية
د- التسهيلات الضرائبية للسلع والمواد الأولية
ه- تشجيع الشركات للمزارعين وتقديم الخبرات المجانية
و- تحاشي تقلبات المناخ

ان اهم المناطق التي تتوزع فيها الزراعات المحمية في الجنوب هي: مشاريع كبيرة تصل الى 100 دونم تتمركز في منطقة انصار ، الزرارية، البازورية، الخرايب، الصرفند. مشاريع صغيرة تتراوح مساحتها بين 50 الى 5 دونم تتوزع في معظم القرى مثل شيحين الجبين يارين ، مروحين وغيرها.

5 -**التعاونيات الزراعية في الجنوب**: تعتبر التعاونيات الزراعية احدى المؤسسات التي تعمل على المستوى المحلي، وتتمحور اهدافها حول دعم المزارعين وتقديم الدعم اللازم لهم. اذ أن اهميتها تكمن في التعاون بين كامل أعضائها الأمر الذي يعطيها قوة وحيوية، إلا أن المشكلة تبقى في قدرة التعاونيات ومدى تشبيكها مع المؤسسات الحكومية من ناحية ومع المنظمات غير الحكومية من ناحية ثانية. وتعتبر المناطق الريفية في لبنان من أكثر المناطق حاجة للتنمية المحلية بفعل تدني مستوى الخدمات وتدني مستويات المعيشة للسكان الأمر الذي يدفع ببعض المجموعات السكانية الى التعاون

في ما بينهم من أجل تحسين أحوالهم وتطوير القطاعات الانتاجية التي تشكل المصدر الرئيس لمعيشتهم.

وصحيح ان التعاونيات الزراعية تسعى لمنفعة أعضائها، إلا أنها لا تعمل بشكل منفصل عن المحيط الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيش فيه، بحيث تعزز حالة التعاون والاندماج والحماية الاجتماعية لبناء المجتمع المحلي. ونظرا لتنوع التعاونيات من «اقتصادية الى تجارية ومالية واستهلاكية التي تشكل جزءا من تجار التجزئة في العالم فإنها توفر الخدمات لأعداد كبيرة من الأعضاء» 1. وتعمل التعاونيات على دعم المشروعات الصغيرة في المناطق الريفية وتنشط بشكل خاص في القطاع الهامشي حيث إن هذا القطاع يعمل بشكل واسع حيث تنخفض قوة الدولة ومراقبتها لانشطة هذا القطاع. وفي بعض المجتمعات يتخطى دور التعاونيات المساعدات ذات الطابع الانتاجي لتقدم الخدمات الاستهلاكية كالخدمات الصحية والتعليم وغيرهما. إنما في لبنان وخصوصا في الجنوب فيبقى عمل التعاونيات محصورا في بعض الأنشطة الزراعية نظرا لرخاوتها وعدم امتلاكها القدرات المادية التي تتيح لها التحرك بفعالية، بحيث تبقى هذه التعاونيات تحت رحمة الجهات المانحة أكان ذلك على مستوى الدعم المادي او اللوجستي. وبهذا المعنى فان التعاونيات الزراعية تساهم في تنمية المناطق الريفية من خلال تمكين المزارعين من تجميع مواردهم وزيادة ارباحهم عن طريق تخفيض كلفة الانتاج ووتوسعة سوق التصريف والتسويق، حيث تشير بعض الدراسات إلى « ان ٪50 من الانتاج الزراعي العالمي يسوّق عن طريق التعاونيات «2. ويزود المزارعون بالاليات الحديثة التي تعزز حركة الانتاج وتسرع العمل الزراعي وتوفر أيدي عاملة على المزارع وتمكن صغار المزارعين من زيادة ايرادات انتاجهم وتخفض تكاليف الانتاج. كما تعزز التعاونيات مشاركة النساء في العملية الانتاجية ما يساعد في تعزيز دور المرأة في المجتمع.

أما على مستوى تاسيس التعاونيات الزراعية في الجنوب فقد كانت البداية في أوائل سبعينيات القرن الماضي بحيث كان عددها بين عامي 1970 و1980 حوالى 16 تعاونية زراعية، وبدأ العدد بالتزايد ولا سيما بين عامي 2001 و2008 بحيث وصل العدد الى 281 تعاونية ويوجد حاليا حوالى 376 تعاونية في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية 3، تتوزع بين الزراعة وتربية النحل وصيد السمك، اما دورها فهو انمائي وتسويقي وتتلقى دعمها بشكل اساسي من الدولة ومن المنظمات غير الحكومية وتستفيد من الاعفاءات الضريبية على مختلف الخدمات، ماء، كهربا، ميكانيك، معاينات ميكانيكية، رخص بناء، رسوم بلدية، رسوم التأمينات القضائية وغيرها المادة 52 من قانون الاعفاءات الضريبية)

1 - C. Ross. Smith Role of cooperatives in food security- a case of ethioupian coffe farmers 2006 P25

2 - A Bibby and L. Shaw Markiting a difference; cooperative solutions to global Manchester cooperative colleg 2005 P. 65

3 - وزارة الزراعة، دليل التعاونيات في لبنان، بيروت، 2008

جدول رقم 14 توزع التعاونيات في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية عام 2008 حسب نوع النشاط

النشاط	زراعة	تربية نحل	صيد سمك	المجموع
العدد	260	14	7	281
النسبة	92.53	4.98	2.49	100

المصدر: دليل التعاونيات، مديرية التعاونيات

تعتبر نسبة التعاونيات الزراعية في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية من أعلى النسب في المحافظات اللبنانية الأخرى (31.6٪ يأتي بعدها محافظتا الشمال وعكار 28.3٪ من مجموع التعاونيات في لبنان)

- ان نسبة 71.1٪ من تعاونيات الجنوب أي 200 تعاونية عدد اعضاؤها 10 أعضاء فقط.
- ان نسبة 15.3٪ اي 43 تعاونية عدد أعضائها بين 11 و50 عضوا.
- ثلاث تعاونيات فقط عدد اعضائها يفوق المئتي عضو.
- ان انخفاض عدد الأعضاء في التعاونيات يشير الى ان هذه التعاونيات بمعظمها وهمية ولا تقوم باية نشاطات تذكر، ودليلنا على ذلك ان أعضاء هذه التعاونيات هم عبارة عن الهيئة التاسيسة الذين ساهموا في تأسيسها ولم يتطور العدد منذ انشائها،وهذا الوضع يحتمل تفسيرين فقط، الأول: يقضي بان المزارعين المتواجدين في نطاق عمل هذه التعاونيات لا يثقون برئيسها ولا بأعضائها لذلك لا يقدمون على الانتساب اليها، والثاني هو الاتفاق في ما بين الأعضاء بوجوب عدم اعطاء الفرصة للآخرين للانتساب الى التعاونية حتى يستأثروا بكل ما يقدم الى التعاونية من دعم مادي وعيني.

خلاصة واستنتاجات

استعرضنا في هذا البحث أبرز التغيرات التي طرأت على تطور قطاعي الصناعة والزراعة في محافظتي لبنان الجنوبي والنبطية اللذين يشكلان المنطقة الجغرافية لجبل عامل سابقا. ونود الاشارة الى أن هذين القطاعين يشكلان جزءا من الواقع الصناعي والزراعي في لبنان، ويخضعان للمعوقات نفسها تقريبا، الا ان ما يضاف على هذه المعوقات هو الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على الجنوب جوا وبحرا وبرا، الأمر الذي يؤدي الى احجام المستثمرين عن الدخول في استثمارات كبيرة، الأمر الذي جعل المؤسسات الصغيرة والمتناهية الصغر تطغى على غيرها في مختلف الأقضية ولا سيما في الأرياف. كما ان الارتباط بين العمل في هذين القطاعين والفقر يعود الى ضآلة الايرادات من ناحية والى عمل معظم هذه المؤسسات في نطاق العمل اللانظامي الذي يحرم العمال من الحماية الاجتماعية ، جراء ضيق سوق التصريف والاكتفاء بتأمين الاستهلاك المحلي، ناهيك عن حالة النزوح الكثيفة من القرى والبلدات النائية الى المدن حيث تتمركز معظم العائلات على مدار ثلاثة فصول ولا تعود سوى في العطل او في فصل الصيف، ما يحرم اصحاب المؤسسات الانتاجية من تصريف انتاجهم ويحولهم الى عمال موسميين. فتطور قطاعي الصناعة والزراعة في الجنوب وقع بين فكي كماشة الوضع الأمني الداخلي والخارجي، فكلما ساء الوضع الأمني الداخلي انتقلت الرساميل الى الجنوب لأنه كان يشهد هدوءاً نسبيا يميزه عن باقي المناطق اللبنانية، كما ان الاعتداءات الاسرائيلية كانت تؤثر الى حد كبير في تدمير المؤسسات الصناعية وتؤدي الى النزوح وهروب الرساميل الى الخارج، وهكذا يبقى الجنوب عرضة لهذه المعادلة الأمنية في ظل ضعف الدولة المركزية ورخاوتها اقتصاديا وسياسيا وأمنيا.

مراجع البحث:

- بعثة ارفد – الاحصاءات الزراعية– ادارة حصر التبغ والتنباك
- بنك عودة، التقرير الاقتصادي، 2008
- بعلبكي، أحمد، موضوعات وقضايا خلافية في تنمية الموارد العربية، مقاربة اجتماعية – اقتصادية، دار الفارابي، بيروت، 2007
- تقرير البنك الدولي، الزراعة من أجل التنمية، واشنطن، 2008
- جمعية الصناعيين في لبنان ، كانون الأول ، 2006
- زنتوت، هلال ، الأوضاع الصناعية في الجنوب، مجلة الشؤون الاقتصادية،صيدا، 1981
- الساعاتي، حسن، «التصنيع والعمران» دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،

ص.ب.749، الطبعة الثالثة، 1980،

- الشامي، علي، تطور الطبقة العاملة في الرأسمالية اللبنانية المعاصرة ، دار الفارابي، بيروت، 1981،
- شؤون اقتصادية، أضواء على الصناعات الحرفية في لبنان الجنوبي، مجلة الشؤون الاقتصادية، صيدا، 1981، ص.63
- مرقص، ميشال، الصناعة اللبنانية، اتجاهات وتوجه، دار النهار، بيروت ، 1983،
- منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، الفاو، بيروت، 2012،
- نور الدين، سعاد، السكان والتنمية ، مقاربة سوسيو تنموية، دار المنهل اللبناني، بيروت ، 2010،
- وزارة الزراعة، دليل التعاونيات في لبنان، بيروت، 2008
- وزارة الزراعة، المشروع الأخضر،
- وزارة الزراعة، الزراعة في لبنان، المجموعة الاحصائية، بيروت، 1963، 1993،1987،1974،1965، 2006 و 2007
- وزارة الصناعية ، دليل الصادرات والمؤسسات الصناعية للأعوام 1988 و1990 و 1995 و 1996 و 2017 بيروت،
- وزارة الصناعة والنفط ، بيروت 1985
- يموت ،عبد الهادي، الاقتصاد اللبناني وأهمية المجال العربي لنموه، منشورات الاقتصاد والأعمال، بيروت، 1994
- A Bibby and L. Shaw Markiting a difference; cooperative solutions to global Manchester cooperative colleg 2005
- C. Ross. Smith Role of cooperatives in food security– a case of ethio-upian coffe farmers 2006
- الموقع الألكتروني الصناعة والاقتصاد، دخول بتاريخ 2018/ 10/ 15
www. Sinaaiktisadi.com

مسار التطور التاريخي لقطاع الخدمات في جبل عامل وآثاره الاقتصادية والاجتماعية



د. محمود عبد الرؤوف كوثراني

مقدمة

لكل منطقة من هذا العالم خصائصها وخصوصياتها التي تميزها عن باقي المناطق، سواء من حيث الموقع الجغرافي وطبيعته، أو البنية الإجتماعية الثقافية والقيمية، أو من حيث حجم الإنتاج المعرفي والعلمي، أو من حيث طبيعة النشاط الإقتصادي بمختلف مجالاته.

فجبل عامل كغيره من المناطق التي تحمل الكثير من هذه الخصائص والخصوصيات، والتي أمنت له التميز في أكثر من مجال، خاصة في مجال الإنتاج المعرفي المتعدد المجالات، والتجارة التي اشتهر بها منذ عهد الكنعانيين الى الفنيقيين الذين تحدروا منهم. واستمر هذا الإزدهار مع العهد الصليبي والمملوكي والعثماني والفرنسي، وصولاً الى تاريخ إحتلال فلسطين من قبل العدو الصهيوني عام 1948، الذي فرض نقطة تحول سلبي على هذا القطاع، بعد انقطاع خطوط التواصل مع فلسطين وسورية عبر البوابة اللبنانية من النقاط المحاذية لحدود البلدين.

وهذا التميز الذي عرفه جبل عامل ناتج عن غناه بالمواقع الطبيعية والأثرية المتنوعة، وشاطئه الممتد من صيدا الى الناقورة الذي عرف أهم ميناء في العصر القديم وهو ميناء صور التاريخي، فضلاً عن تميزه بوجود علماء ومفكرين أنتجوا الكثير على الصعد الفكرية والدينية والأدبية وغيرها.

احتل جبل عامل حيزاً استراتيجياً مهماً من البحر الأبيض المتوسط (من صيدا الى الناقورة ساحلاً)، الى الحولة وبعض قرى البقاع الغربي شرقاً، وفلسطين جنوباً، حيث تعتبر القرى السبع (المالكية، صلحا، قدس، هونين، طيربيخا، ابل القمح، النبي يوشع) وبعض قرى الجليل في فلسطين المحتلة جزءاً لا يتجزأ منه، وهذا ما منحه أهمية إقتصادية كبيرة في المرحلة التي سبقت احتلال فلسطين.

أطلق عليه جبل عامل بسبب تمركز قبيلة عاملة اليمنية في جباله اثر انهيار سد مأرب، وهذا ثابت عند معظم المؤرخين، ما اعطاه تميزاً إضافياً لأن التنوع غنى، فضلاً عن انه نقطة تلاقٍ بين مواطني لبنان وسورية وفلسطين والأردن قبل النكبة.

لذلك شهد هذا الجبل نهضة معرفية جعلت منه ملاذاً لكل طلاب العلم ومن مختلف المناطق، كما نشطت فيه حركة التجارة بشكل كبير، حيث كانت تأتيه التجار من فلسطين وسورية والأردن، ومن مختلف المناطق اللبنانية لعرض منتجاتهم وتبادل المنتجات عن طريق المقايضة التي كانت أكثر الطرق شيوعاً في العمليات التجارية، وهذا ما تؤكده الأسواق الأسبوعية التي عرفتها قرى وبلدات عدة وما زالت مثل (بنت جبيل، النبطية، تبنين، العباسية، الطيبة، ميس الجبل وغيرها...).

أما بالنسبة لقطاع الخدمات في جبل عامل فهو لم يكن عشية الإستقلال بالصورة التي أصبح عليها اليوم، حيث كان القطاع الزراعي هو المسيطر كما حال معظم المناطق، وهذا أمر طبيعي في ظل اعتماد الغالبية الساحقة من السكان آنذاك على هذا القطاع، نظراً لعدم وجود قطاعات أخرى، بسبب تمركز قطاعي الصناعة والخدمات في العاصمة وبعض مناطق جبل لبنان بعد الإستقلال. فقطاعا الصناعة والخدمات لا يمكن أن ينشطا إلا اذا تأمنت لهما البنية التحتية (مواصلات، طاقة، مناطق صناعية، وغيرها...) اللازمة لذلك، وهذا ما لم توفر الدولة الحد الأدنى منه من ذلك الحين حتى اليوم، كي يشهد تنوعاً قطاعياً بالمعنى الإقتصادي المتعارف عليه.

لذلك تأثر جبل عامل سلباً بالإتجاه الليبرالي، الذي وسم السياسات الإقتصادية في لبنان، وخصوصاً بعد فترة الإستقلال، حيث شكلت بيروت مركز الإستقطاب الرئيسي لجميع القطاعات الإقتصادية، وتحديداً التجارة والمصارف والصناعة. فإقتصاد الخدمات الذي تبنته البرجوازية التجارية والمصرفية في بيروت وجبل لبنان ترك آثاراً كارثية على جبل عامل وبنيته الإنتاجية التقليدية المتمثلة بالقطاع الزراعي وبعض الحرف. (**حمدان كمال، تطور البنية المجتمعية في الجنوب اللبناني، 2017، ص 155**).

فقطاع الخدمات في جبل عامل لم يكن بالشكل الذي تطور به وبتنا نعرفه، بالرغم

من ان التجارة تدخل في إطاره، لكنه لم يسلك طريقه ويبدأ بالتطور إلا مع ستينيات القرن الماضي، ومع تطور حركة المصارف وتوسعها الى خارج العاصمة، حيث كانت صيدا والنبطية وصور على خارطة هذا التوسع بعد أن فتحت فروعاً لها فيها، علماً ان المصارف بدأت نشاطها في صيدا منذ العام 1911 ، فضلاً عن بعض الأنشطة السياحية باتجاه المعالم الأثرية الكثيرة المهملة في مدنه وبلداته وقراه وغيرها.

وللإضاءة بحثياً على قطاع الخدمات في جبل عامل ومسار تطوره التاريخي، تم تقسيم الدراسة الى ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: التجارة في جبل عامل.**
- **المبحث الثاني: السياحة في جبل عامل.**
- **المبحث الثالث: المصارف في جبل عامل.**

وذلك بهدف فصل كل مجال من مجالات هذا القطاع (التجارة والسياحة والمصارف) ليتسنى لنا تقديم كل مبحث بمعزل عن الآخر، خاصة ان لكل من هذه المباحث مسار تطوره الخاص به، والذي يختلف بشكل كلي عن المباحث الأخرى، بسبب التطورات والمتغيرات التي طرأت على لبنان بشكل عام، وعلى جبل عامل بشكل خاص، وذلك قبل الإستقلال وبعده. علماً ان هناك مجالات وأعمال أخرى باتت تدخل ضمن قطاع الخدمات، مثل النقل والبناء والتعليم والصحة وغيرها من الخدمات الحكومية المتعددة، ولكن التركيز تم على المجالات التي تعتبر ركيزة هذا القطاع.

وقبل الخوض في هذه المباحث لا بد من تحديد الخطوات المنهجية الواجب الإلتزام بها وبمضمونها بهدف إخراج البحث بالصيغة العلمية.

خطوات البحث المنهجية

1- أهمية الموضوع

لا يمكن لأي بحث أن يدخل دائرة الأهمية إلا في حال اتسم بالأصالة، والتزم معايير البحث العلمي، وبالتالي اهتم بمعالجة إشكالية يقدم على أسئلتها أجوبة علمية موضوعية ناتجة عن عمل ميداني، أو عن تحليل معمق. وموضوع البحث المبين أعلاه وبعد الإطلاع على الدراسات السابقة أثبت أصالتة لعدم وجود دراسات سابقة تطابقت معه. وبما أن قطاع الخدمات أصبح ركيزة الإقتصاد اللبناني بعد أن تطور بسرعة فائقة وأصبح

يستحوذ على حوالي ٪88 من الناتج المحلي، وبما أن جبل عامل من المناطق التي تعرضت لمتغيرات عديدة، كان من الأهمية بمكان دراسة مسار تطور هذا القطاع وآثاره الإقتصادية والإجتماعية على سكان هذا الجبل من الناحيتين الإيجابية والسلبية، وتحديد مكامن القوة ومكامن الضعف في هذا القطاع ضمن نطاقه الجغرافي، وبالتالي تحديد مدى تأثيره على إقتصاد الدولة بشكل عام.

2- الإشكالية

ان التطور السريع لقطاع الخدمات في لبنان الذي بدأت نتائجه تظهر خلال عقدين من الإستقلال، والذي تابع تطوره بقوة بعد ذلك التاريخ ليصبح ركيزة الإقتصاد اللبناني، حتى بات يستحوذ على ٪88 من الناتج المحلي. وهذا التطور كان دون شك على حساب قطاعات الإنتاج التي بدأت مسيرة من التراجع حتى وصلت نسبتها مجتمعة اليوم الى ٪12 من الناتج المحلي (٪5 للقطاع الزراعي، ٪7 للقطاع الصناعي)، لذلك وفي ظل هذا التغير الذي أدى الى انعدام التوازن القطاعي، وبالتالي سمح لقطاع الخدمات بالسيادة المطلقة على الإقتصاد اللبناني، علماً أن نشاط هذا القطاع يلزمه الإستقرار الأمني والسياسي ليعمل بكامل طاقته وقوته، وهذا ما لم يكن ممكناً في بلد سمته الأبرز الهزات الأمنية والسياسية، كان لا بد أن يكون هذا القطاع في صلب اهتمام الباحثين لمعرفة أسباب هذا التطور والتغير السريع والمتسارع. وبما أن جبل عامل كغيره من المناطق اللبنانية لا بد أن تطاله هذه التطورات، ولمحاولة البحث عن مكامن هذه التطورات وإيجابياتها وسلبياتها تبنى الباحث السؤال الإشكالي الرئيسي لبحثه وهو:

ما هي الأسباب التي أدت الى تحول النشاط الإقتصادي في جبل عامل من نشاط إنتاجي بمعظمه الى نشاطي خدماتي؟.

وبناءً على سؤال البحث الرئيسي تبنى الباحث الأسئلة الفرعية التالية:

- هل ساهمت الظروف الأمنية التي عاشها جبل عامل وخاصة منذ عام 1948 بتراجع النشاط الإنتاجي؟.
- هل ساهمت التطورات والمتغيرات المحلية والإقليمية في ترك المزارع والصناعي مهنته وتحوله الى العمل في قطاع الخدمات؟.
- هل كان لإهمال الدولة قطاعات الإنتاج في جبل عامل دور في تحول النشاط الإقتصادي بمعظمه من إنتاجي الى خدماتي؟.
- ما هو الحجم الحالي لقطاع الخدمات (تجارة، سياحة ومصارف وغيرها...) في جبل عامل؟.

3- الفرضيات

بـما أن الفرضيـات هـي أجوبـة مبدئيـة مؤقتـة عـلى أسـئلة الإشـكالية، وبـما ان مـن شروطهـا أن تحمـل متغيريـن عـلى الأقـل، أحدهمـا مسـتقل والآخـر تابـع، كـما مـن خصائصهـا أن تكـون قابلـة للقيـاس والفحـص بهـدف التأكـد مـن انهـا تحققـت أم لم تتحقـق، تبنـى الباحـث لأسـئلته الفرضيـات التاليـة:

- سـاهم احتـلال فلسـطين مـن قبـل العـدو الصهيـوني بتعطيـل النشـاط التبـادلي بـين لبنـان وفلسـطين وسـوريا، مـا أدى الى تراجـع الإقتصـاد الإنتاجـي في جبـل عامـل وتحـول العديـد مـن المنتجـين الى إقتصـاد الخدمـات.
- أدت التطـورات الإقليميـة بالتكافـل مـع النظـام الإقتصـادي اللبنـاني، وخاصـة السريـة المصرفيـة التـي انفـرد بهـا في الإقليـم الى توجـه إقتصاديـي جبـل عامـل نحـو قطـاع الخدمـات.
- إن إهمـال الـدول لقطاعـات الإنتـاج، وعـدم دعـم المـزارع والصناعـي في جبـل عامـل، سـاهم في تغيـير الإقتصـادي بوصلـة نشـاطه مـن الإنتـاج نحـو الخدمـات.
- لم يسـاهم قطـاع الخدمـات في جبـل عامـل بتحسـين الظـروف الإقتصاديـة والإجتماعيـة للعامليـين، بسـبب الظـروف الأمنيـة التـي عاشـها، وتمركـز هـذا القطـاع في العاصمـة.

4- أهداف البحث

يتعـين عـلى الباحـث بعـد إختيـاره لموضـوع بحثـه وتحديـد أسـئلته التـي تبناهـا لـه، والتـي يريـد تقديـم إجابـات عليهـا، أن يحـدد أهدافـه التـي يجـب أن تسـتوحى مـن تلـك الأسـئلة، عـلى أن تكـون هـذه الأهـداف موضوعيـة علميـة واضحـة مرتبطـة ارتباطـاً عضويـاً بأصـل الطـرح الإشـكالي الـذي تـم تبنيـه، لأننـا لا يمكـن أن نتخيـل بحثـاً علميـاً دون أهـداف، لأننـا حتـماً سـنصل الى بحـث دون نتائـج، وبالتـالي نسـطيع القـول أن الأهـداف التـي يحددهـا الباحـث هـي المحـدد الرئيـسي لأصالـة البحـث وأهميتـه العلميـة، وبالتـالي ان الجديـد المعـرفي الـذي يجـب أن يتـوج بـه أي بحـث يتوقـف عـلى صياغـة أهدافـه، لذلـك حـدد الباحـث أهـداف بحثـه بالتاليـة:

- التعـرف عـلى مـدى تأثـير إحتـلال فلسـطين الـذي أدى أيضـاً الى إقفـال الممـر الـبري بين لبنـان وسـورية عـلى إقتصـاد جبـل عامـل والتحـول مـن الإقتصـاد الإنتاجـي الى قطـاع الخدمـات فيـه.
- التعـرف عـلى قطـاع الخدمـات في جبـل عامـل مـن خـلال تتبـع مسـار تطـوره ومـدى مسـاهمته في التنميـة.
- تحديـد طبيعـة التطـورات والمتغـيرات التـي أدت الى التحـول في الإقتصـاد العامـلي مـن الإنتـاج الى الخدمـات.

- معرفة حجم قطاع الخدمات في جبل عامل وآثاره الإقتصادية والإجتماعية، من خلال دراسة المجالات الرئيسية لهذا القطاع.

5- المناهج المستخدمة

اعتمد الباحث المنهج التاريخي، نظراً لأن البحث يعتمد في قسم كبير منه على الوثائق التاريخية التي قدمها عدد من المؤرخين، والتي تحدثت عن جبل عامل، وبالتالي تحتاج الى التحليل المعمق الذي من خلاله نصل الى إجابات على الأسئلة المطروحة، كما نصل الى تحقيق الأهداف المحددة له.

كما اعتمد المنهج الوصفي أيضاً لأن البحث امتداد من الماضي الى الحاضر، حيث الأبحاث الوصفية تفترض معالجة الظواهر المعاشة، فيصبح بالإمكان الحصول على المعلومات من مجتمع البحث وتحديداً من العينة الممثلة له، فضلاً عن البيانات والمعلومات والمنشورات والإحصاءات المتوفرة التي يمكن الإعتماد عليها للوصول الى النتائج المرجوة.

6- التقنيات المستخدمة

اعتمد الباحث على تقنية الملاحظة بهدف رصد الظاهرة بمرحلتها الراهنة، خاصة موضوع الأسواق الأسبوعية، والمعالم الأثرية، ونشاط المصارف المنتشرة في مناطق جبل عامل. لذلك كان على الباحث اعتماد هذه التقنية لمعرفة طبيعة المتغيرات، وتحديد البلدات التي ما زالت الأسواق قائمة فيها، وزيارة المعالم الأثرية لملاحظة أوضاعها والحركة السياحية فيها، لأن الحصول على معلومات من الميدان يغني البحث ويؤكد صحة المعلومات المنشورة في المراجع والمواقع وغيرها من خلال عملية التقاطع بينها.

المبحث الأول: التجارة في جبل عامل

تمهيد

إذا أردنا الحديث عن التجارة في جبل عامل يُلزمنا التاريخ أن نبدأ على الأقل من زمن الفينيقيين الذين اهتموا كثيراً بالتجارة، وخاصة الدولية منها وبرعوا بها وأمنوا لها كل مقومات النجاح، ما ساهم بجعل الفينيقي مرادفاً للتجارة. فالموقع الهام لصيدا وصور على البحر الأبيض المتوسط جعل منهما مركزين تجاريين ذاع صيتهما على المستوى العالمي، ولم يكن الموقع فقط هو السبب الرئيسي، بل النشاط الإنتاجي على المستويين الزراعي والصناعي كانا أيضاً من الأسباب الرئيسية في تعاظم حركة التجارة، لأن التجارة ولدت من رحم قطاعات الإنتاج وفوائضها، وحاجة الناس الى السلع المتنوعة لإشباع الحاجات والرغبات. كل هذه الأسباب كانت كفيلة بنهضتها وتطورها كماً ونوعاً.

لقد كانت الطرق الرئيسية للسفن تنطلق من صيدا وصور الى مصر وكيليكيا وجبال طوروس ورودوس وصقلية وغيرها من المناطق محملة بالبضائع المتنوعة والمنتجة في صور وبعض مناطق جبل عامل. وأول سفينة تجارية فينيقية انطلقت من صيدا باتجاه اليونان. (**أحمد عارف الزين، تاريخ صيدا، ص** 34، 1913).

وتابعت عملية التبادل التجاري ازدهارها في عهد الصليبيين والمماليك، ما جعل مدن هذه المنطقة تجنح الى التخصص في بعض الصناعات. فاشتهرت صور بصناعة السكر والزجاج والنسيج، كما اشتهرت بصنع أفخر الزجاج والخزف، وصنعوا ايضاً نوعاً من القماش الابيض لا يعادله قماش آخر من حيث النوع وجودة الصنع، وصدروه الى العديد من البلدان، كما وجد فيها اكبر مضرب للعملة حيث كانت النقود تصك كالدينار الفاطمي، والذي عرف عند تجار البندقية «بالدينار الصوري».

هذا النشاط التجاري ساهم في تعزيز وتوسيع الصناعة في أكثر مناطق جبل عامل، حيث اشتهر بعضها بانتاج سلعة محددة وعرف بها، كراشيا الفخار التي تقع في منطقة حاصبيا وتابعة حالياً لمحافظة النبطية، والتي اشتهرت بصناعة الفخار والأواني الفخارية المنزلية التي كانت أساسية ولكل منزل قبل تطور الصناعة وحلول الزجاج ومشتقاته والمعادن بديلاً عنها، حيث كانت تلك الأواني من السلع الأساسية في الأسواق الأسبوعية التي نشأت لاحقاً في القرى والبلدات العاملية.

والحروب الصليبية كانت من العوامل المهمة التي ساعدت على تنشيط التجارة في العصور الوسطى. ومثلت المدن الايطالية الناشطة تجارياً، المحتكر الوحيد للتجارة بين

الشرق والغرب. فلقاء نقل الصليبيين والاشتراك الفعلي في الحروب البحرية ضد المسلمين، امتلكت هذه الجمهوريات المدن والمرافئ العديدة في الحوض الشرقي للمتوسط، فكان لكل جمهورية تجارية في كل مدينة يسيطر عليها الصليبيون حي خاص بها، يحتوي على سوق تجاري وكنيسة وقلعة وقنصلية ومأوى للتجار، وكان من بين هذه الموانئ ميناء صور الذي يعتبر من الموانيء المهمة التي تصل اليه بضائع الشرق من الهند والهند الصينية والصين، لتشحن بعدها نحو أوروبا.

وتابعت التجارة في جبل عامل نشاطها أيام الدولة العثمانية التي اهتمت بها واعتبرتها عاملاً رئيسياً في رفاهية السكان وعمران البلاد، وان تنشيطها هو في صلب واجباتها.

فتميزت صيدا منذ أيام فخر الدين المعني الثاني بعلاقات تجارية واسعة مع أوروبا، كما أمها الكثير من التجار الأوروبيين، وخصوصاً الفرنسيين الذين تمتعوا بامتيازات مهمة على حساب التجار المحليين حيث كانوا يدفعون 4٪ فقط كرسوم جمركية على البضائع التي يستوردونها، مقابل حوالي 21٪ يدفعها التجار المحليون، ما دفعهم الى تسجيل تجارتهم بأسماء تجار أجانب للإستفادة من هذه الإمتيازات، وهذا ما زاد من النفوذ الأوروبي على حساب السلطة العثمانية.

كما كان يقام في صيدا سوق اسبوعي خلال القرن الثامن عشر يستمر يومي الإثنين والثلاثاء من كل اسبوع، وفي سنة 1909م أعيد فتح السوق الأسبوعي ولكن مع تغيير موعده الى يوم الأحد. وذلك بناء على طلب من السلطات الرسمية في ولاية بيروت الذي قضى بإقامة أسواق اسبوعية في مراكز الألوية والأقضية.(**المجذوب طلال، تاريخ صيدا الإجتماعي**، 1983، ص 163).

1- المرات التجارية وطرق الربط بين جبل عامل وباقي الأسواق

كان لجغرافية المنطقة أثر هام في ازدهار التجارة فيها. فكانت تشقها طرق عديدة وتعتبربمثابة شرايين حيوية لها، ومن هذه الطرق التجارية التي كانت معروفة والتي اكسبت المنطقة اتصالا حضارياً غير منقطع مع شعوب المنطقة العربية التالية:

- طريق من صفد تمر عبر ميس وهونين، ومن هونين تهبط الطريق لتلاقي طريقاً آخر، يمر بالوديان، وهي التي مر بها ابن جبير وهو في طريقه الى بانياس في الساحل، ويسمى الوادي بين هونين وتبنين بوادي الاسطبل، ومنه تعبر القوافل نحو حصن تبنين لتكمل طريقها باتجاه عكا او صور، كما وجدت اثار لطريق معبدة تسلكها العربات بين صور وبانياس، ما زالت اثارها باقية الى اليوم.

- طريق القوافل التي تسير عبر ساحل فلسطين حتى تصل الى الناقورة وتتابع شمالاً على طول الساحل حتى تصل الى الزهراني.
- اما من صور الى صفد فقد وجد في عهد المماليك طريقان يؤلفان طريقاً واحداً حتى قانا، ومن قانا تتفرع الطريق فتذهب احداها الى صديقين، ياطر، دبل، وادي رميش، كفربرعم، صفصاف ثم صفد، اما الاخرى فتذهب من قانا الى تبنين، كونين، بنت جبيل، يارون حتى صفد.
- اما الطريق من صور الى دمشق، فكانت تمر عبر قبريخا، رب ثلاثين، ابل، فبانياس فد مشق .

وهذه الطرق هي التي شجعت المزارع والحرفي والصناعي في جبل عامل والمناطق المجاورة على الإهتمام بالإنتاج التجاري، حيث أمنت له الوصول الى الأسواق بسهولة ويسر، فضلاً عن أهمية موقع جبل عامل الذي يربط بين مثلث فلسطين وسورية والأردن بحسب تقسيمات سايكس بيكو. هذا الموقع دفع بسكان جبل عامل الى ابتكار مسألة الأسواق الأسبوعية التي راجت في تلك الفترة، لأنها كانت الحل الأفضل لتصريف المنتجات والتبادل بين المنتجين، فضلاً عن تأمين حاجات السكان من السلع والمواد التي يحتاجونها، إما لفترة اسبوع أو لعملية تموين سنوية بحسب طبيعة المادة ومدى توافرها على مدار العام، أو بحسب الحاجة اليها.

2- الأسواق التجارية في جبل عامل

نشطت الأسواق الاسبوعية التقليدية في جبل عامل وشهدت تطورات وتحولات عبر التاريخ منذ الصليبين والمماليك حتى يومنا هذا. فكانت هذه الأسواق محطة للقوافل الحربية والتجارية منذ أيام المماليك والعثمانيين، واليوم تحولت أسواقاً للقرى تعرف بأسمائها، كما تبين أن التنسيق كان على قدم وساق بين هذه القرى وأسواقها، حيث تم تحديد أيام مختلفة من الأسبوع لهذه الأسواق بين القرى منعاً لتضارب التوقيت، وكي يتسنى للعدد الأكبر من التجار والأفراد المستهلكين حضور هذه الأسواق بناء على الخريطة الزمنية التي تم رسمها لهذه الغاية.

وكانت البضائع التجارية تمر من سوريا الى فلسطين عبر طريقين: طريق دمشق – طبريا، وطريق دمشق – تبنين، مما عزز التبادل التجاري ما بين جبل عامل وسائر المناطق السورية. ومنذ ذلك الحين نشأت في بعض القرى العاملية مجموعة من الاسواق التجارية المحلية التي كانت تقام فيها، ومن اشهرها اسواق تبنين والنبطية والعديسة – الطيبة وبدياس وجويا وبنت جبيل، وغيرها، وفيها كان الفلاح العاملي يعرض منتوجاته الزراعية

ومشـتقاتها، والحـرفي والصناعـي يعـرض صناعاتـه اليدويـة الى جانـب البضائـع المنوعـة الآتيـة مـن سـوريا وفلسـطين.

لذلـك نجـد أن هـذه الأسـواق قـد تعـددت وتوسـعت سـواء بسـبب الظـروف الموضوعيـة المتمثلـة بالتقـارب الجغـرافي بـين جبـل عامـل والمناطـق المجـاورة، أو بسـبب توفـر السـلع نتيجـة للنشـاط الزراعـي والصناعـي الـذي تميـز بـه. وفي مـا يـلي نعـرض لبعـض هـذه الأسـواق:

أ- سوق تبنين:

عرفـت بلـدة تبنـين ظاهـرة التجـارة والتسـوق منـذ اواخـر القـرن السـابع عـشر، وبلغـت اوج عزهـا في عهـد الامـير الشـيخ ناصيـف النصـار، أحـد الامـراء الـذي أقـام في قلعتهـا واتخـذ منهـا مركـزاً لقيادتـه، وجعـل منهـا المرجـع العـام للمقاطعـات الثـماني آنـذاك (تبنـين وهونـين وسـاحل معركـة وسـاحل قانـا ومرجعيـون واقليـم الشـومر وجبـاع)، فـأوْلى التجـارة اهتمامـاً خاصـاً بعـد اعـادة ترميـم مرفـأ صـور عـام 1766، فحـوّل في عهـده جبـل عامـل طريقـاً للقوافـل التجاريـة.

بـدأت سـوق تبنـين نشـاطها التجـاري عـام 1892 (**النهـار** 1/ 6/ 2003)، وكانـت تقـام صبـاح كل ثلثـاء في سـاحة البلـدة، فـكان التجـار يعتمـدون عـلى الـدواب في تنقلاتهـم، وكانـت الاواني الفخاريـة التـي يعرضهـا حرفيـون مـن عيتـا الفخـار – قضـاء راشـيا، اشـهر مـا يبـاع في السـوق، لانهـا كانـت تعتمـد كأوانٍ مطبخيـة، فضـلاً عـن حضـور المبيضـين الذيـن كانـوا يبيّضـون الاواني النحاسـية ومعظمهـم مـن بلـدة جويـا.

كانـت بسـطات الحبـوب عـلى انواعهـا والقمـح والاقمشـة، وخصوصـاً الحريريـة منهـا، والحلويـات العربيـة مـن اهـم مبيعـات تجـار حـوران. كـما كان التجـار المحليـون مـن جـوار تبنـين وصـولاً الى تجـار النبطيـة يبيعـون الحبـوب وبعـض منتجـات الحـرف اليدويـة.

مـع بـدء الحـرب العالميـة الثانيـة تأثـرت السـوق وتوقفـت عـن العمـل، وبعـد الحـرب عـادت الى البلـدة، ولكـن تغـير موعـد اقامتهـا مـن يـوم الثلثـاء الى يـوم الجمعـة مـن كل اسـبوع. ومـع شـق الطـرق وبـدء انتشـار وسـائل النقـل الآليـة انتقلـت السـوق مـن وسـط سـاحة البلـدة الى محيـط سرايـا تبنـين، بسـبب ارتفـاع عـدد البسـطات التـي امتـدت في محيطهـا عـلى جانبـي الطريـق ولا زالـت عامـرة الى اليـوم. وباتـت سـوق الجمعـة تعتـبر الى حـد مـا امتـداداً لسـوق الخميـس في بنـت جبيـل، بحيـث أصبـح التجـار القادمـون مـن خـارج قضـاء بنـت جبيـل للبيـع في سـوقها (سـوق بنـت جبيـل) يبيتـون في المنطقـة عنـد الاصحـاب ليبسّـطوا في اليـوم التـالي في سـوق تبنـين.

ومـع تطـور الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصاديـة تنوعـت المبيعـات وأصبحـت مواكبـة لمسـتلزمات الحاجـات اليوميـة. فغابـت عنهـا اشـياء وحلـت مكانهـا بضائـع اخـرى عصريـة، واصبحـت السـوق جـزءاً مميـزاً مـن تـراث تبنـين ولهـا زبائنهـا مـن السـكان الذيـن باتـوا عـلى موعـد معهـا صبـاح كل جمعـة، تجذبهـم كبـاراً وصغـاراً للتبضـع وللتسـلية ولملاقـاة الاصحـاب.

ب- سوق بنت جبيل:

ينقل المؤرخون ان المتصرف رستم باشا اصدر أوامره بانشاء الاسواق في البلدات التابعة للسلطنة العثمانية منتصف تموز العام 1880. لكن بعض المعمرين في بنت جبيل ينقلون بالتواتر ان سوق بلدتهم أنشئت قبل هذا التاريخ.

وسوق مدينة بنت جبيل قديم جداً، ومن المؤكد انه موجود «قبل الأمر الذي اصدره رستم باشا في منتصف تموز العام 1880، والقاضي بفتح أسواق في بعض القرى والبلدات اللبنانية، وفي أوقات معينة، لتسهيل اعمال الرعايا.

لذلك نجد أنه من الثابت أن مدينة بنت جبيل عرفت ظاهرة السوق منذ القرن السابع عشر، حين كانت الممر والملتقى لشعوب الأقطار العربية الثلاثة: الشام وفلسطين ولبنان.

ينعقد السوق نهار «الخميس» وأصبح هذا اليوم يعرف بنهار: «سوق الخميس»، وهو سوق شعبي، ككل الأسواق الشعبية الأخرى الموجودة في جبل عامل، ويعتقد أن هذا السوق هو الذي اعطى لبنت جبيل أهميتها التجارية، قديماً وحديثاً، على اعتبار أن السوق يخلق حركة تجارية ناشطة، وهذه الحركة التجارية كانت قديماً مع فلسطين وحوران والعريش وغزة، وخاصة قبل سنة 1948، إلا ان هذه الحركة انحصرت بعد ذلك التاريخ واصبحت فقط مع لبنان، أو الداخل اللبناني.

كان السوق يقام قديماً في المحلة التي تعرف بـ «الساحة القديمة»، حيث كانت تتواجد معظم المحلات التجارية الأساسية والمهمة في البلدة وباعة الجملة والمفرق على حد سواء.

ونقل السوق سنة 1919 إلى المنطقة التي يعقد فيها حالياً أي منطقة السراي، وأصبح يقام في منطقة عراء لا وجود لمحلات أو دكاكين فيها، حيث ينقل أصحاب المحلات التجارية بضاعتهم إليه، ويبسطون بها على الأرض أو على طاولات، ويستمر هذا الأمر حتى عصر الخميس.

ويحتل السوق مساحة مهمة تتراوح بين 20 و30 دونماً، وكانت تقوم بالقرب منه تسع خانات تستقبل عدداً مهماً من الأشخاص ولهم منامة خاصة، واعداد وافرة من الحيوانات.

وكل المؤرخين يتحدثون ان حركة البيع والشراء في هذا السوق كانت ناشطة جداً قبل سنة 1948 الا انها خفت بعد تلك الفترة.

وكان يؤم سوق بنت جبيل قبل العام 1948 كبار تجار الحبوب والمواشي والسلع المتفرقة، والفواكه والخضار والفخار، وغير ذلك، وبعد نكبة فلسطين في العام 1948 اصيب السوق بنكسة قوية، فقد حُرم من أهم مصدر اساسي لرفده واعطائه جزءاً كبيراً

مـن أهميتـه.

وبعـد هـذه النكبـة اسـتعاد السـوق بعضـاً مـن اهميتـه ولفـترة بسـيطة، ونتـج ذلـك عـن حلـول عـدد كبـير مـن الفلسـطينيين النازحـين إلى بنـت جبيـل وجوارهـا.

بعـد ذلـك بـدأ السـوق يتراجـع تدريجيـاً، ففـي العـام 1956 بنيـت محـلات تجاريـة عـلى جوانـب السـوق وهـي ملـك للبلديـة.

وبـين سـنتي 1975 و1976 كانـت فـترة ذهبيـة لسـوق بنـت جبيـل، حيـث عـاد معظـم ابنـاء بنـت جبيـل مـن بـيروت إلى المدينـة اثـر انـدلاع الحـرب الأهليـة، وعـادت للسـوق اهميتـه الكبـيرة، حيـث بلـغ سـكان بنـت جبيـل يومهـا حـوالى 20 ألـف نسـمة، وانتقـل إلى المدينـة أكثـر مـن 200 معمـل احذيـة، وكان تجـار الشـمال والبقـاع وبـيروت يأتـون إلى بنـت جبيـل لـشراء انتاجهـا، وشراء الأحذيـة.

وفي آذار 1976 قُصـف سـوق الخميـس مـن قبـل العـدو الإسرائيـلي وعملائـه، وبـدأ العـد العكسـي مجـدداً للسـوق، حيـث نـزح معظـم الأهـالي إلى بـيروت.

أمـا بعـد التحرير (عـام 2000) تطـور الوضـع التجـاري في بنـت جبيـل، وعـاد السـوق ليزدهـر مجـدداَ، وفي الأسـابيع الأولى كان السـوق الـذي يعقـد في بنـت جبيـل شـبيهاً بسـوق النبطيـة، حيـث أن معظـم أصحـاب البسـطات الذيـن يبسـطون في النبطيـة، هـم انفسـهم مـن يبسـطون في بنـت جبيـل، ويـتراوح عـدد هـذه البسـطات بـين 150 بسـطة في الشـتاء ليصـل الى حـوالي 250 بسـطة في الصيـف.

ج- سوق النبطية:

تتعـدد مصـادر ومراجـع المؤرخـين بشـأن نشـأة سـوق النبطيـة فمنهـم مـن يرجعـه الى العهـد المملوكـي، ومنهـم مـن يرجعـه الى أربعـة قـرون خلـت، وآخـرون يعتـبرون نشـأته مـع بدايـة القـرن الثامـن عـشر. والتقاطـع المهـم بـين كل هـذه المصـادر والمراجـع يظهـر أن السـوق قديـم النشـأة وهـذا يعـود الى موقـع النبطيـة الإسـتراتيجي الـذي يجعلهـا نقطـة تلاقـي والتقـاء للتجـار القادمـين مـن فلسـطين وسـورية، فضـلاً عـن التجـار اللبنانيـين مـن كل المناطـق.

وهـذا مـا أكـده الرحالـة الأوروبيـين في وصفهـم للسـوق، حيـث في نهايـة القـرن الثامـن عـشر زارهـا الرّحالـة الفرنـسي (فولنـي - VOLNEY) الـذي كان قـد سـاح ثـلاث سـنوات في لبنـان ومـصر وبـرّ الشـام منـذ العـام 1783 ميـلادي.

وكذلـك فعـل الرحالـة والمبـشّر الأمريكـي (إدوارد روبنصـون) في القـرن التاسـع عـشر، الـذي زار فلسـطين ولبنـان والأقطـار المجـاورة عـام 1838، ثـم عـاد مـرة أخـرى عـام 1852، وكتـب واصفـاً النبطيـة: (وصلنـا النبطيـة وهـي قريـة كبـيرة في وادٍ فسـيح ... وفي النبطيـة سـوق

تجاري يُقام معرض فيه كل اثنين).

أيضاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وصف الدكتور شاكر الخوري السوق وأحوالها في كتابه (مجمع المسرات) مقدّراً مرتاديه بما يقارب الستة آلاف نسمة، كما وأنّ العقود التي تبرم فيها بين شارٍ وبائع تتجاوز الخمسين ألف وكل هذا يحدث في يوم واحد. (**هبة دنش، 2018/ 1/ 8، موقع جنوبيات**).

أما ابن النبطية الدكتور عباس وهبي في كتابه « النبطية في الفَلكين المحلّي العاملي والإقليمي » يقول: أن وجود السوق في النبطية آنذاك إن دلّ على شيء إنما يدل على الإزدهار التجاري والحضاري الذي كان سائداً في تلك المرحلة من الزمن، إنطلاقاً لما لهذا السوق من أهمية إجتماعية وإقتصادية وتراثية وحضارية. ووجود هذا السوق آنذاك يؤكد أنّ النبطية كانت ممراً تجارياً ناشطاً واستراتيجياً، ومركزاً لتبادل إقتصادي حيوي جعلها مقصداً للعديد من التجار الوافدين إليها من كل المناطق، ومن كل أصحاب الديانات المختلفة التي كانت موجودة في صفد.

ويرى الباحث والناشط الثقافي علي حسين مزرعاني في كتابه (النبطية في الذاكرة) أن السوق المذكورة كانت تبدأ في صبيحة يوم الأحد، حيث يتوافد التجار على الخانات تحضيراً لليوم التالي الذي يستمر إلى عصر الإثنين.

وفي مطلع القرن العشرين، وتحديدا في أواخر أيام الدولة العثمانية، يكشف الباحث علي عبد المنعم شعيب في كتابه (مطالب جبل عامل) أحوال السوق وذلك نقلا عن جريدة المرج المرجعيونية الصادرة عام 1909، فيقرر بأنها من أكثر الأسواق إجتماعاً وتجارة، ويؤمّها الناس من ولاية بيروت وجبل لبنان وأطراف ولاية سوريا، ويكاد مورد ارتزاق الأهالي في النبطية والجوار ينحصر بها.

ومع مجيء الإحتلال الفرنسي ومن ثم زواله وقيام الدولة اللبنانية بحدودها الحالية، يصف لنا الأستاذ أبو بشار خليل توفيق ترحيني حال السوق في أواسط القرن العشرين، حيث كانت موزعة على عدة أقسام:

- سوق اللحم في مدخل البلدة (المنشية).
- سوق القماش في ساحة آل الفضل.
- سوق الغلة في موقف ساحة مرجعيون.
- سوق الفخار والحدادين والنحاسين في حي الميدان.

لكن الوضع تغير بالنسبة لسوق النبطية كما باقي الأسواق بعد النكبة واحتلال الكيان

الصهيـوني لفلسـطين، حيـث خـسرت أسـواق جبـل عامـل قيمتهـا التجاريـة والتراثيـة بفقدانهـا التنـوع سـواء بالتجـار أم بالسـلع. فمـن كان يـأتي مـن فلسـطين وسـوريا والأردن حامـلاً معـه مـا يغنـي هـذه الأسـواق ويلبـي رغبـات وحاجـات التجـار والمتسـوقين لم يعـد باسـتطاعته الوصـول. فاقتـصرت حينهـا حركـة الأسـواق عـلى التجـار والمسـتهلكين اللبنانـين، وهـذا مـا أضعـف حركتهـا الى حـد كبـير.

مـع العلـم ان هـذه الأسـواق حافظـت عـلى اسـتمراريتها وبعضـاً مـن حيويتهـا نظـراً للحاجـة اليهـا وتمسـكاً ببقـاء هـذا النشـاط التجـاري التراثـي.

فسـوق النبطيـة اليـوم وبالرغـم مـن كل المتغـيرات والتطـورات التـي حصلـت عـلى مسـتوى نوعيـة السـلعة ونوعيـة التاجـر مـا زال يحمـل بعضـاً مـن هويتـه التـي يحـاول المعنيـون الحفـاظ عليهـا، حرصـاً عـلى مصلحـة التجـار والمسـتهلكين معـاً.

كانـت مقومـات سـوق الاثنـين في النبطيـة محليـة خالصـة، وغذائيـة الطابـع، قبـل أن تتفـوق فيـه البضائـع المسـتوردة عـلى مـا عداهـا، وخصوصـاً تلـك المتعلقـة بالألبسـة والأحذيـة.

ومـن خـلال جولـة لنـا في السـوق تبـين لنـا أن الغـذاء لم يختـفِ تمامـاً أمـام زحـف تلـك البضائـع المسـتوردة، إلا أن مسـاحته في السـوق تقلصـت. فوحدهـا بسـطات الخضـار والفاكهـة وبعـض الحبـوب «البلديـة» (كالعـدس والقمـح والحمـص والفـول والسمسـم والفاصوليـاء)، ومحاصيـل الزيـت والزيتـون (مـن حاصبيـا ومرجعيـون) والتـين اليابـس (مـن العرقـوب) والتفـاح والجـوز والكـرز والسـفرجل (شـبعا) والصعـتر والزهـورات، إلى جانـب مكانـس القـش والليـف، في إحـدى زوايـا السـوق، هـي النـماذج الباقيـة التـي تحاكـي عهـداً مـضى. ولا يـزال المزارعـون مـن أبنـاء بلـدة كفررمـان «يبسّـطون» صبـاح كل اثنـين، في زاويـة مخصصـة قريبـة مـن الوسـط التجـاري، تعـرف باسـمهم. «خضرتهـم» الطبيعيـة المميـزة، هـي مـن نتـاج حقولهـم وسـهلهم، «سـهل الميذنـة» الناميـة خـارج إطـار الخيـم البلاسـتيكية والأسـمدة الكيماويـة.

وتنتـشر في السـوق بسـطات متواضعـة ذات طابـع غذائـي محـلي، منهـا بسـطات الكعـك المحشـوّ بالتمـر المعـدة مـن بعـض أبنـاء النبطيـة، أو بسـطات للحلويـات العربيـة. فضـلاً عـن معروضـات للغـلال والحبـوب «المقطوفـة» مـن حقـول بلـدات في قضـاء النبطيـة، عـلى نحـو يحمـر الشـقيف والزوطريـن الشرقيـة والغربيـة وعدشـيت وجبشـيت وغيرهـا.

أمـا سـوق الماشـية التـي كانـت تحتـل حيـزاً أساسـاً مـن سـوق الاثنـين، وتنتـشر عـلى بيـدر النبطيـة، فقـد تراجعـت تمامـاً وتتمثـل اليـوم ببعـض التبـادل أو البيـع والـشراء عنـد تخـوم حـي السرايـا، خـارج السـوق، في وقـت توقفـت أسـواق رديفـة مثـل أسـواق «الغلـة» و«الكندرجيـة» و«الحداديـن والنحاسـين». في السـياق ذاتـه، يعيـش سـوق «اللحـم» مخاضـاً عسـيراً بعدمـا تبددت دكاكينـه وتحولـت نحـو وجهـات مختلفـة، وخصوصـاً أنـه أصبـح لـكل بلـدة أو قريـة كفايتهـا مـن

«ملاحم» الجزارين والقصابين.

وبسبب تعاظم عدد بسطات الأقمشة والثياب و«الفوبيجو» واللوازم والمعدات الكهربائية، فضلاً عن زوايا لبيع الكتب والمعدات واللوازم البيتية التراثية والقديمة؛ امتد سوق الاثنين نحو الغرب ومحيط النادي الحسيني بعدما كان يتركز في قلب الوسط التجاري.

كما يعرف جبل عامل أسواق أخرى غير التي تم تقديمها مثل سوق الطيبة والعباسية وجويا وغيرها... لكن أسواق تبنين وبنت جبيل والنبطية تتميز بالأهمية الإستراتيجية المحورية التي تجعل منها أسواقاً مزدهرة ومقصودة بشكل كبير.

3- تطور التجارة في جبل عامل بعد الإستقلال

مع بزوغ فجر الإستقلال كانت منطقة جبل عامل كما ذكرنا تعيش على الزراعة كأساس إقتصادي، بالإضافة الى بعض الصناعات الحرفية اليدوية التي نشطت بسبب الموقع الذي يتمتع به، ما جعله مركزاً تجارياً مهماً ومقصداً لدول ومناطق الجوار القريبة والبعيدة، من تجار ومستهلكين بالرغم من صعوبة المواصلات ووسائل النقل والتنقل التي كانت بمجملها بدائية.

ولكن مع حضور الدولة بعد الإستقلال بدأت تتبدل الأمور، حيث بدأت التجارة تأخذ بعدها المقونن من خلال وكالات حصرية تم حصرها ببعض النافذين، الذين ارتبطوا بعلاقات إقتصادية مع المحتل الفرنسي، وبنوا لهم نفوذاً سياسياً يؤمن لهم حماية كاملة وحصانة لأعمالهم التجارية الإحتكارية التي ما زالت مفاعيلها تظهر حتى اليوم.

فبالرغم من تحرير الأسواق وبروز التكتلات التجارية العالمية، وما رافق هذه التطورات والتغيرات، لم تفلح محاولات إلغاء الوكالات الحصرية في لبنان أوائل الألفية الثالثة بالكامل نظراً لقوة المستفيدين منها وموقعيتهم السياسة التي ساهمت بتقوية نفوذهم على الصعيدين السياسي والإقتصادي، ما أبقى على نظام الإحتكار لعدد من السلع التي ما زال يتحكم بها وبسعرها الوكلاء، وأفقد التجارة تنافسيتها الطبيعية. فالمنافسة من إيجابياتها أن تؤمن إنخفاضاً نسبياً في الأسعار، واستقراراً لحركة السوق، وهذا دائماً يكون في مصلحة المستهلك.

ان تطور التجارة بالصورة التي أصبحت عليها اليوم في لبنان بصورة عامة، وفي جبل عامل بصورة خاصة، ساهم في الإحلال بشكل كبير مكان الإنتاج الذي تصاعدت

أكلافـه الى حـد لم يعـد يقـوى عـلى المنافسـة ليـس فقـط عـلى المسـتوى العـربي بـل تجـاوز ذلـك الى المسـتوى الـدولي، وبـات معـه لبنـان يعتمـد عـلى الإسـتيراد بنسـبة ٪80 للسـلع والمنتجـات التـي يحتاجهـا المستهلك، في حـين لا ينتـج سـوى ٪20 مـن تلـك السـلع، وذلـك عـلى المسـتويين الزراعـي والصناعـي، بمعنـى أوضـح بتنـا نسـتطيع القـول أن لبنـان أصبـح بلـداً مسـتورداً بـكل مـا للكلمـة مـن معنـى، وهـذا مـا أكـده لموقـع النشرة الإخبـاري في2018 /2 /2 وزيـر الصناعـة عندمـا صرح بـأن العجـز في الميـزان التجـاري أصبـح مـا بـين 15 و16 مليـار دولار علـماً ان الإحصـاءات الصـادرة عـام 2017 تبـين ان العجـز أكثـر مـن 20 مليـار دولار (راجـع الجـدول رقـم(1). وهـذا رقـم مخيـف بالنسـبة لدولـة مثـل لبنـان، ولإقتصـاد دولـة ليـس لديهـا مكامـن قـوة إقتصاديـة، مثـل النفـط أو مـوارد طبيعيـة أخـرى تعـوض هـذا العجـز، باتـت تعتمـد عـلى الإسـتيراد في تأمـين حاجياتهـا دون البحـث عـن حلـول لتخفيـض هـذا العجـز الـذي أصبـح يرتـب مشـكلة مزدوجـة، إقتصاديـة وماليـة.

هـذه الصـورة تنسـحب عـلى كل منطقـة مـن لبنـان بما فيهـا جبـل عامل الـذي فقـد خصوصيته وميزتـه التجاريـة التـي كان يتمتـع بهـا قبـل الإسـتقلال وخاصـة بعـد احتـلال فلسـطين، في ظـل اتسـاع الأسـواق وتحريرهـا، حيـث لم تعـد الدولـة بكامل مسـاحتها سـوقاً خاصـاً ضمـن الجغرافيا العائـدة لهـا بعـد ظهـور التكتـلات التجاريـة التـي أصبحـت سـمة العـصر، وأكبرهـا منظمـة التجـارة العالميـة التـي أصبحـت تضـم اليـوم 163 دولـة فضـلاً عـن بعـض الـدول التـي مـا زالـت تحمـل صفـة مراقـب وتنتظـر الإنضـمام الكامـل مثـل لبنـان الـذي عـاد للتفـاوض بهـدف الإنضـمام بعـد التوقـف بسـبب انضـمام كيـان العـدو الإسرائيـلي وبعـد أن كان عضـواً مؤسسـاً فيهـا. كـما شـهد العـالم بـروز عـدد كبـير مـن هـذه التكتـلات قبـل تطـور منظمـة التجـارة العالميـة ووصولهـا الى صيغتهـا الحاليـة منهـا (الإتحـاد الأوروبي، ومنظمـة شـنغهاي، وآسـيان، ومنظمـة التعـاون الإسـلامي، وآفتـا وأخرهـا دول البركـس) لذلـك لم يعـد بالإمـكان الحديـث عـن مناطـق تجاريـة صغـيرة محـدودة، أو عـن اتفاقـات ثنائيـة بـين الـدول.

كـما أنـه لا توجـد إحصـاءات عـلى مسـتوى لبنـان تحـدد حركـة التجـارة وحجمهـا في كل منطقـة منـه لذلـك قمنـا بتقديـم عـرض مختصـر حـول وضـع التجـارة في لبنـان، حيـث نسـتنتج منـه وضـع التجـارة عـلى مسـتوى المناطـق.

والجـدول التـالي يوضـح لنـا حركـة الميـزان التجـاري ونسـبة العجـز مـن العـام 1993 ولغايـة العام 2017.

جدول رقم (1) تطور حركة التجارة الخارجية (2017-1993) (القيمة مليون دولار)

السنة	الصادرات	المستواردات	النسبة ٪	الميزان التجاري
1993	452	4.821	9.37٪	-4.369
1994	572	5.990	9.54٪	-5.418
1995	825	7.287	11.32٪	-6.462
1996	1.017	7.554	13.46٪	-6.537
1997	642	7.455	8.61٪	-6.813
1998	716	7.060	10.14٪	-6.344
1999	677	6.207	10.90٪	-5.530
2000	714	6.228	11.46٪	-5.514
2001	889	7.291	12.19٪	-6.402
2002	1.045	6.445	16.21٪	-5.399
2003	1.524	7.168	21.26٪	-5.644
2004	1.747	9.397	18.59٪	-7.650
2005	1.880	9.340	20.12٪	-7.460
2006	2.283	9.398	24.29٪	-7.115
2007	2.816	11.815	23.83٪	-8.999
2008	3.478	16.137	21.55٪	-12.659
2009	3.484	16.242	21.45٪	-12.758
2010	4.253	17.964	23.67٪	-13.711
2011	4.265	20.185	21.12٪	-15.893
2012	4.483	21.279	21.1٪	-16.796
2013	3.935	21.228	18.5٪	-17.292
2014	3.313	20.494	16.14٪	-17.181
2015	2.951	18.068	16.34٪	-15.117
2016	2.980	18.71	15.92٪	-15.730
2017	2.800	23.10	12.30٪	-20.300

المديرية العامة للجمارك، مركز الإحصاء الآلي.

- التقريـر الإقتصـادي السـنوي الصـادر عـن غرفـة الصناعـة والتجـارة والزراعـة في بـيروت وجبـل لبنـان.

يظهر لنا الجدول اعلاه أن عجز الميزان التجاري هو سمة حركة التبادل التجاري بين لبنان والعالم بالرغم من التغير النسبي الذي كان يطرأ بين سنة وأخرى، وهذا يعود الى التطورات والمتغيرات التي كانت دائماً تترك آثارها على الإقتصاد اللبناني. فإذا اعتبرنا ان العجز الذي كانت نسبته الأعلى عام 1993، حيث كانت نسبة الصادرات 9.37٪ من نسبة المستوردات، وان التحسن طرأ بعد هذا التاريخ عندما وصلت النسبة الى 24.29٪ عام 2006 يمكننا القول بان العام 2006 شهد حرباً طاحنة مع العدو الإسرائيلي وهذا بحد ذاته متغير، لذلك لا يمكن لنا أن نعتمد على نسب في مثل هذه الأحوال، لكننا يمكن أن نعتبر أن نسبة التغطية الوسطية التي يمكن الإعتداد بها هي حوالي 16٪، وهذه نسبة بحد ذاتها تؤشر الى ضعف في الإنتاج، وبالتالي ضعف المنافسة بسبب ارتفاع الأكلاف قياساً مع الأسواق العالمية.

4- حركة الإستيراد والتصدير في جبل عامل

في ظل غياب الإحصاءات الرسمية الخاصة بحركة التبادل التجاري على مستوى المناطق أو المحافظات، وبهدف الإضاءة على هذه الحركة في جبل عامل حاولنا رصدها في مرفأي صيدا وصور لنحدد حجمها فيه، وبالتالي نكون فكرة عن نشاط هذين المرفأين في الفترة الزمنية بين 2012 و2017 علنا بذلك نغني البحث ببعض المعلومات الخاصة به، بالرغم من صعوبة الوصول الى إحصاء لكامل النشاط التجاري في جبل عامل. والجدول التالي يقدم لنا فكرة عن حركة التبادل التجاري الخارجي من خلال المرافئ الموجودة في جبل عامل.

جدول رقم(2)

حركة الإستيراد والتصدير من مرافئ جبل عامل (2012-2017)

(القيمة الف دولار)

السنة	الصادرات	المستوردات	النسبة٪
2012	58.277	578.640	10.1٪
2013	158.846	452.820	27.9٪
2014	15.879	428.000	3.5٪
2015	14.591	405.600	3.6٪
2016	14.138	278.000	5.2٪
2017	28.956	382.5000	7.8٪

- المركز الجمركي الآلي

- التقارير الإقتصادية السنوية الصادرة عن غرفة الصناعة والزراعة والتجارة في بيروت.

يؤكـد لنـا الجـدول رقـم (2) حجـم الهـوة بـين الصـادرات والمسـتورادت التـي أظهرهـا الجـدول السـابق، ويبـين لنـا تفـاوت بنسـب التغطيـة بـين السـنوات، حيـث نجـد ان نسـبة الصـادرات ارتفعـت عـام2013 وهـذا يعـود الى إقفـال الخطـا الـبري بـين لبنـان والـدول العربيـة عـبر سـورية وانتقـال المصدريـن الى التصديـر البحـري، لأن المنتجـات والسـلع كانـت متراكمـة عنـد المنتجـين والمصدريـن، لكـن التراجـع الـذي أصـاب هـذه العمليـة عـام 2014 عندمـا وصلـت النسـبة الى 3.5، كان بسـبب عـد قـدرة السـلع عـلى تحمـل أعبـاء إضافيـة ترفـع مـن أكلاف الإنتـاج التـي هـي مرتفعـة أيضـاً، لذلـك نجـد أن النسـب اسـتقرت نسـبياً.

5- خلاصة المبحث

نشـط لبنـان باكـراً في مجـال التجـارة وهـذا بسـبب موقعـه الجغـرافي الـذي كان لـه الأثـر الكبـير في هـذا النشـاط، لكـن التجـارة سـابقاً أي في العهـد الكنعـاني والفينيقـي ومـن بعدهمـا الصليبـي والمملوكـي والعثـماني كانـت تعتمـد عـلى التبـادل مـع المجتمعـات والشـعوب والـدول التـي وصـل اليهـا التجـار إنطلاقـاً مـن لبنـان وصـولاً الى كل مـكان اسـتطاعوا الوصـول اليـه مـن هـذا العـالم، فكانـوا ينطلقـون مـن صيـدا وصـور محملـين بـكل الفوائـض مـن السـلع والمنتجـات المحليـة، ويعـودون بـما أمكـن مـن السـلع الأجنبيـة التـي لا يمكـن إنتاجهـا محليـاً. أمـا اليـوم علينـا إيجـاد تعريـف خـاص بالتجـارة اللبنانيـة التـي بمعظمهـا تجـارة الخـط الواحـد (one way) حيـث أننـا نسـتورد كـما ذكرنـا حـوالي 80٪ مـن حاجياتنـا مـن الخـارج، لذلـك فـان العجـز في الميـزان التجـاري بارتفـاع مضطـرد، دون أفـق لخفضـه، كـما دون وجـود بدائـل تخفيفيـة تسـاهم في سـد هـذا العجـز، وتقـوم بتأمـين العمـلات الصعبـة التـي تحتاجهـا عمليـة الإسـتيراد حرصـاً عـلى ثبـات سـعر العملـة المحليـة مقابـل العمـلات الصعبـة اللازمـة لهـذه العمليـة.

المبحث الثاني: السياحة في جبل عامل

تمهيد

إن الحديث عن السياحة في جبل عامل يتطلب منا مسبقاً تقديم عرض يتضمن طبيعة جبل عامل الجيوسياحية. بمعنى انه علينا تقديم عرض للمواقع الطبيعية التي تعتبر جاذبة للسياحة، والتي هي هبة من الله، فضلاً عن المخزون والأرث الأثري للمعالم الأثرية المتنوعة الذي يختزنه هذا الجبل والذي تراكم على مر آلاف السنين، وهذا يؤشر الى مدى الإهتمام الكبير لعدد كبير من الشعوب والأقوام والمستعمرون بهذه البقعة الجغرافية من العالم.

فبالنسبة للمواقع الطبيعية نبدأ من الأنهار، التي تساهم في تأمين المساحات الخضراء على طول ضفافها، فمن نهر الأولي الى الزهراني الى الليطاني الذي يقسم جبل عامل الى قسمين، ويجعل منه لوحة طبيعية جاذبة. فضلاً عن الجبال المغطاة بالأشجار والتي تغطي المساحة الأكبر منه، حيث لا تكاد بلدة أو قرية أو بقعة إلا وتزينها الجبال أو التلال.

أما اذا أردنا إحصاء المعالم الأثرية في جبل عامل أمكننا القول أن هذا الجبل عبارة عن معلم أثري واحد بالرغم من اختلاف الحضارات التي تعاقبت، والتي كان لكل منها بصماته وطريقته في التعبير عن الخلفية التي جاء منها، فإذا بدأنا من معبد أشمون في ضواحي صيدا لا ننتهي بالناقورة بعد المرور بصور كمسرح لمعظم الحضارات، وإذا قصدنا تبنين وقلعتها واتجهنا باتجاه الهبارية وقلعتها نجد أن معظم القرى والبلدات التي تقع ضمنها أو حتى التي تقع ما بين صيدا والناقورة تحتوي على معالم أثرية ومغاور وكهوف تدل على الحياة منذ آلاف السنين، لذلك لم نبالغ عندما اعتبرنا أن جبل عامل هو عبارة عن لوحة أثرية كاملة بكل رسومها وتلاوينها ومحتوياتها تمتد من صيدا الى الناقورة ساحلاً، ومن جزين الى تبنين جنوباً، وخير دليل على ذلك العدد الكبير للمعالم والمزارات الدينية التي تنتشر على مساحة هذا الجبل ومنها:

- مقام (النبي إدريس) في الغازية.
- مقام (النبي الخضر) في ساحل صيدا مقابل الصَّرْفَند.
- مقام (النبيّ رُوبين) قرب قرية طيربيخا.
- مقام (النبي سُجَّد) على جبل عالٍ من قمم جبل الريحان.
- مقام (النبي شمعون الصفا) في شمع.
- مغارة السيد المسيح (قانا – صور).
- مقام (النبي شِيت) في بَرَعْشِيت، وهو خراب لا يُعلم ما هو.
- مشهد (صاليم) في عربصاليم.

- مشهد (صافي) على جبل عالٍ قرب جباع.
- مشهد (علي الطاهر) في بلاد الشَّقيف (بين كفرتبنيت والنبطية الفوقا وكفرمان).
- مشهد (النبيّ منذر) في ميس الجبل.
- مشهد النبي قاسم (برج رحال).
- مشهد النبي ساري (بين عدلون وانصارية).
- مشهد النبي بنيامين بن يعقوب (محيبيب).
- مشهد النبي اسماعيل (صور).
- مشهد النبي عمران (القليلة).
- مشهد النبي (يحيى) في حناويه.

هذا العدد من مقامات الأنبياء يدل على تاريخية هذا الجبل ومحوريته منذ آلاف السنين، لذلك عندما نتحدث عن السياحة في منطقة ما، لا بد لنا إلا ان نحدد طبيعة المنطقة الجغرافية والمناخية، وحجم وجود المعالم الأثرية والدينية الجاذبة للسياحة فيها، وهذه المحددات تنطبق على جبل عامل بشكل كلي. يبقى مدى الإهتمام المطلوب لتنشيط حركة السياحة كما يجب وكما هو مأمول.

1- السياحة في جبل عامل قبل الإستقلال

إن الحديث عن السياحة في جبل عامل قبل الإستقلال لا يمكن أن يوصلنا الى نتائج، في ظل غياب الإحصاءات الرسمية التي لم تتوفر لا في هذه الفترة ولا في الفترات اللاحقة، لعدم وجود دولة ومؤسسات في الفترة السابقة، وبسبب عدم اهتمام الدولة بعد الإستقلال، أو لعدم اهتمام سلطات الأمر الواقع حينها بهذا المجال. كما لا يمكننا الحديث عن السياحة في ظل غياب وسائل النقل التي أصبحت معروفة اليوم، فضلاً عن عدم نشر المعلومات والقدرة على إيصالها الى الراغبين بالسياحة في هذه المنطقة، بسبب عدم وجود وسائل إعلام قادرة على القيام بهذا الدور. بل جل ما كان يحصل في أحسن الأحوال كان قيام بعض الرحالة والمبشرين والباحثين الذين كانوا يأتون من مناطق مختلفة للقيام بمهمات من هذا القبيل، وبعدها كانوا ينشرون ما كتبوه عنها، لكن المعلومات كانت تبقى ضمن حدود ضيقة، نظراً لعدم توفر وسائل نشر أفضل. ومن هؤلاء نذكر (**الرحالة الفارسي ناصر خسرو عام 1047م، والفرنسي فولني عام 1783، والمبشر الأميركي إدوارد روبنصون عام 1838م**).

2- تطور السياحة في لبنان بعد الإستقلال

ان الحديث عن السياحة في جبل عامل غير ممكن حتى بعد الإستقلال بمعزل عن الحديث عنها على مستوى لبنان بشكل عام نظراً للصعوبات والعوائق السالفة الذكر،

لذلـك ولكـي نسـتطيع تقديـم مـا أمكـن حـول هـذا الموضـوع علينـا البحـث بمسـار تطـور السـياحة في لبنـان علنـا نصـل الى مـا نصبـو اليـه عـلى مسـتوى جبـل عامـل.

إعتمـد لبنـان منـذ إسـتقلاله عـلى السـياحة كمرتكـز أسـاسي للإقتصـاد، لذلـك كان إهتمامـه واضحـاً بهـذا القطـاع، مـن خـلال إنشـائه المفوضيـة العامـة للسـياحة والإصطيـاف والإشـتاء عـام 1948 (**محاضر مجلس النـواب، جلسـة 1948/ 3/ 31، مـشروع قانـون إنشـاء المفوضيـة العامـة للسـياحة والإصطيـاف والإشـتاء، ص 745-725.**)، ارتبطـت المفوضيـة مبـاشرة بوزيـر الإقتصـاد، وتمتعـت بالإسـتقلال الـذاتي، فـكان لهـا دور بـارز في تنشـيط السـياحة، مـن خـلال الدراسـات والإقتراحـات التـي تـم تنفيذهـا في تلـك الفـترة.

في 1961/ 8/ 7، ومـن خـلال اهتـمام الدولـة في ذلـك الوقـت بالقطـاع السـياحي، صـدر المرسـوم رقـم 7276، الـذي قـضى بتنظيـم وزارة الإرشـاد والأنبـاء والسـياحة، وألغـى المفوضيـة العامـة للسـياحة وألحقهـا بـوزارة الأنبـاء.

وفي نفـس السـياق تـم في 1962/ 2/ 17 إنشـاء المجلـس الوطنـي لإنـماء السـياحة، بموجـب المرسـوم رقـم 9089، الـذي سـاهم بتفعيـل وتنشـيط السـياحة مـن خـلال إنشـاء مراكـز الإشـتاء في الأرز وفاريـا واللقلـوق، بالإضافـة الى تجهيـز مغـارة جعيتـا بطابقهـا الأرضي والعلـوي، كـما سـجل لـه النشـاطات التـالي:

- إنشاء مكاتب الإستقبال والإستعلام.
- إحداث شرطة السياحة.
- إحداث مركز للإسعاف بإدارة الصليب الأحمر.
- إنشاء مركز تدريب أدلاء السياحة وآثارها.

تشـجيع التخصـص خـارج لبنـان في صناعـة السـياحة (**رمضـان وديـع، مـاذا حققنـا في سـبيل السـياحة عـام 1965؟، مجلـة السـياحة، العـدد 23 – 24، كانـون الأول 1965، كانـون الثـاني 1966، ص 20**).

بعـد هـذه الخطـوات التـي سـارت بهـا الدولـة بإتجـاه تعزيـز السـياحة وتطويرهـا، والتـي سـاهمت في تحقيـق نتائـج إيجابيـة، دفعـت بهـذا القطـاع الحيـوي الى الأمـام. وكان الحـدث الأهـم الـذي طـال السـياحة في 1966/ 3/ 29، هـو إنشـاء وزارة لهـا بموجـب القانـون رقـم 66/ 21، حيـث تولـت هـذه الـوزارة تنظيـم السـياحة وتنميتهـا.

ان إعطـاء السـياحة هـذه الإسـتقلالية مـن خـلال وزارة تتمتـع بصلاحيـات واسـعة، خولتهـا العمـل بحريـة دون وصايـة أو قيـود.

لكـن الملاحـظ انـه بالرغـم مـن هـذا الإهتـمام بالسـياحة مـن خـلال إنشـاء وزارة ومؤسسـات تابعـة لهـا، إلا ان الإهتـمام لم يكـن عـلى مسـاحة الوطـن بـل كان مجتـزءاً كـما تبـين لنـا، علـماً أن لبنـان بمجملـه يعتـبر منطقـة سـياحية، فمـن أقـصى شـماله الى أقـصى جنوبـه زاخـر بالمعـالم الأثريـة، فتـكاد لا تخلـو بقعـة منهـا، فضـلاً عـن اعتـماد الخزينـة العامـة عـلى مـوارد السـياحة كأسـاس، وتعتـبر بـترول لبنـان كـما تـم تصنيفهـا.

وبهـدف رصـد حركـة السـياحة مـن خـلال حركـة السـائحين في لبنـان ولتأكيـد ظرفيـة قطـاع الخدمـات بشـكل عـام والسـياحة بشـكل خـاص، حيـث الحاجـة دائـماً الى الإسـتقرار السـياسي والأمنـي لتنشـيط الخدمـات برمتهـا وهـذا مـا لم ولـن يتأمـن في لبنـان في ظـل عوائـق عديـدة، نقـدم جـدول بتطـور حركـة السـائحين القادمـين الى لبنـان مـن العـام 2000 ولغايـة العـام 2017.

جدول رقم (3)

تطور حركة السائحين في لبنان

من العام 2000 ولغاية العام 2017

السنة	عدد السائحين	نسبة التغير
2000	741.648	10.10٪
2001	837.072	12.90٪
2002	956.464	14.30٪
2003	1.015.793	6.20٪
2004	1.278.469	25.90٪
2005	1.139.524	-10.90٪
2006	1.062.635	-6.70٪
2007	1.017.072	-4.30٪
2008	1.332.551	31.00٪
2009	1.851.081	38.90٪
2010	2.167989	17.10٪
2011	1.655.051	-23.70٪
2012	1.365.845	-17.50٪
2013	1.354.845	-6.70٪
2014	1.354.845	6.30٪
2015	1.517.927	12.10٪
2016	1.688.357	11.23٪
2017	1.856.795	9.98٪

المصدر: مركز الدراسات الإقتصادية في غرفة الصناعة والتجارة والزراعة في بيروت

يظهـر لنـا الجـدول اعـلاه تطـور حركـة السـائحين بشـقيها الإيجـابي والسـلبي أي حركـة تغير الأعـداد وتذبذبهـا بنـاءً عـلى تطـورات ومتغـيرات سياسـية وأمنيـة. فمـن العـام 2000 حتـى العـام 2004 يبـين لنـا الجـدول ارتفاعـاً تدريجيـاً بعـدد السـائحين، ليعـود بعدهـا ومنـذ العـام 2005 للتراجـع بسـبب اغتيـال الرئيـس رفيـق الحريـري ومـا صاحـب العمليـة مـن توتـرات سياسـية وامنيـة . لتعـاود الحركـة نشـاطها بارتفـاع ملحـوظ لأعـداد السـائحين مـن العـام 2008 ولغايـة العـام 2010 ، لكـن عـادت بعدهـا الحركـة أيضـاً للإنخفـاض مـن العـام 2011 وهـذه المـرة بسـبب الأزمـة السـورية التـي مـن الطبيعـي أن تـترك آثارهـا عـلى لبنـان، ليـس فقـط عـلى السـياحة بـل عـلى الإقتصـاد برمتـه. أمـا العـام 2017 شـهد ارتفاعـاً ملحوظـاً عندمـا وصـل العـدد الى أكثـر 1850000 الـف سـائح.

3- السياحة في جبل عامل

يعـد جبـل عامـل مـن المناطـق الزاخـرة بالمعـالم الأثريـة الجاذبـة للسـياحة، بـدءاً مـن معبـد أشـمون في مدخـل صيـدا، مـروراً بقلعتـي صيـدا البحريـة والبريـة، ومـا بينهـما مـن أسـواق صيـدا القديمـة التـي هـي بحـد ذاتهـا تعتـبر معلـماً أثريـاً بـما تحتويـه مـن مواقـع تجاريـة ودينيـة (الإسـلامية والمسـيحية واليهوديـة)، وصـولاً الى صـور وآثارهـا المتعـددة، تلـك المدينـة التـي تمتعـت بالشـهرة الواسـعة المميـزة قديـماً، ووضعـت عـلى لائحـة مواقـع الـتراث العالمـي عـام 1984، وكانـت إحـدى أهـم المـدن الفينيقيـة إن لم تكـن أهمهـا، حيـث أنشـأ أبناؤهـا مسـتعمرات فاقـت المدينـة الأم شـهرة ومجـدا في حـوض البحـر المتوسـط، مـن شـاكلة قرطـاج وقـادس، وهـي منشـأ الصبـاغ الأرجـواني المعـروف باسـم «أرجـوان صـور». مـرت العديـد مـن الحضـارات عـلى المدينـة واسـتقر فيهـا الكثـير مـن الشـعوب، مـن الفينيقيـين والإغريـق والرومـان، إلى الصليبيـين والعثمانيـين الأتـراك. بقـي اليـوم عـدد مـن الآثـار البـارزة في المدينـة، والتـي تعـود بأغلبهـا إلى العهـد الرومـاني. وقلعـة تبنـين التـي لا تبعـد كثـيراً عـن صـور والتـي بناهـا الصليبيـون بهـدف الإنطـلاق منهـا للإحتـلال صـور التـي صمـدت عشريـن عامـاً في وجههـم.

لنصـل بعـد ذلـك الى النبطيـة وقلعـة الشـقيف التـي ترتفـع عـلى تخومهـا لناحيـة الجنـوب، والتـي تعتـبر مـن القـلاع المهمـة في العصريـن القديـم والحديـث، حيـث بناهـا الرومـان ورممهـا الصليبيـون، واهتـم بهـا العثمانيـون، وهـذا يـدل عـلى أهميتهـا الجغرافيـة والعسـكرية في ذلـك الحـين، لكنهـا لم تنـال اهتـمام الدولـة بنفـس مسـتوى اهميتهـا، حيـث مـا زالـت أعـمال الترميـم قائمـة فيهـا منـذ أكثـر مـن ثمانيـة عـشر عامـاً، في حـين اسـتغرق بناؤهـا ثـمان سـنوات فقـط، مـع التذكـير بفـارق المرحلـة والتطـور التكنولوجـي واسـتخدام الطاقـة غـير البشريـة والآلات التـي اختـصرت الزمـن. ولا ننسـى قلعـة الهباريـة وراشـيا وغيرهـا... لكنـه لم يكـن في صلـب

حسـابات الدولـة يومـاً عـلى مـا يبـدو، بالرغـم مـن الحاجـة الى تفعيـل هـذا القطـاع بأنشـطته المتنوعـة الـذي هـو بمثابـة الشريـان الأسـاسي لهـا، وعـلى مسـاحة الوطـن، فلقـد كان الإهتـمام ببعـض المناطـق دون سـواهاوما زال، وهـذا مـا أفقـد هـذه المعـالم اسـمها وشـهرتها وبالتـالي روادهـا مـن كل أنحـاء العـالم، فـإذا أردنـا تعـداد مخـزون جبـل عامـل مـن المعـالم الأثريـة المتنوعـة لا يمكـن لنـا ذلـك إلا مـن خـلال بحـث خـاص بهـا، لأنهـا كـما ذكرنـا سـابقاً تمتـد عـلى مسـاحة الجبـل، لا بـل يمكـن اعتبـار هـذا الجبـل معلـماً اثريـاً متكامـلاً فضـلاً عـن المتاحـف الموجـودة عـلى أرضـه وهـي:

- متحف صيدا التاريخي.
- المتحف الفينيقي.
- متحف دير سيدة مشموشة.
- المتحف اللبناني للحياة البحرية والبرية.
- متحف موسى طيبا.
- متحف الصابون.
- متحف مليتا والمتحف الحربي لبلدة الخيام.(**موقع النشرة، نيسان 2017**).

هـذه المعـالم الأثريـة بالإضافـة الى المعـالم الطبيعيـة فضـلاً عـن هـذه المتاحـف تجعـل مـن مسـاحة جبـل عامـل الصغـيرة منطقـة سـياحية متكاملـة إذا مـا تـم العمـل بشـكل يتناسـب وهـذه الأهميـة. ولكـن الواضـح لغايـة اليـوم ان الإهمـال سـيد الموقـف. كـما ان الإسـتثمارات الخاصـة السـياحية مـا زالـت متواضعـة جـداً قياسـاً مـع هـذه الأهميـة، حيـث عـدد الفنـادق قليـل جـداً، ويعـود ذلـك الى عـدم توافـد السـياح الأجانـب بشـكل يدفـع بالمسـتثمرين الى الإهتـمام بهـذا القطـاع، ويمكـن أن يكـون مـن بـين الأسـباب الطابـع الأمنـي الـذي مـا زال يخيـم عـلى جبـل عامـل، بسـبب الـصراع العـربي الإسرائيـلي والـذي بـات لبنـان رأس الحربـة فيـه. علـماً ان جبـل عامـل شـهد بعـض الإسـتثمارات السـياحية مـن قبـل القطـاع الخـاص في منطقتـي صـور والنبطيـة، لكنهـا مـا زالـت أقـل مـن الحـد الأدنـى المطلـوب، وإذا مـا اردنـا رصـد حركـة السـياحة بمفهومهـا الإقتصـادي نجـد أنهـا في جبـل عامـل بالـكاد تسـاوي 1٪ مـن مجمـوع حركـة السـياحة عـلى مسـتوى لبنـان ككل.

خلاصة المبحث

لا يكفي اعتبار السياحة في لبنان من أهم القطاعات التي تؤمن ايرادات للخزينة، كما لا يكفي تشجيع السياحة والسائحين بالقدوم الى لبنان، بل يجب الإهتمام بالمناطق السياحية والمعالم الأثرية على اختلافها، كي تأخذ بعدها الإقتصادي المنشود.

إن ما يمتلكه لبنان من المقومات السياحية الطبيعية والأثرية تجعله بالمراتب المتقدمة على مستوى العالم، لكن السياحة تحتاج الى الإستقرار الأمني والسياسي كعوامل جاذبة للسياح وبنفس الوقت تحتاج الى أسواق مستقرة وتسهيلات محفزة، وهذا ما لم ينعم به لبنان بالشكل المطلوب، وبالرغم من ذلك نجد حركة سياحية مقبولة في ظل الأجواء المحلية والإقليمية المؤثرة على هذا القطاع، عندما يتبين لنا أن أعداد السائحين في بعض السنوات تخطى المليوني سائح.

أما عن السياحة في جبل عامل وكغيره من المناطق التي هي خارج دائرة الإحصاءات والرصد الرسمي، بهدف المتابعة والعمل على معرفة مدى انجذاب السياح الى هذه المنطقة، لأن حركة السائح في أي منطقة من المناطق تؤمن منفعة عامة للبنان الخزينة العامة، لذلك ان الإهتمام يجب أن يكون في كل منطقة بحسب أهميتها الإقتصادية.

المبحث الثالث: المصارف في جبل عامل

تمهيد

لم يستطع نظام المقايضة الذي ساد بين التجار لفترات طويلة الإستمرار بسبب التطور الذي نتجت عنه عمليات إنتاج وزيادة في عدد السلع، وبالتالي كان من الضروري البحث عن نظام آخر يسهل هذه العملية، فبدأ العمل بنظام النقد الذي بدوره بدأ يأخذ أشكالاً متعددة بهدف التكيف مع المتغيرات التي كانت تفرض تطوير عمليات التبادل، فمن النقد المعدني الى النقد الورقي وصولاً الى نظام المصارف الذي تطور عبر مراحل زمنية طويلة حتى وصل الى صيغته الحالية.

فإطلاق تسمية بنوك على المصارف كان بسبب استخدام الصيارفة للبنوك الخشبية للقيام بأعمالهم وذلك في ايطاليا، حيث تأسس أول بنك وذلك في مدينة البندقية عام 1157 ، تلاه بنك برشلونة عام 1401 ثم بنك ريالتو banco della pizza di rialto عام 1587 بمدينة البندقية ثم بنك أمستردام عام 1609.

ويعتبر هذا البنك الأخير النموذج الذي أخذته معظم البنوك الأوروبية بعد ذلك مع مراعاة ما أملته اختلافات الظروف والأحوال بين دولة وأخرى. مثل بنك هامبورغ بألمانيا عام 1619 ، وبنك انجلترا عام 1694 ، وبنك فرنسا الذي أسسه نابليون عام 1800، ثم انتشرت البنوك بعد ذلك في أمريكا وغيرها من بلدان العالم . (**منتدى الإقتصاد والأعمال**، 2014/ 4/ 22). **موقع الكتروني**

ومجمل القول أن الظهور الحقيقي بالمفهوم الحديث للبنوك كان على يد الصاغة والصيارفة الذين كانوا يقبلون على إيداع النقود مقابل إيصالات، وأخذت تلقى قبولا في التداول ووفاء للالتزامات المطلوبة من حاملها، والتي تطورت فيما بعد إلى ما يسمى بالشيكات. ثم أخذ هؤلاء الصاغة والصيارفة يتقاضون عمولة من المودعين لقاء الحفظ، كما أخذوا يتصرفون بجزء من الودائع لديهم بالإقراض مقابل فائدة يتقاضونها بعد أن لاحظوا أنه لا يتم سحب الودائع كليا وترتب على ذلك أن بدأت الصورة المبدئية لأعمال البنوك تتبلور وتتحدد معالمها إلى أن أصبحت بالصورة التي هي عليها اليوم.

أصبحت المصارف جوهر النشاط الإقتصادي العالمي برمته، حيث لم يعد بالإمكان الحديث عن أي استثمارات أو أنشطة إقتصادية دون دور للمصارف فيها، سواء من خلال الإقراض أو التحويلات أو الإيداع أوغير ذلك من الخدمات التي تتوسع يوماً بعد يوم. وباتت المصارف في كثير من الأحيان أقوى من الدول من حيث الملاءة المالية، أو من حيث طبيعة العمليات المصرفية وعمليات التمويل، كما باتت أمراً واقعاً لا يمكن التحرك بدونه، وكأنه الموجه والمحرك للدول والشركات والأفراد.

لم تتأخر المصارف عن الحضور الى الساحة اللبنانية التي كانت سابقة نظائرها في الإقليم، فمنذ العهد العثماني بدأت المصارف تفتح أبوابها في لبنان ولم يتأخر جبل عامل عن اللحاق بهذا التطور، فبدأ رحلته مع المصارف من خلال افتتاح فرع للبنك العثماني بعد مطالبة وإلحاح من أهالي صيدا بدأت عام 1908 لتتوج هذه الجهود بفتح الفرع عام 1911. أما نوع العملة التي كانت متداولة والتي كان يصدرها البنك العثماني المشار إليه فكانت من المعدن وكانت الوحدة الأساسية في ذلك النظام النقدي هي الليرة العثمانية الذهب وما يتفرع عنها من نقود مساعدة مثل المجيدي والبشلك.

المصرف الثاني الذي كان له دور فعال على صعيد الأعمال التجارية في مدينة صيدا هو بنك سوريا ولبنان. لقد تمّ إنشاء بنك سوريا ولبنان في2 كانون الثاني 1919 بمبادرة من البنك العثماني الذي أعطاه كل فروعه في سوريا ولبنان أي في بيروت، طرابلس، صيدا، زحلة، الشام، حلب، حمص، إنطاقية وإسكندرون.

اما في عهد الإنتداب الفرنسي فقد بلغ عدد المصارف ستة مصارف كلها أجنبية، ثم ارتفع العدد إلى تسعة في العام 1945 اي بعد سنتين من الإستقلال، ما يعني أن عدد المصارف في لبنان بدأ يزداد بسرعة في فترة ما بعد الإستقلال، فوصل في العام 1955 الى ما مجموعه 36 مصرفاً (منها 18 مصرفاً لبنانياً)، وفي العام 1960 ما مجموعه 53 مصرفاً (منها 31 مصرفاً لبنانياً)، وفي العام 1966 ما مجموعه 92 (منها 30 مصرفاً أجنبياً أو مصرفًا مملوكاً بصورة مشتركة بين اللبنانيين والأجانب). وبين الأعوام 1966 ـ 1968 تمّت تصفية 17 مصرفاً لبنانياً تحولت إلى 9 مصارف أجنبية كبيرة، ووقعت خمس مصارف أخرى تحت الإشراف الكلي للمصارف الأجنبية. وهكذا نجد ان المصارف الأجنبية والمشتركة التي تشكّل 53٪ من العدد الإجمالي للمصارف في نهاية العام1970 كانت تستأثر بنحو 81٪ من مجموع الودائع. كذلك نجد ان أكبر 9 مصارف من حيث قيمة الودائع كانت تتكوّن من 8 مصارف أجنبية ومصرف مشترك يشارك فيه رأس المال الفرنسي بنسبة عالية، وان أكبر 20 مصرفاً في لبنان كانت تتشكّل من 11 مصرفاً أجنبياً و9 مصارف مشتركة.(**مجلة الدفاع الوطني، نسيان 2000**)

لذلك نرى أن القطاع المصرفي في لبنان كان ومازال من أهم المرافق التي عززت موقعيتة داخلياً وخارجياً، بفضل مساهمته الفعالة بمختلف الأنشطة الإقتصادية محلياً، وإستقطابه رأس المال العربي والأجنبي الهارب من الظروف والأحداث، مما يؤكد الثقة بهذا القطاع التي ساهم بها نظام لبنان الإقتصادي والمصرفي.

لكنـه كغـيره مـن القطاعـات في لبنـان تعـرض خـلال الحـرب الأهليـة لصعوبـات ومشـاكل وخسـائر، لكنهـا لم تؤثـر كثـيراً عـلى دوره ووجـوده، فبقـي صامـداً بالرغـم مـن كل الظـروف الصعبـة التـي حاصرتـه في تلـك الفـترة، وهـذا الصمـود أمنتـه تجربتـه العريقـة، والثقـة العاليـة برجـال الأعـمال المصرفيـين اللبنانيـين، عـلى المسـتويين المحـلي والـدولي.

وهـذا الـكلام يثبتـه نشـاط المصـارف في لبنـان فمنـذ نهايـة الحـرب لغايـة العـام 2017، وصـل عددهـا الى 65 مصرفـاً، منهـا 49 مصرفـاً تجاريـاً، و16 مصرفـاً للأعـمال، في حـين وصـل عـدد فـروع هـذه المصـارف الى حـوالي الألـف فـرع عـلى جميـع الأراضي اللبنانيـة نفـس العـام (**جمعيـة المصـارف**).

وتجـدر الإشـارة في هـذا المجـال الى أن الثقـة بالقطـاع المـصرفي اللبنـاني، والتسـهيلات التـي منحهـا لـه القانـون، شـجعت المسـتثمرين في هـذا القطـاع عـلى فتـح مصـارف في لبنـان، ممـا أدى الى ضخامتـه، والتـي تجلـت في حجـم الودائـع، حيـث إرتفعـت مـن أربعـة مليـارات دولار عـام 1994 (**يمـوت عبـد الهـادي، الإقتصـاد اللبنـاني والـشرق أوسـطية والعولمـة، 2005، ص 253**)، الى أكثـر مـن أربعـين مليـار عـام 2001، ووصلـت الى أكثـر مـن 61 مليـاراً عـام 2006، لتصـل الى أكثـر مـن 117 مليـار دولار عـام 2011، وأصبحـت حـوالي 172 مليـار دولار عـام 2017، فيـما وصلـت الميزانيـة العامـة للمصـارف الى أكثـر مـن 219 مليـار دولار نفـس العـام، بعـد ان كانـت حـوالي 45 مليـار عـام 2000 (**التقريـر السـنوي لجمعيـة المصـارف، 2010، ص 116**).

والجديـر ذكـره ان القطـاع المـصرفي اللبنـاني يتمتـع بمعـدل مـلاءة مرتفـع يبلـغ ٪15، فهـو بذلـك يتجـاوز المعـدل المطلـوب مـن قبـل لجنـة بـازل الأولى البالـغ ٪8، ويتجـاوز أيضـاً المعـدل الإلزامـي المفـروض مـن قبـل السـلطة النقديـة في لبنـان البالـغ ٪12.

سـاهم القطـاع المـصرفي مسـاهمة فعالـة في إعـادة الإعـمار، مـن خـلال التسـليفات التـي قدمهـا للقطاعـين العـام والخـاص والتـي وصلـت عـام 2000 الى أكثـر مـن 30 مليـار دولار أميركـي، حصـة القطـاع العـام فيهـا حـوالي ٪52 مـن مجمـوع التسـليفات، وإرتفعـت عـام 2006 لتصـل الى حـوالي 40 مليـار دولار، توزعـت بنفـس النسـب السـابقة تقريبـاً. أمـا عـام 2011 تغـيرت المعادلـة، وإرتفعـت نسـبة التسـليفات للقطـاع الخـاص، بشـكل لافـت حيـث وصلـت الى 39.4 مليـار دولار، في وقـت سـجلت قيمـة التسـليفات للقطـاع العـام 29.2 مليـار دولار. لترتفـع عـام 2017 الى 54.2 مليـار دولار.

والجدول رقم (3) يوضح لنا تطور نشاط القطاع المصرفي في لبنان من العام 2010 ولغاية العام 2017.

جدول رقم (4)

تطور حركة المصارف اللبنانية وميزانيتها (2010-2017)

(القيمة مليون دولار)

السنة	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016	2017
الميزانية العامة للمصارف	128.9	146.0	151.9	164.8	175.7	186.0	204.2	219.8
ودائع القطاع الخاص المقيم	108.6	117.7	127.6	139.2	147.6	155.6	166.4	172.9
تسليفات للقطاع الخاص	30.3	34.2	37.8	41.5	45.5	48.0	51.0	54.2
النسبة من إجمالي الودائع	27.9٪	29.1٪	29.6٪	29.8٪	30.8٪	31.0٪	30.9٪	31.3٪
تسليفات القطاع العام	29.3	29.2	31.1	36.6	37.4	37.8	34.7	31.9
النسبة من إجمالي الودائع	27.0٪	24.8٪	24.4٪	26.3٪	25.3٪	24.4٪	20.9٪	18.4٪

المصدر:

- مصرف لبنان.
- جمعية المصارف.
- التقرير الإقتصادي السنوي لغرفة الصناعة والتجارة والزراعة في بيروت.

يبين لنا الجدول مدى تعاظم حجم الكتلة النقدية التي تراكمت خلال ثماني سنوات، حيث ارتفعت من 128 مليار دولار عام 2010 الى أكثر من 219 ملياراً عام 2017. في حين حافظت تسليفات القطاع العام على نسبة متقاربة خلال هذه السنوات وبقيت أقل من 40 مليار دولار، بالمقابل تحسنت تسليفات القطاع الخاص وارتفعت بشكل مضطرد من 30.3 مليون دولار الى 54.2 مليون دولار. علماً ان هذه الزيادة لم تتخطى مجتمعة مع تسليفات القطاع العام عتبة ال٪50 من موجودات المصارف. فبعد أن سجلت هذه النسبة عام عام 2010 حوالي ٪45 من مجموع الموجودات، تراجعت الى أقل من ٪40.

4- توزع التسليفات على القطاعات الإقتصادية

نكتفي بالجدول التالي ليبين لنا توزع التسليفات على القطاعات الإقتصادية، لتأكيد سيادة قطاع الخدمات وثقة المستثمر به وذلك على حساب قطاعات الإنتاج التي ارتفعت نسبة المخاطر بها وخاصة بعد ارتفاع أرتفاع أكلاف الإنتاج من جهة وحزمة الشروط والمعايير والمقاييس الدولية التي باتت تفرض على الصادرات.

جدول رقم(5)

توزع التسليفات على القطاعات الإقتصادية (2010-2016)

القيمة مليار ليرة

	2010	2011	2012	2013	2014	2015	2016
تجارة وخدمات	21.46	23.257	25.414	27.501	29.373	30.287	31.346
بناء	9.494	10.751	12.267	13.840	14.471	15.470	17.414
صناعة	6.564	7.445	8.438	9.007	9.320	9.533	9.517
أفراد وقروض سكنية	20.523	25.886	29.325	35.073	39.804	42.430	47.643
مؤسسات مالية	4.927	5.226	5.127	4.315	5.171	4.934	5.169
زراعة	554	644	683	824	994	1.021	1.146
غيرها	2.036	2.055	2.210	2.082	2.214	2.245	2.527
المجموع	65.144	75.264	84.464	92.642	101.347	105.921	114.762

المصدر: مصرف لبنان وجمعية المصارف

يؤكد لنا الجدول ما تم تقديمه في سياق البحث حول سيادة قطاع الخدمات على حساب قطاعي الإنتاج، إذ تبين لنا الأرقام حجم الفارق بين حصة التسليفات لكل منها، فالتجارة والخدمات استأثرت بالحصة الأكبر على التوالي، حيث نسبة التسليفات الصناعية والزراعية بالكاد تساوي ثلث حصة التجارة والخدمات دون احتساب قطاع البناء وتسليفات الأفراد والإسكان والمؤسسات المالية التي تدخل في إطار الخدمات. فبالرغم من ارتفاع تسليفات الزراعة والصناعة بين العام 2010 والعام 2016 إلا ان تسليفات الصناعة لم تتحسن منذ العام 2013 ولغاية العام 2016 الا بشكل محدود، وتسليفات الزراعة بالرغم من تحسنها إلا انها ما تزال منخفضة قياساً مع أهمية هذا القطاع.

5- قطاع المصارف في جبل عامل

لم تتأخر المصارف عن الحضور الى جبل عامل، وهذا يؤشر الى أهمية هذا الجبل على المستوى الإقتصادي الفاعل، لأن حضور المصارف الى أي منطقة لا بد أن تسبقه دراسات جدوى تحدد نسبة نجاحه أو فشلها.

لذلك شهدت مدن جبل عامل صيدا والنبطية وصور بالتتابع أعمال صيرفة وافتتاح مصارف في النصف الأول من القرن التاسع عشر، واستمر ذلك حتى بداية القرن العشرين عندما بدأت مسيرة فتح المصارف من صيدا الى النبطية ومن ثم صور.

وللإضاءة أكثر على هذا الموضوع سنقوم بتقديم عرض لتطور قطاع المصارف في كل من هذه المدن.

6- تطور قطاع المصارف في صيدا

تميز جبل عامل على مر التاريخ بنشاطه الإقتصادي المتنوع، ما جعله محط جذب للمستثمرين ومنهم أصحاب المصارف، حيث بدأت الرحلة مع آل عودة الذين قدموا الى صيدا في القرن السابع عشر واستقروا فيها، وانطلقوا منها بأعمال الصيرفة بأسم (أبناء وديع عودة للصيرفة) وذلك عام 1830م، وعملوا على تطوير المهنة التي توارثوها حتى اليوم حتى أصبحت بالصيغة التي هي عليها اليوم وهي بنك عودة، لكن تعديلاً حصل عام 2014 على الاسم ليصبح عودة سرادار.

أما إسم بنك عودة فلم تعرفه صيدا إلا في العام 1962، حين أسس جورج وجان وريمون شركة مصرفية باسم «بنك عودة ش.م.ل.» وكان أول مصرف وطني برأسمال صيداوي، وسرعان ما انتشر اسمه خارج صيدا وخارج لبنان حتى أصبح بنك عودة اليوم واحداً من أشهر المصارف اللبنانية داخل وخارج لبنان وله حاليا أربعة فروع في منطقة صيدا. ووصلت موجوداته مع نهاية عام 2017 الى 42 مليار دولار، وجاء تصنيفة ضمن عشرة بنوك بين الف بنك على مستوى العالم.

إلى جانب عائلة عودة، عرفت صيدا عددا من العائلات التي اشتغلت بالعمل المصرفي والصيرفة منها آل فران الذين أسسوا بنك فران، وكان يديره السيدان روبير وجورج فران قبل أن يوقفاه عن العمل في أواخر الستينات، وآل معوشي الذين أنشأوا أيضا «مصرف معوشي» وكان يديره ميشال وجان معوشي، وهذا المصرف توقف أيضا عن العمل.

هذا عن أرشيف المصارف في صيدا وتطورها في النصف الأول من القرن العشرين، إلا أنه ومع نهاية النصف الأول وبداية النصف الثاني من ذلك القرن، شهدت مدينة صيدا افتتاح فروع لعدد من المصارف التي كانت موجودة في بيروت مثل المصرف العقاري الجزائري التونسي، وقد تعدل اسم هذا البنك عدة مرات وهو اليوم يعرف باسم فرنسبنك، بنك أنترا، بنكو دي روما، بنك الشركة الجزائرية، بنك الإنماء، البنك الأفريقي(طرابلس سابقا)، بنك الإتحاد الوطني، البنك الدولي العربي واللبناني للتجارة، وجميع تلك المصارف كانت تعمل في صيدا في الستينات، إلا أن بعضها أقفل ليحل مكانها مصارف جديدة، لا سيما خلال الحرب اللبنانية، فبسبب تلك الحرب التي قطعت أوصال الوطن وبسبب الوضع الأمني الهادىء الذي كان يسود مدينة صيدا خلال سنين الحرب،عمد العديد من المصارف اللبنانية والأجنبية التي كانت متواجدة في بيروت إلى فتح فروع لها في صيدا.

7- تطور قطاع المصارف في النبطية

شهدت مدينة النبطية افتتاح أول مصرف على أرضها عام 1962، وهذه البداية كانت مع فرنسبك الذي لم يتأخر في دخول النبطية التي أصبحت المحافظة السادسة بعد اتفاق الطائف، وتعتبر المحطة الإقتصادية الرئيسية لكل بلدات وقرى الجوار القريب والبعيد.

وبعد هذا التاريخ بدأت حركة المصارف تنشط باتجاه المدينة ولكن بشكل بطيء وذلك بسبب الظروف الأمنية السيئة التي عاشتها منذ إحتلال فلسطين عام 1948، حتى 25أيار عام 2000، تاريخ إندحار الإحتلال الإسرائيلي عن القسم الأكبر من أراضي جبل عامل، لتأخذ حركة المصارف في النبطية اتجاهها صعوداً وبشكل لافت، حيث بتنا نشهد فروعاً لمعظم المصارف اللبنانية والعربية والدولية على أرضها، لا بل تعدى الأمر النبطية لتفتح هذه المصارف فروعاً لها في بلدات عديدة من محافظة النبطية (مرجعيون، بنت جبيل، وغيرها...)، حتى توسعت دائرتها لتشمل بعض القرى التي تتميز بكثافة سكنية وتعتبر نقطة تلاقي بينها.

8- قطاع المصارف في مدينة صور

بعد الإستقرار النسبي الذي شهده جبل عامل وخصوصاً بعد نهاية الحرب الأهلية وعودة الدولة ومؤسساتها، كان لا بد للقطاع الخاص أن يتحرك لمواكبة هذا الإستقرار. فالمصارف كانت من المؤسسات الحاضرة منذ البداية لهذه المواكبة وخصوصاً في مدينة صور التي تعتبر عامل جذب لها، نظراً لأعداد المغتربين الكبيرة من صور وجوارها، والذين دائماً هم في دائرة الرصد من قبل المصارف، سواء على مستوى التحويلات، أو على مستوى الإستثمارات أو على مستوى الإيداعات، لذلك سارعت معظم المصارف منذ أوائل التسعينات الى فتح فروع لها في مدينة صور، ولم يكتفي البعض منها بفرع واحد بل توسع الى أكثر من ذلك في داخل المدينة وخارجها، حتى تجاوز عدد فروع المصارف العشرين فرعاً.

خلاصة المبحث

استفاد لبنان من ظروف وعوامل متعددة ساهمت بنشاط مميز للقطاع المصرفي منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم.

فقطاع المصارف بدأ يتطور قبل الإستقلال وتحديداً أيام الإحتلال العثماني، ولكنه نشط بشكل لافت مع الإنتداب الفرنسي، من خلال فتح عدد من المصارف في العاصمة وصيدا، التي شهدت افتتاح بنك سوريا ولبنان، أما بعد الإستقلال تطور هذا القطاع بسرعة فائقة، خاصة بعد أن اعتمد لبنان السرية المصرفية في نظامه المصرفي، ما شجع أصحاب الرساميل على وضع أموالهم في المصارف اللبنانية، واستمر هذا التطور بالرغم من الحروب الأهلية وغير لأهلية التي عصفت بلبنان الى أن بتنا نتحدث عن قطاع متين بات يعتبر ضمانة لبنان المالية والإقتصادية، خاصة بعد أن أصبحت الميزانية المجمعة لدى المصارف اللبنانية حوالي 242 مليار دولار، ما يؤدكد هذه المتانة والضمانة، علماً ان المشكلة في تراكم الأموال لدى المصارف يرتب عليها أعباء كبيرة في ظل إحجام المستثمرين عن الإقتراض لتمويل مشروعاتهم بالنسبة الطبيعية، وهذا ناتج عن عدم الثقة بنجاح الإستثمارات، سواء بسبب ارتفاع أكلاف الإنتاج أو بسبب الظروف والأزمات التي لازمت لبنان وتلازمه منذ الإستقلال حتى اليوم، لذلك ان البحث عن حلول لهذه المشكلة يتطلب تضافر جهود الدولة مع القطاع الخاص لإيجاد حلول مناسبة تنعش الإقتصاد الذي أصبح على شفير الإنهيار.

الإستنتاج

أظهرت الدراسة بأن قطاع الخدمات في جبل عامل اقتصر تاريخياً على التجارة التي تميز بها، منذ عهد الكنعانيين حتى احتلال فلسطين، وكانت تعتبر مزدهرة بشكل كبير، قياساً مع باقي المناطق، حيث استفاد من الجغرافية التي ربطته بسوريا وفلسطين والأردن. وعزز النشاط التجاري قطاعات الإنتاج وفتح لها باب التوسع لتلبي حاجات المستهلك المحلي، وحاجات التجار الأجانب من السلع والمنتجات التي كان يتم تبادلها مع التجار اللبنانيين. وتسهيلاً لحركة التجارة تم تعبيد الطرق الواصلة بين المناطق الرئيسية التي تسلكها القوافل، وتم أيضاً إنشاء خانات تؤمن لهم ولمواشيهم الخدمات اللازمة للإقامة.

لكن الأمر تبدل بشكل جذري بعد احتلال فلسطين، بسبب إقفال الحدود، وبسبب الأعمال العسكرية التي بدأت مع هذا الإحتلال واستمرت حتى العام 2000 ، حيث لم يعد من إمكانية لمتابعة هذا النشاط في ظل الوضع الذي استجد وغير الخارطة الجيواقتصادية في جبل عامل، ودفع بالهجرة الداخلية والخارجية كبديل أوحد متاح في تلك الفترة. وهذا ما أكد صحة الفرضية الأولى.

كما أظهرت الدراسة التبدل الحاد في نشاط القطاعات الإقتصادية، وتحول غالبية الإقتصاديين الى الإستثمار في قطاع الخدمات نظراً لقلة المخاطر التي تصاحبه مقارنة مع الإستثمار الزراعي والصناعي الذي تزداد مخاطره وتتنوع. ما دفع بالكثير من المزارعين والصناعيين الى العمل بالتجارة وترك مهنهم، وهذا ما بينته أرقام العجز في الميزان التجاري الذي يزداد سنوياً والذي وصل عام 2017 الى حوالي 16 مليار دولار. حيث يؤشر ذلك الى الإعتماد شبه الكلي في تأمين السلع والمنتجات اللازمة، ما يكبد الدولة والمستهلك أعباء مالية مرتفعة. وهنا تأكدت صحة الفرضيتين الثانية والثالثة. خاصة عندما يأتي كلام وزير الصناعة مدعماً بالأرقام والنسب التي تكفل بها الجدول رقم (1) والذي يؤكد العجز التصاعدي للميزان التجاري وخاصة بعد عودة الدولة ومؤسساتها الى العمل، والتي من المفترض أن تهتم بجميع القطاعات وليس بقطاع واحد.

وهذا أيضاً أكدته أرقام التسليفات التي قدمتها المصارف للقطاع الخاص، حيث بينت لنا نسبة الطلب على التسليفات للإستثمار في قطاع الخدمات التي استحوذت على الحصة الأكبر منها، والتي وصلت الى أكثر من ٪90، مقابل التسليفات لصالح قطاعي الإنتاج التي لم تصل الى نسبة ٪10.

وبينت لنا الدراسة تطور قطاع المصارف على مستوى لبنان بشكل عام حيث تجاوز عدد الفروع الألف، وجبل عامل بشكل خاص، الذي وصلت حصته من هذه الفروع الى أكثر من مئة فرع، كما بينت اهتمام المصارف بمنطقة جبل عامل، حيث بدأ هذا النشاط بمدينة صيدا بدءاً من عام 1911، وانتقل الى مدينة النبطية بعد الإستقلال عام 1962، على يد فرنسبك.

كما أظهرت لنا الدراسة عدم توفر إحصاءات رسمية لأعداد السائحين في جبل عامل ما خلا قلعة صيدا البحرية التي يتم تسجيل اسماء الوافدين اليها بسبب الرسم المالي التي يتم استيفاءه منهم، علماً ان حركة السياحة في لبنان بشكل عام كان دائماً نشاطها رهينة الأوضاع السياسية والأمنية ونسبة استقرارها توازيهما، والجدول رقم (3) بين لنا تذبذب هذه الحركة بارتفاعها وتراجعها حيث الأسباب معروفة من التواريخ التي كانت تشهد فيها الحركة تقلبات لصالح السياحة أو ضدها.

لائحة المصادر والمراجع

1- **لائحة المصادر**

- التقاريـر الإقتصاديـة الصـادرة عـن غرفـة الصناعـة والتجـارة والزراعـة في بـيروت 2000-2017.
- تقارير جمعية المصارف اللبنانية.
- الإحصاءات الصادرة عن مصرف لبنان.

2- **لائحة المراجع**

- الزين أحمد، تاريخ صيدا، مطبعة العرفان، 1913.
- المجذوب طلال، تاريخ صيدا الإجتماعي، المطبعة العصرية، 1983.
- يموت عبد الهادي، الإقتصاد اللبناني والشرق أوسطية والعولمة، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 2005.

3- **مواقع الكترونية**

- موقع النشرة، مقال حول السياحة والمتاحف في الجنوب، نيسان، 2017.
- منتدى الإقتصاد والأعمال، مقال بتاريخ 2014/ 4/ 22.
- موقع جنوبيات، مقال لهبة دنش، 2018/ 1/ 8.

4- **دوريات**

- الدفاع الوطني، نيسان، 2000ز
- السياحة، العدد 24-23، كانون أول، 1965، كانون ثاني، 1966.

5- **محاضر مجلس النواب**

- محضر جلسة مجلس النواب اللبناني، جلسة 1948/ 3/ 31، مشروع قانون إنشاء المفوضية العامة للسياحة والإصطياف والإشتاء.

الاغتراب في جبل عامل ودوره الاقتصادي



أمين عام المجلس القاري الافريقي في الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم
الاستاذ ابراهيم فقية

أصحاب المقامات في كافة المجالات، الأدبية والإجتماعية والتربوية،

أيها الحضور الكريم،

إسمحوا لي بداية أن أحيّي هيئة تكريم العطاء المميز ورئيسها الزميل د. كاظم نور الدين على الجهود المضنية لإنجاح هذا المؤتمر العاملي والإعداد المتقن له بعد نجاحه في المؤتمر البيئي المنعقد منذ حوالي سنة ونصف والمسار مستمر في العطاء،

عنوانان: إقتصاد، إغتراب، يرتبطان بواقع معيشي لطالما كان للتفتيش عن البقاء للعيش في حياة كريمة.

أيها الكرام. هذا ما دفعني لأتشرف لرئاسة هذه الجلسة القيمة لأن من خلالها يمكننا الدخول إلى أعماق مكنونات الإنسان العاملي.

هذا الإنسان الذي لطالما أغنى ثقافته بتفاعلاته مع محيطه وتراب أرضه مفتشاً عن لقمة عيشه التي لم يردها الا كريمة في أزمان صعبة مؤلمة ولكنه استطاع أن يعطيها المقام والقيمة الوازنة الغالية لأنها مغمسة بالدم رويت بدمائه وتضحياته كما روى تراب الأرض المجبول بعرق جبينه لتحيا تلك التراب العاملية. ...

لا أريد أن أدخل في التفاصيل لأنني اليوم أرى نفسي وموقعي ومكانتي في المعرفة هي نقطة في محيط العلماء وأصحاب المعرفة والإختصاص لذلك أستبدل المعرفة بالتعبير وبالثناء والشكر مع الإحترام والتقدير لكم جميعا من منظمين ومشاركين وداعمين خبراء في كل المجالات، لأنكم أرختم جذورنا وأصولنا وذكرياتنا وتجاربنا في هذا المؤتمر الرفيع المستوى ليبقى للتاريخ وللأجيال ولمن أرادوا الإطلاع على الحقبات الهامة التي مرَّ بها

جبـل عامـل وأهـل جبـل عامـل بـكل أطيافـه مـن رجـالات ومواقـف ومحطـات وتضحيـات في سـبيل المحافظـة عـلى سـبيل العـزة والكرامـة لينعـم بهـا الأبنـاء ويفتخـر بهـا الأجـداد وألآبـاء والأمهـات .

واقـع إقتصـادي ، واقـع اغـترابي أو الاثنـان معـا في تاريـخ جبـل عامـل كلهـم يصبـون في خانـة واحـدة إنهـا الحيـاة العامليـة مقاومـة صراع ونضـال وكل ذلـك لحفـظ الـرزق والعيـش الكريـم .

كـما الإغـتراب تضحيـة ، مغامـرة ، صـبر وإبـداع ، إنهـا مجموعـة مـن الصفـات وقـد شـبعت في روح واحـدة مـن أجـل البقـاء . ولا داعـي لكـي نذكـر بالصعوبـات والمعانـاة لشـعوبنا في أرض عامـل والإغـتراب عـلى هـذا الطريـق الشـاق إنهـا حقبـات مـرة عاشـها الأهـل بالإضطهـاد والحـروب والإحتـلالات والتنكيـل والقهـر والقلـة في أزمـان مليئـة بالطغـاة والمسـتكبرين والمهيمنـين والمتسـلطين عـلى الـروح والجسـد .

حقبـات نضـال عاشـها الأهـل بـين أشـجار الزيتـون وسـنبلة القمـح وبيـادر الحصيـد كانـت تمـر الأيـام مـراراً هانئـة وفي غيرهـا نعـض عـلى الجـراح ننـزف شـباباً يهاجـرون فتلجـأ للإغـتراب.

هـذا هـو العامـلي المسـافر المناضـل المتفاعـل المتواصـل مـع العـالم بأكملـه والأهـم فهـو لم ينـس أرضـه وأهلـه فبنـى النهضـة الإقتصاديـة بـردة فعـل إيجابيـة وفي كل المجـالات (إقتصـاد ، تجـارة ، زراعـة ، صناعـة ، ثقافـة ، أدب ، شـعر ، سياسـة، وعائلـة وعـمارة) إنهـا أثـمان باهضـة قـد دفعناهـا ودفعهـا الأبنـاء في الوطـن والإغـتراب .

أمـا اليـوم ومـع الخـبراء والمدققـين والبحاثـة سـيكون لنـا إضـاءة مسـلطة عـلى تلـك الحقبـات والمحطـات التاريخيـة نرجـو منكـم التقيـد بالوقـت لكـي نسـتفيد أكثـر وأكثـر للإسـتماع والإسـتمتاع لـكل كلمـة غنيـة مفيـدة مـن كل محـاضر عزيـز صديـق صاحـب معرفـة وتجربـة وخـبرة والسـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاتـه .

الهجـرة قديمـة قـدم التاريـخ ارتبطـت بالانسـان منـذ بدايـة الخلـق ومنـذ وجـود هـذا العـالم وبدايـة الكـون وهـي اتخـذت أشـكالاً مختلفـة حسـب المجتمعـات التـي انطلقـت منهـا وحسـب الظـروف الإجتماعيـة والإقتصاديـة التـي مـرّت بهـا الـدول والمجتمعـات والحـروب والكـوارث التـي حلّـت بالمجتمعـات البشريـة حتـى باتـت الهجـرة قضيـة دوليـة ومـن أهـم القضايـا المطروحـة عالميـاً وتطـور العلاقـات الدوليـة والحاجـات الإقتصاديـة والسياسـية للـدول بسـبب الهجـرة المتزايـدة مـن الـدول الفقـيرة الى الغنيـة منهـا، انعكاسـاً للتفـاوت الحاصـل بـين الطرفـين مـن تنميـة ونمـو سـكاني وأنظمـة سياسـية .

والمعروف أن لبنان منذ وجوده اشتهر ساكنوه بالهجرة وحب المغامرة واكتشاف العالم الآخر منذ أيام الفينيقيين الذين وصلت مراكبهم العابرة للبحر المتوسط الى الجانب الآخر من الكرة الأرضية، كما أقاموا مستعمرات لهم وتبادلوا التجارة والعلاقات الإقتصادية مع شعوب متعددة وبلاد بعيدة. ويذكر المؤرخون والمهتمون بالشأن الإغترابي أسماء لبنانيين هاجروا منذ حوالي قرنين من الزمن تاركين قراهم ليصعدوا البواخر التي كانت تستغرق شهوراً لتصل إلى أميركا وكثيراً ما كان الكثيرون منهم ينزلون في أفريقيا العديد منهم لم يسعفهم الحظ ليصلوا أحياء.

تلك كانت بداية الإنتشار اللبناني في الأميركيتين وفي الساحل الغربي لأفريقيا.

-هجرة اللبناني الى القارة الخضراء:

بدأت الهجرة الى أفريقيا عام ١٨٨٠ مع أول لبناني نزل من الباخرة التي صعدها معتقداً أنها متوجهة الى اميركا وتوالت بعدها الهجرة الكثيفة لكثيرين هبطوا على السواحل الأفريقية بينما كانت نيتهم اميركا فيجدون انفسهم في كوناكري عاصمة غينيا أو في داكار عاصمة السنغال أو في سيراليون وليبيريا وغيرها، وبدأ هؤلاء يتكاثرون عبر الإتيان بأقاربهم الهاربين من الخدمة العسكرية الإجبارية العثمانية، بعدها من مجاعة وويلات الحرب العالمية الأولى وبعدها الحرب العالمية الثانية وما عانوه ما بين الحربين سواء من الإنتداب الفرنسي أو الفقر المدقع ومن مظالم الإقطاع والرأسمال المتفحش، وكثرت الهجرة وزادت من المناطق اللبنانية المهملة من قبل الدولة اللبنانية بعد الإستقلال وخاصة الجنوب وجبل عامل الذي عانى من الحرمان منذ ما سمي بالإستقلال حتى الحرب الأهلية التي زادت الطين بلّة، فتزايد عدد المهاجرون العامليين الى كافة أصقاع الأرض خاصة القارة الإفريقية التي نجح آباؤهم وأقاربهم وأبناء بلداتهم ومناطقهم من تحقيق نجاحات مرموقة في ديار الإنتشار وخاصة في القارة الخضراء وبدأ هذا في مساعداتهم وتحويلاتهم المالية لأهاليهم ليخففوا عنهم أعباء الحرب الأهلية في لبنان كذلك صعوبات العيش تحت وطأة الإحتلال الإسرائيلي الصهيوني البغيض.

نعم نجح اللبناني في أفريقيا لأنه دخلها بوجدانه وأحساسه الإنساني طالباً العيش الآمن والكريم، فهو بالطبع لم يدخلها غازياً ولا محتلاًّ ولا مستعمراً، لذا ساهم في تنمية البلاد وإعمارها وأقام علاقات جيدة مع المواطنين هناك وتفهّم عاداتهم وتقاليدهم واحترم أنظمتهم وقوانينهم فحاز على ثقتهم ومحبتهم فانسجم معهم وتطور تلك البلاد التي سكنها وعمل فيها حتى أوصلها الى مستوى الدول المتقدمة وكل ذلك عبر طموحه وجهده وتعبه وإقدامه فحاز اللبنانيون ثقة شعوب تلك

البلاد ومسؤوليها وأقاموا معهم أفضل العلاقات ، فمنهم من أصبح من أكبر التجار حتى اليوم ومنهم دخل المجال الصناعي ومنهم من أقام علاقات إنسانية متعددة في مجالات الفن والرياضة والثقافة والتربية دون التدخل في شأن السياسة الداخلية والأنظمة بالرغم من أن علاقات المغترب اللبناني تمتد من أعلى الهرم السياسي الى كافة المسؤولين في الأمن والأدارة . وذلك من خلال مميزات إتسّم بها المغترب :

أ- والميزة المهمة في المغترب اللبناني في أفريقيا انه لم ينس لبنان بلده الأم والأساسي ولم ينس أهله ومجتمعه فكان يساهم في دعم أهله وقراه ومجتمعه ووطنه ، وها هو الوجود اللبناني في افريقيا مستمر وفي تصاعد وتطور وها هم المغتربون يقومون بواجبهم تجاه وطنهم وتخفيف أزمته الإقتصادية في ظلّ تراجع الدولة عن القيام بواجبها المطلوب ، وكلّنا يعلم كم ساهم مغتربونا في أفريقيا في تخفيف المعاناة عن وطنهم خلال فترة الإحتلال الإسرائيلي البغيض وساهموا مساهمة فعّالة في التحرير بعد مساهمتهم في الصمود والتصدّي .

ب- إن مساهمة المغتربين في تنمية الدول المضيفة لهم في كافة دول العالم وخاصة الإفريقية سواء في الإعمار والتجارة والصناعة وكافة ميادين الحياة كذلك في بناء الصروح الحضارية في العمران والعلم والأدب والفن والإقتصاد ، وقد ظهرت نتائج إغناء لبنان بالخبرات العلمية عبر الكفاءات التي اكتسبوها من عملهم في الخارج المتقدم حضارياً عبر التفاعل والجهد المشترك مع المؤسسات العالمية المتقدمة تقنياً وعلمياً وعبر التجارب المتراكمة .

ج- ولا داعي للتذكير بما حققه المغتربون من نجاحات في كافة الميادين وفي كافة الدول التي هاجروا إليها وعملوا فيها وساهموا في تطويرها وتقدمها والأسماء كثيرة ونجمها ساطع سواء في السياسة والإقتصاد والإجتماع والطب والتربية والأدب والفن والشعروفي عالم المال والأعمال.

وما تقدّم يؤكد أهمية الهجرة القديمة وفوائدها بالرغم مما شكلت في حينها من مأساة لعائلات المهاجرين ، أما الهجرة الحديثة وخاصة هجرة الكفاءات فانها شكلت نزيفاً للطاقات الفكرية والإبداعية مما يساهم في تهديد التطور والتحديث في لبنان .

-أما أسباب الهجرة الحديثة الى جانب طبع اللبناني الميال للهجرة والمغامرة :

1- الحرب اللبنانية والأحداث التي عصفت بالبلاد منتصف السبعينيات من القرن الماضي وتأثيرها على الواقع الإقتصادي والمعيشي والأجتماعي .

2- الإحتلال الإسرائيلي للجنوب والبقاع وصولاً الى العاصمة بيروت عام 1982 واستمر حتى عام 2000، عام التحرير وكان العدو الصهيوني قد سبق الإحتلال باجتياح 1978 وقبلها بحوالي عشر سنوات كان يمارس اعتداءاته على قرى جنوبية وعاملية دون رادع لا عسكرياً ولا حتى دبلوماسياً على صعيد الدولة اللبنانية .

3- تدني رواتب القطاع العام وحتى الخاص في تلك المرحلة .

4- انعدام فرص العمل وحتى اذا وجدت فلا تكفي للعيش الكريم .

5- الإغراءات المالية في الخارج وخاصة في الخليج وافريقيا الى جانب الأمن المستتب والمطلوب في الخارج وخاصة في القارة الأميركية .

6- وجود أقارب وأصدقاء سبقوهم في الهجرة وحققوا نجاحات لافتة .

7- أمست الهجرة هي المتنفس المطلوب لتحقيق أحلام الشباب وإزالة خوفهم من المستقبل الغامض والمعقّد .

8- التخمة في كثرة عدد متخرجي الجامعات الغير متوازنة مع فرص العمل المتاحة .

9- اكتشاف مناطق جديدة أو لم تكن معروفة وأصبحت نقاط جذب سكاني عززت الرغبة لدى الكثيرين بالرغم من الصعوبات والظروف المعيشية الصعبة التي تأقلم معها المهاجرون .

10- رغبة المجتمعات الجاذبة في الغربة في استيعاب الوافدين والإستفادة منهم في الإعمار والتنمية فكانوا خير رسل لوطنهم .

11- شكلت الهجرة عنصراً للنمو المتكافئ الثروة والدعامة الأساسية للاستقرار والتنمية المشتركة ووسيلة للحوار والتعاون بين الثقافات والحضارات ومجالات العمل ومستويات تطورها .

12- فشل النظام اللبناني والطبقة السياسية الحاكمة منذ الإستقلال بل منذ إنشاء الكيان اللبناني عام 1920 وحتى منذ نظام المتصرفية حتى اليوم في بناء وطن وإعداد مواطنين وفقدان المواطنة وعدم التمكن من إقامة دولة تقوم على مؤسسات يحكمها القانون بالعدالة والمساواة .

أما تفعيل المغتربين في التنمية الوطنية فهي كثيرة منها :

1 – توظيف المواد البشرية واستثمار عائدات الهجرة في مشاريع استثمارية وعمرانية.
2 – تحقيق التنمية الوطنية بشكل مستدام عبر ارتباط الجاليات بالوطن .
3 – الحفاظ على الهوية الوطنية والتواصل الدائم مع الوطن الأم .
4 – الإفادة من المغتربين وتعزيز الإستقرار الوطني والإستقرار النقدي من خلال تحويلات المغتربين التي زادت عن سبعة مليارات دولار سنوياً وكذلك تشغيل اليد العاملة في مشاريعهم العمرانية .
5 – أضحت الهجرة عنصراً للنمو المتكافئ، والدعامة الأساسية للإستقرار والتنمية المشتركة، ووسيلة للحوار والتعاون .
6 – إن الإغتراب اللبناني فريد في عطائه لأنه يتجلى بانسانية في كافة المجالات.
7 – ان المغترب اللبناني تجاوز صعوبات عامل اللغة والعرق واللون وأقام علاقات انسانية مع شعوب الدول المضيفة .
8 – أضحى الإغتراب اللبناني امبراطورية لا تغيب عنها الشمس ولو أقدمت الدولة على رعاية المغتربين ومؤسساتهم الإغترابية مثل الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم لتمكنوا من إقامة لوبي يواجه اللوبي الصهيوني.
9 – غياب الدولة اللبنانية عن رعاية الإغتراب، جعله عرضة لمواجهة المصاعب ونقطة ضعف أمام الدول المضيفة عوضتها الطاقات الإغترابية.
10 – ساهم المغتربون بتوطيد العلاقة بين الدولة اللبنانية والمضيفة.
11 – حاولت مديرية المغتربين التابعة لوزارة الخارجية عبر مديرها العام تعويض قليل من النقص الكبير الناتج عن تقصير الدولة.
12 – ان وزارة المغتربين التي أنشئت فيما مضى لم تكتمل لتؤدي دورها بل غابت وللأبد وهي تبقى حاجة ضرورية وماسة للمغتربين والإغتراب، كما أن وزارة التخطيط هي اكثر من مطلوبة في اية حكومة فاعلة.
13 – الإغتراب والمغتربون ثروة وطنية وقومية اساسية تدخل ضمن المصلحة القومية للبنان ، فمهاجرونا ومغتربونا قوة مادية ومعنوية يجب أن تعمل الدولة على الإستفادة منها .
14 – الكل يعلم كم يساهم مغتربو الجنوب وجبل عامل بالأخص، وكم شاركوا في تخفيف وطأة الإحتلال الإسرائيلي البغيض وخففوا أعباء المعيشة عن أهاليهم، والأهم انهم ساهموا الى جانب اخوانهم المقيمين في انجاز عملية التحرير كذلك في مواجهة عدوان تموز عام 6002، وبالتالي إعادة الإعمار والمساهمة في التنمية اقتصادياً وتربوياً وفي كافة المجالات المتاحة .

تمكّن المغتربون من تنظيم واقعهم الإغترابي في بلاد المهجر، فنظّموا جالياتهم بأنفسهم حيث لم يكن هناك تواجد دبلوماسي كافٍ خاصة في افريقيا.

فتمّ إنشاء مؤسسات اغترابية محلية ووطنية وقارية وعاملية لترعى شؤون المغتربين والتحدث باسمهم، كالجامعة اللبنانية الثقافية في العالم، التي لي شرف الإنتماء اليها وتحمل المسؤولية فيها، والمجلس القاري الإفريقي، منذ اربعين عام.

الجامعة هذه المؤسسة الإغترابية التي أسست عام 1960 برعاية الرئيس فؤاد شهاب ترعى شؤون الجاليات اللبنانية المنتشرة عبر أصقاع الأرض والتي تضم من المغتربين ما يفوق ثلاثة أضعاف اللبنانيين المقيمين بتنظيم متقن يبدأ من الفرع في المدينة، الى المجلس الوطني في أي دولة من الدول المضيفة، الى المجالس القارية حتى المجلس العالمي.

أما المجلس القاري الافريقي الذي لي شرف تولي امانته العامة فإنه يمثل كافة الفروع والمجالس الوطنية على امتداد القارة الخضراء حيث تتكون اكثرية المغتربين فيه من الجنوب وجبل عامل بشكل خاص. ولطالما تشاركنا كجامعة ثقافية وكمجلس قاري افريقي مع حركات ومؤسسات ثقافية واجتماعية وتنموية كالحركة الثقافية في لبنان كذلك هيئة تكريم العطاء المميز التي لي شرف الإنتماء اليها، وسنسعى لتفعيل هذا التعاون لما فيه الخير والتقدم للمقيمين والمغتربين وبالتالي لشعبنا ووطننا والأمر يتطلب الكثير من الجهد حتى لا يشعر المقيم أنه مغترب في وطنه وحتى لا يعيش المغترب غربتين.

لا شك ان المسار طويل وشاق لكل من يعمل في الشأن العام وان معركة بناء الأوطان وإعداد المواطنين هي أصعب المعارك وأشرفها ولكن يبقى الأمل أقوى من اليأس والعاقلون أقوى من الجهلة والطيبون أجدى من الخبثاء والصالحون المصلحون أصلب من الفاسدين والمفسدين ولا بدّ لليل الظلم أن ينجلي، ولا بدّ لقيد الطائفية أن ينكسر.

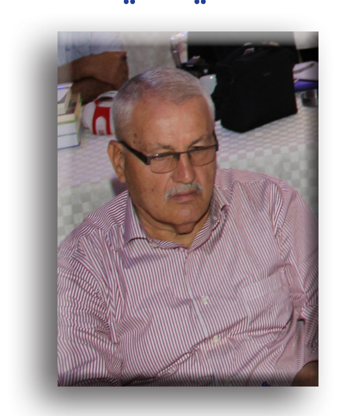
أخيراً كنت قد أعددت دراسة عن الشعر والأدب العاملي في المهجر كذلك عن الشخصيات الإغترابية المتألقة بميادين العلم والمعرفة والثقافة والطب وغيره سأرفقها في ملحق البحث لأن الوقت المتاح الآن لا يسمح بذلك، لذا سأكتفي الآن بطرح نموذج عن الوجود اللبناني في أفريقيا وتحديداً في ساحل العاج حيث كانت التجارة أول نشاط اقتصادي مارسه اللبنانيون في أفريقيا الغربية وبقي حضورهم الاقتصادي متواضعاً حتى الحرب العالمية الأولى حيث شهدت سنوات العشرينات من القرن الماضي منافسة شديدة بين التجار اللبنانيين ومنافسيهم الأوروبيين في أفريقيا الغربية، ونتيجة النهج والطريقة التي تعامل فيها اللبنانيون مع شعوب الدول المضيفة استطاعوا أن يطوروا وجودهم

وأعمالهم حتى وصل عددهم في الربع الأخير من القرن العشرين حوالي مماية الف في ساحل العاج وأصبح لهم حضور اقتصادي واجتماعي قوي ولافت يتحكّم بحوالي ستين بالماية من القطاعات الإقتصادية الحيوية وتشير الإحصاءات انهم كانوا يمتلكون أربعة الآف مؤسسة منها حوالي الف وخمسماية مؤسسة صناعية يعمل بها حوالي خمسة عشر الف مواطن من أهل البلاد. كما سيطروا على سبعين بالماية من تجارة العملة وخمسين بالماية من تجارة التقسيط والمفرّق. وحوالي ثمانين بالماية من شركات جمع وتصدير مواسم القهوة والكاكاو وهي المادة الاساسية في مجال الزراعة والاقتصاد وهناك كذلك حوالي عشرين بالماية من سيارات الإجرة في مجال النقل.

لذا حرصت قيادات وفعاليات البلاد دائماً على التنويه والإشادة بالمغتربين اللبنانيين حيث كانوا يعاملون كمواطنين عاجيين وحازوا على ثقة الرئيس المؤسس للدولة العاجية " فيليكس هوفونييه بوانييه" "Félix Houphouet - Boigny" فوصفهم بالقول: " اللبنانيون عطاء من السماء وقد أرسلهم الله هدية لنا، وإذا كان من وجود للصناعة في هذا البلد فالفضل يعود الى نشاط اللبنانيين وذكائهم".

اما في سيراليون فان الجالية اللبنانية العريقة والكبيرة كانت تسيطر مطلع الستينات على حوالي ثمانين بالماية من تجارة الألماس والذهب. وهذا الأمر ينطبق على بوركينا فاسو والكونغو وأنغولا والغابون بل على امتداد مساحة القارة الخضراء حيث يشكل الجنوبيون بل العامليون الأكثرية الساحقة في الجاليات اللبنانية التي تعدّ حوالي خمسماية الف مغترب لبناني. وذلك بالرغم مما تعرضت له هذه الجاليات والدول المضيفة لها من فوضى امنية نتيجة الحروب الأهلية والسياسية الداخلية ودمرت اقتصادها كما حصل في منروفيا عاصمة ليبيريا من عام 1982 حتى عام 1996، حيث كانت الجالية تضم خمسة عشر الف قبل الأحداث فتدنى العدد الى اقل من خمسماية وهذا ما حصل في نفس الفترة الزمنية تقريباً في سيراليون والكونغو وافريقيا الوسطى دون أن ننسى دور العدو الإسرائيلي الذي لا يزال قائماً بأشكاله المختلفة سياسية وأمنية واقتصادية بشكل حظير يهدد مستقبل الجاليات اللبنانية ويهدف لضرب مصالح اللبنانيين والقضاء على نجاحاتهم ودورهم الفاعل في افريقيا معقلهم الرئيسي للإطاحة بجهودهم الرامية الى تعزيز تنمية وصمود شعبهم ووطنهم لبنان في وقت لا زالت الدولة اللبنانية مقصّرة بواجبها تجاه هؤلاء المغتربين كما هي حالها مع مواطنيها المقيمين، خاصة في الجنوب، وبالأخص في جبل عامل منذ وجود الكيان وحتى اليوم لولا الانتصارات المشرفة التي تحققت عبر المقاومة العاملية في العقدين الماضيين.

القطاع الزراعي في جبل عامل



د.علي زين الدين

يقول **سيلسيو فورتادو** في كتابه « إقتصاد التخلف»

لا يمكــن أن نكــون عنــد آمــال المزارعــين وطموحاتهــم دون مســاعدتهم عــلى مضاعفــة مدخراتهــم.

ونقول: من لا يملك قوته لا يملك إرادته

تقديم: الإطار الجغرافي للمنطقة

إن مايعـرف اليـوم بجنـوبي لبنـان كان يعـرف سـابقاً باسـم جبـل عامـل وكان يشـمل منطقـة أوسـع ممـا هـي عليـه الآن، وإن اختلـف المؤرخـون عـلى حـدود هـذه المنطقـة التـي كانـت تتسـع وتضيـق حسـب سـلطة زعمائـه. ومما هـو مؤكـد أن حـدوده كانـت عنـد نهـر القـرن قـرب قريـة ترشـيحا في فلسـطين جنوبـاً، وكانـت تتبـع لـه قريـة البصـة. وفي الـشرق كانـت هـذه الحـدود تمتـد حتـى بحـيرة الحولـة، وفي الشـمال حتـى جزيـن.

وبعـد إعـلان دولـة لبنـان الكبـير في عـام 1920 أصبـح جنـوب لبنـان يمثـل القسـم الجنـوبي مـن أراضي الجمهوريـة اللبنانية،وهـو يمتـد مـن مجـرى نهـر الأولي شـمالاً حتـى الحـدود مـع فلسـطين جنوباً،ومـن البحـر المتوسـط غربـا حتـى أعـالي مرتفعـات جبـل الشـيخ شرقـاً.

والمعـروف تاريخيـاً أن تسـمية جبـل عاملـة أوعاملـة نسـبة الى قبيلـة عاملـة بـن سـبأ التـي نزحـت الى بـلاد الشـام إثـر انهيـار سـد مـأرب بعـد السـيل العـرم. أمـا تسـمية قسـم منـه ببـلاد بشـارة ،فهـي نسـبة الى أحـد قـواد صـلاح الديـن الأيـوبي ، حسـام الديـن بشـارة الـذي تسـلم حكـم المنطقة،ثـم انتقـل حكمهـا في مابعـد الى أسرة آل عـلي الصغير وغيرهـا مـن الأسر الإقطاعية.

كتب المؤرخون كثيراً عن فنون الفلاحة النبطية، نسبة الى الأنباط الذين يعتقد أن تسمية النبطية تعود اليهم.. وفي عهد الفينيقيين الذين كان اهتمامهم الرئيسي موجهاً نحو التجارة، لكن هذا العهد شهد ازدهار بعض الزراعات مثل الحبوب و الزيتون الذي استخرجوا زيته ، وكان عنصرا هاماً في تجارتهم الخارجية ، وبالأخص مع مصر. ومع الفتح العربي لم يكن القادمون على خبرة كافية بالزراعة، لكنهم شجعوا السكان المحليين على الزراعة لتلبية حاجات القادمين الجدد للمواد الغذائية وللتجارة وهنا يذكر المقدسي شهرة صور بإنتاج السكر وشهرة جبل عامل بإنتاج بالعسل والعنب والزيتون والفواكه.

وفي العهود المملوكية والعثمانية طرحت الدولة الحاكمة المقاطعات الريفيةللمزايدة بين الراغبين من أعيان البلاد مقابل مبالغ محددة من الملتزمين، فتحول المواطنون الى أشبه مايكون بعمال السخرة في أراضيهم ، وجاءت الضرائب المتعددة من الويركو والعشر، و كذلك التجنيد الإجباري على كل قادر على حمل السلاح، لتزيد من تدهور القطاع الزراعي.وفي ظل الصراع الذي فرض على سكان المنطقة من قبل المعنيين والشهابيين والعديد من الولاة العثمانيين أمثال أحمد باشا الجزار، تدهورت الزراعة وبخاصة الأشجار المثمرة ،لأن قطع الأشجار وحرق المحاصيل كان عند هؤلاء وسيلة للتنكيل بالخصوم.

لكن الزراعة كانت تعود للإنتعاش في الفترات التي يسود فيها الإستقرار، في عهد بعض الزعماء الإقطاعيين الأقوياء مثل ناصيف النصار وحمد لبيك وغيرهم. وفي هذا الصدد يذكر المؤرخون أنه في فترة الحكم المصري فتحت أبواب مصر لإنتاج فلاحي جبل عامل وخاصة التبغ ، فكان منه ثروة عظيمة للبلاد،وصدر ميناءا صيدا وصور كذلك الحبوب والعنب والقطن والحرير والزيت والأخشاب والسمسم، مما يشير إلى تنوع الإنتاج الزراعي وأهميته.كما ازدهرت في المنطقة زراعة التوت لتلبية حاجة مصانع الحرير في أوروبا، فانتشرت زراعته بكثرة في مناطق صيدا ومرجعيون،فكان في صيدا وحدها حوالى خمسين بستاناً من أشجاره لتربية دود القز.كما انتشرت زراعة القطن في المنطقة الساحلية بين صيدا وصور، وخاصة في الصرفند وشرقي صور وفي بلدة انصار، وقد تراجعت من الخمسينيات من القرن الماضي وتحديداً بعد إنشاء قناة القاسمية لتحل محلها زراعة الحمضيات.

وفي هذا المنطقة بالذات جلب مشروع ري القاسمية- رأس العين الذي تم إنجازه بين عامي 1952 -1954 على يد النقطة الرابعة الأمريكية، لري 5100 هكتار من السهل الساحلي بين صيدا وصور، وبطول حوالى 45كلم باتجاه صيدا شمالاً وصور جنوباً،جلب هذا المشروع الرساميل المتراكمة لدى كبار التجار في المدن والمغتربين وسواهم.

فتحولـت مـن الزراعـات البعليـة (حبـوب، اشـجار التـين والزيتـون..) الى زراعـات رأسـمالية تصديرية،وبالأخـص الحمضيـات والموز،ولكـن في الوقـت ذاتـه، أدى هـذا التغلغـل الرأسـمالي الى انهيـار الملكيـات الصغـيرة، وتحـول الملاكـون الصغـار بعـد بيـع أراضيهـم الى عـمال وأجـراء في الملكيـات الواسـعة الجديـدة. فالرأسـمالية العقاريـة حلـت تدريجيـاً محـل أصحـاب الأراضي ، مسـتغلة حاجتهـم للنقـود، لتـضرب جـذور العلاقـات القائمـة ،مادفـع قسـماً أخـر منهـم للهجـرة أو النـزوح.

ومنـذ تلـك الفـترة أخـذت الزراعـة مسـارين متعاكسـين. أولهـما تطـور في الزراعـة الرأسـمالية في السـاحلي وتمركـز الملكيـات الكبـيرة في أيـدي عـدد محـدود مـن الملاكـين، وثانيهـا نمـو زراعـة التبـغ في الداخـل عـلى حسـاب بقيـة الزراعـات البعليـة الأخـرى مـن حبـوب وأشـجار مثمـرة، مـما زاد مـن الإنكشـاف الغذائـي للسـكان .فالمنطقـة التـي كانـت تنتـج أكثـر مـن حاجتهـا مـن معظـم الحبـوب وبعـض الثـمار كالتـين والقمـح مثـلاً، أصبحـت تسـتورده مـن الخـارج.

● - اليد العاملة، الدخل، الميزانية

إن الزراعــة في الــدول الناميــة تشــكل الركيــزة الأساســية للإقتصــاد، إذ أنّ أي تطــور لإقتصادهـا ورفـع مسـتوى معيشـة سـكانها يتطلـب بالدرجـة الأولى تطـوراً في ميدانهـا الزراعـي. وقـد تصـل هـذه النسـبة في بعـض مناطقهـا الريفيـة الى 25 في المئـة حيـث تسـاهم الزراعـة بـ 80 في المئـة مـن الناتـج المحـلي فيهـا.

أمـا في **لبنـان**، فـلا يشـكل القطـاع الزراعـي إلا نحـو 4 في المئـة مـن الدخـل الوطنـي و 6 في المئـة مـن العمالـة الوطنيـة التـي تتميـز بقلـة خبرتهـا وضعـف قدرتهـا عـلى اسـتخدام الأسـاليب الحديثـة في الزراعـة، كطـرق الـريّ الحديثـة، ومكافحـة الآفـات الزراعيـة، واسـتخدام الأسـمدة والمخصبـات وغـير ذلـك.

ويمكن تقسيم اليد العاملة الزراعية إلى ثلاثة أقسام :

- اليد العاملة العائلية الدائمة.
- اليد العاملة العائلية المؤقتة.
- اليد العاملة المأجورة الدائمة.

إن القطـاع الزراعـي رغـم تراجعه،لايـزال يشـكل المصـدر الرئيـسي للدخـل وفـرص العمـل في المناطـق الريفيـة، وهـو قطـاع يعتـاش منـه اكثـر مـن 200 ألـف عائلـة، لكـن هـذا التراجـع جعـل لبنـان مـن أكثـر البلـدان انكشـافاً غذائيـاً في معظـم المنتجـات الزراعيـة والحيوانية، باسـتثناء بعـض أنـواع الفاكهـة والثـمار والخضـار. مثـل: (التفـاح ، الحمضيـات، المـوز ، الزيتـون، البطاطـا

وبعـض الخضـار الورقيـة). لذلـك يعتـبر لبنـان مسـتورداً أساسـياً للمـواد الغذائيـة ، فالمنتجـات المحليـة تلبـي فقـط حـوالي 20 في المئـة مـن حاجـات الاسـتهلاك المحـلي، حيـث بلغـت الـواردات الزراعيـة لعـام 2016 نحـو 3 مليـارات دولار أميركـي فيـما بلغـت إجمـالي الصـادرات الزراعيـة حـوالي 700 مليـون دولار (حـوالي 18 في المئـة مـن إجمـالي الـواردات)..

وتراوحـت ميزانيـة وزارة الزراعـة خـلال السـنوات الاخـيرة بـين 70 و100 مليـار لـيرة لبنانيـة (اقـل مـن 1 في المئـة) مـن اجمـالي الموازنـة العامـة ، وخـلال فـترة السـبعينيات والثمانينيـات مـن القـرن المـاضي تراوحـت بـين 0.02٪ عـام 1970 و0.8٪ في عـام1987[1] وهـي نسـبة منخفضـة جـدا مقارنـة مـع دول الجـوار ، هـذه الميزانيـة عـلى ضآلتهـا ، لاتـكاد تكفـي النفقـات الإداريـة لـوزارة الزراعـة وموظفيهـا.

وهـذا دليـل قاطـع عـلى أن أهـل السياسـة وصنـاع القـرار لم يكـن في يـوم مـن الأيـام يقـع في صلـب اهتمامهـم القطـاع الزراعـي أو المناطـق الريفيـة والقاطنـين فيـه، فأبقـوا الاقتصـاد قائـما بشـكل أسـاس عـلى قطـاع الخدمـات، وبـات لبنـان أسـير الاقتصـاد الريعـي، وحتـى السياسـة الزراعيـة اليـوم هـي قائمـة في حـدود كبـيرة عـلى الارتجـال .فالدولـة إلى الآن تمعـن في عـدم الإقـرار بأهميـة قطـاع الزراعـة في التنميـة الاقتصاديـة بصـورة عامـة، أي مـا يطـاول التنميـة الريفيـة وتحقيـق الأمـن الغذائـي والاجتماعـي، وحمايـة البيئـة وتبنـي مفاهيـم الاسـتدامة و«عصرنـة» القطـاع الزراعـي

●–الزراعة في جبل عامل : حقائق وأرقام

●–المساحات المزروعة والحيازة الزراعية

حسـب المسـح الزراعـي الشـامل لعـام 2015 ، بلغـت المسـاحة الاجماليـة لـلأراضي الصالحـة للزراعـة في لبنـان 330 ألـف هكتـار، يـزرع منهـا 250 ألـف هكتـار.

وقـد احتلـت محافظـة البقـاع المرتبـة الأولى في مسـاحة الأراضي الزراعيـة في لبنـان، أمـا محافظـة الجنـوب فهـي تحتـل المرتبـة الثالثـة بمسـاحة مزروعـة قدرهـا 33193 هكتـار، أي مـا يـوازي 13٪ مـن المسـاحة الإجماليّـة الزراعيّـة في لبنـان، ومـا يـوازي 46٪ مـن المسـاحة الزراعيّـة في المحافظـة. أمامحافظـة النبطيـة فتـأتي في المرتبـة الأخـيرة، حيـث تبلـغ المسـاحة المزروعـة فيهـا نحـو 29069 هكتـار، أي مـا يـوازي 11٪ مـن المسـاحة الإجماليّـة لـلأراضي الزراعيّـة في لبنـان، بينـما تبلـغ المسـاحة المرويّـة نحـو 1450 هكتـاراً، أو مـا يـوازي 5٪ مـن مجمـل المسـاحة الزراعيّـة. أي أن مجمـوع المسـاحة المزروعـة في محافظتـي جنـوب لبنـان(جبـل عامـل الحـالي) بلـغ 16٪ مـن المسـاحة المزروعـة في لبنـان. أمـا باقـي الأراضي فهـي عبـارة عـن أراضٍ تشـغلهاالأحراج

1 - زين الدين ، علي، الزراعة في لبنان، دار النصر، بيروت 1994.ص.189

والغابات (حوالي 188 ألف دونم)، أو أراضٍ غير قابلة للزراعة حوالى(30 ألف دونم)

وعلى أساس نوع الزراعة، بلغت مساحة الزراعات الموسمية والدائمة والمحمية في لبنان، 2.321.199 دونماً،بينما بلغت المساحة غير الصالحة للزراعة 29038 دونماً. تشكل الزراعة الموسمية٪44 من المساحة المزروعة في لبنان، منها(حبوب،خضارورقية ودرنية). أما على مستوى المحافظتين الجنوبيتين، فقد شغلت **الزراعة الموسمية** مساحة76540 دونماً، أهمها النجيليات 18973 دونما والخضار الثمرية والورقية 16000 دونم ،وبمعدل٪11 في الجنوب، و٪8في النبطية .

أما **الزراعة الدائمة** في محافظة الجنوب فقد بلغت 201539 دونما. منها: الحمضيات 63617 دونما. ٪31.6 الموز:28187 أي ٪14 الزيتون 78414 أي ٪38.9.ومع ذلك فإن الجنوب يستأثر ب ٪59.2 من المساحةالمزروعة بالحمضيات و ٪61.2من الإنتاج، وب:٪93.3 من المساحة المزروعة بالموز و٪92.5 من إنتاجه،وب:٪18.8 من المساحة المزروعة خضاراً و٪16.7 من إنتاجها.أما التبغ. فهو يشغل ٪78.5 من المساحة المزروعة ، و٪74.4من الإنتاج على مستوى لبنان.

●-الملكية والحيازة الزراعية

لقد بقي الفلاح العاملي لفترة طويلة يعمل في الأرض لقاء قوته وقوت عائلته، بطريقة تضمن استمراره في العمل فقط. فالأرض كانت ملكاً للسلطان أوللحاكم،يوزعها على المقربين منه، من أولاد وأقارب وقادة عسكريين وولاة وخلافهم.وقد ظل الوضع على حاله،الى فترة الإنتداب الذي عمل على تنظيم ومسح الأراضي، ومسحها باسم مستغليها، لكنه اعتمد على سندات **الطابو** العثمانية، فكرس ملكيات كبار الإقطاعيين، ومسح أراض واسعة، سلبت من السكان نتيجة عدم قدرتهم على تسديد الضرائب للدولة العلية.

أما في الوقت الحالي،فقد بلغ عدد الحائزين في جبل عامل، 22211 حائزاً، يستغلون مساحة 256211 دونما ، منها ملكيات كبيرة: تتراوح بين 500-100 دونم، يملكها344 حائزا ،أي بمعدل 227.125 دونما لكل حائز. أما باقي الحائزين ، وعددهم 21763 ، فيملكون178080 دونما ،أي بمتوسط بمعدل 8.18 دونما لكل حائز. أما صغار المزارعين فهم يملكون أقل من 5دونمات.[1]

1 - الحد الأدنى لحجم الحيازة 2000م2 للبعليةو1000 للمروية و400متر مربع للبيوت البلاستكية وبقرة واحدة و7 غنم أو ماعز و8قفران نحل و50 دواجن

●- صيغ الإستثمار الزراعي

لم تتطور صيغ الإستثمار الزراعي في جبل عامل في الوقت الحالي، كثيراً عما كانت عليه في السابق. ولأن معظم العاملين في الأرض من الفلاحين لم يكونوا من مالكيها،لذلك تعددت تسميات الشراكة بين الفلاحين والمالكين. وهي كلها تقوم على أسس إيجار الأرض وأشجارها، شرط دفع الفلاحين حصصاً من الغلة والمحصول لمالكي الأرض.

وفي هذه الحال يقدم المتصرف بالأرض ومالك حق رقبتها شرعاً، قطعة أرض بوراً أو سليخاً للفلاح ليزرعها حبوباً مقابل حصة من الإنتاج، وعندها تسمى **مزارعة**.أويغرسها أشجاراً مدة معينة مقابل حصة من الأرض وأشجارها، فتسمى **مغارسة**.[1]

ونعطي على سبيل المثال كيف كانت تتم شراكة المزارعة بين المالك والفلاح:

ففي حال قدم المالك الأرض فقط، وأحيانا المسكن،وقدم المزارع أو الفلاح قوة العمل+البذار+ قوة عمل الحيوانات. فتكون المزارعة المحصلة **مثالثة أو مرابعة أو مخامسة**، حيث يحصل صاحب الأرض على الثلث أو الربع أو الخمس. أما إذا قدم المالك الأرض والبذار، وقدم الفلاح قوة العمل البشرية والحيوامية، فتكون الحصص **مناصفة**، وفي حال قدم المالك الأرض والبذار والحيوانات والسكن أحياناً،فتكون المزارعة **مرابعة**، ولكن حصة المالك تصبح ثلاثة أرباع وحصة الفلاح الربع.

هذا في تاريخ طرق الإستثمار الزراعي في جبل عامل، أما في الواقع الحالي لهذا الإستثمار، فكان على الشكل التالي:

الإستغلال المباشر ٩١.٩٪، والباقي غير مباشر، وبالطبع تختلف صيغ الإستثمار هذه حسب نوع الزراعة، وربما حسب تراضي الفريقين: المالك والذي سيعمل على استثمار الأرض. ففي زراعة الحمضيات مثلاً كانت نسبة الإستثمار المباشر من قبل المالكين حسب إحصاء 2010،هي ٧١٪ **مباشر**،بواسطة ٨٤٪ من الحائزين، **و**٢١٪ **غير مباشر** والباقي إما محاصصة أو بصيغ أخرى يتم الإتفاق عليها بين المالك والمستثمر. وفي زراعة الزيتون درجت العادة مؤخراً أن تكون الحصة مناصفة بين المالك و العامل الذي يجني المحصول.

●-أعمار الحائزين

يكفي أن نلقي نظرة على أعمار الحائزين ، لتكوين فكرة عن واقع الزراعة المأزوم في المنطقة، ولا شك أن أزمة قطاع الزراعة في جبل عامل، هي جزء من واقع القطاع الزراعي في لبنان، بل هي أزمة القطاعات الإنتاجية التي ضحى فيها الرأسمال المتفلت وسياسة الباب المفتوح اللذين أديا الى تدهور قطاعي الزراعة والصناعة

1 - سعيد، عبدالله ابراهيم،العلاقات الإجتماعيةوالإقتصادية في الأرياف اللبنانية.(1861-1914)،دارالفارابي،بيروت،2003، ص. 49

أما أعمار هؤلاء، فكانت على الشكل التالي: 92 ٪ أعمارهم فوق 35 سنة، و٪8 أقل من 35 سنة، أما الذين بلغت أعمارهم65 سنة فما فوق فقد بلغت نسبتهم ٪26.37.هذه النسبة هي أكثر بما يزيد على ثلاثة أضعاف فئة الشباب ،وهذا مؤشر على عدم الإقدام على العمل الزراعي.

● - الخدمات الزراعية

حسب الإحصاء الآنف الذكر،هناك ٪6من المزارعين في محافظة النبطية، لا ينتسبون لتعاونية زراعية، و٪11 يستفيدون من الإرشاد، و٪1 فقط يستفيدون من الإئتمان الزراعي. ولا يختلف واقع الزراعة في محافظة الجنوب عنها في محافظة النبطية.والحقيقة أن تدخل الدولة في الأرياف أصبح شبه معدوم،.فقد تقلص دور المشروع الأخضر والمكاتب الزراعية الأخرى مثل مكتب الحبوب والفاكهة والشمندر السكري،ومكتب الإنتاج الحيواني،والإرشاد الزراعي، وأصبح شبه غائب،وبنك التسليف الزراعي الصناعي لا وجود عملياً له.كل هذا بإمكانه أن يعطي المتابع للقطاع الزراعي مدى التدهور الذي يلحق بهذا القطاع.

● - المكننة الزراعية والتعاونيات الزراعية

تتمركز الآلات في الحيازات الكبيرة، ويظهر ضعف المكننة في الحيازات الصغيرة والمتوسطة.

الملكية الخاصة وعلى صغر حجمها تمنع عملية التطور في القطاع الزراعي ، خاصة أن هذه الملكية هي أيضاً مفككة بعامل الإرث. ويعد لبنان من أفقر البلدان النامية استخداماً للماكينات الزراعية، إذ يبلغ عددها الإجمالي 124.213 آلة موزعة على 329.099 حيازة زراعية»حسب الاحصاء الزراعي الشامل لعام 2010».أي ما يعادل أقل من 0.4 آلة لكل حيازة

لذا تعتبر التعاونيات الجماعية حاجة ملحة لتطوير القطاع الزراعي نظراً لدورها في إرشاد المزارعين وتوجيههم،بالإضافة إلى تنمية جودة المنتجات وكمياتها، إلا أن دورها يبقى هامشياً إذ يوجد في لبنان 1200 جمعية تعاونية ، 20 منها فقط يعد فاعلاً. ومجمل هذه التعاونيات هي تعاونيات خاصة أنشئت صورياً لتستفيد من التقديمات المالية للجهات المانحة ويستحوذ على جزء منها تجار الخضار والفواكه،

●-متوسط أيام العمل في القطاع الزراعي

بلغ عدد ايام العمل الزراعي على مستوى لبنان 6.7 مليون عمل موزعة على 126192 حيازة بمعدل 53 يوما في الحيازة. بينما بلغت 39 يوما في الجنوب و26 يوما في النبطية .

•- أنواع الزراعة

1- الزراعة التجاريّة :

كما تمت الإشارة سابقاً، ينتشر هذا النوع من الزراعة على نطاق واسع في منطقة السهل الساحلي ، وتعتمد في ريّها على مياه قناة القاسمية إضافة إلى مياه الآبار الأرتوازيّة. هذه الزراعة بغالبيتها زراعة تصديرية ، وعمادها الأساسي من الحمضيات والموز،حيث كانت دول الخليج العربي هي الأسواق الأساسية لها، وذلك قبل الأحداث الأمنية التي ضربت المنطقة مؤخراً.

ويتم تسويق الإنتاج الزراعي من الحمضيات والموز، بأشكال متنوعة ، وهذا مرتبط بكمية الإنتاج ونوع المحصول وإمكانيات المزارع المادية. فبعض هذا الإنتاج يباع على باب المزرعة والبعض الأخر في سوق الخضار للجملة، ومن هناك يوزع على أسواق التجزئة، أو يوضب ويصدر الى الخارج.

أما الزراعات المحميّة فهي منتشرة في مناطق متفرقة من أراضي جبل عامل. بينما تنتشر خارج البيوت المحميّة زراعات متنوعة كزراعة الأشجار المثمرة وزراعة الخضار والبطاطا، وزراعة الحبوب والتبغ ،وهذا الأخير ملزم المزارع ببيعه لإدارة حصر اتبغ والتنباك اللبناية، التي لها حصراً حق الترخيص وتحديد المساحة المسموح بزراعنها، ومن ثمة شراء المحصول

2- الزراعة المعيشيّة :

يزرع هذا النوع بهدف الإكتفاء البيتيّ، مع امكانيّة بيع الفائض إذا توفر.وتقتصر الزراعة المعيشية على زراعة الخضار والحبوب بالإضافة إلى بعض الأشجار المثمرة .

ويتضح أنه قبل إنشاء مشروع القاسمية الذي يعتبر أحد مراحل مشروع الليطاني الذي أرسى أسسه المرحوم المهندس ابراهيم عبد العال أن الزراعة في جبل عامل كانت بغالبيتها الساحقة ، زراعة بعلية معيشية،تعتمد زراعة الحبوب وفي مقدمتها القمح والقطاني(عدس،بيقة،كرسنة،الخ) وكانت أغمارها تملأ بيادر القرى بانتظار دراستها وتخزين محصولها لغذاء العائلة، أو لعلف الحيوانات.أما الفائض فكان يحتفظ بجزء منه للبذار في الموسم القادم، والباقي ينقل غالباً على ظهور الحيوانات ليسوق في مدن المنطقة الرئيسية،صيدا،صور،النبطية وبنت جبيل..

لقد كانت الزراعة المعيشية كفيلة بكفاية حاجة معظم السكان، لأنهم غالبيتهم العظمى كانوا يعملون في الأرض، ويملكون الحيوانات والدواجن.لذلك كان لديهم شبه اكتفاء ذاتي للمواد الغذائية،وأما الحاجيات الأخرى مثل الأرز والسكر والشاي والملابس،فكان يتم

الحصول عليها من الأسواق المجاورة لقاء بيع بعض المحصول، أما في القرية فكانت عملية البيع والشراء مع (الدكان..سوبر ماركت الضيعة في حينه) ، تتم أحياناً كثيرة، عن طريق المقايضة ببضع بيضات دجاج أو بطنجرة لبن أو حليب،أو مقابل يوم فلاحة أو حصاد الخ..عند الدائن.

أما الحلوى فنادراً ماكانت تدخل البيوت،إلاعندما كانت الفرصة تسنح للفلاح بالذهاب الى سوق المدينة . والبديل عنها جاهز من الأرض، وهي عبارة عن التين الأخضر في موسمه، أو (الدحروب والشريحة من التين المجفف) في خارج الموسم، يضاف الى ذلك دبس الخروب والزبيب. وفي منطقة النبطية كانت كروم التين في سهل مرجعيون مقصداً لعشرات العائلات من المنطقة، حيث كانت كل عائلة تقوم بضمان عدد معين من أشجار التين، وبالأخص في منطقتي(التل والقرص) من السهل المذكور. ولأجل ذلك كانت تنشئ نوعاً من العرازيل، هي عبارة عن خيم من نبات الشيح، تقيم فيها حتى نهاية الموسم،حيث تعود الى بيوتها حاملة معها محصولها من التين المجفف، لتبيع قسماً منه، وتترك قسماً أخر كمؤونة للتحلية في فصل الشتاء.

أما حالياً فقد تلاشت زراعة التين الى حد كبير في المنطقة، وكان لانتشار زراعة التبغ على نطاق واسع في الجنوب اللبناني في نهاية الخمسينيات ، العامل الأساسي في تراجعها ، بعدما اجتثت أشجار التين مفسحة المجال أمام زراعات أخرى أيضاً. وهكذا تحولت القرية التي كانت تطعم المدينة، وتمدها بالطحين والخبز والحبوب واللحوم والبيض والألبان تستورد غذاءها منها.

والخلاصة أن السكان الزراعيين في جبل عامل باتوا يتوزعون حالياً بين مجتمعين زراعيين رئيسيين، مجتمع الزراعة المروية ومجتمع الزراعة البعلية، ويتميز المجتمع الأول بأنه أكثر استقراراً وانتظاماً من المجتمع الثاني، وهذا يرجع إلى نوع الزراعة السائدة، وضخامة الرساميل المستثمرة في القطاع الزراعي المروي. إذ أن الزراعة المروية التي يشكل قطاع الأشجار المثمرة عمادها الرئيسي، تتسم بالثبات أما المجتمع الثاني فتسود فيه زراعة تقليدية منخفضة المردودية، لذلك يبحث العاملون فيها عن بدائل اقتصادية أخرى، دون توجيه أو تخطيط أو دعم من قبل المسؤولين عن القطاع.

إن الزراعة التصديرية في المنطقة الساحلية بدأت تشهد بعض التحولات على صعيد الأنواع المزروعة،فبعدما كان حوالى ٪60 من إنتاج الحمضيات يصرف في الأسواق السورية، وصلت سوريا الى شبه اكتفاء ذاتي، واما السوق الخليجية فكانت عرضة للمنافسة قبل احداث المنطقة الأخيرة من قبل الحمضيات التركية وحمضيات الضفة الغربية، وزاد

الطين بلة،عدم قدرة الإنتاج الزراعي اللبناني بشكل عام،على المنافسة نتيجة ارتفاع كلفة الإنتاج،وكلفة النقل بعد إغلاق المعابر البرية السورية(منفذ لبنان على الدول العربية المجاورة). لذلك بدأت تنتشر في سهول منطقة صور، إضافة الى االموز بعض: الزراعات البديلة ومن هذه الزراعات الآفوكا والقشطة والمانغو والنخيل.

ورغم ان هذه الزراعات كانت موجودة منذ زمن ، لكن مساحاتها كانت محدودة .أما اليوم فباتت زراعتها تزاحم زراعة البرتقال والحامض. كما استبدل عدد من المزارعين زراعة الاراضي المروية من الخضار المتعارف عليها، بالزعتر والقصعين والحلبة والبطاط الحلوة.

●- تربية الحيوانات :

باستثناء الدواجن، لا تسد تربية الحيوانات سوى جزء بسيط من حاجة لبنان الى اللحوم والألبان ومشتقاتها .أما الثروة الحيوانية في المنطقة فكانت موزعة على الشكل التالي: الأبقار ٪20 في الجنوب و٪17 في النبطية ، أما في تربية النحل فقد احتلت محافظة النبطية ٪16 من تربيته في لبنان والجنوب ٪11. وفي تربية الدواجن كانت حصة المنطقة حوالى ٪17 من أعدادها البالغة 45 مليون طير .

●-مشكلات القطاع الزراعي

وإلى ما يواجه القطاع الزراعي على مستوى السياسات الرسمية، أدى إغلاق معبر "نصيب" السوري عند الحدود مع الأردن العام الماضي (2015)، إلى تراجع الصادرات الزراعية بشكل دراماتيكي ،إذ كانت تمر من خلال هذا المعبر النسبة الأكبر من الصادرات اللبنانية إلى الدول العربية، وتحديداً دول الخليج، ما فاقم صعوبة تصريف الإنتاج. ولا نستغرب أن هذه التطورات باتت تهدد لقمة عيش نحو 400 ألف مزارع، ونحو 1.2 مليون شخص يستفيدون من هذا القطاع الحيوي. للصادرات اللبنانية

لكن ثمة نكسة تعرض لها المزارعون في هذا المجال، ذلك أن النقل بالعبارات اصطدم بغياب التنظيم وبارتفاع الكلفة، إذ يبلغ رسم عبور قناة السويس 100 ألف دولار لكل عبارة في كل عبور لها، أي أن كلفة الذهاب والإياب تبلغ 200 ألف دولار أميركي . ويؤمل للمعابر البرية أن تفتح قريباً ، ما يخفف من أزمة الإختناق التي يواجهها تصريف المنتجات اللبنانية وفي طليعتها الإنتاج الزراعي.هذا في حال توقفت المناكفات السياسية التي تعرقل ذلك.

ونحن نرى أن أزمة القطاع ستبقى ضاغطة،لانه يصعب على أية زراعة حديثة ان

تعـرف تطـوراً ملحوظـاً وتحقـق ّ اختراقـاً في ظـل غيـاب لأي تصـور اسـتراتيجي ودور واضـح المعـالم للدولـة بـكل مكوناتهـا ، والحصيلـة سـتكون زيـادة في مسـاحة الأراضي المتروكة، وسـيبقى التطـور ّ في الإنتـاج محـدوداً، يرافقـه عـزوف الشـباب والقـدرات الخلاقـة عـن الزراعـة، مما سـيجعل لبنـان يرتكـز أكثـر فأكثـر عـلى الاسـتيراد لتلبيـة حاجاتـه الغذائيـة بالنسـبة إلى كل المنتجـات ُ الزراعيـة حتـى تلـك التـي عـرف لبنـان كمصـدر أسـاسي لهـا. المزارعـون يصرخـون مـن ويـلات الانهيـار الـذي يصيـب مـورد عيشـهم، حيـث تغـرق الأسـواق اللبنانيـة بالمنتجـات الخارجيـة المشـابهة، عـن طريـق التهريـب، أو لأن أسـعارها منافسـة، بينـما لا يسـتطيع المزارعـون اللبنانيـون تصريـف إنتاجهـم في الأسـواق الخارجيـة، بسـبب المعوقـات الأمنيـة الناتجـة عـن الأحـداث في سـورية، أو بسـبب معوقـات قانونيـة تفرضهـا الـدول الأخـرى الشريكـة للبنـان، ولاسـيما الاتحـاد الأوروبي . لكـن مـع تراجـع الصـادرات اللبنانيـة لم تتوقـف عمليـات التهريـب مـن سـوريا ، فاسـتمر غـزو البضائـع السـورية للسـوق المحليـة عـبر المعابـر غـير الشرعيـة، مـا شـكّل ضغطـاً إضافيـاً عـلى المزارعـين اللبنانيـي

لقدإنضـم لبنـان الى إتفاقيـة تيسـير وتنميـة التبـادل التجـاري بـين الـدول العربيـة، وصـولاً الى إقامـة منطقـة تجاريـة حـرة عربيـة تتماشـى مـع إحتياجـات الـدول العربيـة كلهـا، إلا ان الدولـة لم تسـتغل هـذا الأمـر، إذ بقيـت الاسـواق الخارجيـة مقفلـة في وجـه الانتـاج اللبنـاني

لقـد واجهـت الزراعـة في لبنـان عـدداً مـن المشـاكل. ومـن نلـك المشـاكل التـي تواجـه هـذا القطـاع: الأسـاليب الزراعيـة القديمـة ، التـي تـؤدي لجـرف التربـة ،ونضوب **الميـاه الجوفيـة**، تلـوث الميـاه السـطحية واسـتخدام **مبيدات الآفات والتسـميد**غير الملائم،**وتلوث البيئة** جـرّاء الرمـي العشـوائي لمخلفـات المـزارع والمسـالخ. بالإضافـة لذلـك، فـإن المسـحة الزراعيـة تتقلـص بسـبب **التمـدن السريـع المتفشي**، وبشـكل خـاص في السـهول السـاحلية وبعـض مناطـق البقـاع

استراتيجية النهوض بالقطاع الزراعي و السياسة الزراعية

استراتيجية وزارة الزراعة للاعوام 2019-2015

حـددت اسـتراتيجية وزارة الزراعـة للأعـوام 2019-2015 رؤيـة الـوزارة بتنميـة قطـاع زراعـي يسـاهم في تحقيـق الأمـن الغذائـي بـما فيـه سـلامة الغـذاء والحـد مـن الفقـر والنـزوح والهجـرة وخلـق فـرص عمـل ورفـع كفـاءة الاسـتخدام الرشـيد للمـوارد الطبيعيـة وتعزيـز مسـاهمة الزراعـة في التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة

تعـد السياسـة الزراعيـة مـن أهـم الأليـات التـي تتبناهـا الدولـة لتوجيـه أنشـطتها الإقتصادية والإجتماعية.فهـي الحلقـة التـي تربـط بـين اسـتراتيجات التنميـة والخطـط اللازمـة لتطويـر القطـاع الزراعـي في إطـار تنميـة زراعيـة مسـتدامة. وتؤثـر السياسـات الزراعيـة في عـرض السـلع

الزراعيـة والطلـب عليهـا. وتعمـل عـلى إحـداث تغيـير في بنيـة القطـاع الزراعـي لغـرض تحقيـق نمـو القطـاع المذكـور

إن وزارة الزراعــة هــي الإدارة المســؤولة عــن صياغــة الإطــار الاســتراتيجي للقطــاع الزراعـي، ووضـع السياسـات والبرامـج العمليـة للنهـوض بهـذا القطـاع ووضـع الأطـر القانونية والتشريعيـة المنظّمـة لـه وتأمـين البنـى التحتيـة لتسـهيل عمليـات الاسـتثمار والإنتـاج والتسـويق وانخـراط أكـبر شريحـة ممكنـة مـن اللبنانيـين فيهـا..

ولكـن ،للأسـف لا توجـد سياسـة لبنانيـة رشـيدة لحمايـة القطـاع الزراعـي، لأن الانطبـاع الـذي غلـب عـلى الاهتـمام الحكومـي كان منجرفـا نحـو قطـاع الخدمـات، لأن قناعـة تولـدت لـدى غالبيـة المسـؤولين

أن لبنـان ليـس بلـداً زراعيـاً، وكلفـة الإنتـاج فيـه أعـلى بكثـير مـن الـدول المجـاورة .لكـن تطـور الأحـداث، لاسـيما موضـوع النـزوح السـوري، كذلـك الاختنـاق الاقتصـادي والبطالـة التـي تكبـل شريحـة واسـعة مـن اللبنانيـين، فرضـت إعـادة النظـر بالمقاربـة التـي تعتمـد عـلى تهميـش القطاعـات الزراعيـة

كذلـك فـإن تأثـر لبنـان بانهيـار القطـاع الزراعـي سـيكون كبـيرا، لأن الإحصـاءات الرقميـة للحركـة الاقتصاديـة، مازالـت تؤكـد أهميـة القطـاع بالنسـبة للبنـان

لـذا علينـا رسـم خطـط مسـتقبلية لتطويـر هـذا القطـاع الـذي يعتـبر القطـاع الثالـث مـن حيـث الأهميـة في دورة الحيـاة الاقتصاديـة اللبنانيـة بعـد التجـارة والسـياحة .

ولأن منطقــة جبــل عامــل لا تقــع في جزيــرة منعزلةعــن الدولة،لذلــك فــإن إرهاصــات السياسـة الإقتصاديـة المتبعة،التـي تتسـم بالليبراليـة المتفلتـة مـن أيـة قيـود أو ضوابـط، وسياسـة البـاب المفتـوح التـي فتحـت الأسـواق أمـام البضائـع الأجنبيـة بـما فيهـا الزراعيـة، هـي التـي أدت الى تقهقـر القطـاع الزراعـي.

ولأن المنطقـة تمتلـك أهـم سـلعتين زراعيتـين تصديريتـين، همـا الحمضيـات والموز،لذلـك فــإن أي انتكاســة في الســوق ســتؤدي الى عــدم القــدرة عــلى تصريــف الإنتــاج في الأســواق الخارجية،وسـتلحق بالمزارعـين أضراراً بالغة،وهـذا الأمـر ينطبـق عـلى مزارعـي التفـاح في المناطـق اللبنانيـة الأخرى،وعـلى مزارعـي الخضـار، وبالأخـص البطاطـا، لكـن الفـارق بـين الإسـتثمار في زراعـة الخضـار، هـو قـدرة مـزارع الخضـار عـلى تنويـع خياراتـه لناحيـة البحـث عـن زراعـة أخـرى بديلـة خـلال الموسـم القادم،وهـذا الأمـر غـير متـاح بسـهولة أمـام أصحـاب البسـاتين، لاسـتبدال زراعـة الأشـجار المثمـرة بزراعـات أخـرى بسـهولة.

إن الزراعــة في جبــل عامــل تتســم بخصوصيتهــا،إن مــن ناحيــة إنتــاج بعــض المحاصيــل الهامة،فالمنطقــة هــي الأولى والأهــم عــلى صعيــد لبنــان بمســاحة وإنتــاج الحمضيــات والمــوز والتبــغ والخــروب.

ونؤكد مجدداً أن الزراعة تواجه مشكلة تحول الأراضي الخصبة الى سلعة في سوق المضاربات العقارية،ونظراً لانخفاض مردود الإنتاج الزراعي وارتفاع تكاليفه، فإن الكثير من مالكي هذه الأراضي فضلوا بيعها،وتحولت من مناطق تكسو بعضها غابات الأشجار المثمرة الى غابات من الإسمنت، في ظل فوضى وعبثية في استنزاف هذه الثروة من الأراضي التي نخسرها الى الأبد، ولن تجدي عمليات الإستصلاح التي تتم في الأراضي الجرداء أوالقليلة الخصوبة في التعويض عنها.وهنا يبرز دور التنظيم المدني وتصنيف الأراضي الزراعية في الحد من هذه الكارثة الطبيعية والوطنية والبيئية.

يضاف الى ذلك تعرض القطاع الزراعي، وبشكل خاص في جبل عامل للإعتداءات الإسرائيلية المتكررة بين فترة وأخرى، حيث كانت تحرق المحاصيل والبساتين وتدمر البنى التحتية للزراعة والمزارع، حتى الرعاة وقطعانهم لم يسلموا من تلك الإعتداءات.

أما المشكلة الأكثر خطورة فهي تلوث مياه نهر الليطاني الذي من المفترض أن يعتبر شريان حياة للمنطقة،ولكنه تحول الى شريان موت في الوقت الحالي.وتلوثه الذي يشكل كارثة بيئية وصحية وإقتصادية تطال جميع اللبنانيين، وليس سكان جبل عامل، فقط. فالخضار من بطاطا وخس وغيرها، التي تروى بالمياه الآسنة التي تجري في النهر، نتيجة تصريف معظم مياه المجاري غير الصحية، من البلدات والقرى البقاعية،والمياه المبتذلة من مخيمات المهجرين السوريين،الذين تحرص الهيئات الدولية على سلامتهم وراحتهم، ولكنها في الوقت نفسه لم تأخذ بعين الإعتبار راحة وسلامة وصحة المواطنين اللبنانيين،عندما شبكت مباشرة مياه الصرف غير الصحي من مخيماتهم الممتدة في سهل البقاع على مقربة من مجرى النهر بمجراه دون أية معالجة.[1]

يضاف الى ذلك نفايات مسالخ الدجاج ومعامل الألبان ودباغات مشغرة،ومعامل الورق في قاع الريم، وغيرها الكثير.

وللجنوبيين يد طولى في تلويث مياه نهرهم، الذي ظلت مياهه حتى بداية السبعينيات صالحة للشرب من المجرى مباشرة. ولن ننسى دور المرامل التي كانت تحول مياهه الى مياه موحلة، كان يصعب على محطة مياه جبل عامل تكريرها،هذه المحطة التي تصب قريباً منها ،أيضاً مياه المجاري من بلدة ديرميماس.أما الإستراحات التي وضعت يدها على مجرى النهر، من جسر الخردلي شمالاً الى عين بوعبدالله والقاسمية غرباً، فهي قضت على كل ماتبقى من مياه نقية أوصالحة للإستخدام البشري. وباعتقادي، لن يجدي كثيراً تنفيذ القسم المتبقي من مشروع الليطاني لري مساحات واسعة من المنطقة وتامين مياه الشرب، مالم يتم منع تلك التعديات على مياه النهر كماً ونوعاً.

1 - بالمعنى الجغرافي الدقيق، السوريون المتواجدون على الأراضي اللبنانية، جراء الأحداث الأمنية في بلدهم،هم ليسوا بنازحين، بل هم مهجرون، لأن كلمة نازح تطلق على الشخص الذي ينتقل داخل بلده من منطقة الى أخرى، وغالباً من الريف الى المدينة.

وأخيراً، إن هذه المنطقة التي حباها الله بمزايا ومقومات طبيعيةرائعة، من مناخ معتدل، ومن تنوع طبوغرافي وتربة خصبة ومياه عذبة،تساعد على تنوع الإنتاج الزراعي وجودته، لم يستثمر سكانها هذه الهبات الطبيعية كما يجب، بل أنهم يقومون باستنزفها إماعمداً وإما عن جهل،ماجعلنا لا نتمتع بهذه النعمة التي منحنا إياها الله، كما يجب،ولم نحدث بها. (وأما بنعمةربك فحدث).

إقتصاد جبل عامل والهجرة



د. محمد يوسف فرحات

المقدمة :

إعتمـد إقتصـاد جبـل عامـل عـلى الطبيعـة والأرض بشـكل أسـاسي وطبيعـي إذ كان يعمـل في الزراعـة أكثـر مـن ٪90 مـن السـكان. لقـد كان الفـلاح العامـلي لا يقتـصر عملـه عـلى الزراعـة وإنـما يقـوم بنفسـه باعـمال حرفيـة اتخـذت مـن منتجـات نشـاطه الزراعـي مـوارد أوليـة لهـا. إلّا انّ هـذه الإقتصاديـات وكأي إقتصـاد شـبه إقطاعـي ظلـت مرتبطـة بالنسـق أو الإطـار أو النظـام أو القـوة التـي تحكمـت فيـه فبقـي متخلفًـا متهاويًـا إلى أبعـد الحـدود. وعـلى هـذا الأسـاس إعتمـدت الحيـاة الإقتصاديـة لجبـل عامـل عـلى الإكتفـاء الـذاتي لسـد بعـض تكاليـف المعيشـة الضروريـة إسـتنادًا عـلى الإنتـاج الزراعـي بالدرجـة الأولى والقيـام ببعـض الحـرف والتجـارة بالدرجـة الثانيـة وذلـك في ظـل العديـد مـن القيـود والصعوبـات التـي تعيـق مـن تطورهـا مثـل نـوع الملكيـة وطـرق إسـتثمارها طـرق المواصـلات الوسـائل البدائيـة في العمـل والأدوات البسـيطة المسـتخدمة وعـدم الخـبرة بأمـراض النبـات والحيـوان ومسـتلزمات الإنتـاج الحديثـة الأخـرى إضافـة إلى فقـير الفلاحـين وسـوء معاملـة جبـاة الضرائـب أو مالكي الأراضي وضآلـة الأسـعار وتعـرّض الكثـير مـن الأراضي للسـلب والنهـب بسـبب فقـدان الأمـن وأخـيرًا عـدم قيـام الحـكام بـما مـن شـأنه ان ينظّـم الـري وينعـش الزراعـة والأنشـطة الإقتصاديـة الاخـرى، ولا سـيما تطويـر الحِـرف البدائيـة والفطريـة المحكومـة بفقـر البـلاد إلى المعـادن والخضـوع لضرائـب باهظـة أو عـدم وجـود عـمال مهـرة ورؤوس امـوال لازمـة لتطويـر الصناعـة والزراعـة والحـرف والتجـارة وعـدم إسـتخدام الآلات والوسـائل الحديثـة المتطـورة في عمليـات الإنتـاج والإدارة. لذلـك تسـتعرض الفقـرة الأولى مـن هـذه المقالـة لمحـة تاريخيـة موجـزة عـن المحطـات الرئيسـة مـن تـارخ جبـل عامـل والتـي كان لهـا الأثـر المبـاشر عـلى واقعـه الإقتصـادي والإغـترابي.

بينما تبين الفقرة الثانية ظهور الأسر الإقطاعية والاستبداد في جبل عامل. والفقرة الثالثة تعرض دور الحكم المصري وسقوط الحكومات الإقطاعية ثم عودة العثمانيين. وتستعرض الفقرة الرابعة موضوع لبنان تحت الانتداب الفرنسي والفقرة الخامسة تختصر موضوع احتلال فلسطين واستقلال لبنان وأثر ذلك على اقتصاد جبل عامل والإغتراب. أمّا الفقرة السادسة فقد عرضت العوامل الإقتصادية الرئيسة في جبل عامل.

الفقرة الأولى : لمحة تاريخية موجزة عن المحطات الرئيسة لتاريخ جبل عامل .

يذكر المؤرخون[1] أنّ أصل تسمية جبل عامل يعود إلى هجرة قبيلة عاملة إلى هذه المنطقة وذلك قبل الميلاد بثلاثمائة وعشر سنوات ومن ثم إنتشارها في القسم الأعلى من جبال الجليل ثم في بلاد الشقيف من جنوب لبنان علماً بأن جبل عامل كان عرضة لموجات بشرية هجرت إليه في فترات تمثلت بقدوم البابليين والأشوريين والمصريين والفرس واليونانيين والرومان والبيزنطيين واليمانين وغيرهم وذلك إستناداً إلى كتب التاريخ وإلى الأثار الموجودة في المنطقة مثل الأعمدة والأجران والفؤوس والنواويس والقبور والكتابات بالإضافة للأقنية والقناطر التي تشير إلى الإهتمام بالزراعة ولا سيما الزيتون والخروب والتين والكروم العائدة للعصر الروماني على سبيل المثال لا الحصر.[2]

لقد مارس جميع من حكم من هؤلاء سياسة القمع وفرض الضرائب والسيطرة على مقدرات وخيرات وأبناء البلاد.

وبعد الفتوح الإسلامية ولا سيما بعد معركة اليرموك وفي أعقاب استلام بيت المقدس في العام 638م أصبحت المنطقة في صميم الاستراتيجية البحرية لولاية الشام والقاضية بإزالة قواعد البيزنطيين وفي طليعتها صور وعكا[3]. فزاد الإهتمام بالمدن الساحلية في العصر الأموي للدفاع عن حدود الدولة وإنتقلت صناعة السفن إلى صور فازدهرت المدينة وتطورت في المجالين الزراعي والتجاري وراج إنتاج الشعر في صور. واشتهر جبل عامل في حينها بعيون المياه وانتاج العسل والعنب والزيتون والفواكه[4].

لقد قضى جبل عامل بعد الأمويين ثلاثة قرون بإضطراب دائم بسبب تطاحن الأخشيديين والطولونيين والحمدانيين في أراضيه[5] وكذلك كان الحال أيام الفاطميين إلى أن غاب نفوذهم عن منطقة جبل عامل بعد استسلام صور للصليبيين في العام 1124م[6] وتصميم الصليبيين على فتح جبل عامل والتغلغل العسكري بداخله وإقامة القلاع والحصون المتعددة فيه والسيطرة عليه بواسطة جالياتهم العسكرية. إستمر ذلك الأمر حتى وقوع معركة حطين الفاصلة في تاريخ المنطقة في العام 583 ه حيث بدأ التراجع العسكري الصليبي وسيطر صلاح الدين الأيوبي إثرها على معظم المناطق العاملية خاصة صيدا وصور ومرجعيون وغيرها في العام ١١٨٨م .

بعد ذلك وفي عهد خلفاء صلاح الدين استرجع الصليبيون بعض ما فقدوه من مناطق إلى أن جاء المماليك في بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر وأجلوا الصليبيين بشكل حاسم عن المنطقة برمتها واصبحت منطقة جبل عامل ولبنان كله تحت الحكم المملوكي في العام 1291م والذي استمر حتى هزيمة المماليك أمام العثمانيين[7].

الفقرة الثانية : ظهور الأسر الإقطاعية والإستبداد :

ظهرت أسر اقطاعية من جبل عامل نفسه وصارت تحكم مقابل أن تدفع الضرائب للمماليك وتقدّم لهم ما هو مطلوب منها من جنود للخدمة العسكرية الإجبارية. ولم تخلُ هذه الفترة من معارك بين الإقطاعيين أنفسهم بدافع التفرد في حكم البلاد. واستمر الوضع على هذا الحال حتى العام 1516م حيث جاء الفتح العثماني للمنطقة وأحدث تغييرًا على الوضع السياسي والإقتصادي في جبل عامل لناحية بروز أسر إقطاعية جديدة تنافس القديمة على الزعامة السياسية. ولكن العثمانيين كرسوا النظام الإقطاعي الذي كان سائدًا أيام المماليك مع تحويله من إقطاع تعييني تديره الدولة في عهد المماليك إلى إقطاع وراثي جمّد الزراعة وأرهق الفلاحين واستغلهم إقتصاديًا وإجتماعيًا وسياسيًا أبشع إستغلال[8].

أما قمة الإستبداد والظلم الذي لاقاه جبل عامل فكان في عهد أحمد باشا الجزار الذي سخط على العامليين وعاملهم معاملة سيئة للغاية ووقعت بينه وبينهم وقائع عديدة انتهت بخضوع جبل عامل لحكم هذا الجزار. إلّا أن الجبل بقي متمردًا عليه بالرغم من جبروته التي كانت تدفعه للرد بمزيد من تخريب البلاد ونهبها وسلب خيراتها وقتل أبنائها وتهجير مشايخها وسكانها إلى الشام والعراق ومصادرة أموالهم وأملاكهم[9].

الفقرة الثالثة : الحكم المصري وسقوط الحكومات الإقطاعية ثم عودة العثمانيين:

بعد وفاة أحمد باشا الجزار تذبذبت العلاقة بين أبناء جبل عامل وخلفاء الجزار بين صلح ومناوشات إلى أن خضع جبل عامل للحكم المصري بعد حملة إبراهيم باشا في العام 1832م حيث أسقط كل الحكومات الإقطاعية التي كانت قائمة فيها وضم جبل عامل إلى إمارة حليفه بشير الثاني الشهابي.

تميزت الفترة الاولى للحكم المصري بالأمن وتطور ميادين التجارة وأصبحت مصر سوقًا لتصريف الإنتاج الزراعي لفلاحي جبل عامل. فجنت المنطقة ثروات كبيرة من تصدير التبغ والعنب والتين والقطن والحرير والزيت والأخشاب والسمسم وذلك عبر مينائي صيدا وصور.

لقد ازدادت أهمية الإنتاج الزراعي وتنوعه وزاد انتاج زراعة الحبوب مثل القمح والشعير والذرة ومختلف أنواع القطاني. وما يلفت الإنتباه في أواخر القرن التاسع عشر هو ازدهار زراعة التوت لتأمين المادة الأولية لتربية دود القز وصناعة الحرير في أوروبا وكذلك زراعة القطن في ساحلي صيدا وصور. هذا الأمر أدى إلى ضرب التنوّع المحصولي والإعتماد على محصول نقدي واحد توجهه شركات هدفها تغذية صناعة النسيج في أوروبا[10].

لقد انتهت فترة الحكم شبه الذاتي المباشر الذي عاشه العامليون والذي كان يعفيهم من الضرائب التي أحدثها الأتراك وذلك بعودة العثمانيين مجددًا للسيطرة على جبل عامل وتقسيمه إلى ثلاث قائمقاميات (صيدا وصور ومرجعيون) وسُلخ عنه جزين ومشغرة. فاستبد العثمانيون بالعامليين وضيقوا عليهم سبل العيش وقضوا على زراعة التبغ التي شكلت أهم مواردهم.

لقد تفاقم الإستبداد التركي نتيجة تصميمهم على تريك العرب وبدأت حملة الإعتراضات مترافقة مع سوء الأوضاع الإقتصادية والأمنية وحدثت هجرة واسعة من جبل عامل فأهملت الارض وأصبح معظمها بورًا واستمر ذلك الحال حتى الحرب العالمية الأولى التي زادت الأمور سوءًا وانتهت بهزيمة الدولة العثمانية ووقوع لبنان تحت الإنتداب الفرنسي في العام 1920م وضم جبل عامل إلى دولة لبنان الكبير[11].

الفقرة الرابعة : لبنان تحت الإنتداب الفرنسي:

ارتبطت الأوضاع الإقتصادية في البلاد بالإقتصاد الفرنسي وأقامت سلطات الإنتداب شبكة مواصلات لربط البلاد بالمرافئ التي تؤمن مصالح فرنسا[12] فنمت العديد من المدن التي كانت تلعب دورًا تجاريًا وسيطًا مثل النبطية صيدا صور بنت جبيل ومرجعيون. وكذلك فرضت هذه السلطات نظام المساحة على جميع الأراضي اللبنانية ولم ينفذ في حينها كما حدّدت الملكية العقارية في لبنان على أساس القوانين العثمانية السابقة مثبتة بذلك كل أنواع المخالفات السابقة مثل استيلاء كبار الملاكين الإقطاعيين على معظم الأراضي وأعطت لهذا الإستيلاء الطابع الحقوقي الرسمي[13]. ولكن رغم هذه القرارت التي اتخذتها سلطات الإنتداب والقوانين التي وضعتها فإن المزارعين حصلوا على بعض الأراضي كما يقول زين الدين (1984) "خاصة الأراضي الأميرية العثمانية التي استولت عليها سلطات الإنتداب وباعتها للفلاحين الذين أصبح بإمكان بعضهم إمتلاك الأراضي لأول مرّة. كما نجح نظام المغارسة في تحرير الفلاحين نسبيًا من السيطرة الإقطاعية وأصبح بإمكان الفلاح الذي يغرس الاشجار في أرض أحد الملاكين الإتفاق معه أن يملك ثلث أو نصف الأراضي بعد فترة وحسب نوعية الشجر المزروع".

أما ما قامت به سلطات الإنتداب على صعيد الري والزراعة فقد كان له آثار كبيرة على وضع الملكية العقارية. فالمشاريع التي تحققت شجعت على تغلغل راس المال المتراكم لدى كبار التجار في المدن والمغتربين والأطباء وغيرهم إلى هذه المنطقة الأمر الذي أدى إلى انهيار عدد كبير من الملاكين الصغار والإستئثار التدريجي لأولئك المتمولين بمعظم الأراضي في السهل الساحلي أو في الأماكن الخصبة[14].

لقد فتح الإنتداب الفرنسي البلاد أمام تغلغل الرساميل والإحتكارات الفرنسية مثل بنك سوريا ولبنان وشركات الاستيراد والتصدير وبعض الشركات الأخرى مثل احتكار زراعة التبغ وشرانق الحرير بغية تعزيز الزراعات الصناعية غير المرتبطة بحاجات السوق المحلية إنما بصناعة النسيج والتبغ في فرنسا. كما أدخلت سلطات الإنتداب نظاماً عقارياً جديداً كرس تحويل الأراضي الأميرية إلى ملكيات خاصة مما شجع على بيع الأراضي وتوظيف الرساميل في المضاربات العقارية في حين استمر انهيار الإنتاج الزراعي الذي بدأت بوادره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكذلك تراجعت الصناعات الحرفية لصالح تزايد استيراد ما تحتاجه البلاد من مواد أساسية وصناعية كذلك الأمر فقد استمر التراجع واضحًا على مرفأي صيدا وصور فتمادى الفرنسيون في عملية إفقاد هذين المرفأين دورهما التجاري التاريخي وانعكست أوضاع المرفأين على الحالة الإقتصادية والمعيشية في جبل عامل نتيجة فقدان المورد البحري الناتج عن تشغيل مراكبها الشراعية.

لقد شهد جبل عامل نتيجة سياسة الإنتداب الفرنسي ركود وتدهور الحالة الإقتصادية وتأزم الأوضاع المعيشية التي صمدت بفضل ترابط وتكامل جبل عامل بعلاقات وطيدة مع الداخلين السوري والفلسطيني وكذلك مع الأردن والعراق والعريش وغزة وغيرها. وشكلت بلدات النبطية وبنت جبيل والخيام وحاصبيا وسوق الخان وغيرها في حينها محطات للقوافل التي كانت تمر بين سوريا وفلسطين والساحل وأسواق تصريف لجزء مهم من المنتوجات القادمة من الداخل فقدّمت موردًا إقتصاديًا مهمًا للسكان قامت ركيزته على تبادل منتوجات محلية زراعية وحيوانية بشكل خاص. وفي المقابل فقد برز في هذه المرحلة ابان الحرب العالمية الثانية وقبل احتلال فلسطين عمليات تهريب نشطة جدًا عبر الحدود مع فلسطين وذلك بادخال المواشي والحبوب والألبسة والسكر والملح والصابون والكاز وغير ذلك واستمر هذا الأمر حتى خضوع فرنسا إلى المانيا في العام 1940م وما نتج عنه من إغلاق جزئي للحدود اللبنانية الفلسطينية الأمر الذي فاقم من نقص السلع الضرورية وارتفاع الأسعار وتدهور تسهيلات النقل والتوزيع وانخفاض قيمة العملة الوطنية مما ساعد على ازدهار السوق السوداء وزيادة نشاط عمليات التهريب على طرفي الحدود[15].

الفقرة الخامسة : احتلال فلسطين واستقلال لبنان :

أُصيبت التجارة العاملية بنكبة كبرى بعد احتلال فلسطين في العام 1948م لأن فلسطين كانت ميدان العمل الأساسي لأبناء جبل عامل كما أن فلسطينيي الشمال كانوا يشكلون مجموعة مهمة من الوافدين إلى الأسواق العاملية.

وفي الطرف النقيض فقد حصل ازدهار اقتصادي نسبي وقصير المدى بعد النكبة نتج عن حلول عدد كبير من الفلسطينيين في عدة قرى وبلدات عاملية وأدى ذلك إلى بعث حركة تجارية داخلية في المنطقة لم تستمر لأكثر من ست سنوات. لقد كان عددٌ كبيرٌ من هؤلاء أصحاب كفاءة علمية وفنية وإدارية وبعضهم كان من أصحاب رؤوس الأموال مما إنعكس إيجابًا على السوق المالي وعلى قطاع البناء والإيجارات خصوصًا.

تزامن مع هذه المرحلة حصول لبنان على استقلاله دون أن يتخلص من إرث الإنتداب وزاد اعتماده على السلع الأجنبية لسد حاجة السوق واصبحت فيه الصناعة والتجارة والحرف في مواجهة منظمة مع الإنتاج الجديد ومحكومة بعدّة عوامل أساسية تتحكم بها وتعيق تطورها مما دفع بالموارد البشرية والمادية المتواجدة في المناطق الفقيرة ومنها جبل عامل للإنتقال إلى العاصمة بيروت حيث يتلاحم الرأسمال اللبناني والفرنسي في المشاريع الكبرى. فتدفق النازحون من جبل عامل إلى العاصمة وتكدسوا في الضواحي ليشكلوا حزام البؤس حول بيروت. وقد ساعد على ذلك وجود أسباب سياسية وطائفية كون جبل عامل قد ألحق بلبنان الكبير دون ان يكون أساسيًا في الحكم بالإضافة إلى الأسباب الإقتصادية المتردية والأمنية المهددة من العدو الصهيوني. لقد ساهمت جميع هذه الأسباب في دفع القدرات العاملية المادية والبشرية إلى الإنجذاب باتجاه العاصمة. وهكذا تضاءلت نسبة المؤسسات الحرفية في المنطقة وتحوّل أصحابها إلى عمال مأجورين في المؤسسات الرأسمالية أو إجراء في الزراعة في أراضي بقايا الإقطاع أو في بساتين الأثرياء الجدد. أما من استطاع من حرفيي جبل عامل أن يغادر المنطقة وينقل رساميله منها إلى العاصمة فقد تمكن من تحديث انتاجه وتطويره ونعم بشروط أفضل لمقاومة المنافسة والإستمرار في الأعمال

وهكذا تطورت حرفة الدباغة والتقطير والمعاصر والميكانيك والأحذية والتجارة وغيرها.

حدث ذلك في ظل انعدام دور الدولة في مساعدة وتمويل الحرف والصناعات وسائر الأنشطة الإقتصادية في جبل عامل فاستفاد منها المصارف والمرابون بفرض معدلات عالية للفائدة على القروض وجنوا ارباحًا طائلة على حساب حاجة العامليين لتمويل احتياجاتهم الملحة.

الفقرة السادسة : العوامل الإقتصادية الرئيسة في جبل عامل :

يزخر جبل عامل بالعديد من العوامل الأساسية الكفيلة بالنهوض باقتصادياته فيما إذا استغلت بالشكل المطلوب والصحيح. فالموقع الجغرافي الهام للمنطقة يشكل نقطة التقاء بين سوريا ولبنان وفلسطين ويمتد في حدوده الغربية على ساحل البحر الأبيض المتوسط ويحوي مرافئ صيدا وصور والزهراني وعدلون والصرفند وغيرها. لكن دون الإستفادة منها ومن مميزات وصفات هذا الموقع وعدم الإهتمام به من قبل الدولة وسياساتها المتبعة حتى الآن.

أما الموارد الأولية المستغلة منها أو التي ما زالت دفينة تحت الأرض أو البحر مثل النفط ومناجم الحديد والنحاس والعنبر الأسود والأصفر وحجر النضيد ومناجم اللينيت والحجر الرملي والرخام وغيرها[16].

هذا بالإضافة لخصوبة تربة أراضي جبل عامل وملائمتها لشتى انواع المحاصيل بسبب تنوع المناخ ووجود كميات وفيرة من الموارد المائية المهمة. الّا أن هذه الأراضي لا تُستغل بالكامل وكما يجب في جزء كبير منها ومعظم المياه تذهب هدرًا رغم انها تكفي لارواء جبل عامل بكامله وتستطيع أن تؤمن قوة كهربائية مهمة تحل مشكلة الحاجة إلى الكهرباء وتساعد على التصنيع وتخلق مجالات عمل حيوية تعود على الزراعة والصناعة وغير ذلك فيما لو استغلت بالشكل الملائم. فلا البر أُحسن استغلاله ولا المياه التي يشكو الجنوب من العطش في ظل هدرها ولا البحر استغل لصناعة صيد الأسماك وغيرها.

ولما كان الاستثمار في المشاريع يحتاج إلى التمويل واليد العاملة الماهرة فإن الأموال المتوافرة بايدي فئة نجحت في الحصول على ثروات لابأس بها في ديار الإغتراب أو من أعمالها المحلية الناجحة لم تسخّر في مشاريع انتاجية في ظل غياب أي حماية لأصحاب المشاريع من جشع النافذين في السلطة أو في ظل غياب المساعدة الحكومية أو المصرفية نتيجة غياب سياسة اقتصادية مناسبة فذهبت تلك الأموال نحو قطاعات غير انتاجية كان في طليعتها المضاربة العقارية وتشييد المباني الفخمة أما اليد العاملة فإنها متوافرة رغم الهجرة الكثيفة من جبل عامل أو النزوح إلى المدن الرئيسة والعاصمة.

أما الشرط الضروري والكافي لإحداث النهضة الإقتصادية المنشودة فهو الاستقرار الأمني والسياسي الذي لعب وما زال يلعب دورًا مهمًا في عملية ردع تحفيز النشاط الإقتصادي في شتى القطاعات وزاد من موجة الهجرة والنزوح فلم يكن مؤاتيًا للإستثمار على العموم طوال تاريخ المنطقة ولا سيما بسبب الحروب والاعتداءات الصهيونية المتكررة التي غالبًا ما دمّرت البنى التحتية والمنشآت الحيوية والصناعية وحتى الزراعية. انّ الخوف من النتائج السلبية لاستثمار رأس المال في جبل عامل وقف حائلًا في وجه أي توجه في هذا السبيل. لذلك تقع على الدولة مسؤولية توفير الأمن وردع الإعتداءات بمنتهى الجدية والمسؤولية.

الخاتمة :

إن اقتصاد جبل عامل والهجرة لا يمكن فصله عن تاريخ جبل عامل السياسي والإقتصادي والإجتماعي ذلك التاريخ الذي لا يمكن فصله عن تاريخ المحيط العربي والإرتباط الوثيق والدائم بالمناطق المحيطة ولا سيما ولايات دمشق وصيدا وعكا وبيروت والإمارة الشهابية. إذ يشكل جبل عامل إمتدادًا جغرافيًا ومخزونًا بشريًا لمحيطه المجاور له. كما ان التطور الإقتصادي في جبل عامل لا يعني فصل هذه المنطقة عن الداخل اللبناني إنما هناك بعض السمات والمميزات التي ميزت هذا التطور في هذه المنطقة.

أما اليوم وبرغم العديد من المكتسبات التي تحققت على صعيد المشاركة الفعلية والفعالة في السلطة وإقامة العديد من المشاريع الخدمية والبنى التحتية الجيدة فلا زال إهمال الدولة واضحًا والحرمان قائمًا في جبل عامل اسوة بالأطراف في لبنان ومردُّ ذلك الإستمرار بالمركزية الإدارية وعدم التوزيع العادل للمشاريع والثروة بين مناطق لبنان لا سيما تلك المناطق التي عانت من الحرمان المزمن وتعرّضت للعديد من الاعتداءات المدمرة وكانت الدرع الذي يحمي الوطن. فجبل عامل اليوم والنهضة العمرانية التي شهدها جاءت بفضل ابنائه الذين نجحوا في اعمالهم في المهجر أو في الداخل أو الذين انكبوا على طلب العلم إلى أعلى درجاته أو الذين بذلوا الجهود المضنية والتضحيات العزيزة رغم ظروفهم الصعبة ولم يبخلوا. لقد ساهم العامليون في تحديث بعض قطاعات الإنتاج القديمة وأسسوا قطاعات انتاجية جديدة وحدّثوا مدنهم وقراهم وكان لذلك الأثر الكبير في تحريك العجلة الإقتصادية .

وبرغم هذه النهضة المعاصرة لا زال الكثير من العامليين يشكون شحة الماء رغم وجودها انقطاع الكهرباء رغم امكانية توفرها البطالة المخيفة وعدم وجود فرص عمل في ظل غلاء المعيشة وارتفاع كلفة التعليم والطبابة ورعاية الشيخوخة... الخ. ذلك كله وأكثر من ذلك بكثير ... برغم غنى المنطقة بالموارد الطبيعية والبشرية المتنوعة وغير المستغلة لما فيه خدمة الإقتصاد الوطني وتحقيق الرفاه الإجتماعي للمواطنين.

المراجع

1- محمد كاظم مكي الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل دار الأندلس بيروت 1963 ص10.

2- غادة أبو النصر تاريخ الزراعة القديمة ط1 المطبعة الوطنية بيروت 1960 ص33 .

3- محمد كرد علي خطط الشام ج1 دار العلم للملايين 1966 ص21 .

4- علي زين الدين الزراعة في لبنان - واقعها وآفاق تطورها ط1 دار النصر بيروت 1884 ص25 .

5- محسن الأمين أعيان الشيعة الجزء الأول القسم الثاني بيروت 1960 ص240 .

6- أرنست باركر حروب الصليبيين ترجمة دار السيد الباز العريني ط2 دار النهضة العربية بيروت ص44 .

راجع أيضًا : فيليب حتى لبنان في التاريخ ترجمة أنيس فريحة دار الثقافة بيروت 1959 ص348 .

إبراهيم بيضون صفحات من تاريخ جبل عامل دار الفارابي. بيروت 1979 ص16.

7- مصطفى بزي التكامل الإقتصادي بين جبل عامل ومحيطه 1850- 1950 دار المواسم بيروت. 2002م ص 22-21 .

8- علي زين الدين مرجع سابق ص362 .

9- مصطفى بزي مرجع سابق ص25 .

10- خليل إسماعيل تاريخ جبل عامل الإجتماعي ما بين 1860-1920 رسالة ماجستير الجامعة اللبنانية 1986 ص92 .

11- مصطفى بزي مصدر سابق ص28 .

12- أحمد بعلبكي الزراعة اللبنانية وتدخلات الدولة في الريف منشورات البحر المتوسط وعويدات بيروت - باريس 1985 ص16 .

13- مسعود ضاهر الحدود التاريخية للمسألة الزراعية 1900 - 1950 منشورات الجامعة اللبنانية بيروت 1983 ص26 .

14- علي زين الدين مصدر سابق ص31 .

15- مصطفى بزي مصدر سابق ص ص 88 - 90 .

16- Cuinet – Vital “Surie Liban et Palestine” Geographie administrative Paris Editeur 1986 – 1901 P.36

المحور السادس:
الواقع الأدبي في جبل عامل



لطالما كان الشّعر وكلّ جهد أدبيّ في جبل عامل، منبرًا معبرًا عن إلتزام أهل هذا الجبل وعلمائه وفقهائه ونخبه بقضايا جبل عامل. فالعامليّ ثائر بطبيعته، مقاتل بفطرته، معتمد على شجاعته، ويرجع ذلك إلى العلماء وريادتهم، فعلى الرّغم من سوط الجلاد الذي لا يعرف الرحمة أبدًا، وعلى الرّغم من التّعسّف والاضطهاد، وصولًا إلى حد قتل الأبرار من العلماء، ما نضب قلم الأعلام في جبل عامل أبدًا، وما جفَّت كلمات الوعي والإرشاد. وقد تطورت الحركة العلميّة والفكريّة في جبل عامل، عندما توافد العامليون إلى العراق وإيران طلبًا للعلم. هؤلاء العلماء أدّوا دورًا كبيرًا في نشر الوعي بين العامليين وبثّ الرّوح الجهاديّة المقاومة .

سيدير هذا المحور المتعلّق بالواقع الأدبي في جبل عامل مفكر، فيلسوف ، ورجل اجتماع ومحلّل سياسيّ، أديب مميز وشاعر، عنيت به الأستاذ الدّكتور محمد شيا، عميد سابق لمعهد العلوم الاجتماعيّة . له مؤلّفات وأبحاث عديدة في جميع الميادين الفكريّة . شارك في مؤتمرات متعدّدة داخل لبنان وخارجه. (أ. علي جوني)

رئيس الجلسة



عميد معهد العلوم الاجتماعيّة السابق: د. محمد شيا

السيّدات والسادة

أعضـاء الهيئتـين الإداريتـين في «هيئـة تكريـم العطـاء المميّـز» و«التجمـع الوطنـي للـتراث والبيئـة»، ممثلتـين بالدكتـور كاظـم نورالديـن **ورفاقـه**، والأسـتاذ أنطـوان أبـو جـودة **ورفاقـه**.

لأن الزميـل والصديـق والأخ كاظـم نورالديـن رغـب إلي أن أديـر الجلسـة السادسـة **مـن مؤتمركـم العامـلي الثـاني** المخصصـة لـلأدب والثقافـة في جبـل عامـل الحديـث، سـيكون مناسـبًا كـما أعتقـد أن أفتتـح الجلسـة الأدبيّـة ببعـض الشـعر – ولسـت بالشـاعر المحـترف بـل الهـاوي – أقدّمـه هديـة قلبيّـة منـي للدّكتـور كاظـم وصحبـه الميامـين في النبطيـة والجـوار. أقـول:

أتيتُكُـمُ بقـلبٍ مـن حنينٍ ... أقدّمـــه لعاملـــة هديّة

حملتُ إليكُمُ شوقي وحبّي ... وإيماني بأرض النبطـــية

فيا أصحاب ماضيّ ودربي ... وحرّاس ما بقيت قضية

سنبقى كـما كـنّا رفـاقـًا ... ونمضي في مواقفنا سويّة

السيدات والسادة

إذا كانـت محـاور الجلسـات الخمـس السـابقة تناولـت بحـق جبـل عامـل التنميـة والاقتصـاد والاغـتراب والتّاريـخ والجغرافيـا مهمّـة كلّهـا، لكـن شـيئًا مـن ذلـك، عـلى أهميتـه، لا يـداني أهميـة المكـوّن الأدبيّ والثقـافيّ عمومًـا باعتبـاره ماهيـة جبـل عامـل بـل وجوهـر وجـوده.

جبـل عامـل التاريـخ والجغرافيـا والسياسـة والاقتصـاد والحرمـان والاضطهـاد هـو كسـواه مـن المناطـق اللبنانيـة بـل والعربيـة الطرفيـة، أو الأقلويـة؛ هـو يشـبه سـواه مـن المناطـق، ولا يتميّـز عنهـا إلا بالقليـل – إذ لا تجربـة تشـبه تجربـة أخـرى بالكامـل عـلى الإطـلاق.

لكـن جبـل عامـل الثقافـة (الأدب المكتـوب، والشـعر عـلى أشـكاله وأنواعـه، والروايـة، والمسرح، والموسـيقى، والرسـم، والنحـت، وسـواها مـن الفنـون) أمـر مختلـف تمامًـا، ومتميّـز كليًـا، وهـو هنـا لا يشـبه إلا ذاتـه.

كيـف لا وقـد قيـل إنّ جبـل عامـل مكتبـة لبنـان بأكملـه، وإنّـك كلّـما أزحـت فيهـا شـلح غـار وجـدت تحتـه شـاعرًا مجيـدًا، وهـم بالعـشرات وموضـع إعجابنـا. عرفـت شـعر أصدقائي الشـعراء العامليـين الجنوبيـين يـوم كنـا رفاقًـا عـلى مقاعـد الدراسـة في الجامعـة اللبنانيـة، فقـد حملـوا همـوم اللبنانيـين جميعًـا، ومـا أكثرهـا، والوطنيـين عـلى وجـه خـاص، وأضافـوا إليهـا همـوم الجنوبيـين ومعاناتهـم في وجـه الاعتـداءات الإسرائيليـة والحرمـان الداخـلي. بـل تجـاوز الشـعراء الجنوبيـون حـدود الوطـن نحـو العروبـة الأوسـع، فحملـوا في شـعرهم معانـاة الشـعب الفلسـطيني، ونبـض الشـعب الجزائـري، وآمـال العـرب جميعًـا وهـم يحتفلـون بالحقبـة الناصريـة، وسـواها. وحملـوا همـوم الإنسـانية الأبعـد، فلـم يتركـوا قضيـة إنسـانية محقـة إلا وناصروهـا وأنشـدوا بـل غنـوا لهـا، وبلغـت أناشـيدهم وأغانيهـم قلـوب اللبنانيـين والعـرب جميعًـا. ولطالمـا صفقـت أنـا شـخصيًا، وسـواي، منـذ نهايـة السـتينات للمرحـوم موسـى شـعيب، وللزمـلاء الأحبـاء محمـد العبـدالله، حمـزة عبـود، شـوقي بزيـع، جـودت فخرالديـن، لامـع الحـر، وعـشرات غيرهـم. ولطالمـا قرأنـا لأحمـد عـارف الزيـن، وعبـد اللطيـف شرارة، وحبيـب صـادق، وأحمـد سـويد، وياسـين سـويد، وخليـل أحمـد خليـل، وحديثًـا لعـلي شـعيب، وابراهيـم بيضـون، وأحمـد بيضـون، وعدنـان الأمـين، وعـلي فاعـور، وفهميـة شرف الديـن، وأحمـد بعلبكـي، وعصـام نورالديـن، وكاظـم نورالديـن وعـشرات تضيـق بهـم الصفحـات مـن الزمـلاء والزميـلات المبدعـين والمبدعـات وفي كل بـاب ثقـافي وعلمـي.

لقـد قـرأت طويـلًا ولا زلـت أقـرأ إلى الآن في الكتـاب العامـلي الكبـير، لقـد أثّـر فينـا طويـلًا وتأثرنـا بـه حقًـا، ولا أظـنّ مثقفًـا لبنانيًـا حقيقًـا لم ينهـل مـن الكتـاب الجنـوبيّ العامـليّ، ولم يتأثـر بـه في قليـل أو كثـير. وعليـه، فقـد أصـاب مؤتمركـم الثـاني وبحـقّ حـين جعـل لـلأدب العامـلي جلسـة كاملـة، وسـيتحدث المنتـدون باختصـار لأن السـاعات الطـوال لا تكفـي للإحاطـة بكامـل التجربـة العامليـة الثقافيّـة.

مبـارك مؤتمركـم، ومثمـر جهدكـم، وخـيّر زرعكـم، وهـو قـد آتـى وسـيؤتي دائـمًا ثـماره القيّمـة في كل آن، وبـاب، ومـكان. ولا أعتقـد أن النجاحـات الجنوبيـة البـارزة، ومنهـا سـطوع نجـم المقاومـة الوطنيـة أولًا، ثـم بعدهـا الإسـلامية، كانـت لـترى النـور لـولا المنـاخ الجنـوبيّ العامـلي الثقـافيّ عـلى وجـه التحديـد. فالثّقافـة هـي الحصـن الأخـير للقيـم الوطنيّـة والاجتماعيّـة والإنسـانيّة.

شـكرًا لتشريفـي برئاسـة هـذه الجلسـة، وإلى المزيـد مـن العطـاء ومـن تكريـم المعطائـين في الثقافـة.

مجلّة العرفان
(صفحة مضيئة في تاريخ جبل عامل الثقافي)



د. يحيى شامي

الشيخ العارف

قال بولس سلامة:

«سيأتي يوم تنهار فيه قلعة صيدا، ويتراجع البحر بحكم الزمن، وتطفو الرمال على أنقاضها، وتعفو الرياح آثارها... أجل، تنمحي القلعة التي لمعت الأسنّةُ بين جدرانها زمنًا، وتفجّرت المدافع مِن كُواها أزمانًا، وتبقى مجموعة العرفان بين أيدي النّاس.. يموت السيف ويعيش القلم.»

وفي رثاء صاحب هذه المجموعة التي هي العرفان، يقول ثانيةً:

أزف الليلُ، يا شهيد الجهادِ	فتنعّمْ بهجعة الآبادِ
يا منار العرفان والجهل داج	ويراع الأحرار في الأصفادِ
قد بعثت البيان في ليلة القدر	على حرقة الشفاه الصوادي
صنتَ للضاد حرمةً حيث شعّتْ	دولة الحرف والزمان الغادي[1]

وقال عبد العزيز سيّد الأهل:

«حُقّ لصيدا أن تفخر باثنتيْن: قلعتها وعرفانها. أمّا القلعة فتتحدّث بالفخر مرّةً، وتُمسك مرّةً حديث ذكرياتٍ مكرّرًا معادًا، ولن يكون لها مهما جدّدت أثر مِن منفعة جديدة؛ وأمّا العرفان فهي المنبع الفيّاض الذي لا يغيض، سحابًا ودرًّا يقذف بهما كلّ يوم. ومهما قدمت العرفان فإنّها كنز من الذهب الثمين، فابحثْ عنها، وقلّبْ صفحاتها وسترى في كلّ

قديم منها شيئًا فريدًا ونفعًا جديدًا.»[1]

بمثل هذا البيان الأدبي الناصع من النثر خاطب عبد العزيز سيّد الأهل صيدا وقلعتَها وعرفانها، وبمثل ذلك البيان الأدبيّ الرفيع والآسر في آنٍ، من الشعر، خاطب بولس سلامة مجموعة العرفان، بل قلْ مجلة العرفان، وخاطب صاحبها من الشعر راثيًا.

فمن هو هذا الرجل الصحفيّ الألمعي، أو الصحافيّ، وما هي تلك المجموعة من العرفان التي طار ذكرها في الآفاق، ذلكم هو الموضوع الأساس الذي تدور حوله تفاصيل هذا البحث الذي أسميته:

(مجلة العرفان: صفحة مضيئة في تاريخ جبل عامل الثقافي)

آملًا أن يكون موضع اهتمام الدارسين أو الباحثين الغيارى على الثقافة والتراث العامليّيْن، ولِمْ لا أليست العرفان التي وإن انقطع صدورها منذ نيّفٍ وعشرين عامًا، لّما تزلْ حاضرة في الذاكرة وفي الوجدان؟

ثمّ أليست الصحافة التي هي رسالة، وهذا ما يجب أن تكون عليه في الأصل، وجهًا من وجوه رقيّ الأمم وتقدّم الشّعوب، وهذا ما كانت قامت به العرفان من قبلُ، في مواجهة مظاهر التخلّف والجهل الذي ساد زمنًا في بلاد عامل من قبل أن ينبلج فجرُ الحريّة ويزحف الحرف إلى كلّ بيتٍ من بيوت عاملة حاملًا معه مشعل الكرامة، ونبراس المعرفة التي هي بكلمة واحدة، وعي الذات، ونتاج من نتاجات تفاعل الفكر والقيم، معرفة توائم بين الماضي والحاضر وتجمع بين الأصالة والحداثة، وهل مفتاح الذات الواعية سوى الثقافة والمعرفة، فإن سُلبت هذه وتلك استُلبَ الوعي بالذات، وذهبَ ريحُ الأمّة التي سوف لن تجدَ لها مكانًا تحت الشمس تأخذ كلّ شيءٍ استجداءً دون أن تعي أنّ لها شيئًا تعطيه، وهذا ما كان تحاشى الوقوع فيه، واستشعر خطرَه الشيخ العارف، مؤسّس أوّل مجلة إسلامية شيعيّة عربيّة عامليّة، هي مجلّة العرفان.

سيرة ذاتية موجزة

رجلُ أدبٍ وعلمٍ ودينٍ، ورجل عقيدة وطنيّة راسخة وجهاد متواصل، ورائد من روّاد الصحافة اللبنانية الذين ما كان همّهم إلّا الإصلاح ومحاربة الجهل، وجمع كلمة الأمة، وتعظيم شأنها والتغني بأمجادها ونشر أخبارها ورفع مستوى نهضتها العلمية والأدبيّة والفكريّة والثقافيّة، صاحب ومؤسّس مجلة العرفان التي لولاها، وعلى حدّ تعبير السيد محسن الأمين، ما تخرّج عليها في بلاد عاملة من شاعر مجيد، أو كاتب سديد، أو عالم رشيد، كشفت عن كنوز خبيئة من الأدب الرفيع ما كانت لولاها لِتظهر، وما كان أصحابها ليعرفوا.[2]

1 - نفسه، ص 55
2 - العرفان، عدد ممتاز، ص 3

إنّـه الشـيخ أحمـد عـارف، واختصـارًا، وهـذا مـا عُـرف بـه واشـتهر، إنّـه الشـيخ عـارف بـن علي بـن سـليمان بـن زيـن الديـن بـن يوسـف الخزرجـي الأنصـاري العامـلي الشـحوري، نسـبة إلى بلـدة شـحور العاملية، حيـث وُلـد، الصّيـداوي، نسـبةً إلى مدينـة صيـدا التـي كانـت محـطّ رحـال أسرتـه التـي وفـدت عليهـا طلبًـا للعمـل والارتـزاق، هـذا، لجهـة الأب، أمّـا لجهـة الأمّ، فأمّـه شـاه زنـان العسـيرانيّة، نسـبةً إلى عسـيران، إحـدى أقـدم الأُسر الشـيعية القادمـة مـن بـلاد فـارس، فاسـتوطنت بـلاد عاملـة، وتحديـدًا مدينـة صيـدا، ثغرُهـا المطـلّ عـلى الأبيـض المتوسـط.

إذًا، في بلـدة شـحور العامليّـة، غـرّة شـهر رمضـان المعظّـم مـن سـنة 1301هــ– 1881م، وُلد الشـيخ عـارف فتلقّـى مبـادئ الدراسـة عـلى يـدِ والـده وفي كتّـابٍ متواضـع عـلى يـد أحـد شـيوخ البلـدة، **ولمّـا أن** انتقـل أفـراد الأسرة إلى صيـداء تابـع دراسـته في المدرسـة الرشـيدية الصيداويـة، ثـمّ في كلٍ مـن مدرسـة النبطيـة الرسـمية والمدرسـة الحميديـة التـي كان أسّسـها المغفـور لـه السـيّد حسـن بـن السـيد يوسـف بـن السـيد إبراهيـم الحبّـوشي والمتـوفّى سـنة 1906م ومـن هـذه المدرسـة تخـرّج العديـد مـن الأعـلام العامليـيّن، وفيهـا درّس نخبـة مـن الأعيـان والأدب مـن أمثـال كلٍّ مـن الشـيخ سـليمان ظاهـر والشـيخ أحمـد رضـا، أحـد أعضـاء مجمـع اللغـة العربيـة بدمشـق.[1]

لم يطـلْ المقـام بمترجمنـا الشـيخ في النبطيـة فانتقـل ثانيـة إلى صيـدا ليواصـل دراسـته عـلى يـد كلٍّ مـن العلامتـيْن محيـي الديـن عسـيران، ومنـير عسـيران، جامعًـا إلى دراسـته بالعربيّـة بعـض دراسـات أخـرى بالفرنسـيّة والإنكليزيّـة فضـلًا عـن التركيّـة والفارسـيّة[2].

الشيخ الصحافيّ:

منـذ أن راح يطـرق أبـواب العلـم، وإلى جانـب ثقافتـه الدينيـة الحوزويّـة والأخـرى المسـتقاة مـن الاطـلاع عـلى العديـد مـن الكتـب التراثيـة والحداثيـة، ظهـر ميـلُ الشـيخ الجامـح إلى قـراءة مـا جـاء عـلى أقـلام الكتّـاب مـن الذيـن كانـوا ينـشرون مقالاتهـم ونتاجهـم الأدبيّ والفكـريّ في العديـد مـن الصحـف أو المجـلات التـي كانـت تصـدر في زمانـه، وإنّ منهـا عـلى سـبيل المثـال، لا الحـصر، كلًّا مـن المقطـم والمقتطـف والرسـالة والأهـرام التـي كانـت تصـدر في مـصر، والمنـار والمفيـد والاتحـاد العثـماني وحديقـة الأخبـار التـي كانـت تصـدر في لبنـان، فوضـع الشـيخ العـارف نصـب عينيـه هدفًـا سـاميًا يخـدم بـه وطنـه وبـلاده العامليّـة عـلى وجـه الخصـوص، وقـد تمثّـل هـذا الهـدف بتأسـيس أوّل مجلّـة عربيّـة أدبيّـة علميّـة تكـون صفحاتهـا مشرعـة لأقـلام الأدبـاء والشـعراء ورجـال الفكـر عامليـين وغـير عامليـين، وهـذا مـا تحقّـق بالفعـل يـوم أن كانـت الطباعـة صعبـة، والـورق نـادرًا، والاتصـال بالعـالم الخارجـي صعبًـا أيضًـا، وإذ في صبيحـة يـوم

1 - فرحات، هاني: الثلاثي العاملي في عصر النهضة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1918 ص -175 177
2 - حميّد، أيوب: الشيخ أحمد عارف الزين، ص 74. منشورات مجلّة العرفان

من أيام شهر محرّم من سنة 1327هـ - 1909م وفي صيداء مدينة أشجار الليمون وأزهار البساتين، قاعدة الجنوب الأولى، وعلى أثر صدور مجلّة المرج المرجعيونيّة التي كان أصدرها كلٌّ من أسعد رحّال ودانيال زغرب، أشرقت شمس مجلّة ثانية عربية عاملية هادفة اختار العرفان اسماً لها شيخنا العارف فصدر العدد الأوّل مزداناً بعنوانيْن ثانويين صغيرين اثنين عن اليمين وعن الشمال، أحدهما آية قرآنيّة مباركة هي: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، والثاني حديث مأثور هو: «تعلّم العلم من المهد إلى اللحد».

لله درّك، أيّها الشيخ العارف، وما أجلّ معروفك وأحسن صنيعك، وبالله عليك، أيّ مركبٍ صعبٍ ركبت وأيّ عملٍ جبّارٍ أقدمت عليه في ذلك الزمن الذي كان العامليّون، وأخصّ منهم بالذكر شيعة أبي ذرٍ الغفاريّ ما انفكوا يعانون الكثير من الحرمان، ومن ظلم ذوي القربى، واستبداد الأتراك.. ماذا؟ الآن زميليْك المرجعيونيّيْن المسيحييْن كانا سبقاك إلى هذا الإنجاز، وهذا ما لا يمكن تصوّره أو تصديقه، إذ من غير الممكن إنجاز مثل هذا العمل في أيام معدودات من صدور مجلة المرج المرجعيونيّة، أم لأنّك وأنت الغيور على أبناء جلدتك، كنت منذ نعومة أظفارك السبّاق إلى النهوض بهم من وهدة الفقر وحضيض الجهل إلى أوج المعرفة، وهذا هو الأصح، ألست أنت القائل في أوّل عدد من أعداد مجلتك العرفان:

«منشىء هذه المجلة منذ نعومة أظفاره، وهو يتوق لإنشاء صحيّفة يتمكن بها من خدمة أمته ووطنه، إذ كلّ امرئٍ ميسّر لما خُلق له والآن وقد قيّد الله لنا ما نتمناه، والأمور مرهونة بأوقاتها، فأنشأنا هذه المجلة على اعتراف لنا بالعجز والتقصير ودعوناها العرفان، ولكلّ مسمّى من اسمه نصيب.»[1]

ثمّ، ألست أنت أيّها الشيخ الجليل، من أفصحت عن الغاية التي رميت إليها من وراء تأسيسك لهذه المجلّة، وهي لَعمري، غاية وطنيّة شريفة تخدم الوطن وتحقّق أمانيّ الأمّة في وجوب نشر العلم والأدب والالتزام بالخلق القويم والحثّ على التقدم العمراني والاجتماعيّ ، كما جاء في مقالتك التي افتتحت بها المجلّد الثاني من مجلدات العرفان، وفيها تقول:

«غايتنا التي نرمي إليها، وخطتنا التي نسير عليها، نشر العلم والأدب وتقويم الأخلاق وتطهير النفوس من الأرجاس والخوض في غمرات المباحث الاجتماعيّة والعمرانية.»[2]

ولقد أفصحت أكثر فأكثر فيما بعد، عن غايتك، وعمّا كان يساور الأحرار من أبناء وطنك وجلدتك وطائفتك، بل مذهبك الذي إليه تنتسب من توقٍ إلى الحريّة وأخذٍ بزمام العلم والمعرفة ونهوض من كبوة الجهل وتبيان لصحّة ما عليه أتباع المذهب الحقّ بخلاف

1 - العرفان، مجلد 1، ج 1، ص 3
2 - العرفان، مجلد 2، ج 1، ص 2

ما تقوّله عليهم المتقوّلون، وما أرجف به عليهم المرجفون من المتعصبين إذ تقول:

«انصرفتُ إلى إنشاء هذه المجلّة لأنّي رأيتُ الوطن بحاجة ماسة إلى ذلك، وخصوصًا الطائفة الشيعية، فإنّه لم يكن لها حينئذٍ صحيفة تنشر اعتقاداتها الصحيّحة وتترجم مشاهير رجالها وتدفع ما يتقوّله الجاهلون عنها..»[1]

أجل، أيّها الشيخ الجليل العارف، وأنت الذي تنتسب إلى هذا الوطن، وتحديدًا إلى هذه البقعة العامليّة المباركة، وإلى هذه الطائفة المحقّة المظلومة التي سامها الأتراك ومن كان قبلهم، ألوانًا شتّى من الظلم والاضطهاد والتعصب والتهميش وحالوا دون تقدّمها ورقيّ أبنائها ودون الأخذ بأسباب الحضارة والعلوم، لَيعزّ عليك، ويحزُّ في نفسك أن تبقى على ما هي عليه، فما رأيناك إلّا مشمّرًا عن ساعدك منبريًا بكلّ همّة وصدق وإخلاص لتكون صاحب أوّل مؤسّسة إعلاميّة عامليّة تتسع صفحاتها لجميع الأقلام الحرّة والجريئة الداعية إلى التحرّر من ربقة الأميّة وأسر الجهل ونير الاستعباد وإلى التمسك بأهداف القيم الدينية والخلقية، وهل الأمم إلّا الأخلاق على حدّ تعبير أمير الشعراء وهل كانت بعثة النبي الأعظم (ص) إلّا تتميمًا واستكمالًا لمكارم الأخلاق، وهل كان تعريف الشيخ العارف بعنوان أوّل عدد من أعداد مجلته إلّا ما ذيّل به عنوان مجلته الأكبر، وهو:

(مجلّة علميّة أدبيّة أخلاقيّة اجتماعيّة)..هل كلٌّ هذا سوى شاهد يختصر جلّ أهداف المجلّة الأخرى التي كان يطمح إليها الشيخ من حثٍّ على اللحاق بركب الحضارة والعلم، ومن اهتمام بالأدب، وبالخلق القويم والارتقاء به إلى أعلى المستويات؟

هذا ما طمح إليه الشيخ العارف، وتلكم هي الغاية التي سعى إليها من وراء إقدامه على تأسيس تلكم المجلة مهيبًا بكل من يقدم على هذا العمل أن يتحمّل المسؤولية، وأن يحترم وظيفة الصحافة التي هي، وكما عبّر عن ذلك الشيخ في الإفتتاحيّة التي استهلّ بها العدد الأوّل من مجلّته، «وظيفة خطيرة، ومقامها حرج، لأن الذي يزن الأعمال بميزان الدراهم، ويسيطر على العادات والأخلاق سيطرة الملك على المملوك، يجب أن يكون في درجةٍ يأمن معها من الزلل، ويتنكّب طريق الخطأ والخطل، ذلك أنّ أهمّ مناقبية الصحافة أن تدع الأغراض والأهواء جانبًا، وترفض كلّ من أخلّ بالجامعة رفضًا باتًّا، ولا تجعل لحاكم أو محكوم عليها حكمًا.. يجب عليها أن تتحرّى الصدق، وترفع ألوية الحق ولا تدع للباطل إليها سبيلًا، وعليها أن تقدّم مصالح الأمّة ومنافعها على مصالحها ومنافعها، وأن تدرّ على الأمّة من أخلاقها حِكمًا نافعة، وفوائد جامعة، فتهديها إلى الطريق الأقوم، وتجرّ لها كلّ مغنم، وتدفع عنها كلّ مغرم.»[2]

1 - نفسه، مجلد 3، ج 21، ص 841
2 - العرفان، مجلّد1 ، جزء 1، ص 3

شيخة المجلّات:

إنّ ما يميّز افتتاحية الشيخ العارف الآنفة الذكر، وهي بمثابة بيانٍ صحافيّ موجّهٍ لكلّ من يتصدّى لهذه المهنة الشّاقة، لَدليلٌ على مناقبيّة هذا الرجل ومصداقيته التي يجب أن يتحلّى بها كلّ صحافيّ أو مسؤولٍ عن صحيّفة، هذا في الوقت الذي كانت فيه البلدان المجاورة لبلاد عاملة أو البعيدة عنها نسبيًّا سبّاقةً إلى شيوع الصحف والمجلات التي يُفترض فيها أن تكون معبّرةً عن لسان الأمّة وهمومها وطموحاتها وآدابها، وإنّ من تلك الصحف والمجلات التي كانت شائعةً ومتقدمةً على صدور مجلة العرفان، في مصر، كلًّا من الأهرام التي أصدرها الأخوان سليم وبشارة تقلا سنة 1876م وتعنى بالشؤون السياسيّة، والمقطم التي أصدرها تباعًا سنة 1876 ثم سنة 1884م كلٌّ من يعقوب صروف وفارس نمر، وتعنى بالشؤون الأدبيّة والعلمية التي كان يكتب فيها كبار الأدباء والعلماء والشعراء من أمثال حافظ إبراهيم، وأحمد شوقي وإبراهيم اليازجي وشكيب أرسلان.

وإنّ منها أيضًا في مصر كلًّا من يعسوب الطب لصاحبيْها محمد علي باشا الحكيم وإبراهيم دسوقي، صدرت سنة 1865م، وكانت تُعنى بالشؤون الطبية والعلمية، والمؤيّد لصاحبها الشيخ علي يوسف، صدرت سنة 1889م، وكانت تعنى بالشؤون السياسيّة والوطنية والأدبيّة، وفيها كتب كبار الساسة والأدباء من أمثال سعد زغلول، ومصطفى كامل، وقاسم أمين، ومحمد عبده، أمّا الهلال أشهر الصحف المصرية لصاحبها جرجي زيدان، صدرت سنة 1892م، فكانت تعنى بالشؤون الأدبيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة على وجه الخصوص.[1]

هذا في مصر، أمّا في سوريا فإنّ من الصحف والمجلات التي كانت متقدّمةً على صدور العرفان كلًّا من:

- مرآة الأخلاق التي أصدرها في دمشق رضا عنحوري، وكانت تعنى بالشؤون الاجتماعيّة والأخلاقية.
- المقتبس التي أصدرها محمد كرد علي في مصر أوّلًا، ثمّ في دمشق ثانية سنة 1906م. وكانت تعنى بالشؤون العلمية واللغوية والأدبيّة والتاريخيّة.
- الاعتدال التي أصدرها عبد الرحمن الكواكبي سنة 1879م، وكانت تعنى بالشؤون السياسيّة.[2]

---

1 - دي طرازي، فيليب: تاريخ الصحافة العربية 3/49 وما بعدها. المطبعة الأدبية. بيروت 1913.
2 - المصدر نفسه، 2/200-201 و3/ 89-69

وأمّـا في لبنـان، وقبـل إعـلان دولـة لبنـان الكبـير سـنة 1920م مـن قبـل الفرنسـيين حيـث كان للصحافـة قـدم سـبقٍ لا ينكـر، فـإنّ مـن أبـرز الصحـف والمجـلات التـي سـبقت العرفـان كلًّا مـن:

- الجنّـة والجنينـة، لسـليم بطـرس البسـتاني، صـدرت سـنة 1870 و1871م، وكانـت تعنـى بالشـؤون السياسـيّة والأدبيّـة.
- البشير، الصادرة سنة 1870م عن جماعة الآباء اليسوعيين.
- ثمارات الفنون، الصادرة عن جمعية الفنون لليازجي.
- لسـان الحـال، لصاحبهـا خليـل سركيـس وتعنـى بالشـؤون السياسـيّة والزراعيـة والصناعيـة والتجاريـة، صدرت سـنة 1877م.
- النـبراس، للشـيخ مصطفـى الغلايينـي، وكانـت تعنـى بالشـؤون السياسـيّة والأدبيّـة والدينيـة، صـدرت سـنة 1909م، وهـي السـنة التـي صـدرت فيهـا العرفـان.

وسـط هـذا الكـمّ مـن الصحـف اللبنانيـة والسـورية والمصريـة في البلـدان المحاذيـة لجبـل عامـل، أو البعيـدة عنـه، وبـإزاء ذلـك النشـاط الإعلامـي المتعـدّد الأغـراض والأهـداف وهـو نشـاطٌ حـرم منـه جبـل عامـل طويـلًا ومقارنـةً بـين مـا كان عليـه هـذا الجبـل في ذلـك الزمـن مـن مظاهـر تخلّـف وجهـل وحرمـان ومـا كانـت عليـه البلـدان المجـاورة لـه أو البعيـدة عنـه، جـاءت مبـادرة الشـيخ العـارف المباركـة لتقـدّم للعامليـين ولغـير العامليـين أيضًـا مجلّـة تعنـى بشـؤونه وتنطـق بلسـانه وتدافـع عـن حقوقـه التـي يـأتي في مقدمتهـا الدعـوة إلى التحـرّر مـن هيمنـة الحكومـات الظالمـة والقيـادات الفاسـدة وإلى الحـث عـلى طلـب العلـم والتـزود بالمعرفـة، فكانـت العرفـان التـي سرعـان مـا طـار صيتهـا في الآفـاق حتـى أنّهـا بلغـت المهاجـر القصيّـة، وإذ بمجلـة العرفـان التـي شرّعـت صفحاتهـا للأقـلام التـي تعنـى بالشـؤون العلميـة والأدبيّـة وتهتـم بالأمـور السياسـيّة والتاريخيّـة والدينيـة، إذ بهـا تتصـدر، أو عـلى الأقـل، تحاكـي أخواتهـا مـن الصحـف والمجـلات العربيـة المعـاصرة لهـا مـن أمثـال المقتطـف والهـلال المصريتـيْن والمقتبس والاعتـدال السـوريتيْن والنـبراس وثمـرات الفنـون اللبنانيتـيْن مـا حـدا بعضهـم عـلى أن يطلـق عليهـا اسـم الشـيخة كواحـدة مـن شـيخات ثـلاث هـنّ: مجلـة المقتبـس شـيخة سـوريا لمحمـد كـرد عـلي، والمقتطـف شـيخة مجـلات مـصر الكنانـة ليعقـوب صروف، ومجلـة العرفـان شـيخة لبنـان للشـيخ أحمـد عـارف الزيـن.[1]

1 - العرفان، عدد خاص. مقالة عبد الله المشنوق، ص 116-115.

اهتمامات العرفان الرئيسة:

أوّلًا: الهم الوطني والسياسيّ

تنوّعت مضامين العرفان واهتماماتها بتنوع الهموم التي كانت تشغل بال الأمة وبال كلّ من انتسب إلى بلاد العرب والمسلمين فكان أن شرّعت صفحات أبوابها لجميع الأقلام الحرّة المهتمة بالثقافة وبالشأن العام الذي يأتي في طليعته الهمّ الوطني والسياسيّ بحيث إنك تكاد لا تجد وكما يقول زهير مارديني:

«في كلّ صفحةٍ وغلاف وحكمة ورواية سوى ما يحكي شيئًا من تاريخ الأمة الإسلامية أو العربية.»[1] وهذا ما كان شاركه في هذا الموضوع والدعوة إليه روّاد الثقافة الأوائل من أمثال السيد محسن الأمين والأمير شكيب أرسلان وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ رشيد رضا والسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، كلّ ذلك بعيدًا عن أي نزعة تعصبية مذهبية، إذ لقد كانت العرفان، يتابع مارديني، بجانب المجتمع الحقيقي بكلّ أخطائه ونبله، وبجانب الزمن العادي الراكض، الزمن الذي يملأ حياة الناس، ثمّة مجتمعٍ آخر، ومدى زمانيّ ثانٍ يمشيان بجانب المجتمع والزمن الحقيقيّيْن، ذلكم هو المجتمعُ الذي يقدّمه الشيخ المؤمن من خلال رؤيته ومدى ظنّه وهو الزمن الذي يطلقه للناس عالمًا آخر.»[2]

تُرى، عن أي مجتمع أو مدىً زمنيّ ثانٍ سوف يقدّمه الشيخ في عرفانه وهو الذي أدرك الاحتلال العثمانيّ بكلّ جبروته وبطشه وقد أشرف على نهايته وواكب الانتداب بنوعيه الفرنسيّ والانكليزي بكلّ مفاسده وأطماعه ومساوئه، وشهد النزاعات المحليّة والإقليمية والجهوية التي كانت تفتك بجسم الأمة العربية والاسلامية فتحول دون تقدّمها ورقيّها ونزوعها إلى الحريّة والعدالة والوحدة..

يتوق الشيخ إلى مجتمع عربيٍّ وموحّد متحرّر من الهيمنة الأجنبية ومن شتى العبوديات المحلية وفي طليعتها الجهلُ والتخلف وفساد الحكّام وقمع الحريّات وكمّ أفواه المجاهرين بكلمة الحق وهذا ما كان يؤلم الشيخ العارف ويندّد به في عرفانه جهارًا، ولكم ثار عليه ودعا بكل جرأة وشجاعة إلى محاربته مرارًا، إنْ بالفعل وإن بالكلمة الحرة التي هي أمضى من السيف في عرفانه..

فما أبلغ ما قاله وما كتبه كامل مروة في أحد أعداد جريدته الحياة، وذلك لمناسبة الاحتفال بتكريم الشيخ مثنيًا على صدق عقيدته القومية والعربية إذ كتب يقول:

«هذا رجل- أي الشيخ عارف- فاض قلبه حتى على قلبه ولسانه، وطغى إيمانه حتى على عرفانه، سارت حياته في مزالق وتعاريج بمسالك الجبال ولكنّ عقيدته القومية ظلت

1 - العرفان، عدد خاص. مقالة زهير مارديني، ص 12.
2 - العرفان، عدد خاص. مقالة زهير مارديني ص 15.

تصعد به وتحتضنه، وإنّ رجلًا جهر برأيه يوم كان الجهر به أقرب إلى الأعواد، وثبت عليه نصف قرن لَصاحب حقٍّ راسخ في التقدير والتكريم وراسخ في تاريخ الحركة العربية: سقيًا لهذه الوجوه وهذه القلوب ما أكرمها وأطهرها..»[1]

وكتب د. محمد المجذوب في تقديمه لكتاب د. أيوب حميد: الشيخ أحمد عارف الزين مؤسس مجلة العرفان، كتب يقول:

«لقد أمضى الشيخ عارف حياته يدعو إلى التأليف بين العرب ويدافع عن قضاياهم ويحثهم على تحقيق وحدتهم وكان يعلن في كل مناسبة: إنّنا عرب قبل أن نكون مسلمين، فرقيّ العرب ووحدة العرب واستقلال العرب وحريّة العرب دأبنا وديدننا.

فكان يعتدّ بنسبه العربيّ وبعربيته التي ملكت عليه حواسه، وأخذت بمجامع قلبه وكانت شعره في خلواته وجولاته وخطبه ومجتمعاته.[2]

وممّا جاء في كلمة ألقاها العلامة الشيخ عبد الله العلايلي في إحدى الحفلات التذكارية بعد وفاة الشيخ قوله الذي يثني فيه على جرأته وشجاعته ووطنيته، وهو:

«أحمد عارف الزين، وكان الوطنية يوم كانت آلام وتضحيات حمراء.. وكان النزاهة يوم كانت حكاية تروى.. وكان الفكر الحر النيّر يوم كانت حريّة الرأي سبيلًا إلى الأعواد.. وكان الصرخة المجلجلة الهادرة يوم كان الهمس الرعديد عنوان جرأة واستبسال.»[3]

عربيّة صافية، وطنية صادقة، نزاهة لافتة، فكر حر، صرخة مدوية هادرة في وجه المحتل والظالم والفاسد.. تلكم هي أهم المفردات أو العناوين التي طالما ركز عليها الشيخ في خطاباته ومقالاته ومقالات أصحاب الأقلام الحرّة التي وجدت في مجلة العرفان متنفسًا ومتسعًا لها، ولدعاة الوحدة السورية أو العربية أو الإسلامية أذنًا صاغية لهم، بحيث إنّ العرفان في ذلك الزمن كادت أن تكون المجلة الوحيدة، التي هلّلت وتابعت قضية المناداة بالوحدة العربية، وذلك منذ أن أعلن الأمير فيصل بن الحسين حكومته العربية الأولى في دمشق سنة 1918، كما أنّها تابعت أخبار كل مؤتمر يدعو إلى هذه الوحدة أو الوحدة السورية على الأقل كونها نواة الوحدة الكبرى التي طالما كانت حلم العرب وحلم العامليين على وجه الخصوص وهذا ما كان شاهدًا عليه مؤتمر الحجير الذي انعقد في نيسان سنة 1920، ثمّ المؤتمر السوري الأول الذي عقد بدمشق سنة 1928، ومؤتمرات الساحل ببيروت سنة 1936، ومؤتمر الوحدة العربية الثاني الذي انعقد بصيدا في السنة نفسها، ثم المؤتمر العربي

1 - العرفان، عدد خاص ص 86.
2 - حميّد، أيّوب: الشيخ أحمد عارف الزين، ص 12. منشورات مجلة العرفان.
3 - العرفان، عدد خاص، ص 111

القومـي الـذي انعقـد ببلـودان سـنة 1937.[1]

هـذا، ولقـد شـارك صاحـب العرفـان بنفسـه في العديـد مـن تلـك المؤتمـرات أو الجمعيـات العربيـة السـورية المناهضـة لسياسـة الأتـراك أيـام الحكـم التركـي، ثـم لسياسـة الفرنسـيين إبّـان عهـد الانتـداب، وإنّ مـن تلـك الجمعيـات جمعيـة العهـد وجمعيـة الإصـلاح وجمعيـة الشـبيبة العربيـة.[2]

ولمـا أن زار الشـهيد عبـد الكريـم الخليـل بـلاد عامـل سـنة 1914 كمنـدوب لجمعيـة الثـورة العربيـة المتحـدة مـع جمعيـة اللامركزيـة، انتـدب الشـيخ عـارف مندوبًـا لتلـك الجمعيـة، فلـما عــرف الأتــراك بهــذا الأمــر شــنّت عســاكرهم حملــة شــعواء عــلى دارتــه ومطبعتــه في صيــدا فاقتـادوه مـع آخريـن إلى الديـوان العـرفي بعاليـه، فلبـث في المعتقـل ثلاثـة وعشريـن يومًـا ثـم أُخـليَ سـبيله.[3]

ولمّـا وضعـت الحـرب العالميـة أوزارهـا سـنة 1918، وعـلى أثـر مصادقـة مجلـس الحلفـاء سـنة 1920 عـلى توزيـع الحصـص فيـما بـين الفرنسـيين والانكليـز، ناهـض مؤسـس العرفـان بلسـانه، ولسـان أقـلام كتّـاب مجلتـه، سياسـة الانتـداب، داعيًـا إلى الوحـدة السـورية بقيـادة فيصـل بـن الحسـين وداعيًـا في الوقـت عينـه أبنـاء الوطـن إلى الوحـدة والتـآزر والتضافـر ونبـذ العصبيـة المذهبيـة والطائفيـة والجهويـة والمقاطعيـة، مفتتحًـا أحـد أعـداد مجلتـه العرفـان بالقـول:

«هلمّـوا، يـا أبنـاء الوطـن وتضافـروا بالقلـوب قبـل الأيـدي وانبـذوا ظهريًـا كلّ مـن يسـعى للتفريـق بينكـم... هلمّـوا كلّكـم مِـن موسـويين ومسـيحيين ومسـلمين مـن سـنيين وشـيعيين ودروز ونصيريـين، موارنـة وكاثوليـك وأرثوذكـسي ولوثريـين... اطّرحـوا الأضغـان جانبًـا، واصرخـوا صرخـة واحـدة قـد تحالفنـا واتحدنـا عـلى إيقـاظ هـذا الوطـن مـن غفلتـه، وإنقـاذه مـن ورطتـه، فقـد آن الأوان أن تؤثّـر بنـا العظـات، ونعتـبر بـما مـرّ بنـا مـن العـبر والمثـلات.»[4]

لم يكتـف الشـيخ المؤسـس بهـذا القـول الـذي أثـار حفيظـة مـن استسـلم للانتـداب وركـن إلى سـلطته بـل راح يطبـق مـا ذهـب إليـه بالفعـل مـصرًا عـلى مواقفـه عـبر حضـوره العديـد مـن المؤتمـرات التـي شـارك فيهـا. وإنّ منهـا، المؤتمـر الوطنـي الـذي انعقـد في بـيروت، مـا دفـع الفرنسـيين إلى اعتقالـه بحجّـة أنّـه ينـاصر الثـورة السـورية التـي اندلعـت نيرانهـا سـنة 1925، ومـا أن أفرجـت سـلطات الانتـداب عنـه، حتـى عـاد إلى منـاوأة سـلطة الانتـداب الجائـرة مـن جديـد.[5]

1 - انظر: أعداد العرفان التي غطّت أحداث تلك المرحلة وبخاصة المجلدين السابع والعشرين والحادي والثلاثين.
2 - العرفان، مجلد 31، ج 8-7 ص 315
3 - نفسه، مجلد 29، جزء 9-8 ص 719
4 - نفسه، مجلد 78، عدد 6-5
5 - للاطلاع على ما عاناه اللبنانيون والسوريون من وطأة الانتداب الفرنسي، راجع: نجيم، بولس: القضية اللبنانية، ص 121-128. الدار الأهلية، بيروت 1995.

مـا اضطـرّ هـذه السـلطة، أي سـلطة الانتـداب إلى اعتقالـه ثانيـة، لكـن لمـدّة قصـيرة لم تتجـاوز العـشرة مـن الأيـام.

ولـمّـا أن انتقـل الملـك فيصـل ابـن الحسـين إلى الرفيـق الأعـلى سـنة 1933، ألقـى الشـيخ كلمـة تأبـين أنهاهـا بمبايعـة ولـده غـازي ملـكًا عـلى العـراق منـدّدًا بسياسـة كلّ مـن الإنكليـز والفرنسـيين مـصرًّا عـلى مطالبتـه بالوحـدة العربيـة الشـاملة، وفي سـنة 1936، لـدى انعقـاد مؤتمـر السـاحل اللبنـاني في منـزل الزعيـم الوطنـي سـليم سـلام ببـيروت، تمثـل الوفـد العامـلي بـكلٍّ مـن الشـيخ سـليمان ظاهـر وأحمـد رضـا والشـيخ أحمـد عـارف الزيـن الـذي كان أحـد مـن رفعـوا مذكـرةً إلى المنـدوب السـامي الفرنـسي يطالبونـه فيهـا بالوحـدة السـورية رافضـين الانضـواء تحـت مـا دُعـي بلبنـان الكبـير الـذي كان أُعلـن سـنة 1920.[1]

وفي السـنة نفسـها أي سـنة 1936، تـرأس الشـيخ عـارف لجنـة الدفـاع عـن فلسـطين ونصرتهـا وقـد ضمّـت هـذه اللجنـة عـددًا مـن رجـالات صيـدا مـن بينهـم معـروف سـعد ومحيـي الديـن البـزاري وتوفيـق الجوهـري.[2]

ولـمّـا أن احتُفـل بذكـرى مـرور اسـبوع عـلى وفـاة الحـاج إسـماعيل الخليـل، كان الشـيخ عـارف أحـد ممـن أبّنـوا الفقيـد فألقـى خطابًـا نـدّد فيـه بسياسـة بشـكوف مـردّدًا هـذا الصـوت: لا إرادة بشـكوفيّة ولا جـان عزيزيـة، نسـبةً في الأولى إلى المستشـار الفرنـسي بتشـكوف وفي الثانيـة إلى جـان عزيـز أحـد أعـوان سـلطة الانتـداب، فحوكـم الشـيخ أمـام محكمـة الجـزاء في بـيروت ثـمّ أفـرج عنـه.[3]

وفي نيسـان مـن سـنة 1936، لـمّا أن انتفضـت بنـت جبيـل ومنطقتهـا تأييدًا للثـورة الفلسـطينية وتنديـدًا بسـلطة الانتـداب، وبشركـة الريجـي التـي تحتكـر رخـص زراعـة التبـغ ثـم تبعتهـا انتفاضـات في مناطـق أخـرى غطّـت مجلـة العرفـان بأقـلام كتابهـا شـعراء وأدبـاء ورجـال فكـر وطنيـين مجريـات تلـك الانتفاضـات، وإنّ مـن هـؤلاء صاحـب العرفـان نفسـه الـذي كان أحـد المشـاركين في انتفاضـة صيـدا وأحـد مـن اعتقلتهـم سـلطة الانتـداب فأودعتهـم سـجن الرمـل الـذي لبـث فيـه الشـيخ مـدة شـهرين ليخـرج منـه مـردّدًا:

ومـا زدتنـي يـا سـجن إلّا متانـةً	وحبًّـا لقومـي وانتصـارًا لأوطـاني
لئـنْ سـاءني قـوم غريـب لسـانهم	فقـد كنت لي مـن بعض أهـلي وخلّاني
ففـي ذمّـة التاريـخ عهـد قطعتـه	وفي عنـق الحـكّام يـا سـجنُ شـهران
كرهـتُ بني طـورانَ في عهـد حكمهم	وحبّبنـي ذا العهـد في كلّ طـوراني[2]

1 - حميّد، أيوب: الشيخ أحمد عارف الزين، ص 58
2 - نفسه، ص 58
3 - الشيخ أحمد عارف الزين، ص 59.

والمقصود بكلمة طوران، في هذا الشعر، الأتراك الذين حكموا بلادنا طوال أربعة قرون من الزمن مِن قبل أن يُدال منهم ويُعلن علمانية الدولة كمال أتاتورك مؤسس جمهورية تركيا الحديثة.[1]

عزلة مؤقتة

وإبّان اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية التي كانت بدأت سنة 1939، ولأسباب ضاغطة قاهرة توقفت العرفان عن الصدور ثلاث سنوات.

اعتزل خلالها الشيخ عارف السياسة إلى حين، متخذًا من مزرعته بستيات التي كان ورثها عن آبائه مقرًا له وذلك التماسًا للراحة من أعباء النضال، غير أنّه مع ذلك، لم يسلم من أعوان وجلاوزة السلطة الذين كبسوا مزرعته فصادروا ما جمعه من غلال.[2]

لكنّما عزلة الشيخ عن الساحة لم تطل، فما أن انسحبت قوّات الاحتلال البريطاني من فلسطين سنة 1948 مفسحةً المجال أمام الصهاينة لإعلان دولتهم المزعومة حتى صدح الشيخ المناضل بصوته الهادل وصوت مجلته عبر أقلام كتّابها، تنديدًا بهذه المؤامرة التي كان من ثمراتها ضياع فلسطين العربية التي ما انفكّت ترزح إلى الآن تحت نير الاحتلال الصهيوني وفي ذلك يقول الشيخ العارف مستصرخًا ضمير الأمة العربية والإسلامية وضمائر حكّامها الذين تخاذلوا وهانوا ونكصوا عن نصرة الحق واسترجاع الوطن السليب:

«أما يجدر بنا أن نحرق الإرمّ على هذا البلاء النازل والخطب الشامل وننادي بملء فمنا صارخين معولين: واعروبتاه، وبعد ذلك نقول وافلسطيناه، واقدساه، وامسجداه، وابيت لحماه، واناصرتاه، وابئر سبعاه.»[3]

ثانيًا: الهم العلمي والأدبي والأخلاقي الاجتماعيّ :

صحيّح أنّ جُلّ ما اهتمت به العرفان سواء أكان ذلك عبر أقلام كتّابها أم عبر افتتاحيات ومقالات رئيس تحريرها المؤسس هو الاهتمام بالشأن الوطني والسياسيّ.. غير أنّ الصحيّح أيضًا هو أنّ العرفان ومنذ نشأتها الأولى، أفردت للعلم والأدب وللأخلاق والاجتماع حيّزًا مرموقًا من صفحاتها، وذلك انسجامًا مع الهدف الأساس الذي طمح الشيخ إلى بلوغه ، وهذا ما كان أكّد عليه مرارًا، ألمْ يطوّق عنوان أوّل عدد من أعداد مجلته التي هي العرفان وأعدادًا أخرى عن اليمين بآية قرآنية مباركة هي : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وعن الشمال بحديث مأثور هو :» تعلّم العلم من المهد إلى اللحد» [4].

1 - للاطلاع على مسار الدولة التركية او العثمانية عبر تاريخها الطويل، راجع:
جواد الغراوي، قيس: الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط. ص -31 77. ط 2 الدار العربية للعلوم، بيروت.

2 - العرفان، مجلد 45، ج 1، ص 3.

3 - نفسه، مجلد 36، ج 3، ص 228.

4 - انظر صورة غلاف العدد الأول من مجلة العرفان

ثـمّ ألم يعـرّف الشـيخ عنـوان مجلتـه التـي هـي العرفـان، وأعـدادًا أخـرى منهـا بقولـه: (مجلـة علميـة أدبيـة أخلاقيـة اجتماعيّـة)[1].

ثـم ألم يؤكـد الشـيخ هـذا النهـج الـذي جعلـه مـن أولى اهتماماتـه لّما أن صـدّر الجـزء الأوّل مـن المجلـد الثـاني مـن عرفانـه بالقـول:

«غايتنـا التـي نرمـي إليهـا وخطتنـا التـي نسـير عليهـا، نـشر العلـم والأدب وتقويـم الأخـلاق وتطهـير النفـوس مـن الأرجـاس والخـوض في غمـرات المباحـث الاجتماعيّـة والعمرانيـة.»[2]

أمـا غـلاف هـذا المجلـد المشـار إليـه والـذي حمـل اسـم مجلـة العرفـان فقـد حـدّد هويـة تلـك المجلـة بالقـول: (مجلـة شـهرية تبحـث في العلـم والتاريـخ والأدب والأخـلاق والاجتـماع).

خلـق، علـم، أدب، ديـن، اجتـماع، وهـل تتقـدم الأمـة، وتتطـور المجتمعـات إلا إذا راعـت تلـك العناويـن الثوابـت التـي تبنـى عـلى أسسـها الأوطـان؟

هـذا مـا كانـت جهـدت وعملـت العرفـان، إن بقلـم مؤسسـها، الشـيخ العـارف، تـارة، أو بأقـلام كتّابهـا ومحرّريهـا، طـورًا، عـلى تأكيـده وشـيوعه ورواجـه والدعـوة أو الإشـارة إليـه في أكثـر مـن مناسـبة، وأكثـر مـن مجـال ومقـال ..

وهـذا مـا كان حـثّ عليـه الشـيخ المؤسّـس أكثـر مـن مـرة في إفتتاحيـات مجلتـه، وفي مقالاتـه، مسـتنهضًا همـم قومـه، أبنـاء الأمـة عـلى اللحـاق بركـب العلـم الـذي هـو عنـوان تقـدّم الأمـم، وشـعار رقيهـا، شريطـة أن يكـون العلـم نافعًـا، وتزينـه الأخـلاق، وهـذا مـا كان ألمع إليـه الشـيخ بالشـعر الـذي زيـن بـه غـلاف أحـد المجلـدات، داعيـاَ أبنـاء قومـه وجلدتـه إلى الأخـذ بأسـباب العلـم، والإفـادة مما تنطـوي عليـه صفحـات العرفـان:

هبّـوا إلى العلـم والتهذيـب جهدكـمُ	فإنّـما أعلـم الأقـوام أسـعدُها
واسترشـدوا بضيـا العرفـان واقتبسـوا	مـا ضلّـت النـاس والعرفـان مرشـدها[3]

وهـذا مـا كان يدعـو الشـيخ إليـه ليـلًا ونهـارًا، سرًّا وجهـارًا منـدّدًا بفسـاد الأخـلاق وفسـاد الزعـماء والحـكام والموظفـين المرتشـين وعلـماء السـوء الجاهلـين رافعًـا مـن شـأن الفـرد وحريتـه وكرامتـه مهيبًـا بـه وبالأمـة جميعًـا أن يصدعـوا بكلمـة الحـق في وجـه الباطـل وبرفـع الصـوت عاليًـا في وجـه الحـكام المستبدين والعلـماء المفسـدين، أليـس هـو القائـل:

1 - انظر صورة غلاف المجلد الأول من مجلة العرفان
2 - انظر صورة غلاف المجلد الثاني من مجلة العرفان

«ابتدأنا في الكتابة منذ خمس وخمسين سنة وأوّل كتابتنا كانت في ثمرات الفنون والاتحاد العثماني ثم في جريدة حديقة الأخبار إذ كنت وكيلها ومراسلها في صيدا، وكل كتابتنا أو جلّها كانت في محاربة الزعماء المستبدين ونقد الموظفين الخائنين المرتشين ونصرة القائمين بنشر الحرية والدستور.»[1]

ثم أليس هو القائل في الجزء الرابع من مجلّد العرفان الثالث:

«يا قوم كونوا أحرارًا ولا تكونوا عبيدًا.. يا قوم، حكّامكم منكم فلا تتغاضوا عن باطل يفعلوه أو حكم بغير الحق يحكموه.. يا قوم، لا تحنوا رؤوسكم لِمَن يسوسكم ولا تقبّلوا الأذيال والأعتاب فإنّها عادات مجوسية لا تنطبق على قواعد دينكم ولا على شيمكم العربية.. يا قوم، لا يجوز السجود لغير الله وحده، فكيف تسجدون لبشرٍ مثلكم يأكل ممّا تأكلون ويشرب ممّا تشربون.. يا قوم، احترموا من ينفعكم وأكرِموا من يكرمكم وانهضوا بمن ينهض بكم من حضيض الخمول إلى أوج الرفعة.. يا قوم، إلى متى وأنتم أذلاء، إنّ علماءكم بشر مثلكم يخطئون ويصيبون وبينهم البرّ والفاجر والتقي والشقي فلا تنقادوا لكلّ من انتحل العلم والاجتهاد.. فما هذا الخضوع والخنوع للمستبدين من الحكام والأمراء والعلماء.. متى تميل إلى التعالي نفوسكم وترتفع إلى الأوج رؤوسكم.. متى تكونوا أحرارًا صادقين ولا تكونوا عبيدًا صاغرين..»[2]

دائرة معارف شتّى:

لقد سبق أن ألمعنا إلى أنّ الشيخ كان من قرّاء العديد من الصحف أو المجلات العربية وبخاصة تلك التي كانت تهتم بنشر المباحث والمقالات العلمية والأدبيّة والفنيّة المترجمة وغير المترجمة عن الأجنبية، الأمر الذي كان حافزًا للشيخ أن يحاكي في مجلته ما كان ينشر في تلك المجلات أو الصحف، فأفرد هو والمهتمون بهذا الشأن من أصحاب الأقلام أفرد لهم العديد من صفحات العرفان لتكون دائرة معارف شتّى ومعرضًا لمباحثهم العلمية والأدبيّة والفلكية والفقهية والرياضيّة والفيزيائية والطبية والفلسفية وسواها وذلك تحت عنوان (إصدارات جديدة) تارةً ثانية، ما جعل من مجلته كما يقول عيسى الناعوري، شاهدًا على العصر وعلى صدق وجهاد صاحبها ونبل غايته وثبات عقيدته القومية وعلى الحفاظ على حرية الفكر بحيث إنّه جعل العرفان ميدانًا لكل نقاش أو حوار شريطة ألا يخرج عن قواعد الأدب والمنطق وحدود الخُلق المهذّب.[3]

---

1 - العرفان، عدد خاص. مقالة شفيق الأرناؤوط، ص 24
2 - العرفان، مجلّد 3، عدد 4
3 - انظر مقالة عيسى الناعوري في العرفان، عدد خاص، ص 62

وهكذا، يكون الشيخ المؤسس لمجلته العرفان قد أطلق عنان الحرية لقلم كلّ شاعرٍ أو أديب أو ناقد جاعلًا منها ميدانًا تتنوع وتتبارى فيه شتّى الأقلام على اختلاف مشارب أصحابها وأذواقهم وآرائهم ومذاهبهم وهوياتهم، فكم من قصيدة لولا العرفان ما كان ليُعرف صاحبها، وكم من أديب أو بحث أدبي أو نقدي أو علمي ما كان ليُعرف صاحبه لولا العرفان، وكم من مقالة علمية أو فلسفية مترجمة عن اللغات الأجنبية ما كان يمكن الاطلاع عليها لولا العرفان التي أصبحت كما يقول الدكتور شريف عسيران مطمح الأنظار بأبحاثها ولغتها وطبعها الأنيق، هذا فضلًا عمّا قدّمته العرفان من تعزيز للروابط الأدبيّة بين الأقطار العربية وإذكاء للروح القومية والدفاع الباسل عن حقوق العرب.[1]

وكم من بحثٍ علميّ أو غير علمي ما كان ليُعرف لولا العرفان التي كانت تهتم أشد الاهتمام بهذا الجانب، يقول رفيق واكيم:

«في أحد مجلدات العرفان قرأت البحوث العلمية في الفلك والصحة والتربية وعلم الأحياء والرياضيّات والتطور العضوي والحضاري من العصر الحجري إلى اليوم، وعن نظرية النسبية للعالم إينشتين، وبحوثًا للمعلّم منصور جرداق في الفلك والرياضيّات.»[2]

وكم من أديب ناشئ تتلمذ على العرفان ومدرسة العرفان، فها هو عبد العزيز سيد الأهل، أحد ألمع الكتاب المصريين منوّهًا بالعرفان وبصاحبها الشيخ المؤسس وهو المسلم الشيعي لكنّه البعيد كلّ البعد عن التعصب المذهبي، يقول عبد العزيز:

«وكنتُ أنا من الذين قرأوا عرفانه أو بالأحرى كنت من الذين تتلمذوا عليه ولم أعجب له حين رأيته، ومن قبلي لم يعجب أحد للماء أن يلطف وأن يكشف ولا للهواء أن يرقّ وأن يعصف، ثمّ إنّي أثنيت على تعصبه فإنّما هو يتعصّب لمن فُرض لهم التعصب، وما من مسلم إلّا وهو معاتب أو معاقب إذا لم يتعصّب لأهل البيت، وليس التشيع إلّا مبدأ الحب لهم، ومذهب القربى إليهم، وحبّ أهل البيت من الدين، ولا دين بلا حبّ كما لا عاطفة بلا قلب.»[3]

وها هو محسن جمال الدين، أحد أبرز الكتّاب العراقيين يظهر فضل العرفان على العديد من الأعلام الشعراء وغير الشعراء من الأدباء والمؤرخين العراقيين، فيقول:

«إنّ أغلب الكتّاب والشعراء والحصيلة الأدبيّة المعروفة في عالم الأدب العراقي خاصةً إنّما هم من مدرسة العرفان ومن خرّيجي صفوفها الأولى وسنواتها الكريمة وإنّ منهم كمثال، أسرة الشبيبي وعلى رأسهم العلامة الكبير الشيخ محمد رضا الشبيبي والشاعر أحمد الصافي النجفي والشاعر محمد مهدي الجواهري والمؤرخ المشهور عبد الرزاق الحسني والرصافي

1 - انظر مقالة الدكتور شريف عسيران في العرفان، عدد خاص، ص 50.
2 - العرفان، مجلد 78، عدد 6-5، ص 126.
3 - أنظر مقالة عبد العزيز سيد الأهل في العرفان، عدد خاص، ص 53.

والشاعر الشيخ علي الشرقي والدكتور الشاعر محمد مهدي البصير والشاعر الرقيق عبد الحسين الإزري.»[1]

كلّ هذا، فضلًا عمّا نشرته العرفان على صفحاتها لمؤرخين ومفكرين وعلماء وشعراء وأدباء وباحثين آخرين من المشهورين وغير المشهورين من المصريين واللبنانيين والسوريين، من الذين كان للعرفان عليهم سابغ نعمة وفضل لِماَ أن نشرت لهم على صفحاتها غرر أشعارهم وروائع أبحاثهم ومقالاتهم، وإنّ من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر كلًّا من الشيخ محمد عبده ومحمود تيمور وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي من المصريين ومحمد كرد علي وعبد الرحمن الشهبندر وفارس خوري من السوريين والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد رضا والأمير شكيب أرسلان ومحمد جابر آل صفا وأمين الريحاني وإلياس فرحات وشبلي الملّاط ورشيد سليم الخوري وإيليا أبي ماضي وخليل مطران والشيخ علي عز الدين وموسى الزين شرارة وعبد اللطيف شرارة من اللبنانيين.

ولئن كان للرجال الحظ الأوفر من الكتابة في العرفان فإنّ للنساء أيضًا حظهنّ ولو بنسبة ضئيلة، وهذا ما كان تنبّه له الشيخ عارف إذ كان في طليعة الداعين إلى تعزيز حقوق المرأة وإلى وجوب إبراز مواهبها الأدبيّة والصحفية التي خصّص لها الشيخ صفحات وصفحات من مجلته، وإنّ من تلكم النسوة الرائدات في ميدان الصحافة سيدة صيداوية من آل أبي ظهر هي والدة الصحافي المشهور هشام أبي ظهر، كانت بتشجيع من الشيخ المؤسس أوّل فتاة صيداوية عاملية تكتب، وباسمها الصريح، في مجلةٍ تُدعى العرفان.

أمّا النسوة الأديبات والشاعرات فحسبك ما ذكره رفيق واكيم في مقالة له نشرها في العدد الخامس والسادس من المجلد الثامن والسبعين، وفيها يقول:

«قرأتُ في مجلدٍ واحد من مجلدات العرفان، فقط، هو الأوّل بعد الحرب العالمية الأولى سبعة أسماء لنساء شاعرات من جبل عامل نظمن الشعر في مختلف الفنون: الغزل والوطنيات والوجدانيات وسواها..»[2]

---

1 - انظر مقالة محسن جمال الدين في مجلة العرفان، عدد خاص، ص 74- 75

2 - العرفان، مقالة رفيق واكيم، عدد 6-5، مجلد 78 من 126

صاحب العرفان في ذمة الله:

صبيحة يوم ضاح هو الخامس عشر من شهر تشرين الأول سنة 1960م، ولدى الفراغ من أداء الشيخ العارف لمراسم زيارة ثامن أئمة أهل البيت في مدينة مشهد الإيرانية، فُجعت الصحافة اللبنانية وفجع العالم العربي والإسلامي بوفاة مؤسس أول مجلة عربية عاملية هي العرفان فكان لوفاته رنّة أسى ولوعة في نفوس عارفيه ومحبّيه، وذلك من بعد مسيرة جهادٍ وكفاح حمل لواءها وفي أصعب الظروف شيخ معمّم عاملي احتضنت صفحات مجلّته العديد العديد من الأقلام التي توفرت على الكتابة في شتّى الموضوعات السياسيّة والعلمية والأدبيّة والاجتماعيّة فكانت أصدق ممثل لطموحات الأمّة في نشدان الحريّة والذود عن القيم والمبادئ، وما توقفت هذه المسيرة المباركة سوى بضع سنوات أو أشهر فرضتها الحرب العالمية الأولى فالثانية، أو فرضتها سياسة القمع أو التهديد التي كانت تمارس على الشيخ بين الفينة والفينة إلى أن أزف الوقت الذي لقي فيه الشيخ وجه ربّه الكريم..

هذا، ولقد جرى للشيخ الراحل العديد من حفلات التأبين والتذكار منها ذلك الحفل الذي أقيم في مشهد، وفي صيدا، وفي بيروت بقاعة الأونسكو حيث توالى على منبر الخطابة عدد من الشخصيات السياسيّة والأدبيّة التي تحدثت عن فضائل ومناقب ذلك المجاهد الذي اقترن اسمه بأسمى المبادئ الوطنية والعلمية والخلقية، وإنّ من خطباء ذلك الحفل أو من الذين بعثوا بكلماتهم مراسلةً معالي الوزير رشيد بيضون وبطرس ديب سفير لبنان بباريس، والشيخ عبدالله العلايلي، ووزير البلديات والأرياف الأستاذ عبدالله المشنوق، وأمين سر مجمع اللغة العربية الأردني عيسى الناعوري، والدكتور عمر فرّوخ عضو مجمع اللغة العربية في دمشق، وبولس سلامة وعبد العزيز سيد الأهل والدكتور محسن جمال الدين العراقي وغيرهم كثيرون..

الوديعة:

رحل الشيخ المؤسس عن هذه الدنيا لكنّ العرفان لم تتوقف فتولّى ملكيتها ورئاسة تحريرها من بعده نجله نزار حتى تاريخ وفاته سنة 1981، لتنتقل ملكيتها من جديد إلى نجله الآخر القاضي زيد الزين الذي أوكل مسؤولية إصدارها من بعده إلى ولده الأستاذ فؤاد، هذا الذي حمل الأمانة بكلّ صدقٍ وإخلاص، مدةً حتى سنة 1987، وثانيةً ابتداءً من سنة 1992 حتى سنة 1996، تاريخ توقّف المجلة نهائيًا عن الصدور، فكان آخر أعدادها العدد 9و 10، أمّا آخر مجلداتها فكان المجلد الذي حمل الرقم الثمانين.

أمّا سبب توقف هذه المجلة الرائدة عن الصدور فيعود إلى ضعف في الإمكانات المادية وإلى الحفاظ على استقلالية المجلة وعدم قبول أصحابها بارتهانها لأي جهة حزبية كانت أو غير حزبية، رسمية كانت أو غير رسمية، وهو خط كان حافظ عليه الشيخ المؤسس في حياته فأورثه من بعده إلى أنجاله وأحفاده، إذ كان شعاره، رحمه الله، ومنذ إصداره العدد الأول من العرفان، هو: لا ارتهان، ولا انحياز، ولا خضوع لجهةٍ أيًا كانت تلك الجهة سوى للجهة الأساس التي من أجلها كانت العرفان وهي التحرّر من أي قيدٍ فئوي أو طائفي أو حزبي وسياسي همّها الأوّل والأخير محاربة الظلم والفساد ونشر العلم والتزود بالثقافة وشرع أبواب المعرفة أمام القرّاء، والدفاع عن حق المظلومين والمقهورين، عامليين في الدرجة الأولى وغير عامليين، لا بل عن حقوق سائر العرب والمسلمين المطالبين بحقوقهم المشروعة المتمثلة بالحرية والسيادة والاستقلال.

هكذا أرادها الشيخ العارف المؤسس الذي أفنى عمره كله في الجهاد ذودًا عن حياض وطنه وأمّته ودينه وجبل عامله فكان واحدًا من ألمع رُسل الإصلاح وداعية من أبرز الدعاة إلى وحدة العرب وإلى نبذ الفرقة لا بين أبناء الوطن الواحد بل بين أبناء الأمة جميعها عربًا وغير عرب، مسلمين وغير مسلمين..

هكذا أراد الشيخ مجلته التي تميّزت بغزارة المادّة وتنوّع الموضوعات، وتعدد الأبواب الثقافيّة أرادها منبرًا للحرية ومنارة للعلم ولنشر الوعي القومي والاجتماعيّ، تتعهد المواهب الناشئة، وترعى الطاقات الفكريّة المتفجرة..

أرادها الشيخ لتكون مرجعًا لتاريخ حقبة زمنية مشرقة أتبعت أخرى من تاريخ جبل عامل مرّت عليه سنون عجاف ضاع فيها جُلُّ موروثه وكتبه وجُلّ مخطوطاته النفيسة التي أضرم الجزّار بها النّار.

فاليوم، وما أحرانا اليوم، نحن العامليين واللبنانيين، وأخصّ بالذكر كلًّا من أعضاء التجمع الوطني للثقافة والبيئة والتراث، وهيئة تكريم العطاء المميّز، وكلّ غيور على القيم

والمبادئ والتراث، ما أحرانا بأن نحافظ على تلك الجوهرة النفيسة، ونصون تلك الوديعة الغالية التي هي مجلة العرفان، فنعمل على إحيائها وبعثها من جديد كيما تتابع مسيرتها المباركة الحافلة بالقيم الفكريّة والوطنية والأدبيّة والعلمية تحقيقًا للهدف الذي من أجله تأسست، وللرسالة التي حملت عبء الثقافة في المشهد المحلي والعربي، وذلك من خلال تغطيتها لمجالات متنوعة من شعر الشعراء، وأدب الأدباء، وسائر أنواع المعرفة..

ما أحرانا اليوم جماعةً وأفرادًا أن نتحمل تلك المسؤولية التي حملتها العرفان من قبل، يوم أن بذرت، وكما يقول منير خوري، بذور اليقظة الوطنية، والوعي العربي، منذ العهد العثماني حتى تاريخ وفاة مؤسسها، فكانت دائرة معارف في علوم الدين والدنيا، وموسوعة مشحونة أدبًا وعلمًا وتاريخًا..[1]

فلْنعملْ إذًا، إن كنّا أوفياء لتراثنا على إحياء تلك الصفحة المضيئة من ذاكرة جبل عامل الثقافيّة، ولْنستأنف من جديد إصدار تلك المجلة التي هي العرفان إصدارًا حداثيًا يتناغم وينسجم وروح العصر، ولا يتعارض وموروث قيمنا وأخلاقنا وتراثنا وأصالتنا، ولْتبقَ العرفان حيّةً لا في الذاكرة والوجدان، فحسبُ، بل في بعثها من جديد مجلةً رائدةً راقيةً حرّةً غير مرتهنة لأيّ جهة حزبية أو فئوية أو طائفية، تنطق باسم المثقفين الأحرار، ولْيبقَ اسم مؤسسها المغفور له الشيخ أحمد عارف الزين، وإن كان ميتًا، حيًّا بين الأحياء، وما مات أبدًا، يقول الشيخ عبد الكريم الزنجاني، من خلّف وراءه دويًّا يملأ الأجواء وذكرًا تتعطّر به الأرجاء، ونورًا تستهدي به الأحياء، وسيرة ترسم خطاها القادة العظماء.[2]

1 - خوري، منير: صيدا عبر التاريخ، ص 368، منشورات المكتب التجاري للمطبوعات، بيروت 1986.
2 - العرفان، عدد خاص، ص 6

المصادر والمراجع:

- مجلة العرفان
- بسترس، غسان: دور الصحافة اللبنانية في العالم العربي، بيروت 1977
- حميّد، أيوب: الشيخ أحمد عارف الزين مؤسس مجلة العرفان. منشورات مجلة العرفان. ط 1، 1986
- فرحات، هاني: الثلاثي العاملي في عصر النهضة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1918
- خوري، منير: صيدا عبر التاريخ، المكتب التجاري للمطبوعات، بيروت 1986
- دي طرازي، فيليب: تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبيّة، بيروت 1913
- الغراوي، قيس: الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، بيروت
- نجيم، بولس: القضية اللبنانية، الدار الأهلية، بيروت 1995

الأندية والجمعيات الثقافيّة والاجتماعيّة في جبل عامل .



أ.أسد زين غندور

تحت هذا العنوان، الذي لم يتفرد لغاية اليوم باحث أو مؤرخ الخوض فيه، والإحاطة به من مختلف جوانبه ، وكوني لست مؤرخا ولا عالم اجتماع، فإنني قد لن أتمكن من تقديم دراسة وافية وكافية حول الموضوع، وكيف اذا كان الأمر يتعلق بجبل عامل، هذه المنطقة الجغرافية من جنوب لبنان، الغنية بالأحداث التاريخيّة والثقافيّة والاجتماعيّة ، والتي أنتجت العديد من الشخصيات والباحثين والعلماء، وشهدت مناخات ونشاطات وتحركات تصبو نحو التغيير ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية، والدعوة الدائمة للوحدة بمفاهيم ورؤى مختلفة، كما شهدت مواجهات مع قوى خارجية متعددة كانت ولا تزال تهدد مصير المنطقة والأمة بشكل عام وجبل عامل بشكل خاص، وسجلت بطولات وقدّمت تضحيات لا يمكن لأحد إنكارها أوتجاوزها .

مقدمة :

في مراحل الصّراع بين البشر والمجتمعات والجماعات المكونة، مهما كانت وجهة هذا الصراع والأهداف والتطلعات : اجتماعيّة –سياسيّة –اقتصاديّة....الخ، وفي خضم الأزمات والمحن التي تتعرّض لها الأمم والشعوب، ازدهرت «كتابة التاريخ» من جوانب مختلفة، وانتعشت كتابة السير الذاتية، وتم إنتاج آلاف المجلدات والكتب والأبحاث والروايات والقصائد الشعريّة، تناولت فيه الواقع من زوايا مختلفة، كما انتعشت التراجم وتكوّنت الفرق والمذاهب الفكريّة، وبدأت التحوّلات نحو إنشاء «المدن» وانفردت الطبقات الاجتماعيّة بمختلف تلاوينها وراح الباحثون والعلماء يسطّرون التوجهات، ويعدون الخطط التي تتطابق مع هذه التوجهات، كل ذلك كان يحصل على موازاة نشوب أحداث وانفجارات وانتفاضات وثورات، وتقسيم مناطق جغرافيّة وقيام «دول» وانكفاء أخرى .

لقد شهدنا ذلك في التاريخ العربي والإسلامي القديم ، كما شهدناه في التاريخ الحديث على المستوى العالمي منذ عصر النهضة ومرحلة «التنوير» حتى القرن التاسع عشر مرورًا بالحروب الدينية، والاكتشافات الجغرافيّة وولادة عالم جديد وصراعات التوسّع والسيطرة والهيمنة والحروب الاستعماريّة الأولى، وصولًا إلى «الثورة الصناعيّة» وبالتالي التحوّل من أنظمة رأسمالية استعمارية إلى مرحلة الإمبرياليّة العالميّة ، بكل ما يعنيه هذا المفهوم من دلالات واعتبارات.

في هذا الصراع الطويل، وخلال مخاضاته نشأت مكونات اجتماعيّة متعدّدة الأوجه، حملت معها خبرات معرفية وأطلقت مناهج فكريّة وفلسفيّة وأدبيّة وعلميّة، وتكوّنت على أثرها « العلوم الاجتماعيّة والإنسانية » كحاجة ماسة لدراسة الظواهر الاجتماعيّة العامة وبلورتها وتحديد المفاهيم، وتكوين وجهات النظر والرؤى وتفنيّد كل ما يعتري البشريّة من تحديات بنيوية وعلميّة وتنظيميّة وإداريّة، وما اعتراها من عقبات وما حققته من انتصارات على الذات وعلى الآخر، وما ابتليت به من هزائم وما عرفته من تحولات واندثار مناهج ومدارس فكرية وإرتقاء مناهج بديلة على أنقاضها، قد تكون أكثر جذرية وعلمية وشمولية ومستقبلية.

1 –حول الثقافة : المفهوم والموقف

جهد الباحثون منذ القدم وما زالوا في محاولة التوصل إلى تحديد مفهوم الثقافة وصياغة تعريف له، فتعدّدت المفاهيم وكثرت التعريفات، اللغويّة والعلميّة والفكريّة والأدبيّة والاجتماعيّة والسياسيّة ....وحتى الفلسفيّة. والواقع أنّ كل ما قيل في هذا المجال حمل بعضًا من حقيقتها إلا أنّه لم يحمل الحقيقة كلها.

فالثقافة باتّساعها وتنوّعها أرحب من أن تحصر في تعريف ضيق، وهي بطبيعتها المتحرّكة والدائمة التغيير لا تعرف حدًا أو حدودًا وبالتّالي لا يمكن ضبطها في أطر ثابتة وموحدة. وتعريف الثقافة عند كل شخص أو فئة أو عصر أو منطقة جغرافية تنطلق من نقطة اهتمام معينة تعني هذا الشخص أو الفئة أو العصر أو المنطقة الجغرافيّة دون سواها، وعلى الرغم من وجود بعض القواسم المشتركة التي زادت عبر الانفتاح والتطور التكنولوجي ووسائل التواصل الاجتماعيّ السريعة. من هنا تصبح النظرة والرؤية والتعريف تتوقف على نقطة الاهتمام والتي ينظر من خلالها للواقع والجزء الذي يرى فيه أو منه. مثل الثقافة كمثل الحقيقة عند أهل «التاو» في فلسفة قدماء أهل الصين. فعندما سئل حكيمهم ما هي الحقيقة؟ أجاب «الحقيقة فيل عظيم ضخم محصور ضمن غرفة ضيقة فأنت كلما نظرت من ثقب أو نافذة أو كوة في الغرفة ترى جزءًا من الفيل غير ذاك الذي تراه من ثقب أخر أو نافذة أخرى أو كوة أخرى. إنك في كل ذلك ترى أجزاء ولا ترى الفيل بكامله».

فالثقافـة ليسـت جزئيـات أو تراكـمًا لهـا، إنـما هـي كل متكامـل ومتفاعـل لا يتجـزأ ولا ينفصـل ولا يهيمـن جـزء منـه عـلى الآخـر، ولـكل جانـب مـن جوانبهـا وظيفتـه ودوره وموقعـه الـذي يتآلـف في النهايـة ليشـكل كلًا إنسـانيًا راقيًـا منسـجمًا متفاعـلًا مـع ذاتـه وعالمـه. إنّها وسـيلة التعبـير عـن مكنونـات الإنسـان في كل زمـان ومـكان.

فالثقافـة إذا ليسـت شـعرًا، أو رسـمًا ونحتًـا ، أو روايـة وقصـة قصـيرة، أو مسرحيـة أو موسـيقى ملهمـه...أو مـا إلى ذلـك مـن فنـون جميلـة تعبيريّـة أو رمزيّـة فحسـب، بـل هـي ذلـك كلّـه، بالإضافـة إلى مـا يفـترض أن تشـكّله مـن قاعـدة لانطـلاق مفاهيـم جديـدة ورسـم معـالم مشرقـة عـلى طريـق التّحـرّر والنهضـة والتقـدم، وتحديـد مضامـين جديـدة للوعـي واللاوعـي البـشري للإنسـان كمواطـن وإنسـان في الوقـت ذاتـه، وهـي الزاويـة المضيئـة أو المنظـار الـذي ينظـر مـن خلالهـا، أو مـن خلالـه، الإنسـان إلى نفسـه، إلى عالمـه الإنسـانيّ الواسـع الأطـراف الـذي ليـس لـه حـدود وإلى الكـون ومـا وراءه. إنهـا الطريـق، أو الطرائـق، البوصلـة أو المـؤشر والدليـل الـذي يحـدد معـالم الحيـاة وقيمهـا وكيفيـة التعبـير الصـادق عـن المشـاعر والأحاسـيس والأحـلام والـرؤى وكبتهـا أو لجمهـا. إنهـا تعبـير عـن مفهـوم فلسـفي راقٍ للإنسـان ولأوجـه الحيـاة كافـة المنبثقـة عنـه والمرتبطـة جدليًـا بحياتـه اليوميـة.

وعـلى هـذا الأسـاس لا يحـق لأحـد مـا أن يخـرج عـن تلـك المفاهيـم الأسـس، ولا أن يدعـي في أي حـال مـن الأحـوال، الإمسـاك بجوهـر الثقافـة أو الإحاطـة بإمتداداتهـا أو اكتنـاه أسرارهـا وبالتّـالي الإدعـاء بإمكانيـة الوصـول إلى تعريـف نهائـي لهـا جامـع مانـع، ولا تعنينـا هنـا التعريفـات الأكاديميـة ومـا أكثرهـا.

علينـا أن ننظـر إلى الثقافـة مـن نقطـة محـددة، لنـرى منهـا جـزءًا محـددًا، نظـن أنّـه يعنينـا في أيامنـا هـذه كـما عنـى مـن سـبقونا مـن أزمنـة محـددة، ربـما تشـابهت بعـض ظروفهـا مـع مـا نحـن فيـه، وإنـما ننظـر نحـن بعـين ورؤيـة مختلفتـين.

ففـي زمـن تنهـزم فيـه الأمّـة كل يـوم، زمـن التراجعـات والإنهيـارات والقتـل الجماعـي والابـادات، وسـيطرة الحقـد والتشـفي والتدمـير للبنـى كافـة، والتفلـت مـن أي رادع عقـلي أو اخلاقـي أو إنسـاني، ممـا انعكـس بشـكل أو بآخـر عـلى المستوى الثقـافي العـام.

وفي ظـل واقـع مريـر، مـؤلم ومبـكٍ في آن، حيـث بتنـا نفتقـد الإبـداع والخلـق والتنويـع والتنـوع، والنقـد والمواجهـة، وغـاب عـن المـسرح، إلى هـذا الحـد أو ذاك، المثقـف الرافـض لبنـى الواقـع المهترئـة، والفـارض رؤى وتطلعـات وتوجهـات مغايـرة تلتـزم بقضايـا الشـعوب ومشـاكلهم وطموحاتهـم اليوميـة، وتعـبر عـن هواجسـهم وتخوفهـم، وتخفّـف مـن حالـة القلـق اليومـي المسـيطرة عـلى أذهانهـم وعلاقاتهـم الاجتماعيّـة . المثقـف الـذي يطـرح رؤى تتصـدى لنـزع كل الأوهـام والرواسـب المعشعشـة في رؤوسـنا عـلى مـدى سـنين طويلـة، وأحالتنـا أحجـار شـطرنج تحـرّكهـا الميـول والنزعـات البائسـة، المتأخـرة **والمفوتـة** والمتسـاقطة.

في زمن، أُحتقر فيه الإنسان كقيمة بحد ذاته وأُنتزع منه الحد الأدنى من الحقوق التي يفترض أن تتوفر له. حقه في الحياة بكرامة ومن دون خوف أو ضياع، حقّه في ممارسة حريته بما للحرية من دورٍ في صنع الإنسان واستقراره وتقدمه.

في زمن غابت فيه، حتى بعض المظاهر الديمقراطية المخصية التي كنا ننعم بها من قبل، وخيّم شبح الاستبداد الشرقي والقتل الجماعي والإبادة بكل أشكالها، مما حدّ من حركة الفرد والجماعة ، وكم الأفواه وأخرسها، وتعطلت العقول وسادت ثقافة الأسطورة والخرافه وانحدر الإبداع بكل تلاوينه .

في زمن تفككت فيه بنى المجتمع ، وانهارت عماراته المتماسكة الشامخة، لتتحوّل إلى علب متصدعة قابلة للاهتزاز والتمزّق والاختراق في كل لحظة، وصدأ قاعها ولم يعد يصلح إلى تراكم وتجدد .

في زمن اليأس المقيت هذا، تصبح الثقافة الملتزمة، الهادفة، المتحررة من كل قيد، المعبرة فعلًا عن هواجس الناس وتطلعاتهم، الرافضة للاستسلام والهزيمة، الداعية لحشد الطاقات وتوحيد الجهود لمواجهة ما آلت اليه الأوضاع من مرارة وبؤس ودمار وفناء، في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى، تصبح الثقافة حاجة فعلية يومية يجب أن تتجدد على الدوام. وعلينا أن ننظر إلى الثقافة بما لها من انعكاس على الواقع بكل ما فيه من مؤسسات وأفراد وقضايا ومشاكل وهموم. وأن ننظر إليها لجهة مردودها العملي لا مفهومها النظري.

من هذا الواقع والموقع والمنظار تتخطى الثقافه حدود المعلومات والمعارف، وتتجاوز عملية الاستيعاب والصهر لهذه وتلك داخل الذات، لتتحوّل عملًا مطابقًا متساميًا نحو الأفضل، فهذا أعمق للذات وأغنى. إنّها مسؤولية فكرية وضميرية، وهي بالنهاية تعبير عن موقفٍ ملزم للذات من كل ما يحيط بها في هذا الكون من الآلة إلى البشر فالشجر والحجر. الثقافة موقف ملتزم، ملزم لذات صاحبه قبل الأخرين وهذا الالتزام للذّات قبل الآخر، يحفظ للثقافة تواضعها السقراطي ويمنع عنها السقوط .

عندها فقط تكون الثقافة موقفًا، ويصير الموقف شهادة، شهادة للحقيقة لما نراه فعلًا حقيقة، شهادة للذات وعلى الذات في آن، شهادة صارخة مدّوية يسمع صوتها الآخرون همسًا رقيقًا رؤوفاً حنونًا.

وعندما تصبح ثقافتنا موقفًا ...فشهادة، تردم الهوة بين الموقف والشهادة، بين النظري والعملي، تصير ممارسة عفوية صادقة متواضعة. ولا تستحق الثقافة اسمها إلا متى وصلت إلى هذا الحد، وكلّ ثقافة لا تبرمج الموقف فيها ممارسة، كل ثقافة لا تؤدي بالموقف إلى الشهادة، هي ضرب من الترف الفكري القائم على انفصام، أو هي ضرب من الرياء والكذب على الذات قبل أن تتحول كذباً على الآخرين.

2-الجمعيات والأندية : المفهوم -النشأة -الأهداف -الممارسات

الظاهرات الاجتماعيّة أو ما يطلق عليه «أحوال المجتمع الإنسانيّ» هي مجموعة النظم والقواعد والاتّجاهات العامة التي يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما ويتخذونها أساسًا عامًا لتنظيم حياتهم وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم ، كالنظم التي يسير عليها المجتمع في شؤونه الحياتيّة والاقتصاديّة والخلقيّة والعائليّة والتربويّة والسياسيّة والقضائيّة ...وما إلى ذلك.

لقد قسّم علماء الإجتماع هذه الظواهر أقسامًا متعددة بحسبان وظائفها، أي الأغراض والأهداف التي ترمي إليها والنواحي التي تقوم بتنظيمها:

- منها النظم السياسيّة، التي تتعلق بشؤون الحكم وإدارة الدولة، وتوزيع السلطات فيها، والتنسيق بين هذه السلطات وتحديد دور وخصائص كل سلطة، والحقوق والواجبات لدى الأفراد والجماعات، وعلاقات الدولة بما عداها في الداخل والخارج.
- ومنها النظم الاقتصاديّة، التي تتناول شؤون الثروة في المجتمع وطرق إنتاج الثروة، وكيفية تداولها وتوزيعها واستهلاكها واعادة إنتاجها وتطوير وسائل الإنتاج ..وما إلى ذلك .
- ومنها النظم الخلقية، التي تميز بين الفضيلة والرذيلة، الخير والشر، العرف الاجتماعيّ ومدى احترامه القوانين العامة التي تسري على الجميع .
- ومنها النظم العائلية، أي شؤون الأسرة وتنظيم العلاقات في ما بين أفرادها وعلاقاتهم مع الغير، وتحديد حقوق وواجبات كل منهم، ونظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث ..
- ومنها النظم القضائيّة التي تشرف على شؤون المسؤولية الفرديّة والجماعيّة وتحديد الجزاء وتحديد العقود واجراءات التقاضي عند الاختلاف على مسألة ما .
- ومنها النظم اللغويّة التي تحدد كيفية التفاهم والتخاطب بين أفراد المجتمع الواحد، ونقل الأفكار، ونشر المنتجات.
- ومنها النظم الدينيّة التي تتعلق بالعقائد وفهم العالم وما وراء الطبيعة وعلاقة الأديان ببعضها، والقواعد والتعاليم وتنظيم الممارسات الدينية.
- ومنها النظم الجماليّة التي تهتم بشؤون الجمال والفن من أدب وشعر وموسيقى ورسم ونحت وغناء وتصوير وتمثيل ومسرح وما إلى ذلك .
- والنظم التربويّة : التي تهتم بشؤون التربية والتعليم وتكوين الجيل الناشئ وتحضيره وإعداده للحياة المستقبلية .
- ومنها أيضًا النظم التي تتعلق بشؤون « البنيّة الاجتماعيّة » أو «نظم التكتل الجماعيّ» وكيفية إنشاء التكتلات والفرق والجماعات وعلاقات أفرادها ببعضهم وعلاقاتهم مع السلطات والخارج وتحديد المناهج ... وما إلى ذلك.

وإذا دقّقنا مليًّا في هذه الظواهر والنظم الناتجة عنها نجد أنها تدفع إلى الحد من الحرية في سلوكيات الأفراد وتضع تفكيرهم وعملهم ضمن قوالب محدّدة. وبما أن الإنسان بطبيعته وفطرته ميال نحو الحرية والتحرر ويعارض كل ما هو جامد ومفروض عليه، إمّا بالعلن أو بالسر، فإنه يلجأ عبر أي وسيلة تواصل مع الآخر: الكتابة أو الحوار أو التنسيق والتفاهم أو أي صيغة جديدة للتلاقي، وبث ما لديه من أفكار وهموم وتطلعات، فإنه لجأ في الوقت نفسه إلى تشكيل حالة ما مكونةٍ من عدد من الأشخاص الذين تفاهم معهم.

هذه الحالة التي تأخذ أشكالًا مختلفة غير محددة، يطلق عليها جمعية، وهي مشتقة من «جمع» «جماعة» «جمعية»، وعندما تضع لنفسها نظامًا خاصًا بها وأهدافًا تبتغي الوصول اليها، ووسيلة تواصل تعبر فيها ومن خلالها عن مكنوناتها، وتلتقي في أروقة محددة وبشكل دوري، تأخذ الجمعية اسم نادي أو منتدى، واذا توسعت الأفكار والأهداف لتطال مناطق جغرافية أوسع وتحدد أهدافًا ذات أبعاد سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وتربويّة وما إلى ذلك، تتحول الجمعية إلى حزب، او حركة سياسية، أو أي إسم مشابه .

وفي جميع بلدان العالم، الراقية والمتأخرة، الكبيرة والصغيرة، المتحضرة والمتخلفة يتجه الإنسان فيها إلى اثبات الذات عبر شكل ما من أشكال التجمع او الجمعيات أو المنتديات.

وفي ظل أنظمة الإستبداد والقهر وكم الأفواه، تصبح الجمعيات عملًا مرفوضًا من قبل السلطات المعنية، وتتحول إلى لقاءات شبه سرية وقليلة العدد وذات تطلعات جد محددة .أما في الدول الديمقراطية، دولة القانون والمؤسسات والمواطنة، تعطى الحرية للناس لتشكيل ما يشاؤون من جمعيات ومنتديات، وفق الأنظمة المرعية ويكون عمل هذه التّجمعات علنيًّا ومن دون قيود .

3-علاقة الجمعيات والأنديّة بالثّقافة والمجتمع .

مما لا شك فيه أنّ الذين يحملون توجهًّا ما: أدبيًّا، علميًّا، اجتماعيّاً، رياضيّاً، سياسيًّا، بيئيًّا...الخ هم الأقرب من غيرهم إلى التّلاقي والتّفاهم والتّوصّل إلى أشكال منظمة تكون أداة لتحقيق هذه التوجهات.

من هنا يمكننا القول إن الأنديّة والجمعيات ارتبطت بشكل مباشر بأسماء ناشطين كل في مجاله. وكان لتركيبة المجتمع ومدى تقدمه وميول الناس فيه، والأحداث المتصارعة بداخله، والتحديات التي تواجهه ...كان لكل ذلك الدور الأساس في تشكيل الأندية والجمعيات الاجتماعيّة التي تهتم بشؤون المجتمع وتعمل على تغيير الواقع الذي هو عليه، وإحراز خطوات نحو التقدّم. كما كان للأدباء والشعراء والكتبة والفنانين وطلاب الجامعات الدور الأساس في إنشاء الأندية الثقافيّة وممارسة مختلف النشاطات الفكريّة والأدبيّة والثقافيّة ضمن هذه الأطر.

وإذا كانت الظروف الاجتماعيّة الموسومة بالتأخّر والتخلّف والتمسّك بالعادات والتقاليد الموروثة وارتباط الناس بشكل أو بآخر بالزعيم أو القائد أو الحاكم أو القوي، مما يحول دون تقدمهم وتطورهم وتحديث سبل عيشهم، وإذا كانت هذه الظروف تفرض ضرورة إنشاء أكبر عدد ممكن من الجمعيات والمنتديات العاملة على تغيير بنى الواقع الاجتماعيّ، إلا أنّه ومع الأسف لم يلعب المثقفون هذا الدور كما يجب، سوى قلة قليلة منهم، وشكا معظم الناس عبر الأزمنة، من انفصال المثقفين عامة عمن حوّلهم وعمّا حولهم، إذ ترفعوا عن العامة وجمعوا المعارف والعلوم لغاية المعرفة والعلم، وعاشوا انفصامًا بين معارفهم ومسلكهم، فكانوا بذلك هدفًا سهلًا لسهام الرماة، مما جعل الثقافة مكسر عصا، ونفور الناس عن المثقفين الذين تقاعسوا عن المهام المرجوة منهم والمسؤولية المنوطة بهم، وعملوا أحيانًا عكسها.

وهكذا افتقدنا كغيرنا من المناطق والبلدان المثقف العضوي المنتمي إلى جماعة، الذي يعبر عن همومها، ويعي قضاياها، ويدافع عنها؛ وعاش أغلب المثقفين حالة غربة، وكما قلتُ باستثناء قلّة محددة من العلماء والأدباء والشعراء والكتبة والأساتذة الذين بادروا وساهموا في إنشاء العديد من الجمعيات والأندية، بمختلف التوجهات والغايات، منها من عاش حقبة طويلة من الزمن ولا يزال، ومنها من انتهى مع انتهاء السبب وعلة وجوده، ومنها من أخفق لأسباب عدّة: ذاتية وموضوعية.

إلا أنه لا بد من القول إنّ الأندية والجمعيات والحركات الثقافيّة والمؤسسات الثقافيّة والاجتماعيّة ، لعبت دورًا رياديًّا في عملية استنهاض الناس وتقدّم الشعوب وتطورها وذلك من خلال ما أرسته من قيم وعمقته من وعي والتزام والتصاق بالواقع، وساهمت في بلورة وإنشاء مختلف الحركات السياسيّة التي عرفناها والتي نعرف معظمها اليوم، حركات وأحزاب يعمل كل منها في إطار تحقيق غايات محدّدة، ويعتقد روّادها أنّهم بعملهم يساهمون في إرساء عملية التغيير والتحديث والنهضة والتقدم. حركات سياسية ساهمت بشكل أو بأخر بإحداث نقلة نوعية في إعادة بناء المجتمع ومؤسساته الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة. وإذا ألقينا نظرة سريعة على الجمعيات والهيئات الثقافيّة التي نشأت في أواخر عصر النهضة في عالمنا العربي فإننا نرى مدى مساهمتها في تفعيل الحركات السياسيّة التي واجهت المستعمر القديم وشكّلت نواة لحركة التحرّر العربيّة والوطنيّة واكتسبت بمرحلة ما بعض استقلال لدولها، هذا الاستقلال الذي يفترض أن يكتسب على الدوام.

في أجواء هذه المناخات الفكريّة والأدبيّة والاجتماعيّة نشأت وتكونت معظم الأنديّة والجمعيات، وزاد عدد الكتاب والمفكرين والشعراء والأدباء والعلماء، وانتشرت الدّواوين وحلقات الحوار والديوانيّات، وكثرت، بل تفاقمت النشاطات الثقافيّة والاجتماعيّة ، وبدأنا نلامس تشكيل بنى مجتمع مدني حديث وعصري، تكالبت عليه قوى الشر والتأخّر وهمشته ليتراجع ويبدأ التفكير الجدي لإعادة التأسيس والبناء من جديد.

4-نظرة عامة حول طبيعة جبل عامل : الجغرافيا -المجتمع -المزاج الشعبي

يقول الأمير شكيب أرسلان : «لا بد أن مؤرخي العرب أنفقوا على كون حمّير وكهلان وأشعر وعمرو وعاملة هم أولاد يشجب بن يعرب بن قحطان، وأن من حمّير: التيابعة وبني شيبان وقضاعة، ومن كهلان الأزد وطي ومذحج وهمدان وكنده ومراد وأنمار، وأما أشعر فهي القبيلة التي ينتسب اليها أبو موسى الأشعري، وأما عمرو فمنهم لخم وجذام، وأما عاملة فإنهم خرجوا إلى الشام ونزلوا بالغرب من دمشق بجبل عرف بجبل عامل نسبة إليها». ويقول الأصفهاني «سمي جبل عامل أو عاملة نسبة لعاملة القبيلة القحطانية التي نزلت الديار الشامية عندما هاجرت من اليمن بعد «سيل العرم» مع من هاجر من قبائل الجنوب كلخم وغسان وجذام، وهؤلاء أخوة لعاملة،وهم جميعًا أبناء سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان».

ولم يشتهر جبل عامل بهذا الإسم إلا في القرون الخمسة المتأخرة ، حيث خرج من هذا الجبل علماء وأدباء ذاع صيتهم وخصوصًا في العراق وبلاد العجم ، فكانوا يحترمون احترامًا فائقًا، ولا يوجد كتاب من كتب «الشيعة» إلا وذكر فيه أسماء العديد من علماء جبل عامل.

وقد عرفت بلاد عاملة في الزمن الأخير باسم بلاد بشارة منذ دخلت بلاد الشام في حوزة العثمانيين. ويقال إنّ بشارة هو الأمير بشارة بن معن من أسرة المعنيين التي حكمت من 1516 حتى 1697م ومنهم من قال إنّه بشارة بن مقبل القحطاني، وإنّ المنطقة التي قام بها عرفت باسمه من عهده لغاية اليوم، وقد نفى كل من السيد محسن الأمين والشيخ سليمان ظاهر هذه المعلومات، إلى أن قال السيد محسن الأمين «إنّ بشارة هو بشارة بن أسد الدين بن عامر العاملي السبئي الذي كان في عصر صلاح الدين، وحضر معه وفتح حصن هونين سنة 583 م وأقطعه بانياس وفتح السواحل الشامية واستمر حكمهم في بلاد بشارة إلى ما بعد الألف».

هذا الجبل الذي عرف أيضًا ببلاد المتاولة هو عبارة عن صيدا – صور – مرجعيون وقاعدة الأقضية الثلاث صيدا ويتبعها النبطية ونحو أكثر من 130قرية ومزرعة، وصور ويتبعها ناحية تبنين و115 قرية ومزرعة ومرجعيون ويتبعها نحو 54 قرية ومزرعة.

عاش سكان هذا الجبل حياة اجتماعيّة تتماثل مع ميولهم الدينية والعادات والتقاليد، والطبيعة الجغرافية، وتخدم توجهاتهم الفكريّة والثقافيّة والسياسيّة. وكان لهم مواقف متباينة من الحكم العثماني والخلافة، وكذلك عندما أُعلن عن إنشاء «لبنان الكبير»، فمنهم من كان مع انضمام بلادهم إلى هذا اللبنان ومنهم من تمسك ببقاء عاملة ضمن جغرافية

سوريا وبلاد الشام. هذه التطلعات وتلك المواقف، كان لها الأثر الكبير على المزاج الشعبي، وعلى تشكيل الفرق والمجموعات وبزوغ كم من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين، والمشاركة الفعالة بالمؤتمرات التي عقدت سواء في داخل جغرافية الجبل أو خارجه وخارج لبنان. وحددت وأطلقت مواقف شجاعة من الأمور العامة، وتمّت مواجهة التحديات التي تحدق بهم بمختلف وسائل المواجهة: الأدبيّة والسياسيّة والعسكريّة. ما انعكس بالتالي على تأسيس الجمعيات والمنتديات، وكثرة الدواوين والديوانيات وزيادة عدد المنتسبين إلى جمعيات خارج الحدود والمشاركة الفعالة في أنشطتها واعلان مواقفها. كما أسّسوا فروعًا لبعض المنتديات المشكّلة في الخارج داخل جبل عامل كالمنتدى الأدبي المشكّل في الأستانة حيث تم تشكيل فرع له في النبطية بتوجهات من قبل الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والسيد محمد جابر وذلك في 1914/ 10/ 26. وهكذا استمرت الحركة الثقافيّة والاجتماعيّة ناشطة في جبل عامل منذ تلك الأوقات إلى يومنا هذا، حيث تكونت في بلاد عاملة مئات الجمعيات والمنتديات بمشارب وتوجهات وأفكار وأهداف وغايات مختلفة.

5- الأندية والجمعيات في جبل عامل: كيف ومتى ؟ وواقعها اليوم.

إذا عدنا إلى الوراء، إلى الحديث عن مفهوم الثقافة وإلتزام المثقف العضوي ودوره الفاعل في المجتمع، يمكننا القول إنّ لبروز العشرات من الشخصيات العلميّة والثقافيّة والفكريّة والمؤرخين في جبل عامل كان له الأثر البالغ في عملية تأسيس وازدهار الجمعيات والأندية في المنطقة، حيث شكّلت لهم هذه المؤسسات منابر يعبّرون من خلالها عن هواجسهم وتطلعاتهم وتوجهاتهم ووسيلة للتلاقي مع الآخرين وكسب صداقاتهم ونشر مواقفهم ونتاجهم، وبالتالي انحياز نخب ثقافيه واجتماعيّة إلى أهدافهم وتشجيعهم ودعمهم لمواقفهم الجريئة الممانعة. ولم تؤثر مظاهر الاستبداد والتسلط والقهر السائدة التي مورست في العهد العثماني وأيام الانتداب الفرنسي على شخصيات جبل عامل، بل زادتهم شجاعة في اتخاذ المواقف الجريئة الرافضة والمتصارعة مع قوى الهيمنة والسيطرة والاستعمار، واندفعوا بحماسة إلى تشكيل الأطر والمؤسسات التي يتحركون من خلالها، فكانت الجمعيات والأندية، وبالتالي الكتل السياسيّة والاجتماعيّة فالأحزاب. وخاضوا صراعات مريرة لاثبات وجودهم والعمل لوضع حدّ للهيمنة وطرد المحتل والمستعمر. وحاكوا وشاركوا في مؤتمرات سجّلها التاريخ كان لها الأثر والتأثير على تغيير الواقع. كما أسّسوا الجرائد والمجلات، ونشروا مختلف أنواع المعرفة، وبنوا المدارس التي خرّجت عشرات العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء، كما أنشأوا أوّل مطبعة في المنطقة: مطبعة العرفان في صيدا عام 1910 التي أنشأها الشيخ أحمد عارف الزين ليطبع عبرها مجلته الشهيرة «العرفان»، وتبعها طباعة الجرائد والمجلات والكتب وبعض الأشغال التجاريه

والحكومية، ولا تزال هذه المطبعة تشكّل ركيزة الطباعة في جنوب لبنان. ثم نشأت مطبعة النهضة المرجعيونية في مرجعيون ومطبعة جديدة المرج في مرجعيون أيضا عام 1930 م.

لقد عُرف عن العامليين رفضهم للواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ السائد، وكان لديهم تطلعات واضحة وجريئة تدعو إلى الاصلاح والتغيير، ومن خلال ذلك، رأوا أنّ السير مع النهضة والتّحرر يتطلّب جهودًا اجتماعيّة إضافيّة تكون ثمرتها الخدمة الوطنية العامة ورفع مستوى أبناء جيلهم الثقافيّ والعلميّ والأخلاقيّ، فعمدوا إلى إنشاء جمعيات ومؤسسات أدبيّة تنطلق من خلالها نشاطاتهم الجماعية. هذه الجمعيات كانت إما صاحبة توجّه ودعوة أدبيّة يثور من خلالها المنتسبون إليها والأصدقاء على الأساليب والعادات القديمة البالية ويعملون لإرساء أساليب وقيم جديدة وإحداث نهضة أدبيّة وفكريّة، وإما أن تكون مؤسسات ذات غايات اجتماعيّة وتربويّة واقتصاديّة، ومن حصيلتها يتم فتح مدارس وإنشاء كليّات أدّت دورًا بارزًا في إحياء وإرساء بذرة النهضة والتقدم.

هكذا يمكننا القول إنّ نشوء أغلبية الجمعيات والمنتديات في جبل عامل، منذ قرنين لغاية اليوم، اقترن بالنّشاط الأدبيّ والفكريّ والعلميّ للشّخصيات العامليّه، وإن اقترن في المرحلة الراهنة بعض من هذه المؤسسات بأحداث وتحركات وحركات سياسية محلية. على سبيل المثال وليس الحصر، نتعرف معًا إلى بعض هذه الشخصيات ودورها ونتاجها والجمعيات والمؤسسات الفكريّة والأدبيّة التي أطلقت من خلالهم:

- **الشيخ أحمد رضا:** هو أحمد بن إبراهيم بن محمد رضا العاملي. لقبه بهاء الدين العاملي. عاملي المنبت والجذور والمنشأ. عربي الموطن، مواليد النبطية عام 1872 م، مفكر ومؤرخ وأديب وشاعر، ثوري وقومي عربي، لـه مجموعات من الرسائل والكتب الفقهيّة والأدبيّة والقصائد الوطنيّة والقوميّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة. أدّى دورًا بارزًا في التربيّة والتعليم حيث كان يقول: «إن رقي الأمم والشعوب لا يكون إلاّ بسلوك العلم طريقًا، والعلم نور أزهر، وحياة هنيئة وهدى مفتدى وصراط مستقيم». وكان له الدور الأبرز في إنشاء «جمعية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة في النبطية»، التي تأسس من خلالها عدد من المدارس، كما أنشأ عام 1902 ندوة علمية دعيت «المحفل العلمي العاملي»، وسنة 1917 ساهم بإنشاء «الجمعية الخيريّة العاملية»، وعام 1923 كان أحد مؤسسي «دار الكتاب في المسجد الأقصى».

- **الشيخ سليمان ظاهر:** هو سليمان بن محمد بن علي بن إبراهيم بن حمود بن ظاهر زين الدين العامليّ النبطيّ. مواليد 1873م، مؤرخ وأديب ونهضوي. عام 1316 هـ أصبح عضوًّا في «جمعية التعاون الخيري العام». وهو أحد مؤسسي المحفل العلمي العاملي. ثم كان عضوًّا بارزًا في فرع جمعية «الإتحاد والترقي»، وعضوًا في الجمعية الخيريّة العامليّة،

وعمدة المدرسة الدينيّة التي جدّدها الحاج حسين الزين وأخوه يوسف الزين. ورئيس جمعية «نشر العلم في صيدا». وأحد أعضاء المؤتمر الإسلامي في القدس 1931م. وعضوًا في مؤتمر بلودان، ومؤتمر الساحل 1936م، ومؤتمر الوحدة السورية 1928، وأحد أعضاء جمعية العلماء العاملية وعضو شرف في جمعية «الرابطة الأدبيّة النجفية».

-الشيخ أحمد عارف الزين: هو ابن الحاج عارف بن علي سليمان الزين، مواليد شحور 1884م .نشأ في شحور وفي صيدا. صحافيّ وأديب وسياسيّ. بدأ حياته الصحفيّة والأدبيّة والسياسيّة في سن مبكرة، كتب في «ثمرات الفنون والاتحاد العثماني» وجريدة «الأخبار» وأسس مجلة «العرفان» التي ألتصقت به، وكان له دورٌ أدبيٌّ وسياسيٌّ بارز. اشترك في تأسيس جمعية «نشر العلم» عام 1912، وأصبح رئيسًا لها. أنشأ مخيمًا سنويًّا للشّباب العامليّ، كما كان أحد أعضاء البعثة العلميّة التي زارت القاهرة عام 1938.

-السيد عبد الحسين شرف الدين: هو السيد عبد الحسين بن الجواد بن اسماعيل بن محمد بن إبراهيم شرف الدين، عالم ومفكر وسياسي وأديب، وطني، وحدوي، إسلامي، دعا إلى إنشاء مدارس حديثة وشارك بعدد من الجمعيات.

-الشيخ عبد الحسين صادق: هو عبد الحسين بن إبراهيم بن صادق بن نجم الدين المخزومي. مواليد النجف عام 1862م. عاش في العراق وفي بلدته الخيام وفي النبطية. عالم ومفكر وأديب وشاعر، له العديد من المؤلفات، وهوأول من أسّس «حسينية» في بلاد عاملة. وهو عضوّ في عدد من الجمعيات الاجتماعيّة والأدبيّة.

-الشيخ أحمد عارف الحر: هو أحمد بن عارف بن صادق بن علي الحر. مواليد جباع 1910م. أديب وشاعر، ساهم في تأسيس «الرابطة الأدبيّة العاملية»، وسعى إلى إنشاء جمعية أدبيّة أطلق عليها اسم «رابطة شعراء جبل عامل».

-السيدة زهرة الحر: هي زهرة بنت الشيخ جواد بن حسين بن سعيد الحر. ولدت في صور 1917. شاعرة وأديبة وناشطة اجتماعيّة ، ساهمت في تأسيس العديد من الجمعيات والروابط الأدبيّة النسائيّة أهمها: الرابطة الأدبيّة العامليّة، المجلس الثقافيّ في الجنوب، جمعية نساء جبل عامل، جمعية الاتّحاد النسائيّ في صور، جمعيات الشابات المسلمات، جمعية النهضة النسائيّة في صيدا، المجلس الوطني للتنمية العامة.

-الشيخ محمد جواد مغنية: هو محمد بن محمود بن محمد آل مغنية العاملي، ولد عام 1904م في قرية «طير دبا»، إحدى قرى قضاء صور في جبل عامل، مفكر، وأديب وصاحب رؤية فلسفية، له العديد من المؤلفات، شارك في أكثر من جمعية ومنتدى.

-الشاعر فؤاد جرداق : هو فؤاد بن سجعان جرداق ولد في مرجعيون عام 1909م شاعر وأديب وصحفي، ناضل ضد الانتداب الفرنسي واعتقل وله في ذلك قصائد سياسية ثورية، نبذ الطائفيّة وعمل مع أصدقاء له لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

-السيد محسن الأمين: ولد في قرية شقرا عام 1867، عالم وشاعر واصلاحي، أنشأ المدرسة العلوية للبنين، وأخرى للبنات، وجمعية « الاهتمام بتعليم الفقراء والأيتام»، كما أنشأ جمعية «الإحسان» وجمعية «المواساة».

-الشيخ علي الزين: ولد في النجف في العراق عام 1901م نشأ وترعرع في بلدة «جبشيت» إحدى قرى جبل عامل، أديب وشاعر وناقد ومؤرخ. كان بيته في جبشيت مقصدًا وملتقى للعلماء والأدباء والمفكرين في جبل عامل، له مؤلفات عدة ومقالات وأبحاث، له ألقاب عدّة اعترافًا بسمو أدبه وصراحة نقده وصحة تاريخه منها: عقّاد جبل عامل، عميد الأدب العاملي، مؤرخ الجنوب المضاد، الناقد اللاذع، نابغة الجبل، وغير ذلك. أسس في النجف جمعية «الشبيبة العاملية النجفية».

-الأستاذ حبيب صادق: أديب وشاعر وسياسي، نائب سابق في البرلمان اللبناني، انتسب إلى «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي». واقترن اسم المجلس باسمه منذ عقود من الزمن. له العديد من المؤلفات والدراسات، شارك في مؤتمرات عدة: أدبيّة واجتماعيّة وسياسيّة.

6-نماذج من بعض الجمعيات والأندية الثقافيّة والاجتماعيّة في جبل عامل منذ قرن ونصف ولغاية اليوم :

-جمعية المقاصد الخيريّة في صيدا: تأسست عام 1881م، وعام 1912 أنشئت جمعية ثانية تُعد مساعدة لها في أعمالها وهي جمعية «نشر العلم». رئيسها الشيخ أحمد عارف الزين، غايتها إرسال بعض الفقراء من الطلاب إلى المعاهد العالية لمتابعة تحصيلهم العلمي.

-جمعية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة في النبطية: بدأت نشاطها عام 1899م، من أهدافها تشجيع العلم وتأسيس المدارس وإقامة النشاطات الأدبيّة. من أعضائها: كامل بك الأسعد والد الزعيم أحمد الأسعد، فضل بك الحسن العاملي، الشيخ أحمد رضا، الشيخ سليمان ظاهر، محمد جابر، الحاج محمد ياسين، أنشأت المدرسة العلميّة في النبطية ومدرسة الزهراء، وخصّصت أماكن في وسط النبطيّة للقراءة والمطالعة ومركزًا لإلقاء المحاضرات الأدبيّة والدينيّة والعلميّة والزراعيّة.

-جمعية العلماء والأعيان: في عام 1893 تداعى عدد من العلماء والأعيان لاجتماع عُقد في النبطية لطرح فكرة إنشاء جمعية منهم، فشل الاجتماع، وفي عام 1909 جرت محاولة ثانية قام بها كامل بك ابن خليل الأسعد، وتم جمع التبرعات من الحاضرين وافقوا على إنشاء الجمعية ودعم جمعية المقاصد الإسلامية الخيريّة.

-الجمعية الخيريّة العاملية في صيدا : تأسست في آذار 1922، غايتها إنشاء المدارس ونشر العلم في جبل عامل ولا تتدخّل في السياسة، من مؤسّسيها وأعضاء الإدارة فيها: الشّيخ أحمد عارف الزين، الدكتور شريف عسيران، أديب فرحات، حسن عيسى وغيرهم.

-الجمعية الخيريّة الإسلامية العاملية : تأسست عام 1923 في بيروت وأشرف عليها عدد من أبناء جبل عامل المقيمين في بيروت. رئيسها المرحوم يوسف بيضون، عمدت الجمعية إلى فتح المدارس في بيروت وفي قرى جبل عامل، وكانت هذه الجمعية نواة للجمعية الحالية التي شيدت «الكلية العاملية» وملحقاتها في بيروت.

-جمعية النهضة المرجعيونية: تأسست عام 1923، أصدرت جريدة «النهضة المرجعيونية» عام 1927، أهدافها ثقافيّة وتعليميّة وتوجيهيّه.

-جمعية الشبيبة العامليّة النجفيّة: تأسست في النجف (العراق) عام 1925 م. غايتها علميّة، أدبيّة، وتأييد الجديد في الأدب والثقافة ومناهضة القديم، والثورة على التقليد. من أعضائها البارزين: الشيخ علي الزين– محمد شراره– هاشم الأمين– حسين مروة– محسن شرارة.

– جمعية النهضة العامليّة في النبطية: تشكلت عام 1927 م، وضع لها بيانها وقانونها السيد محمد جابر، وكان من بين أعضائها البارزين. انتمى إليها عدد وافر من الشباب والمثقفين في جبل عامل. غرضها تربويّ– ثقافيّ– تعليميّ.

– جمعية العلماء العامليين: في عام 1928، تنادى عدد من العلماء في جبل عامل وتوافقوا على تأسيس جمعية تهدف إلى إنشاء كلية علميّة عامليّة. إلا أنّ هذه الكلية لم تكمل عملها على الرّغم من صدور بيانها التأسيسي عام 1930م. من المؤسسين الشيخ حسين مغنية– السيد محسن الأمين وغيرهم.

– عصبة الأدب العاملي: أسس هذه العصبة عام 1935م عدد من الشباب العامليين الذين عادوا من النجف بعد انهاء دراساتهم العلمية. ترأسها الشيخ علي الزين. غايتها محاربة القديم والثورة على التقليد وتشجيع النقد الأدبي . كان لهذه الجمعية أثرٌ بالغٌ في إحداث النهضة الأدبيّة وتجديد الأدب. بلغت ذروة نشاطاتها عام 1928م، توقفت عام 1943 .

- **الرابطـة الأدبيّـة العامليّـة** : تأسسـت هـذه الجمعيـة للمشـاركة في إشـعال النهضـة الفكريّـة والأدبيّـة في جبـل عامـل. مـن بـين أعضائهـا الشـاعرة زهـرة الحـر- السـيد عـلي ابراهيـم- أحمـد الحـر- عـارف الحـر وغيرهـم.

كانـت هـذه الجمعيـات وغيرهـا في تلـك الفترة تهـدف إلى إحيـاء النهضـة العمرانيّـة والثقافيّة والعلميّـة في بـلاد عاملـة. وعملـت عـلى تشـجيع العلم والدراسـة وتوسـيع دائـرة المعارف وتشـجيع النقـد وصقـل الشـخصية العامليّـة وإثبـات الـذات العامليّـة في مواجهـة مـا يعـتري المنطقـة مـن تحديـات خارجيـة، ومقاومـة التقاليـد وتشـجيع الحـوار والعمـل ضمـن المؤسسـات.

أمـا في العـصر الحديـث، فهـذه نـماذج عـن عـدد مـن الأنديـة والجمعيـات والهيئـات والمجالـس الثقافيـة والاجتماعيّـة والعلميـة والبيئيّـة الناشـطة، وبالتـالي تقديـم لائحـة، غـير مكتملـة ، بأسـماء عـدد مـن الجمعيـات مصنفـة وفـق غايتهـا.

لقـد شـهدت منطقـة جبـل عامـل كغيرهـا مـن المناطـق اللبنانيـة فـورة في تشـكيل وتأسـيس الجمعيـات والأنديـة بأسـماء وغايـات متباينـة ومتشـابهة، حيـث تـمّ تأسـيس واطـلاق مئـات الأنديـة والجمعيـات الثقافيـة والاجتماعيّـة والبيئيّـة والرياضيّـة والفنيّـة والمتخصصـة. كما شـهدت المنطقـة ولا تـزال حلقـات حـوار وديوانيـات وورش عمـل وتنظيـم دورات تأهيـل في مختلـف المجـالات. ولم يبـق مدينـة أو حـي أو قريـة إلا ونشـأ فيهـا جمعيـة أو أكثـر تقاطعـت في نشـاطاتها وتضاربـت أحيانـا. تـم دعـم بعضهـا مـن جهـات سياسـية ودينيـة مختلفـة كـما تـمّ محاربـة البعـض الأخـر مـن قبـل ذات القـوى بشـتى الوسـائل المتاحـة: إمـا بالضغـط عـلى الأعضـاء أو التدخـل في تركيبـة هيئاتهـا الإداريـة وحـرف برامجهـا أو عـبر المضايقـات الماديـة والإعلاميـة وخـلاف ذلـك.

إن أغلـب هـذه الجمعيـات لا تحمـل مشروعًـا محـددًا كـما لا تملـك برنامجًـا مدروسًـا ومطابقًـا للواقـع، وغـير قـادرة عـلى تأمـين مركـز ثابـت لهـا، وليـس لديهـا الإمكانيـات الماديـة التـي تسـمح لهـا وتمكنهـا مـن تنفيـذ برامجهـا. يعمـل معظمهـا بالاسـتناد إلى العلاقـات الشـخصيّة للمسـؤولين عنهـا بالداخـل والخـارج، وتنتظـر الدعـم مـن جهـة أو زعيـم أو المغتربـين أو عـبر قـدرات الرئيـس الماليـة ودور الوجاهـة الـذي يلعبـه في بلدتـه أو عـلى مسـتوى المنطقـة.

تطلـق هـذه الجمعيـات نشـاطات موسـمية غـير منسـجمة أو متناسـقة، ينتهـي مفعولهـا بعـد إنتهـاء النشـاط مـن دون أثـر يذكـر، ويتعـرض معظمهـا، مـن فـترة إلى أخـرى ،إلى هـزات إداريـة عنـد أغلـب الإسـتحقاقات الإنتخابيّـة فيهـا.

عـدد قليـل مـن هـذه الجمعيـات والنـوادي استطاعت، إلى حـد مـا، أن تنسـجم مـع نفسـها ومـع غاياتهـا وعرفـت اسـتقلالية واسـتطاعت أن تقـدم برامـج وتنفـذ أنشـطة رغـم كل الصعـاب التـي تواجههـا والظـروف القاسـية التـي تعيشـها المنطقـة: احتـلال وحـروب وقصـف وتهجـير وقهـر وعـدوان ثـم ممانعـة ومقاومـة ومواجهـة وتحريـر وانتصـارات، مـع أمـل بغـد مـشرق وعزيـز.

وإليكم بعضًا من هذه الجمعيات، على سبيل المثال أيضا وليس الحصر.

-المجلس الثقافي للبنان الجنوبي:

تأسس عام 1964. غاياته: ثقافيّة – فكريّة- حواريّة واجتماعيّة . نشأ في الجنوب، ثم انتقل مركزه إلى بيروت. نفذ عشرات النشاطات المتنوعة، نظّم عدد من المؤتمرات، استقبل مئات الشعراء والمفكرين والمثقفين والفنانين العرب والأجانب. عرف من أعضائه الأولين عدد من الشخصيات الأدبيّة والفكريّة أمثال: عبد اللطيف شراره–صدر الدين شرف الدين-أحمد سويد– الشيخ علي الزين– عبد الكريم شمس الدين– عبد الرؤوف فضل الله –يوسف حوراني– جوزيف مغيزل– محمد فؤاد البوبو– حيسن مروه– جورج جرداق- حبيب صادق – سمير فياض –محمد علي مقلد– كامل جابر، وغيرهم من عشرات المثقفين والكتبة والباحثين والفنانين.

من أهم العوامل التي ساهمت في استمرار المجلس وزيادة نشاطيته وفاعليته:

أ –تقدير المجلس للثقافة كقيمة لها استقلاليتها وشموليتها في آن معا».

ب-لقد شكّل المجلس نقطة استقطاب للمثقفين في جبل عامل والجنوب على اختلاف ميولهم وأجيالهم، وكسر في الوقت نفسه جدار العزلة القائم حول الجنوب في فترة من الفترات قبل التحرير. كما شكّل نتاجه رافدًا من روافد الثقافة الوطنيّة والقوميّة والإنسانيّة.

ج–توجّهه إلى كلّ اللبنانيين الحريصين على وحدة لبنان وتحرّره.

د-نجاحه في أن يكون مكتبة حافلة بالفكر والأدب، بالتراث والأبحاث الجديدة، بالصورة المعبرة والحية.

ه-ربط المجلس بين النشاط الثقافي والعمل الوطني وساهم، إلى حد ما في بلورة القضية الوطنيّة الأولى أي قضية تحرير لبنان من الاحتلال الصهيوني والعمل على وحدته والتأكيد على عروبته.

يرأس المجلس الأستاذ محمد حبيب صادق منذ عشرات السنين، حتى التصق اسم المجلس باسم حبيب صادق الكاتب والباحث والشاعر والنائب السابق.

-نادي الشقيف الرياضيّ الثقافي: تأسس في النبطية عام 1963 تحت علم وخبر رقم 322 بصفته «نادي رياضيّ». إلا أنّه مارس معظم النشاطات الثقافيّة والاجتماعيّة والفنيّة، فاستحصل على علم وخبر جديد رقم 342 عام 1993 تحت اسم نادي الشقيف الثقافي.

حفل النادي بمئات النشاطات المختلفة، و شكل محورًا لتلاقي الشباب والمثقفين

والأندية في النبطية والجوار. وتمكن بمساعي الخيرين من بناء صرح له مع ما يحتوي من صالات ومطاعم ومنتزه وملعب رياضيّ ومواقف.

استقبل النادي عشرات المفكرين والوفود من الداخل اللبناني والخارج. ولا يزال يمارس نشاطاته على الرغم من تدخلات سياسية ضيقة الأفق من هنا وهناك .

من أهم الشخصيات التي ارتبط اسم النادي بها المرحوم المناضل الأستاذ عادل صباح الذي كرّس فترة من عمره للنادي وساهم بإحداث نقلة في عمل النادي وتوسعه وسمعته.

-جمعية هيئة الخدمات الاجتماعيّة في النبطية :

تأسست عام 1969 تحت علم وخبر 565/ د جمعية اجتماعيّة ، ثقافيّة، خدماتيّة ورياضيّة، كان لها دور فعال في النبطية واستقطبت العديد من أبناء النبطية على مختلف المستويات. ساهمت في تأمين الخدمات الصحيّة والاجتماعيّة للمنطقة، خدمة ورعاية،وتنظيم المأتم في شتى المجالات والنواحي، خدمة المناسبات الوطنية والدينية وتنشيط الحركة الرياضيّة في النبطية.

من أبرز شخصياتها السادة: حسن درويش، الحاج حسيب عواضه، علي أحمد طقش، زيد توفيق محي الدين، محمد سمير حاجعلي، عفيف جمعة، حسن صيداوي، أبو علي بيطار، مصطفى بدر الدين، وغيرهم العشرات.

-نادي التضامن الرياضيّ والثقافي في صور:

من الأندية العريقة في صور والجنوب، روّاده من روّاد الحركة القومية العربية، حفل بعشرات النشاطات الأدبيّة والفكريّة والرياضيّة، يقيم معرضًا سنويًّا للكتاب، تعرّض للمداهمة والعبث بمحتوياته أثناء الاحتلال الصهيوني للبنان. يعرف اليوم «كنادي رياضيّ» يمارس كرة القدم في الدرجة الأولى.

-جمعية تقدم المرأة في النبطية :

جمعية نسائية تهتم بشؤون المرأة وتحرّرها وتقدمها، استقطبت معظم نساء منطقة النبطية المثقفات والناشطات، شيدت صرحًا لها، قامت بعشرات النشاطات الأدبيّة والاجتماعيّة ، وفتحت دارًا للحضانة، شاركت الجمعيات والنوادي في المنطقة بكثير من الأنشطة، فتحت صرحها للجميع، من أهم من تعاقب على رئاستها: المرحومة فريحة الحاج علي، سلمى علي أحمد، زهرة صادق وغيرهن من خيرة نساء النبطية.

-مركز معروف سعد الثقافي :

نشأ في مدينة صيدا وارتبط اسمه باسم المناضل المرحوم مصطفى سعد، ناشط سياسي وأدبي وفكري، قام بمئات النشاطات وعقد المؤتمرات، وكرّم المناضلين الوطنيين والقوميين العرب، فتح صرحه لمعظم الكتاب والمفكرين والمناضلين اللبنانيين والعرب، وتمت في قاعاته معظم النشاطات الوطنية والقومية.

-جمعية أبناء بنت جبيل الثقافيّة :

جمعية ثقافيّة، اجتماعيّة خيريّة، ضمت معظم المثقفين من أبناء بنت جبيل في المدينة وخارجها والمهجر، قامت بسلسلة من النشاطات الفكريّة والأدبيّة وضمت في صفوفها نخبة من الكتاب والمفكرين.

-المركز الثقافي للبحوث والتوثيق في صيدا:

ثقافي، فكري، توثيقي، عقد سلسلة من اللقاءات والمؤتمرات لمناقشة مختلف القضايا الوطنيّة والقوميّة والأدبيّة والعلميّة. اقترن اسمه باسم المرحوم الدكتور مصطفى دندشلي الذي رعى المركز وكرّس معظم وقته له.

-مجمع حبوش الخيري :

جمعية اجتماعيّة، ثقافيّة، خيريّة، شيّدت صرحًا لها في بلدة حبوش وبنت مدرسة وجامعًا وقاعات للأنشطة المختلفة، ساهمت في تعليم عدد من الطلاب ونظّمت العديد من الدورات التأهيلية ، فتحت أول بنك لا ربوي اقترن اسم المجمع باسم العلامة السيد علي مكة.

-جمعية التنمية الاجتماعيّة والثقافيّة:

نشأت في النبطية بعد تحرير النبطية من الإحتلال، اجتماعيّة، ثقافيّة. قامت بسلسلة من النشاطات والمعارض العامة لمختلف إنتاج المنطقة الصناعي والزراعي والأدبي، استقبلت العديد من الفنانين والمفكرين والأدباء.

-جمعية البر والإحسان «جباع»:

اجتماعيّة وثقافيّة وصحيّة وتربويّة، لها العديد من النشاطات والخدمات في البلدة والمنطقة، مؤسسها والناشط فيها السيد محمد عيسى.

-جمعية هيئة حماية البيئة والمحافظة على التراث:

تأسست عام 1983، تهتم بشؤون البيئة والمحافظة على التراث، قامت بسلسلة من النشاطات البيئيّة وزراعة الأحراج وأشرفت على تنفيذها ورعايتها. استقبلت الكثير من الناشطين في مجالات الفكر والأدب والبيئة والفن والمسرح والسياسة، وعلماء دين ومؤرخين وكتبة، تعقد أول أربعاء من كل شهر نشاطًا فكريًّا أدبيًّا، اجتماعيّا، علميًّا، فنيّا. رئيسها الدكتور ماجد بعلبكي.

-هيئة تكريم العطاء المميز :

تأسست عام 1996 ثم اخذت علم وخبر رقم 51/أ.د عام 2000.تضم نخبة من الشخصيات المميزة والناشطة على مستوى المنطقة. كرّمت العديد من الشخصيات والمؤسسات التي لها أثر في المجتمع. عقدت عدد من المؤتمرات البيئيّة والتاريخيّة، جمعية ناشطة مستقلة سياسيًا على الرّغم من أن معظم المنتسبين اليها ينتمون إلى أحزاب وحركات سياسية ويؤدون دورًا مميزًا في المجتمع.

توالى على رئاستها كل من: أ. نظام حوماني،المرحوم د.حسن محمد نور الدين (الكاتب والباحث والشاعر)، د.مصطفى بدر الدين ويرأسها حاليًا الناشط الدكتور كاظم نور الدين.

-جمعية النجدة الشعبية اللبنانية:

تأسست في جنوب لبنان على أيدي نخبة من الأطباء والمميزين من خلال الحملات الصحيّة في قرى وبلدات الجنوب،على رأسهم الأستاذ سرحان سرحان والدكتور محمد دقيق والدكتور محمد ياسين والدكتور علي سرحان. أخذت العلم والخبر، وكان لها دور بارز أثناء العدوان على الجنوب، شيدت مستشفى النجدة الشعبية في النبطية بمساعدة من دولة الكويت. للجمعية فروع في عدد من المناطق اللبنانية. تهتم بالأمور الصحيّة والإنسانيّة ولها نشاطات أدبيّة وعلميّة وفكريّة وصحيّة .

-لجنة الصباح الوطنية :

تأسست عام 1953 ثم أخذت حلّة جديدة بعد تفعيلها عام 1982، اقترن اسمها بإسم العالم الكبير المخترع حسن كامل الصباح. تهتم بإبراز انتاج العالم الصباح، وإحياء ذكراه سنويًا ونشر كتبه وأبحاثه، تضم نخبة من آل الصباح في النبطية وغيرهم من المثقفين.

-نادي النبطية الفوقا الاجتماعيّ :

تأسس عام 1970، اجتماعيّ ثقافيّ، أدّى دورًا مميزًا على مستوى البلدة والمنطقة والوطن، قام بسلسلة من الأنشطة الاجتماعيّة والتربويّة والثقافيّة، دورات تعليم الخياطة، دورات محو الأمية، حملات تنظيف الشوارع، إحياء المناسبات الوطنية والقومية، عقد عددًا من المؤتمرات الشبابيّة والوطنيّة، يترأسه حاليًا الأستاذ أسد غندور.

-مركز كامل يوسف جابر الثقافي :

مؤسسة اجتماعيّة، ثقافيّة، تربويّة، شيّدت صرحًا واسعًا يستقطب مختلف نشاطات الأندية والجمعيات والأحزاب، تعقد فيه المؤتمرات في مختلف المجالات، عقد سلسلة من المحاضرات والندوات والأمسيات، كرّم العديد من الأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين، ارتبط اسم المركز باسم والد مؤسسه النائب والوزير ياسين جابر المرحوم كامل يوسف جابر.

-مؤسسة الإمداد الخيريّة:

جمعية تهتم بشؤون العائلات الفقيرة وأهالي وعائلات الشهداء، خيريّة اجتماعيّة، إنسانيّة لها العديد من الأنشطة والأعمال المميزة.

-رابطة المتقاعدين المدنيين :

تأسست عام2009، تضم وتهتم بشؤون المتقاعدين، أول جمعية في المنطقة تمارس مثل هذا النشاط، تضم نخبة من المتقاعدين المثقفين الناشطين في مختلف المجالات، لها نشاطات اجتماعيّة وأدبية وثقافيّة مميزة. وتقيم علاقات مميزة مع مختلف الجمعيات والنوادي في محافظة النبطية. تعد لبناء صرح لها بعد أن قدّم الدكتور والنائب علي عادل عسيران قطعة أرض لها لتشيد هذا الصرح. رئيسها الناشط الاجتماعيّ الأستاذ علي سعيد توبة.

ومن الجمعيات والنوادي وفق الأنشطة التي تمارسها:

*)على المستوى الاجتماعيّ : الجمعية الخيريّة في النبطية تأسست عام 1988، جمعية رعاية المعاق الخيريّة عام 1992، مؤسسة الشهيد، اتحاد المقعدين(حماية ودمج)، جمعية روح العمل الاجتماعيّة، نادي النهضة كفررمان، مركز الخدمات الإنمائية في عربصاليم، تجمع لبنان الواحد (الكيان)، جمعية الكفيف الجنوبي 1964، جمعية رعاية اليتيم، لجنة حقوق المرأة، جمعية المبرات الخيريّة، جمعية التعاضد – جمعية الرابطة الخيريّة لشباب كفرصير- جمعية العمل الخيري لابناء حبوش (1968) – جمعية البر والاحسان في صور (أسسها السيد عبد الحسين شرف الدين)- مؤسسات الإمام الصدر الخيريّة والاجتماعيّة – جمعية جهاد البناء- جمعية البيت الحرفي في النبطية ...

*)على المستوى الثقافيّ والأدبيّ والفكريّ: جمعية الفكر والأدب، الملتقى الثقافي اللبناني (الشيخ فضل مخدّر)، المنتدى الثقافي للفكر والأدب في بنت جبيل، الحركة الثقافيّة اللبنانية، نادي التحرر في كفررمان، منتدى الأرز الثقافي (أنصار)، منتدى صور الثقافي، بيت الشعر (موسى جعفر)، اللقاء الأدبي العاملي (2011)، نادي جويا الثقافي ..... وعشرات الأندية والجمعيات.

*)على المستوى الصحيّ : جمعية رعاية المعاق ، جمعية الجرحى ، الهيئة الصحيّة، الصليب الأحمر اللبناني، جمعية نور الصحيّة.

*)على المستوى البيئيّ: جمعية نداء الأرض في عربصاليم (د.زينب مقلد)، جمعية التنمية للإنسان والبيئة، جمعية أمواج البيئة، جمعية وكالة التنمية الاقتصاديّة المحلية.

*)على المستوى الشبابيّ: اتحاد الشباب الديمقراطي، بيت الطلبة الرساليين، نادي الأونسكو، بيت المصّور، تجمع شباب عربصاليم التطوعي.

*)الجمعيات الكشفية: كشافة التربية الوطنية، كشاف الجراح، الكشاف العاملي، كشافة المهدي، كشافة الرسالة، كشاف المسلم، الكشاف الماروني (صربا)، الكشاف اللبناني.

*)الأندية الرياضيّة: الأهلي صيدا، الفتيان الغازية، الأهلي النبطية، التضامن النبطية، البراعم الرياضيّ ونادي الريف الرياضيّ، وغيرها من عشرات الأندية في القرى والبلدات .

كلمة أخيرة :

بعد البحث والتدقيق، تبين أنّه يوجد في كل بلدة ومدينة في جبل عامل نادٍ أو جمعية أو منتدى ثقافي، اجتماعيّ، رياضيّ، صحيّ، بيئيّ، شبابيّ، فنيّ.

-خرج من الأندية التاريخيّة،لأسباب متعددة، مؤسسات مختلفة، إما متصالحة مع الأصل أو تختلف معها وتعارض توجهاتها.

– لكل زعامة تاريخيّة مركزها الثقافيّ أو الاجتماعيّ : مؤسسة الحريري الثقافيّة –مركز معروف سعد الثقافي– مجمع نبيه بري الثقافي – مركز كامل يوسف جابر الثقافي – الحركة الثقافيّة في لبنان ... وغيرها. ناهيك عن المؤسسات والجمعيات الدينية الكثيرة والمتنوعة.

–غياب شبه تام للحركات الثقافيّة الديمقراطية المستقلة التي تحمل مشروعا متكاملًا وتضع برامج تطويرية لعملها وتنسج روابط وعلاقات اجتماعيّة سليمة مع المجتمع بشكل عام، وترسي القيم الديمقراطية التي سادت في الدول المتقدمة، ما ساهم في تأخر الوعي العام وبقاء أغلبية الشباب رهن ردات الفعل المتخالفة والمختلفة، ودفع إلى انخراط هذا الكم الهائل من الشباب في أتون الحروب الأهلية المدمرة للمجتمع والقاضية على مستقبلهم، وساهم برفع مستوى التأخر والوصول إلى حافة الإنهيار على الأصعدة جميعها وبالأخص على الصعيد الفكري والثقافي والاجتماعيّ .

–لم تؤدِ الحركات والمؤسسات الثقافيية الثقافيّة دورًا مميزًا مؤثرًا وفاعلًا أثناء الحرب الأهلية القذرة التي شهد فصولها ومأسيها لبنان على مدى خمس عشرة سنة، وكذلك كانت شبه غائبة أثناء الاحتلال الصهيوني. يعود ذلك لأسباب منها: التوتر الدائم وغياب الاستقرار وردات الفعل والفعل المضاد– تغييب دور العقل– تفكّك الجماعات إلى كتل ضيقة مرتبطة بالمذهب والعشيرة والعائلة والمحلة.

–ندرة الجمعيات والمنتديات ذات البعد الوطني العام وذات منطلقات قومية، وغابت بحدود واسعة الحركات الثقافيّة التي تتجاوز حدود القرية والمحلة والمدينة ويكون لها امتداد جغرافيّ وطني وبالتالي قوميّ، وتضم عناصر متعددة المشارب والأعمار، ذكورًا وإناثًا، مما يغني الحركة أو المؤسسة، ناهيك عن تغييب لدور المرأة وفاعلية هذا الدور في إرساء النهضة والتقدم. وعلى الرّغم من كثرة الكلام عن أهمية الدور الذي يمكن أن تؤدّيه المرأة وضرورته، إلا أنه نشأت مؤسسات خجولة وغير فاعلة في هذا المجال.

– إرتبطت معظم الأندية والجمعيات والحركات الثقافيّة بالواقع الاجتماعيّ المترهل وتصالحت مع الواقع، فكانت ضيقة الأفق، وأكثرها:

أ–إما مرتبطة مباشرة بالسلطات القائمة.

ب–وإما على أطراف هذه السلطات وزعاماتها وتحت وصايتها بحجة ضرورة وجود السقف والراعي.

ج–أو مرتبطة ببعض رموز المعارضة المؤقتة المتضررة من السلطة وليس لها موقع مرحلي فيها، ولكن احتماليّة أن تكون في السلطة وارد عندها على الدوام، لذلك هي غير مستعدة لتبني مشروع جذري ومتقدم يصبو فعلًا للتغيير .

-بعد إنحدار الحرب الأهلية العبثية، وقناعة الأغلبية بقذارتها ودورها التدميري،بدأت عملية النقد والمراجعة وإعادة البناء التي يجب أن تطال كل أشكال العمل، وخاصة من خلال الأطر الاجتماعيّة والثقافيّة القائمة. وتبين بوضوح أن السياسات الثقافيّة بمعناها الضيق أو الموسع، الفئوي أو الوطني، لا يمكن أن تبني وتغير الواقع إن لم تكن أكثر جذرية وعقلانية وأوسع إنتشارًا وتحمل مشروعًا مطابقا للواقع.

-بعد الحرب الأهلية وإفرازاتها، راحت القوى التي اكتسبت مواقع سياسيّة في السلطة، تفتش عن منابر لها تكون لسانها الجديد بعدما انكشفت ألسنتها السابقة وترهلت وغدت مرفوضه وغير مقبولة. فأنشأت هذه القوى مؤسساتها الخاصة المدعومة بإمكانيات ماديّة هائلة واستقطبت أغلبية « المثقفين» الإنتهازيين إما بالترغيب أو بالترهيب. وفي الوقت نفسه راحت القوى التي لم تكتسب مواقع في السلطة، لسبب أو لآخر، راحت هي الأخرى توسع دائرة نشاطاتها عبر المؤسسات الثقافيية والاجتماعيّة القديمة القائمة، أو عبر إنشاء مؤسسات جديدة، وتعلن من خلال هذه المنابر عن نشاطاتها وبرامجها وتوجهاتها ومعارضاتها الخفية حينا والمتفلتة أحيانًا أخرى، ولكن بإمكانيات جد ضعيفة وتكاد تكون معدومة.

-حتى اللحظة لا زال واضحا غياب فعلي لمؤسسات ثقافيّة و اجتماعيّة ونقابية، وازنة وفاعلة، تحمل مشروعًا ولديها برامج مستقلة وحديثة وتطلعات مستقبليّة رغم الكفاءات الكثيفة المتوفرة ولكنها خجولة.

- إذا كانت ظاهرة انتشار المؤسسات الثقافيّة والاجتماعيّة ظاهرة صحيّة في هذه المرحلة وضرورية، إلا أن المطلوب إعادة النظر بطريقة تكوينها وبرامجها ومرتكزاتها المادية والمعنويّة الفكريّة والثقافيّة، وبالأساليب المتبعة وبطريقة التعاطي بين مكوناتها في الداخل ومع الآخرين، مما يجعلها أكثر عقلانية وتأثيرًا في الواقع.

-إن الواقع الراهن الذي نعيشه، بعفنه ومرارته ونفاياته، يتطلّب فعلًا مؤسسات شعبية مستقلة، منفتحة على الآخر وغير مرتهنة له، قادرة على تحليل الواقع بكل تركيباته المعقدة وتفنيّد ودحض أوهام الماضي البغيض، وقادرة على صياغة البرامج المرتبطة بهذا الواقع وحاجاته ومتطلباته المستقبلية وليس على طريقة الفن للفن. وأن تكون من المرونة في حركتها إلى حد لا يرميها في أحضان من سيعتبرها بوقًا من أبواقه العديدة والمنتشرة، وألا تنزلق إلى حد الابتعاد عن الواقع وقدرات الأفراد المكونين لهذه المؤسسات ماديًّا وحضورًا وثقافة وجدية وطموحًا ومثابرة ووعيًّا ونقدا على الدوام ومراجعة وتطويرًا مستمرين. وأن لا تسمح في أي لحظة لأي مخططات تضعها في حالة مواجهة مكشوفة وقاتلة مع من يتربص لها ويبرر الإنقضاض عليها.

-وأخيراً لا بد من القول إن الشعوب التي أرست نهضتها وتقدمت في المضمار الحضاري، لم تتمكن من بلوغ ذلك إلا بعد أن انطلقت من أرضية عقلانية في معالجة قضاياها وتطلعاتها المعاصرة .

وإن الأمر الغريب في ما يخص نهضتنا العربية بشكل عام والوطنية بشكل خاص، أننا نكثر الكلام عن العقل والعقلانية من دون أن نقطع مسافة جدية ومهمة على هذه الدرب الطويلة والمعقدة، ليس في الفكر والسياسة فحسب، بل في مختلف المجالات، مما يدل أن عقولنا ليست مصابة بأزمة إنما بأفات أصبحت بنيوية ومزمنة وفاضحة، وعلى جميع المؤسسات الثقافيّة والاجتماعيّة أن تعمل جاهدة على إلتقاط هذه الأفات وتفنيّدها ودحضها وصولًا إلى نشر ثقافة مغايرة قادرة على إحداث نقلة نوعية في الذات والموضوع ، في وعي الشعوب وتقدمها، وتجديد أطر تنظيم مؤسساتها بما ينسجم مع روح العصر ومتطلباته، ويساهم في إمكانية مواجهة فعلية مع التحديات التي تحدق بنا من كل جانب.

الشعر العامي (الزجلي) في جبل عامل



د . علي بزي و د. ملاك بزي

الزجل في جبل عامل: الواقع و الوظيفة

مقدمة

تهدف هذه المداخلة لإلقاء الضوء على الزجل في جبل عامل، وهي دراسة تبنتها منظمة اليونسكو العالمية بالتعاون مع وزارة الثقافة اللبنانية، للحفاظ على الكنوز البشرية الحية، التي تشمل الأفراد الذين يمتلكون معارفاً وفنونا تراثية، وتم اختيار الزجل كمادة من التراث الثقافي اللبناني.

وقّع لبنان وتبنّى إتفاقية حماية التراث الثقافي اللامادي وصونه ممثلا بوزارة الثقافة. وكان التركيز على الزجل اللبناني كعنصر ثقافي مميز، فإننا بالإطار نفسه نستهدف التراث الثقافي، من أجل استمراريته من جهه، ومن أجل الاعتراف به من قبل المجتمع المحلي من جهه أخرى، ثم من جانب المجتمع الدولي من جهة ثالثة. وهذا ما تركز عليه الاتفاقيات الدولية لصون هذا التراث من قبل منظمة اليونسكو للثقافة... وهي الاتفاقية الموقعة عالميا في تشرين الثاني عام 2003.

فأهمية هذا البحث تعود لما يمثله شعراء الزجل من إحساس بالهويه الوطنية واستمراريتها، والذي يؤدي بدوره الى المحافظة على الإرث الثقافي ومن ثم الابداع في إطار هذا الارث، وهنا تبرز اهمية التركيز والانطلاق من الموروث لرصده بمقاربات علمية، وهذه المعادلة هي التنمية الحقيقية للنهوض بمجتمعاتنا، بتناول اي جديد ولكن بروح محلية ووطنية. لان المعارف معرضة لخطر الانقراض إما بسبب تناقص اعداد الممارسين لها، وإما لعدم الاهتمام بها من قبل الجيل الجديد وإما لعدم توافر الامكانيات اللوجستية والمادية لحمايتها وتأمين استمراريتها.

وفي رصدنا للزجل اللبناني لابد من الإشارة الى بعض الملاحظات الآتية:

- ان الأخذ بتجارب وعبَر الماضي وصولا الى الحاضر، لايعني أننا يجب ان نعيش الماضي، لأن احداث الماضي وظروفة تنطبق على تلك المرحلة فقط، والمستقبل بحاجة الى ابداع جديد. نقول ذلك خوفا من ان يتم اللجوء للماضي لايجاد حلول للحاضر اوالمستقبل، لأننا في هذه الحالة نوقف عقارب الساعة، وربما نتراجع الى الخلف، مع العلم ان العالم يتطور بشكل سريع، واذا تمادينا بالإستغراق في الماضي فإننا معرضون لأن نفقد تلك الاماكن.
- ان النظر الى تراثنا او مأثوراتنا الشعبية بقليل من الاحترام والتقدير باعتبارها تمثل الجانب الشعبي وثقافة العامة، في الوقت الذي تعود الغالبية من المؤرخين والباحثين على تدوين تأريخ الخاصة من حكام وسلاطين وعلماء دين وقادة معارك وما الى ذلك. وكأن مقولة ابن خلدون الشهيرة « الكتابة آلة السلطان» لا زالت تتحكم في ذهنية هؤلاء الباحثين والمؤرخين.
- اختزال التراث الشعبي او المأثور الشعبي بالمعنى الضيق وكأنه مختصر بجانب محدد كالموسيقى والغناء والرقص... واعتبار ذلك نوع من اشكال التعبير العادي. فالتراث الشعبي غني ومتنوع ويطال مختلف اشكال الثقافة وتنوعاتها.
- تنبهت الشعوب الغنية منها والفقيرة الى ما يشكله التراث الشعبي من ثروة وقيمة حضارية، فحرصت على المحافظة عليه، لأنه يدعم الاقتصاد الوطني عندما يستثمر بشكل صحيح ليشكل دخلاً للمبدعين.

ونحن اذ نطرح هذه الامور الآن فإن دولاً قد سبقتنا منذ زمن بعيد في التركيز على هذه النخب والعناية بها، والحرص على الاستفادة من المكونات الثمينة التي يمتلكها هؤلاء.

فاليابان مثلاً وبعد الحرب العالمية الثانية جمعت اصحاب الحرف وقدمت لهم الدعم والرعاية واطلق عليهم صفة الكنوز البشرية الحية. خلافاً لما هو عليه في مجتمعنا بحيث نجد التقصير في الرعاية والدعم.

1. المفاهيم المتعلقة بالموروث الثقافي

فيما يلي تحديد لبعض المفاهيم المتعلقة بالموروث الثقافي

- **الهوية الثقافية**

الهوية الثقافية أمر بالغ الأهمية لمعنى وجود البشر. سواء كانت المشاركة شعبية ام مجتمعية في الأعياد في «الكرنفالات» الثقافية، في الشعائر والطقوس التي لها أهمية لأنها تضيف معنى وإحساساً من الاستمرارية وهوية للشعوب.

- **الكنز كمفهوم اكاديمي**

يُعتمد في العديد من الدراسات والابحاث الاجتماعية، الانتروبولوجية، التاريخية، السياسية، الادبية ...... وغيرها.

ويطلق على اشخاص معينين يمتلكون المعلومات المتعلقة بالبحث: المخبر، المستجوب، الاعلامي، المعرف، informateur،...... وغيرها

اهمية هذا المصطلح انه يبرز دور الشخص الكنز، واهمية الجانب المعرفي الذي يحمله.

- **التراث الثقافي**

التراث الثقافي او التراث الحي، هو تلك الممارسات والتعبيرات، والمعارف والمهارات والقيم المرتبطة بها.

ان حفظ هذا التراث من جيل إلى جيل، واستمرار صوغه مع الاستجابة للتغيرات في البيئة الاجتماعية والثقافية. يوفر للأفراد، والجماعات والمجتمعات الإحساس بالهوية والاستمرارية، ويشكل ضمانة التنمية المستدامة.

- **صون الهوية**

«يقصد بكلمة «الصون» التدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافي اي الهوية الثقافية بما يتضمن من تحديد لهذا التراث وتوثيقه، وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه وإبرازه ونقله، لا سيما عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي، وإحياء مختلف جوانب هذا التراث. وهنا تبرز اهمية ودور المتاحف والأعمال الفنية المختلفة.

2. الاهمية

أن أهمية تسليط الضوء على شعراء الزجل في جبل عامل والذين هم جزء من كل، أي ضمن المعطى الثقافي اللبناني والذي يطال الوطن بشكل عام، والحصر هو لضبط الموضوع والإجابة على توجه المؤتمر بشكل عام. تكمن في الحفاظ على المعارف التقليدية والحرف والفنون و..... التي بدأت تندثر مع موت متقنيها، أو تحولهم وامتهانهم لأعمال أخرى في محاولة كسب العيش.

فالأعمال الخالدة يذكرها الناس وتتناقل ذكر من قام بها عبر الأجيال، فما زال ذكر حمورابي كأول راع للشريعة الإنسانية طاغيا، وما زال الناس يذكرون المميزين من بني البشر، والاعلام الذين انشئت المتاحف لرصد نتاجهم في مختلف الميادين.

ان التركيز في هذا الأمر يبرز التقصير الحاصل حتى الآن، وهذا ما يجب تداركه وخاصة من قبل من يتولّى الشأن الثقافي. وهنا نحاول الاشارة او التنبيه إلى أمر حيوي يستطيع القيمون ان يقوموا به كعمل استراتيجي، وهو مشروع العناية والرعاية بالكنوز البشرية الحية.

3. الاهداف

يسعى هذا البحث الى تحقيق الأهداف الآتية:

- تحديد معالم الخطر الذي يهدد التراث الزجلي ولا سيما من حيث ارتباطه ببنية المجتمع والتغييرات التي تطرأ عليها داخليا وخارجيا.
- رصد وتجميع المورثات الزجلية قبل التغيير او ماقبل الزوال، وحفظ الهوية الثقافية للمجتمع. وهذا يفترض عدة اسس علميه من اجل ابراز أهميتها وتحديد المصادر
- الاعتماد على تقنيات علمية في التجميع والتبويب، على اسس منطقية وموضوعية. وليس من موقع شوفيني متعصب، لتبني كل عناصر الموروث، او الرفض وتبني قيم جديدة وافدة، وهذا يضعنا في موقع طال الجدل حوله منذ عصر النهضة وحتى الآن، مابين ما يعرف بالتقليد والمعاصرة.
- التركيز على الكنوز البشرية الحية، لأهميتها من وجهتين، الاولى للباحثين او المتعلمين المشتغلين بالأبحاث العلمية. والثانية للأشخاص انفسهم باعطائهم الاهمية واشعارهم بوجودهم، وبقيمة وجودهم.
- تشجيع الدول للاعتراف رسميا بهؤلاء الأشخاص. على أساس إنجازاتهم واستعدادهم لنقل معارفهم ومهاراتهم إلى الآخرين. وكدليل على عبقرية الإنسان الخلاقة وجذورها في التقاليد الثقافية والاجتماعية.

- القيـام بنشـاط يرمـي إلى ضـمان توثيـق وأرشـفة المعـارف والمهـارات التقليديـة المهـددة بالانقـراض وخلـق نظـم وطنيـة للكنـوز البشريـة .

4. العقبات

تعترض هذا المشروع عقبات متعدده، ابرزها:

- مدى استمرار وبقاء هذا الموروث الثقافي.
- النـزف الـذي يتعـرض لـه شـعراء الزجـل، وذلـك لمؤثـرات عامـة تطـال مجتمعنـا، كالحـروب، والوضـع الامنـي المـتردي، والهجـرة بشـكلها الداخـلي او الخارجـي، يضـاف الى ذلـك وفـاة هـؤلاء وهـم مـن المسـنين، وهنـا اهميـة التركيـز عليهـم قبـل فـوات الاوان.
- إحجام الاجيال الجديدة عن تعلم وإتقان خبرات السلف.

5. النموذج التطبيقي

مـن الجديـر بالذكـر إن معظـم الأجيـال الحاليـة لا تعـرف الشـخصيات المميـزة التـي اعطـت مـن ذاتهـا في مختلـف مرافـق الحيـاة في: الادب، الشـعر، التربيـة والتعليـم، الفـرق المسرحيـة القديمـة، الفـن المعـماري الشـعبي، في توثيـق ألعـاب ألاطفـال وشـعرها الشـعبي، وفي جمـع الفنون الشـعرية الشـعبية....، وهـؤلاء المبدعـون الذيـن عملـوا عـلى إحـداث تغيـير جوهـري داخـل المجتمـع.

تجربتنـا اللبنانيـة في رصـد الكنـوز البشريـة الحيـة وفي اعـداد لائحـة حـصر الشـعر الشـعبي المقـول والمغنـى في لبنـان (الزجـل).

ان هـذا التقريـر يرتكـز بشـكل اسـاسي عـلى تجربتـي الشـخصية، وهـو التقريـر الـذي رفـع الى وزارة الثقافـة، ومكتـب اليونسـكو الاقليمـي، وهمـا الراعيـان للعمـل، وقـد تمـت الاسـتفادة والاسـتزادة مـن تقاريـر مشـابهة لبعـض لزمـلاء .

اولاً: خطوات العمل الحقلي

1. ورشات العمل

تركـت ورش العمـل أثـراً مميـزاً في مجـال الاكتسـاب الخـاص عـلى صعيـد الـتراث الثقـافي غـير المـادي عمومـا، ولوائـح الحـصر والتسـجيل عـلى قوائـم اليونيسـكو خصوصـا. وعملـت عـلى تبـادل الحـوار والآراء والمناقشـة مـن خـلال المحـاضرات والمعرفـة المسـتفيضة عـن جـزء هـام مـن الـتراث الثقـافي. ولمـا للزجـل مـن أهميـة في توحيـد الجماعـات. وقـد سـاهمت ورش العمـل في خلـق التواصـل بـين عـدة أطـراف في المجتمـع، مـن فريـق العمـل (المحققـين)، إلى الأفـراد

والجماعات التي تمارس الزجل على الأراضي اللبنانية كافة، إلى اليونيسكو ووزارة الثقافة، فهذه الشبكة من العلاقات والأشخاص قد خلقت حيوية ونشاطاً وحافزاً لدى هذه الشريحة، وساهم في التأكيد بأن الثقافة الشعبية هي عامل توحيد للجماعات والشعوب. مما لا شك فيه أن ورش العمل تضيف لدى المشارك الكثير من المعارف من خلال تبادل الخبرات والتجارب. وتضفي إغناءاً وتوضيحا بأهمية التراث الثقافي وطريقة حفظه وصونه من خلال تسجيله على قوائم اليونسكو عملا بتوصيات إتفاقية العام 2003 لصون التراث الثقافي غير المادي والحفاظ على الكنوز البشرية الحية. والمعرفة بتجارب الدول الأخرى السباقة في هذا المجال، من خلال المحاضرات المكثفة، ثم كيفية إختيار حامل العنصر وكيفية تسجيله على قوائم التراث العالمي. ولورش العمل وظيفة في تكوين وتطوير ما يمتلكه الانسان من معرفة ومهارات، وقد ولدت اهتماما لم يكن موجودا لدى البعض، وعملا لزيادة الوعي لدى المشاركين، وكذلك أفسحت الورش مجالاً للتعرف والتفاعل عن قرب مع ناشطين تربط في ما بينهم اهتمامات واحدة في مجال التراث الشفاهي.

2. منهجية العمل

لقد تم اعتماد الخطوات الآتية:

- مقابلة رئيس نقابة شعراء الزجل حالياً، الشاعر جورج ابو انطون.
- مقابلة رئيس نقابة شعراء الزجل السابق، الشاعر خليل شحرور.
- مقابلة امين سر النقابة، وصاحب ورئيس تحرير مجلة صوت الشاعر، الشاعر روبير خوري.
- تم تزويدنا بمنشورات ومجلدات اعدها الشاعر روبير خوري، ابرزها موسوعة الشعر العامي اللبناني (مجلدين)، والزجل اللبناني منابر واعلام، واعداد من مجلة صوت الشاعر، ومنشورات وكتب متنوعة.
- بناء على الإحصائيات التقريبية للنقابة، ذكر ان عدد شعراء الزجل اللبناني يناهز 1500 شاعراً. تم رصد وتعريف في الموسوعة المذكورة اعلاه 1015 شاعراً زجلياً.
- انطلاقاً من هذه المقاربة الإحصائية المبسطة، وانطلاقا من تحديد العدد على مستوى لبنان بـ 1500 شاعراً، كان ذلك بمثابة البوصلة في تحديد حجم هذ الجماعة وتوزيعها.

3. اداء المحققين

- طبق الإداء بشكل ممتاز، وبناء للتوصيات والتعليمات. وقد ازدادت خبرة هؤلاء المحققين واهتمامهم بموضوع التراث، والتدريب واتقان جمع المعلومات، والمهارة في التصوير الفوتوغرافي، والتصوير السينمائي.

- زيـادة الارتبـاط بالموضـوع، وادراك ابعـاده والاحاطـه بـه، والمرونـة في التعامـل، ولم يعـد كعمـل روتينـي بـل مارسـوا ذلـك بشـغف، وقـد تـم كسر الجفـاء مـع الـتراث وهـم مـن العنـصر الشـبابي، وهـذا مكسـب مـزدوج.
- أضـاف لنـا العمـل الميـداني خـبرة معرفيـة، مـن خـلال التعـرف وتدويـن وتسـجيل وحفـظ عنـصر الشـعر الشـعبي (الزجـل). ومـن المكتسـبات معرفـة ألـوان الزجـل المختلفـة وأوزانهـا وتقسـيماتها.

4. كيفية أختيار حامل العنصر الثقافي (الزجل)

تم إعتماد إختيار العنصر بناء لمعطيات متعددة، منها :

- التواصـل مـع بعـض الشـعراء المميزيـن ومـع نقابـة شـعراء الزجـل، والاسـتعانة بلوائـح النقابـة، واعتـماد موسـوعة الشـعر العامـي اللبنـاني، وهـي مجلديـن وتحـوي 1015 شـاعراً، لصاحـب مجلـة صـوت الشـاعر ورئيـس تحريرهـا روبـير خـوري. وكذلـك اعتـماد مجلـد الزجـل اللبنـاني منابـر واعـلام للمؤلـف نفسـه.
- التواصل مع شعراء الزجل أنفسهم.
- مـن خـلال سـمعة حامـل العنـصر وشـهرته في مجـال الشـعر الشـعبي ومـن خـلال زملائـه أو أصدقائـه في هـذا المجـال.
- الجهات الرسمية (المخاتير والبلديات)
- أهالي القرى والبلدات الذين يعرفون عن حاملي العنصر.
- المشـاركون في السـهرات والنـدوات واللقـاءات الزجليـة. حامـل العنـصر لايـزال مرتبطـا بأرضـه وقريتـه برغـم مـن النـزوح أو الهجـرة سـواء بسـبب الإحتـلال أو طلبـا للعمـل (كتـب إليـاس خطـار بعـد عودتـه الى قريتـه مجموعـة أشـعار جمعهـا في كتـاب أسـماه «نـداء الأرض»). ولاتـزال المناسـبات في تلـك البلـدات مناسـبات يجتمـع فيهـا القريـب والبعيـد.
- مـن خـلال إنتـاج حامـل العنـصر (الكتـب أو القصائـد المنشـورة، الحفـلات بالنسـبة للشـعراء المنبريـين).
- كذلـك فـإن المهرجانـات التراثيـة المتعـددة التـي تقيمهـا البلـدات والقـرى في كل صيـف، تشـكل وسـيلة إغنـاء وتلاقـح معـرفي يعـزز التمسـك بهـذا اللـون مـن الـتراث الشـعبي .

5. تجاوب الشعراء حاملي العنصر

التنويه ببعض الحالات/ المقابلات التي تشدد او تبرز الوعي او الاستيفاء لهذا النوع من التراث الثقافي لدى حاملي العنصر. وقد وجدنا الإستحسان بالإهتمام بموضوع الشعر الشعبي بإعتبار أن الزجل من أبرز عناصر التراث اللبناني. في معظم الأحيان كان التجاوب لافتا حيث أن بعض حاملي العنصر وضعوا جهودهم بتصرف وزارة الثقافة واليونيسكو من أجل إستمرارية هذا اللون من التراث.

عبر حاملو العنصر عن مفاجأتهم بهذ الاهتمام بعد الغياب الطويل من قبل الدولة والقيمين فيها، ولكن هذا لم يمنع من الترحيب والتجاوب، وهذا حافز لتعزيز الثقة بالنفس لديهم، وخاصة بعد معرفة هؤلاء بأن محور الدراسة ينال الاهتمام المحلي والدولي، ويعتبرون أن ذلك سيؤدي الى انعكاس ايجابي.

ثانياً: معطيات عامة حول الحقل مجال الدراسة

1. الواقع الجغرافي والمحيط الاجتماعي للبنان

يشكل لبنان منطقة مميزة بموقعها الوسيط بين البحر الابيض المتوسط غرباً، وفلسطين المحتلة جنوباً، وسوريا شرقاً وشمالاً. وله بعده الثقافي والحضاري على اكثر من صعيد. هذا الموقع والتواصل والتفاعل التاريخي مع المحيط كان له تأثير على المنظومة الثقافية بشكل عام والزجل بشكل خاص.

أما على الصعيد الوطني ينتشر الزجل في المناطق الجبلية. فهو يواكب الناس في معاشهم اليومي، يستمدون صورهم الشعرية من بساطة وجمال الطبيعة التي نشأوا فيها. فالميجانا والعتابا رافقتا الراعي والفلاح في سعيهما اليومي، وكان الزجل على ألسنتهم في كل المناسبات، تعبيرا صادقا عما يعتمر في صدورهم. وإنتشار الزجل المنبري في المناطق الجبلية مرده ضرورة إمتلاك الشاعر الصوت الجهوري الرخيم والذي يساعد عليه المناخ الجبلي أكثر من المناخ الساحلي.

فالبلدات التي ينتمي إليها حاملو العنصر لاتزال تمتاز بالطابع الريفي رغم مظاهر العمران الحديث. فالعلاقة مع الطبيعة لم تنقطع بين حامل العنصر أو الشاعر والتي منها يستمد إلهامه. لاتزال العلاقات القرابية فاعلة بين العائلات برغم التغيير. ورغم النزوح الذي عرفته الارياف، ومنذ خمسينيات القرن الماضي، فقد تغيرت سبل المعيشة، وبدأ الاتكال على العمل الزراعي يتضاءل، وازدادت نسبة المتعلمين، واتسع القطاع الخدماتي والوظيفي، والاعمال الحرفية والتجارة، فشكلت مصادر جديدة للدخل، واصبحت المناطق

منفتحة على بعضها البعض، بحيث ان الطابع المديني الصرف او الريفي الصرف، بدأ يتلاشى ونحن امام تركيبة اجتماعية هجينة تجمع بين كل العناصر.

يتميز لبنان بتنوعه وعلى مختلف الصعد، وهناك اختلاف واختلاط بين الطوائف. هذا التمايز متكون على مستوى لبنان، وعلى مستوى المحافظة، بل نجدة على مستوى البلدات المتجاورة او الاحياء في البلدات او في المدن.

والعيش المشترك بين هذه الجماعات او الفئات الاجتماعية او الطوائف قديم جدا، بحيث نجد عادات وتقاليد مشتركة، رغم المعاناة والاختلاف الديني او السياسي لم يتحولوا وبقيت هناك قواسم مشتركة تؤدي الى التواصل والتبادل تجمع ولا تفرق.

انطلاقا من ذلك كان التوجه الى اختيار احد العناصر الثقافية وهو التراث الشفهي المقول والمغنى (الزجل)، ليكون ممثلا لجانب من الهوية الثقافية اللبنانية، مع العلم ان هذا التمثيل نسبي، لانه نشأ في الريف وتدرج الى المدينه، وحاملو هذا العنصر من ابناء المدن قلائل بالقياس الى المناطق الاخرى.

هناك ملاحظة اساسية انه ومن خلال معظم المقابلات هناك إستنتاج أولي يشير إلى أن الغالبية تحدرت من عائلات متوسطة وما دون، ونشأت في ظروف إجتماعية وأمنية صعبة، وعملت بالزراعة والحرف وفي مجال البناء والرعي، وجزء كبير منها أميون، أو تعلمت القرآن الكريم عند الكتاتيب، ورغم ذلك لم تتوقف عن كتابة الزجل ومحبته، وبعض الشعراء يقول بأن جمال الطبيعة ليس كافياً وحده لكتابة الشعر، فالشاعر أينما حل وأينما تواجد يكون لديه هم ليقول الشعر، وتكون ملكة الشعر عنده دائما حاضرة.

نسبة الرجال حاملي العناصر أكثر من النساء ربما لأسباب تتعلق بالموروث الثقافي، والمجتمع الذكوري ولأسباب دينية أيضاً.

نلاحظ طغيان للشعر الحديث (قريض ومقفى)، وهذا ليس موضوع دراستنا.

يتواجد هؤلاء الشعراء في معظم مناطق لبنان. وبعد المقاربات الميدانية تم استنتاج الملاحظات الآتية:

- هجرة حاملي العنصر الى المدينة او الى بلاد الاغتراب، وهي ميزة اساسية على المستوى الديموغرافي، وذلك بسبب الاوضاع السياسية والامنية او الاقتصادية.
- بدء انتشار حفلات ولقاءات زجلية في اكثر من منطقة.
- وهناك جلسات دائمة أسبوعية وذلك في العديد من المناطق.
- تناقل العنصر بين الأجيال.
- إمتلاك بعض الشعراء ثقافة شعرية وعدم الإكتفاء بالموهبة.

2. استنتاجات المعطيات الميدانية

الاستمارات المنجزة: تم رصد 1116 شاعراً على مستوى لبنان ككل، وقد انجزت استمارات لكل واحد منهم، وهم موزعون على المناطق وفق النموذج التالي:

جدول 1 : عدد الاستمارات المنجزة لشعراء الزجل في المناطق اللبنانية

المحافظة	بيروت	جبل لبنان	الشمال	الجنوب	البقاع	المجموع
عدد الشعراء	١٠٠	٣٣٠	٢٣٦	٢١٢	٢٣٨	١١١٦

تصوير فيديو: ومن ضمن هذه المجموعة من الشعراء تم اعتماد تقنية تصوير الفيديو، بحيث اننا نجد ارشيفاً يحتوي معلومات 1042 شاعراً، وهم موزعون على المناطق على الشكل التالي:

جدول 2 : عدد تسجيلات الفيديو لشعراء الزجل في المناطق اللبنانية

المحافظة	بيروت	جبل لبنان	الشمال	الجنوب	البقاع	المجموع
عدد الشعراء	٧٩	٣٢٦	٢٢٧	١٩١	٢١٩	١٠٤٢

انواع القصائد الشعرية: معظم عناصر الشعر الشعبي المقول والمغنى تم حصره في لبنان بالانواع التالية:
القصيد، العتابا، المعنى، الشروقي، القرادي، الشعر العامي، الموشح، الندب، العديات، الميجانا، ابو الزلف، الدلعونا، الموال البغدادي، الحدا، الحوربة.

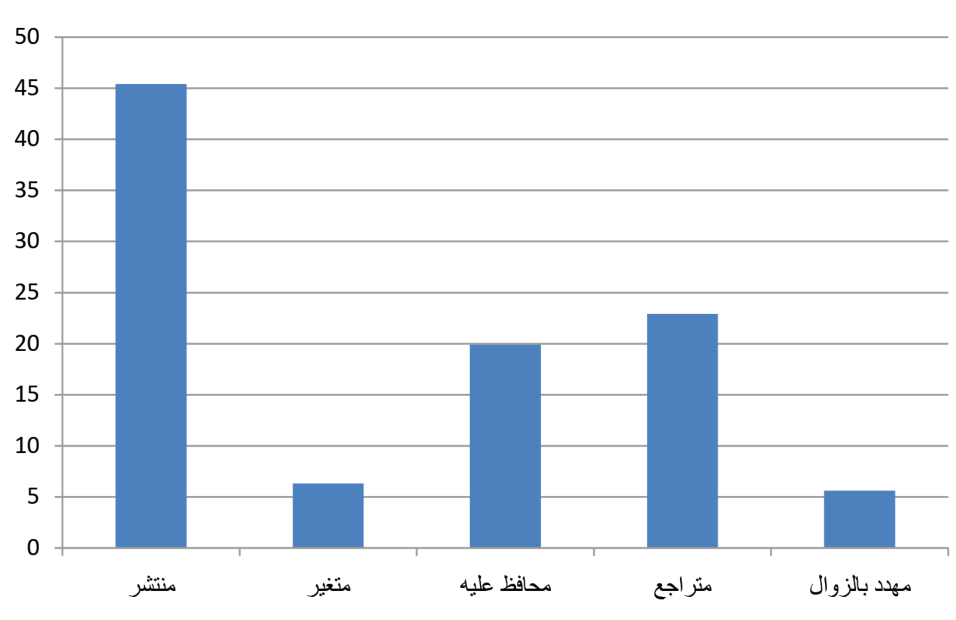
- **المعنى** : شعر شعبي على بحر الرجز ويتألف من بيتين الى أربعة أبيات تكون ثلاث أبيات على القافية نفسها والبيت الرابع على قافية مغايرة (قد تكون قافية البيت الثالث أو الرابع) .
- **القصيد**: وهو المعنى نفسه لكنه ما يزيد عن ستة أبيات.
- **الشروقي**: تكون الأبيات ممدودة أي مغناة ويكون الأعجاز على قافية والصدور على قافية مختلفة
- **الإويها أو الزلغوطة او الزغاريد**: لون من الشعر الشعبي يبدأ بالإويها التي تتكرر في مطلع كل بيت ثم تنتهي بـلي لي لي أو الزلغطة وهو لون يمتاز به النساء بإمتياز.

برغم من أن بعض الوان الشعر الشعبي تتميز بأنها ألوان نسائية بإمتياز مثل الندب

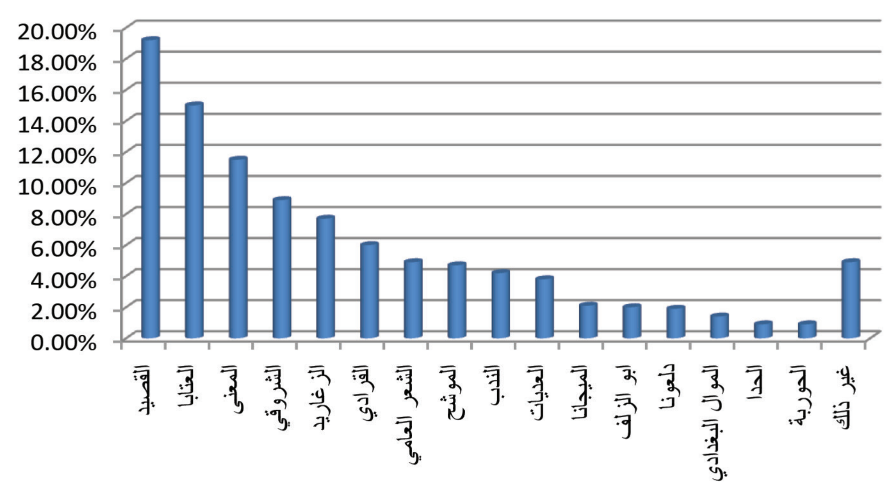
والزلغوطة، هناك الوان أخرى يتشارك فيها الجنسان مثل **الرثاء والحدا والحوربة**، وينفرد الرجال في **المعنى والقصيد والموال والشروقي**. لم نجد اي إرتباط يربط عنصراً معيناً بمكان معين أو بمهنة معينة فالإنتشار كان على مساحة لبنان والمهن كانت مختلفة بين حاملي العنصر نفسه، لكن يمكن ملاحظة أن لون الشروقي كان يرتبط بالصوت الجهوري الذي يميز بعض القرى عن غيرها، وبما أن الشاعر المنبري يعتمد على صوته، نلاحظ أن من لا يمتاز بالصوت يبقى شاعرا كتابيا .

الشعراء الذين يقطنون الأرياف ميالون إلى **العتابا والشروقي والميجنا** وخصوصاً الذين يعملون بالزراعة والرعي، أما أهل المدن والذين يعملون بقطاعات أخرى فهم يكتبون القصيد والمعنى، أما العنصر المشترك بين الريف والمدينة والذكر والأنثى ومختلف المهن فهو الندب. وتتوزع انواع الشعر الشعبي المقول والمغنى من حيث الآداء حسب الرسم البياني المرفق:

رسم بياني 1 : انواع الشعر الشعبي المقول والمغنى ونسبته ب



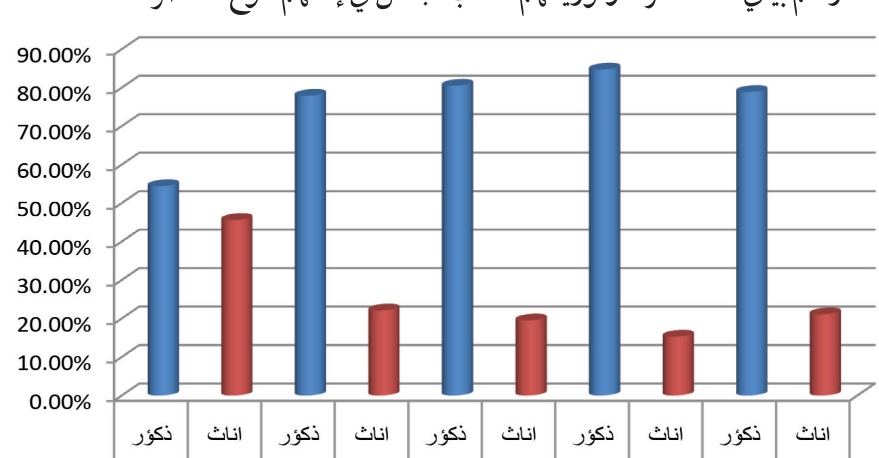
لقد تم حصر جميع العناصر المتعلقة بالزجل، أهم العناصر التي تم حصرها فهي القصيد والمعنى والندب، مع بعض الفروقات حسب الجنس والمنطقة والمهنة، فعنصر الزغردة مثلاً تمارسه الإناث فقط، أما الندب فيمارسه الذكور والإناث، وباقي العناصر يغلب عيها الطابع الذكوري تقريباً. ويتوزع الشعراء في مختلف المناطق اللبنانية حسب الجنس وفق البيان التوضيحي المرفق:



رسم بياني 2: الشعراء وتوزيعهم حسب الجنس في المناطق اللبنانية

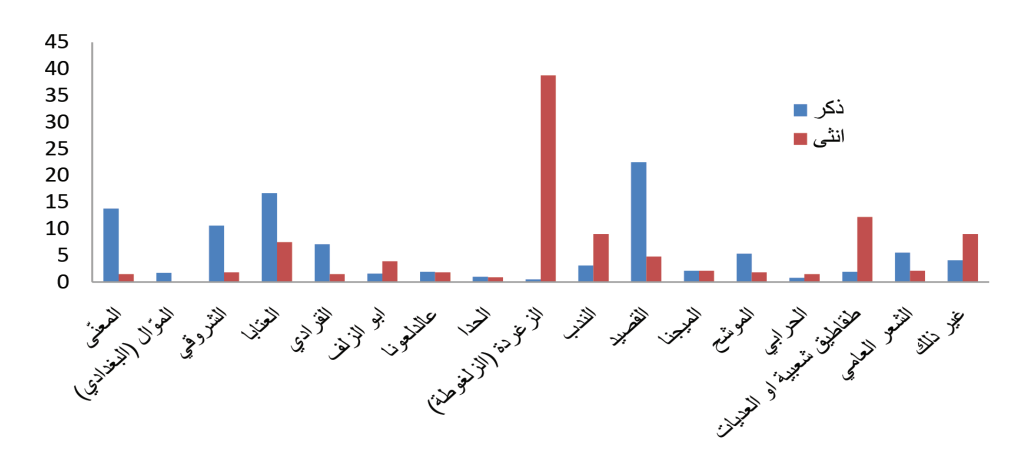
مـن خـلال متابعتنـي لـلإداء، وكيـف يتـوزع عـلى المناطـق او حسـب الجنـس، بحيـث اننـا نجـد الوانـاً ينفـرد بهـا الرجـال، والـوان تتقنهـا وتؤديهـا النسـاء، ونوضـح حـالات الاداء والجنـس مـن خـلال الرسـم التوضيحـي المرفـق:

رسم بياني 3: الشعراء وتوزيعهم حسب الجنس في إدائهم لنوع العنصر



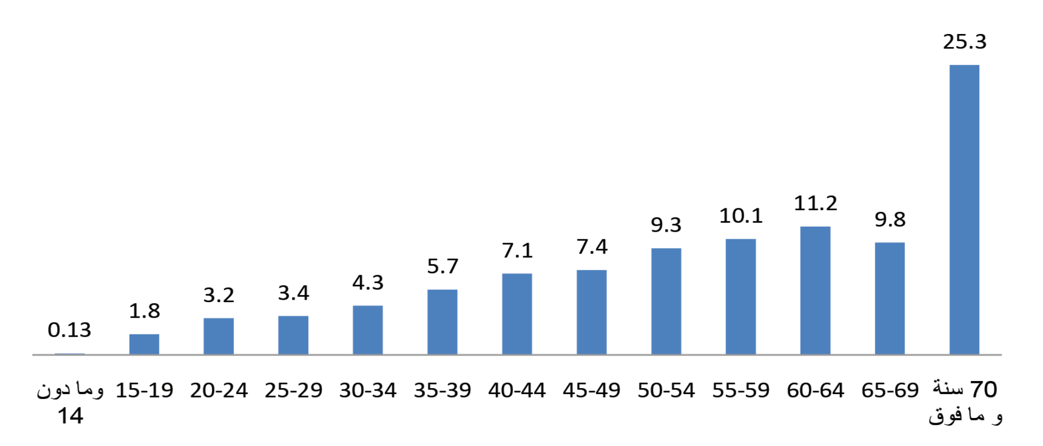
إن العنـصر الغالـب في المقابـلات هـو القصيـد، مـن ثـم الموشـح والشروقـي، المعنـى، العتابـا، المـوال، الزغـردة، القـرادي، الدلعونـا والميجانـا، النـدب والحـدا، أخـيراً والحوربـة..

اعـمار الشـعراء: ان الشـعراء الذيـن يـؤدون هـذه العنـاصر الثقافيـة هـم مـن كبـار السـن، بحيـث ان مـا يقـارب ٪80 منهـم مـا فـوق الاربعـين، ولكـن بالمقابـل نجـد عنـاصر شـابة بـين المؤديـن وهـذا دليـل عـلى اسـتمرارية هـذا المـوروث الثقـافي، ويمكـن ملاحظـة اعـمار الشـعراء مـن خلال الرسـم البيـاني المرفـق:



رسم بياني 4: اعمار الشعراء

استمرارية العنصر: على الرغم من تضاؤل الكثافة السكانية وتراجعها في اكثر من منطقة من لبنان الأمر الذي أبعد الناس عن الارض ومن ثمة عن تراثهم، ولكن كما قال احدهم: الزجل لا يموت طالما بقيت الطبيعة، لأنه يستمد وجوده منها. وعند توجيه السؤال الى ذوي الشأن، اي الشعراء انفسهم عن واقع هذا الموروث الثقافي حالياً، كانت تقريبا ٪65 من الاجابات بأنه منتشر ومحافظ عليه، و٪23 بأنه متراجع، قسم بسيط ما يقارب ٪5 كان متشائما وقال هذا الموروث الثقافي مهدد بالزوال، ويمكن ملاحظة الآراء من خلال الرسم البياني المرفق:



رسم بياني 5: أراء الشعراء عن واقع هذا العنصر

كما قال بعضهم، سيبقى الزجل حيا، طالما بقي خرير جدول وصفصافة تغسل شعرها فيه، وطبيعة تلهم الشاعر أحلى الصور. لكن هناك خوف على بعض ألوانه من الإندثار،

فالقصيد والمعنى والعتابا والميجانا باقية وهي عماد الشعر الشعبي. لكن الندب والرثاء قد يندثر في بعض المناطق، فقد أسرّت لنا سيدة من القليعة، أن الندب على الميت لم يعد محبذا من قبل رجال الدين وأصبح من المفضل الإكتفاء بالصلاة على الميت. من هنا فصون الزجل يكون من خلال خطة شاملة لصون التراث ، عمادها تعريف اللبناني على تراثه ، ليفهم ضرورة الحفاظ عليه وصونه.

3. عناصر ثقافية مرتبطة بالزجل:

يعتمد شاعر الزجل بشكل اساسي على صوته، بحيث ان هذا الإداء هو منبري، يستوجب الصوت الجهوري والمميز برخامته. وكان هذا في البدايات الأولى للزجل قبل وجود مكبرات الصوت. وهناك انواع من الأغاني لا يرفقها اي آلة موسيقية كالزغرودة مثلاً. ويرافق الإداء الزجلي آلات موسيقية متنوعة وهي: الطبلة، الدف، وفي بعض المناطق اللبنانية الربابة، ثم حديثاُ الأورغ.

ثالثاً: الدراسة الحقلية، الصعوبات والنتائج

1. الصعوبات

على مستوى الاستمارة وتقنيات التصوير الفوتوغرافي والفيديو.

- يعتبر حامل العنصر نفسه ملما بكل عناصر الشعر الشعبي، من هنا واجهتنا صعوبة أخذ إجابة محددة لأحد الاصناف. لقد تم إختيار العنصر من قبل الشاعر بحسب سؤالنا له فأغلب الشعار يكتبون جميع أنواع الشعر الزجلي ويجيدونه ولا يحبذون التقيد بعنصر معين .
- اعترض بعضهم على السؤال الذي يعتبر أن الشعر ينتقل بالوراثة بين الأجيال، بينما حسب رأي الشعراء ان اتقان العنصر يتوجب وجود الموهبة أولا، فالشعر لا يورث، من هنا إعتبر البعض أن الإجابة بالنفي تظهر الشاعر بأنه غير مهتم بالزجل ونشره.
- تسجيل جزء من النتاج الشعري أزعج البعض، فالشاعر الذي أفنى حياته في كتابة الشعر والإهتمام به يعتبر أن قصيدة في ثلاث دقائق لا تفيه حقه.
- بعض منهم العديد من حاملي العنصر لديهم الكثير من الكتابات في عدة أنواع من الشعر الشعبي المقول والمغنى ولكنهم غير مجمعين، وليس لديهم كتب أو ديوان، وذلك لأسباب مادية أو جهل بأهمية قدراتهم وكتاباتهم وأهمية الحفاظ عليها.
- رفض بعض النساء التصوير وأجراء المقابلة، والسبب بحة الصوت، وهذا في عدة اماكن.

- صعوبة التواصل أحياناً مع إحتمال التأجيل لأسباب ضيق الوقت أو أسباب صحية. التواصل بناء لموعد مسبق وغالبا ما يكون في وقت متأخر من النهار ثم الاعتذار. واحيانا تكون المواعيد متباعدة وفي البلدة نفسها، وهذا يؤدي الى مزيد من الهدر المادي والزمني. عدم وجود مواصفات معينة او مشكلة ما، كالتأكيد على لباس انيق ومناسب، وخاصة اذا علم بالتصوير، او هناك «بحة» في الصوت، في حال التسجيل... التواصل مع مجموعة من حاملي العنصر ثم نفاجأ برفض اعطاء اي معلومة وخاصة لاعتبارات امنية.
- بعض حاملي العناصر أعتقد أنه سيتم تقديم مال أو شيء ما، مقابل هذا اللقاء، وتم التوضيح أنه سيتم وضع أسماءهم على لائحة الأونيسكو وربما سيكون هناك وفي الوقت القريب احتفال حسب الأقضية يبرز الشعراء حاملي العناصر من خلال عرض وثائقي.

2. عوائق تناقل واستمرار هذه العناصر

- نقص في التواصل بين الأجيال. والتوجه نحو الاغنية من قبل الشباب.
- تغيرات الحياة الأسرية.
- التواصل بين شعراء الزجل غير مُفعل ونادر.
- عدم إقرار برامج متخصصة في وسائل الاعلام الإذاعات والتلفزيونات
- تنوع وتبدل الإهتمامات.
- قلة المطالعة.
- العولمة الثقافية. وبدء الاهتمام باللغات الاخرى.
- تصنيف هذا الفن في المرتبة الدُنيا دون سائر الفنون اي كثقافة شعبية.
- ارتباط هذا الفن والشعر بالجيل الأسبق.
- أهمية وجود مسابقات وجوائز للممارسين لهذا الشعر الشعبي، ورصد مكافأة تشجيعية وحوافز للجيل الجديد، ومن الاهمية تدريس هذا الفن ضمن المناهج التربوية، وتحويل مادة الزجل إلى مادة أكاديمية، ويُعمل على تجميعها عبر دراسة تاريخية موثقة على مستوى الوطن ككل.
- مشكلة عدم توارث هذا الفن وذلك لسبب اساسي، كونه تراث مركب على ثنائية الذاكرة الشفهية والمكتوبة.
- الزجل اللبناني في بدايته لم يدون الا جزئياً اذ تم تناقله عبر مدونات الذاكرة.

3. وظيفة العنصر الثقافي (الزجل)

- **توحيد الجماعة**: لفنون الإداء الشعري الذي يقال ويغنى دور اساسي في تقريب الناس نحو اداء مشترك، من هنا يبرز دور واهمية الزجل بكامل تفرعاته حيث يجمع العديد من اللبنانيين ومن مختلف المناطق على ترديد ما قاله شعراء الزجل.

مع إنشاء دولة لبنان الكبير ومع الاستقلال كان اللبنانيون منقسمين الى قسمين: الاول ينادي بالإنظمام والوحدة الى سوريا الكبرى، والثاني البقاء ضمن الإنتداب الفرنسي. وكان لإحدى جوقات الزجل اللبناني دورا في إقناع الناس بالاستقلال وهي جوقة شحرور الوادي، التي أقامت الحفلات في مختلف المناطق اللبنانية وبشعار وطني، وكان لها الأثر الإيجابي.

اثناء الحرب الاهلية اللبنانية والانقسام العمودي للمجتمع، كان شعراء الزجل يطوفون على مختلف المناطق اللبنانية، وهم من مختلف الطوائف والمذاهب والمناطق يطرحون أفكارهم المناهضة للعنف والحرب الدائرة.

أثناء الحرب العبثية اللبنانية بقي الثنائي: «زغلول الدامور» جوزيف الهاشم و»أبو علي» زين شعيب، كتوأم داخل وخارج لبنان، وأقاما صلة وصل مع المغتَرَبات وجمع شمل الناس ومن مختلف مشاربهم.

وأثناء الحرب علق أحد الصحافيين في الكويت بأن شعراء الزجل وحدوا اللبنانيين، كان ذلك إثر حفلة زجلية أقيمت هناك جمعت كل من الشاعرين الزجليين اللبنانيين: خليل شحرور وطليع حمدان زغلول الدامور وزين شعيب. وعلق الصحافي بأن الجمهور التابع لمختلف التيارات السياسية اللبنانية حضر، صفق، وإنفعل مع الإداء الزجلي المميز.

فالزجل اللبناني والذي يمتد إداؤه الى محيطه العربي المجاور يعبر عن: الحاضر، معاش الناس، فرحهم وأوجاعهم، آمالهم وآلامهم.

توحد شعراء الزجل قبل الخمسينيات بعصبة الشعر اللبناني، وبعدها بنقابة شعراء الزجل. التي بقيت جسماً واحداً لم تفرقه التناحرات السياسية او الطائفية او الحزبية. هذا دليل أن الثقافة الشعبية هي عامل توحيد وتفرض نفسها على الواقع.

ونلاحظ ان معظم الناس في لبنان يرددون كلمات إيليا أبو شديد:

الدني ورشة	وترابها كمشة
في تراب بعدو تراب	وتراب عم يمشي

وفي فترة الحرب العبثية اللبنانية قال:» ابوعلي» زين شعيب عام 1976

عدنا لتقينا والتقوا الخيـــين اخوانكم أسـعد سعيـد وزين

لبنان لبنانييـــن ما بيصـــير وبيروت ما بتصيـر بيروتـــين

ويرددون كذلك:

ان بكيت، الكون من اجلك بكي وان ضحكتي انهز عرش المملكـة

وكل شي ربي خلق حسن وجمال اعطى البشر قيراط والبـاقي لك

- **الإبداع الفني**: في مجال التأليف، والتلحين، والغناء، والإخراج...الخ

عـاش الزجـل والشـعر المقـول والمغنـى مـع كوكبـة مـن الفنانـين الذيـن سـاهموا بشـكل مبـاشر في الثقافـة الشـعبية، فقـد إرتكـزوا عليهـا ثـم أبدعـوا فيهـا، انطلقـوا مـن ثقافـة النـاس، مـن الـتراب والأرض وحفيـف الأشـجار وتغريـد الطيـور، فـكان نتاجهـم السـهل الممتنـع، صـور كلماتهـا بسـيطة في متنـاول الجميـع، ولكـن اللوحـة الإبداعيـة غايـة في السـحر. لوحـات وحـدت اللبنانيـين اولاً وتابعـت المسـيرة الى عالمنـا العـربي.

نذكـر مـن هـؤلاء: الأخويـن الرحبـاني، فـيروز، نـصري شـمس الديـن، زكـي ناصيـف، وديـع الصـافي، الأخويـن فليفـل، صبـاح، عـلي حليحـل، فيلمـون وهبة.....الـخ ويضـاف الى ذلـك توحـد الجماعـة في فنـون الإداء، كالدبكـة اللبنانيـة، وأغـاني الدلعونـا، والعتابـا والميجانـا، والحـدا، والحوربـة فالزجـل ابـداع فنـي مميـز ومـا زال عـلى عفويتـه، تخطـى كل الزواريـب حيـث المنفعـة الرخيصـة لبعـض تجـار السياسـه والديـن، مـن هـذا المنطلـق مـن الواجـب الاكاديمـي والعلمـي والوطنـي والواقعـي، ان يبقـى الزجـل حيـث هـو، ولا ينجـرف في المسـارات والمواقـع التـي شـوهت مجتمعنـا، وليبقـى الزجـل مرتكـزاً الى عفويتـه ومعقلـه الاسـاسي وخاصـة في مـا يتعلـق بموضوعنـا الـذي تـم تسـليط الضـوء عليـه.

وللزجـل طابـع وطنـي بامتيـاز، واذا مـا اراد البعـض حـصره في زواريـب الطائفيـة او المذهبيـة او المناطقيـة، فهـذا يـدل عـلى وجـود عنـاصر مشـبوهة تبعـد الموضـوع عـن جمالـه وقدسـيته.

4. استنتاجات

ساد لدى الشعراء تياران اساسيان في النظرة الى كيفية الحفاظ على التراث الشفاهي:

- **تيار متشائم** ، تمثل بقلة من الشعراء، يرى استحالة حفظ التراث الشفاهي، الذي يحفظه كبار السن. **وتيار متفائل** تمثل بالاغلبية من المستجوبين، الذين اعطوا جملة من الاقتراحات، ركزوا فيها على دور الوزارات المعنية وفي طليعتها وزارة الثقافة والتربية والاعلام ودورهم في حفظ هذا التراث وتعليمه ونشره وانتشاره.
- لا يوجد نظام أو لجان للحفاظ على هذا التراث باستثناء الجلسات الدورية والسهرات وهذا لا يضمن الحفاظ على الكتابات والمواهب الموجودة وتنميتها كما يجب.
- أغلب الزجل يعبر عن التعلق بالأرض والوطن وحب الشعب رغم الاختلاف الطائفي اوالمذهبي، ويدل على روح المحبة والتعاون وعن العادات والتقاليد المتأصلة.
- نلاحظ تدنٍ في مستوى إستخدام الآلات الموسيقية، وذلك ربما وكما نعلم أن استخدام ألادوات الإيقاعية الموسيقية يضفي على الأداء بعداً فنياً آخر، وهنا يتم الجمع بين إيقاعية الكلمة وإيقاعية الأداة، ولكن ربما بعض الأحيان الأدوات الموسيقية قد تجعل صوت الشاعر خافتاً فتغلب عليه والمطلوب هو تغليب صوت النص على صوت الأداة. هذا يعني تراجع أو سحب والتخفيف من دور الآداة لصالح فن الكلام.

5. العناصر اللازمة لإنشاء نظام الكنوز البشرية الحية

- إن ابرز العناصر اللازمة لانشاء نظام للكنوز البشرية الحية هو الأحكام القانونية. وذلك من خلال اختيار النصوص المناسبة لهذا النظام، واعطاء الشكل القانوني له. اذاً هي الوسائل الادارية التي تنظم الاداء ضمن الخصوصيات الوطنية ولضمان حسن التنفيذ وفعاليته.
- بعد اتخاذ قرار التطبيق لنظام الكنوز البشرية الحية، من الضروري إنشاء وتحديد عناصر التراث الثقافي على الصعيدين الوطني والمحلي، والتعرف إلى حامليه ومستقبلهم.
- تحديد لجنة من الخبراء حسب الاحتياجات التي ستنشأ لاتخاذ القرارات المناسبة. فمن المستحسن أن تكون هذه اللجنة من اصحاب الكفاءات او المشهود لهم، من اجل اعداد هيكلية لصون التراث الثقافي. كذلك ان تكون من الباحثين ومن ممثلي المجتمعات المحلية والادارية. على هذه اللجنة ان تقدم الترشيحات على مستوى الافراد او المجموعات للاعتراف بهم ككنوز بشرية.

- اثـر المسـح الاسـتقصائي لنظـام الكنـوز البشريـة الحيـة، ينبغـي اعتـماد معايـير محـددة. وذلـك مـن خـلال القيمـة المادية والمعنويـة الدالـة عـلى عبقريـة الانسـان وادائـه الخـلاق. وايضـاً التجـذر في التقاليـد الثقافيـة والاجتماعيـة والطابـع التمثيـلي لمجتمـع معيـن مهـدّد بخطـر الانقـراض والـزوال، والمتميـز بتفوقـه في الاداء، والقـدرة عـلى تطويـر المعـارف والمهـارات، وحسـن نقلهـا للآخريـن او للمتدربيـن.
- عدد المرشحين: وهنا يجب مراعاة عدد العناصر المميزة والميزانيات المعتمدة لهؤلاء.
- إعـلاء شـأن الكنـوز البشريـة الحية ودعمهـم والإعـتراف بهـم ومكافأتهـم بشـكر علنـي، كأن تمنـح مرتبـة الـشرف في احتفـال رسـمي مـن قبـل الجهـات المختصـة، ونعنـي هنـا وزارة الثقافـة، ومـن خـلال اشـارات اوتقديـمات مميـزة، ماديـة او معنويـة (ميداليـة، شـهادة، الـخ ...). ويفضـل أن ترتبـط مـع برنامـج وأنشـطة واحتفـال خـاص. وينبغـي النظـر أيضـا بمكافـآت ماليـة، وذلـك لتشـجيع الكنـوز البشريـة لتحمـل مسـؤولياتهم وتشـجيع انتقـال المهـارات ويمكـن أيضـا أن تمنـح مكافـآت للمتدربيـن. وقـد تقـدم الـدول الأعضـاء للكنـوز البشريـة الحيـة بعـض التقديـمات لتمكينهـا مـن إداء أو إنشـاء عنـاصر محـددة مـن الـتراث الثقـافي. وذلـك مـن خـلال توفـير المـواد الخـام أو المعـدات واللـوازم لبنـاء أو تشـغيل ورش العمـل ومرافـق التدريـب. وهنـاك أنـواع أخـرى مـن التقديـمات والمكافـآت وخاصـة في مجـال الخدمـات العامـة الصحيـة والطبيـة.

6. اتخاذ تدابير لحماية مستدامة

تتم الحماية المستدامة للعناصر الثقافية من خلال مجموعة إجراءات يمكن تلخيصها بالتالي:

- **انتقـال المعـارف والخـبرات:** وذلـك مـن خـلال التدريـب المناسـب، سـواء في المؤسسـات التعليميـة الرسـمية أو مـن خـلال الانتقـال المبـاشر والتقليـدي في الـورش او الامكنـة حيـث الاداء وهـذا أمـر ضروري مـن أجـل ضـمان أن المعرفـة والمهـارات تنتقـل مـن الكنـوز البشريـة الحيـة للشـباب. في هـذا الصـدد مـن الاجـدى التعـاون مـع الهيئـات المختصـة، وذلـك لضـمان كفـاءة برامـج التدريـب
- **توثيـق المعـارف:** حفـظ الوثائـق المناسـبة للمعـارف والمهـارات التـي يسـتخدمها الإنسـان الكنـز، وذلـك باعتـماد جميـع الوسـائل المتاحـة (جمـع، فهرسـة، وتدويـن، تصويـر، الخ...). واتخـاذ المناسـب مـن التدابـير القانونيـة والفنيـة والإداريـة والماليـة التـي تهـدف إلى إنشـاء مؤسسـات لوثائـق للـتراث الثقـافي وتيسـيرالوصول إليهـا. وحفـظ هـذه المحفوظـات والمؤسسـات المتخصصـة ضمـن انظمـة تعنـى بالتوثيـق و المتاحـف بشـكل

عـام والاتنوغرافيـة منهـا بشـكل خـاص تشـكل المـكان المناسـب، وهنـا تبـدو اهميـة المراصـد الثقافيـة التـي نشـترك في ابحـاث متواضعـة ضمنهـا. وهنـا اهميـة تدريـب المتخصصـين لجامعـي الـتراث والحافظـين لـه، ومعـدي الارشـيف المتخصـص

- **الترويـج**: عـلى الـدول وبالتعـاون مـع الهيئـات المختصـة، ولضـمان الاسـتمرارية، توعيـة الجمهـور حـول أهميـة الـتراث الثقـافي وصونه. وهـذا قـد يشـمل:

  – رفـع مسـتوى الوعـي وتعزيـز الأداء بشـكل منتظـم مـن قبـل المؤسسـات الداعمـة، وذلـك باقامـة الاحتفـالات والمعـارض، ومـا إلى ذلـك وبهـذه الطريقـة يمكـن خلـق جمهـور يدافـع عـن الكنـوز البشريـة، والمهـارات وخاصـة مـن بـين الأجيـال الشـابة، التـي ترغـب في أن تتـدرب وليتـم توفـير الفـرص لإثـراء تجاربهـم.

  – تقديـم الإعانـات لتمكـين البحـوث ونـشر المطبوعـات والتسـجيلات السـمعية والفيديـو والوسـائط المتعـددة والوثائـق المتعلقـة بالـتراث الثقـافي المعنـي.

  – ان تندرج مادة التراث الثقافي في المناهج التعليمية.

  – المسـاعدة عـلى إقامـة حيـاة كريمـة للكنـوز الوطنيـة، مـن قبـل الـدول، اوالمنظـمات الدوليـة وخاصـة منظمـة اليونسـكو لانهـا المؤسـس والداعـم لهـذه الظاهـرة، وذلـك مـن خـلال التقديـمات الماليـة او التقنيـة اللازمـة.

7. المؤسسات المؤثرة ذات الصلة

- ان وزارات الثقافـة والاعـلام والتربيـة والتعليـم العـالي تلعـب دورا مهـما في حفـظ الشـعر الشـعبي وتعليمـه ونـشره وانتشـاره.
- التوعيـة حـول اهميـة الـتراث الشـعبي وحـول اهميـة دلالاتـه التاريخيـة كتعبـير عـن التعلق بـالارض والوطن.
- رعايـة دورات مـن قبـل وزارتي الثقافـة والتربيـة لتعليـم هـذا الـتراث وكيفيـة صونـه وحفظـه.
- اهتـمام وزارة الاعـلام بهـذا الـتراث والعمـل عـلى ترويجـه عـبر وسـائل الاعـلام والاتصـال.
- مـن التدابـير المقترحـة ان تعمـل عـلى ادخالـه إلى البرامـج المدرسـية والجامعيـة وترويجـه عـبر وسـائل الاعـلام والاتصـال
- دعم فرق محلية تحيي هذا التراث وتشجيع قيام مباريات مناطقية ومن ثم وطنية...

الخاتمة

نظراً للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تواجهنا، فإننا امام مفترق مفصلي يمكن ان يؤدي الى انسلاخ تدريجي عن الهوية الثقافية الوطنية، التي يتميز بها اي مجتمع من المجتمعات، إن فقد الهوية يؤدي الى الإنخراط في هوية وافده فنقع في اللاتوازن لجهة الإنتماء والتعرف إلى الذات. من اجل ذلك لابد من الاعتماد على الاسس المعرفية والمنطقية، البعيدة عن العواطف او الحنين بتبني ماهو تقليدي محلي، او ماهو وافد، فاعتماد الموضوعية اساسي لدراسة مختلف اشكال الثقافة، بابعادها المحلية او الوافدة، وهذا الشكل من الدراسة يكون لمصلحة التراث، بتسليط الضوء عليه، من خلال دراسات معمقة تحدد الاهداف، تجمع المعطيات، تدونها، تبوبها ثم تحللها على اسس علمية، ونخضعها للنقد، لابراز بعدها الايجابي وجمالها وروح الجماعة وهويتها الوطنية، وربما نجد ما هو سلبي لنعمل على استبداله بما هو افضل. وما يميز موضوعنا الآن، اي الكنوز البشرية الحية ليس سوى جانب معرفي بسيط لملء الفراغ الحاصل في دراسة التراث الثقافي، بأشكاله المختلفه، من اجل رصده اولاً، ثم لصيانته فيما بعد. والزجل اللبناني يشكل احد العناصر الثقافية التي يجتمع في ادائها اكثرية الشعب اللبناني، فهو المعبر عن همومه ومشاكله وفرحه وحزنه، ولتمثيله اغلبية المناطق والطوائف والفئات الاجتماعية والسياسية والثقافية. فالزجل من مكونات الشخصية اللبنانية يعبر عنها بصدق وعفوية، من أجل ذلك تم تبنيه ضمن التراث العالمي، كتراث ثقافي لامادي ضمن الاتفاقيات الدولية لصون هذا التراث من قبل منظمة اليونسكو للثقافة.

وانطلاقا مما تقدم نقترح التوصيات التالية:

- ✓ التأكيد وتبني مصطلح الكنوز البشرية الحية، لما له من تأثير ايجابي على المتلقي والباحث.

- ✓ ابراز دور وأهمية حماية التراث الثقافي ودعمه والاستفادة منه لنقل ما يشتمل عليه من فنون التراث إلى الأجيال القادمة لحمايته من الاندثار باعتباره حلقة مهمة في تاريخ الشعوب والذاكرة الجماعية لها.

- ✓ ضرورة إطلاق عمليات حصر للتراث الثقافي عن طريق الدراسات الميدانية التي تعتمد المنهج العلمي في البحث، اشراك وادخال ذلك ضمن المناهج التعليمية ومحاولة استثمار الكنوز البشرية الحية لما تملكه من المعلومات التراثية والممارسات الفطرية غير الموثقة والآيلة للاندثار.

- ✓ العمل على إصدار نشرة ألكترونية تتضمن الموضوعات التي تتعلق بالتراث.

- ✓ سن القوانين اللازمة وطنياً للحفاظ على الموروث الثقافي.

- ✓ توفير الموارد المالية الضرورية لعمليات صون وحماية التراث من الاندثار.

- ✓ تأمين حقوق للكنز البشري الحي، بالاعتراف به، ومنحه مكافآت مادية ومعنوية، وتأمين حقوقه كافة ونشر انتاجه عبر مختلف الوسائل.

- ✓ العمل على التواصل والتشبيك بين المساهمات على مستوى البلدان العربية، ولتكن بذور وحدتنا من الثقافة الشعبية.

- ✓ مكتبة فنية لحفظ هذ التراث.

ملحق
نماذج من الزجل اللبناني

قال علي الحاج بمناسبة احد الأعراس في بلدة جونية، مستعملاً التورية، وكان اسم العروس ميليا، وفي شهر رمضان، واستدعته العروس بشكل مباشر ليقول الشعر:

بأرض جونية (ميل يا)غصن الدلال واليوم شرب الخمر صار عندي حلال

قـوم يا علي نادي على امة علي تايفطرو عا ذمتي شفت الهلال

هنا نجد الجرأة بالقول، وهذا منافٍ للدين، واحيانا نجد اباحية... ورغم ذلك يتقبله الناس ويكررون القول.

ويقول كذلك عندما غزاه الشيب:

قالوا متى هالشيب بالشعر انتشر بيريِّح العلقان بحبال الهوى

لكن انا بالعكس عن كل البشر لا الشيب ريَّحني ولا القلب ارتوى

ومن اشعاره الهزلية عندما التقى بصبية تلبس بدلة مثل الرجال، فقال

لبستي طقم افرنجي عال انشاءالله ولا عين تصيبو

بها الطقم عملتي رجال الباقي منين بنا نجيبو؟

ويقول زين شعيب وهو يغني العتابا:

تعي إحكي معي بال يس بال وي اجلسي بجلس وإلوي الخصر بلوي

إذا قالو هوى الحلوين بلوي بعثولي ألف بلوي عالحساب

ويقول زين شعيب في الموت والحياة:

الدنيا زوالي والعمر أوهام والكون من أصلو سبع تيام

والناس صورة وسينما وشاشة افلام عم تركض ورا افلام

ويقول السيد محمد المصطفى في جنوب لبنان المقاوم:

مجدك جبل عامال بها التاريخ زيد تا يعود يخضر الأمان بعودنا

ونشوف مطلع شمسنا وهلال عيد يسطع علينا تا يشع وجودنا

وكل نقطة دم نزلت من شهيد انكتبت على صخرة خلودك يا جنوب

حتى حمينا بي دمانا حدودنا

ويقول في رثاء الرئيس جمال عبد الناصر:

طود وهوى ومنو انطوى اعلى القمم ... ودرب السياسة مطوبي برأيو الحكيم
هز الشرق والغرب في حـــزن وألم ... هزّت مرض ما بيوقف عليها حكيم
هيذا اللي إسمو عبْد ناصــــر للأمم ... إنتاج دم وروح للأمـة دفـــع

شو كان يقبض بدْل هالدفع العظيم؟

ويقول جوزف الهاشم (زغلول الدامور) في حنينه لبلده:

لا بدي رزق زيـــادة ... ولا بدي مـــال
بيكفيني بأرض بلادي ... خيمة وعـــرزال
بلادي الفردوس بذاتو ... ملعب للنـــور
انزرعت كل جنيناتــو ... ورد ومنتـــور
شـــلال بغنياتـــو ... يجاوب شـــلال

ويقول جورج بو انطون نقيب شعراء الزجل، في وطنه لبنان:

لبنان مش بس النهر والمي ... والسنديانة والهـوا والفي
لبنان تاريخ وقلم وكتاب ... وللحرف إم وللحضارة بي

ويقول في القانون:

الحكم ملح الأرض بقول النظام ... وعن هيبة القانون قال الإحتكـام
الجنة الما فيها زهور ما فيها عطور ... وارض الما فيها عدل ما فيها سلام

ويقول في الإنتخاب

بالإنتخاب بينفتح للناس باب ... تا توزع مشـــاريع وتــفبرك حكي
والمضحك المبكي بيوم الإنتخاب ... صوت الغشيم بمستوى صوت الذكي

ومن غزليات شحرور الوادي، يقول:

لمن بساعة وداعي بتســـمعي ... ليي تعي وتبسمي ولا تدمـــعي
ت بعيوني صورك صورة وداع ... وطبق جفوني وباخذ الصورة معي

والتقـى اسعد الخـوري الفغـالي الملقـب ب (شـحرور الـوادي)، بطـه حسـين في مـصر، وقـال لـه:

وحياتك يا طه حـسين ... الأغلى من عيوني التنتين
عين وحدي بتكفيـــني ... خذ عين وخليـــلي عين

- تقارير الزملاء: الدكتور علي الموسوي (المشرف على الدراسة في محافظة البقاع)، الدكتورة مارلين حيدر (منسقة المشروع ولها الفضل في تجميع المعطيات)، الدكتور طوني جريس (المشرف على الدراسة في محافظة جبل لبنان). الذين تشاركنا معهم في الاشراف على الدراسة على مستوى لبنان ككل.
- فريق العمل، المحققون الميدانيون: د.رامي ناصر، د.فاطمة طعمة، د.فاطمة عز الدين، د.ماريز يونس، د.ملاك بزي.

المراجع

- النصـوص الاساسـية، اتفاقيـة عـام 2003 صـون الـتراث الثقـافي غـير المـادي، منظمـة الامـم المتحـدة للتربيـة والتعليـم والثقافـة، الطبعـة الاولى 2011
- ورشـة عمـل تطبيـق اتفاقيـة عـام 2003 صـون الـتراث الثقـافي غـير المـادي، برمانـا، لبنـان، 11- 15 تمـوز 2011.
- احمـد سـكونتي، ماذايقصـد بصـون الـتراث الثقـافي غـير المـادي، منظمـة الامـم المتحـدة للتربيـة والتعليـم والثقافـة، 2011
- النـدوة الاقليميـة حـول تطبيـق توصيـة اليونسـكو بشـأن صـون الثقافـة التقليديـة والشـعبية في الـدول العربيـة، بـيروت، 10 – 12 ايـار 1999.
- روبـير خـوري، الزجـل اللبنـاني منابـر واعـلام، منشـورات صـوت الشـاعر، العقيبـة، لبنـان، الطبعـة الاولى، 2003.
- روبـير خـوري، موسـوعة الشـعر العامـي اللبنـاني، الجـزء الاول والثـاني، منشـورات صـوت الشـاعر، الدكوانـة، لبنـان، الطبعـة الاولى، 2008.

صفحات الكترونية

- موقع اليونيسكو الرسمي www.unesco.org

الجنوب الشاعر : أرض بين الجنّة والظلّ



د . محمد علي شمس الدين

الشعراء بين جيلين جبل عامل أو جبال عاملة

يسمّى نهر الأولي الذي يصبّ جنوبي صيدا في البحر الابيض المتوسط ، نهر الفراديس . والفراديس جمع ومفرده فردوس وهو من أسماء الجنة. ولعله سمي كذلك بسبب ما يبثه ذلك النهر من ينابيع على ضفتيه خلال جريانه إلى البحر. يعتبر نهر الاولي الحد الشمالي للبلاد التي سميت جبل عامل أو جبل عاملة أو جبال عاملة، وإذا كانت صيدا على الأرجح، لم تكن جزءًا من الحدود الشمالية لهذه التسمية التاريخيّة إلا إنها بعد إعلان الجنرال غورو دولة لبنان الكبير العام ١٩٢٠ وضم الجنوب اللبناني إليها، غدت مدخلا للجنوب وحاضرة من أهم حواضره. أما الحدود الجنوبية و الجنوبية الشرقية لجبل عامل فقد كانت أبعد مما هي عليه الأن. كان «جبل عامل» يضم منطقة الجليل من فلسطين المحتلة، وكان يطل على الاردن ويمدّ بعنقه نحو بحيرة طبريا[1] .

لذلك فإن استرجاع الجليل ومياه البحيرة يعد اليوم حقًا من حقوقنا التاريخيّة كعامليين، وبحيرة طبرية عاش على ضفافها شاعر من أشهر شعراء عاملة هو عدي بن الرقاع العاملي، ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر. كان مداحًا لبني أمية خاصًا بالوليد بن عبد الملك، مات بدمشق وكان معاصرًا لجرير. اجتمع به في بلاط الوليد الذي كان يحب الهراش بين الشعراء على سنة أسلافه ابتداءً من عبد الملك بن مروان، ومن تلاه من الخلفاء شجع شعر النقائض الذي اشتهر بين الثلاثي الأموي المعروف: الأخطل، جرير والفرزدق. قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرًا ... فجاءت بوزواز قصير القوائم

---

1 - الشيخ علي الزين، مع التاريخ العاملي، مطبعة العرفان، صيدا 1954 ص 36.

إلى أن يقول:

تدليت تزني من ثمانين قامة　　　وقصرت عن باع العلى والمكارم

لذلك لم يسلم عديّ بن الرّقاع العامليّ من لسانه، فقال له في بلاط الوليد مستعيدًا المعنى الذي هجا به الفرزدق:

يقصر باع العاملي عن العلى　　　ولكن ....العاملي يطول.

فأجابه عدي:(ولعل ذلك حصل على البديهة):

أأمك يا ذا أنبأتك بطوله　　　أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول

فقال جرير : بل أنا امرؤ لم يدر كيف يقول . فتهدده الوليد بن عبد الملك فقال له: أتهزأ بشاعرنا .....

وقد هجاه الراعي النميري أيضًا قائلا له :

لو كنت من أحد يهجى هجوتكم　　　يا ابن الرقاع و لكن لست من أحد[1]

من هو عامل أو عاملة الذي يضاف إليه هذا الجبل ؟

هل هو رجل أم امرأة ؟ في تاج العروس للزبيدي أنّ عاملة اسم لرجل وامرأة. وقد جاء في خطط الشام لمحمد كرد علي «جبل الجليل هو جبل عاملة « عاملة بن سبأ العربي الصميم. يذكر اليعقوي في كتاب البلدان: «جبل عامل حذفت التاء للتخفيف»، أمّا عامل أو عاملة فهو ابن سبأ لصلبه. وهم قبيلة قحطانية من اليمن جاؤوا إلى هذه البلاد بعد انفجار سد مأرب في سيل العرم أو العرم، أي استوطنوا هذه البلاد قبل الإسلام. فسكان جبل عامل عرب خالصو الدم ينتسبون إلى قبيلة عاملة القحطانية .. ألمح أرنست رينان في كتابه[2] mission de phenicie إلى وجود عائلات فارسية كرديّة أتت جبل عامل في عهد صلاح الدين الايوبي، و قد تكون حتى الأن بقايا من أصلاب أوروبية في عروق العامليين بعد الحروب الصليبية وبعد تمازج الصليبيين بالسكان ... لا بد من ذلك مع ملاحظة بقاء الغلبة للأصول العربيّة أعراقًا وانتماءً و ثقافة[3]. عائلة جرداق في مرجعيون مثلا هي من أصل فارسي وجرداق هو بالفارسية الرغيف. وربما جاءوا من إيران إلى جبل لبنان لينضموا إلى المردة وساقتهم الامور لمرجعيون. برز منهم الجرداقيان الأخوان جورج وفؤاد

1 - السيد محسن الامين، خطط جبل عامل، الدار العالمية، 1983، ص ص55 56.

2 - رسالة فينيقيا ص 633.

3 - للمزيد في هذا الموضوع يراجع: كتاب عاشوراء في الأدب العاملي المعاصر، السيد حسن نور الدين، الدار الاسلامية، 1988، الفصل الأول.

جـرداق. وقـد سُـمّي شـارع في طهـران مؤخـرا باسـم جـورج جـرداق بسـبب تأليفـه لكتابـه المعـروف عـلي صـوت العداليـة الانسـانية. أمـا فـؤاد جـرداق، فقد عـاش مـا بـين 1912 و 1965 م. لقـب شـاعر المـرج أي مرجعيـون وكان يتمثـل بعمـر الخيـام الشـاعر الفـارسي المعـروف. هـو شـاعر مصـور لعـذاب النـاس مدافـع عـن حقوقهـم. دخـل ديـر المخلـص و خـرج بعـد أن قـرأ ماركـس ولينـين ثائـرًا وتعبـأ بـروح الثـورة، أوصى أن تحـرق جثتـه بعـد المـوت. يقـول:

«عشت للثورة الفتية زندًا تصطلي بي لا شاعرًا مداحا

كلما أخمد الطغاة لظاهـــا أوجدت في واريًا قداحـــا

وقـد حفظـت أبياتـه الناريـة التـي ألقاهـا العـام 1938 في ذاكـرة النـاس و هـي وصـف جـارح لأحـوال البـلاد وفسـاد أولي الامـر مـن ساسـة وحـكام يقـول فيهـا :

« وطــن سراحــين الــذئــاب تسوسه
مــــاذا يــدرّ لــشـعــبـه تـقـديـسـه
وزراؤه اوزاره ورجــــالــــــــه
أصــــلالــه ورئــيــســه مــرؤوســه
وكـــذاك نـــواب الــبــلاد نــوائــب
نــزلــت فــزاد مــن الأذى كـابـوسـه
وطــن بــلا طــول ولا عــرض ولا
ســمــكٍ ولا جــرمٍ فـكـيـف أقـيـسـه»

أمـا التشـيع في جبـل عامـل ، وانحيازهـم العقيـدي والسياسيّ للبيـت العلـوي (عـلي وأبنائـه) فهـو عائـد إلى مـا بثّـه أبـو ذر الغفـاري الصحـابي الثائـر الـذي نفـاه معاويـة بـن أبي سـفيان إلى الربـذة وأقـام فـترة طويلـة في الجنـوب اللبنـاني.

والقـول بـأن الفـرس هـم أسـاس التشـيع في جبـل عامـل هـو قـول مشـكوك فيـه بـين المؤرخـين، عـلى الاجـمال فأبـو ذر مـن قبيلـة غفـار وهـي قبيلـة عربيـة ... يقـول اللغـوي المـؤرخ الشـيخ أحمـد رضـا: «التشـيع في بـلاد الشـام أقـدم منـه في كل البلـدان... وكان عـلى أيـد عربيـة وليـس للفـرس أثـر فيـه»[1]، والانحيـاز للبيـت العلـوي في الجنـوب انحيـاز شـعبيّ وجـدانيّ تجـاوز المذهـب الشـيعي، يقـول بولـس سـلامة في ملحمـة «عيـد الغديـر» : يـا أمـير الإسـلام حسـبي فخـرا / أنـني منـك مـالىء أصغريا......جلجـل الحـق في المسـيحي حتـى «»عـد مـن فـرط حبـه علويًـا».

1 - مجلة المقتطف مجلد37/ 1910 ص 428.

حين يذكر جبل عامل أو جبال عاملة تذكر التلال الخضراء ذات الهواء المعتدل والينابيع الصافية ... تذكر أشجار التين والزيتون وكروم العنب والصبار، تذكر الغلال بأنواعها فهنا أرض عالية خصبة ومعتدلة، وسهول وأودية تسيل منها مياه الانهار والسواقي وصولًا إلى البحر... وتأثر مزاج السكان على العموم بمزاج المناخ فلا يعرف عن العامليين تاريخيًا أنّهم كانوا أصحاب نزوات عنيفة، وما يفعله الثأر من إسالة دماء واغتيال وغدر. وتجلى ذلك بأبرز صورة بعد تحرير القسم الأكبر من الجنوب اللبناني من العدو الاسرائيلي على يد المقاومة في أيار العام 2000 . .. لم يكن ثمة انتقام من المواطنين الذين وظفهم العدو الاسرائيلي في صفوفه على اختلاف انتمائهم المذهبي أو الديني.

والعنف الذي أظهره المقاومون الاشداء ضد الجنود الاسرائيليين ومن معهم من المجندين، كان معاملة متسامحة بين الاهل .

في الحديث على جبل عامل يخطر على البال جبل أخر مواز له، في العلو والاخضرار والشعر هو جبل لبنان. لقد نشأ في جبل لبنان مع مطلع القرن العشرين شعراء بالعامية والفصحى تعلقوا بالجبل وقدسوه تقديسًا يقرب من العبادة. من رشيد نخلة وأمين نخلة وصلاح لبكي وصولا لميشال طراد وإيليا أبو شديد وسعيد عقل. ربما تصح تسميتهم «عباد الجبل». أوّل من أشار لذلك هو المفكر جورج قرم في كتابه بالفرنسية (الجبل الملهم) حيث قال إن جبل لبنان هو كلمة الله المعلقة بين السماء والارض. استعار سعيد عقل نصيًا هذه الجملة وقال: «أنا حسبي أنني من جبل هو بين الله والأرض كلام»، ولعل هذا التّعلق الغيبي بجبل لبنان أنشأ عنصرية كان لها دور في الحرب الاهلية ابتداءً من العام 1975، يصف الشاعر الفرنكوفوني صلاح ستيتيه في مقدمة الأعمال الشعريّة لفؤاد أبي زيد بالفرنسية (الصادرة عن دار النهار) الافق الشاسع هذا التقاطع الهندسي بين علو جبل لبنان وإشرافه على امتداد البحر الأبيض المتوسط تقاطع الجبل وشمس المتوسط. وكيف حمل ذلك اللبنانيين على المغامرة والسفر إلى أوروبا خاصة. والاحتكاك بفكر الغرب وثقافته. كانت عين موارنة جبل لبنان على فرنسا. والغرب أما عين جبل عامل فكانت على دمشق أو فلسطين وإذا ابتعدت وصلت إلى النجف الاشرف وكربلاء أو إلى أرض الغريب في إيران .. لقد تعلّق شعراء جبل عامل بجبلهم بلا ريب، إلا إنّ أوصافه في شعرهم أتت متواضعة بالقياس لقوة الشعر في جبل لبنان. وأجمل بيت قيل في أحوال الناس هو البيت الذي قاله الشيخ علي مهدي شمس الدين (متوفي 1915)

قوم إذا نزل الشتاء بأرضهم لبسوا البيوت و زرروا الابوابا

إن الاستعارة في هذا البيت تكاد تصل إلى ما اتصف به أبو تمام من استعارات مبتكرة وهي لا تقل عنه في قوله : «مطر يذوب الصحو منه وبعده ..... صحو يكاد من النضارة يمطر « ..... صوت.....بهاء الدين العاملي :

ينسب الفقيه والشاعر والعالم الموسوعي البهائي إلى جبل عامل. فهو بهاء الدين العاملي 1564 1621 م . انتقل باكرًا إلى إيران (أصفهان وقزوين) هربا من العثمانيين وعرف بصاحب الكشكول الكبير. أشعاره في المدائح النبيوية و الوصف و مديح صاحب الزمان يقول في رائية من 67 بيتًا هي « الفوز و الامان في مدح صاحب الزمان « :

« خليفة رب العالمين وظله   على ساكني الغبراء من كل دار

إمام الورى طود النهي منبع الهوى   وصاحب سر الله في هذه الدار

وله قصائد في الخمرة الصوفية على غرار الشعر الفارسي (حافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي) يقول : «

اشف قلبي، أيها الساقي الرحيم
بالتي يحيي بها العظم الرميم
زوج الصهباء بالماء الزلال
واجعلن عقلي لها مهرا حلال
بنت كرم تجعلن الشيخ شاب
من يذق منها عن الكونين غاب
خمرة من نار موسي نورها
دنها قلبي وصدري طورها
قم فلا تمهل، فما في العمر مهل
لا تصعب شربها والامر سهل
قم فلا تمهل فإنّ الصبح لاح
والثريا غربت والديک صاح»

وقد نُسبت إليه أبيات في الغزل وهي في الحقيقة لعبد المحسن الصوري (نسبة إلى صور)

بالذي ألهم تعذيبي   ثناياك العذابا

ما الذي قالته عيناك   لقلبي فأجابا[1]

كان ثمة شكوى حملها الجنوبيّون بعد إعلان الاستقلال وتكوين الجمهورية بحدودها الراهنة من أنّهم الجزء المهمل من لبنان ، بقي يحكمهم الاقطاع الذي انتقل من الانتداب الفرنسي إلى الاستقلال وتكيف معه . ثمة فلاحون طيبون و بسطاء يزرعون الأرض التي

1 - ينظر: دلال عباس، بهاء الدين العاملي، دار الحوار 1995.

غالبًا لم يكونوا يملكون رقيتها ويدفعون خراجها للبيك الذي كان وكيل السلطة وغالبًا ما هو جلادها. ويقول موسى شعيب (مات غيلة العام 1980) محرضًا الجنوبيين على الثورة : قم وقاتل حِقدُكَ الصامت لا يجديك والسلم خرافة / هذه الارض التي تعشق ترنيم المناجل / مهرها ما عاد كرباجًا ولا قصر ضيافة « . وكان ثمة احيانًا تواطؤ بين سلطة الاقطاع السياسيّ (اقطاع الارض) وبعض رجال الدين ما دفع موسى الزين شرارة (1902 – 1981) ليقول في إحدى قصائده منتقدًا رجال الدين :

لا يخدعك منهم حمل مسبحة ففي الثقوب عشوش للشياطين

ويشكّل موسى الزين شرارة الذي لم يُطبع ديوانه حتى الآن، حالة متمردة على تحالف الاقطاعين السياسيّ والديني في تلك المرحلة. وفي بعض ابياته رهافة في الصورة ونكهة في التهكم تجعل شعره السياسيّ الاجتماعيّ وإن كان لاذعًا، مستساغًا في الذائقة الأدبيّة والشعبية معًا.

ثمة شعراء آخرون ظهروا وصوروا الحالة الاجتماعيّة والسياسيّة للعاملين وهم أقرب للنّظم منهم للشعر بمعناه الجمالي والابداعي . ويقول الشيخ عيسى البلاغي في وصف مظالم الاقطاع :

طغت سفهاء عامل في البلاد وفيها أظهروا كل الفساد

لقد ظلموا العباد ولم يخافوا من الرحمن في ظلم العباد

كأنهم بأمـــوال البرايا رياح عاصفات في رماد .

وكثرت الاخوانيات وراجت كمطارحات السيد جعفر محسن الامين والسيد نور الدين بدر الدين، كما عرف نوع من الشعر الفكاهي يذكر بعصر الانحطاط وشعرائه ممن عدهم الثعالبي في يتيمة الدهر كابن الحجاج وابن سكرة وتقوم منظوماتهم على السخرية السطحية والبديع الفارغ. نذكر منظومات الشيخ محمد نجيب مروة ت1376 ه ....

قال واصفًا حالة القرى العاملية و مافيها من بؤس و جهل :

أبى الدهر إلا ان يكون محرمـــا علي بلوغ المجد طول حياتي

فألزم شخصي بالاقـــامة في قرى ارى أهلها للضيم غير أبـــاة

إذا رمت يوما ان أسير لغيرهـــا يثبط لي عند السير خطـــواتي

وكيف الترقي في القرى بين معشر ذوي غلظة غبر الوجوه جفاة

أحاديثهم في كل وقت بدينهـــم وزرعهم والحرث و البقرات[1]

---

1 - الامين ، خطط جبل عامل، ص 121.

ثمة بعض الاصوات لا بد من الوقوف عندها، قبل الإنتقال للحديث عن الشعر في الجنوب اللبناني بعد سبعينات القرن الفائت.

لم يكن اندلاع الحرب الاهلية في مطلع العام 1975 سوى إيذان بتحولات عنيفة في المجتمع وفي اللغة وفي الشعر. سيكون زمن قد مر يقارب الخمسين عامًا فاصلًا بين كل ّمن محمد علي الحوماني (1896 - 1964) وموسى الزين شرارة وعبد الحسين العبد الله والشيخ علي مهدي شمس الدين وجعفر محسن الأمين وسواهم من جهة، وكلّ من محمد علي شمس الدين، وجوزف حرب، وعبد الكريم شمس الدين، وحسن جعفر نور الدين، وحسن محمد نور الدين، وحسن عبد الله، ومحمد العبد الله، وموسى شعيب، والياس لحود، و شوقي بزيع وسواهم ممن أطلق عليهم تسمية شعراء الجنوب: وكما تكوّنت عصبة الأدب العاملي التي أطلقها المؤرخ الشيخ علي الزين في العام 1935 وكان من أهم مبادئها تبني مقولة «الفن للفن»، والاهتمام بالنقد، تكونت ابتداءً من سبعينات القرن الماضي كوكبة « شعراء الجنوب «. لكن ثمة الحقبة السابقة، أو في الاسلاف. أصوات لا بد من الوقوف عندها: وهي حالات وأصوات شعرية ....

- صوت : بهاء الدين العاملي (-1546 1621)

- صوت : محمد علي الحوماني (1896 1964 - م)

صوت شعري مميز ولد في حاروف (قضاء النبطية) وبدأ باتجاه ديني ما لبث أن ابتعد عنه ليعمل في الصحافة والسياسة ويدخل في صراع سياسي مع رئيس وزراء أول حكومة استقلال رياض الصلح ويكتب فيه أهاجي في ديوانه المسمى «فلان « . من أحسن كتبه في الغزل كتابه «حواء الملهمة»:

«أحبك فاسقيني بكفيك شربة من الماء صرف الماء واقتربي مني

ولا تمزجي بالدمع كأسي فلم أصن دموعك في قلبي لاشرب من جفنيّ»

لـه جـرأة عـلى العبـارة و حداثـة في ابتـكار المعنـى ولعلـه هـو الممهـد والأسـاس للمُمَيَّزيـن مـن شـعراء الجنـوب: يقـول في قصيـدة مسـيح القلـب :

أسميك في ديـوان شعري طليقة
مع الـروح ترعين الخمائل والعشبا
وأوردتـك الماء الذي حال من دمي
فأنبت في عيني لـؤلـؤك الرطبا
فـلـما تجـلى في سـمائـك خـاطـري
وذقـت عـلى فيك الصبابة والحبا
وأجنيت كفيك العواطف والهوى
وأرعيت عينيك الحشاشة والقلبا
صعدت إلى الـروح المهيمن سائلًا
هـــواي بــه مــن أي نـاحـيـة هبا
فجمجمت الاربـــاب في ملكوتها
وكـان مسيح القلب أفصحها ربا[1]

– صوت جعفر محسن الامين:

ولـد جعفـر الامـين مـن والـده المرجـع الدينـي المعـروف السـيد محسـن الامـين في العـام 1908 كـما يخـرج الليـل مـن النهـار، كان لونـه ميـالًا للزنوجـة بـما ورثـه مـن بـشرة والدتـه ذات الاصـل الافريقـي. اشـتراها والـده أثنـاء الحـج وتزوجهـا وأضافهـا إلى عيالـه زوجتـه وأولاده. تصعلـك جعفـر محسـن الأمـين في السـلوك والعبـارة وعمـل معلـمًا في أكثـر مـن بلـدة في الجنـوب اللبنـاني. بروليتـاري بسـبب الأفـكار الشـيوعية التـي حملهـا مـن دون أن يتمتـع بالامتيـازات المادية والمعنويـة التـي يتمتـع بهـا والـده في المجتمـع، كتـب صفحـات مـن سـيرته قبـل أيـام مـن وفاتـه وأودعهـا ملفـًا دوّن عليـه عبـارة «أوراق خاصـة»، يشـكو فيهـا اضطهـادًا نالـه وأمـه الزنجيـة التـي يسـميها «أمـيرة الشـهيدات وقديسـة القديسـات». اهتـمّ بطبـع كتبـه وأشـعاره وسـيرته، ابنـه أكـرم الامـين. عـاش في ظـروف تاريخيـة بالغـة القسـوة هـي ظـروف الحـرب العالميـة الاولى. يصـف نفسـه قائـلًا: «يمـشي وهـو منفـوخ البطـن عـلى سـاقين دقيقتـين يشـبهان سـاقي الديـك». انضـم إلى مـا يمكـن تسـميته شـيوعية الفقـراء وخلـط الجـد بالهـزل. يقـول واصفـًا نفسـه:

« نصفي إلى الزنار في صرمايتي   وبداخل الطربوش نصفي الثاني»

1 - من ديوان حواء الملهمة دار المدى السفير 2011 تقديم هاني فحص

– صوت عبد المطلب الامين (1916 – 1974)

هو ابن المرجع السيد محسن الامين. قد يكون موهبة مهملة أو منسية. ساهم هو في ذلك الاهمال. جمع شقيقه السيد حسن الامين بعد عامين من وفاته بعض أشعاره في مجموعة صدرت عن المطبعة العاملية في بيروت العام 1976. كتب لها حسين مروة مقدمة بعنوان، نهاية و بداية يبدأها بالجملة التالية: « كم انتهى ليبدأ وكم ابتدأ لينتهي دون أن ينتهي».

قد يكون ثمة قصائد خمرية تم إقصاؤها بسبب الحرج الديني والعائلي، وقصائد سياسية أقصيت بسبب لغتها الجارحة. إن القصيدة العينية المنسوبة إليه « فيروز تقول مغردة و عقول العرب تسمع:

« الآن الآن وليس غدًا أجراس العودة فلتقرع»

الخ ... غير موجودة في المجموعة.

عمل عبد المطلب الامين دبلوماسيًا في موسكو ممثلًا للدولة السورية، وعايش الانقلابات العسكريّة وساهم في بعضها أحيانًا وكتب ما يمكن تسميته قصائد مضادة للشعر ومنها قصيدته التي يعارض بها أحمد شوقي:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

غالبًا ما تطفو هذه الظاهرات في زمن الإحباطات التاريخيّة وسقوط الديكتاتوريات العسكريّة أو بعد الحروب. لعلّ عبد المطلب الأمين كان واحدًا من شعراء الغضب العربي وفي مقدمتهم محمد الماغوط ونزار قباني ومظفر النواب وأمل دنقل وأحمد مطر .. مع فارق الموهبة. يقول الماغوط في قصيدة الفائض البشري: «أيها البناؤون ادعموني بحجر إنني أتصدع كالجدران التي خالطها القش أنهار كالقمم الثلجية في الربيع، اه لو يتم تبادل الاوطان كالراقصات في الملهى» . (من ديوان ، الفرح ليس مهنتي) . في أميركا ظهر شعراء البيت أو الشعراء السفليون . under ground بعد حرب فييتنام مثل الن غينسبرغ وجاك كيرواك ألن غينسبرغ صاحب قصيدة «عواء» التي يقول فيها : رأيتُ أفضلَ العقولِ في جيلي وقد دمرها الجنونُ، يتضوّرون عراةً ومُهَسْترين

يجرجرون َأنفسهم عبر شوارع زنجيةٍ في الفجر باحثينَ عن إبرةِ مخدّرٍ ساخطة

هَبائيون برؤوس ملائكةٍ .

(ترجمة سركون بولص) .

كانت أجنحة عبد المطلب الامين محطمة. يقول واصفًا نفسه :

سيقال سكير تقاذفه القناني والعـــــيون سيقال عربيد متاهته الصراحة و الجنون

سيقال قد قيل الكفاية، فاطمئنوا لن يكون ألا بعيض الكان قد اليكــــــون ... »

اشتهرت قصيدة « نجمة الصبح» :

أنت نايي يا كأس والنغم الحلو عطاء

في كـــفـــك الخـــرســـاء

أعـوزتـنـي صداقـة الـنـاس فاملأ

بـحـطـام الاحـــلام فـقـر فضائي

لامـنـي الـنـاس في رفـاقـة كـأسي

يحرمون الاعمى عصا الاهـتـداء»

قـال فيـه محمـد سـعيد الطريحـي في كتابـه «معـالم الشـام وأعلامهـا – دار الرافديـن « . لقـد تـشرد شـعره بسـبب العـدوى مـن قائلـه . وكان حالـة شـعرية بوهيميـة كان مـن عصبـة أهـل العربـدة و الجـماح . يسـميهم حنـا مينـه في كتابـه «امـرأة نسـيت اسـمها» «جماعـة الخيبـات» ويقصـد جماعـة الخيبـات السياسـيّة والاحـلام القوميـة المغـدورة».

الدم الزراعي مات ... شعراء الجنوب

منـذ سـبعينات القـرن الفائـت تغـير كل شيء عمقيًـا في حيـاة الجنـوب اللبنـاني وفي الشـعر. انحـسر الزمـن الزراعـي والرعـوي وبـدأت تظهـر بـوادر مجتمـع جديـد أخـذ ينـزح إلى المدينـة، وتمـت ممارسـة مهـن بروليتاريـة في بـيروت أو سـفلية كـما التحـق الكثـيرون بالجامعـة إضافـة لعملهـم كمدرسـين في الجنـوب اللبنـاني.

يقـول محمـد العبـد الله في قصيدتـه الـدم الزراعـي : « الـدم الزراعـي ينـزف عشـبًا أخـيرًا / الـدم الزراعـي مـات / انتهـى زمـن المعجـزات / رأيـت دمًـا بفصلـين فصـل تراجـع نحـو الحكايـة / وفصـل يصـير إلى لا نهايـة»

ويمضي في وصف تحوّلات الناس بالانتقال من الريف إلى المدينة يقول:

فقدوا سمرة الارغفة لبسوا الارصفة : إذًا أتسكع .

بعد ظهر نبيذ أحمر

بعد ظهر خطأ كبير[1]

1 - محمد العبد الله ، شاعر من الخيام 1949 2016 ، الدار العالمية 1981.

إذا كان بعض الشعراء العامليين القدامى يقفون بدهشة أمام أحمد شوقي وحافظ والمطران و أبو شبكة ورشيد وأمين نخلة وسعيد عقل وسواهم، فإن الحداثة الشعرية التي نهجها شعراء الجنوب المميزون قذفت بهم إلى واجهة المشهد الشعري اللبناني والعربي وأحياناً العالمي. فقد شاركوا بفعالية في الحركة الشعرية العربية الحداثية وترجمت بعض أشعارهم إلى الاسبانية والانجليزية الفرنسية وسائر اللغات.

الفرق بين شعر الأسلاف وشعر الجدد فارق نوعي. يقول موسى الزين شرارة منتقداً بعض العادات الشعبية في أيام الطف وإحياء ذكرى استشهاد الامام الحسين (ع) في كربلاء، وهو ما يروج في قرى الجنوب ومجالسه في الايام العشرة الأولى من محرم كل عام، بل كل يوم من أيام السنة:

« يا من ينوح وكل عام داره
فيها لمقتول المروءة ماتم
ألمت من تبكي أم أنت مقلد
تبكي كما يبكي أبوك وتلطم »

يقول محمد علي شمس الدين في قصيدة « أعمدة الريح الجنوبية[1]:

سيدي أعلم أن الارز للرب
وأن الارض للتاجر و المنفى لقلبي
وأنا أحمل أحزاني
وأمتد جنوبًا
مردفًا خلفي مواويل سكينه
باحثًا عن منع النهر الاله
قبل يرتد الفتى النهر الاله
مثخنًا بالماء محمولا على العشب المدمى
يدخل المسجد و المقهى و حانوت البغاء
ثم يلقي باعتراف القاتل المقتول
إني أخلع الماء الذي ينضح سمًا
فاعجنوا لحمي بلحم الفقراء
وادخلوا و انتشروا في جسدي

1 - من ديوان قصائد مهربة إلى حبيبتي اسيا دار الاداب 1975

في السياق الصوتي للمقطع وإحالات القصيدة هناك الافتتاح بسيدي ثم الارز للرب كناية عن جنوب محروم في الكيان اللبناني والارض للتاجر كناية عن الظلم الطبقي والمنفى لقلبي كناية عن الشاعر الانسان المهمش. هناك أيضاً خطاب شعري جوهره الصراع الطبقي في بيئة دينية ذات طقوس شيعية يشار لذلك من عبارة مواويل سكينة. وسكينة هي بنت الحسين بن علي(ع). تندرج دلالات المقطع ابتداءً من سيدي حتى الدخول في المعنى التغييري للنهر الاله والذي سيدخل على غرار الاولي نهر الفراديس إلى كل أماكن و أفكار الجنوبيين بلا مكان ممنوع ليخلع عنهم ثياب الذل أو مياه الذل و يغسلهم بمائه المقدس، ماء الفقراء .

وهذا هو القصد من تعداد أماكن متباينة يدخل إليها النهر الجارف المقدس ليغسلها المسجد والمقهى وحانوت البغاء. أما تفسير معنى القاتل المقتول واعترافه فهو أنّ هذا النهر هو مقتول الظلم وقاتله أيضاً. فاقتضى تبيان معنى العبارة وإحالاتها في المقطع الشعري وهو صراع لا ركود فيه ..إذ إنّ النهر (التغيير) لا يجمد ولا يهدأ بل هو دائم الجريان.
(محمد علي شمس الدين ، شاعر من الجنوب اللبناني ولادة 1942)

صوت .. حسن عبد الله

في أعمال حسن عبد الله الشعرية وهي قليلة، بخاصة ديوان أذكر أنني أحببت / دار العودة 1978 و « الدردارة» (دار الفارابي 1981) إثارة لعالم طفولي وطقوس من أوائل الاشياء والحيوات التي يسميها بأسمائها. وحتى التراكمات التاريخيّة كما في قصيدة «صيدا » (1972) لا تخرج عن كاميرا لاقطة ساخرة ذات إخراج سينمائي و دلالة تأملية، يقول :

«حفروا في الارض وجدوا امرأة تزني/ ملكًا ينفض من خنجره الدم/ حفروا في الارض/ وجدوا فخارًا/ صلصالًا/ أفكارًا/ لحنًا جوفيًا منسربًا في أعماق البحر/ حفروا في الارض/ وجدوا رجلًا يحفر في الارض» .

هناك لغة أولية طرية وغير تراثية ومشاهد تتشكّل في طرف شعري لاقط. وسخرية من رسم المشاهد حتى الدرامية منها. يتكرر ذلك في قصيدة الدردارة وهي منبع و بركة ماء في سهل الخيام بلدة الشاعر في الجنوب اللبناني .

ترد مفردات الحياة الأوليّة التي يولدها الماء. ضفادع، حشرات، باذنجان، فجل مزارعون وثور هائج يقول:

« طائر في الجو لكن طابة في الجو/ لكن جدتي في الجو/ هذا الشيء لي وأنا الذي سميته العالي».

ويقول: «وضفدع الماء والدردارة/ عين رأت حلمًا وفسره المزارع لوبياء/ وهي الفضاء وقد تجمع في إناء الذاكرة/ وهي القرى التي اضطربت على قمم الحقول/ وهي القرى انقلبت وظلت عامره».

يذكر الشاعر أنه كتب القصيدة والخيام مهدمة ومهجرة كليًا وتحت سيطرة الميليشيات الحدودية.

لكنّه يحتفل بالحياة المتجددة دائمًا والطالعة من أنقاضها. كالطفل:

« كنا – نسيت / وأذكر العصفور ينقر في صغار الصيف / وأذكر من شموس الصيف صيف الماء تعلو ثم تهبط في يد الفلاح باذنجانة سوداء / أذكر من حديد الصيف فخ حسن خليل ... غلبت شخوص الوعر شخص العسكري وشخص خنزير الهواء وفر شخص الماءء والشخص الذي معه ... جفاف شامل ريش على شوك وتين لم يعد يعطي سوى الحوار ... يعيش يعيش ديك الماء عاش الديك عاش الديك عاش الاصفر العصفور بين الثور و المجرى وصفراء النساء وصفرة الديفور والشهوات تهدء .... الخ «

إنه شعر جديد وصوت شعري خاص لا مثيل له في مفكرة الشعر العربي أو الشعر اللبناني القديم والحديث. (حسن عبد الله شاعر من بلدة الخيام ولادة 1940).

– صوت : جوزف حرب : (1940 – 2014)

مات جوزف حرب مقهورًا وترك لنا إرثًا شعريًا غنيًا أشبه ما يكون بالكنز. في ديوان شيخ الغيم/ وكتاب الدمع. يظهر جوزف حرب يروي سيرته كولد بري «ولد السنديان» بعناصر من الدهشة والمغامرة والرفض. ولو نفضت ذاكرة الشاعر لسقطت منها بلابل وأتربه وعصافير وأعناق صخور وأفراس ريح وقصب على امتداد الماء.

لعل الشاعر الزمن الاول الذي سبق الانسان الصانع Homo Fabien والانسان العارف Homo Sabien يقول وقد هبت ريح عاصفة:

أسرعنا نحو الباب كسرناه/ كان وراء الباب الله «. في شعره نكهة من سريال بدائي. ففي المدرسة الاولى يلقي الطيون الشعر يجلس في الصف الامامي التراب إلى جانبه شاعرة الارض العريشة وخارج الصف الخوخ والحور والزيتون مياه الساقية والعليق يستوي في صمت كشيخ الزاوية. أما الناظر الذي يأتي ويمضي هادئًا فهو الضباب. يسقط أحيانًا على العناصر حروف الابجدية. يقول في قصيدة القطار:

« سـائق المطـر و الطريـق ابتـداء/ مـن الالـف الالـف السـنبلي بلفظـة أمـي/ إلى اليـاء فيهـا/ هنـا السـين سـهل/ هنـا المـاء حـور/ هنـا النـون نهـر هنـا القـاف قـبرة أو قمـر/ ويسـير القطـار».

إنـه شـعر جديـد في ديـوان الشـعر العـربي جـوزف حـرب شـاعر مـن بلـدة المعمارية جنـوبي صيـدا.

الثَّقافة الشَّعبيَّة في جبل عامل(الزَّجل نموذجًا)



د. إيمان علي شعيب

أولًا: مفهوم الثّقافة:

لقد أثبتت دراسات عديدة أنّ العُلوم الاجتماعيّة تقوم على حقيقتين أساسيّتين: إحداهما أنّ الإنسان كائن اجتماعيّ، أمّا الأخرى فتتّصل بالسُّلوك الإنسانيّ الّذي يصدر في أشكال أو أنماط منتظمة، وفي صورة على قدر كبير من الإطّراد والتّواتر... والواقع أنّ صفة الإطّراد والتّواتر في الظّواهر الإنسانيّة تشكّل أساسًا لا يمكن إنكاره بالنّسبة للعلوم الاجتماعيّة، إذ لولا هذا التّواتر لما نشأت العلوم الاجتماعيّة، ودونه لن يتأتّى الوصول إلى قواعد عامّة أو قوانين، هذه الخصائص السلوكيّة المتواترة الّتي نلاحظها في علاقات النّاس، ومعاملاتهم بعضهم مع البعض الآخر، وفي حياتهم المشتركة، إنّما ترجع في المقام الأوّل إلى الطبيعة الاجتماعيّة للإنسان.

وهكذا عُني الباحثون في العلوم الاجتماعيّة بدراسة هذا التّواتر أو التّعاقب في السّلوك الإنسانيّ وفي الحياة الجمعيّة، وقد استخدموا لذلك مفهومين، ما زالا من المفاهيم الأساسيّة في الحقل الاجتماعيّ، وهما الثقافة والمجتمع[1].

1 - نظريّة الثّقافة، تأليف مجموعة من الكُتّاب، ترجمة د. علي سيّد الصاوي، مراجعة وتقديم أ.د. الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة، عدد 223، صفر 1418 هـ- تموز 1997م، ص: 7.

ولكن ما هي الثّقافة؟ وما هي الثّقافة المعولمة[1]؟

عرّفت المنظّمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة، التابعة لهيئة الأمم المتحدة (اليونسكو) الثقافة بأنها: "جميع السّمات الرُّوحية والمادِّية والفكريّة والعاطفيَّة التي تميز مجتمعًا بعينه، أو فئة اجتماعيّة بعينها وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسيَّة للإنسان ونُظم القيم والتَّقاليد والمُعتقدات، والثَّقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وتجعل منه كائنًا يتميز بالإنسانية المتمثلة بالعقلانية والقدرة على النَّقد والالتزام الأخلاقي وعن طريقها يهتدي إلى القيم ويمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته كمشروع غير مكتمل وإعادة النظر في إنجازاته، والبحث عن مدلولات جديدة، وإبداع أعمال يتفوق فيها على نفسه».

أمَّا إدوارد تايلور (1832-1917)، الأنثروبولوجي البريطاني فقد قدّم أول تعريف إناسي للثقافة بقوله: **"الثقافة أو الحضارة بمعناها الإناسي الأوسع، هي ذلك الكُلّ المُركَّب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوًا في المجتمع"**.

ومن خلال التّعاريف العديدة للثقافة[2] لاحظنا أنّ مفهوم الثّقافة يختلف بين باحث وآخر، منهم من اعتبر الثّقافة وحدة كلّية متكاملة وعمليّة مستمرّة تتعدّى في وجودها اللّحظات الزّمنيّة الآتية وتتّصل حلقاتها بعضها ببعض على الرّغم ممّا قد يطرأ على بعض مظاهرها من تغيير واختلاف، وبالتّالي فهي مجموعة من الخصائص والصّفات التي تحدّد للإنسان نوعًا متميّزًا من السلوك، يقوم على مجموعة من القيم والمثل والمقوّمات يرثها ويتمسّك بها ويحرص عليها، إذ لا يوجد ثقافة بدون مجتمع ولا يوجد مجتمع بدون ثقافة. والمجتمع هو نسق من العلاقات يربط أفرادًا يحملون الثّقافة نفسها، وهناك صلة وثيقة تربط بين الثّقافة والمجتمع، في تنوع ثقافي ووحدة إنسانيّة تدرك أنّ المجتمع هو بنية قائمة على التّكافل والتّفاعل والتّضامن المشترك أو المتبادل، وتعدُّ المصادر التّراثيّة الثقافيّة جزءًا مهمًا من ذاكرة الأفراد والأمم لِما تمثّله من قيم ثقافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة و«لكلّ مجتمع مفاهيمه، المُرتبطة ببنيانه المعرفيّ العامّ، لذلك يختلف معنى المفاهيم بين ثقافة وأخرى. فحقوق الإنسان، على سبيل المثال، لا تعني الشّيء نفسه عند جميع شعوب الأرض. وكذلك الدّولة... من هنا يجيء أحيانًا نقل مصطلح من لغة إلى لغة، أي من ثقافة إلى ثقافة، معبّرًا جدًّا عمّا يكتنف هذه اللّغة وهذه الثّقافة من معانٍ، فمفهوم الإندماج هو التّرجمة الشّائعة لمفهوم intégration الّذي تستخدمه السّوسيولوجيا الغربيّة منذ قرن ونيّف»[3].

1 - أنظر في هذا الخصوص: عاطف عطيّة، الثّقافة المعولمة إشكاليّة العلاقة بين الثّقافة العربيّة والعولمة، دار نلسن، بيروت، 2014،ص ص 32-9.

2 - أنظر للتّفصيل حول الثّقافة الشّعبيّة، عاطف عطية، في الثّقافة الشّعبية بُنى السّرد الحكائي في الأدب الشّعبي، جروس برس ناشرون، 2016، ص ص: 64-58.

3 - فريديك معتوق، أزمة الإندماج الاجتماعي في لبنان، مجلّة العلوم الاجتماعيّة، العدد الثّاني عشر، تموز- يوليو 2009، ص: 7.

وفي مقابل ذلك، فالإنسان بطبيعته السّويّة لديه استعداد وقابليّة هائلة للتنوّع والتّغيّر في حركة حيّة ديناميّة، وهذا هو ما أفضى إلى تباين أشكال الحياة وأشكال فهم الحياة، وصور التّعبير عن الحياة وسُبل الأخذ بالحياة والتّعامل معها... تنوّع في النَّظر إلى الكون والوجود وعناصر الحياة.. ففي التنوّع والتّعدّد والإختلاف حياة الإنسانيّة وارتقاؤها ومع هذا فهناك ما يجمع بين البشر، إنّها وحدة الإختلاف أو لنقل التباين في إطار الوحدة، فالتّنوّع الثقافي لا يعني التّنافر الإنسانيّ المُطلق، ولا يعني النّفي الوجوديّ المُتبادل، وإنّما يعني أنّه مع الإيمان بضرورة التّعدّد والتّنوّع ضمانًا للحركة، فإنّ ثمّة ضرورة للفهم العقلانيّ لتأكيد تكامل عنصر أو عامل التّكافل الإنسانيّ الأشمل، ووحدة الجوهر الإنسانيّ... «إنّ التّباين ليس عامل هدم، بل حافز لحركة قائمة على التّفاعل في إطار فهم عقلانيّ ووحدة إنسانيّة... ومن ثم يكون ضروريًا أن ندقّق في كيفيّة ترابط النّاس بعضهم ببعض داخل مجتمع ما»[1].

فالثقافة لا توجد إلّا بوجود المُجتمع والمُجتمع لا يقوم ولا يبقى إلّا بالثقافة فهي التي تمدّه بالأدوات اللازمة، وإذا كانت هذه الثّقافة قد حظيت في الماضي باهتمام علماء الأنتروبولوجيا، الّذين عملوا على دراسة المجتمعات البدائيّة، فإنّ هذه الظاهرة قد أصبحت موضوعًا للعديد من العلوم الاجتماعيّة وفي مقدّمها علم الاجتماع نسبة للإرتباط بين الثقافة والمجتمع، إذ تقوم الثّقافة بدور هامّ في حياة الإنسان بل هي جزء مهم في حياته كعضو في مجتمع «ومن هنا تحتل الثقافة مكانًا بارزًا في دراسات الأنتروبولوجيا الثقافيّة والاجتماعيّة ، إذ بغير هذه الدّراسة لا يستطيع الباحث أن يتعرّف على الفرد أو الجماعة أو المجتمع، أو يفرّق بينهم. إنّ الثقافة بصفة عامّة تساعد على التّمييز بين فرد وآخر، وبين جماعة وأخرى وبين مجتمع وآخر. بل إنّ الثّقافة هي الّتي تميّز الجنس البشريّ»[2].

ومن البديهيّ أن تكون هناك تباينات، فالثّقافة مُكتسبة لا طبيعيّة[3]، ولأنَّ «الثّقافات متنوّعة بتنوّع المجتمعات، ولأنَّ الحاجات الإنسانيّة مُتعدِّدة ومُتطوّرة بتطوُّر المُجتمعات نفسها، فلا بُدَّ أنْ تكون الثّقافة نسبيّة، وإنْ كان لتطوّر مُجتمع، أو بالنّسبة لتنوّع المجتمعات وتعدُّدها»[4].

وإنّ نقل الثّقافة من جيل إلى جيل يمرّ عبر التّربية، أو التّنشئة الاجتماعيّة : فالتّربيّة هي الوسيلة الّتي يتمّ بها فرض الثّقافة، وما تنقله التّربية للصّغار لا يُمكن إلّا أن يكون من نواة الثّقافة، وبقدر حاجة المجتمع إلى نواة ثقافيّة تعطيه هويّته، فهو بحاجة إلى التّربية لكي نؤكّد وجود هذه النّواة واستمراريّة القيام بهذه الوظيفة. «التّربية» هي التّعبير الدّوركهيمي عن «خطوط نقل الثّقافة» من البالغين لدى لنتون»[5].

---

1 - مايكل كاربذرس، ترجمة شوقي جلال، لماذا ينفرد الإنسان بالثّقافة؟ الثّقافات البشريّة نشأتها وتنوّعها، عالم المعرفة، عدد 229، كانون الثّاني 1998، ص: 10.

2 - عالم المعرفة، نظريّة الثّقافة، عدد 223، ص:8.

3 - عطيّة، الثّقافة المعولمة إشكاليّة العلاقة بين الثّقافة العربيّة والعولمة، مذكور سابقًا، ص: 17.

4 - المرجع نفسه، ص:17.

5 - عدنان الأمين، التّنشئة الاجتماعيّة وتكوين الطّباع، المركز الثّقافيّ العربيّ، 2005، ص:14.

ولّما كانت الثّقافة تعني فيما تعنيه أسلوب ونمط الحياة الّتي يعيشها كلّ فرد في المجتمع، كان لا بُدّ لهذا المجتمع أن يربّي أبناءه ويعلّمهم مجموعة من القواعد والسّلوك والمعايير الاجتماعيّة من الوسط الاجتماعيّ الّذي ينشأ فيه الفرد ويتعامل معه من أهل ومدرسة وسكن وعمل حتّى تصبح هذه القواعد والسّلوك والمعايير قيمة أساسيّة في شخصيّته.

فما هي هذه القيم الّتي يتحّدث عنها الباحثون:

القيم من المفاهيم الجوهريّة في جميع مجالات الحياة، وهي ذات صلة بالعلاقات الإنسانيّة بصورها كافّة وذلك «لأنّها ضرورة اجتماعيّة، ولأنّها معايير وأهداف لا بدّ أنّ نجدها في كل مجتمع منظّم سواء كان متأخرًا أو متقدّمًا وهي تتغلغل في الأفراد في شكل اتّجاهات ودوافع وتطلّعات، وتظهر في السّلوك الظّاهريّ الشّعوريّ واللّاشعوريّ، وفي المواقف الّتي تتطلّب ارتباط هؤلاء الأفراد، وتعبّر القيم عن نفسها في قوانين»[1].

أمّا اصطلاحًا فالقيم هي «مجموعة من الأحكام المعياريّة المتّصلة بمضامين واقعيّة، يتشرّبها الفرد من خلال انفعاله مع المواقف والخبرات المختلطة، ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولًا من جماعة اجتماعيّة معيّنة حتّى تتجسّد في سياقات الفرد السلوكيّة أو اللّفظيّة أو اتجاهاته واهتماماته»[2]، وهذه القيم لا شكّ تختلف بين مجتمع وآخر، لأنَّ لدراسة حركة التّاريخ أهميّتها البالغة في عمليّة نقل الثّقافة من جيل إلى جيل وهذا الذي نحصل عليه في آخر المطاف نتيجة عمليّة نقل «الثّقافة، التربية» أو التّنشئة الاجتماعيّة للأفراد ويسمّيه بورديو «Habitus» وهو نسق من الإستعدادات المستمرّة والقابلة للتّحويل والنّقل، بُنىً وبنية مستعدة للإشتغال بصفتها مبادىء مولودة ومنظّمة لممارسات وتمثّلات، فالأبيتوس في دلالته وصيغته النّهائيّة هو المجتمع وقد استقلّ في الجسم عن طريق سيرورة التّربية والتّنشئة الاجتماعيّة والتّعليم والتّرويض، فالمجتمع هنا بكُلِّ قيمه وأخلاقيّاته، بكُل محدّدات السّلوك والتّفكير والإختيار...

ولذا سنحاول التّعرُّف إلى كيفيّة التّعامل مع التُّراث من خلال قراءته سوسيولوجيًّا، أيْ إخضاعه للنَّقد والإستفادة منه عمليًّا وتاريخيًّا وجماليًا وثقافيًا... وحتّى كتأكيد للهويّة ولكن مِن منهج علميّ أوّلًا ومن دون البقاء فيه باعتباره هو ماضينا وحاضرنا ومسْتقبلنا وأسُس حياتنا وهويّتنا وهذا ما دعا إليه فريدريك معتوق في مدخل إلى سوسيولوجيا التّراث[3].

---

1 - أ. د. محمّد منير سعد الدّين نقلًا عن: فوزيّة دياب: القيم والعادات الاجتماعيّة، دار الكتاب العربيّ للطباعة والنّشر، القاهرة، 1966، ص:16.

مؤتمر القيم والسُّلوك، إشكاليّات نظريّة وتطبيقات عمليّة، إصدار جمعيّة التّعليم الدّينيّ الإسلاميّ 2006، ص: 29.

2 - المرجع نفسه، ص:29. نقلًا عن أحمد محمّد بن علي المقري القيّومي، المصباح المنير، المطبعة الأميريّة، الطبعة السّادسة، القاهرة، 1922، ص: 714.

3 - أنظر أحمد مفلح في مجلّة إضافات العددان، 17 و18، شتاءً وربيع 2012، ص: 205.

أنظر أيضًا معتوق، مدخل إلى سوسيولوجيا التّراث، مذكور سابقًا، ص:5.

وللإستفادة من التّراث علميًا وتاريخيًّا وجماليًّا وثقافيًّا، لا بُدَّ من وجود مجموعة من المفاهيم والمبادىء والقواعد التي ترتبط بأيّ قيمة من القيم التي تمثّل مكوّنًا معرفيًّا للقيمة. وأداؤها يتطلّب إكتساب الفرد مجموعة من المعلومات والمعارف المرتبطة بها، حتّى يتمثّلها ويعكسها على نحوٍ سليم ليدرس حركة التّاريخ في أبعادها على أنّها سجِلّ حافل بالوقائع والأحداث وفق السّنن والقوانين البعيدة عن العشوائيّة والعفويّة، حيث يقوم الإنسان بدورٍ هام في التّحكُّم في مجريات الأحداث. إذًا ليس التّاريخ تاريخًا لماضي مضى وانتهى بل هو حركة تجري عبر الزّمن لتصل إلى الحاضر وتستمرّ نحو المستقبل، وكما لا يخفى فإنّ القيم هي مفهوم عامّ وشامِل وليس هناك تحديد بمعنى أنّنا قد نجد اختلافًا في القيم بين مجتمع وآخر وما يكون حسنًا في مجتمع ما قد يكون قبيحًا في مجتمع آخر، وعلى العموم فالقيمة فيما هو متعارف عليه هي ما يمثّله الشّيء من أهمّية يجعله مرغوبًا فيه، ما يدفع الإنسان إلى أنْ يطلبه بذاته ولغيره ويسعى بالتّالي إلى تحقيقه لأنّه يُضفي على الحياة معنىً ويجعل لها غاية، والقيم ثابتة على مرّ العصور وإنْ تطوّرت المعارف والمهارات، فالصِّدق والأمانة والتّعاون والمساواة والحرّية والعدالة وغيرها كثير من القيم، بقيت راسخة في النّفوس، أمّا الذي تغيّر فهو سلوك الإنسان اتّجاهها وتمسّكه بها، ونظرة المجتمع إليها، وطرائق سعيه لتحقيقها وعلى سبيل المثال فالمدارس الكاثوليكيّة في لبنان «تستمدّ قيمها من تعاليم الإنجيل، وتتّخذُ لها قدوة السّيد المسيح، ومن مثلّث القيم: الحقّ والخير، والجمال، ومِن رسالات الباباوات حول الشّؤون التربويّة ولا سيّما الإرشاد الرّسولي للبابا يوحنّا بولس الثّاني، ومن خطّة النّهوض التربوي للبحوث والإنماء في لبنان»[1] . ولأنّ دراسة حركة التّاريخ البشريّ «كفيلة بأن ترفد وعي وتفكير عالمنا العربي – الإسلامي – المُعاصر، نورًا وبصيرةً في خِضمّ تحوّلاته القائمة، وتطلّعاته نحو المستقبل فضلًا عن كونها تبعث فيه روح الأمل والتّجديد ليعاود حمل رسالته السّامية إلى العالم كلّه...إنطلاقًا من إلحاح القرآن الكريم – لكونه المصدر الإلهي الأوّل نحو توجيه الإنسان وبناء الحياة– بالدّعوة إلى النّظر والتّدبر في حركة التّاريخ لِمَا لها مِنْ آثار معرفيّة ونتائج عمليّة على حاضر الإنسان ومستقبله»[2]. كما جاء في خطابه سبحانه وتعالى: ﴿قدْ خلَتْ مِن قبلِكُم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾[3].

وثمّة دوافع أساسيّة تدفع الإنسان ليخوض غمار هذا البحث لإغناء ميادين المعرفة البشريّة وإثراءها بمختلف نواحي الحياة ومناهجها المتنوّعة لاستجلاء رؤية واضحة للمشكلات الاجتماعيّة ووضع الحلول المناسبة لها وفق نسق من النّظم والعلاقات التي تنظّم الأفكار والعادات والتّقاليد والتّصوّرات والعواطف وهذا النّسق «حدثٌ قائم

1 - حكمة حنين، مؤتمر القيم والسّلوك 2006، ص: 237.
2 - عامر الكفيشي، حركة التّاريخ في القرآن الكريم، دار الهادي للطباعة والنّشر والتّوزيع، 2003، ص:5.
3 - القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 137.

للجماعة، للنّاس، ينبثق من مجموع الإرادات المتصارعة والعواطف المتزاحمة والرّغبات المتفاوتة فهو لا يتحكّم بالمجتمع وإنّما المجتمع منضبط بالنّسق، ويتبدّى هذا الإنضباط بظهوراته التي تتأثر من شريحة اجتماعيّة إلى أخرى، فالتّقاليد المتّبعة في الزّواج مثلًا وإنْ كانت نسقًا عامًّا في مجتمع ما، إلا أنّها لا تتجسّد على مستوى من التّطابق التّام من جماعة إلى أخرى، رغم الإنتماء إلى مجتمع واحد وزمان واحد ومكان واحد فالمجتمع إذًا أسلوب حياة وتفكير، ومن هذا المنطلق يمكن أنْ نؤسّس معرفة اجتماعيّة ، أي مصدرها المجتمع بالذّات فهو مصدر معرفيّ يوحي ويُلهم ويُعلم ويكرّس الأفكار والمفاهيم والتّصوّرات ولهذا قيل: «إنَّ الشُّعوب تتعامل بأشكالٍ مختلفة مع تراثها في الواقِع، إنّها تتعامل مع تراثها طبقًا للبُنى المعرفيّة وانطلاقًا من أحكامها ومفاهيمها، لذلك يجيء التّعامل مختلفًا فالتّراث مفهوم حديث بالمعنى الذي أعطي له في الأدبيّات والكتابات التي تلت عصر النّهضة، إنّه يمثّل كتلة كبيرة من الأعمال العائدة للأزمنة العربيّة الماضية والتي كان للإسلام فيها إسهامًا معنويًّا كبيرًا»[1]. ولعلّ غريزة حُبّ الاستطلاع عند الإنسان كانت وراء اهتمامه بالماضي، يدفعه حسّه إلى التّطلُّع نحو السّمو والعلوّ وكثيرًا ما يُشعر بالسّأم والملل حتى بعد إشباع سائر الجوانب المادّية الأخرى لديه، إذا لمْ يُشبع جوانبه الرّوحية، ومن جملة حاجاته الرّوحيّة والنّفسيّة الأصيلة والقديمة عنده، إشباع أحاسيسه بما يدور حوله، وتطلّعه لفهم ما وراء ذلك[2].

ولمّا كان الماضي يُعدُّ مظهرًا من مظاهر الحياة الإنسانيّة فحريّ به أنْ يكون سجلًا حافلًا يُسجّل أحداثها ومشاعرها، ولذا يتعلّق الإنسان بماضيه ولا سيّما بالأدب لأنّ هذا الأدب يُعتبر التّعبير الصّادق عمّا تضطرد فيه النّفس مِن مشاعر وخواطر وأخيلة، وبديهيّ أنْ تتأثّر هذه المشاعر والخواطر والأخيلة بالعوامل الطّبيعيّة، وبالحالات المعيشيّة وبأنواع العقائد وأطوار المجتمع والتّقلّبات السياسيّة ونحو ذلك، فالأدب صورة إقليميّة، والأديب أو الشّاعر هو ابن مجتمعه وابن بيئته، ولذا كان شعره ملمًّا بالمؤثّرات الخاصّة التي وجّهت مذهبه ولوّنت شعره ومزاجه وتفكيره في عمليّة الخلق والإبداع القائمة على التّفاعل بين الشّاعر-الإنسان- ومجتمعه وكما قال **زين شعيب**[3]:

الشَّاعِرْ بيحِسّ بْأَوْضَاعْ	مَا بِيحِسَّا إلْ مِشْ شَاعِرْ
وتَا يِرْتّاح مْنِ الأوْجَاعْ	بْيِكْتُب شُو هُوِّي شَاعِرْ

ولذا فقد يكون الإنسان «في كُلِّ حالٍ وزمان إلى تذكُّر حوادث الماضي وحفظها،

1 - معتوق، مدخل إلى سوسيولوجيا التّراث، دار الحداثة-بيروت، 2006، ص:5.

2 - د. ليلى صبّاغ، دراسة في منهجيّة البحث التّاريخي، جامعة دمشق، 1989 ، ص: 17-16.

3 - دليل جنوب لبنان، إصدار المجلس الثّقافيّ للبنان الجنوبي، IMEDIACENTER، ص:258.

وترديدها بل تتعدّى ذلك إلى التّساؤل عن القوى التي تحرِّك ذلك الماضي، وعن المصير الذي يسير إليه، والقدر المخبّأ له، ونرى هذا التّساؤل في دعوات الأنبياء والمصلحين، وفي تطلّعات الشّعراء والفنّانين وفي استقراءات العلماء والفلاسفة، بل خلجات نفس كُل حيّ وتأمّلات فكره، عندما يعود إلى نفسه ويحاول استجلاء معنى الحياة وسرّ الوجود»[1].

ولكنّ هناك بعض من العُلماء رفض الإعتراف بأنّ البيئة هي المسؤولة عن الاختلافات العقليّة والنّفسيّة الموجودة بين الجماعات التّي تعيش معًا على سطح المكان الطّبيعيّ الواحد واعتبروا أنَّ خصائص الموقع الجغرافيّ للمكان يؤمّن نتائج إيجابيّة أو سلبيّة تبعًا لقدرة ما يتوفّر لدى الجماعات البشريّة القاطنة له من ظروف وإمكانيّات حضاريّة توفّر لهم الإنفتاح على عوامل خارجيّة فتجعل المكان متطوّرًا.

وبشكلٍ عام، فالمشكلة هي في تكيُّف الإنسان مع المجتمع ناهيك عن تأثير العادات والتّقاليد ودورهما في نشاط الإنسان وأعماله محط التّفكير والآراء الموروثة، قدْ يعيق نشاط الإنسان وتقدّمه بنسبة لا تقلّ عمّا تسبّبه البيئة من معلومات[2]. ولمّا كانت الجغرافيا علمًا يدرس الإنسان والأرض وخاصّة الظّواهر الطّبيعيّة والعلاقة المتبادلة بينهما من تأثّر وتأثير، كان من الطّبيعيّ أنْ ينقسم الباحثون إلى قسمين:

أولًا: قسم يرى ضرورة دراسة المجتمعات كُلٌّ حسب حرفته في العالم، لأنّ الإنسان بنظره هو الذي يختار من عناصر البيئة الطّبيعيّة ما يناسبه، ومن ثمّ تتم عمليّة الإستثمار حسب طاقته الجسديّة ومقدرته الفكريّة، ويعتبر أنَّ القدرة الإبداعيّة الذّاتية عند الإنسان هي التي تجعله متحضرًا في منطقة ما وذلك لأنَّ الطبيعة لم تمنع الإنسان من التّفكير بغية التّغلب على ما يعترضه في بيئته.

ثانيًا: قسم يرى خضوع الإنسان إلى ما يحيط به، وبالتّالي يعتبر أنَّ البيئة الطّبيعيّة هي التي تؤثّر في الإنسان وبالتّالي على نمط معيشته وتنظيماته الاجتماعيّة .

والذي يعنينا من دراسة البيئة بالمقدار الذي يعيننا على فهم الثّقافة والموروث الشّعبيّ، الذي يمكن أنْ يكتسبه الإنسان بشكلٍ عام، والشّعر بشكلٍ خاص، حيث يُعمل فكره بالبحث في كُل ما يحيط به، من ظاهراتٍ طبيعيّة لدى اهتمامه بالماضي، الذي يعبّر فيه عن حبّه وشوقه لمعرفة ما جرى للبشر الذين سبقوه، ومن أحوج من الشّعراء إلى الإطّلاع وسبر أغوار التّاريخ.

وبما أنَّ التُّراث ينتسب إلى الماضي سواء البعيد منه أو القريب، وبما أنّه يدخُل في دائرة

1 - د. قسطنطين زريق، نحن والتّاريخ، دار العلم للملايين، الطّبعة السّادسة، بيروت، 1958، ص: 134.
2 - علي وهب، الجغرافية البشريّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات، 1986، ص: 22. (بتصرُّف).

الفعل والنّتاج الإنسانيّ وبما أنّ «سوسيولوجيا التّراث باب مفتوح أمامنا وبإمكانه أنْ يُصبح ذات يوم إحدى العلاقات الفارقة للسّوسيولوجيا العربيّة العتيدة، فحقل التّراث العربيّ حقل واسع وغنيّ، وهو حقلنا، ومسؤوليّة استثماره تقع على أكتافنا لكوننا نحن أصحاب القضيّة فيه»[1] ولا تفوتنا ملاحظة «أنَّ التُّراث، إذا كان سجلًا حافلًا بالنّجاحات الباهرة والإنتصارات المشرّفة، فإنّه مليء أيضًا بالإخفاقات المُحزنة، والإنتكاسات المُفجعة وذلك ما يجعله ينضوي في دائرة ما أمرنا الله تعالى بالسّير في رحابه والنّظر في أعقابه، لتفحّصه للإعتبار والموعظة»[2].

وهُنا نُشير إلى أنَّ التّباين بين الثّقافات ناتج عن عوامل عديدة منها البيئة الجغرافيّة، والقيم والمُثُل والعادات والتّقاليد، كما أنَّ طبيعة الإنسان قد تختلف بين إنسانٍ وآخر وعقلٍ وآخر ومزاج وآخر وبالتّالي فالثّقافة ترتوي منْ أكثر من نبع ويرفدها أكثر من رافد كالمجتمع، والتّاريخ، والجغرافيا، والشّعائر والتّقاليد والتّراث الشّعبيّ إلخ...

وما تتّسم به الحياة البشريّة والثّقافة الإنسانيّة، مِن وحدة وتنوّع، فالثّقافة التي نحن بصدد دراستها تعني أسلوب الحياة الذي ينتجهه أعضاء المجتمع كارتداء الملابس، وتقاليد الزّواج وأنماط الحياة العائليّة وأشكال العمل، والإحتفالات الدّينيّة، والمُعتقدات والآراء والقيم التي تشكّل المضمون الجوهريّ للثّقافة، ومن جوانب حياتيّة ملموسة مثل: الأشياء، الرّموز بالإضافة إلى وسائل التّرفيه والتّرويح عن النّفس، وهذا ما سنحاول التّطرُّق إليه مع شعراء جبل عامل لنرى كيف تأثّروا بالماضي وكيف انعكس ذلك على نتاجهم الشّعريّ لأنّنا عندما نتكلّم على شعرٍ ما، فإنّما نتكلّم على خصوصيّة شعب وعلى ميزة حميمة من مزاياه.

1 - المرجع نفسه، ص:18.
2 - عامر الكفيشي، حركة التّاريخ في القرآن، مذكور سابقًا، ص:58.

ثانيًا: الثقافة الشّعبيّة:

الثّقافة الشّعبية هي كُلّ الأشكال التعبيرية المنطوقة والتي تختزنها الذاكرة الشعبية. وتشمل: الموروث السَّردي(الحكايات، والخرافات...)، والحكم والأمثال الشَّعبية وغيرها من فنون التعبير الأخرى، . وهي مجموع العناصر التي تُشكِّل ثقافة المُجتمع المُسيطرة في أي بلد أو منطقة جغرافية محدودة، غالبًا باستخدام طرق إعلام شعبية. تنتج هذه الثَّقافة من التَّفاعلات اليوميَّة بين عناصر المجتمع إضافة لحاجاته ورغباته التي تشكِّل الحياة اليومية للقطاع الغالب من المجتمع. هذه الثقافة تتضمَّن أي من المُمارسات وعادات الطّبخ والمأكولات والثّياب والإعلام ونواحي التّسلية المستخدمة، إضافة للرياضة والأدب، وغالبًا ما يُستخدم مُصطلح **ثقافة شعبية** كمصطلح مُضاد ومخالف للثقافة العليا أو النخبوية.

فالثّقافة باعتبارها «شأنًا مُجتمعيًّا تتشكّل من جُملة ما يقوم به الإنسان في المُجتمع، أو الجماعة في المُجتمع، وهذا يعني أنَّ الثّقافة والمجتمع شأنان لا ينفصلان، وبهذا المعنى أيضًا تتشكَّل الثّقافة المجتمعيّة من جملة عناصر باعتبارها مُنتجات مجتمعيّة، أو متحصّلة من علاقات سياسيّة اقتصاديّة روحيّة، ومن تفاعلات واعية ولا واعية تُقرّب الجماعة وتعمل على تماسكها، وتؤمِّن استمراريّتها في ظروف ربّما تكون مؤاتية أو غير مؤاتية تزيد في المحصّلة، من هذا التّماسك أو تهدّده»[1].

فالتّراث يمثّل الذّاكرة الحيّة للفرد والمجتمع، ويمثّل بالتّالي هويّة يتعرّف بها النّاس إلى شعب من الشّعوب... وتكمن أهميّة الحفاظ على التّراث في الأهداف التي يمكن أنْ تتلخّص في الحفاظ على التّراث الثّقافيّ وبُعْده الحضاريّ وحفظه لذاكرة وهويّة الإنسان والمجتمع، وحاجة الإنسان إلى العنصرين الأساسيّن «المادّي والرُّوحي» حاجة ضروريّة و«هناك اتّفاق بين مُختلف الثّقافات في العالم بأنّ عنصريّ الرّوح والمادّة هُما المكوّنان الأساسيّان لحياة الإنسان والمجتمع، وجد علماء الاجتماع في الغرب أنّ المجتمع المدنيّ يعتمد على جانبين أيضًا، فهناك الجانب المادّي والاقتصاديّ من جِهة، وهناك الجانب الرُّوحيّ والثّقافيّ بما يحتويه ذلك من تراث ثقافيّ ودينيّ من الجانب الثّاني، وطالبوا بالحفاظ على الإتّزان بين هذين الجانبين لضمان التطوّر الاقتصاديّ، واعتبروا أنّ الحفاظ على التّراث الثّقافيّ والرّوحيّ وحمايته مِن الضّياع هو نوع مِنْ أنواع الحفاظ على الجانب الرّوحيّ لدى شعوبهم»[2].

ولذلك فقد نهض الشِّعر الشّعبيّ ولمع نجم الشّعراء العامليّين، وما زال صدى أشعارهم يتردَّد في الذَاكرة الشّعبيّة و«هذه الأشعار المتنوّعة المضامين والمتعدِّدة الأنواع، من الحوربة إلى الحداء والزّجل والأغاني الشّعبيّة والزّغاريد والنّدب وغيرها... هي بمكانة لسان حال النّاس، وسِجِلّ لتاريخ مضى». وهي وغيرها جزء مهمّ من الثّقافة الشّعبيّة التي «هي

1 - عاطف عطيّة، في المعرفة والثّقافة والعولمة، دراسات في سوسيولوجيا العرفة والثّقافة، دار نلسن، ص:.18

2 - د. جمال عليّان، الحفاظ على التّراث الثّقافيّ، عالم المعرفة، العدد 322، 2005، ص:72.

تواصل إنسانيّ عبر الذّاكرة الأدبيّة للنّاس، ركائزها الأولى هي الفطرة والعفويّة والصِّدق والتّجارب والإختبارات الحياتيّة، ولأنّها كذلك فهي سجلّ تاريخيّ وخزائن مِن المعارف ومن الشّواهد والبراهين والإثباتات التي لا غنى عنها في تأكيد حدث أو مناقضة آخر، وفي تثبيت نظريّة معيّنة ومخالفة نظريّة ثابتة»[1]. بحيث نقع على الكثير من الأزجال التي تدعو إلى وعي حركة التّاريخ والتّسلُّح بالثّقافة التاريخيّة الصحيّحة من خلال الإقتباس من الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة الشّريفة وأقوال الأئمّة، لأنَّ التّاريخ يُشكّل مصدرًا من مصادر المعرفة والثّقافة وليس مجرّد علم الماضي، بلْ هو علم الحاضر مُستفيدًا من تجارب الأمم السّالفة، فمسيرة الحياة بحر مُتلاطم بأمواجه التي تحمل الكثير من المفاجآت.

وبذلك «فالثّقافة الشّعبيّة تحتضن في الحقيقة ذاكرة المجتمع، فيتذكّر المجتمع أصوله الزّراعيّة مثلًا من خلال بعض تقاليده وعاداته. كما يتذكّر أحداثًا تاريخيّة هامّة من خلال بعض تقاليده وعاداته. كما يتذكّر أحداثًا تاريخيّة هامّة من خلال شعائر تعابيره الثقافيّة (كعيد الصّليب أو ذكرى عاشوراء) إضافة إلى أنَّ تكرار الإحتفالات الدّينيّة يُعطي لذاكرته توجُّهًا مميّزًا ذا أبعاد تاريخيّة»[2].

ومن هنا نرى أنّ الثّقافة الشّعبيّة تتمتّع بالنّسبة إلى النّاس بمصداقيّة «أيْ أنَّ ثمّة طابعًا تعليميًا تتميّز به، يقضي بأنَّ صورها هي، في الوقت عينه، توجيهات ترسلها الجماعة لكُل فرد، فالمثل الشّعبيّ صحيّح، وهو ينهي الحديث عادة، وتقاليد الأعراس لا يجرؤ أحد على اختراقها علنًا، أمّا الأعياد الدّينيّة فالإحتفال بها يجري التّمسك به بالرّغم من تحوير لمعنى العيد الرّوحاني لصالح معنى اجتماعيّ في غالب الأحيان»[3].

1 - كمال نخلة، الثّقافة الشّعبيّة والتّاريخ، المؤتمر الثّاني للثقافة الشّعبيّة، 1999، ص: 853.
2 - فريدريك معتوق، التّقاليد والعادات الشّعبيّة اللبنانيّة، جروس برس، لاط، لا ت، ص:9.
3 - المرجع السّابق، ص:9.

ثالثًا: الزّجل في الثقافة الشعبيّة:

جاء في لسان العرب أنَّ الزَّجل هُو: «رفع الصَّوت الطَّرِب، وفي حديث الملائكة، لهُم زجلٌ بالتّسبيح أيْ صوت رفيع عالٍ، وسحاب ذو زجلٍ أيْ ذُو رعدٍ، وغيث زجلٌ: لرعده صوت»[1].

والزَّجل لغة مِن زَجَل بمعنى رشق ورمى ودفع، وزجل الحمام أرسلها إلى بُعد، وزجَل طرَّب وتغنّى، رفع صوته وأجلب، والزَّجل نوعٌ من الشِّعر مُحدث[2].

هذا في اللغة، أمّا في الإصطلاح فلا تُوجد تَسميةٌ موحّدة لهذا النّوع المُحْدَثِ من الشِّعر، ومِن أسمائه الزّجل، الشِّعر الشّعبيّ اللبنانيّ أو الشِّعر العاميّ أو الشِّعر باللغة اللبنانيّة، ونحن هُنا نميل إلى اختيار تسميته بالزّجل انطلاقًا مِن معاني الكلمات والمفردات الآنفة الذِّكر ودلالاتها. وعلى سبيل المثال نقرأ في مُقدِّمة معنّى رشيد نخلة لوالده أمين نخلة صفحة بعنوان «**مسوّدة زجليّة لرشيد نخلة**»[3] يقول: «هذا كتابٌ جمعت فيه قصائد والدي، رحمه الله، في الشِّعر العاميّ، أي المعنّى في اصطلاح بني قومنا في بلاد الجبل»[4]، وفي هامش الصّفحة نفسها يُورد للمستشرق لوسرْف في «**الأدب العاميّ**» Littérature Dialectale ما ملخّصه معرّبًا ص166: «نظم رشيد بك نخلة 12000 بيت من الشِّعر و18000 بيت من الزَّجل»[5] وننقل لأمين نخلة أيضًا: «ترعرع والدي على الماء والضّياء، في الجبال، فكان عود شبابه يُورق عند ضِفَّة، وتخفقُ أوراقُه على رابية، أو على حفاف وادٍ، فيسابق ذلك الشاعر الصّبيّ موجة الصُّبح، حين تندفق على مباسط الهضبة، ويصرخ في عصفة الرّيح، ويُطلق قدميه في حقل السّنبل فنشأ على الطّلاقة في ريف من أجمل أرياف الدُّنيا، وكان أنْ استهّل النّظم بالزّجل، فظلّ ينظم الأزجال في بعض الصّبايا أعوامًا لا تُعدُّ على الأصابع لكثرتها»[6].

وما يعنينا هُنا البحث في تعدُّد الأسماء لهذا النَّوع مِن الشِّعر، هل هُناك فرق بين الشِّعر العاميّ أو الزّجل، أو الشّعر الشّعبي أو غيره من المُسمّيات؟

لقد مَال فريق من الباحثين إلى تسميته بالشِّعر العاميّ كما في كتاب **أعلام الشِّعر العاميّ في لبنان** للدكتور ميشال خليل جحا[7] الذي ترجم لعشرة شُعراء وهُم: رشيد

1 - إبن منظور، لسان العرب، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1981، مادَّة زجل.
2 - المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، الطبعة 27، بيروت، 1984، مادَّة زجل.
3 - أمين نخلة، معنّى رشيد نخلة، مطبعة دار الكشّاف، بيروت، ص:9.
4 - المرجع نفسه، ص:11.
5 - المرجع نفسه، ص:11.
6 - نخلة، معنّى رشيد نخلة، مذكور سابقًا، ص:12.
7 - جحا، أعلام الشِّعر العاميّ في لبنان، دار العودة-دار الثّقافة، بيروت، ص:4.

نخلة، عبدالله غانم، عُمر الزّعني، خليل رُوكوز، أميل مبارك أسعد سابا، إيليّا أبو شديد، ميشال طراد، أسعد السبعلي، وليم صعب وجميع هؤلاء الشُّعراء هُم شُعراء الزّجل، كما صرّح في مُقدِّمة كتابه بقوله: «الهدف من هذا الكتاب أنْ يتناولَ كبار شُعراء الزّجل اللبنانيّين الأعلام»[1]. وهُو قد اختار تسميته بالشِّعر العاميّ في لُبنان، وكذلك فإنَّ مُصطفى صادق الرّافعيّ يُعرِّفه بالشّعر العاميّ إذْ يقول: «لا نعرفُ بالتّحقيق أصل الشِّعر العاميّ ولا منشأه، ولكنّنا لا نشُك أنّه قديم، وأنَّ ظُهوره كان في أواخر القرن الأوّل للهجرة»[2].

أمّا منير إلياس وهبيه فقد سمّى كتابه «الزّجل: تاريخه أدبه أعلامه، ووزارة الثّقافة اللبنانيّة تميل إلى تسميته بالشّعر العاميّ اللبنانيّ، والدُّكتور حسين نصّار عنوان كتابه: الشّعر الشّعبيّ العربيّ، أمّا أنطوان عكاري في دراسته لهذا الشّعر يُطلق عليه إسم: «الأشعار الشّعبيّة اللبنانيّة»، ومارون عبّود يُسمّيه: الشِّعر العاميّ، وفي مجلة الحداثة عناوين عن الثّقافة الرّيفيّة وتاريخ تطوُّر الزّجل ثُمَّ الزّجل والشّعر العاميّ، وجرجي زيدان في الجزء الرّابع من تاريخ آداب اللغة العربية يسمّيه الشِّعر العاميّ، والدكتور خليل أحمد خليل يسمّيه الشِّعر الشّعبيّ اللبنانيّ، ويذهب الدكتور حسن أبو عليوي إلى اختيار إسم الأشعار والأغاني الشّعبيّة حيث عدَّ الزّجل نوعًا من أنواع هذه الأشعار، كالمواليا والقوما، كان الكان، القرادي، الحِداء، الحوربة، النّدب، أبو الزُّلف، الزّغردة، الزلغوطة، الدّلعونا، ظريف الطول، مشعل، مرمر زماني، الشُّروقيّ، المُوّال، ليا ابليا، إغزيّل، المُوشَّح.

وللتفريق بين الزّجل وغيره من الأشعار الشّعبيّة والفنون يقول أمين نخلة عن منظومات والده: «أما منظوماته في القرّادي والعتابا والميجانا وأبو الزُّلف إلى غيرها من الطّرائق الزّجليّة في الجبل فهي ليست في هذا الدّيوان، وكذلك لا يجد فيه القرّاء منظوماته في الشّروقي والموّال البغدادي والموّال المصريّ والمواليّات، إلى غيرها من فنون العامّة، ولسوف أجعل ذلك كلّه، في ديوان مُستقل»[3]. وفي منشورات الجامعة اللبنانيّة كتاب «روائع الزَّجل اللبنانيّ»، ومن خلال ما تقدَّم يُمكن أنْ تُعد هذه الفنون نوعًا من أنواع الزّجل، كما يقول الشّاعر **زين شعيب** في مُباراته مع شاعر الأغنية الشّعبيّة [عبد الجليل وهبي]:

عِلِقِتْ عَـالفَخّ يَا نِسْرِ الأَغَانِي	يَابُو لا لا، ويَبُو مَرمَرْ زَمَانِي
الإِذَاعَة شِبْعِت طْقَاطِيقْ مِنَّكْ	ولَـزَقْ إِسْمَكْ بِزِفْتِ الأُسْطُوانِي

1 - المرجع نفسه، ص:5.
2 - مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب اللغة العربيّة، الجزء الثّالث، ص:174.
3 - نخلة، معنّى رشيد نخلة، مذكور سابقًا، ص: 15.

وفي المباراة نفسها يقول:

أَنَـا مَـا بِنْكـرَك يَــــا عَبِـدْ شَـاعِرْ إِنِـتْ سِـيِّد الأُغنيـات الجْمِيـلِي

ويُفرِّق **زين شعيب** بين شاعر الإرتجال وشاعر الأغنية فيقول:

إِنِـتْ للشِّـعِرْ أُسْـتَاذُو وأَدِيبُـو بْأَغَانِيـك يَـا بُـو لا لا، ويَبُو مَرمَـرْ زَمَانِي

وسَمَا المُسْرَحْ لزَين شْعَيب سِيبُو تْسَلــــــأَلَكْ بِطَقطُوقَـــــة عَتِيقَـة

شُو بَدّكْ بِالمَعْنَى الإِرْتِجَالِي[4].

وكذلـك يُعـدُّ الزَّجـل فنًّـا مـن فنـون الشِّـعر العامـيّ ونوعًـا مـن أنواعـه، وبعـد أنْ كان يعنـي لغويًّـا درجـة معيّنـة مـن رفـع الصَّـوت ودرجـة عاليـة مـن الجَلَبـة والأصـداء، أصبـح يـدُلّ عـلى اللّعِـب والجلَبـة الصِّيـاح، وانتقـل إلى رفـع الصَّـوت المُرنّـم، وغـدَت كلمـة زجـل تـدُلُّ على شـكل مـن أشـكال نظـم الشِّـعر أداتـه اللغويّـة هـي إحـدى اللهجـات العاميّـة الدّارجـة وأوزانـه مُشـتقّة مـن أوزان العـروض العـربيّ، ولكنّهـا تعرّضـت لبعـض التّعديـلات ولتتلائـم مـع الأداء الصّـوتي.

ومهـما تعـدَّدت التّسـميات فـإنَّ نظـم هـذا الشّـعر يحتـاج إلى توفُّـر الـوزن والقافيـة والمُوسـيقى الـذي تُوفِّـر لـه الإيقـاع والتّـوازن بـين الكلـمات وبـين أجزائهـا، وعـلى العمـوم فهـل يُعتـبر هـذا الشِّـعر نصًّـا أو خطابًـا يجـري عليـه مـا يجـري عـلى النُّصـوص مـن معايـير لتمييـز النَّـص مـن الخطـاب، كـما يقـول بـول ريكـور: «النَّـص هـو خطـاب تـمّ تثبيتـه بواسـطة الكتابـة»[1] أو أنّ النَّـص هـو وحـدة لغويّـة في حالـة اسـتعمال كـما يقـول سـعيد يقطـين[2]، إلى مـا هنالـك مـن وُجهـات نظـر، حـين يُعتـبر الخطـاب بمعنـى التّخاطـب والتّحـادُث والتّحـاوُر هـو لُغـة يُعـبّر بهـا صاحبهـا عـن غاياتـه وأهدافـه، والشِّـعر بهـذا المعنـى هـو لغـة فهـم وإفهـام، وهـو وسـيلة إيصـال وتوصيـل سـواء أكان منبريًّـا أم مكتوبًـا، وبذلـك يُمكـن تقسـيم النّصـوص تبعًـا للُّغـة المُسـتخدمة، والغايـة والأهـداف إلى نوعـين: «نصـوص تتوسّـل اللغـة العلميّـة عـلى نحـوٍ مُبـاشر وقـصريّ بهـدف التّواصُـل والإفهـام والإخبـار والإيعـاز» وتُسـمّى نصوصًـا تواصُليّـة ونصـوص تتوسّـل مـا تختزنـه اللغـة مـن جماليّـات وإيحـاءات وإشـارات بهـدف التّعبـير عـن التّجـارب الإنسـانيّة والحـالات الإنفعاليّـة المُصاحبـة ومـا إلى ذلـك وتُسـمّى نُصوصًـا أدبيّـة فنيّـة إبداعيّـة[3].

ولـمّا كان الخطـاب يفـترض موقفًـا تواصُليًّـا كان لا بُـدَّ مـن الـكلام عـلى المعينـات الإشـارية والتّلفـظ والمتلفّـظ، ونعنـي بذلـك لغـة الجسـد التـي هـي عبـارة عـن حـركات الأيـدي وتعبـيرات

1 - **بول ريكور، النَّص والتأويل، ترجمة مُنصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالميّ، صيف 1988، ص: 37-30.(نقلًا عن محاضرة للدكتور عبد المجيد زراقط).**

2 - **سعيد يقطين، إنفتاح النَّص الرّوائي، الدّار البيضاء، بيروت، المركز الثّقافي العربي، 1999، ص:6.**

3 - **الدكتور يوسف نصرالله، مُقدّمات في الأدب وتقنيّات التّعبير والتّواصل، دار البيان، لبنان، 2009، ص: 15.**

الوجه ونبرات الصّوت، وهزّ الكتف والرأس ليفهم المُخاطب بشكل أفضل المعلومة التي يُريد أنْ تصل إليه، كما في لُغة العيون حيثُ يقول **أحمد شوقي**:

وَتَعَطّلَتْ لُغَةُ الكَلامِ وخَاطَبَتْ   عَيْنَيَّ فِي لُغَةِ الهَوَى عَيْنَاكِ

وعن هذه اللُّغة قِيل إنّها لُغة لا تعرف الكذب ولا الرّياء بلْ إنّها مرآة صافية صادقة تعكس مباشرة كُل المشاعر وتبوح بالأسرار كما في قول الشّاعر **أحمد شعيب**[1] في لقاء واقعي حدث فعلًا:

مِنْ بَعِدْ غَيْبِي عُمِرْهَا أَرْبَع سنِينْ   عَالمقْبَرة تْلاَقُو الحَزِنية وِالحَزِينْ
بْكِيت بْحِجِّي عَالْفَقِيد دْمُوعْهَا   وهُوِّي كَان تْحَرَّكْ بقَلْبُو الحَنِينْ
ودَارْ العِتَابْ وْكِيفْ بيكُونْ العْتَابْ   لمَّا الدُّمُوع بيصْبَحُو خْطَابْ وجَوَابْ
دَمْعَة تْقِلِّي لَيْش طَوَّلْتِ الغْيَابْ   ودَمْعَة تْقِلِّي ويْن عَهْدَك وِالْيَمِينْ

ومِنْ هذا المُنطلق، يجب أنْ ننظُر إلى الزَّجل كفنٍّ أدبيّ ونشاط إنسانيّ، يتطلّب معرفة في تمييز لُغة النّص الأدبيّ عن لُغة النّص غير الأدبيّ، مِنْ جِهة المدلولات والمفردات والتّعابير التي تُعالج نزعات الحُبّ والخير والشّر، والتي تعصُف بالنّفس الإنسانيّة وتغمر كيانها البشريّ، كما هو الحال في أيّ خطاب نقديّ أو بحثيّ، ذلك لأنَّ الزَّجل يُعتبر وثيقة تاريخيّة قد لا تخلُو من التّحليل والتّدقيق في مُفرداته وتطوُّراته ومدلولاته. ولذا قال **زين شعيب**:

الشِّعرْ الـ ْمِشْ أغْلَى مْنِ الدُّر   يُقْبُرْ عَيْنَين صْحَابُو

ولهذا فقد وقف شُعراء الزَّجل موقِفًا سلبيًّا من شاعر الأغنية الشّعبيّة، وعنها قال زين شعيب «طقطوقة» وجمعها «طقاطيق» أمَّا الشّاعر **أحمد شعيب** ففي قصيدة بعنوان: ما أكثَر الشُّعار فيقول:

كِلْمَا طُلِعْ بَيَّاعْ قِرَّادِي   عَبضَاعْتُو بيبَلِّش ينَادِي
ظَنُّو الشِّعرِ لَحْنُ ونَشِيدِ طْيُورْ   «وليا» و»مُوليا» وعَلى «اليَادِي»
مَغْرُورْ صَار يشَجِّع المَغْرُورْ   مَا أَكْثَر الشُّعَّارْ بْبلاَدِي
يَا جَاهْلِين الشِّعِرْ هَزّ شْعُورْ   مْنِ الشَّوك بْيُولد وَردْ نَادِي
بْيُوهِب لَيالي الجَهْل عِلْم ونُورْ   بْنَفَس العَبِيد بيزرع سْيادِي
يَا بُو الضَّمير المَيِّت المأجُورْ   لا تْقُول بَدِّي عِيشْ ع حْيَادِي
عِيف الطَّبْلْ والدَّفْ والزّمُّورْ   مِنْ قدْحِة شْرَارة تشْعِلْ نَارْ
وثَوْرَة بْتِجِي مِنْ بَيتْ قِرَّادِي .

---

1 - قصيدة مخطوطة غير منشورة، وهي بحوزتي.

ففي قصيدة الشّاعر الكثير من المعاني والدّلالات بالإضافة إلى نمط من الصُّور التي تُعدُّ نموذجًا أدبيًّا غنيًّا بالرّمُوز والإشارات المُرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالإنسان بَدْءًا من استعمال كلمة بيّاع قرّادي، إضافة إلى الهجوم على بعض شُعراء الأغنيّة الشّعبيّة التي لا تحمل مضمونًا إلاّ التّعريف بِالشّعر ودوره في تحرير العبيد والقيام بالثّورة التي قدْ يُفجِّر بركانها بيتٌ من القرّادي، وكانّ الشّاعر خليل روكز ناقمًا على شرذمة من النَّاس يدعون شعراء، بل كان يُطالِب بالتّفريق بين الشّاعر والنّاظم حيث يقول: «لسْتُ بشاعر ولا فيلسوف، فما أنا إلاّ كفرد من الأميّين البُسطاء، فسبحانه تعالى الذي يهدي مَنْ يشاء فأهداني الميزة والنّظر لكي أنظر وأُفرِّق بين الحقيقة والوهم، فنظرتُ فرأيت: العالم يسير في مأتم الحقيقة ويحتفل بعرس الوهم الباطل الأسود، ومُتمتِّعًا بالغايات الشّخصيّة والإقطاعيّة المتمرّدة، ومُستترًا في جلود النِّعاج النّاعمة، فوقفتُ قائلًا: يا عالم الغايات ليس الضّمير للتجارة إنَّ هناك شرذمة من النّاس يدعون شعراء، وأمّا حسب نظري وميزتي لا أرى أنَّ هذا الإسم النّزيه مُطابقٌ على أجسام هؤلاء النّاظمين، لأنَّه حسب نظري أجد لهُم أسماءً كما يلي: شاعر، وشُويعر، وناظم وملحِّن وليس يحُقُّ لكل مشعور أنْ يُصغِّر إسم شاعر ويكون جاهلًا ماذا يتطلّب مِنْ صاحِب هذا الإسم فعليه أنْ يكون مثلًا في الصّفات العالية وشخصيّة بارزة مُعتبرة نزيهة للغاية ولا يحُقُّ أيضًا بنظري لأي ناظِم قصيد أو مقطع مِنْ مادَّة الإعارة والتّأجير، ويمضي الشّاعر العبقريّ فلان المُلقّب كذا فذلك يكون مشعورًا، بيد أنَّني أقول: بِما أنَّ أنصار الفوضى كثيرون والحكومة لا تعترف بالشِّعر إلا من أجل مصالحها وأيضًا الشَّعب مع العاصفة، وإسم المرء حسب مروءته، لذلك أقول لا ناقة لي ولا جمل ولا زالت الجرائد الزّجلية السّابقة من صنُف زيت وفجل وتنك وقطرون يُصوِّرون ويُلقبون شعراء فيا ليلى... على الشِّعر والشُّعراء مِنْ ذلك الصُّنف والسّلام»[1].

من خلال هذا النّقد اللاذع الذي وجّه الشّاعر خليل روكز يجب أنْ نُفرِّق بين الشُّعراء والمُطربين، وكما يقول **خليل روكز** في مكان آخر في معرِض حواره مع السّيد مُصطفى[2]:

أَنَا بْحِبِّ الشِّعِر لمّا جَمَالُو   بيسَيْطِرْ عَالبَدِر بْكَمَالُو

وإِذَا الشَّاعِر مَا بيِهِزِّ الْمَشَاعِرْ   ضَرورِي نِسْمَع الأَخْرَسْ بَدَالُو

أَنَا مَا بكْرَه الْلي بِيكُونْ شَاعِرْ   إذا بِيكُون جُبْرَانِ بْخَيَالُو

لَكِنْ بِكْرَه الـ بِيكُونْ شَاعِرْ   بِضعْفو وبِالرُّغْم عَنْ كِتِرْ ضعْفُو

بِدَرْبِ المُوت عَمْ بيزِتْ حَالُو

1 - خليل روكز، ديوان دموع الطّير، منشورات حمد، بيروت، لا ت، لا ط، صفحة: 30.
2 - حفلة الكرمنيك، شريط تسجيل.

إذًا فللشِّعر ركائز ودعائم ومقوِّمات بعيدة كُلَّ البُعْد عن النُّظم والثَّرثرة، فمِن مهام الشّاعر أنْ يتحدَّث عن هدف، وهدفه يجب أنْ يكون ساميًا وأنْ يهُزّ المشاعر ويُحرِّك أحاسيس النّاس وإلا فلنسْتمع إلى الأخرس، وقد شارك الشّاعر **أحمد شعيب** زميله خليل روكز في المشاعر والأحاسيس والنّظرة إلى جوقات الزّجل الهزليّة، وممَّا قاله في رِثاء خليل روكز[1]:

وَدِّي حَنِينِكْ مِنْ سَمَا الرَّحْمَانْ ... شُوفِ الزَّجَلْ أفْلامْ هَزْلِيَّة

لِعْبُو بِإِسم فْلانْ وفْلِيْتَانْ ... تَا صَارْ طقْطُوقَة تِجَارِيَّة

شُو بْخَبِّرَكْ عَنْ حَالِة الإِخْوَانْ ... اللِّي أَلَّفُو جَوْقَات هَزْلِيَّة

ظَنُّو المْعَنَّى زَوزقِة أَلْحَانْ ... وهَرِجْ ومَرِجْ وتيابْ رسْميّة

حقيقة كثُرت جوقات الزَّجل وكثُر الشُّعراء لسببٍ أوْ لآخر، وكأنَّ لكُلِّ شاعر موقف من الشِّعر والشُّعراء، وهذا الشّاعر **محمّد علي شريم** يقول بعنوان: شعر الزَّجل:

قَالُوا الزَّجل عِمْلِة قَدِيمِة بَاطِلَة ... سْمَاعْ مِنَّا تْرُوكْ فَنَّكْ يَا عَلي

مّا زَالْ ماشِي بعَصِرْنَا الشِّعر الْفَصِيحْ ... كَفِّي مَع الشُّعَار بّاقي المَرْحَلِي

شِعْرِ الزَّجَلْ خيّ الفَصِيحْ ذَمُّ ومَدِيحْ ... وكِلّ لَوْن فِيلُو ميّزات ومَنْزِلي

شِعْرِ الزَّجَلْ بيعَالِج الْقَلْبِ الجَرِيحْ ... وفِي مَوْسِم الأَفْرَاحْ ثَوبِ المُخْمَلي

وفي مكانٍ آخر يقول: كان الزَّجل:

كِنَّا إذَا الشَّاعِر حِكِي يِتْجَمَّعُو ... مِن بعِيدْ حتّى الشِّعر يِتْسمَّعو

مِدْري الزّجَلْ عَنْ مَنْبَرو الْعَالِي هَوَى ... مِدْري اللِي كَانُو يِسْمَعُونا تْرفَّعو

وللإجابة على تساؤلات الشُّعراء وهبوط بعضهم نعُود إلى تعريف الزَّجل فنقول: الزَّجل هو نشاط فكري رحيب الآفاق، عميق الجذور، وارف الظّلال لا يتقيّد بزمانٍ ومكان مُعيَّنين، وهو نتاجٌ أدبيٌّ تنوَّعت أساليبه وخصُبت تربته فجادت بالكثير من الموضوعات والأسماء، وقد اتّسع الكلام فيه وتعمّق وطال بعض الشّيء، فهو يشتمل على الجذور في مُناخاتٍ فكريّة واجتماعيّة ، وما يرتبط بذلك مِن عرضٍ ونقدٍ وتحليل، لأنّ الزَّجل يُعبِّر عن وجدان الشّعب ويعكس اتّجاهاته ومستوياته كافّة، ويكشُف عن حياة الأجداد وما يتّصل بها مِن أغاني المناسبات التي تُعبّر عن روح الشّعب، وتُترجم حياته وأفكاره وآماله وأحلامه على سبيل الإيحاء والتّأثير المعنوي والنّفسي بالإضافة إلى البُعْد الدّيني الغارق في القِدم، المُعبّر عن شعائر وطقوس إتّحدت إتّحادًا صحيّحًا في الأساطير، في الوقت الذي لمْ يكُن من السَّهل فصل الدّين عن الأسطورة لدى الشّعوب.

1 -أحمد شعيب، ديوان جروح، ص: 126.

للمرأة في أدبنا وشعرنا الكثير، اوليست هي نصف المجتمع ، وهذا النصف ينبغ في كل المجالات وخاصة الأدبيّة والشعرية وهذا ما ستقدمه الدكتورة درية فرحات في بحثها:

اتّجاهات الأدب النّسويّ في جبل عامل



د.درية كمال فرحات

أستاذ مساعد في كلية الآداب الجامعة اللبنانيّة

المقدمة:

بين المكان والإنسان يولد التاريخ، وبلاد عاملة المكان الذي ننتمي إليه، في الماضي والحاضر، فِعلُ إنسانه أكبر بكثير من مساحة مكانه، فكان لجبل عامل وأبنائه دور فاعل في العمليّة الأدبيّة، فعرفت المنطقة الكثير من الشّعراء، ولم تكن المرأة العامليّة أقلّ شأنًا من غيرها، فكان لها الباع الطويل في نهضة العمليّة الأدبيّة، وبرزت أسماء لامعة منها زينب فوّاز وزهرة الحرّ وبلقيس أبوخدود وفاطمة الشيخ رضا وإيملي نصر الله، وغيرهنّ كثيرات.

ولمّا كان ما وصلت إليه المرأة العامليّة من مكانة مرموقة، فإنّ هذا البحث يهدف إلى دراسة نتاج الأديبات العامليّات، وقد اقتصر ذلك على شعرهنّ، مع أنّ الكثير منهنّ قد تنوّع نتاجهنّ بين الشّعر والنّثر بفنونه، وقام البحث على دراسة تاريخيّة موجزة لتاريخ جبل عامل، مع دراسة اتّجاهات الشّعر النّسويّ استنادًا إلى تحليل النماذج الشّعريّة.

أمّا المنهج الذي اخترته لهذه الدّراسة فقد جمعت فيه بين المنهج التاريخيّ والطريقة التّحليليّة والنّفسيّة، وقد حرصت في دراستي للنّصوص على الكشف عن النواحي الفنيّة الوثيقة الصلة بهذه النّصوص، مع وضع كلّ شاعرة في الإطار الذي عاشت فيه.

وتجـدر الإشـارة إلى أنّـه تـمّ انتقـاء بعـض الشّـاعرات العامليّـات لدراسـة شـعرهنّ، وكان الاختيـار يسـتند إلى تنويـع الحقبـة الزمنيّـة التـي عاشـت فيهـا الشّـاعرات، والموقـع الجغـرافي الـذي تنتمـي إليـه الشّـاعرات، وتـمّ اختيـار شـاعرات كانـت بدايـة نشـأتهن في حقبـة زمنيـة سـابقة، ونشـير إلى أنّ نتـاج بعـض الشّـاعرات كان موزّعًـا في المجـلّات ومـن أهمّهـا العرفـان، مـع قيـام بعـض الباحثـين بجمـع مختـارات مـن شـعرهنّ وتحقيقـه.

وتحـاول هـذه الدّراسـة الكشـف عـن اتّجاهـات الشّـعر عنـد الشّـاعرات العامليّـات، بالاسـتناد إلى تحليـل الشّـواهد الشّـعريّة، والكشـف عـن مضمونهـا، وكان لا بـدّ مـن إطلالـة عـلى تاريـخ جبـل عامـل: تسـميته، وموقعـه وأهميتـه الفكريّـة الأدبيّـة، وصـولًا إلى الأدب النّسـويّ العامـليّ واكتشـاف اتّجاهاتـه: الذّاتيّـة، والاجتماعيّـة، والوطنيّـة والقوميّـة.

جبل عامل: التسمية والموقع

جبـل عامـل أو جبـل الجليـل أو جبـل الخليـل أو بـلاد بشـارة، تلـك هـي الأسـماء المتعـدّدة التـي عُـرف بهـا قديـمًا جبـل عامـل أو جبـل عاملـة، وهـي منطقـة جغرافيّـة أدّت دورًا مهـمًّا عـلى مـر التّاريـخ، وتميّـزت بالتعـدّد الاجتماعـيّ والثقـافيّ والأدبيّ، وتأثّـرت بالأوضـاع التاريخيّـة والسياسـيّة المحيطـة بهـا.

وقـد جـاء في أمّهـات الكتـب عـن بنـي عاملـة بأنّهـم مـن اليمـن، فجـاء في لسـان العـرب:» بنـو عاملـة وبنـو عميلـة: حيـان مـن العـرب. قـال الأزهـري: عاملـة قبيلـة يُنسـب إليهـا عـدي بـن الرقـاع العامـليّ، وعاملـة حـي مـن اليمـن وهـو عاملـة بـن سـبأ وتزعـم نسـاب مـضر أنّهـم مـن ولـد قاسـط؛ وقـال الأعشـى:

أعامِلَ حتّى مَتى تذهبينَ — إلى غيرِ والـــدِكِ الأكرمِ؟

ووالدكُم قاسطٌ فارْجعوا — إلى النّسب الأتلَد الأقْدَمِ[1]

وجـاء في تـاج العـروس:» وبنـو عاملـة بـن سـبأ حـيّ باليمـن هـي مـن ولـد الحـارث بـن عـدي بـن الحـارث بـن مـرّة بـن أدد بـن زيـد بـن يشـجب بـن غريـب بـن زيـد بـن كهـلان بـن سـبأ نسـبوا إلى أمّهـم عاملـة بنـت مالـك بـن وديعـة بـن قضاعـة أم الزاهـر ومعاويـة ابنـي الحـارث بـن عـدي نفسـه ومنهـم عـدي بـن الرقـاع العامـليّ الشّـاعر وغـيره[2].

وفي البحـث عـن اسـم عاملـة أشـار بعـض الباحثـين إلى أنّ جبـل عامـل أو عاملـة أو جبـل الجليـل يعـود إلى اسـم امـرأة وهـي أم الحـارث بـن عـدي الـذي تنتسـب قبيلتـه إليهـا، نزلـوا الشـام مـع بنـي جـذام ولخـم وغسـان[3].

1 - ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، لا ط، 1992، مادة عمل جزء11، ص 477.
2 - المرتضى الزبيدي، تاج العروس، بيروت، م 8 ، ص 35.
3 - محسن الأمين، خطط جبل عامل، بيروت، مطبعة الإنصاف، ط1، ج 1، ص 35.

وإن كان الاسم يعود إلى امرأة أو رجل، فإنّه أمر غير ذي أهمية، فليس هناك ما يمنع من أن يكون عاملة اسم امرأة «فهناك كثير من القبائل العربيّة منذ القدم قد نُسبت إلى نساء لحادثة أو لأخرى، والمهم هنا أنّ النسبة صحيّحة فالعامليّ من عاملة، وعاملة بن سبأ وهذا ما تضافر عليه المؤرخون ولم يختلف حوله اثنان مما جعله حقيقة قائمة لا جدال فيها»[1].

وذكر المؤرّخون أيضًا أنّ عاملة هاجرت إلى بلاد الشام، وإلى الهضاب الواطئة المتصلة بشاطئ البحر المتوسّط في أواخر القرن الرابع... ويظهر من المصادر والدراسات التاريخيّة أنّ قبيلة عاملة حتى زمن متأخّر لم تُلحق منطقة معنية باسمها، ولهذا كانت صفة عامليّ في ذلك الوقت تعني القبيلة وليس المنطقة ولكنّه من سكان تلك المنطقة أي بيسان في فلسطين، أو من سكان حمص أو من سكان هذه الجبال الواطئة الممتدة من تخوم وادي التيم إلى سواحل البحار. وقد عرف هذا الجبل ببلاد (المتاولة)، لكون معظم سكّانه من (المتاولة) حسب التسمية المعروفة في لبنان، أي الشيعة[2]، وهو لقب حديث لا يتجاوز القرن الثاني للهجرة/ الثامن عشر الميلادي[3]، وهذا اللّقب أوهذه اللفظة هي جمع لكلمة متوالي، مشتقّ على غير قياس من تولّى، أي اتخذ وليًّا ومتبوعًا، من ولائهم لأهل البيت النبويّ الطاهر عليه السّلام الذي هو الركن في مذهب الشّيعة، أو مشتقّ على القياس من توإلى، أي تتابع، من تتابعهم واسترسالهم خلفًا عن سلف في موالاة آل البيت عليهم السلام[4].

اختلفت الآراء حول موقع جبل عامل، ويمكن والمتّفق عليه أنّه واقع على ساحل بحر الشّام، ويحدّه من جهة الغرب شاطىء البحر المتوسط أو بحر الشام، ومن الجنوب فلسطين، ومن الشرق الأردن «الحولة» ووادي التيم و بلاد البقاع وقسم من جبل لبنان الذي هو وراء جبل الريحان ووراء إقليم جزين، ومن الشّمال نهر الأوليّ أو ما يقرب منه وهو المسمّى قديمًا نهر الفراديس[5] وهذا التحديد بمجمله مما لا شبهة ولا شك فيه ولكن يقع التأمل في الحد الفاصل بينه وبين فلسطين فقد قيل إنّه هو النهر المسمّى نهر القرن وحينئذ يدخل في جبل عامل ما ليس منه.

وبحسب المؤرّخين الذين أكّدوا بأن أبناء عاملة قد نزلوا بهذه البقاع التي يمكن تحديدها بما يُسمّى الآن بجنوب لبنان، يضاف إليه شريط ضيّق شمال فلسطين، على طول امتداد الحدود مع فلسطين، هو جبل عامل. أمّا في عصرنا الحالي فإنّ كلمة جبل عامل تكاد لا تعرف من الناحية الرّسميّة، ذلك أنّ هذه المنطقة قد أصبح يُطلق عليها اسم جنوب لبنان، بعدما ضمّت إلى لبنان مع أوائل القرن العشرين بعد إنشاء دولة لبنان[6].

---

1 - قيصر مصطفى، الشعر العامليّ في جنوب لبنان 1978-1900، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1981، ص 18-17.

2 - احمد رضا، المتاولة والشيعة في جبل عامل، مجلة العرفان المجلد الثاني ج2، ص241.

3 - عارف أبو شقرا، الحركات في لبنان، بيروت، مطبعة الاتحاد، 1952، ص 149.

4 - علي الزين، مع الأدب العامليّ دراسة ونقد وتحليل، بيروت، مطبعة سيما،لا ت، ص166.

5 - محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص 47.

6 - قيصر مصطفى، الشعر العامليّ في جنوب لبنان 1978-1900، ص 23.

جبل عامل أهميته وخصوصيته الفكريّة الأدبيّة:

ينتمي جبل عامل إلى محيطه، لهذا فإنّه في حياته الاجتماعيّة لا بدّ أن يتأثّر بما يتعرّض له من هزّات سياسيّة أو اقتصاديّة أو طبيعيّة، ويتشابه في عاداته وتقاليده مع الظروف المحيطة به، ويمكن القول بأنّ هذه المنطقة قد اكتسبت أهميّتها من عوامل متعدّدة منها: قربه من فلسطين واتّصاله بها، وما له علاقة بالأوضاع السياسيّة والأمنيّة فيها. **ومنها تميّز هذه المنطقة بأنّها مهد الأنبياء وخروج علماء عظام منه، وأيضًا الأحداث الجسام التي حدثت على أراضيه، وأخيرًا ما يتعلّق بسكانه الأتقياء والأذكياء والأشدّاء في الحروب، وتأثير التشيّع والولاء لأهل بيت النبوة فيهم. فقد كان للدّين أثره الفعّال في المجتمع العامليّ، إذ راح يطبعه بطابع العقيدة المتأتيّة من التيار الفكريّ المتأثّر بطلاّب العلم الوافدين من العراق وإيران، وقد انطلقوا بعد طلبهم علم الحديث يطلبون العلوم الأخرى يقطعون المسافات ويجابهون المشقّات، حتى أصبحت الرحلة في طلب العلم تحسب عندهم ضمن الأعمال المستحبة**[1].

وشغف سكان جبل عامل بالأدب والثّقافة واهتمّوا بالحرف، فهم ينظرون إلى العلم نظرة تقديس، ويجلّون العلماء غاية الإجلال، ويشجعونهم، وامتدّ طلب العلم إلى العائلات الفقيرة وذوي الدخل المحدود، فنبغ الشّعراء والعلماء، وانتشرت المدارس والمؤسّسات التّعليميّة وتمّ انشاء المجلاّت والصّحف وطبع الكتب المختلفة. ولم تنطفئ شعلة الفكر يومًا في جبل عامل، إلّا في بعض الأوقات العصيبة التي تنتج عن الدّخلاء والأزمات السياسيّة، فإذا خبت فإنّها تعود ثانية على أقوى مما كانت فتتأجج ويمتدّ نورها[2].

وهذا الشّغف في الشّعر دفع العامليّين إلى استظهار الشّعر يستوي في ذلك العاملة والخاصة، وقد انتشر الشّعر الزّجلي في «جبل عامل في القرى والحواضر ولهم فيه ولع خاص حتى لا تكاد تخلو قرية من شاعر زجليّ يُطلقون عليه اسم قوّال. وقد برع بعضهم فيه براعة تامة وحذق ضروبه وأنواعه كالمواليا والعتابا والقرّادي والمطاليع والهجانيّات»[3]، وبالإضافة إلى براعتهم في الشّعر الزجليّ، فقد برزت براعة العامليّين في الفنون الأدبيّة على أنواعها، ومنها النّثر وفنونه كالنّثر العلميّ والخطب، وفي الشّعر الفصيح، ويبقى الشّعر الفصيح هو المنتشر ومال إليه العامليّون يقرضون الشّعر وروايته وإنشاده، فكانوا يتناقلون ألوف الأبيات الشّعريّة رواية، وهذا الطّرب والإعجاب « الذي استولى على نفس العامليّ بمجرد سماع الإنشاد، ووقع أنغام الكلمات، هو الذي غذّى في ذاته ملكة الأدب، فاتّسعت حركتها وانتشر أثرها»[4].

---

1 - عبد المجيد الحرّ، معالم الأدب العامليّ من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن الثاني الهجري/العاشر الميلادي والثامن عشر الميلادي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 1، 1982، ص 57.

2 - انظر : قيصر مصطفى، الشعر العامليّ في جنوب لبنان 1978-1900، ص 53 - 58.

3 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، بيروت، دار النهار للنشر، لا ط ، ص 294.

4 - عبد المجيد الحرّ، معالم الأدب العامليّ من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن الثاني الهجري/العاشر الميلادي والثامن عشر الميلادي، ص 71.

وقد ذاع صيت الكثير من الشّعراء العامليّين على مدى عهود طويلة وصولًا إلى العصر الحديث، ومن الأسماء التي لمعت في سماء جبل عامل على سبيل المثال لا الحصر: العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين، العلامة الشيخ عبد الحسين صادق بن الشيخ إبراهيم صادق، العلامة حسن محمود الأمين العامليّ الشقرائي، العلامة محسن الأمين العامليّ الشقرائي، العلامة الشيخ أحمد رضا، العلامة الشيخ سليمان ظاهر، الأستاذ الشيخ عارف الزين، وغيرهم الكثير الذين تركوا بصمتهم في جبل عامل في تطوير الثّقافة والصّحافة والأدب. ولم يكن قرض الشّعر «مقصورًا على الرّجال بل تعدّاه إلى النساء فنبغ منهم شاعرات بارعات»[1]، في الشّعر والأدب، وكان لهنّ الدّور البارز في نهضة المجتمع العامليّ، ويهدف هذا البحث إلقاء الضوء على نتاجهنّ وتبيان دورهنّ في جبل عامل.

المرأة العامليّة ودورها في الأدب:

لم تكن المرأة العربيّة يومًا متقاعسة أو متخاذلة؛ فقد سطَّرت صفحات ناصعة بيضاء على امتداد التّاريخ، وأثبتت قدرتها على مشاركة الرّجل في الحياة العامة، وهي في تاريخنا العربيّ لها دورها المشهود في مجالات عديدة، وأدّت بكلّ جدارة دورها الفاعل في جاهليتها وإسلامها، فقد كانت أديبة تستسيغ الشّعر وتنظمه، وتلذّ بالنّثر وتنسجه، وكان بين العربيّات شاعرات وأديبات مجيدات نقلت لنا الكتب أسماء كثيرات منهنّ: الخنساء، وأروى بنت عبد المطلب، وسكينة بنت الحسين، وبثينة بنت حباب بن تغلبة العذرية، وسلمى بنت عدي بن الرقاع، وعاتكة بنت عبد المطلب، وعاتكة بنت زيد، وعمرة بنت مرداس، وليلى الأخيلية، وليلى العامريّة، ورابعة العدوية[2]، وقد بلغ عدد الشّاعرات مائتين واثنتين وأربعين(242) شاعرة من الخنساء إلى ولادة بنت المستكفي[3]. ولم تكن المرأة العربيّة في عصر انبعاث النهضة أقل رسوخًا في الفصاحة والبيان والشّعر والنّقد والقصّ من النّساء العربيّات عبر العصور الأدبيّة.

والمرأة العامليّة واحدة من هؤلاء النساء العربيّات اللواتي تركنَ أثرًا في المجتمع العربيّ. وقد أضَأْنَ بجهودهنّ وإبداعهنّ صفحات من التاريخ. ومن هؤلاء النّساء اللواتي نبغنَ شاعرات وأديبات وناقدات ومنهنّ: السّيّدة فاطمة ابنة أسعد بك الخليل، والسّيّدة زينب ابنة علي بك الأسعد، والسّيّدة زينب علي فواز، وفي فترة لاحقة نبغت بالشّعر والأدب السّيّدة دنيا ابنة محمود بك التامر من آل علي الصغير، والسّيّدة فاطمة رضا ابنة العلامة الشيخ أحمد رضا، والسّيّدة زهراء الحر، والسّيّدة علية القبيسي، والسّيّدة بلقيس أبو خدود[4]، وغيرهنّ ممن برعنَ في مجال القصة والرواية.

1 - محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 292.

2 - عفيف عبد الرحمن، موسوعة الشّعراء العرب «معجم ببليوغرافي يعرّف بالشّعراء ومصادر دراستهم ومراجعها»، طرابلس، لبنان، جروس بروس، بيروت دار صادر، ط 1، 2000، 3 أجزاء.

3 - يمنى العيد، أدب نسائيّ في عالم عربيّ، الحياة، الأربعاء، 1 كانون الأول، 2004.

4- محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص 292.

والبحث بالمكانة التي وصلت إليه المرأة العربيّة عمومًا والمرأة العامليّة على وجه الخصوص، والتّطوّر الذي اتّسم بها شعرها لا بدّ أنّه ما كان إلّا نتيجة طبيعيّة لكفاح طويل، من هنا كانت الضّرورة العودة إلى بدايات الشّعر النّسويّ العامليّ، والغوص في شعره الشّاعرات واكتشاف الموضوعات التي دارت حولها شعرهنّ، وما هي القواسم المشتركة بينهنّ؟ خصوصًا أنّه غلب على الباحثين في الأدب العربيّ أن يصنّفوا الشّاعرة العربيّة بأنّها راثية فقط، كون الرثاء هو الأقرب إلى طبيعتها، وإلى رهافة مشاعرها، لكن تجاهلَ الباحثون بأنّ المرأة «وبدافع من طبيعتها الأنثويّة أكثر حبًّا للتّنويع، وأسرع استجابة منه للتّغيير في كلّ ما يتّصل بحياتها من المظاهر والمجالات»[1].

اتّجاهات الشّعر النّسويّ العامليّ:

أوّلًا الاتّجاه الذاتي في شعر الشّاعرات العامليّات:

تعدّدت الآراء حول تحديد مفهوم الذّاتيّة، فيرى البعض أنّها «نتيجة ما في الذّات من تباين وفرديّة»[2]، وعليه فهناك تباين وتضاد يميّزان كلّ شاعر عن غيره، ومع ذلك فما يجمع الكلّ هو ذات واحدة تتمثّل في الطاقات المحدودة والنّزعات والرّغبات اللامتناهية، هذه الذّات التي تجمعها المشاعر المتعدّدة من ضعف وقوة، أو فرح وحزن، أو حبّ وكره وغيرها من كوامن الذّات الإنسانيّة التي يستطيع الشّاعر أن يجسّدها في العمل الأدبيّ[3]. ويشير البعض إلى أنّ الذّاتيّة هي « تجربة منفتحة على الإنسانيّة»[4]، يعبّر فيها الشّاعر فيأخذها المتلقي ويتجاوب معها، أي أنّ الكاتب صاحب التجربة لم يفكّر في نفسه بل كشف عن ذاته وعن الآخر، فتكتسب التّجربة الذّاتيّة بعدها الإنسانيّ.

ومن هنا فإنّ الذّاتيّة جامعة شاملة، تعبر عن موقف الكاتب وعن رؤيته للحياة، فالتّجربة الذّاتيّة هي التي «يقصد فيها الشّاعر إلى التّأمّل الذاتيّ أو التّأمّل الاجتماعيّ وليس معنى هذا أنّ التّجربة الذّاتيّة مقصورة في حدود المترجم عنها وإنّما هي إنسانيّة بطبيعتها فالشّاعر ذاتيّ موضوعيّ؛ لأنّه جعل من ذاته موضوعيّة، وكأنّه يتأمّلها في مرآة، فالتّعبير ذاتيّ في نشأته، ولكنّه موضوعيّ في عاقبته»[5].

والمرأة العربيّة عموما والعامليّة خصوصًا، نظمت في هذا الاتّجاه وعبّرت عن عواطفها المتعدّدة. فالعاطفة مكوّن أساسيّ في النّفس البشريّة، وهي أكثر تأثيرًا عند الفنان المبدع،

1- رجا سمرين، شعر المرأة العربية المعاصرة 1945 – 1970، بيروت، دار الحداثة، ط 1، 1990، ص 44.
2- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبيّ بين القديم والحديث، بيروت، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، 1984، ص 16.
3- المصدر نفسه، ص 17.
4- محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقيّ والموازنات، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1978، ص62.
5 محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، بيروت، دار عودة، ط 1، 1997، ص 361.

فهـي تجعلـه يـدرك الموجـودات مـن طريـق الوجـدان، والخلـق الفنـيّ انفعـال وتفاعـل مـع الوجـود الخارجـيّ ، وللعاطفـة دور مؤثّـر وفعّـال فيـه.

أ- الحبّ والغزل في شعر العامليّات:

الحـبّ مـن القضايـا الإنسـانيّة المهمّـة التـي تشـكّل حافـزًا للإبـداع عنـد الشّـعراء، فنراهـم يعرّفـون هـذا الشّـعر مـن وجهـة نظرهـم، ومـن خـلال تجاربهـم، فهـا هـي زينـب فـوّاز تـرى الحـبّ مجبـولًا بـالألم والهـمّ:

وما الحبّ إلّا مقلةٌ دمعُها دمٌ　　　وهمٌّ على وكَـــرْبٌ على كَـرْبِ[1]

تشـبّه الشّـاعر الحـبّ بالعـين، لكنّهـا عـين مملـوءة بدمـوع وبـكاء، ومـا هـو إلّا هـمّ وحـزن وغـمّ، ونراهـا في موضـع آخـر تـرى أنّ الحـبّ مـرض لا عـلاج لـه، ولا ينفـع فيـه الأسـف:

الحبُّ داءٌ دفينٌ ليس يدركه　　　علمُ الطّبيب ولا يجدي له الأسفُ

إنْ لم يكنْ حفظ الودادِ طبيعةً　　　لا خيرَ في ودّ أتى يتكلّــــفُ[2]

وتشـير زينـب فـوّاز بقولهـا إلى ضرورة هـذا الحـبّ، فهـو كامـن في الطّبيعـة الإنسـانيّة بـاقٍ في النّفـوس، لكنّهـا تشـترط فيـه البعـد عـن التّكلّـف وأن يكـون طبيعيًّـا، ولعـلّ المفارقـة في تعريـف الشّـاعرة للحـب ذي المعـاني الرقيقـة أنّهـا ربطتـه مـع مفـردات تنتمـي في بعدهـا المعجمـيّ إلى الوجـه المضـاد للحـبّ، فالحسـن يظهـر حسـنه الضـدّ.

أمّـا زهـرة الحـرّ فـترى في الحـبّ طهـارة ونقـاء وجمـال، فمتـى حـلّ الحـبّ حـلّ الجـمال، بـل إنّ الفجـر ينحنـي لهـذا الحـبّ:

إذَا الفجـــرُ مرَّ بنَا وانحنَى　　　أمامَ طهـــارةِ حبٍّ نقـــــي

رأيْتُ بأنّا بلَغْنَا المَــدَى　　　وفُزْنَا عَلى العَــالَمِ الضَّيـّـــقِ[3]

ورؤيـة انحنـاء الفجـر للحـبّ، تسـمح للشـاعرة بالوصـول إلى عـالم رحـب واسـع، مـا بـين المـدى/ الضيـق اكتملـت صـورة الحـبّ مـن خـلال اعتـماد التضـاد. وتؤكّـد الشّـاعرة طهـارة هـذا الحـبّ بقولهـا في موضـع آخـر:

ناصِعًا كالزّنَابِقِ البِيضِ يَزْهُو　　　في الحَنَـايَا طَهَـــارَةً وانْطلاقَـــا[4]

1 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، جمع وتحقيق حسن محمد صالح، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط 1، 2008، ص 50.
2 - المصدر نفسه، ص 185.
3 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، لا ط، لا ت، ص 28.
4 - زهرة الحرّ، رياح الخريف، بيروت، المجلس الثّقافي للبنان الجنوبي، ط1، 1992، ص 97.

ولعلّ هذا ما يدفع زهرة الحرّ إلى العودة إلى ذكرياتها مع الحبّ، وتحنّ إليها داعية إلى نبذ الفراق، ففي الحبّ أجمل ذكرى:

عُدْ بِنَا للْوراءِ، كــيْ نَتَلَاقَى قدْ شَبِعْنَا مِنَ الزَّمانِ فِراقَــا

واذْكُرْ الحُبَّ فهو أجملُ ذكـرى في رُؤَانَا تُرَاودُ الأحدَاقَــا[1]

إنّ للحبّ تأثيرًا كبيرًا على الشّاعرة، حيث يمنحها ذكراه السلام، ويجعلها تنشد اللقاء، وذكرى الحبّ تراودها دائمًا. وهذا التأثير نراه مع الشّاعرة بلقيس أبو خدود، فنراها تودع الحبّ ريحانها الجميل، والحبّ باق معها لا يغادرها:

وَيْحَ الهوى! مَا كَانَ ينســاني خذه، وخذ زهري ونَيْساني!

ما قلْتُها زهدًا.. هواي هَــوًى أودعت فيه فوح ريحـاني..2

وهذا الحبّ الذي يرافق الأحبة يترك تأثيره عليهم، فأوّل ما ينكشف لنا عن الحبّ بُعدَه الإنسانيّ ولأنّه «توجّه إنسانيّ وليس حقيقة مطلقة فإنّه يتأثّر بظروف المحبّ، وظروف المحبوب، وما يكتنفها من مؤثرات الزّمان والمكان»[3]، ما يولّد علاقات متعدّدة بين الحبيب والمحبوب، ومواقف متعدّدة نحو الحبّ، تقول الشّاعرة بلقيس أبو خدود في قصيدة بعنوان « بح بنجواك»:

كئيبًا، أراكَ اليومَ .. يا قلبي
الشكوى متنفّسٌ، وفيها عزاء
فلم لا تشتكي؟!
بحْ بنجواكِ، إلى النّجومِ .. إلى القمر
في الليلِ الصامتِ متى سجى
وإلى الطيورِ .. إلى الأزاهير
إلى حفنةٍ من ترابِ الأرض
في الفجرِ الباسمِ متى انبثق..[4]

تلجأ أبو خدود إلى الطبيعة وتطلب من قلبها أن يبثّ شكواه إلى مظاهر الطبيعة،

---

1 - المصدر نفسه، ص 97.

2 - بلقيس أبو خدود، دموع تغنّي، بيروت، مطبعة النور، 1997.

3 - محمد حسن عبدالله، الحبّ في التّراث العربيّ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد 36، ديسمبر، لا ط، 1980، ص 142.

4 - العرفان، مج 38، سنة 1950، ص 560.

وهـي بـذاك تشـبه صـورة الرومانسـيين الذيـن «ينشـدون السّـلوان في الطّبيعـة، ويبثونهـا حزنهـم، ويناظـرون بـين مشـاعرهم ومناظرهـا. فقـد يضيقـون بمناظرهـا الجميلـة لأنّهـا لا تعبـأ بحزنهـم، وكأنّهـا تسـخر منهـم. وإنّـما يسـتجيبون لمناظرهـا الحزينـة لأنّ لها صـلات بخواطرهـم ومصائرهم. ويتخيلـون في المخلوقـات أرواحًـا تحـسّ مثلهـم، فتحـبّ وتكـره وتحلـم. فيشركونهـا مشـاعرهم ولـذا يخاطبـون الأشـجار والنّجـوم والـورود والصّخـور وأمـواج البحـار..[1]»، وتكمـل الشّـاعرة لجوءهـا إلى الطبيعـة، رافضـة البـشر، فتحـذّر قلبهـا منهـم:

وحذار.. حذار يا قلبي، منْ أن تخلصَ شكواك

إلى آذانِ لئامِ البشر

فإنّ هؤلاءَ أفاعٍ.. أنذالٌ ..يشتمون![2]

ونلمـس هـذا الاتّجـاه أيضًـا عنـد الشّـاعرة فاطمـة رضـا فتشـارك الرومانسـيين في تماهيهـم مـع الطبيعـة، فيهزّهـا صـوت الهـزّاز، ويجعلهـا تحـنّ للأحبـة الذيـن رحلـوا:

غنّى الهـزارُ فزادنـــــــــــــــي	وجـدًا عـلى وجـدي الهـــــــــــزارُ
وشدا الـدِّيـارَ بعيـــــــــــدةً	يـا لـيتَهـا تصبـو الـديــــــــار
يـا طـيرُ إنك واجـــــــــــدٌ	مـثلي وقـد بَعُدَ الـــــــــمزار
رحـل الأحـبَّةُ مـثلمـــــــــا	رحـلَتْ مع الـموج الـبحــــــار
هـبْني جنـاحَك كي أطيـــــــــ	ـرَ فإنهـم بعُدوا وطـــــــــاروا[3]

فالهـزّاز / الشّـاعرة تلاقيـا في الهـمّ ذاتـه، فبـات الهـزّاز / أو الشّـاعرة يعيـش الحـبّ ذاتـه، وينشـد ديـار الأحبـة، فتكتمـل حالـة التماهـي مـع الطبيعـة عنـد الشّـاعرة مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى تسـير الشّـاعرة عـلى نهـج الأقدمـين في ذكـر الأحبـة ورحيلهـم، وهـو أكثـر مـا يمكـن أن يؤثّـر في الأحبـة.

1 - محمد غنيمي هلال، الرومانتيكيّة، بيروت، دار العودة، لا ط، 198. ص177 178-.
2 - العرفان، مج 38، سنة 1950، ص 560.
3 - فاطمة رضا، مواويل طائر الخزامى، بيروت، مطبعة ديموبرس، 1978.

وسؤال الدّيار تذكره صراحة الشّاعرة بلقيس أبو خدود في قصيدة بعنوان «أيرجع لي»، فتقول:

أُسائِلُ عَنْ ديَارِكَ يَا حَبيبي ... تبدّلَتْ الدّيارُ علَى الدُّروبِ
أَيَرْجعُ فِي هواك، وَمِن سرابِ ... أترجعُ لي على وهنِ المغيبِ
فقَدْ طَالَ النّوى يَا حُلمَ عُمري ... وَأوْهاني حَنينٌ كاللهيبِ
غَدوتُ، وبينهم أهلي غريبًا ... أَيَا ناءٍ ترَفَّق بالغريبِ
أمرّ فلا سلامٌ منْ خَليلٍ ... ولَا صوْتٌ يُناديني نسيبي[1]

ومن الملاحظ انتشار الحقل المعجمي المرتبط بالغربة: ديار/ دروب/ يرجع/ المغيب/ النوى/ غريب/ ناء/ لا سلام...، وقد شكلّت هذه المفردات حالة وجدانية تقلّد فيها الشّاعرة الشّعراء العرب قديمًا، فعند رحيل الأحبّة لا بدّ من الوقوف على هذه الدّيار للسّؤال عمن كان فيها، والتّعبير عن طول النّوى والبعاد، وإن كان غياب الحبيب عند الشّاعرة غيابًا فرديًا، ولعلّ الرّحيل هنا ليس كرحيل الأحبة قديمًا بحثًا عن الكلأ والماء، هو رحيل الحبيب إلى بلاد أخرى، فباتت تشعر نفسها غريبة وسط أهلها، فلا صوت يؤنسها ويسلّيها. وقد يقودها فقدان الأنيس إلى التعبير عن ألمها ومآسيها:

هجَرَ الهوى عمري، فبتُّ مسهَّدا ... أوَّاه من عمرٍ هواهُ تبدَّدا!
بعد الهوى، للعين بانَ تنسُّكي ... وهفا فؤادي، حاديًا ومردِّدا:
رحل الهوى، فالروح مستَعِر الجوى ... لله أمسى آهةً وتنهُّدا
والعين واهنة الجفون، فليتها ... للهمس ترجع، للصبابة والحُدا[2]

هذا الألم هو الذي عبّرت عنه وأفاضت الشّاعرة زينب فوّاز في التعبير عنه في قصائدها، فهيمن على ديوانها حقلان معجميان الأول يرتبط بألم الحبّ ومرارته، والثاني ارتباطه بمفردات دالة على الحبّ، ونورد على سبيل المثال لا الحصر: المعذّب- يذوب- دمعي- لهيب- العذاب- يصلي القلوب- سقم- الخفقات- يبكي دمًا- العذل- أنكرني- ذبت من شدّة الحزن- الكرب- الأوصاب - وحشتي- الحسرات- الفراق-جسمي البالي- تنازع- كبدي الحرا- براني الأسى- النوى-تجرّعت من أسى- سهاد- اشتياق ولوعة- حرّ أشجاني- قلب مكتئب- أكابد أشواقًا -عليل -نحيل - ضرام غرامه - حريق - أجفان بأدمعها - عذل وبين- وتوديع ومرتحل- الرزايا- الهجران- غراب البين- جرح قلبي- زال بؤسي- شفا نفسي من الألم ... وإذا أكملنا المسح الإحصائي لسجّلنا صفحات تحتوى كلمات

1 - بلقيس أبو خدود، قصيدة أيرجع لي، مجلة الأدويسة، رقم 32، 1 ديسمبر 1984، ص 13
2 - بلقيس أبو خدود، دموع تغنّي. 1997.

تشير إلى نفس واهنة متألمة تعاني من الحبّ ألمًا بما يتركه في نفسها من شجن وحزن، وبما يتركه من أثر في رغبتها في هذا الحبّ، فنراها شوقًا إلى هذا الحبيب تعدّد ما تعانيه من ألم:

وعددْتُ أشواقِي ليومِ لقائكم ... لا شكَّ الذي ألقاهُ منْ ألمِ الوجدِ

ولكنّني لما حظيتُ بقربِكم ... تحيّرتُ حتّى ما أُعيد ولا أُبدي

فيا عجبًا حتى لِساني يَخونني ... وحتّى جُفوني في الهوى نقضتْ عَهْدي

فوالله ما طابتْ حَياتِي بَعدكم ... تُرى أنتم طَابَت حَياتكم بَعدي

مددتُ إلى التّوديعِ كفًّا سقيمةً ... وأخرى على الرمضاءِ فوقَ فؤادي

فلا كانَ هذا آخرَ العهدِ منكم ... ولا كانَ ذا التّوديع آخرَ زادي[1]

فالشّاعرة تكابد لهيب الشّوق إلى هذا الحبيب، ولكن ينتابها أيضًا إحساس الحيرة عند اللقاء، حيث يخونها عهد الهوى، فالحبّ يدفع المحبّين إلى الارتباط والتّواصل، لكنّه قد يتعرّض « لآفات كثيرة بعضها نفسيّ نابع من أحوال المحبّ أو المحبوب، وبعضها الآخر خارجيّ، يطرأ من تدخّل الآخرين، وبعضها من فعل الزّمن القاهر..»[2]، لهذا فهي تنشد اللقاء لا الوادع.

ولتضارب مشاعر الحبيبة/ الشّاعرة فإنّها فؤادها يلتاع وجسمها يذوي بسبب معاناتها مع الحبّ، والشوق يبري جسدها، فتذرف الدّمع:

على قلبي المعذّبِ أنْ يذوبَا ... ويا دمْعي عَليكَ بأن تَصُوبا

فؤادي كلُّه أمْسَى لهيبًا ... وجِسمي جُلّه أضْحى مذوبا

إلى كمِ ذا العذابِ وليت شعري ... علَام أطلتَ يا بدرُ المغيبا

وحسبُ الشّوق أنْ أفنيّ دموعي ... وأنّ الدّمع قَد أفنَى الغروبا

ومثلي منْ يذوبُ عليكَ شوقًا ... ومثلك سَيدي يصلي القلُوبا[3]

ولعلّ هذا ما يجعل زينب فوّاز تلقي اللوم على قلبها، لأنّه رضخ لهذا الحبّ وألمه، فترى أنّ الحلّ يكمن في قسوة هذا القلب وعدم الاستجابة إلى نداءات الحبّ:

فليْتَك يا فؤادي كنت فظًّا ... غليظًا لا تُصَادُ ولا تَصِيدُ

وليْتكَ يَا فؤادي خُلقْتَ صخرًا ... جمادًا لا تُرادُ ولا تريدُ

وليْتكَ يا شعوري كنتَ شيئًا ... عديمَ الحسّ صاحبه بليدُ[4]

---

1 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 161- 162.
2 - محمد حسن عبدالله، الحبّ في التّراث العربيّ، ص 98.
3 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 147.
4 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 167.

والملاحـظ اسـتخدام الشّـاعرة لأسـلوب التمنـي طالبـة مـن القلـب أن يتحـوّل إلى جلمـود صخـري لا يتأثـر ولا يؤثّـر في الآخريـن، وإن كانـت الشّـاعرة في موضـع آخـر تشـتكي مـن قلبهـا القـاسي:

لقد رقّ لي مما تجرّعتُ من أسى فؤادي عذولي وهُو أقْسَ ى من الصخر[1]

ومـن الملاحـظ أنّ الشّـاعرة في معظـم قصائـد الديـوان تسـتدعي الحبيـب الغائـب، لكـنّ «حضـوره مختبـئ باسـتمرار خلـف المشـاعر الدّاخليـة للشّـاعرة، التـي تحـسّ بضربـات قلبـه. هـذا الآخـر غائـب عـلى الـدّوام بينـما يبقـى الخطـاب الشّـعريّ في بحـث دائـم عنـه»[2]، ومـا يبقـى أيضًـا هـو المضاعفـات الناتجـة عـن هـذا الحـبّ، مـن سـهاد وسـقم وبـكاء دائـم:

أيَا جِسْمي البالي تجسّمت من ضَنى ويا كبدي الحرّا تكوّنتْ من جمر

براني الأَسَى والحزنُ بعدَ فراقهـم فلمْ يتركَا مني سوى عَبرة تَجري

تُنازعُ روحي للخروجِ يدُ النوى فَتحبِسُها عنّي الأماني في نحْري

سهادٌ وسقمٌ واشتياقٌ ولـوعةٌ وصبحٌ بلا ضوء وليلٌ با فجـر[3]

هكـذا جـاء الحـبّ عنـد الشّـاعرات العامليّـات يغلـب عليـه طابـع الحـزن والشّـكوى، وتصويـر المعانـاة مـن ابتعـاد الأحبّـة ورحيلهـن، ومـن الملاحـظ أنّ الشّـاعرات ابتعـدن عـن التصويـر الحـسي للحـبّ، ولعـلّ هـذا يعـود إلى طبيعـة البيئـة التـي نشـأت فيهـا الشّـاعرات، فلـم تكـن لديهـن الجـرأة لتصويـر العلاقـة الماديـة الجسـديّة مـع الحبيـب، واكتفـين بتصويـر المشـاعر والأحاسـيس.

ب- الحبّ الإلهي في شعر الشّاعرات العامليّات

الحـبّ الإلهـي هـو أصفـى ألـوان الحـبّ وأنقاهـا وأسـمى أنواعـه وأرقاهـا، وقـد تأثـرت الشّـاعرات العامليّـات بالديـن، فقدمـنَ قصائـد تضمّنـت الابتهـالات والتّعبـير عـن محبتهـم للخالـق، فهـذه زهـرة الحـرّ تضـع ديوانًـا بأكملـه بعنـوان «الله جـلّ جلالـه»، الـذي يتضمـن الكثـير مـن القصائـد التـي تعـبر فيهـا عـن علاقتهـا بالخالـق وتسـمي الخالـق بأسـمائه الحسـنى ذاكـرة صفاتـه، وتعلـن مبـدأ التّوحيـد للخالـق، وتنطلـق مـن الإهـداء في ديوانهـا:

حملتُ إلهي من خلاصةِ وجْداني شعورًا، أتى بالشّعرِ منْ عمقِ إيماني

ترعرعَ في قلبي وبينَ جَوارحي وقدّمْتُه يَا ربّ في شبهِ قربـان

وأنت إلهي لا إله سـواك لي يُدبّرني بينَ العبادِ ويَرْعـاني[4]

---

1 - المصدر نفسه، ص 171.

2 - أحمد الدوسري، اتجاهات الشّعر المعاصر في الجزيرة العربيّة، القاهرة، هفن للتّرجمة والنّشر والبرمجيات، ط 1، 2009، ص 259.

3 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 170.

4 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، ص 60.

ونراها في موضع آخر تؤكّد وحدانية الخالق وتقرّ بعظمته:

يا واحدًا أحَدُ، لهُ التوحيدُ ولهُ به التّعظيم والتمجيدُ

يا منْ تقرُّ الكائناتُ بأسْرها بوجودِه والواقعِ المشهود[1]

وتستمرّ الشّاعرة في تأكيد هذه المفاهيم عبر الديوان بأكمله، فتقول بقصيدة الواحد الأحد:

يا ربّ أنتَ الإلهُ الواحدُ الأحدُ أنتَ الذي في المدى مَا مثله أحدُ

أنتَ الذي سجدَتْ كلُّ الوجودِ له والكائناتُ وما فيهنّ قَد سجدُوا

أنتَ العليّ الذي يعلُو الوجودُ به فالكبرياءُ صفاتٌ فيك تتحدّ[2]

ترفع الشّاعرة صوتها بهذه الابتهالات، التي تصوّر وحدانيتها للخالق، وهيامها بذات الخالق الأعظم :

وأنتَ العظيمُ وأنتَ الكريمُ وأنتَ الحليمُ وأنتَ المكين

وجدتُكَ في طلعةِ النيرين وفي ظلماتِ الدّجى والسّكون

وجدتُكَ في كلّ شيءٍ جميلٍ وفي كلّ قلبٍ رقيقٍ حنون[3]

وفي قصيدة أخرى:

واغمرْ بحبّك أنفسًا ونُهى فيضيءُ كلّ نفوسِنا الحبّ[4]

إنّه الفيض الإلهي الذي يغمرها فترى الخالق في كل مكان من حولها فهو الحياة وهو الحقيقة واليقين، وإذا أجرينا مسحًا إحصائيًّا لعناوين القصائد في الديوان لتبين وحدانية الخالق جلّ جلاله عند الشّاعرة ولإحساسها بعظمة خالقها ورحمته التي غمرت كلّ شيء: الواحد الأحد- اليقين- الهدى- محبة الله- كن فكان- الحي القيوم-الله تعالى- التوحيد- الرحمة- إلهي ..ماذا أنت؟- العقل- القوة- الأمان-العفو- رب المؤمنين- إياك أعبد- التسبيح ... عناوين تشير إلى الله، منذ البدء الذي هو خالق البشر نعماه تتدفّق على البشر مع اشراقة كلّ صباح وسعادة الشّاعرة تتعاظم مع تقرّبها منه، فالعالم كلّه آية من نوره العظيم. وإذا كانت هذه القصائد قد وردت في ديوان الشّاعرة» الله جلّ جلاله» الذي أصدره أبناؤها بعد وفاتها، فإنّ موضوع الخالق كان هاجس الشّاعرة في ديوانيها السابقين: قصائد منسية/ رياح الخريف، ومما قالته في ديوان رياح الخريف:

---

1 - المصدر نفسه، ص 67.
2 - المصدر نفسه، ص 80.
3 - المصدر نفسه، ص 82.
4 - المصدر نفسه، ص 84.

أمدّ إليكَ كفًّا مُستجيرًا حملْتُ عليه أعباء الديونِ

وذنبًا لا يُقرِّبُنِي وَجهـلًا يَسدُّ منافذَ العقلِ الرّصينِ

فعفوكَ أنّني ضَيّعتُ عُمري سدىً بينَ الحماقَةِ والجنون[1]

ونرى عند الشّاعرة فاطمة رضا هذا الإحساس الذي يقودها إلى الخالق الواحد الأحد، فتبثّ شكواها إليه وتدعو بأن يخلّصها من متاعبها، فعنونت قصيدتها بدعاء وشكوى، تقول فيها:

تعالى اسمُكَ العالي أيا مَنْ للوَرَى والي

أرى الدنيا تعاكِسُني ولم تُشفقْ على حالي

ومدَّت للعدا يدَها لتُحْكِم قيْدَ أغلالي

وقادتْني إلى هَلكٍ لتهدمَ صرْحَ آمالي

وتُحزنَ من يُناصرني وتُفرحَ قلبَ عُذّالي[2]

لم تجد الشّاعرة من ناصر لها سوى خالقها، فالإنسان يمرّ في حالات من الضعف الإنساني أمام إغراءات الدنيا، لهذا لم تجد فاطمة رضا إلّا الخالق لينقذها من العدا ومن الغلال التي تقيدها، وقد تكون هذه الغلال ماديّات الحياة وشهواتها التي تهدم آمالها.

للخالق جلّ جلاله نعم لا تقدّر، فتخاطبه الشّاعرة علية القبيسي في قصيدة «قدرة الله ما أعظمها» معلنة بأنّ آياته شفّافةٌ ساطعة تختلف عن مزاعم كلّ الذين يتنطّحون للتحدُّث باسمه، فقدرته لا تصل إليها الأمم:

قدرةٌ لله ما أعظَمَها قصَّرت عن كنهها كلُّ الأمم!

جعل الشمس منارًا للورى وطبيبًا شافيًا كلَّ سقم

جعل البدر بهيًّا باهرًا ومنيرًا في الدياجي والظُّلَم

وأديمَ الأرض قد شكّله من سهولٍ ووهادٍ وأكم

نعمٌ لله ما أكثرَها نشكر الله على تلك النعم[3]

وإذا تحدّثت الشّاعرة عن عظمة الخالق، ففي أبياتها إشارة إلى مبحث مهم يرتبط بقضية وجدانيّة ذاتيّة تتعلّق بالوجود وقضايا فلسفيّة حياتيّة ترتبط بالموت والحياة.

---

1 - زهرة الحرّ، رياح الخريف، ص240.
2 - فاطمة رضا، مواويل طائر الخزامى، ص 10.
3 - مجلة العرفان، 1946.

ج – الوجود عند الشّاعرات العامليّات

تطرح الشّاعرة علية القبيسي في قصيدتها «قدرة الله ما أعظمها» ما له علاقة بأصل الوجود وتكوين الأرض، فتنسب تكوين أديم أرض من سهول ووهاد إلى الخالق ونعمه على البشر، التي تتطلّب منّا أن نقدّم الشّكر إلى الخالق. ولم تكن هذه القضية قضية عابرة عند الأدباء والشّعراء، فمنذ أن وجد الإنسان على سطح هذه البسيطة وهو يبحث عن وجوده وحقيقة هذا الكون، بل إنّ الوجود «الإنسانيّ على هذه الأرض وجود مغترب في الأصل، لذلك لجأ الإنسان إلى حياة التّأمل، أي السّمو في التّأمل واستغراق الذّهن في التّفكير[1]، أي إنّه يلجأ إلى التّفكير العميق حول موضوع ما محاولًا اكتشاف جوانبه كافة؛ وانطلق الإنسان باحثًا في الكون والوجود والحياة وعن سرّ الوجود وعن حقيقة الرّوح والجسد وعن الموت والحياة، وصولًا إلى البحث في الماورائيات أو ما وراء الطّبيعة Metaphysic أي «اعتماد العقل في معرفة الكائنات غير الماديّة ، وغير المحسوسة، والسّعي للغوص على جوهر الأشياء والظّواهر، في مقابل المعرفة التي يتوصّل إليها الإنسان عبر التّجربة «[2].

ما برح الإنسان منذ أن وجد على الأرض يتساءل ممّ وُجد ؟ ولماذا وُجد؟ وإلى أين ينتهي ، فأخذ يبحث عن وجوده[3]، وكان لزهرة الحرّ آراء حول حقيقة الوجود، وتعلنها في شعرها منطلقة من معتقداتها الدينيّة، فتعلن أنّ هذا الوجود هو من الخالق جلّ جلاله:

يا ربُّ إنّك فوق العرشِ موجودٌ ... وفي السّماوات والأرضين معبود

وكلّ أمرٍ له من قُدرةٍ قَدَرٌ ... مُقدَّرٌ. فهو معلومٌ ومحدودُ[4]

حقيقة لا شكّ فيها عند الشّاعرة، فكلّ ما في هذا الكون من صنع الخالق، والله أعطى أمر التكوين:

قالَ للأرضِ خالق الأرضِ كوني ... مثلَما شئتُ واخرجي من سكوني[5]

وفي ذلك موافقة على ما جاء في القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[6]، ولا تتوقف حدود اكتشافها بالأرض، أنّما تؤكّد حقيقة تكوينها كإنسان:

أنا طينٌ وليسَ غير نداءِ الطّـ ... ـين يحتلّ فكرتي ويقيني

إنَّ في الأرضِ موعدي ومَعادي ... ليسَ يحيا في الطّينِ غير الطّين[7]

1 - ابراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة، 1983، ص 77 .
2 - جبور عبد النّور، المعجم الأدبيّ، بيروت، دار العلم للملايين، لا ط، لا ت، ص 233 .
3- درية كمال فرحات، التّمرّد في شعر الشّاعرات البحرينيّات، بيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط 1، 2014، ص 349.
4 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، ص 63.
5 - المصدر نفسه، ص 24.
6 - القرآن الكريم، سورة النحل 40.
7 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، ص 25.

إنّها من هذه الأرض، وإليها ستعود، ونداء الطّين الذي يناديها ليس بعيدًا عن قناعاتها الدّينيّة، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1]، وإنْ سلّمت الشّاعرة بحقيقة الوجود وبتكوين الأرض، فإنّها تفصّل في تحديد معالم الكون، وتنتقل إلى أصل البشريّة، فتأتي على ذكر حواء التي نزلت إلى الأرض مع أدم، ومنهما عرفنا ملامح الكون:

مَا عرفْنا ملامحَ الكونِ إلّا	يومَ حَطّت عَلى الثّرى حواءُ
يوم كانتْ وكانَ حبٌّ وبغضٌ	وشُجونٌ وخَيبةٌ ورجاءُ
هكَذا شَاءتْ المقاديرُ فينا	فليكُن مَا تَشاءُ لا ما نشاءُ
فاهبطي يا ابنة التّرابِ إلى الأرْ	ضِ ففي الأرضِ تمرحُ الأهواءُ[2]

تسليم بما ورثته من مفهومها الدّينيّ، فالشّاعرة وإنْ كانت قادرة على الخروج عن القيود التي كانت في زمنها على الفتاة، واستطاعت أن تحقّق ذاتها في التّعليم وقول الشّعر، لكنها ظلّت في مفاهيمها الدينيّة تسير على ما تعلّمته، واقتنعت به، فرأت أنّ بنزول حواء الأرض وُجدت المشاعر والأحاسيس من بغض / وحبّ ، خيبة/ ورجاء، وكأنّها في خطابها إلى حواء (اهبطي) ما هو إلّا خطاب إلى نفسها لتقتنع بما في هذه الأرض من آلام وأتراح، وتقنع بهذه الأرض مركزًا دنيويًّا لها، تصطرع فيها الهواء والمشاعر.

أمّا زينب فوّاز فتقف أمام قضية المصير والوجود والدهشة ترتسم في ذهنها، فبداية الحياة دليل وجود، إنّها ترسم الرجاء/ الخشية في المستوى الموضوعاتي، وهو إن تركها فهي باقية، فالإنسان هو الفاني والأرض مستمرة تستقبل غيره:

بدءُ الحياةِ وجود حيث نَغْشاه	ونظلّ نرجُو وما نرجُو نخشاهُ
المرء في جوهر الدّنيا حكى عرضًا	يزولُ عنها وتبقى عنه دنياه
والعيشُ في كرةِ الغبراءِ مشغلةٌ	بينَ الحوداثِ العقبى قصاراه3

الحياة تأخذ بفكر الشّاعرة زينب فوّاز، فتعبّر وفق فلسفتها حول طبيعة البدء والوجود، وترسم الصراع القائم على الإنسان ومعاناته مع حوادثها ومصائبها، وقد تنحو الشّاعرة في أفكارها إلى أبعاد فلسفيّة، فيكون لها موقف من القدر:

فإنْ يكُنْ قَدرٌ قدْ عاق عن وَطَرٍ	فلا مردَّ لما يأتي به القدرُ[4]

إنّه استسلام لمشيئة القدر، فإذا أعاق القدر تحقيق غاية أو مأرب، فلن يستطيع أحدٌ الوقوف في وجه القدر، تعلن الشّاعرة خشيتها من هذ القدر القادر على تغيير مسار رغباتها واحتياجاتها.

---

1 - القرآن الكريم، سورة طه 55.
2 - زهرة الحرّ، رياح الخريف، ص 55-54.
3 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 112.
4 - المصدر نفسه، ص 168.

وتتساءل بلقيس أبو خدود عن العمر وحقيقته، وعن نتائجه التي تؤثّر فينا:

ما العُمْرُ؟ أَيّامٌ تُنَاصِبــــُنا تُزْري بنا.. لا كُنْتَ يا عُمُري

فيكَ الأماني، والهوى حُلُمٌ يَغْتالُهُ صَحْوُ النُّهى.. بَصَري..[1]

فالشّـاعرة غاضبـة مـن عمرهـا الـذي يُشـعرها بـالإزدراء، لهـذا ترفضـه، وهنـا يرتسـم محـور التّضـاد بـين الحلـم/ والصحـو، وتظهـر حركـة الدّلالـة مـن خـلال إحسـاس الشّـاعرة بضيـاع الأمـاني والهـوى عـبر الاغتيـال، فبـات العمـر هبـاءً، وهـذا الشّـعور يقـود إلى الشـكوى مـن الحيـاة والحديـث عـن المـوت.

د ثنائية الحياة والموت وشكوى الدّهر:

مـن المسـلّم بـه أنّ لحظـة الـولادة لا بـدّ أن تقابلهـا لحظـة المـوت، فـما مـن مخلَّـد عـلى وجـه الأرض، لهـذا فقـد شـغلت هـذه الثنائيـة الشّـعراء جميعًـا، ومنهـم الشّـاعرات العامليّـات، فنرى أنّ الشّاعرة زهرة الحرّ تنادي الموت وتخاطبه:

يا موتُ خذْ بيدي فأنتَ ندائي إنّي أراك تحومُ حولَ فنـــائي

خذني إلى الصّمتِ الطّويلِ فإنّني ضيّعتُ هذا العمرَ في الضّوضاء[2]

ولعـلّ الشّـاعرة قـد أصابهـا السّـأم مـن الحيـاة فباتـت تطلـب المـوت، بعـد أن قضـت عمـرًا طويـلًا في ضوضـاء الحيـاة وصخبهـا، فـكان التضـاد بـين الصمـت/ الضوضـاء والنجـاة بالمـوت، لهـذا تقـول في القصيـدة أيضًـا:

أنا في انتظاركَ قد حملْتُ هويتي وقضيتي وخلاصة الأنبـــاء

وحملْتُ من دنيا الغرورِ سعادتي بيدٍ وبالأخرى حملْتُ شقائي

تلكَ الحياةُ بحلْوها ومَريرها تعدو أمامي والمنونُ ورائـي[3]

تنتظـر الشّـاعرة المـوت بـكل رحابـة، فقـد اكتفـت مـن الحيـاة بـكل مـا فيهـا: الغـرور والسـعادة/ الشّـقاء، الحلـو/ والمرّ، وليـس أمامهـا إلّا المنـون، وليـس في قـول الشّـاعرة استسـلام ويـأس بـل هـي تبحـث عن الخـلاص مـن حيـاة دنيويـة إلى عـالم الملكـوت الإلهـي، وكأنّ الشّـاعرة هنـا تتخلّـص مـن رزايـا هـذه الدّنيـا لتصـل كـم ذكـرت في قصيدتهـا إلى الاسـم الـذي وحّدتـه فهـي قـد كرهـت تعـدد الأسـماء، إنّ الشّـاعرة هنـا تنحـو منحـى الصوفيـين، فدعـوة المـوت ليـس

1 - بلقيس أبو خدود، دموع تغنّي. 1997.
2 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، ص 26.
3 - المصدر نفسه، ص 26.

هـو الغايـة، إنّـما الغايـة هـي للوصـول إلى الخالـق، وقـد قدّمـت قرابينهـا الدنيويـة سـبيلًا يصلهـا إلى مبتغاهـا.

وتعـود زهـرة الحـرّ في قصيـدة أخـرى عنونتهـا بــ «المـوت»، لتنتظـره لأنّـه المصيـر المحتـوم عليهـا:

أيّها الموت الذي أنتظرُ   كنْ كما شِئتَ وشاءَ القدرُ

أنت سرّ المبتدأ والمنتهى   أنت أمر الله أنت العــــبَرُ

وتعيـش الشّـاعرة في هـذه القصيـدة بـين أمريـن، بـين الحيـاة/ والمـوت، الحيـاة التـي تحبّهـا، والمـوت الـذي تشـعر بالضّعـف كلّـما جـاء ذكـره، فهـو بـلاء النـاس الأكـبر، وهـو شرّ لا بـدّ منـه، لذلـك تـرى النجـاة بخالقهـا فهـو العاطـي وهـي الشّـاكرة لـه، وهـذا مـا يعطيهـا القـوة في مواجهـة المـوت:

لسْتُ أخشى منكَ يا موتُ ولي   خالقٌ يُرجى، وربّ يغفرُ

فإذَا شَـــاءَ إلهـــي كانَ لي   من وجوهِ الموتِ وجـهٌ نيّرٌ[1]

وهـذا الـصّراع النّفـسي الـذي تواجهـه الشّـاعرة بـين الحيـاة والمـوت ليـس وليـد لحظـة، بـل يتكـرر معهـا في أكثـر مـن قصيـدة، فتقـول في قصيـدة أخـرى بعنـوان «حـبّ الحيـاة»:

يا إلهي، أنا أحبُّ الحياةَ   مهما كانت. ولا أحبُّ الشّتاتَ

لا أحبّ الرّقادَ تحتَ تـــرابِ   الأرضِ مسْلوبةَ الحياةِ، رفاتَ

هل هو الموتُ يا إلهي عـــــدوٌّ   أم صديقٌ يُلقي علينا السّباتَ

إنّ الشّـاعرة تعيـش أزمـة نفسـيّة، تبحـث عـن الخـلاص والنجـاة، فهـي لا تـدري إنْ كانـت تحقّـق ذاتهـا في حياتهـا أو في موتهـا، وهـل في المـوت بحـث عـن حيـاة أخـرى، تـرى فيهـا الثبـات والحقيقـة المطلقـة:

لست أدري، والأرض تفتح فاها   لابتلاعي، شـــراهة واقتـــاتا

هل أنا في الحياة حقّـــــقت ذاتي   ومع الموت، هل أحـقّق ذاتـــا

أم هي الرّوحُ وحدَها تـــتوارى   خلفَ هذَا الوجودِ تبغِي انفلاتا

لسْتُ أدري يا سيدي لسْتُ أدري   كيفَ أنّ الحياةَ تأبى الـممـاتَ

هلْ هوَ المـــوتُ رحـــلةٌ يا إلهي   نحـــو كون به الحيـــاةُ ثباتا[2]

1 - المصدر نفسه، ص 133-132.
2 - المصدر نفسه، ص 121.

يسيطر على الشّاعرة الإحساس بهيمنة الموت، فهي تخشاه وتخشى اقترابه، لكنّه قادم والدلائل تشير إلى ذلك، و«تعبّر عن العلاقة بين الحياة الدّنيويّة الممثلة بالأرض، وبين عالم آخر بعيد من الأرض»[1]، والموت هو الفاصل الموصل إلى هذا العالم، وهي تنتظر هذا العالم الجديد لأنّه الموصل إلى الثبات والحقيقة، وكأنّ الشّاعرة هنا تنشد التّرقي والخلاص من الدّنيا لتصل إلى لحظة الالتقاء بخالقها، وفي الوصول هذا السّبيل طرحت الشّاعرة تساؤلاتها المتعدّدة، فهل تحقيق الذات في دنياها أو في موتها، ولماذا ترفض الحياة الموت، وهل الموت صديق أو عدوّ؟ تساؤلات حملت في طياتها التضاد الذي يرسم الأبعاد النفسيّة للشّاعرة.

وإذا برزت ثنائية الحياة والموت عند زهرة الحرّ شاكية للخالق من الموت، فإنّها عند زينب فوّاز ارتبطت بموقفها من الدّهر تشكوه إلى الخالق:

إلى الله أشكو جورَ دهرٍ معاندٍ وقعتُ أسيرًا في يديه فجافاني[2]

إنّ الشّاعرة تعيش غربة روحيّة نفسيّة سببها قساوة الدّهر الذي سبّب لها الألم والشكوى والتّشاؤم، فالإنسان يتأثّر بما حوله من المؤثرات، وتضعف مؤشرات المقاومة لديه وتقوى في مواجهة النكبات والمصائب، وفي مكابدة صروف الزّمان، يبرز لديه الشّكوى من الدهر والزّمان، وقد أكثرت الشّاعرة زينب فوّاز من وضع اللوم على الدّهر، وقادها هذا إلى التّشاؤم:

أمنت إلى هَذا وذاكَ فلمْ أجدْ منَ الخلقِ منْ أرجُوه في عالمِ الحسّ

وأيقنت أنّ لا خلّ في الكون يُرتجى من النّاسِ حتى كدْتُ أرتابُ من نفسي[3]

إنّها تبحث في دنياها عن الأمان والرّضى النّفسيّ فلا تجدة، حتى باتت تشكّ في نفسها، إنّ روحها تنشد الخلاص، لكنّ ذلك لم يمنعها أن تسير في درب الحياة تبحث عنه، إلى أن أيقنت أنّه لن يكون في هذا الكون، ولعلّ هذا ما قادها إلى الشّكوى من الدّهر:

لقد طال جَوْر الدّهر وهو مخادعٌ فيمناه تُبكيني ويُسراه تمسحُ[4]

تواجه الشّاعرة ظلم الدّهر، فباتت لا تأمنه، فهو يقدم لها وجهين متناقضين، يبليها بمصائب تبكيها ثم يقدّم لها وجهًا مرضيًّا أنيسًا يفرحها، فهل ترضى بمن قدم لها المصائب والبلايا؟

1 - درية كمال فرحات، التّمرّد في شعر الشّاعرات البحرينيّات، ص 362.
2 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 208.
3 - المصدر نفسه، ص 178.
4 - المصدر نفسه، ص 160.

استطاعت الشّاعرات العامليّات أن يخضنَ في موضوعات تتعلّق بالذّاتيّة، فتطرّقن إلى قضايا الوجود متعدّدة، ونقلنَ خواطر وتأملات في الحياة والكون والنّفس البشريّة، وصوّرنَ أراءهنّ في القدر. ومن الأبعاد الذّاتيّة ما له علاقة بالوضع الاجتماعيّ، فالشّاعرات يعشن ضمن عائلة لا بدّ من التّأثر بها والتّفاعل معها.

ثانيًا: الاتّجاه الإنساني والاجتماعيّ في شعر العامليّات:

الأدب فنّ وسيلته اللّغة، وهو ناموس اجتماعيّ، يحاكي الحياة التي هي في أغلبها حقيقة اجتماعيّة، وبما أنّ عالم الطّبيعة الخارجيّ والعالم الدّاخليّ الذّاتيّ للفرد هما موضوعًا للمحاكاة الأدبيّة، فالأديب نفسه عضو في المجتمع، له وضعه الاجتماعيّ، وهو يتأثر بهذا المحيط، معبّرًا عن عواطفه وأحاسيسه ومشاعره، والمرأة أحدّ عاطفة من الرّجل، وهي «في عواطفها عملية أكثر من الرجل، وهي أكثر منه حبًّا منه لمشاركة النّاس لها في أفراحها وأتراحها»[1]، والشّاعرة العامليّة من الشّاعرات اللواتي عبّرن عن مشاعرهن وتنوّعت عواطفهنّ، وتعدّدت الموضوعات التي أشارت إليها، ومن أهم الموضوعات الحديث عن الأبناء.

أ- الأسرة في شعر الشّاعرات العامليّات

ها هي الشّاعرة زهرة الحرّ تقول في سيرتها الذّاتيّة « قلت في أولادي قصائد عديدة، نشر بعضها، فهم ثروتي التي لا تضاهيها ثروة، وحلاي التي ما مثلها حلى، وحبّي الذي ما بعده حبّ»[2]، ويتّضح من قولها إنّ الحديث عن الأبناء هو المحبّب لديها، مع ملاحظة أنّها لم تنشر القصائد جميعها وربما يعود ذلك لخصوصية من تكتب لهم، وممّا قالته في ولدها: « **يا قطعة من كبدي / من دمائي من حنايا جسدي/ من بكائي/ وابتهالي ورجائي/ يا بني/ أنت في مجرى حياتي كلّ شيء/ كالهواء الطلق والماء الرطيب/ أنت لي أغلى حبيب...**»[3]، وعلى الرغم من المباشرة والتقريريّة في قولها، لكنّه يحمل أبعادًا عاطفية وإحساس إنسانيّ تكنّه الشّاعرة لابنها فهو يمتلك قلبها وعقلها. وتخاطب الشّاعرة ابنتها وابنها في قصيدة أخرى:

ابنتي. ابني ويا طيبَ ندائِي	يا حياتِي يا خلودي يا بَقائي
يا أزاهيري التي غذّيْتُها	منْ دم القلبِ فغذّت كبريائي
يا ثماري يا جَنى عمري ويا	غرسَ أيامِي وأشْهى عَطائي
يا امتدادي يا تَصاميمَ غدي	يا ترانيمَ صلاتي ودعائي[4]

1 - رجا سمرين، شعر المرأة العربية المعاصرة 1945 – 1970، ص 118.
2 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، ص 28.
3 - المصدر نفسه، ص 28- 29.
4 - المصدر نفسه، ص 29.

تواجهنا الشّاعرة في قصيدتها بمشاعر أمّ صادقة، لهذا فقد تواترت مفردات تحمل عاطفة الأم: طيب – حياتي – خلودي- أزاهيري- دم القلب- غرس أيامي – عطائي- امتدادي- ترانيم.. ويبدو جليًّا من خلال هذه المفردات إحساس الشّاعرة بانتماء ولديها لها، وأنّهما يكملان مسيرتها فهما غرسها الذي سيقدم أجمل الثمار.

وتستمر عاطفة الشّاعرة من أبنائها إلى أحفادها، فهم سلواها وفرحها ومرحها في كبرها، فتكتب قصيدة لحفيدتها أروى:

أحَفيدتي ولأنتَ في خُلـــــدي	أحْلى وأجملَ قصةً تُــروى
جدّدتُ فيكِ طفولتـــــي فأن	أنتِ ومَا تَهوينَه أهـــوى
حاولتُ إضفاءَ الوقـــــارِ على	عبث الطّفولةِ بي بلا جَدوى
وضربتُ صفحًا عن هَوى ولدي	فإذا به يلدُ الذي أهـــوى[1]

ومن الواضح أنّ الشّاعرة تُشير إلى المثل الشّعبي «ما أعز من الولد إلّا ولد الولد»، وتحقّق بأحفادها إحساسها بالحياة، فهذا العمر الذي وصلت إليه يدفعها إلى العودة إلى طفولتها، وهذا ما يؤكّده علم النفس بالنكوص والعودة إلى مراحل سابقة. وإذا كانت تحقّق أنسها ومرحها بالطّفولة، فإنّ الإحساس بالأمومة أمر محبّذ، وهو ما حقّقته الشّاعرة عند اختيارها عام 1975 لتنال جائزة الأم المثالية عن لبنان الجنوبي، ومما قالته في قصيدة بعنوان «الأمومة»:

أنا التي قِيلَ عنها أنّها ملكٌ	وتحتَ أقدامِها : جنّاتُ رضوان
أنا المحبّةُ في أحلى مظاهرها	أنا الأمومةُ. والأوطان ترعـاني[2]

إنّ إحساس الأمومة إحساس تنبض فيه المحبة والحنان والتّضحية، وعاطفة الأمّ نحو ولدها قوية وصادقة، فكيف إذا رثت الأمّ ولدها، تقول الشّاعرة فاطمة رضا في رثاء ابنتها:

يـا دهرُ سيفُك ما أمضاه مـــــن حَدِّ	كفاكَ يا دهرُ ما أبديتَ من حقــدِ
سلبتَ منا شموسًا عندما بـــزغَتْ	ولم تُراعِ حنانَ الأم للولـــد
لـميسُ يا مُنيتي لـبِّيتِ مســرعةً	داعي النوى لجوار [الأبِّ] في اللحد
لهفي على قدِّكِ الـمياسِ، وا أسفــي	على العيون التي صِيدتْ ولم تَصد
أبكيكِ من مهجةٍ ذابتْ علـــيك أسًى	أبكي الصِّبا والبَها والحسْنَ للأبــد
لم ترحمي قلبَ أمٍّ أنت زهرتُهـا	أو عطَفْ أختٍ تنادي الأختَ لم تعــد
عودي إلى الأهل يا ورقاءَ بهجتِنـــا	فالأنسُ بعدَكِ لن يصفو على أحــد
غابتْ عن العين طيرًا ساقطًا أبــدًا	على الخُزامى وجفَّتْ دمعةُ البلــد[3]

1 - المصدر نفسه، ص 30.
2 - المصدر نفسه، ص 45.
3 - فاطمة رضا، مواويل طائر الخزامى.

وقد عنونت الشّاعرة قصيدتها بعنوان «طائر الخزامى»، والعنوان من أهم النصوص الموازية للنص إذ أنه أوّل ما يصافح بصر وسمع المتلقي، وهو المفتاح الذي ستُفتح به مغاليق النص، العنوان مفتاح أساسي يتسلّح به المحلّل للولوج إلى أغوار النصّ العميقة قصد استنطاقها وتأويلها[1]، وقد اهتمت الدراسات السيميائية بما يحيط بالنص/ الهوامش أي بمجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواش وهوامش وعناوين رئيسة وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات وخاتمة وغيرها من بيانات النشر المعروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظاما إشاريًا ومعرفيًّا لا يقل أهمية عن المتن الذي يحيط به، بل إنّه يؤدّي دورًا مهمًّا في نوعية القراءة وتوجيهها[2]. فجعلت الشّاعرة ابنتها طائرًا، له من الانطلاق والحرية الدائمة، وكأنّ ابنتها أصبحت طليقة الآن من هذه الحياة وقيودها، وأضافت الطائر إلى الخزامى، وهو نبات ذو رائحة جميلة، ينشر عبقه في كل مكان، ونقلت لنا الشّاعرة إحساسها بفقد ابنتها، فلا أنس من بعدها والقلب يشتاق لها.

وإذا رثت الشّاعرة فاطمة رضا ابنتها بقصيدة أسمتها طائر الخزامى، فإنّها رثت أخاها بقصيدة حملت عنوان الطائر المنطفئ، تقول فيها:

أبكي الذي للعين كان سوادَها ... أبكيه وهْو طليقُها وأسيرها

أبكي العُلا، أبكي العَليَّ محمّدًا ... نجلُ الرِّضا زينُ الشباب أميرُها

يا طائرًا في الريح أطفأَه الظَّما ... عَبْرَ النجومِ وقد تلاشى نورها[3]

ومن الملاحظ تركيز الشّاعرة على تعبير الطائر في رثائها، وكأنّها تشير إلى انطلاقة الروح بعد الوفاة، والتحليق في الأعالي، وقد تواترت في القصيدة كلمات تشير إلى هذا الارتفاع للدّلالة على مكانة أخيها: العلا- النجوم- طليق، وفي الأبيات الأخرى جاءت على ذكر السماء- الأفق- الغمائم..، إنّه رثاء من نال المجد من أطرافه فبكاه كلّ من عرفه.

ونرى الشّاعرة زينب فوّاز تكثر من الحديث عن ابنها محمد بك السهيل وهو في المكتب السلطاني في بيروت، وتعوّدت أن تصدّر رسائلها له بأبيات من الشّعر ومما قالته:

بني رعاك الله قلبي في لظى ... غلت لم تسكن حرّها أدمع سُجْمُ

وأصبو لريح هبّ من نحو أرضكم ... وأرصد نجمًا فوق مصركم يسمو[4]

1 - عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، أفريقيا الشرق 2000، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص 23.

2 - محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص 72.

3 - فاطمة رضا، مواويل طائر الخزامى. ص 15.

4 - محسن الأمين العاملي، حسن الأمين العاملي، روائع الشّعر العاملي (نفحة الأقلام في شعراء أمراء الكلام شعراء جبل عامل)، تحقيق محسن عقيل، بيروت، دار المحجة البيضاء ودار الرسول الأكرم«ص»، ط 1، 2004، ج 1، ص 563.

وتظهر جليًّا عاطفة الشّاعرة المحبّة لابنها، وشوقها الدائم له، فدموعها تسيل فوق خديها من شدة الشّوق، ولا تترك مناسبة إلّا وتعبّر له عن عاطفتها الجياشة، فها هو يتوجّه إلى مدرسة حمص فتخاطبه قائلة:

لأنْتَ مني نفسي منَ النّاسِ كلّها | وقرّة عيني بل ضِياها ونُورها
فيا غائبًا عني وفي القلْبِ شخْصه | ترفقْ بأحشاءِ نواك يُضيرُها
ولي مهجةٌ لا تحملُ البعدَ والنوى | لكَ الله هل من مهجةٍ أستعيرُها[1]

مشاعر أمّ ثكلى تدرك رحيل ابنها، فتعاني مرارة غياب قرّة عينها، وتدعو الله أن يحميه، فقلبها لا يتحمّل البعاد والنوى، هي مشاعر كلّ أمّ يرحل عنها ابنها طوعًا أو مجبرًا، مشاعرة الأم الحنونة العطوفة، التي ترى في تربية ابنها صلاحًا للمجتمع.

ب- القيم الاجتماعيّة والإنسانيّة في شعر الشّاعرات العامليّات

دعت الشّاعرات العامليّات إلى الالتزام بقيم المجتمع، فهنّ يعشنَ في مجتمع محافظ، فلم تحاولنَ التّمرد على هذا المجتمع والخروج عن تقاليده وعاداته، فتوجه فاطمة رضا كلامها إلى المرأة داعية المجتمع إلى الاهتمام بها وإنقاذها:

أنقذوها من دياجي جهلِها | لتُعيدوا في الورى مجدًا خلا
هي نصفُ الناس، إمَّا جهلَتْ | كان نصفُ الناس حتمًا جُهَّلا[2]

دعوة إصلاحيّة مهمة تدعو إلى الاهتمام بالمرأة، لأنّ في صلاح المرأة صلاحًا للمجتمع، فهي التي تبنيه وتعلي من شأنه، وإذا وجّهت دعوتها إلى المجتمع، فإنّها تختم قصيدتها بمخاطبة المرأة نفسها:

يا ابنةَ العُرْب انهضي في همَّةٍ | وتحرَّي للمعالي سُبُلا
واجعلي التهذيبَ نبراسًا لما | تبتغيه كي تنالي الأملا
راجعي التاريخَ فيما قد مضى | فنِساءُ الأمس كُنَّ المثلا[3]

فنلمح في الأبيات دعوة صريحة للفتاة العربيّة لأن تحافظ على القيم القديمة وأن تمتثل بنساء الأمس، لأنّهن القدوة والصورة الحسنة، وتدعوها إلى طلب العلا.

1 - المرجع نفسه، ص 564.
2 - فاطمة رضا، مواويل طائر الخزامى. ص 20.
3 - المصدر نفسه.

وإذا تطرقت الشّاعرة فاطمة رضا إلى هذه الدعوة الإصلاحيّة، فإنّ زينب فوّاز كانت رائدة في دعوتها الإصلاحيّة، فقد دعت إلى تربية البنات قائلة « المجتمع الصالح بنسائه الصّالحات، ولا يصلح طفل إذا شبّ في حضن امرأة جاهلة ولا تتغير أخلاقه ما صار فيه طبعًا غزيزيًّا، فالطفل الذي أحسنت أمّه تربيته كمثل البناء الذي يرفع على أساس مبني، فالبنساء الصّالحات تعمر الدور والممالك ومن بين أيديهن تخرج الرجال»[1]، وهذه الدّعوة دفعت الشّاعرة فوّاز إلى وضع كتابها «كتاب الدّر المنثور»، الذي ترجمت فيه لقرابة خمسمائة امرأة من جميع الملل والعصور، منذ بلقيس وحتى عصر وفاة المؤلفة، الكتاب طبع عام 1312 هـ وعلى أهميته لم تجدد طبعته منذ أكثر من قرن، لكنّها لم تتحدّث عن نفسها، وتجدرالإشارة إلى أنّ من يسال عن نتاج الأديبة زينب فوّاز يصيبه الإحباط والتّعب، فمعظم نتاجها مفقود وغائب عن المكتبات ودرو النشر، وبهذا تكون فوّاز قد قصّرت في حقّ نفسها وحرمت الباحثين من المصدر الأصيل للتّعرّف إليها، وكما يبدو فإنّ الباحثين أيضًا قد أهملوا هذه الكاتبة الرّائدة وتأخر نتاجها في أن يكون بين أيدي القرّاء[2]. ويبرز اهتمام الشّاعرة بالإصلاح من خلال حرصها على من يساهم في إصلاح الأمة والمرأة، فتمدح مجلّة «الفتاة» التي نشر مقالاتها الإصلاحية، ومما قالته:

عزُّ الفتاةِ يزيّن أربابَ الأدبْ وبها ازدهى الجنس اللطيف كما أحب

لله درُّ فتاتنا وفنونـــــها فلقدْ حوتْ من كلّ معنى مُنتخب

فليَهنأْ الجنسُ اللطيف بنشأةٍ ما كان يبلغها الزمانُ ولو طلب[3]

فالشّاعرة تقرظ مجلة الفتاة رابطةً بينها وبين دورها في خدمة الفتيات، وما تقوم به من دور إصلاحي، فتنوّع موضوعاتها يخدم الجنس اللطيف الذي يزدهي بها.

ومن الموضوعات التي تطرّقت لها الشّاعرة زينب فوّاز ما يتعلّق بالعلاقات الإنسانيّة، ومنها ما له علاقة بالجيران مع بعضهم البعض، فنراها تولي هذا الجانب أهميته:

يا مرحبًا بقدومِ جيرانِ النقا كملَ السّرورُ بهم وطابَ الملتقى

أنست بقربهم المنازلُ واغتدى وجهُ الزّمانِ بهم منيرًا مشرقا

يا جيرةً صفتِ الحيــاةُ بقربهم وغَدا بهم روضُ المســرَّةِ مونقا[4]

1 - زينب فوّاز، الرسائل الزينبية، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص 78.
2 - زينب فوّاز، حسن العواقب، الهوى والوفاء، تحقيق وتقديم فوزية فوّاز، بيروت، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، 1984، المقدمة ص 12.
3 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 154.
4 - المصدر نفسه، ص 184.

ترى الشّاعرة الأنس والسرور والإشراق والصفاء بجيرانها، ولعلّها بذلك تؤكد ما يرد في المثل الشّعبيّ « الجار قبل الدّار»، وفي طيّات مدحها لجيرانها واعتزازها بهم دعوة صريحة لهذا العلاقات الإنسانيّة الضّروريّة السّاعية إلى التآخي والتلازم بين أفراد المجتمع، فمتى تكاتف الجميع معًا صلُح حال المجتمع. وتستمرّ دعوتها هذه من خلال تأكيد العلاقات الإيجابيّة بين الرفاق، فهي لا تنساهم مهما بعدوا عنها، بل إنّ الشّوق يقودها إلى تذكّرهم فهم في بالها حتى لو زهقت روحها:

لو كنتَ تبصر حالتي — أغنتك عن وصفِ اشتياقي
ركض الليالي إنّها — قدْ أبعَدتني عنْ رفاقي
ما كنتُ أنساكم ولو — بلغت بي الرّوحُ التراقي[1]

وهذه الصورة الإيجابية في العلاقات الإنسانيّة لا تمنع الشّاعرة من التّعبير عن بعض المواقف المعيبة في المسلك الأخلاقي عند بعض البشر:

أنستُ إلى هَذا وذاكَ فلم أجدْ — من الخلقِ من أرْجوه في عالمِ الحسّ
وما رمتُ من أبناء ودهر معاندٍ — أخا ثقة إلّا استحال على العكس
فأصبحت في ريب فيمن شطّ أو دنا — ولو كانَ في المريخِ أو جبهةِ الشّمس
وأيقنتُ أنّ لا خلّ في الكون يُرتجى — من النّاس حتى كدتُ أرتابُ من نفسي[2]

ولا نقول إنّ الشّاعرة قد وقعت في تناقض مع نفسها في مواقفها من المجتمع، لكنّها التّجربة الإنسانيّة التي تكون قد مرّت بها تدفعها إلى هذا التباين في مواقفها، فموقفها التشاؤمي من البشر ما هو إلّا نتيجة إحساسها المرهف الذي جعلها ترتاب بالنّاس وحتّى بنفسها. وفي الحالين، الشّاعرة توجّه رسالة سامية إلى أفراد المجتمع في ضرورة التآخي وسلوك الأخلاقيات السليمة.

وتنصح الشّاعرة علية القبيسي أبناء المجتمع بالانتباه من بعض الآفات التي تسيء إلى الفرد، فتقول في قصيدة بعنوان «الحياة»، ما يمكن أن يكون دعوة إلى أفراد المجتمع وإلى كلّ حسود ولئيم:

وليس مِنْ جاهلٍ طالت أنامله — كواكبَ العزِّ إن العزّ للهمم
يا طالبَ المجد لا تطلبْه في وهنٍ — بل بالعوالي وبالهنديّة الخذم
طهِّرْ لسانك من خبثٍ ومن كذبٍ — ولا تكن غيرَ عفّ الطرف والكَلِم

1 - المصدر نفسه، ص 186.
2 - المصدر نفسه، ص 178-177.

طهِّرْ فؤادك من حقدٍ ومن حَسَدٍ   وكنْ صدوقًا بلا مينٍ ولا لؤم
فما حياتك إن طالت وإن قصرتْ   سوى شقاءٍ وإن وُشِّيتَ بالنعم
إنّ الحياةَ بلا علمٍ ولا عملٍ   حياةُ سائمةٍ في السّهل والأكم[1]

ففي هذه الأبيات تأكيد أهمية العمل الذي من خلاله يصل الإنسان إلى المجد والعلا، فلا حياة بلا عمل، ومن يطلب المجد عليه أن يسعى ويجتهد، فمن «جدّ وجد»، وللوصول إلى المجد على الإنسان أن يتطهّر من الصفات الذمية كالحقد والحسد والكذب، وكأنّها ترى ما قاله المتنبي: «وإذا كانت النفوس كبارًا / تعبت في مرادها الأجسام»، فعلى الإنسان أن يشقى ويتعب للحصول على مبتغاه وعدم الاستسلام للكسل.

أمّا زهرة الحرّ فتثير قضايا اجتماعيّة مهمّة ترتبط بقضية إنسانيّة عانت منها المجتمعات لأسباب عديدة، منها الفقر أو الحروب أو الإقطاع أو الاستعمار، فتحدثت عن الجوع الذي لا يعرف الرّأفة والرحمة:

أيّها الجوعُ كمْ نَهشتَ قُلوبًا   وضُلوعًا وأنفسًا وضمائرْ
أيُّها الجوعُ كمْ هدمتَ عُروشًا   ورقابًا على سنان المجازرْ
أيَّ أرض حللتَ فيها ولم تكُ   ميدانًا لثورةٍ .. ولثائرْ
إنّ جوعَ النُّفوسِ أكثر عنفًا   واحتدامًا منْ كلّ جُوعٍ مغامرْ[2]

إنّ الجوع آفة خطيرة تتعرّض لها الشّعوب، ويترك أثرًا كبيرًا، إلّا أنّ الأثر الأهم هو قدرة هذا الجوع على خلق الثورة والثوار، فالإنسان بعد إحساسه بالجوع لن يخشى شيئًا، ولن يخسر الثمين والغالي، لأنّه فقد كلّ شيء، ومن هنا فهو مشروع ثائر يغيّر ما حوله، وتشير زهرة الحرّ إلى جوع النفوس الذي لا يمكن إيقافه، فيكون نتيجته وخيمة:

يترُكُ الجوعُ بأمعا   ئي شهيقًا وزفير
وبقلبي ولساني   زمجراتٌ وزئيرْ[3]

1 - مجلة العرفان، مجلد 206/1 – 1939.
2 - زهرة الحر، قصائد منسية، بيروت، دار غندور لطّباعة والنّشر، ط 1، 1970، ص 79.
3 - المصدر نفسه، ص 75.

يتحوّل الجائع إلى أسد يزمجر ويزأر، ويسعى طالبًا حقّه. ومن الطّبيعيّ أنّ قضية الجوع ترتبط بالفقر، فالفقر مسبّب من مسبّبات الجوع، وهو «الموت الأكبر»[1]، وهذا ما أثار الشّاعرة زهرة الحرّ، عندما رأت الظالم/ الغني يستأثر بالثروات وحرمان الفقير منها:

أنت يا ظالم تستأ ثرُ　　بالرزق الوفير
تجمعُ المالَ على الما لِ　　احْتكارًا وغرورْ
وطماعًا سَدَّ منكَ السّـ　　معَ عنْ صوتِ الضميرْ[2]

إنّها ترسم خطوط المواجهة بين الظّالم/ والمستضعف، وقد يكون هذا الظّالم إقطاعيًّا سيطر على المجتمع فحرم الفقير من حقّه، بل قد يكون هذا المال هو من قوت الفقراء، فما «جاع فقير إلّا بما متّع به غنيّ»[3]. قضايا اجتماعيّة عديدة أثارتها الشّاعرات، وعبّرنَ من خلالها عن قيم اجتماعيّة وإنسانيّة، وترتبط هذه القيم بانتماء الشّاعرات إلى وطنهنّ.

ثالثًا: الاتّجاه الوطني والقومي في شعر العامليّات:

الوطنيّة نزعة اجتماعيّة تربط الفرد البشري بالجماعات، وتظهر هذه النّزعة في أوقات الحروب والأزمات، حيث تفرض الظّروف التّآزر والتّجمع. فالوطنيّة «تعني حبّ الوطن وهي ... عاطفة إنسانيّة تربط الفرد بالوطن»[4]. وهي إثبات الوجود في وطن يتحلّى بالإنسانيّة، و حبّ المرء لوطنه يُراد به الوطن الصغير، وقد يتّسع هذا الحبّ ليشمل الوطن الأكبر فيُسمّي الإنسان بلدته وطنًا صغيرًا، وبلده وطنًا، وبلاد أمّته وطنًا كبيرًا، وهنا تظهر العاطفة القوميّة، فأين الشّاعرات العامليّات من العاطفة الوطنية والقوميّة؟

ذكرت الشّاعرات العامليّات لبنان في شعرهنّ، فتحدّثنَ عن بعض المناطق فيه، وخصوصًا ما يرتبط بقراهنّ، فهذه زينب فوّاز تتحدّث عن قلعة تبنين التي أفنت الأجيال ولم يؤثر على أسوارها الدهر:

يا أيّها الصّرح أنّ الدّمع منهمل　　فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا
قدْ كنتُ للدهرِ نورًا يستضاءُ به　　أخنى عليك البلى يا أيّها الطّللُ
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني　　إنّ الدّموعَ على الأوطانِ تنهملُ
تبنين إن كنتِ في بعدي على حزنٍ　　فاليوم يوم رجوعي القلب يشتعلُ
وقفتُ وقفة مشتاقٍ به شغفٌ　　علّي أرى أثرًا يُحْيَ به الأملُ[5]

1 - عليّ بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، بيروت، دار الأندلس، ط 2، 1963، ص 598.
2 - زهرة الحر، قصائد منسية، 76.
3 -عليّ بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 632.
4- إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعيّة، لا م، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، لا ط، 1975، ص 643.
5- زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 30-29.

قصيدة بأبياتها الطويلة تتحدّث فيها عن عظمة قلعة تبنين أمام الأهوال والمصائب، وفيها أيضًا تتحدّث الشّاعرة عن حنينها إلى تبنين وقلعتها، بعد أن تركتها وهاجرت إلى مصر، فهذه الدموع تنهمر منها اشتياقًا وحبًّا وحنينًا، وتبدو الشّاعرة في وقفتها هذه كالشّعراء العرب القدامى الذين وقفوا على الأطلال فأثارت أشجانهم، وهذا الشجن يدفعها إلى العودة وقلبها يشتعل شوقًا، ويبدو من قول الشّاعرة « أنّها كانت تهمّ بالعودة إلى موطنها الأول، وكأنّما نفسها كانت تحدّثها بدنو أجلها. فقد ألمّ بها المرض وتوفيت في التاسع عشر من كانون الثاني عام 1914»[1].

وتتحدّث علية القبيسي عن بيروت، مادحة هذه المدينة العظيمة بحضارتها، وبصروح العلم فيها، فهي مدينة تتمتع بسمات تجعلها تزدان باللطف:

تَخِذْتُ بيروت دارًا حيث قد كملت	فيها الحضارة بل فاقت على الأمم
فيها المعارفُ قد عمّت معاهدها	تزدان باللطف والأخلاق والكرم
بيروتُ دومي مدى الأيام سالمةً	من التعاسة والبأساء والسأم[2]

وتدعو لبيروت بالأمان والسلام، وأن يحفظها الله من كل شرور، وهذا الفخر يدفعها إلى أن تعيش في بيروت لأنّها بلاد المعرفة والحضارة. وتتشارك قبيسي مع بلقيس في نظرة التمجيد للبنان وتعظيمه، فتقول أبو خدود» تِلْكَ الحَضَارَاتُ الَّتي سَطَعَتْ/ لَوْلَا شُعَاعُ العَقْلِ لَمْ تَقُمِ/ الإِنْسَانَ في كُتُبٍ.../ تَبْقَى، وَيَفْنَى النَّاسُ في العَدَمِ»، فهي ترى لبنان بلد العظمة والمجد والمعرفة وتتحدث عن عظمة كتّاب لبنان. وقد يمتدّ فخرها بوطنها من خلال الحديث عن جيش بلادها، فتقول: «فِي الوَغَى، يَوْمَ الرَّدَى،/ مَنْ يُسَاوِينَا مَضَاءْ/ وَمْضَةٌ مِنْ سَيْفِنَا،/ تَجْعَلُ البَاغِي هَبَاءْ» ، أو تقول باعتزاز في نشيد الدفاع المدني: « عَزْمُنَا فِي الخَطْبِ حَاضِرْ،/ كُلُّنَا نَهْوَى المَخَاطِرْ.../ نَبْذُلُ الأَرْوَاحَ طَوْعًا.../ فَالفِدَا رَمْزٌ وَخَاطِرْ/ لَا نُبَالِي بِالرَّزَايَا،/ نَحْنُ أَبْطَالٌ تُغَامِر»[3]، معان سامية تشير إلى فخر الشّاعرات بوطنهنّ، والإحساس بأنّ التّضحية واجبة نحو هذا الوطن. هذا الشّعور الوطني يساهم في التماهي مع هذا الوطن، والإحساس بما يتعرّض له هذا الوطن عند الشّدائد، فتذكر علية القبيسي في قصيدة بعنوان « أزمة شاملة» ما عاناه لبنان من حروب وأزمات:

أزمةٌ حلّت بلبنانَ فما	شاهدت أمثالها قطُّ العصور
زمنٌ ريعت به أُسد الشرى	زمنٌ بان به عنا الحبور
مشرقُ الأرض إلى مغربها	وشمالٌ وجنوبٌ في شرور
وقتالٌ وحروبٌ جمّة	واغتيالٌ واعتداءٌ وفجور[4]

1- فوزية فوّاز، وجوه ثقافيّة من الجنوب، تقديم بقلم حبيب صادق، بيروت، المجلس الثّقافي للبنان الجنوبي، 1984، ص 14.
2 - مجلة العرفان، مجلد 206/1 – 1939.
3 - بلقيس أبو خدود، دموع تغني ، 1997.
4 - مجلة العرفان، مجلد 61/2 – 1972.

والأديب إنسان موهوب يملك قدرة على التّعبير عن أحاسيسه الدّاخليّة بصورة دقيقة، وهو قادر على التّعبير عن هذا الإيمان والشّعور الدّاخلي، وعن روح الأمّة والانتماء الوطنيّ. لهذا امتزج الإحساس بالوطن مع الوطن الأكبر فبات الحديث عن الأحداث التاريخيّة في بلاد العرب أمرًا طبيعيًّا عند الشّاعرات العامليّات، فالانتماء الوطني يقود إلى الانتماء القومي، وهذا ما يدفع زهرة الحر إلى مدح جمال عبد الناصر وتهنئته بالوحدة العربيّة، فتقول:

هنيئًا بالوحدة العربيّة   واسعدينا في عزّة قوميّة
ودعينا نشقّ في عالم المجد   طريق الحياة والحرية
وحدة العرب يقظة وانطلاق   وحياة وقوة معنويّة
قم نحيي الركب العظيم ونشدو   بنشيد الإباء والوطنية[1]

هو شعور عام سيطر على أبناء الوطن العربيّ، فوحّدهم تحت راية واحدة وشعور قومي عام، يدفع ابنة لبنان إلى المشاركة بفرحة الوحدة بين مصر وسوريا، والإحساس بالإباء والوطنيّة. وهذا الشعور العام يدفع علية القبيسي إلى التعبير عن الجزائر، هذا البلد الذي عانى من الاستعمار الفرنسي، ولعل ما يجمعها بأبناء الجزائر إضافة إلى البعد القومي هو الإحساس بمعاناة الشّعوب من الاستعمار، فنراها تخاطب الفتاة الجزائريّة تحثّها على تأجيج الثورة:

أجّجي الثّورة أختي في الجزائر   أضرمي النيران وأهدي كلّ ثائر
أنت للهدى منار ساطع   أنت وحيٌّ أنت ينبوع البشائر
يا فرنسا يا ابنة البغي اسلكي   ذلك الأسلوب أسلوب المجازر
لن تري الأبطال مستسلمة   لا ولن تمتلكي أرض الجزائر
وطن العرب غدا مستيقظًا   يبعث الصّرخة تدوي في الحناجر
وحدة حريّة يا موطني نبتغي   الثّار ولا نخشى المصائر[2]

وإذا تتبعنا مفردات القصيدة بأكملها وجدنا أنه تغلب عليها عبارات تحمل في بعدها المعجمي معنى الثورة والنضال: أججّ/ الثورة/ أضرمي/ ساح الوغى/ الذخائر/ احرسي/ الرشاش/ الأعداء/ ابنة البغي/ المجازر/ الأبطال/ نناضل/ نكافح/ حرية/ سفك دم، وغيرها من الألفاظ. إنّ ذلك يؤكّد انتماء الشّاعرة إلى البطولة والفخر بأمّة ترفض الخنوع وستظلّ تناضل وتحارب.

1 - زهرة الحرّ، جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة، ص 32-31.
2 - مجلة العرفان، مج 45، 1957، ص 643.

ولا تتوقّف صرخة الشّاعرة علية القبيسي عند الجزائر، فنراها في قصيدة «قد كفانا يا بني الشّرق» تنادي الشّرق عموما، مخاطبة إياه رافضة خنوعه وذلّه، فهو كان مهد الحضارة ومجدها:

رقدةُ الشّعبِ عنِ السعي التي — أوقدتْ في القلبِ نارَ الشجن

ورجوعُ الشّرقِ عن إقدامه — قدْ نفى عني لذيذ الوسن

أشرقتْ شمسُ المعالي أسرعوا — قد كفانا يا بني الشّرقِ سبات

أين علْم الشّرقِ أين مجدُه — أو ما كانَ مكان العظما

لم يزلْ يَا قومي ينعى آله — وينادي أينَ بَاد العلما

يا بني قومي أغيثوا شرقَكم — من سعى للمجد نال الأنجما

ثمّ ضاهوا الغربَ في إقدامه — إنّ روض العلم قومي قد نما[1]

فالقضية عندها تمتدّ للحديثَ عن قضية الشّرق والغرب، فبعد أن كانت حضارة العرب هي الزاهرة والمشعة والساطعة، خبت هذه الحضارة، لتعلو حضارة الغرب التي بتنا نقلّدها، وحكاية الشّرق والرب قضية مهمة أثيرت في بداية إحياء عصر النهضة، أفاض فيها الكثير من الشّعراء والكتاب، وهذا ما ذكرته الشّاعرة زينب فوّاز، فنراها تعلي من الشرق في مواجهة الغرب، فللشرق فضل على العالم، لأنّه يأتي بالجديد الحسن، أمّا الغرب فما يأتي عنه إلا الظلم:

للشّرق فضلٌ في البرية أنّه يأتي — الوجود بكلّ حسن معجب

والغرب أظلم ما يكون لأنّنا — نشقى بفرقة شمسنا في المغرب[2]

وفي موضع آخر تخاطب زينب فوّاز الشّرق بقصيدة طويلة بعنوان «رجال الشّرق»، وفيها تبرز مجد هذا الشّرق وعظمته، وتدعوه إلى النهوض من جديد:

لولا احتمال عنا وبذل دماء — لم يزه نائل نية العلياءِ

إنْ لمْ نزيّن سيرةً مروية — فلنخفف شين الوجهة الحسناءِ

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى — إلا بسفكِ دم على الأرجاءِ

هذا مقالُ الأقدمين ولمْ نجد — بدًّا لنا من شرٍعةِ القدماءِ

وتختم الشّاعر قصيدتها بقولها:

نروي عن الماضين ما فعلوا فما — يروي يروي بنو الآتي عن الآباء[3]

قصيدة تنشد فيها الشّاعرة تحفيز هذا الشّرق إلى العودة إلى مجده، وإحياء عزّه، وتؤكد أنّ هذا الشّرق لا بد من يقظة له، خصوصًا أنّ هناك أجيالًا قادمة ستحاسبنا على أفعالنا،

---

1 - مجلة العرفانن مج 25، 1934، ص 812.
2 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 155.
3 - المصدر نفسه، ص 144 إلى 146.

وتدعو إلى العودة إلى العلم والحكمة والعقل. لم تقف الشّاعرات العامليّات أمام القضايا الوطنية والقومية متحيرات، بل أسهمن في نقل واقعهن، ساعيات إلى تمجيد اللحظات المنسرة المشرقة، داعيات إلى العودة إلى الماضي الجميل المشرق.

المرء في جوهر الدّنيا حكى عرضًا 　 يزولُ عنها وتبقى عنه دنياه

والعيشُ في كرةِ الغبراءِ مشغلةٌ 　 بينَ الحوداثِ العقبى قصاراه[1]

---

1 - زينب فوّاز، ديوان زينب فوّاز، ص 112.

الخاتمة:

شكّلت صفحات هذه الدّراسة مادة رحلتنا في شعر الشّاعرات العامليّات، مستنبطين الخصائص العامة لاتّجاهات الشّعر لديهنّ، واعتمدت الدّراسة على تحليل نماذج من شعرهنّ، مقارنين بين الشّاعرات، رابطين ذلك بالمجتمع الذي عشن فيه.

أوّلًا اشتركت الشّاعرات باتجاهات الشّعر وبموضوعاته، لكن برز التفاوت باهتمامهن بالموضوع نفسه. ومن الملاحظ أنّ الشاعرات العامليّات لم يقصرنَ شعرهنّ على الرّثاء، ولم يكن هو المجال الوحيد الذي كتبن فيه، بل أبدع يراعهن بموضوعات متعدّدة.

ثانيًا: وقد اقتصرت الدّراسة على أربع شاعرات، تمّ اختيارهن بحقب زمانيّة مختلفة، وبمواضع جغرافيّة متعدّدة من جبل عامل، وتميّزن بالدور اللافت الذي قمن به. لكن الشّاعرات في جبل عامل لا يقتصر على هذا العدد.

ثالثًا: نتاج العامليّات تعدّد بين الشّعر والقصة والمسرح، وعلى الرّغم من ذلك فقد لوحظ اهمال نتاج الأديبات العامليّات ففقد الكثير منه ومن المهم اعادة النظر في تحقيق هذه الكتب.

خامسًا: غلب طابع الحزن والشّكوى على شعر الحبّ عند الشّاعرات، ولم يبرز وصف العلاقة الحسيّة والعلاقة الجسديّة بين الحبيبين، وربما يعود ذلك إلى طبيعة البيئة المحافظة للمجتمع في ذلك الوقت.

سادسًا: حرصت الشّاعرات على الحفاظ على المفاهيم الدّينيّة، وسارت وفق ماتعلّمته واقتنعت به.

سابعًا: برز الاهتمام بقضايا الوجود والمصير، وإن لم تتّجه فيه الشّاعرات اتّجاهًا تأمليًّا حاد التفكير، وحافظن على ما ورثنه من ثقافتهنّ الدينيّة.

ثامنًا: اهتمت الشّاعرات بقضايا المجتمع فاهتمينَ بقيمه وبما يعانية من مشاكل اجتماعيّة.

تاسعًا: كان الاهتمام جليًّا بالقضايا الوطنيّة والقوميّة، فالمجتمع العربي في ذلك الوقت كان يهتمّ بما يصيب الأقطار الأخرى، لهذا برز تفاعل الشّاعرات مع أي دعوة توحيديّة بين أقطار الوطن العربيّ.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الدراسة اقتصرت على دراسة المضمون في شعر الشّاعرات، ولم يتمّ التطرّق إلى الشّكل، وإن برز اهتمام الشّاعرات بالشّعر العمودي، وأكثرت من ذلك، واتّجهن قليلًا إلى الشّعر المثور، وأبرز ما ظهر عند «بلقيس أبو خدود»، وطبعا هذا يدفع

إلى دراسة الإيقاع ولأسلوب الفنيّ عند الشّاعرات العامليّات.

إلى هذا انتهت الدّراسة، فأرجو أن أكون قد أضفت ما ينتفع به الآخرون، وحسبي التّطلّع إلى الأفضل، وأن أكون قد جانبت الصّواب، غير مدعيّة أنّه خالٍ من الشّوائب والنّواقص، وما ذلك إلاّ لأنّنا بشر نخطئ في أعمالنا ونصيب، والكمال لله وحدَه، وما توفيقي إلاّ بالله.

ثبت ببليغرافي بأسماء الشّاعرات والتّعريف بهنّ:

أبو خدود، بلقيس:

بلقيس محمد أبو خدود صيداوي هي كاتبة وشاعرة لبنانية، وُلدت عام 1935 في مدينة النبطية في لبنان، اسمها هوَ بلقيس أبو خدود ولكن صيداوي جاءتها من نسبة زوجها يوسف صيداوي.

دَرست بلقيس في مدارس النبطية، كما درست في المدرسة الإنجيليّة الأمريكيّة في بيروت، ودرست في المدرسة الأهليّة ببيروت، ثم حصلت على إجازة في الأدب العربي، وعاشت بلقيس في مدينة فريتاون في سيراليون سنوات عديدة، وبعد ذلك عادت إلى لبنان. لها عدد من الدواوين الشعرية، ومِنها: همسات من سبأ، وَدموع تغني، وَبقاء وزوال، وَلها مسرحية شعرية بعنوان (ري مي في الغاب)، كما لها مجموعة قصصية بعنوان «الرسالة الأخيرة»، ولها بحث علمي بعنوان «ماري خوري".

شاركت بلقيس في العديد من المهرجانات الشعرية في لبنان، ووضعت النشيد الرسمي للدفاع المدني اللبناني، كما قدمت نماذج من أشعارها في الإذاعة والتلفاز اللبنانيين، ونُشرت قصائدها ومقالاتها في الصحف اللبنانية، وكَتب عنها العديد من الشعراء والأدباء.

الحر، زهرة جواد:

ولدت زهرة الحر في مدينة صور عام 1917. هي شاعرة جبل عامل، طبيبة ومربيّة وأديبة، نظمت الشعر وهي لا تتجاوز الثالثة عشر من عمرها، تابعت دراستها حتى نالت شهادة في التمريض النسائي، من المعهد الطبي الفرنسي في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، وهي أول معلمة تم تعيينها في صور عام 1932، وإلى جانب تدريسها للبنات عملت في مجال التوليد وتمريض النساء حتى بلغت سن السبعين.

كانت من رواد تحرير المرأة في الجنوب اللبناني، كما كانت من الأعضاء المؤسسين في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي عام 1964، حصلت على وسام العمل الفضي 1971 من المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، وانتخبت في العام 1975 « الأم المثالية » عن جنوب لبنان .

من مؤلّفاتها: قصائد منسية (ديوان)/ رياح الخريف (ديوان) / الله جلّ جلاله (ديوان وسيرة ذاتية)/ بالإضافة إلى العديد من القصائد المنشورة في مجلة العرفان وغيرها.

رضا، فاطمة:

فاطمة بنت أحمد رضا، ولدت في مدينة النبطية (جنوبي لبنان)، وفيها توفيت. عاشت في لبنان والأردن.تلقت مبادئ القراءة والكتابة والقرآن الكريم على والدها، ثم في بعض كتاتيب مدينتها، بعدها التحقت بمدرسة حبيبة مروة الابتدائية للبنات. عاشت حياتها ربة منزل تقوم على أمر أسرتها. أسست جمعية التضامن النسائي في الأردن، وكان لها نشاط «شعري» ملحوظ في التجمعات النسائية. لها ديوان: «مواويل طائر الخزامى» فضلًا عن قصائد نشرت في مجلة الأحد.

فوّاز، زينب:

ولدت في بلدة تبنين في جبل عامل 1844م، ونشأت في أسرة فقيرة. كانت تبنين حينها مقر إمارة آل علي الصغير، وكان الحاكم يومها علي بك الأسعد، فتقربت الأديبة زينب فوّاز من نساء آل الأسعد وقضت شطرًا من صباها في قلعة تبنين ملازمة لهنّ، لا سيما السيّدة فاطمة زوجة علي بك الأسعد التي كانت على دراية حسنة بعلوم الأدب، واستفادت منها، وتعلمت منها القراءة والكتابة. ثم تزوّجت برجل من حاشية خليل بك الأسعد، ولم تستمر معه لاختلاف الأمزجة. بعد ذلك سافرت إلى دمشق فتزّوجها أديب نظمي الكاتب الدّمشقي ثمّ طلّقها، وفي دمشق تعرّفت على ضابط في العسكر المصري فتزوّجت به وصحبها معه لمصر، وهناك ظهرت مواهبها، فكتبت رسائل فكتبت عدّة رسائل في صحف مصر الكبرى، ونالت شهرة في الكتابة والشعر والفن، وكتبت روايتين نالت بهما زيادة في الشهرة، وألّفت «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»، فنالت به شهرة واسعة.

وكان صوت زينب فواز، الأول في الدعوة إلى النهضة والتحرير، وذلك في مواضيع شتى والقضايا التي تطرقت إليها في الشرق عمومًا، فلم تترك سانحة من دون أن تسجل فيها موقفًا، وتركت أثرًا في الحركة الأدبيّة حتى أن البعض يرى أنّها صاحبة السبق في كتابة فن القصة قبل محمد حسين هيكل وروايته زينب، فهي رائدة كتابة فن القصة في المجتمع العربي.

من مؤلّفاتها: «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»، أرخت فيه ل456 امرأة من نساء الشرق والغرب/ «الرسائل الزينبية»، وفيها ناصرت قضايا المرأة وحقها في التعليم والعمل/ "مدراك الكمال في تراجم الرجال"/ "الجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد"/ ديوان شعر جمعت فيه منظومات لها/ الهوى والوفاء (مسرحية شعرية)/ حسن العواقب: وهي أول رواية عربية على ما يرى البعض ويعود تاريخها إلى العام 1899 / الملك قوروش.

القبيسي، علية:

علية موسى القبيسي، ولدت في قرية زبدين (جبل عامل - جنوبي لبنان)، وتوفيت فيها. قضت حياتها في لبنان. حفظت القرآن الكريم وختمته في السادسة من عمرها، ونالت قدرًا من التعليم من بعض معلمات قريتها، ثم التحقت بمدرسة حكومية للبنات في مدينة النبطية، واجتازت صفوفها الثلاثة، وبعد ذلك التحقت بمدرسة الكلية الإسلامية في بيروت، فدرست اللغتين العربية والفرنسية. اشتغلت بتدريس علوم اللغة والفقه في مدارس متعددة، منها مدرسة الزهراء بمدينة النبطية، وظلت تمارسها على مدار ثلاثة وعشرين عامًا، ثم تفرغت للحياة الأسرية، واتخذت من حرفة التطريز والخياطة رفيقًا لها.

جهودها ملموسة في خدمة وطنها؛ فعملت على تعليم وتربية الناشئة، وجعلت من نفسها نموذجًا للمرأة العصرية، واهتمت بتجديد الأدب العربي. لها قصائد وردت ضمن كتاب بعنوان: «كتاب الخواطر»، ولها قصائد متفرقة نشرت في مجلة العرفان.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الدواوين:

1- أبو خدود، بلقيس ، **دموع تغنّي**، بيروت، مطبعة النور، 1997.

2- الحرّ، زهرة، **قصائد منسية**، بيروت، دار غندور لطّباعة والنّشر، ط 1، 1970.

3- الحرّ، زهرة، **رياح الخريف**، بيروت، المجلس الثّقافي للبنان الجنوبي، ط1، 1992.

4- الحرّ، زهرة، **جلّ جلاله شعر والسيرة الذاتيّة**، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، لا ط، لا ت.

5- رضا، فاطمة، **مواويل طائر الخزامى**، بيروت، مطبعة ديموبرس، 1978.

6- فوّاز، زينب، **ديوان زينب فوّاز**، جمع وتحقيق حسن محمد صالح، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط 1، 2008.

7- فوّاز، زينب، **الرسائل الزينبية**، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

المعاجم والموسوعات:

1- ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، لا ط، 1،1992.

2- الزبيدي، المرتضى ، **تاج العروس**، بيروت، م 8.

3- عبد الرحمن، عفيف، **موسوعة الشعراء العرب «معجم ببليوغرافي يعرّف بالشعراء ومصادر دراستهم ومراجعها»**، طرابلس، لبنان، جروس بروس، بيروت دار صادر، ط 1، 2000.

4- عبد النّور، جبور، **المعجم الأدبيّ** ، بيروت، دار العلم للملايين، لا ط، لا ت.

5- مدكور، إبراهيم، **معجم العلوم الاجتماعيّة** ، لا م، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، لا ط، 1975.

6- مدكور، إبراهيم، **المعجم الفلسفي** ، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة، 1983.

الكتب:

1- أبو شقرا، عارف ، **الحركات في لبنان**، بيروت، مطبعة الاتحاد، 1952.

2- أل صفا، محمد جابر، **تاريخ جبل عامل**، بيروت، دار النهار للنشر، لا ط.

3- الأمين، محسن ، **خطط جبل عامل**، بيروت، مطبعة الإنصاف، ط1، ج 1.

4- ابن أبي طالب، عليّ، **نهج البلاغة**، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، بيروت، دار الأندلس، ط 2، 1963.

5- بلال، عبد الرزاق، **مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم**، أفريقيا الشرق 2000، الدار البيضاء، بيروت، 2000.

6- الحرّ، عبد المجيد ، **معالم الأدب العامليّ من بداية القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن الثاني الهجري/ العاشر الميلادي والثامن عشر الميلادي**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 1، 1982.

7- الدوسري، أحمد **اتجاهات الشّعر المعاصر في الجزيرة العربيّة**، القاهرة، هفن للتّرجمة والنّشر والبرمجيات، ط 1، 2009.

8- الزين، علي، **مع الأدب العامليّ دراسة ونقد وتحليل**، بيروت، مطبعة سيما، لا ت.

9- سمرين، رجا، **شعر المرأة العربية المعاصرة 1945 – 1970**، بيروت، دار الحداثة، ط 1، 1990.

10- عبدالله، محمد حسن، **الحبّ في التّراث العربيّ**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد 36، ديسمبر، لا ط، 1980.

11- عفيفي، محمد الصادق، النقد التطبيقيّ والموازنات، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1978.

12- العشماوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبيّ بين القديم والحديث، بيروت، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر 1984.

13- فرحات، درية كمال، التّمرّد في شعر الشّاعرات البحرينيّات، بيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط 1، 2014.

14- فوّاز، زينب، حسن العواقب، الهوى والوفاء، تحقيق وتقديم فوزية فوّاز، بيروت، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، 1984.

15- فوّاز، فوزية، وجوه ثقافيّة من الجنوب، تقديم بقلم حبيب صادق، بيروت، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، 1984.

16- مصطفى، قيصر، الشعر العامليّ في جنوب لبنان 1978-1900، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1981.

17- مفتاح، محمد، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990.

18- هلال، محمد غنيمي، الرومانتيكيّة، بيروت، دار العودة، لا ط.

19- هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، بيروت، دار عودة، ط 1، 1997.

المجلّات:

-1 الأوديسة: أبو خدود ، بلقيس **قصيدة أيرجع لي**، رقم 32، 1 ديسمبر 1984.

-2 الحياة: العيد، يمنى، **أدب نسائي في عالم عربي**، الأربعاء، 1 كانون الأول، 2004.

-3 العرفان: رضا، أحمد، **المتاولة والشيعة في جبل عامل**، مجلة العرفان المجلد الثاني ج2.

مجلة العرفان، مج 45، 1957.

مجلة العرفان، مج 38، سنة 1950.

مجلة العرفان، مجلد 1/ 206 – 1939.

مجلة العرفان، مج 25، 1934.

جمعية هيئة الخدمات الاجتماعيّة في النبطية :
تاريخ وواقع وحلم مستقبل



رئيس الجمعية الحاج حسيب عواضة

ارتبط العمل الاجتماعيّ الخدماتي بحاجات المجتمع ، وهذه الحاجات هي إنسانيّة الوجه والأهداف. أدّى العقل البشري الدور الأول، في التفكير لخلق وتنظيم مؤسسات تقود هذا العمل ليلبي حاجة المجتمعات .

النبطية حاضرة جبل عامل، ومركز تجاري مهم، وموقع يصل الساحل بالجبل. يمتد سلطانها الاقتصاديّ إلى منطقة العرقوب والبقاع، ووصل قديمًا إلى حوران في سوريا، وإلى فلسطين فالاردن ...

لا شك في أنّ نكبة فلسطين أثرت سلبًا على اقتصاد المدينة، فشرعت جمعية الكشاف العاملي لسد ثغرات موجودة، إذ استطاعت تأمين المساعدات للمحتاجين. لكن الوضع تفاقم صحيًّا واقتصاديًّا، فبدأ حينها التفكير المجدي لاخراج المدينة من هذا الكابوس المتمثل بالبؤس الطارىء، وأدّى المغتربون من أبناء المدينة دورًا مهمًا في بلسمة الجراح واعادة التوازن للوضع الاجتماعيّ .

في عام 1969 استطاعت النبطية وبمساعدة اهل الخير والتقى، أن تحصل على رخصة لجمعية تعنى بالشأن العام، فكانت جمعية هيئة الخدمات الاجتماعيّة التي بدأت عملها الانساني قبل هذا التاريخ تحت اسم جمعية البر والإحسان والتي قاد خطواتها، ودفع بها إلى البروز فضيلة الشيخ محمد تقي صادق امام بلدة النبطية، وأحد علماء جبل عامل البارزين.

بدأت هذه الجمعية التي اعتبرت أول نور خدماتي، بسد ثغرة في واقع اجتماعيّ واقتصاديّ صعب، وركزت أهدافها على:

- غرس التعاون الانساني والاجتماعيّ بين المواطنين، وخدمة الإنسان لأخيه الإنسان، بكل إخلاص وتجرّد من الذّاتية.
- حشد أكبر عدد ممكن من المتطوعين للاستفادة من طاقاتهم في سبيل الخدمة العامة في مجتمعهم.
- تنشيط السياحة في المنطقة.
- اعالة واغاثةالمحتاجين والمعوزين والبؤساء في جميع الحقول والميادين.
- الحد من أعمال التسول والتجرد عن طريق معالجة أوضاع هؤلاء من الناحية المادية والمعيشية والمعنوية.
- تأمين ما أمكن من خدمات صحيّة واجتماعيّة للمنطقة.
- خدمة ورعاية وتنظيم المآتم من شتى النواحي.
- خدمة المناسبات الدينية والوطنية.

وهكذا تمكنت الجمعية، وبمساعدة عدد من المتبرعين من أهالي مدينة النبطية من شراء أوّل سيارة إسعاف عام 1969، ووضعت للخدمة العامة في نقل المرضى إلى مستشفيات صيدا وبيروت، ووصل نشاطها إلى الأردن في نقل مرضى لإجراء عمليات قلب... وبعد فترة زمنية قصيرة اشترت الجمعية سيارة «فيات» مجهزة بمكبر للصوت، وعملت كإذاعة متنقلة تبثّ الأناشيد في المناسبات الدينية والوطنية.

تقع هذه الجمعية على تلّة مشرفة على قرى جبل عامل والعمل لايزال مستمرًا في تحقيق حلم البناء والعمل الانساني، وهي تركز أهدافها المستقبلية على ما يلي:

إنشاء مستشفى يشمل:

- مركزًا للطوارىء .
- مركزًا لحضانة الاطفال .
- مركزًا لذوي العاهات والمتخلفين عقليًا.
- مركزًا للصم والبكم.
- مركزًا لرعاية الأيتام والمشردين .
- مركزًا للعجزة.
- معهدًا للتمريض والرعاية الصحيّة والاجتماعيّة.
- مشغلًا حرفيًا وتقنيًا.
- قاعة كبرى للندوات والمحاضرات وورش العمل والمؤتمرات.
- صالة للاستراحة والانتظار.
- ادارة للمؤسسة.
- حدائق عامة وملاعب.

أشرف على هذه الجمعية مجموعة من العلماء والتجار والصناع ورجال القانون والاطباء

والمهندسين ومن كل الشرائح الاجتماعيّة، اتصفوا بالحكمة و الإيثار وحب الغير ...

ومن طموحات الجمعية التي تعمل على تحقيقها:

- إنشاء تعاونية استهلاكية.
- تأمين مركز لرعاية الطلاب ليلًا، وتعليم الكبار ومحو الأمية.
- تأمين مساكن شعبيّة لذوي الدخل المحدود.
- تأمين مستشفى نقال.
- وضع برنامج لمكافحة الآفات الاجتماعيّة.
- المساهمة والمشاركة في وضع برنامج للسير والنظافة.
- تنظيم مهرجان سنوي دائم يسمى عيد الانتاج.

هذه خطوات جمعية هيئة الخدمات الاجتماعيّ في مدينة النبطية، التي تركز على تنفيذ المهام التي وجدت من أجلها، والتي تساهم في الوصول إلى الهدف المنشود. هذه الجمعية التي كغيرها من الجمعيات الناشطة في جبل عامل مشت ضمن العواصف والاعاصير التي اجتاحت الوطن بوجه عام والجنوب بوجه خاص، فمشت على درب الخير والود والعشق لتقديم الخدمات والمساعدات الانسانية.

اخيرًا في أعمالنا احلام، ونبقى في قلب العاصفة صامدين مهما اشتدت رياح الظلم والاستبداد، وأعاصير التفقير، لن نقتلع من أرضنا، من مسقط رأسنا ومسقط رأس جدودنا، من بلد أحبنناه. كل ذلك بعون الله سبحانه وتعالى .

لكي يكون للمرأة دور بارز في مؤتمرنا، وفي عصرنا الحاضر تحول التقدم العلمي وأصبح للسيدات الدور كل الدور، لذا سيكون مسك ختام الجلسة السادسة مداخلة للناشطة الاجتماعيّة رئيسة روح العمل الاجتماعيّة الأستاذة غدير حوماني :

الدور التنموي الفاعل لجمعيات جبل عامل من خلال التشبيك.



الدور التنموي الفاعل لجمعيات جبل عامل من خلال التشبيك.

رئيسة جمعية روح العمل الاجتماعيّة :غدير حوماني

نحلة واحدة لا تجني العسل، فنحن جميعا نجذّف في القارب نفسه، رحم الله امرأ أخاه بنفسه، فالتناغم الظاهر للعلم لا يقوم إلا على اتحاد الاضداد، إن روح التعاون والمساعدة وجدت منذ وجود البشرية، فالإنسان اجتماعيّ بالفطرة، والعمل الاجتماعيّ كان يتم عبر التاريخ في أشكال مختلفة، فرديّة أو جماعيّة. إلا أن دور المنظمات غير الحكومية أخذ يتبلور مع بروز دور الحكومات وتحديد مهامها، وإن تعاظم دور هذه المنظمات وازدياد نشاطها وحضورها على الصعيد العالمي جعلها تنال اعتراف منظمة الامم المتحدة كشريك أساس وفعّال في تقرير مصير البشرية، ومستقبلها ، وفي الدفاع عن حقوق الإنسان وحمايته، حيث بات لهذه المنظمات دورٌ أساسيٌ هامٌ وداعمٌ للحكومات والأحزاب السياسيّة.

ويعود تاريخ المنظمات غير الحكومية إلى القرن التاسع عشر، حيث تأسست في العام 1832 الجمعية البريطانية لمحاربة العبودية. وجاءت هذه المبادرة نتيجة لانتشار الليبرالية وأفكارها. ولقد ترافق إنشاء هذه الجمعيات مع عمل الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية، خصوصًا في أفريقيا وآسيا في المجالين الصحيّ والتربوي، ولاتزال المؤسسات ذات الطابع الديني تحتل مركزًا مهمًا ضمن عمل الجمعيات.

وفي العام 1943 أنشأت المنظمات غير الحكومية في الولايات المتحدة الاميركية اتحادًا لهذه الهيئات، يدعى المجلس الأميركي للمؤسسات الأهلية للإغاثة ، ولقد قامت هذه الجمعيات في الأعوام الأولى بعد الحرب العالمية الثانية بنشاط كبير من أجل تأمين المساعدات للشعوب الاوروبية (توزيع أدوية، مواد غذائية، وألبسة....إلخ) بخاصة للاجئين والمهجرين. وتأسست في الفترة نفسها في المملكة المتحدة لجنة أوكسفورد لمكافحة المجاعة في العام 1942، من أجل مساعدة الشعب اليوناني الذي عانى من المجاعة خلال الاحتلال النازي، ولقد تحوّلت هذه

اللجنـة في مـا بعـد إلى إحـدى أهـم الجمعيـات البريطانيـة وهـي (أوكسـفام).

تأسـس بعـد ذلـك عـدد كبـير مـن الهيئـات غـير الحكوميـة الطوعيـة في أوروبـا وأمـيركا، خـلال الحربـين العالميتـين الأولى والثانيـة، ووجهـت نشـاطها نحـو دول العـالم الثالـث (إمـا بإيعـاز مـن دولهـا أو بشـكل مسـتقل عنهـا)، بحسـبان أن الـدول الصناعيـة كانـت تسـتعمر معظـم هـذه البلـدان قبـل أن تنـال اسـتقلالها.

وفي جبـل عامـل تأسسـت جمعيـات مهمـة، كان لهـا دور أسـاسي وفعـاّل في التنميّـة، وفي عملية التغيـير الاجتماعـيّ. وقـد تعـزّز هـذا الـدور المؤثـر والفاعـل بعـد تطـور مفهـوم التنميـة، إذ لم يعـد يقتـصر عـلى المـؤشرات التقنيـة كالدخل،والعمـر المتوقـع عنـد الـولادة، ومعـدلات الأميّـة ، بـل بـات يتعداهـا لتكـون أكثـر شـموليّة بأبعادهـا، وأهدافهـا، مـن خـلال إدخـال مـؤشرات إضافيـة منهـا الاقتصاديّـة والسياسـيّة والاجتماعيّـة والثقافيّـة والبيئيّـة... بـما في ذلـك نوعيـة الحيـاة.

وهنـا في هـذه المداخلـة، نتطـرّق إلى موضـوع التشـبيك بـين الجمعيـات والمنظـمات غـير الحكوميّـة، الـذي يعـدّ وسـيلة ناجحـة لتبـادل المعرفـة، والمعلومـات حـول الاحتياجـات، والحلـول، والخـبرات الفضـلى، والمنافـع، والمسـاهمة في نشرهـا وتداولهـا. فالتشـبيك اذًا وسـيلة لتقويـة الجمعيـات، مـن خـلال توحيـد الخطـاب، وزيـادة التأثـير في الضغـط والمفاوضـات. ويسـاهم في تعزيـز الأداء الديمقراطـي، وتفعيـل الـدور التنمـوي لمنظـمات المجتمـع المـدني، ويمنع إسـقاط أهـداف وبرامـج منزلـة عـلى مجتمعاتنـا، تتنـافى مـع ثقافتنـا ورؤيتنـا.

وللتشـبيك أهميـة بالغـة خاصـة بعـد أن تـم الاعـتراف بـدور منظـمات المجتمـع المـدني كشريـك حيـوي في عمليـة تنميـة المهـارات، وبنـاء القـدرات والتدريـب، وايجـاد فضـاءات تقوم على أسـاس تحالـف واع، وأهـداف واضحـة، ورؤيـة شـاملة للتنميـة، ودور محـوري للمنظـمات الأهليّة.

ويتحقّـق ذلـك مـن خـلال تحديـث طـرق وأدوات تبـادل المعلومـات والخـبرات، ومـن خلال الاجتماعـات، واللقـاءات الدوريّـة، التـي تنظمهـا الشـبكة في إطـار هيكليتهـا، وكذلـك مـن خـلال دعـم وتطويـر الأطـر التنسـيقيّة لبلـورة رؤيـة مشـتركة تشـكل الهـدف السـامي الـذي يلتقـي الأعضـاء لتحقيقـه.

كـما يـؤدي التشـبيك إلى تفعيـل «رسـالة» ، هـي بمثابـة أهـداف بعيـدة المـدى يتـم تحقيقهـا مـن خـلال تعـاون الجمعيـات المشـبكة، وعملهـا المشـترك في مهـل زمنيّـة محـددة.

فالشـبكات الناجحـة تمكـن منظـمات المجتمـع المدني مـن اسـماع صوتهـا في المنتديـات الإقليمية والدوليّـة، حيـث تصـاغ السياسـات التنمويـة العالميّـة، فيـأتي التشـبيك والتنسـيق ليفعّلهـا ويعطـي المنظـمات المنضويـة في الشـبكات القـدرة عـلى المبـادأة والمبـادرة والإبداع.

ناهيك عن الأفكار المغالطة لهذا المفهوم حيث تخشى بعض الجمعيات الذوبان بسبب إنضمامها إلى شبكات محليّة، اقليميّة او دولية، بل على العكس تماما، فقد تزداد تطورا وانفتاحا وازدهارا وتكاملا.

أيها الحضور الكريم

فلنرتق بجوهر ومعدن جمعيات جبل عامل تحت عنوان الوحدة والإئتلاف والتعاون : بهدف صياغة استرتيجيات، وخطط عمل، وتنفيذ برامج ، تستجيب للاحتياجات الملّحة للمجتمع، والتي تشكل اساسًا لمرجعياتها الجماهريّة. ولتكن غايتنا ارساء أسس الفهم المشترك للمقاربات التنموية، وتطوير الرؤية، وتبادل الخبرات والأهداف والمفاهيم، والحد من التنافس، كي يكون التشبيك حاجة للتخفيف من خطورة هذه التحديّات، ويقلص من الإزدواجيّة، ويساهم في استخدام الموارد البشرية والمادية على نحو كفوء، ويمكّن المجموعات المتعاونة من بلورة رؤاها المشتركة.

ختاما أقول:

فبفضلِ الله ثم التعاون نَهضت أمم

صروحًا من المجدِ فوقَ القمم

فلم يُبنَ مجدٌ على فرقةٍ

ولن يرتفع باختلافٍ علم

معا للمعالي يدًا باليدِ

نُشيدُ البناءَ بكلِ الهمم

فمبدأُ التعاونِ من ديننا

به الله في مُحكَماتٍ حكم

فمدّوا أيَادِيكُمُ إخوتي

نعيدُ بناءَ مجدِنا في شِمم

جلسة التوصيات



بعد عرض مجموعة من التوصيات التي تقدم بها المحاضرون والمشاركون ومناقشتها، تم الاتفاق على مجموعة منها صنفت كما يلي:

أ) **توصيات حفظ التّراث والثّقافة :**

- إقامة معارض للتّراث العامليّ في مناسبات مختلفة تتضمّن: أعمالاً فكريّة وأدبيّة وفنيّة – صوراً تاريخيّة للآثار مع بطاقات تعريفيّة – صوراً لشخصيات عامليّة مع بطاقات تعريف لها – معروضات للألبسة والعادات والتّقاليد في جبل عامل.
- الإعلان عن جائزة سنويّة باسم (جائزة جبل عامل للإبداع والابتكار العلميّ) ووضع ما يلزم من مصادر تمويل لها وشروط الحصول عليها.
- تشجيع طلاّب الدّراسات العليا في الجامعات على انجاز بحوث: اجتماعيّة – نفسيّة– أدبيّة (لاسيما الاديبات والشاعرات العامليات)– جغرافيّة – بيئيّة .. عن جبل عامل.
- تسمية مدارس أو مؤسسات أو مراكز باسم رائدات عامليات، تشجيعًا للمجتمع النّسوي على الإنتاج الثقافيّ والرّيادة.
- تنظيم زيارات الى الآثار في منطقة جبل عامل ، والوقوف عند واقعها والإضاءة الإعلامية عليها ومتابعة قضاياها. وادراج قلاع جبل عامل في الدليل السياحي

ب) **توصيات في المجال النفسيّ والتربويّ:**

- الدعوة الى إجراء الدراسات التي تعنى بالاضطرابات النفسية الناتجة عن الضغوطات و الصدمات .
- حث الجمعيات المختصة على إقامة دورات تدريبيّة للشّباب حول برامج الدّعم النّفسيّ والاجتماعي .
- تعزيز دور الإرشاد النفسيّ والاجتماعيّ في المؤسسات التربويّة.

- تعزيز النّشاطات الإبداعيّة في المؤسسات التربويّة.
- التواصل مع جمعيات واندية من خارج الجنوب وحثها على زيارة آثار جبل عامل وفق برامج منظمة .

ج) **توصيات في المجال الصحي والبيئي :**

- التوصية بتفعيل دور الرقابة الصحيّة على المستشفيات والقطاعات الصحيّة . والسعي لتحسين الوضع الصحي في قرى ومدن جبل عامل .
- تفعيل دور اللجنة المخصصة لمراقبة التلوث والمخالفات البيئية على الانهار ومصادر المياه ومتابعتها.
- الدعوة الى تفعيل القوانين والاجراءات المتعلّقة بمنع التّعديات على البيئة في جبل عامل .(على ان تأخذ البلديات دورها في ذلك).
- الحث على إقامة سدود مستحدثة صغيرة صديقة للبيئة في جبل عامل ، وبرك جبلية لحفظ المياه واستعمالها في الري ، وكذلك بناء محطات معالجة الصرف الصحي، وخصوصاً تلك التي على ضفاف الانهار .
- الدعوة الى منع تعديات الكسارات والمرامل على البيئة وخصوصًا على مصادر المياه، ومنع رمي زيبار الزيتون في الأنهار ومنابعها.

د) **توصيات تتعلق بالاغتراب:**

- تأمين التّواصل بين لبنان المقيم و لبنان المغترب ، من خلال اللقاءات الثقافية والاجتماعية والمساهمة في انشاء بيت المغترب اللبناني.

ه) **المجال الاقتصادي**

- تشجيع المستثمرين وأصحاب الأموال على إنشاء مؤسسات صناعيّة وإنتاجية وخصوصًا بما يتعلّق بالانتاج الزراعي (الحمضيات – الزيتون – التبغ و) وتسهيل عمل المزارعين عن طريق حث الدولة على مساعدتهم ودعمهم .
- العمل على تطوير المرافئ البحرية وتفعيلها .

و) **توصيات عامة :**

- اقامة ندوة نقاش وتوقيع كتاب المؤتمر وحشد الوسائل الإعلاميّة .
- توصية الزملاء والباحثين العاملين الذين يشاركون في مؤتمرات خارجية ان يحملوا نسخاً من الكتاب للتعريف بجبل عامل وتراثه .



المشاركون قي جلسة التوصيات

اللجنة العلمية التي حكمت الابحاث

د. كاظم نور الدين / علوم اجتماعية

د حسين ظاهر / علوم سياسية

د. درية فرحات / أدب عربي

د. عماد سيف الدين / فلسفة

د. محسن جواد / تربية

د. علي شعيب / أدب عربي

الفهرس